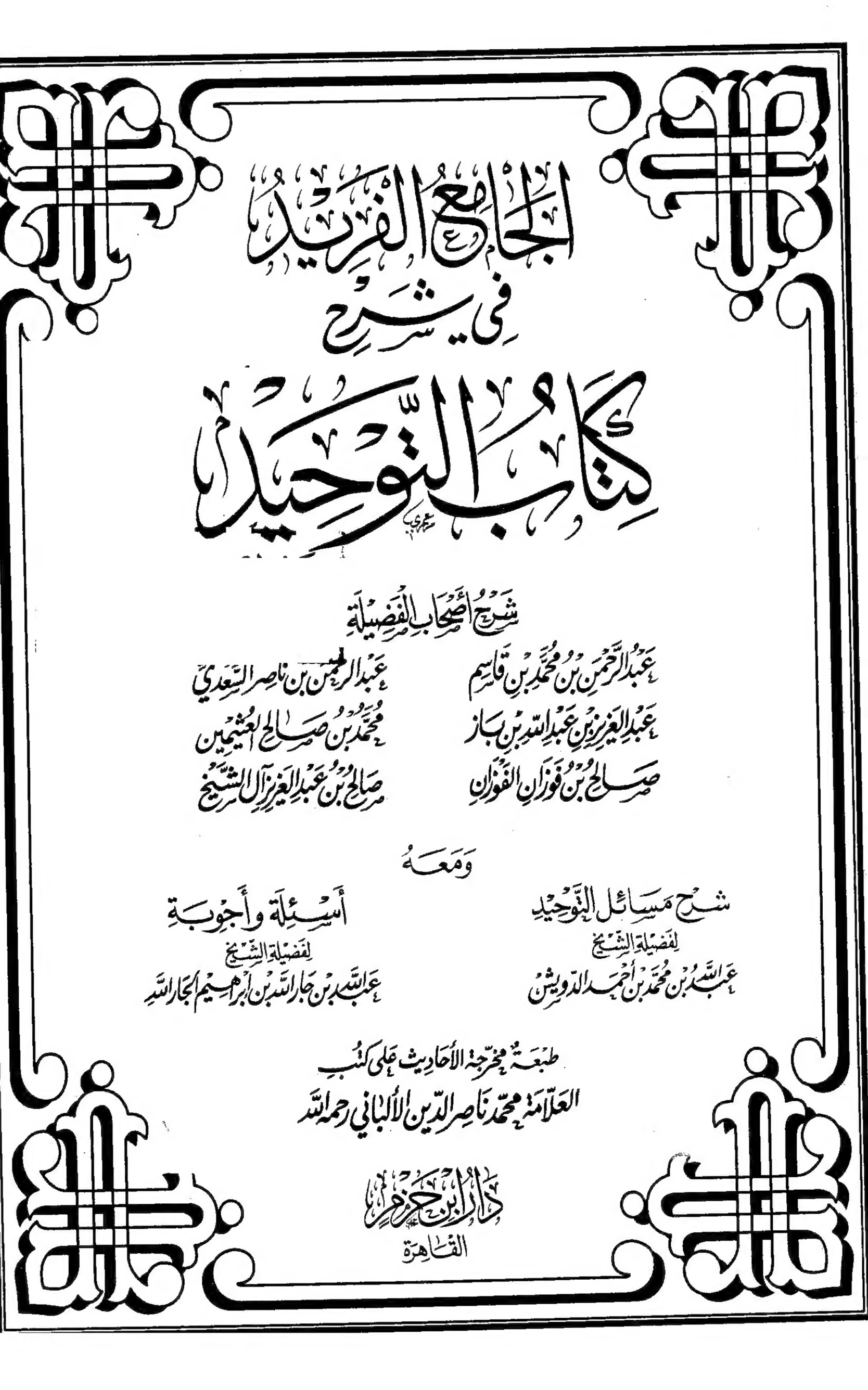


الجامع الفريد
في شرح
كتاب التوحيد

شرح أصحاب الفضيلة

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم — عبد الرحمن بن ناصر السعدي

عبد العزيز بن عبد الله بن باز — محمد بن صالح العثيمين

صالح بن فوزان الفوزان — صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

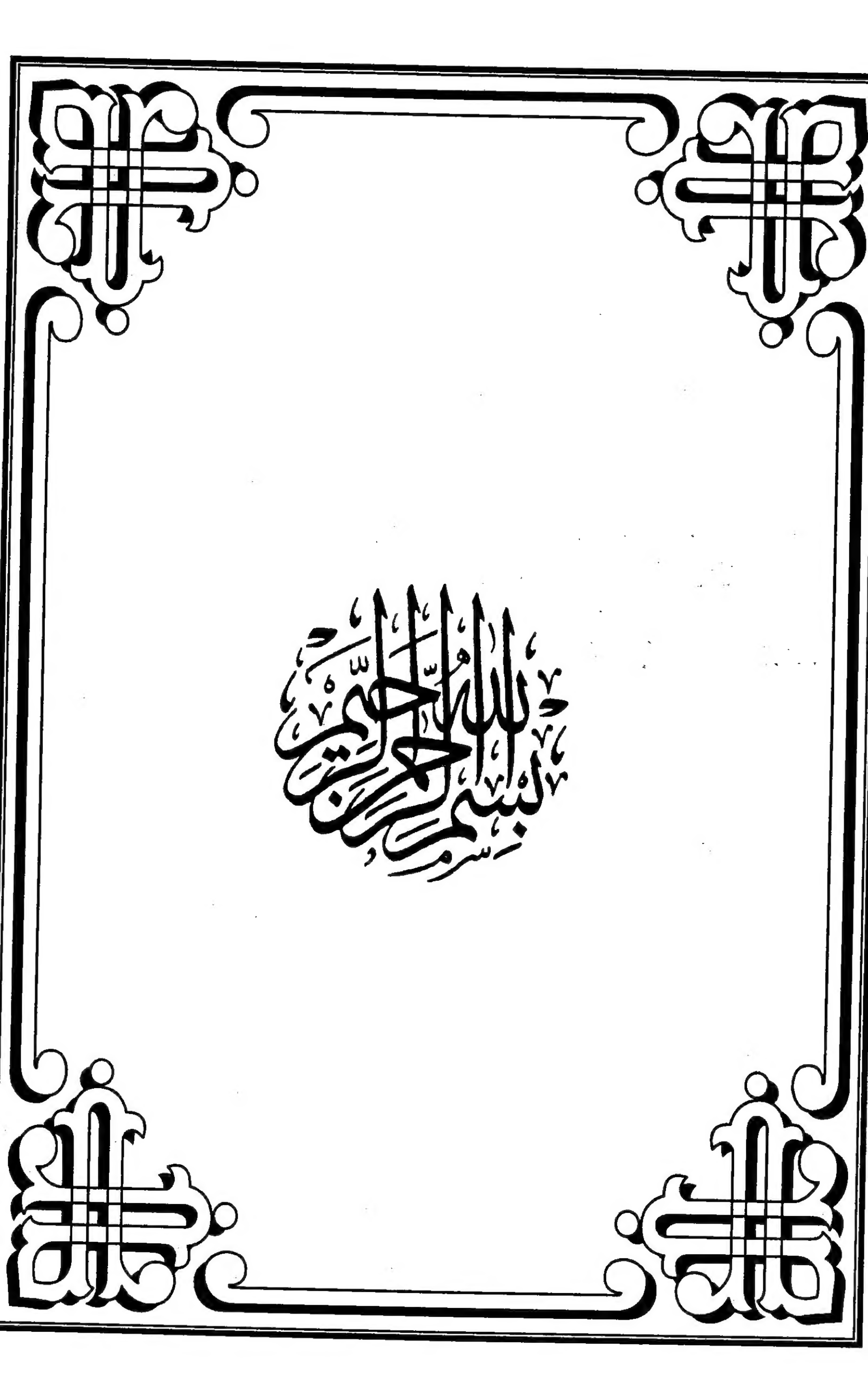
ومعه

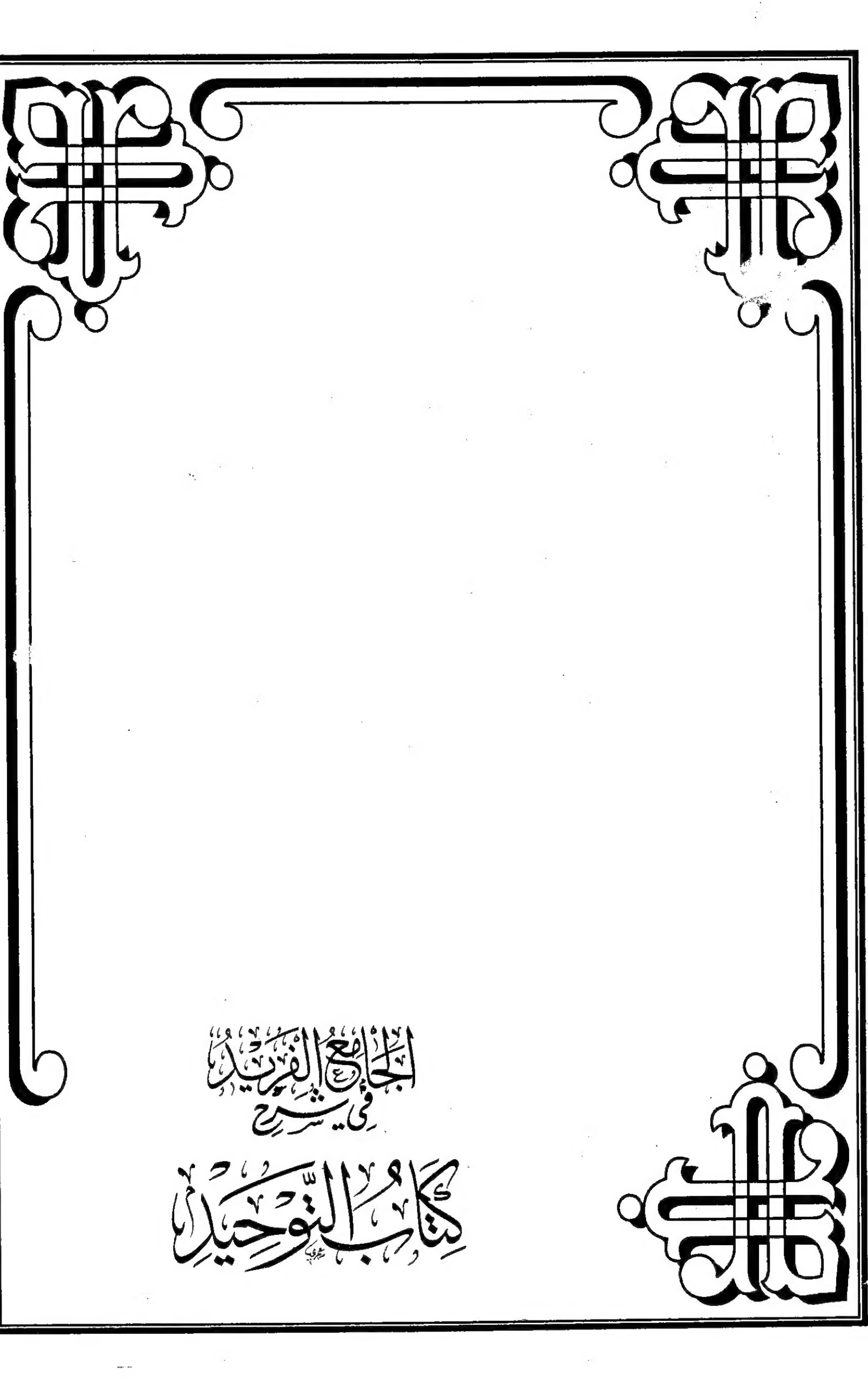
شرح مسائل التوحيد
لفضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش

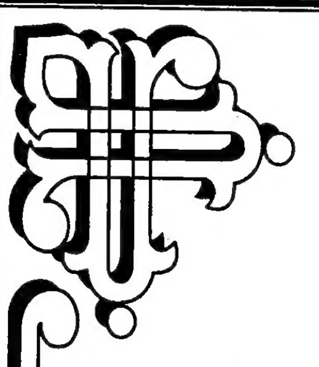
أسئلة وأجوبة
لفضيلة الشيخ
عبد الله بن جار الله بن إبراهيم الجار الله

طبعة مخرجة الأحاديث على كتب
العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله

دار ابن حزم
القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم


الجامع الفريد
في شرح
كتاب التوحيد

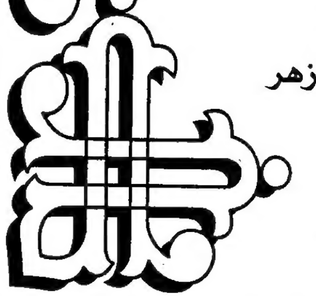




الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

رقم الإيداع: ١٤٣٧١/ ٢٠٠٨



جمهورية مصر العربية
٢٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
القاهرة

تليفون: ٠٠٢٠٢٢٥١٤٣١٤١
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥١١١٧٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالىٰ من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمدﷺ، وإن شر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وبعد:

إن أول ما يجب على المسلم الاعتناء به هو العقيدة وتصحيحها وتخليصها لله عز وجل من شوائب الشرك والخرافات، والبدع والضلالات في زمن انتشرت فيه البدع وعلا صوت أبواقها، ولكن يأبىٰ الله إلا أن يتم نوره، ويظهر دينه، ويعز جنده؛ فيخرج علينا بين الحين والأخر رجالٌ استعملهم الله لدينه فسخروا أنفسهم لنصرة كلمة الحق وإعلاء رايته، فأثْروا المكتبة الإسلامية بما كتبوه في العقيدة من كتب مطولات رُدَّ فيها علىٰ أهل البدع والضلالات، وأُخر مختصرات كي يسهل علىٰ الجميع -طلبة علم وغيرهم- حفظها، أو علىٰ الأقل فهمها واستيعابها.

وكان من بين هؤلاء العلماء الأجلاء: الإمام العلامة المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، والذي كان -بحقٍّ- سيفًا مسلولًا علىٰ الباطل وأهله.

فكان من بين مؤلفاته رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المؤلف الذي بين أيدينا «كتاب التوحيد» والذي بيَّن فيه بأسلوبٍ واضح معنىٰ كلمة التوحيد وأهميتها وما يقع فيه العامة من أمور شركية تناقض مفهوم «لا إله إلا الله» مدعمًا ما ذكر بالأدلة من الكتاب والسنة.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يشرح هذا الكتاب لطلابه، وسار العلماءُ من بعده علىٰ منواله؛ لجليل قدره وعظيم نفعه.

وسيرًا علىٰ هذا المنوال نضع بين يديك أيها القارئ الكريم مجموعة شروحٍ لهذا المؤلف النافع لجماعة من أهل العلم ممن شهد القاصي والداني بعلمهم واعترف بفضلهم.

عملنا في الكتاب:

١- عمل ترجمة مختصرة للماتن والشراح.

٢- عزو الآيات القرآنية إلىٰ مواضعها في المصحف بذكر اسم السورة ورقم الآية.

٣- تخريج الأحاديث النبوية مع بيان الحكم عليها بالصحة أو الضعف.

٤- إخراج شروح العلماء علىٰ طريقة الدروس، ثم نفصل بين الشرح والمتن بكلمة «الشرح»، ثم نضع شرح العلماء مبتدئين بـ«**قال العلامة** ...» في بداية شرحه؛ كي يسهل علىٰ طالب العلم تناولها.

٥- رأينا إتمامًا للفائدة إضافة شرح مسائل كتاب التوحيد للشيخ العلامة عبد الله الدويش رَحِمَهُ اللَّهُ؛ إذ أنَّ كثيرًا من العلماء الذين قاموا بشرح هذا السِفْر النافع ووضعوا عليه حواشي وتعليقات لم يتعرضوا لشرح مسائله إلا نادرًا.

٦- إرداف كل درس بأسئلة وأجوبة للشيخ العلامة عبد الله بن جار الله.

٧- إثبات فروق النسخ المعتمدة بين يدي شارحيها.

٨- بيان بالنسخ المعتمدة في العمل:

أ- العلامة ابن قاسم: حاشية كتاب التوحيد/ الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ بدون.

ب- العلامة ابن سعدي: القول السديد شرح كتاب التوحيد/ دار القبس للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ.

جـ- العلامة ابن باز: شرح كتاب التوحيد- تحقيق: محمد العلاوي/ مكتبة ابن عباس، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥هـ.

د- العلامة ابن عثيمين: القول المفيد على كتاب التوحيد/ دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.

هـ- العلامة ابن فوزان: الملخص في شرح كتاب التوحيد/ دار العاصمة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

و- العلامة صالح آل الشيخ: التمهيد لشرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد/ دار التوحيد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

ز- العلامة الدويش: التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد، بدون.

ط- العلامة عبد الله بن جار الله: الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد/ مكتبة ابن تيمية، بدون.

تراجم العلماء

ترجمة الإمام محمد بن عبد الوهاب:
هوشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد من بني تميم.

ولد في بلدة العيينة سنة١١١٥هـ، حفظ القرآن قبل بلوغ عشر سنين، وهبه الله عز وجلّ فهمًا ثاقبًا وذكاءً مفرطًا؛ فأقبل على المطالعة والبحث والتأليف. وفي سنة١١٥٣هـ أخذ يدعو بالدعوة السلفية إلى توحيد الله وإنكار المنكر ومهاجمة المبتدعة أهل الأوثان.

من مؤلفاته:

كتاب التوحيد، كتاب كشف الشبهات، كتاب الكبائر. وغيرها.

وفاته: توفي رَحِمَهُ اللَّهُ عام١٢٠٦هـ فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

تراجم الشراح:

١- ترجمة العلامة ابن قاسم:
هو عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني نسبًا، فقيه حنبلي من أعيان نجد.

ولد بقرية (البير) من قرى (المحمل) قرب الرياض عام ١٣١٢هـ، وأولع في أوليته بالتاريخ والأنساب والجغرافيا، ووقعت له قضية بسبب التاريخ فأحرق كثيرًا من أوراقه.

ومن مؤلفاته:

- السيف المسلول على عابد الرسول، وجمع فتاوى ابن تيمية، وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٣٩٢هـ.

٢- ترجمة العلامة السعدي:
هو العالم الجليل والداعية الشهير عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي.

ولد بالعنيزة في المحرم من عام ١٣٠٧هـ، نشأ رحمه الله يتيم الأبوين وتعهده أخوه بالعناية والرعاية فنشأ نشأة صالحة كريمة، وكان شديد الاجتهاد في أبواب الخير والعلم والدعوة.

ومن مؤلفاته:

تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، توضيح الكافية الشافية شرح نونية ابن القيم، الفتاوى السعدية، وغير ذلك من المؤلفات التي تجاوزت الثلاثين مؤلفًا.

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر جمادىٰ الآخرة من عام ١٣٧٦هـ، فرحمه الله رحمة واسعة.

٣- ترجمة العلامة ابن باز:

هو العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز.

ولد بمدينة الرياض عام ١٣٣٠هـ، فحفظ القرآن الكريم دون البلوغ، وبدأ في تلقي العلوم الشرعية، وفي العشرين من عمره عام ١٣٥٠هـ كُفَّ بصره، ولكن لم يثنه ذلك عن طلب العلم، وقد تولىٰ الشيخ عددًا من المناصب، حتىٰ عُين رئيسًا عامًّا لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

من مؤلفاته:

شرح كتاب التوحيد، التحذير من البدع، العقيدة الصحيحة وما يضادها، وغيرها.

وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ صباح الخميس الموافق ٢٧ محرم ١٤٢٠هـ. نسأل الله أن يدخله فسيح جناته، وأن يرفع درجاته في العليين. آمين.

٤- ترجمة العلامة ابن عثيمين:

هو العلامة المحقق، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن آل عثيمين، من الوهبة من بني تميم.

مولده: ولد في ليلة السابع والعشرين في شهر رمضان عام ١٣٤٧هـ في عنيزة -إحدىٰ مدن القصيم- في المملكة العربية السعودية.

أقبل علىٰ طلب العلم الشرعي، فهُرِع إلىٰ العلماء ينهل من معينهم، ويقطف من أزهار بساتين علومهم.

وكانت للشيخ رحمه الله تعالىٰ جهودًا عظيمة في نشر العلم النافع؛ فصدرت له الكثير من الكتب، والرسائل، والمحاضرات، إلىٰ جانب آلاف الساعات الصوتية التي سجلت خطبه ومحاضرته ودروسه رحمه الله تعالىٰ.

وفاته: توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال عام ١٤٢١هـ، فرحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة، وأجزل له الثواب لقاء ما قدم للأمة ونفعها به.

٥- ترجمة العلامة الفوزان:

هو فضيلة الشيخ الدكتور: صالح بن فوزان بن عبد الله، ولد عام ١٣٥٤هـ، تعلم القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم تدرج في مراحل التعليم المختلفة حتىٰ نال درجة

الدكتوراه من كلية الشريعة بالرياض في تخصص الفقه، ثم تدرج في المناصب العلمية حتىٰ أصبح عضوًا في اللجنة الدائمة للإفتاء والبحوث العلمية، ولا يزال علىٰ رأس العمل.

من مؤلفاته:

أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية، وهو رسالته في الدكتوراه، الإرشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد، شرح العقيدة الواسطية.

٦- ترجمة العلامة صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ:

هو صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ولد في مدينة الرياض سنة ١٣٧٨ هـ ، ١٩٥٩ م، نبغ في العلوم الشرعية منذ صغره، والتزم الأخذ من أكابر العلماء، مع اهتمامه بالبحث والاطلاع والتأليف.

من مؤلفاته:

التكميل لما فات تخريجه من إرواء الغليل، موسوعة الكتب الستة، التمهيد في شرح كتاب التوحيد. فنفع الله به وأمتع بحياته.

٧- ترجمة العلامة عبد الله بن محمد الدويش:

هو عبد الله بن محمد بن أحمد الدويش ولد في عام ١٣٧٣هـ في مدينة الزلفي، نشأ نشأة صالحة، وبدأ بطلب العلم وهو صغير، وكان سريع الحفظ والفهم.

من مؤلفاته:

التعليق علىٰ فتح الباري، مختصر بدع الفوائد، الزوائد علىٰ مسائل الجاهلية.

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في مساء يوم السبت الموافق٢٨شوال عام ١٤٠٩هـ، إثر مرض لازمه خمسة عشر يوماً، وكان عمره لا يتجاوز السابعة والثلاثين عاماً، فرحم الله الشيخ رحمة واسعة.

٨- ترجمة العلامة عبد الله بن جار الله:

هو عبد الله بن جار الله بن إبراهيم آل جار الله، ولد عام ١٣٥٤هـ، ونشأ نشأة صالحة طيبة، درس منذ صغره في الكتاتيب، وحفظ القرآن علىٰ يد والده، وترقىٰ في مراحل التعليم حتىٰ حصل علىٰ درجة الماجستير في الفقه المقارن عام ١٣٩٩هـ.

من مؤلفاته:

الهداية لأسباب السعادة، إتحاف الخلق بمعرفة الخالق، الاستقامة.

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في مكة المكرمة في الرابع والعشرين من شهر رمضان عام ١٤١٤هـ.

هذا وقد بلغنا جهدنا في تصحيح نص الكتاب وضبطه، ونسأل الله أن ينفع به الطلاب، وأن يجازينا به الأجر والثواب، وأن يغفر لمن قام بجمعه، ولمن عمل علىٰ ضبطه وإخراجه، ولمن قرأه. ونسأله أن يتقبل هذا العمل ويعفو عما فيه من تقصير وزلل.

مقدمات أصحاب الفضيلة العلماء



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة ابن قاسم

الحمد لله رب العالمين، قيوم السماوات والأرضين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوث بتوحيد رب العالمين، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، وسلم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فإن «كتاب التوحيد» الذي ألفه شيخ الإسلام: الشيخ محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجرَ والثوابَ، ليس له نظير في الوجود، قد وضح فيه التوحيد الذي أوجبه الله علىٰ عباده وخلقهم لأجله، ولأجله أرسل رسلَه، وأنزل كتبَه، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر والبدع، وما يقرب من ذلك أو يوصل إليه؛ فصار بديعًا في معناه لم يسبق إليه، علمًا للموحدين وحجةً علىٰ الملحدين، واشتهر أيُّ اشتهارٍ، وعكف عليه الطلبة، وصار الغالب يحفظه عن ظهر قلب، وعمَّ النفع به، وتصدىٰ لشرحه والتعليق عليه جماعة من الجهابذة النبلاء، وأول من تصدىٰ لشرحه وأجاد حفيده الشيخ سليمان بن الشيخ عبد الله، ثم هذبه وكمله حفيده -أيضًا- الشيخ عبد الرحمن بن حسن، وأبرزا فيهما من البيان ما ينبغي أن يرجع إليه، وعلق عليه -أيضًا- الشيخ عبد الرحمن حاشية مفيدة، وعلق عليه تلميذه الشيخ حمد ابن عتيق، وتلميذه الشيخ عبد الله أبا بطين وغيرهم، ولشدة الاعتناء بهذا السفر الجليل تطفلتُ عليه بوضع حاشية مختصرة منتخبة مما أبرزوه وغيره؛ تسهيلًا للطالب، متوخِّيًا فيها ما يلقيه أشياخنا: الشيخ عبد الله بن الشيخ عبد اللطيف، والشيخ سعد بن الشيخ حمد بن عتيق، والشيخ محمد بن الشيخ إبراهيم بن عبد اللطيف وغيرهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة السعدي

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد سبق أن كتبنا تعليقًا لطيفًا في موضوعات كتاب «التوحيد» لشيخ الإسلام: محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه، فحصل فيه نفع ومعونة للمشتغلين، ومساعدة للمعلمين، لما فيه من التفصيلات النافعة مع الوضوح التام. وطبع بمطبعة الإمام ثم نفدت نُسَخُه مع كثرة الطلب عليه. ودعت الحاجة الشديدة إلىٰ إعادة طبعه ونشره، وفي هذه المرة بدا لي أن أقدم أمام ذلك مقدمة مختصرة، تحتوي علىٰ مجملات عقائد أهل السنة في الأصول وتوابعها، فأقول مستعينًا بالله.

وذلك أنهم يؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ فيشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود، المتفرد بكل كمال؛ فيعبدونه وحده؛ مخلصين له الدين؛ فيقولون: إن الله هو الخالق البارئ المصور الرازق المعطي المانع المدبر لجميع الأمور.

وإنه المألوه المعبود، الموحد المقصود، وإنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء.

وإنه العلي الأعلىٰ بكل معنىٰ واعتبار: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وأنه علىٰ العرش استوىٰ، استواءً يليق بعظمته وجلاله، ومع علوه المطلق وفوقيته؛ فعلمه محيط بالظواهر والبواطن، والعالم العلوي والسفلي. وهو مع العباد بعلمه، يعلم جميع أحوالهم، وهو القريب المجيب، وإنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، والكل إليه مفتقرون في إيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه في جميع الأوقات، ولا غنىٰ لأحد عنه طرفة عين، وهو الرءوف الرحيم، الذي ما بالعباد من نعمة دينية ولا دنيوية ولا دفع نقمة إلا من الله، فهو الجالب للنعم، الدافع للنقم.

ومن رحمته أنه ينزل كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا، يستعرض حاجات العباد حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر؛ فيقول: لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، حتىٰ يطلع الفجر. فهو ينزل كما يشاء، ويفعل كما يريد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ويعتقدون أنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة في شرعه وفي قدره، فما خلق شيئًا عبثًا، ولا شرع الشرائع إلا للمصالح والحكم.

وأنه التواب العفو الغفور، يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات ويغفر الذنوب العظيمة للتائبين والمستغفرين والمنيبين، وهو الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويزيد الشاكرين من فضله.

ويصفونه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسول الله ﷺ من الصفات الذاتية؛ كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة، والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق.

ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته؛ كالرحمة، والرضا، والسخط، والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء، كيف يشاء، وكلماته لا تنفد، ولا تبيد.

وإن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وأنه لم يزل ولا يزال موصوفًا بأنه يفعل ما يريد، ويتكلم بما يشاء، ويحكم علىٰ عباده بأحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية، فهو الحاكم المالك، ومن سواه مملوك محكوم عليه، فلا خروج للعباد عن ملكه ولا عن حكمه.

ويؤمنون بما جاء به الكتاب، وتواترت به السنة: أن المؤمنين يرون ربهم تعالىٰ عيانًا جهرة، وأن نعيم رؤيته والفوز برضوانه أكبر النعيم واللذة.

وأن من مات علىٰ غير الإيمان والتوحيد فهو مخلَّد في نار جهنم أبدًا، وأن أرباب الكبائر إذا ماتوا علىٰ غير توبة ولا حصل لهم مُكفِّر لذنوبهم ولا شفاعة، فإنهم وإن دخلوا النار لا يخلدون فيها، ولا يبقىٰ في النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان إلا خرج منها، وأن الإيمان يشمل عقائد القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، فمن قام بها علىٰ الوجه الأكمل فهو المؤمن حقًّا، الذي استحق الثواب وسلم من العقاب، ومن انتقص منها شيئًا نقص من إيمانه بقدر ذلك؛ ولذلك كان الإيمان يزيد بالطاعة وفعل الخير، وينقص بالمعصية والشر .

ومن أصولهم السعي والجد فيما ينفع من أمور الدين والدنيا مع الاستعانة بالله، فهم حريصون على ما ينفعهم ويستعينون بالله.

وكذلك يحققون الإخلاص لله في جميع حركاتهم، ويتبعون رسول الله في الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، والنصيحة للمؤمنين أتباع طريقهم .

ويشهدون أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله، وأنه أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وهو خاتم النبيين، أرسل إلىٰ الإنس والجن بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا، أرسله بصلاح الدين وصلاح الدنيا، وليقوم الخلق بعبادة الله، ويستعينوا برزقه علىٰ ذلك.

ويعلمون أنه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم، وأعظمهم بيانًا، فيعظمونه ويحبونه، ويقدمون محبته علىٰ محبة الخلق كلهم، ويتبعونه في أصول دينهم وفروعه، ويقدمون قوله وهديه علىٰ قول كل أحد وهديه، ويعتقدون أن الله جمع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحد، فهو أعلىٰ الخلق مقامًا، وأعظمهم جاهًا، وأكملهم في كل فضيلة ؛ لم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهم منه.

وكذلك يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، لا يفرقون بين أحد من رسله.

ويؤمنون بالقدر كله، وأن جميع أعمال العباد -خيرها وشرها- قد أحاط بها علم الله، وجرىٰ بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، وتعلقت بها حكمته، حيث خلق للعباد قدرةً وإرادةً، تقع بها أقوالهم وأفعالهم بحسب مشيئتهم، لم يجبرهم علىٰ شيء منها، بل مختارين لها، وخص المؤمنين بأن حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان بعدله وحكمه.

ومن أصول أهل السنة أنهم يدينون بالنصيحة لله ولكتابه ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر علىٰ ما توجبه الشريعة، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلىٰ الجيران والمماليك والمعاملين، ومن له حق، وبالإحسان إلىٰ الخلق أجمعين، ويدعون إلىٰ مكارم الأخلاق ومحاسنها، وينهون عن مساوئ الأخلاق وأرذلها.

ويعتقدون أن أكمل المؤمنين إيمانًا ويقينًا، أحسنهم أعمالًا وأخلاقًا، وأصدقهم أقوالًا، وأهداهم إلىٰ كل خير وفضيلة، وأبعدهم من كل رذيلة.

ويأمرون بالقيام بشرائع الدين، علىٰ ما جاء عن نبيهم فيها وفي صفاتها ومكملاتها، والتحذير عن مفسداتها ومنقصاتها.

ويرون الجهاد في سبيل الله ماضيًا مع البر والفاجر، وأنه ذروة سنام الدين، جهاد العلم والحجة، وجهاد السلاح، وأنه فرضٌ علىٰ كل مسلم أن يدافع عن الدين بكل ممكن ومستطاع .

ومن أصولهم: الحث علىٰ جمع كلمة المسلمين، والسعي في تقريب قلوبهم وتأليفها، والتحذير من التفرق والتعادي والتباغض، والعمل بكل وسيلة توصل إلىٰ هذا .

ومن أصولهم: النهي عن أذية الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم، والأمر بالعدل والإنصاف في جميع المعاملات، والندب إلىٰ الإحسان والفضل فيها.

ويؤمنون بأن أفضل الأمم أمة محمدﷺ وأفضلهم أصحاب رسول اللهﷺ، خصوصًا الخلفاء الراشدون، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وأهل بدر، وبيعة الرضوان والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فيحبون الصحابة ويدينون لله بذلك، وينشرون محاسنهم، ويسكتون عما قيل عن مساوئهم، ويدينون الله باحترام العلماء الهداة وأئمة العدل ومن لهم المقامات العالية في الدين والفضل المتنوع علىٰ المسلمين، ويسألون الله أن يعيذهم من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وأن يثبتهم علىٰ دين نبيهم إلىٰ المات.

هذه الأصول الكلية بها يؤمنون ولها يعتقدون وإليها يدعون.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة ابن عثيمين

الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فقد سبق لنا -ولله الحمد والمنة- أن قمنا بشرح كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب على الطلبة أثناء جلساتنا في الجامع الكبير بعنيزة، وقام بعض الطلبة بتسجيل ما تكلمنا به.

وقد بادر الأخوان الكريمان: الدكتور سليمان العبد الله أبا الخيل، والدكتور: خالد العلي المشيقح بتفريغ المسجل كتابة، وقاما بطبعه وسمياه: «القول المفيد على كتاب التوحيد».

فأسأل الله تعالى أن يجزل لهما المثوبة وينفع بذلك.

ومن المعلوم أن ما نقل تسجيلًا من الشرح على الطلاب لا يساوي ما كتب تحريرًا، بل سيكون فيه نقص أو زيادة أو تقديم أو تأخير أو تكرار أو نحو ذلك من الخلل.

ولما ظهرت طبعته الأولى وجد فيها شيء من ذلك فحرر ونقح ثم أعيد طبعه مرة ثانية فاحتاج إلى إعادة النظر؛ لخلل يسير غالبه في الطباعة.

وها هو يعاد للمرة الثالثة وقد رأيت أن يحذف من الكتاب جميع الحواشي ما عدا عزو الآيات والأحاديث، أسأل الله تعالى أن يكون خالصًا لوجهه موافقًا لمرضاته نافعًا لعباده إنه جوَّاد كريم.

وهذا أوان الشروع في المقصود مستعينين بالله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة الفوزان

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد:

فهذا شرح موجز على كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله كتبته على الطريقة المدرسية الحديثة؛ ليكون أقرب إلى أفهام المبتدئين. وأرجو الله أن ينفع به، ويكون إسهامًا في نشر العلم وتصحيح العقيدة، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ وآله وصحبه.

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة صالح آل الشيخ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه:

هذا شرح لكتاب التوحيد، شرحته في مجالس متصلة في مسجد شيخ الإسلام ابن تيمية بحي سلطانة في مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، وقد فرغ من الأشرطة المسجلة وأصلحت بعض الألفاظ بما يناسب المكتوب، فلم أقصد إلى تأليف شرح، ولذلك فإني أرغب من المحققين في مقاصد التأليف أن يغضوا الطرف عما قد يرد في الشرح من عدم استيعاب أو علو عبارة، والله أسأل أن يجزي مؤلف الأصل الجدّ الإمام محمد بن عبد الوهاب خير الجزاء عن أهل السنة لقاء ما قرّب لهم من علوم الكتاب والسنة، وصلى الله على نبينا محمد وسلم تسليمًا.

صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة عبد الله الدويش

الحمد لله الذي جل عن الأنداد، وتنزه عن الصاحبة والأولاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القاهر فوق العباد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه الهادي إلىٰ سبيل الرشاد صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن كتاب التوحيد الذي ألفه الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب، قد جاء بديعًا في معناه من بيان التوحيد، وما ينافيه من الشرك والتنديد، وقد شرحه بعض أحفاده وغيرهم -رحمهم الله- ووضعوا عليه حواشي إلا أنهم لم يتعرضوا لشرح مسائله إلا نادرًا، ثم جاء بعدهم الشيخ سليمان بن حمدان -رحمه الله- فتعرض لها في كتابه «**الدر النضير**»، فجعل كل مسألة في الموضع اللائق بها من الآيات والأحاديث، فحصل بذلك فوائد كثيرة، إلا أنه لم يشرح المسائل ؛ فرأيت من تمام الفائدة أن أشرح كل مسألة بكلام موجز مفيد لعل الله أن يحشرنا في زمرة الداعين إليه علىٰ بصيرة إنه جواد كريم وسميته «**التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد**»، وإذا قلت ذكره في الشرح فمرادي بذلك: «**شرح كتاب التوحيد فتح المجيد**»، وأسأل الله الوهاب أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، موجبًا للزلفىٰ لديه في جنات النعيم وصلىٰ الله علىٰ محمد النبي الصادق الأمين وعلىٰ آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة العلامة ابن جار الله

الحمد لله الذي خلقنا لعبادته وأمرنا وطاعته وأنزل بذلك كتبه وأرسل به رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس علىٰ الله حجةً بعد الرسل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين وقيوم السماوات والأراضين، الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه الذي أرسله الله رحمة للعالمين، أرسله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ولو كره المشركون، أرسله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسرجًا منيرًا فبلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده حتىٰ دخل الناس في دين الله أفواجا، وحتىٰ أتاه اليقين من ربه وقد ترك أمته علىٰ المحجة البيضاء ليليها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك. صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آله وأصحابه و أتباعه إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فإن كتاب التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العبيد الذي ألفه الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي المولود عام ١١١٥هـ والمتوفىٰ عام ١٢٠٦هـ رحمه الله تعالىٰ، ألفه لما رأىٰ حاجة الناس وما هم عليه من الشرك وعبادة غير الله ودعوة غيره والذبح لغيره وصرف أنواع العبادة لغير الله فرأىٰ من واجبه الدعوة إلىٰ الله والجهاد في سبيله فجاهد في الله حق جهاده وألف عدة مؤلفات قيمة ومن أهمها هذا الكتاب القيم الذي هو من أهم الكتب المصنفة في التوحيد وهو مستفاد من كتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ فأقام الله هذا الإمام في أهل نجد مقام نبي وأيده بالأمراء العادلين والأئمة المهديين من آل سعود وعلىٰ رأسهم الإمام محمد بن سعود رحمه الله فصار يجاهد ويناضل ويدعو إلىٰ الله ليلًا ونهارًا سرًا وجهارًا فهدىٰ الله -وله الحمد والشكر والثناء- أهل نجد وغيرهم علىٰ يديه وأخرجهم الله به من ظلمات الشرك والكفر والجهل إلىٰ نور التوحيد والإيمان والعلم فنال بذلك مثل ثواب هذه الأمة إلىٰ قيام الساعة كما قال ﷺ **«من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئًا»** [1]. رواه مسلم وغيره.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلىٰ هدىٰ أو ضلالة، برقم (٢٦٧٤)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وسار على نهج الإمامين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود أولادهما وأحفادهما وتلاميذهما إلى يومنا هذا فلله الحمد والشكر والثناء ونسأله تعالى أن يديم على هذه الدولة نعمة الإسلام والصحة في الإبدان والأمن والاستقرار في الأوطان وتحكيم شريعة الله التي هي أساس عزها ونصرها إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وبعد فلقد منَّ الله عليَّ بدراسة كتاب «التوحيد» الآنف الذكر حينما كنت طالبًا في المعهد العلمي فوجدت في دراسته لذة الإيمان وحلاوته وصفاء العقيدة الخالية من الشوائب، فلما تخرجت وكنت مدرِّسًا أحببت أن أضع عليه شرحًا متوسطًا جامعًا ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، وقد تضمن ما يلي:

١- بيان معاني مفردات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

٢- الشرح الإجمالي لكل منها.

٣- ما يستفاد منها.

٤- بيان المناسبة والشاهد من الحديث للباب أو لكتاب التوحيد.

٥- مناسبة الأبواب لكتاب التوحيد.

٦- بيان مراد المؤلف من هذه الأبواب.

وهو مستفاد من كتب التفسير والحديث ومؤلفات ابن القيم وشروح كتاب الوحيد التي سوف تذكر في آخر الكتاب.

وجعلته على طريقة السؤال والجواب ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم، وليكون واضحًا جليًا لكل أحد، يستفيد منه الطالب المبتدئ ولا يستغنى عنه الراغب المنتهى فهو يتناسب مع الطالب والمدرس والعالم والمتعلم وغيرهم وسميته: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد»، وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن ينفع به كاتبه وقارئه وسامعه كما نفع بأصله، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، ومن أسباب الفوز لديه بجنات النعيم وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وكما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه. وصلوات الله وسلامه على خير خلقه وأنبيائه نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.



الجامع الفريد
في
شرح كتاب التوحيد



الدرس الأول:

كتاب التوحيد
[باب حق الله على العباد وحق العباد على الله](٢)

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦] الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾الآية [النحل:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾الآية. [الإسراء:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[الأنعام:١٥١-١٥٣] الآيات.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه؛ فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾الآية [الأنعام:١٥١ - ١٥٣]».

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه؛ قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمارٍ، فقال لي: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا. قلت: [يا رسول الله](٣)، أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا»(٤). أخرجاه في «الصحيحين».

---

(٢) ما بين المعقوفين مثبت من نسخة ابن باز فقط.

(٣) سقط من نسخة ابن باز، والمثبت موافق لما في مصدري التخريج.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار، برقم (٢٨٥٦)، ومسلم، كتاب: الأيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، برقم (٣٠).

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

الثالثة: أن من لم يأت به، لم يعبد الله؛ ففيه معنى قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾[الكافرون:٣].

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة: أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت؛ ففيه معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ﴾[البقرة:٢٥٦].

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن[الثلاث آيات][5] المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل، أولها[6] النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألةً، بدأها الله بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[الإسراء:٢٢] وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء:٣٩]، [ونبهنا الله سبحانه على عظم شان هذه المسائل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾][7] [الإسراء:٣٩].

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦].

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول اللهﷺ عند موته.

---

(٥) في نسخة السعدي: «ثلاث الآيات».

(٦) في نسخة السعدي: «أولاها».

(٧) ما بين المعقوفين سقط من نسخة السعدي.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسرُّه.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسئول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل رضي الله عنه.

الرابعة والعشرون: عِظَمُ شأن هذه المسألة.(٨)

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم»:

ابتدأ بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز، وتأسيًا بالنبي ﷺ في مكاتباته، وعملًا بحديث: «**كل أمر ذي بال**»؛ أي: حال وشأن يهتم به شرعا «**لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع**»(٩)، وفي رواية «أبتر»؛ أي: ناقص البركة. وهو وإن تم حسا لم يتم معنى وحقيقة؛ ولم يفتتح المصنف كتابه بخطبة تنبئ عن مقصوده؛ مفتتحة بالحمد والشهادة والصلاة على النبي ﷺ . ولعله حمد وتشهد نطقا

---

(٨) في نسخة ابن عثيمين قدمت تلك المسألة على التي قبلها.

(٩) أخرجه السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «الإرواء»، برقم (١).

عند وضع الكتاب، واقتصر على البسملة؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر، وللخبر، وكان ﷺ يقتصر عليها في مراسلاته، فكأنه أجراه مجرى الرسائل إلى أهل العلم، لينتفعوا بما فيه تعلمًا وتعليمًا. وقال حفيده: «وقع لي نسخة بخطه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ فيها بالبسملة، وثنى بالحمدلة والصلاة على النبي ﷺ».

والحمد: ذكر محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، ومعنى الصلاة على النبي ﷺ: هو الثناء على رسول الله ﷺ والعناية به. وإظهار شرفه وفضله وحرمته.

وعلى هذا فالابتداء بالبسملة حقيقي وبالحمدلة نسبي إضافي؛ أي: بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدوءًا به. و«الباء» متعلقة بمحذوف، اختير كونه فعلًا خاصًا متأخرًا؛ لئلا يتقدم فيه غير ذكر الله ﷻ وليصح الابتداء في كل قول وعمل؛ ولأن الحذف أبلغ فلا حاجة إلى النطق بالفعل لدلالة الحال على أن كل قول أو فعل فإنما هو باسم الله.

والتقدير: بسم الله أؤلف حال كوني مستعينًا بذكره متبركًا به. و «**الاسم**» مشتق من السمو وهو الارتفاع، أو الوسم وهو العلامة؛ لأن كل ما سمي فقد نوه باسمه ووسم، و«**الله**»: علم على ربنا تبارك وتعالى، وهو أعرف المعارف الجامع لمعاني الأسماء الحسنى، وهو مشتق بمعنى أنه دال على صفة له. وأصله «**الإله**» حذفت «الهمزة» وأدغمت «اللام» في «اللام» فقيل «**الله**»، ومعناه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين. و«**الرحمن**» رحمان الدنيا والآخرة. و«**الرحيم**» رحمة خاصة بالمؤمنين. و«**الرحمن**» دال على الصفة القائمة به. و«**الرحيم**» دال على تعلقها بالمرحوم.

كتاب: مصدر كتب يكتب كتأبا وكتابة وكتبًا، ومدار المادة على الجمع، ومنه تكتب بنو فلان إذا اجتمعوا، والكتيبة لجماعة الخيل. والكتابة بالقلم لاجتماع الحروف والكلمات، والمراد به هنا المكتوب؛ أي: هذا مكتوب جامع لخصائص التوحيد وحقوقه ومكملاته، وما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر، أو البدع القادحة في التوحيد، أو المعاصي المنقصة للتوحيد، وبيان الوسائل والذرائع الموصلة إلى الشرك والمقربة منه بالبراهين القاطعة من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة.

والتوحيد: مصدر وحَّده يوحِّده توحيدًا، جعله واحدًا أي: فردًا، ووحَّده قال: إنه واحد أحد، أو قال: لا إله إلا الله. والواحد والأحد وصف اسم الباري تعالىٰ؛ لاختصاصه بالأحدية.

وأقسام التوحيد ثلاثة:

الأول: توحيد الربوبية: وهو العلم والإقرار بأن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه، والمدبر لأمور خلقه جميعهم.

والثاني: توحيد الأسماء والصفات: وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

والثالث: توحيد الإلهية: وهو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ويتعلق بأعمال العبد وأقواله الظاهرة والباطنة، خلاف ما زعمه المتكلمة والصوفية وغيرهم من أن المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وأنهم إذا أثبتوا ذلك فقد أثبتوا غاية التوحيد، وأن من أقر بما يستحقه سبحانه من الصفات، ونزهه عن كل ما نزه عنه، وأقر أنه سبحانه خالق كل شيء فهو الموحد؛ بل لا يكون موحدا حتىٰ يشهد أن لا إله إلا الله وحده، ويقر أنه وحده هو الإله المستحق للعبادة؛ ويلتزم بعبادته وحده لا شريك له. وأقسام التوحيد الثلاثة متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمتىٰ أتىٰ بنوع منها ولم يأت بالآخر لم يكن موحدًا.

والقسم الثالث هو مقصود المصنف رحمه الله تعالىٰ بتصنيف هذا الكتاب، وإن كان قد ضمنه النوعين الآخرين؛ لأن هذا النوع هو أول دعوة الرسل أن: ﴿أَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، ولعموم البلوىٰ في زمانه بعبادة القبور والأشجار وغيرها، ودعوة الأنبياء والأولياء والصالحين وغيرهم، فمن أجل ذلك صرف العناية في بيان ذلك.

وإن شئت قلت كما قال ابن القيم وغيره: **التوحيد نوعان**: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات. وتوحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد الإلهية والعبادة. وبهذا التوحيد ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل آية متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، وهو التوحيد العلمي الخبري.

وإما دعوة إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد دونه وهو الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي، وهو حقوق التوحيد ومكملاته؛ وإما خبر عن أهل التوحيد وجزائهم وأهل الشرك وجزائهم؛ فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي الشرك وأهله وجزائهم، وركنا التوحيد الصدق والإخلاص.

قال ابن القيم:

والصدق والإخلاص ركنا ذلك التـــ وحيـــد كـــالركنين للبنيـــان

وحقيقــة الإخــلاص توحيــد المــرا د فــلا يزاحمــه مــراد ثــان

۞ **قوله:** «وقولِ الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾»؛ «الآية»: بالجر عطف علىٰ التوحيد، ويجوز الرفع علىٰ الابتداء. والعبادة لغة: التذلل والانقياد. وشرعا: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾؛ أي: ما خلق الله الثقلين الجن والإنس إلا لحكمة عظيمة، وهي عبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه. ففعل الأول وهو خلقهم ليفعلوا هم الثاني وهو عبادته، لا ليفعل هو سبحانه بهم الثاني فيجبرهم علىٰ العبادة؛ فإن من سبقت عليه الشقاوة لم يرد سبحانه وقوع العبادة منه، لما له في ذلك من الحكمة.

وقال بعض السلف: إلا لآمرهم وأنهاهم. واختاره الزجاج والشيخ وغيرهما؛ قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] لا يؤمر ولا ينهىٰ. وقال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾؛ أي: اتقوه، فقد أمرهم بما خلقوا له وأرسل الرسل بذلك، وكلما وردت العبادة في القرآن فمعناها توحيد الله بجميع أنواع العبادة. وسميت وظائف الشرع عبادات؛ لأنهم يفعلونها خاضعين لله فيكونون من أهل رضاه. قال تعالىٰ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧] أخبر أنه سبحانه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، وفي الآية بيان عظم شأن التوحيد؛ إذ كان الخلق كلهم لم يخلقوا إلا له.

۞ **قوله:** «وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾»:

الطاغوت: مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد، وكل من تعدىٰ حده بأي: نوع من الطغيان فهو طاغوت، ويكون واحدًا وجمعًا، ويؤنث ويذكر، وللسلف فيه تفاسير لا تنافي بينها، وكلها ترجع إلىٰ ما قال ابن القيم: الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.ا هـ.

وأخبر تعالىٰ أنه بعث في كل طائفة وقرن وجيل من الناس رسولًا منذ حدث الشرك في قوم نوح إلىٰ أن ختمهم بمحمدﷺ، يأمرهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: وحدوا الله بالعبادة؛ ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾: اتركوا وفارقوا عبادة ما سواه؛ ولهذا خلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب، ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾ أبلغ من اتركوا، فإن اتركوا لعدم الفعل، واجتنبوا تقتضي ذلك وتقتضي المباعدة والمجانبة، وهذه الآية هي معنىٰ «لا إله إلا الله» فإنها تضمنت النفي والإثبات، كما تضمنته لا إله إلا الله، ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الإثبات، وقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النفي. وهذه طريقة القرآن يقرن النفي بالإثبات، فينفي ما سوىٰ الله، ويثبت عبادة الله وحده، والنفي المحض ليس بتوحيد وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا هو حقيقة التوحيد، ففيها بيان عظم شأن التوحيد، وإقامة الحجة علىٰ العباد، ومعنىٰ «لا إله إلا الله». قال المصنف: وفيه الحكمة في إرسال الرسل، وأن الرسالة عمت كل أمة، وأن دين الأنبياء واحد.

❁ **قوله**: «وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾»:

أي: أمر ووصىٰ وأوجب علىٰ ألسن رسله أن يعبد وحده دون ما سواه، والمراد بالقضاء هنا: القضاء الشرعي الديني، فإن القضاء ينقسم إلىٰ قسمين كوني قدري، وشرعي ديني، واشتملت هذه الآيات علىٰ جملة الشرائع، وابتدئت بالتوحيد فدل علىٰ أنه أوجب الواجبات؛ إذ لا يبتدأ إلا بالأهم فالأهم، وختمت بالنهي عن الشرك، فدل علىٰ أنه أعظم المحرمات، وفيها معنىٰ «لا إله إلا الله»، فإن قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ هو معنىٰ لا إله، وقوله: ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ هو معنىٰ «إلا الله».

❁ **قوله**: «﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾»:

أي: وقضىٰ أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا، كما قضىٰ بعبادته وحده لا شريك له كقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان:١٤]، وعطف حقهما علىٰ حقه دليل علىٰ تأكد حقهما، وأنه أوكد الحقوق بعد الله، وأكده أيضًا بالمصدر المؤكد لما فرضه من حقهما؛ لأن الله جعلهما سببًا لخروجك من العدم، ولم يخص نوعًا من أنواع الإحسان ليعم جميع أنواعه، وتواترت السنة ببر الوالدين وتحريم عقوقهما: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾[الإسراء:٢٣] أي: لا تسمعهما قولًا سيئاً حتىٰ ولا التأفيف الذي هو أدنىٰ مراتب القول السيئ، تنبيهًا بما هو فوق ذلك من القول السيئ، والفعل السيئ

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾؛ أي: لا يصدر إليهما منك قول قبيح، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾؛ لينًا طيبًا بأدب وتوقير، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾؛ أي: تواضع لهما، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾؛ أي: في كبرهما وعند وفاتهما، ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[الإسراء:٢٤]أي: كما رحماني في تربيتهما لي في صغري أو لتربيتهما.

وقوله: «الآية» أي: إلىٰ آخر الآية، أو اقرأ الآية.

قوله: «وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾»:

يأمر سبحانه عباده بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل علىٰ خلقه، وهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وقرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه، فدلت علىٰ أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة. والشرك تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

و﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النهي فتعم الشرك قليله وكثيره.

وتسمىٰ هذه الآية آية الحقوق العشرة؛ وذلك لأنها تضمنت عشرة حقوق. وابتدأت بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فدلت علىٰ أن التوحيد هو أوجب الواجبات، وأن الشرك أعظم المحرمات. وفيها تفسير التوحيد، وأنه عبادة الله وحده وترك الشرك، وهذا وجه مطابقتها للترجمة قاله حفيد المصنف، وفي بعض النسخ المعتمدة تقديمها علىٰ آية الأنعام فقدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود.

قوله: «وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾»:

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿تَعَالَوْا﴾؛ أي: هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ﴾؛ أي: أقص عليكم وأخبركم بـ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، حقًّا لا تخرصًا ولا ظنًّا، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾كأن في الكلام محذوفًا تقديره: وصاكم ألا تشركوا به شيئًا. فيكون المعنىٰ حرم عليكم ما وصاكم بتركه من الإشراك به؛ ولهذا إذا سئل الصحابة رضي الله عنهم عما يقول لهم رسول الله ﷺ قالوا: يقول: «**اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا**»[١٠] وذكر سبحانه في هذه الآية جملا من المحرمات، وابتدأها بالنهي عن الشرك، والنهي عنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، فدل علىٰ أن التوحيد أوجب الواجبات. وأن

---

(١٠) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله ورسوله ﷺ وشرائع الدين، والدعاء إليه...، برقم (١٨)، وأحمد (٣/ ٢٣) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الشرك أعظم المحرمات، وهذا وجه مطابقتها للترجمة ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾قال القرطبي: «الإحسان إلى الوالدين: برهما، وحفظهما وصيانتهما، وامتثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما». و ﴿إِحْسَٰنًا﴾نصب على المصدرية؛ أي: أحسنوا بالوالدين إحسانًا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[الأنعام:١٥١]؛ أي: لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر فإني رازقهم وإياكم؛ أي: لا تخافوا من الفقر بسبب رزقهم فهو على الله، وخص الأولاد لأن قتلهم يجمع بين القتل وقطيعة الرحم. فالعناية بالنهي عنه آكد، وكان قتل البنات شائعا فيهم. وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، فنهاهم الله عن ذلك : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، نهي عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي. (وظهر وبطن) حالان تستوفيان أقسام ما جعلتا له من الأشياء.: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾قتلها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: وهذا مما نص على النهي عنه تأكيدا، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾: إشارة إلى هذه المحرمات التي أولها النهي عن الشرك، والوصية: الأمر المؤكد المقرر، وسميت وصية الميت وصية؛ لأنه يعهدها لمن بعده ليتمسكوا بها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾لعل للتعليل أن الله وصانا بهذه الوصايا وأمرنا بها، وأكد علينا فيها لنعقلها ونعمل بها، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾نهي عام عن القرب الذي يعم وجوه التصرف إلا ما يحسن، والسعي في نمائه. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: الرشد وزوال السفه مع البلوغ، ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾[الأنعام:١٥٢]، أمر بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أي: من اجتهد في أداء الحق وأخذه فإن أخطأ بعد استفراغ الوسع وبذله الجهد فلا حرج عليه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[الأنعام:١٥٢]، أمر بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد، فلا يميل إلى الحبيب والقريب: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨]، ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾أي: وبوصية الله التي وصاكم بها فأوفوا، بأن تطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام:١٥٢]، تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾[الأنعام:١٥٣]؛ أي: الذي أوصيكم به في هاتين الآيتين المشتملتين على ترك المنهيات، وأعظمها الشرك؛ وفعل الواجبات وأعظمها التوحيد. صراطًا مستقيمًا واضحًا سهلًا واسعًا ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾وهذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم. و ﴿أَنَّ﴾في موضع نصب؛

أي: أتل، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾؛ أي: طريقي ومسلكي وشريعتي ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ قيمًا. والصراط: الطريق الذي هو دين الإسلام، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلًا إليه، وهو شريعة الله لا اعوجاج فيه، ولا طريق إليه سواه، وقد جمع ثلاثة أمور: السهولة والسعة والقرب، فهو أقرب الطرق إلى الله وأوسعها وأسهلها، ولو اجتمع أهل الأرض وأضعاف أضعافهم لوسعهم، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسن رسله، وجعله موصلًا لعباده إليه، وهو إفراده بالعبودية، وإفراد رسله بالطاعة. فأمر باتباعه ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة منها نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾: البدع والشبهات، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام:١٥٣]؛ أي: تميل وتشتت بكم هذه الطرق المختلفة المضلة عن دينه وطريقه الذي ارتضاه لعباده. وهذه الآيات قيل: إنها المحكمات المذكورة في قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[آل عمران:٧].

وروى الإمام أحمد وغيره عن ابن مسعود قال: «**خط رسول الله ﷺ خطًّا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيمًا، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**»[(١١)] [الأنعام:١٥٣]، وذكر أولًا ﴿تَعْقِلُونَ﴾ ثم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ثم ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا، فإذا تذكروا خافوا.

وكأن المصنف قال: كتاب التوحيد الذي هو الحكمة في إيجاد الثقلين، كما في الآية الأولى، والذي هو الحكمة في إرسال الرسل كما في الآية الثانية، والذي هو أوجب الواجبات كما في الآية الثالثة والرابعة والخامسة، والذي ضده هو الشرك أعظم المحرمات، كما في الآية الخامسة، والذي هو حق الرب على العباد الذي افترضه عليهم، ولا يقبل منهم سواه كما يأتي في حديث معاذ بن جبل، والذي حقيقته وتفسيره عبادة الله وحده لا شريك له كما في الآية الرابعة وحديث معاذ.

---

(١١) أخرجه ابن ماجه، في المقدمة، باب: اتباع سنة رسول الله ﷺ، برقم (١١)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (١/ ٤٦٥)، واللفظ له من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «ظلال الجنة»، برقم (١٦).

❁ **قوله**: «قال ابن مسعود ﷺ»:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب، الهذلي أبو عبد الرحمن صحابي جليل، من السابقين الأولين، ومن كبار علماء الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها، ولازم النبي ﷺ وكان صاحب نعليه، وحدث عنه كثيرًا، وأمَّره عمر على الكوفة ومات سنة ٣٢ هـ. وأثره هذا رواه الترمذي وغيره وحسنه.

❁ **قوله**: «خاتمة»:

بفتح «التاء» وكسرها، والخاتم حلقة ذات فص من غيرها. وحقيقة الختم الاستيثاق.

❁ **قوله**: «فليقرأ قوله تعالىٰ...»:

أي: من أراد أن ينظر إلىٰ الوصية التي كأنها كتبت وختم عليها فلم تغير ولم تبدل؛ فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات الثلاث؛ لأن كل آية منها ختمت بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾؛ فالرسول ﷺ لو وصىٰ لم يوص إلا بما وصىٰ به الله تعالىٰ، فصارت وصية الله تعالىٰ؛ ووصية رسوله ﷺ بالمعنىٰ؛ ولذلك شبهها بالكتاب الذي كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص.

وليس المراد أن النبي ﷺ كتبها وختم عليها، وإنما هذه الآيات كأنها وصية ختمها الرسول ﷺ فلا حاجة بنا أن يوصي، فإن الله قد وصىٰ بما في هذه الآيات؛ لأن فيها ما يكفي عن توصية الرسول ﷺ حيث قال: «**ائتوني بكتاب أكتب لكم فيه شيئًا لا تضلوا بعدي**»(١٢)، وذلك في أثناء مرضه ﷺ، فحيل بينهم وبين أن يكتب، وكثر اللغط. فقال: «**اخرجوا عني**». فقال ابن عباس ﷺ: «إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين أن يكتب لنا رسول الله ﷺ الوصية»(١٣) فذكرهم ابن مسعود ﷺ أن عندهم من القرآن ما يكفيهم؛ فإن النبي ﷺ لو وصىٰ لم يوص إلا بما في كتاب الله. وفي «صحيح مسلم»: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله**»(١٤).

---

(١٢) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٣١)، ومسلم، كتاب: الوصية، باب: ترك الوصية لمن ليس له شرع يوصىٰ فيه، برقم (١٦٣٧)، وغيرهما من حديث ابن عباس ﷺ.

(١٣) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، عقب رقم (٤٤٣٢)، ومسلم، كتاب: الوصية، باب: ترك الوصية...، عقب رقم (٢٢/ ١٦٣٧)، وغيرهما من حديث ابن عباس ﷺ موقوفًا.

(١٤) أخرجه مسلم، كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، برقم (١٢١٨)، مطولًا من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

وروى الحاكم وصححه عن عبادة مرفوعًا: «**أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث**»، **ثم تلا** ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام:١٥١]، **حتى فرغ من الآيات الثلاث. ثم قال: «من أوفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه»**[١٥].

❁ **قوله**: «وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه»: ابن عمرو بن أوس بن كعب بن عمرو الخزرجي الأنصاري، أبو عبد الرحمن صحابي جليل مشهور من أعيان الصحابة كان إليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن، قال عليه السلام: «**يحشر أمام العلماء برتوة**»؛ أي: بخطوة أو رمية سهم، شهد بدرًا وما بعدها، واستخلفه النبي ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم، ثم بعثه إلى اليمن قاضيًا معلمًا، مات بالشام في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ، وله ٣٨.

❁ **قوله**: «**قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار**»:

وفي رواية: اسمه عفير، أهداه إليه المقوقس صاحب مصر. والرديف: هو الذي تحمله خلفك على ظهر الدابة، وفيه تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإرداف عليه، خلافا لما عليه أهل الكبر.

❁ **قوله**: «**فقال لي: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد**»:

أخرج السؤال بصيغة الاستفهام؛ ليكون أوقع في النفس، وأبلغ في فهم المتعلم، وحق الله على العباد هو ما يستحقه عليهم من عبادته وحده. قال ابن القيم:

حق الإله عبادة بالأمر لا ... بهوى النفوس فذاك للشيطان

من غير إشراك به شيئًا هما ... سببا النجاة فحبذا السببان

---

(١٥) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٨) من طريق سفيان بن حسين عن الزهري عن أبي إدريس عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وقال «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه إنما اتفقا جميعا على حديث الزهري عن أبي إدريس عن عبادة «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا»؛ وقد روى سفيان بن حسين الواسطي كلا الحديثين عن الزهري فلا ينبغي أن ينسب إلى الوهم في أحد الحديثين إذا جمع بينهما و الله أعلم».

قلت والذي اتفقا عليه ما أخرجه البخاري، برقم (١٨)، ومسلم، برقم (١٧٠٩)، من طريق الزهري عن أبي إدريس عائذ الله بن عبد الله عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

❁ **قوله: «وما حق العباد علىٰ الله؟»:**

ليس علىٰ الله حق واجب بالعقل كما تزعمه المعتزلة، لكن هو سبحانه كتب ذلك علىٰ نفسه تفضلًا وإحسانًا، فهو متحقق لا محالة؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم علىٰ توحيده، ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الروم:٦]، كتب علىٰ نفسه الرحمة، وأوجب علىٰ نفسه الحق، لم يوجبه عليه مخلوق. قال شيخ الإسلام: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق علىٰ المخلوق:

مـــا للعبـــاد عليـــه حـــق واجـــب ... كـــلا ولا ســـعي لديـــه ضـــائع

إن عـــذبوا فبعدلـــه أو نعمـــوا ... فبفـــضله وهـــو الكـــريم الواســـع

❁ **قوله: «قلت: الله ورسوله أعلم»:**

فيه حسن الأدب من المتعلم، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم. قال ابن مسعود: «من كان عنده علم فليقل به، وإلا فليقل: الله أعلم»[١٦].

❁ **قوله: «قال: حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»:**

أي: يوحدوه بالعبادة ويفردوه، ويتجردوا من الشرك قليله وكثيره صغيره وكبيره، ومن لم يتجرد من الشرك لم يكن آتيًا بعبادة الله وحده. بل هو مشرك قد جعل لله ندًّا في عبادته.

وأصل العبادة التذلل والخضوع، قال الشيخ: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به علىٰ ألسنة الرسل. وعرفها ابن القيم فقال:

وعبـــادة الـــرحمن غايـــة حبـــه ... مـــع ذل عابـــده همـــا قطبـــان

وعلـــيها فلـــك العبـــادة دائـــر ... مـــا دار حتـــىٰ قامـــت القطبـــان

ومـــداره بـــالأمر أمـــر رســـوله ... لا بـــالهوىٰ والـــنفس والـــشيطان

قال المصنف: وفيه أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

---

(١٦) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، تفسير سورة ص، باب: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾، برقم (٤٨٠٩)، ومسلم، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: الدخان، برقم (٢٧٩٨)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

❁ **قوله: «وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»:**

أي: ألا يعذب من يعبده ولا يشرك به شيئًا، والعذاب كل ما يعيي الإنسان ويشق عليه، من العذب وهو المنع، فسمي عذأبا؛ لأنه يمنع المعاقب من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من مثل فعله. قال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم؛ إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله ﷻ ومن كذب الله فهو مشرك[١٧]. وفي رواية: «**ما من أحد يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه؛ إلا حرمه الله على النار**»[١٨].

❁ **قوله: «قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس»:**

يعني بفضل التوحيد، وفضل من تمسك به عند الله؛ ففيه فضل التوحيد وعظم شأنه، وأنه حق الرب الذي أحقه وافترضه على عباده، ولا يقبل منهم سواه، وعظم شأن أهله، وهو ألا يعذبهم. وفيه تفسير التوحيد وأنه عبادة الله وحده وترك الشرك به. وفيه استحباب بشارة المسلم بما يسره، وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا.

❁ **قوله: «قال: لا تبشرهم فيتكلوا»:**

وفي رواية: «**إني أخاف أن يتكلوا**»؛ أي: يعتمدوا على ذلك، فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة اعتمادا على ما يتبادر من ظاهر الحديث. وفي رواية: «**فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا**»؛ أي: تحرجا من الإثم. قال أبو المظفر: لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة. فأما الأكياس فإذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة فلا وجه لكتمانها عنهم.

قال المصنف: وفيه جواز كتمان العلم للمصلحة، والخوف من الاتكال على سعة رحمة الله. وسئل عن معنى هذا الحديث، ومعنى «**لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله**»[١٩] فقال: معنى حديث معاذ عند

---

(١٧) ينظر: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، لابن حجر العسقلاني (١/ ٢٢٨).

(١٨) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قومًا...، برقم (١٢٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم (٣٢)، وغيرهما من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(١٩) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى، باب: تمني المريض الموت، برقم (٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، برقم (٢٨١٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السلف على ظاهره، وهو من الأمور التي يقولون: أمروها كما جاءت؛ يعني: نصوص الوعد والوعيد، وقوله: «**لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» على ظاهره، وهو أن الله لو يستوفي حقه من عبده لم يدخل أحد الجنة، ولكن كما قال: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر:٣٥].

❁ **قوله: «أخرجاه في الصحيحين»:**

أي: أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» اللذين هما أصح الكتب المصنفة.

والبخاري: هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي، الحافظ الكبير صاحب الصحيح والتاريخ والأدب المفرد وغير ذلك. روى عن أحمد والحميدي وابن المديني وطبقتهم، وعنه مسلم والنسائي والترمذي وغيرهم، ولد سنة ١٩٤ هـ، وتوفي سنة ٢٥٦ هـ.

ومسلم: هو ابن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري، صاحب الصحيح والعلل والوحدان وغير ذلك، روى عن أحمد وابن معين وابن أبي شيبة والبخاري وطبقتهم، وعنه الترمذي وخلق. ولد سنة ٢٠٤، وتوفي بنيسابور سنة ٢٦١ هـ.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «كتاب التوحيد»:**

هذه الترجمة تدل على مقصود هذا الكتاب من أوله إلى آخره.

ولهذا استغنى بها عن الخطبة؛ أي: أن هذا الكتاب يشتمل على توحيد الإلهية والعبادة بذكر أحكامه، وحدوده وشروطه، وفضله وبراهينه، وأصوله وتفاصيله، وأسبابه وثمراته، ومقتضياته، وما يزداد به ويقويه، أو يضعفه ويوهيه، وما به يتم أو يكمل.

اعلم أن التوحيد المطلق: العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال، والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال. وإفراده وحده بالعبادة.

وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: توحيد الأسماء والصفات: وهو اعتقاد انفراد الرب جَلَّ جَلَالُهُ بالكمال المطلق من جميع الوجوه، بنعوت العظمة والجلال والجمال، التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات، ومعانيها وأحكامها،

الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل، ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسولهﷺ من النقائص والعيوب وعن كل ما ينافي كماله.

الثاني: توحيد الربوبية: بأن يعتقد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، الذي ربَّىٰ جميع الخلق بالنعم، وربَّىٰ خواص خلقه -وهم الأنبياء وأتباعهم- بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، وهذه هي التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين.

الثالث: توحيد الإلهية، ويقال له: **توحيد العبادة**: وهو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده، وهذا الأخير يستلزم القسمين الأولين ويتضمنهما؛ لأن الألوهية التي هي صفة تعم أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة، فإنه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال، ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالىٰ بصفات الكمال وتفرده بالربوبية يلزم منه أن لا يستحق العبادة أحد سواه.

ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم الدعوة إلىٰ هذا التوحيد.

فذكر المصنف في هذه الترجمة من النصوص ما يدل على أن الله خلق الخلق لعبادته والإخلاص له، وأن ذلك حقه الواجب المفروض عليهم.

فجميع الكتب السماوية، وجميع الرسل دعوا إلىٰ هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصًا محمدﷺ، وهذا القرآن الكريم، فإنه أمر به، وفرضه، وقرره أعظم تقرير، وبيَّنه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأن جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية أدلة وبراهين على الأمر بهذا التوحيد ووجوبه.

فالتوحيد هو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين، وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال.

قال العلامة ابن باز:

۞ **قوله:** «كتاب التوحيد»:

التوحيد: مصدر وحدَّ يوحدّ توحيدًا. **والتوحيد:** إفراد الله تعالىٰ بالعبادة.

۞ **قوله:** «قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]»:

هذه هي الحكمة الشرعية من خلقهم، فلم يخلقهم ليكثر بهم من قلة، كما أنه خلقهم ليبتليهم أيضًا. كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك:٢] وليعلموا صفاته، كما قال: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[الطلاق:١٢]، فخلقهم ليعلمهم أنه الخالق الرازق، والقادر وابتلاهم بالأوامر والنواهي والتكاليف ليعبدوه علىٰ بصيرة، ولأجل هذا بعث الرسل وأنزل الكتب؛ ليعلموا حقه ويتمسكوا به.

۞ **قوله:** «وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]»:

أي: اعبدوا الله وحده واجتنبوا الطاغوت. والطاغوت: ما عبد من دون الله، وهو راض، أما ما عبد من دون الله، وهو لا يرضىٰ بذلك، كالرسل والأنبياء، فليسوا بطاغوت؛ لأنهم لم يأمروا بذلك.

۞ **قوله:** «وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[الإسراء:٢٣]»:

أي: أمر وأوصىٰ أن لا تعبدوا إلا الله؛ لأنه هو المستحق للعبادة، فلا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله فاعبدوه وحده، ولا تشركوا معه في عبادته أحدًا من نبي أو ملك، أو ولي، أو غير ذلك، فعلىٰ الإنسان أن يحذر من الشرك كله.

۞ **قوله:** «وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦]»، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[الأنعام:١٥١]»... الآيات:

أي: قل يا أيها الرسول: تعالوا أيها الناس أخبركم وأقص عليكم ما حرمه الله عليكم، وأتل علىٰ علم ويقين، لا عن شك وظن، وأول هذه المحرمات: الشرك.

و «لا»: صلة. فحرم الشرك كما حرم المحرمات، وأعظم هذه المحرمات هو الشرك.

والشرك: صرف أي نوع من أنواع العبادات لغير الله.

واشتملت هذه الآيات علىٰ عشرة أمور:

الأول: الشرك.

الثاني: الإحسان إلىٰ الوالدين، وذكرهما بعد ذكر حق الله؛ يدل علىٰ عظم حقهما، والإساءة إليهما من أجرم الذنوب والمعاصي، وقرنهما الله بحقه في غير ما آية.

الثالث: عدم قتل الأولاد.

الرابع: عدم قرب الفواحش من الغيبة والنميمة والزنا والسرقة وغيرها.

الخامس: عدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

السادس: عدم أكل مال اليتيم، واليتيم هو الذي مات أبوه قبل الاحتلام.

السابع والثامن: الكيل والوزن بالقسط.

التاسع: الوفاء بعهد الله.

العاشر: العدل.

وعهد الله: ما أوصىٰ به من عبادته، وعدم معصيته وإفراده.

والفواحش: هي المعاصي، وسميت بذلك؛ لأن العقل السليم ينكرها، والفطرة السليمة تنكرها.

والوصية: الأمر المؤكد، أوصىٰ بشيء إذا أكده.

والعقلاء: هم الذين يعقلون هذه الأمور، ويلتزمونها بعقولهم.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾[الأنعام:١٥٣] صراط الله، هو فعل الأوامر، وترك النواهي، والإخلاص له، فعليهم أن يستقيموا عليه ويلتزموا به.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾[الأنعام:١٥٣]، والسبل: هي البدع، والأهواء، والشهوات المحرمة، وذكر التعقل أولًا؛ لأن العبد يتفكر أولًا، ثم يتأمل، فيعرف، ويتذكر، ثم يتقي فيعمل بما ينفعه، ويترك ما يضره ويغضب ربه.

قوله: «قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلىٰ وصية محمدﷺ التي عليها خاتمه...»:

أي: كأنه كتبها وختمها بختمه، فهذه وصية الله، وهي وصية من رسول اللهﷺ، وكان الصحابة قد أسفوا لما أراد النبيﷺ أن يوصي، ثم ترك ذلك، وذلك أنه حين أراد أن يوصي قال بعضهم: أحضروا كتابا، وقال بعضهم: لا تشغلوه، وهو مريض، فأمر بإخراجهم، وقال: «**ما ينبغي عندي التنازع**»[٢٠].

---

(٢٠) سبق تخريجه.

قال ابن عباس: إن الرزية كل الرزية، ما حال بين الرسول وبين أن يكتب الوصية[٢١].

وجاء في الحديث: أن الرسول ﷺ قال لأصحابه: «**ألا تبايعوني على هذه الآيات؟**»[٢٢].

❁ **قوله**: «**وعن معاذ رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على...**»:

في الحديث تواضع النبي ﷺ، وحسن خلقه من وجوه: كونه راكب على حمار، وكون له رديف، ومحادثته لمعاذ رديفه، بخلاف ما يفعله بعض المتكبرين.

وفيه: إخراج الفائدة والحكم بصيغة السؤال، وهذا له وقع في قلب السامع، ويكون متهيئًا ومتحمسًا للجواب؛ بخلاف ما لو ذكر الحكم ابتداء، فربما لم ينتبه السامع.

وقوله: «**الله ورسوله أعلم**»، فيه حسن خلق معاذ، حيث لم يتكلف ما لا يعلمه، وهذا هو الواجب أن يقول: لا أدري، أو الله ورسوله أعلم، في حال حياته، وبعد وفاته يقول: الله أعلم، أو لا أدري، ولا يقول: الله ورسوله أعلم؛ لأن النبي ﷺ لا يدري ما أحدث الناس بعده كما في حديث الحوض حين يقول: «**أصحابي أصحابي، فيقال له: إنك لا تدري ما أحدث الناس بعدك**»[٢٣]. اهـ

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ قال المؤلف رحمه الله تعالى: «كتاب التوحيد»:

لم يُذكر في النسخ التي بأيدينا خطبة للكتاب من المؤلف، فإما أن تكون سقطت من النساخ، وإما أن يكون المؤلف اكتفى بالترجمة؛ لأنها عنوان على موضوع الكتاب وهو التوحيد،

والكتاب بمعنى: مكتوب؛ أي: مكتوب بالقلم، أو بمعنى مجموع من قولهم: كَتيبة، وهي المجموعة من الخيل.

أما التوحيد فهو في اللغة: مصدر وحد الشيء إذا جعله واحدًا.

وفي الشرع: إفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

---

(٢١) سبق تخريجه.

(٢٢) سبق تخريجه.

(٢٣) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، برقم (٦٥٢٦)، واللفظ له من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة...، برقم (٣٧/ ٢٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أقسامه: ينقسم التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية.

٢- توحيد الألوهية.

٣- توحيد الأسماء والصفات.

وقد اجتمعت في قوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥].

القسم الأول:

توحيد الربوبية: هو إفراد الله ﷻ بالخلق، والملك، والتدبير.

فإفراده بالخلق: أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤]، فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر؛ إذ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[فاطر:٣]؛ فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله؛ لأن الاستفهام فيها مشرب معنىٰ التحدي.

أما ما ورد من إثبات خلق غير الله؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٤]، وكقوله ﷺ في المصورين: يقال لهم **«أحيوا ما خلقتم»**.

فهذا ليس خلقًا حقيقة، وليس إيجادًا بعد عدم، بل هو تحويل للشيء من حال إلىٰ حال، وأيضًا ليس شاملًا، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه، ومحصور بدائرة ضيقة؛ فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلق.

وأما إفراد الله بالملك:

فأن نعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[آل عمران:١٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[المؤمنون:٨٨].

وأما ما ورد من إثبات الملكية لغير الله؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ [المؤمنون:٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾[النور:٦١]، فهو ملك

محدود لا يشمل إلا شيئًا يسيرًا من هذه المخلوقات؛ فالإنسان يملك ما تحت يده، ولا يملك ما تحت يد غيره، وكذا هو مُلْك قاصر من حيث الوصف؛ فالإنسان لا يملك ما عنده تمام الملك؛ ولهذا لا يتصرف فيه إلا علىٰ حسب ما أُذن له فيه شرعًا، فمثلًا: لو أراد أن يحرق ماله، أو يعذب حيوانه؛ قلنا: لا يجوز، أما الله سبحانه، فهو يملك ذلك كله ملكًا عامًّا شاملًا.

وأما إفراد الله بالتدبير:

فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[يونس:٣١، ٣٢].

وأما تدبير الإنسان؛ فمحصور بما تحت يده، ومحصور بما أذن له فيه شرعًا.

وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بعث فيهم الرسول ﷺ، بل كانوا مقرين به، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الزخرف:٩]، فهم يقرون بأن الله هو الذي يدبر الأمر، وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض.

ولم ينكره أحد معلوم من بني آدم؛ فلم يقل أحد من المخلوقين: إن للعالم خالقين متساويين.

فلم يجحد أحد توحيد الربوبية، لا علىٰ سبيل التعطيل ولا علىٰ سبيل التشريك، إلا ما حصل من فرعون؛ فإنه أنكره علىٰ سبيل التعطيل مكابرةً؛ فإنه عطل الله من ربوبيته وأنكر وجوده، قال تعالىٰ حكايةً عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات:٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص:٣٨].

وهذا مكابرة منه لأنه يعلم أن الرب غيره؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤]، وقال تعالىٰ حكاية عن موسىٰ وهو يناظره: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الإسراء:١٠٢]؛ فهو في نفسه مقر بأن الرب هو الله ﷻ.

وأنكر توحيد الربوبية علىٰ سبيل التشريك المجوس، حيث قالوا: إن للعالم خالقين هما الظلمة والنور، ومع ذلك لم يجعلوا هذين الخالقين متساويين.

فهم يقولون: إن النور خير من الظلمة؛ لأنه يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر، والذي يخلق الخير خير من الذي يخلق الشر.

وأيضًا؛ فإن الظلمة عدم لا يضيء، والنور وجود يضيء؛ فهو أكمل في ذاته.

ويقولون أيضًا بفرق ثالث، وهو: أن النور قديم على اصطلاح الفلاسفة، واختلفوا في الظلمة: هل هي قديمة، أو محدثة؟ على قولين.

دلالة العقل على أن الخالق للعالم واحد:

قال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون:٩١]، إذ لو أثبتنا للعالم خالقين؛ لكان كل خالق يريد أن ينفرد بما خلق ويستقل به كعادة الملوك؛ إذا لا يرضى أن يشاركه أحد.

وإذا استقل به؛ فإنه يريد أيضًا أمرًا آخر، وهو أن يكون السلطان له لا يشاركه فيه أحد.

وحينئذٍ إذا أرادا السلطان؛ فإما أن يعجز كل واحد منهما عن الآخر، أو يسيطر أحدهما على الآخر؛ فإن سيطر أحدهما على الآخر ثبتت الربوبية له، وإن عجز كل منهما عن الآخر زالت الربوبية منهما جميعًا؛ لأن العاجز لا يصلح أن يكون ربًّا.

القسم الثاني: توحيد الألوهية:

ويقال له: توحيد العبادة باعتبارين؛ فباعتبار إضافته إلى الله يسمَّى: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمَّى توحيد العبادة؛ وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة.

فالمستحق للعبادة هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد: بمعنى التذلل لله ﷻ بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبةً وتعظيمًا.

الثاني: المتعبد به؛ فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

مثال ذلك: الصلاة؛ ففعلها عبادة، وهو التعبد. ونفس الصلاة عبادة، وهو المتعبد به.

فإفراد الله بهذا التوحيد: أن تكون عبدًا لله وحده تفرده بالتذلل؛ محبة وتعظيمًا، وتعبده بما شرع. قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[الإسراء:٢٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:٢]؛ فوصفه سبحانه بأنه رب العالمين كالتعليل لثبوت الألوهية له؛ فهو الإله لأنه رب العالمين، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة:٢١]؛ فالمنفرد بالخلق هو المستحق للعبادة.

إذ من السفه أن تجعل المخلوق الحادث الآيل للفناء إلهًا تعبده؛ فهو في الحقيقة لن ينفعك لا بإيجاد ولا بإعداد ولا بإمداد، فمن السَّفه أن تأتي إلىٰ قبر إنسان صار رميمًا تدعوه وتعبده، وهو بحاجة إلىٰ دعائك، وأنت لست بحاجة إلىٰ أن تدعوه؛ فهو لا يملك لنفسه نفعًا لا ضرًّا؛ فكيف يملكه لغيره؟!

وهذا القسم كفر به وجحده أكثر الخلق، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل عليهم الكتب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ومع هذا؛ فأتباع الرسل قلة، قال عليه الصلاة والسلام: «**فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد**».

تنبيه:

من العجب أن أكثر المصنفين في علم التوحيد من المتأخرين يركزون علىٰ توحيد الربوبية، وكأنها يخاطبون أقوامًا ينكرون وجود الرب -وإنْ كان يوجد من ينكر الرب-، لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة!!

ولهذا ينبغي أن يركز علىٰ هذا النوع من التوحيد حتىٰ نُخرج إليه هؤلاء المسلمين الذين يقولون بأنهم مسلمون، وهم مشركون، ولا يعلمون.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات:

وهو إفراد الله ﷻ بما له من الأسماء والصفات. وهذا يتضمن شيئين:

الأول: الإثبات، وذلك بأن نثبت لله ﷻ جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه أو سنة نبيه ﷺ.

الثاني: نفي المماثلة، وذلك بأن لا نجعل لله مثيلًا في أسمائه وصفاته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الشورىٰ:١١].

فدلت هذه الآية علىٰ أن جميع صفاته لا يماثله فيها أحد من المخلوقين؛ فهي وإن اشتركت في أصل المعنىٰ، لكن تختلف في حقيقة الحال، فمن لم يثبت ما أثبته الله لنفسه؛ فهو معطل، وتعطيله هذا يشبه تعطيل فرعون، ومن أثبتها مع التشبيه صار مشابهًا للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ومن أثبتها بدون مماثلة صار من الموحدين.

وهذا القسم من التوحيد هو الذي ضلَّت فيه بعض الأمة الإسلامية وانقسموا فيه إلىٰ فرق كثيرة؛ فمنهم من سلك مسلك التعطيل، فعطَّل، ونفىٰ الصفات زاعمًا أنه منزه لله، وقد ضل؛ لأن المنزه حقيقةً هو الذي يُنفَىٰ عنه صفات النقص والعيب، ويُنزه كلامه من أن يكون تعمية وتضليلًا، فإذا قال: بأن الله ليس له سمع، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة، لم ينَزّه الله، بل وصمه بأعيب العيوب، ووصم كلامه بالتعمية والتضليل؛ لأن الله يكرر ذلك في كلامه ويثبته، ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فإذا أثبته في كلامه وهو خالٍ منه؛ كان في غاية التعمية والتضليل والقدح في كلام الله ﷻ ومنهم من سلك مسلك التمثيل زاعمًا بأنه محقق لما وصف الله به نفسه؛ وقد ضلوا لأنهم لم يقدروا الله حق قدره؛ إذ وصموه بالعيب والنقص؛ لأنهم جعلوا الكامل من كل وجه كالناقص من كل وجه.

وإذا كان اقتران تفضيل الكامل علىٰ الناقص يحط من قدره، كما قيل:

ألم تـر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضىٰ من العصا

فكيف بتمثيل الكامل بالناقص؟! هذا أعظم ما يكون جنايةً في حق الله ﷻ وإن كان المعطلون أعظم جرمًا، لكن الكل لم يقدر الله حق قدره.

فالواجب: أن نؤمن بما وصف الله وسمَّىٰ به نفسه في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل. هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم.

فالتحريف في النصوص، والتعطيل في المعتقد، والتكييف في الصفة، والتمثيل في الصفة، إلا أنه أخص من التكييف؛ فكل ممثل مكيف، ولا عكس؛ فيجب أن تبرأ عقيدتنا من هذه الأمور الأربعة.

ونعني بالتحريف هنا: التأويل الذي سلكه المحرفون لنصوص الصفات؛ لأنهم سموا أنفسهم أهل التأويل، لأجل تلطيف المسلك الذي سلكوه؛ لأن النفوس تنفرُ من كلمة تحريف، لكن هذا من باب زخرفة القول وتزيينه للناس، حتىٰ لا ينفروا منه.

وحقيقة تأويلهم: التحريف، وهو صرف اللفظ عن ظاهره؛ فنقول: هذا الصرف إن دل عليه دليل صحيح؛ فليس تأويلًا بالمعنىٰ الذي تريدون، لكنه تفسير، وإن لم يدل عليه دليل؛ فهو تحريف، وتغيير للكلم عن مواضعه؛ فهؤلاء الذين ضلوا بهذه الطريقة، فصاروا يثبتون الصفات لكن بتحريف؛ قد ضلوا، وصاروا في طريق معاكس لطريق أهل السنة والجماعة.

وعليه لا يمكن أن يوصفوا بأهل السنة والجماعة؛ لأن الإضافة تقتضي النِّسبة، فأهل السنة منتسبون للسنة؛ لأنهم متمسكون بها، وهؤلاء ليسوا متمسكين بالسنة فيما ذهبوا إليه من التحريف.

وأيضًا الجماعة في الأصل: الاجتماع، وهم غير مجتمعين في آرائهم؛ ففي كتبهم التداخل، والتناقض، والاضطراب، حتىٰ إن بعضهم يضلل بعضًا، ويتناقض هو بنفسه.

وقد نقل شارح «الطحاوية» عن الغزالي -وهو ممن بلغ ذِروَةَ علم الكلام- كلامًا إذا قرأه الإنسان تبين له ما عليه أهل الكلام من الخطأ والزلل والخطل، وأنهم ليسوا علىٰ بينة من أمرهم.

وقال الرازي وهو من رؤسائهم:

نهايــــة إقــــدام العقـــــول عقـــــال ... وأكثـــــر ســـــعي العـــــالمين ضـــــلال

وأرواحنـــا وفي وحـــشة مـــن جـــسومنا ... وغايـــــة دنيانـــــا أذىٰ ووبــــــال

ولم نـــستفد مـــن بحثنـــا طـــول عمرنـــا ... ســـوىٰ أن جمعنـــا فيـــه قيـــل وقـــالوا

ثم قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[طه:٥] ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر:١٠]؛ يعني: فأثبت، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾[طه:١١٠]؛ يعني: فأنفي المماثلة، وأنفي الإحاطة به علمًا، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

فتجدهم حيارىٰ مضطربين، ليسوا علىٰ يقين من أمرهم، وتجد من هداه الله الصراط المستقيم مطمئنًا منشرح الصدر، هادئ البال، يقرأ في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات؛ فيُثبت؛ إذ لا أحد أعلم من الله بالله، ولا أصدق خبرًا من خبر الله، ولا أصح بيانًا من بيان الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾[النساء:٢٦]، ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾[النساء:١٧٦]، ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾[النحل:٨٩]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[النساء:١٢٢]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[النساء:٨٧].

فهذه الآيات وغيرها تدل علىٰ أن الله يبين للخلق غاية البيان الطريق التي توصلهم إليه، وأعظم ما يحتاج الخلق إلىٰ بيانه ما يتعلق بالله تعالىٰ وبأسماء الله وصفاته حتىٰ يعبدوا الله علىٰ

بصيرة؛ لأن عبادة من لم نعلم صفاته، أو من ليس له صفة أمر لا يتحقق أبدًا؛ فلابد أن تعلم من صفات المعبود ما تجعلك تلتجئ إليه وتعبده حقًا.

ولا يتجاوز الإنسان حده إلىٰ التكييف أو التمثيل؛ لأنه إذا كان عاجزًا عن تصور نفسه التي بين جنبيه؛ فمن باب أولىٰ أن يكون عاجزًا عن تصور حقائق ما وصف الله به نفسه؛ ولهذا يجب علىٰ الإنسان أن يمنع نفسه عن السؤال بـ «لِمَ» و«كيف» فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته. وكذا يمنع نفسه من التفكير بالكيفية.

وهذا الطريق إذا سلكه الإنسان استراح كثيرًا، وهذه حال السلف رحمهم الله؛ ولهذا لما جاء رجل إلىٰ الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: يا أبا عبدالله! ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، كيف استوىٰ؟ فأطرق برأسه وقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا.

أما في عصرنا الحاضر؛ فنجد من يقول: إن الله ينزل إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر كل ليلة، فيلزم من هذا أن يكون كل الليل في السماء الدنيا؛ لأن الليل يمشي علىٰ جميع الأرض؛ فالثلث ينتقل من هذا المكان إلىٰ المكان الآخر، وهذا لم يقله الصحابة رضوان الله عليهم، ولو كان هذا يرد علىٰ قلب المؤمن؛ لبينه الله إما ابتداءً أو علىٰ لسان رسوله ﷺ: أو يقيض من يسأله عنه فيجاب، كما سأل الصحابة رسول الله ﷺ أين كان الله قبل أن يخلق السماوات والأرض، فأجابهم[٢٤].

فهذا السؤال العظيم يدل علىٰ أن كل ما يحتاج إليه الناس فإن الله يبينه بأحد الطرق الثلاثة.

والجواب عن الإشكال في حديث النزول[٢٥]: أن يقال: ما دام ثلث الليل الأخير في هذه الجهة باقيًا؛ فالنزول فيها محقق، وفي غيرها لا يكون نزول قبل ثلث الليل الأخير أو النصف، والله ﷻ ليس كمثله شيء، والحديث يدل علىٰ أن وقت النزول ينتهي بطلوع الفجر.

وعلينا أن نستسلم، وأن نقول: سمعنا، وأطعنا، واتبعنا، وآمنا؛ فهذه وظيفتنا لا نتجاوز القرآن والحديث.

---

(٢٤) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالىٰ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، برقم (٣١٩١)، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢٥) أخرجه البخاري، كتاب: أبواب التهجد، باب: الدعاء والصلاة من آخر الليل، برقم (١١٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

۞ الآية الأولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾استثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ أي: ما خلق الجن والإنس لأي: شيء إلا للعبادة.

و«اللام» في قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾للتعليل، وهذا التعليل لبيان الحكمة من الخلق، وليس التعليل الملازم للمعلول؛ إذ لو كان كذلك للزم أن يكون الخلق كلهم عبادًا يتعبدون له، وليس الأمر كذلك؛ فهذه العلة غائية، وليست موجبة.

فالعلة الغائية لبيان الغاية والمقصود من هذا الفعل، لكنها قد تقع، وقد لا تقع. مثل: بريتُ القلم لأكتب به؛ فقد تكتب، وقد لا تكتب.

والعلة الموجبة معناها: أن المعلول مبني عليها؛ فلابد أن تقع، وتكون سابقة للمعلول، ملازمة له. مثل: انكسر الزجاج لشدة الحَرَّة.

قوله: ﴿خَلَقْتُ﴾؛ أي: أوجدت، وهذا الإيجاد مسبوق بتقدير، وأصل الخلق التقدير.

قال الشاعر.

ولأنــــت تفــــري مــــا خلقـــت وبعــض النــاس يخلـق ثـم لا يفــري

قوله: ﴿الْجِنَّ﴾: هم عالمٌ غيبيٌ مخفيٌ عنا؛ ولهذا جاءت المادة من «الجيم» و«النون»، وهما يدلان علىٰ الخفاء والاستتار. ومنه: الجَنَّة، والجِنَّة، والجُنَّة.

قوله: ﴿وَالْإِنسَ﴾سُمُّوا بذلك؛ لأنهم لا يعيشون بدون إيناس؛ فهم يأنس بعضهم ببعض، ويتحرك بعضهم إلىٰ بعض.

قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾فُسِّر: إلا ليوحدون، وهذا حق، وفُسِّر بمعنىٰ: يتذللون لي بالطاعة فِعلًا للمأمور، وتركًا للمحظور، ومن طاعته أن يُوحَّد سبحانه وتعالىٰ؛ فهذه هي الحكمة من خلق الجن والإنس.

ولهذا أعطىٰ الله البشر عقولًا، وأرسل إليهم رسلًا، وأنزل عليهم كتبًا، ولو كان الغرض من خلقهم كالغرض من خلق البهائم؛ لضاعت الحكمة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ لأنه في النهاية يكون كشجرة نبتت، ونمت، وتحطمت.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص:٨٥]؛ فلابد أن يردك إلى معادٍ تجازىٰ على عملك إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وليست الحكمة من خلقهم نفع الله؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[الذريات:٥٧].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾[البقرة:٢٤٥].

فهذا ليس إقراضًا لله سبحانه، بل هو غنيٌّ عنه، لكنه سبحانه شبه معاملة عبده له بالقرض؛ لأنه لا بد من وفائه، فكأنه التزامٌ من الله سبحانه أن يُوفي العامل أجر عمله كما يُوفي المقترض من أقرضه.

❁ الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾: «اللام» موطئه لقسم مقدر، و«قد»: للتحقيق.وعليه؛ فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، و«اللام»، و«قد».

قوله: ﴿بَعَثْنَا﴾؛ أي: أخرجنا، وأرسلنا في كل أمة. والأمة هنا: الطائفة من الناس، وتطلق الأمة في القرآن على أربعة معانٍ:

أ- الطائفة: كما في هذه الآية.

ب- الإمام، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[النحل:١٢٠].

ج- الملة: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[الزخرف:٢٣].

د- الزمن: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[يوسف:٤٥].

فكل أمة بُعث فيها رسول من عهد نوح إلىٰ عهد نبينا محمد ﷺ.

والحكمة من إرسال الرسل:

أ- إقامة الحُجة؛ قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥].

ب- الرحمة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧].

ج- بيان الطريق الموصل إلى الله تعالىٰ؛ لأن الإنسان لا يعرف ما يجب لله على وجه التفصيل إلا عن طريق الرسل.

قوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ «أن»: قيل: تفسيرية، وهي التي سبقت بما يدل على القول دون حروفه؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، والوحي فيه معنى القول دون حروفه، والبعث متضمن معنى الوحي؛ لأن كل رسول مُوحىً إليه.

وقيل: إنها مصدرية على تقدير «الباء»؛ أي: بأن اعبدوا، والراجح: الأول؛ لعدم التقرير.

قوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [المؤمنون:٣٢]؛ أي: تذللوا له بالعبادة، وسبق تعريف العبادة.

قوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: ابتعدوا عنه بأن تكونوا في جانب، وهو في جانب. والطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو صفة مشبهة، والطغيان: مجاوزة الحد؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]؛ أي: تجاوز حده.

وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه: «ما تجاوز به العبد حده من متبوع، أو معبود، أو مطاع».

ومراده من كان راضيًا بذلك، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابده، وتابعه، ومطيعه؛ لأنه تجاوز به حده حيث نَزَّله فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادته لهذا المعبود، واتباعه لمتبوعه، وطاعته لمطاعه طغيانًا لمجاوزته الحد بذلك.

فالمتبوع مثل: الكهان، والسحرة، وعلماء السوء.

والمعبود مثل: الأصنام.

والمطاع مثل: الأمراء الخارجين عن طاعة الله، فإذا اتخذهم الإنسان أربابًا يحل ما حرم الله من أجل تحليلهم له، ويحرم ما أحل الله من أجل تحريمهم له؛ فهؤلاء طواغيت، والفاعل تابع للطاغوت، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١]، ولم يقل: إنهم طواغيت.

ودلالة الآية على التوحيد: أن الأصنام من الطواغيت التي تعبد من دون الله.

والتوحيد لا يتم إلا بركنين، هما:

١ - الإثبات.

٢ - النفي.

إذ النفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع المشاركة. مثال ذلك: زيدٌ قائم، يدل على ثبوت القيام لزيد، لكن لا يدل على انفراده به.

ولم يقم أحد، هذا نفي محض. ولم يقم إلا زيد، هذا توحيد له بالقيام؛ لأنه اشتمل على إثبات ونفي.

قوله: «الآية»؛ أي: إلى آخر الآية، وتُقرأ بالنصب؛ إما على أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره أكمل الآية، أو أنها منصوب بنزع الخافض؛ أي: إلى آخر الآية.

ووجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنها دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

۞ الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء:٢٣]. الآية.

قوله: ﴿وَقَضَىٰ﴾ قضاء الله ﷻ ينقسم إلى قسمين:

١- قضاء شرعي.

٢- قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقضي عليه وعدمه، ولا يكون إلا فيما يحبه الله.

مثال ذلك: هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]، فتكون قضى بمعنى: شرع، أو بمعنى: وصى، وما أشبههما.

والقضاء الكوني: لابد من وقوعه، ويكون فيما أحبه الله، وفيما لا يحبه.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٤] فالقضاء هنا كوني؛ لأن الله لا يشرع الفساد في الأرض، ولا يحبه.

قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾. ﴿أَن﴾ هنا مصدرية بدليل حذف النون من تعبدوا، والاستثناء هنا مفرغ؛ لأن الفعل لم يأخذ مفعوله؛ فمفعوله ما بعد «إلا».

قوله: ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾: ضمير نصب منفصل واجب الانفصال؛ لأن المتصل لا يقع بعد «إلا»، قال ابن مالك:

وذو اتصال منه ما لا يبتدا ... ولا يلي إلا اختيارًا أبدًا

إشكال وجوابه:

إذا قيل: ثبت أن الله قضى كونًا ما لا يحبه؛ فكيف يقضي الله ما لا يحبه؟

فالجواب: أن المحبوب قسمان:

١ - محبوب لذاته.

٢ - محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهًا لذاته، ولكن يُحَبُّ لما فيه من الحكمة والمصلحة؛ فيكون حينئذٍ محبوبًا من وجه، مكروهًا من وجه آخر. مثال ذلك: الفساد في الأرض من بني إسرائيل في حد ذاته مكروه إلى الله؛ لأن الله لا يحب الفساد، ولا المفسدين، ولكن للحكمة التي يتضمنها يكون بها محبوبًا إلى الله ﷻ من وجه آخر. ومن ذلك: القحط، والجدب، والمرض، والفقر؛ لأن الله رحيم لا يحب أن يؤذي عباده بشيء من ذلك، بل يريد بعباده اليُسر، لكن يقدره للحِكم المترتبة عليه؛ فيكون محبوبًا إلى الله من وجه، مكروهًا من وجه آخر.

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١].

فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوبًا من وجه مكروهًا من وجه آخر؟

فيقال: هذا الإنسان المريض يعطى جرعة من الدواء مُرَّة كريهة الرائحة واللون، فيشربها، وهو يكرهها لما فيها من المرارة واللون والرائحة، ويحبها لما فيها من الشفاء، وكذا الطبيب يكوي المريض بالحديدة المحماة على النار، ويتألم منها؛ فهذا الألم مكروه له من وجه، محبوب له من وجه أخر.

فإن قيل: لماذا لم يكن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ من باب القضاء القدري؟

أجيب: بأنه لا يمكن؛ إذ لو كان قضاءً قدريًّا لعبد الناس كلهم ربهم، لكنه قضاء شرعي قد يقع وقد لا يقع.

والخطاب في الآية للنبي ﷺ ولكن، لكنه قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ولم يقل «أن لا تعبد»، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[الطلاق: ١]؛ فالخطاب الأول للرسول ﷺ والثاني عام؛ فما الفائدة من تغيير الأسلوب؟

أجيب: إن الفائدة من ذلك:

١ - التنبيه؛ إذ تنبيه المخاطب أمر مطلوب للمتكلم، وهذا حاصل هنا بتغيير الأسلوب.

٢ - أن النبي ﷺ زعيم أمته، والخطاب الموجه إليه موجه لجميع الأمة.

٣ - الإشارة إلى أن ما خوطب به الرسول ﷺ فهو له ولأمته؛ إلا ما دلّ الدليل على أنه مختص به.

٤ - وفي هذه الآية خاصة الإشارة إلىٰ أن النبي ﷺ مربوب لا رب، عابد لا معبود؛ فهو داخل في قوله: ﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾، وكفىٰ به شرفًا أن يكون عبدًا لله ﷻ ولهذا يصفه الله تعالىٰ بالعبودية في أعلىٰ مقاماته؛ فقال في مقام التحدي والدفاع عنه: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾[البقرة:٢٣]، وقال في مقام إثبات نبوته ورسالته إلىٰ الخلق: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾[الفرقان:١].

وقال في مقام الإسراء والمعراج ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[الإسراء:١]، ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم:١٠].

أقسام العبودية:

تنقسم العبودية إلىٰ ثلاثة أقسام:

١ - عامة، وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق، قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[مريم:٩٣]، ويدخل في ذلك الكفار.

٢- عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة العامة، قال تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾[الفرقان:٦٣]، وهذه تعم كل من تعبد لله بشرعه.

٣- خاصَّة الخاصَّة، وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالىٰ عن نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾[الإسراء:٣]، وقال عن محمد: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾[البقرة:٢٣]، وقال في آخرين من الرسل: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[ص:٤٥].

فهذه العبودية المضافة إلىٰ الرسل خاصة الخاصة؛ لأنه لا يباري أحد هؤلاء الرسل في العبودية.

وقوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾؛ أي: قضىٰ ربك أن نحسن بالوالدين إحسانا، والوالدان: يشمل الأم، والأب، ومن فوقهما، لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلما قربا منك كانا أولىٰ بالإحسان، والإحسان: بذل المعروف، وفي قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾بعد قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾دليل علىٰ أن حق الوالدين بعد حق الله ﷻ.

فإن قيل: فأين حق الرسول ﷺ؟

أجيب: بأن حق الله متضمن لحق الرسول ﷺ؛ لأن الله لا يعبد إلا بما شرع الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[الإسراء:٢٣]؛ أي: كف الأذىٰ عنهما؛ ففي قوله: ﴿إِحْسَـٰنًا﴾: بذل المعروف، وفي قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾: كف الأذىٰ، ومعنىٰ «أف»: أتضجر؛ لأنك إذا قلته؛ فقد يتأذَّيان بذلك، وفي الآية إشارة إلىٰ أنهما إذا بلغا الكبر صارا عبئًا علىٰ ولدهما؛ فلا يتضجر من الحال، ولا ينهرهما في المقال إذا أساءا في الفعل أو القول.

قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[الإسراء:٢٣]، أي: لينًا حسنًا بهدوء وطمأنينة؛ كقولك: أعظم الله أجرك، أبشري يا أمي، أبشر يا أبي، وما أشبه ذلك؛ فالقول الكريم يكون في صيغته، وأدائه، والخطاب به، فلا يكون مزعجًا كرفع الصوت مثلًا، بل يتضمن الدعاء والإيناس لهما.

والشاهد في هذه الآية: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ فهذا هو التوحيد لتضمنه للنفي والإثبات.

❁ **الآية الرابعة قوله تعالىٰ:** ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦] **الآية.**

﴿وَلَا تُشْرِكُواْ﴾ في مقابل «لا إله»؛ لأنها نفي.

وقوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ﴾ في مقابل «إلا الله»؛ لأنها إثبات.

وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي؛ فتعم كل شيء: لا نبيًّا، ولا ملكًا، ولا وليًّا، بل ولا أمرًا من أمور الدنيا؛ فلا تجعل الدنيا شريكًا مع الله، والإنسان إذا كان همه الدنيا كان عابدًا لها؛ كما قال ﷺ «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة**»[٢٦].

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ يقال فيها ما قيل في الآية السابقة.

وقوله: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾؛ أي: إحسانًا.

وذو القربىٰ هم من يجتمعون بالشخص في الجد الرابع.

واليتامىٰ: جَمْعُ يتيم، وهو الذي مات أبوه، ولم يبلغ.

والمساكين: هم الذين عدموا المال فأسكنهم الفقر.

وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطعت به النفقة.

وقوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الجار: الملاصق للبيت، أو من حوله، وذي القربىٰ؛ أي: القريب، والجار الجنب؛ أي: الجار البعيد.

---

(٢٦) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله، برقم (٢٨٨٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾، قيل: إنه الزوجة، وقيل: صاحبك في السفر، لأنه يكون إلىٰ جنبك، ولكل منهما حق؛ فالآية صالحة لهما.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾هذا يشمل الإحسان إلىٰ الأرقاء والبهائم؛ لأن الجميع ملك اليمين.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾.

المختال: في هيئته.

والفخور: في قوله، والله لا يحب هذا ولا هذا.

❁ الآية الخامسة إلىٰ السابعة قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[الأنعام:١٥١].

الخطاب للنبيﷺ، أمره الله أن يقول للناس: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾؛ أي: أقبلوا، وهلموا، وأصله من العلو كأن المنادي يناديك أن تعلو إلىٰ مكانه، فيقول: تعال؛ أي: ارتفع إلي.

وقوله: ﴿أَتۡلُ﴾بالجزم جوابا للأمر في قوله: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾.

وقوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾«ما» اسم موصول مفعول ﴿أَتۡلُ﴾، والعائد محذوف، والتقدير: ما حرمه ربكم عليكم.

وقال: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ولم يقل: ما حرم الله؛ لأن الرب هنا أنسب، حيث إن الرب له مطلق التصرف في المربوب، والحكم عليه بما تقتضيه حكمته.

وقوله: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ﴾أن: تفسيرية، تفسر ﴿أَتۡلُ مَا حَرَّمَ﴾؛ أي: أتلو عليكم ألا تشركوا به شيئًا، وليست مصدرية، وقد قيل به، وعلىٰ هذا القول تكون «لا» زائدة، ولكن القول الأول أصح؛ أي: أتل عليكم عدم الإشراك؛ لأن الله لم يحرم علينا أن لا نشرك به، بل حرم علينا أن نشرك به، ومما يؤيد أنّ «أنْ» تفسيرية أن «لا» هنا ناهية لتتناسب الجمل؛ فتكون كلها طلبية.

وقوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾[الأنعام:١٥١]؛ أي: وأتل عليكم الأمر بالإحسان إلىٰ الوالدين.

وقوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم﴾، بعد أن ذكر حق الأصول ذكر حق الفروع.

والأولاد في اللغة العربية: يشمل الذكر والأنثىٰ، قال تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾[النساء:١١].

وقوله: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾[الأنعام:١٥١]، الإملاق: الفقر، و ﴿مِّنۡ﴾للسببية والتعليل؛ أي: بسبب الإملاق.

وقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾؛ أي: إذا أبقيتموهم؛ فإنّ الرزق لن يضيق عليكم بإبقائهم؛ لأن الذي يقوم بالرزق هو الله.

وبدأ هنا برزق الوالدين؛ وفي سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد، والحكمة في ذلك أنه قال هنا: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾؛ فالإملاق حاصل، فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾[الإسراء:٣١]؛ فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين.

وتقييد النهي عن قتل الأولاد بخشية الإملاق بناءً على واقع المشركين غالبًا، فلا مفهوم له.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾، لم يقل: لا تأتوا؛ لأن النهي عن القرب أبلغ من النهي عن الإتيان؛ لأن النهي عن القرب نهي عنها، وعما يكون ذريعة إليها؛ ولذلك حَرُم على الرجل أن ينظر إلى المرأة الأجنبية، وأن يخلو بها، وأن تسافر المرأة بلا محرم؛ لأن ذلك يقرب من الفواحش.

قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، قيل: ما ظهر فحشه، وما خفي؛ لأن الفواحش منها شيء مستفحش في نفوس جميع الناس، ومنها شيء فيه خفاء.

وقيل: ما أظهرتموه، وما أسررتموه، فالإظهار: فعل الزنا -والعياذ بالله- مجاهرةً، والإبطان فعله سرًّا.

وقيل: ما عظم فُحشُهُ، وما كان دون ذلك؛ لأن الفواحش ليست على حد سواء؛ ولهذا جاء في الحديث: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»[٢٧]، وهذا يدل على أن الكبائر فيها أكبر وفيها ما دون ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، النفس التي حرم الله: هي النفس المعصومة، وهي نفس المسلم، والذمي، والمُعاهد، والمستأمن؛ بكسر «الميم».

والحق: ما أثبته الشرع.

والباطل: ما نفاه الشرع.

فمن الحق الذي أثبته الشرع في قتل النفس المعصومة أن يزني المحصن فيُرجم حتى يموت، أو يقتل مكافئه، أو يخرج على الجماعة، أو يقطع الطريق؛ فإنه يقتل، قال ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثّيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[٢٨].

---

(٢٧) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور، برقم (٢٦٥٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٧) وغيرهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢٨) أخرجه البخاري، كتاب: الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ﴾، =

وقال هنا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وقال قبلها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم﴾؛ فيكون النهي عن قتل الأولاد مكررًا مرتين: مرة بذكر الخصوص، ومرة بذكر العموم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾، المشار إليه ما سبق، والوصية بالشيء هي العهد به على وجه الاهتمام، ولهذا يقال: وصيته على فلان؛ أي: عهدت به إليه ليهتم به.

وقوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، العقل هنا: حسن التصرف، وأما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف:٣]، فمعناه: تفهمون.

وفي هذا دليلٌ على أن هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان؛ فهو عاقل رشيد، وإذا خالفها؛ فهو سفيه ليس بعاقل.

وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا:

الأولى: توحيد الله.

الثانية: الإحسان بالوالدين.

الثالثة: أن لا نقتل أولادنا.

الرابعة: أن لا نقرب الفواحش.

الخامسة: أن لا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[الأنعام:١٥٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخصلة التي هي أحسن؛ فلا نقربها بأي: تصرف إلا بما نرى أنه أحسن، فإذا لاح للوليِّ تصرفان أحدهما أكثر ربحًا؛ فالواجب عليه أن يأخذ بما هو أكثر ربحًا لأنه أحسن.

والحسن هنا يشمل: الحسن الدنيوي، والحسن الديني، فإذا لاح تصرفان أحدهما أكثر ربحًا وفيه ربًا، والآخر أقل ربحًا وهو أسلم من الرِّبا؛ فنقدم الأخير؛ لأن الحسن الشرعي مقدم على الحسن الدنيوي المادي.

برقم (٦٨٧٨)، ومسلم، كتاب: القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: ما يباح به دم المسلم، برقم (١٦٧٦)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾هنا: حرف غاية؛ فما بعدها مخالف لما قبلها؛ أي: إذا بلغ أشده؛ فإننا ندفعه إليه بعد أن نختبره، وننظر في حسن تصرفه، ولا يجوز لنا أن نبقيه عندنا.

ومعنىٰ أشده: قوته العقلية والبدنية، والخطاب هنا لأولياء اليتامىٰ أو للحاكم علىٰ قول بعض أهل العلم، وبلوغ الأشد يختلف، والمراد به هنا الأشد الذي يكون به التكليف، وهو تمام خمس عشرة سنة، أو إنبات العانة أو الإنزال.

وقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾؛ أي: أوفوا الكيل إذا كلتم فيما يُكال من الأطعمة والحبوب.

وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يوزن؛ كاللحوم مثلًا.

والأمر بالإيفاء شاملٌ لجميع ما تتعامل به مع غيرك؛ فيجب عليك أن توفي بالكيل والوزن وغيرهما في التعامل.

وقوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾، أي: بالعدل، ولما كان قوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾قد يشق بعض الأحيان؛ لأن الإنسان قد يفوته أن يوفي الكيل أو الوزن أحيانًا، أعقب ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾؛ أي: طاقتها، فإذا بذل جهده وطاقته، وحصل النقص؛ فلا يعد مخالفًا؛ لأن ما خرج عن الطاقة معفوٌّ عنه فيه، وكما أن هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهو ما خرج عن الوسع؛ فإنها تفيد التغليظ من وجه، وهو أن علىٰ المرء أن يبذل وسعه في الإيفاء بالقسط، ولكن متىٰ تبين الخطأ وجب تلافيه؛ لأنه داخل في الوسع.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، معناه؛ أي: قول تقوله؛ فإنه يجب عليك أن تعدل فيه، سواء كان ذلك لنفسك علىٰ غيرك، أو لغيرك علىٰ نفسك، أو لغيرك علىٰ غيرك، أو لتحكم بين اثنين؛ فالواجب العدل؛ إذ العدل في اللغة الاستقامة، وضده الجور والميل، فلا تمل يمينًا ولا شمالًا، ولم يقل هنا ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾؛ لأن القول لا يشق فيه العدل غالبًا.

وقوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾؛ أي: المقول له ذا قرابة؛ أي: صاحب قرابة، فلا تحابيه لقرابته، فتميل معه علىٰ غيره من أجله؛ فاجعل أمرك إلىٰ الله ﷻ الذي خلقك، وأمرك بهذا، وإليه سترجع، ويسألك ﷻ ماذا فعلت في هذه الأمانة.

وقد أقسم أشرف الخلق، وسيد ولد آدم، وأعدل البشر، محمدﷺ، وقال: «**وايم الله؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها**»(٢٩).

وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾، قدم المتعلق؛ للاهتمام به، وعهد الله: ما عهد به إلى عباده، وهي عبادته سبحانه وتعالى والقيام بأمره؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[المائدة:١٢]، هذا ميثاق من جانب المخلوق، وقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾[المائدة:١٢]، هذا من جانب الله ﷻ.

الأولى: أن لا نقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثانية: أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.

الثالثة: أن نعدل إذا قلنا.

الرابعة: أن نوفي بعهد الله.

والآية الأولى فيها خمس وصايا. صار الجميع تسع وصايا.

ثم قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾، هذه هي الوصية العاشرة؛ فقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾ يحتمل أن المشار إليه ما سبق؛ لأنك لو تأملته وجدته محيطًا بالشرع كله؛ إما نصًّا، وإما إيماءً، ويحتمل أن المراد به ما علم من دين الله؛ أي: هذا الذي جاءكم به الرسولﷺ هو صراطي؛ أي: الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى.

والصراط يضاف إلى الله ﷻ ويضاف إلى سالكه؛ ففي قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة:٧] هنا أضيف إلى سالكه، وفي قوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[الشورى:٥٣] هنا أضيف إلى الله ﷻ؛ فإضافته إلى الله ﷻ لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذي وضعه لعباده -جل وعلا-، وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذين سلكوه.

---

(٢٩) أخرجه البخاري، كتاب: الحدود وما يحذر من الحدود، باب: كراهية الشفاعة في الحد إذا رُفِعَ إلى السلطان، برقم (٦٧٨٨)، ومسلم، كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، برقم (١٦٨٨)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ هذه حال من «صراط»؛ أي: حال كونه مستقيمًا لا اعوجاج فيه فاتبعوه.

وقوله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ السبل؛ أي: الطرق الملتوية الخارجة عنه، وتفرق: فعل مضارع منصوب «بأن» بعد «فاء السببية»، لكن حذفت منه «تاء المضارعة»، وأصلها: «تتفرق»؛ أي: أنكم إذا اتبعتم السبل تفرقت بكم عن سبيله، وتشتت بكم الأهواء وبعدت.

وهنا قال: ﴿ٱلسُّبُلَ﴾: جمع سبيل، وفي الطريق التي أضافها الله إلىٰ نفسه قال: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ سبيل واحد؛ لأن سبيل اللهﷻ واحد، وأما ما عداه؛ فسبل متعددة؛ ولهذا قال النبيﷺ: «**وستفترق هذه الأمة إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة**»؛ فالسبيل المنجي واحد، والباقية متشعبة متفرقة، ولا يرد علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦]؛ لأن «سبل» في الآية الكريمة؛ وإن كانت مجموعة؛ لكن أضيفت إلىٰ السلام فكانت منجية، ويكون المراد بها شرائع الإسلام.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ذلك المذكور وصاكم لتنالوا به درجة التقوىٰ، والالتزام بما أمر الله به ورسولهﷺ.

❁ **قوله**: «قال ابن مسعود: «من أراد... إلخ»:

الاستفهام هنا للحث والتشويق، و«اللام» في قوله: «**فليقرأ**» للإرشاد.

قوله: «**وصية محمد**»؛ الوصية بمعنىٰ العهد، ولا يكون العهد وصية إلا إذا كان في أمر هام.

وقوله: «**محمد**ﷺ»، أي: رسول الله محمد بن عبدالله الهاشمي القرشيﷺ، وهذا التعبير من ابن مسعود يدل علىٰ جواز مثله، مثل: قال محمد رسول اللهﷺ، ووصية محمدﷺ، ولا ينافي قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]؛ لأن دعاء الرسول هنا؛ أي: مناداته؛ فلا تقولوا عند المناداة: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسول الله! أما الخبر؛ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجوز أن تقول: أنا تابعٌ لمحمدﷺ أو اللهم صل علىٰ محمد، وما أشبه ذلك.

قوله: «**التي عليها خاتمه**»، الخاتم بمعنىٰ التوقيع.

وقوله: «**وصية محمد**ﷺ» ليست وصية مكتوبة مختومًا عليها؛ لأن النبيﷺ لم يوص بشيء، ويدل لذلك: أن أبا جحيفة سأل علي بن أبي طالب: هل عهد إليكم النبيﷺ بشيء؟ فقال: لا.

والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله تعالىٰ في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العَقْل، وفِكَاك الأسير، وأن لا يُقْتَلَ مسلم بكافر[٣٠].

فلا يظنّ أن النبيﷺ أوصىٰ بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة، لكن ابن مسعودﷺ يرىٰ أن هذه الآيات قد شملت الدين كلّه؛ فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول اللهﷺ وأبقاها لأمته.

وهي آيات عظيمة، إذا تدبرها الإنسان وعمل بها؛ حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة: العقل، والتذكر، والتقوىٰ.

وقوله: «**فليقرأ قوله تعالىٰ...**» إلخ الآيات سبق الكلام عليها.

وقوله: «**رديف**» بمعنىٰ: رادف؛ أي: راكب معه خلفه؛ فهو فعيل بمعنىٰ فاعل، مثل: رحيم بمعنىٰ راحم، وسميع بمعنىٰ سامع.

وقوله: «**علىٰ حمار**»: أي: أهلي؛ لأن الوحشي لا يركب.

وقوله: «**أتدري**»، أي: أتعلم.

قوله: «**ما حق الله علىٰ العباد؟**»؛ أي: ما أوجبه عليهم، وما يجب أن يعاملوه به، وألقاه علىٰ معاذ بصيغة السؤال؛ ليكون أشد حضورًا لقلبه حتىٰ يفهم ما يقولﷺ.

قوله: «**وما حق العباد علىٰ الله؟**»؛ أي: ما يجب أن يعاملهم به، والعباد لم يوجبوا شيئًا، بل الله أوجبه علىٰ نفسه فضلًا منه علىٰ عباده، قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: ٥٤].

فأوجب سبحانه علىٰ نفسه أن يرحم من عمل سوءًا بجهالة؛ أي: بسفه وعدم حسن تصرف ثم تاب من بعد ذلك وأصلح، ومعنىٰ كتب؛ أي: أوجب.

قوله: «**قلت: الله ورسوله أعلم**»؛ لفظ الجلالة «**الله**»: مبتدأ، و«**رسوله**»: معطوف عليه، وأعلم: خبر المبتدأ، وأفرد الخبر هنا مع أنه لاثنين؛ لأنه علىٰ تقدير: «مِنْ»، واسم التفضيل إذا كان علىٰ تقدير: «مِنْ»؛ فإن الأشهر فيه الإفراد والتذكير.

---

(٣٠) أخرجه البخاري، كتاب: الديات، باب: العاقلة، برقم (٦٩٠٣)، من حديث علي بن أبي طالب ﷺ موقوفًا.

والمعنىٰ: أعلم من غيرهما، وأعلم مني أيضًا.

قوله: «**يعبدوه**»؛ أي: يتذللوا له بالطاعة.

قوله: «**ولا يشركوا به شيئًا**»، أي: في عبادته وما يختص به، وشيئًا نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل شيء لا رسولًا ولا ملكًا ولا وليًّا ولا غيرهم.

وقوله: «**وحق العباد علىٰ الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»، وهذا الحق تفضل الله به علىٰ عباده، ولم يوجبه عليه أحد، ولا تظن أن قوله: «**من لا يشرك به شيئًا**» أنه مجرد عن العبادة؛ لأن التقدير: من يعبده ولا يشرك به شيئًا، ولم يذكر قوله: «من يعبده»؛ لأنه مفهوم من قوله: «**وحق العباد**»، ومن كان وصفه العبودية؛ فلابد أن يكون عابدًا.

ومن لم يعبد الله ولم يشرك به شيئًا؛ هل يعذب؟

الجواب: نعم، يعذب؛ لأن الكلام فيه حذف، وتقديره: من يعبده ولا يشرك به شيئًا، ويدل لهذا أمران:

الأول: قوله: «**حق العباد**»، ومن كان وصفه العبودية؛ فلابد أن يكون عابدًا.

الثاني: أن هذا في مقابل قوله فيما تقدم: «**أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا**»؛ فعلم أن المراد بقوله: «**لا يشركوا به شيئًا**»؛ أي: في العبادة.

قوله: «**أفلا أُبشر الناس**»؛ أي: أأسكت فلا أبشر الناس؟ ومثل هذا التركيب: الهمزة ثم حرف العطف ثم الجملة لعلماء النحو فيه قولان:

الأول: أنّ بين «الهمزة» وحرف العطف محذوفًا يقدر بما يناسب المقام، وتقديره هنا: أأسكت فلا أبشر الناس؟.

الثاني: أنه لا شيء محذوف، لكن هنا تقديم وتأخير، وتقديره: فألا أبشر؟ فالجملة معطوفة علىٰ ما سبق، وموضع «الفاء» سابق علىٰ «الهمزة»؛ فالأصل: فألا أبشر الناس؟ لكن لما كان مثل هذا التركيب ركيكًا، و«همزة الاستفهام» لها الصدارة؛ قُدِّمت علىٰ حرف العطف، ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[الغاشية:١٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[السجدة:٢٧] وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الحج:٤٦].

والبشارة: هي الإخبار بما يسر. وقد تستعمل في الإخبار بما يضر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق:٢٤]، لكن الأكثر الأول.

قوله: «**لا تبشرهم**»؛ أي: لا تخبرهم، ولا ناهية.

ومعنىٰ الحديث أن الله لا يعذب من لا يُشرِكُ به شيئًا، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهىٰ ﷺ عن إخبارهم؛ لئلا يعتمدوا علىٰ هذه البشرىٰ دون تحقيق مقتضاها؛ لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي؛ لأن المعاصي صادرة عن الهوىٰ، وهذا نوع من الشرك، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

ومناسبة الحديث للترجمة:

فضيلة التوحيد، وأنه مانع من عذاب الله.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: **الحكمة من خلق الجن والإنس**، أخذهارَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]؛ فالحكمة هي عبادة الله لا أن يتمتعوا بالمآكل والمشارب والمناكح.

الثانية: **أن العبادة هي التوحيد**؛ أي: أن العبادة مبنية علىٰ التوحيد؛ فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة، لاسيما أن بعض السلف فسروا قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: إلا ليوحدون.

وهذا مطابق تمامًا لما استنبطه المؤلفرَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن العبادة هي التوحيد؛ فكل عبادة لا تبنىٰ علىٰ التوحيد فهي باطلة، قال ﷺ: «**قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه**»[٣١].

وقوله: «**لأن الخصومة فيه**»؛ أي: في التوحيد بين الرسول ﷺ وقريش؛ فقريش يعبدون الله يطوفون له ويصلون، ولكن علىٰ غير الإخلاص والوجه الشرعي؛ فهي كالعدم لعدم الإتيان بالتوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٥٤].

وقوله في الثالثة: ففيه معنىٰ قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، لستم عابدين عبادتي؛ لأن عبادتكم مبنية علىٰ الشرك، فليست بعبادة لله تعالىٰ.

---

(٣١) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل: أخذهارَحِمَهُ اللهُ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة، أخذها من قوله تعال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل:٣٦].

السادسة: أن دين الأنبياء واحد، أخذها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]؛ لأن الشرعة العملية تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنة، وأما أصل الدين؛ فواحد، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

السابعة: المسالة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت. ودليله قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فمن عبَدَ الله ولم يكفر بالطاغوت؛ فليس بموحد؛ ولهذا جعل المؤلفرَحِمَهُ اللهُ هذه المسألة كبيرة؛ لأن كثيرًا من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.

تنبيه:

لا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئًا من ذلك؛ لأن الحكم بذلك في هذه وغيرها له أسباب وله موانع؛ فلا نقول لمن أكل الربا: ملعون؛ لأنه قد يوجد مانع يمنع من حلول اللعنة عليه؛ كالجهل مثلًا، أو الشبهة، وما أشبه ذلك، وكذا الشرك لا نطلقه على من فعل شركًا؛ فقد تكون الحجة ما قامت عليه بسبب تفريط علمائهم، وكذا نقول: من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا؛ غفر له ما تقدم من ذنبه، ولكن لا نحكم بهذا لشخص معين. إذ إن الحكم المعلق على الأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقق شروط انطباقه وانتفاء موانعه.

فإذا رأينا شخصًا يتبرز في الطريق؛ فهل نقول له: لعنك الله؟

الجواب: لا، إلا إذا أريد باللعن في قوله: «**اتقوا الملاعن**»[٣٢] أن الناس أنفسهم يلعنون هذا

(٣٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الطهارة، باب: المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، برقم (٢٦)، وابن ماجه، كتاب:

الشخص ويكرهونه، ويرونه مخلًا بالأدب مؤذيًا للمسلمين؛ فهذا شيء آخر.

فدعاء القبر شرك، لكن لا يمكن أن نقول لشخص معين فعله: هذا مشرك؛ حتىٰ نعرف قيام الحجة عليه، أو نقول: هذا مشرك باعتبار ظاهر حاله.

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله: فكل ما عُبِد من دون الله، فهو طاغوت، وقد عرَّفه ابن القيم: بأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مُطاع، فالمعبود كالصنم، والمتبوع كالعالِم، والمطاع كالأمير.

التاسعة: عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام: المحكمات؛ أي: التي ليس فيها نسخ، أخذ ذلك من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء: وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣]وفيها ثماني عشر مسألةً، بدأها الله بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[الإسراء:٢٢]. وختمها بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء:٣٩].

وقد نبهنا الله -سبحانه- علىٰ عظم شأن هذه المسائل بقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

فبدأها الله بالنهي عن الشرك بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، والقاعد ليس قائمًا؛ لأنه لا خير لمن أشرك بالله، مذمومًا عند الله وعند أوليائه، مخذولًا لا ينتصر في الدنيا ولا في الآخرة.

وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾[الإسراء:٣٩]، فهذه عقوبته عندما يُلقىٰ في النار كلٌّ يلومه ويدحره فيندحر والعياذ بالله.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمىٰ آية الحقوق العشرة، بدأها بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، فأحق الحقوق حق الله، ولا تنفع الحقوق إلا به فبُدئت هذه

=

الطهارة وسننها، باب: النهي عن الخلاء علىٰ قارعة الطريق، برقم (٣٢٨)، وغيرهما من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «في صحيح سنن أبي داود».

الحقوق به، ولهذا لما سأل النبيﷺ حكيم بن حزام عمن كان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له من أجر؟ فقال النبيﷺ: «**أسلمت على ما أسلفت من الخير**»[٣٣]؛ فدل على أنه إذا لم يسلم لم يكن له أجر، فصارت الحقوق كلها لا تنفع إلا بتحقيق حق الله.

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول اللهﷺ عند موته: وذلك من حديث ابن مسعود رضي الله عنه[٣٤]، ولكن النبيﷺ لم يوص بها حقيقةً، بل أشار إلى أننا إذا تمسكنا بكتاب الله؛ فلن نضلّ بعده، ومن أعظم ما جاء به كتاب الله قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام:١٥١].

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا: وذلك بأن نعبده ولا نشرك به شيئًا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقّه: وذلك بأن لا يعذّب من لا يشرك به شيئًا، أما من أشرك؛ فإنه حقيقٌ أن يُعذَّب.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة: وذلك أن معاذًا أخبر بها تأثّما، أي: خروجًا من إثم الكتمان عند موته بعد أن مات كثيرٌ من الصحابة. وكأنه رضي الله عنه علم أن النبيﷺ كان يخشى أن يفتتن الناس بها ويتكلوا ولم يردﷺ كتمها مطلقًا؛ لأنه لو أراد ذلك لم يخبر بها معاذًا ولا غيره.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة: هذه ليست على إطلاقها؛ إذ إن كتمان العلم على سبيل الإطلاق لا يجوز؛ لأنه ليس بمصلحة، ولهذا أخبر النبيﷺ معاذًا ولم يكتم ذلك مطلقًا، وأما كتمان العلم في بعض الأحوال، أو عن بعض الأشخاص لا على سبيل الإطلاق؛

---

(٣٣) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: من تصدق في الشرك ثم أسلم، برقم (١٤٣٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده، برقم (١٢٣)، وغيرهما من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٣٤) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنعام، برقم (٣٠٧٠)، والطبراني، برقم (١٠٠٦٠)، وفي «الأوسط»، برقم (١١٨٦)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال أبو عيسى الترمذي «هذا حديث حسن غريب»، وقال الطبراني في «الأوسط» «لم يرو هذا الحديث عن الشعبي إلا داود تفرد به محمد بن فضيل»، وضعف إسناده الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

فجائزٌ للمصلحة؛ كما كتم النبيﷺ ذلك عن بقية الصحابة خشية أن يتّكلوا عليه، وقال لمعاذ: «**لا تبشّرهم فيتّكلوا**»(٣٥).

ونظير هذا الحديث قولهﷺ لأبي هريرة: «**بشّر الناس أن من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنّة**»(٣٦).

بل قد تقتضي المصلحة ترك العمل؛ وإن كان فيه مصلحة لرجحان مصلحة الترك، كما هم النبيﷺ أن يهدم الكعبة ويبنيها علىٰ قواعد إبراهيم، ولكن ترك ذلك خشية افتتان الناس، لأنهم حديثو عهدٍ بكفرٍ(٣٧).

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره: لقوله: «**أفلا أبشّر الناس؟**»، وهذه من أحسن الفوائد.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتّكال علىٰ سعة رحمة الله: وذلك لقوله: «**لا تبشّرهم فيتكلوا**»؛ لأن الاتّكال علىٰ رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي الأمن من مكر الله.

وكذلك القنوط من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة ويسبب اليأس من رحمة الله، ولهذا قال الإمام أحمد: «ينبغي أن يكون سائرًا إلىٰ الله بين الخوف والرجاء؛ فأيهما غلب هلك صاحبه» فإذا غلب الرجاء أدىٰ ذلك إلىٰ الأمن من مكر الله، وإذا غلب الخوف أدىٰ ذلك إلىٰ القنوط من رحمة الله.

وقال بعض العلماء: إن كان مريضًا غلّب جانب الرجاء، وإن كان صحيحًا غلّب جانب الخوف.

وقال بعض العلماء: إذا نظر إلىٰ رحمة الله وفضله غلّب جانب الرّجاء، وإذا نظر إلىٰ فعله وعمله غلب جانب الخوف لتحصل التوبة.

ويستدلون بقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون:٦٠]؛ أي: خائفة أن لا يكون تقبل منهم لتقصير أو قصور، وهذا القول جيد، وقيل: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسن الظن بالله، ويغلب جانب الخوف إذا هم بالمعصية لئلا ينتهك حرمات الله.

---

(٣٥) سبق تخريجه.

(٣٦) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم (٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٧) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: فضل مكة وبنيانها، برقم (١٥٨٥)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: نقض الكعبة وبنائها، برقم (١٣٣٣)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي قوله: «**أفلا أبشّر الناس؟**» دليل علىٰ أن التبشير مطلوب فيما يسرّ من أمر الدين والدنيا؛ ولذلك بشّرت الملائكة إبراهيم، قال تعالىٰ: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[الذاريات:٢٨]، وهو إسحاق، والحليم إسماعيل، وبشّر النبي ﷺ أهله بابنه إبراهيم، فقال: «**ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم**»[(٣٨)]؛ فيؤخذ منه أنه ينبغي للإنسان إدخال السرور علىٰ إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول أو بالفعل؛ ليحصل له بذلك خيرٌ كثيرٌ وراحة وطمأنينة قلب وانشراح صدر.

وعليه؛ فلا ينبغي أن يدخل السوء علىٰ المسلم؛ ولهذا يروىٰ عن النبي ﷺ: «**لا يحدثني أحدٌ عن أحد بشيء، فإني أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصّدر**»[(٣٩)].

وهذا الحديث فيه ضعفٌ، لكن معناه صحيح؛ لأنه إذا ذكر عندك رجلٌ بسوءٍ؛ فسيكون في قلبك عليه شيءٌ ولو أحسن معاملتك، لكن إذا كنت تعامله وأنت لا تعلم عن سيئاته، ولا محذور في أن تتعامل معه؛ كان هذا طيبًا، وربما يقبل منك النصيحة أكثر، والنفوس ينفر بعضها من بعضٍ قبل الأجسام، وهذه مسائل دقيقةٌ تظهر للعاقل بالتأمّل.

التاسعة عشرة: قول المسئول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم، وذلك لإقرار النبي ﷺ معاذًا لما قالها، ولم ينكر النبي ﷺ علىٰ معاذٍ، حيث عطف رسول الله ﷺ علىٰ الله بالواو، وأنكر علىٰ من قال: «**ما شاء الله وشئت**»، وقال: «**أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وحده**»

فيُقال: إن الرسول ﷺ عنده من العلوم الشرعية ما ليس عند القائل، ولهذا لم ينكر الرسول ﷺ علىٰ معاذ. بخلاف العلوم الكونية القدرية؛ فالرسول ﷺ ليس عنده علم منها.

فلو قيل: هل يحرم صوم العيدين؟

جاز أن نقول: الله ورسوله أعلم؛ ولهذا كان الصحابة إذا أشكلت عليهم المسائل ذهبوا إلىٰ رسول الله ﷺ فيبينها لهم، ولو قيل: هل يتوقع نزول مطر في هذا الشهر؟ لم يجز أن نقول: الله ورسوله أعلم؛ لأنه من العلوم الكونية.

---

(٣٨) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ «إنا بك لمحزونون»، برقم (١٣٠٣)، ومسلم واللفظ له، كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ الصبيان...، برقم (٢٣١٥)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣٩) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: رفع الحديث من المجلس، برقم (٤٨٦٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض: وذلك لأن النبي ﷺ خص هذا العلم بمعاذ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

فيجوز أن نخصص بعض الناس بالعلم دون بعض، حيث إن بعض الناس لو أخبرته بشيء من العلم افتتن، قال ابن مسعود: «إنك لن تحدث قومًا بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[٤٠]، وقال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون»[٤١]. فيحدث كل أحد حسب مقدرته وفهمه وعقله.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه: النبي ﷺ أشرف الخلق جاهًا، ومع ذلك هو أشد الناس تواضعًا، حيث ركب الحمار وأردف عليه، وهذا في غاية التواضع؛ إذ إن عادة الكبراء عدم الإرداف، وركب ﷺ الحمار، ولو شاء لركب ما أراد، ولا منقصة في ذلك؛ إذ إن من تواضع لله ﷻ رفعه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة: وذلك أن النبي ﷺ أردف معاذًا، لكن يشترط للإرداف أن لا يشق على الدابة، فإن شق؛ لم يجز ذلك.

الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة: حيث أخبر النبي ﷺ معاذًا، وجعلها من الأمور التي يبشر بها.

الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ رضي الله عنه: وذلك أن النبي ﷺ خصه بهذا العلم، وأردفه معه على الحمار.

قال العلامة ابن فوزان:

موضوعُ هذا الكتاب؛ بيان التوحيد الذي أوجبه الله على عباده، وخلقهم لأجله وبيان ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب أو المستحب من الشرك الأصغر والبدع.

ومعنى كتاب: مصدر كتب بمعنى جمع، والكتابة بالقلم جمع الحروف والكلمات.

---

(٤٠)أخرجه مسلم (١/ ١٠) في المقدمة، باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع، برقم (٥) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

(٤١)أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، برقم (١٢٧)، من حديث عليٍّ رضي الله عنه موقوفًا، وقد ذكره البخاري قبل هذا الحديث -مباشرة- تعليقًا.

❁ قوله: «كتاب التوحيد»:

والتوحيد: مصدر وحده، أي: جعله واحدًا – والمراد به هنا: إفراد الله بالعبادة.

❁ قوله: ﴿خلقت﴾:

الخلق هو إبداع الشيء من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ.

﴿ليعبدون﴾: العبادة في اللغة: التذلل والخضوع. وشرعًا: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

والمعنىٰ الإجمالي للآية:

أن الله – تعالىٰ – أخبر أنه ما خلق الإنس والجن إلا لعبادته، فهي بيان للحكمة في خلقهم، فلم يرد منهم ما تريده السادة من عبيدها من الإعانة لهم بالرزق والإطعام، وإنما أراد المصلحة لهم.

ومناسبة الآية للباب:

أنها تدل علىٰ وجوب التوحيد، الذي هو إفراد الله بالعبادة؛ لأنه ما خلق الجن والإنس إلا لأجل ذلك.

ما يستفاد من الآية:

١ – وجوب إفراد الله بالعبادة علىٰ جميع الثقلين؛ الجن والإنس.

٢ – بيان الحكمة من خلق الجن والإنس.

٣ – أن الخالق هو الذي يستحق العبادة دون غيره ممن لا يخلُق؛ ففي هذا ردٌّ علىٰ عُبَّادِ الأصنام وغيرها.

٤ – بيان غنىٰ الله سبحانه وتعالىٰ عن خلقه وحاجة الخلق إليه؛ لأنه هو الخالق، وهم مخلوقون.

٥ – إثبات الحكمة في أفعال الله سبحانه.

❁ قوله: ﴿بَعَثْنَا﴾:

أرسلنا.

﴿كُلِّ أُمَّةٍ﴾: كل طائفةٍ وقرنٍ وجيلٍ من الناس.

﴿رَسُولًا﴾: الرسول: من أوحي إليه بشرع، وأُمر بتبليغه.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أفردوه بالعبادة.

﴿وَاجْتَنِبُوا﴾: اتركوا، وفارقوا.

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فكل ما عبد من دون الله – وهو راضٍ بالعبادة – فهو طاغوت.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

أن الله سبحانه يخبر أنه أرسل في كل طائفة وقرن من الناس رسولًا، يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، فلم يزل يرسل الرسل إلىٰ الناس بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في عهد نوحٍ إلىٰ أن ختمهم بمحمدٍ ﷺ.

مناسبة الآية للباب:

أن الدعوة إلىٰ التوحيد والنهي عن الشرك هي مهمة جميع الرسل وأتباعهم.

ما يستفاد من الآية:

١- أن الحكمة من إرسال الرسل هي الدعوة إلىٰ التوحيد، والنهي عن الشرك.

٢- أن دين الأنبياء واحد، وهو إخلاص العبادة لله وترك الشرك وإن اختلفت شرائعهم.

٣- أن الرسالة عمت كل الأمم، وقامت الحجة علىٰ كل العباد.

٤- عظم شأن التوحيد، وأنه واجب علىٰ جميع الأمم.

٥- في الآية ما في «لا إله إلا الله» من النفي والإثبات، فدلت علىٰ أنه لا يستقيم التوحيد إلا بهما جميعًا، وأن النفي المحض ليس بتوحيدٍ، والإثبات المحض ليس بتوحيدٍ.

قوله: ﴿وَقَضَىٰ﴾: أمر ووصىٰ، والمراد بالقضاء هنا القضاء الشرعي الديني، لا القضاء القدري الكوني.

﴿رَبُّكَ﴾: الرب هو المالك المتصرف، الذي ربّىٰ جميع العالمين بنعمته.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي: أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾؛ أي: وقضىٰ أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا، كما قضىٰ أن تعبدوه، ولا تعبدوا غيره.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

الإخبار أن الله – سبحانه وتعالىٰ – أمر ووصىٰ علىٰ ألسن رسله أن يعبد وحده دون ما سواه، وأن يحسن الولد إلىٰ والديه إحسانًا بالقول والفعل، ولا يسيء إليهما؛ لأنهما اللذان قاما بتربيته في حال صغره وضعفه، حتىٰ قوي وأشتد.

مناسبة الآية للباب:

أن التوحيد هو آكد الحقوق وأوجب الواجبات؛ لأن الله بدأ به في الآية، ولا يبتدأ إلا بالأهم فالأهم.

ما يستفاد من الآية:

١- أن التوحيد هو أول ما أمر الله به من الواجبات، وهو أول الحقوق الواجبة على العبد.

٢- ما في كلمة «لا إله إلا الله» من النفي والإثبات، ففيها دليل على أن التوحيد لا يقوم إلا على النفي والإثبات: «نفي العبادة عما سوى الله وإثباتها لله»، كما سبق.

٣- عظمة حق الوالدين حيث عطف حقهما على حقه، وجاء في المرتبة الثانية.

٤- وجوب الإحسان إلى الوالدين بجميع أنواع الإحسان، لأنه لم يخصّ نوعًا دون نوع.

٥- تحريم عقوق الوالدين.

قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟﴾: اتركوا الشرك، وهو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

﴿شَيْـًٔا﴾: نكرة في سياق النهي، فتعم الشرك: كبيره وصغيره.

المعنى الإجمالي للآية:

يأمر الله - سبحانه - عباده بعبادته وحده لا شريك له، وينهاهم عن الشرك، ولم يخص نوعًا من أنواع العبادة، لا دعاء ولا صلاةً ولا غيرهما؛ ليعم الأمر جميع أنواع العبادة، ولم يخص نوعًا من أنواع الشرك، ليعمَّ النهي جميع أنواع الشرك.

مناسبة الآية للباب:

أنها ابتدأت بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، ففيها تفسير التوحيد بأنه عبادة الله وحده وترك الشرك.

ما يستفاد من الآية:

١- وجوب إفراد الله بالعبادة؛ لأن الله أمر بذلك أولًا، فهو آكدُ الواجبات.

٢- تحريم الشرك؛ لأن الله نهى عنه، فهو أشد المحرمات.

٣- أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة؛ لأن الله قرن الأمر بالعبادة بالنهي عن الشرك.

٤- أن الشرك حرام قليله وكثيره، كبيره وصغيره؛ لأن كلمة «شيئًا» نكرة في سياق النهي، فتعم كل ذلك.

٥- أنه لا يجوز أن يشرك مع الله أحد في عبادته، لا ملك ولا نبي، ولا صالح من الأولياء ولاصنم؛ لأن كلمة «شيئًا» عامة.

قوله:

﴿تَعَالَوْا﴾: هلموا وأقبلوا.

﴿أَتْلُ﴾: أقصص عليكم و أخبركم.

﴿حَرَّمَ﴾: الحرام الممنوع منه، وهو ما يعاقب فاعله ويثاب تاركه الآيات؛ أي: إلىٰ آخر الآيات الثلاث من سورة الأنعام. من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ إلىٰ قوله في ختام الآية الثالثة: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يأمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم تقربًا للأصنام، فعلوا ذلك بآرائهم وتسويل الشيطان لهم: هلموا أقص عليكم ما حرم خالقكم وما لِكُكُم تحريمًا حقًّا لا تخرصًا وظنًّا، بل بوحيٍ منه، وأمرٍ من عنده، وذلك فيما وصاكم به في هذه الوصايا العشر، التي هي:

أولًا: وصاكم ألا تشركوا به شيئًا، وهذا نهي عن الشرك عمومًا؛ فشمل كل مشركٍ به من أنواع المعبودات من دون الله، وكل مشركٍ فيه من أنواع العبادة.

ثانيًا: ووصاكم أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا، ببرهما وحفظهما وصيانتهما وطاعتهما في غير معصية الله، وترك الترفع عليهما.

ثالثًا: ووصاكم أن لا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ؛ أي: لا تئدوا بناتكم، ولا تقتلوا أبناءكم خشية الفقر، فإني رازقكم ورازقهم، فلستم ترزقونهم، بل ولا ترزقون أنفسكم.

رابعًا: ووصاكم أن لا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ أي: المعاصي الظاهرة والخفية.

خامسًا: ووصاكم أن لا تقتلوا النفس التي رحم الله قتلها، وهي النفس المؤمنة والمعاهدة إلا بالحق، الذي يبيح قتلها من قصاص أو زنًا بعد إحصانٍ أو ردةٍ بعد إسلامٍ.

سادسًا: ووصاكم أن لا تقربوا مال اليتيم – وهو الطفل الذي مات أبوه – إلا بالتي هي أحسن من تصريفه بما يحفظه، وينميه له حتىٰ تدفعوه إليه حين يبلغ أشده؛ أي: الرشد وزوال السفه مع البلوغ.

سابعًا: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[الأنعام:١٥٢]؛ أي: أقيموا العدل في الأخذ والإعطاء حسب استطاعتكم.

ثامنًا: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[الأنعام:١٥٢].

أمر بالعدل في القول على القريب والبعيد بعد الأمر بالعدل في الفعل.

تاسعًا: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾؛ أي: وصيته التي وصاكم بها ﴿أَوْفُوا﴾؛ أي: انقادوا لذلك بأن تطيعوه فيما أمر به ونهىٰ عنه، وتعملوا بكتابه وسنة نبيه.

عاشرًا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[الأنعام:١٥٣]؛ أي: الذي أوصيتكم به في هاتين الآيتين من ترك المنهيات، وأعظمها الشرك. وفعل الواجبات، وأعظمها التوحيد، هو الصراط المستقيم.

﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾[الأنعام:١٥٣] البدع والشبهات.

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[الأنعام:١٥٣] تميل وتشتت بكم عن دينه.

مناسبة الآيات للباب:

أن الله -سبحانه- ذكر فيها جملًا من المحرمات ابتدأها بالنهي عن الشرك، والنهي عنه يستدعي الأمر بالتوحيد بالاقتضاء، فدلّ ذلك علىٰ أنّ التوحيد أوجب الواجبات، وأن الشرك أعظم المحرمات.

ما يستفاد من الآيات:

١- أن الشرك أعظم المحرمات، وأن التوحيد أوجب الواجبات.

٢- عظم حق الوالدين.

٣- تحريم قتل النفس بغير حق، لا سيما إذا كان المقتول من ذوي القربىٰ.

٤- تحريم أكل مال اليتيم، ومشروعية العمل علىٰ إصلاحه.

٥- وجوب العدل في الأقوال والأفعال علىٰ القريب والبعيد.

٦- وجوب الوفاء بالعهد.

٧- وجوب اتباع دين الإسلام وترك ما عداه.

٨- أن التحليل والتحريم حق الله.

قوله:

«ابن مسعود»: هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، صحابي جليل من السابقين الأولين، من كبار علماء الصحابة، لازم النبي ﷺ وتوفي سنة ٣٢هـ.

«وصية»: هي الأمر المؤكد المقرر.

«خاتمه»: الخاتم بفتح «التاء» وكسرها، حلقة ذات فص من غيرها، وختمت على الكتاب بمعنى طبعت.

المعنى الإجمالي للأثر:

يذكر ابن مسعود رضي الله عنه: أن الرسول ﷺ لو وصى لم يوص إلا بما وصى به الله تعالى، فإن الله قد وصى بما في هذه الآيات؛ لأنه سبحانه قد ختم كل آية منها بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ﴾[الأنعام:١٥٢]، وإنما قال ابن مسعود ذلك لما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين أن يكتب لنا رسول الله ﷺ وصيته، فذكرهم ابن مسعود رضي الله عنه أن عندهم من القرآن ما يكفيهم، فإنَّ النبي ﷺ لو وصى لم يوص إلا بما في كتاب الله.

مناسبة هذا الأثر للباب:

بيان أن ما ذكر في هذه الآيات كما هو وصية الله فهو وصية رسوله ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ يوصي بما أوصى الله به.

ما يستفاد من قول ابن مسعود:

١- أهمية هذه الوصايا العشر.

٢- أن الرسول ﷺ يوصي بما أوصى به الله؛ فكل وصية لله فهي وصية لرسوله ﷺ.

٣- عمق علم الصحابة، ودقة فهمهم لكتاب الله.

قوله: «معاذ»: هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن كعب بن عمرو الخزرجي الأنصاري صحابي جليل مشهور من أعيان الصحابة، وكان متبحرًا في العلم والأحكام والقرآن، شهد غزوة بدر وما بعدها واستخلفه النبي ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم ثم بعثه إلى اليمن قاضيًا ومعلمًا مات بالشام سنة ١٨ هـ وله ٣٨ عامًا.

«رديف»: الرديف هو الذي تحمله خلفك على ظهر الدابة.

«أتدري؟»: هل تعرف؟

«حق الله»: ما يستحقه، ويجعله متحتمًا علىٰ العباد.

«حق العباد علىٰ الله»: ما كتبه علىٰ نفسه تفضلًا منه وإحسانًا.

«أبشر الناس»: أخبرهم بذلك لِيُسَرُّوا به.

«يتكلوا»: يعتمدوا علىٰ ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أن النبي ﷺ أراد أن يُبين وجوب التوحيد علىٰ العباد وفضله، فألقىٰ ذلك بصيغة الاستفهام؛ ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم، فلما بين ﷺ لمعاذ فضل التوحيد، استأذنه معاذ أن يخبر بذلك الناس ليستبشروا، فمنعه النبي ﷺ من ذلك خوفًا من أن يعتمد الناس علىٰ ذلك فيقللوا من الأعمال الصالحة.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه تفسير التوحيد بأنه عبادة الله وحده لا شريك له.

ما يستفاد من الحديث:

١- تواضع النبي ﷺ حيث ركب الحمار وأردف عليه. خلاف ما عليه أهل الكبر.

٢- جواز الإرداف علىٰ الدابة إذا كانت تطيق ذلك.

٣- التعليم بطريقة السؤال والجواب.

٤- أن من سئل عما لا يعلم ينبغي له أن يقول: الله أعلم.

٥- معرفة حق الله علىٰ العباد وهو أن يعبدوه وحده لا شريك له.

٦- أن من لم يتجنب الشرك لم يكن آتيًا بعبادة الله حقيقةً ولو عبده في الصورة.

٧- فضل التوحيد وفضل من تمسك به.

٨- تفسير التوحيد وأنه عبادة الله وحده وترك الشرك.

٩- استحباب بشارة المسلم بما يسره.

١٠- جواز كتمان العلم للمصلحة.

١١- تأدب المتعلم مع معلمه.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «كتاب التوحيد وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]»:

جرت عادة المصنفين والمؤلفين، أن يضعوا بعد البسملة والحمدلة خطبة للكتاب، يبينون فيها طريقتهم فيه، ومرادهم من تأليفه، وهاهنا سؤال معروف، وهو: لماذا خالف الشيخ رَحِمَهُ اللهُ طريقة المصنفين، فلم يجعل للكتاب خطبة يبين فيها طريقته، بل قال: «**كتاب التوحيد**» وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، فأخلاه من الخطبة؟

والسبب في ذلك، والسر فيه -فيما يظهر لي-: أن التوحيد الذي سيبينه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا الكتاب هو توحيد الله -جل جلاله-، وتوحيد الله قد بينه الله -جل وعلا- في القرآن، فكان -لذلك- من الأدب في مقام التوحيد ألا يَجعل فاصلًا بين الحق والدال على الحق وكلام الدال عليه، فالحق الذي لله هو التوحيد، والذي دل على هذا الحق هو الله -جل جلاله- والدليل عليه هو كلامه، وكلام رسوله ﷺ وهذا من لطائف أثر التوحيد في القلب، وهذا كصنيع الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه[٤٢]، إذ لم يجعل لصحيحه خطبة، بل جعل صحيحه مبتدأً بالحديث؛ ذلك أن كتابه كتاب سنة، ومن المعلوم أن من الأدب، أو من مراعاة الأدب: ألا يتقدَّم بين يدي الله ورسوله، فلم يقدِّم كلامه على كلام رسوله ﷺ فجعل البخاري صحيحه مفتتحًا بقول الرسول ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[٤٣] لأن كتابه كتاب سنة، فجعل كتابه في ابتدائه مبتدأً بكلام صاحب السنة -عليه الصلاة والسلام-. وهذا من لطيف المعاني التي يرعاها من نَوَّرَ الله قلوبهم لمعرفة حقه، وحق رسوله ﷺ.

❁ **قوله**: «كتاب التوحيد»:

التوحيد: مصدر وحَّدَ يوحِّد توحيدًا، وقد جاء هذا اللفظ (التوحيد) بقلة، وجاء في السنة الدعوة إلى توحيد الله، كما ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن

---

(٤٢) انظر: البخاري في كتاب بدء الوحي ص:١.

(٤٣) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، برقم (١)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات»..، برقم (١٩٠٧) وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال له: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه إلىٰ أن يوحدوا الله**»(٤٤) فـ«**يوحدوا**» مصدره «**التوحيد**»، وفي الرواية الأخرىٰ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي فيه قصة بعث معاذ إلىٰ اليمن -وهي في الصحيحين- أنه ﷺ قال: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**»(٤٥) فدل هذا علىٰ أن التوحيد هو: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن تحقيق هاتين الشهادتين، هو: تحقيق للتوحيد.

وتوحيد الشيء: جعله واحدًا، تقول: وحَّدْتُ المتكلم: إذا جعلتَه واحدًا، ووحَّد المسلمون الله: إذا جعَلوا المعبود واحدًا، وهو الله -جل وعلا-.

والتوحيد المطلوب يشمل ما أمر الله -جل وعلا- به في كتابه من توحيده، وهو ثلاثة أنواع:

١- توحيد الربوبية.

٢- وتوحيد الألوهية.

٣- وتوحيد الأسماء والصفات.

فأما توحيد الربوبية: فمعناه توحيد الله بأفعاله. وأفعال الله كثيرة، منها: الخلق، والرِّزْق، والإحياء، والإماتة، وتدبير الملك، والنفع، والضَّر، والشفاء، والإجارة، كما قال تعالىٰ في التنزيل: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[المؤمنون: ٨٨] وإجابة دعوة المضطر، وإجابة دعوة الداعي، ونحو ذلك من أفراد الربوبية، فالمتفرد بذلك علىٰ الكمال هو الله -جل وعلا- فتوحيد الربوبية: هو توحيد الله بأفعاله -سبحانه-.

وأما توحيد الألوهية: فالألوهية مأخوذة من: أَلَه يأْلَه إلهة وأُلُوهةً: إذا عبد مع المحبة والتعظيم. يقال: تألَّه: إذا عبد معظمًا محبًّا، ففرق بين العبادة والألوهة، فإن الألوهة عبادة فيها المحبة، والتعظيم، والرضا بالحال، والرجاء، والرغب، والرهب، فمصدر أَلَه يأْلَه: أُلُوهة وإلهة؛ ولهذا قيل: توحيد الإلهية، وقيل: توحيد الألوهية، وهما مصدران لأَلَه يأْلَه.

---

(٤٤) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، برقم (١٤٥٨)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلىٰ الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم (١٩)، وغيرهما من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٤٥) سبق تخريجه.

ومعنىٰ (أَله) في لغة العرب: عبد مع المحبة، والتعظيم. والتأَلُّه: العبادة علىٰ ذلك النحو، قال الراجز:

لله درُّ الغانيـــــات المـــــدَّه ســـبَّحن واســـترجعن مـــن تألـــهِ

يعني: من عبادتي.

فتوحيد الإلهية، أو توحيد الألوهية: هو توحيد العبادة، يعني: جَعْل العبادة لواحد، وهو الله -جل جلاله-، فالعبادة التي يفعلها العبد أنواع، والله -جل وعلا- هو المستحق للألوهة وللعبادة، فهو ذو الألوهة، وهو ذو العبادة علىٰ خلقه أجمعين.

فـ«توحيد» الألوهية: هو توحيد الله بأفعال العبد المتنوعة، التي يوقعها علىٰ جهة التقرّب، فإذا توجه بها لواحد وهو الله -جل وعلا- كان موحدًا إياه توحيد الإلهية، وإذا توجّه العبد بها لله ولغيره كان مشركًا في هذه العبادة.

وأما النوع الثالث من التوحيد: فهو توحيد الأسماء والصفات، ومعناه: أن يعتقد العبد أن الله -جل جلاله- واحد في أسمائه وصفاته لا مماثل له فيها، وإن شَرِكَ بعضُ العباد الله -جل وعلا- في أصل بعض الصفات فإنهم لا يَشْرَكُونه -جل وعلا- في كمال المعنىٰ، بل الكمال فيها لله وحده دون من سواه، ومثال ذلك: أن المخلوق قد يكون عزيزًا، والله -جل جلاله- هو العزيز، فللمخلوق من صفة العزة ما يناسب ذاته الحقيرة الوضيعة الفقيرة، والله -جل وعلا- له من كمال هذه الصفة منتهىٰ ذلك، ليس له فيها مثيل، وليس له فيها مشابه علىٰ الوجه التام، قال -جل وعلا-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ⑪﴾[الشورىٰ: ١١].

فهذه الأنواع الثلاثة من التوحيد ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب، لكن لما كانت التصانيف قبله اعتنىٰ فيها العلماء -أعني علماء السنة والعقيدة- ببيان النوعين: الأول والثالث، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، لما اعتنىٰ العلماء بهما لم يبسط الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول فيهما، وإنما بسط القول فيما الناس أحوج إليه، ويفتقدون التصنيف فيه، وهذه طريقة الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن كتاباته المختلفة، ومؤلفاته المتنوعة: إنما كانت بحسب حاجة الناس إليها، ليست للتكاثر، أو للاستكثار، أو للتفنن، وإنما كتب فيما الناس بحاجة إليه، فلم يكتب لأجل أن يكتب، ولكن كتب

لأجل أن يدعو، وبين الأمرين فرق، فالشيخ -إذًا- بيّن في هذا الكتاب توحيد الإلهية والعبودية، وبيّن أفراده من: التوكل، والخوف، والمحبة، والرجاء، والرغبة، والاستعانة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، ونحو ذلك، فكل هذه العبادات لله -سبحانه وحده- دون من سواه.

ثم إن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لما بسط ذلك بَيَّنَ أيضًا ضده وهو الشرك. فهذا الكتاب الذي هو كتاب التوحيد، فيه بيان توحيد العبادة، والربوبية، والأسماء والصفات، وفيه -أيضًا- بيان ضد ذلك، وضد التوحيد: الشرك. والشرك معناه: اتخاذ الشريك، وهو أن يُجْعَلَ واحدٌ شريكًا لآخر؛ يقال: أشرك بينهما: إذا جعلهما اثنين، أو أشرك في أمره غيره: إذا جعل ذلك الأمر لاثنين. فالشرك فيه تشريك، والله -جل وعلا- نهىٰ عن الشرك، كما سيأتي الكلام علىٰ ذلك -إن شاء الله-.

وقد بيّن أهل العلم عند كلامهم عن الشرك: أنه بحسب ما دلت عليه النصوص: يُقسَّم إلىٰ قسمين باعتبار، ويقسم إلىٰ ثلاثة أقسام باعتبار آخر؛ فهو إما أن يُقسَّم إلىٰ: شرك أكبر، وشرك أصغر. فهذا باعتبار انقسامه إلىٰ قسمين، أو يقسَّم إلىٰ: شرك أكبر، وشرك أصغر، وشرك خفي، فهذا باعتبار انقسامه إلىٰ ثلاثة أقسام.

والشرك: هو اتخاذ شريك مع الله -جل وعلا- في الربوبية، أو في العبادة، أو في الأسماء والصفات. والمقصود هنا: النهي عن اتخاذ شريك مع الله -جل وعلا- في العبادة، والأمر بتوحيده -سبحانه-.

التقسيم الأول: هو تقسيم الشرك إلىٰ أكبر وأصغر، فالأكبر: هو المخرج من الملة، والأصغر: ما حكم عليه بأنه شرك. وليس فيه تنديد كامل يُلْحِقُهُ بالشرك الأكبر، وعبَّر عنه بعض العلماء بقوله: ما كان وسيلة إلىٰ الشرك الأكبر، فعلىٰ هذا يكون الشرك الأكبر منه ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطن خفي.

فمثال الظاهر من الشرك الأكبر: عبادة الأوثان، والأصنام، وعبادة القبور، والأموات والغائبين. ومثال الباطن: شرك المتوكلين علىٰ المشايخ، أو علىٰ الآلهة المختلفة، أو كشرك المنافقين؛ لأن المنافقين مشركون في الباطن؛ فشركهم أكبر، ولكنه خفي، أي في الباطن، وليس في الظاهر.

وكذلك الشرك الأصغر -علىٰ هذا التقسيم- منه ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطن خفي، فمثال الظاهر من الشرك الأصغر: لبس الحلقة، والخيط، وتعليق التمائم، والحلف بغير الله، ونحو ذلك من الأعمال والأقوال.

ومثال الباطن الخفي منه: يسير الرياء ونحو ذلك. فيكون الرياء-علىٰ هذا التقسيم أيضًا- منه ما هو أكبر كرياء المنافقين الذين قال الله في وصفهم: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾[النساء: ١٤٢]، ومنه: ما يقع فيه بعض المصلين المصنّعين في صلواتهم؛ لأجل نظر الناس إليهم، ومنه ما هو أصغر كمن يحبُّ التسميع أو المراءآت.

التقسيم الثاني للشرك -وهو جعله ثلاثة أقسام-: أكبر، وأصغر، وخفي، وهذا التقسيم يعني به أن الأكبر: ما كان مخرجًا من الملة؛ مما فيه صرف العبادة لغير الله -جل جلاله-، والأصغر: ما كان وسيلة لذلك الشرك الأكبر، وفيه تنديد لا يبلغ به أن يخرج من الإسلام، وقد حكم الشارع علىٰ فاعله بالشرك، وحقيقة الحال: أنه ندد وأشرك.

وأما الشرك الخفي، فهو: كيسير الرياء، ونحو ذلك. وبعض أهل العلم يقول بالتقسيم الأول، ومنهم من يقول بالثاني. والتحقيق أنهما متساويان، أحدهما يوافق الآخر، وليس بينهما اختلاف. فإذا سمعت من يقول: إن الشرك ينقسم إلىٰ أكبر، وأصغر: فقوله هذا صحيح، وإذا سمعت من يقول -وهو قول أئمة الدعوة-: إن الشرك ينقسم إلىٰ أكبر وأصغر وخفي: فهذا -أيضا- قوله صحيح.

فإذا تبيّن ذلك، فاعلم أن الشرك يعبر عنه بالتنديد، كما قال -جل وعلا-: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾[البقرة: ٢٢]، وقال النبي ﷺ حينما سئل أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا، وهو خلقك**»(٤٦).

---

(٤٦) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، برقم (٤٤٧٧)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب...، برقم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، مرفوعًا.

فالتنديد منه ما هو تنديد أعظم، ومنه ما هو تنديد أصغر ليس فيه صرف العبادة لغير الله، فإذا كان التنديد بجعل العبادة لغير الله: صار التنديد شركًا أكبر، وإذا كان التنديد بجعل غير الله -جل وعلا- ندًا لله في عمل، ولم يبلغ ذلك الشرك الأكبر: فإنه يكون تنديدًا أصغر، وهو المسمىٰ بالشرك الأصغر، فهذه مقدمات، وتعريفات، وتنبيهات، جعلتها بين يدي هذا الشرح لأهميتها، ولمسيس الحاجة إليها والله أعلم.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]»:

(قول) هذه الكلمة - كما في صحيح البخاري- إما أن تنطقها علىٰ العطف، فتقول: كتاب التوحيد، وقول الله، يعني: وكتاب قول الله، أو تنطقها علىٰ الاستئناف، فتقول: وقولُ الله تعالىٰ.

قال: وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] هذه الآية فيها بيان التوحيد، ووجه ذلك: أن السلف فسروا قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ بمعنىٰ: إلا ليوحدون، ودليل هذا الفهم: أن الرسل إنما بعثت لأجل التوحيد، أعني: توحيد العبادة، فقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ يعني: إلا ليوحدون.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: هذه الآية فيها حصرٌ؛ لأن من المعلوم أن (ما) النافية مع(إلا) تفيد الحصر والقصر، فيكون معنىٰ الكلام -علىٰ هذا-: أني خلقت الجن والإنس لغاية واحدة هي العبادة دون ما سواها، ففيه قصر علة الخلق علىٰ العبادة.

وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: و (إلا) هذه أداة استثناء، والاستثناء هنا مفرغ -أي مفرغ من أعمِّ الأحوال كما يقول النحاة- يعني: وما خلقت الجن والإنس لشيء، أو لغاية من الغايات قطٌّ إلا لغاية واحدة، هي: أن يعبدوني.

وقوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: هذه اللام تسمّىٰ لام التعليل، ولام التعليل هذه قد يكون معناها: إما تعليل غاية، أو تعليل علة.

فتعليل الغاية: يكون ما بعدها مطلوبًا، لكن قد يكون، وقد لا يكون، يعني: هذه الغاية. ويسميها بعض العلماء لام الحكمة. وفرْقٌ بين العلة والحكمة، يوضِّحُهُ: إذا قيل: ما الحكمة من خلق الجن والإنس؟ فالجواب: أن يعبدوا الله وحده دون ما سواه، فهذا التعليل لقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هو تعليل

غاية؛ ولو سألت شخصًا -مثلًا-: لم أحضرت الكتاب؟ قال لك: أحضرته لأقرأ، كانت علة الإحضار، أو الحكمة من الإحضار: القراءة، فقد يقرأ، وقد لا يقرأ، بخلاف اللام التي يكون معناها العلة؛ وهي التي يترتب عليها معلولها، والتي يقول العلماء في نحوها: الحكم دائر مع علته وجودًا وعدمًا، فتلك هي علة القياس التي لا يتخلف فيها المعلول عن العلة. فتكون اللام هنا: علة الغاية؛ لأن من الخلق من أوجد، وخلقه الله -جل وعلا- لكن عبد غيره.

ولام الحكمة شرعية، ويكون ما بعدها مطلوبًا شرعًا؛ وقد قال -جل وعلا- هنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ فنفهم من هذا:

أن هذه الآية دالة على التوحيد، من جهة أن الغاية من الخلق هي التوحيد، والعبادة هنا هي التوحيد.

وحقيقة العبادة: الخضوع والذل، فإذا انضاف إليها المحبة والانقياد صارت شرعية، قال طرفة في وصف ناقة:

تباري عتاقًا ناجياتٍ وأتبعت وضيفًا وضيفًا فوق مور معبد

والمور: الطريق، والمعبد: هو الذي ذلل من كثرة وطء الأقدام عليه.

وقال أيضًا في معلقته:

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

يعني الذي صار ذليلًا؛ لأنه أصيب بالمرض، فجعل بعيدًا عن باقي الأبعرة، فصار ذليلًا، لعدم المخالطة.

والعبادة شرعًا: هي امتثال الأمر والنهي على جهة المحبة والرجاء والخوف.

وقال بعض العلماء: «**إن العبادة هي أمر، به من غير اقتضاء عقلي ولا اطراد عرفي**». وهذا تعريف الأصوليين.

وقال شيخ الإسلام -في بيان معناها في أول رسالة «**العبودية**»-: «**العبادة: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة**».

فتكون دلالة هذه الآية -إذًا-: أن كل فرد من أفراد العبادة يجب أن يكون لله وحده دون ما سواه؛ لأن الذي خلقهم إنما خلقهم لأجل أن يعبدوه، فكونهم يعبدون غيره -وهو الذي

خلقهم- يعد من الاعتداء والظلم العظيم؛ لأنه ليس من يخلق كمن لا يخلق؛ كما قال -جل وعلا-: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[النحل: ١٧].

۞ **قوله:** «وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]»:

هذه الآية تفسير للآية قبلها، فالآية قبلها فيها بيان معنى العبادة، وفيها بيان الغرض من إيجاد الخلق، وأنه لأجل العبادة التي أرسلت بها الرسل بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فالله تعالى ابتعث الرسل بهاتين الكلمتين: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إثبات، وفي قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ نفي، وهذا هو معنى التوحيد المشتمل على إثبات ونفي، فقوله في الآية: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يتضمن معنى قول: (لا إله إلا الله)؛ لأن النفي فيه اجتناب الطاغوت -وهو كل إله عبد بالبغي والظلم والعدوان-، والإثبات فيه: إثبات العبادة لله وحده دون ما سواه، ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ التوحيد المثبت، وفي قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ نفي الإشراك.

والطاغوت: فعلوت من الطغيان، وهو: كل ما جاوز به العبد حده من متبوع، أو معبود، أو مطاع.

۞ **قوله:** «وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء:٢٣]»:

(قضى) -كما فسرها عدد من الصحابة هنا- بمعنى: أمر ووصى، وأمر ووصى فيهما معنى القول دون حروف القول، فتكون (أن) في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾، مصدرية، يعني: بماذا أمر ووصى؟ بـ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾: هذا معنى (لا إله إلا الله) بالمطابقة؛ لأن (لا) نفي في الجملتين، وقال هنا: ﴿تَعْبُدُوا﴾ وهي بمعنى (إله) المذكورة في كلمة التوحيد، فالإله هو المعبود. فقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ يعني: احصروا العبادة فيه وحده دون ما سواه؛ فإنه أمر بهذا، ووصى به، وهذا هو معنى التوحيد، ودلالة الآية على التوحيد ظاهرة، في أن التوحيد إفراد الله بالعبادة، أو تحقيق كلمة (لا إله إلا الله).

وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يعني: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا.

❁ **قوله**: «وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾»:

وهذا -أيضًا- فيه أمر ونهي، أما الأمر ففي قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وأما النهي ففي قوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ وقد مر دلالة قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مع النفي، علىٰ توحيد الله.

ثم تأمل قوله هنا: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾، فإن (لا) هنا: ناهية، ومن المتقرر في علم الأصول أن النهي كالنفي، إذا تسلَّط علىٰ نكرة، فإنه يفيد العموم، وما بعد (لا) نكرة وهو المصدر أحد مدلولي الفعل؛ لأن الفعل المضارع مشتمل علىٰ مصدر وزمن، فـ ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ﴾ يعني: لا إشراك به، فـ ﴿تُشۡرِكُواْ﴾ متضمنة لمصدر، والمصدر نكرة، فيكون قوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ﴾ دل علىٰ النهي عن أي نوع من الشرك. كما أن قوله -في الآية نفسها-: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرة تدلُّ علىٰ عموم الأشياء، فصار -عندنا- في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ عمومان، الأول: ما دلت عليه الآية من النهي عن جميع أنواع الشرك؛ وذلك لأن النهي تسلط علىٰ الفعل، والفعل دال علىٰ المصدر، والمصدر نكرة. والثاني: أن مفعول تشرك ﴿شَيۡـٔٗا﴾ وهو نكرة، والنكرة جاءت في سياق النهي؛ وذلك يدل علىٰ عموم الأشياء، يعني: لا الشرك الأصغر مأذون به، ولا الأكبر، ولا الخفي؛ بدلالة قوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ﴾. وكذلك ليس مأذونًا أن يُشرَك به لا ملك، ولا نبي، ولا صالح، ولا عالم، ولا طالح، ولا قريب، ولا بعيد، بدلالة قوله: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ وهذا استدلال ظاهر الوضوح في الدلالة علىٰ التوحيد: بالجمع بين النفي والإثبات.

❁ **قوله**: «وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[الأنعام: ١٥١-١٥٣]»:

﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾ يعني: يامنْ حرم بعض الأنعام، وافترىٰ علىٰ الله في ذلك ﴿تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ قال العلماء: (أن) هنا: تفسيرية، ومفسرها محذوف تقديره: وصاكم؛ لأن (أن) التفسيرية هي التي تأتي بعد جملة فيها معنىٰ القول دون حروفه، وإنما قدروا المحذوف بقولهم: (وصاكم) لأنه جاء في آخر الآية قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾، وقال في الآية الثانية: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾، وقال في الآية الثالثة: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ وكل هذه الثلاث فيها التوصية، فيكون تقدير الكلام -إذًا-: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم

عليكم: وصاكم ألا تشركوا به شيئًا. والوصية هنا: شرعية، وإذا كانت الوصية من الله شرعية: فهي أمر واجب.

وقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ دلالتها على التوحيد كدلالة آية النساء التي قبلها.

❁ **قوله: «قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه...»** [٤٧]:

قوله: (التي عليها خاتمه): يعني: التي كانت من آخر ما وصى به، ومن آخر ما أمر به، يعني التي قُدِّر أنه وصى، وختم على هذه الوصية، وفتحت بعد وفاته -عليه الصلاة والسلام- وانتقاله إلى الرفيق الأعلى لكانت هي هذه الآيات التي فيها الوصايا العشر.

فهذا القول من ابن مسعود للدلالة على عظم شأن هذه الآيات التي افتُتِحَت بالنهي عن الشرك. والنبي ﷺ ابتدأ دعوته بالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن الشرك، واختتمها أيضًا -كما دل عليه كلام ابن مسعود هذا- بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك فدل ذلك على كونه أولى المطالب، وأول المطالب، وأهم المطالب.

❁ **قوله: «وعن معاذ رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على...»** [٤٨]:

وموطن الشاهد من هذا الحديث هو قوله: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**» وهذا قد مرّ بيان معناه، لكن الشاهد من هذا الحديث، ومناسبته للابتداء -ابتداء كتاب التوحيد-: أنه أتى فيه بلفظ (حق) الذي في قوله: «**أتدري ما حق الله على العباد**»، ثم قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**» وهذا الحق حق واجب لله -جل وعلا- لأن الكتاب والسنة، بل ولأن المرسلين جميعًا أتوا بهذا الحق، وببيانه، وبيان أنه أوجب الواجبات على العباد.

---

(٤٧) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة الأنعام، برقم(٣٠٧٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٤٨) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار، برقم (٢٨٥٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، برقم (٣٠).

ثم قال: «**وحق العباد علىٰ الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**» قوله: (وحق العباد علىٰ الله) معناه: أن هذا حقٌّ أحقه الله علىٰ نفسه باتفاق أهل العلم، وأوجبه علىٰ نفسه، كما في بعض أقوالهم، كما قاله الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهل ذلك الحق المذكور في قوله: «**حق العباد علىٰ الله**» هو واجب أو لا؟ نقول: نعم، هو حق واجب، لكن بإيجاب الله ذلك الحق علىٰ نفسه؛ فالله -جل وعلا- يحرم علىٰ نفسه ما يشاء بما يوافق حكمته، ويوجب علىٰ نفسه ما يشاء بما يوافق حكمته، فكما أن الله حرم الظلم علىٰ نفسه، كما في قوله: «**إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»(٤٩) كذلك أوجب علىٰ نفسه أشياء، لكن بعض أهل العلم تحاشىٰ إطلاق لفظ (الإيجاب) علىٰ الله، وقال: يُعبَّر عن ذلك بأنه حق يتفضل به -سبحانه- علىٰ من يشاء، فهو حق تفضل، لا حق إيجاب، لكن هذا ليس بمتعين؛ لأن الحق الواجب هو الذي أوجبه علىٰ نفسه، والعباد لا يوجبون علىٰ الله -جل وعلا- شيئًا من الحقوق، بل هو الذي أوجبه -جل وعلا- علىٰ نفسه، وتفضل به علىٰ عباده، والله -جل جلاله- لا يخلف الميعاد.



---

(٤٩) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧)، والترمذي، كتاب: صفة القيامة...، باب: (٤٨)، برقم (٢٤٩٥)، وأحمد (٥/ ١٦٠)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: (الحكمة في خلق الجن والإنس)، أي: إن الله خلقهم لعبادته.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد ؛ لأن الخصومة فيه، أي: إن العبادة التي خلقوا لها هي توحيد الألوهية ؛ لأن كل رسول يقول لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩] فيردون عليه، وأما توحيد الربوبية فغالب الأمم مقرة به.

الثالثة: (أن من لم يأت به لم يعبد الله) ففيه معنىٰ قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون:٣] أي: إن من لم يفرد الله بالعبادة لم يعبده حقيقة وإن عبده في بعض الأحيان، لكنه لما لم يثبت علىٰ ذلك نفاه الله عنه ؛ لأنه لا يوصف بعبادة الله وحده، ولا أنه عابد له حقيقة إلا من استمر علىٰ عبادته وحده وتبتل إليه تبتيلًا، كما أشار إلىٰ ذلك العلامة ابن القيم في «بدائع **الفوائد**» لما تكلم علىٰ أسرار سورة : ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١].

الرابعة: (الحكمة في إرسال الرسل)، أي: ليأمروا أممهم بعبادة الله وحده، واجتناب الطاغوت.

الخامسة: (أن الرسالة عمت كل أمة)، أي: لما أخبر الله أنه بعث في كل أمة رسولاً أفاد ذلك أن الرسالة عمت جميع الأمم، وقامت الحجة علىٰ الخلق، كما قال تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

السادسة: (أن دين الأنبياء واحد)، أي: لما أخبر الله أن كل رسول يقول لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] .أفاد ذلك أن دينهم واحد، وأما الشرائع فمختلفة، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة:٤٨].

السابعة: (المسألة الكبيرة أن عبادةَ الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت) ففيه معنىٰ قوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٥] أي: لما أخبر

الله أنه أرسل الرسل يدعون أممهم قائلين: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦] دل ذلك علىٰ أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت، فمن لم يكفر بالطاغوت فليس عابدًا لله حقيقة؛ ولذلك جعله شرطًا للاستمساك بالعروة الوثقىٰ.

الثامنة: (أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله)، أي: لما أمر الله بإفراده بالعبادة وحده واجتناب الطاغوت أفاد هذا أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله، بمعنىٰ: أن العبادة لا تصلح له، لا بمعنىٰ الذم لكل من عبد من دون الله، فإن منهم من لم يرض بذلك، وأما الذم فمتوجه إلىٰ من رضي ومن لم يرض، فالذم في حقه متوجه إلىٰ الشيطان لكونه الآمر بذلك الداعي إليه كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾[يس:٦٠] الآية.

التاسعة: (عظم شأن ثلاث: الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف)، وفيها عشر مسائل: أولها النهي عن الشرك، أي: لقول عبد الله بن مسعود: «**من أراد أن ينظر إلىٰ وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالىٰ:** ﴿ ۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ...﴾[الأنعام:١٥١]..» إلخ، وقوله: وفيها عشر مسائل، وهذا بيانها:

الأولىٰ: النهي عن الشرك.

الثانية: الوصية بالوالدين.

الثالثة: النهي عن قتل الأولاد.

الرابعة: النهي عن قربان الفواحش.

الخامسة: النهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

السادسة: النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

السابعة: الوفاء بالكيل والميزان.

الثامنة: الأمر بالعدل.

التاسعة: الوفاء بالعهد.

العاشرة: الأمر باتباع الصراط المستقيم، وترك اتباع ما سواه من السبل.

وهذه مسألة واحدة خلافًا لمن جعلها مسألتين، واستدرك علىٰ الشيخ -رحمه الله تعالىٰ- .

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها الله بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾[الإسراء:٢٢]، وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩﴾[الإسراء:٣٩] .

ونبهنا الله -سبحانه- على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾[الإسراء:٣٩] . قلت: وهذا جزء المسائل:

الأولى: النهي عن جعل مع الله إلهًا آخر، وهو الشرك الأكبر.

الثانية: الأمر بعبادة الله وحده.

الثالثة: الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

الرابعة: إيتاء ذي القربى حقه.

الخامسة: إيتاء المسكين حقه.

السادسة: إيتاء ابن السبيل حقه.

السابعة: النهي عن التبذير.

الثامنة: النهي عن الإمساك بدون إسراف.

التاسعة: النهي عن قتل الأولاد.

العاشرة: النهي عن الزنا.

الحادية عشرة: النهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

الثانية عشرة: النهي عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثالثة عشرة: الوفاء بالعهد.

الرابعة عشرة: الوفاء بالكيل.

الخامسة عشرة: الوفاء بالوزن.

السادسة عشرة: النهي عن القول بغير علم.

السابعة عشرة: النهي عن المشي في الأرض مرحًا.

الثامنة عشرة: النهي عن الشرك، ويحتمل أن يعد النهي عن الإسراف مسألة ويحذف الأمر بالوفاء بالوزن لدخوله في التي قبله.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمىٰ آية الحقوق العشرة بدأها الله -تعالىٰ- بقوله: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[النساء:٣٦] الآية، أي: فيها عشرة حقوق:

الأول: الأمر بعبادة الله.

الثاني: الإحسان إلىٰ الوالدين.

الثالث: الإحسان إلىٰ ذي القربىٰ.

الرابع: الإحسان إلىٰ اليتامىٰ.

الخامس: الإحسان إلىٰ المساكين.

السادس: الإحسان إلىٰ الجار ذي القربىٰ.

السابع: الإحسان إلىٰ الجار بالجنب.

الثامن: الإحسان إلىٰ الصاحب بالجنب.

التاسع: الإحسان إلىٰ ابن السبيل.

العاشر: الإحسان إلىٰ ملك اليمين.

الثانية عشرة: التنبيه علىٰ وصية رسول الله ﷺ عند موته، أي: لقول ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلىٰ وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا، أي: أن نعبده ولا نشرك به شيئًا، وهذا حقٌّ واجب.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه، أي: ألا يعذبهم، وهذا حق إنعام وتفضل، وليس واجبًا بالقياس علىٰ المخلوق، كما تدعيه المعتزلة.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة، أي: ما دام أنها خفيت علىٰ معاذ مع علمه، وقال: أفلا أُبشر الناس، فنهاه وأمره أن يكتمها عنهم ؛ مخافة الاتكال علىٰ سعة رحمة الله، أفاد ذلك أنهم لا يعرفونها.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة، أي لقوله: لا تخبرهم، والمصلحة: أنهم يعملون ولا يتكلون، بخلاف ما إذا سمعوا بمثل هذا فربما تركوا العمل فتفوت هذه المصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره، أي لقوله: أفلا أبشر الناس.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على رحمة الله، أي: لقوله لا تخبرهم فيتكلوا، أي: يعتمدوا على هذا الفضل فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة فيفوتهم خير كثير.

التاسعة عشرة: قول المسئول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم، أي: إنه لما سأل معاذًا وهو لا يعلم قال ذلك، وهذا في حياة النبي ﷺ، وأما بعد موته ﷺ فإن المسئول إذا سئل عما لا يعلم فإنه يقول: الله أعلم، كما نبه على ذلك الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض، أي: حيث أخبر بذلك معاذًا ونهاه أن يخبر الناس.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه، أي: لما فعل ذلك دل على تواضعه ؛ لأن المتكبرين لا يفعلون ذلك.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة، أي: حيث أردف معه معاذًا، وهذا إذا كانت مطيقة.

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل، أي: بحيث كان من النبي ﷺ بهذه المنزلة فأردفه معه وخصه بهذا العلم.

الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة، أي: معرفة حق الله على العباد وحق العباد عليه إذا أدوا حقه.



* الأسئلة *

س: ما موضوع كتاب التوحيد؟

جـ: بيان ما بعث الله به رسله من توحيد الألوهية، والعبادة بالأدلة من الكتاب والسنة، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه، وما يقرب إلىٰ ذلك أو يوصل إليه.

س: عرف التوحيد وأذكر أنواعه مع التعريف لكل نوع وبيان الذي أقر به المشركون والذي جحدوه؟

جـ: التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة وأنواعه ثلاثة:

الأول: توحيد الربوبية وهو العلم والاعتقاد بأن الله هو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير وهذا النوع قد أقر به المشركون ولم يدخلهم في الإسلام والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

الثاني: توحيد الأسماء والصفات وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ علىٰ الوجه اللائق بعظمته وجلاله وهذا النوع قد أقر به بعض المشركين وأنكره بعضهم جهلًا أو عنادًا.

الثالث: توحيد الألوهية وهو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادة كالمحبة والخوف والرجاء والتوكل والدعاء وغير ذلك من أنواع العبادة.

وهذا النوع الذي أنكره المشركون وعليه مدار البحث في هذا الكتاب.

س: كم أركان توحيد الألوهية وما هي؟

جـ: اثنان: الصدق والإخلاص.

س: ما الحكمة من خلق الجن والإنس وما الدليل؟

جـ: هي عبادة الله وحده لا شريك له والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

س: ما معنى هذه الآية؟

جـ: أخبر الله تعالىٰ أنه ما أوجد الجن والإنس إلا لعبادته، وعبادته طاعته بأمتثال ما أمر واجتناب ما نهىٰ.

س: ما هي العبادة لغة وشرعًا؟

جـ: العبادة لغة التذلل والخضوع، وشرعًا اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

س: ما الحكمة في إرسال الرسل وما الدليل؟

جـ: هي دعوة أممهم إلىٰ عبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

س: بين معاني الكلمات الآتية: بعثنا، أمة، رسولًا، اعبدوا الله، اجتنبوا، الطاغوت، ثم اشرح الآية واذكر ما يستفاد منها؟

جـ - بعثنا: أوجدنا وأرسلنا، أمة: جماعة من الناس، رسولًا: الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، اعبدوا الله: وحدوا الله، اجتنبوا: ابتعدوا، الطاغوت: لغة مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد، وشرعًا كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

شرح الآية: أخبر الله تعالىٰ أنه أرسل في كل طائفة من الناس رسولًا يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة ما سواه.

ويستفاد منها:

١- أن الرسالة عمت كل أمة.

٢- أن دين الأنبياء واحد وهو التوحيد.

٣- أن عبادة الله لا تصح إلا بالكفر بالطاغوت.

❁ **قوله:** «قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء:٢٣]».

س: اشرح هذه الآية وما هو الإحسان إلى الوالدين، ولماذا قرن الله الإحسان إليهما بعبادته؟

جـ: أخبر تعالىٰ أنه قضىٰ؛ أي: أمر وأوصىٰ بعبادته وحده دون سواه وأمر وأوصىٰ بالإحسان

إلىٰ الوالدين كما أمر بعبادته وحده لا شريك له.

والإحسان إلىٰ الوالدين: برهما وطاعتهما والتواضع لهما.

وقرن الله الإحسان إليهما بعبادته للتنبيه علىٰ فضلهما وتأكد حقهما وأنه أوجب الحقوق بعد حق الله تعالىٰ.

س: اشرح قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[النساء:٣٦].

جـ: هذا أمر من الله لعباده بأن يفردوه بالعبادة ولا يشركوا به شيئًا في عبادته.

س: اذكر مناسبة الآيات المذكورة في هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أنها تدل بأجمعها علىٰ وجوب إفراد الله سبحانه وتعالىٰ بالعبادة دون غيره.

قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[الأنعام:١٥١].

س: وضح معاني الكلمات الآتية: تعالوا، أتل، ثم اشرح هذه الآية؟

جـ - تعالوا: هلموا وأقبلوا، أتل: أقرأ وأقص.

شرح الآية: يقول الله تعالىٰ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرموا ما رزقهم الله هلموا وأقبلوا أقص عليكم ما حرم ربكم عليكم، وأوصاكم بتركه وهو الشرك.

قوله: «قال ابن مسعود ﵁: من أراد أن ينظر إلىٰ وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه...».

س: ما معنى قول ابن مسعود هذا، واذكر مناسبته لكتاب التوحيد؟

جـ: معناه من أراد أن ينظر إلىٰ الوصية التي كأنها كتبت وختم عليها فلم تغير ولم تبدل- شبهها بالكتاب الذي كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص- فليقرأ هذه الآيات فإنها متضمنة لوصية محمد ﷺ فإنه لم يوص إلا بكتاب الله كما قال: **«وإني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله»**(٥٠). رواه مسلم.

ومناسبته لكتاب التوحيد: أنه أفاد أهمية هذه الأوامر المذكورة في الآيات وقد بدأت بالنهي عن الشرك المنافي للتوحيد. وأن النبي ﷺ لو أوصىٰ بشيء لأوصىٰ بها.

---

(٥٠) أخرجه مسلم، كتاب: الحج، باب: حجة النبي ﷺ، برقم (١٢١٨)، مطولًا من حديث جابر بن عبد الله ﵄.

قوله: «وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال:...».

س: ما الفرق بين حق الله على العباد وبين حق العباد على الله؟ ولماذا هو الرديف؟ ولماذا أخرج السؤال بصيغة الاستفهام؟ وكيف أخبر معاذ بذلك وقد نهاه النبي ﷺ؟ ولماذا أمره النبي ﷺ بكتم ذلك العلم؟ ما الذي يفيده الحديث؟ واذكر مناسبته لكتاب التوحيد؟

جـ: حق الله على العباد حق وجوب وتحتم، وحق العباد على الله حق تفضل وإحسان، والرديف: الراكب خلف من يركب الدابة. وأخرج السؤال بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم. وأخبر معاذ بذلك عند وفاته خوفًا من الإثم المترتب على كتمان العلم.

وأمر النبي ﷺ معاذًا بكتم العلم خوفًا من الاتكال على سعة رحمة الله وترك العمل، **ويستفاد من الحديث:**

١- تواضع النبي ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

٢- جواز الإراداف على الدابة إذا كانت تطيق ذلك.

٣- استحباب بشارة المسلم بما يسره.

٤- جواز كتمان العلم للمصلحة.

٥- فضل معاذ بن جبل رضي الله عنه.

ومناسبة الحديث لكتاب التوحيد:

أنه دل على أن حق الله على العباد هو عبادته وحده لا شريك له وذلك هو التوحيد. والله أعلم.



الدرس الثاني:

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية [الأنعام:٨٢].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل»(٥١) أخرجاه.

ولهما في حديث عتبان: «فإن الله حرَّم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله»(٥٢).

وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، [عن رسول](٥٣) الله ﷺ قال: «قال موسىٰ عليه السلام: يارب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسىٰ: لا إله إلا الله. قال: يارب كل عبادك يقولون هذا.

قال: يا موسىٰ لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفةٍ، مالت بهن لا إله إلا الله»(٥٤) رواه ابن حبَّان والحاكم وصححه.

وللترمذي وحسَّنه عن أنسٍ رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالىٰ: يا ابن دم، [إنك](٥٥) لو آتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»(٥٦)

---

(٥١) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ...﴾، برقم (٣٤٣٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم (٢٨)، وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٥٢) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: المساجد في البيوت، برقم (٤٢٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ أن مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم (٣٣) وغيرهما من حديث عتبان رضي الله عنه.

(٥٣) في نسخة الفوزان: «أن النبي»، وعند السعدي وابن قاسم: «عن النبي».

(٥٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، برقم (١/ ٧١٠)، والنسائي في «الكبرىٰ»، برقم (١٠٦٧٠، ١٠٩٨٠)، ومسند أبي يعلىٰ، برقم (١٣٩٣)، وابن حبان، برقم (٦٢١٨)، وغيرهم من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وإسناده ضعيف؛ لأن فيه دراجًا أبا السمح، قال عنه ابن حجر في «التقريب»: «صدوق في حديثه، عن أبي الهيثم ضعيف»، وقد روىٰ هذا الحديث عن أبي الهيثم.

(٥٥) ساقطة من نسخة ابن باز، والسعدي، وابن عثيمين، والفوزان، والمثبت من نسخة ابن قاسم، وهو موافق لما في

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمَّل الخمس اللواتي في حديث عُبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده؛ تبين لك معنى قول: «لا إله إلا الله»، وتبين لك خطأ المغرورين.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبعٌ كالسماوات.

الحادية عشرة: أن لهن عُمارًا.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس؛ عرفت أن قوله في حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله»؛ أن[٥٧] ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمدٍ عبدي الله ورسوليه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

=

«سنن الترمذي».

(٥٦) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: فضل التوبة والاستغفار...، برقم (٣٥٤٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٥٧) في نسخة السعدي: «أنه».

السادسة عشرة: معرفة كونه روحًا منه.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

الثامنة عشرة: معرفة قوله «علىٰ ما كان من العمل».

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان.

العشرون: معرفة ذِكر الوجه.



قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «فضل التوحيد وما يكفر...»:

«باب» خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا باب، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف، و «ما» يجوز أن تكون موصولة، وأن تكون مصدرية. أي: باب بيان عظيم فضل التوحيد وتكفيره للذنوب وهو أشمل وأولىٰ؛ لرفع وهم أن ثم ذنوبًا لا يكفرها التوحيد وليس بمراد، ولا ريب أن التوحيد أفضل الأعمال علىٰ الإطلاق، وأعظمها تكفيرًا للذنوب، ولما ذكر معنىٰ التوحيد، وكانت الأنفس لها تشوق وتشوف إلىٰ معرفة المعاني، ونيل الفضائل وتحصيلها، ناسب ذكر فضله وتكفيره للذنوب؛ ترغيبًا فيه، وتحذيرًا من الشرك. والباب لغة: المدخل إلىٰ الشيء. **واصطلاحًا**: اسم لجملة من العلم تحته فصول ومسائل غالبًا، وليس مرادهم الحصر بل إنه المقصود بالذات والمعظم.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾»:

أي: أخلصوا العبادة لله وحده، ولم يخلطوا توحيدهم بشرك، ولبس الشيء بالشيء تغطيته به وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر، وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومنه سمي الشرك ظلمًا والمشرك ظالـمًا؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها.

قوله: «قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾»:

أي: هم الآمنون في الدنيا والآخرة المهتدون إلىٰ الصراط المستقيم، ولما نزلت هذه الآية شق علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء

إلا لمن لم يظلم نفسه، فقالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه؟ قال: «**ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]**»(٥٨).

فبين ﷺ أن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان أيضًا من أهل الاصطفاء في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[فاطر:٣٢]، فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة، الشرك، وظلم العباد في نفس أو مال أو عرض، وظلم نفسه بما دون الشرك، كان له الأمن التام والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقًا، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه، كما لو ظلمها ببخله ببعض الواجبات حبًّا للمال، أو أحب ما يبغضه الله حتى يقدم هواه على محبة الله ونحو ذلك.

وليس مراد النبي ﷺ بقوله: «بشرك» الشرك الأكبر، فيؤخذ منه أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، بل مراده ﷺ نفي نوعي الشرك، فإن أهل الكبائر معرضون للوعيد، مع أنها دون الشرك الأصغر بإجماع أهل السنة، ومع ذلك لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام، كما وردت به نصوص الكتاب والسنة، فصاحب الشرك الأصغر أولى بلحوق الوعيد له، فظهرت مطابقة الآية للترجمة، وذلك أن من مات على التوحيد لم يلبسه بشرك فله الأمن على ما تقدم، بخلاف غيره من الأعمال مع عدمه، فتبين بذلك أفضلية التوحيد وأنه السبب في النجاة من النار.

❁ **قوله: «عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه...»**: ابن قيس بن أصرم الخزرجي الأنصاري أحد النقباء، شهد بدرًا وما بعدها، وروى عن النبي ﷺ كثيرًا، مات بالرملة سنة ٣٤ هـ، وله ٧٢.

❁ **قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله...»**:

أي: من تكلم بها عارفًا لمعناها عاملا بمقتضاها باطنًا وظاهرًا، فإن الشهادة تقتضي العلم بالمشهود به، فلو كان عن جهل لم تكن شهادة، وتقتضي الصدق، وتقتضي العمل بذلك، وبهذا يتبين أنه لابد من العلم بها والعمل والصدق. فبالعلم ينجو من طريقة النصارى، وبالعمل ينجو

---

(٥٨) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، برقم (٣٣٦٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، برقم (١٢٤)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

من طريقة اليهود، وبالصدق ينجو من طريقة المنافقين، و «وحده» تأكيد وبيان لمضمون معناها، حال من الاسم الشريف، وهو تأكيد للإثبات. و «لا شريك له» تأكيد للنفي، تأكيد بعد تأكيد، اهتمام بمقام التوحيد.

قال النووي: «هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة علىٰ العقائد؛ فإنهﷺ جمع فيه ما يخرج من ملل الكفر علىٰ اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاقتصرﷺ في هذه الأحرف علىٰ ما يباين جميعهم».ا هـ. ومعنىٰ «**لا إله إلا الله**» لا معبود بحق إلا الله، فتضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيًا وإثباتًا، فـ«لا إله» نفت الإلهية عن كل ما سوىٰ الله. و«إلا الله» أثبتت الإلهية لله وحده، فنفت جميع ما يعبد من دون الله، وأثبتت العبادة لله وحده لا شريك له، والعبادة إنما تصدر عن تأله القلب بالحب والخضوع.

وقال شيخ الإسلام: «الإله هو المعبود المطاع، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب المخضوع له غاية الخضوع؛ ولهذا كانت لا إله إلا الله أصدق الكلام، وأهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله».ا هـ.

والحاصل أن لا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيا وإثباتا، واعتقد ذلك، وقبله وعمل به، وأما من قالها من غير علم بمعناها، ولا اعتقاد ولا عمل بمقتضاها من نفي الشرك وإخلاص القول والعمل لله وحده فغير نافع بالإجماع، بل تكون حجة عليه. والمشركون الأولون جحدوها لفظًا ومعنىٰ، فإنهﷺ لما قال لهم: «**قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»[٥٩] قالوا: «أجعل الآلهة إلها واحدا». ومشركوا زماننا أقروا بها لفظا وجحدوها معنىٰ، فتجد أحدهم يقولها ويأله غير الله بأنواع العبادة، بل يخلصون العبادة في الشدائد لغير الله، فهم أجهل من مشركي العرب، والمتكلمة وغيرهم يزعمون أن معنىٰ الإله هو القادر علىٰ الاختراع، وأن من أقر بأن الله وحده خالق كل شيء فهو الموحد، وليس الأمر كذلك حتىٰ يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه سبحانه وحده هو المستحق للعبادة، ويلتزم بها.

---

(٥٩) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٢)، والدارقطني (٣/ ٤٤)، وغيرهما من حديث طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه.

قوله: «**وأن محمدًا عبده ورسوله**»؛ أي: وشهد أن محمدا عبده ورسوله بصدق ويقين، وذلك يقتضي اتباعه وتعظيم أمره ونهيه ولزوم سنته، وأتىٰ بهاتين الصفتين وجمعهما رفعًا للإفراط والتفريط؛ فإن كثيرًا ممن يدعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولًا وفعلًا، حتىٰ جوزوا الاستغاثة به في جميع ما يستغاث بالله فيه، أو فرط بترك متابعته، والرضىٰ عن سنته بالأوضاع والقوانين الباطلة، وشهادتهم ناقصة علىٰ حسب ما معهم من تلك الأمور. و «عبد» بمعنىٰ «متعبد» عام، وبمعنىٰ «عابد» خاص بمن عبد الله، وإضافته إلىٰ الله إضافة تشريف كقوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾، ومعناه هنا المملوك العابد، والعبودية الخاصة وصفه، و «رسوله»؛ أي: مرسله بأداء شريعته.

قوله: «**وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله**»:

وفي رواية: وابن أمته، خلافًا لما يعتقده اليهود أنه ابن زانية، أو ما يعتقده النصارىٰ أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، تعالىٰ الله عما يقولون علوًا كبيرًا، فلابد أن يشهد أنه عبد الله ورسوله عن علم ويقين، بل لا يصح توحيد عبد علم بمقالتهم في عيسىٰ حتىٰ يتبرأ منهم ومن مقالتهم، ويأتي بما هو الحق في ذلك، وهو شهادة أن عيسىٰ عبد الله ورسوله.

قوله: «**وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه**»؛ أي: خلقه من أنثىٰ بلا ذكر بالكلمة التي أرسل بها جبرائيل إلىٰ مريم فنفخ في جيب درعها قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩]، خلقه بقوله: ﴿كُن﴾، وأوجده بقدرته وحكمته، فكان بقوله: ﴿كُن﴾، وسُمِّي كلمة؛ لوجوده بقوله تعالىٰ: ﴿كُن﴾، فليس هو ﴿كُن﴾، ولكن كان بـ﴿كُن﴾، فـ﴿كُن﴾من الله قولًا، وليس ﴿كُن﴾مخلوقًا، وعيسىٰ روح من الأرواح التي خلقها واستنطقها، وأخذ عليها الميثاق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[الأعراف:١٧٢]، بعثه إلىٰ مريم فدخل فيها. قال الحافظ: «وصفه بأنه منه فالمعنىٰ أنه كائن منه، أي: مكون ذلك وموجده بقدرته وحكمته». اهـ.

والمضاف إلىٰ الله إذا كان عينا قائمة بنفسها كعيسىٰ امتنع أن تكون صفة لله، وإنما هو إضافة مخلوق إلىٰ خالقه، وهو علىٰ قسمين: إضافة تشريف وتكريم كبيت الله، وخليل الله، وروح الله. وإضافة لا تقتضي تشريفا كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية:١٣]؛ أي: كائنة منه كونها وأوجدها سبحانه، وأما إذا كان المضاف إليه معنىٰ لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات كالسمع والبصر، وجب أن يكون صفة لله قائمًا به، وفيه إثبات صفة الكلام خلافًا للجهمية، فإنهم جعلوا كلام الله مخلوقًا، والنصارىٰ جعلوا كلامه معبودًا.

❁ **قوله: «والجنة حق والنار حق»:**

أي: وشهد أن الجنة التي أخبر الله في كتابه أنه أعدها للمتقين حق ثابتة لا شك فيها، وأن النار التي أخبر أنه أعدها للكافرين حق ثابتة، وأنهما الآن مخلوقتان موجودتان.

❁ **قوله: «أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل»:**

أي: علىٰ ما كان فيه من صلاح أو فساد، وهذه الجملة جواب الشرط؛ أي: من شهد إلىٰ آخره أدخله الله الجنة بإخلاصه وصدقه والإيمان برسوله وما أرسل به، وإن كان مقصرًا وله ذنوب، فهذه الحسنة العظيمة ترجح بجميع السيئات فإنه يدخل الجنة علىٰ أحد ثلاثة تقادير. إما أن يلقىٰ الله سالمًا من جميع الذنوب فيدخلها من أول وهلة، أو يلقىٰ الله وهو مصر علىٰ كبيرةٍ أو ذنب، وهو بين أمرين إما أن يعفو الله عنه فيدخله الجنة، أو يجازيه بجرمه ثم يدخله الجنة، ففيه فضل التوحيد وذلك أن من مات علىٰ التوحيد فمصيره إلىٰ الجنة بكل حال.

❁ **قوله: «ولهما في حديث عتبان»:**

أي: وللبخاري ومسلم في حديث طويل أخرجاه في صحيحيهما بكماله، وهذا طرف منه، عن عتبان بكسر العين بن مالك بن عمرو بن العجلان الخزرجي السالمي، صحابي مشهور بدري مات في خلافة معاوية.

❁ **قوله: «من قال: لا إله إلا الله يبتغي...»:**

هذا هو حقيقة معناها، فإن من قالها يبتغي بها وجه الله لا بد أن يعمل بما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، فإن المقتضىٰ لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، ومما قيدت به في الحديث قوله ﷺ: «غير شاك» وفي الصحيح: **«من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة»**[٦٠]. وفي رواية: **«ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله علىٰ النار»**[٦١]، ولمسلم: **«لا يلقىٰ الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»**[٦٢]، وله أيضا: **«من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله**

---

(٦٠) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم...، برقم (١٢٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦١) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم...، برقم (١٢٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم (٣٢)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد...، برقم (٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة»[٦٣]، وفيهما مرفوعا: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات علىٰ ذلك إلا دخل الجنة»[٦٤]، فيحمل المطلق علىٰ المقيد.قال شيخ الإسلام وغيره: قالها بصدق وإخلاص ويقين ومات علىٰ ذلك، فإن حقيقة التوحيد انجذاب القلب إلىٰ الله جملة بأن يتوب من الذنوب توبةً نصوحًا، فإذا مات علىٰ تلك الحال نال ذلك، فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيرًا ممن يقولها يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأنه يحرم علىٰ النار من قال لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال. قال الشارح وغيره: لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط لا تنفع قائلها إلا باجتماعها:

(أحدها) العلم المنافي للجهل.

(الثاني) اليقين المنافي للشك.

(الثالث) القبول المنافي للرد.

(الرابع) الانقياد المنافي للترك.

(الخامس) الإخلاص المنافي للشرك.

(السادس) الصدق المنافي للكذب.

(السابع) المحبة المنافية لضدها. ونظمها بعضهم فقال:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع   محبة وانقياد والقبول لها

وركناها النفي والإثبات، نفي الإلهية عما سوىٰ الله، وإثباتها لله وحده، وأكثر من يقولها اليوم لا يعرف معناها، ولا يعرف الإخلاص ولا اليقين، أو يقولها تقليدًا أو عادة ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالبهم من يفتن عند الموت، وفي الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»[٦٥]، وحينئذٍ فلا منافاة بين الأحاديث؛ فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصرًا علىٰ

---

(٦٣) سبق تخريجه.

(٦٤) أخرجه البخاري، كتاب: اللباس، باب: الثياب الأبيض، برقم (٥٨٢٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٦٥) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، برقم (٨٦)، ومسلم، كتاب: الكسوف، باب: ما عرض علىٰ النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، برقم (٩٠٥)، وغيرهما من حديث أسماء رضي الله عنها.

ذنب أصلًا، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذا لا يبقىٰ في قلبه إرادة لما حرمه الله ولا كراهةً لما أمر الله به، وهذا هو الذي يُحرم علىٰ النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، وإن قالها علىٰ وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة، فيحرم علىٰ النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مصرًّا علىٰ ذلك فإنه يستوجب النار، وإن قال لا إله إلا الله، وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت علىٰ ذلك بل أتىٰ بعدها بسيئات رجحت علىٰ حسنة توحيده، وإنما يخاف علىٰ المخلص أن يأتي بسيئات راجحة فيضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشىٰ عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلىٰ ذلك سيئات تنضم إلىٰ هذا الشرك، فيرجح جانب السيئات فيمتنع الإخلاص في القلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم.

فإذا كثرت الذنوب ثقل علىٰ اللسان قولها وقسا القلب، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غير الله، واطمأن إلىٰ الباطل، واستحلىٰ الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه، فلا يقوىٰ قولها علىٰ محو السيئات، فترجح سيئاته علىٰ حسناته. قال الحسن: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال».اهـ. وفيه تحريم النار علىٰ أهل التوحيد الكامل، وأن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصًا لله تعالىٰ.

قوله: «وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه»:

واسمه سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري مشهور بكنيته ونسبته إلىٰ بني خدرة، صحابي جليل وأبوه صحابي، استصغر بأحد وشهد ما بعدها، روىٰ عن النبي ﷺ كثيرًا وأبي بكر وعمر وغيرهما، وعنه جمع من الصحابة والتابعين، مات سنة ٧٤ هـ.

قوله: «قال موسىٰ عليه السلام»: ابن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق رسول بني إسرائيل، وكليم الرحمن، قيل: ولد قبل عيسىٰ سنة ١٥٧١، وتوفي سنة ١٤٥١.

❁ **قوله: «يا رب علمني شيئًا»:**

أي: علمني شيئًا يجتمع لي فيه الأمران أثني عليك به وأحمدك وأسألك به.

❁ **قوله: «قال: قل يا موسىٰ لا إله إلا الله»:**

أي: فإذا قلتها فقد دعوتني وأثنيت علي، فإن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ودعاء العبادة نحو: لا إله إلا الله وسبحان الله، وهو مستلزم لدعاء المسألة، ودعاء المسألة نحو «رب اغفر لي» متضمن لدعاء العبادة، وذلك أنه مأمور بهذا فإذا فعله فهو فاعل عبادة، ولا إله إلا الله اشتملت علىٰ الأمرين بل أعلاهما وأولاهما، وهي أكثر الأذكار وجودا وأيسرها حصولا، فإن أحرفها كلها جوفية ليس فيها حرف شفوي، فيمكن قائلها أن يقولها من غير فتح فمه، وهو أسلم وأبعد عن الرياء، وفي كونها جوفية أيضًا إشارة إلىٰ أنها تخرج من القلب؛ وأحرفها كلها مهملة فتنبئ عن التجرد من كل معبود سوىٰ الله، وهي أفضل الأذكار وأعظمها معنىٰ، فهي الكلمة العظيمة، وهي العروة الوثقىٰ، وكلمة التقوىٰ، وكلمة الإخلاص، وهي التي قامت بها السماوات والأرض، وشرعت لتكميلها السنة والفرض، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، فمن قالها وعمل بها صدقًا وإخلاصًا وقبولًا ومحبة أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل، وفيه أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر علىٰ لفظ الجلالة ولا علىٰ «هو» كما يفعله غلاة المتصوفة، فإن ذلك بدعة وضلالة، و «لا» نافية للجنس نفيًا عامًا إلا ما استثني، وخبرها محذوف تقديره لا إله حق إلا الله. قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]. فإلهيته تعالىٰ هي الحق، وكل ما سواه من الآلهة فإلهيته باطلة.

❁ **قوله: «قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا»:**

وفي رواية: قد علمت أن لا إله إلا الله، أي: وإنما أريد شيئًا تخصني به من بين عموم عبادك، فإن من طبع الإنسان أن لا يشتد فرحه جدًا إلا بشيء يختص به دون غيره، مع أن من رحمة الله وسنته المطردة أن ما اشتدت إليه الحاجة والضرورة كان أكثر وجودًا كالهواء والماء والملح، ولما كان النطق بلا إله إلا الله ضرورة فطرية كانت أكثر الأذكار وأيسرها وأفضلها وأعظمها. قال الشارح: «وثبت بخط المصنف «يقولون» بالجمع، والذي في الأصول «يقول» بالإفراد، وهو في المسند من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ الجمع».

قوله: «وعامرهن غيري...»:

عامر بالنصب عطف على السماوات؛ أي: لو أن السماوات السبع ومن فيهن من العمار غير الله تعالى، فاستثنى ممن في السماوات نفسه المقدسة؛ لأنه العلي الأعلى تعالى وتقدس، وهو العلي العظيم علو القدر وعلو القهر وعلو الذات، العظيم الذي لا أعظم منه، الكبير الذي لا أكبر منه، وجميع المخلوقات في كف الرحمن كالخردلة في يد أحدنا.

قوله: «والأرضين السبع في كفة»:

بكسر الكاف وتشديد الفاء أي: وضعن في كفة الميزان.

قوله: «ولا إله إلا الله في كفة»:

يعني: في كفة الميزان الأخرى. وفيه إثبات الميزان، وأنه حق، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الأنبياء:٤٧]، توزن فيه الصحائف التي تكون أعمال العباد مكتوبة فيها، وله كفتان إحداهما للحسنات والأخرى للسيئات بإجماع السلف.

قوله: «مالت بهن لا إله إلا الله...»:

أي: رجحت بهن، فدل على عظم شأنها، وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك وتوحيد الله الذي هو أفضل الأعمال وأساس الملة والدين، ولما يجتمع لقائلها من الذكر والدعاء، وما يحصل له من تكفير الذنوب والخطايا، فمن قالها بإخلاص ويقين وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك دخل الجنة، فإن هذه الحسنة لا يوازنها شيء. وأخرج أحمد عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ: «**أن نوحًا عليه السلام قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله؛ فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ولا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لفصمتهن لا إله إلا الله**»[٦٦]. وهي أفضل الذكر. ففي الحديث الصحيح: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وعلى كل شيء قدير**»[٦٧].

---

(٦٦) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩، ١٧٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٦٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: دعاء يوم عرفة، برقم (٣٥٨٥)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وللنسائي وابن ماجه وغيرهما: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله**»[٦٨]. وللترمذي وغيره: «**دعوة أخي ذي النون: لا إله إلا أنت**»[٦٩]، وله أيضًا وحسنه وصححه الذهبي: «**يصاح برجل من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلًا كل سجل منها مد البصر، ثم يقال: أتنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب، فيقال: ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب، فيقال: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة**». قال الشيخ: «ليس كل من تكلم بالشهادتين كان بهذه المثابة؛ لأن هذا العبد صاحب البطاقة كان في قلبه من التوحيد واليقين والإخلاص ما أوجب أن عظم قدره حتى صار راجحًا على هذه السيئات». **وقال ابن القيم**: «والأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض». قال: وتأمل حديث البطاقة، ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة، والكثير منهم يدخل النار بذنوبه، بل اليهود أكثر من يقولها، والذي يقولها ويخالفها أعظم كفرًا ممن يجحدها أصلًا؛ فإن الكافر الأصلي أهون كفرًا من المرتد.

❁ **قوله: «روه ابن حبان والحاكم»:**

ابن حبان: بكسر الحاء محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد ابن مرة بن هدبة بن سعد الدارمي، أبو حاتم التميمي البستي الشافعي الحافظ، صاحب التصانيف منها: «الصحيح»، و«التاريخ»، و«الثقات»، و«الضعفاء»، روى عن النسائي وأبي يعلى وابن خزيمة وخلق، وعنه الحاكم وغيره، قال الحاكم: «كان من أوعية العلم ومن عقلاء الرجال». مات بمدينة بست في عشر الثمانين سنة ٣٥٤ هـ.

---

(٦٨) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، برقم (٣٣٨٣)، وابن ماجه، كتاب: الأدب، باب: فضل الحامدين، برقم (٣٨٠٠)، والنسائي في «الكبرى»، برقم (١٠٦٦٧)، وغيرهم من حديث جابر عبد الله ﷺ، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٦٩) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، برقم (٣٥٠٥)، من حديث سعد ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

و الحاكم: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حمدويه، أبو عبد الله الضبي النيسابوري الشافعي الإمام الحافظ الرحال، سمع من نحو ألفي شيخ منهم: الدارقطني والقفال والبيهقي وغيرهم، يعرف بابن البيِّع، صاحب التصانيف منها: «المستدرك» و«تاريخ نيسابور». قال أبو حاتم: «قام الإجماع علىٰ ثقته». ولد سنة ٣٢١ هـ، ومات سنة ٤٠٥ هـ. وصححه؛ أي: قال: هذا حديث صحيح أي: ثابت علىٰ شرط الشيخين، وما انفرد بتصحيحه ولم يكن مردودًا بعلة فهو دائر بين الصحة والحسن، وأصح من صنف في الصحيح بعد الشيخين ابن خزيمة فابن حبان فالحاكم.

قوله: «والترمذي وحسنه»:

واسمه محمد بن عيسىٰ بن سورة بن موسىٰ بن الضحاك، وقيل: ابن السكن السلمي أبو عيسىٰ صاحب الجامع وأحد الحفاظ، وله في فنون الصناعة الحديثية ما لم يشاركه فيه غيره، وكان ضرير البصر. وترمذ: نسبة لبلدة قديمة بطرف جيحون مات بها سنة ٢٧٩ هـ. وقال: «أردت بالحسن ما لا يكون في سنده متهم بالكذب، ولا يكون شاذًّا، ويروىٰ من غير وجه». وقال الشيخ: «الحسن في اصطلاحه ما روي من وجهين وليس في رواته من هو متهم بالكذب ولا شاذ، ولا مخالف للأحاديث الصحيحة».

قوله: «عن أنس»: رضي الله عنه ابن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب ابن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، أبو حمزة الخزرجي الأنصاري خادم رسول الله ﷺ، خدمه عشر سنين، وقال له: «**اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة**»(٧٠). قدم النبي ﷺ المدينة وهو ابن عشر، فقالت أمه: هذا غلام يخدمك. آخر من مات من الصحابة بالبصرة سنة ٩٢ هـ، وقد جاوز المائة.

قوله: «لو أتيتني بقراب الأرض خطايا»:

قراب بضم القاف: ملؤها أو ما يقارب ملأها.

قوله: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا»:

أي: ثم مت حال كونك لا تشرك بي شيئًا، وهذا شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة وهو

---

(٧٠) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: قول الله تعالىٰ ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ومن خص أخاه بالدعاء دون نفسه، برقم (٦٣٣٤)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه، برقم (١٢٢/ ٢٤٨٠)، وغيرهما من حديث أم سليم رضي الله عنها.

السلامة من الشرك قليله وكثيره، صغيره وكبيره، ولا يسلم من ذلك إلا من أتىٰ الله بقلب سليم، ومن أتىٰ بلا إله إلا الله وهو مشرك لم تصح منه أصلًا، ولم ترجح حسناته بسيئاته، ولا يحرم علىٰ النار.

قوله: «لأتيتك بقرابها مغفرة»:

أي: ملء الأرض، ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ آخر الحديث وهو حديث قدسي، وأوله: «**قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علىٰ ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيتني**»[٧١] إلخ. وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي ذر: «**ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئًا جعلت له مثلها مغفرة**»[٧٢].

وأخرج الطبراني في الثلاثة عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم مهما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئًا غفرت لك علىٰ ما كان منك، وإن استقبلتني بملء السماء والأرض خطايا وذنوبًا استقبلتك بملئهن من المغفرة وغفرت لك ولا أبالي**»[٧٣] حسنه السيوطي.

فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، فإن أكمل العبد توحيده وأخلصه لله، وقام بشروطه أوجب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب، ومنعه من دخول النار، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقىٰ معه ذنب ولو كانت قراب الأرض. وفيه سعة كرم الله وجوده، وكثرة ثواب التوحيد وتكفيره الذنوب. قال المصنف: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة، فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنىٰ قول لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين، وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه علىٰ فضل لا إله إلا الله، والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه، وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان: «**إن الله حرم علىٰ النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**»[٧٤] أن ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط، فمغفرة الذنوب مشروطة بالسلامة من الشرك قليله وكثيره، فالذي لا يسلم

---

(٧١) سبق تخريجه.

(٧٢) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء...، باب: فضل الذكر...، برقم (٢٦٨٧)، وأحمد (٥/ ١٤٧) واللفظ له، وغيرهما من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧٣) أخرجه الطبراني، برقم (١٢٣٤٦)، وفي «الأوسط»، برقم (٥٤٨٣)، وفي «الصغير»، برقم (٨٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وليس من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ والله أعلم.

(٧٤) سبق تخريجه.

من الأكبر لا تنفعه أصلًا، والذي مات ومعه الأصغر تضعف معه، فلا يقوىٰ قولها علىٰ تكفير السيئات، والذي معه البدع والمعاصي ينقص ثوابها.

قال العلامة ابـن سعدي:

❁ **قوله**: «**باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب**»:

لما ذكر في الترجمة السابقة وجوب التوحيد، وأنه الفرض الأعظم علىٰ جميع العبيد، ذكر هنا فضله هو وآثاره الحميدة ونتائجه الجميلة، وليس شيء من الأشياء له من الآثار الحسنة والفضائل المتنوعة مثل التوحيد، فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات هذا التوحيد وفضائله.

فقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وما يكفر من الذنوب**» من باب عطف الخاص علىٰ العام، فإن مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره كما ذكر شواهد ذلك في الترجمة.

ومن فضائله أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوبتهما(٧٥).

ومن أجل فوائده أنه يمنع الخلود في النار. إذا كان في القلب منه أدنىٰ مثقال حبة خردل. وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

ومنها أنه يحصل لصاحبه الهدىٰ الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة.

ومنها أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه، وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه(٧٦).

ومن أعظم فضائله أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها علىٰ التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

ومن فضائله أنه يسهل علىٰ العبد فعل الخير وترك المنكرات، ويسلّيه عن المصيبات، فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات، لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي، لما يخشىٰ من سخطه وعقابه.

ومنها أن التوحيد إذا كمل في القلب حبَّب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

---

(٧٥) انظر ما أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، برقم (٢٢)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤيا، برقم (١٨٣)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧٦) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: الحرص علىٰ الحديث، برقم (٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنها أنه يخفف على العبد المكاره، ويهون عليه الآلام، فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان وتلقيه المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة وتسليم ورضى بأقدار الله المؤلمة.

ومن أعظم فضائله أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي.

ويكون مع ذلك متألهًا متعبدًا لله، لا يرجو سواه، ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء: أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققًا كاملًا بالإخلاص التام، فإنه يُصيِّر القليل من عمله كثيرًا، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب، ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السماوات والأرض وعمارها من جميع خلق الله، كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة، وفي حديث البطاقة التي فيها: لا إله إلا الله التي وزنت تسعة وتسعين سجلًا من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر [٧٧].

وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها ولا تبلغ هذا المبلغ، لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.

ومن فضائل التوحيد: أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا، والعز والشرف، وحصول الهداية، والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

ومنها أن الله يدفع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة، والله أعلم.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب»:

أراد المؤلف به بيان شيء من فضل التوحيد، وأنه أعظم الأعمال في تكفير الذنوب؛ لأنه أساس الأعمال وأصلها، والأعمال لا تصح إلا بعد وجوده.

وذكر ذلك حتى يعرفه المؤمن، ويكون أكثر إقبالًا عليه وتشوقًا إليه.

---

(٧٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، برقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، برقم (٤٣٠٠)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

❁ **قوله:** «قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾»:

آمنوا: أي: وحدوا الله، وأخلصوا له العبادة، وآمنوا أنه إلههم الحق.

ولم يلبسوا: أي: لم يخلطوا.

إيمانهم: توحيدهم.

بظلم: بشرك، بل أخلصوا له العبادة سبحانه.

لهم الأمن: أي: الأمن الكامل والهداية الكاملة، إذا كان إيمانهم سليمًا من الظلم كله دقه وجله؛ من الشرك، وما دونه من المعاصي، وظلم العباد.

ولما نزلت هذه الآية، شق ذلك علىٰ أصحاب رسول اللهﷺ، وجاءوا إليه، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه -ظنوا أنه أراد جنس الظلم، أي: جنس المعاصي- فقال: «**ألم تسمعوا قول العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم**»[(٧٨)].

فالمراد من الظلم هنا: الشرك. بخلاف المشرك، فلا أمن له، بل إلىٰ النار، والمؤمن إذا سلم من الشرك الأكبر والأصغر، وظلم العباد، فله الهداية الكاملة، والأمن التام في الدنيا والآخرة، أما إذا سلم من الشرك الأكبر، ولم يسلم من الأصغر، ومن بعض الذنوب فهدايته ليست كاملة، وأمنه ليس كاملًا، بل ربما يدخل النار بالمعاصي التي مات عليها، وفي شرح الآية بيّن الرسول أن الهداية والأمن المطلقين لا يحصلان إلا بترك الشرك، لكن دلت النصوص الأخرىٰ أن الهداية لا تكمل، والأمن لا يكمل إلا بالسلامة من المعاصي، وظلم العباد، وسائر أنواع الشرك الأصغر.

❁ **قوله: «عن عبادة بن الصامت...»:**

حديث عبادة بن الصامت مرفوعًا: «**من شهد أن لا إله إلا الله... أدخله الله الجنة...**».

روح منه: أي: روح من الأرواح التي خلقها وأوجدها.

فمن شهد هذه الشهادة صادقًا أدخله الله الجنة، وهذا من الأحاديث المطلقة الدالة علىٰ فضل التوحيد، ولكن دلت النصوص علىٰ أن هذا الإطلاق مقيد بمن أدىٰ حق هذه الشهادة، أي: شهد شهادة جازمة بذلك تتضمن إخلاص العبادة له وحده، عن صدق وانقياد، ومحبة، وقبول، وإخلاص، ومتابعة لنبيهﷺ وطاعته، فمن شهدها ولطخها بالمعاصي والسيئات أو قالها باللسان فقط وهو يشرك بقلبه أو عمله كالمنافقين، فهذا لا تنفعه، بل لابد من قولها، والجزم بها، والعمل

---

(٧٨)سبق تخريجه.

بالأوامر، وترك النواهي، واتباع النبيﷺ وإلا فتكون الشهادة مدخولة لا تقوىٰ علىٰ دخول صاحبها الجنة إلا بمشيئة الله.

قوله: «علىٰ ما كان من العمل» أي: علىٰ ما كان عنده من صلاح وفساد إذا قالها عن إخلاص وإيمان. ولكن هذا الدخول قد يكون من أول وهلة، أي: يدخل ابتدَاء إذا مات علىٰ توبة، وعمل صالح وصدق، وقد يكون بعدما يبتلىٰ به من جزاء السيئات والمعاصي، وبعدما يمحص في النار، ويعذب فيها، ثم مصيره إلىٰ الجنة، فمن أدىٰ هذه الشهادات، وقضىٰ ما عليه دخل الجنة من أول وهلة. وإذا مات علىٰ المعاصي؛ فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة.

قوله: «ولهما من حديث عتبان: فإن الله حرم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»:

أي: من قالها عن صدق، ومات عليها، أدخله الله الجنة، فإن كانت له ذنوب، فهو تحت المشيئة، إن لم يتب من ذنوبه كما تقدم.

ومن قالها مخلصًا وصادقًا، فإنه لا يصر علىٰ السيئات؛ لأن إيمانه وإخلاصه الكامل يردعه عن الاستمرار والإصرار علىٰ المعاصي؛ فيدخل الجنة ابتدَاء مع أول الداخلين، والدليل علىٰ أن من مات علىٰ المعاصي فهو تحت المشيئة قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨] ودلت الأحاديث أن أهل المعاصي معرضون للوعيد، وأنهم يدخلون النار، ثم يخرجون بشفاعة الأنبياء وغيرهم؛ لأنهم قد أضعفوا توحيدهم ولطخوه بالمعاصي.

وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة، وهو المعنىٰ الصحيح الذي خلا عنه أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والمرجئة وغيرهم.

- من كفر بالله فإن الشهادة لا تنفعه وإن شهدها.

قوله: «عن أبي سعيد الخدري...»:

حديث أبي سعيد، عن رسول اللهﷺ قال: «**قال موسىٰ: يا رب ! علمني شيئًا...**» يدل الحديث علىٰ فضل هذه الكلمة، وأنها ذكر ودعاء لقوله: علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به -فهي ذكر الله- لأن فيها شهادة له بالوحدانية، ودعاء؛ لأن قائلها يرجو ثوابها، وهكذا كل الأذكار من تسبيح وتحميد وحوقلة.

وفي هذا دلالة علىٰ شأن هذه الكلمة، فهي ذكر ودعاء، وأن فضلها قد يخفي علىٰ بعض الأنبياء.؟

وعظم هذه الكلمة في أنها تحقق العبادة لله وحده، وتثبتها لله، وتنفيها عن غيره، ومعناها: أن لا معبود بحق إلا الله، ففيها إبطال لجميع الآلهة.

قوله «وعامرهن غيري»:

استثنىٰ سبحانه نفسه؛ لأنه العظيم، وهو سبحانه فوق العرش، وبه قامت السماوات والأرض، وهو الذي أمسكهن، وأقامها، وأقام العرش، والكرسي، وبه قامت هذه المخلوقات، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[الروم:٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[فاطر:٤١].

في كفة: أي: كفة الميزان، ولا إله إلا الله في الكفة الأخرىٰ.

مالت بهن لا إله إلا الله: مالت بهن، أي: بمعناها، وليس بأجرامها فبالنظر إلىٰ المعاني والحقائق، فإن كلمة التوحيد أعظم وأصدق وأهم معنىٰ فترجح علىٰ غيرها.

وكما رجحت الكلمة بالمخلوقات فإنها ترجع بمن قالها علىٰ جميع سيئاته وذنوبه.

قوله: «وعن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول....»: حديث أنس مرفوعًا: «**قال الله تعالىٰ: يا بن آدم ! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني....**» يدل علىٰ أن الخطايا كلها مرجوحة في مقابل حقيقة كلمة التوحيد، كما ترجح بالمخلوقات العظيمة.

قرابها بالظلم: أي: ما يقارب الأرض ويملأها.

ووجه العلماء هذا الحديث بوجهين:

الأول: أن هذا في حق من قالها صادقًا مخلصًا، لم يصر علىٰ سيئة أصلًا فأحكم هذه الكلمة، حتىٰ صار مؤديًا لجميع الواجبات تاركًا لجميع المنهيات مستقيمًا علىٰ شرع الله في كل شيء.

الثاني: إن هذا في حق من قالها وأتىٰ إلىٰ الله تائبًا من خطاياه مقلعًا عن ذنوبه وسيئاته، فكل الخطايا ساقطة بهذه الكلمة.

وهذا المعنىٰ لا بد منه؛ لأن الآيات والأحاديث دلت علىٰ أن أهل المعاصي علىٰ خطر، وأنهم متوعدون بالنار، والنصوص لا تعارض بعضها بعضًا، ولا تتناقض بينها، فوجب حمل النصوص علىٰ هذا المعنىٰ حتىٰ لا يكون هناك اختلاف وتناقض.

وقد تعلق بعض الجهلة بمثل إطلاقات هذه النصوص، وظن أن هذه الكلمة تكفي بمجرد القول، وإن ترك الواجبات وفعل المعاصي، وهذا مخالف لما أجمع عليه سلف الأمة من أنه لا بد من أداء الواجبات، وترك المحرمات، والوقوف عند حدود الله.

ومن ترك الواجبات، أو فعل المنهيات فإنه معرض لعقوبة الله تعالىٰ، وإن كان يقول هذه الكلمة ويوقن بها.

وإن أتىٰ بما ينقض إسلامه صار مرتدًا كافرًا، لم تنفعه هذه الشهادة.

فلا بد من تحقيق هذه الكلمة ومستلزماتها، وإلا فهو علىٰ خطر إن لم يتب.

تحقيق التوحيد: تخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

فمن حقق توحيده، وسلم من الشرك والبدع والمعاصي؛ دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ لأن الشرك الأكبر ينافي التوحيد، والأصغر ينافي كمال الواجب، والبدع والمعاصي تقدح فيه، وتنقص ثوابه.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «**باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب**»:

سبق أن ذكر المؤلف كتاب التوحيد؛ أي: وجوب التوحيد، وأنه لا بد منه، وأن معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]: أن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد.

وهنا ذكر المؤلف فضل التوحيد، ولا يلزم من ثبوت الفضل للشيء أن يكون غير واجب، بل الفضل من نتائجه وآثاره.

ومن ذلك صلاة الجماعة ثبت فضلها بقوله ﷺ: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**» (٧٩). متفق عليه.

ولا يلزم من ثبوت الفضل فيها أن تكون غير واجبة؛ إذ إن التوحيد أوجب الواجبات، ولا تقبل الأعمال إلا به، ولا يتقرب العبد إلىٰ ربه إلا به، ومع ذلك؛ ففيه فضل.

قوله: «**وما يكفر من الذنوب**»: معطوف علىٰ «فضل»؛ فيكون المعنىٰ: باب فضل التوحيد، وباب ما يكفر من الذنوب، وعلىٰ هذا؛ فالعائد محذوف والتقدير ما يكفره من الذنوب، وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثاني: بيان ما يكفره من الذنوب؛ لأن من آثار فضل التوحيد تكفير الذنوب.

---

(٧٩) أخرجه البخاري، كتاب: الآذان، باب: فضل صلاة الفجر في جماعة، برقم (٦٤٩)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، برقم (٦٥٠)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فمن فوائد التوحيد:

١- أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة؛ لأن الموحد يعمل لله -سبحانه وتعالىٰ-، وعليه؛ فهو يعمل سرًا وعلانية؛ أما غير الموحد؛ كالمرائي مثلًا، فإنه يتصدق ويصلي، ويذكر الله إذا كان عنده من يراه فقط، ولهذا قال بعض السلف: «إني لأود أن أتقرب إلىٰ الله بطاعة لا يعلمها إلا هو».

٢- أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢].

قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾، أي: يخلطوا.

قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾، الظلم هنا ما يقابل الإيمان، وهو الشرك، ولما نزلت هذه الآية شق ذلك علىٰ الصحابة، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبيﷺ: «**ليس الأمر كما تظنون، إنما المراد به الشرك، ألم تسمعوا إلىٰ قول الرجل الصالح** -يعني لقمان-: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]»(٨٠).

والظلم أنواع:

١- أظلم الظلم، وهو الشرك في حق الله.

٢- ظلم الإنسان نفسه؛ فلا يعطيها حقها، مثل أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

٣- ظلم الإنسان غيره، مثل أن يتعدىٰ علىٰ شخص بالضرب، أو القتل، أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك.

وإذا انتفىٰ الظلم، حصل الأمن، لكن هل هو أمنٌ كامل؟

الجواب: أنه إن كان الإيمان كاملًا لم يخالطه معصيةٌ؛ فالأمن أمنٌ مطلق، أي: كامل، وإذا كان الإيمان مطلق إيمانٍ غير كامل؛ فله مطلق الأمن؛ أي: أمن ناقص.

مثال ذلك: مرتكب الكبيرة، آمنٌ من الخلود في النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:١١٦].

وهذه الآية قالها الله تعالىٰ حكمًا بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ...﴾إلىٰ قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنعام:٨١، ٨٢]؛ فقال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾الآية [الأنعام:٨٢]، علىٰ أنه قد يقول قائلٌ: إنها من كلام إبراهيم ليبين لقومه، ولهذا قال بعدها: ﴿ٱلْأَمْنُ﴾[الأنعام ٨٣].

---

(٨٠) سبق تخريجه.

وقوله: ﴿ٱلۡأَمۡنُ﴾: أل فيها للجنس، ولهذا فسرنا الأمن بأنه إما أمن مطلق، وإما مطلق أمن حسب الظلم الذي تلبس به.

قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ أي: في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل؛ فالاهتداء بالعلم هداية إرشاد والاهتداء بالعمل: هداية توفيق، وهم مهتدون في الآخرة إلى الجنة.

كما قال الله تعالى في أصحاب الجحيم: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣،٢٢].

فهذه هداية الآخرة، وهي للذين ظلموا إلى صراط الجحيم؛ فيكون مقابلها أن الذين آمنوا ولم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم.

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾: إن الأمن في الآخرة، والهداية في الدنيا، والصواب أنها عامةٌ بالنسبة للأمن والهداية في الدنيا والآخرة.

مناسبة الآية للترجمة:

أن الله أثبت الأمن لمن لم يشرك، والذي لم يشرك يكون موحدًا؛ فدل على أن من فضائل التوحيد استقرار الأمن.

قوله: «من شهد أن لا اله إلا الله»:

الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، وهذا العلم قد يكون مكتسبًا وقد يكون غريزيًّا.

فالعلم بأنه لا إله إلا الله غريزيٌّ، قال ﷺ: **«كل مولودٍ يولد على الفطرة»**[٨١]. وقد يكون مكتسبًا، وذلك بتدبر آيات الله، والتفكر فيها.

ولابد أن يوجد العلم بلا إله إلا الله ثم الشهادة بها.

قوله: ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، والنطق بأن مشددة خطأٌ؛ لأن المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخفّفة يمكن حذفه.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: لا مألوه، وليس بمعنى لا آله، والمألوه: هو المعبود محبةً وتعظيمًا، تحبه وتعظمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

---

(٨١) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، برقم (٤٧٧٥)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة...، برقم (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ أي: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكي عن قريش قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥].

أما قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[هود:١٠١]، فهذا التأله باطل؛ لأنه بغير حق، فهو منفيٌّ شرعًا، وإذا انتفىٰ شرعًا؛ فهو كالمنتفي وقوعًا؛ فلا قرار له، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[إبراهيم:٢٦].

وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾[هود:١٠١]، وقوله تعالىٰ حكايةً عن قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[ص:٥]، وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾[ص:٦٥]؛ فهذه الآلهة مجرد أسماء لا معاني لها ولا حقيقة؛ إذ هي باطلة شرعًا، لا تستحق أن تسمىٰ آلهة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[يوسف:٤٠].

التوحيد عند المتكلمين:

يقولون: إن معنىٰ إله: آله، والآله: القادر علىٰ الاختراع؛ فيكون معنىٰ لا إله إلا الله: لا قادر علىٰ الاختراع إلا الله.

والتوحيد عندهم: أن توحد الله، فتقول: هو واحد في ذاته، لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له، ولو كان هذا معنىٰ لا إله إلا الله؛ لما أنكرت قريش علىٰ النبيﷺ دعوته ولآمنت به وصدقت؛ لأن قريشًا تقول: لا خالق إلا الله، ولا خالق أبلغ من كلمة لا قادر؛ لأن القادر قد يفعل وقد لا يفعل، أما الخالق؛ فقد فعل وحقق بقدرة منه، فصار فهم المشركين خيرًا من فهم هؤلاء المتكلمين والمنتسبين للإسلام؛ فالتوحيد الذي جاءت به الرسل في قوله تعالىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٥٩]؛ أي: من إله حقيقي يستحق أن يعبد، وهو الله.

ومن المؤسف أنه يوجد كثير من الكُتَّاب الآن الذين يكتبون في هذه الأبواب تجدهم عندما يتكلمون علىٰ التوحيد لا يقررون أكثر من توحيد الربوبية، وهذا غلط ونقص عظيم، ويجب أن نغرس في قلوب المسلمين توحيد الألوهية أكثر من توحيد الربوبية؛ لأن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إنكارًا حقيقيًا، فكوننا لا نقرر إلا هذا الأمر الفطري المعلوم بالعقل، ونسكت عن الأمر الذي يغلب فيه الهوىٰ هو نقص عظيم، فعبادة غير الله هي التي يسيطر فيها هوىٰ الإنسان علىٰ

نفسه حتى يصرفه عن عبادة الله وحده، فيعبد الأولياء ويعبد هواه، حتى جعل النبي ﷺ الذي همه الدرهم والدينار ونحوهما عابدًا[٨٢]، وقال الله ﷻ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣].

فالمعاصي من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك. وأما بالمعنى الأخص؛ فتنقسم إلى أنواع:

١- شرك أكبر.

٢- شرك أصغر.

٣- معصية كبيرة.

٤- معصية صغيرة.

وهذه المعاصي منها ما يتعلق بحق الله، ومنها ما يتعلق بحق الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلق بحق الخلق.

وتحقيق لا إله إلا الله أمر في غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف: «كل معصية، فهي نوع من الشرك».

وقال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»، ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن؛ فلا يجاهد نفسه على الإخلاص، ولهذا قيل لابن عباس: «إنّ اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في الصلاة. قال: فما يصنع الشيطان بقلبٍ خرب؟!»؛ فالشيطان لا يأتي ليخرّب المهدوم، ولكن يأتي ليخرّب المعمور، ولهذا لما شُكي إلى النبي ﷺ أن الرجل يجد في نفسه ما يستعظم أن يتكلم به؛ قال: «**وجدتم ذلك؟**». قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريح الإيمان**[٨٣]»؛ أي: أن ذاك هو العلامة البينة على أنّ إيمانكم صريح لأنه ورد عليه، ولا يرد إلا على قلب صحيح خالص.

قوله: «**من شهد أن لا إله إلا الله**»: ، من: شرطية، وجواب الشرط: «**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**».

---

(٨٢) سبق تخريجه.

(٨٣) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله مَنْ وجدها، برقم (١٣٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والشهادة: هي الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح، ولهذا لما قال المنافقون للرسول ﷺ ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١] وهذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن، واللام، كذبهم الله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]؛ فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان لأنه خالٍ من الاعتقاد بالقلب، وخالٍ من التصديق بالعمل، فلم ينفع؛ فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان، وتصديق بالعمل.

وقوله: «لا إله إلا الله»؛ أي: لا معبود علىٰ وجه يستحق أن يعبد إلا الله، وهذه الأصنام التي تعبد لا تستحق العبادة؛ لأنه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قوله: «وحده لا شريك له»: وحده: توكيد للإثبات، لا شريك له: توكيد للنفي في كل ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

ولهذا كان النبي ﷺ وغيره من المؤمنين يلجئون إلىٰ الله تعالىٰ عند الشدائد؛ فقد جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ وعنده أصحابه، وقد علق سيفه علىٰ شجرة فاخترطه الأعرابي، وقال: من يمنعك مني؟ قال: **«يمنعني الله»** (٨٤) ولم يقل أصحابي، وهذا هو تحقيق توحيد الربوبية؛ لأن الله هو الذي يملك النفع، والضر، والخلق، والتدبير، والتصرف في الملك؛ إذ لا شريك له فيما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقولنا فيما يختص به حتىٰ نسلم من شبهات كثيرة، منها شبهات النّافين للصفات؛ لأن النّافين للصفات زعموا أن إثبات الصفات إشراك بالله ﷻ حيث قالوا: يلزم من ذلك التمثيل، لكننا نقول: للخالق صفات تختص به، وللمخلوق صفات تختص به.

قوله: «وأنّ محمدًا عبده ورسوله»، محمد: هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، القرشي، الهاشمي، خاتم النبيين.

---

(٨٤) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة ذات الرقاع، برقم (٤١٣٦)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: صلاة الخوف، برقم (٨٤٣)، وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه.

وقوله: «**عبده**»؛ أي: ليس شريكًا مع الله.

وقوله: «**ورسوله**»؛ أي: المبعوث بما أوحىٰ إليه، فليس كاذبًا علىٰ الله.

فالرسول ﷺعبدٌ مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه ما عدا شيئًا واحدًا، وهو ما يعود إلىٰ أسافل الأخلاق؛ فهو منزه معصوم منه، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ﴾ [الإعراف:١٨٨] وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ [الجن:٢١، ٢٢]

فهو بشر مثلنا؛ إلا أنه يوحىٰ إليه، قال تعال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [فصلت:٦]

ومن قال: إن الرسول ﷺليس له ظل، أو أن نوره يطفئ ظله إذا مشىٰ في الشمس؛ فكله كذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: «كنت أمد رجلي بين يديه، وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح»[(٨٥)]، فلو كان النبي ﷺله نور؛ لم تعتذر رضي الله عنها، ولكنه الغلو الذي أفسد الدين والدنيا، والعياذ بالله.

ومن الغلو قول البوصيري في «البردة» المشهورة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن آخذًا يوم المعاد يدي ... فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك لله شيئًا ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ

ونشهد أن من يقول هذا؛ ما شهد أن محمدًا عبدالله، بل شهد أن محمدًا فوق الله! كيف يصل بهم الغلو إلىٰ هذا الحد؟!

وهذا الغلو فوق غلو النصارىٰ الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة.

هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقول: «**من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وأنا مع عبدي إذا ذكرني**»[(٨٦)]، والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلىٰ التالي «المُخرّف» كلمة المصطفىٰ قاموا جميعًا قيام رجل واحد، يقولون: لأن الرسول ﷺحضر مجلسنا بنفسه، فقمنا إجلالًا له،

---

(٨٥) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: التطوع خلف المرأة، برقم (٥١٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٨٦) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، برقم (٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء...، باب: فضل الذكر والدعاء...، برقم (٢١/ ٢٦٧٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والصحابة رضي الله عنهم أشدّ إجلالًا منهم ومنا، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ وهو حيٌّ يكلمهم لا يقومون له، وهؤلاء يقومون إذا تخيلوا أو جاءهم شبح إن كانوا يشاهدون شيئًا، فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلىٰ هذا الحد! فهؤلاء ما شهدوا أن محمدًا عبدالله ورسوله، وهؤلاء المخرفون مساكين، إن نظرنا إليهم بعين القدر؛ فنرق لهم، ونسأل الله لهم السلامة والعافية، وإن نظرنا إليهم بعين الشرع؛ فإننا يجب أن ننابذهم بالحجة حتىٰ يعودوا إلىٰ الصراط المستقيم، والرسول ﷺ أشد الناس عبودية لله، أخشاهم لله، وأتقاهم لله، قام يصلي حتىٰ تورمت قدماه، وقيل له في ذلك؛ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[87].وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا تحقيق العبادة العظيمة.

أما الرسالة؛ فهو رسول أرسله الله عز وجل بأعظم شريعة إلىٰ جميع الخلق، فبلغها غاية البلاغ، مع أنه أوذي وقوتل، حتىٰ إنهم جاءوا بسلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة ووضعوه علىٰ ظهره، كل ذلك كراهيةً له ولما جاء به، ومع ذلك صبر، يلقون الأذىٰ والأنتان والأقذار علىٰ عتبة بابه، لكن هذا للنبي الكريم امتحان من الله عز وجل؛ لأجل أن يتبين صبره وفضله، يخرج ويقول: «**أي جوار هذا يا بني عبد مناف؟**»[88]، فصبر ﷺ حتىٰ فتح الله عليه، وأنذر أم القرىٰ ومن حولها، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانةً وأقواهم علىٰ الاتباع؛ الصحابة رضي الله عنهم، وأدوها إلىٰ الأمة نقيّة سليمة، ولله الحمد.

ونحب الرسول ﷺ لله وفي الله؛ فحب الرسول ﷺ من حبّ الله، ونقدمه علىٰ أنفسنا وأهلنا وأولادنا والناس أجمعين، وأحببناه من أجل أنه رسول الله ﷺ.

ونحقق شهادة أن محمدًا رسول الله، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا، ونعترف به بألسنتنا، ونطبق ذلك في متابعته ﷺ بجوارحنا، فنعمل بهديه، ولا نعمل له.

أما ما ينقض تحقيق هذه الشهادة، فهو:

١- فعل المعاصي؛ فالمعصية نقص في تحقيق هذه الشهادة؛ لأنك خرجت بمعصيتك من اتباع النبي ﷺ.

---

(٨٧) أخرجه البخاري، كتاب: التهجد، باب: قيام النبي ﷺ حتىٰ ترم قدماه، برقم (١١٣٠)، ومسلم، كتاب: صفة القيامة...، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، برقم (٢٨١٩)، وغيرهما من حديث المغيرة رضي الله عنه.

(٨٨) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٣٣).

٢- الابتداع في الدين ما ليس منه؛ لأنك تقربت إلىٰ الله بما لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ، والابتداع في الدين في الحقيقة من الاستهزاء بالله؛ لأنك تقرّبت إليه بشيء لم يشرعه.

فإن قال قائل: أنا نويت التقرب إلىٰ الله بهذا العمل الذي أبتدعه.

قيل له: أنت أخطأت الطريق؛ فتعذر علىٰ نيتك، ولا تعذر علىٰ مخالفة الطريق متىٰ علمت الحق.

فالمبتدعون قد يقال: إنهم يثابون علىٰ حسن نيتهم إذا كانوا لا يعلمون الحق، ولكننا نخطّئهم فيما ذهبوا إليه، أما أئمتهم الذين علموا الحق، ولكن ردّوه ليبقوا جاههم؛ ففيهم شبه بأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وغيرهم الذين قابلوا رسالة النبي ﷺ بالرد إبقاءً علىٰ رئاستهم وجاههم.

أما بالنسبة لأتباع هؤلاء الأئمة؛ فينقسمون إلىٰ قسمين:

القسم الأول: الذين جهلوا الحق، فلم يعلموا عنه شيئًا، ولم يحصل منهم تقصير في طلبه، حيث ظنّوا أن ما هم عليه هو الحق؛ فهؤلاء معذورون.

القسم الثاني: من علموا الحق، ولكنهم ردّوه تعصبًا لأئمتهم؛ فهؤلاء لا يعذرون، وهم كمن قال الله فيهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

قوله: «**وأن عيسىٰ عبدالله ورسوله**»: الكلام فيها كالكلام في شهادة أن محمدًا رسول الله، إلا أننا نؤمن برسالة عيسىٰ، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولىٰ: أن تكون مخالفة لشريعتنا؛ فالعمل علىٰ شرعنا.

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا؛ فنحن متبعون لشريعتنا.

الثالثة: أن يكون مسكوتًا عنها في شريعتنا، وفي هذه الحال اختلف علماء الأصول: هل نعمل بها، أو ندعها؟ والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك:

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

وقد تطرّف في عيسىٰ عليه السلام طائفتان:

الأولىٰ: اليهود كذبوه، فقالوا: بأنه ولد زنىٰ، وأنّ أمه من البغايا، وأنه ليس بنبي، وقتلوه شرعًا؛ أي: محكوم عليهم عند الله أنهم قتلوه في حكم الله الشرعي؛ لقوله تعالىٰ عنهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[النساء:١٥٧]، وأما بالنسبة لحكم الله القدري؛ فقد كذبوا، وما قتلوه يقينًا، بل رفعه الله إليه، ولكن شُبِّه لهم، فقتلوا المُشَّبّه لهم وصلبوه.

الثانية: النصارىٰ قالوا: إنه ابن الله، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلهًا مع الله، وكذبوا فيما قالوا.

أما عقيدتنا نحن فيه: فنشهد أنه عبد الله ورسوله، وأن أمه صدِّيقة؛ كما أخبر الله تعالىٰ بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنّها عذراء، ولكن مثله عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فيكون.

وفي قوله: «عبدالله»، رد علىٰ النصارىٰ.

وفي قوله: «ورسوله»، رد علىٰ اليهود.

قوله: «وكلمته ألقاها إلىٰ مريم»: أطلق الله عليه كلمة؛ لأنه خُلق بالكلمة عليه السلام؛ فالحديث ليس علىٰ ظاهره؛ إذ عيسىٰ عليه السلام ليس كلمة؛ لأنه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوط، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩].

وعيسىٰ عليه السلام ليس كلمة الله؛ إذ أن كلام الله وصف قائم به، لا بائن منه، أما عيسىٰ؛ فهو ذات بائنة عن الله –سبحانه–، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام ويشرب.

قوله: «ألقاها إلىٰ مريم»؛ أي: وجَّهها إليها بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩].

ومريم ابنة عمران ليست أخت موسىٰ وهارون عليهما السلام كما يظنه بعض الناس، ولكن كما قال الرسول ﷺ كانوا يُسمون بأسماء أنبيائهم(٨٩)، فهارون أخو مريم، ليس هارون أخا موسىٰ، بل هو آخر يسمىٰ باسمه، وكذلك عمران سمي باسم أبي موسىٰ.

---

(٨٩) أخرجه مسلم، كتاب: الأدب، باب: النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، برقم (٢١٣٥)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

قوله: «وروح منه»؛ أي: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من الله؛ أي: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالىٰ للتشريف والتكريم.

وعيسىٰ عليه السلام ليس روحًا، بل جسد ذو روح، قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥].

فبالنفخ صار جسدًا، وبالروح صار جسدًا وروحًا.

قوله: «منه»: هذه هي التي ضلَّ بها النصارىٰ، فظنوا أنه جزء من الله، فضلوا وأضلوا كثيرًا، ولكننا نقول: إن الله قد أعمىٰ بصائركم؛ فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور؛ فمن المعلوم أن عيسىٰ عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شيء معروف، ومن المعلوم أيضًا أن اليهود يقولون: إنهم صلبوه، وهل يمكن لمن كان جزءًا من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويُدَّعىٰ أنه قُتِل وصُلِب؟

وعلىٰ هذا تكون «من» للابتداء، وليس للتبعيض؛ فهي كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]؛ فلا يمكن أن نقول: إن الشمس والقمر والأنهار جزء من الله، وهذا لم يقل به أحد.

فقوله: «منه»؛ أي: روح صادرة من الله عز وجل وليست جزءًا من الله كما تزعم النصارىٰ. وأعلم أن ما أضافه الله إلىٰ نفسه ينقسم إلىٰ **ثلاثة أقسام:**

الأول: العين قائمة بنفسها، وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه، وهذه الإضافة قد تكون علىٰ سبيل عموم الخلق؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية:١٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦]، وقد تكون علىٰ سبيل الخصوص لشرفه.

كقوله تعالىٰ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥]، وكقوله تعالىٰ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس:١٣]، وهذا القسم مخلوق.

الثاني: أن يكون شيئًا مضافًا إلىٰ عين مخلوقة يقوم بها، مثاله قوله تعالىٰ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]، فإضافة هذه الروح إلىٰ الله من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه تشريفًا؛ فهي روح من الأرواح التي خلقها الله، وليست جزءًا أو روحًا من الله؛ إذ أنّ هذه الروح حلّت في عيسىٰ عليه السلام، وهو عين منفصلة عن الله، وهذا القسم مخلوق أيضًا.

الثالث: أن يكون وصفًا غير مضاف إلىٰ عين مخلوقة، مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[الأعراف:١٤٤]؛ فالرسالة والكلام أضيفا إلىٰ الله من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، فإذا أضاف الله لنفسه صفة؛ فهذه الصفة غير مخلوقة، وبهذا يتبين أن **هذه الأقسام الثلاثة:** قسمان منها مخلوقان، وقسم غير مخلوق.

فالأعيان القائمة بنفسها والمتصل بهذه الأعيان مخلوقة، والوصف الذي لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق؛ لأنه يكون من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة.

وقد اجتمع القسمان في قوله: «**كلمته، وروح منه**»؛ «فكلمته»: هذه وصف مضاف إلىٰ الله، وعلىٰ هذا، فتكون كلمته صفة من صفات الله.

«وروح منه»: هذه أضيفت إلىٰ عين؛ لأن الروح حلّت في عيسىٰ؛ فهي مخلوقة.

قوله: «أدخله الله الجنة»: إدخال الجنة ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب لمن أتمّ العمل.

الثاني: إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن نقص العمل.

فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عذّبه بقدر عمله، وإن شاء لم يعذّبه، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:١١٦].

قوله «عتبان»:

هو عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، كان يصلي بقومه، فضعف بصره، وشق عليه الذهاب إليهم، فطلب من النبي ﷺ أن يخرج إليه وأن يصلي في مكان من بيته ليتخذه مصلىٰ، فخرج إليه النبي ﷺ ومعه طائفة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما دخل البيت؛ قال: «**أين تريد أن أصلي؟**». قال: صلِّ هاهنا. وأشار إلىٰ ناحية من البيت، فصلىٰ بهم النبي ﷺ ركعتين، ثم جلس علىٰ طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلًا يقال له: مالك بن الدُّخْشُم، فقال بعضهم: هو منافق. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تقل هكذا؛ أليس قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟!**». ثم قال: «**فإن الله حرم علىٰ النار...**»[٩٠] الحديث.

---

(٩٠) سبق تخريجه.

فنهاهم أن يقولوا هكذا، لأنهم لا يدرون عما في قلبه؛ لأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وهنا الرسول قال هكذا، ولم يبرئ الرجل، إنّما أتىٰ بعبارة عامة بأن الله حرّم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله، ونهىٰ أن نطلق ألسنتنا في عباد الله الذي ظاهرهم الصلاح، ونقول: هذا مراءٍ، هذا فاسق، وما أشبه ذلك؛ لأننا لو أخذنا بما نظن فسدت الدنيا والآخرة؛ فكثير من الناس نظن بهم سوءًا، ولكن لا يجوز أن نقول ذلك وظاهرهم الصلاح، ولهذا قال العلماء: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة.

قوله: «**فإن الله حرم علىٰ النار**»؛ أي: منع من النار، أو منع النار أن تصيبه.

قوله: «**من قال: لا إله إلا الله**»؛ أي: بشرط الإخلاص، بدليل قوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**»؛ أي: يطلب وجه الله، ومن طلب وجهًا؛ فلا بد أن يعمل كل ما في وسعه للوصول إليه؛ لأن مبتغي الشيء يسعىٰ في الوصول إليه، وعليه؛ فلا نحتاج إلىٰ قول الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ساق الحديث؛ كما في «صحيح مسلم»؛ حيث قال: «ثم وجبت بعد ذلك أمور، وحُرّمت أمور؛ فلا يغتر مغترٌ بهذا»[٩١]؛ فالحديث واضح الدلالة علىٰ شرطية العمل لمن قال: لا إله إلا الله، حيث قال: «**يبتغي بذلك وجه الله**»، ولهذا قال بعض السلف عن قول النبي ﷺ: «**مفتاح الجنة: لا إله إلا الله**»[٩٢] لكن من أتىٰ بمفتاح لا أسنان له لا يفتح له.

قال **شيخ الإسلام**: إنّ المبتغي لا بد أن يكمّل وسائل البُغية، وإذا أكملها حُرمت عليه النار تحريمًا مطلقًا، وإن أتىٰ بالحسنات علىٰ الوجه الأكمل؛ فإنّ النار تحرم عليه تحريمًا مطلقًا، وإن أتىٰ بشيء ناقص، فإن الابتغاء فيه نقص، فيكون تحريم النار عليه فيه نقص، لكن يمنعه ما معه من التوحيد من الخلود في النار، وكذا من زنىٰ، أو شرب الخمر، أو سرق، فإذا فعل شيئًا من ذلك ثم قال حين فعله: أشهد أن لا إله إلا الله ابتغي بذلك وجه الله؛ فهو كاذب في زعمه؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[٩٣] فضلًا عن أن يكون مبتغيًا وجه الله.

---

(٩١) سبق تخريجه.

(٩٢) أخرجه البخاري تعليقًا، كتاب: الجنائز، باب: في الجنائز من كان آخر كلامه لا إله إلا الله (٣/ ١٠٩/ فتح)، عن وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٩٣) أخرجه البخاري، كتاب: الأشربة، باب: قول الله تعالىٰ ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، برقم (٥٥٧٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي...، برقم (٥٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث ردٌّ علىٰ المرجئة الذين يقولون: يكفي قول: لا إله إلا الله، دون ابتغاء وجه الله.

وفيه ردٌّ علىٰ الخوارج والمعتزلة؛ لأن ظاهر الحديث أن من فعل هذه المحرمات لا يُخلد في النار، لكنه مستحق للعقوبة، وهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلد في النار.

قوله: «**أذكرك وأدعوك به**»: صفة لشيء، وليست جواب الطلب؛ فموسىٰ عليه السلام طلب شيئًا يحصل به أمران:

١- ذكر الله.

٢- دعاؤه.

فأجاب الله بقوله: «**قل لا إله إلا الله**»، وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء؛ لأن الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلىٰ دار كرامته إذًا؛ فهو متضمن للدعاء، قال الشاعر:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حباؤك إن شيمتك الحباء

يعني: عطاؤك.

واستشهد ابن عباس علىٰ أن الذكر بمعنىٰ الدعاء بقول الشاعر:

إذا أثنىٰ عليك العبد يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء

❁ **قوله**: «**كل عبادك يقولون هذا**»:

ليس المعنىٰ أنها كلمة هينة كلٌّ يقولها؛ لأنّ موسىٰ عليه الصلاة والسلام يعلم عظَم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئًا يختص به؛ لأن تخصيص الإنسان بالأمر يدل علىٰ منقبة له ورفعة؛ فبين الله لموسىٰ أنه مهما أعطي فلن يعطىٰ أفضل من هذه الكلمة، وأنّ لا إله إلا الله أعظم من السماوات والأرض وما فيهن؛ لأنها تميل بهن وترجح، فدل ذلك علىٰ فضل لا إله إلا الله وعظَمها، لكن لابد من الإتيان بشروطها، أما مجرد أن يقولها القائل بلسانه؛ فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوي شيئًا؛ لأنّه لم يقلها علىٰ الوجه الذي تمت به الشروط وانتفت به الموانع.

قوله: «**والأرضين السبع**»، في بعض النسخ بالرفع، وهذا لا يصلح؛ لأنه إذا عطف علىٰ اسم أنّ قبل استكمال الخبر وجب النصب.

قوله: «**مالت**»، أي: رجحت حتىٰ يملن.

قوله: «عامرهن»: أي: ساكنهن؛ فالعامر للشيء هو الذي عمر به الشيء.

قوله: «غيري»: استثنىٰ نفسه تبارك وتعالىٰ؛ لأن قول لا إله إلا الله ثناء عليه، والمثنىٰ عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالىٰ في السماء ليس ككون الملائكة في السماء؛ فكون الملائكة في السماء كون حاجي، فهم ساكنون في السماء؛ لأنهم محتاجون إلىٰ السماء، لكن الرب تبارك وتعالىٰ ليس محتاجًا إليها، بل إن السماء وغير السماء محتاج إلىٰ الله تعالىٰ؛ فلا يظن ظانٌّ أن السماء تقل الله أو تظله أو تحيط به، وعليه؛ فالسماوات باعتبار الملائكة أمكنة مقلة للملائكة، وما فوقهم منها مظل لهم، أما بالنسبة لله؛ فهي جهة لأن الله تعالىٰ مستوٍ علىٰ عرشه، لا يقله شيء من خلقه.

قوله: «قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم...» إلخ:

هذا من الأحاديث القدسية، **والحديث القدسي**: ما رواه النبيﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية؛ لأنه منسوب إلىٰ النبيﷺ تبليغًا، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله ﷻ.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في لفظ الحديث القدسي: هل هو كلام الله تعالىٰ، أو أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ رسولهﷺ معناه واللفظ لفظ رسول اللهﷺ؟ علىٰ قولين:

القول الأول: أن الحديث القدسي من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبيﷺ أضافه إلىٰ الله تعالىٰ، ومن المعلوم أن الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، لاسيما والنبيﷺ أقوىٰ الناس أمانةً وأوثقهم روايةً.

القول الثاني: أن الحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه لفظ النبيﷺ، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان الحديث القدسي من عند الله لفظًا ومعنىٰ؛ لكان أعلىٰ سندًا من القرآن؛ لأن النبيﷺ يرويه عن ربه تعالىٰ بدون واسطة؛ كما هو ظاهر السياق، أما القرآن؛ فنزل علىٰ النبيﷺ بواسطة جبريل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾[النحل:١٠٢]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء:١٩٣-١٩٥].

الوجه الثاني: أنه لو كان لفظ الحديث القدسي من عند الله، لم يكن بينه وبين القرآن فرق؛ لأن كليهما علىٰ هذا التقدير كلام الله تعالىٰ، والحكمة تقتضي تساويهما في الحكم حين اتفقا في الأصل، ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسي فروق كثيرة:

منها: أن الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته، بمعنىٰ أن الإنسان لا يتعبد لله تعالىٰ بمجرد قراءته؛ فلا يثاب علىٰ كل حرف منه عشر حسنات، والقرآن يتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات.

ومنها: أن الله تعالىٰ تحدىٰ أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله تعالىٰ؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ﴾ [الحجر:٩] والأحاديث القدسية بخلاف ذلك؛ ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفًا أو موضوعًا، وهذا وإن لم يكن منها لكن نسب إليها وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

ومنها: أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنىٰ بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية، فعلىٰ الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنىٰ والأكثرون علىٰ جوازه.

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة ومنه ما لا تصح الصلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يمسه إلا طاهر علىٰ الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجنب حتىٰ يغتسل علىٰ القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفًا أجمع القراء عليه؛ لكان كافرًا، بخلاف الأحاديث القدسية؛ فإنه لو أنكر شيئًا منها مدعيًا أنه لم يثبت؛ لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله؛ لكان كافرًا لتكذيبه النبي ﷺ.

وأجاب هؤلاء عن كون النبي ﷺ أضافه إلىٰ الله، والأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتسليم أن هذا هو الأصل، لكن قد يضاف إلىٰ قائله معنىً لا لفظًا؛ كما في القرآن الكريم؛ فإن الله تعالىٰ يضيف أقوالًا إلىٰ قائليها، ونحن نعلم أنها أضيفت معنىً لا لفظًا، كما في «قصص الأنبياء» وغيرهم، وكلام الهدهد والنملة؛ فإنه بغير هذا اللفظ قطعًا.

وبهذا يتبين رجحان هذا القول، وليس الخلاف في هذا كالخلاف بين الأشاعرة وأهل السنة في كلام الله تعالىٰ؛ لأن الخلاف بين هؤلاء في أصل كلام الله تعالىٰ؛ فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالىٰ؛ لأن الخلاف بين هؤلاء في أصل كلام الله تعالىٰ، فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالىٰ كلام

حقيقي مسموع يتكلم سبحانه بصوت وحرف، والأشاعرة لا يثبتون ذلك، وإنما يقولون: كلام الله تعالىٰ والمعنىٰ القائم بنفسه وليس بحرف وصوت، ولكن الله تعالىٰ يخلق صوتًا يعبر به عن المعنىٰ القائم بنفسه، ولا شك في بطلان قولهم، وهو في الحقيقة قول المعتزلة؛ لأن المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، وهو كلام الله وهؤلاء يقولون: القرآن مخلوق، وهو عبارة عن كلام الله؛ فقد اتفق الجميع علىٰ أن ما بين دفتي المصحف مخلوق.

ثم لو قيل في مسألتنا -الكلام في الحديث القدسي-: إن الأولىٰ ترك الخوض في هذا؛ خوفًا من أن يكون من التنطع الهالك فاعله، والاقتصار علىٰ القول بأن الحديث القدسي ما رواه النبيﷺ عن ربه وكفىٰ؛ لكان ذلك كافيًا، ولعله أسلم والله أعلم.

فائدة:

إذا انتهىٰ سند الحديث إلىٰ الله تعالىٰ سمي (قدسيًّا)؛ لقدسيته وفضله، وإذا انتهىٰ إلىٰ الرسولﷺ سمي مرفوعًا، وإذا انتهىٰ إلىٰ الصحابي سمي موقوفًا، وإذا انتهىٰ إلىٰ التابعي فمن بعده سمي مقطوعًا.

قوله: «**بقراب الأرض**»؛ أي: ما يقاربها؛ إما ملئًا، أو ثقلًا، أو حجمًا.

قوله: «**خطايا**»: جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الذنوب، ولو كانت صغيرة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾[البقرة:٨١].

قوله: «لا تشرك بي شيئًا» جملة «**لا تشرك**» في موضع نصب علىٰ الحال من التاء؛ أي: لقيتني في حال لا تشرك بي شيئًا.

قوله: «**شيئًا**» نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: لا شركًا أصغر ولا أكبر.

وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدري؛ فحب المال مثلًا بحيث يلهي عن طاعة الله من الإشراك، قال النبيﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة....**»[٩٤] الحديث.

فسمىٰ النبيﷺ من كان هذا همه سماه: عبدًا له.

(٩٤) سبق تخريجه.

قوله: «**لأتيتك بقرابها مغفرة**»: ، أي: أن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئًا، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

مناسبة الحديث للترجمة:

أن في هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه سبب لتكفير الذنوب؛ فهو مطابق لقوله في الترجمة: «وما يكفر من الذنوب».

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: «سِعَةُ فَضْلِ الله»، لقوله: «أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل».

الثانية: كَثْرَةُ ثواب التوحيد عند الله، لقوله: «مالت بهن لا إله إلا الله».

الثالثة: تَكْفِيرُهُ مع ذلك للذنوب، لقوله: «لأتيتك بقرابها مغفرة»[95]؛ فالإنسان قد تغلبه نفسه أحيانًا؛ فيقع في الخطايا، لكنه مخلص لله في عبادته وطاعته؛ فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[الأنعام:٨٢]؛ فالظلم هنا الشّرك، لقولهﷺ: «**ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**[لقمان:١٣]»[96].

الخامسة: تَأَمُّلُ الخمس اللَّواتِي في حديث عُبَادَةَ:

١ - ٢الشهادتان.

٣- أن عيسىٰ عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، وروح منه.

٤- أن الجنة حق.

٥- أن النار حق.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عِتْبَانَ، وحديث أبي سعيد، وحديث أنس؛ تبين لك معنىٰ: قوله: لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين: لأنّه لا بد أن يبتغي بها وجه الله، وإذا كان كذلك؛ فلابد أن تحمل المرء علىٰ العمل الصالح.

---

(٩٥) سبق تخريجه.

(٩٦) سبق تخريجه.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عِتْبَانَ، وهو أن يبتغي بقولها وجه الله، ولا يكفي مجرد القول؛ لأن المنافقين كانوا يقولونها ولم تنفعهم.

الثامنة: كَوْنُ الأنبياء يحتاجون للتنبيه علىٰ فضل لا إله إلا الله، فغيرهم من باب أولىٰ.

التاسعة: التنبيه لِرُجْحَانِهَا بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه: فالبلاء من القائل لا من القول؛ لأنه قد يكون اختل شرطٌ من الشروط؛ أو وجد مانع من الموانع؛ فإنها تخف بحسب ما عنده، أما القول نفسه؛ فيرجح بجميع المخلوقات.

العاشرة: النَّصُّ علىٰ أن الأرضين سبع كالسماوات، لم يرد في القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحًا أن السماوات سبع بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[المؤمنون:٨٦]، لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[الطلاق:١٢]؛ فالمثلية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن؛ فبقيت المثلية في العدد.

أما السنة؛ فهي صريحة جدًّا بأنها سبع؛ مثل قولهﷺ: «**من اقتطع شبرًا من الأرض؛ طوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»[٩٧] وقد اختلف في قولهﷺ: «**من سبع أرضين**»؛ كيف تكون سبعًا؟

فقيل: المراد: القارات السبع، وهذا ليس بصحيح؛ لأن هذا يمتنع بالنسبة لقوله: «**طوقه من سبع أرضين**»، وقيل: المراد المجموعة الشمسية، لكن ظاهر النصوص أنها طباق كالسماوات، وليس لنا أن نقول إلا ما جاء في الكتاب والسنة عن هذه الأرضين؛ لأننا لا نعرفها.

الحادية عشرة: أن لهن عُمَّارًا، أي: السماوات، وعمارهن الملائكة.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خِلَافًا للأشعرية، وفي بعض النسخ خلافًا للمعطلة، وهذه أحسن؛ لأنها أعم، حيث تشمل الأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم؛ ففيه إثبات الوجه لله سبحانه بقوله: «**يبتغي وجه الله**»، وإثبات الكلام بقوله: «**وكلمته ألقاها**»، وإثبات القول في قوله: «**قل لا إله إلا الله**».

---

(٩٧) أخرجه البخاري، كتاب: المظالم، باب: إثم من ظلم شيئًا من الأرض، برقم (٢٤٥٣)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، برقم (١٦١٢) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس؛ عرفت أن قوله في حديث عِتبَانَ: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله؛ يبتغي بذلك وجه الله» أنه ترك الشرك، ليس قولها باللسان. **وفي بعض النسخ: إذا ترك الشرك**، أي: أن قوله: **«حرم على النار من قال: «لا إله إلا الله يبتغي بذلك (يعني: ترك الشرك)»**، وليس مجرد قولها باللسان؛ لأن من ابتغى وجه الله في هذا القول لا يمكن أن يُشرك أبدًا.

الرابعة عشرة: تَأَمُّلُ الجمع بين كَوْنِ عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

عبدي: منصوب على أنه خبر كون؛ لأن كون مصدر كان وتعمل عملها. **وعيسى ومحمد**: اسم كون.

وتأمل الجمع من وجهين:

الأول: أنه جمع لكل منهما بين العبودية والرسالة.

الثاني: أنه جمع بين الرجلين؛ فتبين أن عيسى مثل محمد، وأنه عبد ورسول، وليس ربًا ولا ابنًا للرب سبحانه.

وقول المؤلف: **«تَأَمُّلُ»**؛ لأنّ هذا يحتاج إلى تأمل..

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله؛ أي: أن عيسى انفرد عن محمد في أصل الخِلقة؛ فقد كان بكلمة، أما محمد ﷺ فقد خُلق من ماء أبيه.

السادسة عشرة: معرفة كَونِهِ رُوحًا منه؛ أي: أن عيسى روح من الله، و«من» هنا بيانية أو للابتداء، وليست للتبعيض؛ أي: روح جاءت من قبل الله وليست بعضًا من الله، بل هي من جملة الأرواح المخلوقة.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار، لقوله في حديث عبادة: **«وأن الجنة حق، والنار حق»**، والفضل أنه من أسباب دخول الجنة.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل»؛ أي: على ما كان من العمل الصالح ولو قلّ، أو على ما كان من العمل السيئ ولو كثر، بشرط أن لا يأتي بما ينافي التوحيد ويوجب الخلود في النار، لكن لا بد من العمل.

ولا يلزم استكمال العمل الصالح كما قالت المعتزلة والخوارج، ولم تذكر أركان الإسلام هنا؛ لأن منها ما يكفر الإنسان بتركه، ومنها ما لا يكفر، فإن الصحيح أنه لا يكفر إلا بترك الشهادتين والصلاة، وإن كان روي عن الإمام أحمد أن جميع أركان الإسلام يكفر بتركها، لكن الصحيح خلاف ذلك.

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كِفَّتَانِ؛ أخذها المؤلف من قوله: «**لو أن السماوات... إلخ، وضعت في كِفَّة ولا إله إلا الله في كِفَّة**»، والظاهر أن الذي في الحديث تمثيل؛ يعني أن قول: لا إله إلا الله أرجح من كل شيء، وليس في الحديث أن هذا الوزن في الآخرة، وكأن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حصل عنده انتقال ذهني؛ فانتقل ذهنه من هذا إلىٰ ميزان الآخرة.

العشرون: معرفة ذكر الوَجْهِ؛ يعني: وجه الله تعالىٰ، وهو صفة من صفاته الخبرية الذاتية التي مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء؛ لأن من صفات الله تعالىٰ ما هو معنىٰ محض، ومنه ما مسماه بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء، ولا نقول بالنسبة لله تعالىٰ أبعاض؛ لأننا نتحاشىٰ كلمة التبعيض في جانب الله تعالىٰ.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب»:**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

لما بيَّن في الباب الأول وجوب التوحيد ومعناه، بيَّن في هذا الباب فضل التوحيد وآثاره الحميدة، ونتائجه الجميلة التي منها تكفير الذنوب؛ لأجل الحث عليه والترغيب فيه.

«**باب**»: هو **لغةً**: المدخلُ، **واصطلاحًا**: اسم لجملةٍ من العلم تحته فصول ومسائل غالبًا.

«**يكفر**»: التكفير في **اللغة**: الستر والتغطية. **وشرعًا**: محو الذنب حتىٰ يصير بمنزلة المعدوم.

«**من الذنوب**»: «من» بيانية وليست للتبعيض، والذنوب: جمع ذنب وهو ما تقبح عاقبته.

آمنوا: صدقوا بقلوبهم، ونطقوا بألسنتهم، وعملوا بجوارحهم، ورأس ذلك التوحيد.

❁ **قوله: ﴿يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم﴾:**

يخلطوا توحيدهم؛ ﴿بِظُلْمٍ﴾: بشرك -- والظلم وضع الشيء في غير موضعه -- سمي الشرك ظلمًا لأنه وضع للعبادة في غير موضعها وصرف لها لغير مستحقها.

﴿ٱلْأَمْنُ﴾: طمأنينة النفس وزوال الخوف.

﴿مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: موفقون للسير علىٰ الصراط المستقيم ثابتون عليه.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر سبحانه أن الذين أخلصوا العبادة لله وحده ولم يخلطوا توحيدهم بشرك هم الآمنون من المخاوف والمكاره يوم القيامة، المهتدون للسير علىٰ الصراط المستقيم في الدنيا.

مناسبة الآية للباب:

أنها دلت علىٰ فضل التوحيد وتكفيره للذنوب.

ما يستفاد من الآية:

١- فضل التوحيد وثمرته في الدنيا والآخرة.

٢- أن الشرك ظلم مبطل للإيمان بالله إن كان أكبر، أو منقص له إن كان أصغر.

٣- أن الشرك لا يُغفر.

٤- أن الشرك يسبب الخوف في الدنيا والآخرة.

قوله: «عبادة بن الصامت»: هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أحد النقباء بدري مشهور توفي سنة ٣٤هـ وله ٧٢ سنة.

«شهد أن لا إله إلا الله»: تكلم بهذه الكلمة عارفًا لمعناها عاملًا بمقتضاها ظاهرًا وباطنًا.

«لا إله إلا الله»: لا معبود بحق إلا الله.

«وحده»: حال مؤكد للإثبات.

«لا شريك له»: تأكيد للنفي.

«وأن محمدًا»؛ أي: وشهد أن محمدًا.

«عبده»: مملوكه وعابده.

«ورسوله»: مرسله بشريعته.

«وأن عيسىٰ»؛ أي: وشهد أن عيسىٰ بن مريم.

«عبد الله ورسوله»: خلافًا لما يعتقده النصارىٰ أنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثةٍ.

«وكلمته»: أي: أنه خلقه بكلمةٍ وهي قوله: «كُنْ».

«ألقاها إلىٰ مريم»: أرسل بها جبريل إليها فنفخ فيها من روحه المخلوقة بإذن الله ﷻ.

«وروح»؛ أي: أن عيسىٰ ﵇ روح من الأرواح التي خلقها الله تعالىٰ.

«منه»: أي: منه خلقًا وإيجادًا كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

«والجنة حق والنار حق»؛ أي: شهد أن الجنة والنار اللتين أخبر الله عنهما في كتابة ثابتتان لا شك فيهما.

«أدخله الله الجنة»: جواب الشرط السابق من قوله: «من شهد..إلخ».

«**علىٰ ما كان من العمل**»: يحتمل معنيين:

«**الأول**»: أدخله الله الجنة وإن كان مقصرًا وله ذنوب؛ لأن الموحد لابد له من دخول الجنة.

«**الثاني**»: أدخله الله الجنة وتكون منزلته فيها علىٰ حسب عمله.

«**أخرجاه**»؛ أي: روىٰ هذا الحديث البخاري ومسلم في صحيحيهما اللذين هما أصح الكتب بعد القرآن.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أن الرسول ﷺ يخبرنا مبينًا لنا فضل التوحيد، وشرفه: أن من نطق بالشهادتين عارفًا لمعناهما عاملًا بمقتضاهما ظاهرًا وباطنًا وتجنب الإفراط والتفريط في حق النبيين الكريمين عيسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام – فأقرّ لهما بالرسالة وعبوديتهما لله وأنه ليس لهما شيء من خصائص الربوبية – وأيقن بالجنة والنار أن مآله إلىٰ الجنة وأن صدر منه معاصٍ دون الشرك.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه بيانًا لفضل التوحيد، وأنه سبب لدخول الجنة وتكفير الذنوب.

ما يستفاد من الحديث:

١- فضل التوحيد وأن الله يكفر به الذنوب.

٢- سعة فضل الله وإحسانه سبحانه وتعالىٰ.

٣- وجوب تجنب الإفراط والتفريط في حق الأنبياء والصالحين، فلا نجحد فضلهم ولا نغلو فيهم فنصرف لهم شيئًا من العبادة، كما يفعل بعض الجهال والضلال.

٤- أن عقيدة التوحيد تخالف جميع الملل الكفرية من اليهود والنصارىٰ والوثنيين والدهريين.

٥- أن عصاة الموحدين لا يخلَّدون في النار.

قوله: «**عتبان**»:

هو عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري من بني سالم بن عوف صحابي مشهور مات في خلافة معاوية.

«**ولهما**»: أي: روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما هذا الحديث بكمالِهِ، وهذا طرف منه.

«**حرم علىٰ النار**»: التحريم: المنع أي: منع النار أن تمسه.

«**يبتغي بذلك وجه الله**»؛ أي: مخلصًا من قلبه ومات علىٰ ذلك، ولم يقلها نفاقًا.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أن الرسول ﷺ يخبر خبرًا مؤكدًا أن من تلفظ بكلمة «**لا إله إلا الله**» قاصدًا ما تدل عليه من الإخلاص ونفي الشرك عاملًا بذلك ظاهرًا وباطنًا ومات علىٰ تلك الحال لم تمسه النار يوم القيامة.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه دلالةً واضحةً علىٰ فضل التوحيد وأنه يوجب لمن مات عليه النجاة من النار وتكفير السيئات.

ما يستفاد من الحديث:

١- فضل التوحيد وأنه ينقذ من النار ويكفر الخطايا.

٢- أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد القلب كحال المنافقين.

٣- أنه لا يكفي في الإيمان الاعتقاد من غير نطقٍ. كحال الجاحدين.

٤- تحريم النار علىٰ أهل التوحيد الكامل.

٥- أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصًا لوجه الله وصوابًا علىٰ سنة رسول الله ﷺ.

٦- أن من قال لا إله إلا الله وهو يدعو غير الله لم تنفعه كحال عباد القبور اليوم يقولون لا إله إلا الله وهم يدعون الموتىٰ ويتقربون إليهم.

٧- إثبات الوجه لله تعالىٰ علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته.

✿ **قوله: «أبو سعيد الخدري»:**

هو أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري الخدري نسبة إلىٰ بني خدرة، صحابي جليل وابن صحابي روىٰ عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة مات سنة ٧٤هـ.

«موسىٰ»: هو موسىٰ بن عمران رسول الله إلىٰ بني إسرائيل وكليم الرحمن.

«أذكُرُك»: أثني عليك وأحمدك به.

«وأدعوك به»: أتوسل به إليك إذا دعوتك.

«يقولون هذا»؛ أي: هذه الكلمة.

«وعامرهن غيري»: من فيهن من العمار غير الله.

«في كفة»؛ أي: لو وضعت هذه المخلوقات في كفةٍ من كفتي الميزان ووضعت هذه الكلمة في الكفة الأخرىٰ.

«مالت بهن»: رجحت عليهن.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أن موسىٰ عليه الصلاة والسلام طلب من ربه ﷻ أن يعلمه ذكرًا يثني عليه به ويتوسل إليه به، فأرشده الله أن يقول: لا إله إلا الله فأدرك موسىٰ أن هذه الكلمة كثير ذكرها علىٰ ألسنة الخلق، وهو إنما يريد أن يخصه بذكر يمتاز به عن غيره، فبين الله له عظم فضل هذا الذكر الذي أرشده إليه، وأنه لا شيء يعادله في الفضل.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه بيان فضل كلمة التوحيد، وأنه لا شيء يعادلها في الفضيلة.

ما يستفاد من الحديث:

١- عظم فضل لا إله إلا الله، لما تتضمنه من التوحيد والإخلاص.

٢- فضل موسىٰ عليه السلام وحرصه علىٰ التقرب إلىٰ الله.

٣- أن العبادة لا تكون إلا بما شرعه الله وليس للإنسان أن يبتدع فيها من عند نفسه؛ لأن موسىٰ طلب من ربه أن يعلمه ما يذكُرُهُ به.

أن فيه دليلًا علىٰ كثرة ثواب التوحيد، وأنه يكفر الذنوب مهما كثرت.

ما يستفاد من الحديث:

١- فضل التوحيد وكثرة ثوابه.

٢- سعة فضل الله وجوده ورحمته وعفوه.

٣- الرد علىٰ الخوارج الذين يكفِّرون مرتكب الكبيرة التي هي دون الشرك.

٤- إثبات الكلام لله ﷻ علىٰ ما يليق بجلاله.

٥- بيان لمعنىٰ لا إله إلا الله، وأنه ترك الشرك قليله وكثيره، ولا يكفي قولها باللسان.

٦- إثبات البعث والحساب والجزاء.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب»:

هذا الباب **«باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب»** يشملُ التوحيد بأنواعه الثلاثة؛ فالتوحيد بأنواعه الثلاثة، له فضل عظيم علىٰ أهله، ومن أعظم فضله أنه به تكفَّر الذنوب، ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التبويب: **«باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب»** فـ(ما) هنا موصول اسمي بدلالة وجود **«من»** البيانية، مما يحول دون جعلها موصولًا حرفيًّا، فيكون المعنىٰ: باب فضل التوحيد، وبيان الذنوب التي

يكفرها. فالتوحيد يكفر الذنوب جميعًا، لا يكفر بعض الذنوب دون بعض؛ لأن التوحيد حسنة عظيمة، لا تقابلها معصية إلا وأحرق نور تلك الحسنة أثر تلك المعصية إذا كمل ذلك النور.

فهذا هو المقصود بقوله: «**باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب**»؛ فمن كمل التوحيد بأنواعه الثلاثة -أعني: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات-: فإنه تكفر عنه ذنوبه، كما سيأتي بيانه في الباب بعده: أنه من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.

فكلما زاد التوحيد محي من الذنوب بمقدار عظمه، وكلما زاد التوحيد أمن العبد في الدنيا، وفي الآخرة بمقدار عظمه، وكلما زاد العبد في تحقيق التوحيد كان متعرضًا لدخول الجنة على ما كان عليه من العمل؛ فلهذا ساق الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ آية الأنعام، فقال: «**باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، وقول الله تعالى**» ثم ذكر الآيات.

ومن العلماء من قال: «**إن (ما) في قوله: (وما يكفر من الذنوب) موصول حرفي**.

✿ **قوله**: «**قال تعالى**: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾»:

الظلم هنا: هو الشرك، كما جاء في تفسير ذلك في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال في هذه الآية حينما استعظم الصحابة هذه الآية، وقالوا: يا رسول الله، أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: «ليس الذي تذهبون إليه، الظلم، الظلم: الشرك، ألم تسمعوا لقول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾»[لقمان: ١٣] [(٩٨)]، فالظلم هنا-في مراد الشارع- هو الشرك، فيكون مقصود الشيخ من إيراد هذه الآية تحت هذا الباب: بيان فضل من آمن ووحّد، ولم يلبس إيمانه وتوحيده بشرك، وأن له الأمن التام، والاهتداء التام، فهذا هو وجه مناسبة الآية للباب. ومعنى الآية: الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

وجاء الظلم في الآية مُنكّرًا، في سياق النفي، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾، وهذا يدل على عموم أنواع الظلم، لكن هل المراد بالعموم هنا العموم المخصوص، أو العموم الذي يراد به الخصوص؟

---

(٩٨) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، برقم (٣٣٦٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، برقم (١٢٤)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجواب: أن المراد بالعموم هنا: هو العموم الذي يراد به الخصوص؛ لأن العموم عند الأصوليين تارة يكون باقيًا علىٰ عمومه، وتارة يكون عمومًا مخصوصًا -يعني: دخله التخصيص-، وتارة يكون عمومًا مرادًا به الخصوص -يعني أن لفظه عام، ولكن يراد به الخصوص- فهذه أوجه ثلاثة، والوجه الأخير هو الذي أراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الاستدلال به من الآية. صحيح أن (الظلم) هنا جاء نكرة في سياق النفي (لم) فيدل علىٰ العموم، لكنه عموم مراد به الخصوص، وهو خصوص أحد أنواع الظلم، وهو الشرك، فيصير العموم في أنواع الشرك، لا في أنواع الظلم كلها؛ لأن من أنواع الظلم: ظلم العبد نفسه بالمعاصي، أو ظلم العبد غيره بأنواع التعديات، ومنه ما هو ظلم من جهة حق الله -جل وعلا- بالشرك به، فهذا هو المراد بهذا العموم، فيكون عامًّا في أنواع الشرك، وبهذا يحصل وجه الاستدلال من الآية، فيكون معنىٰ الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ يعني: لم يلبسوا توحيدهم بنوع من أنواع الشرك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فـ(الأمن) هنا: هو الأمن التام في الدنيا، والمراد به أمن القلب وعدم حزنه علىٰ غير الله -جل وعلا- والاهتداء التام في الدنيا وفي الآخرة، وكلما وجد نقص في التوحيد بغشيان العبد بعض أنواع الظلم الذي هو الشرك، إمّا الشرك الأصغر، أو الشرك الخفي، وسائر أنواع الشرك، ونحو ذلك، ذهب منه من الأمن والاهتداء بقدر ذلك. هذا من جهة تفسير الظلم بأنه الشرك.

فإذا فَسَّرْتَ الظلم بأنه جميع أنواع الظلم -كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية- فإنه يكون -علىٰ هذا التفسير- مقابلة بين الأمن والاهتداء، وبين حصول الظلم، فكلما انتفىٰ الظلم وُجد الأمن والاهتداء، وكلما كمل التوحيد وانتفت المعصية عظم الأمن والاهتداء، وإذا زاد الظلم قلَّ الأمنُ والاهتداء بحسب ذلك.

❁ **قوله: «وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله...»** [٩٩]:

مناسبة هذا الحديث للباب قوله: **«علىٰ ما كان من العمل»** ومعنىٰ قوله: **«علىٰ ما كان»** يعني علىٰ الذي كان عليه من العمل ولو كان مقصرًا في العمل، وعنده ذنوب وعصيان، فإن لتوحيده لله، وشهادته له بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة، ولعيسىٰ بأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، وروح منه، ولإقراره بالغيب، وبالبعث، إن لذلك فضلًا عظيمًا، وهو: أن يدخله الله الجنة ولو كان مقصرًا في العمل. فهذا الحديث فيه بيان فضل التوحيد علىٰ أهله.

---

(٩٩) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ...﴾، برقم (٣٤٣٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ أن من مات علىٰ التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم (٢٨)، وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ **قوله: «ولهما من حديث عتبان: فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»[١٠٠]:**

قوله: «**من قال: لا إله إلا الله**»

المراد بالقول هنا: القول الذي معه تمام الشروط، كقول النبي ﷺ: «**الحج عرفة**»[١٠١] يعني إذا أتى ببقية الأركان والواجبات، فيكون معنى قوله هنا: «**من قال: لا إله إلا الله**» يعني باجتماع شروطها، وبالإتيان بلازمها.

وخرج بقوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**» المنافقون؛ لأنهم حين قالوها لا يبتغون بذلك وجه الله.

وقوله: «**حرم على النار**» تحريم النار في نصوص الكتاب والسنة يأتي على درجتين: الأولى: تحريم مطلق، والثانية: تحريم بعد أمد، فالتحريم المطلق يقتضي أن من حرم الله عليه النار تحريمًا مطلقًا فإنه لن يدخلها، إما بأن يغفر الله له، وإما بأن يكون من الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وإذا كان التحريم بعد أمد، فربما يدخلها، ثم يحرم عليه البقاء فيها، وهذا الحديث يحتمل الأول، ويحتمل الثاني.

«**فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله**» يعني أن الذي أتى بالتوحيد، وانتهى عن ضده، وكانت عنده بعض الذنوب والمعاصي، ومات من غير توبة، فهو تحت المشيئة، إن شاء الله عذّبه ثم حرم عليه النار، وإن شاء غفر له وحرم عليه النار ابتداء.

فوجه الشاهد -إذًا- من الحديث للباب: أن هذه الكلمة، وهي كلمة التوحيد -وسيأتي بيان معناها مفصلًا، إن شاء الله تعالى- لما ابتغى بها صاحبها وجه الله، وأتى بشروطها وبلوازمها تفضل الله عليه، وأعطاه ما يستحقه من أنه حرم عليه النار. وهذا فضل عظيم، نسأل الله -جل وعلا- أن يجعلنا من أهله.

---

(١٠٠) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: المساجد في البيوت، برقم (٤٢٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم (٣٣) وغيرهما من حديث عتبان رضي الله عنه.

(١٠١) أخرجه أبو داود، كتاب: المناسك، باب: من لم يدرك عرفة، برقم (١٩٤٩)، والترمذي، كتاب: الحج، باب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، برقم (٨٨٩)، والنسائي، كتاب: مناسك الحج، باب: فرض الوقوف بعرفة، برقم (٣٠١٦)، وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: من أتى عرفة قبل الفجر لليلة جمع، برقم (٣٠١٥)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٠٦٤)، و«صحيح الجامع»، برقم (٣١٧٢).

❁ **قوله: «عن أبي سعيد الخدري...»:**

وفيه قول موسىٰ -عليه السلام-: «**يا رب، علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به. قال: قل -يا موسىٰ-: لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا**» [١٠٢] فهذا الحديث فيه دلالة علىٰ أن أهل الفضل والرفعة في الدين، والإخلاص والتوحيد، قد ينبهون علىٰ شيء من مسائل التوحيد؛ فهذا موسىٰ -عليه السلام- وهو أحد أولي العزم من الرسل، وهو كليم الله -جل وعلا- أراد شيئًا يختص به غير ما عند الناس، وأعظم ما يختص به أولياء الله، وأنبياؤه، ورسله، وأولو العزم منهم هو كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فأراد شيئًا أخصّ من ذلك، فأعلم أنه لا أخص من كلمة التوحيد، فهي أفضل شيء، وهي التي دُلَّ عليها أولو العزم من الرسل ومن دونهم من الناس.

قال: «**يا رب كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسىٰ، لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري**» يعني ومن في السماوات السبع من الملائكة ومن عباد الله غير الله -جل وعلا-.

«**والأرضين السبع في كفة**» يعني: لو تمثلت السماوات والأرضون أجسامًا ووُضع الجميع في ميزان له كفتان، وجاءت (لا إله إلا الله) في الكفة الأخرىٰ لمالت بهن (لا إله إلا الله). فـ(لا إله إلا الله) كلمة توحيد فيها ثقل لميزان من قالها، وعظم في الفضل لمن اعتقدها وما دلت عليه، فلهذا قال: «**مالت بهن لا إله إلا الله**».

ووجه الدلالة: أنه لو تصور أن ذنوب العبد بلغت ثقل السماوات السبع وثقل ما فيها من العباد والملائكة وثقل الأرض لكانت (لا إله إلا الله) مائلة بذلك الثقل من الذنوب، وهذا هو الذي دل عليه حديث البطاقة حيث جُعِل علىٰ أحد العصاة سجلات عظيمة، فقيل له: «**هل لك من عمل؟ فقال: لا، فقيل له: بلىٰ، ثم أخرجت له بطاقة فيها (لا إله إلا الله) فوضعت في الكفة الأخرىٰ، فطاشت سجلات**

---

(١٠٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، برقم (١/ ٧١٠)، والنسائي في «الكبرىٰ»، برقم (١٠٦٧٠، ١٠٩٨٠)، ومسند أبي يعلىٰ، برقم (١٣٩٣)، وابن حبان، برقم (٦٢١٨)، وغيرهم من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وإسناده ضعيف؛ لأن فيه دراجًا أبا السمح، قال عنه ابن حجر في «التقريب»: «صدوق في حديثه، عن أبي الهيثم ضعيف»، وقد روىٰ هذا الحديث عن أبي الهيثم.

الذنوب، وثقلت البطاقة»[١٠٣]، وهذا الفضل العظيم لكلمة التوحيد، إنما هو لمن قويت في قلبه، ذلك أنها في قلب بعض العباد تكون قوية؛ لأنه مخلص فيها مصدق، لا ريب عنده فيما دلت عليه، معتقد ما فيها، محب لما دلت عليه، فيقوى أثرها ونورها في القلب، فإذا كانت كذلك، فإنها تحرق ما يقابلها من الذنوب، وأما من لم يكن من أهل تمام الإخلاص فيها، فإنه لا تطيش له سجلات الذنوب، فيكون هذا الحديث وحديث البطاقة يدلان على أن (لا إله إلا الله) لا يقابلها ذنب، ولا يقابلها خطيئة، لكن هذا في حق من كملها وحققها، بحيث لم يخالط قلبه -في معناها- ريب، ولا تردد، ومعناها مشتمل على الربوبية بالتضمن، وعلى الأسماء والصفات باللزوم، وعلى الإلهية بالمطابقة، فيكون من ينتفع بهذه الكلمة على وجه الكمال -ولو بلغت ذنوبه ما بلغتْ، وكانت سجلاته كثقل السماوات والأرضين السبع- وهو الذي كمَّل ما دلت عليه من التوحيد. وهذا معنى هذا الحديث، وحديث البطاقة، وهذا أيضًا هو الذي دل عليه الحديث الآخر الوارد في الباب نفسه عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تعالى: يا بن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»**[١٠٤] وهذا من فضل التوحيد وتكفيره الذنوب.

ومناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة، وهي: أنه من أتى بذنوب عظيمة، ولو كانت كقراب الأرض خطايا، يعني كعظم وقدر الأرض خطايا، ولكنه لقي الله لا يشرك به شيئًا لأتى اللهُ ذلك العبد بمقدار تلك الخطايا مغفرة، وهذا لأجل فضل التوحيد، وعظم فضل الله -جل وعلا- على عباده بأن هداهم إليه، ثم أثابهم عليه.

---

(١٠٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، برقم (٢٦٣٩)، وأحمد (٢/ ٢١٣)، ومن حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (١٧٧٦).

(١٠٤) سبق تخريجه.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: سعة فضل الله، أي: بحيث لو لقيه العبد بملء الأرض خطايا ثم لقيه غير مشرك به شيئًا لقيه بملئها مغفرة.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله، أي: لكون من مات عليه دخل الجنة، وحرم علىٰ النار، وكلمته ترجح بجميع المخلوقات.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب، أي: إن من مات علىٰ التوحيد لا يشرك بالله شيئًا غفر الله له ذنوبه ؛ لأن هذا يتضمن منه محبة الله وإجلاله، والإقبال عليه ما يمنع صاحبه أن يصر علىٰ الذنوب بل يتوب منها فتكفر عنه.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام، أي: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] وتفسيرها: أي هؤلاء الذين أخلصوا لله، ولم يخلطوا توحيدهم بشرك هم الآمنون في الآخرة، المهتدون في الدنيا.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة، أي: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنىٰ قول: لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين، أي: إذا جمعت بين حديث عباده الذي فيه شهادة أن لا إله إلا الله، وحديث عتبان الذي فيه يبتغي بذلك وجه الله، وحديث أنس الذي فيه ترك الشرك تبين لك أن معنىٰ لا إله إلا الله: التكلم بهذه الكلمة مع الاعتقاد لمعناها، والعمل بمقتضاها، وإفراد الله بجميع أنواع العبادة وترك الشرك، وتبين لك خطأ المغرورين الذين يظنون أن التلفظ بهذه الكلمة كافٍ في التوحيد مع ما هدموه من أركانها وارتكبوه من الشرك المنافي لها.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان، أي: هو كونه يبتغي بذلك وجه الله.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه علىٰ فضل لا إله إلا الله، أي: حيث أرشد الله موسىٰ إلىٰ قولها، ثم نبهه علىٰ فضلها.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه، أي لقوله: مالت بهن لا إله إلا الله، وأما كون كثير ممن يقولها يخف ميزانه ؛ فلعدم تحققه بها ظاهرًا وباطنًا، وعدم الإتيان بجميع شروطها وأركانها.

العاشرة: النص علىٰ أن الأرضين سبع كالسموات، أي لقوله: «**والأرضين السبع**».

الحادية عشرة: أن لهن عمارًا، أي: السموات والأرضين لقوله: وعامرهن غيري، كما أشار في «**تيسير العزيز الحميد**».

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافًا للمعطلة، أي: يؤخذ من الحديث إثبات الصفات مثل كونه -تعالىٰ- قال ويقول خلافًا لمن نفىٰ صفة الكلام وعطلها، وفيه دليل علىٰ عظمته جل وعلا لقوله: وعامرهن غيري، وإثبات صفة الوجه كما أشار إليه بعد ذلك.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان، فإن الله حرم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط، أي: إذا عرفت حديث أنس الذي فيه أن الخطايا لا تغفر إلا باجتناب الشرك عرفت أن تحريم النار المذكور في حديث عتبان ليس لمن قالها باللسان فقط، بل لا بد من ترك الشرك وإفراد الله وحده بالعبادة.

الرابعة عشرة: **تأمل الجمع بين كون عيسىٰ ومحمد عبدي الله ورسوليه، أي: دفعًا للإفراط والتفريط، فكونهما عبدين ينفي الإفراط والغلو، وكونهما رسولين ينفي التفريط الذي هو ترك تعظيمهما واتباعهما والإيمان بهما.**

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسىٰ بكونه كلمة الله، أي: وجد بكُنْ، وليس هو كن، ولكن بكن كان، وذلك أن الله أرسل الملك إلىٰ مريم فنفخ فيها فقال الله له: كن فكان.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحًا منه، أي: من الأرواح التي خلقها واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[الأعراف:١٧٢] .

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار، أي: حيث جعله شرطًا في دخول الجنة وقرنه بالشهادتين وما بعدهما.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: علىٰ ما كان من العمل، أي: من مات عاملاً بما ذكر في الحديث معتقدًا له ؛ دخل الجنة علىٰ ما كان عليه من صلاح وفساد ؛ لأن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة.

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان، أي: حيث بين في الحديث أن السموات السبع والأرضين وعامرهن لو وضعت في كفة، ولا إله إلا الله في الكفة الأخرىٰ مالت بهن لا إله إلا الله.

العشرون: معرفة ذكر الوجه، أي: كما في قوله ﷺ: «**يبتغي بذلك وجه الله**»، ففيه إثبات صفة الوجه لله حقيقة علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته.



* الأسئلة *

س: اذكر مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: لما ذكر المؤلف رحمه الله في الباب الأول وجوب التوحيد ذكر هنا فضله وأنه يكفر الذنوب.

س: اذكر شيئًا من فضائل التوحيد؟

جـ: من فضائله:

١ - أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه شيء وإنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

٢ - أن جميع الأعمال والأقوال متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد.

٣ - أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية وإصلاح الأحوال.

٤ - أن الله يدافع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة ويمن عليهم بالحياة الطيبة.

❁ **قوله:** «قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ ...﴾ [الأنعام:٨٢]».

س: بين معاني الكلمات الآتية: آمنوا، يلبسوا، إيمانهم، بظلم، ثم اشرح الآية وبين مناسبتها للباب؟

جـ - آمنوا: وحدوا وصدقوا، يلبسوا: يخلطوا، إيمانهم: توحيدهم، بظلم: بشرك.

شرح الآية: يقول الله تعالى هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده ولا يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة.

ومناسبتها للباب: أن من مات على التوحيد ولم يصر على الكبائر فله الأمن من العذاب في الآخرة وهذا من فضل التوحيد.

❁ **قوله:** «عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من شهد أن لا إله إلا الله...»».

س: اشرح قوله ﷺ من شهد أن لا إله إلا الله وماذا يدل عليه لفظ شهد وما معنى لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهل ينفع مجرد النطق بها من غير معرفة لمعناها وعمل بمقتضاها؟

جـ: أي: من تكلم بهذه الكلمة عارفًا لمعناها عاملًا بمقتضاها باطنًا وظاهرًا، ويدل لفظ شهد على

أن الشهادة لا تصح إلا عن علم ويقين وإخلاص وصدق، ومعنىٰ لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله (وحده) تأكيد للإثبات (لا شريك له) تأكيد للنفي أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه من البراءة من الشرك وإخلاص القول والعمل لله فغير نافع.

س: ما معنى قوله وأن محمداً عبده ورسوله؟ وما الذي تقتضيه هذه الشهادة؟

جـ: أي: وشهد أن محمدًا عبده ورسوله وتقتضي هذه الشهادة الإيمان به وتصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر وأنه ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب بل يطاع ويتبع.

س: ما معنى قوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وعلى من يرد به، وما معنى قوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، ولماذا سمي عيسى كلمة الله؟

جـ: أي: وشهد أن عيسىٰ عبد الله ورسوله ويرد به علىٰ النصارىٰ الذين يعتقدون أن عيسىٰ هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، تعالىٰ الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ويرد به أيضًا علىٰ اليهود الذين يقولون أن عيسىٰ ولد بغي، لعنهم الله تعالىٰ فلا يصح إسلام عبد علم ما كانوا يقولونه حتىٰ يتبرأ من قول الطائفتين جميعًا في عيسىٰ عليه السلام.

وسمي عيسىٰ كلمة الله لوجوده بقوله تعالىٰ كن فكان.

ومعنىٰ قوله ألقاها إلىٰ مريم خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلىٰ مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل.

ومعنىٰ قوله وروح منه أي: روح من الأرواح التي خلقها الله تعالىٰ.

س: ما معنى قوله والجنة حق والنار حق؟

جـ: المعنىٰ وشهد أن الجنة التي أخبر الله تعالىٰ في كتابه أنه أعدها للمتقين حق أي: ثابتة لاشك فيها، وشهد أن النار التي اخبر بها تعالىٰ في كتابه أنه أعدها للكافرين حق أي: ثابتة كذلك.

س: ما معنى قوله أدخله الله الجنة على ما كان من العمل؟

جـ: المعنىٰ أن دخول الجنة لمن شهد بالخمس المذكورة في الحديث حق. علىٰ ما كان من العمل من صلاح وفساد؛ لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة ولكنهم يدخلونها علىٰ حسب أعمالهم فمنهم رفيع الدرجات ومنهم دون ذلك.

س: ما مناسبة حديث عبادة للباب؟

جـ: هي أن من شهد بهذه الخمس المذكورة في الحديث عن علم ويقين تكفر ذنوبه ويدخل الجنة وهذا من فضل التوحيد.

س: اشرح قوله ﷺ: «في حديث عتبان فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» وما الذي يفيده واذكر مناسبته للباب؟

جـ: أخبر ﷺ أن الله يمنع من دخول النار من قال هذه الكلمة يقصد بها وجه الله تعالىٰ ومرضاته ويفيد الحديث فضل التوحيد وتكفيره للذنوب، ويفيد إثبات صفة الوجه لله كما يليق بجلاله وعظمته.

ومناسبته للباب: أن من وحد الله قولًا واعتقادًا وعملًا حرم الله عليه دخول النار وذلك من فضل التوحيد.

س: اذكر شروط لا إله إلا الله وبين أضدادها؟

جـ: شروط لا إله إلا الله سبعة:

١ - العلم وضده الجهل.

٢ - اليقين وضده الشك.

٣ - الإخلاص وضده الشرك.

٤ - الصدق وضده الكذب.

٥ - المحبة وضدها الكراهية والبغض.

٦ - الانقياد وضده الاعراض والترك.

٧ - القبول وضده الرد.

وقد جمعت في بيت وهو:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

❁ **قوله:** «**وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسىٰ يا رب علمني...»**.

س: ما معنى قول موسى عليه السلام يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك وما الذي يدل عليه قوله تعالى: «قل لا إله إلا الله» وما الذي يفيد قول موسى كل عبادك يقولون هذا وما معنى عامرهن -غيري- مالت بهن؟ وما الذي يفيده هذا التمثيل اذكر ما يؤخذ في الحديث وبين مناسبته للباب؟

ج: معنىٰ قول موسىٰ «**أذكرك**» أثني عليك به «**وأدعوك**» أسألك به ويدل قوله تعالىٰ قل لا إله إلا الله علىٰ عظم هذه الكلمة حيث خصها الله جوابا لسؤاله وأنها اشتملت علىٰ نوعي الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة. ويفيد قول موسىٰ كل عبادك يقولون هذا أنه عليه السلام أراد تخصيصه بشيء من الدعاء. ومعنىٰ «**عامرهن غيري**» من فيهن من العمّار غير الله تعالىٰ. ومعنىٰ مالت رجحت، ويفيد هذا التمثيل مبلغ منزلة هذه الكلمة عند الله وعظيم شأنها في تكفير الذنوب والآثام ويؤخذ من الحديث:

١ - أن الأرضين سبع كالسماوات وأن لهن عمارًا.

٢ - الإيمان بالميزان وأن له كفتان.

ومناسبة الحديث للباب:

أن من قال لا إله إلا الله عن صدق وإخلاص رجح ميزانه وحصل له الفوز والسعادة وهذا من فضل التوحيد.

❁ **قوله:** «**وللترمذي وحسنه عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول:...**».

س: اشرح هذا الحديث وما معنى قراب الأرض وما المراد بالخطايا اذكر شرط الوعد بالمغفرة وما الذي يستفاد من هذا الحديث. واذكر مناسبته للباب؟

ج: يقول الله تعالىٰ في هذا الحديث القدسي مخاطبًا الإنسان إنك لو عملت ملأ الأرض ذنوبًا وسيئات ثم لقيتني يوم القيامة وأنت موحد مخلص غير مشرك بي شيئًا لجازيتك بملئ الأرض مغفرة، وقراب الأرض ملؤها أو ما يقارب ملأها.

والمراد بالخطايا: الذنوب والسيئات. وشرط الوعد بالمغفرة السلامة من الشرك قليله وكثيره صغيره وكبيره.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ - سعة فضل الله.

٢ - كثرة ثواب التوحيد عند الله وتكفيره للذنوب.

وهذه هي مناسبة الحديث للباب. والله أعلم.



الدرس الثالث:

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠]

وقال (١٠٥): ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٥٩].

وعن حُصينِ بن عبد الرحمن؛ قال: كنت عند سعيد بن جُبيرٍ، فقال: أيُّكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا. ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاةٍ ولكني لُدِغتُ، قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت. قال: فما حملك علىٰ ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بُريدة بن الحُصيب؛ أنه قال: «لا رقية إلا من عين أو حُمةٍ». قال: [قد](١٠٦) أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع. ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ[أنه](١٠٧) قال: «عُرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد. إذ رفع لي سوادٌ عظيمٌ، فظننت أنهم أُمتي، فقيل لي: هذا موسىٰ وقومه، فنظرت؛ فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ». ثم نهض، فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ.

وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام، فلم يُشركُوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلىٰ ربهم يتوكلون»

فقام عكاشة بن مِحصنٍ، فقال: «[يا رسول الله](١٠٨) ادع الله أن يجعلني منهم». قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عُكاشة»(١٠٩).

---

(١٠٥) في نسخة ابن قاسم: «قوله».

(١٠٦) ساقطة من نسخة ابن باز.

(١٠٧) ساقطة من نسخة ابن قاسم.

(١٠٨) سقط من نسخة ابن باز، والسعدي، والفوزان، وابن عثيمين، والمثبت من نسخة ابن قاسم.

(١٠٩) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: من اكتوىٰ أو كوىٰ غيره وفضل من لم يكتو، برقم (٥٧٠٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم (٢٢٠).

فيه مسائل:

الأولىٰ: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنىٰ تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه علىٰ إبراهيم بكونه لم يك من المشركين.

الرابعة: ثناؤه علىٰ سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عمق علم الصحابة بمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعملٍ.

الثامنة: حِرصهم علىٰ الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسىٰ.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه عليه الصلاة والسلام.

الثانية عشرة: أن كلّ أمةٍ تحشر وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قلّة من استجاب للأنبياء.

الرابعة عشرة: أن من لم يُجبه أحدٌ يأتي وحده.

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف؛ لقوله: «قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، ولكن كذا وكذا»، فَعُلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

الثامنة عشرة: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: «أنت منهم»: علم من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.

الثانية والعشرون: حُسنُ خُلُقه ﷺ.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

۞ **قوله:** «من حقق التوحيد دخل الجنة...»:

أي: هذا باب فيه أدلة من الكتاب والسنة تدل على أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، لما ذكر التوحيد وفضله ناسب أن يذكر تحقيقه، فإنه لا يحصل كمال فضله إلا بكمال تحقيقه، وتحقيق التوحيد قدر زائد على ماهية التوحيد، وتحقيقه من وجهين: واجب ومندوب، فالواجب تخليصه وتصفيته عن شوائب الشرك والبدع والمعاصي. فالشرك ينافيه بالكلية، والبدع تنافي كماله الواجب، والمعاصي تقدح فيه وتنقص ثوابه، فلا يكون العبد محققًا للتوحيد حتى يسلم من الشرك بنوعيه، ويسلم من البدع والمعاصي، والمندوب تحقيق المقربين، تركوا ما لا بأس به حذرًا مما به بأس، وحقيقته هو انجذاب الروح إلى الله، فلا يكون في قلبه شيء لغيره، فإذا حصل تحقيقه بما ذكر، فقد حصل الأمن التام، والاهتداء التام.

۞ **قوله:** «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾»:

وصف الله خليله عليه السلام بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد، وأثنى عليه بها فقال: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾؛ أي: إمامًا على الحنيفية، قدوة يقتدى به، معلما للخير، أو لما اجتمع فيه من صفات الكمال والخير والأخلاق الحميدة ما يجتمع في أمة استحق اسمها، والقولان متلازمان، فإنه أمة على الحق وحده، وإمام لجميع الحنفاء، يقتدون به في ذلك. ﴿قَانِتًا﴾؛ أي: خاشعًا مطيعًا، والقنوت دوام الطاعة، والمصلي إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[الزمر:٩]. ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: منحرفا عن الشرك إلى التوحيد، مقبلًا على الله، معرضًا عن كل ما سواه، فالحنيف هو المستقيم، وعند العرب ما كان على دين إبراهيم، وانتصب ﴿حَنِيفًا﴾على الحال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠] فارقهم بالقلب واللسان والبدن، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك، وما ذاك إلا من أجل تحقيقه التوحيد، بل ضم إلى ذلك البراءة من المشركين، وعاب ما كانوا عليه وكفرهم، كما قال الله عنه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾[الزخرف:٢٦]، فتبرأ من العابد قبل المعبود، وضم إلى ذلك أن اعتزلهم، فلم يكن منهم بأي: اعتبار كان. قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم:٤٨]، إلى قوله: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ﴾فهذا هو تحقيق التوحيد، وبه تظهر مناسبة الآية للترجمة، حيث وصف

خليله بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد، وقد أمرنا بالتأسي والاقتداء به، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤]. وقال المصنف: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[النحل:١٢]، لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾لا للملوك ولا للتجار المترفين. ﴿حَنِيفًا﴾لا يميل يمينًا ولا شمالًا كفعل العلماء المفتونين: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠]، خلافًا لمن كثر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين.

۞ **قوله**: «وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾»:

وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة فأثنى عليهم بهذه الصفات الحميدة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧]، خائفون وجلون: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون:٥٨] أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، ثم طبع على أعمالهم الصالحة بطابع الإخلاص، وهو السلامة من الشرك قليله وكثيره، صغيره وكبيره، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٥٩]، لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه، ويعلمون أنه لا إله إلا هو الأحد الصمد، ومن كان كذلك فقد بلغ النهاية من تحقيق التوحيد، الموجب لدخول الجنة بغير حساب، ومن لا فلا؛ وذلك لأن الأعمال من حيث هي لا تصح مع الأكبر، فإن سلم من الأكبر فإن الأعمال لا تزكو ولا تنمو إلا بالسلامة من الأصغر.

۞ **قوله**: «عن حصين بن عبد الرحمن...»:

رحمه الله تعالى، هو ابن عم منصور بن المعتمر بن عبد الله بن ربيعة، وقيل: ابن عتاب بن فرقد السلمي أبو الهذيل الكوفي، أحد الأعلام، ومن كبار أصحاب الحديث، ثقة روى عن جابر وعمارة وسعيد بن جبير وغيرهم، وعنه شعبة والثوري وجماعة، مات سنة ١٣٦ هـ، وله ٩٣.

۞ **قوله**: «قال: كنت عن سعيد بن جبير...»:

رحمه الله هو ابن هشام الوالبي الأسدي مولاهم، أبو محمد الإمام الفقيه، وكان من جلة أصحاب ابن عباس، روى عنه وعن ابن الزبير وغيرهما، وعنه ابناه عبد الملك وعبد الله، وأبو إسحاق ويعلى وجماعة، قتل بين يدي الحجاج سنة ٩٥ هـ. فما أمهله الله بعده ولم يذق غمضًا حتى مات، ورؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلت بكل قتيل قتلة، وبسعيد بن جبير سبعين قتلة.

❁ **قوله**: «الكوكب الذي انقض البارحة»:

أي: كوكبًا رجم به تلك الليلة، والقائل هو سعيد بن جبير، والكوكب النجم، و «انقض» بالقاف والضاد أي: سقط، «والبارحة» هي أقرب ليلة مضت، قال ثعلب وغيره يقال قبل الزوال: رأيت الليلة، وبعد الزوال: رأيت البارحة، وهي مشتقة من برح إذا زال، وفيه فضيلة السلف، وأن ما يرونه من الآيات السماوية لا يعدونه عادة، بل يعلمون أنه آية من آيات الله.

❁ **قوله**: «فقلت أنا»:

أي: قال حصين بن عبد الرحمن: أنا رأيته.

❁ **قوله**: «إني لم أكن في صلاة»:

القائل هو حصين، خاف أن يظن الحاضرون أنه رأى الكوكب المنقض وهو يصلي، فنفى عن نفسه إيهام العبادة، وهذا يدل على حرص السلف على الإخلاص، و «أما» بالتخفيف حرف استفهام بمنزلة ألا، فإذا وقعت «إن» بعدها كسرت، أو الهمزة للاستفهام، و «ما» اسم بمعنى شيء، أي: ذلك الشيء حق، وعلى هذا تفتح أن بعدها، والأنسب هنا الأول.

❁ **قوله**: «ولكني لدغت»:

بضم اللام وكسر الدال، يقال: لدغته العقرب وذوات السموم، تلدغه لدغًا لسعته؛ أي: أصابته بسمها، واللدغ واللسع واللسب بمعنى، أو اللسع بالناب واللدغ بالفم؛ يعني: فأوجب لي اللدغ الاستيقاظ، لا أني كنت أصلي.

❁ **قوله**: «ارتقيت»:

لفظ مسلم: «استرقيت» أي: طلبت من يرقاني.

❁ **قوله**: «قال فما حملك على ذلك»:

سأله عن مستنده في فعله، هل كان مقتديًا أو لا؟ ففيه طلب الحجة على صحة المذهب.

❁ **قوله**: «حديث حدثناه الشعبي»:

رحمه الله هو عامر بن شراحيل، وقيل: ابن عبد الله بن شراحيل الشعبي الحميري الهمداني، أبو علي، ولد في خلافة عمر، من كبار فقهاء التابعين وثقاتهم، روى عن علي وسعد بن أبي وقاص وغيرهما، وعنه أبو إسحاق السبيعي وأشعث وخلق، يقول: «ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته». مات سنة ١٠٣ هـ. و «حديث» بالرفع فاعل بفعل محذوف، أي: حملني على الاسترقاء حديث إلخ.

قوله: «وما حدثكم»:

يعني: الشعبي به من جواز الرقية.

قوله: «حدثنا عن بريدة بن الحصيب»: ابن عبد الله بن الحارث الأسلمي المتوفي بمرو سنة ٦٢ هـ.

قوله: «لا رقية إلا من عين أو حمة»:

أي: لا رقية أشفىٰ وأولىٰ من رقية العين والحمة، وإنما خص العين والحمة لكونهما تصدران من أنفس خبيثة شريرة روحانية شيطانية، فالرقية بالقوىٰ الرحمانية كالنفث والريق أولىٰ وأشفىٰ ما يدفع الإيماني الروحاني به هذين النوعين، ولا يمنع جواز الرقية من غيرهما من الأمراض؛ لأنه أمر بالرقية مطلقًا، وقد رقا ﷺ ورقي، والعين هي إصابة العائن غيره بعينه إذا نظر إليه، عدوًا كان العائن أو حاسدًا أو غيرهما، فتؤثر فيه بإذن الله فيمرض بسببها، ومن أسباب العين أن يتعجب الشخص من الشيء يراه فتتبعه نفسه، فيتضرر ذلك الشيء منه، يقال: عانه يعينه فهو عائن، إذا أصابه بالعين، ويندفع شره بأسباب منها: التعوذ بالله من شره، والصبر عليه، وفراغ القلب من الاشتغال به، والإحسان إليه مهما أمكن، والصدقة وتقوىٰ الله والتوكل عليه، والإقبال إليه، ومعرفة أن الأسباب كلها بيده سبحانه. و «الحمة» بضم الحاء وتخفيف «الميم»: الحية والعقرب وشبههما، أو السم أو الإبرة، وفي رواية: من الحية والعقرب.

قوله: «قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ...»:

أي: فعل الحسن من أخذ بما بلغه من العلم وعمل وبه، بخلاف من يعمل علىٰ جهل، أو لا يعمل بما يعلم، فذلك المسيء، وهذا الحديث رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعًا، ورواه أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران بن حصين مرفوعًا، ورجال أحمد ثقات، وأصله في «الصحيحين»، وفيه فضيلة علم السلف، وحسن أدبهم، وتلطفهم في تبليغ العلم، وأن من عمل بما بلغه فقد أحسن، ولا يتوقف العلم به علىٰ معرفة كلام أهل المذاهب وغيرهم.

قوله: «حدثنا ابن عباس»: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ابن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ، حبر الأمة وترجمان القرآن، دعا له النبي ﷺ فقال: **«اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»**[110]، فصار

---

(١١٠) أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: وضع الماء عند الخلاء، برقم (١٤٣)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، برقم (٢٤٧٧)، كلاهما بدون «وعلمه التأويل»، وأحمد (١/ ٢٦٦) واللفظ له، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

آية في العلم والفهم، مات بالطائف سنة ٦٨ هـ. **قال المصنف:** «وفيه عمق علم السلف، لقوله: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، ولكن كذا وكذا. فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني» اهـ. فإن حصين بن عبد الرحمن ﷺ انتهىٰ إلىٰ ما سمع عن الرسول ﷺ، ولكن أخبره سعيد بن جبير عن درجة أرفع من تلك الدرجة وهي التوكل.

❁ **قوله:** «**عرضت عليَّ الأمم...**»: الله أعلم متىٰ عرضت، وعرضها أن الله تبارك وتعالىٰ أراه مثالها إذا جاءت الأنبياء ومن تبعهم يوم القيامة.

❁ **قوله:** «**فرأيت النبي ومعه الرهط**»:

والذي في «صحيح مسلم» «الرهيط» بالتصغير، والرهط بالسكون ويفتح، الجماعة دون العشرة جمعه أرهط وأرهاط، ولا واحد له من لفظه.

❁ **قوله:** «**ومعه الرجل والرجلان**»:

أي: أتباعه الواحد والاثنان لقلة متبعه.

❁ **قوله:** «**والنبي وليس معه أحد**»:

أي: يبعث في قومه فلا يتبعه منهم أحد، بل منهم من قتله قومه، فإن الناجي من الأمم هم القليل، ولكن هم السواد الأعظم، وإن كانوا أقل القليل، فإنهم الأعظمون قدرًا عند الله وإن قلوا، فليحذر المسلم أن يغتر بالكثرة، **قال المصنف:** «وفيه ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة، وأن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها، والمراد أمة الإجابة لا أمة الدعوة».

❁ **قوله:** «**سواد عظيم**»:

السواد: ضد البياض؛ أي: رفع لي أشخاص كثيرة، من بعد لا أدري من هم.

❁ **قوله:** «**فظننت أنهم أمتي**»:

لكثرتهم، وإنما ظن ذلك لما أوحي إليه وأطلع عليه من كثرة أمته، ولم يعرفهم النبي ﷺ؛ لأن الأشخاص التي ترىٰ من بعد لا يدرك منها إلا الصورة.

❁ **قوله:** «**هذا موسىٰ وقومه**»:

أي: موسىٰ بن عمران كليم الرحمن. وقومه أتباعه علىٰ دينه من بني إسرائيل، ففيه فضيلة أتباعه منهم، وأنهم كثيرون جدًّا، بل هم أكثر الأمم تابعًا لنبيها بعد نبينا محمد ﷺ، قال تعالىٰ:

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية:١٦]، أي: في زمانهم، وذلك أن في زمانهم وقبله ممن كفر خلقًا لا يحصون كحزب جالوت وبختنصر وغيرهم.

۞ قوله: «فنظرت فإذا سواد عظيم»: وفي رواية: «قد سد الأفق»؛ وفي «صحيح مسلم»: «**ولكن انظر إلىٰ الأفق فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر ها هنا وها هنا في آفاق السماء فإذا سواد قد ملأ الأفق**»[١١١].

۞ قوله: «**يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**»:

لتحقيقهم التوحيد، وفيه فضيلة هذه الأمة وأنهم أكثر الأمم تابعًا لنبيهم ﷺ، وقد كثروا في عهد الصحابة رضي الله عنهم وفي وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، فملئوا القرىٰ والأمصار والقفار، وكثر فيهم العلم، وما زالوا علىٰ السنة في القرون الثلاثة المفضلة. وقد قلوا في آخر الزمان حقيقة لا دعوىٰ، لا سيما وقد كثرت فيهم عبادة غير الله، واستحلال كثير من المحرمات، قال المصنف: وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية والكمية الكثرة والعدد، والكيفية فضيلتهم في صفاتهم، وفي رواية: «**ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفا**»[١١٢]. وفي رواية: «**تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر**»[١١٣]. وأخرج أحمد والبيهقي وغيرهما: «**فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفا**»[١١٤]. قال الحافظ: «وسنده جيد». ولمسلم: «**مع كل واحد منهم سبعون ألفا**»[١١٥].

---

(١١١) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: من لم يرق، برقم (٥٧٥٢)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم (٢٢٠)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١١٢) سبق تخريجه فيما قبله.

(١١٣) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، برقم (٦٥٤٢)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم (٢١٦/٣٦٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١١٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١١٥) أخرجه أحمد (١/ ٦)، وأبو يعلىٰ، برقم (١١٢)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٧٥٨) «رواه أحمد وأبو يعلىٰ وفيهما المسعودي وقد اختلط وتابعيه لم يسم وبقية رجال أحمد رجال الصحيح»، وقال أيضًا في (١٠/ ٧٤٨) «له حديث في الصحيح باختصار»، قلت: والحديث الصحيح الذي تحدث عنه الهيثمي هو ما أخرجه مسلم، برقم (٢١٩).

❁ **قوله**: «فدخل منزله»:

أي: قام من مجلسه الذي حدثهم فيه بهذا الحديث، فدخل منزله أي: داره، وله تسعة أبيات بحجرها من جريد مستورة بمسوح الشعر عن يسار المصلي، قبل أن يزاد المسجد، ثم أدخلت فيه بعد ذلك.

❁ **قوله**: «فخاض الناس في أولئك»:

أي: تباحث الحاضرون وأفاضوا وتناظروا واختلفوا في شأن السبعين ألفًا بأي: عمل نالوا هذه الدرجة، فإنهم عرفوا أنهم إنما نالوا ذلك بعمل هو أفضل الأعمال. وفي لفظ: فتذاكر أصحاب رسول الله ﷺ، وفيه إباحة المناظرة والمباحثة في معاني نصوص الشرع علىٰ وجه الاستفادة ولو كان بغير علم، وجواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل، لكن لا يجزم بصواب نفسه، **قال المصنف**: «وفيه عمق علم السلف؛ لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل. وفيه حرصهم علىٰ الخير».

❁ **قوله**: «فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ»:

فإنهم أفضل الخلق بعد الرسل، لا كان ولا يكون مثلهم.

❁ **قوله**: «فلم يشركوا به شيئًا»:

من أن لهم مزية علىٰ من ولد في الجاهلية وهو كذلك، وقد يكون من أدركته الجاهلية أفضل كما في الحديث: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»(١١٦). وكما وقع لعمر وخالد وغيرهما.

❁ **قوله**: «وذكروا أشياء»:

أي: غير هاتين الخصلتين. وفي رواية: قالوا: أما نحن فولدنا في الشرك، ولكن آمنا بالله ورسوله، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا.

❁ **قوله**: «فأخبروه»: بما تفاوضوا فيه من أمر هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

أي: لا يطلبون من يرقيهم استسلامًا للقضاء وتلذذًا بالبلاء، وهكذا ثبت في «الصحيحين»، وفي رواية لمسلم: «ولا يرقون» قال شيخ الإسلام: هذه الزيادة وهم من الراوي، لم يقل النبي ﷺ: «ولا

---

(١١٦) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالىٰ ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، برقم (٣٣٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يرقون»، وقد سئل ﷺ عن الرقىٰ فقال: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**[١١٧]. وقال: **«لا بأس بالرقىٰ إذا لم تكن شركًا»**[١١٨]. وقد رقىٰ جبريل النبي ﷺ ورقىٰ النبي ﷺ أصحابه، والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلىٰ غير الله بقلبه، والراقي محسن، وإنما المراد وصف السبعين ألفا بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم.

۞ **قوله**: «ولا يكتوون»:

أي: لا يسألون غيرهم أن يكويهم، كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم، وقوله: **«ولا يكتوون»** أعم من أن يسألوا ذلك أو يفعل بهم باختيارهم، والكي في نفسه جائز، كما في «الصحيح» عن جابر **«أن النبي ﷺ بعث إلىٰ أبي بن كعب طبيبًا فقطع له عرقا وكواه»**[١١٩]. **«وكوىٰ أنس من ذات الجنب، والنبي ﷺ حي»**[١٢٠]. رواه البخاري. وفي «الصحيح» عن ابن عباس مرفوعًا: **«الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنهىٰ أمتي عن الكي»**[١٢١]. وفي لفظ: **«وما أحب أن أكتوىٰ»**[١٢٢].

قال ابن القيم: **«قد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها**: فعله، **والثاني**: عدم محبته، **والثالث**: الثناء علىٰ من تركه، **والرابع**: النهي عنه، ولا تعارض بينها؛ فإن فعله له يدل علىٰ جوازه، وعدم محبته لا يدل علىٰ المنع منه، وأما الثناء علىٰ تاركه فيدل علىٰ أن تركه أولىٰ وأفضل وأكمل، أي: في تحقيق التوحيد، فكأن النبي ﷺ قال: هم الذين أخلصوا أعمالهم وتركوا ما لا بأس به، حذرًا مما به البأس. وأما النهي عنه فعلىٰ سبيل الاختيار والكراهة» اهـ.

فمن تركها توكلًا لا تجلدًا ولا تصبرًا فهو من كمال تحقيق التوحيد، ومن تركها تجلدًا وتصبرًا لم يكن تركه من التوحيد في شيء فضلًا عن أن يكون من تحقيقه.

---

(١١٧) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: استحباب الرقية من العين...، برقم (٢١٩٩)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(١١٨) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: لا بأس بالرقىٰ...، برقم (٢٢٠٠)، من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

(١١٩) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: لكل داء دواء، برقم (٢٢٠٧)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(١٢٠) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: ذات الجنب، برقم (٥٧٢١)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(١٢١) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: الشفاء في ثلاث، برقم (٥٦٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٢٢) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: الدواء بالعسل، برقم (٥٦٨٣)، من حديث جابر رضي الله عنه.

۞ **قوله**: «لا يتطيرون»:

أي: لا يتشاءمون بالطير ونحوها. ويأتي بيان الطيرة في بابها إن شاء الله تعالىٰ.

۞ **قوله**: «وعلىٰ ربهم يتوكلون»:

فتركوا الشرك رأسًا ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها، وتركوا الكي وإن كان يراد للشفاء، والحامل لهم علىٰ ذلك قوة توكلهم علىٰ الله، وتفويض أمورهم إليه، وثقتهم به، ورضاهم عنه، وصدق الالتجاء إليه، وإنزال حوائجهم به سبحانه وتعالىٰ، والاعتماد بالقلب الذي هو نهاية تحقيق التوحيد، وهو الأصل الجامع الذي تفرعت عنه تلك الأفعال والخصال، وعطفه علىٰ تلك من عطف العام علىٰ الخاص؛ لأن كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل وهو أعم من ذلك، والحديث لا يدل علىٰ أنهم لا يباشرون الأسباب أصلًا، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلًا علىٰ الله كالاكتواء والاسترقاء، وأما مباشرة الأسباب والتداوي علىٰ وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعًا؛ لما في «الصحيحين»: «**ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله**»[١٢٣]. وأخرج أحمد «**يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد، قالوا: ما هو؟ قال: الهرم**»[١٢٤].

قال ابن القيم: «وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، والأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب، وتعطيلها يقدح في التوكل، فلا يجعل العبد عجزه توكلًا، ولا توكله عجزًا».

۞ **قوله**: «فقام عُكاشة بن محصن»:

بضم «العين» وتشديد «الكاف»، ومحصن بكسر «الميم» وسكون الحاء وفتح «الصاد» ابن

---

(١٢٣) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً، برقم (٥٦٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولم أقف عليه في مسلم كما قال المصنف.

(١٢٤) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في الرجل يتداوىٰ، برقم (٣٨٥٥)، والترمذي، كتاب: الطب، باب: ما جاء في الدواء والحث عليه، برقم (٢٠٣٨)، وأحمد (٢٧٨/٤)، وغيرهم من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

حرثان بضم «الحاء» ابن قيس بن مرة الأسدي، من السابقين، شهد بدرًا، واستشهد في قتال الردة مع خالد بيد طليحة سنة ١٢ هـ.

❁ **قوله**: «أنت منهم»: وفي رواية للبخاري: «**اللهم اجعله منهم**»[١٢٥]. فقُتل شهيدًا. وفيه طلب الدعاء من الفاضل لكن في حياته، أما بعد وفاته فشرك أكبر. وفي رواية: منهم أنا؟ قال: «**نعم**».

❁ **قوله**: «ادع الله أن يجعلني منهم»:

ذكره مبهمًا، ولا حاجة إلىٰ البحث عن اسمه.

❁ **قوله**: «سبقك بها عكاشة»:

أي: قال ذلك سدًا للذريعة لئلا يتتابع الناس فيسأل من ليس أهلًا فيرد، فيعرفه الحاضرون، وسبق إلىٰ الأمر بادر إليه، وسبقه إليه تقدمه وخلفه. قال المصنف: «وفيه استعمال المعاريض، وحسن خلقه ﷺ حيث لم يقل أنت منهم، ولا لست منهم». والحديث أورده المصنف غير معزو، وقد رواه البخاري مختصرًا ومطولًا، ومسلم واللفظ له، والترمذي وغيرهم.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله**: «باب من حقق التوحيد دخل الجنة...»:

وهذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له. فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تكدر التوحيد وتمنع كماله، وتعوقه عن حصول آثاره.

فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلىٰ الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار علىٰ شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب، ويكون من السابقين إلىٰ دخولها وإلىٰ تبوّ المنازل منها.

---

(١٢٥) أخرجه البخاري، كتاب: اللباس، باب: البرود والحبرة والشملة، برقم (٥٨١١)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، برقم (٢١٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن أخص ما يدل على تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله، بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شئونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه، وأقواله وأفعاله، وحبه وبغضه، وجميع أحواله كلها مقصودًا بها وجه الله متبعًا فيها رسول الله.

والناس في هذا المقام العظيم درجات ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[الأنعام:١٣٢]. وليس تحقيق التوحيد بالتمني ولا بالدعاوي الخالية من الحقائق، ولا بالحلي العاطلة، وإنما ذلك بما وقر في القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان، وصدقته الأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة الجليلة فمن حقق التوحيد على هذا الوجه حصلت له جميع الفضائل المشار إليها في الباب السابق بأكملها والله أعلم.

قال العلامة ابن باز:

۞ **قوله:** «باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب»:

تحقيق التوحيد: تخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي فمن حقق توحيده، وسلم من الشرك والبدع والمعاصي؛ دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ لأن الشرك الأكبر ينافي التوحيد، والأصغر ينافي كمال الواجب، والبدع والمعاصي تقدح فيه، وتنقص ثوابه.

۞ **قوله:** «قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠]»:

وصف الله خليله إبراهيم بصفات عظيمة، تدل على كمال توحيده وإيمانه، ومن ذلك:

الأولى: ﴿أُمَّةً﴾، أي: داع إلى الخير وحده صابرًا عليه كما فسره العلماء، فيدعو إلى الحق، ويستقيم عليه وحده عند فساد الناس، وهذان الأمران مجتمعان في إبراهيم، فإنه على الحق، ليس عليه غيره، ومع ذلك يدعو إليه وحده.

الثانية: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾؛ أي: مطيعًا لله مستمرًا على الخير، فمن معاني القنوت: دوام الطاعة، وقنوته كان لله وحده، فلم يكن يعبد الله غيرهُ.

الثالثة: ﴿حَنِيفًا﴾: المقبل على الله المائل إليه، من الحنف، وعلى الميل، فهو مائل عن عبادة غير الله إلى الله ﷻ، ثم أكد الكلام بقوله: ولم يك من المشركين، بل فارقهم في عقيدته وأعماله وأقواله ومنزله، وهذا الذي ينبغي للمسلم أن يستقيم، ويحقق توحيده، ولا يخالط المشركين ويكثر سوادهم.

فلهذه الصفات حقق إبراهيم ﷺ كمال التوحيد.

❁ قوله: «قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٥٩]»:

هذا من صفات أهل التوحيد والإيمان أنهم كانوا موحدين لله مخلصين له، خالصين من الشرك مع عبادتهم وخوفهم لله، وهذا كمال التوحيد.

وإذا كان إبراهيم عليه السلام قد حقق التوحيد فنبينا ﷺ أولىٰ أن يكون قد حققه؛ لأنه أتقىٰ الناس لله وأخلصهم له.

حديث حصين: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأىٰ الكوكب...

❁ قوله: «غير أني لم أكن في صلاة»:

فيه صفة من صفات السلف، وهي أنهم كانوا يتحرزون من إظهار أعمالهم خوفًا من الرياء، وتزكية النفوس.

لدغت: اللدغ إذا أصابته لسعة من عقرب أو حية ونحوهما.

ارتقيت: طلبت من يرقيني؛ لأن الرقية ينفع الله بها من اللدغ.

قوله: «**فما حملك علىٰ ذلك**»: فيه السؤال عن الدليل فيما فعله، وفيه حال السلف، وما هم عليه من المذاكرة، وطلب الدليل.

قال: **عن بريدة بن الحصيب**: فهذا الحديث جاء عن بريدة، وجاء مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ[١٢٦].

وقوله: «**قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع**»: لأنه عمل بعلم، ولم يعمل بجهل أو بخلاف ما تعلمه.

قوله: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»: فيه أن من أصيب بأذىٰ الحيات والعقارب، أو بأمراض أخرىٰ فلا بأس بأن يرقي نفسه أو يسترقي. وليس المراد في الحديث الحصر، بل حمله العلماء علىٰ الأولوية، أي: لا رقية أولىٰ من رقية العين، والحمة؛ لأن الأحاديث دلت علىٰ جواز الرقىٰ من غير العين والحمة كحديث «**لا بأس بالرقىٰ ما لم تكن شركًا**»[١٢٧] وثبت أنه ﷺ رقىٰ ورُقِي[١٢٨].

فدل علىٰ جواز ذلك، ولا بأس من نفع المريض وقراءة الآيات عليه.

---

(١٢٦) سبق تخريجه.

(١٢٧) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: لا بأس بالرقي...، برقم (٢٢٠٠)، من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

(١٢٨) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرقىٰ، برقم (٢١٨٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والعين: من عين العائن ونظرته ونفسه.

والحمة: لدغ الحيات والعقارب.

وهذه الرقية نافعة بالنص والتجارب. فيستحب لمن أصيب بها أن يرقي نفسه، أو يرقيه أخوه؛ لحديث من «**من استطاع أن ينفع أخاه بشيء فليفعل**»(١٢٩)، والاسترقاء، وطلب الرقية تركه أولىٰ، لكن إن احتيج إليه فلا بأس، ولهذا استرقىٰ النبي ﷺ لأولاد جعفر، كما سيأتي، وقال لأمهم أسماء: «**واسترقي لهم**»(١٣٠)، لما أصابتهم العين.

ثم ذكر سعيد ما هو أفضل منه -أي: من الاسترقاء- فقال: حدثنا ابن عباس...

وقوله: «**عرضت علي الأمم**»: كان هذا ليلة الإسراء علىٰ الصحيح.

وقوله: «**والنبي وليس معه أحد**»: ومنهم من قتله قومه، وهذا يدل علىٰ أن المتبعين للحق قليل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣].

وقوله: «**هذا موسىٰ وقومه**»: يدل علىٰ فضل موسىٰ، وأنه استجاب له كثير من بني إسرائيل.

قوله: «**فنظرت فإذا سواد عظيم**»: وفي رواية أنهم سدوا الأفق، وفي رواية أنهم سدوا الأفق الآخر، وهذا يدل علىٰ عظم هذه الأمة، وأنهم أكثر اتباعًا؛ لأنهم آخر الأمم ونبيها خاتمها، وهم نصف الجنة أو ثلثها كما جاء في الحديث(١٣١).

قوله: «**ومعهم سبعون ألفًا**»: جاء في أحاديث أخرىٰ أن مع كل واحد سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب(١٣٢)؛ لكمال تقواهم وإيمانهم واستقامتهم، وكلما كان العبد أكثر استقامة، كان أسهل لدخول الجنة.

قوله: «**فخاض الناس فيهم**»؛ أي: في صفاتهم، ومن هم، ففيه شريعة البحث والمذاكرة والنظر في النصوص للعلم.

---

(١٢٩) سبق تخريجه.

(١٣٠) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة، برقم (٢١٩٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(١٣١) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، برقم (٦٥٢٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(١٣٢) سبق تخريجه.

قوله: «**هم الذين لا يسترقون**»: لا يطلبون من يرقيهم.

وفيه فضل ترك سؤال الناس والاستغناء عنهم حتىٰ في طلب الرقية، لكن لم ينه عن هذا، وإنما ذكر فضل تركه فقط فإذا دعت الحاجة إليه فلا بأس من العلاج وتركه أفضل عند عدم الحاجة.

قوله: «**ولا يكتوون**»: وتركه أفضل عند عدم الحاجة؛ لأنه نوع تعذيب.

فإذا تيسر دواء غيره فهو أولىٰ، فإن دعت الحاجة إليه فلا كراهة لحديث «**الشفاء في ثلاث: كية نار، أو شربة عسل، أو شرطة محجم**»، وفي لفظ: «**وأنهى أمتي عن الكي**»،[١٣٣] فالنهي للتنزيه لا للتحريم؛ ولهذا كوىٰ بعض أصحابه[١٣٤]، وكوي الصحابة من أمراض أصابتهم[١٣٥]، فهو جائز عند الحاجة إليه والاستغناء عنه بدواء آخر أفضل -فهو من صفات السبعين- فإذا دعت الحاجة إليه فلا بأس.

قوله: «**ولا يتطيرون**»: الطيرة هي الشرك، وهي التشاؤم بالمرئيات أو المسموعات حتىٰ يرده ويوقفه عن حاجته، وهذا منكر منهي عنه، وقال: «**الطيرة شرك**»[١٣٦] وقال: «**ولا ترد مسلمًا**»[١٣٧] وقال: «**إذا رأىٰ أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[١٣٨].

والحسنات: هي: النعم. **والسيئات**: هي المصائب والنقم. وأخبر أن كفارة الطيرة أن يقول:

---

(١٣٣) سبق تخريجه.

(١٣٤) سبق تخريجه.

(١٣٥) سبق تخريجه.

(١٣٦) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: الطيرة، برقم (٣٩١٠)، والترمذي، كتاب: السير، باب: ما جاء في الطيرة، برقم (١٦١٤)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(١٣٧) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، برقم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(١٣٨) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: الطيرة، برقم (٣٩١٩)، من حديث عقبة بن عامر رحمه الله تعالىٰ، قال الحافظ في «التهذيب» (٤/ ١٢٠) في ترجمة عقبة بن عامر: «روي عن النبي ﷺ مرسلًا في الطيرة»، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

«**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**»[١٣٩].

قوله: «**وعلىٰ ربهم يتوكلون**»؛ أي: يعتمدون علىٰ الله، ويفوضون أمورهم إليه فهذا شأنهم، فهم معتمدون علىٰ الله واثقون به، ويعلمون أنه لن يصيبهم إلا ما كُتب لهم، ومع ذلك يبتعدون عن الشركيات، وعن المكروهات كالكي، والاسترقاء، ثقة به، واعتمادًا عليه، وحرصًا علىٰ كمال دينهم وسلامته.

فهذه صفات السبعين، وهم الذين أدوا الواجبات، وتركوا المحرمات والشركيات واعتمدوا وتوكلوا علىٰ الله، وفوضوا أمورهم إليه مع أخذهم بالأسباب المباحة لطلب الرزق والتجارة، وأنواع الطب المباح، لكن تركوا ما يحوجهم إلىٰ الناس كالاسترقاء، أو ما فيه نوع تعذيب، إذا لم يضطروا إليه، ابتعدوا عن بعض المباحات التي فيها نقص فجازاهم الله بأن أدخلهم الجنة لا حساب ولا عذاب.

فائدة:

الرقية سؤال من الأسباب المباحة، أما مع السؤال فتركه أولىٰ عند عدم الحاجة لحديث: «**لا بأس بالرقىٰ ما لم تكن شركًا**»[١٤٠].

والرقية جائزة بشروط ثلاثة:

الأول: أن يكون بلسان معروف المعنىٰ.

الثاني: وأن لا يكون فيه محذور من جهة الشرع.

الثالث: أن يفعل ذلك طلبًا للشفاء من الله، ولا يعتمد علىٰ الأسباب نفسها، فلا بأس بالرقية علىٰ هذا الوجه.

وهكذا يجوز الكي عند الحاجة، وتركه أولىٰ لما فيه من التعذيب.

أما الأسباب الأخرىٰ، فلا بد منها، فلا بد أن يأكل ويشرب، ويطلب الرزق، ويعمل الواجبات طلبًا للجنة، ويحذر من الوقوع في المحرمات، أما الأسباب التي فيها نقص كالكي والاسترقاء فتركه أولىٰ.

---

(١٣٩) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٠٦٥).

(١٤٠) سبق تخريجه.

قوله: «سبقك بها عكاشة»؛ قال: سدًّا لئلا يقوم من ليس أهل. وأخذ العلماء منه جواز استعمال المعاذير، وهي الكلمات التي تسد بأبا لا يحمد عقباه فيستعملها من دون أن يتعرض لإهانة أحد أو فضيحته.

ولا بأس للإنسان أن يرقي نفسه، لكن طلب الرقية من الغير تركه أولىٰ.

ولا بأس بأن يسأل الإنسان من أخيه أن يدعو له كما جاء في الحديث: «**لا تنسانا من دعائك**»(١٤١).

إتقاء الأسباب الضارة مشروع، كعدم الورود علىٰ المريض مرضًا معديًا.

فيتقي مخالطته كما في الحديث: «**لا يورد ممرض علىٰ مصح**»(١٤٢) وإذا خالطهم ثقة بالله واعتمادًا عليه؛ لإيضاح الإيمان فلا بأس، وثبت أنه ﷺ أكل مع مجذوم، وقال: «**باسم الله ثقة بالله**».

ولا بأس بالقراءة علىٰ الماء، النفث فيه، وثبت أن النبي ﷺ نفث في ماء لثابت بن قيس(١٤٣)، والقراءة تكون مما تيسر من القرآن. اهـ

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب»:

هذا الباب كالمتمم للباب الذي قبله؛ لأن الذي قبله: «باب فضل التوحيد وما يُكفر من الذنوب»، فمن فضله هذا الفضل العظيم الذي يسعىٰ إليه كل عاقل، وهو دخول الجنة بغير حساب.

قوله: «**من**»: شرطية، وفعل الشرط: «**حقق**»، وجوابه: «**دخل**»، قوله: «**بلا حساب**»؛ أي: لا يُحاسب لا علىٰ المعاصي ولا علىٰ غيرها.

وتحقيق التوحيد: تخليصه من الشرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

---

(١٤١) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، برقم (١٤٩٨)، والترمذي، كتاب: الدعوات، برقم (٣٥٦٢)، وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(١٤٢) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: ولا هامة، برقم (٥٧٧١)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: لا عدوىٰ ولا طيرة ولا هامة...، برقم (٢٢٢١)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٤٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: ما جاء في الرقىٰ، برقم (٣٨٨٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» وقال «ضعيف الإسناد».

الأول: العلم؛ فلا يمكن أن تحقق شيئًا قبل أن تعلمه، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد:١٩].

الثاني: الاعتقاد، فإذا علمت ولم تعتقد واستكبرت؛ لم تحقق التوحيد، قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾[ص:٥]؛ فما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية.

الثالث: الانقياد، فإذا علمت واعتقدت ولم تنقد؛ لم تحقق التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾[الصافات:٣٥، ٣٦].

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإن الجنة مضمونة له بغير حساب، ولا يحتاج أن نقول إن شاء الله؛ لأن هذا حكاية حكم ثابت شرعًا، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله تعالى بذلك في الترجمة دون أن يقول: إن شاء الله.

أما بالنسبة للرجل المعين؛ فإننا نقول: إن شاء الله.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين، ومناسبتهما للباب الإشارة إلى تحقيق التوحيد، وأنه لا يكون إلا بانتفاء الشرك كله:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ ﴾[النحل:١٢٠] الآية.

قوله: ﴿أُمَّةٗ ﴾؛ أي: إمامًا، وقد سبق أن أمة تأتي في القرآن على أربعة أوجه، إمام، ودهر، وجماعة، ودين [١٤٤].

وقوله: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ ﴾، هذا ثناء من الله -سبحانه وتعالى- على إبراهيم بأنه إمام متبوع؛ لأنه أحد الرسل الكرام من أولي العزم، ثم إنه ﷺ قدوة في أعماله وأفعاله وجهاده؛ فإنه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل، وألقي في النار فصبر.

ثم ابتلاه الله -سبحانه وتعالى- بالأمر بذبح ابنه، وهو وحيده، وقد بلغ معه السعي (أي: شب وترعرع)؛ فليس كبيرًا قد طابت النفس منه، ولا صغيرًا لم تتعلق به النفس كثيرًا، فصار على منتهى تعلق النفس به.

---

(١٤٤) سبق تخريجه.

ثم وفق إلىٰ ابن بار مطيع لله، قال الله تعالىٰ عنه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢]، لم يحنث والده ويتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من بره بأبيه وطاعته لمولاه سبحانه وتعالىٰ، وانظر إلىٰ هذه القوة العظيمة مع الاعتماد علىٰ الله في قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

فالسين في قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ تدل علىٰ التحقيق، وهو مع ذلك لم يعتمد علىٰ نفسه، بل استعان بالله في قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وامتثلا جميعًا وأسلما، وانقادا لله ﷻ وتله للجبين؛ أي: علىٰ الجبين، أي: جبهته؛ لأجل أن يذبحه وهو لا يرىٰ وجهه، فجاء الفرج من الله تعالىٰ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٤، ١٠٥]، ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت، أو أن رقبته صارت حديدًا، ونحو ذلك.

قوله: ﴿قَانِتًا﴾؛ القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار فيها علىٰ كل حال؛ فهو مطيع لله، ثابت علىٰ طاعته، مديم لها في كل حال.

كما أن ابنه محمدًا ﷺ يذكر الله علىٰ كل أحيانه[١٤٥]: إن قام ذكر الله، وإن جلس ذكره، وإن نام، وإن أكل، وإن قضىٰ حاجته ذكر الله؛ فهو قانت آناء الليل والنهار.

قوله: ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلًا عن الشرك، مجانبًا لكل ما يخالف الطاعة، فوصف بالإثبات والنفي، أي: بالوصفين الإيجابي والسلبي.

قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، تأكيد، لاستمراره علىٰ التوحيد؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام معصومًا عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه الله بامتناعه عن الشرك استمرارًا في قوله: ﴿حَنِيفًا﴾، وابتداءً في قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، والدليل علىٰ ذلك: أن الله جعله إمامًا، ولا يجعل الله للناس إمامًا من لم يحقق التوحيد أبدًا.

ومن تأمل حال إبراهيم عليه السلام وما جرىٰ عليه وجد أنه في غاية ما يكون من مراتب الصبر، وفي غاية ما يكون من مراتب اليقين؛ لأنه لا يصبر علىٰ هذه الأمور العظيمة إلا من أيقن بالثواب،

---

(١٤٥) أخرجه مسلم، كتاب: الحيض، باب: ذكر الله تعالىٰ في حال الجنابة وغيرها، برقم (٣٧٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

فمن عنده شك أو تردد لا يصبر علىٰ هذا؛ لأن النفس لا تدع شيئًا إلا لما هو أحب إليها منه، ولا تحب شيئًا إلا ما ظنت فائدته، أو تيقنت.

ويجب أن نعلم أن ثناء الله علىٰ أحد من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط، لكن يقصد منه أمران هامان:

الأول: محبة هذا الذي أثنىٰ الله عليه خيرًا، كما أن من أثنىٰ الله عليه شرًا، فإننا نبغضه ونكرهه، فنحب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه كان إمامًا حنيفًا قانتًا لله ولم يكن من المشركين، ونكره قومه؛ لأنهم كانوا ضالين، ونحب الملائكة وإن كانوا من غير جنسنا؛ لأنهم قائمون بأمر الله، ونكره الشياطين، لأنهم عاصون لله وأعداء لنا ولله، ونكره أتباع الشياطين؛ لأنهم عاصون لله أيضًا وأعداء لله ولنا.

الثاني: أن نقتدي به في هذه الصفات التي أثنىٰ الله بها عليه؛ لأنها محل الثناء، ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف:١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[الممتحنة:٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[الممتحنة:٦].

وهذه مسألة مهمة؛ لأن الإنسان أحيانًا يغيب عن باله الغرض الأول، وهو محبة هذا الذي أثنىٰ الله عليه خيرًا، ولكن لا ينبغي أن يغيب؛ لأن الحب في الله، والبغض في الله من أوثق عرىٰ الإيمان.

فائدة:

أبو إبراهيم مات علىٰ الكفر، والصواب الذي نعتقده أن اسمه آزر؛ كما قال الله تعال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾[الأنعام:٧٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾[التوبة:١١٤]؛ لأنه قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[مريم:٤٧]، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:١١٤]، وفي سورة إبراهيم قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[إبراهيم:٤١]، ولكن فيما بعد تبرأ منه.

أما نوح؛ فقال: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[نوح:٢٨]، وهذا يدل علىٰ أن أبوي نوح كانا مؤمنين.

فائدة أخرىٰ:

قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: المغازي، والملاحم، والتفسير؛ فهذه الغالب فيها أنها تذكر بدون إسناد، ولهذا؛ فإن المفسرين يذكرون قصة آدم، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾[الأعراف:١٩٠]، وقليل منهم من ينكر القصة المكذوبة في ذلك.

فالقاعدة إذًا: أنه لا أحد يعلم عن الأمم السابقة شيئًا إلا من طريق الوحي، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[إبراهيم:٩].

الآية الثانية: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٥٩].

هذه الآية سبقها آية، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[المؤمنون:٥٧].

لكن المؤلف ذكر الشاهد. وقوله تعالىٰ: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾؛ أي: من خوفهم منه علىٰ علم، و ﴿مُّشْفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون من عذابه إن خالفوه.

فالمعاصي بالمعنىٰ الأعم – كما سبق[١٤٦]-شرك؛ لأنها صادرة عن هوىٰ مخالف للشرع، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية:٢٣].

أما بالنسبة للمعنىٰ الأخص؛ فيقسمها العلماء قسمين:

١- شرك.

٢- فسوق.

وقوله: ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾: يراد به الشرك بالمعنىٰ الأعم؛ إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلا باجتناب الشرك بالمعنىٰ الأعم، ولكن ليس معنىٰ هذا ألا تقع منهم المعاصي؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا؛ فإنهم يتوبون ولا يستمرون عليها؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٥].

قوله: «عن حصين بن عبد الرحمن؛ قال: كنت عند سعيد بن جبير»:

وهما رجلان من التابعين ثقتان.

---

(١٤٦)سبق تخريجه.

قوله: «**انقض البارحة**»؛ أي: سقط البارحة، والبارحة: أقرب ليلة مضت، وقال بعض أهل اللغة: تقول فعلنا الليلة كذا إن قلته قبل الزوال، وفعلنا البارحة كذا إن قلته بعد الزوال.

وفي عرفنا؛ فمن طلوع الشمس إلىٰ الغروب نقول: البارحة لليلة الماضية، ومن غروب الشمس إلىٰ طلوعها نقول: الليلة لليلة التي نحن فيها.

بل بعض العامة يتوسع متىٰ قام من الليل قال: البارحة؛ وإن كان في ليلته.

قوله: «**فقلت أنا**»؛ أي: حصين.

قوله: «**أما إني لم أكن في صلاة**»؛ «**أما**»: أداة استفتاح، وقيل: إنها بمعنىٰ حقًا، وعلىٰ هذا؛ فتفتح همزة «إن»، فيقال: أما أني لم أكن في صلاة؛ أي: حقًّا لم أكن في صلاة.

وقال هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لئلا يظن أنه قائم يصلي فيحمد بما لم يفعل، وهذا خلاف ما عليه بعضهم، يفرح أن الناس يتوهمون أنه يقوم يصلي، وهذا من نقص التوحيد.

وقول حصين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس من باب المراءاة، بل هو من باب الحسنات، وليس كمن يترك الطاعات خوفًا من الرياء؛ لأن الشيطان قد يلعب علىٰ الإنسان، ويزيِّن له ترك الطاعة خشية الرياء، بل أفعل الطاعة، ولكن لا يكن في قلبك أنك ترائي الناس.

قوله: «**لدغت**»؛ أي: لدغته عقرب أو غيرها، والظاهر أنها شديدة؛ لأنه لم ينم منها.

قوله: «**ارتقيت**»؛ أي: استرقيت؛ لأن افتعل مثل استفعل، وفي رواية مسلم: «**استرقيت**»؛ أي: طلبت الرقية.

قوله: «**فما حملك علىٰ ذلك**»؛ أي: قال سعيد: ما السبب أنك استرقيت.

قوله: «**حديث حدثناه الشعبي**»، وهذا يدل علىٰ أن السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يتحاورون حتىٰ يصلوا إلىٰ الحقيقة. فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد علىٰ هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه ويعرف مستنده.

قوله: «**لا رقية**»؛ أي: لا قراءة أو لا استرقاء علىٰ مريض أو مصاب.

قوله: «**إلا من عين**»: ويسميها العامة الآن: «النحاتة» وبعضهم يسمها «النفس»، وبعضهم يسميها «الحسد». وهي نظرة من حاسد، نفسه خبيثة، تتكيف بكيفية خاصة فينبعث منها ما يؤثر علىٰ المصاب.

قوله: «حُمَة»، بضم الحاء، وفتح الميم، مع تخفيفها: وهي كل ذات سم، والمعنىٰ لدغته إحدىٰ ذوات السموم، والعقرب من ذوات السموم.

فقال سعيد بن جبير: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس.. إلخ.

إذًا، فحصين استند علىٰ حديث: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»، وهذا يدل علىٰ أن الرقية من العين أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع؛ فإن الرُّقىٰ تنفع بإذن الله من العين ومن الحمة أيضًا، وكثير من الناس يقرءون علىٰ الملدوغ فيبرأ حالًا، ويدل لهذا قصة الرجل الذي بعثه النبيﷺ في سرية، فاستضافوا قومًا، فلم يضيفوهم، فَلُدِغَ سيدهم -لدغته عقرب- فقالوا: من يرقي؟ فقالوا: لعل هؤلاء الركب عندهم راقٍ، فجاءوا إلىٰ السرية، قالوا: هل فيكم من راقٍ؟ قالوا: نعم، ولكن لا نرقي لكم إلا بشيء من الغنم، فقالوا: نعطيكم. فاقتطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة، قرأها ثلاثًا أو سبعًا، فقام كأنما نشط من عقال، فانتفع اللديغ بقراءتها، ولهذا قالﷺ: «**وما يدريك أنها رقية؟**»(١٤٧) (يعني: الفاتحة) وكذا القراءة من العين مفيدة.

ويستعمل للعين طريقة أخرىٰ غير الرقية، وهو الاستغسال، وهي أن يؤتي بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من اعضائه، ويصب علىٰ المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله.

وهناك طريقة أخرىٰ، ولا مانع منها أيضًا، وهي أن يؤخذ شيء من شعاره، أي: ما يلي جسمه من الثياب؛ كالثوب، والطاقية، والسروال، وغيرها، أو التراب إذا مشىٰ عليه وهو رطب، ويصب علىٰ ذلك ماء يرش به المصاب أو يشربه، وهو مُجرَّب.

وأما العائن؛ فينبغي إذا رأىٰ ما يعجبه أن يُبرِّك عليه؛ لقول النبيﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف: «**هلا برّكت عليه**»(١٤٨)؛ أي: قلت: بارك الله عليك.

---

(١٤٧) أخرجه البخاري، كتاب: الإجارة، باب: ما يعطىٰ في الرقية علىٰ أحياء العرب بفاتحة الكتاب، برقم (٢٢٧٦)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: جواز أخذ الأجرة علىٰ الرقية بالقرآن والأذكار، برقم (٢٢٠١)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١٤٨) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ»، برقم (٧٦١٩)، ومالك في «الموطأ»، برقم (١٦٧٨)، والطبراني، برقم (٥٥٧٣)، وغيرهم من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه، وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٤٥٦٢).

قوله: «**ولكن حدثنا**»، القائل: سعيد بن جبير.

قوله: «**عرضت علي الأمم**»: العارض لها الله -سبحانه وتعالىٰ- وهذا في المنام فيما يظهر. وانظر: «فتح الباري» (١١/ ٤٠٧، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا، كتاب الرقاق)، والأمم: جمع أمة وهي أمم الرسل.

قوله: «**الرهط**»: من الثلاثة إلىٰ التسعة.

قوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان**»؛ الظاهر أن الواو بمعنىٰ أو؛ أي: ومعه الرجل أو الرجلان؛ لأنه لو كان معه الرجل والرجلان صار يغني أن يقول: ومعه ثلاثة، لكن المعنىٰ: والنبي ومعه الرجل، والنبي الثاني ومعه الرجلان.

قوله: «**والنبي وليس معه أحد**»؛ أي: يبعث ولا يكون معه أحد، لكن يبعثه الله لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حينئذٍ، يعذر الله من الخلق، ويقيم عليهم الحجة.

قوله: «**إذ رفع لي**»: هذا علىٰ تقدير محذوف؛ أي: بينما أنا كذلك؛ إذ رفع لي.

قوله: «**سواد عظيم**»: المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده؛ أي: شخصه، أي: أشخاصًا عظيمة كانوا من كثرتهم سوادًا.

قوله: «**فظننت أنهم أمتي**»؛ لأن الأنبياء عرضوا عليه بأممهم؛ فظن هذا السواد أمته -عليه الصلاة والسلام-.

قوله: «**فقيل لي: هذا موسىٰ وقومه**»: وهذا يدل علىٰ كثرة أتباع موسىٰ عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم.

قوله: «**فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك**»: وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأن أمة النبي ﷺ أكثر بكثير من أمة موسىٰ عليه السلام.

قوله: «**بغير حساب ولا عذاب**»؛ أي: لا يُعذبون ولا يُحاسبون كرامةً لهم، وظاهره أنه لا في قبورهم ولا بعد قيام الساعة.

قوله: «**فخاض الناس في أولئك**»: هذا الخوض للوصول إلىٰ الحقيقة نظريًّا وعمليًّا حتىٰ يكونوا منهم.

قوله: «**الذين صحبوا رسول الله**»: يحتمل أن المراد الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ.

ويحتمل أن المراد الذين صحبوه في هجرته، ويؤيده أنَّه لو كان المراد الصحبة المطلقة؛ لقالوا: نحن؛ لأن المتكلم هم الصحابة، ويدل على هذا قول الرسولﷺ لخالد بن الوليد: «**لا تسبوا أصحابي**»[١٤٩]؛ فإن المراد بهم الذين صحبوه في هجرته، لكن يمنع منه أن المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفًا.

ويمنع الاحتمال الأول: أن الصحابة أكثر من سبعين ألفًا، ويحتمل أن المراد من كان مع الرسولﷺ إلى فتح مكة؛ لأنه بعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجًا.

وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة أكثر.

قوله: «الذين ولدوا في الإسلام»؛ أي: من ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا في الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفًا.

قوله: «فخرج عليهم رسول الله، فأخبروه»؛ أي: أخبروه بما قالوا وما جرى بينهم.

قوله: «لا يسترقون»، في بعض روايات مسلم: «**لا يرقون**»[١٥٠].

ولكن هذه الرواية خطأ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن الرسولﷺ كان يرقي ورقاه جبريل[١٥١] وعائشة[١٥٢] وكذلك الصحابة كانوا يرقون.

واستفعل بمعنى طلب الفعل، مثل: استغفر؛ أي: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى؛ أي: طلب الرقية، أي: لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم، لما يلي:

١- لقوة اعتمادهم على الله.

٢- لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله.

٣- ولما في ذلك من التعلق بغير الله.

---

(١٤٩) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبيﷺ، باب: قول النبيﷺ«لو كنت متخذًا خليلًا»، برقم (٣٦٧٣)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، برقم (٢٥٤١)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١٥٠) سبق تخريجه.

(١٥١) سبق تخريجه.

(١٥٢) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبيﷺ ووفاته، برقم (٤٤٣٩)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: رقية المريض بالمعوذات، والنفث، برقم (٢١٩٢)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله: «ولا يكتوون»؛ أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم.

ومعنىٰ اكتوىٰ: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله: «ولا يسترقون». أما بالنسبة لمن أُعد للكي من قبل الحكومة؛ فطلب الكي منه ليس فيه ذل؛ لأنه معد من قبل الحكومة يأخذ الأجر علىٰ ذلك من الحكومة، ولأن هذا الطلب مجرد إخبار من الطالب بأنه محتاج إلىٰ الكي، وليس سؤال تذلل.

قوله: «ولا يتطيرون»: مأخوذ من الطير، والمصدر منه تطيّر، والطيرة اسم المصدر، وأصله: التشاؤم بالطير، ولكنه أعم من ذلك؛ فهو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

وكانت العرب معروفة بالتَّطير، حتىٰ لو أراد الإنسان منهم خيرًا ثم رأىٰ الطير سنحت يمينًا أو شمالًا حسب ما كان معروفًا عندهم، تجده يتأخر عن هذا الذي أراده. ومنهم من إذا سمع صوتًا أو رأىٰ شخصًا تشاءم. ومنهم من يتشاءم من شهر شوال بالنسبة للنكاح، ولذا قالت عائشة رضي الله عنها: «عقد علي رسول الله ﷺ في شوال، وبنىٰ بي في شوال؛ فأيكن كان أحظىٰ عنده». ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، أو بشهر صفر، وهذا كله مما أبطله الشرع؛ لضرره علىٰ الإنسان عقلًا وتفكيرًا وسلوكًا، وكون الإنسان لا يبالي بهذه الأمور، هذا هو التوكل علىٰ الله، ولهذا ختم المسألة بقوله: «وعلىٰ ربهم يتوكلون»؛ فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل علىٰ قوة توكلهم.

وهل هذه الأشياء تدل علىٰ أن من لم يتصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أن الكمال فاته إلا بالنسبة للتطير؛ فإنه لا يجوز؛ لأنه ضرر وليس له حقيقة أصلًا.

أما بالنسبة لطلب العلاج؛ فالظاهر أنه مثله لأنّه عام، وقد يقال: إنّه لولا قوله: «ولا يسترقون»؛ لقلت: إنه لا يدخل؛ لأن الاكتواء ضرر محقق: إحراق بالنار، وألم للإنسان، ونفعه مرتجىٰ، لكن كلمة «يسترقون» مشكلة؛ فالرقية ليس فيها ضرر، إن لم تنفع لم تضر، وهنا نقولت: الدواء مثلها؛ لأن الدواء إذا لم ينفع لم يضر، وقد يضر أيضًا؛ لأنّ الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره.

وهذه المسألة تحتاج إلىٰ بحث، وهل نقول مثلًا: ما تُؤكد منفعته إذا لم يكن في الإنسان إذلال لنفسه؛ فهو لا يضر؛ أي: لا يفوت المرء الكمال به، مثل الكسر وقطع العضو مثلًا، أو كما يفعل الناس الآن في الزائدة وغيرها.

ولو قال قائل بالاقتصار على ما في هذا الحديث، وهو أنهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وأن ما عدا ذلك لا يمنع من دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ للنصوص الواردة بالأمر بالتداوي والثناء على بعض الأدوية؛ كالعسل[١٥٣] والحبة السوداء[١٥٤]؛ لكان له وجه.

وإذا طلب منك إنسان أن يرقيك؛ فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟

الجواب: لا يفوتك؛ لأن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه[١٥٥]. وهو أكمل الخلق توكلًا على الله وثقةً به، ولأن هذا الحديث: «**لا يسترقون...**» إلخ إنما كان في طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب.

قوله: «فقال: أنت منهم»: وقول الرسول ﷺ هذا هل هو بوحي من الله إقراري، أو وحي إلهامي، أو وحي رسول؟

مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحي إلهامي، أو بواسطة الرسول، أو وحي إقراري بمعنى أن الرسول يقولها، فإذا أقره الله عليه؛ صارت وحيًا إقراريًا.

لكن رواية البخاري: «**اللهم اجعله منهم**» تدل على أن الجملة: «**أنت منهم**» خبر بمعنى الدعاء.

قوله: «ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عكاشة»: لم يرد النبي ﷺ أن يقول له: لا، ولكن قال: سبقك بها، أي: بهذه المنقبة والفضيلة، أو بهذه المسألة عكاشة بن محصن.

وقد اختلف العلماء لماذا قال الرسول ﷺ هذا الكلام؟

فقيل: إنه كان منافقًا، فأراد الرسول ﷺ ألا يجابهه بما يكره تأليفًا.

وقيل: خاف أن ينفتح الباب فيطلبها من ليس منهم؛ فقال هذه الكلمة التي أصبحت مثلًا، وهذا أقرب.

---

(١٥٣) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: الشفاء في ثلاث، برقم (٥٦٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٥٤) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: الحبة السوداء، برقم (٥٦٨٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١٥٥) سبق تخريجه.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

المسألة الأولىٰ: معرفة مراتب الناس في التوحيد: وهذه مأخوذة من قوله: «**يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**». ثم قال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون**»(١٥٦)

الثانية: ما معنىٰ تحقيقه؟ أي: تحقيق التوحيد، وسبق لنا في أول الباب أن تحقيقه: تخليصه من الشرك.

الثالثة: ثناؤه -سبحانه- علىٰ إبراهيم بكونه لم يكن من المشركين: وهو ظاهر في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠]؛ فإن هذه الآية لا شك أنها سيقت للثناء علىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه؛ دل ذلك علىٰ أن كل من انتفىٰ عنه الشرك فهو محل ثناء من الله -سبحانه وتعالىٰ-.

الرابعة: ثناؤه علىٰ سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك: لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا﴾، وهذه الآية في سياق آيات كثيرة ابتدأها الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[المؤمنون:٥٧-٦١]؛ **فهؤلاء هم سادات الأولياء**، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلىٰ موصوفها؛ أي: الأولياء السادات، وليس يريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذي هم **سادات الخلق**.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد: لقوله: «**الذين لا يسترقون ولا يكتوون**»؛ فالمراد بقول المؤلف: «**الرقية والكي**»: الاسترقاء والاكتواء.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل، والخصال هي: ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء، وترك التطير؛ يعني: **أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ**.

السابعة: عمق عمل الصحابة لمعرفة أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل؛ أي: لم ينل هؤلاء السبعون ألفًا هذا الثواب **إلا بعمل**، ووجهه أن الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء.

الثامنة: حرصهم علىٰ الخير: وجهه خوضهم في هذا الشيء؛ لأنهم يريدون أن يصلوا إلىٰ نتيجة حتىٰ يقوموا بها.

---

(١٥٦) سبق تخريجه.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكميّة والكيفيّة، أما الكميّة؛ فلأن النبيﷺ رأىٰ سوادًا عظيمًا أعظم من السواد الذي كان مع موسىٰ، وأما الكيفيّة؛ فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلىٰ ربهم يتوكلون.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسىٰ: وهو مأخوذ من قوله: «**إذ رفع لي سواد عظيم**»، ولكن قد يقال: إن التعبير بقول: كثرة أتباع موسىٰ أنسب لدلالة الحديث؛ لأن الحديث يقول: «**سواد عظيم فظننت أنهم أمتي**»، وهذا يدل علىٰ الكثرة.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه -عليه الصلاة والسلام-: وهذا له فائدتان:

الفائدة الأولىٰ: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث رأىٰ من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد؛ فيتسلىٰ بذلك عليه الصلاة والسلام، ويقول: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٩].

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه، حيث كان أكثر أتباعًا وأفضلهم؛ فصار في عرض الأمم عليه هاتان الفائدتان.

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها: لقوله: «**رأيت النبي ومعه الرجل والرجلان**»، ولولا أنّ كل نبي متميز عن النبي الآخر؛ لاختلط بعضهم ببعض، ولم يعرف الأتباع من غير الأتباع، ويدل لذلك قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾[الجاثية:٢٨]؛ فإنه يدل علىٰ أن كل أمة تكون وحدها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء: وهو واضح من قوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**».

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده؛ لقوله: «**والنبي وليس معه أحد**».

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة.. إلخ: فإن الكثرة قد تكون ضلالًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام:١١٦]، وأيضًا الكثرة من جهة أخرىٰ إذا اغتر الإنسان بكثرته وظن أنه لن يغلب أو أنّه منصور؛ فهذا أيضًا سبب للخذلان؛ فالكثرة إن نظرنا إلىٰ أن أكثر أهل الأرض ضلال لا تغتر بهم، فلا تقل: إن الناس علىٰ هذا، كيف أنفرد عنهم؟.

كذلك أيضًا لا تغتر بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون على الحق؛ فكلام المؤلف له وجهان:

الوجه الأول: أن لا نغتر بكثرة الهالكين فنهلك معهم.

الوجه الثاني: أن لا نغتر بكثرة الناجين فيلحقنا الإعجاب بالنفس وعدم الزهد في القلة؛ أي: أن لا نزهد بالقلة؛ فقد تكون القلة خيرًا من الكثرة.

السادسة عشرة: **الرخصة في الرقية من العين والحُمة**: مأخوذة من قوله: «**لا رقية إلا من عين أو حُمة**».

السابعة عشرة: **عمق علم السلف؛ لقوله**: «**قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، ولكن كذا وكذا**»؛ فعُلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني؛ لأن قوله: «**لا رقية إلا من عينٍ أو حمة**» لا يخالف الثاني؛ لأن الثاني إنما هو في الاسترقاء، والأول في الرقية؛ فالإنسان إذا أتاه من يرقيه ولم يمنعه؛ فإنه لا ينافي قوله: «**ولا يسترقون**»؛ لأن هناك ثلاث مراتب:

المرتبة الأولىٰ: أن يطلب من يرقيه، وهذا قد فاته الكمال.

المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال؛ لأنه لم يسترق ولم يطلب.

المرتبة الثالثة: أن يمنع من يرقيه، وهذا خلاف السنة؛ فإن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه، وكذلك الصحابة لم يمنعوا أحدًا أن يرقيهم؛ لأن هذا لا يؤثر في التوكل.

الثامنة عشرة: **بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه**: يؤخذ من قوله: «**أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت**»؛ لأنه إذا كان رأىٰ الكوكب الذي انقض استلزم أن يكون يقظان، واليقظان: إما أن يُصلي، وإما أن يكون له شغل آخر، وإما أن يكون لديه مانع من النوم.

التاسعة عشرة: **قوله: «أنت منهم» علم من أعلام النبوة**. يعني: دليلًا علىٰ نبوة الرسول ﷺ، وكيف ذلك؟ لأن عكاشة بن محصن رضي الله عنه بقي محروسًا من الكفر حتىٰ مات علىٰ الإسلام، فيكون في هذا علم؛ يعني: دليلًا من دلائل نبوة الرسول ﷺ هذا إذا قلنا: إن الجملة خبرية وليست جملة دعائية، فإن قلنا: إنها جملة دعائية؛ فقد نقول أيضًا: فيه علم من أعلام النبوة، وهو أن الله استجاب دعوة الرسول ﷺ لكن استجابة الدعوة ليست من خصائص الأنبياء؛ فقد تجاب دعوة من ليس بنبي، وحينئذٍ لا يمكن أن تكون علمًا من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة.

العشرون: فضيلة عكاشة: بكونه ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم؛ لأن الرسول ﷺ شهد له بها.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض: وفي المعاريض مندوحة عن الكذب؛ وذلك لقول الرسول ﷺ: **«سبقك بها عكاشة»**[١٥٧]؛ فإن هذا في الحقيقة ليس هو المانع الحقيقي، بل المانع ما أشرنا إليه في الشرح: إما أن يكون هذا الرجل منافقًا فلم يُرد النبي ﷺ أن يجعله مع الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وإما خوفًا من انفتاح الباب؛ فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها.

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ؛ وذلك لأنه رد هذا الرجل وسدَّ الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** «باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

إن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر التوحيد وفضله ناسب أن يذكر بيان تحقيقه؛ لأنه لا يحصل كمال فضله إلا بكمال تحقيقه.

«حقق التوحيد»؛ أي: خلَّصه وصفَّاه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

«بغير حساب»؛ أي: لا محاسبة عليه.

❁ **قوله:** «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ ...﴾»:

﴿أُمَّةً﴾؛ أي: قدوةً، وإمامًا معلمًا للخير.

﴿قَانِتًا﴾: القنوت دوام الطاعة.

﴿حَنِيفًا﴾: الحنيف المقبل على الله المعرض عن كل ما سواه.

﴿وَلَمْ يَكُ﴾: أصلها يكن حذفت النون تخفيفًا.

﴿من المشركين﴾؛ أي: قد فارق المشركين بالقلب واللسان والبدن، وأنكر ما كانوا عليه.

❁ **قوله:** ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٥٩]:

لا يعبدون معه غيره.

المعنى الإجمالي للآية الأولى:

أن الله سبحانه وتعالى يصف خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأربع صفات:

---

(١٥٧) سبق تخريجه.

الصفة الأولىٰ: أنه كان قدوة في الخير لتكميله مقام الصبر واليقين، اللذين بهما تنال الإمامة في الدين.

الصفة الثانية: أنه كان خاشعًا مطيعًا مداومًا علىٰ عبادة الله تعالىٰ.

الصفة الثالثة: أنه كان معرضًا عن الشرك مقبلًا علىٰ الله تعالىٰ.

الصفة الرابعة: بُعده عن الشرك ومفارقته للمشركين.

مناسبة الآية الأولىٰ للباب:

أنه وصف خليله بهذه الصفات، التي هي الغاية في تحقيق التوحيد، وقد أمرنا بالاقتداء به في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾[الممتحنة:٤]

مناسبة الآية الثانية للباب:

أن الله تعالىٰ وصف المؤمنين السابقين إلىٰ الجنات بصفاتٍ أعظمها الثناء عليهم بأنهم بربهم لا يُشركون شيئًا من الشرك لا خفيًّا ولا جليًّا، ومن كان كذلك فقد بلغ من تحقيق التوحيد النهاية ودخل الجنة بلا حسابٍ ولا عذابٍ.

ما يُستفاد من الآيتين:

١- فضيلة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

٢- الاقتداء به في هذه الصفات العظيمة.

٣- بيان الصفات التي يتم بها تحقيقُ التوحيد.

٤- وجوب الابتعاد عن الشرك والمشركين والبراءة من المشركين.

٥- وصف المؤمنين بتحقق التوحيد.

❁ **قوله:** «عن حصين بن عبد الرحمن...»:

تراجم الرجال الواردة أسماؤهم في الحديث:

«حصين»: هو حصين بن عبد الرحمن السلمي الحارثي من تابعي التابعين مات سنة ١٣٦ وله ٩٣ سنة.

«سعيد بن جبير»: هو الإمام الفقيه من أجلة أصحاب ابن عباس قتله الحجاج سنة ٩٥ ولم يُكمل الخمسين.

«الشعبي»: اسمه عامر بن شُراحيل الهمداني ولد في خلافة عمر، وهو من ثقات التابعين مات سنة ١٠٣هـ.

«**بُريدة**»: بضم أوله وفتح ثانيه، ابن الحصيب بن الحارث الأسلميُّ صحابي شهير، مات سنة ٦٣هـ.

«**ابن عباس**»: هو الصحابي الجليل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي ﷺ دعا له النبي ﷺ فقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»، فكان كذلك ومات بالطائف سنة ٦٨هـ.

«**عُكاشة**»: هو عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي كان من السابقين إلىٰ الإسلام، هاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها، واستشهد في قتال الردة مع خالد بن الوليد سنة ١٢هـ.

«**الكوكب**»: النجم.

«**انقض**»؛ أي: سقط منه الشهاب.

«**البارحة**»: هي أقرب ليلةٍ مضت. يُقالُ قبل الزوال رأيت الليلة، وبعد الزوال رأيت البارحة.

«**لُدِغْتُ**»؛ أي: لدغته عقرب – واللدغ: اللسع –؛ أي: أصابته بسُمِّها.

«**ارتقيت**»: طلبت من يرقيني، والرقية، قراءة القرآن والأدعية الشرعية علىٰ المصاب بمرضٍ ونحوه.

«**ما حملك علىٰ ذلك؟**»: ما حُجَّتك علىٰ جواز ذلك؟

«**لا رقية إلا من عينٍ**»؛ العين: إصابة العائن غيره بعينه.

«**أو حُمَةٍ**»: الحمة: سُم العقرب وشبهها.

«**من انتهىٰ إلىٰ ما سمع**»؛ أي: أخذ بما بلغه من العلم بخلاف من يعمل علىٰ جهلٍ أو لا يعمل بما يعلم.

«**عُرضت عليَّ الأمم**»: قيل كان ذلك ليلة الإسراء؛ أي: أراه الله مثالها إذا جاءت يوم القيامة.

«**الرهط**»: الجماعة دون العشرة.

«**ليس معه أحد**»؛ أي: لم يتبعه من قومه أحد.

«**سواد عظيم**»: أشخاص كثيرة.

«**فظننت أنَّهم أمَّتي**»؛ أي: لكثرتهم وبعده عنهم فلا يميز أعيانهم.

«**موسىٰ**»؛ أي: موسىٰ بن عمران كليم الرحمن.

«**وقومه**»؛ أي: أتباعه علىٰ دينه من بني إسرائيل.

«**بلا حسابٍ ولا عذابٍ**»؛ أي: لا يحاسبون ولا يعذبون قبل دخولهم الجنة؛ لتحقيقهم التوحيد.

«**ثم نهض**»؛ أي: قام.

«**فخاض الناس في أولئك**»؛ أي: تباحث الحاضرون واختلفوا في هؤلاء السبعين بأي: عملٍ نالوا هذه الدرجة؟ فإنهم لم ينالوها إلا بعملٍ فما هو؟

«**فأخبروه**»؛ أي: ذكروا للنبي ﷺ اختلافهم في المراد بهؤلاء السبعين.

«**لا يسترقون**»: لا يطلبون من يرقيهم استغناء عن الناس.

«**ولا يكتوون**»: لا يسألون غيرهم أن يكويهم بالنار.

«**ولا يتطيرون**»: لا يتشاءمُون بالطيور ونحوها.

«**وعلىٰ ربهم يتوكلون**»: يعتمدون في جميع أمورهم عليه لا علىٰ غيره ويفوِّضون أمورهم إليه.

«**سبقك بها عكاشة**»؛ أي: إلىٰ إحراز هذه الصفات أو سبقك بالسؤال.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يصف لنا حصين بن عبد الرحمن حوارًا دار في مجلس سعيد بن جبير بمناسبة انقضاض كوكبٍ في الليل، فأخبرهم حصين أنه شاهد انقضاضه؛ لأنه لم يكن حينذاك نائمًا؛ إلا أنه خاف أن يظن الحاضرون أنه ما رأىٰ نجم إلا لأنه يصلي، فأراد أن يدفع عن نفسه إيهام تعبد لم يفعله كعادة السلف في حرصهم علىٰ الإخلاص، فأخبر بالسبب الحقيقي ليقظته وأنه بسبب إصابة حصلت له، فانتقل البحث إلىٰ السؤال عما صنع حيال تلك الإصابة، فأخبر أنه عالجها بالرقية، فسأله سعيد عن دليله الشرعي علىٰ ما صنع، فذكر له الحديث الوارد عن الرسول ﷺ في جواز الرقية فصوَّبه في عمله بالدليل.

ثم ذكر له حالةً أحسن مما فعل، وهي الترقي إلىٰ كمال التوحيد بترك الأمور المكروهة مع الحاجة إليها، توكلًا علىٰ الله كحالة السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بلا حسابٍ ولا عذابٍ، حيث وصفهم الرسول ﷺ بأنهم يتركون الرقية والكي تحقيقًا للتوحيد، ويأخذون بالسبب الأقوىٰ وهو التوكل علىٰ الله، ولم يسألوا أحدًا غيره شيئًا من الرقية فما فوقها.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه شيئًا من بيان معنىٰ تحقيق التوحيد وثواب ذلك عند الله تعالىٰ.

ما يستفاد من الحديث:

١- فضيلة السلف، وأن ما يرونه من الآيات السماوية لا يعدُّونه عادةً، بل يعلمون أنه آية من آيات الله.

٢- حرص السلف على الإخلاص وشدة ابتعادهم عن الرياء.

٣- طلب الحجة على صحة المذهب وعناية السلف بالدليل.

٤- مشروعية الوقوف عند الدليل والعمل بالعلم، وأن من عمل بما بلغه فقد أحسن.

٥- تبليغ العلم بتطلفٍ وحكمةٍ.

٦- إباحة الرقية.

٧- إرشاد من أخذ بشيء مشروع إلى ما هو أفضل منه.

٨- فضيلة نبينا محمدﷺ حيث عُرضت عليه الأمم.

٩- أن الأنبياء متفاوتون في عدد أتباعهم.

١٠- الرد على من أحتج بالأكثر، وزعم أن الحق محصور فيهم.

١١- أن الواجب اتباع الحق وإن قل أهله.

١٢- فضيلة موسى عليه السلام وقومه.

١٣- فضيلة هذه الأمة وأنهم أكثر الأمم اتباعًا لنبيِّهمﷺ..

١٤- فضيلة تحقيق التوحيد وثوابه.

١٥- إباحة المناظرة في العلم المباحثة في نصوص الشرع للاستفادة وإظهار الحق.

١٦- عمق علم السلف لمعرفتهم أن المذكورين في الحديث لم ينالوا هذه المنزلة إلا بعملٍ.

١٧- حرص السلف على الخير والمنافسة على الأعمال الصالحة.

١٨- أن ترك الرقية والكيِّ من تحقيق التوحيد.

١٩- طلب الدعاء من الفاضل في حياته.

٢٠- علم من أعلام نبوتهﷺ حيث أخبر أن عكاشة من السبعين الذين يدخلون الجنة بلا حسابٍ ولا عذابٍ فقتل شهيدًا في حروب الردة رضي الله عنه.

٢١- فضيلة عكاشة بن محصن رضي الله عنه.

٢٢- استعمال المعاريض وحسن خلقهﷺ حيث لم يقل -للرجل الآخر- لست منهم.

٢٣- سد الذرائع لئلا يقوم من ليس أهلًا فيرد، والله أعلم.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «**باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب**»:

وقد ذكر في الباب قبله فضل التوحيد، وما يكفر من الذنوب، وهذا الباب أرفع رتبة من بيان فضل التوحيد فإن فضل التوحيد يشترك فيه أهله، وأهل التوحيد هم أهل الإسلام، ولا شك أن لكل مسلم نصيبًا من التوحيد، فيكون له -تبعًا لذلك- نصيب من فضل التوحيد، وتكفير الذنوب، أما خاصة هذه الأمة فهم الذين حققوا التوحيد، ولهذا عطف هذا الباب علىٰ الذي قبله؛ لأنه أخص. وتحقيق التوحيد هو مدار هذا الباب، وتحقيقه بمعنىٰ تحقيق الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ومعنىٰ تحقيق الشهادتين: تصفية الدين من شوائب الشرك والبدع والمعاصي، فصار تحقيق التوحيد يرجع إلىٰ ثلاثة أشياء:

الأول: ترك الشرك بأنواعه: الأكبر والأصغر، والخفي.

الثاني: ترك البدع بأنواعها.

الثالث: ترك المعاصي بأنواعها.

فيكون تحقيق التوحيد علىٰ هذا درجتين: درجة واجبة، ودرجة مستحبة، وعليها يكون الذين حققوا التوحيد علىٰ درجتين أيضًا، فالدرجة الواجبة: أن يترك ما يجب تركه من الأشياء الثلاثة التي ذكرت، فيترك الشرك خفيه وجليه، صغيره وكبيره، ويترك البدع، ويترك المعاصي، هذه درجة واجبة.

والدرجة المستحبة في تحقيق التوحيد -وهي التي يتفاضل فيها الناس من المحققين للتوحيد أعظم تفاضل- هي ألا يكون في القلب شيء من التوجه أو القصد لغير الله -جل وعلا- يعني: أن يكون القلب متوجهًا إلىٰ الله بكليته، ليس فيه التفات إلىٰ غير الله، فيكون نطقه لله، وفعله وعمله لله، بل وحركة قلبه لله -جل وعلا- وقد عبر عنها بعض أهل العلم -أعني هذه الدرجة المستحبة- بقوله: «**أن يترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس**»، يعني: في مجال أعمال القلوب، وأعمال اللسان، وأعمال الجوارح. فإذًا رجع تحقيق التوحيد الذي هذا فضله -وهو أن يدخل أهله الجنة بغير حساب، ولا عذاب- رجع إلىٰ تينك المرتبتين، وتحقيقه تحقيق الشهادتين: (لا إله إلا الله محمد

رسول الله)؛ لأن في قوله: (لا إله إلا الله) الإتيان بالتوحيد، والبعد عن الشرك بأنواعه، ولأن في قوله: «**أشهد أن محمدًا رسول الله**» البعد عن المعصية، والبعد عن البدع؛ لأن مقتضىٰ الشهادتين بأن محمدًا رسول الله: أن يطاع فيما أمر، وأن يصدق فيما أخبر، وأن يُجتنَب ما عنه نهىٰ وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، فمن أتىٰ شيئًا من المعاصي والذنوب، أو البدع ثم لم يتب منها، أو لم تكفّر له، فإنه لم يحقق التوحيد الواجب، وإذا لم يأتِ شيئًا من البدع، ولكن حسَّنها بقلبه، أو قال: لا شيء فيها؛ فإن حركة قلب من هذا شأنه لّما كانت في غير تحقيق التوحيد، وفي غير تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله: فإنه لا يكون من أهل التوحيد، وكذلك أهل الشرك بأنواعه ليسوا من أهل تحقيق التوحيد. وأما مرتبة الخاصة التي ذُكِرتْ ففيها يتنافس المتنافسون، وما ثمَّ إلا عفو الله، ومغفرته، ورضوانه.

❁ **قوله**: «**وقول الله تعالىٰ**: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... ﴾»:

هذه الآية فيها الدلالة علىٰ أن إبراهيم عليه السلام كان محققًا للتوحيد.

وجه الدلالة: أن الله -جل وعلا- وصفه بصفات:

الأولىٰ: أنه كان ﴿ أُمَّةً ﴾ والأمة: هو الإمام الذي جمع جميع صفات الكمال البشري وصفات الخير، وهذا يعني أنه لم ينقص من صفات الخير شيئًا، وهذا هو معنىٰ تحقيق التوحيد. والأمة تطلق في القرآن إطلاقات، فمن تلك الإطلاقات: أن يكون معنىٰ الأمة الإمام المقتدىٰ به في الخير، وسُمِّي أمة؛ لأنه يقوم مقام أمة في الاقتداء؛ ولأن من سار علىٰ سيره يكون غير مستوحش ولا متردد؛ لأنه ليس مع واحد فقط، وإنما هو مع أمة.

الوصف الثاني الذي فيه تحقيق التوحيد: أنه قال: ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾، وهاتان الصفتان: -القانت والحنيف- متلازمتان؛ لأن القنوت لله معناه: دوام الطاعة لله -جلا وعلا- وملازمتها، فهو ملازم لطاعة الله -جل وعلا-. ولأن «الحنيف» -كما يقول العلماء-: هو ذو الحنف وهو الميل عن طريق المشركين، فالحنيف هو المائل عن طريق المشركين، المائل عن هدي وسبيل المشركين، فصارت عنده ديمومة وقنوت وملازمة للطاعة، وبُعدٌ عن سبيل المشركين، ومعلوم أن سبيل المشركين الذي صار إبراهيم -عليه السلام- حنيفًا، أي مائلًا بعيدًا عنه- معلوم أنه يشتمل علىٰ الشرك، والبدعة، والمعصية،

فهذه الثلاثة هي أخلاق المشركين: الشرك، والبدعة، والمعصية، من غير إنابة ولا استغفار.

قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾:

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ﴾ كانت في الأصل: يكن، ويجوز في حالة الجزم -بشروط- حذف نون (يكن) كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالىٰ -في سورة النحل-: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[النحل: ١٢٧]، ويجوز إثباتها كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ في سورة النمل[النمل: ٧٠].

فإثبات النون وحذفها وجهان جائزان في اللغة -بشروطه المعروفة-.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ جمع تصحيح لـ(المشرك)، والمشرك اسم فاعل الشرك، و(أل) -كما هو معلوم في العربية- إذا دخلت علىٰ اسم الفاعل أو اسم المفعول فإنها تكون موصولة، كما قال ابن مالك في الألفية:

وصفة صريحة صلة أل وكونها بمعرب الأفعال قل

والاسم الموصول عند الأصوليين يدل علىٰ العموم، فيكون معنىٰ قوله -إذًا- ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أنه لم يكُ فاعلًا للشرك بأنواعه، ولم يكُ منهم.

ودل قوله -أيضًا- ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ علىٰ أنه ابتعد عنهم؛ لأن (مِنْ) تحتمل أن تكون تبعيضية، فتكون المباعدة بالأجسام، ويحتمل أن تكون بيانية، فتكون المباعدة بمعنىٰ الشرك.

فالمقصود: أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ استحضر هذه المعاني من الآية فدلته علىٰ أنها في تحقيق التوحيد.

قال -جل وعلا-: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ذلك لأن من جَمَع تلك الصفات فقد حقق التوحيد، ومن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.

وقد فسَّر إمام الدعوة -المصنف- الشيخ محمد بن عبد الوهاب، هذه الآية من أواخر سورة النحل، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين، ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ لا للمملوك، ولا للتجار المترفين، ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا، ولا شمالًا، كحال العلماء المفتونين ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافًا لمن كثَّر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين. وهو من التفاسير الرائقة الفائقة البعيدة المعاني ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[فصلت: ٣٥].

قوله: «وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ...﴾»:

وهذه الآيات في سورة المؤمنون، وهي في مدح خاصة المؤمنين.

ووجه الاستدلال من الآية على الباب: أن الله قال: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ فقوله: ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾ نفي للشرك، وقد ذكرنا من قبل أن النفي إذا تسلط على الفعل المضارع، فإنه يفيد عموم المصدر الذي يدل عليه الفعل، فكأنه -جل وعلا- قال: والذين هم بربهم لا يفعلون شركًا، أو لا يشركون لا بشرك أكبر، ولا أصغر، ولا خفي.

والذي لا يشرك هو الموحد، فصار عندنا لازم، وهو أن من لم يشرك بالله أيَّ نوعٍ من الشرك، فإنه ما ترك الشرك إلا لتوحيده، قال العلماء: قدم هنا قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ لأن الربوبية تستلزم العبودية، فصار عدم الإشراك في الربوبية معناه عدم الإشراك في الطاعة، وعدم الإشراك في العبودية، وهذا وصف الذين حققوا التوحيد؛ لأنه يلزم من عدم الإشراك: ألا يُشْرِك هواه؛ لأن المرء إذا أشرك هواه أتى بالبدع، أو أتى بالمعصية، فصار نفي الشرك نفيًا للشرك بأنواعه، ونفيًا للبدعة، ونفيًا للمعصية، وهذا هو تحقيق التوحيد لله -جل وعلا-.

فالآية -إذًا- دالة على ما ترجم له الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «**باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب**».

قوله: «**عن حصين بن عبد الرحمن...**»:

هذا حديث طويل، وموضع الشاهد منه قوله عليه الصلاة والسلام: «**فنظرت، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**» ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**». هذا الحديث في صفة الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهذه صفة من صفاتهم، وتلك الصفة خاصة بهم، لا يلتبس أمرهم بغيرهم؛ لأن هذه الصفة كالشامة يعرفون بها. فَمَن الذين حققوا التوحيد؟

الجواب في قوله: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلىٰ ربهم يتوكلون**» فذكر أربع صفات:

أنهم «**لا يسترقون**» ومعنىٰ يسترقون: يعني لا يطلبون الرقية؛ لأن الطالب للرقية يكون في قلبه ميل للراقي، حتىٰ يرفع ما به من جهة السبب. وهذا النفي الوارد في قوله: «**لا يسترقون**»؛ لأن الناس في شأن الرقية تتعلق قلوبهم بها جدًّا أكثر من تعلقهم بالطب ونحوه، فالعرب في الجاهلية -وهكذا هو حال أكثر الناس- لهم تعلق بالرقية، فالقلب يتعلق بالراقي، ويتعلق بالرقية؛ وهذا ينافي كمال التوكل علىٰ الله -جل جلاله-. وأما ما جاء في بعض الروايات أنهم:«**الذين لا يرقون**» فهذا غلط؛ وهو لفظ شاذ؛ لأن الراقي محسن علىٰ غيره، والصواب ما جاء في هذه الرواية من أنهم: «**الذين لا يسترقون**» يعني: الذين لا يطلبون الرقية؛ وذلك لأن طالب الرقية يكون في قلبه ميل إلىٰ هذا الذي رقاه وإلىٰ الرقية، ونوع توكل، أو نوع استرواح لهذا الذي يرقىٰ أو للرقية.

ثم قال: «**ولا يكتوون**»: والكي مكروه في أصله؛ لأن فيه تعذيبًا بالنار، مع أنه مأذون به شرعًا، لكن فيه كراهة. والعرب تعتقد أن الكي يحدث المقصود دائمًا؛ فلهذا تتعلق قلوبهم بالكي، فصار تعلق القلب بهذا الكي من جهة أنه سبب يؤثر دائمًا، ومعلوم أن الكي يؤثر -بإذن الله جل وعلا-: إذا اجتمعت الأسباب، وانتفت الموانع. فالنفي لأجل أن في الكي بخصوصه ما يتعلق الناس به من أجله.

ثم قال: «**ولا يتطيرون**»: والطيرة شيء يعرض علىٰ القلب من جراء شيء يحدث أمامه، فيجعله يقدم علىٰ أمر، أو يحجم عنه، وهذه صفة من لم يكن التوكل في قلبه عظيمًا.

ثم قال بعدها: «**وعلىٰ ربهم يتوكلون**»: وهي جامعة للصفات السابقة. وهذه الصفات ليس المقصود منها أن الذين حققوا التوحيد لا يباشرون الأسباب، كما فهمه بعضهم، وأن الكمال ألا يباشر سببًا البتة، أو ألا يتداوىٰ البتة! وهذا غلط؛ لأن النبي ﷺ رقىٰ،[158] ولأنه -عليه الصلاة والسلام-

---

(١٥٨) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرقىٰ، برقم (٢١٨٦)، والترمذي، كتاب: الجنائز، باب: ما في التعوذ للمريض، برقم (٩٧٢)، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: ما عَوذ به النبي ﷺ وما عُوذ به، برقم (٣٥٢٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

تداوىٰ، وأمر بالتداوي،[١٥٩] وأمر أيضًا بعض الصحابة بأن يكتوي[١٦٠] ونحو ذلك، فليس في الحديث أن أولئك لا يباشرون الأسباب مطلقًا، أو لا يباشرون أسباب الدواء، وإنما فيه ذكر لهذه الثلاث بخصوصها؛ لأنه يكثر تعلق القلب والتفاته إلىٰ الراقي، أو إلىٰ الكي، أو الكاوي، أو إلىٰ التطير، ففيها إنقاص من مقام التوكل. أما التداوي فهو مشروع، وهو إما واجب، أو مستحب، وقد يكون في بعض الأحوال مباحًا، وقد قال النبي ﷺ: «**تداووا عباد الله ولا تتداووا بحرام**»[١٦١] فالمقصود من هذا أن التداوي ليس خارمًا لتحقيق التوحيد، ولكن الذي هو من صفة أهل تحقيق التوحيد أنهم لا يسترقون بخصوص الرقية، ولا يكتوون بخصوص الكي، ولا يتطيرون، وأما ما عدا ذلك مما أذن به، فلا يدخل فيما يختص به أهل تحقيق التوحيد.

والأظهر -عندي- أن قوله في هذا الحديث: «**لا يسترقون ولا يكتوون، ولا يتطيرون**» أنه مخصوص بهذه الثلاثة.

قال: فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت منهم**» ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**سبقك بها عكاشة**» هذا فيه دليل علىٰ أن أهل تحقيق التوحيد قليل وليسوا بكثير، ولهذا جاء عددهم في هذا الحديث بأنهم سبعون ألفًا، وقد جاء في بعض الروايات عند الإمام أحمد وعند غيره: «**بأن الله -جل وعلا- أعطىٰ النبي ﷺ مع كل ألف من السبعين سبعين ألفًا**»[١٦٢] فيكون العدد قرابة خمسة ملايين من هذه الأمة، فإن كان ذلك الحديث صحيحًا -وقد صحح إسناده بعض أهل العلم- فإنه لا يكون

---

(١٥٩) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في الرجل يتداوىٰ، برقم (٣٨٥٥)، والترمذي، كتاب: الطب، باب: ما جاء في الدواء والحث عليه، برقم (٢٠٣٨)، وأحمد (٤/ ٢٧٨)، وغيرهم من حديث أسامة بن شريك رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(١٦٠) بل كوىٰ النبي ﷺ بنفسه بعض الصحابة وانظر ما أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: لكل داء دواء واستحباب التداوي، برقم (٧٤/ ٢٢٠٧)،(٢٢٠٨)، من حديث جابر بن عبد الله.

(١٦١) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في الأدوية المكروهة، برقم (٣٨٧٤)، والبيهقي، برقم (١٩٤٦٥)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود»، وفي «المشكاة»، برقم (٤٥٣٨).

(١٦٢) أخرجه أحمد(٥/ ٢٥٠)، وغيره، وصححه الألباني في «ظلال الجنة»(٥٨٨،٥٨٩).

للعدد في هذا الحديث مفهوم، أو كان ذلك قبل سؤال النبي ﷺ أن يُزاد في عدد أولئك الذين حققوا التوحيد. فإن قيل: ما معنىٰ أن يُزاد في عددهم؟

فالجواب: أن المعنىٰ أن الله -جل وعلا- يَمُنُّ علىٰ أُناس من هذه الأمة -غير السبعين ألفًا- ممّن سيأتون بَعْدُ، فيوفقهم لعمل تحقيق التوحيد، فالله -جل وعلا- هو الذي يوفق، وهو الذي يهدي، ثم هو الذي يجازي. فما أعظمه من محسن، برٍّ، كريم، رحيم!



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد، أي: إنها مختلفة، فمنهم من يدخل الجنة بغير حساب، ومنهم من يدخل النار بذنوبه ثم يخرج منها، ومنهم من هو بين ذلك.

الثانية: ما معنىٰ تحقيقه.

أي معناه: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والإصرار علىٰ المعاصي.

الثالثة: ثناؤه -سبحانه- علىٰ إبراهيم بكونه لم يك من المشركين، أي لقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل:١٢٠] فقد تبرأ منهم وكفر بهم وعاداهم وكسر أصنامهم، وهذا هو الغاية في تحقيق التوحيد.

الرابعة: ثناؤه علىٰ سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك، أي لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون:٥٩]، وهذا يتضمن إقبالهم علىٰ الله -تعالىٰ- وسلامتهم من الشرك مطلقًا، وهذا هو تحقيق التوحيد.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد، أي لقوله: «**هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون**»؛ وذلك لما فيه من التفات القلب إلىٰ غير الله تعالىٰ.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل، أي: تركوا هذه الخصال توكلاً علىٰ الله؛ لقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت:٥٩].

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل، أي: لقول بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقول بعضهم: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء.

الثامنة: حرصهم علىٰ الخير، أي: لما حرصوا علىٰ معرفة أعمالهم ليعملوا بها، فيحصلوا ثواب الذين يدخلون الجنة بغير حساب، دل ذلك علىٰ حرصهم علىٰ الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية، أي: إنه يدخل الجنة منهم خلق كثير، فهذا بالكمية، وأما الكيفية: فدخول سبعين ألفًا منهم الجنة بغير حساب ولا عذاب.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسىٰ، أي لقوله: «**إذ رفع لي سواد عظيم فظننتهم أمتي، فقيل: هذا موسىٰ وقومه**» ثم ذكر ما يدل علىٰ أن هذه الأمة أفضل منهم.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه -عليه الصلاة والسلام- أي لقوله: «**عرضت علي الأمم** »، والمراد: أن الله أراه مثالها إذا جاءت يوم القيامة.

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها، أي لقوله: «**فرأيت النبي ومعه الرهط**» إلخ.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء، أي لقوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان**».

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده، أي لقوله: «**والنبي ليس معه أحد**».

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة، أي: إن هذا الحديث يفيد أن الأكثر لم يتبعوا الرسل، فلا يغتر بهم، وأن الأقل هم الذين اتبعوهم فلا يزهد بهم، بل يتبع الحق الذي هم عليه، ويترك الباطل الذي عليه الأكثر ولا يغتر بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[يوسف:١٠٣] .

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة، أي لقوله: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**» والعين إصابة العائن غيره، والحمة: قرصة العقرب وشبهها من ذوات السموم.

السابعة عشرة: عمق علم السلف لقوله: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع ولكن كذا وكذا، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني، أي: لما ذكر حصين أنه فعل الرقية لما بلغه من حديث بريدة صوبه سعيد، ثم بين له ما هو أفضل من ذلك، وأنه لا يخالفه ولكنه يزيد عليه.

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه، أي: لقول حصين: أما إني لم أكن في صلاة، فخاف أن يظن الحاضرون أنه قام يصلي فدفع عن نفسه إيهام العبادة.

التاسعة عشرة: قوله: أنت منهم علم من أعلام النبوة، أي: لكونه قتل شهيدًا في سبيل الله فوقع كما أخبر.

العشرون: فضيلة عكاشة، أي لقوله: «**أنت منهم**»، أي: الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض، أي: لما خاف أن يقوم من ليس بأهل فيطلب ذلك سد الباب بقوله: «**سبقك بها عكاشة**».

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ أي: لكونه لم يقل: «**لست منهم**» فيقع في نفسه شيء، ولكنه قال: «**سبقك بها عكاشة**».



* الأسئلة *

س: ما هو تحقيق التوحيد وما جزاء من حققه؟

جـ: تحقيقه تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ومعرفته والاطلاع على حقيقته والقيام بها علمًا وعملًا وجزاء من حققه دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

قوله: «قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠]»:

س: اشرح هذه الآية مع بيان معنى أمة، قانتًا، حنيفًا واذكر مناسبتها لهذا الباب؟

جـ: وصف الله إبراهيم الخليل عليه السلام بصفات هي الغاية في تحقيق التوحيد:

١ - أنه كان أمة؛ أي: قدوة وإمامًا ومعلمًا للخير.

٢ - أنه كان قانتًا؛ أي: مداومًا على طاعة الله.

٣ - أنه كان حنيفًا؛ أي: مقبلًا على الله معرضًا عن كل ما سواه.

٤ - أنه ما كان من المشركين لا في القول ولا في العمل ولا في الاعتقاد لصحة إخلاصه، وكمال صدقه وبعده عن الشرك.

ومناسبة الآية لهذا الباب:

أن الله وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات التي هي أعلى مراتب تحقيق التوحيد فمن اتبع إبراهيم فيها دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

قوله: «وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون:٥٩]»:

س: اشرح هذه الآية وفيمن نزلت وما الذي يثبته النفي هنا ووضح مناسبتها للباب؟

جـ: أي: لا يعبدون مع الله غيره بل يوحدونه ويفردونه بالعبادة ويعلمون أنه لا إله إلا هو. نزلت هذه الآية في شأن المؤمنين السابقين إلى الجنة. والنفي هنا يثبت ضد المنفي وهو التوحيد.

ومناسبة هذه الآية للباب:

أن هؤلاء المؤمنين دخلوا الجنة بسبب تخليصهم التوحيد والسلامة من الشرك.

❁**قوله**: «عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: «أيكم رأى الكوكب ...»».

س: بين معاني الكلمات الآتية: الكوكب، انقض، البارحة، لدغت، ارتقيت، وما معنى قوله لا رقية إلا من عين أو حمة وما المقصود بالعين والحمة، وما هي الرقية؟

جـ: **الكوكب**: النجم، **انقض**: سقط، **البارحة**: أقرب ليلة مضت، **لدغت**: لدغته عقرب أو غيرها أي: أصابته بسمها.

ارتقيت: طلبت من يرقيني، ومعنى لا رقية إلا من عين أو حمة؛ أي: لا رقية أشفى وأولى من رقية العين والحمة والعين إصابة العائن غيره بعينه، **والحمة**: سم العقرب وشبهها، **والرقية**: هي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع.

س: اشرح قوله قد أحسن من انتهى إلى ما سمع؟

جـ: أي: من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن بخلاف من يعمل بجهل أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسيء آثم.

❁**قوله**: «عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت علي الأمم فرأيت النبي...»».

س: بين معاني الكلمات الآتية: الرهط، نهض، إذ رفع لي سواد، فخاض الناس في أولئك، ومتى عرضت الأمم علي النبي ﷺ؟

جـ: الرهط هم الجماعة دون العشرة، إذا رفع لي سواد؛ أي: أشخاص من عبد لا أدري من هم، نهض؛ أي: قام، خاض الناس في أولئك؛ أي: تناقشوا وتباحثوا في صفات السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب، عرضت الأمم على النبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

س: بين معاني الكلمات الآتية: لا يسترقون، لا يكتوون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون؟

جـ: هي:

١ - هم الذين لا يسترقون؛ أي: لا يسألون غيرهم أن يرقيهم.

٢ - لا يكتوون؛ أي: لا يسألون غيرهم أن يكويهم استسلامًا للقضاء.

٣ - لا يتطيرون؛ أي: لا يتشاءمون بالطيور ونحوها.

٤ - وعلى ربهم يتوكلون؛ أي: يعتمدون عليه في جلب المنافع ودفع المضار ويفوضون أمرهم إليه دون سواه.

س: اذكر مناسبة حديث ابن عباس للباب وما الذي يستفاد منه ومن حديث حصين؟

ج: مناسبته للباب: أن هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات دخلوا الجنة بغير حساب لقوة توكلهم وتوحيدهم وإخلاصهم واعتمادهم على الله وحده. ويستفاد من الحديثين:

١ - البعد عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

٢ - الرخصة في الرقية من العين والحمة.

٣ - أن ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

٤ - فضل الصحابة رضي الله عنهم وحرصهم على الخير وعمق علمهم وحسن أدبهم.

٥ - فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية وأنهم أكثر الأمم تابعًا لنبيهم محمد ﷺ.

٦ - فضيلة أصحاب موسى عليه السلام.

٧ - فضل عكاشة بن محصن رضي الله عنه.

٨ - حسن خُلق النبي ﷺ.

٩- عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة.

والله سبحانه وتعالى أعلم.



الدرس الرابع:

باب الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨].

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥]

وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». فسئل عنه؟ فقال: «الرياء»(١٦٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «[من مات وهو يدعو[من دون الله](١٦٤) ندًّا، دخل النار](١٦٥)»(١٦٦). رواه البخاري.

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يُشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار»(١٦٧).

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوف ما يُخاف منه على الصالحين.

---

(١٦٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٢) «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(١٦٤) في نسخة ابن قاسم والسعدي والفوزان: «لله».

(١٦٥) في نسخة ابن باز: «من مات وهو لا يدعو من دون الله ندًّا أدخل الجنة»، والمثبت موافق لما في صحيح البخاري، رقم (٤٤٩٧) من كلام المصطفى ﷺ، وما في نسخة ابن باز موافق لكلام ابن مسعود رضي الله عنه.

(١٦٦) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾، برقم (٤٤٩٧)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(١٦٧) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومن مات مشركًا دخل النار، برقم (٩٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

الخامسة: قُربُ الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.

السابعة: أنه[من لقيه لا يشرك به شيئًا دخل الجنة و](١٦٨)، من لقيه يشرك به شيئًا دخل النار ولو كان من أعبد الناس.

الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر، لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٦].

العاشرة: فيه تفسير «لا إله إلا الله» كما ذكره البخاري.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله «باب الخوف من الشرك»:

أي: باب وجوب الخوف من الشرك وتحتمه والتحذير منه، وبيان ما يتعلق به من الخسران الأبدي والعذاب السرمدي، وخاف الشيء: فزع منه واتقى ضد أمن. لما ذكر التوحيد وفضله وتحقيقه ناسب أن يذكر الخوف من ضده وهو الشرك، ليحذره المؤمن ويخافه على نفسه، قال حذيفة: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه». وفي الحديث: «**من أمن الله على دينه طرفة عين سلبه إياه**». فيحذر المؤمن زوال تلك النعمة، وكان ﷺ يكثر من قول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**. قيل له: يا رسول الله وإن القلوب لتتقلب؟» قال: «**إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»(١٦٩).

فإن شاء سبحانه أقامها على دينه، وإن شاء أزاغها، وحقيقة الخوف من الشرك صدق الالتجاء إلى

---

(١٦٨)سقط من نسخة ابن عثيمين.

(١٦٩)أخرجه الترمذي، كتاب: القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، برقم (٢١٤٠)، وابن ماجه، كتاب: الدعاء، باب: دعاء رسول الله ﷺ، برقم (٣٨٣٤)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

الله والاعتماد عليه والابتهال والتضرع إليه، والبحث والتفتيش عن الشرك ووسائله وذرائعه، ليسلم من الوقوع فيه.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾»:

أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، أي: عادل غيره به فيما يختص به سبحانه، وصارف خالص حقه لغيره، ومشبه المخلوق العاجز بمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وإذا كان من مات على الشرك لا يغفر له، وجب على العبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله، ومع كونه أعظم الذنوب عند الله سبحانه، ولا يغفر لمن لقيه به فهو هضم للربوبية، وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين.

قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾:

أي: يغفر ما دون الشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده، وفي «الصحيح»: أنه ﷺ أعطى ثلاثًا منها «**وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المقحمات**»[١٧٠]؛ يعني: الكبائر، ففيه فضل السلامة من الشرك قليله وكثيره صغيره وكبيره، فتبين بهذه الآية ونحوها أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، وأما ما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة، إن شاء غفر لمن لقيه به، وإن شاء عذبه، ولا يجوز أن يحمل قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٩] على التائب؛ فإن التائب من الشرك مغفور له بنص القرآن، وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بتخليد أصحاب الكبائر في النار.

قوله: «وقال الخليل عليه السلام»:

هو إبراهيم بن آزر بن ناحور بن شاروخ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ولد ببابل قبل عيسى بألفي عام، وهاجر إلى الشام، وتوفي به بعد أن عاش ١٥٧ سنة. ومعنى إبراهيم بالسريانية أب رحيم. والخلة أخص من المحبة؛ ولهذا اختص بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم. ويأتي قوله: «**فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلًا**»[١٧١].

---

(١٧٠) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: في ذكر سدرة المنتهى، برقم (١٧٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(١٧١) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور...، برقم (٥٣٢)، من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

❁ **قوله:** ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾:

أي: اجعلني وبني في حيز وجانب عن عبادة الأصنام، وباعد بيننا وبينها، وهذا مما يخيف العبد، فإذا كان الخليل عليه السلام إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة وحده وابتلي بكلمات فأتمهن، وقد كسر الأصنام بيده، يخاف أن يقع في الشرك، فكيف يأمن الوقوع فيه من هو دونه بمراتب، بل أولىٰ بالخوف منه وعدم الأمن بالوقوع فيه. قال إبراهيم التيمي: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم». وقد وقع فيه الأذكياء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة، فبنيت المساجد والمشاهد علىٰ القبور وغيرها، وصرفت لها العبادات بأنواعها، وأشبهوا ما وقع في الجاهلية وأعظم واتخذوا ذلك دينا، وهي أوثان وأصنام، فإن الصنم ما كان مصورًا علىٰ أي: صورة، والوثن ما عبد مما ليس له صورة كالحجر والأبنية، وقد يسمىٰ الصنم وثنا، كما قال الخليل: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ [العنكبوت:١٧]. فالأصنام أوثان كما أن القبور بالنص أوثان، فالوثن أعم.

وقال بعض العلماء: كل ما عبد من دون الله، بل كل ما يشغل عن الله يقال له صنم، وقد بين الخليل عليه السلام السبب الذي أوجب له الخوف من ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٦]. فإذا عرف الإنسان ذلك أوجب له الخوف أن يقع فيما وقع فيه الكثير، ولا يأمن الوقوع فيه إلا جاهل به، وبما يخلص منه من العلم بالله، وبما بعث به رسوله ﷺ من توحيده والنهي عن الشرك به.

❁ **قوله: «وفي الحديث: أخوف ما أخاف عليكم...»:**

يصلي فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر رجل إليه، أي: أشد خوف أخافه عليكم، وهذا من شفقته ﷺ علىٰ أمته ورأفته ورحمته هم، فلا خير إلا دلهم عليه ولا شر إلا حذرهم عنه، وهذا الحديث أورده المصنف مختصرًا غير معزو، وقد رواه أحمد والطبراني والبيهقي بأسانيد جيدة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله تعالىٰ يوم القيمة إذا جازىٰ الناس بأعمالهم: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»**[١٧٢].

---

(١٧٢)سبق تخريجه.

والشرك قسمان: أكبر وأصغر، وبينهما فرق في الحكم والحد، **فالأكبر**: أن يسوي غير الله بالله فيما هو من خصائص الله كالمحبة، وحكمه أنه لا يغفر لصاحبه أبدا إلا بالتوبة، وأنه يحبط جميع الأعمال، وأن صاحبه خالد مخلد في النار. **والأصغر**: هو ما أتي في النصوص أنه شرك، ولم يصل إلىٰ حد الشرك الأكبر، وحكمه أنه لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة لعموم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[النساء:٤٩]، وأنه يحبط العمل الذي قارنه، ولا يوجب التخليد في النار، ولا ينقل عن الملة، ويدخل تحت الموازنة، إن حصل معه حسنات راجحة علىٰ ذنوبه دخل الجنة وإلا دخل النار، وإذا كانﷺ يخافه علىٰ أصحابه الذين وحدوا الله ورغبوا إلىٰ ما أمروا به، وهاجروا وجاهدوا وعرفوا ما دعاهم إليه نبيهم، فكيف لا يخافه وما فوقه من لا يدانيهم، ومن لا نسبة له إليهم في علم ولا عمل؟ خصوصًا إذا عرف أن أكثر الناس اليوم بل كثير من علماء الأمصار لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، لم يعرفوا معنىٰ الإلهية التي نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوىٰ الله، ويقولون: من قالها فهو المسلم وإن فعل ما فعل. فينبغي للإنسان أن يحذر كل الحذر، ويخاف أن يقع في الأكبر إذا كان الأصغر مخوفًا علىٰ الصالحين، وهو وجه إيراده له مع أن الترجمة تشمل النوعين، وقد أخبرﷺ عن أمته بوقوع الشرك، وقد عمت به البلوىٰ في أكثر الأقطار، حتىٰ اتخذوه دينا مع ظهور البراهين في النهي عنه والتخويف منه. وفيه أن الرياء من الشرك، وأنه من الأصغر، وأنه أخوف ما يخاف منه علىٰ الصالحين.

✪ **قوله: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال: من مات وهو يدعو الله ندًا دخل النار. رواه البخاري»**:

وهذا الحديث فيه أيضًا التحذير من الشرك والتخويف منه، فمن جعل لله ندًا في العبادة يدعوه ويسأله ويستغيث به، نبيًا كان أو غيره دخل النار. قال ابن القيم:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمن أيًا ... كان من حجر ومن إنسان

يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الديَّان

والند المثل والشبيه، يقال: فلان ند فلان ونديده، أي: مثله وشبيهه، واتخاذ الند علىٰ قسمين: أن يجعل لله شريكا في أنواع العبادة أو بعضها، فهذا شرك أكبر، والثاني ما كان من نوع الشرك الأصغر، كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت، وكيسير الرياء، قال الشيخ: وكبخله -لحب المال- ببعض الواجب هو شرك أصغر، وحبه لما يبغضه الله، حتىٰ يقدم هواه علىٰ محبة الله شرك أصغر.

❁ **قوله: «ولمسلم عن جابر ﵁»**: ابن عبد الله بن عمرو بن حرام السلمي الأنصاري، صحابي جليل أحد المكثرين عن النبي ﷺ وعنه جماعة، ومناقبه مشهورة، ولأبيه مناقب مشهورة مات بالمدينة سنة ٧٤ هـ، وله ٩٤ سنة.

❁ **قوله: «من لقي الله لا يشرك به...»**:

أي: من مات لم يتخذ مع الله شريكًا في الإلهية، ولا في الخلق، ولا في العبادة دخل الجنة، ففيه فضيلة السلامة منه. ومن حديث أبي ذر: «**أتاني جبرائيل فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق**»(١٧٣)، وفي الرابعة: «**على رغم أنف أبي ذر**»(١٧٤). ودخول من مات غير مشرك الجنة مقطوع به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًا عليها دخلها أولًا، وإلا فهو تحت المشيئة، فإن عفا عنه دخلها أولا، وإلا عذب ثم خرج من النار وأدخل الجنة.

❁ **قوله: «ومن لقيه يشرك به شيئًا»**:

فإذا كان التغيظ في النهي عن الشرك بهذه الشدة فينبغي شدة الخوف منه. وقوله: «شيئًا» نكرة تعم قليل الشرك وكثيره، أما الأكبر فلا عمل معه البتة ويوجب الخلود في النار، ولا فرق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من انتسب إلى ملة الإسلام أو خالفها، ومن المعلوم بالضرورة من الدين المجمع عليه عند أهل السنة أن من مات على الشرك لا يدخل الجنة، ولا يناله من الله رحمة، ويخلد في النار أبد الآباد. وأن من مات لا يشرك بالله شيئًا يدخل الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحن. وأما الشرك الأصغر كيسير الرياء، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ومالي إلا الله وأنت، ونحو ذلك فيطلق عليه الشرك كما في حديث: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(١٧٥) ونحو ذلك، ولكن لا يخرج بذلك من الملة بالكلية، ولا يستحق اسم الكفر على الإطلاق، فهو أخف من الأكبر، وقد يكون أكبر بحسب حال قائله ومقصده، واقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء، واستدعائه إثبات

---

(١٧٣) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: في الجنائز...، برقم (١٢٣٧)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة...، برقم (٩٤)، وغيرهما من حديث أبي ذر ﵁.

(١٧٤) أخرجه البخاري، كتاب: اللباس، باب: الثياب الأبيض، برقم (٥٨٢٧)، من حديث أبي ذر ﵁.

(١٧٥) أخرجه أبو داود، كتاب: الأيمان والنذور، باب: كراهية الحلف بالآباء، برقم (٣٢٥١)، والترمذي، كتاب: النذور والأيمان، باب: كراهية الحلف بالآباء، برقم (١٥٣٥)، وغيرهما من حديث ابن عمر ﵄، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

الرسالة باللزوم، فالمراد من مات حال كونه مؤمنا بجميع ما يجب الإيمان به إجمالا في الإجمالي، وتفصيلا في التفصيلي، وفيه قرب الجنة والنار، والجمع بين قربهما في حديث واحد متقارب في الصورة.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «باب الخوف من الشرك»:

الشرك في توحيد الإلهية والعبادة ينافي التوحيد كل المنافاة، وهو نوعان: شرك أكبر جلي وشرك أصغر خفي؛ فأما **الشرك الأكبر**: فهو أن يجعل لله ندا يدعوه كما يدعو الله، أو يخافه أو يرجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعًا من أنواع العبادة، فهذا الشرك لا يبقي مع صاحبه من التوحيد شيء، وهذا المشرك الذي حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ولا فرق في هذا بين أن يسمي تلك العبادة التي صرفها لغير الله عبادة، أو يسميها توسلًا أو يسميها بغير ذلك من الأسماء فكل ذلك شرك أكبر؛ لأن العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها.

وأما الشرك الأصغر: فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلىٰ الشرك كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة: كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك

فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر، وأنه لا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه، كان حقًّا علىٰ العبد أن يخاف منه أعظم خوف وأن يسعىٰ في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه، ويسأل الله العافية منه، كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق.

وعلىٰ العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته، وذلك بكمال التعلق بالله تألهًا وإنابة وخوفًا ورجّاء وطمعًا وقصدًا لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله العبد، وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة، فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الأكبر والأصغر، وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب الخوف من الشرك»:

أي: باب وجوب الخوف من الشرك، فيجب علىٰ المؤمن أن يخاف من الشرك، والمعاصي يبتعد عنها وخاصة الشرك ولا يأمن ذلك علىٰ نفسه.

والشرك: هو تشريك غير الله في العبادة أيا كانت ولذلك سُمي شركًا والعبادة حق لله وحده.

وأعظم من ذلك صرف العبادة كلها لغير الله ﷻ.

❁ **قوله**: «وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]»:

فيه بيان عظم الشرك وخطورته؛ لأن الإنسان إذا مات عليه لم يغفر له بل هو خالد مخلد في النار بخلاف سائر المعاصي فهي تحت المشيئة إن شاء عذبه بقدرها ودخل الجنة وإن شاء غفر له، وأما الشرك فقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢].

❁ **قوله**: «وقول الخليل عليه السلام ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥]»:

هذا فيه خطورة الشرك؛ لأن سيد الأنبياء بعد نبينا كان يخاف من الشرك فوجب التأسي بهم وأن نكون أولىٰ بالخوف منهم.

الأصنام: هو ما نحت علىٰ صورة كصورة إنسان أو حيوان.

والمشركون كانوا أقسامًا: منهم من يعبد الأصنام ومنهم من يعبد غير الأصنام كالشجر والبحر والشمس والقمر كلهم يجمعهم صرف العبادة لغير الله ﷻ ويطلق علىٰ الصنم وثن.

❁ **قوله**: «وفي الحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»: فسئل عنه فقال: «الرياء»».

هذا الحديث رواه أحمد بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ وله شواهد قوية كلها تدل علىٰ وجوب الحذر من الرياء وأنه خطير ويُبتلىٰ به الصلحاء لأنه قد يرائي بصلاته وزكاته وأمره بالمعروف ونهيه وفي الحديث: «**من سمع سمع الله به ومن راءىٰ راءىٰ الله به**»[١٧٦] وتمام الحديث: «**أن الله يقول للمرائين يوم القيامة اذهبوا إلىٰ ما كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء**»[١٧٧] والرياء: مصدر راءىٰ يرائي.

وفي الحديث: «**يقول الله: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[١٧٨] رواه مسلم. فيجب علىٰ الإنسان أن يخلص لله وحده.

---

(١٧٦) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الرياء والسمعة، برقم (٦٤٩٩)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٧)، وغيرهما من حديث جندب رضي الله عنه.

(١٧٧) سبق تخريجه.

(١٧٨) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو ...» رواه البخاري:

ندًا؛ أي: شبيهًا ونظيرًا يدعوه مع الله ويستغيث به فهو مخلد في النار، وفي رواية قال ابن مسعود: وقلت: «**ومن مات وهو لا يدعو من دون الله ندًا دخل الجنة**»[١٧٩]؛ أي: من مات على التوحيد دخل الجنة. فاتخاذ الأنداد من أسباب دخول النار، ومعنى اتخاذ الأنداد شريك غير الله معه في العبادة من الصالحين والأنبياء أو شجرًا أو حجرًا.

قوله: ولمسلم عن جابر مرفوعًا «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**»[١٨٠]. وفيه خطورة الشرك ووجوب الخوف منه وحذره.

الحديث فيه موجبتان:

الأولى: أن من لقي الله لا يشرك به دخل الجنة.

والثانية: أنه من لقيه وهو مشرك دخل النار.

ولذا في لفظ آخر قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بالموجبتين**» قالوا: بلى، قال «**من لقي الله...**».

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب: الخوف من الشرك»:

مناسبة الباب للبابين قبله:

في الباب الأول ذكر المؤلف رحمه الله تحقيق التوحيد، وفي الباب الثاني ذكر أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث بهذا الباب رحمه الله تعالى، لأن الإنسان يرى أنه قد حقق التوحيد وهو لم يحققه، ولهذا **قال بعض السلف**: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»، وذلك أن النفس متعلقة بالدنيا تريد حظوظها من مال أو جاه أو رئاسة، وقد تريد بعمل الآخرة الدنيا، وهذا نقص في الإخلاص، وقل من يكون غرضه الآخرة في كل عمله، ولهذا أعقب المؤلف رحمه الله ما سبق من البابين بهذا الباب، وهو الخوف من الشرك، وذكر فيه آيتين:

---

(١٧٩) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾، برقم (٤٤٩٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

(١٨٠) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة...، برقم (١٥٢/ ٩٣)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

الأولى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[النساء:٤٨].

﴿لَا﴾: نافية، ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: فعل مضارع مقرون بأن المصدرية، فيحول إلىٰ مصدر تقديره: أن الله لا يغفر الإشراك به، أو لا يغفر إشراكًا به، فالشرك لا يغفره الله أبدًا، لأنه جناية علىٰ حق الله الخاص، وهو التوحيد.

أما المعاصي، كالزنىٰ والسرقة، فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال من شهوة، أما الشرك، فهو اعتداء علىٰ حق الله تعالىٰ، وليس للإنسان فيه حظ نفس، وليس شهوة يريد الإنسان أن ينال مراده، ولكنه ظلم، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

وهل المراد بالشرك هنا الأكبر، أم مطلق الشرك؟

قال بعض العلماء: إنه مطلق يشمل كل شرك لو أصغر؛ كالحلف بغير الله، فإن الله لا يغفره، أما بالنسبة لكبائر الذنوب؛ كالسرقة، والخمر، فإنها تحت المشيئة، فقد يغفرها الله، وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقق في هذه المسائل اختلف كلامه في هذه المسألة، فمرة قال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ومرة قال: الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر، وعلىٰ كل حال فيجب الحذر من الشرك مطلقًا؛ لأن العموم يحتمل أن يكون داخلًا فيه الأصغر؛ لأن قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾أن وما بعدها في تأويل مصدر، تقديره: إشراكًا به، فهو نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم.

قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوىٰ الشرك.

الآية الثانية: قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

قيل: المراد ببنيه: بنوه لصلبه، ولا نعلم له من صلبه سوىٰ إسماعيل وإسحاق، وقيل: المراد ذريته وما توالد من صلبه، وهو الأرجح، وذلك للآيات التي دلت علىٰ دعوته للناس من ذريته، ولكن كان من حكمة الله أن لا تجاب دعوته في بعضهم، كما أن الرسول ﷺ دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم فلم يجب الله دعاه.

وأيضًا يمنع من الأول أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوىٰ إسحاق وإسماعيل.

ومعنىٰ: ﴿وَاجْنُبْنِي﴾؛ أي: اجعلني في جانب والأصنام في جانب، وهذا أبلغ مما لو قال: امنعني وبني من عبادة الأصنام؛ لأنه إذا كان في جانب عنها كان أبعد.

فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء، فما بالك بنا نحن إذًا؟!.

فلا تأمن الشرك، ولا تأمن النفاق، إذ لا يأمن النفاق إلا منافق، ولا يخاف النفاق إلا مؤمن، ولهذا قال ابن أبي مُلَيكَة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه»(١٨١) .

وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاف على نفسه النفاق، فقال لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي أسر إليه النبي ﷺ بأسماء أناس من المنافقين، فقال له عمر رضي الله عنه: «أنشدك الله، هل سماني لك رسول الله ﷺ مع من سمى من المنافقين؟». فقال حذيفة رضي الله عنه: لا؛ ولا أزكي بعدك أحدًا»(١٨٢) ؛أراد عمر بذلك زيادة الطمأنينة، وإلا، فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة.

---

(١٨١) أخرجه البخاري تعليقًا، كتاب: الإيمان، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، (١/ ١١٠/ فتح) من قول ابن أبي مليكة.

(١٨٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وإنما أخرجه الخلال في «السنة»، برقم (١٢٨٨)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٧٦٩) من طريق الأعمش عن زيد بن وهب عنه بنحوه، ولفظه: «قال مات رجل من المنافقين، فلم يُصَلِّ عليه حذيفة، فقال له عمر: أمن القوم هو؟ قال: نعم. قال: بالله؛ أنا منهم؟ قال: لا، ولن أخبر أحدًا بعدك».

قال الفسوي: «وهذا محال وأخاف أن يكون كذب، وكيف يكون هذا وهو ممن رضي الله عنه، وهو من أهل بدر، وهو ممن يقول له النبي ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر»، و«قد يكون في الأمم محدثون وإن يكن في أمتي فهو عمر»، مع ما لا يُحصى من هذا الضرب، فكيف يجوز أن يقول لحذيفة: «وأنا من المنافقين» ولكن حديث زيد فيه خلل كثير» اهـ.

وتعقبه الذهبي فقال في «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٠٧) في ترجمة زيد بن وهب: «من أجلة التابعين وثقتهم، متفق على الاحتجاج به إلا ما كان من يعقوب الفسوي فإنه قال في «تاريخه»: (في حديثه خلل كثير)، ولم يصب الفسوي...» ثم ذكر كلام الفسوي السابق وزاد عليه، ثم قال: «فهذا الذي استنكره الذهبي من حديثه ما سُبق إليه، ولو فتحنا هذا الوسواس علينا لرددنا كثيرًا من السنن الثابتة بالوهم الفاسد، ولا نفتح علينا في زيد بن وهب خاصة باب الاعتزال، فردوا حديثه الثابت عن ابن مسعود، حديث الصادق المصدوق، وزيد سيد جليل القدر، هاجر إلى النبي ﷺ، فقُبض وزيد في الطريق» اهـ.

وزيد وثقه ابن معين وغيره حتى إن الأعمش قال: إذا حدثك زيد بن وهب عن أحد فكأنك سمعته من الذي حدثك عنه. انظر «تهذيب التهذيب» (٢/ ٢٤٩).

وللحديث طريق أخر عن حذيفة رضي الله عنه: أخرجه البزار في «مسنده»، برقم (٢٨٨٥)، من طريق الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، بلفظ: «قال: دُعي عمر لجنازة فخرج فيها أو يريدها فتعلقت به فقلت: اجلس يا أمير المؤمنين فإنه من أولئك، فقال: نشدتك الله أنا منهم قال: لا ولا أبرئ أحدًا بعدك». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٤٢): «رواه البزار ورجاله ثقات». وأورده ابن حجر في «مختصر زوائد البزار»، برقم (٥٩٠)، وقال: إسناده صحيح.
=

ولا يقال: إن عمر ﷺ أراد حث الناس على الخوف من النفاق ولم يخفه على نفسه؛ لأن ذلك خلاف ظاهر اللفظ، والأصل حمل اللفظ على ظاهره، ومثل هذا القول يقوله بعض العلماء فيما يضيفه النبي ﷺ إلى نفسه في بعض الأشياء، يقولون: هذا قصد به التعليم، وقصد به أن يبين لغيره، كما قيل: إن الرسول ﷺ لم يقل: رب اغفر لي؛ لأن ليس له ذنبًا ولكن لأجل أن يعلم الناس الاستغفار، وهذا خلاف الأصل وقول بعضهم: إنه جهر بالذكر عقب الفريضة ليعلم الناس الذكر، لا لأن الجهر بذلك من السنة ونحو ذلك.

قوله: ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. أن والفعل بعدها في تأويل مصدر مفعول ثانٍ لقوله: اجنبني.

والأصنام: جمع صنم، وهو ما جعل على صورة إنسان أو غيره يُعبد من دون الله. أما الوثن، فهو ما عبد من دون الله على أي: وجه كان، وفي الحديث: «**لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»[١٨٣]. فالوثن أعم من الصنم.

ولا شك أن إبراهيم سأل ربه الثبات على التوحيد؛ لأنه إذا جنّبه عبادة الأصنام صار باقيًا على التوحيد.

الشاهد من هذه الآية: أن إبراهيم خاف الشرك، وهو إمام الحنفاء، وهو سيدهم ما عدا رسول الله ﷺ.

قوله: «وفي الحديث»:

الحديث: ما أضيف إلى الرسول، من قول أو فعل أو إقرار أو وصف. **والخبر:** ما أضيف إليه وإلى غيره، والأثر: ما أضيف إلى غير الرسول ﷺ، أي: إلى الصحابي فمن بعده، إلا إذا قُيد فقيل: وفي الأثر عن رسول الله ﷺ؛ فيكون على ما قُيد به.

قوله: «**أخوف ما أخاف عليكم**»: الخطاب للمسلمين؛ إذ المسلم هو الذي يُخاف عليه الشرك الأصغر، وليس لجميع الناس.

قوله: «**الرياء**»، مشتق من الرؤية مصدر راءى يرائي، والمصدر ريّاء، كقاتل يقاتل قتالًا.

=

وقد ذكره صاحب «كنز العمال» (١٣/ ٣٤٤)، وعزاه إلى رسته، وهو لقب عبد الرحمن بن عمر أبي الحسن الزهري.

(١٨٣) أخرجه مالك، برقم (٤١٤)، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مرسلًا، وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٧٥٠).

والرياء: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابدًا، وليس يريد أن تكون العبادة للناس؛ لأنه لو أراد ذلك؛ لكان شركًا أكبر، والظاهر أن هذا على سبيل التمثيل، وإلا، فقد يكون رياءً، وقد يكون سماعًا؛ أي: يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء؛ فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب. أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها؛ فليس هذا ريّاء، بل هذا من الدعوة إلى الله ﷻ، والرسول ﷺ يقول: «**فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي**»[١٨٤].

والرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة، أي: ما قام يتعبد إلا للرياء، فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في «الصحيح» مرفوعًا، قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[١٨٥].

الثاني: أن يكون الرياء طارئًا على العبادة، أي: أن أصل العبادة لله، لكن طرأ عليها الرياء، فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يدافعه، فهذا لا يضره. مثاله: رجل صلى ركعة، ثم جاء أناس في الركعة الثانية، فحصل في قلبه شيء بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه؛ فإنه لا يضره لأنه قام بالجهاد.

القسم الثاني: أن يسترسل معه؛ فكل عمل ينشأ عن الرياء، فهو باطل؛ كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى؛ فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟

نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحال الأولى: أن يكون آخر العبادة مبنيًّا على أولها، بحيث لا يصح أولها مع فساد آخرها، فهذه كلها فاسدة.

---

(١٨٤) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: الاستعانة بالنجار والصناع من أعواد المنبر والمسجد، برقم (٤٤٨)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة، برقم (٥٤٤)، واللفظ له، وغيرهما من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(١٨٥) سبق تخريجه.

وذلك مثل الصلاة؛ فالصلاة مثلًا لا يمكن أن يفسد آخرها ولا يفسد أولها، وحينئذ تبطل الصلاة كلها إذا طرأ الرياء في أثنائها ولم يدافعه.

الحال الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلًا عن آخرها، بحيث يصح أولها دون آخرها، فما سبق الرياء، فهو صحيح، وما كان بعده، فهو باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مائة ريال، فتصدق بخمسين بنية خالصة، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء؛ فالأولىٰ مقبولة، والثانية غير مقبولة؛ لأن آخرها منفك عن أولها.

فإن قيل: لو حدث الرياء في أثناء الوضوء؛ هل يلحق بالصلاة فيبطل كله، أو بالصدقة فيبطل ما حصل فيه الرياء فقط.

فالجواب: يحتمل هذا وهذا؛ فيلحق بالصلاة لأن الوضوء عبادة واحدة ينبني بعضها علىٰ بعض، ليس تطهير كل عضو عبادة مستقلة؛ ويلحق بالصدقة لأنه ليس كالصلاة من كل وجه ولا الصدقة من كل وجه؛ لأننا إذا قلنا ببطلان ما حصل فيه الرياء، فأعاد تطهيره وحده لم يضر؛ لأن تكرار غسل العضو لا يبطل الوضوء ولو كان عمدًا بخلاف الصلاة؛ فإنه إذا كرر جزءًا منها كركوع أو سجود لغير سبب شرعي؛ بطلت صلاته، فلو أنه بعد أن غسل يديه رجع وغسل وجهه، لم يبطل وضوؤه، ولو أنه بعد أن سجد رجع وركع؛ لبطلت صلاته، والترتيب موجود في هذا وهذا، لكن الزيادة في الصلاة تبطلها، والزيادة في الوضوء لا تبطله، والرجوع مثلًا إلىٰ الأعضاء الأولىٰ لا يبطله أيضًا، وإن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر وضوءًا لأنه غير شرعي، وربما يكون في الأولىٰ غسل وجهه علىٰ أنه واحدة، ثم غسل يديه، ثم قال: الأحسن أن أكمل الثلاث في الوجه أفضل، فغسل وجهه مرتين، وهو سيرتب أي: سيغسل وجهه ثم يديه، فوضوؤه صحيح.

ولو ترك التسبيح ثلاث مرات في الركوع، وبعدما سجد قال: فوت علىٰ نفسي فضيلةً، سأرجع لأجل أن أسبح ثلاث مرات، فتبطل صلاته، فالمهم أن هناك فرقًا بين الوضوء والصلاة، ومن أجل هذا الفرق لا أبت فيها الآن حتىٰ أراجع وأتأمل إن شاء الله تعالىٰ.

❁ **قوله: «من»**: هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثىٰ.

قوله: «**يدعو من دون الله ندًا**»؛ أي: يتخذ لله ندًا سواء دعاه دعاء عبادة أم دعاء مسألة؛ لأن الدعاء ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: دعاء عبادة، مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلىٰ الإنسان أو صام، فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة، كما أنها تتضمن الدعاء بلسان المقال.

ويدل لهذا القسم قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾[غافر:٦٠]، فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كله شرك، فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله؛ فقد كفر كُفرًا مُخرجًا له عن الملة، فلو ركع لإنسان أو سجد لشيء يعظمه كتعظيم الله في هذا الركوع أو السجود، لكان مشركًا، ولهذا منع النبيﷺ من الانحناء عند الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقىٰ أخاه أن ينحني له؟ قال: «**لا**»[١٨٦].

خلافًا لما يفعله بعض الجهال إذا سلم عليك انحنىٰ لك؛ فيجب علىٰ كل مؤمن بالله أن ينكره؛ لأنه عظمك علىٰ حساب دينه.

الثاني: دعاء المسألة؛ فهذا ليس كله شركًا، بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادرًا علىٰ ذلك؛ فليس بشرك؛ كقولك: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك. قالﷺ: «**من دعاكم فأجيبوه**»[١٨٧]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[النساء:٨].

فإذا مد الفقير يده، وقال: ارزقني؛ أي: اعطني؛ فليس بشرك، كما قال تعال: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾، وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله؛ فإن دعوته شرك مخرج عن الملة.

مثال ذلك: أن تدعو إنسانًا أن ينزل الغيث معتقدًا أنه قادر علىٰ ذلك.

والمراد بقول الرسولﷺ: «**من مات وهو يدعو من دون لله ندًا**» المراد الند في العبادة، أما الند في المسألة، ففيه التفصيل السابق.

ومع الأسف؛ ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلانًا المقبور الذي بقىٰ جثة أو أكلته الأرض ينفع أو يضر، أو يأتي بالنسل لمن لا يولد لها، وهذا -والعياذ بالله- شرك أكبر مخرج من الملة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر والزنا واللواط؛ لأنه إقرار علىٰ كفر، وليس إقرارًا علىٰ فسوق فقط.

---

(١٨٦) أخرجه الترمذي، كتاب: الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في المصافحة، برقم (٢٧٢٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(١٨٧) أخرجه أبو داود، كتاب: الزكاة، باب: عطية من سأل بالله ﷻ، برقم (١٦٧٢)، والنسائي، كتاب: الزكاة، باب: من سأل بالله ﷻ، برقم (٢٥٦٧)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قوله: «**دخل النار**»؛ أي: خالدًا، مع أن اللفظ لا يدل عليه؛ لأن دخل فعل، والفعل يدل على الإطلاق.

وأيضًا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]، وإذا حرمت الجنة، لزم أن يكون خالدًا في النار أبدًا، فيجب أن نخاف من الشرك مادامت هذه عقوبته؛ فالمشرك خسر الآخرة؛ لأنه في النار خالد، وخسر الدنيا أيضًا؛ لأنه لم يستفد منها شيئًا، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر -والعياذ بالله-، ما استفاد شيئًا من الدنيا، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[فاطر:٣٧]، وقال الله ﷻ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾[الحج:١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الزمر:١٥].

فخسر نفسه؛ لأنه لم يستفد منها شيئًا، وخسر أهله؛ لأنهم إن كانوا من المؤمنين فهم في الجنة، فلا يتمتع بهم في الآخرة، وإن كانوا في النار فكذلك؛ لأنه كلما دخلت أمة لعنت أختها، والشرك خفي جدًّا؛ فقد يكون في الإنسان وهو لا يشعر إلا بعد المحاسبة الدقيقة، ولهذا **قال بعض السلف**: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص».

فالشرك أمره صعب جدًّا ليس بالهين، ولكن ييسر الله الإخلاص على العبد، وذلك بأن يجعله الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله لا يقصد مدح الناس أو ذمهم أو ثناءهم عليه، فالناس لا ينفعونه أبدًا، حتى لو خرجوا معه لتشييع جنازته لم ينفعه إلا عمله، قال ﷺ: «... **يتبع الميت ثلاثة: فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله**»[(١٨٨)].

وكذلك أيضًا من المهم أن الإنسان لا يفرحه أن يقبل الناس قوله لأنه قوله، لكن يفرحه أن يقبل الناس قوله إذا رأى أنه الحق لأنه الحق، لا أنه قوله، وكذا لا يحزنه أن يرفض الناس قوله؛ لأنه قوله، لأنه حينئذٍ يكون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنه الحق، وبهذا يتحقق الإخلاص.

---

(١٨٨) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: سكرات الموت، برقم (٦٥١٤)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٠)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

فالإخلاص صعب جدًّا، إلا أن الإنسان إذا كان متجهًا إلىٰ الله اتجاهًا صادقًا سليمًا علىٰ صراط مستقيم، فإن الله يعينه عليه، وييسره له.

❁ **قوله: «من»**، شرطية تفيد العموم، وفعل الشرط: **«لقي»**، وجوابه قوله: **«دخل الجنة»**، وهذا الدخول لا ينافي أن يعذب بقدر ذنوبه إن كانت عليه ذنوب؛ لدلالة نصوص الوعيد علىٰ ذلك، وهذا إذا لم يغفر الله له؛ لأن داخل تحت المشيئة.

قوله: **«لا يشرك»**. في محل نصب علىٰ الحال من فاعل «لقي».

قوله: **«شيئًا»**، نكرة في سياق الشرط؛ فيعم أي: شرك حتىٰ ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسولﷺ دخل النار، فكيف بمن يجعل الرسولﷺ أعظم من الله، فيلجأ إليه عند الشدائد، ولا يلجأ إلىٰ الله، بل ربما يلجأ إلىٰ ما دون الرسولﷺ؟! وهناك من لا يبالي بالحلف بالله صادقًا أم كاذبًا، ولكن لا يحلف بقوميته إلا صادقًا، ولهذا اختلف فيمن لا يبالي بالحلف بالله، ولكن لا يحلف بملته أو بما يعظمه إلا صادقًا، فلزمته يمين؛ هل يحلف بالله أو يحلف بهذا؟

فقيل: يحلف بالله ولو كذب، ولا يُعان علىٰ الشرك، وهو الصحيح.

وقيل: يحلف بغير الله؛ لأن المقصود الوصول إلىٰ بيان الحقيقة، وهو إذا كان كاذبًا لا يمكن أن يحلف، لكن نقول: إن كان صادقًا حلف ووقع في الشرك.

مسألة:

هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر، فإنه لا يلزم من ذلك الخلود في النار، وإن كان أكبر أكبر؛ فإنه يلزم من الخلود في النار. كما دلت عل ذلك النصوص.

لكن لو حملنا الحديث علىٰ الشرك الأكبر في الموضعين في قوله: **«من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»**[189] وفي قوله: **«ومن لقي الله يشرك به شيئًا دخل النار»**[190] وقلنا: من لقي الله لا يشرك به شركًا أكبر دخل الجنة، وإن عذب قبل الدخول في النار بما يستحق، فيكون مآله إلىٰ الجنة، ومن لقيه يشرك به شركًا أكبر دخل النار مخلدًا فيها لم نحتج إلىٰ هذا التفصيل.

---

(١٨٩) سبق تخريجه.

(١٩٠) سبق تخريجه.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: الخوف من الشرك. لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، ولقوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.

الثانية: أن الرياء من الشرك، لحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، فسئل عنه فقال «**الرياء**»، وقد سبق بيان أحكامه بالنسبة إلى إبطال العبادة.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر، لأن النبي ﷺ لما سئل عنه فقال: «الرياء»، فسماه شركًا أصغر. وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟

ظاهر الحديث لا يمكن؛ لأنه قال: «الشرك الأصغر»، فسئل عنه، فقال: «**الرياء**».

لكن في عبارات ابن القيم رحمه الله أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: كيسير الرياء؛ فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكمية، فنعم؛ لأنه لو كان يرائي في كل عمل لكان مشركًا شركًا أكبر لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية؛ فظاهر الحديث أنه أصغر مطلقًا.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين. وتؤخذ من قوله: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»[١٩١]، ولأنه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لخفائه وتطلع النفس إليه، فإن كثيرًا من النفوس تحب أن تمدح بالتعبد لله.

الخامسة: قرب الجنة والنار. لقوله: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا، دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا، دخل النار**».

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا....**» الحديث.

السابعة: أن من لقيه يشرك به شيئًا دخل النار، ولو كان من أعبد الناس. تؤخذ من العموم في قوله: «**من لقي الله**»؛ لأن «من» للعموم، لكن إن كان شركه أكبر؛ لم يدخل الجنة وإن كان أعبد الناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[المائدة:٧٢]، وإن كان أصغر؛ عذب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة.

---

(١٩١) سبق تخريجه.

الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام، تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٦]. وفيه إشكال؛ إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر، والآية: ﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالىٰ في بني آدم: ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾[الإسراء:٧٠] فلم يقل علىٰ أكثر الخلق، ولا علىٰ الخلق؛ فالآدميون فُضلوا علىٰ كثير ممن خلق الله، وليسوا، أكرم الخلق علىٰ الله، ولكنه كرمهم.

العاشرة: فيه تفسير «لا إله إلا الله» كما ذكره البخاري. الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب؛ لأن لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك. لقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقوله: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا، دخل الجنة»[١٩٢].

قال العلامة ابن فوزان:

۞ **قوله**: «باب الخوف من الشرك»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر التوحيد وفضله وتحقيقه ناسب أن يذكر الخوف من ضده وهو الشرك، ليحذره المؤمن ويخافه علىٰ نفسه.

«الخوف»: توقع مكروهٍ، هو ضد الأمن.

«الشرك»: صرف شيءٍ من العبادة لغير الله.

۞ **قوله**: «وقول الله تعالىٰ: ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾»:

أي: لا يعفو عن عبدٍ لقيه وهو يعبد غيره.

۞ **قوله**: «﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾»:

أي: يغفر ما دون الشرك من الذنوب.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾: أي: لمن يشاء المغفرة له من عباده حسب فضله، وحكمته.

---

(١٩٢)سبق تخريجه.

۞ **قوله:** «الخليل»:

الذي بلغ أعلىٰ درجات المحبة، والمراد به إبراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله خليلًا.

﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾: اجعلني وإياهم في جانبٍ وحيزٍ بعيدٍ عن ذلك.

﴿ٱلْأَصْنَامَ﴾: جمع صنمٍ وهو ما كان منحوتًا علىٰ صورة البشر أو علىٰ صورة أي: حيوان.

المعنىٰ الإجمالي للآية الأولىٰ:

أن الله سبحانه يخبر خبرًا مؤكدًا أنه لا يغفر لعبدٍ لقيه وهو مشرك؛ به ليحذرنا من الشرك، وأنه يغفر ما دون الشرك من الذنوب لمن يشاء أن يغفر له تفضلًا وإحسانًا؛ لئلا نقنط من رحمة الله.

المعنىٰ الإجمالي للآية الثانية:

أنّ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يدعو ربه عز وجل أن يجعله هو وبنيه في جانب بعيد عن عبادة الأصنام وأن يباعد بينه وبينها؛ لأن الفتنة بها عظيمة ولا يأمن الوقوع فيها.

مناسبة الآيتين للباب:

أن الآية الأولىٰ تدل علىٰ أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن من مات عليه لا يغفر له، وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه، والآية الثانية تدل علىٰ أن إبراهيم خاف الشرك علىٰ نفسه ودعا الله أن يعافيه منه، فما الظن بغيره، فالآيتان تدلان علىٰ وجوب الخوف من الشرك.

ما يستفاد من الآيتين:

١ - أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالىٰ أخبر أنه لا يغفره لمن لم يَتُبْ منه.

٢ - أن ما عدا الشرك من الذنوب إذا لم يتب منه داخل تحت المشيئة -إن شاء الله غفره بلا توبة، وإن شاء عذب به- ففي هذا دليل علىٰ خطورة الشرك.

٣ - الخوف من الشرك، فإن إبراهيم عليه السلام -وهو إمام الحنفاء والذي كسر الأصنام بيده- خافه علىٰ نفسه فكيف بمن دونه.

٤ - مشروعية الدعاء لدفع البلاء، وأنه لا غنىٰ للإنسان عن ربه.

٥ - مشروعية دعاء الإنسان لنفسه ولذريته.

٦ - الرد علىٰ الجهال الذين يقولون: لا يقع الشرك في هذه الأمة فأمنوا منه فوقعوا فيه.

قوله: «وفي الحديث»:

أي: الحديث الذي رواه الإمام أحمد والطبراني وابن أبي الدنيا والبيهقي.

«**أخوف ما أخاف عليكم**»؛ أي: أشد خوفًا ما أخافه عليكم.

«**الرياء**»: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدونه عليها.

المعنى الإجمالي للحديث:

لكمال شفقته ﷺ ورحمته بأمته ونصحه لهم بحيث لم يترك خيرًا إلا دلهم عليه ولا شرًّا إلا حذرهم منه، ومن الشر الذي حذر منه الظهور بمظهر العبادة؛ لقصد تحصيل ثناء الناس لأنه شرك في العبادة -وهو وإن كان شركًا أصغر فخطره عظيم؛ لأنه يحبط العمل الذي قارنه- ولما كانت النفوس مجبولةً على محبة الرئاسة والمنزلة في قلوب الخلق إلاَّ من سلم الله كان هذا أخوف ما يُخافُ على الصالحين -لقوة الداعي إليه- بخلاف الداعي إلى الشرك الأكبر، فإنه إمَّا معدوم في قلوب المؤمنين الكاملين، وإمَّا ضعيفٌ.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه الخوف من الشرك الأصغر كما أن في الآيتين قبله الخوف من الشرك الأكبر، والباب شامل للنوعين.

ما يستفاد من الحديث:

١- شدة الخوف من الوقوع في الشرك الأصغر، وذلك من وجهين:

الأول: أن الرسول ﷺ تخوف من وقوعه تخوفًا شديدًا.

الثاني: أنه ﷺ تخوف من وقوعه في الصالحين الكاملين فمن دونهم من باب أولى.

٢- شدة شفقته ﷺ على أمته وحرصه على هدايتهم ونصحه لهم.

٣- أن الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر -**فالأكبر** هو أن يسوي غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، **والأصغر** هو ما أتى في النصوص أنه شرك ولم يصل إلى حد الأكبر- والفرق بينهما:

أ- أن الأكبر يحبط جميع الأعمال، والأصغر يحبط العمل الذي قارنه.

ب- أن الأكبر يخلد صاحبه في النار، والأصغر لا يوجب الخلود في النار.

جـ- أن الأكبر ينقل عن الملة، والأصغر لا ينقل عن الملة.

قوله: «يدعو»:

الدعاء هنا هو السؤال يقال دعاه إذا سأله أو استغاث به.

«ندًّا»: الند المثل والشبيه.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر الرسول ﷺ أن من جعل لله شبيهًا ومثيلًا في العبادة يدعوه ويسأله ويستغيث به نبيًا كان هذا الند أو غيره واستمر علىٰ ذلك إلىٰ الممات أي: لم يتب منه قبل الممات، فإن مصيره إلىٰ النار لأنه مشترك واتخاذ الند علىٰ نوعين:

الأول: أن يجعل لله شريكًا في أنواع العبادة أو بعضها فهذا شرك أكبر، صاحبه مخلد في النار.

الثاني: ما كان من الشرك الأصغر كقول الرجل: «ما شاء الله وشئت ولولا الله وأنت» ونحو ذلك مما فيه العطف بالواو علىٰ لفظ الجلالة، وكيسير الرياء، وهذا لا يوجب التخليد في النار وإن دخلها.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه التخويف من الشرك ببيان عاقبة المشرك ومصيره.

ما يستفاد من الحديث:

١- التخويف من الشرك والحث علىٰ التوبة منه قبل الموت.

٢- أن كل من دعا مع الله نبيًا أو وليًا -حيًّا أو ميتًا- أو حجرًا أو شجرًا فقد جعل ندًّا لله.

٣- أن الشرك لا يغفر إلا بالتوبة.

قوله: «جابر»:

هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي صحابي جليل مكثر ابن صحابي مات بالمدينة بعد السبعين وله أربع وتسعون سنةً.

«**من لقي الله**»: من مات.

«**لا يشرك به**»: لم يتخذ معه شريكًا في الإلهية ولا في الربوبية.

«**شيئًا**»؛ أي: شركًا قليلًا أو كثيرًا.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أن الرسول ﷺ يخبرنا أن من مات علىٰ التوحيد فدخوله الجنة مقطوع به، فإن كان صاحب كبيرة ومات مصرًا عليها فهو تحت مشيئة الله، فإن عفا الله عنه دخلها أولًا، وإلاَّ عذب في النار ثم أخرج منها وأدخل الجنة.

وأن من مات علىٰ الشرك الأكبر لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة ويخلد في النار، وإن كان شركًا أصغر دخل النار - إن لم يكن معه حسنات راجحة - لكن لا يخلد فيها.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه التغليظ في النهي عن الشرك مما يوجب شدة الخوف منه.

ما يستفاد من الحديث:

١- وجوب الخوف من الشرك؛ لأن النجاة من النار مشروطة بالسلامة من الشرك.

٢- أنه ليس العبرة بكثرة العمل، وإنما العبرة بالسلامة من الشرك.

٣- بيان معنىٰ لا إله إلا الله وأنه ترك الشرك وإفراد الله بالعبادة.

٤- قرب الجنة والنار من العبد ،أنه ليس بينه وبينهما إلا الموت.

٥- فضيلة من سَلِمَ الشرك.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله** «باب الخوف من الشرك»:

كل من حقق التوحيد فلابُدَّ أن يخاف من الشرك؛ ولهذا كان سيد المحققين للتوحيد محمد - عليه الصلاة والسلام- يُكثر من الدعاء بأن يبعدَ عنه الشرك، وكذلك كان إبراهيم -عليه السلام- يكثر من الدعاء؛ لئلا يدركه الشرك، أو عبادة الأصنام.

فمناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة، وهي أن تحقيق التوحيد عند أهله لابُدَّ أن يقترن به الخوف من الشرك، وقلَّ من يكون مخاطرًا بتوحيده أو غير خائف من الشرك، ويكون مع هذا علىٰ مراتب الكمال، بل لا يوجد، فكل محقق للتوحيد، وكل راغب فيه حريص عليه يخاف من الشرك، وإذا خاف من الشرك، فإن الخوف الذي هو فزع القلب وهلعه، يجعل العبد حريصًا كل الحرص علىٰ البعد عن الشرك والهروب منه. والخوف من الشرك يثمر ثمرات منها:

- أن يكون متعلمًا للشرك بأنواعه، حتىٰ لا يقع فيه.

- ومنها أن يكون متعلمًا للتوحيد بأنواعه، حتىٰ يقوم في قلبه الخوف من الشرك، ويعظُم، ويستمر علىٰ ذلك.

- ومنها أن الخائف من الشرك يكون قلبه دائم الاستقامة علىٰ طاعة الله مبتغيًا مرضاة الله، فإن عصىٰ، أو غفل كان استغفارُه استغفار من يعلم عظم شأن الاستغفار، وعظم حاجته للاستغفار؛ لأن الناس في الاستغفار أنواع، لكن من علم منهم حق الله -جل وعلا- وسعىٰ في تحقيق التوحيد وتعلم ذلك، وسعىٰ في الهروب من الشرك؛ فإنه إذا غفل وجد أنه أشد ما يكون حاجة إلىٰ الاستغفار، ولأجل صلاح هذا بوب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب الذي عنوانه: (باب الخوف من الشرك)، فكأنه يقول لك: إذا كنت تخاف الشرك كما خاف منه إبراهيم -عليه السلام- وعرفت ما توعد الله به أهل الشرك من أنه لا يغفر لهم شركهم، فينبغي لك أن تعلم وأن تتعلَّم ما سيأتي في هذا الكتاب؛ فإن هذا الكتاب موضوع لتحقيق التوحيد، وللخوف من الشرك، والبعد عنه، فما بعد هذين البابين: (باب من حقق التوحيد) و(باب الخوف من الشرك) تفصيل لهاتين المسألتين العظيمتين اللتيْن هما: تحقيق التوحيد، والخوف من الشرك، ببيان معناه، وبيان أنواعه.

وقد ذكرنا فيما سبق أن الشرك هو إشراك غير الله معه في أيِّ نوع من أنواع العبادة، وقد يكون أكبر، وقد يكون أصغر، وقد يكون خفيًّا.

❁ **قوله**: «وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨، ١١٦]»:

والمغفرة هي: الستر لما يُخاف وقوع أثره، ويقال في اللغة: غفر: إذا ستر، ومنه سُمِّي ما يوضع علىٰ الرأس مغفرًا؛ لأنه يستر الرأس، ويقيه الأثر المكروه من وقع السيف ونحوه، فمادة (المغفرة) راجعة إلىٰ ستر الأثر الذي يُخاف منه، والشرك والمعصية لهما أثرهما إما في الدنيا، وإما في الآخرة، أو فيهما جميعًا. وأعظم ما يُمَنُّ به علىٰ العبد أن يغفر ذنبه، وذلك بأن يستر عليه ويُمحىٰ عنه أثره، فلا يؤاخذ به في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة، فلولا المغفرة لهلك الناس.

ومعنىٰ قوله -جل وعلا- في هذه الآية: ﴿لَا يَغْفِرُ﴾ أي أبدًا، فقوله: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ هذا وعيد بأنه -تعالىٰ- لم يجعل مغفرته لمن أشرك به. وقد قال العلماء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ إن في هذه الآية دليلًا علىٰ أن المغفرة لا تكون لمن أشرك شركًا أكبر، أو أشرك شركًا أصغر، فإن الشرك لا يدخل تحت المغفرة، بل يكون بالموازنة، فهو لا يغفر إلا بالتوبة، فمن مات علىٰ ذلك غير تائب فهو غير مغفور له ما فعله من الشرك، وقد يغفر الله -تعالىٰ- غير الشرك كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فجعلوا الآية دليلًا علىٰ أن الشرك الأكبر والأصغر لا يدخل تحت المشيئة.

وجه الاستدلال من الآية: أن (أن) في قوله -تعالىٰ- ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ موصول حرفي، فتؤول مع الفعل الذي بعدها -وهو﴿يُشْرَكَ﴾ بمصدر كما هو معلوم- والمصدر نكرة وقع في سياق النفي، وإذا وقعت النكرة في سياق النفي عمت، قالوا: فهذا يدل علىٰ أن الشرك الذي نفي هنا يعم الأكبر، والأصغر، والخفي، فكل أنواع الشرك لا يغفرها الله -جل وعلا- وذلك لعظم خطيئة الشرك؛ لأن الله -جل وعلا- هو الذي خلق، ورزق، وأعطىٰ، وهو الذي تفضل، فكيف يتوجه القلب عنه إلىٰ غيره؟ لا شك أن هذا ظلم في حق الله -جل وعلا- ولذلك لم يغفر. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وأكثر علماء الدعوة.

وقال آخرون من أهل العلم: إن قوله هنا: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ دال علىٰ العموم، لكنه عموم مراد به خصوص الشرك الأكبر، فالمقصود بالشرك في قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ هو الشرك الأكبر فقط دون غيره، وأما ما دون الشرك الأكبر فإنه يكون داخلًا تحت المشيئة، فيكون العموم في الآية مرادًا به الخصوص؛ لأنه غالبًا ما يرد في القرآن هذا اللفظ: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ونحو ذلك، ويراد به الشرك الأكبر دون الأصغر، وهذا في الغالب -كما سبق- فالشرك غالبًا ما يطلق في القرآن علىٰ الأكبر دون الأصغر، ومن شواهد ذلك قوله -جل وعلا-: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾[المائدة: ٧٢] فقوله في الآية: ﴿يُشْرِكْ﴾ هو -أيضًا-: فعل داخل في سياق الشرط؛ فيكون عامًّا، لكن هل يدخل فيه الشرك الأصغر والخفي؟

الجواب: أنه لا يدخل بالإجماع؛ لأن تحريم الجنة، وإدخال النار، والتخليد فيها، إنما هو لأهل الموت على الشرك الأكبر، فدلنا ذلك على أن المراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢﴾[المائدة: ٧٢] أهل الإشراك بالله الشرك الأكبر، فلم يدخل فيه الأصغر، ولم يدخل ما دونه من أنواع الأصغر.

فيكون المفهوم -إذًا- من آيتي سورة النساء كالمفهوم من آية سورة المائدة، ونحوها، وهذا كقوله في سورة الحج: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ۝٣١﴾[الحج: ٣١] فهذا ونحوه وارد في الشرك الأكبر.

فيكون -على هذا القول- المراد بما نُفي هنا في قوله: ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ الشرك الأكبر.

ولما كان اختيار إمام الدعوة، كما هو اختيار عدد من المحققين كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم وغيرهما أن العموم شامل لأنواع الشرك: الأكبر، والأصغر، والخفي، كان الاستدلال بهذه الآية صحيحًا؛ لأن الشرك أنواع، وإذا كان الشرك بأنواعه لا يُغفر، فهذا يوجب الخوف منه أعظم الخوف، فإذا كان الشرك الأصغر كالحلف بغير الله، وتعليق التميمة، والحلقة، والخيط، ونحو ذلك من أنواع الشرك الأصغر، كقولك: ما شاء وشئت، ونسبة النعم إلى غير الله، إذا كان ذلك لا يُغفر فإنه يوجب أعظم الخوف كالشرك الأكبر.

وإذا كان كذلك، فيقع في الخوف من الشرك مَنْ هم على غير التوحيد، كمَنْ يعبدون غير الله، ويستغيثون بغير الله، ويتوجهون إلى غيره، ويذبحون وينذرون لغيره، ويحبون غير الله محبة العبادة، ويرجون غير الله رجاء العبادة، ويخافون خوف السر من غير الله، إلى غير ذلك من ألوان الشرك، فيكون هؤلاء أولى بالخوف من الشرك؛ لأنهم وقعوا فيما اتُّفِقَ عليه أنه لا يغفر. كما يقع في الخوف من الشرك أهل الإسلام الذين قد يقعون في بعض أنواع الشرك الخفي، أو الشرك الأصغر بأنواعه، وهم لا يشعرون، أو وهم لا يحذرون.

فإذا علم العبد المسلم أن الشرك بأنواعه لا يغفر، وأنه مؤاخذ به، وأن الصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان لا تكفر ذنب الوقوع في الشرك الأصغر، فيجب أن يعظم في قلبه الخوف منه. فإن قيل: فبماذا يُغفر إذًا؟

فالجواب: أنه لا يغفر إلا بالتوبة فقط، فإن لم يتب فثمَّة الموازنة بين الحسنات والسيئات، ولكن ما ظنكم بسيئة فيها التشريك بالله مع حسناتٍ؟ فمن ينجو من ذلك؟ لا ريب أنه لا ينجو إلا من عظمت حسناته، فزادت علىٰ سيئة ما وقع فيه من أنواع الشرك. ولا شك أن هذا يوجب الخوف الشديد من الشرك بعامة؛ لأن المرء يكون علىٰ خطر عظيم إذا وُزنت حسناته وسيئاته، ثم كان في سيئاته نوع من أنواع الشرك؛ لأن من المعلوم أن الشرك بأنواعه من حيث الجنس أعظم من كبائر الأعمال المعروفة.

فوجه الاستدلال من آية النساء وهي قوله -جل وعلا-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ أن فيها عمومًا يشمل أنواع الشرك جميعًا، وأنها كلها لا تغفر، فيكون ذلك موجبًا للخوف من الشرك، وإذا وقع أو حصل الخوف والوجل من الشرك في القلب، فإن العبد سيحرص علىٰ معرفة أنواعه حتىٰ لا يقع فيه، ويطلب معرفة أصنافه وأفراده، حتىٰ لا يقع فيها، وحتىٰ يُحذِّر أحبابه ومن حوله منها؛ لذلك كان أحب الخلق، أو أحب الناس، وخير الناس للناس من يحذرهم من هذا الأمر، ولو لم يشعروا به، ولو لم يعقلوه، قال جل وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] لأنهم يدلون الخلق علىٰ ما ينجيهم، فالذي يحب للخلق النجاة هو الذي يحذِّرهم من الشرك بأنواعه، ويدعوهم إلىٰ التوحيد بأنواعه؛ لأن هذا أعظم ما يدعىٰ إليه، ولهذا لما حصل من بعض القرىٰ في زمن إمام الدعوة تردد وشك ورجوع عن مناصرة الدعوة، وفهمِ ما جاء به الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكتبوا للشيخ وغلّظوا له القول، وقالوا: إن ما جئت به ليس بصحيح، وإنك تريد كذا وكذا -لما حصل منهم ذلك، أجابهم بكتاب قال في آخره- بعد أن شرح التوحيد وضدّه، ورغّب، ورهّب-: «**ولو كنتم تعقلون حقيقة ما دعوتكم إليه لكنت أغلىٰ عندكم من آبائكم وأمهاتكم وأبنائكم، ولكنكم قوم لا تعقلون**». انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وهو كلام صحيح، ولكن لا يعقله إلا من عرف حق الله -جل وعلا- فرحمة الله علىٰ هذا الإمام، وأجزل له المثوبة، وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء، ورفع درجته في المهديين، والنبيين، والصالحين.

❁ **قوله**: «وقال الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾[إبراهيم: ٣٥]»:

وصاحب هذه الدعوة هو إبراهيم -عليه السلام- ومرَّ في الباب قبله أن إبراهيم قد حقق التوحيد، وقد وصفه الله بأنه كان أمة قانتًا لله حنيفًا، وبأنه لم يك من المشركين، فهل يطمئن من

كان علىٰ هذه الحال إلىٰ أنه لن يعبد غير الله، ولن يعبد الأصنام، أو يظل مقيمًا علىٰ خوفه؟ وهل حال الكمّل الذين حققوا التوحيد أنهم يطمئنون أم يخافون؟ هذا إبراهيم -عليه السلام- كما في هذه الآية خاف الشرك، وخاف عبدة الأصنام، فدعا الله بقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم: ٣٥،٣٦]، فكيف بمن دون إبراهيم ممن ليس من السبعين ألفًا، وهم عامّة هذه الأمة؟ والواقع أن عامة الأمة لا يخافون من الشرك، فمن الذي يخافه -إذًا؟ الذي يخافه هو الذي يسعىٰ في تحقيق التوحيد.

قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من سادات التابعين لما تلا هذه الآية، قال: «**ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟**»(١٩٣) إذا كان إبراهيم -عليه السلام- وهو الذي حقق التوحيد، وهو الذي وُصِفَ بما وُصِفَ به، وهو الذي كسّر الأصنام بيده يخاف من الفتنة بها فمن يأمن البلاء بعده؟

إذًا فما ثم إلا غرور أهل الغرور، والمقصود: أن هذا يوجب الخوف الشديد من الشرك؛ لأن إبراهيم -عليه السلام- مع كونه سيد المحققين للتوحيد في زمانه، بل وبعد زمانه إلىٰ نبينا ﷺ ما أعطي الضمان والأمان من الوقوع في الشرك، وألا يزيغ قلبه، وكذلك الحال مع نبينا محمد ﷺ.

قوله هنا: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: ﴿ٱلْأَصْنَامَ﴾ جمع صنم، والصنم هو: ما جُعِل علىٰ صورة مما يُعبد من دون الله، كشكل وجه رجل، أو شكل جسم حيوان، أو رأس حيوان، أو صورة كوكب، أو نجم، أو شكل الشمس أو القمر ونحو ذلك، فإن ذلك كله وما أشبهه يطلق عليه أنه صنم.

والوثن هو: ما عُبد من دون الله، مما ليس علىٰ هيئة صورة، فالقبر وثن، وليس بصنم، وكذلك المشهد، أعني: مشاهد القبور عند عبّادها، فهذه أوثان وليست بأصنام.

وقد يطلق علىٰ الصنم اسم الوثن، كما قال -جل وعلا- في قصة إبراهيم في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[العنكبوت: ١٧] ولكن هذا يطلق علىٰ قلة.

---

(١٩٣) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٦).

وقال بعض أهل العلم: «هم عبدوا الأصنام، وعبدوا الأوثان جميعًا، فصار ذكر الأصنام في بعض الآيات لعبادتهم الأصنام، وذكر الأوثان في بعض الآيات لعبادتهم الأوثان». والأول أظهر في أنه قد يطلق على الصنم أنه وثن. ويدل على أن الوثن ما ليس على هيئة صورة قول النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد»(١٩٤). فدعا الله أن لا يجعل قبره وثنًا، فدل ذلك على أن الوثن ما يعبد من دون الله مما ليس على هيئة صورة.

❁ **قوله**: «وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فسئل عنه، فقال: «الرياء»»:

الرياء قسمان: رياء المسلم، ورياء المنافق.

فرياء المنافق: رياء في أصل الدين، يعني: أنه راءى بإظهار الإسلام، وأبطنَ الكفر، قال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢]ورياء المسلم الموحِّد مثل: أن يُحسِّن صلاته من أجل نظر الرجل، أو أن يُحسِّن تلاوته لأجل التسميع، ليمدح، ويُسمَّع، لا لأجل التأثير.

فالرياء مشتق من الرؤية، فجهته الرؤية، ومن صوره: أن يحسن العبادة لأجل أن يرى من المتعبدين كأن يطيل في صلاته، أو يطيل في ركوعه، أو في سجوده، أو يقرأ في صلاته أكثر من العادة لأجل أن يرى ذلك منه، أو يقوم الليل لأجل أن يقول الناس عنه إنه يقوم الليل. فهذا كله شرك أصغر.

والشرك الأصغر-الذي هو الرياء- قد يكون محبطًا لأصل العمل الذي تعبد به، وقد يكون محبطًا للزيادة التي زادها فيه.

فيكون محبطًا لأصل العمل الذي تعبد به إذا ابتدأ النية بالرياء، كمن يصلي الراتبة لأجل أن يرى أنه يصليها، وليست عنده رغبة في أن يصليها، لكن لما رأى أنه يرى صلاها، ولأجل أن يمدح لما يرى من نظر الناس إليه، فصلاته هذه حابطة ليس له فيها ثواب.

---

(١٩٤)أخرجه مالك، برقم (٤١٤)، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مرسلًا، وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٧٥٠).

لكن إذا عرض له الرياء في أثناء العبادة، فيكون ما زاده لأجل الرؤية باطلًا كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(١٩٥).

فالشاهد من حديث الباب: قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فهو أخوف الذنوب التي خافها النبي ﷺ علىٰ أهل التوحيد؛ لأنهم ما داموا أهل توحيد فإنهم ليسوا من أهل الشرك الأكبر، فيكون أشد ما يُخاف عليهم هو الشرك الأصغر. والشرك الأصغر تارة يكون في النيات، وتارة يكون في الأقوال، وتارة يكون في الأعمال، يعني أنه يكون في القلب، وفي المقال، وفي الفعال، وسيأتي في هذا الكتاب بيان أصناف كل واحد من هذه الثلاثة.

فيدلُّ قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» أنه أخوف الذنوب علىٰ هذه الأمة. لكن لماذا خافه النبي ﷺ وكان أعظم الذنوب خوفًا؟

الجواب: أنه كان كذلك لأجل أثره، وهو أنه لا يُغفر، ولأجل أن الناس قد يغفلون عنه، والشيطان حريص علىٰ إيقاع أهل التوحيد في الشرك الأصغر، ووصمهم بالرياء في الأقوال، والأعمال، والنيات. وفرحه بذلك أعظم من فرحه بغيره من الذنوب.

❁ **قوله: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار. رواه البخاري»:**

وجه الاستدلال منه: أنه قال: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا**» ودعوة الند من دون الله من الشرك الأكبر؛ لأن الدعاء عبادة، وهو من أعظم العبادات، فقد جاء في الحديث الصحيح: «**الدعاء هو العبادة**»(١٩٦) وفي معناه حديث أنس الذي في السنن، ولفظه: «**الدعاء مخُّ العبادة**»(١٩٧) فهو أعظم أنواع

---

(١٩٥) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله تعالىٰ، برقم (٢٩٨٥)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الرياء والسمعة، برقم (٤٢٠٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٩٦) أخرجه أبو داود، كتاب: سجود القرآن، باب: الدعاء، برقم (١٤٧٩)، والترمذي، كتاب: الدعوات، باب: فضل الدعاء، برقم (٣٣٧٢)، وابن ماجه، كتاب: الدعاء، باب: فضل الدعاء، برقم (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(١٩٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء، برقم (٣٣٧١)، والطبراني في

العبادة، فمن مات وهو يصرف هذه العبادة أو شيئًا منها لند من الأنداد فقد استوجب النار.

وقوله: «**دخل النار**» يعني كحال الكفار، فيكون خالدًا فيها؛ لأن المسلم إذا وقع في الشرك الأكبر فإنه يحبط عمله بذلك، ولو كان أصلح الصالحين، وقد قال -جل وعلا- لنبيه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦]فالله عظيم، والله أكبر، وخلقه كلهم محتاجون إليه، وعبيد له -سبحانه- بمن فيهم أفضلهم، وهم الأنبياء والمرسلون، فلو فرض أن أشرك نبينا ﷺلحبط عمله، ولكان في الآخرة من الخاسرين، أفلا يوجب هذا أن يخاف من هو دونه ممن يدعي الصلاح والعلم من الشرك؟!! بل قد شاع في هذه الأمة أن بعض المتسببين إلى العلم يدعو إلى الشرك ويحضُّ عليه، ويُكرِّه ويبغِّض في التوحيد، وحال هؤلاء كما قال الله -جل وعلا- عن أسلافهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝﴾ [الزمر: ٤٥]

فوجه الاستدلال ظاهر -إذًا- في قوله ﷺ: «**من مات، وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار**» وأنه يوجب الخوف؛ لأن قصد المسلم، بل قصد العاقل أن يكون ناجيًا من النار، ومتعرِّضًا لثواب الله في الجنة.

ولفظ: «**من دون الله**» يكثر وروده في القرآن والسنة، ويراد به عند علماء التفسير، وعلماء التحقيق شيئان:

١- أن تأتي بمعنى (مع) فيكون معنى «**من دون الله**» أي مع الله، وعبَّر عن المعية بلفظ: «**من دون الله**» لأن كل ما دُعي مع الله، فهو دون الله -جل وعلا- فهم دونه والله -جل وعلا- هو الأكبر، وهو الأعظم، وفي هذا دليل على بشاعة عملهم.

٢- أن تأتي بمعنى (غير) فيكون معنى «**دون الله**» أي يدعو إلهًا غير الله، يعني أنه لم يعبد الله، وأشرك معه غيره، بل دعا غيره استقلالًا، فشملت «**من دون الله**» الحالين: من دعا الله ودعا غيره، ومن دعا غير الله استقلالًا.

=

«الأوسط»، برقم (٣١٩٦)، وغيرهما من حديث أنس ﷺ، والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

❁ **قوله: «ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»:**

تقدم قريبًا أن قوله: «لا يشرك به شيئًا» فيه نوعان من العموم: عموم في أنواع الشرك ويدل عليه وقوع النكرة في سياق النفي؛ لأن لفظة: «يشرك» نكرة، وعموم -أيضًا- في المَتوجَّه إليهم، وهم المُشْرَك بهم، كما يدل عليه قوله: «شيئًا» لأنه -أيضًا- نكرة في سياق النفي.

فمعنىٰ قوله: «من لقي الله لايشرك» نفي لجميع أنواع الشرك.

ومعنىٰ قوله: «به شيئًا» أي لم يتوجه بالعبادة لأيِّ أحد، لا لملك، ولا لنبي، ولا لصالح، ولا لجني، ولا لطالح، ولا لحجر، ولا لشجر، ولا غير ذلك.

قوله: «**دخل الجنة**»

يعني: أن الله -جل وعلا- وعده بدخول الجنة برحمته سبحانه، وتفضله، وبوعده الصادق الذي لا يُخلَف.

قوله: «**ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**»

أي: إنَّ كُلَّ مشركٍ متوعَّدٌ بالنار، ووجه الدلالة مستقيم مع استدلال الشيخ بالآية؛ لأن من لقي الله وهو علىٰ شيء من الشرك الأكبر، أو الأصغر، أو الخفي فإنه سينال العقوبة والعذاب في النار -والعياذ بالله-.

قوله: «**ومن لقيه يشرك به شيئًا**»

فيه عموم -أيضًا- كما ذكرنا؛ لأن (من) هنا شرطية، و (يشرك) نكرة، فتكون عامة لأنواع الشرك، و(شيئًا) عامة في المتجَّه إليهم.

فإن قيل: علام يدل قوله: «من لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»؟ هل يدل علىٰ أن دخوله أبدي، أو أمدي؟

فالجواب: أن ذلك بحسب نوع الشرك، فإن كان الشرك أكبر ومات عليه فإنه يدخل النار دخولًا أبديًّا، وإن كان الشرك أصغر، أو خفيًّا فإنه يكون متوعدًا بالنار، أي: سيدخل النار ويخرج منها؛ لأنه من أهل التوحيد.

وهل يدخل الشرك الأصغر في الموازنة أو لا؟ تقدم الجواب أن الشرك الأصغر يدخل في موازنة الحسنات والسيئات، وأنه إذا رجحت حسناته فإنه لا يعذب علىٰ الشرك الأصغر. لكن هذا ليس في حق كل أحد من الخلق، فإن منهم من يعذب علىٰ الشرك الأصغر؛ لأن الموازنة بين الحسنات والسيئات ليست شاملة لكل الخلق، وليست شاملة -أيضًا- لكل الذنوب، بل قد يكون من الذنوب ما يستوجب النار، ولو رجحت الحسنات علىٰ السيئات؛ فإنه يستوجب الجنة. ولكن لأبُدَّ من أن يطهر في النار. وهذا دليل علىٰ وجوب الخوف من الشرك؛ لأن قوله: «**من لقي الله يشرك به شيئًا دخل النار**» يشمل الشرك الأكبر والأصغر والخفي، فعلىٰ المرء أن يطلب الهرب من الشرك بجميع أنواعه، ويسعىٰ إلىٰ ذلك جهده.

وعلىٰ المرء -أيضًا- أن يستعيذ بالله -جل وعلا- من الشرك الأصغر والخفي بقوله: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا أعلمه، وأستغفرك مما لا أعلم**»[(١٩٨)]. لأنه إذا علم فأشرك، فإنه سيترتب الأثر الذي ذكرناه، وهو عدم المغفرة، ففي هذا الدعاء الذي علمناه رسولنا -عليه الصلاة والسلام- التفريق بين الشرك الأصغر مع العلم، والشرك الأصغر مع الجهل؛ ولذا قال: «**أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا أعلمه**» لأن أمر الشرك الأصغر مع العلم عظيم فيجب أن يستعيذ المرء بالله من أن يشرك به شركًا أصغر، فما هو أعلىٰ منه من باب أولىٰ، وهو يعلم.

ثم قال: «**وأستغفرك مما لا أعلم**» قد يقع في الشرك الأصغر أو الخفي، وهو لا يعلم، ويظهر شيء من ذلك علىٰ فلتات لسانه، وهو لا يقصد، ولمثل ذلك شُرع هذا الدعاء.

فهذا يدل علىٰ أن الشرك أمره عظيم، فلا يتهاوننَّ أحد بهذا الأمر؛ لأن من تهاون بالشرك وبالتوحيد، فإنه يكون متهاونًا بأصل دين الإسلام، بل يكون متهاونًا بالذي دعا إليه النبي ﷺ في مكة سنين عددًا، بل يكون متهاونًا بدعوة الأنبياء والمرسلين؛ فإنهم اجتمعوا علىٰ شيء واحد، وهو العقيدة وتوحيد العبادة والربوبية والأسماء والصفات، وأما الشرائع فشتىٰ.

---

(١٩٨) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٣)، والطبراني في «الأوسط»(٣٤٧٩)، وابن أبي شيبة(٣٠١٦٣) بنحو من حديث أبي موسىٰ، وقال الهيثمي في «المجمع»(١٠/ ٣٨٤):(رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، ووثقه ابن حبان)، وحسنه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب »(٣٦).

لهذا وجب عليك الحذر كل الحذر من الشرك وأنواعه، وأن تتعلم ضده وأن تتعلم -أيضًا- أفراد الشرك، وأفراد التوحيد، وبذلك يتم العلم، ويستقيم العمل. وأما تعلّم ذلك علىٰ وجه الإجمال، فهذا كما يقال: نحن علىٰ الفطرة، لكن إذا أتت الأفراد فربما رأيت بعض الناس يخوضون في بعض الأقوال أو الأعمال التي هي من جنس الشرك، وهم لا يشعرون؛ وذلك لعدم خوفهم وهربهم من الشرك، نسأل الله -جل وعلا- العفو والعافية.

فاحرص -إذًا- علىٰ تعلّم هذا الكتاب ومدارسته، وعلىٰ كثرة مذاكرته، وفهم ما فيه من الحجج والبينات؛ لأنه أفضل ما تودعه صدرك، بعد كتاب الله -جل وعلا- وسنة نبيه ﷺ فلعلّه أن يكون -إن شاء الله- سببًا عظيمًا من أسباب النجاة والفلاح.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك، أي: لكون الله أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، فهذا يوجب الحذر منه ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**».

الثانية: أن الرياء من الشرك، أي لقوله: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فسئل عنه فقال: الرياء.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر، أي لقوله: « **أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» إلخ.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين، أي: لكون النبي ﷺ خافه على الصحابة مع فضلهم وسابقتهم، فكيف بغيرهم؟!

الخامسة: قرب الجنة والنار، أي: حيث أخبر أن من مات غير مشرك دخل الجنة، ومن مات مشركًا دخل النار، فلم يجعل بينه وبينهما شيئًا إلا الموت على ذلك.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد، أي: كما في حديث جابر.

السابعة: أنه من لقيه لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، أي: لكونه من أهل التوحيد، وأهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار ولو كان من أعبد الناس أي: لأن الشرك يحبط الأعمال فلا تنفعه عبادته.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام، أي: إذا كان إبراهيم الذي أثنى الله عليه بما أثنى قد خاف على نفسه وعلى بنيه الذين منهم الأنبياء عبادة الأصنام، فكيف بغيره ؟! كما قال إبراهيم التيمي: «**ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم**».

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾[إبراهيم:٣٦]، أي: إن سبب خوفه من ذلك أن الأكثر قد ضل بعبادة الأصنام، فلم يتخلص منها إلا القليل من الناس.

العاشرة: فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاري، أي: إنها تقتضي إفراد الله بالعبادة، وأن لا يشرك به شيء من خلقه، ولا يجعل له ند منهم.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك، أي: إنه من سلم منه دخل الجنة.

* الأسئلة *

س: اذكر مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: لما كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر وأنها لا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه ذكر المؤلف أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه أعظم خوف وأن يسعىٰ في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه ويُسأل الله العافية منه كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق.

س: اذكر أنواع الشرك مع التعريف لكل نوع؟

جـ - الشرك نوعان أكبر وهو أن يجعل لله شريكًا في عبادته يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يحبه كمحبة الله أو يصرف له نوعًا من أنواع العبادة فهذا المشرك الذي حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

الثاني الشرك الأصغر وهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلىٰ الشرك الأكبر كالحلف بغير الله ويسير الرياء وعدم الإخلاص في العمل لله.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨].

س: اشرح هذه الآية واذكر ما يستفاد منها وبين مناسبتها لهذا الباب؟

جـ - يخبر الله تعالىٰ أنه لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك وأنه يغفر ما دون الشرك من الذنوب لمن يشاء من عباده.

وتفيد الآية أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالىٰ أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه وأن ما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به وإن شاء عذبه به وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله.

ومناسبة الآية للباب: أنها جاءت مخوفة ومحذرة من الشرك وأبانت أن الله لا يغفر هذا النوع من المعاصي.

قوله: «وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥]».

س: من هو الخليل وما المراد بالأصنام، اشرح هذه الآية وبين مناسبتها للباب؟

جـ: الخليل: هو الذي تخللت محبته القلب ونفذت إليه مأخوذ من الخلة وهي خالص المحبة.

والأصنام: جمع صنم وهو ما كان منحوتًا على هيئة صورة وعبد من دون الله وقيل هو عام فيما عبد من دون الله وإن لم يكن منحوتًا على هيئة صورة.

ومعنى الآية: اجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام وباعد بيننا وبينها.

ومناسبتها للباب: هي أنه إذا كان خليل الرحمن الذي كان يكسر الأصنام بيده اشتد خوفه على نفسه وعلى بنيه من الشرك بسبب الافتتان بالأصنام فسأل الله له ولبنيه وقاية عبادتها فنحن أولى بالخوف منه لضعف إيماننا.

قوله: «وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ...»[(١٩٩)] رواه أحمد وغيره».

س: ما هو الرياء؟ ولماذا خافه النبي ﷺ على أصحابه واذكر علاقة الحديث بالباب؟

جـ: الرياء مأخوذ من الرؤية وهي أن يتظاهر الإنسان بالأعمال الصالحة ليحمده الناس وخافه النبي ﷺ على أصحابه؛ لأنه أكثر موافقة للنفس ومحبة لها وأسهل للنفوذ إليها.

وعلاقة الحديث بالباب: أنه إذا كان الشرك الأصغر مخوفًا على الصحابة مع كمال إيمانهم فينبغي لك أيها المسلم أن تخاف من الأكبر والأصغر لضعف الإيمان.

«وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو لله ندًا دخل النار»[(٢٠٠)] رواه البخاري.

س: اشرح هذا الحديث وما الذي يخرج قوله من مات وما معنى الدعاء هنا وما المقصود بالند وما علاقة الحديث بالباب وما الذي يستفاد منه؟

جـ: أخبر ﷺ أن من أشرك بالله ومات على الشرك ولم يتب دخل النار، ويُخرِج قوله: «من مات»: من تاب قبل أن يموت. ومعنى الدعاء هنا: صرف أي نوعٍ من أنواع العبادة لغير الله. والند: هو الشبيه والمثيل.

---

(١٩٩)سبق تخريجه.

(٢٠٠)سبق تخريجه.

وعلاقة الحديث بالباب: أنه جاء محذرًا ومخوفًا من الشرك في أي نوع من أنواعه.

ويستفاد منه: أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر.

❁ قوله: «عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به...» رواه مسلم [٢٠١].

س: ما معنى لقي الله ومتى يكون هذا اللقاء؟ ما الذي يفيده النفي وما علاقة هذا الحديث بالباب.

جـ: معنىٰ لقي الله: واجهه وقابله وهذا اللقاء يكون يوم القيامة، ويفيد النفي إثبات ضد المنفي وهو التوحيد؛ أي: لقي الله موحدًا، وعلاقة الحديث بالباب أنه أفاد أن من مات مشركًا فهو من أهل النار وذلك يوجب شدة الخوف من الشرك.

س: اذكر ما يستفاد من الآيات والأحاديث المذكورة في هذا الباب؟

جـ: يستفاد منها:

١ - الخوف من الشرك.

٢ - أن الرياء من الشرك الأصغر.

٣ - أنه أخوف ما يخاف منه علىٰ الصالحين.

٤ - قرب الجنة والنار.

٥ - فضيلة من سلم من الشرك.

٦ - شفقة النبي ﷺ علىٰ أمته فلا خير إلا دلهم عليه ولا شر إلا حذرهم منه.

٧ - أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر.

٨ - أن من تاب من الذنب قبل أن يموت تاب الله عليه.



(٢٠١) سبق تخريجه.

الدرس الخامس:

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ...﴾ الآية [يوسف:١٠٨]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن، قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»

وفي رواية: «إلى أن يوحدوا الله. فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(٢٠٢). أخرجاه.

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله؛ يفتح الله على يديه». فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيهم يعطاها؟ فلما أصبحوا؛ غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: «أين علي بن أبي طالب؟». فقيل هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأُتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، وقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله، لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمْرِ النَّعَمِ»(٢٠٣).

(يدوكون)؛ أي: يخوضون.

---

(٢٠٢) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، برقم (١٣٩٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم (١٩)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢٠٣) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام...، برقم (٢٩٤٢)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، برقم (٢٤٠٦)، وغيرهما من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

فيه مسائل:

الأولىٰ: أن الدعوة إلىٰ الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ.

الثانية: التنبيه علىٰ الإخلاص؛ لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلىٰ الحق، فهو يدعو إلىٰ نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهًا لله تعالىٰ عن المسبة.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله.

السادسة: - وهي من أهمها -: إبعاد المسلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أنه يبدأ به قبل كل شيء، حتىٰ الصلاة.

التاسعة: أن معنىٰ: «أن يوحدوا الله»: معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب[٢٠٤] وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

الحادية عشرة: التنبيه علىٰ التعليم بالتدريج.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرىٰ علىٰ سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

---

(٢٠٤) في نسخة السعدي: «الكتب»، والمثبت من نسخة ابن عثيمين.

التاسعة عشرة: قوله: «لأعطين الراية...» إلخ: علم من أعلام النبوة.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضًا.

الحادية والعشرون: فضيلة علي رضي الله عنه.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر؛ لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعىٰ.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «علىٰ رسلك».

الخامسة والعشرون: الدعوة إلىٰ الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة؛ لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم».

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدىٰ علىٰ يديه رجل واحد.

الثلاثون: الحلف علىٰ الفتيا.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله»:

لما ذكر المصنف التوحيد وفضله وتحقيقه وما يوجب الخوف من ضده، نبه بهذه الترجمة علىٰ أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر علىٰ نفسه، فإن الرجل إذا علم وجب عليه العمل، فإذا علم وعمل وجبت عليه الدعوة إلىٰ الله، حتىٰ يكون من ورثة الأنبياء وعلىٰ طريقهم وطريق أتباعهم، قال الحسن لما تلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[فصلت:٣٣]، قال: «هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلىٰ الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلىٰ ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا في إجابته»، وقال: ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت:٣٣] هذا خليفة الله. والدعوة إلىٰ الله هي الدعوة إلىٰ توحيده والإيمان به وبما جاءت به رسله، وذلك يتضمن الدعوة إلىٰ أركان الإسلام وأصول الإيمان والإحسان، بل الأمر بما أمر به، والنهي عما نهىٰ عنه، ولا

تتم إلا بذلك، وأول ما يبدأ به الدعوة إلىٰ التوحيد الذي هو معنىٰ الشهادة، كما كان شأن المرسلين وأتباعهم كالمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾» الآية:

يقول الله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: قل: يا محمد هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلىٰ توحيد الله وإخلاص العبادة لله وحده طريقتي ومسلكي ودعوتي إلىٰ الله وحده لا شريك له، لا إلىٰ حظ ولا رياسة، بل إلىٰ الله، علىٰ بصيرة بذلك ويقين وبرهان وعلم مني به ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ أي: ويدعو إليه علىٰ بصيرة أيضًا من اتبعني وصدقني وآمن بي، والبصيرة المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل، وهي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة وهي أعلىٰ درجات العلماء. ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنزه الله وأعظمه وأقدسه وأجله عن أن يكون له شريك في ملكه أو نظير أو نديد، تعالىٰ وتقدس عن ذلك علوا كبيرا. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨] في الاعتقاد والعمل والمسكن، لست منهم ولا هم مني، بأي: نسبة كانوا بحيث لا يعد منهم بوجه من الوجوه، إن نظر في الاجتماعات فليس منهم، وإن جلسوا في المجالس فليس منهم، وإن خرجوا إلىٰ المحافل فليس منهم، فليس منهم في أي: حال من الأحوال، وفيه وجوب الهجرة، وهو معلوم بالكتاب والسنة والإجماع، وبذلك يظهر وجه المطابقة بين الآية والترجمة. والنصوص في الدعوة إلىٰ الله كثيرة كقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[النحل:١٢٥]، وقوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت:٣٣]، وهي واجبة علىٰ من اتبعه أن يدعو إلىٰ الله كما دعا إليه. وذكر ابن القيم أن مراتب الدعوة ثلاثة أقسام: وذلك بحسب حال المدعو، فإنه إما أن يكون طالبًا للحق محبًا له مؤثرًا له علىٰ غيره إذا عرفه، فهذا يدعىٰ بالحكمة، ولا يحتاج إلىٰ موعظة وجدال، وإما أن يكون مشتغلًا بضد الحق لكن لو عرفه آثره واتبعه؛ فهذا يحتاج إلىٰ الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معاندًا معارضًا، فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع وإلا انتقل معه إلىٰ الجلاد إن أمكن.

ولا بد في الدعوة إلىٰ الله من شرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، وأن تكون علىٰ وفق سنة رسول الله ﷺ وأن يكون الداعي عارفًا بما يدعو إليه، فإن أخل بالأول كان مشركًا، وإن أخل بالثاني كان مبتدعًا.

وقال الشيخ: يحتاج إلىٰ شروط كما في الحديث، ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر أن يكون فقيهًا فيما يأمر به، فقيهًا فيما ينهىٰ عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهىٰ عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهىٰ عنه؛ فالفقه قبل الأمر: ليعرف المعروف فيأمر به، ويعرف المنكر فينكره، والرفق عند الأمر: ليسلك أقرب الطرق إلىٰ تحصيل المقصود، والحلم بعد الأمر: ليصبر علىٰ أذىٰ المأمور المنهي.

وقال المصنف: فيه أن الدعوة إلىٰ الله طريق من اتبعه ﷺ وفيه التنبيه علىٰ الإخلاص؛ لأن كثيرًا لو دعا إلىٰ الحق فهو يدعو إلىٰ نفسه، وأن البصيرة من الفرائض، وأن من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهًا لله عن المسبة. وأن من دلائل قبح الشرك كونه مسبة لله، وفيه إبعاد المسلم عن المشركين ألا يصير منهم ولو لم يشرك.

قوله: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلىٰ اليمن»:

أرسله داعيًا إلىٰ الله سنة عشر قبل حجه ﷺ ولم يزل علىٰ اليمن واليًا وقاضيًا إلىٰ أن قدم في خلافة أبي بكر، ثم توجه إلىٰ الشام فمات بها. قال الشيخ: «ومن فضائله أنه بعثه إلىٰ اليمن مبلغًا عنه ومفقهًا ومعلمًا وحاكمًا. اهـ. وفيه مشروعية بعث الإمام الدعاة إلىٰ الجهات يدعون إلىٰ الله، بل يتعين عليه بتأكد.

قوله: «قال له: إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»:

يعني بذلك اليهود والنصارىٰ؛ لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب، وقد أوتوا علومًا في أصول الأديان وفروعها، وليسوا أميين كسائر العرب، فنبهه علىٰ ذلك ليتهيأ لمناظرتهم، يعني: خذ أهبتك لهم، فإنهم أهل علم، ليسوا كغيرهم. وقال الحافظ: هو كالتوطئة للوصية ليجمع همته عليها.

قوله: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»:

فإنه لا بد أن يأتوك بعلوم وأشياء، ولكن لا يكن همك إلا هذا الشأن. و «شهادة» بالرفع علىٰ أنه اسم يكن مؤخر، و«أول» خبرها، ويجوز العكس.

قوله: «وفي رواية إلىٰ أن يوحدوا الله»:

هذه الرواية في كتاب التوحيد من «صحيح البخاري»، أشار بها المصنف إلىٰ التنبيه علىٰ معنىٰ شهادة ألا إله إلا الله، فإن معناها توحيد الله بالعبادة ونفي عبادة ما سواه، وفي رواية: **«فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله»**[٢٠٥]، وذلك هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، وفي رواية للبخاري: **«ادعهم إلىٰ شهادة ألا إله إلا الله وأني رسول الله»**[٢٠٦]، فهذه الروايات يفسر بعضها بعضًا، والمراد بذلك العلم والعمل بها

---

(٢٠٥) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، برقم (١٤٥٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلىٰ الشهادتين...، برقم (١٩) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢٠٦) سبق تخريجه.

دلت عليه، من إفراد الله بالعبادة، بخلاف من قال: أول واجب النظر في الوجود، أو القصد إلى النظر، فلا واجب على المكلفين أعظم من التوحيد علمًا وعملًا، ومن أدلته هذا النص وغيره؛ فإن قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله**» مع قوله: «**إنك تأتي قوما من أهل الكتاب**» يعني أنهم أهل علوم وكتب وحجج، ومع ذلك أمره أن يدعوهم إلى إفراد الله بالعبادة؛ لكونهم محتاجين إلى أن تبين لهم ذلك، فإن منهم من يجهله، أو يعلمه ولكن الشهوة تمنعه من ذلك، وحب المال والجاه والرياسة والعياذ بالله، وفيه أنه لا يحكم بإسلام شخص إلا بالنطق بالشهادتين كما هو مذهب أهل السنة. وقال الشيخ: قد علم بالإضرار من دين الرسول، واتفقت الأمة أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلمًا، وإذا لم يتكلم مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين. قال المصنف: وفيه أن التوحيد أول واجب، والنبي ﷺ أخذ عشر سنين كلها في الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن ضده وهو الشرك، وفيه أن الإنسان قد يكون من أهل العلم، وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها، والتنبيه على التعليم بالتدريج، والبداءة بالأهم فالأهم.

❁ **قوله: «فإن هم أطاعوك لذلك»:**

أي: شهدوا وانقادوا لذلك، وكفروا بما يعبد من دون الله.

❁ **قوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة»:**

ثنى بالأعمال بعد التوحيد لأنها لا تصح بدونه، فهو شرط لصحة جميع الأعمال. وفيه أن الصلاة أول واجب بعد الشهادتين، وأن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام، فإن حصل دعي إلى الصلاة، وإلا لم يدع إليها، فإن الصلاة وغيرها من سائر الأعمال لا تصح بدونه، ولا يلزم من ذلك ألا يكون الكفار مخاطبين بها، ويزاد في عذابهم، وجمهور العلماء على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، المأمور بها والمنهي عنها، كالتوحيد إجماعا لقوله: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر:٤٣].

❁ **قوله: «فإن هم أطاعوك لذلك»:**

وأقاموا الصلاة الشرعية، وفي رواية الفضل بن العلاء: «**فإذا صلوا**».

❁ **قوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»:**

فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلاة، وقرنها الله بالصلاة في أكثر من ثمانين موضعًا من كتابه، منها: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة:٥].

وعن ابن مسعود مرفوعًا: «**أمرت بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له**». وحديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا

الزكاة»(٢٠٧). وفيه أنها تؤخذ من الأغنياء فترد على الفقراء، وهو محتمل لفقراء المسلمين، وفقراء تلك البلدة، والمحلة، والقبيلة، والطائفة. وأنه يكفي إخراجها في صنف واحد، بل دلت السنة على جواز دفعها إلى شخص واحد؛ وإنما خص الفقراء لأنهم أكثر من تدفع إليهم، ولأن حقهم آكد من بقية الأصناف الثمانية. وفيه أن الإمام أو نائبه هو الذي يتولى قبضها، ومن امتنع منها أخذت منه قهرًا.

❁ **قوله**: «فإن هم أطاعوك لذلك»:

أي: أدوا الزكاة المشروعة فاقبلها منهم، وفي رواية الفضل: **«فإذا أقروا بذلك فخذ منهم»**(٢٠٨).

❁ **قوله**: «فإياك وكرائم أموالهم»:

في أخذ الزكاة، بنصب «كرائم» على التحذير، جمع كريمة خيار المال، وفي المطالع: هي الجامعة للكمال الممكن في حقها، من غزارة لبن، وجمال صورة، أو كثرة لحم وصوف. وفيه أنه يحرم على العامل أخذ كرائم الأموال، ويحرم على صاحبه إخراج شراره، بل الوسط؛ لأن ذلك سبب لإخراجها بطيب نفس، ونية صحيحة، فإن طابت نفسه بالكريمة جاز.

❁ **قوله**: «واتق دعوة المظلوم»:

أي: اجعل العدل وترك الظلم وقاية بينك وبين الله تقيك دعوة المظلوم، والمتقي من اتقى الله في عمله، ففعل كما أمر خالصاً لله. وفيه التنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم، فيجب على كل عامل وغيره أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه، فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق، ولا يحابي بترك شيء منه.

❁ **قوله**: «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»:

أي: فإن دعوة المظلوم لا ترد ولا تحجب عن الله ﷻ. وفيه مشروعية بعث الإمام العمال لجباية الزكاة، وأنه يعظ عماله وولاته، ويأمرهم بتقوى الله، وينهاهم عن الظلم، ولم يذكر في هذا الحديث الصوم والحج. قال الشيخ: أجاب بعض الناس أن بعض الرواة اختصره وليس كذلك، ولكن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتان ثم الصلاة؛ ولهذا لم يذكر وجوب الحج في عامة الأحاديث، إنما جاء في

---

(٢٠٧) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، برقم (٢٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، برقم (٢٢)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢٠٨) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، برقم (٧٣٧٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الأحاديث المتأخرة، أو أنه يذكر في كل مقام ما يناسبه، فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها كالصلاة والزكاة، وتارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم، فإما أن يكون قبل فرض الحج، وإما أن يكون المخاطب لا حج عليه، وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض؛ ولهذا ذكر تعالىٰ في كتابه القتال عليهما؛ لأنهما عبادتان ظاهرتان. ولما بعث معاذا إلىٰ اليمن لم يذكر في حديثه الصوم؛ لأنه تبع وهو باطن، ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام، ولا يجب في العمر إلا مرة.

❁ **قوله**: «ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه»:

ابن مالك بن خالد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، صحابي شهير، وأبوه صحابي أيضًا، ذكر سهل أنه مات النبي ﷺ وهو ابن خمس عشرة، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة سنة ٨٨، وقيل: ٩١ هـ، وقد جاوز المائة، روىٰ عنه ابن عباس وأبو هريرة وابن المسيب والزهري وغيرهم.

❁ **قوله**: «أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر»:

أي: قال يوم حصار خيبر سنة ٧ هـ وفي «الصحيحين» عن سلمة بن الأكوع قال: كان علي رضي الله عنه قد تخلف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان أرمد، وقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ!؟ فخرج علي فلحق بالنبي ﷺ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله ﷻ في صباحها، قال ﷺ: «**لأعطين الراية -أو ليأخذن الراية- غدا رجلا يحبه الله ورسوله، أو قال: يحب الله ورسوله، يفتح الله علىٰ يديه، فإذا نحن بعلي وما نرجوه، فقالوا: هذا علي، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية، ففتح الله عليه**»[٢٠٩].

وفي رواية بريدة: «**إني دافع اللواء إلىٰ رجل يحبه الله ورسوله**»[٢١٠]. وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادف الراية واللواء، لكن روىٰ أحمد والترمذي من حديث ابن عباس: كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض، وعن أبي هريرة: مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله، والراية علم الجيش، يرجعون إليه عند الكر والفر، جمعها رايات، وكذا لواء الجيش علمه، وهو دون الراية، سمي لواء لأنه يلوىٰ لكبره فلا ينشر إلا عند الحاجة، والغد اليوم التالي ليومك علىٰ أثره. والمحبة مواطأة القلب علىٰ ما يرضىٰ الرب، وأصلها الميل إلىٰ ما يوافق المحب، وفيه فضيلة

---

(٢٠٩) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في لواء النبي ﷺ، برقم (٢٩٧٥)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، برقم (٢٤٠٧)، وغيرهما من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

(٢١٠) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٣) من حديث أبي بريدة رضي الله عنه.

علي رضي الله عنه وزيادة منقبته؛ لشهادة رسول الله ﷺ له بذلك بخصوصه. قال الشيخ: هذا أصح حديث روي لعلي من الفضائل، وليس هذا الوصف مختصًا به، ولا بالأئمة؛ فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي يحب الله ورسوله، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به علىٰ النواصب الذين لا يتولونه، أو يكفرونه أو يفسقونه كالخوارج، وفيه إثبات صفة المحبة خلافًا للجهمية.

❁ **قوله: «يفتح الله علىٰ يديه»:**

أخبرهم ﷺ علىٰ وجه البشارة بحصول الفتح، وكان قد اشتد عليهم الحصار، فهو علم من أعلام النبوة؛ لإخباره عنه قبل وقوعه في وقت مخصوص، فوقع طبق ما أخبر به ﷺ.

❁ **قوله: «فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها»:**

بنصب «**ليلة**»، ورفع «**أي**» علىٰ البناء، لإضافتها وحذف صدر صلتها، أي: سهروا تلك الليلة يبحثون ويتفاوضون، ويتناظرون فيمن سيعطاها. قال المصنف: يدوكون؛ أي: يخوضون؛ يعني: فيمن يدفعها إليه، وفيه يقال: داك القوم يدوكون، إذا وقعوا في اختلاط واضطراب ودوران. وخاضوا في الحديث تفاوضوا فيه؛ وفيه حرص الصحابة علىٰ الخير، واهتمامهم به، وعلو مرتبتهم في العلم والإيمان، فينبغي التنافس في الخير، وعلو الهمة في طلبه.

❁ **قوله: «كلهم يرجو أن يعطاها»:**

حرصًا عليه لكونه محبوبًا عند الله، وتفتح هذه البلدة علىٰ يديه؛ ففيه أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافي التوكل. وفي رواية لمسلم: أن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ؛ رغبة فيما أخبر به الرسول ﷺ **فإن قيل**: إذا كان هذا ليس من خصائص علي رضي الله عنه فلم تمناه بعض الصحابة؟ أجاب شيخ الإسلام بأنه إذا شهد النبي ﷺ لمعين بشهادة، أو دعا له بدعاء، أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة، ومثل ذلك الدعاء، وإن كان يشهد ويدعو لخلق كثير، ولكن تعيينه الشخص من أعظم فضائله. قال المصنف: وفيه فضيلة علي يعني لشهادته له علىٰ التعيين.

❁ **قوله: «فقال: أين علي بن أبي طالب»:**

هو ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء، الخليفة الرابع، من أسبق السابقين، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ومناقبه مشهورة، قتله ابن ملجم في رمضان سنة ٤٠ هـ، وفيه سؤال الإمام عن رعيته، وتفقد أحوالهم، وسؤاله عنهم في مجامع الخير.

قوله: «فقيل: هو يشتكي عينيه»:

أي: من الرمد كما تقدم. وفي «صحيح مسلم»: فأتىٰ به أرمد. وفيه عن سلمة: فأرسلني إلىٰ علي، فجئت به أقوده أرمد، فبصق في عينيه فبرأ.

قوله: «فأرسلوا إليه»:من يأتيه به، قال الشارح: وفي نسخة بخط المصنف: فأُرْسِل إليه. مبني للفاعل، ويحتمل أنه لما لم يسم فاعله.

قوله: «فبصق في عينيه»:

بفتح «الصاد»؛ أي: بزق، ويقال: بزق ثم تفل ثم نفث ثم نفخ.

قوله: «ودعا له فبرأ»:

بفتح الراء والهمزة، أي: عوفي في الحال عافية كاملة.

قوله: «كأن لم يكن به وجع»:

من رمد ولا ضعف بصر، وذلك بدعوة النبي ﷺ كما في الحديث: «فدعا له فاستجيب له». وللطبراني عن علي: «فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبي ﷺ إلي الراية». وفيه علم من أعلام النبوة.

قوله: «وأعطاه الراية»:

أي: دفعها إليه مع ما به من وجع العين، ولم يسع في طلبها. قال المصنف: فيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ومنعها ممن سعىٰ.

قوله: «حتىٰ تنزل بساحتهم»:

بضم «الفاء» وكسر «الراء» وسكون «السين»، أي: امض برفق وتؤدة ولين، متمهلًا علىٰ رسلك، من غير عجلة ولا طيش حتىٰ تنزل بساحتهم، وساحة القوم وسوحهم ما قرب من حصونهم، وفيه الأدب عند القتال، وترك الطيش والأصوات المزعجة، وأمر الإمام عماله بالرفق واللين، من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة.

قوله: «ثم ادعهم إلىٰ الإسلام»:

أي: والإيمان فإن الإسلام إذا أفرد دخل فيه الإيمان، كما أنه إذا أفرد الإيمان دخل فيه الإسلام بلا نزاع، والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والخضوع له، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وأصل الإسلام هو التوحيد، وهو معنىٰ شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإن شئت قلت: هو شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وما

اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده دون ما سواه، فإن من عبد معه غيره لم يكن مسلمًا، والطاعة لرسوله ﷺ فيما أمر، واجتناب ما عنه نهىٰ وزجر، وهذا هو الشاهد للترجمة. وهكذا ينبغي لأهل الإسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق إلىٰ الإسلام والدخول فيه، وفيه مشروعية الدعوة قبل القتال، وإن كانوا قد دعوا قبل ذلك، فيندب إعادة الدعوة؛ ليعلم المشركون أن قصد المسلمين لهم بالدعوة والقتال هو دخولهم في الإسلام، ليس المراد التشفي منهم وأخذ أموالهم، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء؛ لأن النبي ﷺ أغار علىٰ بني المصطلق وهم غارون. فالدعوة دعوتان: واجبة وهي دعوة التبليغ، ومندوبة وهي تبليغهم قبل القتال كما فعل علي رضي الله عنه.

❁ **قوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالىٰ فيه»:**

أي: في الإسلام إذا أجابوك إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التي لا بد لهم من فعلها، كالصلاة والزكاة وغيرهما من شرائع الإسلام، بقوله: **«فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»**(٢١١)، فإن امتنعوا عن شيء من حقها فالقتال باقٍ، فالنطق بالشهادتين سبب العصمة، لا أنه نفسه العصمة، أو هو العصمة لكن بشرط العمل؛ فإن لله حقوقًا في الإسلام من لم يأت بها لم يكن مسلمًا. وفيه أيضًا بعث الإمام الدعاة إلىٰ الله كما فعل النبي ﷺ وخلفاؤه. قال عمر: والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم.

❁ **قوله: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»:**

أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر في محل رفع علىٰ الابتداء، والخبر خير. وحمر بضم «الحاء» المهملة وسكون «الميم»، والنعم بفتح «النون» و«العين»؛ أي: هداية رجل علىٰ يديك خير لك من الإبل الحمر، وإنما عبر بها لأنها أنفس أموال العرب إذ ذاك. وكانوا يضربون بها المثل، والمراد خير من الدنيا وما عليها. وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا للتقريب إلىٰ الإفهام، وإلا فذرة من ذرات الآخرة خير من الدنيا بأسرها وأمثالها معها. وفيه الترغيب في الدعوة إلىٰ الله لتحصل للداعي هذه الفضيلة

---

(٢١١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله...، برقم (٣٥/ ٢١)، من حديث جابر رضي الله عنه.

بهداية رجل واحد؛ ولهذا حلف النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق ولو لم يحلف، ترغيبًا في هذا العمل وحضًّا عليه، ولو لم يهتد بالدعوة إلا رجل واحد، فكيف بهداية الفئام؟ كما وقع للمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وغيره من أئمة الدين. وفيه جواز الحلف على الخبر والفتيا ولو لم يستحلف.

۞ **قوله: «يدوكون؛ أي يخوضون»:**

فسر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه اللفظة بأن المراد خوض السامعين، وبحثهم في هذا الخير وتمني حصوله.

قال العلامة ابن سعدي:

۞ **قوله: «باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله»:**

وهذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة، فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله، والحث عليه وعلى تكميله، والتحقق به ظاهرًا وباطنًا والخوف من ضده: وبذلك يكمل العبد في نفسه.

ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة «أن لا إله إلا الله» فإنه لا يتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه، ثم يسعى في تكميل غيره، وهذا هو طريق جميع الأنبياء؛ فإنهم أول ما يدعون قومهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهي طريقة سيدهم وإمامهم ﷺ؛ لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، ولم يفتر ولم يضعف حتى أقام الله به الدين وهدى به الخلق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، وكان يدعو بنفسه، ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى الله وإلى توحيده قبل كل شيء؛ لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها على التوحيد.

فكما أن على العبد أن يقوم بتوحيد الله، فعليه أن يدعو العباد إلى الله بالتي هي أحسن، وكل من اهتدى على يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

وإذا كانت الدعوة إلى الله وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضًا على كل أحد، كان الواجب على كل أحد بحسب مقدوره؛ فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم، وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]؛ ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله**: «**باب الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله**»:

أي: باب وجوب فضيلة الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ لأنها أختها.

فمراد المؤلف الدعوة إلىٰ التوحيد وإلىٰ اتباع الرسول وهذا واجب علىٰ العلماء وفرض عليهم.

وهذا أخذه المؤلف من الكتاب والسنة كقوله: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾[النحل:١٢٥] ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾[يوسف:١٠٨] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[فصلت:٣٣].

فالواجب أن يدعو العلماء إلىٰ توحيد الله والإخلاص له وترك الإشراك معه وإلىٰ الإيمان بالرسول ﷺ وتصديقه واتباع ما جاء به وترك مخالفته.

❁ **قوله**: «﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾[يوسف:١٠٨] **الآية**»:

الخطاب للنبي ﷺ ولأمته؛ أي: قل هذه طريقتي ومحجتي التي أنا عليها من توحيد الله والإخلاص له وإيتاء الزكاة وغيرها، وهذا هو سبيل الله وصراطه المستقيم وهو الإسلام والهدىٰ والإيمان.

﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾: لا إلىٰ ملك أو حظ أو مال أو شأن من شئون الدنيا بل إلىٰ توحيد الله، واتباع شرعه.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: علىٰ علم وهدىٰ، ومن اتبعني، أي: أتباعي كذلك يدعون علىٰ بصيرة فأتباعه هم أهل البصائر والعلماء الذين يدعون ودعوتهم علىٰ بصيرة ومن لم يدع إلىٰ سبيل الله من العلماء فليس من أتباعه علىٰ الحقيقة فأتباعه لا يسكتون ولا يدعون علىٰ جهالة كما قال تعالىٰ: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾[النحل:١٢٥]؛ أي: بالعلم وهذه هي وظيفة الأنبياء كلهم والعلماء والصالحين وهذا هو الواجب علىٰ ما عنده علم ويدعو في كل مكان في المسجد وغيره ويصبر.

❁ **قوله**: «**عن ابن عباس** رضي الله عنهما...»:

حديث ابن عباس أن رسول الله لما بعث معاذًا إلىٰ اليمن قال...

قوله: «قال له»؛ أي: أوصاه.

قوله: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب»؛ أي: فليسوا جهالًا بل عندهم علوم وشبه، فنبه ليستعد لهم وليبلغ لهم أمر الله.

قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»؛ أي: لا تلتفت إلىٰ شبههم وعلومهم بل بلغهم التوحيد وإلىٰ أن يوحدوه وأن يخصُّوه بالعبادة دون غيره كالعزير وعيسىٰ وأحبارهم ورهبانهم. وفي رواية «**عبادة الله**» وهي تفسير لشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «فإن أطاعوك لذلك»:

أي: اخلصوا العبادة وتركوا غيره.

قوله: «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات...**»: هذا يدل على أن المشرك يُدعي أولًا إلى التوحيد فإن أجاب دُعي إلى الصلاة فإن أجاب وأقامها دعي إلى الزكاة التي تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء. وذكر الفقراء، هنا يدل على أنهم أهم الأصناف؛ لذلك بدأ بهم في الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ [التوبة:٦٠].

قوله: «**فإن أجابوك فإياك وكرائم أموالهم**»؛ أي: لا تأخذ الأموال الثمينة عندهم بالقوة بل الوسط -لأن الأموال: كريمة ومتوسطة ولئيمة- إلا إن طابت نفسه بالكريمة فهو أفضل لهم.

«**واتق دعوة المظلوم**»؛ أي: احذر أن تظلمهم فيدعون عليك فتصيبك دعوتهم. ودعوة المظلوم مستجابة.

وإنما اقتصر هذه الأمور الثلاثة لأنها أهم الأمور، ومن أجاب إليها أجاب إلى ما سواها من الحج والصوم وغيرها؛ لأنهم إذا استجابوا للأمور الثلاثة المتقدمة فإن إجابتهم عن إيمان وقناعة وهذا الإيمان يدفعهم إلى بقية الشرائع.

ولذلك اقتصر عليها القرآن ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾[التوبة:١١]﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة:٥].

وفي الحديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى...**» [٢١٢] فالأصول الثلاثة هذه هم الأم.

قوله: «**ولهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: لأعطين الراية غدًا رجلًا...**»:

وخوض الصحابة في من يعطاها وتمنيهم لها لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر تعيين أن هذا الرجل بعينه يحب الله ويحبه الله؛ ففيها زيادة فضل ومزية؛ ولذا قال عمر: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ.

قوله: «**فبرأ**»: فيها من علامات صدق النبي ﷺ وهي آية من آيات الله الدالة على قدرته العظيمة.

---

(٢١٢) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة، برقم (١٣٩٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم (١٩)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قوله: «علىٰ رسلك»؛ أي: علىٰ مهلك.

قوله: «بساحتهم»؛ أي: بقربهم ليكون أشجع للمؤمنين وأرهب للأعداء، أما البعيد فيضعف الجند ويشجع الأعداء.

قوله: «ثم ادعهم إلىٰ الإسلام»: ولو كانوا قد دعوا من قبل من باب إقامة الحجة وكمال المعذرة، وهذا يدل علىٰ أنه ينبغي الاهتمام بالدعوة والحرص عليها قبل القتال ولو كانوا قد دعوا لعلهم يهتدون، ويستحب التكرار إذا دعت الحاجة خاصة من اليهود الذين يعرفون الحق ولكنهم يحبون الدنيا ويحسدون المؤمنين.

قوله: «ففتح عينه»: منقبة أخرىٰ لعلي رضي الله عنه.

قوله: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك...»: فيه عظم الدعوة إلىٰ الله، وأنها أهم من القتال، بل المقصودة من القتال؛ ولذلك بعثت الرسل.

قوله: «حمر النعم»: بضم «الحاء» وسكون «الميم» جمع أحمر. لا بضم «الحاء» و«الميم» جمع حمار فليس مراد هنا، والمعنىٰ؛ أي: خير لك من الإبل الثمينة، وفيه بيان أهمية الدعوة وتعليم الناس، فإن أبوا قوتلوا ليكف شرهم ولا يكونوا عقبة في طريق غيرهم إلىٰ الإسلام ويستعان بهم وبأموالهم في سبيل الله.

قوله: «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك»: لا مانع من أن يعم الحديث حتىٰ المسلم العاصي.

ويجوز أن يباغتهم بالحرب إذا بلغتهم الدعوة كما أغار النبي ﷺ علىٰ بني المصطلق(٢١٣) وإن تكررت الدعوة قبل القتال للمصلحة فلا بأس. وفيه جواز القسم وإن لم يحلف لتأكيد أمر، وقد يشرع ويستحب عند الحاجة لتأكيد أمر حتىٰ يعلم المخاطب أنه حق.

قال العلامة ابن عثيمين:

✿ **قوله:** «باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله»:

هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن ما يكون؛ لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر دعوة غيره إلىٰ ذلك؛ لأنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلىٰ التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[سورة العصر].

---

(٢١٣) أخرجه البخاري، كتاب: العتق، باب: من ملك من العرب رقيقًا...، برقم (٢٥٤١)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: جواز الإغارة علىٰ الكفار...، برقم (١٧٣٠)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فلا بد مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلا، كان ناقصًا، ولا ريب أن هذا الذي سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلا وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقًا في اعتقاده؛ فلابد أن يكون داعيًا إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به.

قوله: «﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾»:

المشار إليه ما جاء به النبي ﷺ من الشرع عبادة ودعوة إلى الله.

﴿سَبِيلِيٓ﴾: طريقي.

قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ﴾: حال من الياء في قوله: ﴿سَبِيلِيٓ﴾، ويحتمل أن تكون استئنافًا لبيان تلك السبيل.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: لأن الدعاة إلى الله ينقسمون إلى قسمين:

١- داعٍ إلى الله.

٢- داعٍ إلى غيره.

فالداعي إلى الله تعالى هو المخلص الذي يريد أن يوصل الناس إلى الله تعالى، والداعي إلى غيره قد يكون داعيًا إلى نفسه، يدعو إلى الحق لأجل أن يعظم بين الناس ويحترم، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمر به، ولا يغضب إذا ارتكبوا نهيًا أعظم منه، لكن لم يدع إلى تركه. وقد يكون داعيًا إلى رئيسه كما يوجد في كثير من الدول من علماء الضلال من علماء الدول، لا علماء الملل، يدعو إلى رؤسائهم. من ذلك لما ظهرت الاشتراكية في البلاد العربية قام بعض علماء الضلال بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة، بل ليس فيها دلالة؛ فهؤلاء دعوا إلى غير الله.

ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارّين منه، فلا ييأس، ويترك الدعوة، فإن الرسول ﷺ قال لعلي: «**انفذ على رسلك؛ فوالله؛ لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»؛ يعني: أن اهتداء رجل واحد من قبائل اليهود خير لك من حمر النعم، فإذا دعا إلى الله ولم يُجَبْ؛ فليكن غضبه من أجل أن الحق لم يُتَّبع، لا لأنه لم يُجَبْ، فإذا كان يغضب لهذا؛ فمعناه أنه يدعو إلى الله، فإذا استجاب واحد، كفى؛ وإذا لم يستجب أحد، فقد أبرأ ذمته أيضًا، وفي الحديث: «**والنبي وليس معه أحد**».

ثم إنه يكفي من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس أن هذا حق وهذا باطل؛ لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأقر الباطل مع طول الزمن؛ ينقلب الحق باطلًا، والباطل حقًّا.

قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ أي: علم؛ فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم؛ لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم في قوله ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل: العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلىٰ المقصود، وهو الحكمة. فيكون بصيرًا بحكم الشرع، وبصيرًا بحال المدعو، وبصيرًا بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب**».

وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي؛ لأن علمي أن هذا الرجل قابل للدعوة باللين، وهذا قابل للدعوة بالشدة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات أمر زائد علىٰ العلم بالحكم الشرعي، وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين كالترغيب بكذا والتشجيع؛ كقوله ﷺ: «**من قتل قتيلًا؛ فله سلبه**»[٢١٤] أو بالتأليف، فالنبي ﷺ أعطىٰ المؤلفة قلوبهم في غزوة حنين إلىٰ مئة بعير فهذا كله من الحكمة، فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محمودًا وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح.

قوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾، ذكروا فيها رأيين:

الأول: ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ، وخبرها ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ معطوفة علىٰ ﴿أَنَا۠﴾ أي: أنا ومن اتبعني علىٰ بصيرة؛ أي: في عبادتي ودعوتي.

الثاني: ﴿أَنَا۠﴾ توكيد للضمير المستتر في قوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾؛ أي: أدعو أنا إلىٰ الله ومن اتبعني يدعو أيضًا، أي: قل هذه سبيلي أدعو إلىٰ الله ويدعو من اتبعني، وكلانا علىٰ بصيرة.

قوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وسبحان الله أن أكون أدعو علىٰ غير بصيرة!

وإعراب «سبحان»: مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح.

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، محلها مما قبلها في المعنىٰ توكيد لأن التوحيد معناه نفي الشرك.

قوله: «أي: قول ابن عباس»: «بعث معاذًا» أي: أرسله، وبعثه علىٰ صفة المعلِّم والحاكم والداعي، وبعثه في ربيع الأول سنة عشرة من الهجرة، وهذا هو المشهور، وبعثه هو وأبا موسىٰ

---

(٢١٤) أخرجه البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب: من لم يُخَمِّس الأسلاب، برقم (٣١٤٢)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: استحقاق القاتل سلب القتيل، برقم (١٧٥١)، وغيرهما من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

الأشعري رضي الله عنهما، بعث معاذًا إلىٰ صنعاء وما حولها، وأبا موسىٰ إلىٰ عدن وما حولها، وأمرهما: «أن اجتمعا وتطاوعا ولا تفترقا، ويسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفرا».

قوله: «لما»، إعرابها شرطية، وهي حرف وجود لوجود، و«لو»: حرف امتناع لامتناع، و«لولا» حرف امتناع لوجود.

قوله: «**إنك تأتي قومًا من أهل كتاب**»، قال ذلك مرشدًا له، وهذا دليل علىٰ معرفته ﷺ بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم؛ فله طريقان:

١- الوحي. ٢- العلم والتجربة.

قوله: «من» بيانية، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، فيكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارىٰ، وهم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت، وإن كان في اليمن مشركون؛ لكن الأكثر اليهود والنصارىٰ، ولهذا اعتمد الأكثر. وأخبره النبي ﷺ بذلك؛ لأمرين:

الأول: أن يكون بصيرًا بأحوال من يدعو.

الثاني: أن يكون مستعدًّا لهم؛ لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم.

قوله: «**فليكن**»، «الفاء» للاستئناف أو عاطفة، و«اللام» للأمر، و«**أول**»: اسم يكن، وخبرها «**شهادة**»، وقيل: العكس، يعني: «**أول**» خبر مقدم و«**شهادة**» اسم يكن مؤخرًا.

والظاهر أنه يريد أن يبين أن أول ما يكون هي الشهادة، وإذا كان كذلك؛ يكون «**أول**» مرفوعًا علىٰ أنه اسم يكن؛ أي: أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «**شهادة**»، الشهادة هنا من العلم، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، فالشهادة هنا العلم والنطق باللسان؛ لأن الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه مجرد الإخبار، بل لابد من علم وإخبار وقبول وإقرار وإذعان؛ أي: انقياد.

فلو اعتقد بقلبه، ولم يقل بلسانه: أشهد أن لا إله إلا الله، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنه ليس بمسلم بالإجماع حتىٰ ينطق بها؛ لأن كلمة أشهد تدل علىٰ الإخبار، والإخبار متضمن للنطق، فلابد من النطق، فالنية فقط لا تجزئ، ولا تنفعه عند الله حتىٰ ينطق، والنبي ﷺ قال لعمه أبي طالب: «**قل**» ولم يقل: اعتقد أن لا إله إلا الله.

قوله: «لا إله»؛ أي: لا معبود، فإله بمعنىٰ مألوه؛ فهو فعال؛ بمعنىٰ مفعول، وعند المتكلمين، إله بمعنىٰ آله؛ فهو اسم فاعل، وعليه يكون معنىٰ لا إله؛ أي: لا قادر علىٰ الاختراع، وهذا باطل. ولو قيل بهذا المعنىٰ، لكان المشركون الذين قاتلهم النبيﷺ موحدين لأنهم يقرّون به، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزخرف:٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزمر:٣٨].

فإن قيل: كيف يقال: لا معبود إلا الله، والمشركون يعبدون أصنامهم؟!

أجيب: بأنهم يعبدونها بغير حق؛ فهم وإن سموها آلهة، فألوهيتها باطلة، وليست معبودات بحق؛ ولذلك إذا مسهم الضر، لجئوا إلىٰ الله تعالىٰ، وأخلصوا له الدين، وعلىٰ هذا لا تستحق أن تسمىٰ آلهة.

فهم يعبدونها ويعترفون بأنهم لا يعبدونها إلا لأجل أن تقربهم إلىٰ الله فقط؛ فجعلوها وسيلة وذريعة، وبهذا التقدير لا يرد علينا إشكال في قول الرسل لقومهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الإعراف:٥٩]؛ لأن هذه المعبودات لا تستحق أن تعبد، بل الإله المعبود حقًّا هو الله سبحانه وتعالىٰ.

وفي قوله: «لا إله إلا الله»: نفي الألوهية لغير الله، وإثباتها لله، ولهذا جاءت بطريق الحصر.

قوله: «لأعطين»:

هذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، و«اللام»، و«النون»، والتقدير: والله لأعطين.

قوله: «الراية»، العلم، وسمي راية؛ لأنه يُرىٰ، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة علىٰ مكانه.

واللواء؛ قيل: إنه الراية، وقيل ما لوي أعلاه، أو لوي كله، فيكون الفرق بينهما: أن الراية مفلولة لا تطوىٰ، واللواء يطوىٰ إما أعلاه أو كله، والمقصود منهما الدلالة؛ ولهذا يسمىٰ علمًا.

قوله: «غدًا»، يراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله. والأصل أنه يراد بالغد ما يلي يومك، ويراد بالأمس الذي يليه يومك، وقد يراد بالغد ما وراء ذلك؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[الحشر:١٨]، أي: يوم القيامة.

وكذلك بالأمس قد يراد به ما وراء ذلك؛ أي: ما وراء اليوم الذي يليه يومك.

قوله: «يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله». أثبت المحبة لله من الجانبين؛ أي: أن الله تعالىٰ يُحِبُّ ويُحَبّ، وقد أنكر هذا أهل التعطيل، وقالوا: المراد بمحبة الله للعبد إثابته أو إرادة إثابته،

والمراد بمحبة العبد لله محبة ثوابه، وهذا تحريف للكلام عن ظاهره مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدىٰ من بعدهم، ومحبة الله تعالىٰ ثابتة له حقيقة، وهي من صفاته الفعلية، وكل شيء من صفات الله يكون له سبب؛ فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب؛ فقد يبغض الله إنسانًا في وقت ويحبه في وقت لسبب من الأسباب.

قوله: «**علىٰ يديه**»؛ أي: يفتح الله خيبر علىٰ يديه، وفي ذلك بشارة بالنصر.

قوله: «**يدوكون**»؛ أي: يخوضون، وجملة يدوكون خبر بات.

قوله: «**غدوا علىٰ رسول الله**»؛ أي: ذهبوا إليه في الغدوة مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها لينال محبة الله ورسوله.

قوله: «**فقال: أين علي؟**»: القائل: الرسول ﷺ.

قوله: «**يشتكي عينيه**»: أي: يتألم منهما، ولكنه يشتكي إلىٰ الله؛ لأن عينية مريضة.

وقوله: «**فأرسلوا إليه**»؛ بأمر الرسول ﷺ.

قوله: «**فأتىٰ به**»، كأنه رضي الله عنه قد عمم علىٰ عينيه؛ لأن قوله: «**أتي به**»؛ أي: يقاد.

وقوله: «**كأن لم يكن به وجع**»؛ أي: ليس بهما أثر حمرة ولا غيرها.

قوله: «**فبرأ**»: هذا من آيات الله الدالة علىٰ قدرته وصدق رسوله ﷺ، وهذا من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله؛ لتخصيص النبي ﷺ له ذلك من بين سائر الصحابة.

قوله: «**انفذ علىٰ رسلك**»؛ أي: مَهْلَكَ، مأخوذ من رسل الناقة؛ أي: حليبها يحلب شيئًا فشيئًا، والمعنىٰ: امش هوينًا هوينًا، لأن المقام خطير؛ لأنه يخشىٰ من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

قوله: «**حتىٰ تنزل بساحتهم**»؛ أي: ما يقرب منهم وما حولهم، والنبي ﷺ يقول: «**إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**».

وهذا إذا كنا علىٰ الوصف الذي عليه الرسول ﷺ وأصحابه، أما إذا كنا علىٰ وصف القومية، فإننا لو نزلنا في أحضانهم؛ فمن الممكن أن يقوموا ونكون في الأسفل.

قوله: «**ثم ادعهم**»؛ أي: أهل خيبر، «**إلىٰ الإسلام**»؛ أي: الاستسلام لله.

قوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم**»؛ أي: فلا تكفي الدعوة إلىٰ الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتىٰ يقتنعوا به ويلتزموا، لكن علىٰ الترتيب الذي في حديث بعث معاذ.

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله في الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟

فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا؛ فإننا نقول: الأولى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره.

وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع، فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يخبرون أولًا بما يجب عليهم من حق الله فيه؛ لئلا يرتدوا عن الإسلام بعد إخبارهم بما يجب عليهم، وحينئذ يجب قتلهم لأنهم مرتدون. ويحتمل أن يقال: تترك هذه المسألة للواقع وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا.

قوله: «**لأن يهدي الله**»، «اللام» واقعة في جواب القسم، و«أن» بفتح «الهمزة» مصدرية، و«يهدي» مؤول بالمصدر مبتدأ، «وخير»: خبر، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:١٨٤].

قوله: «**حمر النعم**» بتسكين «الميم»: جمع أحمر، وبالضم: جمع حمار، والمراد بالأول.

وحمر النعم: هي الإبل الحمراء، وذكرها لأنها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

وقوله: «**لأن يهدي الله بك**»، ولم يقل: لأن تهدي؛ لأن الذي يهدي هو الله. والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أو يعم كل هداية؟

نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام، وهل نقول: إن القرينة الحالية تقتضي التخصيص، وأن من اهتدى على يديه رجل في مسألة فرعية من مسائل الدين لا يحصل له هذا الثواب بقرينة المقام، لأن عليًّا موجه إلى قوم كفار يدعوهم الإسلام، والله أعلم.

۞ قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ، وتؤخذ من قوله تعال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

والأشمل من ذلك والأبلغ في مطابقة الآية أن يقال: إن الدعوة إلى الله طريق الرسل وأتباعهم.

الثانية: التنبيه على الإخلاص: وتؤخذ من قوله: «**أدعو إلى الله**»، ولهذا قال: «**لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق؛ فهو يدعو إلى نفسه**»؛ فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلا أن يقوم دين الله، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقًّا كان أم باطلًا.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض: وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، ووجه كون البصيرة من الفرائض؛ لأنه لا بد للداعية من العلم بما يدعو إليه، والدعوة فريضة، فيكون العلم بذلك فريضة.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهًا لله عن المسبة: وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله.

ومعنى عن المسبة؛ أي: وعن مماثلة الخالق للمخلوق؛ إذ تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وهو اتخاذ الند للرحمن أيًا ... كان من حجر ومن إنسان

الخامسة: **أن من قبح الشرك كونه مسبة لله**، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾بعد قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

السادسة -وهي من أهمها-: إبعاد المسلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يقل: «وما أنا مشرك»، لأنه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركًا، فهو في ظاهره منهم، ولهذا لما قال الله للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[البقرة:٣٤]؛ توجه الخطاب له ولهم.

السابعة: كون التوحيد أول واجب، تؤخذ من قولهﷺ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**»، وفي رواية: «**أن يوحدوا الله**».

وقال بعض العلماء: أول واجب النظر، لكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد، لأن معرفة الخالق دلت عليها الفطرة.

الثامنة: أن يُبدأ به قبل كل شيء: تؤخذ من قولهﷺ: «**ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**».

التاسعة: أن معنىٰ أو يوحدوا الله معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله: تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبر في رواية بقوله: «شهادة أن لا إله إلا الله»، وفي رواية عبر بقوله: «أن يوحدوا الله».

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها، ومراده بقوله: «لا يعرفها، أو يعرفها» شهادة أن لا إله إلا الله، وتؤخذ من قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»؛ إذ لو كانوا يعرفون لا إله إلا الله ويعملون بها ما احتاجوا إلىٰ الدعوة إليها.

الحادية عشرة: التنبيه علىٰ التعليم بالتدريج. تؤخذ من قوله ﷺ لمعاذ: «**ادعهم إلىٰ أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم...**» إلخ الحديث.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم. تؤخذ من أمره ﷺ معاذًا بالتوحيد ليدعو إليه أولًا، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة: تؤخذ من قوله: «**فترد علىٰ فقرائهم**».

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم: المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم؛ أي: يكون عنده جهل. تؤخذ من قوله: «**إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم**»، فبين أن هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأن مصرفها الفقراء.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال: تؤخذ من قوله: «**فإياك وكرائم أموالهم**»؛ إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم. تؤخذ من قوله: «**واتق دعوة المظلوم**».

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تُحجب. تؤخذ من قوله: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»؛ فقرن الترغيب أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيبًا، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيبًا؛ لقوله: «**اتق دعوة المظلوم**»؛ فالنفس قد لا تتقي، لكن إذا قيل: ليس بينها وبين الله حجاب؛ خافت ونفرت من ذلك.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جري علىٰ سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء: والظاهر أن المؤلف رحمه الله يريد الإشارة إلىٰ قصة خيبر؛ إذ وقع فيها في عهد النبي ﷺ جوع عظيم، حتىٰ إنهم أكلوا الحمير والثوم، وأما الوباء؛ فهو ما وقع في عهد علي رضي الله عنه، وأما المشقة؛ فظاهرة.

ووجه كون ذلك من أدلة التوحيد: أن الصبر والتحمل في مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده وأن قصده الله، ولذلك صبر على البلاء.

التاسعة عشرة: قوله: «**لأعطين الراية**» **علم من أعلام النبوة**: لأن هذا حصل؛ فعلي بن أبي طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضًا: لأن بصق في عينيه، فبرأ كأن لم يكن به وجع.

الحادية والعشرون: فضيلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: وهذا ظاهر؛ لأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح: لأنهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى: لأن الصحابة غدوا على رسول الله مبكرين، كلهم يرجو أن يُعطاها ولم يعطوها، وعلى بن أبي طالب مريض ولم يسع لها، ومع ذلك أعطي الراية.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «**على رسلك**»: ووجهه: أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال: لقوله: «**انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام**».

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة؛ لقوله: «**أخبرهم بما يجب عليهم**»؛ لأن من الحكمة أن تتم الدعوة، وذلك بأن تأمره بالإسلام أولًا، ثم تخبره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفي أن تأمره بالإسلام؛ لأنه قد يطبق هذا الإسلام الذي أمرته به وقد لا يطبقه، بل لابد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام: تؤخذ من قوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**».

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد: لقوله: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»؛ أي: خير لك من كل ما يستحسن في الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم: خير لك من أن تتصدق بنعم حمر.

الثلاثون: الحلف على الفتيا. لقوله: «**فوالله لأن يهدي الله...**» إلخ؛ فأقسم النبيﷺ وهو لم يستقسم، والفائدة هي حثه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه.

ولكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلا لمصلحة وفائدة؛ لأنه قد يفهم السامع أن المفتي لم يحلف إلا لشك عنده.

والإمام أحمدرَحِمَهُ اللَّهُ أحيانًا يقول في إجابته: أي: والله، وقد أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن:

في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[يونس:٥٣].

وفي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾. [التغابن:٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[سبأ:٣].

فإذا كان في القسم مصلحة ابتداءً، أو جوابًا لسؤال؛ جاز وربما يكون مطلوبًا.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله»:**

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن المصنفرَحِمَهُ اللَّهُ لما ذكر في الأبواب السابقة التوحيد وفضله وما يوجب الخوف من ضده، ذكر في هذا الباب أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم.

«**الدعاء**»؛ أي: دعوة الناس.

«**إلى شهادة أن لا إله إلا الله**»؛ أي: إلى توحيد الله والإيمان به وبما جاءت به رسله مما هو مدلول هذه الشهادة.

❁ **قوله: «﴿قُلْ﴾»:**

أي: الخطاب للرسولﷺ.

﴿هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها.

﴿سَبِيلِىٓ﴾: **طريقتي ودعوتي.**

﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: إلىٰ توحيد الله لا إلىٰ حظ من حظوظ الدنيا؛ ولا إلىٰ رئاسة؛ ولا إلىٰ حزبية.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾: علىٰ علمٍ بذلك وبرهان عقلي وشرعي، والبصيرة المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾؛ أي: آمن بي وصدقني: يحتمل أنه عطف علىٰ الضمير المرفوع في ﴿أَدْعُوٓاْ﴾فيكون المعنىٰ: أنا أدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة ومن أتبعني كذلك يدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة: ويحتمل أن يكون عطفًا علىٰ الضمير المنفصل ﴿أَنَا۠﴾فيكون المعنىٰ: أنا وأتباعي علىٰ بصيرة.

والتحقيق: أن العطف يتضمن المعنيين فأتباعه هم أهل البصيرة الداعون إلىٰ الله.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: وأنزه الله وأقدسه عن أن يكون له شريك، في ملكه أو معبود بحق سواه.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يأمر الله رسوله أن يخبر الناس عن طريقته وسنته أنها الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله علىٰ علم ويقين وبرهانٍ، وكل من اتبعه يدعو إلىٰ ما يدعو إليه علىٰ علم و يقين وبرهانٍ، وأنه هو وأتباعه ينزهون الله عن الشريك له في ملكه وعن الشريك له في عبادته ويتبرأ ممن أشرك به وإن كان أقرب قريب.

مناسبة الآية للباب:

أن الله ذكر فيها طريقة الرسول وأتباعه هي الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله علىٰ علم بما يدعون إليه؛ ففيها وجوب الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله الذي هو موضوع الباب.

ما يستفاد من الآية:

١- أن الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله هي طريقة الرسول وأتباعه.

٢- أنه يجب علىٰ الداعية أن يكون عالمًا بما يدعو إليه، عالمًا بما ينهي عنه.

٣- التنبيه علىٰ الإخلاص في الدعوة بأن لا يكون للداعية مقصد سوىٰ وجه الله لا يقصد بذلك تحصيل مال أو رئاسة أو مدح من الناس أو دعوة إلىٰ حزب أو مذهب.

٤- أن البصيرة فريضة؛ لأن أتباعه ﷺ واجب ولا يتحقق اتباعه إلا بالبصيرة وهي العلم واليقين.

٥- حسن التوحيد؛ لأنه تنزيه لله تعالىٰ.

٦- قبح الشرك؛ لأنه مسبة لله تعالىٰ.

٧- وجوب ابتعاد المسلم عن المشركين، لا يصير منهم في شيء؛ فلا يكفي أنه لا يشرك.

❁ **قوله: «بعث معاذًا»:**

وجَّهه وأرسله.

«**إلىٰ اليمن**»: إلىٰ الإقليم المعروف بجنوب الجزيرة العربية داعيًا إلىٰ الله وواليًا وقاضيًا، وذلك في سنة عشرة من الهجرة.

«**أهل الكتاب**»: هم اليهود والنصارىٰ، لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب.

«**شهادة**»: يجوز فيها الرفع علىٰ أنه اسم يكن مؤخرًا وأول خبرها مقدم ويجوز العكس.

«**وفي رواية**»؛ أي: في رواية أخرىٰ في «صحيح البخاري».

«**أطاعُوك لذلك**»؛ أي: شهدوا وانقادوا لدعوتك، وكفروا بما يُعبد من دون الله.

«**افترض عليهم**»: أوجب عليهم.

«**أطاعوك لذلك**»: آمنوا بفرضيتها وأقاموها.

«**افترض عليهم صدقة**»: أوجب عليهم الزكاة.

«**إياك**»: كلمة تحذير.

«**وكرائم**»: منصوب علىٰ التحذير جمع كريمةٍ، وهي خيار المال ونفائسه.

«**أتق دعوة المظلوم**»: احذرها واجعل بينك وبينها وقايَة بفعل العدل وترك الظلم.

«**فإنه**»؛ أي: الحال والشأن.

«**ليس بينها وبين الله حجاب**»؛ أي: لا تحجب عن الله بل ترفع إليه فيقبلها.

«**أخرجاه**»؛ أي: أخرجه البخاري ومسلم في «الصحيحين».

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أن النبي ﷺ لَّما وجَّه معاذ بن جبل رضي الله عنه إلىٰ إقليم اليمن داعيًا إلىٰ الله ومعلمًا؛ رسم له الخطة التي يسير عليها في دعوته، فبيَّن له أنه سيواجه قومًا أهل علمٍ وجدل من اليهود والنصارىٰ؛ ليكون علىٰ أهبة لمناظرتهم ورد شبههم، ثم ليبدأ في دعوته بالأهم فالأهم؛ فيدعو الناس إلىٰ إصلاح العقيدة أولًا لأنها الأساس، فإذا انقادوا لذلك أمرهم بإقام الصلاة؛ لأنها أعظمُ الواجبات بعد التوحيد، فإذا أقاموها أمر أغنياءهم بدفع زكاة أموالهم إلىٰ فقرائهم مواساةً لهم وشكرًا لله، ثم حذَّره من أخذ جيد المال لأن الواجب الوسط، ثم حثَّه علىٰ العدل وترك الظلم؛ لئلا يدعو عليه المظلوم ودعوته مستجابة.

مناسبة الحديث للباب:

أن أول ما يدعىٰ إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وفيه إرسال الدعاة لذلك.

ما يستفاد من الحديث:

١- مشروعية إرسال الدعاة إلىٰ الله.

٢- أن شهادة أن لا إله إلا الله أول واجبٍ، وهي أول ما يُدعىٰ إليه الناس.

٣- أن معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله توحيد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه.

٤- أنه لا يحكم بإسلام الكافر إلا بالنطق بالشهادتين.

٥- أن الإنسان قد يكون قارئًا عالمًا وهو لايعرف معنىٰ لا إله إلا الله، أو يعرفه ولا يعمل به كحال أهل الكتاب.

٦- أن مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب**».

٧- التنبيه علىٰ أنه ينبغي للإنسان -خصوصًا الداعية- أن يكون علىٰ بصيرة من دينه؛ ليتخلص من شبهات المشبهين وذلك بطلب العلم.

٨- أن الصلاة أعظم الواجبات بعد الشهادتين.

٩- أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلاة.

١٠- بيان مصرف من مصارف الزكاة وهم الفقراء وجواز الاقتصار عليه.

١١- أنه لا يجوز أخذ الزكاة من جيد المال إلا برضا صاحبه.

١٢- التحذير من الظلم، وأن دعوة المظلوم مستجابة ولو كان عاصيًا.

قوله: «سهل بن سعد»:

هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي، صحابي شهير مات سنة ٨٨ هـ وقد جاوز المائة.

«**ولهما**»؛ أي: البخاري ومسلم في «صحيحيهما».

«**يوم خيبر**»؛ أي: يوم حصار خيبر سنة ٧ هـ.

«**الراية**»: علم الجيش الذي يرجعون إليه عند الكر والفرِّ.

«**يفتح الله علىٰ يديه**»: إخبار علىٰ وجه البشارة بحصول الفتح.

«**ليلتهم**»: منصوب علىٰ الظرفية.

«**أيهم**»: برفع «أي» علىٰ البناء لإضافتها وحذف صدر صلتها.

«علي بن أبي طالب»: هو ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة، والخليفة الرابع، من أسبق السابقين إلىٰ الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم أجمعين قتل سنة ٤٠هـ.

«يشتكي عينيه»؛ أي: تؤلمانه من الرمد.

«فبرأ»: بفتح «الباء» علىٰ وزن ضرب، ويجوز كسرها علىٰ وزن علم، أي: عوفي عافية كاملة.

«أعطاه الراية»: دفعها إليه.

«انفذ»؛ أي: أمض لوجهك.

«علىٰ رسلك»: علىٰ رفقك من غير عجلة.

«بساحتهم»: بفناء أرضهم وما قرب من حصونهم.

«إلىٰ الإسلام»: وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله.

«وأخبرهم... إلخ»؛ أي: أنهم إن أجابوك إلىٰ الإسلام الذي هو التوحيد، فأخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك من حق الله في الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك.

«لأن يهدي الله»: في تأويل مصدر مبتدأ خبره «خيرٌ».

«حمر النعم»؛ أي: الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أن النبي ﷺ بشر الصحابة بانتصار المسلمين علىٰ اليهود من الغد علىٰ يد رجل له فضيلة عظيمة وموالاة لله ولرسوله فاستشرف الصحابة لذلك، كل يود أن يكون هو ذلك الرجل من حرصهم علىٰ الخير، فلما ذهبوا إلىٰ الموعد طلب النبي ﷺ عليًّا، وصادف أنه لم يحضر لما أصابه من مرض عينيه، ثم حضر فتفل النبي ﷺ فيهما من ريقه المبارك، فزال ما يحس به من الألم زوالًا كاملًا وسلمه قيادة الجيش، وأمره بالمضي علىٰ وجهه برفق حتىٰ يقرب من حصن العدو فيطلب منهم الدخول في الإسلام، فإن أجابوا أخبرهم بما يجب علىٰ المسلم من فرائض، ثم بيّن ﷺ لعليٍّ فضل الدعوة إلىٰ الله وأن الداعية إذا حصل علىٰ يديه هداية رجل واحد؛ فذلك خير له من أنفس الأموال الدنيوية، فكيف إذا حصل علىٰ يديه هداية أكثر من ذلك.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه مشروعية الدعوة إلىٰ الإسلام الذي هو معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وبيان فضل الدعوة إلىٰ ذلك.

ما يستفاد من الحديث:

١- فضيلة ظاهرة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وشهادة من الرسول ﷺ له بموالاته لله ولرسوله وإيمانه ظاهرًا وباطنًا.

٢- إثبات أن الله يحب أولياءه محبة تليق بجلاله كسائر صفاته المقدسة الكريمة.

٣- حرص الصحابة علىٰ الخير وتسابقهم إلىٰ الأعمال الصالحة رضي الله عنهم.

٤- مشروعية الأدب عند القتال وترك الطيش والأصوات المزعجة التي لا حاجة إليها.

٥- أمر الإمام عماله بالرفق واللين من غير ضعف، ولا انتقاض عزيمة.

٦- وجوب الدعوة إلىٰ الإسلام لا سيما قبل قتال الكفار.

٧- أن من امتنع من قبول الدعوة من الكفار وجب قتاله.

٨- أن الدعوة تكون بالتدريج؛ فيطلب من الكافر أولًا الدخول في الإسلام بالنطق بالشهادتين، ثم يؤمر بفرائض الإسلام بعد ذلك.

٩- فضل الدعوة إلىٰ الإسلام وما فيها من الخير للمدعو والداعي؛ فالمدعو قد يهتدي، والداعي يثاب ثوأبا عظيمًا، والله أعلم.

١٠-دليل من أدلة نبوة الرسول ﷺ، وذلك ببشارته بالفتح قبل وقوعه وبراءة الألم بريقه.

١١-الإيمان بالقضاء والقدر، لحصول الراية لمن لم يسع إليها ومنعها ممن سعىٰ إليها.

١٢-أنه لا يكفي التَّسمِّي بالإسلام بل لا بد من معرفة واجباته والقيام بها.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله»:

هذا الباب هو «**باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله**» أي: باب الدعوة إلىٰ التوحيد. وقد ذكر في الباب قبله الخوف من الشرك، وقبله ذَكَرَ فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، و«**باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب**». **ولما ذكر بعده الخوف من الشرك اجتمعت معالم حقيقة**

التوحيد في نفس الموحد، فهل من اجتمعت حقيقة التوحيد في قلبه، بأن عرف فضله، وعرف معناه، وخاف من الشرك، واستقام علىٰ التوحيد، وهرب من ضده، هل يبقىٰ مقتصرًا بذلك علىٰ نفسه، ويضنّ به علىٰ غيره، وهل تتم حقيقة التوحيد في قلبه إلا بأن يدعو إلىٰ حق الله الأعظم، ألا وهو إفراده -جل وعلا- بالعبادة وبما يستحقه -سبحانه وتعالىٰ- من نعوت الجلال وأوصاف الجمال؟!

بوب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بهذا الباب؛ ليدل علىٰ أن من تمام الخوف من الشرك، ومن تمام التوحيد أن يدعو المرءُ غيره إلىٰ التوحيد؛ فإنه لا يتم في القلب حتىٰ تدعو إليه، وهذه حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله عُلمت حيث شهد العبد المسلم لله بالوحدانية بقوله: أشهد أن لا إله إلا الله، وشهادته معناها: اعتقاده ونطقه وإخباره غيرَه بما دلت عليه، فلابُدَّ -إذًا تحقيقًا للشهادة، وإتمامًا لها- أن يكون المكلَّف الموحد داعيًا إلىٰ التوحيد؛ لهذا ناسب أن يذكر هذا الباب بعد الأبواب قبله، ثم إن له مناسبة أخرىٰ لطيفة، وهي أن ما بعد هذا الباب هو تفسير للتوحيد وبيان لأفراده، وتفسير للشرك وبيان لأفراده، فتكون الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وإلىٰ التوحيد دعوة إلىٰ تفاصيل ذلك. وهذا من المهمات؛ لأن كثيرًا من المتسبين للعلم -من أهل الأمصار- يسلِّمون بالدعوة إلىٰ التوحيد إجمالًا، ولكن إذا أتىٰ التفصيل في بيان مسائل التوحيد، أو جاء التفصيل في بيان أفراد الشرك، فإنهم يخالفون في ذلك، وتغلبهم نفوسهم في مواجهة الناس بحقائق أفراد التوحيد، وأفراد الشرك.

فالذي تميزت به دعوة الإمام المصلح رَحِمَهُ اللهُ أن الدعوة فيها إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله دعوة تفصيلية، ليست إجمالية، أما الإجمال فيدعو إليه كثيرون ممن يقولون: نهتم بالتوحيد، ونبرأ من الشرك، لكن لا يذكرون تفاصيل ذلك. والذي ذكره الإمام رَحِمَهُ اللهُ في بعض رسائله أنه لما عرض هذا الأمر -يعني الدعوة إلىٰ التوحيد- علىٰ علماء الأمصار قال: وافقوني علىٰ ما قلت، وخالفوني في مسألتين: في مسالة التكفير، وفي مسألة القتال. وهاتان المسألتان سبب مخالفة أولئك العلماء للشيخ؛ لأنهما فرعان ومتفرعان عن البيان والدعوة إلىٰ أفراد التوحيد، والنهي عن أفراد الشرك.

فالدعاء -إذًا- إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله هو الدعاء إلىٰ ما دلت عليه من التوحيد، والدعاء إلىٰ ما دلت عليه من نفي الشريك في العبادة، وفي الربوبية، وفي الأسماء والصفات عن الله -جل وعلا- وهذه الدعوة دعوة تفصيلية لا إجمالية؛ ولهذا فصل الإمام رَحِمَهُ اللهُ في هذا الكتاب أنواع التوحيد، وأفراد توحيد العبادة، وفصّل الشرك الأكبر والأصغر، فبيّن أفرادًا من ذا وذاك.

وسيأتي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله في الباب الذي بعده؛ لأنه «**باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**».

قوله: «﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ...﴾[يوسف:١٠٨] الآية»:

هذه الآية من آخر سورة يوسف هي في الدعوة إلىٰ الله، وسورة يوسف -كما هو معلوم- لمن تأمّلَها هي في الدعوة إلىٰ الله من أولها إلىٰ آخرها، فموضوعها -إذًا- الدعوة؛ ولهذا جاء في آخرها قواعد مهمة في بيان حال الدعاة إلىٰ الله، وحال الرسل الذين دعوا إلىٰ الله، وما خالف به الأكثرون الرسل، واستيئاس الرسل من نصرهم ونحو ذلك من أحوال الدعاة إلىٰ الله. وفي آخر تلك السورة قال الله -جل وعلا- لنبيه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي سبيلي ومنهجي: أنني أدعو إلىٰ الله، فمهمة الرسل هي الدعوة إلىٰ الله -جل وعلا-.

فأحسن الأقوال: قول من دعا إلىٰ الله، وأحسن الأعمال عمل من دعا إلىٰ الله -جل وعلا- ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾[فصلت: ٣٣]. قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية -ما معناه-: «**هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله من خلقه، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلىٰ ما أجاب الله فيه من دعوته، هذا حبيب الله**»[٢١٥].

وهذا أمر عظيم؛ فالداعي إلىٰ الله هو أحسن أهل الأقوال قولًا كما دلت عليه الآية السابقة.

وموطن الشاهد من قوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هو قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه دعاء إلىٰ الله -جل وعلا- لا إلىٰ غيره، وفي هذا فائدتان:

---

(٢١٥) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير»(٢/ ١٨٧).

الأولىٰ: أن الدعوة إلىٰ الله دعوة إلىٰ توحيده، ودعوة إلىٰ دينه، كما سيأتي تفسير هذه الكلمة في الحديثين بعدها، حديث ابن عباس في إرسال معاذ إلىٰ اليمن، وحديث سهل بن سعد ﷺ في إعطاء عليٍّ الراية.

فدلّ قوله جل وعلا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ علىٰ الفائدة الأولىٰ -كما تقدم- وهي أن الدعوة إلىٰ الله فيها دعوة إلىٰ التوحيد.

الثانية: التنبيه علىٰ الإخلاص، وهذا يحتاجه من أراد الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، والدعاء إلىٰ الإسلام، يعني أن الداعي إلىٰ الإسلام يحتاج أن يكون مخلصًا في ذلك؛ ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل هذا الباب في قوله: «﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ **التنبيه علىٰ الإخلاص؛ لأن كثيرين -وإن دعوا إلىٰ الحق- فإنما يدعون إلىٰ أنفسهم، أو نحو ذلك**».

وقوله في الآية: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ البصيرةُ: هي العلم، وهي للقلب كالبصر للعين يبصر بها المعلومات والحقائق، فكما أنك بالعين تبصِر الأجرام والذوات، فإنك ببصيرة القلب والعقل تدرك المعلومات، والمعنىٰ: أنه دعا علىٰ علم، وعلىٰ يقين، وعلىٰ معرفة، لم يدعُ إلىٰ الله علىٰ جهالة.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ يعني: أدعو أنا إلىٰ الله، وكذلك من اتبعني ممن أجاب دعوتي، فإنهم يدعون إلىٰ الله أيضًا علىٰ بصيرة، وهذا أيضًا من مناسبة إيراد الآية تحت هذا الباب؛ لأن أتباع النبي ﷺ يدعون إلىٰ الله.

فالمتبعون للرسول -عليه الصلاة والسلام- والموحدون لله لابُدَّ لهم من الدعوة إلىٰ الله، بل هذه صفته ﷺ وصفتهم التي أمر الله نبيه أن يُخبر عنها، فقال: ﴿قُلْ﴾ يعني: يا محمد ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ فهذه إذًا خصلة أتباع الأنبياء الذين لم يخافوا من الشرك فحسب، ولم يعلموا التوحيد ويعملوا به فحسب، بل دعوا إلىٰ ذلك، وهذا أمر حتمي ولازم؛ لأن من عرف عِظم حق الله -جل وعلا- فإنه يغار علىٰ حق الرب سبحانه وتعالىٰ، وكيف لا يغار علىٰ مولاه، وعلىٰ حق من أحبه فوق كل محبوب من أن يكون توجه الخلق إلىٰ غيره بنوع من أنواع التوجهات؟! فلابُدَّ أن يدعو إلىٰ أصل الدين وأصل الملة الذي اجتمعت عليه الأنبياء والمرسلون، ألا وهو توحيده -جل وعلا- في عبادته، وفي ربوبيته، وفي أسمائه وصفاته -جل وعلا، وعز سبحانه-.

قوله: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن...»:

ثم ساق الإمام رحمه الله حديث ابن عباس أنه قال: لما بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال: **«إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»** وفي رواية: **«إلى أن يوحدوا الله»** هذا موطن الشاهد، وهو أن النبي ﷺ أمر معاذًا أن يكون أول ما يدعو إليه هو شهادة أن لا إله إلا الله، وفسّرتها الرواية الأخرى للبخاري في كتاب التوحيد من صحيحه، وهي بلفظ: **«إلى أن يوحدوا الله»**(٢١٦).

فالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله مأمور بها، وهي الدعوة إلى التوحيد. فالنبي عليه الصلاة والسلام أمر معاذًا أن يدعو أهل اليمن، وكانوا من أهل الكتاب، يعني: من أهل الكتاب المُتَعبدين بالتوراة والإنجيل، فبعضهم كان من اليهود، وبعضهم من النصارى، أما المشركون فيهم فهم قليل، وأكثرهم كان على إحدى الملتين.

قال العلماء: «**قوله -عليه الصلاة والسلام- لمعاذ: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب»** فيه توطين وتوطئة للنفس بأنْ يهيئ نفسه لمناظرتهم، وقد كان معاذ بن جبل رضي الله عنه من العلماء بدين الإسلام، ومن علماء الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- فقال له عليه الصلاة والسلام ذلك ليهيئ نفسه لمناظرتهم ولدعوتهم، ثم أمره أن يكون أول ما يدعوهم إليه أن يوحدوا الله -جل وعلا-.

وفي إعراب قوله: **«فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»** وجهان:

الأول: برفع قوله: (أولُ) على أنه اسم لـ(يكن)، ونصب قوله: (شهادة) على أنه الخبر. فيكون المعنى على هذا الوجه: أنه أخبره عن الأولية، فابتدأ بالأولية ثم أخبره بذلك الأول.

الثاني: بنصب قوله: (أولَ) على أنه خبر لـ(يكن) مقدم، ورفع قوله: (شهادة) على أنه اسمها مؤخر، فيكون المعنى -على هذا الوجه-: الإخبار عن الشهادة بأنها أول ما يدعى إليه. وهذان الوجهان جائزان، والمشهور هو الوجه الثاني، يعني: بجعل (أول) منصوبة؛ وذلك لأن مقام ذكر الشهادة والابتداء بها هو الأعظم، وهو المقصود، ليلتفت السامع والمتلقي -وهو معاذ- إلى ما يُراد منه أن يُخبَر به من جهة الشهادة.

---

(٢١٦)سبق تخريجه.

فموطن الشاهد من هذا الحديث، ومناسبة إيراده في الباب: هو ذكر أن التوحيد هو أول ما يدعىٰ إليه، وهو شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه...»:

ثم ساق في الباب أيضًا حديث سهل بن سعد الذي في «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله علىٰ يديه**» فبات الناس يدكون ليلتهم... »

قوله: «**بات**» البيتوتة هي: المكث في الليل سواءٌ أكان نوم أم لم يكن.

ومعنىٰ قوله: «**يدوكون ليلتهم**» أي يخوضون في تلك الليلة، و(باتوا) يعني ظلوا ليلًا يتحدثون من دون نوم، لعظم هذا الفضل الذي ذكره عليه الصلاة والسلام.

قال: «**...فلما أصبحوا غدوا علىٰ رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتي به فبصق في عينيه، ثم دعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: «انفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلىٰ الإسلام ...**».

فقوله: «**انفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلىٰ الإسلام**».[٢١٧] هذا هو موطن الشاهد والمناسبة من إيراد هذا الحديث في الباب.

قال: «**ثم ادعهم إلىٰ الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالىٰ فيه**». فالدعوة إلىٰ الإسلام هي الدعوة إلىٰ التوحيد؛ لأن أعظم أركان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وضم إليها عليه الصلاة والسلام أيضًا أن يدعوهم إلىٰ حق الله فيه، يعني: إلىٰ ما يجب عليهم من حق الله فيه.

فقوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه» يعني: في الإسلام، من جهة التوحيد، ومن جهة الفرائض، واجتناب المحرمات؛ ولهذا يجب أن تبدأ بالدعوة أولًا إلىٰ أصل الإسلام، وهو التوحيد، وبيان معنىٰ الشهادتين، ثم بيان المحرمات، والواجبات؛ لأن أصل الأصول هو أولىٰ الواجبات بالتقديم.

---

(٢١٧)سبق تخريجه.

ومما يلاحظ -هنا- أن آية سورة يوسف فيها بيان أن كل الصحابة كانوا دعاة إلىٰ الله -جل وعلا- وإلىٰ التوحيد، وحديث معاذ يبين أن معاذًا كان من الدعاة إلىٰ الله، وقد فصّل فيه نوع تلك الدعوة إلىٰ الله -جل وعلا- وكذلك حديث سهل بن سعد الذي فيه قصة علي فيه أيضًا الدعوة إلىٰ الإسلام، فيكون هذان الحديثان كالتفصيل لقوله في الآية: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ فالدعوة علىٰ بصيرة هي الدعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وهي الدعوة إلىٰ توحيده، وإلىٰ الإسلام، وما يجب علىٰ العباد من حق الله فيه.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه ﷺ، أي لقوله: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨] .

الثانية: التنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثيرًا لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه، أي لقوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: ليعبد الله وحده لا لشيء آخر: من تحصيل جاه ومنزلة عند الناس وغيرهما، فإن ذلك ينافي الإخلاص.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض، أي: لما جعل اتباعه من كان على بصيرة، ودعا إلى الله على بصيرة، ومن ليس كذلك، فليس منهم حقيقة دل ذلك على أنها من الفرائض ؛ لأن اتباعه فرض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه الله -تعالى- عن المسبة، أي لقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾[يوسف:١٠٨]، وذلك أنه نزه الله أن يكون له شريك، فدل على أن إفراده بالعبادة الذي هو التوحيد حسن مطلوب مأمور به.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله، أي لقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، معناه: وقل تنزيهًا لله أن يكون له شريك أو معبود سواه، فلما نزه نفسه عنه دل على قبحه.

السادسة: وهي من أهمها إبعاد المسلم عن المشركين ؛ لئلا يصير منهم ولو لم يشرك، أي لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾، أي: لست منهم، ولا هم مني، أنا منهم بريء، وهم مني براء، وقوله: ولو لم يشرك، أي: إذا لم يتبرأ من المشركين صار منهم ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب، أي: حيث لم يأمر بشيء من الأعمال قبله، بل أمر به قبل كل شيء، ولو كان هناك شيء أوجب لبدأ به قبله لما أرسل معاذًا.

الثامنة: أنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة، أي لقوله: فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات.

التاسعة: أن معنىٰ أن يوحدوا الله: معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، أي لقوله: فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وفي رواية: إلىٰ أن يوحدوا الله، فدل ذلك علىٰ أن معناها إفراد الله بالعبادة ليس قولها باللسان فقط.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها، أي: لكونه أمره أن يدعوهم إليها مع أنهم أهل كتاب ولو كانوا يعرفونها ويعملون بها لما احتاج إلىٰ أمره بذلك.

الحادية عشرة: التنبيه علىٰ التعليم بالتدريج، أي: لكونه أمره أن يدعو إلىٰ الشهادة أولا ثم الصلاة ثم الزكاة، أو لم يأمره أن يدعوهم إليها جميعًا دفعةً واحدةً.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم؛ أي لكونه بدأ بالتوحيد أولاً، ثم ثنىٰ بالصلاة، ثم ثلث بالزكاة.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة، أي: إنها تؤخذ من الأغنياء فترد علىٰ الفقراء.

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم، أي لقوله «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب...**» إلخ فنبهه بذلك ليأخذ أهبته.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال، أي لقوله: «**وإياك وكرائم أموالهم**».

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم، أي لقوله: «**واتق دعوة المظلوم**» ومعناه: اجعل بينك وبينها وقاية بفعل العدل وترك الظلم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب، أي لقوله: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**».

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرىٰ علىٰ سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء، أن ما حصل لهم يوم خيبر من الجوع ما حصل لعلي من الرمد، وهذا يدل علىٰ أنهم لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا دفعًا، فكيف بغيرهم؟! فلا يصرف لهم شيء من العبادة، بل ذلك كله حقٌّ لله تعالىٰ.

التاسعة عشرة: قوله: لأعطينَّ الراية... إلخ، علم من أعلام النبوة، أي، لكونه أخبر بذلك فوقع كما أخبر .

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضًا، أي لكونه: عوفي في الحال كأن لم يكن به وجع.

الحادية والعشرون: فضيلة علي رضي الله عنه، أي: لكونه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.

الثانية والعشرون: فضل ا لصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح، أي: إنهم خاضوا فيمن يدفعها إليه، وكلٌّ منهم تمنىٰ ذلك ؛ حرصًا علىٰ محبة الله ورسوله ولم يبشر بعضهم بعضًا بحصول الفتح مع أنه أخبر به.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ومنعها عمن سعىٰ، أي: لما قدر الله أنها تحصل لعلي حصلت له وهو لم يسع إليها والصحابة لما قدر أنها لا تحصل لهم لم يفدهم سعيهم لها حصولها.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «**علىٰ رسلك**»، أي: علىٰ مهلك بتؤدة وطمأنينة لا بطيش وعجلة، فإنها خلاف الأدب.

الخامسة والعشرون: الدعوة إلىٰ الإسلام قبل القتال، أي لقوله: «**ثم ادعهم إلىٰ الإسلام**».

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا، أي: حيث أمر عليًّا أن يدعو اليهود، مع كونهم دعوا قبل ذلك وقوتلوا لما كانوا في المدينة قبل أن يجلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة لقوله: «**أخبرهم بما يجب**»، أي: حيث أمره أن يخبرهم بالواجب عليهم كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:١٢٥] الآية.

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام، أي: لما أمره أن يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه دل ذلك علىٰ معرفته، وأنه واجب، وحق الله في الإسلام فعل الواجبات وترك المنهيات.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدىٰ علىٰ يديه رجل واحد، أي لقوله: « **لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمرِ النَّعَم**».

الثلاثون: الحلف علىٰ الفتيا، أي لقوله: «**فوالله لأن يهدي الله بك...**»إلخ.

* الأسئلة *

س: اذكر مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجوب التوحيد وفضله وما يوجب الخوف من ضده؛ نبه بهذا الباب على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم.

س: ما حكم الدعوة إلى الدين الإسلامي وبأي: شيء يبدأ الداعي ولماذا وما الدليل؟

جـ: الدعوة إلى الدين الإسلامي واجبة ويبدأ الداعي بالدعوة إلى التوحيد؛ لأنه أفرض الفروض وأوجب الواجبات وهو الأساس لجميع الأعمال فلا تقبل إلا بعد صحة التوحيد والدليل قوله ﷺ لمعاذ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**.

قوله: «قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ...﴾[يوسف:١٠٨]».

س: وضح معاني المفردات الآتية: سبيلي، بصيرة، سبحان الله، ثم اشرح الآية وبين مناسبتها للباب، واذكر ما يستفاد منها؟

جـ: **سبيلي**: طريقتي ودعوتي، **بصيرة**: علم ويقين، **سبحان الله**: تنزيها لله من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه.

شرح الآية: يقول الله تعالى: قل يا محمد هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون سواه؛ هي طريقتي أدعو إلى الله على علم ويقين ويدعو إليه من آمن بي وصدقني ومنزها لله عن الشرك ومتبرئ من المشركين.

ومناسبة الآية للباب:

أن الدعوة إلى الله على بصيرة وعلم هي طريق الرسول ﷺ وأتباعه فعلينا أن نفعل ذلك لنكون من أتباعه.

ويستفاد من الآية:

١ – أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع النبي ﷺ.

٢ – التنبيه على الإخلاص في الدعوة إلى الله.

٣ - أن البصيرة وهي العلم من الواجبات على الداعي إلى الله.

٤ - إبعاد المسلم عن المشركين؛ لأن لا يصير منهم ولو لم يشرك.

قوله: «عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن...».

س: ما معنى بعث؟ ولماذا؟ ومتى بعثه، ما المراد بأهل الكتاب، ما معنى أطاعوك لذلك، افترض، وما المقصود بالصدقة هنا؟ ما معنى إياك وما هي كرائم الأموال؟ وما معنى اتق دعوة المظلوم؟ وما هو الشاهد من الحديث؟ واذكر ما يستفاد منه؟

ج: بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن؛ أي: أرسله داعيًا ومعلمًا وحاكمًا في السنة العاشرة من الهجرة؛ والمراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى؛ ومعنى أطاعوك لذلك: شهدوا وانقادوا لذلك؛ ومعنى افترض: ألزم وأوجب؛ والمراد بالصدقة هنا الزكاة؛ ومعنى إياك: أحذرك، وكرائم الأموال أحسنها وأنفعها وأكثرها ثمنًا؛ ومعنى اتق دعوة المظلوم: اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم؛ والشاهد من الحديث للباب: قوله «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**».

ما يستفاد من الحديث:

١ - أن التوحيد أول الواجبات وأنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة.

٢ - التنبيه على التعليم بالتدريج والبدأة بالأهم فالأهم.

٣ - أن الصلوات الخمس أعظم واجب بعد الشهادتين.

٤ - أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات.

٥ - أن الزكاة تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء.

٦ - أنه يحرم على العامل في الزكاة أخذ كرائم الأموال.

٧ - تحريم الظلم واتقاء دعوة المظلوم وأنها لا تحجب.

قوله: «عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر لأعطين الراية...».

س: ما هو يوم خيبر، ثم بين معاني الكلمات الآتية: الراية، يدوكون، فبصق، فبرأ انفذ، على رسلك، ساحتهم، حمر النعم، ما هو حق الله تعالى في الإسلام اذكر الشاهد من الحديث للباب وبين فوائده.

ج: يوم خيبر: يوم غزوة خيبر وهي قرية قرب المدينة؛ الراية: علم الحرب؛ يدوكون: يخوضوه ويتحدثون؛ بصق: تفل؛ فبرأ: زال عنه الألم، انفذ: امض واذهب؛ على رسلك: على مهلك من غير عجلة؛ ساحتهم: ما قرب منهم؛ حمر النعم: الإبل ذوات اللون الأحمر وهي أنفس أموال العرب؛

حق الله تعالىٰ في الإسلام: جميع الواجبات المفروضة كالصلاة والزكاة والصوم والحج.

والشاهد من الحديث للباب قوله: «ثم ادعهم إلىٰ الإسلام».

ما يستفاد من الحديث:

١ - فضيلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٢ - إثبات صفة المحبة لله تعالىٰ كما يليق بجلاله وعظمته.

٣ - البشارة بحصول الفتح علم من أعلام النبوه.

٤ - فضل الصحابة رضي الله عنهم في حرصهم علىٰ الخير وتنافسهم فيه.

٥ - أن الدعوة إلىٰ الإسلام قبل القتال في حق من لم تبلغهم الدعوة.

٦ - ثواب من اهتدىٰ علىٰ يديه رجل واحد.

٧ - جواز الحلف علىٰ الفتيا والخبر ولو لم يستحلف.

٨ - مشروعية بعث الإمام الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ وأمرهم بالرفق من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة.



الدرس السادس:

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ... ﴾الآية [الإسراء:٥٧].

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي... ﴾الآية [الزُّخرُف:٢٦، ٢٧]

وقوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ... ﴾الآية [التوبة:٣١].

وقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ... ﴾الآية [البقرة:١٦٥].

وفي «الصحيح» عن النبيﷺ: [أنه قال][(٢١٨)]: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على اللهﷻ»[(٢١٩)]. وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.

فيه مسائل:

فيه أكبر المسائل وأهمها.

وهي تفسير التوحيد وتفسير الشهادة.

وبينها بأمور واضحة.

منها آية الإسراء: بين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها آية براءة: بيّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله.

وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهًا واحدًا، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد[في المعصية][(٢٢٠)]، لا دعاؤهم إياهم.

---

(٢١٨) سقط من نسخة ابن قاسم.

(٢١٩) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس...، برقم (٢٣)، من حديث مالك بن ربيعة ﷺ.

(٢٢٠) في نسخة السعدي: «في غير المعصية».

ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف:٢٧،٢٦].

فاستثنى من المعبودين ربه.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٨].

ومنها آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٧]. ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنه يحبون الله حبًّا عظيمًا، لم يدخلهم في الإسلام؛ فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!

ومنها قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل».

وهذا من أعظم ما يبين معنى «لا إله إلا الله»، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله. فإن شك أو توقف؛ لم يحرم ماله ولا دمه. فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها! ويا له من بيان ما أوضحه! وحجة ما أقطعها للمنازع!.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله»:

عطف الشهادة على التوحيد من عطف الدال على المدلول؛ فإن التوحيد هو معنى لا إله إلا الله ومدلولها مطابقة؛ يعني: باب بيان إيضاح التوحيد، توحيد الإلهية والعبادة؛ لأنه هو المقصود بالذات من تصنيف الكتاب، وبيان مدلول شهادة ألا إله إلا الله من النفي والإثبات، وما تضمنته من إخلاص العبادة لله وحده دون ما سواه؛ فالتفسير تارة بذكر ما تحت اللفظ من معنى، وتارة بذكر الضد والمنافي؛ فإن قيل: قدم في أول الكتاب ما يبين معنى لا إله إلا الله وما تضمنته من التوحيد، فما فائدة هذه الترجمة؟ قيل: في هذه الآيات التي في هذا الباب بخصوصها مزيد بيان لمعنى كلمة الإخلاص، وما دلت عليه من توحيد العبادة، والحجة على من تعلق على الأولياء والصالحين.

❁ قوله: «وقوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾»:

يتبين معنىٰ هذه الآية بذكر ما قبلها وهو قوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم ﴾[الإسراء:٥٦] صيغة عموم شمل كل مدعو من دون الله من الأنداد، وارغبوا إليهم، فإنهم؛ يعني جميع من يدعي من دون الله: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾[الإسراء:٥٦]، أي: بالكلية ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾؛ أي: ولا يحولونه إلىٰ غيركم؛ فإن الذي يقدر علىٰ ذلك هو الله وحده لا شريك له؛ فهو المستحق أن يفرد بجميع العبادة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾[الإسراء:٥٧]؛ أي: يدعوهم أهل الشرك، ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، عباد أمثالهم مقهورون مربوبون. فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾اسم موصول يتناول كل مدعو من دون الله. قال ابن عباس: «**كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا**»[٢٢١]، والذين هم يدعون: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾[الإسراء:٥٧]، أي: يتبارون في طلب القرب، فيطلبون القرب من الله بالإخلاص له، وطاعته فيما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه. وقال ابن عطية: أخبر تعالىٰ أن هؤلاء المعبودين يطلبون التقرب إلىٰ الله، والتزلف إليه، فـ﴿أَيُّهُمۡ﴾مبتدأ وخبره ﴿أَقۡرَبُ﴾و﴿ أُوْلَٰٓئِكَ﴾يراد بهم المعبودون، وهو مبتدأ، وخبره ﴿يَبۡتَغُونَ ﴾، والضمير في ﴿يَدۡعُونَ ﴾للكفار، وفي ﴿يَبۡتَغُونَ ﴾للمعبودين، و ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ما يتقرب به، وتوسل إلىٰ الله عمل عملًا تقرب به إليه، ولما أعد الله لأوليائه الكرامة، جعل لذلك وسيلة، وهي عبادة الله بامتثال ما أمر به، وأعظم القرب التوحيد الذي بعث الله به رسله، وهو الذي يقربهم إلىٰ الله؛ أي: إلىٰ عفوه ورضاه، ووصف ذلك بقوله: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء:٥٧]، فلا يرجون أحدًا سواه، ولا يخافون غيره.

قال شيخ الإسلام: «فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعوًا، وذلك المدعو يبتغي إلىٰ الله الوسيلة، ويرجو رحمته ويخاف عذابه، فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين، سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها، فقد تناولته هذه الآية كما تتناول من دعا الملائكة والجن، فقد نهىٰ الله عن دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين، ولا تحويله، لا يرفعونه بالكلية،

---

(٢٢١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٠٤)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولا يحولونه من موضع إلىٰ موضع آخر كتغيير صفته أو قدره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فذكر نكرة تعم أنواع التحويل، فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه، ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله» اهـ.

فإذا كان دعاء الأولياء والصالحين شركًا، عرفنا أن التوحيد هو دعاء الله وحده لا شريك له، فكان في هذه الآية تفسير التوحيد، وأنها دلت علىٰ أن دعوة الله وحده هي التوحيد، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة، وهو تفسير الشيء بضده...

قوله: «وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ ...﴾»:

وتمامها: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[الزخرف:٢٧، ٢٨]، في ذريته من بعده، يدينون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إليها، والكلمة هي: لا إله إلا الله بإجماع أهل العلم. وقد عبر عنها الخليل بمعناها الذي أريدت به؛ فعبر عما نفته بقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾[الزخرف:٢٦]، وعما أثبتته بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[الزخرف:٢٧]؛ أي: خلقني، فقصر العبادة علىٰ الله وحده، ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك.

قال ابن كثير: «هذه الكلمة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله، جعلها في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله منهم، ففي الآية معنىٰ لا إله إلا الله مطابقة، فإن هذه «اللام» تسمَّىٰ «لام النفي»، و«لام التبرئة»؛ فتبين أن معناها النفي والإثبات، والتجريد والتفريد، والولاء والبراء، وتبين أن معنىٰ لا إله إلا الله توحيد الله بإخلاص العبادة له، والبراءة من عبادة كل ما سواه».

قوله: «وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾»:

الأحبار العلماء، والرهبان هم العباد، وجعلوهم مشرعين في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل، فصاروا بذلك أربابًا؛ لأن التشريع من خصائص الربوبية، كما أن العبادة من مستحقات الربوبية، وفسر رسول الله ﷺ هذه الآية لعدي لما قال: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «**بلىٰ إنهم حرموا عليهم الحلال، وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»[٢٢٢]. رواه أحمد وغيره، وحسنه الترمذي. وقوله:

---

(٢٢٢) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: «ومن سورة التوبة»، برقم (٣٠٩٥)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾؛ أي: اتخذوه ربًا بعبادتهم له: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣١]. فدلت على أن من أطاع غير الله في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا، وجعله لله شريكًا، وذلك ينافي التوحيد، فكل معبود رب، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع ربًّا ومعبودًا، والرب هو المعبود، ولا يطلق معرفًا إلا على الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:١٢١] وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة، أن من اتخذ شخصًا يحلل ما حلل، ويحرم ما حرم فهو مشرك؛ والتوحيد الذي هو مدلول شهادة ألا إله إلا الله هو إفراد الله بالطاعة في تحريم ما حرم، وتحليل ما حلل، وهذه الآية كقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]يعني: وأنتم كفار، ونحن بريئون منكم، وأنتم بريئون منا.

قال شيخ الإسلام: «وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا على وجهين: **أحدهما**: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرمه الله، أو تحريم ما أحل اتباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله شركًا. **الثاني**: أن يكون اعتقادهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام ثابتًا؛ لكونهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما ثبت «إنما الطاعة في المعروف»، ثم ذكر المحرم للحلال إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول ﷺ ولكن خفي عليه الحق، وقد اتقى الله، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، ولكن من علم أن هذا خطأ ثم اتبعه، وعدل عن قول الرسول ﷺ فله نصيب من هذا الشرك، لاسيما إن اتبع في ذلك هواه، ونصره باليد واللسان، مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ فهذا شرك، وإن كان المتبع للمجتهد عاجزًا، وفعل ما يقدر عليه فلا يؤاخذ إن أخطأ».

❁ **قوله**: «وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ...﴾»:

(من) للتبعيض؛ أي: فريق من الناس، وقد ذكر حال المتخذين الأنداد على سبيل الذم، فإنه ذكر حال المشركين حيث جعلوا لله أندادًا، أي: أمثالًا ونظراء يعبدونهم معه و ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾أي: يسوّونهم في المحبة المقتضية الذل للمحبوب، والخضوع له كحب الله. وهو الله لا إله إلا هو، لا ضد له، ولا ند له، ولا شريك له، وكل من صرف من العبادة شيئًا لغير الله رغبة

إليه، أو رهبة منه فقد اتخذه ندًّا لله، وفي «الصحيحين»: عن ابن مسعود مرفوعًا قال: **«أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك»**[٢٢٣]: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥] من أصحاب الأنداد لأندادهم، ولحبهم له، وتمام معرفتهم به لا يشركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده. ثم توعد المشركين فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾[البقرة:١٦٥] يقول: لو علموا ما يعاينونه هنا، وما يحل بهم من الأمر الفظيع علىٰ شركهم؛ لانتهوا عما هم فيه من الضلالة.

قال المصنف: «ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل علىٰ أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند حبًّا أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟» اهـ. فمن أشرك مع الله غيره في المحبة فقد جعله شريكًا لله في العبادة، واتخذ ندًّا من دون الله، وذلك هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه لقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٧]، والمراد محبة التأله والتعظيم المختصة برب العالمين، التي هي إحدىٰ القاعدتين اللتين عليهما مدار العبادة كما قال ابن القيم:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

إلىٰ أن قال:

ليس العبادة غير توحيد المحبة ... مع خضوع القلب والأركان

وهذا هو الذي اعترف به المشركون، وهم بين أطباق الجحيم، أنهم صاروا في الجحيم بسببه حيث قالوا: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الشعراء:٩٨]، ومن المعلوم أنهم ما ساووهم به في الخلق والتدبير، إنما ساووهم به في هذه المحبة، فدلت الآية علىٰ أن من اتخذ ندًّا مع الله يحبه كمحبة الله فقد أشرك الشرك الأكبر المنافي للتوحيد؛ فإذا عرفنا أن هذا شرك؛ فالتوحيد ضده، وهو أن يفرد الرب بهذه المحبة المختصة التي هي التوحيد، وبذلك ظهر معنىٰ التوحيد وتفسيره، وشهادة ألا إله إلا الله. وأما محبة الملائمات وهي المحبة الطبيعية فلا تكون شركًا، ويأتي بيان ذلك في بابه إن شاء الله تعالىٰ.

---

(٢٢٣) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالىٰ ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، برقم (٤٤٧٧)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب...، برقم (٨٦)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

❁ **قوله: «وفي الصحيح عن النبيﷺ: من قال: لا إله إلا الله»:**

أي: وفي «صحيح مسلم» عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه عن النبيﷺ، وأبو مالك اسمه سعد بن طارق، كوفي ثقة مات في حدود الأربعين ومائة، وأبوه طارق بن أشيم الأشجعي صحابي له أحاديث. ورواه أحمد بلفظ «**من وحد الله، وكفر بما يعبد من دون الله**»(٢٢٤) فهذا يفسر لا إله إلا الله؛ فعلقﷺ عصمة المال والدم في هذا الحديث بأمرين: الأول: قول لا إله إلا الله عن علم ويقين، كما قد قيد ذلك في قولها في غير ما حديث، فإن من قالها في زمن النبيﷺ قبل وجود النفاق، لا يقولها إلا عن صدق وعمل بها، وعلم بما دلت عليه من النفي والإثبات. والثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنىٰ، بل لا بد من قولها والعمل بها، والبراءة مما ينافيها؛ فإن النبيﷺ علق عصمة الدم بالأمرين جميعا، قولها عن علم ويقين، والكفر بما يعبد من دون الله؛ ففيه أنه لا يحرم ماله ودمه إلا إذا قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، فإن قالها ولم يكفر بما يعبد من دون الله لم يأت بما يعصم ماله ودمه، وفيه معنىٰ قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة:٢٦٥].

قال المصنف: «وهذا من أعظم ما يبين لك معنىٰ لا إله إلا الله؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أجلها وأعظمها، ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع» اهـ. وهذا هو الشرط المصحح لقول لا إله إلا الله، فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التي ذكر أصلًا، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[الأنفال:٣٩]، وقال: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[التوبة:٥] الآية، أمر بقتالهم حتىٰ يتوبوا من الشرك، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعا، بل أجمعوا علىٰ أن من قال: لا إله إلا الله ولم يعتقد معناها، ولم يعمل بمقتضاها، أنه يقاتل حتىٰ يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات. وفي «الصحيحين»: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا**

---

(٢٢٤) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٤) من حديث طارق بن أشيم رضي الله عنه.

الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[٢٢٥]. وفي رواية: «**ويؤمنوا بي وبما جئت به**»[٢٢٦]، فلا بد من الإيمان بجميع ما جاء به الرسولﷺ، فأيما طائفة امتنعت عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة، فإنه يجب قتالها كما قاتل أبو بكر مانعي الزكاة، واتفق عليه الصحابة والفقهاء، ويكفي المنصف ما ذكره العلماء من كل مذهب في باب حكم المرتد، فإنهم ذكروا فيه أشياء كثيرة يكفر بها الإنسان. والكفر لغة الستر، وكفر يكفر كفرًا وكفرانًا: ضد آمن، وسمي الكافر كافرًا لأنه مغطى على قلبه، وشرعًا: تكذيبهﷺ في شيء مما جاء به.

❁ **قوله: «وحسابه على الله عزوجل»:**

أي: الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى حسابه، وهو المطلع على السرائر، فإن كان صادقًا جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقا عذبه العذاب الأليم. وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهرًا، وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

❁ **قوله: «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب»:**

ترجمة الكتاب فاتحته؛ وشرحها: تفسيرها وتبينها، وتوضيح معناها؛ وذلك أن ما بعدها فيه ما يبين التوحيد، ويوضح معنى لا إله إلا الله، وفيه بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر، وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله، وقد جمع رَحِمَهُ الله في هذا الكتاب على اختصاره من بيان التوحيد ما لم يسبقه إليه سابق، ولا لحقه فيه لاحق، وما لا يعذر أحد عن معرفته، فمن استحضره استغنى به عن غيره في بيان التوحيد، والرد على كل مبتدع.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله»:**

هما بمعنى واحد، فهو من باب عطف المترادفين، وهذه المسألة أكبر المسائل وأهمها، كما قال المصنف رَحِمَهُ الله.

---

(٢٢٥) سبق تخريجه.

(٢٢٦) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، برقم (٣٤/ ٢١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ الله عَنْهُ.

وحقيقة تفسير التوحيد: العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له.

وذلك يرجع إلىٰ أمرين: نفي الألوهية كلها عن غير الله، بأن يعلم ويعتقد أن لا يستحق الإلهية ولا شيئًا من العبودية أحد من الخلق: لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا غيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق في ذلك حظ ولا نصيب.

والأمر الثاني: إثبات الألوهية لله تعالىٰ وحده لا شريك له، وتفرده بمعاني الألوهية كلها، وهي نعوت الكمال كلها، ولا يكفي هذا الاعتقاد وحده حتىٰ يحققه العبد بإخلاص كلمة الدين كله لله، فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه، قاصدًا بذلك وجه الله، وطالبًا رضوانه وثوابه.

ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله، وأن اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله، أو يطيعهم كطاعة الله، أو يعمل لهم كما يعمل لله ينافي معنىٰ: لا إله إلا الله أشد المنافاة

وبين المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن من أعظم ما يبين معنىٰ لا إله إلا الله قوله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه علىٰ الله**». فلم يجعل مجرد التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ولا دمه حتىٰ يضيف إلىٰ ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه.

فتبين بذلك أنه لا بد من اعتقاد وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، ومن الإقرار بذلك اعتقادًا ونطقًا، ولا بد من القيام بعبودية الله وحده: طاعة لله وانقيادًا، ولا بد من البراءة مما ينافي ذلك عقدًا وقولًا وفعلًا

ولا يتم ذلك إلا بمحبة القائمين بتوحيد الله وموالاتهم ونصرتهم، وبغض أهل الكفر والشرك ومعاداتهم، لا تغني في هذا المقام الألفاظ المجردة ولا الدعاوىٰ الخالية من الحقيقة، بل لا بد أن يتطابق العلم والاعتقاد والقول والعمل، فإن هذه الأشياء متلازمة متىٰ تخلف واحد منها تخلفت البقية، والله أعلم.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله»:

بيَّن المؤلف هنا تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله بما يوافق لفظها وبما يضادها؛ لأن الشيء يعرف بضده وقد قيل: والضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء، وذكر هذا الباب لتعرف حقيقة التوحيد، وحقيقته: هو إفراد الله بالعبادة وتخصيصه بها وبجميع أنواع العبادة فتؤمن بذلك بالقلب وتعمل بالجوارح.

وقوله: «**وشهادة أن لا إله إلا الله**»: هذا من باب عطف الدال -الشهادة- على المدلول وهو التوحيد؛ فالتوحيد هو شهادة بالله وحده.

❁ **قوله:** «**قوله تعالى:** ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾[الإسراء:٥٧]»:

وقبله قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾[الإسراء:٥٦] فدعاء من لا يملك كشف الضر أو جلب النفع من دون الله، هذا هو الشرك وضده هو التوحيد.

فقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾؛ أي: قل يا محمد هؤلاء ادعوا الذين زعمتم -توبيخ لهم وتقريع- أي: ادعوا آلهتكم الذين تدعون من دون الله ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ﴾؛ أي: الضر كله ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ولا تحويله من مكان إلى آخر من الرأس إلى الرجل مثلًا -بل هذا لله وحده هو الكاشف للضر والجالب للنفع.

وقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾: أراد بهم من يدعو الملائكة والأنبياء والصالحين لذلك قال: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾؛ أي: هؤلاء المدعون صالحون في أنفسهم ومع ذلك لا يملكون كشف الضر ولا تحويله، فغيرهم من الأصنام من باب أولى.

والوسيلة: التقرب إلى الله بالطاعة ﴿أَقۡرَبُ لَكُمۡ﴾[النساء:١١]؛ أي: يجتهدون إلى الله بتوسلهم وعبادتهم له بأنواع الطاعات ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء:٥٧] لأنهم عبيده ويرجون ويخافون فكيف يستغاث بهم؟

❁ **قوله:** «وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف:٢٦،٢٧]»:

هذا تفسير التوحيد بمعناه فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾كقولنا: لا إله، وقوله إلا الذي فطرني كقولنا إلا الله، والفطر: الخلق.

فبين أن معنىٰ التوحيد من عبادة غير الله وإنكارها واعتقاد بطلانها والرد عليها والتوحيد لله وحده بجميع أنواع العبادات.

تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب:

❁ **قوله:** «وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]»:

بيَّن أن هذا شرك بالله، وأن التوحيد هو أن لا يعبد إلا الله لا راهب ولا حبر ولا نبي ولا صالح، خلافًا لما فعله اليهود من اتخاذ الأحبار، والنصارىٰ من اتخاذ الرهبان أربأبا بحيث يحلون ما أحلوا ويحرمون ما حرموا بدون دليل وإن خالف شرع الله وما جاءت به الرسل فصاروا بهذا عابدين لهم؛ لأنهم أطاعوهم فيما خالف الشرع وقدموه عليه كما في حديث عدي بن حاتم «**فتلك عبادتهم**» [٢٢٧] ويصير بذلك مشركًا كما قال بعد ذلك ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

فائدة:

بالنسبة لأصحاب القبور فقد اتخذوهم القبوريين آلهة من دون الله والواجب أن يبين لهم الحق؛ لأن عملهم كفر من أعظم الكفر، ولكن لا يقتلون بل يبين لهم الحق لإقامة الحجة عليهم فإن أصروا قتلوا إن يسر الله من يقيم ذلك عليهم.

❁ **قوله:** «**قوله:** ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا ...﴾ [البقرة:١٦٥] **الآية**»:

هذا أيضًا من تفسير التوحيد بضده، وهو عن الذين يتخذون أندادًا يحبهم ويعظمهم ويدعوهم ويستغيث بهم أو يحبهم حبًّا خاصًّا يقتضي عبادتهم من دون الله هذا هو الشرك الأكبر، والله ذم هؤلاء، وتوعدهم بالنار كما في آخر الآيات ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٦].

❁ **قوله:** «**وفي «الصحيح» مرفوعًا: من قال لا إله إلا الله وكفر ...**»:

وقوله: «**من قال لا إله إلا الله**» وفي رواية: من وحد الله. وهذا يبين معنىٰ لا إله إلا الله وأنه هو التوحيد.

قوله: «**كفر بما يعبد من دون الله**»: أنكر كل ما يعبد من دون الله واعتقد ذلك بقلبه «**حرم ماله ودمه**»؛ أي: صار مسلمًا ويلزمه القيام بشرائع الله.

---

(٢٢٧)سبق تخريجه.

«**وحسابه على الله**»: فإذا كان صادقًا فله الجنة، وإن قالها بلسانه لا بقلبه فهو من المنافقين حكمه حكمهم في الدنيا وفي الآخرة في النار. اهـ

ومنها آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٧]، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟

ومنها قوله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه، وحسابه على الله**».

وهذا من أعظم ما يبين معنى -لا إله إلا الله- فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه، فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، وياله من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله**: «**باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**»:

التفسير معناه: الكشف والإيضاح، مأخوذ من قولهم: فسرت الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فسرت ثوبي؛ فاتضح ما وراءه، ومنه تفسير القرآن الكريم.

والتوحيد تقدم تعريفه، والمراد به هنا اعتقاد أن الله واحد في ألوهيته.

وقوله: «**شهادة أن لا إله إلا الله**»: معطوف على التوحيد؛ أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله.

والعطف هنا من باب عطف المترادفين؛ لأن التوحيد حقيقة هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وهذا الباب مهم؛ لأنه لما سبق الكلام على التوحيد وفضله والدعوة إليه، كأن النفس الآن اشرأبت إلى بيان ما هو هذا التوحيد الذي بوب له هذه الأبواب «وجوبه، وفضله، والدعوة إليه».

فيجاب بهذا الباب، وهو تفسير التوحيد، وقد ذكر المؤلف خمس آيات:

❁ **الآية الأولى: قوله تعالى**: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾. «أولاء»: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول بدل منه. ﴿يَدْعُونَ﴾: صلة الموصول. وجملة ﴿يَبْتَغُونَ﴾: خبر المبتدأ؛ أي:

هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء هم أنفسهم يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة أيهم أقرب؛ فكيف تدعونهم وهم محتاجون مفتقرون؟! فهذا سفه في الحقيقة، وهذا ينطبق علىٰ كل من دعي، وهو داع؛ كعيسىٰ بن مريم، والملائكة، والأولياء، والصالحين، وأما الشجر والحجر، فلا يدخل في الآية.

فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لا يملكون كشف الضر ولا تحويله من مكان إلىٰ مكان؛ لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة أيهم أقرب، وقد قال تعالىٰ مبينًا حال هؤلاء المدعوين: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣، ١٤]

قوله: ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ أي: دعاء مسألة؛ كمن يدعو عليًا عند وقوعهم في الشدائد، وكمن يدعو النبي ﷺ يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وقد يكون دعاء عبادة؛ كمن يتذلل لهم بالتقرب، والنذر، والركوع، والسجود.

قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ﴾: يطلبون.

قوله: ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾؛ أي: الشيء الذي يوصلهم إلىٰ الله؛ يعني: يطلبون ما يكون وسيلة إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- أيهم اقرب إلىٰ الله، وكذلك أيضًا يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وجه مناسبة الآية للباب باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله:

أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لا يدعو مع الله أحدًا؛ لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا، وهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والملائكة لم يتبرؤا من الشرك، بل هم واقعون فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم في حاجة إلىٰ ما يقربهم إلىٰ الله تعالىٰ؛ فهم غير مستغنين عن الله بأنفسهم، فكيف يغنون غيرهم؟!

❁ **الآية الثانية والثالثة: قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ ...﴾[الزخرف:٢٦] الآيتين.

قوله: ﴿بَرَآءٞ﴾: علىٰ وزن فعال، وهي صفة مشبهة من التبرؤ، وهو التخلي؛ أي: إنني متخل غاية التخلي عما تعبدون إلا الذي فطرني، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام قوي في ذات الله، فقال ذلك معلنًا به لأبيه وقومه، وأبوه هو آزر.

قوله: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾: العبادة هنا التذلل والخضوع؛ لأن في قومه من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر والكواكب.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: جمع بين النفي والإثبات؛ فالنفي: ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾، والإثبات: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فدل على أن التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوى الله والإيمان بالله وحده، ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾[البقرة:٢٥٦]، وهؤلاء يعبدون الله ويعبدون غيره؛ لأنه قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، والأصل في الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم.

وكذا يوجد في بعض البلدان الإسلامية من يصلي ويزكي ويصوم ويحج، ومع ذلك يذهبون إلى القبور يسجدون لها ويركعون؛ فهم كفار غير موحدين، ولا يقبل منهم أي عمل، وهذا من أخطر ما يكون على الشعوب الإسلامية؛ لأن الكفر بما سوى الله عندهم ليس بشيء، وهذا جهل منهم، وتفريط من علمائهم؛ لأن العامي لا يأخذ إلا من عالمه، لكن بعض الناس -والعياذ بالله- عالم دولة لا عالم ملة.

وفي قول إبراهيم ﷺ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ولم يقل إلا الله؛ فائدتان:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة؛ لأنه كما أنه منفرد بالخلق؛ فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام؛ لأنها لم تفطركم حتى تعبدوها؛ ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات، وهذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم عليه السلام.

يستفاد من الآية أن التوحيد لا يحصل بعبادة الله مع غيره، بل لا بد من إخلاصه لله، والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

- قسم يعبد الله وحده.
- وقسم يعبد غيره فقط.
- وقسم يعبد الله وغيره.

والأول فقط هو الموحد.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَـٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا ...﴾ [التوبة:٣١] الآية.

قوله: ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾: والمعطوف عليها المفعول الأول لـ«اتخذوا»، والثاني: «أربابًا»؛ أي: هؤلاء اليهود والنصارى جعلوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا.

والأحبار: جمع حبر، وهو العالم، ويقال للعالم أيضًا بحر لكثرة علمه.

والحبر؛ بفتح «الحاء»، وكسرها يقال: حَبر، وحِبر.

قوله تعالى: ﴿وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾؛ أي: عبادهم.

وقوله: ﴿أَرْبَابًا﴾: جمع ربّ؛ أي: يجعلونهم أربابا من دون الله؛ فيجعلوا الأحبار أربابا لأنهم يأتمرون بأمرهم في مخالفة أمر الله، فيطيعونهم في معصية الله.

وجعلوا الرهبان أربابا باتخاذهم أولياء يعبدونهم من دون الله.

قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من غير الله.

قوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: معطوف على أحبارهم؛ أي: اتخذوا المسيح ابن مريم أيضًا ربًّا حيث قالوا: إنه ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ﴾؛ أي: يتذللوا بالطاعة لله وحده، الذي خلق المسيح والأحبار والرهبان والسماوات والأرض.

قوله: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود حق إلا هو.

قوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾: تنزيه لله عما يشركون.

وجه كون هذه الآية تفسيرًا للتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: أن الله أنكر عليهم اتخاذ الأحبار والرهبان أربأبا من دون الله، وهذه الآية سيأتي فيها ترجمة كاملة في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء في الطاعة، كلما أمروا بشيء أطاعوهم، سواء وافق أمر الله أم لا.

إذًا؛ فتفسير التوحيد أيضًا بلا إله إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده، ولهذا على الرغم من تأكيد النبي ﷺ لطاعة ولاة الأمر؛ قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»[٢٢٨].

❁ **الآية الخامسة: قوله تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ...﴾ [البقرة:١٦٥] الآية.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: «من» للتبعيض، وعلامتها أن يصح أن يحل محلها بعض، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ مبتدأ مؤخر؛ أي: من يجعل لله أندادًا، ومفعولها الأول «أندادًا» مؤخرًا، ومفعولها الثاني «من دون الله» مقدمًا.

---

(٢٢٨) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: سرية عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجزز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، برقم (٤٣٤٠)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في غير المعصية، برقم (١٨٤٠)، وغيرهما من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿يَتَّخِذُ﴾: جاءت بالإفراد مراعاة للفظ «من».

وقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: بالجمع مراعاة للمعنىٰ.

وقوله: ﴿أَندَادًا﴾: جمع ند، وهو الشبيه والنظير؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمن قال له ما شاء الله وشئت: «**أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وحده**»[٢٢٩].

وقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: هذا وجه المشابهة، أي: الندية في المحبة يحبونهم كحب الله، واختلف المفسرون في قوله: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾:

فقيل: يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله، فيكون في قلوبهم محبة لله ومحبة للأصنام، ويجعلون محبة الأصنام كمحبة الله؛ فيكون المصدر مضافًا إلىٰ مفعوله؛ أي: يحبون الأصنام كحبهم لله.

وقيل: يحبون هذه الأصنام محبة شديدة كمحبة المؤمنين لله.

وسياق هذه الآية يؤيد القول الأول.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾:

علىٰ الرأي: الأول يكون معناها: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء لله؛ لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة هؤلاء فيها شرك بين الله وبين أصنامهم.

وعلىٰ الرأي: الثاني معناها: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء لأصنامهم؛ لأن محبة المؤمنين ثابتة في السراء والضراء علىٰ برهان صحيح، بخلاف المشركين؛ فإن محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسهم الضر.

فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبته لله؟! وما بالك برجل يحب غير الله ولا يحب الله؟! فهذا أقبح وأعظم، وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم؛ فإنهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله؛ ولهذا لو قيل له: احلف بالله؛ حلف صادقًا أو كاذبًا، أما الولي؛ فلا يحلف به إلا صادقًا.

وتجد كثيرًا منهم يأتون إلىٰ مكة والمدينة ويرون أن زيارة قبر الرسول ﷺ أعظم من زيارة البيت؛ لأنهم يجدون في نفوسهم حبًّا لرسول الله ﷺ كحب الله أو أعظم، وهذا شرك، لأن الله يعلم أننا ما أحببنا رسول الله ﷺ إلا لحب الله، ولأنه رسول الله، ما أحببناه لأنه محمد بن عبدالله،

---

(٢٢٩) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

لكننا أحببناه؛ لأنه رسول الله ﷺ؛ فنحن نحبه بمحبة الله، لكن هؤلاء يجعلون محبة الله تابعة لمحبة الرسول ﷺ إن أحبوا الله.

فهذه الآية فيها محنة عظيمة لكثير من قلوب المسلمين اليوم الذين يجعلون غير الله مثل الله في المحبة، وفيه أناس أيضًا أشركوا بالله في محبة غيره، لا على وجه العبادة الشرعية؛ لكن على وجه العبادة المذكورة في الحديث وهي محبة الدرهم والدينار والخميصة والخميلة، يوجد أناس لو فتشت عن قلوبهم؛ لوجدت قلوبهم ملأى من محبة متاع الدنيا، وحتى هذا الذي جاء يصلي هو في المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا.

فهذا نوع من أنواع العبادة في الحقيقة، لو حاسب الإنسان نفسه لماذا خلق؟ لعلم أنه خلق لعبادة الله، وأيضًا خلق لدار أخرى ليست هذه الدار، فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلى الدار الأخرى، الدار التي خلق لها والتي يجب أن يعنى العمل لها، يا ليت شعري متى يومًا من الأيام فكر الإنسان ماذا عملت؟ وكم بقي لي في هذه الدنيا؟ وماذا كسبت؟ الأيام تمضي ولا أدري هل ازددت قربًا من الله أو بعدًا من الله؟ هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟

فلا بد لكل إنسان عاقل من غاية؛ فما هي غايته؟

نحن الآن نطلب العلم للتقرب إلى الله بطلبه، وإعلام أنفسنا، وإعلام غيرنا؛ فهل نحن كلما علمنا مسألة من المسائل طبقناها؟ نحن على كل حال نجد في أنفسنا قصورًا كثيرًا وتقصيرًا، وهل نحن إذا علمنا مسألة ندعو عباد الله إليها؟

هذا أمر يحتاج إلى محاسبة، ولذلك؛ فإن على طالب العلم مسئولية ليست هينة، عليه أكثر من زكاة المال؛ فيجب أن يعمل ويتحرك ويبث العلم والوعي في الأمة الإسلامية، وإلا انحرفت عن شرع الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: كل الأمور تسير بالمحبة؛ فأنت مثلًا لا تتحرك لشيء إلا وأنت تحبه، حتى اللقمة من الطعام لا تأكلها إلا لمحبتك لها.

ولهذا قيل: إن جميع الحركات مبناها على المحبة؛ فالمحبة أساس العمل، فالإشراك في المحبة إشراك بالله.

والمحبة أنواع:

الأول: المحبة لله، وهذه لا تنافي التوحيد، بل هي من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله.

والمحبة لله هي أن تحب هذا الشيء، لأن الله يحبه، سواء كان شخصًا أو عملًا، وهذا من تمام التوحيد.

قال مجنون ليلى:

أمر على الديار ديار ليلىٰ أُقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حبُّ من سكن الديارا

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء علىٰ محبة الله؛ فهذه لا تنافي محبة الله؛ كمحبة الزوجة، والولد، والمال؛ ولهذا لما سئل النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: «**عائشة**». قيل: فمن الرجال؟ قال: «**أبوها**»[٢٣٠].

ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

الثالث: المحبة مع الله التي تنافي محبة الله، وهي أن تكون محبة غير الله كمحبة الله أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة غيره قدم محبة غير الله، وذلك إذا جعل هذه المحبة ندًّا لمحبة الله يقدمها علىٰ محبة الله أو يساويها بها.

الشاهد من هذه الآية: أن الله جعل هؤلاء الذين ساووا محبة الله بمحبة غيره مشركين جاعلين لله أندادًا.

قوله: «وفي الصحيح»:

لم يفصح المؤلف رحمه الله بمراده بالصحيح؛ أهو «صحيح البخاري» أم «صحيح مسلم»، أم أن المراد به الحديث الصحيح؛ سواء كان في «الصحيحين» معًا أم في أحدهما أم في غيرهما، وليس له اصطلاح في ذلك يحمل عليه عند الإطلاق، وعلىٰ هذا يبحث عن الحديث في مظانه، وقد ورد هذا التعبير في سياق المؤلف للحديث في مواضع أخرىٰ، والمراد به هنا «صحيح مسلم».

---

(٢٣٠) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، برقم (٣٦٦٢)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: من فضائل أبي بكر رضي الله عنه، برقم (٢٣٨٤)، وغيرهما من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

قوله ﷺ «من قال لا إله إلا الله»؛ أي: لا معبود حق إلا الله: فلفظ الجلالة بدل من الضمير المستتر في الخبر، ومن يرىٰ أن «لا» تعمل في المعرفة يقولون: هو الخبر.

قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله»؛ أي: بعبادة من يعبد من دون الله؛ قلنا ذلك؛ لأن عيسىٰ بن مريم كان يعبد من دون الله، ونحن نؤمن به، لكن لا نؤمن بعبادته ولا بأنه مستحق للعبادة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٦، ١١٧].

وفي قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله»: دليل علىٰ أنه لا يكفي مجرد التلفظ بلا إله إلا الله، بل لا بد أن تكفر بعبادة من يُعبد من دون الله، بل وتكفر أيضًا بكل كفر، فمن يقول: لا إله إلا الله، ويرىٰ أن النصارىٰ واليهود اليوم علىٰ دين صحيح؛ فليس بمسلم، ومن يرىٰ الأديان أفكارًا يختار منها ما يريد؛ فليس بمسلم، بل الأديان عقائد مفروضة من قبل الله ﷻ يتمشىٰ الناس عليها، ولهذا ينكر علىٰ بعض الناس في تعبيره بقوله: الفكر الإسلامي، بل الواجب أن يقال: الدين الإسلامي أو العقيدة الإسلامية، ولا بأس بقول المفكر الإسلامي؛ لأنه وصف للشخص نفسه لا للدين الذي هو عليه.

قوله: «وشرح هذه الترجمة»، المراد بالشرح هنا: التفصيل، والترجمة: هي التعبير بلغة عن لغة أخرىٰ، ولكنها تطلق باصطلاح المؤلفين علىٰ العناوين والأبواب، فيقال: ترجم علىٰ كذا؛ أي: بوب له.

قوله: «فيه مسائل»:

قوله: «فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد؛ فتفسير التوحيد أنه لا بد فيه من أمرين:

الأول: نفيُ الألوهية عما سوىٰ الله ﷻ.

الثاني: إثبات الألوهية لله وحده؛ فلا بد من النفي والإثبات لتحقيق التوحيد؛ لأن التوحيد جعل الشيء واحدًا بالعقيدة والعمل، وهذا لا بد فيه من النفي والإثبات.

فإذا قلت: زيد قائم؛ أثبت له القيام ولم توحده، لكن إذا قلت: لا قائم إلا زيد، أثبت له القيام ووحدته به.

وإذا قلت: الله إله أثبت له الألوهية، لكن لم تنفها عن غيره؛ فالتوحيد لم يتم، وإذا قلت: لا إله إلا الله، أثبت الألوهية لله ونفيتها عما سواه.

قوله: «تفسير الشهادة». الشهادة: هي التعبير عما تيقنه الإنسان بقلبه؛ فقول: أشهد أن لا إله إلا الله؛ أي: أنطق بلساني معبرًا عما يكنه قلبي من اليقين وهو أنه لا إله إلا الله.

قوله: «منها آية الإسراء». وهو قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ....﴾ الآية [الإسراء:٥٧]، فبين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبين أن هذا هو الشرك الأكبر؛ لأن الدعاء من العبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]؛ فدل على أن الدعاء عبادة؛ لأن آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحدًا غير الله حيًّا أو ميتًا، فهو مشرك شركًا أكبر.

ودعاء المخلوق ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: جائز، وهو أن تدعو مخلوقًا بأمر من الأمور التي يمكن أن يدركها بأشياء محسوسة معلومة؛ فهذا ليس من دعاء العبادة، بل هو من الأمور الجائزة، قال ﷺ: «**وإذا دعاك فأجبه**»(٢٣١).

الثاني: أن تدعو مخلوقًا مطلقًا، سواء كان حيًّا أو ميتًا فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فهذا شرك أكبر لأنك جعلته ندًّا لله فيما لا يقدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان! اجعل ما في بطن امرأتي ذكرًا.

الثالث: أن تدعو مخلوقًا ميتًا لا يجيب بالوسائل الحسية المعلومة؛ فهذا شرك أكبر أيضًا لأنه لا يدعو من كان هذه حالة حتى يعتقد أن له تصرفًا خفيًّا في الكون.

قوله: «**ومنها آية براءة. بين فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله**». وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية؛ لأن الحكم شرعيًّا كان أو كونيًّا إلى الله تعالى، فهو من تمام ربوبيته، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص:٧٠].

والشيخ رحمه الله جعل شرك الطاعة من الأكبر، وهذا فيه تفصيل، وسيأتي إن شاء الله في باب من أطاع الأمراء والعلماء في تحليل ما حرم الله أو بالعكس.

---

(٢٣١) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: من حق المسلم للمسلم رد السلام، برقم (٥/ ٢١٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فاستثنىٰ من المعبودين ربه». فدل هذا علىٰ أن التوحيد لا بد فيه من نفي وإثبات: البراءة مما سوىٰ الله، وإخلاص العبادة لله وحده.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله؛ فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٨]، وهي لا إله إلا الله، فكان معنىٰ قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾هو معنىٰ قول: لا إله إلا الله.

قوله: «ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾».

فجعل الله المحبة شركًا إذا أحب شيئًا سوىٰ الله كمحبته لله؛ فيكون مشركًا مع الله في المحبة؛ ولهذا يجب أن تكون محبة الله خالصَة لا يشاركه فيها أحد حتىٰ محبة الرسولﷺ، فلولا أنه رسول ما وجبت طاعته ولا محبته إلا كما نحب أي مؤمن، ولا يُمنع الإنسان من محبة غير الله، بل له أن يحب كل شيء تباح محبته؛ كالولد، والزوجة، ولكن لا يجعل ذلك محبة الله.

قال المؤلف: «فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!».

فالأقسام الأربعة:

الأول: أن يحب الله حبًّا أشد من غير؛ فهذا هو التوحيد.

الثاني: أن يحب غير الله كمحبة الله، وهذا شرك.

الثالث: أن يحب غير الله أشد حبًّا من الله، وهذا أعظم مما قبله.

الرابع: أن يحب غير الله وليس في قلبه محبة لله تعالىٰ، وهذا أعظم وأطم.

والمحبة لها أسباب ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقه وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب؛ فليس هذا كفرحه بذكر الله ونحوه.

حتىٰ نوع المحبة يختلف، يحب والده ويحب ولده وبينهما فرق، ويحب الله ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق. فجميع الأمور الباطنة في المحبة والفرح والحزن تختلف باختلاف متعلقها، وسيأتي إن شاء الله لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:١٦٥].

قوله: «**ومنها: قول النبي ﷺ «من قال: لا إله إلا الله...»** إلخ:

إذًا؛ فلا بد من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦]

قوله: «**وكفر بما يعبد من دون الله**»؛ أي: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقًّا؛ فلا يكفي أن يقول: لا إله إلا الله، ولا أعبد صنمًا، بل لا بد أن يقول: الأصنام التي تُعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها. فمثلًا لا يكفي أن يقول: لا إله إلا الله ولا أعبد اللات، ولكن لا بد أن يكفر بها ويقول: إن عبادتها ليست بحق؛ وإلا، كان مقرًّا بالكفر.

فمن رضي دين النصارىٰ دينًا يدينون الله به، فهو كافر؛ لأنه إذا ساوىٰ غير دين الإسلام مع الإسلام؛ فقد كذب قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]

وبهذا يكون كافرًا، وبهذا نعرف الخطر العظيم الذي أصاب المسلمين اليوم باختلاطهم مع النصارىٰ، والنصارىٰ يدعون إلىٰ دينهم صباحًا ومساءً، والمسلمون لا يتحركون، بل بعض المسلمين الذين ما عرفوا الإسلام حقيقة يلينون لهؤلاء، ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩]، وهذا من المحنة التي أصابت المسلمين الآن، وآلت بهم إلىٰ هذا الذل الذي صاروا فيه.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله»:**

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأبواب السابقة التوحيد وفضائله والدعوة إليه والخوف من ضده الذي هو الشرك، بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب معناه؛ لأن بعض الناس يخطئ في فهم معناه فيظن أن معناه الإقرار بتوحيد الربوبية فقط، وهذا ليس هو المراد بالتوحيد وإنّما المراد به ما دلت عليه النصوص التي ساق المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ طرفًا منها في هذا الباب من أنه إفراد الله بالعبادة والخلوص من الشرك.

وعطف شهادة أن لا إله إلا الله علىٰ التوحيد ليبين أن معناهما واحد لا اختلاف فيه.

❁ **قوله: ﴿يَدْعُونَ﴾:**

أي: يدعونهم من دون الله وهم الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم فالضمير الفاعل في يدعون راجع إلىٰ الكفار.

﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي: يطلبون والضمير الفاعل فيه راجع إلىٰ المدعوين من الملائكة ونحوهم.

﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ما يتقرب به إلىٰ الله، فمعنىٰ توسل إلىٰ الله عمل عملًا يقربه إليه.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾؛ أي: لا يرجون أحدًا سواه.

﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾؛ أي: لا يخافون أحدًا سواه.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

أن الله سبحانه وتعالىٰ يخبر أن هؤلاء الذين يدعوهم المشركون من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يبادرون إلىٰ طلب القربة إلىٰ الله فيرجون رحمته ويخافون عذابه، فإذا كانوا كذلك كانوا من جملة العبيد فكيف يدعون مع الله تعالىٰ، وهم مشغولون بأنفسهم يدعون الله ويتوسّلون إليه بعبادته.

مناسبة الآية للباب:

أنها تدل علىٰ أن معنىٰ التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو ترك ما عليه المشركون من دعوة الصالحين والاستشفاع بهم إلىٰ الله في كشف الضر أو تحويله؛ لأن ذلك هو الشرك الأكبر.

ما يستفاد من الآية:

١- الرد علىٰ الذين يدعون الأولياء والصالحين في كشف الضرِّ أو جلب النفع بأن هؤلاء المدعوين لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا فكيف يملكون ذلك لغيرهم.

٢- بيانُ شدة خوف الأنبياء والصالحين من الله وبيان رجائهم لرحمته.

❁ **قوله:** ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾:

أي: بريء من جميع معبوداتكم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ أي: خلقني وهو الله فهو معبودي وحده.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

أنه يخبر سبحانه عن عبده ورسوله وخليله أنه تبرأ من كل ما يعبد أبوه وقومه، ولم يستثن إلا الذي خلقه وهو الله، فهو يعبده وحده لا شريك له.

مناسبة الآية للباب:

أنها دلت علىٰ أن معنىٰ التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو البراءة من الشرك وإفراد الله بالعبادة، فإن لا إله إلا الله تشتمل علىٰ النفي الذي عبَّر عنه الخليل بقوله: «إنني براء»، والإثبات الذي عبر عنه بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

ما يستفاد من الآية:

١- أن معنىٰ لا إله إلا الله توحيد الله بإخلاص العبادة له والبراءة من عبادة كل ما سواه.

٢- إظهار البراءة من دين المشركين.

٣- مشروعية التبري من أعداء الله ولو كانوا أقرب الناس.

قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ ﴾:

أي: جعل اليهود والنصارىٰ.

﴿أَحْبَارَهُمْ﴾؛ أي: علماءهم.

﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾؛ أي: عبَّادهم.

﴿أَرْبَابًا ﴾؛ أي: مشروعين لهم يحللون ويحرِّمون؛ لأن التشريع من خصائص الرب فمن أطاع مخلوقًا فيه فقد اتخذه ربًّا.

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾؛ أي: واتخذوا عيسىٰ عليه السلام ربًّا بعبادتهم له.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾؛ أي: تنزه الله تعالىٰ وتقدس عن الشركاء والنظراء.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر الله سبحانه عن اليهود والنصارىٰ أنهم استنصحوا الرجال من العلماء والعباد فأطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحله، فنزلوهم بذلك منزلة الرب الذي من خصائصه التحليل والتحريم، كما عبد النصارىٰ عيسىٰ وزعموا أنه ابن الله، فنبذوا كتاب الله الذي أمرهم فيه بطاعته وحده وعبادته وحده- وهذا إخبار منه سبحانه يتضمن إنكار ما فعلوه – ولذلك نزه نفسه عمَّا يتضمَّنه هذا الفعل من الشرك به.

مناسبة الآية للباب:

أنها دلَّت علىٰ أن من معنىٰ التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله إفراد الله بالطاعة في تحليل ما أحل وتحريم ما حرم، وأن من اتخذ شخصًا من دون الله يحلل ما أحل ويحرم ما حرم فهو مشرك.

ما يستفاد من الآية:

١- أن من معنىٰ التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله طاعة الله في التحليل والتحريم.

٢- أن من أطاع مخلوقًا في تحليل الحرام وتحريم الحلال فقد اتخذه شريكًا لله.

٣- الرد علىٰ النصارىٰ في اعتقادهم في المسيح عليه السلام وبيان أنه عبد الله.

٤- تنزيه الله عن الشرك.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: فريق من الناس.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غير الله.

﴿أَندَادًا﴾؛ أي: أمثالًا ونظراء.

﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: المحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا والرغبة فيه.

﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يسوُّونهم به في المحبة المقتضية للذلِّ للمحبوب والخضوع له.

﴿وَلَوْ يَرَى﴾: لو يعلم.

﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾: وقت ما يعاينونه.

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾: لأن القدرة والغلبة له وحده.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

ذكر الله سبحانه وتعالىٰ حال المشركين به في الدنيا ومآلهم في الآخرة حيث جعلوا أمثالًا ونظراء ساووهم به في المحبة، ثم ذكر حال المؤمنين الموحدين أنهم يحبون الله حبًا يفوق حب أصحاب الأنداد لأندادهم أو يفوق حب أصحاب الأنداد لله، لأن حب المؤمنين لله خالص، وحب أصحاب الأنداد لله مشترك، ثم توعد هؤلاء المشركين به بأنهم لو علموا ما يعاينون يوم القيامة وما يحل بهم من الأمر الفظيع والعذاب الشديد علىٰ شركهم وتفرد الله سبحانه بالقدرة والغلبة دون أندادهم لا نتهوا عمَّا هم فيه من الضلال، لكنهم لم يتصوروا ذلك ويؤمنوا به.

مناسبة الآية للباب:

أنها من النصوص المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، حيث دلت علىٰ أن من اتخذ ندًّا مع الله يحبه كمحبة الله فقد أشرك، فعلم أن معنىٰ التوحيد أن يفرد الرب بهذه المحبة التي تستلزم إخلاص العبادة له وحده والذل والخضوع له وحده.

ما يستفاد من الآية:

١- أن من معنىٰ التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله إفراد الله تعالىٰ بالمحبة المقتضية للذل والخضوع.

٢- المشركين يحبون الله حبًا عظيمًا ولم يدخلهم ذلك في الإسلام؛ لأنهم أشركوا معه غيره فيها.

٣- أن الشرك ظلم.

٤- الوعيد للمشركين يوم القيامة.

قوله: «في الصحيح»:

أي: صحيح مسلم.

«**حرم ماله ودمه**»؛ أي: منع أخذ ماله وقتله بناءً علىٰ ما ظهر منه.

«**وحسابه علىٰ الله**»؛ أي: الله تعالىٰ هو الذي يتولىٰ حساب من تلفظ بهذه الكلمة، فيجازيه علىٰ حسب نيته واعتقاده.

«**الترجمة**»: ترجمة الكتاب والباب فاتحته، والمراد بها هنا قوله: باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يبين ﷺ في هذا الحديث أنه لا يحرم قتل الإنسان وأخذ ماله إلا بمجموع امرين:

الأول: قول لا إله إلا الله.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله.

فإذا وجد هذان الأمران وجب الكف عنه ظاهرًا وتفويض باطنه إلىٰ الله، فإن كان صادقًا في قلبه جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقًا عذبه العذاب الأليم، وأما في الدنيا فالحكم علىٰ الظاهر.

مناسبة الحديث للباب:

أنه من أعظم ما يبين معنىٰ لا إله إلا الله: وأنه الكفر بكل ما يعبد من دون الله.

ما يستفاد من الحديث:

١- أن معنىٰ: لا إله إلا الله هو الكفر بما يعبد من دون الله من الأصنام والقبور وغيرها.

٢- أن مجرد التلفظ بلا إله إلا الله مع عدم الكفر بما يعبد من دون الله لا يحرم الدم والمال ولو عرف معناها وعمل به، ما لم يضف إلىٰ ذلك الكفر بما يعبد من دون الله.

٣- أن من أتىٰ بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهرًا وجب الكف عنه حتىٰ يتبين منه ما يخالف ذلك.

٤- وجوب الكف عن الكافر إذا دخل في الإسلام ولو في حال القتال حتىٰ يتبين منه ما يخالف ذلك.

٥- أن الإنسان قد يقول: لا إله إلا الله ولا يكفر بما يعبد من دونه.

٦- أن الحكم في الدنيا علىٰ الظاهر، وأما في الآخرة فعلىٰ النيات والمقاصد.

٧- حرمة مال المسلم ودمه إلا بحق.

ومعنىٰ قول المصنف: «**وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب**» أن ما يأتي بعد هذا الباب من الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنىٰ «**لا إله إلا الله**» وبيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلىٰ ذلك من الغلو والبدع مما يجب تركه من مضمون لا إله إلا الله.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله»:**

سبق بيان أن التوحيد هو: شهادة أن لا إله إلا الله؛ ولهذا قال العلماء: «**إن العطف في قوله: «التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله»** من عطف المترادفات. ولكن هذا فيه نظر من جهة أن الترادف غير موجود، أعني: الترادف الكامل، لكن الترادف الناقص موجود، فيكون هذا -إذًا- من قبيل عطف المترادفات التي تختلف بعضها عن بعض في بعض المعنىٰ.

وقوله هنا: «**باب تفسير التوحيد**» يعني: الكشف والإيضاح عن معنىٰ التوحيد، وقد تقدم أن التوحيد هو اعتقاد أن الله -جل وعلا- واحد في ربوبيته لا شريك له، واحد في إلهيته لا ندّ له، واحد في أسمائه وصفاته لا مثل له، سبحانه وتعالىٰ، قال -جل وعلا-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورىٰ:١١] وذلك يشمل أنواع التوحيد جميعًا، فالتوحيد -إذًا- هو اعتقاد أن الله وحده في هذه الثلاثة أشياء.

❁ **قوله: «... وشهادة أن لا إله إلا الله»:**

يعني: تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فهذه الشهادة هي أعظم كلمة قالها مكلَّف، ولا شيء أعظم منها؛ وذلك لأن معناها هو الذي قامت عليه الأرض والسماوات، وما تعبّد المتعبدون إلا لتحقيقها ولامتثالها.

والشهادة تارة تكون شهادة عن حضور وبصر، وتارة تكون شهادة عن علم، بمعنىٰ: إما أن يشهد علىٰ شيء حضره ورآه، أو يشهد علىٰ شيء علمه، فهذان معنيان للشهادة. فإذا قال قائل: أشهد، فيحتمل أنها بمعنىٰ: المشاهدة والرؤية، ويحتمل أنها بمعنىٰ: العلم. ومعنىٰ الشهادة في قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله، شهادة علمية، ولهذا تضمن قوله: أشهد العلمَ.

والشهادة في اللغة، والشرع، وفي تفاسير السلف لآي القرآن التي فيها لفظ (شهد) كقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[آل عمران: ١٨] وكقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[الزُّخرُف:٨٦] تتضمن أشياء:

الأول: الاعتقاد بما سينطق به، والاعتقاد بما شهده، فكونه يشهد أن لا إله إلا الله يستلزم أنه اعتقد بقلبه معنىٰ هذه الكلمة عن علم ويقين؛ لأن الشهادة فيها الاعتقاد، والاعتقاد لا يسمىٰ اعتقادًا إلا إذا كان ثمَّ علم ويقين.

الثاني: التكلم بها، فالشهادة كما أنها تقتضي اعتقادًا فإنها تقتضي -أيضًا- إعلامًا ونطقًا.

والثالث: الإخبار بذلك، والإعلام به، فينطق بلسانه، وهذا من جهة الواجب -وأيضًا- لا يسمَّىٰ شاهدًا حتىٰ يُخبر غيره بما شهد، وهذا من جهة (الشهادة).

فيكون معنىٰ: أشهد أن لا إله إلا الله أعتقد، وأتكلم، وأعلم، وأخبر بأن لا إله إلا الله. فافترقتْ بذلك عن حال الاعتقاد، وافترقتْ كذلك عن حال القول، كما افترقت -أيضًا- عن حال الإخبار المجرد عن الاعتقاد، فلابُدَّ لتحقّقها من حصول الثلاثة مجتمعة؛ ولهذا نقول في الإيمان: إنه اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان.

فـ(لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد، وهي مشتملة -من حيث الألفاظ- علىٰ أربعة ألفاظ:

١- (لا).

٢- (إله).

٣- (إلا).

٤- لفظ الجلالة (الله).

أما (لا) هنا فهي: النافية للجنس، تنفي جنس الألوهية الحقة عن أحد إلا الله -جل وعلا- يعني في هذا السياق. وإذا أتىٰ بعد النفي (إلا) -وهي أداة الاستثناء- أفادت معنىٰ زائدًا، وهو الحصر، والقصر، فيكون المعنىٰ الإلهية الحقة، أو الإله الحق هو الله، بالحصر والقصر، ليس ثمَّ إله حق إلا هو، دون ما سواه.

وكلمة (إله) علىٰ وزن (فعال) وتأتي أحيانًا بمعنىٰ (فاعل)، وتأتي أحيانًا بمعنىٰ مفعول، وهي -لغة مشتقة من (أله) بمعنىٰ عَبَدَ، وقال بعض اللغويين: إنها من: أَلَهَ يَأْله إذا تحير، فـ(أَله) فلان يأله أو تألَّه: إذا تحير، وسمي الإله عندهم إلهًا؛ لأن الألباب تحيَّرت في كنه وصفه، وكُنه حقيقته.

وهذا القول ليس بجيد، بل الصواب أن كلمة (إله) (فعال) بمعنىٰ (مفعول) وهو المعبود، ويدل علىٰ ذلك ما جاء في قراءة ابن عباس أنه قرأ في سورة الأعراف: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف: ١٢٧]. كان ابن عباس يقرؤها هكذا: (وَيَذَرَكَ وإِلَاهَتَك)، قال: لأن فرعون كان يُعبَد ولم يكن يَعْبُد، فصوب القراءة بـ (وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ) يعني: وعبادتك، وقراءتنا - وهي قراءة السبعة - ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ يعني: المتقدمين، فهذا معناه: أن ابن عباس فهم من الإلَهَة، معنىٰ العبادة، وقد قال الراجز:

لله در الغانيـــــات المـــــدَّهِ سـبَّحن واسـترجعن مــن تألــهِ

يعني: من عبادتي، فيكون - إذًا - الإله هو: المعبود، بمعنىٰ (لا إله): لا معبود إلا الله.

فـ (لا) في قوله (لا معبود) هي: النافية للجنس وهي - كما تعلمون - تحتاج إلىٰ اسم وخبر؛ لأنها تعمل عمل (إن) كما قال ابن مالك في الألفية:

عمــل (إن) اجعــل لـــ (لا) في نكــرة ....

فإن قيل: فأين خبر (لا) النافية للجنس ؟ فالجواب أنَّ كثيرًا من المنتسبين للعلم قدروا الخبر: بـ (لا إله موجود إلا الله)، ووَجْه هذا التقدير، وسببه: يحتاج إلىٰ مقدمة قبله وهي: أن المتكلمين والأشاعرة والمعتزلة ومن ورثوا علوم اليونان قالوا: إن كلمة (إله) هي بمعنىٰ: فاعل؛ لأن (فعال) تأتي بمعنىٰ (مفعول)، أو (فاعل) فقالوا: هي بمعنىٰ آلِه، والآلِه هو: القادر، ففسروا (الإله) بأنه: القادر علىٰ الاختراع؛ وهذا تجده مسطورًا في عقائد الأشاعرة، كما في شرح العقيدة السنوسية، التي تسمىٰ عندهم بـ (أم البراهين). إذ قال فيها ما نصُّه: (الإله) هو المستغني عما سواه، المفتقر إليه كُلُّ ما عداه، قال: فمعنىٰ لا إله إلا الله: لا مستغنيًا عما سواه، ولا مفتقرًا إليه كلُّ ما عداه إلا الله. ففسروا الألوهيةِ بالربوبية، وفسروا الإله بالقادر علىٰ الاختراع، أو بالمستغني عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه، ولذلك يقدِّرون الخبر: موجود، فـ (لا إله) خَبَرُهَا: موجود، يعني: لا قادر علىٰ الاختراعِ والخلقِ موجودٌ إلا الله، ولا مستغنيًا عما سواه، ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه موجودٌ إلا الله؛ لأن الخلق جميعًا محتاجون إلىٰ غيرهم. وهذا الذي قالوه هو الذي فتح باب الشرك علىٰ المسلمين؛ لأنهم ظنوا أن التوحيد هو: إفراد الله بالربوبية، فإذا اعتقد المرء أن القادر علىٰ

الاختراع هو الله وحده: صار موحدًا، وإذا اعتقد أن المستغني عما سواه والمفتقر إليه كل ما عداه هو الله وحده صار عندهم موحدًا وهذا من أبطل الباطل؛ لأن مشركي قريش كانوا على الإقرار بالربوبية، كما دَلَّ القرآن على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] وفي آية أخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩] ونحو ذلك من الآيات، وهي كثيرة، كقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣١ - ٣٢] الآيات من سورة يونس. فَعُلم بذلك أن مشركي قريش لم يكونوا ينازعون في الربوبية. فصارت هذه الكلمة - إذًا - دالة على غير ما أراد أولئك المتكلمون وهو ما ذكرناه آنفًا من أن معنى: لا إله، هو: لا معبود، وأن تقدير الخبر: (موجود) فيكون المعنى: لا معبود موجود إلا الله، وهذا باطل؛ لأننا نرى أن المعبودات كثيرة وقد قال -جل وعلا- مخبرًا عن قول الكفار: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] فدل ذلك: أن المعبودات كثيرة. والمعبودات موجودة. فتقدير الخبر بـ (موجود) غلط. ومن المعلوم أن المتقرر في علم العربية أن خبر (لا) النافية للجنس يكثر حذفه في لغة العرب، وفي نصوص الكتاب والسنة؛ ذلك أن خبر (لا) النافية للجنس يحذف إذا كان المقام يدل عليه، وإذا كان السامع يعلم ما المقصود من ذلك، وقد قال ابن مالك في آخر باب (لا) النافية للجنس لما ساق هذه المسألة :

وشاع في ذا الباب[٢٣٢] إسقاط الخبر إذا المراد مع سقوطه ظهر

فإذا ظهر المراد مع حذف الخبر، فإنك تحذف الخبر؛ لأن الأنسب أن يكون الكلام مختصرًا كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا عدوى ولا طيَرَة ولا هامةَ ولا صفرَ ولا نوءَ ولا غولَ**»[٢٣٣]. فأين الخبر فيما تقدم ؟

---

(٢٣٢)يعني باب (لا) النافية للجنس.

(٢٣٣)أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض على مصح، برقم (١٠٦/ ٢٢٢٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجواب: أنه في كل ذلك محذوف؛ لكونه معلومًا لدىٰ السامع إذًا: فخبر (لا إله) معلوم، ولا يصح تقديره: بـ(موجود)؛ لأن الآلهة التي عبدت مع الله موجودة، فالصحيح تقدير الخبر بقولك بِحَقٍّ أو: حَقٌّ يعني: لا إله بحق أو لا معبود بحق أو لا معبود حق إلا الله، وإن قدرت الظرف فلا بأس، أو قدرت كلمة مفردة فلا بأس، فلا معبود حق إلا الله: هذا معنىٰ كلمة التوحيد فيكون كل معبود غير الله -جل وعلا- قد عبد ولكن هل عبد بالحق، أو عبد بالباطل، والظلم، والطغيان، والتعدي؟! الجواب: أنه قد عبد بالباطل، والظلم، الطغيان، والتعدي، وهذا يفهمه العربي بمجرد سماعه لكلمة لا إله إلا الله؛ ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: بئس قوم أبو جهل أعلم منهم بـ(لا إله إلا الله).

فأبو جهل كان يفهم هذه الكلمة، وأبىٰ أن يقولها. ولو كان معناها: لا إله موجود، كما يزعم كثير من أهل هذا العصر وما قبله: لقالوها بسهولة، ولم يدروا ما تحتها من المعاني. لكنهم كانوا يعلمون أن معناها: لا معبود حق إلا الله، وأن عبادة غيره إنما هي بالظلم، فهل يقرون علىٰ أنفسهم بالظلم، والبغي، والعدوان ؟! فحقيقة معنىٰ (لا إله إلا الله)، هي ما شرحناه، وبيناه، وفيها الجمع بين النفي والإثبات، كما سيأتي بيان ذلك في آية سورة الزخرف، في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ... ﴾[الزخرف: ٢٦، ٢٧].

قوله: «وقوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ... ﴾»:

هذه الآية تفسير للتوحيد؛ وذلك أننا عرفنا التوحيد بأنه إفراد الله بالعبادة - وهو توحيد الإلهية - وهذه الآية اشتملت علىٰ الثناء علىٰ خاصة عباد الله، بأنهم وحدوا الله في الإلهية. وهذه مناسبة الآية للباب، فقد وصفهم الله -جل وعلا- بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ ومعنىٰ: ﴿ يَدْعُونَ ﴾ يعبدون؛ لأن الدعاء هو العبادة، والدعاء نوعان كما سيأتي تفصيله: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، فقوله هنا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ يعني: يعبدون، والوسيلة في قوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ هي: القصد والحاجة، والتقرب بالأعمال الصالحة يعني: أن حاجاتهم يبتغونها إلىٰ ربهم ذي الربوبية الذي يملك الإجابة، وفي مسائل نافع بن الأزرق، المعروفة لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سأله عن قوله تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟

﴿إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[المائدة: ٣٥] ما معنى الوسيلة؟ فقال: الوسيلة الحاجة، فقال له: وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال: نعم، ألم تسمع قول الشاعر، وهو عنترة يخاطب امرأة :

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

فقول عنترة: (لهم إليك وسيلة) يعني: لهم إليك حاجة، ووجه الاستدلال من آية المائدة: أنه قال: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ فقدم الجار والمجرور على لفظ ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾، وتقديم الجار والمجرور - وحقه التأخير - يفيد الحصر والقصر، وعند عدد من علماء المعاني: يفيد الاختصاص، وسواء أكان هذا أم ذاك، فوجه الاستدلال ظاهر: في أن قوله تعالى في آية الإسراء: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ معناه: أن حاجاتهم إنما يبتغونها عند الله، وقد اختص اللهُ -جل وعلا- بذلك، فلا يتوجهون إلى غيره، وقد حصروا وقصروا التوجه في الله -جل وعلا-.

وقد جاء بلفظ الربوبية دون لفظ الألوهية قوله تعالى ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ ولم يقل: يبتغون إلى الله الوسيلة؛ لأن إجابة الدعاء، والإثابة، هي: من مفردات الربوبية؛ لأن ربوبية الله على خلقه تقتضي أن يجيب دعاءهم وأن يعطيهم سؤلهم.

فظهر من قوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أن فيها تفسير التوحيد، وهو أن كل حاجة من الحاجات إنما تنزلها بالله -جل وعلا- وكذلك قوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ فيه تفسير التوحيد - أيضًا - لأن معنى يَدْعُونَ يعبدون؛ فهم إنما يطلبون حاجتهم من الله -جل وعلا- فلا يعبدون غير الله بنوع من العبادات، ولا يتوجهون بها لغير الله، فإذا نحروا فإنما ينحرون يبتغون إلى ربهم الحاجة، وإذا صلوا فإنما يصلون يبتغون إلى ربهم القربة، وإذا استغاثوا فإنما يستغيثون بالله يبتغون إليه رفيع الدرجات دونما سواه، إلى آخر مفردات توحيد العبادة. فهذه الآية دالة - بظهور - على أن قوله: ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أنه هو التوحيد. وقد استشكل بعض أهل العلم إيراد هذه الآية في الباب وقال: ما مناسبة هذه الآية لهذا الباب؟ وبما ذكرت لك تتضح المناسبة جليًّا.

وقوله -جل وعلا-: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء: ٥٧] فيه بيان لحال خاصة عباد الله الذين جمعوا بين العبادة، والخوف، والرجاء، فيرجون رحمته، ويخافون عذابه، فهم إنما توجهوا إليه وحده دونما سواه فأنزلوا الخوف، والمحبة، والدعاء، والرغب، والرجاء في الله -جل وعلا- وحده دونما سواه، وهذا هو تفسير التوحيد.

قوله: «وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ...﴾ [الزخرف:٢٦، ٢٧]»:

والدليل في هذه الآية هو قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ووجه الاستدلال أن هذه الجملة فيها البراءة، وفيها الإثبات، فالبراءة: مما يعبدون، قال بعض أهل العلم: تبرأ من العبادة ومن المعبودين قبل أن يتبرأ من العابدين؛ لأنه إذا تبرأ من أولئك: فقد بلغ به الحنق، والكراهة، والبغضاء، والكفر بتلك العبادة مبلغها الأعظم، وقد جاء تفصيل ذلك في آية الممتحنة كما هو معلوم.

فمناسبة هذه الآية للباب: أن قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ اشتملت على نفي وإثبات، فهي مساوية لكلمة التوحيد بل هي التوحيد، ففي هذه الآية تفسير شهادة أن لا إله إلا الله؛ ولهذا قال -جل وعلا- بعدها: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ فما هذه الكلمة ؟ هي قول: لا إله إلا الله، كما عليه تفاسير السلف، فقوله -جل وعلا-: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فيه النفي الذي نعلمه من قوله (لا إله)، وقوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فيه الإثبات الذي نفهمه من قولنا (إلا الله) فتفسير شهادة أن لا إله إلا الله هو في هذه الآية؛ لأن: (لا إله) معناها: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ و (إلا الله) معناها ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ففي آية سورة الزخرف هذه: أن إبراهيم عليه السلام شرح لهم معنى كلمة التوحيد بقوله: ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ والبراءة هي: الكفر، والبغضاء، والمعاداة. وتبرّأ من عبادة غير الله، فهذه البراءة لابُدَّ منها، ولا يصح إسلام أحد حتى تقوم هذه البراءة في قلبه؛ لأنه إن لم تقم هذه البراءة في قلبه، فلا يكون موحدًا، والبراءة هي: أن يكون مبغضًا لعبادة غير الله، كافرًا بعبادة غير الله، معاديًا لعبادة غير الله، كما قال في الآية هنا: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾. أما البراءة من العابدين فإنها من لوازم التوحيد، وليست من أصل كلمة التوحيد، بمعنى أنه قد يعادي، وقد لا يعادي. وهذه لها مقامات منها ما هو مكفر، ومنها ما هو نوع موالاة، ولا يصل بصاحبه إلى الكفر.

فتحصل لك - إذًا -: أن البراءة التي هي مضمنة في النفي في قول: (لا إله) تقتضي البغض لعبادة غير الله، والكفر بعبادة غير الله والعداوة لعبادة غير الله، وهذا القدر لابُدَّ منه، بل لا يستقيم إسلام أحد حتى يكون في قلبه ذلك.

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهذا الاستثناء هو كالاستثناء الذي في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، قال بعض أهل العلم في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ذكر الفطر دون غيره؛ لأن في ذلك تذكيرًا بأنه إنما يستحق العبادة مَن فطَر، أما مَن لم يفطِرْ، ولم يخلق شيئًا، فإنه لا يستحق شيئًا من العبادة.

فمناسبة هذه الآية للباب ظاهرة، وكذا: وجه الاستدلال منها.

❁ **قوله**: «وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]»:

﴿أَرْبَابًا﴾: جمع رب، والربوبية هنا هي: العبادة، يعني: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم معبودين ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: مع الله؛ وذلك أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال، والطاعةُ من التوحيد، وفردٌ من أفراد العبادة، فإذا أطاع غير الله في التحليل وفي التحريم: فإنه يكون قد عبد ذلك الغير، فهذه الآية فيها: ذِكْرُ أحد أفراد التوحيد، وأحد أفراد العبادة، وهو الطاعة، وسيأتي إيرادها في باب مستقل - إن شاء الله تعالىٰ - مع بيان ما تشتمل عليه من المعاني.

❁ **قوله**: «قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ...﴾ [البقرة:١٦٥] **الآية**»:

أخبر الله -جل وعلا- أن المشركين اتخذوا من دون الله أندادًا - يعني: مع الله، أو غيره - دونه وجعلوهم يستحقون شيئًا من العبادات، ووصفهم بأنهم ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾. وقوله هنا ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ للمفسرين من السلف فمن بعدهم هنا قولان:

١ - منهم من يقول: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ هي كلها في الذين اتخذوا أندادًا يعني: يحبون أندادهم كحبهم لله.

٢ - وقال آخرون: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يعني: يحبونهم كحب المؤمنين لله فـ(الكاف) هنا بمعنىٰ: مثل، كقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة:٧٤] فالكاف هنا اسم بمعنىٰ: مثل؛ لأنه عطف عليها اسمًا آخر وهو قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

فيكون معنىٰ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي: إنهم سوَّوا تلك الآلهة بالله تعالىٰ في المحبة، فهم يحبون الله حبًّا عظيمًا، ولكنهم يحبون تلك الآلهة أيضًا حبا عظيما، وهذه التسوية هي: الشرك، وهي التي جعلتهم من أهل النار، كما قال -جل وعلا- في سورة الشعراء مخبرًا عن قول أهل النار، ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] ومعلوم أنهم ما

سووا تلك الآلهة برب العالمين في الخلق، والرزق، ومفردات الربوبية، وإنما سووهم برب العالمين في المحبة والعبادة فيكون معنى قوله -جل وعلا- ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أنهم: يحبونهم محبة مثل محبتهم لله، وهذا الوجه أرجح من الوجه الآخر الذي تقديره: كحب المؤمنين لله، والذين آمنوا أشد حبًّا لله.

ووجه الاستدلال من الآية، ومناسبتها للباب ظاهرة: في أن التشريك في المحبة منافٍ لكلمة التوحيد، ومنافٍ للتوحيد من أصله، بل حَكَمَ اللهُ عليهم بأنهم اتخذوا أندادًا من دون الله، يحبونهم كحب الله، ووصفهم بذلك، ولا شك أن المحبة نوع من أنواع العبادة، والمحبة مُحَرِّكَة، وهي التي تبعث على التصرفات. فوجه ذكره المحبة هنا: أن المحبة نوع من أنواع العبادة، فلما لم يفردوا الله بهذه العبادة: صاروا متخذين أندادًا من دون الله، وهذا معنى التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله.

❁ **قوله: «وفي «الصحيح» مرفوعًا: من قال لا إله إلا الله وكفر ...»:**

في هذا الحديث: بيان التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله؛ ذلك أن ثمة فرقًا بين قول: لا إله إلا الله، وبين التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، فالتوحيد والشهادة أرفع درجة، ويختلفان عن مجرد القول، وهذا الحديث فيه قيد زائد عن مجرد القول، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله**» فتكون (الواو) هنا عاطفة، ويكون ما بعدها غير ما قبلها؛ لأن الأصل في العطف المغايرة، فتضمن قوله: «**كفر بما يعبد من دون الله**» أمرًا زائدًا على مجرد القول، فيكون المعنى: أنه قال: لا إله إلا الله، ومع قوله كفر بما يعبد من دون الله، يعني: تبرأ مما يعبد من دون الله. هذا قولٌ.

والقول الثاني: أن (الواو) هنا وإن كانت عاطفة، فليست لتمام المغايرة، وإنما هي من باب عطف التفسير، فيكون ما بعدها بعض ما قبلها، كقوله -جل وعلا-: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[البقرة: ٩٨] فجبريل وميكال بعض الملائكة، فعطفهم، وخصهم بالذكر، وأظهر اسم جبريل وميكال: لبيان أهمية هذين الاسمين، وأهمية هذين الملكين؛ لأن أولئك اليهود لهم كلام بالقدح في جبريل وميكال.

فالمقصود: أن العطف -هنا-: عطف خاص بعد عام، أو عطف تفسير؛ لأن ما بعدها داخل فيما قبلها، وهذا تفسير لقوله: لا إله إلا الله، فتكون: (لا إله إلا الله) على هذا القول الثاني: متضمنة للكفر بما يعبد من دون الله، وهذا سبق ذكره في تفسير معنى البراءة المذكورة في آية سورة الزخرف، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف:٢٦،٢٧] إذ قلنا: إن البراءة تتضمن البغض، والكفر، والمعاداة، والكفر يكون بما يعبد من دون الله، وهذا تفسير ظاهر لكلمة التوحيد.

والوجه الثاني هو الأظهر والأنسب لسياق الشيخ -رحمه الله تعالى- بل هو الذي يتوافق مع ما قبله من الأدلة.

وقوله: «**حرم دمه وماله وحسابه على الله -عز وجل-** »، ذلك لأنه صار مسلمًا، فمن قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، صار مسلمًا، والمسلم لا يحل دمه إلا بإحدى ثلاث، وكذلك: لا يحل ماله إلا بحق؛ ولهذا قال هنا: «**حرم ماله ودمه** ».

فظهر من هذه الترجمة، وما فيها من الآيات والحديث: أن تفسير التوحيد وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله: يستوجب من المسلم مزيد عناية، ونظر، وتأمل، وتأنٍّ حتى يفهمه بحجته، وببيان وجه الحجة في ذلك.

❁ **قوله: «وتفسير هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب»:**

فالكتاب كله هو تفسير للتوحيد، وتفسير لكلمة لا إله إلا الله، وبيان ما يضاد ذلك، وبيان ما ينافي أصل التوحيد، وما ينافي كماله، وبيان الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، والشرك الخفي، وشرك الألفاظ، وبيان بعض مستلزمات التوحيد -توحيد العبادة- من الإقرار لله بالأسماء والصفات، وبيان ما يتضمنه توحيد العبادة من الإقرار لله -جل وعلا- بالربوبية.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

فيه أكبر المسائل وأهمها وهي تفسير التوحيد وتفسير الشهادة وبينها بأمور واضحة منها آية الإسراء. بين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر، أي: لما أخبر أنهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة دل هذا على صلاحهم، ولما أخبر أنهم لا يملكون كشف الضر ولا تحويلاً دل هذا على أنهم لا يقدرون على ما طلب منهم، ومن طلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك الشرك الأكبر.

ومنها آية براءة، بين فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، بين أنهم لم يأمروا إلا بأن يعبدوا إلها واحدًا، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية لا دعاؤهم إياهم، أي: وهي قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٣١]، الآية، وقوله مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد... إلخ أي: كما فسرها لعدي بن حاتم -رضي الله عنه- حين سمعه يتلوها فقال: لسنا نعبدهم... إلخ، كما سيأتي في باب من أطاع العلماء والأمراء.

ومنها قول الخليل -عليه السلام- للكفار: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[الزخرف:٢٦،٢٧] فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر -سبحانه-: أن هذه البراءة، وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾[الزُّخرُف:٢٨]، أي: لما اشتملت على النفي الذي هو قوله تعالى: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾، وعلى الإثبات الذي هو إلا الذي فطرني صار فيها تفسير شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن أولها ينفي عبادة كل ما سوى الله، وآخرها يثبت العبادة لله وحده لا شريك له.

ومنها آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾[البقرة:١٦٧]، ذكر أنهم: يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟ أي لما أخبر الله أنهم ما هم بخارجين من النار دل على أنهم كفار؛ لأن مثل هذا قد اطرد في القرآن في

حق الكفار، وقوله: يحبون الله لقوله: كحب الله على أحد القولين، فهذه الآية تدل على أنهم كفروا لما أشركوا بين الله وبين أندادهم في هذه المحبة، فمن أحب معبوده أعظم من حب الله، أو أحب معبوده مطلقًا ولم يحب الله فهو أعظم شركًا ممن أحب معبوده دون ذلك وإن كان مشركًا، وهذه محبة تعظيم وخضوع لا تصلح إلا لله جل وعلا.

ومنها قوله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**» وهذا من أعظم ما يبين معنى «**لا إله إلا الله**»، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له... إلخ، أي: لما لم يكتف في الحديث بالتلفظ بـ«**لا إله إلا الله**» ولا معرفة معناه مع لفظها ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده كما يؤخذ من قوله: « **من قال: لا إله إلا الله**» دل ذلك على أنه حلال الدم والمال إلى أن ضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله وهو الكفر بالطاغوت، وبغضه وتركه والبراءة منه ومعرفة بطلانه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[البقرة:٢٦٥] .

فإن شك في ذلك أو توقف لم يحرم دمه وماله، فيا له من بيان ما أوضحه وأعظمه وحجة ما أقطعها للمنازع الذي يكتفي بقول هذه الكلمة والتلفظ بها ولو فعل ما فعل مما يهدمها وينافيها، وللعلامة الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن -رحمه الله- في هذا الحديث كلام حسن ذكره في «مصباح الظلام» (ص ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥) فراجعه.

* الأسئلة *

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾[الإسراء:٥٧].

س: وضح معاني الكلمات الآتية: يدعون، يبتغون، الوسيلة، وما حقيقة الوسيلة إلى الله؟ اشرح هذه الآية واذكر ما يستفاد منها وبين مناسبتها لهذا الباب.

جـ: يدعون: يعبدون؛ يبتغون؛ يطلبون؛ الوسيلة: التوصل إلىٰ الشيء برغبة. وحقيقة الوسيلة إلىٰ الله مراعاات سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة.

شرح الآية: يقول الله تعالىٰ: أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين يطلبون القرب من الله بالإخلاص له وطاعته فيما أمر وترك ما نهاهم عنه.

ويستفاد من الآية: الرد علىٰ المشركين الذين يدعون الصالحين وأنه شرك أكبر، ومناسبتها للباب أن التوحيد لا يصح إلا إذا بني علىٰ الإيمان بالله وإخلاص العبادة له وعدم التقرب إلا إليه.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴾[الزخرف:٢٦، ٢٧]».

س: بين معاني الكلمات الآتية: براء، فطرني، سيهدين ثم بين مناسبة الآية للباب؟

جـ: براء: متبرئ مما يعبدون من الأصنام والأوثان وكافر بهم ومبتعد عنهم. فطرني: خلقني وهو الله تعالىٰ فأستثنىٰ من المعبودين ربه. يهدين: يبصرني طريق الحق فأسلكه.

مناسبة الآية للباب: أنها أفادت أن التوحيد معناه تجرد الإنسان من الشرك وإنكاره له وإخلاص العبادة لله وحده.

«قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]».

س: ما المقصود بالأحبار والرهبان، اشرح الآية وبين مناسبتها للباب؟

جـ: الأحبار: هم العلماء؛ والرهبان: هم العباد، والمعنىٰ أنهم اتخذوا هؤلاء العلماء والعباد آلهة من دون الله وذلك أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

ومناسبة الآية للباب: أن من أطاع غير الله في تحريم الحلال وتحليل الحرام فقد اتخذه ربًا ومعبودًا وجعله شريكًا لله وذلك ينافي التوحيد.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

س: ما هي الأنداد، اشرح الآية وبين مناسبتها للباب؟

جـ: الأنداد: الأمثال والنظراء والأشباه. يذكر الله تعالىٰ حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الآخرة من العذاب والنكال حيث جعلوا لله أمثالًا ونظراء يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم.

ومناسبة الآية للباب: أن من أشرك مع الله غيره في المحبة فقد جعله شريكًا لله في العبادة وذلك هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]

قوله: «في «الصحيح» عن النبيﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله...».

س: بم علق النبيﷺ عصمة المال والدم في هذا الحديث؟

جـ: علقها بأمرين؛ الأول: قول لا إله إلا الله عن علم ويقين وإخلاص وصدق، الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله من الأصنام والأوثان وغيرها.

س: ما المقصود بقوله «من قال لا إله إلا الله»؟

جـ: أي: من تكلم بها عالمًا بمعناها عاملًا بمقتضاها.

س: ما معنى قوله: «وكفر بما يُعبد من دون الله»؟

جـ: أي: أنكر وتبرأ من ما يعبد من دون الله من الأصنام والأوثان وغير ذلك كالملائكة والأنبياء والصالحين؛ أي: تبرأ من عبادتهم.

س: ما معنى حرم ماله ودمه؟

جـ: أي: لا يحل للمسلمين أخذ ماله وسفك دمه؛ لأنه بذلك قد دخل في حكم المسلمين.

س: ما معنى قوله وحسابه على الله ﷻ؟

جـ: المعنىٰ أن الله تبارك وتعالىٰ هو الذي يتولىٰ حساب الذي يشهد بلسانه بهذه الشهادة؛ فإن كان صادقًا جازاه بجنات النعيم، وإن كان كاذبًا عذبه العذاب الأليم، وأما في الدنيا فالحكم علىٰ الظاهر والله يتولىٰ السرائر.

س: ما مناسبة الحديث للباب؟

جـ: هي أنه دل علىٰ أن عدم الكفر بما يعبد من دون الله شرك ينافي التوحيد.

س: ما معنى قول المؤلف: «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب»؟

جـ: المعنىٰ أن ما بعد هذا الباب من الأبواب الآتية فيه شرح للتوحيد وتوضيح لمعنىٰ لا إله إلا الله وما يناقضها من أنواع الشرك الأصغر والأكبر، وما يوصل إلىٰ ذلك من الغلو والبدع، فمن عرف ذلك وتحققه؛ تبين له معنىٰ لا إله إلا الله وما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



الدرس السابع:

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر:٣٨].

عن عمران بن حُصَيْنٍ رضي الله عنه «أن النبي (٢٣٤) ﷺ رأى: رجلًا في يده حلقة من صفر، فقال: ما هذه؟ قال: منَ الوَاهِنَةِ. فقال: انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا؛ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا» (٢٣٥). رواه أحمد بسند لا بأس به.

وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا: «من تعلق تميمةً، فلا أتم الله له. ومن تعلق ودعةً فلا ودع الله له» (٢٣٦).

وفي رواية: «من تعلق تميمةً، فقد أشرك» (٢٣٧).

ولابن أبي حاتمٍ عن حذيفة: أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحمى، فقطعه، وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

---

(٢٣٤) في نسخة ابن قاسم والفوزان: «رسول الله».

(٢٣٥) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: تعليق التمائم، برقم (٣٥٣١)، والحاكم (٤/ ٢٤٠) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وغيرهما من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «الضعيفة»، برقم(١٠٢٩).

(٢٣٦) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، والحاكم (٤/ ٢٤٠) وقال «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه» ووافقه الذهبي، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «الضعيفة»، برقم(١٢٦٦).

(٢٣٧) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦)، والحاكم (٤/ ٢٤١)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة»، برقم(٤٩٢).

الثالثة: أنه لم يُعْذَرْ بالجهالة.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر لقوله: «لا تزيدك إلَّا وهنًا».

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا؛ وكل إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمةً؛ فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباسٍ في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع من العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله؛ لا يتم له، ومن تعلق ودعةً فلا ودع الله له؛ أي: ترك الله له.



الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «من الشرك لبس الحلقة والخيط...»:

«من» تبعيضية، ولبس بضم اللام؛ يعني: من الشرك الأصغر، المنافي لكمال التوحيد لبس الحلقة. وهي: كل شيء استدار من صفر وغيره، و«الخيط ونحوهما»: كالودعة والتميمة والمسمار والخرزة ونحو ذلك، «لرفع البلاء»: إزالته بعد نزوله، أو «دفعه»: منعه قبل نزوله، ويجمع ذلك شيء واحد، وهو الطلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، واتخاذ تلك الأشياء ونحوها من أعمال الجاهلية، وكانوا يعلقونها على أولادهم ودوابهم، وذلك ينافي التوحيد بالكلية، أو ينافي كماله؛ لأن الشافي الكافي من كل شيء هو الله سبحانه، وطلب الشفاء والبركة بالحلق والخيوط وغيرها هضم لجناب التوحيد، ولبسها على قسمين: اعتقاد أنه سبب، فشرك أصغر، أو يدفع أو ينفع فشرك أكبر؛ لأنه اعتقد أن هنا متصرفًا بالنفع والضر غير الله، والمصنف قدس الله روحه ابتدأ

في تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، بذكر شيء مما يضاد ذلك من أنواع الشرك الأكبر والأصغر، فإن الضد لا يعرف إلا بضده كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء؛ فمن لم يعرف الشرك لم يعرف التوحيد وبالعكس، وقدم الأصغر الاعتقادي ترقيًا من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾»:

أمر الله نبيهﷺ أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾[الزمر:٣٨]؛ أي: أخبروني عن الذين تدعون من دون الله، وتسألونهم من الأنداد والآلهة: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾[الزمر:٣٨]؛ مرض أو فقر أو بلاء أو شدة: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾[الزمر:٣٨]؛ أي: أنتم تعلمون أنهم لا يقدرون علىٰ ذلك أصلا، وتعترفون بذلك، ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾صحة وعافية وخير: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾[الزمر:٣٨]؛ أي: أنتم تعلمون أنهم لا يستطيعون شيئًا من الأمر، وتعترفون أنهم لا يقدرون علىٰ شيء من ذلك، فإذا علمتم أنهم لا يقدرون علىٰ ذلك فلم تعلقون عليهم من دون الله.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أي: الله كافي من توكل عليه، والتوكل التفويض والاعتماد، فإذا كانت آلهتهم التي يدعون من دون الله لا قدرة لها علىٰ كشف ضر أراده الله بعبده، أو إمساك رحمة أنزلها علىٰ عبده، فيلزمهم بذلك أن يكون الله سبحانه وتعالىٰ هو معبودهم وحده المفوض إليه جميع أمورهم، لزومًا لا محيد لهم عنه.

وهذا في القرآن كثير يقيم تعالىٰ الحجة علىٰ المشركين بما يبطل شركهم بالله، وتسويتهم غيره به في العبادة، بضرب الأمثال وغير ذلك مما يعلمون به أن ذلك لله وحده، ويقرون به علىٰ ما يجحدونه من عبادته وحده، هذا وهم إنما كانوا يدعونها علىٰ معنىٰ أنها وسائط وشفعاء عند الله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣] لا علىٰ أنهم يكشفون الضر، ويجيبون دعاء المضطر، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[النحل:٥٣]. قال مقاتل: سألهم النبيﷺ فسكتوا؛ لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها، وإذا كان ذلك كذلك بطلت عبادتهم الآلهة مع الله، وإذا بطلت فلبس الحلقة والخيط ونحوهما كذلك. والمصنفرحمه الله استدل بالآية النازلة في الأكبر علىٰ الأصغر، كما استدل بها ابن عباس وحذيفة وغيرهما، وهذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله في جلب نفع، أو دفع ضر وأن ذلك لا يكون إلا بالله وحده، وأن جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله، كما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكذلك لا يصلح شيء من أنواع التعلقات بغير الله عز وجل.

قوله: «عن عمران بن حصين»:

رضي الله عنه ابن عبيد بن خلف الخزاعي صحابي ابن صحابي أسلم عام خيبر، وغزا عدة غزوات، وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح، **وقال الطبراني:** «أسلم قديمًا هو وأبوه وأخته، وكان ببلاد قومه، ثم تحول إلى البصرة إلى أن مات بها سنة ٥٢هـ».

قوله: «في يده حلقة من صفر»: وفي رواية الحاكم:

«دخلت على رسول الله ﷺ وفي عضدي حلقة صفر»، فالمبهم في رواية أحمد هو عمران راوي الحديث، والحلقة كان المشركون يجعلونها في أعضادهم، من نحاس أصفر وغيره، يزعمون أنها تحفظهم من أذى العين والجن ونحوهما؛ وكذا لبس حلقة الفضة للبركة؛ أو لمنع البواسير، وخواتيم لها فصوص مخصوصة للحفظ من الجن وغيرها.

قوله: «قال: من الواهنة...»:

يحتمل أن الاستفهام للاستفصال عن سبب لبسها، ويحتمل أن يكون للإنكار، قال الشارح: وهو أظهر. ولفظه: «**ويحك ما هذه**»؟ قال: من الواهنة، والواهنة عرق يأخذ بالمنكب وباليد كلها فيرقى منها، وقيل: مرض يأخذ بالعضد، أو ريح فيه تأخذ الرجال دون النساء، وربما علق عليها جنس من الخرز يقال له خرز العصمة، وإنما نهى عنها؛ لأنها إنما تتخذ لتعصم من الألم، وفيه اعتبار المقاصد.

قوله: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا»:

انزعها بكسر الزاي، وأصل النزع الجذب بقوة والقلع، من نزعت الشيء من موضعه نزعا من باب ضرب، قلعته وانتزعته مثله، أي: انبذها عنك. وهو لفظ أحمد، وهو أبلغ، فإنه يتضمن النزع وزيادة، وهو الطرح والإبعاد، وهذا زجر له وإنكار عليه، وقد أخبره ﷺ أنها لا تنفعه بل تضره، وأن هذا الداء الذي لبسها له لا يزول، بل لا تزيده إلا وهنًا أي: ضعفا، معاملة له بنقيض قصده؛ لأنه علق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه، وكذا كل أمر نهى عنه فإنه لا ينفع غالبا، وإن نفع بعض النفع فضرره أكبر من نفعه، وابتلاء من الله وامتحان. وهكذا شأن الأمور الشركية، ضررها على أصحابها في الدنيا في الغالب والآخرة، وذلك من أجل التفات قلوبهم إلى غير الله، ومن تعلق شيئًا وكل إليه، ومن وكل إلى غير الله هلك. وإذا كان هذا في الأصغر الذي يجامع أصل التوحيد، فكيف بالأكبر الذي ينافيه بالكلية.

❁ **قوله: «لو مِتّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا»:**

نفىٰ عنه الفلاح لو مات وهي عليه؛ لأنه شرك والحالة هذه، والفلاح من أجمع الكلمات التي نطقت بها العرب، وهو الفوز والظفر والسعادة. وفي رواية: «وكلت إليها». قال المصنف: «فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة، والشاهد منه إنكار النبي ﷺ عليه، وأنه دليل علىٰ المنع من لبس الحلقة والخيط ونحوهما لذلك، وفيه إنكار المنكرات الشركية حتىٰ أن من العلماء من جعلها ركنًا سادسًا من أركان الإسلام».

❁ **قوله: «رواه أحمد بسند لا بأس به»:**

وصححه ابن حبان والحاكم وأقره الذهبي، ورواه أيضًا بنحوه عن أبي عامر الخزاز عن الحسن.

وأحمد ﷺ هو ابن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، ناصر السنة، العالم الرباني أبو عبد الله الشيباني المروزي ثم البغدادي، إمام عصره، وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعا ومتابعة للسنة. يقول فيه ابن النحاس: «عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأباها، والشبه فنفاها». وقال إسحاق بن راهويه: «هو حجة بين الله وبن عبيده في أرضه». حملت به أمه في مرو وولد ببغداد سنة ١٦٤هـ، وطاف البلاد، وسمع من سفيان وبشر ويحيىٰ وهشيم ووكيع وابن مهدي وعبد الرزاق وخلائق لا يحصون، وعنه ابناه وابن المديني والبخاري ومسلم وأبو داود وأبو زرعة وخلائق لا يحصيهم إلا الله ﷻ، ذكر الحفاظ بعضهم، وأنه كان يجتمع في مجلسه أكثر من خمسة آلاف، وفضائله سارت بها الركبان، وملأ ذكره الأمصار والبلدان، صنف المسند ثلاثين ألف حديث غير المكرر، والتفسير مائة ألف وعشرين ألفًا، والناسخ والمنسوخ، والزهد وغيرها. توفي ﷺ سنة ٢٤١ هـ، وحضر جنازته نحو من ألف ألف وستين ألفًا، وقيل أسلم يوم موته عشرون ألفًا من اليهود والنصارىٰ.

❁ **قوله: «وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا»:** إلىٰ النبي ﷺ وعقبة هو ابن عامر بن عمرو بن عبس بن عمرو بن عدي الجهني، صحابي مشهور فاضل روىٰ كثيرًا، وعنه جماعة من الصحابة والتابعين. أحد من جمع القرآن، فصيحًا عالـمًا شهد الفتوح وصفين، ولي إمارة مصر ثلاث سنين، ومات قريبًا من الستين.

❁ **قوله**: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**»:

أي: علقها عليه أو علىٰ غيره من طفل أو دابة ونحو ذلك، متعلقًا بها قلبه في طلب خير أو دفع شر، فلا أتم الله له ما قصده، دعاء عليه بنقيض قصده، أن الله لا يتم له أمره، ودعاؤهﷺ علىٰ متعلقها يفيد أنه محرم، وتحريمه يفيد أنه من المحرمات الشركية، وإنما كان شركًا لما يقوم بقلبه من التعلق علىٰ غير الله، في جلب نفع أو دفع ضر، وكمال التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك، وكانوا يتلمحون من تعليقها تمام أمر من علقت عليه أن يتم له أمره، وذكر التميمة منكرة تعميمًا، حسمًا للمادة التي تئول إلىٰ الشرك؛ **قال المنذري**: «التميمة خرزة كانوا يعلقونها، يرون أنها تدفع عنهم الآفات، وهذا جهل وضلال؛ إذ لا مانع ولا دافع غير الله». **وفي «النهاية»**: «التمائم جمع تميمة، وهي خرزات كانت العرب تعلقها علىٰ أولادهم، يتقون بها العين في زعمهم، فأبطله الإسلام» اهـ. والتمائم أعم من ذلك، فتكون من عظام، ومن خرز، ومن كتابة، ومن غير ذلك.

❁ **قوله**: «**ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**»:

ودعة بفتح فسكون وتفتح، و«لا ودع» بتخفيف الدال؛ أي: لا ترك له ما يحب، أو لا جعله في دعة وسكون، بل حرك عليه كل مؤذ، وهذا دعاء عليه أيضًا، معاملة له بنقيض قصده، وكانوا يتلمحون من اسمها الدعة والسكون؛ **قال في «النهاية»**: الودعة شيء أبيض يجلب من البحر، يعلق في حلوق الصبيان وغيرهم، وقيل: يشبه الصدف يتقون به العين. وفيه وعيد شديد لمن فعل ذلك، يفيد أنه محرم، وإذا تقرر أنه محرم فالرواية الثانية بينت أنه من المحرمات الشركية، ومع كونه شركًا فقد دعا عليه رسول اللهﷺ بنقيض مقصوده، ورواه أبو يعلىٰ والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وأقره الذهبي.

❁ **قوله**: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»:

وذلك أن رسول اللهﷺ أقبل عليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، **فقالوا**: «**يا رسول الله بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟**» فقال: «**إن عليه تميمة**»، فأدخل يده فقطعها فبايعه، وقال: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»[٢٣٨]. رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر. ورواه الحاكم بنحوه،

(٢٣٨)أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦)، والحاكم (٤/ ٢٤٣)، والحارث (٥٦٣-بغية) من حديث عقبة بن عامر ﵁.

ورواته ثقات. وإنما جعلها ﷺ شركًا؛ لأنه أراد رفع القدر المكتوب، وطلب دفع الأذىٰ من غير الله تعالىٰ الذي هو النافع الضار، والتعلق يكون بالفعل أو بالقلب أو بهما، وإنما كان شركا من جهة تعلق القلب علىٰ غير الله في جلب نفع أو دفع ضر، فكان شركًا من هذه الحيثية. قال الشيخ: من تعلق قلبه بمخلوق فالمخلوق عاجز، وهو من الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة، وذلك أن يرجو العبد قضاء حاجته من غير ربه وصرف القلب عن التعلق بالمخلوق بمعرفة أن لا خالق إلا الله، فلا يستقل سواه بإحداث أمر من الأمور بل ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فإذا تحقق العبد ذلك كان سببًا؛ لأن ينال مطلوبه.

قوله: «ولابن أبي حاتم عن حذيفة»:

رضي الله عنه ابن اليمان بن حسل، ويقال: حسيل بن جابر بن ربيعة العبسي، حليف الأنصار، صحابي جليل ابن صحابي من السابقين، أصاب أبوه دمًا فهرب إلىٰ المدينة فحالف بني عبد الأشهل، فسماه قومه اليمان؛ لكونه حالف اليمانية، وأراد شهود بدر فصده المشركون، وشهد أحدًا فاستشهد أبوه بها لما هزم المسلمون وصاح الشيطان أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فإذا هو بأبيه؛ فقال: أي: عباد الله أبي أبي، فما احتجزوا عنه حتىٰ قتلوه، فقال حذيفة: غفر الله لكم، صاحب سر رسول الله ﷺ. روىٰ مسلم أنه أخبره بما كان وما يكون حتىٰ تقوم الساعة، واستعمله عمر علىٰ المدائن، فلم يزل بها حتىٰ توفي سنة ٣٦ هـ. و ابن أبي حاتم هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر، الرازي الحنظلي التميمي، الإمام الحافظ الثبت صاحب الجرح والتعديل، والعلل، والتفسير، وغيرها، روي عن أبي سعيد الأشج، ويونس ابن عبد الأعلىٰ وطبقتهما، مات سنة ٣٢٧ هـ.

قوله: «أنه رأىٰ رجلًا في يده خيط...»:

أي: عن الحمىٰ، وكان الجهال يعلقون الخيوط والتمائم، يزعم أحدهم أنها لا تصيبه الحمىٰ إذا لبس ذلك أو لا تضره، ولفظه: «دخل حذيفة علىٰ مريض، فرأىٰ في عضده سيرًا فقطعه وانتزعه». وروىٰ وكيع عن حذيفة أنه: «دخل علىٰ مريض يعوده فلمس عضده، فإذا فيه خيط، فقال: ما هذا؟ قال: شيء رقي لي فيه، فقطعه وقال: لو مت وهو عليك ما صليت عليك». وفيه وجوب إزالة المنكر مع القدرة علىٰ ذلك، وإن كان يعتقد أنه سبب، فإنه لا يجوز من الأسباب إلا ما أباحه الله، مع عدم الاعتماد عليه، وأن تعليق الخيوط والحروز والطلاسم والتمائم ونحو ذلك

شرك يجب إنكاره، وإزالته بالقول والفعل، وإن لم يأذن فيه صاحبه، بل يفيد شرعية المثابرة في قطع المنكرات، والمبادرة إلىٰ إزالتها بلا ممالأة لأحد؛ لقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٢٣٩). هذا حكم ما يوجد من المنكرات، وأهمها الأمور الشركية.

قال ابن عباس: «تسألهم من خلقهم؟ فيقولون الله، وهم مع ذلك يعبدون غيره» وفي استدلال حذيفة بهذه الآية علىٰ أنه شرك، دليل علىٰ صحة الاستدلال علىٰ الشرك الأصغر بما نزل في الأكبر؛ لشمول الآية النوعين، ودخوله في مسمىٰ الشرك. ودليل علىٰ صحة استدلال المصنف بالآية أول الباب، وكمال علم الصحابة بالتوحيد، وما ينافيه أو ينافي كماله.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله**: «**باب من الشرك لبس الحلقة...**»:

وهذا الباب يتوقف فهمه علىٰ معرفة أحكام الأسباب. وتفصيل القول فيها: أنه يجب علىٰ العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أن لا يجعل منها سببًا إلا ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا.

ثانيها: أن لا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد علىٰ مسببها ومقدرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه علىٰ النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، لا خروج لها عنه. والله تعالىٰ يتصرف فيها كيف يشاء: إن شاء أبقىٰ سببيتها جارية علىٰ مقتضىٰ حكمته؛ ليقوم بها العباد ويعرفوا بذلك تمام حكمته، حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها، وإن شاء غيرها كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد وليعلموا كمال قدرته، وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده. فهذا هو الواجب علىٰ العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب.

إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط ونحوهما قاصدًا بذلك رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله فقد أشرك؛ لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر.

---

(٢٣٩) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، برقم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وهو شرك في الربوبية، حيث اعتقد شريكًا مع الله في الخلق والتدبير

وشرك في العبودية، حيث تألّه لذلك، وعلق به قلبه طمعًا ورجاء لنفعه. وإن اعتقد أن الله هو الدافع الرافع وحده، ولكن اعتقدها سببًا يستدفع بها البلاء، فقد جعل ما ليس سببًا شرعيًّا ولا قدريًّا سببًا، وهذا محرم وكذب على الشرع وعلى القدر.

أما الشرع فإنه ينهى عن ذلك أشد النهي، وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة. وأما القدر فليس هذا من الأسباب المعهودة، ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود، ولا من الأدوية المباحة النافعة.

وكذلك هو من جملة وسائل الشرك، فإنه لا بد أن يتعلق قلب متعلقها بها، وذلك نوع شرك ووسيلة إليه، فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها على لسان نبيه، التي يتوسل بها إلى رضاء الله وثوابه، ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقًا قلبه بها راجيًا لنفعها فيتعين على المؤمن تركها؛ ليتم إيمانه وتوحيده فإنه لو تم توحيده لم يتعلق قلبه بما ينافيه، وذلك أيضًا نقص في العقل، حيث تعلق بغير متعلق ولا نافع بوجه من الوجوه، بل هو ضرر محض.

والشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين، وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها: دينيها، ودنيويها، والله أعلم.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «من الشرك» من هنا للتبعيض؛ أي: أن هذا بعض الشرك، وليس كل الشرك، والشرك: اسم جنس يشمل الأصغر والأكبر، ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر وقد يكون أكبر بحسب اعتقاد لابسها، وكان لبس هذه الأشياء من الشرك؛ لأن كل من أثبت سببًا لم يجعله الله سببًا شرعيًّا ولا قدريًّا، فقد جعل نفسه شريكًا مع الله.

فمثلًا: قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء. وأكل المسهل سبب حسي لانطلاق البطن، وهو قدري؛ لأنه يعلم بالتجارب

والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله، كالجبرية، والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتىٰ يجعلوا ما ليس بسبب سببًا، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالثة: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سببًا شرعيًّا أو كونيًّا.

ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيمانًا حقيقيًا، وآمنوا بحكمته؛ حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة.

ولبس الحلقة ونحوها إن اعتقد لابسها أنها مؤثرة بنفسها دون الله، فهو مشرك شركًا أكبر في توحيد الربوبية؛ لأنه اعتقد أن مع الله خالقًا غيره.

وإن اعتقد أنها سبب، ولكنه ليس مؤثرًا بنفسه، فهو مشرك شركًا أصغر؛ لأنه لما اعتقد أن ما ليس بسبب سببًا فقد شارك الله تعالىٰ في الحكم لهذا الشيء بأنه سبب، والله تعالىٰ لم يجعله سببًا.

وطريق العلم بأن الشيء سبب:

إما عن طريق الشرع، وذلك كالعسل ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

وإما عن طريق القدر، كما إذا جربنا هذا الشيء فوجدناه نافعًا في هذا الألم أو المرض، ولكن لا بد أن يكون أثره ظاهرًا مباشرًا كما لو اكتوىٰ بالنار فبرئ بذلك مثلًا، فهذا سبب ظاهر بيّن، وإنما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أن جرّبت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشرًا، كالحلقة، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنها نافعة؛ فينتفع لأن للانفعال النفسي للشيء أثرًا بينًا؛ فقد يقرأ إنسان علىٰ مريض فلا يرتاح له، ثم يأتي آخر يعتقد أن قراءته نافعة، فيقرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له ويشعر بخفة الألم، كذلك الذين يلبسون الحِلَق ويربطون الخيوط، قد يحسون بخفة الألم أو اندفاعه أو ارتفاعه بناءً علىٰ اعتقادهم نفعها.

وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسي، والشعور النفسي ليس طريقًا شرعيًّا لإثبات الأسباب، كما أن الإلهام ليس طريقًا للتشريع.

قوله: «لبس الحلقة والخيط»: الحلقة: من حديد أو ذهب أو فضة أو ما أشبه ذلك، والخيط معروف.

قوله: «**ونحوهما**»: كالمرصعات، وكمن يصنع شكلًا معينًا من نحاس أو غيره لدفع البلاء، أو يعلق علىٰ نفسه شيئًا من أجزاء الحيوانات، والناس كانوا يُعلِّقون القرب البالية علىٰ السيارات ونحوها لدفع العين، حتىٰ إذا رآها الشخص نفرت نفسه فلا يعين.

قوله: «**لرفع البلاء، أو دفعه**»؛ الفرق بينهما: أن الرفع بعد نزول البلاء، والدفع قبل نزول البلاء.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لا ينكر السبب الصحيح للرفع أو الدفع، وإنما ينكر السبب غير الصحيح.

«**وقول الله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾**»؛ أي: أخبروني، وهذا تفسير باللازم؛ لأن من رأىٰ أخبر، وإلّا؛ فهي استفهام عن رؤية، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾[الماعون:١]؛ أي: أخبرني ما حال من كذب بالدين؟ وهي تنصب مفعولين الأول مفرد، والثاني جملة استفهامية.

وقوله: «ما»: المفعول الأول لرأيتم، والمفعول الثاني جملة: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾.

وقوله: ﴿تَدْعُونَ﴾؛ المراد بالدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ فهم يدعون هذه الأصنام دعاء عبادة، فيتعبَّدون لها بالنذر والذبح والركوع والسجود، ويدعونها دعاء مسألة لدفع الضرر أو جلب النفع. فالله سبحانه إذا أراد بعبده ضرًّا لا تستطيع الأصنام أن تكشفه، وإن أراده برحمة لا تستطيع أن تمسك الرحمة عنه؛ فهي لا تكشف الضر، ولا تمنع النفع؛ فلماذا تعبد؟!

وقوله: ﴿كَـٰشِفَـٰتُ﴾: يشمل الدفع والرفع؛ فهي لا تكشف الضر بدفعه وإبعاده، ولا تكشفه برفعه وإزالته.

وقوله: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيني، والحسب: الكفاية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[النبأ:٣٦]، من الحسب، وهو الكفاية، وحسبي: مبتدأ، ولفظ الجلالة: خبر، وهذا أبلغ. وقيل العكس، والراجح الأول، لوجهين:

الأول: أن الأصل عدم التقديم والتأخير.

الثاني: أن قولك: حسبي الله فيه حصر الحسب في الله؛ أي: حسبي الله لا غيره، فهو كقولك: لا حسب لي إلا الله، بخلاف قولك: الله حسبي؛ فليس فيه الحصر المذكور؛ فلا يدل علىٰ حصر الحسب في الله.

قوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[الزمر:٣٨]. قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والمعنىٰ أن المتوكل حقيقةً هو المتوكل علىٰ الله، أما الذي يتوكل علىٰ الأصنام والأولياء والأضرحة، فليس بمتوكل علىٰ الله تعالىٰ.

وهذا لا ينافي أن يوكل الإنسان إنسانًا في شيء ويعتمد عليه؛ لأن هناك فرقًا بين التوكل علىٰ الإنسان الذي يفعل لك شيئًا بأمرك، وبين توكلك علىٰ الله؛ لأن توكلك علىٰ الله اعتقادك أن بيده النفع والضر، وأنك متذلل، معتمد عليه، مفتقر إليه، مفوض أمرك إليه.

والشاهد من هذه الآية: أن هذه الأصنام لا تنفع أصحابها لا بجلب نفع ولا بدفع ضر؛ فليست أسبابًا لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب شرعي أو قدري؛ فيعتبر اتخاذه سببًا إشراكًا بالله. وهذا يدل علىٰ حذق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقوة استنباطه، و إلّا؛ فالآية بلا شك في الشرك الأكبر الذي تعبد فيه الأصنام، ولكن القياس واضح جدًّا؛ لأن هذه الأصنام ليست أسبابًا تنفع، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب، فيعتبر إشراكًا بالله.

وهناك شاهد آخر في قوله: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ فإن فيه تفويض الكفاية إلىٰ الله دون الأسباب الوهمية، وأما الأسباب الحقيقية، فلا ينافي تعاطيها توكل العبد علىٰ الله تعالىٰ وتفويض الأمر إليه؛ لأنها من عنده.

❁ **قوله**: **في حديث عمران**: «**رأىٰ رجلًا**»:

لم يبين اسمه؛ لأن المهم بيان القضية وحكمها، لكن ورد ما يدل علىٰ أنه عمران نفسه، لكنه أبهم نفسه.

قوله: «**حلقة من صفر، فقال: ما هذه؟ قال: من الواهنة**»، والحلقة والصفر معروفان، وأما الواهنة، فوجع في الذراع أو العضد.

قوله: «**ما أفلحت**»: الفلاح هو النجاة من المرهوب وحصول المطلوب.

هذا الحديث مناسب للباب مناسبة تامة؛ لأن هذا الرجل لبس حلقة من صفر؛ إما لدفع البلاء أو لرفعه. والظاهر أنه لرفعه؛ لقوله: «**لا تزيدك إلا وهنًا**»، والزيادة تكون مبنية علىٰ أصل.

ففي هذا الحديث دليل على عدة فوائد:

١- أنه ينبغي لمن أراد إنكار المنكر أن يسأل أولًا عن الحال؛ لأنه قد يظن ما ليس بمنكر منكرًا، ودليله أن الرسول ﷺ قال: «ما هذه».

والاستفهام هنا للاستعلام فيما يظهر وليس للإنكار، وقول الرجل: «من الواهنة»: من للسببية؛ أي: لبستها بسبب الواهنة، وهي مرض يوهن الإنسان ويضعفه، قد يكون في الجسم كله وقد يكون في بعض الأعضاء كما سبق.

٢- وجوب إزالة المنكر؛ لقوله: «انزعها»، فأمره بنزعها؛ لأن لبسها منكر، وأيد ذلك بقوله: «إنها لا تزيدك إلا وهنًا»؛ أي: وهنًا في النفس لا في الجسم، وربما تزيده وهنًا في الجسم، أما وهن النفس؛ فلأن الإنسان إذا تعلقت نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتماد على الله ﷻ والانفعال النفسي له أثر كبير في إضعاف الإنسان؛ فأحيانًا يتوهم الصحيح أنه مريض فيمرض، وأحيانًا يتناسى الإنسان المرض وهو مريض فيصبح صحيحًا، فانفعال النفس بالشيء له أثر بالغ، ولهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر، حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا أو بكذا؛ فيزداد عليه الوهم حتى يصبح الموهوم حقيقة.

فهذا الذي لبس الحلقة من الواهنة لا تزيده إلى وهنًا؛ لأنه سوف يعتقد أنها ما دامت عليه فهو سالم، فإذا نزعها عاد إليه الوهن، وهذا بلا شك ضعف في النفس.

٣- أن الأسباب لا أثر لها بمقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان.

٤- أن لبس الحلقة وشبهها؛ لدفع البلاء أو رفعه من الشرك؛ لقوله: «لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»، وانتفاء الفلاح دليل على الخيبة والخسران.

ولكن هل هذا شرك أكبر أو أصغر؟.

سبق لنا عند الترجمة أنه يختلف بحسب اعتقاد صاحبه.

٥- أن الأعمال بالخواتيم؛ لقوله: «لو مت وهي عليك»؛ فعرف أنه لو أقلع عنها قبل الموت لم تضره؛ لأن الإنسان إذا تاب قبل أن يموت صار كمن لا ذنب له.

قوله: «من تعلق تميمة»:

أي: علق بها قلبه واعتمد عليها في جلب النفع ودفع الضرر، والتميمة: شيء يعلق على الأولاد من خرز أو غيره يتقون به العين.

وقوله: «**فلا أتم الله له**»، الجملة خبرية بمعنى الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وكلا الاحتمالين دال على أن التميمة محرمة، سواء نفى الرسولﷺ أن يتم الله له أو دعا بأن لا يتم الله له؛ فإن كان الرسولﷺ أراد به الخبر؛ فإننا نخبر بما أخبر به النبيﷺ، وإلا، فإننا ندعو بما دعا به الرسولﷺ.

ومثل ذلك قولهﷺ: «**ومن يتعلق ودعة؛ فلا ودع الله له**».

والودعة: واحدة الودع، وهي أحجار تؤخذ من البحر يعلقونها لدفع العين، ويزعمون أن الإنسان إذا علق هذه الودعة لم تصبه العين، أو لا يصيبه الجن.

قوله: «**لا ودع الله له**»: أي: لا تركه الله في دعة وسكون، وضد الدعة والسكون القلق والألم.

وقيل: لا ترك الله له خيرًا، فعومل بنقيض قصده.

وقوله: «**فقد أشرك**»: هذا الشرك يكون أكبر إن اعتقد أنها ترفع أو تدفع بذاتها دون أمر الله، وإلا، فهو أصغر.

قوله: «**من الحمى**»: «من» هنا للسببية؛ أي: في يده خيط لبسه من أجل الحمى لتبرد عليه أو يشفى منها.

قوله: «**فقطعه**»: أي: قطع الخيط، وفعله هذا من تغيير المنكر باليد، وهذا يدل على غيرة السلف الصالح وقوتهم في تغيير المنكر باليد وغيرها.

وقوله: **وتلا قوله تعالى**: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦]؛ أي: وتلا حذيفة هذه الآية. والمراد بها المشركون الذين يؤمنون بتوحيد الربوبية ويكفرون بتوحيد الألوهية.

وقوله: ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾في محل نصب على الحال من أكثر، أي: وهم متلبسون بالشرك، وكلام حذيفة في رجل مسلم ليس خيطًا لتبريد الحمى أو الشفاء منها. وفيه دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه إيمان وشرك، ولكن ليس الشرك الأكبر؛ لأن الشرك الأكبر لا يجتمع مع الإيمان، ولكن المراد هنا الشرك الأصغر، وهذا أمر معلوم.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: **التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك**؛ لقولهﷺ: «**أنزعها -لا تزيدك إلا وهنًا- لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**»، وهذا تغليظ عظيم في لبس هذه الأشياء والتعلق بها.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح: هذا وهو صحابي؛ فكيف بمن دون الصحابي؟! فهو أبعد عن الفلاح.

قال المؤلف: «**فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر**».

قوله: «**لكلام الصحابة**»؛ أي: لقولهم، وهو كذلك؛ فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا»[٢٤٠] وذلك؛ لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة؛ لأن الشرك لا يغفر ولو كان أصغر، بخلاف الكبائر، فإنها تحت المشيئة.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة. هذا فيه نظر؛ لأن قوله ﷺ: «**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**» ليس بصريح أنه لو مات قبل العلم، بل ظاهره: «**لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**»؛ أي: بعد أن علمت وأمرت بنزعها. وهذه المسألة تحتاج إلىٰ تفصيل، فنقول: الجهل نوعان:

جهل يعذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه، فما كان ناشئًا عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم؛ فإنه لا يعذر فيه، سواء في الكفر أو في المعاصي، وما كان ناشئًا عن خلاف ذلك؛ أي: أنه لم يهمل ولم يفرط ولم يقم المقتضي للتعلم بأن كان لم يطرأ علىٰ باله أن هذا الشيء حرام؛ فإنه يعذر فيه فإن كان منتسبًا إلىٰ الإسلام، لم يضره، وإن كان منتسبًا إلىٰ الكفر، فهو كافر في الدنيا، لكن في الآخرة أمره إلىٰ الله علىٰ القول الراجح، يمتحن؛ فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصىٰ دخل النار.

فعلىٰ هذا من نشأ ببادية بعيدة ليس عنده علماء ولم يخطر بباله أن هذا الشيء حرام، أو أن هذا الشيء واجب، فهذا يعذر، وله أمثلة:

منها: رجل بلغ وهو صغير وهو في بادية ليس عنده عالم، ولم يسمع عن العلم شيئًا، ويظن أن الإنسان لا تجب عليه العبادات إلا إذا بلغ خمس عشرة سنة، فبقي بعد بلوغه حتىٰ تم له خمس عشرة سنة وهو لا يصوم ولا يصلي ولا يتطهر من جنابه؛ فهذا لا نأمره بالقضاء؛ لأنه معذور بجهله الذي لم يفرط فيه بالتعلم ولم يطرأ له علىٰ بال، وكذلك لو كانت أنثىٰ أتاها الحيض وهي صغيرة وليس عندها من تسأل ولم يطرأ علىٰ بالها أن هذا الشيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشرة سنة؛ فإنها تعذر إذا كانت لا تصوم ولا تصلي.

---

(٢٤٠) أخرجه الطبراني، برقم (٨٩٠٢)، وعبد الرزاق، برقم (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة، برقم (١٢٢٨١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وأما من كان بالعكس كالساكن في المدن يستطيع أن يسأل، لكن عنده تهاون وغفلة، فهذا لا يعذر؛ لأن الغالب في المدن أن هذه الأحكام لا تخفىٰ عليه، ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة؛ فهو مفرط، فيلزمه القضاء ولا يعذر بالجهل.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر؛ لقوله: «لا تزيدك إلا وهنًا»، والمؤلف استنبط المسألة وأتىٰ بوجه استنباطها.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ علىٰ من فعل مثل ذلك؛ أي: ينبغي أن ينكر إنكارًا مغلظًا علىٰ من فعل مثل هذا، ووجه ذلك سياق الحديث الذي أشار إليه المؤلف، وأيضًا قوله: **«من تعلق تميمة؛ فلا أتم الله له»**.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه: تؤخذ من قوله: **«من تعلق تميمة؛ فلا أتم الله له»** إذا جعلنا الجملة خبرية، وأن من تعلق تميمة؛ فإن الله لا يتم له، فيكون موكولًا إلىٰ هذه التميمة، ومن وكل إلىٰ مخلوق؛ فقد خُذِلَ، ولكنها في الباب الذي بعده صريحة، **«من تعلق شيئًا وكل إليه»**(٢٤١).

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة؛ فقد أشرك: وهو إحدىٰ الروايتين في حديث عقبة بن عامر.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمىٰ من ذلك. يؤخذ من فعل حذيفة أنه رأىٰ رجلًا في يده خيط من الحمىٰ فقطعه، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦].

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل علىٰ أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر علىٰ الأصغر كما ذكر ابن عباس في آية البقرة؛ أي: أن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في الشرك الأكبر، لكنهم يستدلون بالآيات الواردة في الشرك الأكبر علىٰ الأصغر؛ لأن الأصغر شرك في الحقيقة وإن كان لا يخرج من الملة، ولهذا نقول: الشرك نوعان: أصغر وأكبر.

وقوله: **«كما ذكر ابن عباس في آية البقرة»**، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾[البقرة:١٦٥]، فجعل المحبة التي تكون كمحبة الله من اتخاذ الند لله ﷻ.

---

(٢٤١) أخرجه الترمذي، كتاب: الطب، باب: ما جاء في كراهية التعليق، برقم (٢٠٧٢)، وأحمد (٤/ ٣١٠) من حديث عبد الله بن عكيم مرفوعًا، وقال الترمذي «وحديث عبد الله بن عكيم إنما نعرفه من حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ وعبد الله بن عكيم لم يسمع من النبي ﷺ في زمن النبي ﷺ يقول كتب إلينا رسول الله ﷺ». اهـ وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

العاشرة: أن تعليق الودع من العين من ذلك: وقوله: «**من ذلك**»؛ أي: من تعليق التمائم الشركية؛ لأنه لا أثر لها ثابت شرعًا ولا قدرًا.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له؛ أي: ترك الله له. تؤخذ من دعاء النبي ﷺ على هؤلاء الذين اتخذوا تمائم وودعًا، وليس هذا بغريب أن نؤمر بالدعاء على من خالف وعصى، فقد قال النبي ﷺ: «**إذا سمعتم من ينشد الضالة في المسجد، فقولوا: لا ردها الله عليك**»[٢٤٢] «**وإذا سمعتم من يبيع أو يبتاع في المسجد؛ فقولوا: لا أربح الله تجارتك**»[٢٤٣].

فهنا أيضًا تقول له: لا أتم الله لك، ولكن الحديث إنما قاله الرسول ﷺ على سبيل العموم؛ فلا نخاطب هذا بالتصريح ونقول لشخص رأينا عليه تميمة: لا أتم الله لك وذلك؛ لأن مخاطبتنا الفاعل بالتصريح والتعيين سوف يكون سببًا لنفوره، ولكن نقول دع التمائم أو الودع؛ فإن النبي ﷺ يقول: «**من تعلق تميمة، فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له**».

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه»:**

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أن يتضمن ذكر شيء مما يضاد التوحيد، وهو التماس رفع الضرّ أو دفعه من غير الله للتحذير منه، فإن التوحيد يعرف بضده.

«**من الشرك**»: من تبعيضية؛ أي: من الشرك الأكبر إن اعتقد أن هذه الأشياء تنفع أو تضر بذاتها، أو من الشرك الأصغر إن اعتقد أنها سبب للنفع والضر.

«**الحلقة**»: كل شيءٍ مستدير.

---

(٢٤٢) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد، برقم (٥٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٤٣) أخرجه الترمذي، كتاب: البيوع، باب: النهي عن البيع في المسجد، برقم (١٣٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

«ونحوهما»: من كل ما يُلبس أو يُعلق لهذا الغرض.

«رفع البلاء»: إزالته بعد نزوله.

«ودفعه»: منعه قبل نزوله.

✿ **قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾:**

أخبروني.

﴿مَّا تَدۡعُونَ﴾: تسألونه جلب الخير ودفع الضر.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: غيره من الأنداد والآلهة.

﴿بِضُرٍّ﴾: بمرضٍ أو فقرٍ أو بلاءٍ أو شدةٍ.

﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؛ أي: لا تقدر علىٰ ذلك.

﴿بِرَحۡمَةٍ﴾؛ أي: بصحةٍ وعافيةٍ وخير وكشف بلاءٍ.

﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الله كافيني وكافي من توكل عليه.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يسأل المشركين سؤال إنكار عن أصنامهم التي يعبدونها مع الله هل تقدر علىٰ النفع والضر؟ فلا بد أن يعترفوا بعجزها عن ذلك، فإذا كان كذلك بطلت عبادتها من دون الله.

مناسبة الآية للباب:

أن فيها دليلًا علىٰ بطلان الشرك، ولبس الحلقة والخيط من ذلك، لا يكشف الضرَّ ولا يمنع منه.

ما يستفاد من الآية:

١-بطلان الشرك؛ لأن كل ما يعبد من دون الله، لا يملك ضرًّا ولا نفعًا لعابده.

٢-التحذير من لبس الحلقة والخيط وغيرها لجلب النفع أو دفع الضر؛ لأنه شرك من جنس ما يراد من الأصنام.

٣-مشروعية مناظرة المشركين؛ لإبطال الشرك.

٤-وجوب الاعتماد علىٰ الله وحده وتفويض الأمور كلها إليه.

❁ **قوله: «عمران»:**

هو عمران بن حصين بن عبيد بن خلف الخزاعي، صحابي ابن صحابي، أسلم عام خيبر ومات سنة ٥٢هـ بالبصرة.

«ما هذه؟» استفهام إنكارٍ.

«الواهنة»: نوع من المرض يصيب اليد.

«انزعها»: اطرحها والنزع هو الجذب بقوةٍ.

«وهنًا»: ضعفًا.

«ما أفلحت»: الفلاح هو الفوز والظفر والسعادة.

المعنى الإجمالي للحديث:

يذكر لنا عمران بن حصين رضي الله عنهما موقفًا من مواقف رسول الله ﷺ في محاربة الشرك وتخليص الناس منه، ذلك الموقف: أنه أبصر رجلًا لابسًا حلقةً مصنوعةً من الصفر، فسأله عن الحامل له على لبسها؟ فأجاب الرجل أنه لبسها لتعصمه من الألم، فأمره بالمبادرة بطرحها، وأخبره أنها لا تنفعه بل تضره، وأنها تزيد الداء الذي لبست من أجله، وأعظم من ذلك لو استمرت عليه إلى الوفاة حُرِمَ الفلاح في الآخرة أيضًا.

ما يستفاد من الحديث:

١- أن لبس الحلقة وغيرها للاعتصام بها من الأمراض من الشرك.

٢- النهي عن التداوي بالحرام.

٣- إنكار المنكر وتعليم الجاهل.

٤- ضرر الشرك في الدنيا والآخرة.

٥- استفصال المفتي واعتبار المقاصد.

٦- أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر.

٧- أن الشرك لا يعذر فيه بالجهل.

٨- التغليظ في الإنكار على من فعل شيئًا من الشرك؛ لأجل التنفير منه.

❁ **قوله: «عقبة بن عامر»:**

هو عقبة بن عامر الجهني صحابي مشهور، وكان فقيهًا فاضلًا ولي إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين، ومات قريبًا من الستين.

«وله»؛ أي: وروىٰ الإمام أحمد.

«تعلق تميمة»؛ أي: علقها عليه أو علىٰ غيره معتقدًا بها. والتميمة خرزات كانت العرب تعلقها علىٰ أولادهم يتقون بها العين.

«فلا أتم الله له»: دعاء عليه بأن لا يتم الله أموره.

«ودعةً»: الودعة شيء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين.

«فلا ودع الله له»؛ أي: لا جعله في دعة وسكون. أو لا خفف الله عنه ما يخافه.

«وفي روايةٍ»؛ أي: وروىٰ الإمام أحمد من حديث آخر.

المعنىٰ الإجمالي للحديثين:

أن النبي ﷺ يدعو علىٰ من استعمل التمائم يعتقد فيها دفع الضرر بأن يعكس الله قصده ولا يتم له أموره، كما أنه ﷺ يدعو علىٰ من استعمل الودع لنفس القصد السابق أن لا يتركه الله في راحةٍ واطمئنانٍ، بل يحرك عليه كل مؤذٍ – وهذا الدعاء يقصد منه التحذير من الفعل – كما أنه يخبر ﷺ في الحديث الثاني أن هذا العمل شرك بالله.

مناسبة الحديثين للباب:

أن فيهما دلالة علىٰ تحريم تعليق التمائم والودع واعتباره شركًا؛ لما يقوم بقلب المعلق لها من الاعتماد علىٰ غير الله.

ما يستفاد من الحديثين:

١- أن تعليق التمائم والودع من الشرك.

٢- أن من اعتمد علىٰ غير الله عامله الله بنقيض قصده.

٣- الدعاء علىٰ من علق التمائم والودع بما يفوت عليه مقصوده ويعكس عليه مراده.

قوله: «ولابن أبي حاتم»:

أي: وروى ابن أبي حاتمٍ صاحب كتاب الجرح والتعديل.

«**عن حذيفة**»: هو ابن اليمان العبسي حليف الأنصار صحابي جليل من السابقين الأولين، مات سنة ٣٦هـ رضي الله عنه.

«**من الحمى**»؛ أي: للوقاية من الحُمَّىٰ فلا تصيبه بزعمه.

«**وتلا**»؛ أي: قرأ الآية مستدلًا بها علىٰ إنكار ما رأىٰ.

معنىٰ الأثر إجمالًا:

أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أبصر رجلًا قد ربط في عضده خيطًا يتقي به مرض الحمىٰ فأزاله عنه منكرًا فعله هذا، واستدل بالآية التي أخبر الله فيها أن المشركين يجمعون بين الإقرار بتوحيد الربوبية والشرك في العبادة.

مناسبة الأثر للباب:

أن فيه اعتبار لبس الخيط -لدفع المرض- شركًا يجب إنكاره.

ما يستفاد من الأثر:

١- إنكار لبس الخيط؛ لرفع البلاء أو دفعه، وأنه شرك.

٢- وجوب إزالة المنكر لمن يقدر علىٰ إزالته.

٣- صحة الاستدلال بما نزل في الشرك الأكبر علىٰ الشرك الأصغر؛ لشموله له.

٤- أن المشركين يقرون بتوحيد الربوبية ومع هذا هم مشركون؛ لأنهم لم يخلصوا في العبادة.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب من الشرك لبس الحلقة والخيط...»:

هذا بابٌ شرع به الشيخ رحمه الله في تفصيل ما سبق، وهو بيان التوحيد ببيان ضده. ومن المعلوم أن الشيء يعرف ويتميز بشيئين: بحقيقته، وبمعرفة ضده.

والتوحيد يتميز بمعرفته في نفسه أي: بمعرفة معناه وأفراده، وبمعرفة ضده أيضًا، وقد قال الشاعر:

.... **وبضدها تتميز الأشياء**

وهذا صحيح: فإن التوحيد يُعرف حسْنُه بمعرفة قبح الشرك. وقد بدأ الإمام رَحِمَهُ اللهُ في ذكر ما هو مضاد للتوحيد.

وما يضاد التوحيد منه: ما يضاد أصله، وهو الشرك الأكبر الذي إذا أتىٰ به المكلف فإنه ينقض توحيده، ويكون مشركًا شركًا أكبر مخرجًا من الملة، فمثل هذا يقال فيه: إنه قد أتىٰ بما ينافي التوحيد، أو ينافي أصل التوحيد.

والثاني: ما ينافي كمال التوحيد الواجب، وهو: ما كان حاصلًا من جهة الشرك الأصغر، فإنه ينافي كماله الواجب، فإذا أتىٰ بشيء منه، فقد نافىٰ بذلك كمال التوحيد؛ لأن كمال التوحيد إنما يكون بالتخلص من أنواع الشرك جميعًا، وكذلك الرياء فإنه من أفراد الشرك الأصغر أعني: يسير الرياء، وهو ينافي كمال التوحيد. ومنها أشياء يقول العلماء عنها: إنها نوع شرك، فيعبرون عن بعض المسائل من الشركيات بأنها نوع شرك أو نوع تشريك فصارت ألفاظهم -عندنا- في هذا الباب أربعة :

الأول: الشرك الأكبر.

الثاني: الشرك الأصغر.

الثالث: الشرك الخفي.

الرابع: قولهم في بعض المسائل: فيها نوع شرك، أو نوع تشريك، وذلك مثل ما سيأتي في قوله -جل وعلا-: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾[النحل: ٨٣]، وفي نحو قوله ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾[الأعراف: ١٩١] وهذا يدخل في باب الطاعة، كما سيأتي بيانه مفصلًا -إن شاء الله-.

ابتدأ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب: بتفصيل وبيان صور من الشرك الأصغر، التي يكثر وقوعها، وقدّم الأصغر علىٰ الأكبر: انتقالًا من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ؛ لأن الشبهة في الأدنىٰ ضعيفة بخلاف الشبهة في الأعلىٰ، فإنها أقوىٰ؛ لأن شبهة المتعلّق بالخيط، وبالتمائم أضعف من شبهة المتعلّق بالأولياء والصالحين، فإذا علم المتعلّق بالخيط، والتمائم، ونحوها خطأه وبطلان تعلّقه، سَهُلَ -بعد ذلك- إقناعه ببطلان التعلق بغير الله من الأولياء والصالحين، وبأنه أقبح من الأول -

كما هو الحال في الشرك الأكبر-، أما إذا جاء إلىٰ من هو متلبس بالشرك الأكبر، كالذي يتعلّق بالأولياء، ويدعوهم، ويسألهم، ويذبح لهم، فلا يَحْسُنُ فيمن هذه حاله أن يُنْتَقل في إقناعه ببطلان ما هو عليه من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ؛ لقوة الشبهة عنده تجاه من أشرك بهم، وهي -بزعمه- أن أولئك لهم مقامات عند الله -جل وعلا- فهذه حقيقة حال الذين يتوجهون إلىٰ أولئك المدعوين، ويشركون بهم الشرك الأكبر المخرج من الملة -والعياذ بالله- فإنهم يقولون: إنما أردنا الوسيلة، وهؤلاء الذين ندعوهم لهم مقامات عند الله، وإنما أردنا الوسيلة. فحال هؤلاء كحال المشركين الذين كانوا في زمن النبي ﷺ الذين قال الله -جل وعلا- فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[الزمر: ٣] والمقصود: أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بدأ أولًا بتفصيل الشرك الأصغر انتقالًا من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ حتىٰ يكون ذلك أقوىٰ في الحجة، وأمكن في النفوس، من جهة: ضرورة التعلّق بالله، وإبطال التعلق بغيره.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**بابٌ من الشرك**): (مِن) هنا تبعيضية؛ يعني: أن هذه الصورة التي في الباب هي بعض الشرك، لكن هل هي بعض أفراده أو بعض أنواعه ؟ الجواب: أنها شاملة للأمرين؛ لأن ما ذُكر -وهو لبس الحلقة أو الخيط- هو أحد أنواع الشرك، وهو: الشرك الأصغر، وهو أيضًا أحد أفراد الشرك بعمومه؛ لأنها صورة من صور الإشراك.

قوله: «من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما»:

المقصود بقوله: (ونحوهما) ما يكون نحو الحلقة والخيط مثل: الخرز، والتمائم، والحديد، ونحو ذلك مما قد يُلبس، ومثله أيضًا ما يعلّق في البيوت، أو في السيارات، أو يعلّق علىٰ الصغار، ونحو ذلك، مما فيه لبس، أو تعليق، فكل ذلك يدخل في هذا الباب، وأنه من الشرك.

والحلقة: إما أن تكون من صُفر يعني: من نُحاس، وإما أن تكون من حديد، أو تكون من أي معدن. والخيط: معروف، والمراد عَقْدُهُ في اليد علىٰ وجه الاعتقاد، وليس المراد خيطًا بعينه.

وكان للعرب اعتقاد في الحلقة والخيط، ونحوهما: كالتمائم، وغيرها، إذ كانوا يعتقدون أن من تعلّق شيئًا من ذلك: أثر فيه ونفع، إما من جهة دفع البلاء قبل وقوعه، وإما من جهة رفع البلاء أو المرض بعد وقوعه؛ ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لرفع البلاء أو دفعه)؛ لأن الحالتين

موجودتان، فمنهم من يعلّق الحلق، والخيوط، ونحوهما قبل وقوع البلاء لدفعه، ولا شك أن هذا أعظم إثمًا وذنبًا من الذي يعلّق هذه الأشياء لرفع البلاء بعد حصوله؛ لأنه يعتقد أن هذه الأشياء الخسيسة الوضيعة تدفع قدر الله -جل وعلا-، فالصنف الأول، هم من ذكرنا، والصنف الثاني: هم الذين يلبسون تلك الأشياء، ويعلّقونها لرفع البلاء بعد حصوله، كمن مرض فلبس خيطًا، ليرفع ذلك المرض، أو أصابته عين فلبس الخيط ليرفع تلك العين، وهكذا: في أصناف شتىٰ، من أحوال الناس في ذلك.

ثمّ لِمَ كان لُبس الحلقة أو الخيط من الشرك الأصغر ؟ الجواب: لأنه تعلق قلبه بها، وجعلها سببًا لرفع البلاء، أو سببا لدفعه، والقاعدة في هذا الباب: أن إثبات الأسباب المؤثرة وكون الشيء سببا: لا يجوز إلا من جهة الشرع فلا يجوز إثبات سبب إلا أن يكون سببًا شرعيًّا، أو أن يكون سببًا قد ثبت بالتجربة الواقعة أنه يؤثر أثرًا ظاهرًا لا خفيًّا فمن لبس حلقة أو خيطًا أو نحوهما لرفع البلاء أو دفعه فإنه يكون بذلك قد اتخذ سببًا ليس مأذونًا به شرعًا، وكذلك من جهة التجربة: لا يحصل له ذلك علىٰ وجه الظهور وإنما هو مجرد اعتقاد من الملابس لذلك الشيء فيه، فقد يوافق القدر، فيُشفىٰ مِن حِين لُبس أو بعد لبسه، أو يدفع عنه أشياء يعتقد أنها ستأتيه فيبقىٰ قلبه معلقًا بذلك الملبوس، ويظن بل يعتقد أنه سبب من الأسباب، وهذا باطل.

أما وجه كون لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه شركًا أصغر: فإن من لبسها فقد تعلق قلبه بها، وجعلها تدفع وتنفع، أو جعلها تؤثر في رفع الضرر عنه، أو في جلب المنافع له. وهذا إنما يستقل به الله -جل وعلا- وحده؛ إذ هو وحده النافع الضار، وهو - سبحانه وتعالىٰ - الذي يفيض بالرحمة، ويفيض بالخير أو يمسك ذلك. وأما الأسباب التي تكون سببًا لمسبباتها فهذه لابُدَّ أن يكون مأذونًا بها في الشرع؛ ولهذا يعبر بعض العلماء عما ذكرت بقوله: من أثبت سببًا -يعني: ادّعىٰ أنه يُحدِث المسبَّب، أو يُحْدِث النتيجة- لم يجعله الله سببًا، لا شرعًا، ولا قدرًا: فقد أشرك، يعني الشرك الأصغر.

هذه القاعدة صحيحة -في الجملة- لكن قد يُشْكِل دخول بعض الأمثلة فيها، لكن المقصود من هذا الباب: إثبات أن الأسباب لابُدَّ أن تكون إما من جهة الشرع، وإما من جهة التجربة

الظاهرة، مثل: دواء الطبيب، ومثل: الانتفاع ببعض الأسباب التي فيها الانتفاع ظاهرًا، كأن تتدفأ بالنار أو تتبرد بالماء أو نحو ذلك، فهذه أسباب ظاهرة بَيِّنَةُ الأثر، فتحصَّل من هذا: أن تعلّق القلب بشيء لرفع البلاء، أو دفعه لم يجعله الشارع سببًا، ولم يأذن به، يكون نوع شرك، وهذا مراد الشيخ بهذا الباب؛ فإن لبس الخيط والحلقة من الشرك الأصغر.

وهنا تنبيه: وهو أن كل أصناف الشرك الأصغر قد تكون شركًا أكبر بحسب حال من فعلها. فالأصل: أن لبس الحلقة أو الخيط، وتعليق التمائم، والحلف بغير الله، وقول: ما شاء الله وشئت، ونحو ذلك من الأعمال، أو الاعتقادات، أو الأقوال الأصل فيها: أنها من الشرك الأصغر، لكن قد تكون شركًا أكبر بحسب حال صاحبها، يعني: إن اعتقد في الحلقة والخيط مثلًا أنها تؤثر بنفسها: فهذا شرك أكبر، وإذا اعتقد أنها ليست سببًا لكن تؤثر بنفسها وتدفع الضرر بنفسها، فتدفع المرض بنفسها، وتدفع العين بنفسها، أو ترفع المرض بنفسها، أو ترفع العين بنفسها. فإذا اعتقد أنها ليست أسبابًا بل هي مؤثرة بنفسها: فقد وقع في الشرك الأكبر؛ لأنه جعل التصرف في هذا الكون لأشياء مع الله -جل وعلا-، ومعلوم أن هذا من أفراد الربوبية، فيكون ذلك شركًا في الربوبية. فعماد هذا الباب على تعلّق القلب بهذه الأشياء: كالحلقة، والخيط، ونحوهما؛ لدفع ما يسوؤه، أو لرفع ما حل به من مصائب.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ [الزمر: ٣٨]»:

قوله -جل وعلا- في هذه الآية من سورة الزمر: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال بعض أهل العلم: إن (الفاء) إذا جاءت بعد همزة الاستفهام، فإنها تكون عاطفة على جملة محذوفة يدل عليها السياق، وهذه الآية أولها ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ يعني: قل: أتقرون بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده، ومع ذلك تدعون غيره؛ وتتوجهون لغيره ؟! أتقرون بذلك، وتفعلون هذه الأشياء؟ أو يكون التقدير: أتقرون بأن الله هو الواحد في ربوبيته، وأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وحده؟؟ إذا أقررتم بهذا أفرأيتم هذه الأشياء التي تتوجهون لها من دون الله، هل هي قادرة على دفع المضار عنكم؟ أو هل تجلب لكم رحمة من دون الله ؟! فعلى هذا: تكون (الفاء) هنا ترتيبية؛ رتبت ما بعدها على ما قبلها، وهذا هو المقصود هنا من هذا الاحتجاج؛ لأن طريقة القرآن أنه يحتج على المشركين بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية،

وهم أقروا بالربوبية، فرتب على إقرارهم بهذا: أنه يلزمهم أن يبطلوا عبادة غير الله -جل وعلا- ومعنى قوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون، وقد تكون العبادة بدعاء المسألة، وقد تكون بأنواع العبادة الأخرى، وقوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة؛ لأنهما حالتان من أحوال أهل الإشراك بالله.

و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ عامة؛ لأنها اسم موصول بمعنى الذي؛ أي: أفرأيتم الذي تدعونه من دون الله. والذي يدعونه من دون الله - الذي شملته هذه الآية - أنواع، وهو كل ما دعي من دون الله مما جاء بيانه في القرآن، وقد جاء في القرآن بيان الأصناف التي أُشرِك بها من دون الله -جل وعلا- وتُوُجِّهَ لها بالعبادة، وهي أنواع :

الأول: بعض الأنبياء والرسل والصالحين، كما قال -جل وعلا- في آخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] الآيات، فهذا فيه بيان هذا النوع من المعبودين.

الثاني: الملائكة، كما جاء بيان ذلك في آخر سورة سبإ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبإ: ٤٠، ٤١]. ونوع آخر من المشركين: كانوا يتوجهون للكواكب بالعبادة، مثل من يعبد الشمس والقمر، وغيرهما من الكواكب، ونوع آخر كانوا يتوجهون للأشجار، والأحجار، ونوع كانوا يتوجهون للأصنام والأوثان، فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يدخل فيه كل من توجه إليه بشيء من أنواع العبادة، وذلك يفيدنا في معرفة وجه الاستدلال من هذه الآية، كما سيأتي.

قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ فيه إبطال أن يكون لتلك الآلهة - بأنواعها - إضرار أو نفع، ومعنى قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي: لا يستطيعون ذلك، كما أنه إن أرادني الله -جل وعلا- برحمة، فهل تستطيع هذه الآلهة أن تدفع رحمة الله ؟! الجواب: أنها لا تستطيع أيضًا. فَبَطَلَ إذًا أن يكون ثَمَّ تعلّق بتلك الآلهة العظيمة التي يظن أن لها مقامات عند الله -جل وعلا- موجبة لشفاعتها.

إذا تبين ذلك فقد قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية واردة في الشرك الأكبر، فَلِمَ جعلها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في سرد بيان أصناف من الشرك الأصغر؟ والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن الآيات الواردة في الشرك الأكبر، دلت من جهة المعنىٰ علىٰ وجوب التعلق بالله، وبطلان التعلق بغيره، وهذا المعنىٰ متحقق في الشرك الأصغر -أيضًا-، ولذا فإن من السلف من نزّل الآيات الواردة في الشرك الأكبر علىٰ الشرك الأصغر بجامع أن في كلا الشركين تعلّقًا بغير الله -جل وعلا- فإذا بطل التعلق في الأعظم بطل التعلق فيما هو دونه من باب أولىٰ.

الوجه الثاني: أن هذه الآية واردة في الشرك الأكبر، ولكن المعنىٰ الذي دارت عليه هو تقرير أن كل من يدعىٰ من دون الله لا يستطيع من الأمر شيئًا، فلا يقدر أن يرفع ضرًّا ولا بلاء، ولا أن يمنع رحمة وفضلًا عمن أراده الله بذلك وهذا المعنىٰ الذي هو التعلق بما يعتقد أنه يضر أو ينفع هو المعنىٰ الذي من أجله تعلّق المشرك -الشرك الأصغر- بالحلقة وبالخيط؛ لأنه ما علق الخيط، ولا علق الحلقة، وغيرهما إلا لأنه يعتقد أن لهما تأثيرًا من جهة رفع البلاء أو دفع الضر، وأنهما يجلبان النفع أو يدفعان الضر، مع أن هذه الأشياء مهينة وأمور وضيعة، فإذا نُفِيَ عن الأشياء العظيمة: كالأنبياء، والمرسلين، والملائكة، والصالحين، أو الأوثان التي لها روحانيات كما يقولون؛ فإن انتفاء النفع والضر عما سواها - مما هو أدنىٰ - لا شك أنه أظهر في البرهان، وأبين.

وقوله: ﴿بِضُرٍّ﴾ الوارد في سياق قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾: نكرة في سياق الشرط، فهو يعمّ جميع أنواع الضرر، يعني: أن غير الله -جل وعلا- لا يستطيع أن يرفع ضرًّا -أيّ ضرّ- أنزله الله -جل وعلا- إلا بإذنه سبحانه.

۞ **قوله**: «عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ رأىٰ رجلًا في يده حلقة من صفر، فقال: «ما هذه؟» قال: من الواهنة، فقال: انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا...»:

مناسبة الحديث للباب ظاهرة، وهي: أنه عليه الصلاة والسلام رأىٰ رجلًا في يده حلقة من صفر وكان أهل الجاهلية يعلقونها رجاء النفع أو دفع الضر فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هذه؟»، فإن قيل: فما نوع الاستفهام في هذا الحديث؟ فالجواب أن من أهل العلم من قال: إنه استفهام إنكار. ولكن المسئول لم يفهم أنه إنكار، بل فهم أنه استفصال، فلذلك أجاب؛ فقال: من الواهنة.

وقال آخرون من أهل العلم: إنه يحتمل أن يكون استفهام استفصال، أو استفهام إنكار؛ ولهذا أجاب المسئول بقوله: من الواهنة. والأظهر: الأول، يعني: أنه يفيد الإنكار الشديد، وإنما كان هو الأظهر من حيث دلالة السياق عليه؛ وليس في السياق ما يدل علىٰ أنه ﷺ كان يقصد بسؤاله الاستفصال عن السبب الذي من أجله لبس الرجل حلقة الصفر، كأن يكون قد لبسها للتحلي، أو لأي أمر آخر.

والمقصود أن الاستفهام في قوله: «**ما هذه؟**» لا يحتمل أن يكون استفصالًا عن وجه اللبس، هل هو: للاعتقاد، أو يكون قد لبس لغير ذلك، بل هو استفهام للإنكار. وإذا احتمل أن يكون الاستفهام للاستفصال، فإن في قول المسئول: «**من الواهنة**» ما يعين سبب اللبس، فعلىٰ كلا القولين: يكون قد لبسها لأجل تعلقه بها، لرفع المرض، أو لدفعه. والواهنة: نوع مرض من الأمراض يهن الجسم، ويطرحه، ويضعف قواه.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**انزعها**»: هذا أمر، وفيه: أن تغيير المنكر يكون باللسان، إذا كان المأمور يطيع الآمر؛ ويكتفىٰ بذلك عن تغييره باليد؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام له حق الولاية، وبإمكانه تغيير هذا المنكر بيده، لكن لما علم من حال ذلك المأمور أنه يمتثل الأمر قال له: «**انزعها**». فلا تعارض بين هذا وبين ما سيأتي من أن حذيفة رضي الله عنه قطع خيطًا من يد رجل؛ فإن ذلك مبني علىٰ حال أخرىٰ.

قوله: «**فإنها لا تزيدك إلا وهنًا**»: يعني: أن ضررها أقرب من نفعها، وهذا شامل لجميع أنواع الشرك، فإن ما أشرك به ضرره أعظم من نفعه، لو فُرض أن فيه نفعًا، وقد قال العلماء في قوله هنا: «**انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا**» يعني: لو كان فيها أثر فإن أثرها الإضرار بدنيًّا، وروحيًّا، ونفسيًّا؛ لأنها تضعف الروح والنفس عن مقابلة الوهن والمرض، فيكون تعلّقه بتلك الحلقة أو الخيط سببًا في حصول الضعف.

قوله: «**فإنها لا تزيدك إلا وهنًا**»: وهذا حال كل من أشرك فإن شركه يجره من ضرر إلىٰ ضرر أكثر منه، وإن ظن أنه في انتفاع.

قوله ﷺ: «**فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**»: لأن حال المعلِّق يختلف، فقد يكون علقها لاعتقاده أنها تؤثر استقلالًا، وقد يكون علّقها من جهة التسبب، فإذا كان الذي رُئِيَتْ في يده صحابيًّا، تعين أن تعليقه لها من جهة التسبب، لا من جهة اعتقاده تأثيرها استقلالًا، ولكن الفائدة من قوله: «**ما أفلحت أبدًا**» حصول العبرة له، ولغيره، وبيان عاقبة ذلك.

والفلاح المنفي -في هذا الحديث- يختلف معناه، باختلاف حال المعلِّق؛ فيكون المراد: إما نفي الفلاح المطلق، بمعنى: الحرمان من دخول الجنة، والخلود في النار. وهذا في حق من اعتقد أن تعليق الحلقة أو الخيط ينفع استقلالًا، فهذا: شرك أكبر، وإما نفي مطلق الفلاح، أو نفي نوع منه، أو درجة من درجاته، فيكون واقعًا في الشرك الأصغر، وهذا: إن اعتقد أن تعليق الحلقة أو الخيط سبب لحصول النفع، فهذا: قد اتخذ من الأسباب ما لم يجعله الله -عز وجل- سببًا، لا شرعًا، ولا قدرًا، ومطلق الشيء، والشيء المطلق: مصطلحان يكثر ورودهما في كتب أهل العلم، وفي كتب التوحيد خاصة، فتجدهم يقولون -مثلًا-: التوحيد المطلق ومطلق التوحيد، والإسلام المطلق ومطلق الإسلام والإيمان المطلق ومطلق الإيمان، والشرك المطلق ومطلق الشرك، والفلاح المطلق ومطلق الفلاح، والدخول المطلق ومطلق الدخول، والتحريم المطلق -يعني تحريم دخول الجنة أو تحريم دخول النار- ومطلق التحريم.

ومن المهم أن تعلم أن الشيء المطلق هو: الكامل، فالإيمان المطلق هو الإيمان الكامل، والإسلام المطلق هو الإسلام الكامل، والتوحيد المطلق هو التوحيد الكامل، والفلاح المطلق هو الفلاح الكامل.

وأما مطلق الشيء فهو: أقل درجاته، أو درجة من درجاته، فمطلق الإيمان هو أقل درجاته؛ فنقول مثلًا: هذا ينافي الإيمان المطلق، يعني: ينافي الإيمان، أو نقول: هذا ينافي مطلق الإيمان، يعني ينافي أقل درجات الإيمان.

وإذا تقرر هذا: فإنا نقول: الفلاح المنفي يحتمل أن يكون: الفلاح المطلق، وقد تقدم أن هذا يُعتَبَر بحسب حال المعلِّق، فإن كان معتقدًا فيها، أنها تنفع استقلالًا فهو من أهل النار، وإن كان يعتقد أنها سبب، فهو من أهل النار، لكنه لا يُخلّد فيها، كعصاة الموحدين.

❁**قوله:** «وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا: من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له »:

المقصود من هذا الحديث ذكر لفظ (التعلق). وتعلّق يعني: أنه علّق وتعلق قلبه بما علق، ولفظ (تعلق) يشمل التعليق، وتعلق قلبه بما علق، فهو نوع لبس. والمعنىٰ: أنه تعلق قلبه بما لبس، سواء كان المعلق في صدره، أو يده، أو في أي موضع آخر، فالمقصود: أن يكون قلبه معلقًا بما تعلقه.

والتميمة لها معنىٰ سيأتي شرحه لاحقًا -إن شاء الله تعالىٰ- لكن هي: نوع خرزات، وأشياء توضع علىٰ صدور الصغار غالبًا، وقد يضعها الكبار؛ لأجل دفع العين، أو دفع الضرر، أو الحسد، أو أثر الشياطين، ونحو ذلك. وقوله: «**فلا أتم الله له**»: دعاء منه ﷺ علىٰ معلّقها بألا يتم الله له مراده؛ لأن التميمة أخذت من تمام الأمر، وسميت تميمة لاعتقاده فيها أنه بها يتم له الأمر الذي أراد فدعا عليه الرسول عليه الصلاة والسلام بأن لا يتم الله -جل وعلا- له ما أراد.

قوله: «**ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**»: الودعة: نوع من الصدف، أو الخرز يوضع علىٰ صدور الناس، أو يعلق علىٰ العضد، ونحو ذلك؛ لأجل دفع أو رفع العين ونحوها من الآفات.

ومعنىٰ قوله: «**فلا ودع الله له**» دعاء عليه أيضًا ومعناه: فلا تركه ذلك، ولا جعله في دعة، وسكون وراحة، وإنما دعا عليه الصلاة والسلام عليه بذلك؛ لأن ذاك المعلِّق أشرك بالله -جل وعلا-.

قال: وفي رواية: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**» لأن تعليق التمائم والتعلق بها شرك أصغر، وقد يكون أكبر بحسب حال المعلق، كما سيأتي تفصيل الكلام عليه إن شاء الله تعالىٰ.

قال: «**ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأىٰ رجلًا في يده خيط من الحمىٰ فقطعه وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾** [يوسف: ١٠٦]»[٢٤٤]: مناسبة هذا الأثر للباب ظاهرة، وهي أن حذيفة الصحابي رضي الله عنه رأىٰ رجلًا في يده خيط من الحمىٰ فقطعه،

(٢٤٤)سبق تخريجه.

واستدل بالآية علىٰ أن ذلك من الشرك. و(مِنْ) هنا تعليلية، يعني: أنه علق الخيط لأجل رفع الحمىٰ، أو لرفعها.

و(مِنْ) لها معانٍ كثيرة، فتكون تبعيضية وتعليلية، وغير ذلك، وقد جمعها ابن أم قاسم في نظمه لبعض حروف المعاني بقوله:

أتتنـــا (مِـــنْ) لتبيـــين وبعـــض وتعليـــلٍ وبـــدءٍ وانتهـــاء

وزائـــدةٍ وإبـــدالٍ وفـــصل ومعنـــىٰ عـــلىٰ وعـــن وفي وبـــاء

فـ (مِنْ) في هذا الأثر: تفيد التعليل، ومعنىٰ قوله: «من الحمىٰ» أي لأجل دفع الحمىٰ، أو لرفعها، فـ (من) تعليل لوضع الخيط في اليد.

قوله: «..فقطعه»: يدل علىٰ أن هذا منكر عظيم، يجب إنكاره، ويجب قطعه.

قوله: «.. وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]»: قال السلف في معنىٰ هذه الآية ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ أي: إنهم مع إقرارهم بأن الله هو الرب، وهو الرزاق، وهو المحيي، وهو المميت، وتوحيدهم إياه في الربوبية ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ به -جل وعلا- في العبادة. فليس توحيد الربوبية بِمُنْجٍ، بل لابُدَّ من أن يضم إليه توحيد العبادة ومع أن هذه الآية واردة في الشرك الأكبر إلا أنه يصح الاستدلال به علىٰ الشرك الأصغر، وإلىٰ هذا أشار المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: فيه أن الصحابة يستدلون بما نزل في الشرك الأكبر علىٰ الشرك الأصغر.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك، أي: لما أنكر على من في يده الحلقة من الصفر، وغلظ عليه دل على ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، أي لقوله: ما أفلحت أبدًا، وكلام الصحابة الدال على أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر مثل قول ابن مسعود الآتي: «**لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا**».

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة، أي: لكونه لم يستفصله، هل كان جاهلاً بذلك أم لا مع أن الجهل محتمل؟

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضره لقوله: لا تزيدك إلا وهنًا، أي: لما لبسها يظن أنها تنفعه في المستقبل أخبر أنها لا تنفعه بل تزيده وهنًا، وهذا معاملة له بنقيض مقصوده.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك، أي لقوله: انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا... إلخ الحديث.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه، أي: وكله الله إلى ما تعلقه، ومن وكله إلى غيره فقد خسر وهلك،وهذا مأخوذ من قوله: فإنها لا تزيدك إلا وهنًا.

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك، أي: لكونه التفت إليها بقلبه في جلب نفع أو دفع ضر، وهي لا تنفع ولا تضر.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك، أي: من الشرك لكون حذيفة لما قطعه تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[يوسف:١٠٦].

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر

علىٰ الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة، أي: لما تلا حذيفة هذه الآية النازلة في المشركين الشرك الأكبر علىٰ من علق في يده الخيط عن الحمىٰ دل علىٰ مثل ذلك، وقوله كما ذكر ابن عباس، أي: إن ابن عباس لما استدل بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢] في سورة البقرة علىٰ قول الرجل: والله وحياتك يا فلان وحياتي ولولا كليبة هذا لأتانا اللصوص... إلخ، وهو شرك أصغر والآية نازلة في الكفار الذين يشركون مع الله غيره في عبادته دل علىٰ مثل ذلك.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك، أي: تعليقه لدفع العين من الشرك الأصغر لما يحصل معه من التفات القلب إلىٰ غير الله.

الحادية عشرة: الدعاء علىٰ من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له، أي: ترك الله له أي معاملة له بنقيض مقصوده كما دل عليه حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.



* الأسئلة *

س: ما المقصود بالحلقة والخيط، وما الفرق بين رفع البلاء ودفعه وما حكم لبسهما لذلك؟

جـ: الحلقة: طوق من نحاس كان المشركون يجعلونها في عضودهم يزعمون أنها تحفظهم من العين والجن ونحو ذلك.

والخيط: في الأصل ما يخاط به كان المشركون يعقدون الخيوط على أيديهم ورقابهم يزعمون أنها تدفع عنهم الحمى.

والفرق بين رفع البلاء ودفعه، أن رفعه: إزالته بعد نزوله، ودفعه منعه قبل نزوله.

وحكم لبس الحلقة والخيط لذلك شرك أكبر إذا اعتقد أنها تدفع البلاء بنفسها أما إذا اعتقد أنها سبب لرفع البلاء فهو شرك أصغر والكل حرام.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ ...﴾[الزمر:٣٨]».

س: اذكر معنى هذه الآية وبين وجه الدلالة منها؟

جـ: المعنىٰ أن هذه الآلهة التي يدعونها من دون الله لا تستطيع من الأمر شيئًا فلا قدرة لها علىٰ كشف ضر أراده الله بعبده أو إمساك رحمة أنزلها علىٰ عبده؛ لأن ذلك إلىٰ الله وحده.

ووجه الدلالة من الآية: أنه لا فرق بين اعتقاد المشركين في الأصنام أو الاعتقاد في الخيوط ونحوها مما يفعله الجهال وأن ذلك كله باطل؛ لأن الله هو المنفرد بالنفع والضر.

قوله: «عن عمران بن حصين: «أن النبيﷺ رأىٰ رجلًا في يده حلقة من ...»[٢٤٥].

س: ما نوع الاستفهام في قوله ما هذه؟

جـ: للإنكار ويحتمل أنه للاستفسار عن سبب لبسها.

---

(٢٤٥) سبق تخريجه.

س: ما معنى قوله من الواهنه وما هي الواهنه؟

جـ: أي: وضعتها لدرء المرض المسمىٰ بالواهنة وهي عرق يؤلم في الكتف وفي اليد كلها وقيل هي مرض يأخذ في العضد.

س: ما معنى قوله انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا وما الذي يفيده هذا الأمر؟

جـ: النزع: هو الجذب بقوة أخبر أنها لا تنفعه بل تضره وتزيده ضعفًا وأفاد هذا الأمر الوجوب وأن مثل هذا معصية يجب إنكاره وإزالته ويحرم بقاؤه.

س: ما الذي يفيد قوله فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا وما هو الفلاح؟

جـ: يفيد عظم الذنب الواقع بسبب هذا الاعتقاد؛ لأنه نوع من أنواع الشرك الذي لا يغفر إلا بالتوبة، والفلاح: هو الفوز والظفر والسعادة.

س: اذكر مناسبة حديث عمران للباب؟

جـ: هي أنه أفاد أن الاعتقاد بمثل هذه الحلقة من أنواع الشرك؛ لأمر النبي ﷺ بنزعها وتهديده علىٰ تركها.

۞ **قوله: «ولأحمد عن عقبة بن عامر مرفوعًا: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له ...».**

س: ما معنى: تعلق، تميمة، ودعة، فلا أتم الله له، فلا ودع الله له؟

جـ: المعنىٰ أن من علق هذه الأشياء متعلقًا بها قلبه في طلب خير أو دفع شر. **والتميمة**: خرزات وحروز يعلقها الجهال، علىٰ أنفسهم وأولادهم ودوابهم يزعمون أنها ترد العين وهذا من فعل الجاهلية ومن فعل ذلك فقد أشرك. **والودعة**: جمعها ودع وهو شيء أبيض يخرج من البحر يشبه الصدف كانوا يتقون به العين فأبطل الإسلام هذه الأشياء. ومعنىٰ «**فلا أتم الله له**» دعاء عليه بعدم حصول ما أراد. ومعنىٰ قوله «**فلا ودع الله له**»؛ أي: لا جعله في دعة وسكون وهذا دعاء عليه.

۞ **قوله: «ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأي: رجلًا في يده خيط...»** [يوسف:١٠٦].

س: ما معنى قوله من الحمى، وما وجه استدلال حذيفة بهذه الآية وما الذي يستفاد منه، اذكر مناسبة هذا الحديث للباب؟

جـ: أي: وضع في يده خيطًا يعتقد أنه يدفع عنه الحمىٰ.

ووجه استدلال حذيفة بهذه الآية أن هذا العمل شرك.

ويستفاد من هذا الحديث:

صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله في الشرك الأكبر وفيه إنكار مثل هذا العمل.

ومناسبة الحديث للباب: أنه دل على أن وضع الخيط والاعتقاد فيه من أنواع الشرك حيث أزاله حذيفة واستدل بالآية على ذلك.



الدرس الثامن:

باب ما جاء في الرقى والتمائم

في «الصحيح» عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه «أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولًا أن لا يَبْقَيَنَّ في رقبة بعير قلادة من وترٍ أو قلادة إلا قطعت»(٢٤٦).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك». رواه أحمد وأبو داود(٢٤٧).

وعن عبد الله بن عُكَيمٍ مرفوعًا: «من تعلق شيئًا وُكِلَ إليه» رواه أحمد والترمذي(٢٤٨).

«التمائم»: شيء يعلق على الأولاد[يتقون به](٢٤٩) من العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه. منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

و«الرقى»: هي التي تسمى العزائم، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمَةِ.

و«التولة»: [هي](٢٥٠) شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وروى أحمد عن رُوَيْفِعٍ رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع! لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس: أن من عقد لحيته أو تقلد وترًا، أو استنجى برجيع دابةٍ أو عظمٍ، فإن محمدًا بريء منه»(٢٥١)

---

(٢٤٦) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل، برقم (٣٠٠٥)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: كراهة قلادة الوتر في رقبة البعير، برقم (٢١١٥)، من حديث أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه.

(٢٤٧) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في تعليق التمائم، برقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: تعليق التمائم، برقم (٣٥٣٠)، وأحمد (١/ ٣٨١)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢٤٨) سبق تخريجه.

(٢٤٩) سقط من نسخة ابن قاسم والسعدي والفوزان، والمثبت من نسخة ابن باز وابن عثيمين.

(٢٥٠) ساقطة من نسخة ابن قاسم والفوزان.

(٢٥١)أخرجه أحمد (٤/ ١٠٨) من حديث رويفع بن ثابت رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم(٧٩١٠).

وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة»(٢٥٢). رواه وكيع. وله عن إبراهيم[قال](٢٥٣): «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»(٢٥٤).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الرقي والتمائم.

الثانية: تفسير التولة.

الثالثة: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناءٍ.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن، فقد اختلف العلماء، هل هي من ذلك أم لا؟

السادسة: أن تعليق الأوتار علىٰ الدواب عن(٢٥٥) العين من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد علىٰ من تعلق وترًا.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمةً من إنسانٍ.

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.



الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ قوله: «باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم»:

أي: من النهي عما لا يجوز من ذلك، وذكر ما ورد عن السلف في ذلك، ولم يجزم بكونهما من الشرك؛ لأن فيها تفصيلًا. «والرقىٰ» جمع رقية، وهي العوذة التي يرقىٰ بها صاحب الآفة كالحمىٰ

---

(٢٥٢) أخرجه ابن أبي شيبة، برقم (٢٣٤٧٣)، وفي سنده الليث بن أبي سليم بن زنيم، قال الحافظ في التقريب «صدوق اختلط جدًّا ولم يتميز حديثه فترك».

(٢٥٣) ساقطة من نسخة الفوزان.

(٢٥٤) أخرجه ابن أبي شيبة، برقم (٢٣٤٦٧)، وفي الإسناد مغيرة بن مقسم وهو مدلس.

(٢٥٥) في نسخة السعدي: «من».

والصرع. «والتمائم» جمع تميمة، خرزات كانت العرب تعلقها علىٰ أولادها يتقون بها العين في زعمهم، ويتلمحون من اسمها أنه يتم لهم مقصودهم فأبطلها الشرع.

❁ **قوله**: «في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري»:

رضي الله عنه بفتح الباء وكسر الشين قال ابن سعد: اسمه قيس بن عبد الله، ويقال: ابن عبيد بن الحريث بمهملتين مصغر الحارث، ابن عمرو بن الجعد الساعدي، ويقال المازني، من بني مازن بن النجار. وقال ابن عبد البر وغيره: لا يوقف له علىٰ اسم صحيح، شهد الخندق وأحدًا وهو غلام، روىٰ عنه عباد وعمارة وغيرهما، ومات بعد الستين، ويقال إنه جاوز المائة، وحديثه في «الصحيحين» وغيرهما.

❁ **قوله**: «أنه كان مع رسول الله ﷺ...»:

قال الحافظ: «لم أقف علىٰ تعيينه».

❁ **قوله**: «فأرسل رسولًا»:

هو زيد بن حارثة كما رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده».

❁ **قوله**: «لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر»:

يبقين بالياء المثناة والقاف المفتوحتين، ويحتمل أن يكون بضم الياء وكسر القاف. و«قلادة» فاعل علىٰ الأول، ومفعول علىٰ الثاني، وهي ما يعلق في رقبة البعير وغيره، من وتر ونحوه، والبعير يقع علىٰ الذكر والأنثىٰ، وجمعه أبعرة وأباعر وبعران. والوتر بفتحتين واحد أوتار القوس، وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره، وقلدوه الدواب، اعتقادًا منهم أنه يدفع عن الدابة العين، ويدفع عنهم المكاره، فنهاهم النبي ﷺ وأخبرهم أنها لا ترد من أمر الله شيئًا.

❁ **قوله**: «أو قلادة إلا قطعت»:

شك الراوي هل قال شيخه: «قلادة من وتر»، أو قال: «قلادة» وأطلق ولم يقيد. وروي عن مالك أنه سئل عن القلادة فقال: ما سمعت بكراهتها إلا في الوتر. ولأبي داود: «ولا قلادة» بغير شك، فتكون أو بمعنىٰ الواو. قال البغوي: تأول مالك أمره -عليه الصلاة والسلام- بقطع القلائد علىٰ أنه من أجل العين، وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد، ويعلقون عليها العوذ، يظنون أنها تعصمهم من الآفات، فنهاهم النبي ﷺ عنها، وأعلمهم أنها لا ترد من

أمر الله شيئًا. ووجه الدلالة من الحديث أن الأوتار والتمائم في الحكم شيء واحد، ويؤيده قوله: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**»[٢٥٦].

قوله: «رواه أحمد وأبو داود»:

ولفظه عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود، أن عبد الله رأىٰ في عنقي خيطًا فقال: ما هذا؟ قلت: خيط رقي لي فيه. قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقىٰ والتمائم والتولة شرك**». فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلىٰ فلان اليهودي، فإذا رقي سكنت، فقال عبد الله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقي كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: «**أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا**»[٢٥٧]. ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي.

والمراد بالرقىٰ المنهي عنها ما كان من جنس رقىٰ الجاهلية، والتمائم ما يعلق علىٰ الحيوانات، من خرز ونحوه، ويأتي التفصيل فيهما. والتولة ممنوعة مطلقًا إجماعًا، قال **الحافظ**: التولة بكسر التاء وفتح الواو، شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، وإنما كان من الشرك لما يراد به من دفع المضار، وجلب المنافع من غير الله تعالىٰ. وقال علي رضي الله عنه: «إن كثيرًا من هذه الرقىٰ والتمائم شرك فاجتنبوها»[٢٥٨]. رواه وكيع، والإمام أحمد رحمه الله تقدمت ترجمته.

و أبو داود هو الإمام الحافظ سليمان بن الأشعث ابن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني صاحب الإمام أحمد، صنف السنن والمراسيل وغيرها. ولد سنة ٢٠٢ هـ وتوفي في شوال بالبصرة سنة ٢٧٥هـ.

---

(٢٥٦) سبق تخريجه.

(٢٥٧) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في تعليق التمائم، برقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: تعليق التمائم، برقم (٣٥٣٠)، وأحمد (١/ ٣٨١)، وابن حبان (١٣/ ٤٥٦)، والحاكم (٤/ ٤٦٣) والأخيران بدون آخره، جميعًا من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
قلت وآخره -أذهب البأس رب الناس... إلخ- أخرجه البخاري، برقم (٥٧٤٢)، ومسلم، برقم (٢١٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢٥٨) أخرجه أبو عبد الله محمد بن مفلح الحنبلي في الآداب الشرعية، فصل في الرقي والتمائم والعوذ.

❁ **قوله: «وعن عبد الله بن عكيم مرفوعًا»:**

عكيم بضم العين المهملة مصغر، ويكنىٰ أبا معبد الجهني الكوفي، مخضرم. قال البخاري وغيره: أدرك زمن النبيﷺ ولا يعرف له سماع صحيح، ذكر أنه جاء كتاب رسول اللهﷺ إلىٰ جهينة قبل وفاته بشهر، قال الخطيب: سكن الكوفة، وقدم المدينة في حياة حذيفة، وكان ثقة، روىٰ عنه ابن أبي ليلىٰ وابن وهب والوزان وغيرهم، مات في إمرة الحجاج.

❁ **قوله: «رواه أحمد والترمذي»:**

وقال: حسن غريب، وأبو داود والنسائي وغيرهما من طرق، والتعلق يكون بالقلب، ويكون بالفعل، ويكون بهما جميعًا، فمن تعلق شيئًا وكله الله إلىٰ ذلك الشيء الذي تعلقه، فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به والتجأ إليه، وفوض أمره إليه كفاه، ومن تعلق بغيره، أو سكن إلىٰ رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك، وكله الله إلىٰ ذلك وخذله، وهذا أمر معروف بالنصوص والتجارب: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣]. وأخرج أحمد عن وهب: أوحىٰ الله إلىٰ داود: «يا داود أما وعزتي وعظمتي، لا يعتصم بي عبد من عبادي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له من بينهن مخرجًا، أما وعزتي وعظمتي، لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء من يديه، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي: أوديتها هلك». وشاهده في الكتاب والسنة.

والأشياء التي يتعلق بها علىٰ قسمين:

الأول: ما هو سبب، فهذا ينظر هل أباحه الشرع أو لا؟

القسم الثاني: ما ليس بسبب، فلا يتعلق به بالكلية، والذي يتعلق به يشترط فيه شرطان:

أحدهما: أن يتحقق أنه سبب.

والثاني: أن يكون مباحًا.

❁ **قوله: «التمائم شيء يعلق علىٰ الأولاد...»:**

وكذا قال الخلخالي وغيره: التمائم جمع تميمة، وهي ما يعلق بأعناق الصبيان، من خرزات وعظام لدفع العين، وهذا منهي عنه؛ لأنه لا دافع إلا الله، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وأسمائه وصفاته.

❁ **قوله: «ومنهم ابن مسعود رضي الله عنه»:**

لأن النهي عام، وأما تخصيصه بغير تمائم القرآن فتخصيص بغير مخصص، وقد اختلف السلف في تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته، فروي عن بعضهم تجويز ذلك، منهم عبد الله بن عمرو وأحمد في رواية، وحملوا الحديث على التمائم التي فيها شرك. وقال بعضهم: لا يجوز ذلك، وهو قول ابن مسعود وابن عباس وعقبة وأحمد في رواية اختارها الأكثر؛ لهذا الحديث وما في معناه وصححه الشارح لوجوه:

«**الأول**» عموم النهي ولا مخصص للعموم.

«**والثاني**» أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة وغيرها من الحالات القذرة.

«**والثالث**» سد الذريعة، فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك، ولو لم يكن إلا هذه العلة وحدها لكفى بها حجة في المنع، سدًا لذرائع الشرك.

«**والرابع**» أنه ﷺ قد كان يرقي ورقي، فلو كان تعليق تمائم القرآن جائزًا لأمر به. وليس في كتاب الله تعالى، ولا سنة رسوله ﷺ ما يدل على إجازة تعليق شيء من القرآن، ولا ثبت عن أحد من الصحابة المقتدى بهم تجويزه ولا فعله مع توفر الدواعي إليه؛ وما ذاك إلا لأنه ينافي التوكل والإخلاص، ولعل عبد الله بن عمرو يعلقه في الألواح، لا أنه تميمة.

❁ **قوله: «والرقى هي التي تسمى العزائم»:**

واحدتها عزيمة وهي الرقية، وعزم الراقي قرأ العزائم، أو العزائم آيات من القرآن تقرأ على ذوي العاهات، وقيل أنواع منها ما ينفث به على المريض، وما يجعل في ماء ويسقاه المريض، ومنها هذه العزائم التي تكتب في صحن ونحوه.

❁ **قوله: «رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة»:**

يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركًا هي التي يستعان فيها بغير الله، من دعاء غير الله، والاستغاثة والاستعاذة به، كالرقى بأسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك، وأما الرقى بالقرآن وأسماء الله وصفاته وما أثر عن النبي ﷺ فهذا حسن جائز، أو مستحب كما تقدم، وفي

«صحيح مسلم» عن عوف بن مالك: **كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا يا رسول الله كيف ترىٰ في ذلك؟ فقال: «اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقىٰ ما لم تكن شركًا»**[٢٥٩]. قال الخطابي: وقد رقىٰ ورقي، وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها، وإنما جاء المنع فيما كان بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفرًا، أو قولًا يدخله الشرك.

قال شيخ الإسلام: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقىٰ به فضلًا عن أن يدعو به، ولو عرف معناه، وإنما يرخص لمن لا يحسنها، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعارًا، فليس من دين الإسلام. **قال السيوطي**: أجمع العلماء علىٰ جواز الرقىٰ عند اجتماع **ثلاثة شروط**: أن تكون من كلام الله وبأسمائه وصفاته، وباللسان العربي وما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالىٰ.

قوله: «يزعمون أنه يحبب المرأة إلىٰ زوجها...»:

وكذا قال غيره، وبهذا فسره ابن مسعود رضي الله عنه راوي الحديث، كما في صحيح ابن حبان والحاكم، قالوا: **«يا أبا عبد الرحمن، هذه الرقىٰ والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟ قال: شيء تصنعه النساء يتحببن به إلىٰ أزواجهن»** وتقدم قول الحافظ، أنه من الشرك؛ لما يراد به من دفع ضر، أو جلب نفع من غير الله تعالىٰ، وتسمىٰ الصرف والعطف.

قوله: «وروىٰ الإمام أحمد عن رويفع...»:

هو ابن ثابت بن السكن بن عدي بن الحارث، من بني مالك بن النجار الأنصاري، له ثمانية أحاديث، نزل البصرة، وولي برقة وطرابلس، فافتتح إفريقية سنة ٤٧ هـ، وتوفي ببرقة سنة ٥٦ هـ، والحديث رواه أبو داود من طريقين، والنسائي وغيرهما.

قوله ﷺ: «يا رويفع لعل الحياة ستطول بك»:

فيه علم من أعلام نبوته ﷺ؛ فإن رويفعًا طالت حياته إلىٰ سنة ٥٦ هـ.

---

(٢٥٩) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن فيه شرك، برقم (٢٢٠٠)، وأبو داود، كتاب: الطب، باب: ما جاء في الرقىٰ، برقم (٣٨٨٦)، من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

❁ **قوله: «فأخبر الناس»:**

فيه دليل وجوب إخبار الناس بما أمروا به ونهوا عنه، مما يجب فعله أو تركه، وليس مختصاً برويفع، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به. فإن الله قد أخذ العهد على العلماء، فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية.

❁ **قوله: «أن من عقد لحيته»:**

بكسر اللام لا غير، والجمع لحىٰ بالكسر والضم، ويفسر علىٰ وجهين:

(أحدهما) ما كانوا يفعلونه في الحرب، يعقدون لحاهم، وذلك من زي الأعاجم يفتلونها ويعقدونها تكبرًا وعجبًا.

(والثاني) معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التأنيث، قال ابن العراقي: والأولىٰ حمله علىٰ عقد اللحية في الصلاة، كما في رواية محمد بن الربيع: «**أن من عقد لحيته في الصلاة**»، ويشبه هذا ما يفعله كثير من أهل الفسق والكبر، من فتل أطراف الشوارب وإبقائها مخالفة لما ثبت عنه ﷺ في «الصحيحين» وغيرهما أنه قال: «**أحفوا الشوارب وأعفوا اللحىٰ**»[٢٦٠].

❁ **قوله: «أو تقلد وترًا»:**

أي: جعله قلادة في عنقه أو عنق دابته، وهذا الشاهد للترجمة، وفيه مع ما تقدم أنه شرك لما كانوا يقصدونه بتعليقه علىٰ الدواب وغيرها، وفي رواية محمد بن الربيع: «**أو تقلد وترًا يريد تميمة**»[٢٦١]. وكل دليل يصلح في الأوتار يصلح أن يكون دليلًا في التمائم وبالعكس.

❁ **قوله: «أو استنجىٰ برجيع دابة أو عظم»:**

الرجيع العذرة والروث، سمي رجيعًا؛ لأنه يرجع من حالته الأولىٰ بعد أن كان طعامًا أو علفًا، أي: أزال النجو به أو بعظم. وفي «صحيح مسلم»: «**لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام؛ فإنها زاد إخوانكم من الجن**»[٢٦٢]. والاستنجاء بها كبيرة، وظاهر المذهب لا يجزئ، وفي الحديث «**إنهما لا يطهران**».

---

(٢٦٠) أخرجه البخاري، كتاب: اللباس، باب: إعفاء اللحىٰ، برقم (٥٨٩٣)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: خصال الفطرة، برقم (٢٥٩)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢٦١) أخرجه النسائي، كتاب: الزينة، باب: عقد اللحية، برقم (٥٠٦٧)، وفي «الكبرىٰ»، برقم (٩٣٣٦)، من حديث رويفع بن ثابت رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

(٢٦٢) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة علىٰ الجن، برقم (٤٥٠) بنحوه، والترمذي، كتاب: الطهارة، باب: كراهية ما يستنجىٰ به، برقم (١٨) واللفظ له، وأحمد (١/ ٤٥٧)، وغيرهم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قوله: «فإن محمدًا بريء منه»:

وعيد شديد، ويدل علىٰ أنه من الكبائر تبرؤه ﷺ ممن فعل هذه الأمور الأربعة وإجراء أحاديث الوعيد علىٰ ظاهرها أبلغ في الزجر، ولا يجوز صرفها عن ظاهرها بالتأويل.

قوله: «من قطع تميمة من إنسان...»:

أي: كان له مثل ثواب من أعتق رقبة؛ لأنه مستعبد للشيطان، فإذا قطعها أعتقه من أسر الشيطان، ففيه فضل قطع التمائم وأنها شرك، ومثل هذا الأثر لا يقال بالرأي، وقال الشارح: له حكم الرفع، وهو مرسل تابعي، وألحق ابن العربي بالصحابة ما يجيء عن التابعي مما لا مجال للاجتهاد فيه، فنص علىٰ أنه في حكم المرفوع، وذكر أنه مذهب مالك والأكثر علىٰ خلافه. ووكيع هو بن الجراح بن وكيع بن مليح بن عدي الرواسي أبو سفيان، الثقة الحافظ العابد الكوفي، قال الإمام أحمد: «**ما رأيت أوعىٰ للعلم، ولا أحفظ منه**». وقال ابن معين: «**ما رأيت أفضل منه**». صاحب تصانيف، منها الجامع وغيره، روىٰ عنه الإمام أحمد وطبقته، وكان من كبار التاسعة مات سنة ١٩٧ هـ.

قوله: «وله عن إبراهيم كانوا يكرهون التمائم...»:

أي: ولوكيع بن الجراح عن إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن ذهل النخعي الكوفي الثقة الفقيه، مفتي أهل الكوفة، من كبار الفقهاء، روىٰ عن الأسود وعبد الرحمن ابني يزيد ومسروق وعلقمة وغيرهم، وعن عائشة ولم يثبت سماعه منها، وعنه الأعمش وحماد وخلق، مات سنة ٩٦ هـ، وله ٥٠ سنة، ومراده رَحِمَهُ اللَّهُ أصحاب عبد الله بن مسعود: كعلقمة والأسود وأبي وائل والحارث بن سويد وعبيدة السلماني ومسروق والربيع بن خيثم وسويد بن غفلة وغيرهم من سادات التابعين.

وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم في حكاية أقوالهم، وفي زمانهم كانوا يطلقون الكراهة علىٰ المحرم. وصححه الشارح؛ لأن ما كان من غير القرآن قد تقدم النهي عنه، وما كان من القرآن فإنه يتعين النهي عنه أيضًا لما تقدم.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم»:

أما التمائم فهي تعاليق تتعلق بها قلوب متعلقيها، والقول فيها كالقول في الحلقة والخيط كما تقدم. فمنها ما هو شرك أكبر، كالتي تشتمل علىٰ الاستغاثة بالشياطين أو غيرهم من المخلوقين.

فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك، كما سيأتي إن شاء الله. ومنها ما هو محرم كالتي فيها أسماء لا يفهم معناها؛ لأنها تجر إلى الشرك.

وأما التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولى تركها؛ لعدم ورودها عن الشارع، ولكونها يتوسل بها إلى غيرها من المحرم؛ ولأن الغالب على متعلقها أنه لا يحترمها، ويدخل بها المواضع القذرة.

وأما الرقى ففيها تفصيل:

فإن كانت من القرآن أو السنة أو الكلام الحسن فإنها مندوبة في حق الراقي؛ لأنها من باب الإحسان، ولما فيها من النفع، وهي جائزة في حق المرقي، إلا أنه لا ينبغي له أن يبتدئ بطلبها، فإن من كمال توكل العبد وقوة يقينه أن لا يسأل أحدًا من الخلق: لا رقية ولا غيرها، بل ينبغي له إذا سأل أحدا أن يدعو له أن يلحظ مصلحة الداعي والإحسان إليه بتسببه لهذه العبودية له مع مصلحة نفسه، وهذا من أسرار تحقيق التوحيد ومعانيه البديعة، التي لا يوفق للتفقه فيها والعمل بها إلا الكُمَّل من العباد.

وإن كانت الرقية يدعى بها غير الله ويطلب الشفاء من غيره، فهذا هو الشرك الأكبر؛ لأنه دعاء واستغاثة بغير الله.

فافهم هذا التفصيل، وإياك أن تحكم على الرقى بحكم واحد مع تفاوتها في أسبابها وغاياتها.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب ما جاء في الرقي والتمائم»:

أي: النصوص التي جاءت في تحريم التمائم والتفصيل في الرقي؛ لأن التمائم جنسها محرم وبعضهم فصل فيها والصحيح أنها محرمة.

والتمائم: شيء يعلق على الأولاد من العين. وقد دلت الأدلة على تحريمها كما سيأتي للمريض وللأطفال.

❁ **قوله:** «وعن ابن مسعود رضي الله عنه...»:

أما الرقي ففيها تفصيل: فتجوز بثلاثة شروط:

١- أن يكون بلسان مفهوم المعنى بالآيات والدعوات المعروفة.

٢- ألا يخالف ذلك المعنىٰ الشرع.

٣- ألا يعتقد أنها تنفع بسببها وفي الحديث: «**لا بأس بالرقية ما لم تكن شركًا**» وتقدم.

التولة: عرفها المؤلف. ويصنعونه بالجن والشياطين ويسمونها سحر وعطف وصرف، والسحر كله كفر للآية ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

قوله: «وعن عبد الله بن عكيم مرفوعًا...»:

في حديث عبد الله بن عكيم مرفوعًا: «**من تعلق شيئًا وكل إليه**»[(٢٦٣)] رواه أحمد.

فينبغي للإنسان أن يعتمد ويتوكل علىٰ الله وحده فهذا هو الذي ينفعه مع الأخذ بالأسباب كما في الحديث: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله**»[(٢٦٤)] فالأخذ بالأسباب أمر لازم من الأدوية والاستقامة علىٰ شرعه وتعاطي أسباب العافية وطلب الرزق. فالأسباب ما بين الواجب والجائز، فعليه أن يتعاطىٰ الأسباب الجائزة والواجبة، والأخذ بذلك لا يقدح في التوحيد، بل تركها يقدح في العقل والتوحيد جميعًا.

وإن كانت التمائم من القرآن فرخص فيه بعضهم كعبد الله بن عمرو[(٢٦٥)] ومنعه آخرون كعبد الله ابن مسعود[(٢٦٦)] وهو الصواب وعليه تدل الأدلة، والواجب حسم هذا الباب والقضاء عليه بالكلية سدًّا لذرائع الشرك وعملًا بالأدلة.

---

(٢٦٣) سبق تخريجه، وقد تقدم مرارًا.

(٢٦٤) أخرجه مسلم، كتاب: القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز...، برقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٦٥) إشارة إلىٰ ما أخرجه والترمذي، كتاب: الدعوات، برقم (٣٥٢٨)، وابن أبي شيبة، برقم (٢٣٥٤٧)، وغيرهما من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ولفظه عند الترمذي «أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال إذا فرغ أحدكم في النوم فليقل أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشيطان وأن يحضرون فإنها لن تضره قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده ومن لم يبلغ منهم كتبها في صك ثم علقها في عنقه»، وقال الشيخ الألباني «حسن دون قوله فكان عبد الله...».

(٢٦٦) إشارة إلي ما أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في تعليق التمائم، برقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: تعليق التمائم، برقم (٣٥٣٠)، وأحمد (١/ ٣٨١)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

ولا ينبغي تعليق التمائم على الأولاد، بل يعوذهم كما عوذ النبي ﷺ الحسن والحسين بأدعية التعوذ[٢٦٧].

والكتابة في الورق والصحن فعله بعض السلف وروي عن ابن عباس ولكن لم يثبت ولا بأس به، ذكره ابن القيم في الزاد ولكن الرقية أفضل.

والتداوي لا بأس به وفي الحديث «**عباد الله تداووا ولا تتداووا بحرام**»[٢٦٨] وأصح ما فيه الاستحباب، وقال مالك هو مستوى الطرفين؛ أي: مباح.

قوله: «**وروى أحمد عن رويفع قال: «يا رويفع لعل الحياة تطول بك فأخبر الناس...»**»:

وفيه أربع مسائل:

قوله: «**لعلها تطول بك**»: هذا على سبيل الظن والرجاء وقد طالت به الحياة ومتع.

قوله: «**عقد لحيته**» قال أهل العلم معناها: جعدها ونفشها للتكبر والتعاظم وقيل: أي: صففها تصفيفًا يناسب ميوعة النساء وأهل التخنث.

أما العناية بها تسريحًا وتكريمًا فهذا ليس منه: والحديث فيه لين وله شواهد.

قوله: «**تقلد وترًا**»، وهو ما يتخذ من الأمعاء وغيره وكانت الجاهلية تقلدها الإبل والصبيان حذر العين.

قوله: «**أو استنجي برجيع دابة أو عظم**»: جاءت الأحاديث بالنهي عن الاستنجاء بهما[٢٦٩]؛ لأنهما لا يطهران وفيه تشبه بالجاهلية.

قوله: «**فإن محمدًا بريء منه**» وعيد شديد وليس معناه أنه مشرك مثل قوله: «**ليس منا من ضرب...**»[٢٧٠] والشاهد هو النهي عن تعليق الأوتار وغيره مما يظنه ينفع كالخيط، والواجب أن يتعلق بالله وحده.

---

(٢٦٧) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ﴿يَزِفُّونَ﴾ النسلان في المشي، برقم (٣٣٧١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢٦٨) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في الأدوية المكروهة، برقم (٣٨٧٤)، والبيهقي، برقم (١٩٤٦٥)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود»، وفي «المشكاة»، برقم (٤٥٣٨).

(٢٦٩) سبق تخريجه.

(٢٧٠) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما ينهى من الويل ودعوى الجاهلية عند المصيبة، برقم (١٢٩٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قوله: «وعن سعيد قال: من قطع تميمة من إنسان كان له كعدل رقبة. رواه وكيع».

وكيع بن الجراح توفي سنة (١٩٦).

وفي الحديث فضل قطع التمائم وأنه كعدل رقبة؛ لأنه سيخلص هذه الرقبة من النار، ومن الشرك فيكون أفضل من عتق الرقبة، وكلام سعيد قد يكون له سند وفيه وسع؛ لأن سعيد قد لا يقول هذا برأيه، ويحتمل أنه من اجتهاده وفقه.

ولكنه عند التحقيق والنظر هو أعظم من عتق الرقبة التي يكون بها الإنسان حرًّا، وتعليق التمائم من الشرك الأصغر وخطره عظيم وقد يجر إلى الشرك الأكبر.

قوله: «قوله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»:

إبراهيم بن يزيد النخعي من التابعين من أصحاب أصحاب ابن مسعود يكرهون التمائم وكذلك شيخهم ابن مسعود يكره ذلك لسببين:

١ - لعموم الأحاديث الناهية.

٢ - سدًّا للذرائع الموصلة إلى الشرك، فلا يعلق مصحف ولا آيات منه ولا أحاديث ولا طلاسم ولا عظام فكله شرك.

مسألة:

لا يجوز وضع مصحف في السيارة بقصد حفظها من المصائب وكذا وضع حيوانات في السيارة وغير ذلك. اهـ.

نحوها كالقبر والصنم وغيرها.

التبرك: هو طلب البركة منها كما يفعل عباد القبور والأحجار والأصنام، وترك الحكم ليأخذه الطالب مما ذكره من النصوص. والحكم هو أنه قد أشرك لما سيذكر المؤلف. وهذا التبرك من فعل الجاهلية وجاء الإسلام فأبطل ذلك.

فمنهم من أجاب وهم قلة، من أعرض وهم كثرة ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣] أما في الجزيرة فقد أجاب أكثرهم بعدما فتح الله مكة.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم»:

لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك؛ لأن الحكم فيه يختلف عن حكم لبس الحلقة والخيط، ولهذا جزم المؤلف في الباب الأول أنها من الشرك بدون استثناء، أما هذا الباب؛ فلم يذكر أنها شرك؛ لأن من الرقىٰ ما ليس بشرك، ولهذا قال: «**باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم**».

قوله: «**الرقىٰ**»: جمع رقية، وهي القراءة؛ فيقال: رقىٰ عليه -بالألف- من القراءة، ورقي عليه -بالياء- من الصعود.

قوله: «**التمائم**»: جمع تميمة، وسميت تميمة؛ لأنهم يرون أنه يتم بها دفع العين.

قوله: «أسفاره»:

السفر: مفارقة محل الإقامة، وسمي سفرًا؛ لأمرين:

الأول: حسي، وهو أنه يسفر ويظهر عن بلده؛ لخروجه من البنيان.

الثاني: معنوي، وهي أن يسفر عن أخلاق الرجال؛ أي: يكشف عنها وكثير من الناس لا تعرف أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم إلا بالأسفار.

قوله: «**قلادة من وتر، أو قلادة**»، شك من الراوي، والأولىٰ أرجح؛ لأن القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد؛ لأنه تعلق بما ليس بسبب، وقد سبق أن التعلق بما ليس بسبب شرعي أو حسي شرك؛ لأنه بتعلقه أثبت للأشياء سببًا لم يثبته الله لا بشرعه ولا بقدره، ولهذا أمر النبي ﷺ أن تُقطع هذه القلائد.

أما إذا كانت هذه القلادة من غير وتر، وإنما تستعمل للقيادة كالزمام؛ فهذا لا بأس به لعدم الاعتقاد الفاسد، وكان الناس يعملون ذلك كثيرًا من الصوف أو غيره.

قوله: «**في رقبة بعير**»، ذكر البعير؛ لأن هذا هو الذي كان منتشرًا حينذاك؛ فهذا القيد بناءً علىٰ الواقع عندهم؛ فيكون كالتمثيل، وليس بمخصص.

يستفاد من الحديث:

١- أنه ينبغي لكبير القوم أن يكون مراعيًا لأحوالهم؛ فيتفقدهم وينظر في أحوالهم.

٢- أنه يجب عليه رعايتهم بما تقتضيه الشريعة؛ فإذا فعلوا محرمًا منعهم منه، وإن تهاونوا في واجب حثهم عليه.

٣- أنه لا يجوز أن تعلق في أعناق الإبل أشياء تجعل سببًا في جلب منفعة أو دفع مضرة، وهي ليست كذلك لا شرعًا ولا قدرًا؛ لأنه شرك، ولا يلزم أن تكون القلادة في الرقبة، بل لو جعلت في اليد أو الرجل؛ فلها حكم الرقبة؛ لأن العلة هي هذه القلادة، وليس مكان وضعها؛ فالمكان لا يؤثر.

٤- أنه يجب علىٰ من يستطيع تغيير المنكر باليد أن يغيره بيده.

۞ **قوله**: «إن الرقىٰ»: جمع رقية، وهذه ليست علىٰ عمومها، بل هي عام أريد به خاص، وهو الرقي بغير ما ورد به الشرع، أما ما ورد به الشرع؛ فليست من الشرك، قالﷺ في الفاتحة: «**وما يدريك أنها رقية**»[٢٧١].

وهل المراد بالرقىٰ في الحديث ما لم يرد به الشرع ولو كانت مباحة، أو المراد ما كان فيه شرك؟

الجواب: الثاني؛ لأن كلام النبي ﷺ لا يناقض بعضه بعضًا، فالرقىٰ المشروعة التي ورد بها الشرع جائزة.

وكذا الرقىٰ المباحة التي يُرقىٰ بها الإنسان المريض بدعاء من عنده ليس فيه شرك جائز أيضًا.

قوله: «**التمائم**»: فسرها المؤلف بقوله: «**شيء يعلق علىٰ الأولاد يتقون به العين**»، وهي من الشرك؛ لأن الشارع لم يجعلها سببًا تُتقىٰ به العين.

وإذا كان الإنسان يلبس أبناءه ملابس رثّة وبالية خوفًا من العين، فهل هذا جائز؟

الظاهر أنه لا بأس به؛ لأنه لم يفعل شيئًا، وإنما ترك شيئًا، وهو التحسين والتجميل، وقد ذكر ابن القيم في «زاد المعاد» أن عثمان رأىٰ صبيًّا مليحًا، فقال: دسّموا نونته، والنونة: هي التي تخرج في الوجه عندما يضحك الصبي كالنقوة، ومعنىٰ دسموا؛ أي: سوّدوا.

وأما الخط: وهي أوراق من القرآن تجمع وتوضع في جلد ويخاط عليها، ويلبسها الطفل علىٰ يده أو رقبته؛ ففيها خلاف بين العلماء.

---

(٢٧١) سبق تخريجه.

وظاهر الحديث: أنها ممنوعة، ولا تجوز.

ومن ذلك أن بعضهم يكتب القرآن كله بحروف صغيرة في أوراق صغيرة، ويضعها في صندوق صغير، ويعلّقها على الصبي، وهذا مع أنه محدث؛ فهو إهانة للقرآن الكريم؛ لأن هذا الصبي سوف يسيل عليه لعابه، وربما يتلوث بالنجاسة، ويدخل به الحمام والأماكن القذرة، وهذا كله إهانة للقرآن.

ومع الأسف أن بعض الناس اتخذوا من العبادات نوعًا من التبرك فقط، مثل ما يشاهد من أن بعض الناس يمسح الركن اليماني، ويمسح به وجه الطفل وصدره، وهذا معناه أنهم جعلوا مسح الركن اليماني من باب التبرك لا التعبد، وهذا جهل، وقد قال عمر في الحجر: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبلتك»[٢٧٢].

قوله: «التولة»: شيء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك؛ لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري للمحبة.

ومثل ذلك الدبلة، والدبلة: خاتم يُشترى عند الزواج يوضع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج، قالت المرأة: إنه لا يحبها؛ فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون: إنه ما دام في يد الزوج؛ فإنه يعني: أن العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النية؛ فإنه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية -وهي بعيدة ألا تصحبها-؛ ففيه تشبه بالنصارى، فإنها مأخوذة منهم.

وإن كانت من الذهبِ، فهي بالنسبة للرجل فيها محذور ثالث، وهو لبس الذهب؛ فهي إما من الشرك، أو مضاهاة النصارى، أو تحريم النوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك، فهي جائزة؛ لأنها خاتم من الخواتم.

وقوله: «شرك»، هل هي شرك أصغر أو أكبر؟

نقول: بحسب ما يريد الإنسان منها إن اتخذها معتقدًا أن المسبب للمحبة هو الله؛ فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها؛ فهي شرك أكبر.

قوله: «من تعلق»:

أي: اعتمد عليه وجعله همه ومبلغ علمه، وصار يُعلِّق رجاءه به وزوال خوفه به.

---

(٢٧٢) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: ما ذكر في الحجر الأسود، برقم (١٥٩٧)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، برقم (٢٥١/ ١٢٧٠) وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه.

قوله: «شيئًا» نكرة في سياق الشرط، فتعم جميع الأشياء، فمن تعلق بالله -سبحانه وتعالىٰ- وجعل رغبته ورجاءه فيه وخوفه منه؛ فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]؛ أي: كافيه، ولهذا كان من دعاء الرسل وأتباعهم عند المصائب والشدائد: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد وأصحابه حين قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾[آل عمران:١٧٣][٢٧٣].

قوله: «وكل إليه»؛ أي: أسند إليه، وفوض.

أقسام التعلق بغير الله:

الأول: ما ينافي التوحيد من أصله، وهو أن يتعلق بشيء لا يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتمادًا معرضًا عن الله، مثل تعلق عُبَّاد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مستهم الضراء الشديدة يقولون: يا فلان! أنقذنا، فهذا لا شك أنه شرك أكبر مخرج من الملة.

الثاني: ما ينافي كمال التوحيد، وهو أن يعتمد علىٰ سبب شرعي صحيح مع الغفلة عن المسبب، وهو الله ﷻ، وعدم صرف قلبه إليه؛ فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شرك أكبر؛ لأن هذا السبب جعله الله سببًا.

الثالث: أن يتعلق بالسبب تعلقًا مجردًا لكونه سببًا فقط، مع اعتماده الأصلي علىٰ الله؛ فيعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لو شاء لأبطل أثره، ولو شاء لأبقاه، وأنه لا أثر للسبب إلا بمشيئة الله ﷻ فهذا لا ينافي التوحيد لا كمالًا ولا أصلًا، وعلىٰ هذا لا إثم فيه.

ومع وجود الأسباب الشرعية الصحيحة ينبغي للإنسان أن لا يُعلِّق نفسه بالسبب، بل يعلقها بالله.

فالموظف الذي يتعلق قلبه بمرتبه تعلقًا كاملًا، مع الغفلة عن المسبب، وهو الله، قد وقع في نوع من الشرك، أما إذا اعتقد أن المرتب سبب، والمسبب هو الله -سبحانه وتعالىٰ-، وجعل الاعتماد علىٰ الله، وهو يشعر أن المرتب سبب؛ فهذا لا ينافي التوكل.

وقد كان الرسول ﷺ يأخذ بالأسباب مع اعتماده علىٰ المسبب، وهو الله ﷻ.

وجاء في الحديث: «من تعلق»، ولم يقل: من علَّق؛ لأن المتعلق بالشيء يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينزل خوفه ورجاءه وأمله به، وليس كذلك من علق.

---

(٢٧٣) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾، برقم (٤٥٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: «إذا كان المعلق من القرآن...» إلخ. إذا كان المعلق من القرآن أو الأدعية المباحة والأذكار الواردة، فهذه المسألة اختلف فيها السلف رحمهم الله؛ فمنهم من رخص في ذلك لعموم قوله تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء:٨٢]، ولم يذكر الوسيلة التي نتوصل بها إلىٰ الاستشفاء بهذا القرآن، فدل علىٰ أن كل وسيلة يتوصل بها إلىٰ ذلك فهي جائزة، كما لو كان القرآن دواءً حسيًّا.

ومنهم من منع ذلك وقال: لا يجوز تعليق القرآن للاستشفاء به؛ لأن الاستشفاء بالقرآن ورد علىٰ صفة معينة، وهي القراءة به، بمعنىٰ أنك تقرأ علىٰ المريض به؛ فلا نتجاوزها، فلو جعلنا الاستشفاء بالقرآن علىٰ صفة لم ترد، فمعنىٰ ذلك أننا فعلنا سببًا ليس مشروعًا وقد نقله المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولولا الشعور النفسي بأن تعليق القرآن سبب للشفاء؛ لكان انتفاء السببية علىٰ هذه الصورة أمرًا ظاهرًا؛ فإن التعليق ليس له علاقة بالمرض، بخلاف النفث علىٰ مكان الألم؛ فإنه يتأثر بذلك.

ولهذا نقول: الأقرب أن يقال: إنه لا ينبغي أن تعلق الآيات للاستشفاء بها، لا سيما وأن هذا المعلق قد يفعل أشياء تنافي قدسية القرآن؛ كالغيبة مثلًا، ودخول بيت الخلاء، وأيضًا إذا علَّق وشعر أن به شفاء استغنىٰ به عن القراءة المشروعة، فمثلًا: علق آية الكرسي علىٰ صدره، وقال: ما دام أن آية الكرسي علىٰ صدري فلن أقرأها، فيستغني بغير المشروع عن المشروع، وقد يشعر بالاستغناء عن القراءة المشروعة إذا كان القرآن علىٰ صدره.

وإن كان صبيًّا، فربما بال ووصلت الرطوبة إلىٰ هذا المعلق، وأيضًا لم يرد عن النبي ﷺ فيه شيء.

فالأقرب أن يقال: إنه لا يفعل، أما أن يصل إلىٰ درجة التحريم؛ فأنا أتوقف فيه، لكن إذا تضمن محظورًا، فإنه محرمًا بسبب ذلك المحظور.

قوله: «التي تُسمىٰ العزائم»؛ أي: في عرف الناس، وعزم عليه؛ أي: قرأ عليه، وهذه عزيمة؛ أي: قراءة.

قوله: «وخص منها الدليل ما خلا من الشرك»؛ أي: الأشياء الخالية من الشرك، فهي جائزة، سواءً كان مما ورد بلفظه مثل: «اللهم رب الناس! أذهب الباس، اشف أنت الشافي...»[٢٧٤] أو لم

---

(٢٧٤)سبق تخريجه.

يرد بلفظه مثل: «اللهم عافه، الله اشفه»، وإن كان فيها شرك، فإنها غير جائزة، مثل: «يا جني! أنقذه، ويا فلان الميت! اشفه»، ونحو ذلك.

قوله: «من العين والحمة»، سبق تعريفهما في باب من حقق التوحيد دخل الجنة. وظاهر كلام المؤلف: أن الدليل لم يرخص بجواز القراءة إلا في هذين الأمرين: «العين، والحمة»، لكن ورد بغيرهما، فقد كان النبي ﷺ ينفخ على يديه عند منامه بالمعوذات، ويمسح بهما ما استطاع من جسده وهذا من الرقية، وليس عينًا ولا حمة.

ولهذا يرى بعض أهل العلم الترخيص في الرقية من القرآن للعين والحمة وغيرهما عام، ويقول: إن معنى قول النبي ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة»؛ أي: لا استرقاء إلا من عين أو حمة، والاسترقاء: طلب الرقية؛ فالمصيب بالعين -وهو «العائن»- يطلب منه أن يقرأ على المعيون.

وكذلك الحمة يطلب الإنسان من غيره أن يقرأ عليه؛ لأنه مفيد كما في حديث أبي سعيد في قصة السرية.

شروط جواز الرقية:

الأول: أن لا يعتقد أنها تنفع بذاتها دون الله، فإن اعتقد أنها تنفع بذاتها من دون الله، فهو محرم، بل شرك، بل يعتقد أنها سبب لا تنفع إلا بإذن الله.

الثاني: أن لا تكون مما يخالف الشرع؛ كما إذا كانت متضمنة دعاء غير الله، أو استغاثة بالجن، وما أشبه ذلك؛ فإنها محرمة، بل شرك.

الثالث: أن تكون مفهومة معلومة، فإن كانت من جنس الطلاسم والشعوذة؛ فإنها لا تجوز.

أما بالنسبة للتمائم؛ فإن كانت أمر محرم، أو اعتقد أنها نافعة لذاتها، أو كانت بكتابة لا تفهم، فإنها لا تجوز بكل حال.

وإن تمت فيها الشروط الثلاثة السابقة في الرقية، فإن أهل العلم اختلفوا فيها كما سبق.

قوله: «من عقد لحيته»:

اللحية عند العرب كانت لا تقص ولا تحلق، كما أن ذلك هو السنة، لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب:

منها: الافتخار والعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو يعقدها من الوسط عقدة واحدة؛ ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد في قومه.

الثاني: الخوف من العين؛ لأنها إذا كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة، فمن عقدها لذلك، فإن الرسول ﷺ بريء منه.

وبعض العامة إذا جاءهم طعام من السوق أخذوا شيئًا منه يرمونه في الأرض، دفعًا للعين، وهذا اعتقاد فاسد ومخالف لقول النبي ﷺ: **«إذا سقطت لقمة أحدكم؛ فليمط ما بها من الأذىٰ، وليأكلها»**(٢٧٥).

قوله: **«أو تقلد وترًا»**: الوتر: سلك من العصب يؤخذ من الشاة، وتتخذ للقوس وترًا، ويستعملونها في أعناق إبلهم أو خيلهم، أو في أعناقهم، يزعمون أنه يمنع العين، وهذا من الشرك.

قوله: **«أو استنجىٰ برجيع دابة»**، الاستنجاء: مأخوذ من النَّجْو، وهو إزالة أثر الخارج من السبيلين؛ لأن الإنسان الذي يتمسَّح بعد الخلاء يزيل أثره.ورجيع الدابة: هو روثها.

قوله: **«أو عظم»**: العظم معروف وإنما تبرأ النبي ﷺ ممن استنجىٰ بهما؛ لأن الروث علف بهائم الجن والعظم طعامهم، يجدونه أوفر ما يكون لحمًا.

وكل ذنب قرن بالبراءة من فاعله، فهو من كبائر الذنوب، كما هو معروف عند أهل العلم.

الشاهد من هذا الحديث قوله: **«من تقلد وترًا»**.

✿ **قوله: «وعن سعيد بن جبير؛ قال: من قطع تميمة...»** الحديث:

قوله: **«كعدل رقبة»** بفتح العين؛ لأنه من غير الجنس، والمعادل من الجنس بكسر العين، ووجه المشابهة بين قطع التميمة وعتق الرقبة: أنه إذا قطع التميمة من إنسان، فكأنه أعتقه من الشرك، ففكه من النار، ولكن يقطعها بالتي هي أحسن؛ لأن العنف يؤدي إلىٰ المشاحنة والشقاق، إلا إن كان ذا شأن؛ كالأمير، والقاضي، ونحوه ممن له سلطة؛ فله أن يقطعها مباشرة.

قوله: **«كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»**: وقد سبق أن هذا رأىٰ ابن مسعود رضي الله عنه، فأصحابه يرون ما يراه.

✿ **قوله: «وله عن إبراهيم»**:

وهو إبراهيم النخعي.

---

(٢٧٥)أخرجه مسلم، كتاب: الأشربة، باب: استحباب لعق الأصابع...، برقم (٢٠٣٤)، وأبو داود، كتاب: الأطعمة، باب: في اللقمة تسقط، برقم (٣٨٤٥)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

قوله: «كانوا»، الضمير يعود إلىٰ أصحاب ابن مسعود؛ لأنهم هم قرناء إبراهيم النخعي.

قوله: «التمائم»، هي ما يعلق علىٰ المريض أو الصحيح، سواء من القرآن أو غيره؛ للاستشفاء أو لاتقاء العين، أو ما يعلق علىٰ الحيوانات.

وفي هذا الوقت أصبح تعليق القرآن لا للاستشفاء؛ بل لمجرد التبرك والزينة، كالقلائد الذهبية، أو الحلي التي يكتب عليها لفظ الجلالة، أو آية الكرسي، أو القرآن كاملًا، فهذا كله من البدع؛ فالقرآن ما نزل ليستشفىٰ به علىٰ هذا الوجه، إنما يستشفىٰ به علىٰ ما جاء به الشرع.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير الرقىٰ والتمائم: وقد سبق ذلك.

الثانية: تفسير التولة: وقد سبق ذلك، وعندي أن منها ما يُسمىٰ بالدبلة إن اعتقدوا إنها صلة بين المرء وزوجته.

الثالثة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء: ظاهر كلامه حتىٰ الرقىٰ، وهذا فيه نظر؛ لأن الرقىٰ ثبت عن النبي ﷺ أنه يَرقي [٢٧٦] ويُرقىٰ [٢٧٧] ولكنه لا يسترقي؛ أي: لا يطلب الرقية؛ فإطلاقها بالنسبة للرقىٰ فيه نظر، وقد سبق للمؤلف رحمه الله أن الدليل خص منها ما خلا من الشرك، وبالنسبة للتمائم؛ فعلىٰ رأي: الجمهور فيه نظر أيضًا.

وأما علىٰ رأي: ابن مسعود؛ فصحيح، وبالنسبة للتولة؛ فهي شرك بدون استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين أو الحُمة ليس من ذلك.

قوله: «**الكلام الحق**»، ضده الباطل، وكذا المجهول الذي لا يعلم أنه حق أو باطل.

والمؤلف رحمه الله تعالىٰ خصص العين أو الحمة فقط استنادًا؛ لقول الرسول ﷺ: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**» ولكن الصحيح أنه يشمل غيرهما؛ كالسحر.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن؛ فقد اختلف العلماء: هل هي من ذلك أم لا؟ قوله: «**ذلك**» المشار إليه: التمائم المحرمة.

---

(٢٧٦)أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: رقية النبي، برقم (٥٧٤٣)، (٥٧٤٤)، (٥٧٤٥)، ومسلم، كتاب: السلام، باب:: الرقية من العين والنملة والحمة، برقم (٢١٩٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢٧٧)أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: رقية العين، برقم (٥٧٣٩)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها، ومسلم، كتاب: السلام، باب:: الطب والمرض والرقىٰ، برقم (٢١٨٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقد سبق بيان هذا الخلاف والأحوط مذهب ابن مسعود؛ لأن الأصل عدم المشروعية حتىٰ يتبين ذلك من السنة.

السادسة: أن تعليق الأوتار علىٰ الدواب عن العين من ذلك؛ أي: من الشرك.

تنبيه:

ظهر في الأسواق في الآونة الأخيرة حلقة من النحاس يقولون: إنها تنفع من الروماتيزم، يزعمون أن الإنسان إذا وضعها علىٰ عضده وفيه روماتيزم نفعته من هذا الروماتيزم، ولا ندري هل هذا صحيح أم لا؟ لكن الأصل أنه ليس بصحيح؛ لأنه ليس عندنا دليل شرعي ولا حسي يدل علىٰ ذلك، وهي لا تؤثر علىٰ الجسم، فليس فيها مادة دهنية حتىٰ نقول: إن الجسم يشرب هذه المادة وينتفع بها؛ فالأصل أنها ممنوعة حتىٰ يثبت لنا بدليل صحيح صريح واضح أن لها اتصالًا مباشرًا بهذا الروماتيزم حتىٰ ينتفع بها.

السابعة: الوعيد الشديد علىٰ من تعلق وترًا. وذلك لبراءة الرسول ﷺ ممن تعلق وترًا، بل ظاهره أنه كفر مخرج من الملة، قال: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:٣] لكن قال أهل العلم: إن البراءة هنا براءة من هذا الفعل، كقوله ﷺ: **«من غشنا، فليس منا»**[٢٧٨].

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان؛ لقول سعيد بن جبير: **«كان كعدل رقبة»**، ولكن هل قوله حجة أم لا؟

إن قيل: ليس بحجة؛ فكيف يقول المؤلف: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان؟!

فيقال: أنه إنما كان كذلك؛ لأنه إنقاذ له من رق الشرك؛ فهو كمن أعتقه، بل أبلغ.

فهو من باب القياس، فمن أنقذ نفسًا من الشرك؛ فهو كمن أنقذها من الرق؛ لأنه أنقذه من رق الشيطان والهوىٰ.

فائدة:

إذا قال التابعي: من السنة كذا، فهل يعتبر موقوفًا متصلًا ويكون المراد من السنة؛ أي: سنة الصحابة، أو يكون مرفوعًا مرسلًا؟ اختلف أهل العلم في هذا، فبعضهم قال: إنه يكون موقوفًا. وبعضهم قال: يكون مرفوعًا مرسلًا.

---

(٢٧٨) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا، برقم (١٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتقدم لنا أنه ينبغي أن يفصل في هذا، وأن التابعي إذا قاله محتجًا به، فإنه يكون مرفوعًا مرسلًا، أما إذا قاله في سياق غير الاحتجاج، فهذا قد يقال: إنه من باب الموقوف الذي ينسب إلىٰ الصحابي.

التاسعة: أن كلام إبراهيم النخعي لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبدالله ابن مسعود: وليس مراده الصحابة، ولا التابعين عمومًا.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: «ما جاء في الرقىٰ والتمائم»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه استمرار في ذكر الأشياء التي تخل بعقيدة التوحيد من الرقي والتمائم الشركية.

«ما جاء في الرقي والتمائم»؛ أي: من النهي عما لا يجوز منها.

قوله: «في الصحيح»:

أي: في «الصحيحين».

«عن أبي بشيرٍ»: هو صحابي شهد غزوة الخندق، ومات بعد الستين.

«قلادة»: ما يعلق في رقبة البعير وغيره.

«وتر»: أحد أوتار القوس.

«أو قلادة»: شك من الراوي هل القلادة مقيدة بكونها من وترٍ أو مطلقة من الوتر وغيره.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أن النبي ﷺ بعث في بعض أسفاره من ينادي في الناس بإزالة القلائد التي في رقاب الإبل التي يراد بها دفع العين ودفع الآفات؛ لأن ذلك من الشرك الذي تجب إزالته.

مناسبة الحديث للباب:

من حيث إنه يدل علىٰ أن تقليد الإبل ونحوها الأوتار وما في معناها؛ لدفع الآفات حرام وشرك؛ لأنه من تعليق التمائم المحرمة.

ما يستفاد من الحديث:

١ - أن تعليق الأوتار -لدفع الآفات- في حكم التمائم في التحريم.

٢- إزالة المنكر.

٣- تبليغ الناس ما يصون عقيدتهم.

❁ **قوله: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه... قال»:**

سيأتي شرح مفردات الحديث في كلام المصنف رحمه الله.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أن الرسول ﷺ يخبر أن استعمال هذه الأشياء لقصد دفع المضار وجلب المصالح من عند غير الله شرك بالله؛ لأنه لا يملك دفع الضر وجلب الخير إلا الله سبحانه، وهذا الخبر معناه النهي عن هذا الفعل.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه بيان أن استعمال هذه الأشياء المذكورة شرك يخل بالتوحيد.

ما يستفاد من الحديث:

١- الحث علىٰ صيانة العقيدة عما يخل بها وإن كان يتعاطاه كثير من الناس.

٢- تحريم استعمال هذه الأشياء المذكورة فيه.

٣- أن هذه الثلاث المذكورة شرك من غير استثناء.

❁ **قوله: «يعلق علىٰ الأولاد»:**

أي: بأعناق الصبيان.

«**من العين**»: أي: لدفع الإصابة بالعين.

«**العزائم**»: جمع عزيمةٍ، قيل هي آيات من القرآن تقرأ علىٰ ذوي العاهات أو تقرأ في ماء ويسقاه المريض وتكتب في صحنٍ ونحوه وتمحىٰ الكتابة بماءٍ ونحوه ويسقاه المريض.

«**وخص منه**»؛ أي: أخرج من عمومه.

«**الدليل**»: وهو قوله ﷺ «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»(٢٧٩) كما سبق في باب: «**من حقق التوحيد**».

«**ما خلا من الشرك**»؛ أي: الاستعانة بغير الله بأن كانت بأسماء الله وصفاته وآياته والمأثورة عن النبي ﷺ.

---

(٢٧٩) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: من اكتوىٰ أو كوىٰ غيره وفضل من لم يكتو، برقم (٥٧٠٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل علىٰ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، برقم (٢٢٠).

وحاصل ما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في حكم هذه الأشياء المذكورة ما يلي:

١- أن الرقية تنقسم إلىٰ قسمين: قسمٍ مشروعٍ وقسمٍ ممنوعٍ: فالمشروع ما خلا من الشرك، والممنوع ما كان فيه شرك.

٢- أن التمائم تنقسم إلىٰ قسمين: **قسمٍ ممنوعٍ بالإجماع**: وهو ما كان يشتمل علىٰ شركٍ، **وقسم مختلف فيه**: وهو ماكان من القرآن. قيل: إنه جائز، وقيل: إنه ممنوع، والصحيح أنه ممنوع سدًّا للذريعة وصيانة للقرآن.

٣- التولة ممنوعة من غير خلافٍ؛ لأنها نوع من السحر.

قوله: «عبد الله بن عكيم»:

ويكنىٰ أبا معبدٍ الجهني الكوفي أدرك زمن النبيﷺ ولا يعرف أنه سمع منه.

«مرفوعًا»؛ أي: إلىٰ النبيﷺ.

«من تعلق شيئًا»؛ أي: التفت قلبه عن الله إلىٰ شيءٍ يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه.

«وكل إليه»؛ أي: وكله الله إلىٰ ذلك الشيء الذي تعلقه من دون وخذله.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

هذا حديث وجيز اللفظ عظيم الفائدة يخبر فيه النبيﷺ أنَّ من التفت بقلبه أو فعله أو بهما جميعًا إلىٰ شيء يرجو منه النفع أو دفع الضرِّ وكله الله إلىٰ ذلك الشيء الذي تعلقه، فمن تعلق بالله كفاه ويسر له كل عسيرٍ، ومن تعلق بغيره وكله الله إلىٰ ذلك الغير وخذله.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي والتحذير من التعلق علىٰ غير الله في جلب المنافع ودفع المضار.

ما يستفاد من الحديث:

١- النهي عن التعلق بغير الله.

٢- وجوب التعلق بالله في جميع الأمور.

٣- بيان مضرة الشرك وسوء عاقبته.

٤- أنَّ الجزاء من جنس العمل.

٥- أنَّ نتيجة العمل ترجع إلىٰ العامل خيرًا أو شرًّا.

قوله «رويفع»:

هو: رويفع بن ثابت بن السكن بن عدي بن الحارث من بني مالك بن النجار الأنصاري ولي برقة وطرابلس فافتتح إفريقية سنة ٤٧ وتوفي ببرقة سنة ٥٦هـ.

«عقد لحيته»؛ قيل: معناه ما يفعلونه في الحروب من فتلها وعقدها تكبرًا. وقيل: معناه معالجة الشعر؛ ليتعقد ويتجعد على وجه التأنث والتنعم. وقيل: المراد عقدها في الصلاة؛ أي: كفّها.

«تقلد وترًا»: جعله قلادة في عنقه أو عنق دابته من أجل الوقاية من العين.

«استنجى»؛ أي: أزال النجو -وهو العذرة- عن المخرج.

«برجيع دابة»: الرجيع: الروث. سمي رجيعًا؛ لأنه رجع عن حالته الأولى بعد أن كان علفًا.

«بريء منه»: هذا وعيد شديد في حق من فعل ذلك.

المعنى الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ أن هذا الصحابي سيطول عمره حتى يدرك أناسًا يخالفون هديه ﷺ في اللحى الذي هو توفيرها وإكرامها إلى العبث بها على وجهٍ يتشبهون فيه بالأعاجم أو بأهل الترف والميوعة. أو يخلون بعقيدة التوحيد باستعمال الوسائل الشركية فيلبسون القلائد أو يلبسونها دوابهم يستدفعون بها المحذور. أو يرتكبون ما نهى عنه نبيهم من الاستجمار بروث الدواب والعظام. فأوصى النبي ﷺ صاحبه أن يبلغ الأمة أن نبيَّها يتبرأ ممن يفعل شيئًا من ذلك.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه النهي عن تقليد الأوتار لدفع المحذورات وأنه شرك؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله.

ما يستفاد من الحديث:

١- علم من أعلام النبوة، فإن رويفعًا طالت حياته إلى سنة ٥٦هـ.

٢- وجوب إخبار الناس بما أُمِرُوا به ونُهُوا عنه مما يجب فعله أو تركه.

٣- مشروعية إكرام اللحية وإعفائها وتحريم العبث بها بحلقٍ أو قصٍ أو عقدٍ أو تجعيدٍ أو غير ذلك.

٤- تحريم اتخاذ القلادة لدفع المحذور، وأنه شرك.

٥- تحريم الاستنجاء بالروث والعظم.

٦- أن هذه الجرائم المذكورة من الكبائر.

قوله: «وكيع»:

هو: وكيع بن الجراح ثقة إمام صاحب تصانيف مات سنة ١٩٧هـ.

«إبراهيم»: هو الإمام إبراهيم النخعي ثقة من كبار الفقهاء مات سنة ٩٦هـ.

«كعدل رقبةٍ»؛ أي: كان له مثل ثواب من أعتق رقبةً.

«وله»؛ أي: وروىٰ وكيع أيضًا.

«وكانوا»؛ أي: أصحاب عبد الله بن مسعود وهم من سادات التابعين.

معنىٰ الأثرين إجمالًا:

الإخبار أن من أزال عن إنسان ما يعلقه علىٰ نفسه لدفع الآفات فله من الثواب مثل ثواب من أعتق رقبة من الرق؛ لأن هذا الإنسان صار بتعليق التمائم مستبعدًا للشيطان فإذا قطعها عنه أزال عنه رق الشيطان. ويحكي إبراهيم النخعي عن بعض سادات التابعين أنهم يعممون المنع مِنْ تعليق التمائم ولو كانت مكتوبًا فيها قرآن فقط سدًّا للذريعة.

مناسبة الأثرين للباب ظاهرة:

فإنَّ فيهما حكاية المنع من تعليق التمائم مطلقًا عن هؤلاء الأجلاء من سادات التابعين.

ما يستفاد من الأثرين:

١- فضل قطع التمائم؛ لأن ذلك من إزالة المنكر وتخليص الناس من الشرك.

٢- تحريم تعليق التمائم مطلقًا ولو كانت من القرآن عند جماعةٍ من التابعين.

٣- حرص السلف علىٰ صيانة العقيدة عن الخرافات.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم»:**

في الباب السابق قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«باب من الشرك لبس الحلقة والخيط»** وقال هنا: **«باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم»** ولم يقل: باب من الشرك الرقىٰ والتمائم، وذلك لأن الرقىٰ منها ما هو جائز مشروع، ومنها ما هو شرك ممنوع، والتمائم منها ما هو متفق عليه أنه شرك، ومنها ما قد اختلف الصحابة فيه هل هو من الشرك أو لا ؟ لهذا عبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: **«باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم»** وهذا من أدب التصنيف العالي.

والرقىٰ: جمع رقية، وهي معروفة، وقد كانت العرب تستعملها، وحقيقتها: أنها أدعية وألفاظ تقال أو تتلىٰ، ثم ينفث فيها، ومنها ما له أثر عضوي في البدن، ومنها ما له أثر في الأرواح، ومنها ما هو جائز مشروع، ومنها ما هو شرك ممنوع.

وثبت أنه عليه الصلاة والسلام رقىٰ نفسه، ورقىٰ غيره، بل ثبت أنه رُقِيَ أيضًا رقاه

جبريل،[٢٨٠] ورقته عائشة،[٢٨١] فهذا الباب -باب ما جاء في الرقى والتمائم- معقود لبيان حكم الرقى، وقد رخّص الشارع في الرقى ما لم تكن شركًا، وهي الرقى التي خلت من الشرك. وقد سأل بعض الصحابة النبي عليه الصلاة والسلام عن حكم الرقى فقال: «**اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**»[٢٨٢].

وقد قال العلماء: الرقية تجوز بثلاثة شروط مجمع عليها :

الأول: أن تكون بالقرآن، أو بأسماء الله، أو بصفاته.

الثاني: أن تكون بالكلام العربي، أي: بلسان عربي، معلوم المعنى.

الثالث: أن لا يعتقد أنها تنفع بنفسها، بل بتقدير الله -عز وجل-، قال بعض العلماء: يدخل في الشرط الأول أيضًا أن تكون بما ثبت في السنة، وعلى هذا: فيكون الشرط الأول: أن تكون من القرآن، أو السنة، أو بأسماء الله وبصفاته، فلا تكون الرقى جائزة إلا باجتماع هذه الشروط الثلاثة.

فإذا تخلف الشرط الأول أو الثاني: ففي جواز الرقية خلاف بين أهل العلم، والشرط الثالث: متفق عليه بينهم.

وأما اشتراط كونها بأسماء الله وصفاته أو بالكتاب والسنة، أو أن تكون بلسان عربي مفهوم، فإن هذا مختلف فيه كما تقدم، وقال بعضهم: يسوغ أن تكون الرقية بما يعلم معناه، ويصح المعنى بلغة أخرى، ولا يشترط أن تكون بالعربية، ولا يشترط أن تكون من القرآن أو السنة، وهذه مسائل فيها خلاف وبحث، وأما من جهة تأثير غير القرآن في المرقي وما سبق من الخلاف: ففيه مسائل نرجئ تفصيل الكلام فيها إلى موضع آخر إن شاء الله.

---

(٢٨٠) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: الطب والمرض والرقى، برقم (٢١٨٦)، والترمذي، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في التعوذ للمريض، برقم (٩٧٢)، وابن ماجه، كتاب: الطب، باب: ما عَوذ به النبي ﷺ وما عُوذ به، برقم (٣٥٢٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢٨١) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: الرقى بالقرآن والمعوذات، برقم (٥٧٣٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢٨٢) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، برقم (٢٢٠٠)، وأبو داود، كتاب: الطب، باب: ما جاء في الرقى، برقم (٣٨٨٦)، من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

فالمقصود: أن الرقىٰ الجائزة بالإجماع هي ما اجتمعت فيها الشروط الثلاثة، وأما الرقىٰ الشركية المحرمة فهي: التي فيها استعاذة، أو استغاثة بغير الله، أو كان فيها شيء من أسماء الشياطين، أو اعتقد المرقي فيها أنها تؤثر بنفسها وهي التي قال عليه الصلاة والسلام فيها: «**إن الرقىٰ والتمائم والتولة شرك**»[٢٨٣] كما سيأتي بيانه.

فالحاصل من ذلك: أن الرقىٰ منها ماهو جائز مشروع، ومنها ماهو شركي ممنوع، وقد علمتَ ضابط الرقىٰ الجائزة المشروعة، والمحرمّة الشركية الممنوعة.

والتمائم: جمع تميمة -وقد ذكر تفسيرها مختصرًا من قبل- وهي تجمع أنواعًا كثيرة فالتمائم تجمع كل ما يعلّق، أو يتخذ مما يراد منه تتميم أمر الخير للعبد، أو دفع الضرر عنه، ويعتقد فيه أنه سبب. ولم يجعل الله -جل وعلا- ذلك الشيء سببا لا شرعًا، ولا قدرًا.

فالتميمة -إذًا- شيء يتخذ من جلد، أو ورق، ويكون فيه أذكار وأدعية وتعوذات تعلّق علىٰ الصدر، أو في العضد، وقد تتخذ التميمة من خرزات وحبال ونحو ذلك، تعلق علىٰ الصدر، وقد تكون التميمة باتخاذ شيء يجعل علىٰ باب البيت، أو في السيارة، أو أي مكان، فالحاصل: أن التمائم يجمعها أنها: شيء يراد منه تتميم أمر الخير، وتتميم أمر دفع الضر وذلك الشيء لم يؤذن به لا شرعًا، ولا قدرًا.

فالتميمة -إذًا- ليست خاصة بصورة معينة، بل تشمل أمورًا كثيرة وتعم أصنافًا عديدة، مثل ما نراه علىٰ كثير من أهل زماننا، من تعليقهم أشياء علىٰ صدورهم: مثل جلود صغيرة يجعلونها علىٰ رقابهم، أو تكون علىٰ العضد، أو يربطونها علىٰ بطونهم لرفع الأمراض الباطنية: كالإسهال، والقيء، ونحوهما.

ومنهم من يجعل في سيارته رأس دب، أو أرنب، أو غيرها من الأشكال، كحدوة الفرس، أو يعلق خرزات، ومسابح خشبية، ونحو ذلك علىٰ المرايا الأمامية للسيارة. ومنهم من يلبس سلسلة ويجعل فيها

---

(٢٨٣) سبق تخريجه.

شكل عين صغيرة، وبعضهم قد يعلّق على مدخل الباب رأس ذئب، أو غزال، أو يضع على مطرق الباب حدوة فرس، اعتقادًا من أصحابها أنها تدفع العين، أو تجلب لهم النفع.

فكل هذه أنواع، وأصناف، وصور للتمائم، أحدثها الناس على اختلاف الأزمان.

لكن من الناس من يقول: إنما أعلق هذه الأشياء للزينة، ولا أستحضر هذه المعاني المحظورة، فهذا يقوله طائفة قليلة من الناس.

فنقول: إن علق التمائم لدفع الضر، واعتقد أنها سبب لذلك: فيكون قد أشرك الشرك الأصغر، وإن علقها للزينة فهو محرم؛ لأجل مشابهته من يشرك الشرك الأصغر، فدار الأمر -إذًا- على النهي عن التمائم كلها، سواء اعتقد فيها أو لم يعتقد؛ لأن حاله إن اعتقد أنها سبب: فهو شرك أصغر، وإن لم يعتقد فيكون قد شابه أولئك المشركين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[(٢٨٤)].

❁ **قوله: «في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه: أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولًا أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر...»:**

وجه الاستدلال بهذا الحديث: أن تعليق القلادة من الوتر على البعير مأمور بقطعه. والأمر بقطعه؛ لأجل أن العرب تعتقد أنها تدفع العين عن الأبعرة، والنَّعَم، فيعلّقون عليها الأوتار على شكل قلائد. وربما ناطوا بالأوتار أشياء من خرز، أو من شعر، أو نحو ذلك لدفع العين، فهذا نوع من أنواع التمائم. فمناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة، وهي: أن قوله: «**لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت**» ظاهر في النهي عن التمائم، وأن هذا النوع يجب قطعه، وإنما يجب قطعه؟ لأن في تعليقه اعتقاد أنه يدفع الضر أو أنه يجلب النفع، وهذا الاعتقاد اعتقاد شركي.

❁ **قوله: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»:**

فهذا الحديث تضمن تأكيدًا؛ لأن دخول (إن) على الجملة الخبرية بعدها يفيد تأكيد ما تضمنته.

---

(٢٨٤) أخرجه أبو داود، كتاب: اللباس، باب: في لبس الشهرة، برقم (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، والحديث صححه الألباني في «الإرواء» (٥/ ١٠٩)، و«صحيح الجامع» (٦١٤٩).

وقوله هنا: (الرقىٰ) لما دخلت عليها (الألف واللام) أفادت العموم، فهذا الحديث أفاد بعمومه أن كل الرقىٰ من الشرك، وأن كل التمائم من الشرك، وأن كل التولة من الشرك، فتكون هذه الأنواع كلها من الشرك.

وهذا العموم خص الدليل منه الرقىٰ وحدها، وهو قوله: «**لا بأس بالرقىٰ ما لم تكن شركًا**»[285] وبأن النبي ﷺ رقىٰ ورقي -عليه الصلاة والسلام-، فدل الدليل -إذًا- علىٰ أن العموم هاهنا مخصوص، فليس كل أنواع الرقية شركًا، بل بعض أنواع الرقية، وهي: التي اشتملت علىٰ شرك، فالعموم هنا مخصوص، وقد خرج منه ما لم يكن فيه شرك وقد جاء الحديث بلفظ: «**لا بأس بالرقىٰ ما لم تكن شركًا**»، وفي لفظ آخر قال: «**لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن شرك**»[286] أما التمائم فلم يخص الدليل بالجواز منها نوعًا دون نوع، فتكون التمائم بكل أنواعها شركًا لعدم ورود ما يخصص بعضها؛ إذ لم يستثن الشارع منها شيئًا، والأصل بقاء العام علىٰ عمومه، والتخصيص يكون بالشرع، ولم يرد هنا، فيبقىٰ علىٰ الأصل.

قوله: «**والتولة**»: التولة كما فسرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شيء يصنعونه، يزعمون أنه يحبب المرأة إلىٰ زوجها، والرجل إلىٰ زوجه، وهو نوع من السحر، ويسمىٰ عند العامة الصرف والعطف، فهو نوع من السحر يصنع فيجلب شيئًا، ويدفع شيئًا -بحسب اعتقادهم- وهي في الحقيقة نوع من أنواع التمائم لأنها تصنع ويكون الساحر هو الذي يرقي فيها الرقية الشركية، فيجعل المرأة تحب زوجها، أو يجعل الرجل يحب زوجته، وهذا نوع من أنواع السحر، والسحر شرك بالله -جل وعلا- وكفر عام في كل أنواع التولة، فهي شرك كلها.

❁ **قوله: «وعن عبد الله بن عكيم مرفوعًا: «من تعلق شيئًا وُكِلَ إليه»»:**

(**شيئًا**) -هنا- نكرة في سياق الشرط فتعم جميع الأشياء فكل من علّق شيئًا وُكِلَ إليه فمن أخرج صورة من صور التعليق عن هذا العموم كانت الحجة عليه؛ لأن هذا الدليل عام، ويفيد أن من تعلق أي شيء من الأشياء فإنه يُوكل إليه، والعبد إذا وُكِلَ لغير الله -جل وعلا- فإن الخسارة

---

(٢٨٥) سبق تخريجه.

(٢٨٦) سبق تخريجه.

أحاطت به من جنباته، والعبد إنما يكون عزه، ويكون فلاحه، ونجاحه، وحسن قصده، وحسن عمله في تعلقه بالله وحده، فيتعلق بالله وحده في أعماله، وفي أقواله، وفي مستقبله، وفي دفع المضار عنه، فيكون أنس قلبه بالله، وسروره بالله، وتعلقه بالله، وتفويض أمره إلى الله، وتوكله على الله -جل وعلا- فمن كان كذلك وتوكل على الله، وطرد الخلق من قلبه: فإنه لو كادته السماوات والأرض لجعل الله -جل وعلا- له من بينها مخرجًا؛ لأنه توكل وفوض أمره على العظيم -جل جلاله وتقدست أسماؤه-، فقال هنا: «**من تعلّق شيئًا وُكِلَ إليه**» فإذا تعلق العبد تميمة وكل إليها، فما ظنك بمن وكل إلى خرقة، أو إلى خرز، أو إلى حدوة حصان، أو إلى شكل حيوان، ونحو ذلك، لا شك أن خسارته أعظم الخسارة.

ووجه الاستدلال هنا في قوله: «**من تعلق شيئًا**» أنه ذكر نتيجة التعلق وهو أنه يوكل إلى ذلك الشيء الذي تعلقه، فمن تعلق شيئًا وكل إليه، وإذا وكل إليه فمعنى ذلك أنه خسر في ذلك الخسران المبين.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لم يصدِّر الباب بحكم، فيكون الاستدلال على حكمها مستفادًا من هذه الأحاديث.

❁ **قوله: « التمائم شيء يعلّق على الأولاد يتقون به العين»:**

(شيء) هنا شاملة لأي شيء يعلّق دون صفة معينة، وخص بعض العلماء التمائم بما كان متخذًا من الخرز، وبعضهم خصه بما كان مصنوعًا من الجلد ونحوه، وهذا ليس بجيد، بل التمائم اسم يعم كل ما يعلق لدفع العين واتقاء الضرر، أو لجلب خير نفسي.

ثم قال: (**لكن إذا كان المعلّق من القرآن فرخص فيه بعض السلف**) يعني: إذا كان المعلّق من القرآن بمعنى أنه جعل في منزله مصحفًا؛ ليدفع العين، أو علّق على صدره شيئًا كسورة الإخلاص، أو آية الكرسي، ليدفع العين، أو ليدفع الضرر عنه، فهذا من حيث التعليق يسمى تميمة، فهل هذه التميمة جائزة أو غير جائزة ؟ قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: إن التمائم إذا كانت من القرآن فقد اختلف فيها السلف، فجوزها، ورخّص فيها بعض السلف، ويعني ببعض السلف: بعض كبار الصحابة، ومال إلى هذا القول بعض أهل العلم الكبار، وبعضهم لم يرخّص فيها كابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكأصحاب ابن مسعود الكبار، منهم:

إبراهيم النخعي، وعلقمة، وعبيدة، والربيع بن خثيم، والأسود، وأصحاب ابن مسعود جميعًا، فالحاصل: أن السلف اختلفوا في ذلك، ومن المعلوم أن القاعدة: أن السلف إذا اختلفوا في مسألة وجب الرجوع فيها إلىٰ الدليل، والدليل قد دل علىٰ أن كل أنواع التمائم منهي عنها، كما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: «**من تعلّق شيئًا وُكِلَ إليه**»، وقوله: «**إن الرقىٰ والتمائم والتولة شرك**» فمن تعلّق القرآن أو شيئًا منه كان داخلًا في النهي، لكن إذا كان المعلَّق من القرآن فلا يكون مشركًا؛ لأنه علق شيئًا من صفات الله -جل وعلا- وهو كلام الله -جل وعلا- فلا يكون قد أشرك مخلوقًا؛ لأن الشرك معناه: أن تشرك مخلوقًا مع الله -جل وعلا- والقرآن ليس بمخلوق؛ بل هو كلام الله الباري -جل وعلا- منه بدأ، وإليه يعود، فإذا أخرجت التميمة المتخذة من القرآن عن كونها شركًا من عموم قوله: «**إن التمائم شرك**» فلأجل كون القرآن كلام الله، ليس بمخلوق. لكن هل هي منهي عنها، أو غير منهي عنها ؟ الجواب: أن قوله عليه الصلاة والسلام: «**من تعلق شيئًا وكل إليه**»، ونهيه عن التمائم بأنواعها، دليل علىٰ أن تخصيص القرآن بالإذن من بين التمائم، ومن بين ما يعلق: يحتاج إلىٰ دليل خاص؛ لأن إبقاء العموم علىٰ عمومه هو إبقاء لدلالة ما أراد الشارع الدلالة عليه بالألفاظ اللغوية، والتخصيص نوع من أنواع التشريع، فلابُدَّ فيه من دليل واضح؛ لهذا صارت الحجة مع من يجعل التمائم التي من القرآن مما لا يُرخّص فيه كابن مسعود، وكغيره من الصحابة رضوان الله عليهم، وكذلك هو قول عامة أهل العلم، وهو رواية عن الإمام أحمد اختارها المحققون من أصحابه، وعليها المذهب عند المتأخرين.

بقي أن نقول: إن تجويز اتخاذ التمائم من القرآن يترتب عليه مفاسد منها:

١- أنه يفضي إلىٰ الاشتباه فقد نرىٰ من عليه التميمة، فيشتبه علينا الأمر، هل هذه تميمة شركية، أو من القرآن ؟ وإذا ورد هذا الاحتمال فإن المنكر علىٰ الشركيات يضعف عن الإنكار؛ لأنه سيقول: يحتمل أن تكون من القرآن، فإجازة تعليق التمائم من القرآن فيه إبقاء للتمائم الشركية؛ لأن التمائم تكون مخفية غالبًا، إما في جلد، أو في نوع من القماش ونحو ذلك، فإذا رأينا من علق تميمة: وقلنا يحتمل أن تكون من القرآن، أو غيره، فإذا استفصلت منه، وقلت له: هل هذه تميمة شركية أو من القرآن؟ فمعلوم أن صاحب المنكر سيجيب: بأنها من القرآن حتىٰ ينجو من الإنكار؛ لأنه يريد أن يسلم له تعليقها، فمن المفاسد العظيمة أن في: إقرار التمائم من القرآن

إبقاء للتمائم الشركية، وفي النهي عنها سد لذريعة الإشراك بالتمائم الشركية، ولو لم يكن إلا هذا لكان كافيًا.

٢ - أن الجهلة من الناس إذا علقوا التمائم من القرآن تعلقت قلوبهم بها، فلا تكون عندهم مجرد أسباب، بل يعتقدون أن فيها خاصية بنفسها بجلب النفع، أو دفع الضر، ولا شك أن هذا فتحٌ لباب الاعتقادات الفاسدة علىٰ الناس يجب وصده ومن المعلوم أن الشريعة جاءت بسد الذرائع.

٣ - ومن المفاسد المتحققة أيضًا أنه إذا علق شيئًا من القرآن، فإنه يعرضه للامتهان، فقد ينام عليه، أو يدخل به مواضع قذرة، أو يكون معه في حالات لا يليق أن يكون معه فيها شيء من القرآن فهذا مما ينبغي اجتنابه وتركه.

فتحصل -بالدليل وبالتعليل-: أن تعليق التمائم بكل أنواعها: لا يجوز، فما كان منها من القرآن فنقول يحرم علىٰ الصحيح ولا يجوز، ويجب إنكاره، وما كان منها من غير القرآن، فهذا نقول فيه: إنه من الشرك بالله؛ لقول النبي ﷺ: «**إن الرقىٰ والتمائم والتولة شرك**»[٢٨٧] والتخصيص نوع من العلم فيجب أن يكون فيه دليل خاص.

❁ **قوله: «وروىٰ أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع لعل الحياة تطول بك فأخبر الناس، أن من عقد لحيته...»**:

هذا الحديث وارد في «**باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم**» وفيه ذكر تقلّد الوتر وأن محمدا عليه الصلاة والسلام بريء ممن تقلد وترا، وقد تقدم في أول الباب حديث أبي بشير أن النبي ﷺ أرسل رسولًا: «**أن لا يبقين في عنق بعير قلادة من وتر، أو قال قلادة إلا قطعت**»، وهذا الحديث في معناه.

وقوله: في هذا الحديث: «**تقلد وترًا**» فيه تقييد التقليد بالوتر، وهذا له مفهوم، وهو أن النهي ليس راجعًا إلىٰ القلادة من حيث هي بل إلىٰ القلادة التي يُعتقد فيها أنها تدفع العين، وخص الوتر منها هنا؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يقلدون الأوتار، وينوطون بها بعض الخرق، أو بعض الشعر، أو

---

(٢٨٧) سبق تخريجه.

بعض العظام، لكي تدفع العين عن الأبعرة، وأما مجرد التقليد فإن النبي ﷺ أشعر هديه وأيضًا فتلت له القلائد، وعلق القلائد لبيان أن ما أرسله إلىٰ مكةَ هدْيٌ.

فالتقليد هنا خُص بالوتر؛ فيقال: القلادة التي تجعل علىٰ الحيوان أو علىٰ غيره إذا كانت مما يُعتقد فيها، أو يختص بها أهل الاعتقادات: فإنه يُنهىٰ عنها ولهذا قيدها في حديث أبي بشير الأول بقوله: «**لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر**» و(مِن) ها هنا بيانية، وكذلك هنا قال: «**أو تقلد وترًا**» وهذا واضح المعنىٰ في أنه جعل الوتر الذي قُلد تميمة.

وقوله في هذا الحديث: «**فإن محمدًا بريء منه**»: هذا من الألفاظ التي تدل علىٰ أن هذا الفعل من الكبائر؛ لأن مما يستدل به علىٰ كون الفعل، أو القول، من الكبائر: أن يقال عن مرتكبه: الله ورسوله منه بريئان، أو يتبرأ النبي ﷺ منه؛ لأن ذلك يدل علىٰ عظم المعصية، وأن الشرك الأصغر من الكبائر كما أن الشرك الأكبر من الكبائر، والكبائر العملية -التي ليس معها اعتقاد- كالزنا والسرقة، وشرب الخمر: هي من حيث جنس المحرم والكبيرة أقل مرتبة من الشرك الأصغر فضلًا عن الشرك الأكبر؛ ولهذا نقول: إن جنس الشرك الأصغر كاتخاذ التمائم، أو نحو ذلك هذا جنسه أعظم من حيث الذنب والكبيرة من جنس الكبائر العملية التي لا يصحب فاعلها حين فِعلها اعتقاد، كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وما أشبه ذلك.

۞ **قوله: « وعن سعيد بن جبير قال: من قطع تميمة من إنسان، كان كعدل رقبة»:**

يعني كان كتحرير رقبة، وهذا فيه فضيلة قطع التمائم وذلك لأنها شرك بالله -جل وعلا-، والشرك الأصغر مدخل للنار، وفاعله متوعد بالنار؛ كما في قوله -جل وعلا-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾[النساء: ٤٨، ١١٦] **ونحو قوله ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار»** وفي نحو قوله أيضًا: «**من مات وهو يشرك بالله شيئًا دخل النار**» فمن قطع تميمة من عنق من علقها: فهو في مقام إعتاق رقبة ذاك الذي قطعت منه التميمة من النار؛ لأنه استوجب بذلك الفعل الوعيد بالنار، فإذا قطع التميمة كان جزاؤه من جنس فعله، فكما أنه أعتق رقبة هذا المسلم من النار أثيب بأن له مثل إعتاق رقبة أي: في الأجر.

وهذا القول من سعيد بن جبير محمول علىٰ أنه مما سمعه من الصحابة رضوان الله عليهم؛ لأن هذا مما لا يقال بالرأي، وإذا كان كذلك فله حكم المرسل؛ لأن فيه فضيلة خاصة جعلها

سعيد بن جبير لمن قطع تميمة من رقبة إنسان، فيكون ذلك من قبيل المرسل، يعني: من قبيل المرفوع، وسعيد بن جبير تابعي من أصحاب ابن عباس فيكون مرسلا.

وفي حجية المرسل كلام: فالإمام أحمد، ومالك، يحتجون بالمرسل، وكذلك الإمام أبو حنيفة يحتج بالمرسل، ومنهم من يجعل له شروطًا كالشافعي، ومنهم من يحتج بالمرسل إذا كان المعنىٰ معروفًا في الباب كما هاهنا.

وقال بعض أهل العلم: قول التابعي في الأشياء التي لا تدرك بالاجتهاد، ولا يناط بها الرأي يكون محمولًا علىٰ أنه قول صحابي، يعني: أنه سمعه من الصحابي، فيكون اجتهاد صحابي، وهذا ليس بقوي؛ لأنه إذا كان محمولًا علىٰ أنه سمعه من الصحابي، فنقول أيضًا: الصحابي لا يقوله من جهة الرأي، فلابُدَّ أن يكون - إذًا- سمعه من الرسولﷺ؛ لأن مثل هذا لا مدخل فيه للاجتهاد، والقول الأول هو المعروف، وهو أن هذه الصيغة من قبيل المرسل.

قوله: «وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»:

قوله: «**وله**»: يعني لوكيع.

«**عن إبراهيم**»: وهو النخعي، تلميذ ابن مسعود؛ وإبراهيم النخعي عالم أهل الكوفة بعد ابن مسعود.

قوله: «**كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن**»:

قوله: (كانوا) يعني: أصحاب ابن مسعود، كالأسود، وعلقمة، وكالربيع بن خثيم وكعبيدة السلماني، ونحو هؤلاء.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الرقىٰ والتمائم، أي: الرقىٰ هي التي تسمىٰ العزائم، والتمائم: شيء يعلقونه يزعمون أنه يدفع العين.

الثانية: تفسير التولة، أي: ما يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلىٰ زوجها والرجل إلىٰ امرأته وهو ضرب من السحر.

الثالثة: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء، أي: كما دل عليه حديث ابن مسعود لما فيه من تعلق القلب علىٰ غير الله إلا ما دل الدليل علىٰ جوازه ولم يعلق العبد قلبه عليه كما رخص في الرقىٰ ما لم تكن شركًا.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك، أي ليس مما نهىٰ عنه إذا اجتمعت شروطه: وهي أن يكون بأسماء الله وصفاته،وأن يكون باللسان العربي وما يعرف معناه، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بنفسها بل بتقدير الله كما ذكره الشارح عن السيوطي.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟ أي: هل هي مما نهي عنه أم لا؟ والراجح أنها داخلة في المنهي عنه لأمور ثلاثة: عموم النهي ولا مخصص، وكون المعلق لها يمتهنها بدخول الخلاء وهي عليه، وكون ذلك وسيلة إلىٰ تعليق ما ليس من القرآن كما أشار إلىٰ ذلك في الشرح.

السادسة: أن تعليق الأوتار علىٰ الدواب من العين من ذلك، أي: مما نهىٰ عنه لكونه أمر بقطعه وتوعد من تقلده.

السابعة: الوعيد الشديد علىٰ من تعلق وترًا، أي لقوله: أو تلقد وترًا إلىٰ أن قال فإن محمدًا بريء منه.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان، أي لقول سعيد بن جبير: إنه كعدل رقبة.

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف ؛ لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود، أي: قول إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون التمائم كلها،لم يرد به جميع الصحابة الذين تقدم منهم الخلاف في تعليق التمائم من القرآن، وإنما أراد أصحاب عبد الله بن مسعود فإنهم أخذوا بقوله في النهي عن ذلك مطلقًا، ولم يخالفه واحد منهم.

* الأسئلة *

❁ قوله: «في «الصحيح» عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه «أنه كان مع رسول الله ﷺ... ».

س: ما المقصود بالقلادة من الوتر وما هو الوتر وما معنى «أو» في قوله أو قلادة؟

جـ: المقصود بالقلادة هنا ما كان يصنعه أهل الجاهلية من التقليد بالأوتار والوتر أحد أوتار القوس وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره وقلدوا به الدواب اعتقادًا منهم أنه يدفع عن الدابة العين فأبطله الإسلام.

ومعنى «أو» في قوله «أو قلادة» شك من الراوي لا يدري هل قال شيخه قلادة من وتر أو قال قلادة فقط.

س: ما الذي يفيد أمره ﷺ بقطع هذه القلائد؟

جـ: أفاد أنها منكر تجب إزالته وأكد ذلك بنون التوكيد الثقيلة في قوله «لا يبقين».

س: ما مناسبة حديث أبي بشير للباب؟

جـ: هي أنه أفاد إنكار النبي ﷺ لهذه القلايد وأمره بإزالتها؛ لأنها نوع من الشرك حيث صرف الاعتقاد إلى غير الله.

❁ قوله: «عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة ...».

س: عرّف الرقى واذكر حكمها؟

جـ: الرقى: جمع رقية وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة؛ كالحمى والصرع وهي التي تسمى العزائم وهي نوعان: جائزة وهي ما تجردت من الشرك واجتمع فيها شروط ثلاثة:

١ - أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه.

٢ - أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته أو بكلام رسوله.

٣ - أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله وما سوى ذلك لا يجوز.

س: عرّف التمائم وبين حكمها؟

جـ: التمائم جمع تميمة وهي ما يعلق على الأولاد من خرزات وتعاويذ وغيرها. يتقون بها العين فأبطلها الإسلام ونهىٰ عنها وحرمها؛ لأنه لا دافع إلا الله كما تقدم.

لكن يستثنىٰ من ذلك إذا كان المعلق من القرآن فقد اختلف فيه العلماء فرخص فيه بعضهم وأجاز تعليقه، وبعضهم لم يرخص فيه وجعله من المنهي عنه وهو الصحيح لأمور ثلاثة:

١ - عموم النهي عن تعليق التمائم ولا مخصص للعموم.

٢ - كونه ذريعة إلىٰ تعليق ما ليس من القرآن فيفضي إلىٰ عدم إنكارها.

٣ - أن تعليق القرآن يكون سببًا في امتهانه فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

س: عرف التولة ولم كانت من الشرك؟

جـ: التولة: شيء يصنعونه يزعمون أن يحبب المرأة إلىٰ زوجها والزوج إلىٰ امرأته وهو نوع من السحر، وإنما كان من الشرك لما يراد من جلب المنافع ودفع المضار من غير الله تعالىٰ.

س: اذكر مناسبة حديث ابن مسعود للباب؟

جـ: هي أنه أفاد أن عمل هذه الأشياء والاعتقاد بها شرك.

س: اشرح قوله ﷺ: «من تعلق شيئًا وكل إليه»؟

جـ: التعلق يكون بالقلب ويكون بالفعل ويكون بهما معًا والمعنىٰ أن من اعتمد علىٰ شيء في طلب خير أو دفع شر وكله الله إلىٰ ذلك الشيء الذي اعتمد عليه.

❁ قوله: «وروي أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ يا رويفع...».

س: ما الذي يؤخذ من قوله لعل الحياة ستطول بك؟

جـ: فيه علم من أعلام النبوة فإن رويفعًا طالت حياته إلىٰ سنة ٥٦ ست وخمسين من الهجرة.

س: ما الذي يدل عليه قوله فأخبر الناس وهل هذا خاص برويفع؟

جـ: يدل علىٰ وجوب إخبار الناس وليس هذا خاص برويفع بل كل من عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به.

س: ما المراد بعقد اللحية؟

جـ- عقد اللحية يفسر على وجهين.

أحدهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب كانوا يعقدون لحاهم تكبرًا وذلك من زي بعض الأعاجم.

ثانيهما: معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد وذلك من فعل أهل التأنيث.

س: ما المقصود بقوله تعلق وترًا وما حكم تعليق الوتر؟

جـ: أي جعله قلادة في عنقه أو عنق دابته وهو شرك حيث وجه الاعتقاد إلى غير الله.

س: ما المراد بقوله أو استنجى برجيع دابة أو عظم وما حكم الاستنجاء بهما؟

جـ: أي استجمر بالروث والعظم واستعمله في إزالة الخارج وهو محرم لتبرئ النبي ﷺ من فعله ونهيه عنه.

س: ما الذي يؤخذ من قوله فإن محمدًا بريئ منه؟

جـ- تحريم هذه الأشياء المذكورة في الحديث والوعيد على من فعلها.

س: ما هو الشاهد من حيث رويفع للباب؟

جـ: هو قوله أو تقلد وترًا.

قوله: «وعن سعيد بن جبير قال: من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة ...».

س: ما معنى قول سعيد بن جبير وما الذي يؤخذ منه وما المقصود بالكراهة في قول إبراهيم النخعي كانوا يكرهون التمائم كلها، ومن أراد بهم؟

جـ: معنى قول سعيد أن من قطع تميمة من إنسان فله من الأجر مثل أجر من أعتق رقبة، ويؤخذ منه فضل قطع التمائم؛ لأنها شرك والمقصود بالكراهة في قول إبراهيم كراهة التحريم وأراد بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين.

والله سبحانه وتعالى أعلم.



الدرس التاسع:

باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ الْهَوَىٰ..﴾ الآيات [النجم:١٩-٢٣].

عن أبي واقدٍ الليثي، قال: «خرجنا مع رسول اللهﷺ إلى حُنَيْنٍ، ونحن حُدَثَاءُ عهد بكفرٍ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط. فمررنا بسدرةٍ، فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال[رسول الله][٢٨٨]ﷺ: الله أكبر، إنها السنن! قلتم -والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]؛ لتركبن سنن من كان قبلكم». رواه الترمذي وصححه[٢٨٩].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلىٰ الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا؛ فغيرهم أولىٰ بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعة: أن النبيﷺ لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: «الله أكبر! إنها السنن! لتتبعن سنن من كان قبلكم»؛ فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير -وهو المقصود- أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسىٰ: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾.

---

(٢٨٨) سقط من نسخة ابن باز.

(٢٨٩) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، برقم (٢١٨٠)، وأحمد (٥/٢١٨) وغيرهما من حديث أبي واقد الليثي ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، وفي «المشكاة»، برقم (٥٤٠٨).

التاسعة: أن نفي هذا من معنىٰ «لا إله إلا الله» مع دقته وخفائه علىٰ أولئك.

العاشرة: أنه حلف علىٰ الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه[أصغر وأكبر][٢٩٠]؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا.

الثانية عشرة: قولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر»؛ فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب، خلافًا لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارىٰ في القرآن؛ إنه[٢٩١] قاله لنا.

العشرون: أنه متقرر[٢٩٢] عندهم أن العبادات مبناها علىٰ الأمر، فصار فيه التنبيه علىٰ مسائل القبر: أما «من ربك؟»، فواضح، وأما «من نبيك؟»، فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما «ما دينك؟»، فمن قولهم: «اجعل لنا إلهًا...» إلىٰ آخره.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة، لقوله: «ونحن حدثاء عهدٍ بكفرٍ».

الشرح

(٢٩٠) في نسخة السعدي: «أكبر وأصغر».

(٢٩١) في نسخة السعدي: «فإنه».

(٢٩٢) في نسخة السعدي: «مقرر».

قال العلامة ابن قاسم:

✿ **قوله:** «**باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما**»:

أي: وما يشبههما كبقعة ومغارة وزاوية وقبر ومشهد وموطئ وأثر ونحو ذلك. و«من» اسم شرط، والجواب محذوف تقديره: فقد أشرك بالله. ويحتمل أن «من» موصولة فيكون معناها باب بيان حكم من تبرك بالأشجار والأحجار ونحوها، وما يترتب عليه من الوعيد، وحكمه أنه مشرك الشرك الأكبر؛ لكونه تعلق على غير الله في حصول البركة من غيره، وإن كان الله جعل فيه بركة. والتبرك طلب البركة ورجاؤها واعتقادها، أو عائدة وأمل بركة تعود إليه من جهتها، من جلب نفع أو دفع ضر. وتبرك به تيمن وفاز منه بالبركة، واستبرك به تفاءل بالبركة، والبركة النماء والزيادة.

✿ **قوله:** «**وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ﴾**»:

أي: هل نفعت أو ضرت، يعني أنتم تعلمون أن ذلك ليس إليها، فلم تعبدونها وتجعلونها شركاء لله؟ وهذه الأوثان الثلاثة هي أعظم أوثان الجاهلية من أهل الحجاز، ولهذا نص عليها بأعيانها، وإلا ففي الحجاز أوثان غيرها، لكن خص هذه الثلاثة بالذكر؛ لأنها أكبر أصنام العرب إذ ذاك، فصارت الفتنة بها أشد. فأما اللات فقرئ بالتخفيف والتشديد، فعلى الأولى قالوا: هي صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف، وعلى الثانية قال ابن عباس: «**رجل كان يلت السويق للحاج، فمات فعكفوا على قبره**». ولا منافاة بين عبادتهم الصخرة أو قبره. وأما العزى فكانت شجرة سمر عليها بناء وأستار بنخلة الشامية المسماة بالمضيق بين مكة والطائف، كانت قريش تعظمها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى إلخ. ولما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث إليها خالدًا فقطع الشجرة وهدم البيت، ثم قال له النبي ﷺ: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئًا**»، فلما رجع وجد امرأة عريانة ناشرة شعرها، تحفن التراب على وجهها فقتلها، فقال ﷺ: «**تلك العزى**». وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة. قال الشيخ: «كانت لأهل المدينة، ومن قال: إنها لغطفان؛ فلأنها كانت تعبدها، وهي في جهتها» اهـ.

وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها، ويهلون منها للحج، فبعث النبي ﷺ عليًا فهدمها يوم الفتح. ومناسبة الآية للترجمة أن عبادة المشركين لها إنما كانت بالتفات القلوب رغبة إليها في

حصول ما يرجونه ببركتها، من نفع أو دفع ضر، فصارت أوثانًا تعبد من دون الله، فالتبرك بقبور الصالحين كاللات، وبالأشجار والأحجار كالعزىٰ ومناة، من جنس فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان، فمن فعل مثل ذلك فقد ضاهىٰ عباد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك، مع أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك، قال تعالىٰ: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ [النجم:٢١]؛ أي: كيف تجعلون هذه الإناث أندادًا لله وتسمونها آلهة، وذلك أنهم اشتقوا اسم اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز، ومناة من المنان، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا. وقيل: أتجعلون لكم ما تحبون وهم الذكور، وتجعلون لله الإناث؟ وهذا من قولهم: الملائكة بنات الله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم:٢٢]؛ أي: جور وباطل ﴿إِنْ هِيَ﴾؛ يعني: ألوهية هذه الأوثان: ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾؛ أي: مجرد تسمية: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾؛ [النجم:٢٣] من تلقاء أنفسكم: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم:٢٣] أي: من حجة وبرهان، وتسمية الحجة سلطانًا لما فيها من السلطة علىٰ القلوب والعقول، بالمصير؛ لقبول المدلول: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [النجم:٢٣]؛ أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣]فنهاية برهانهم مبني علىٰ أمرين: فساد العلم، وفساد الإرادة. وكل فساد في الوجود من الشرك فما دونه دائر علىٰ فساد العلم وفساد الإرادة أو هما جميعًا، كما أنه لا استقامة إلا لمن عنده علم صحيح وإرادة صحيحة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم:٢٣] أرسل إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة بإبطال عبادتها، وفي هذه الآيات من الدلائل القطعية علىٰ بطلان عبادة هذه الطواغيت وأشباهها مما لا مزيد عليها.

❁ **قوله: «عن أبي واقد الليثي»:**

واسمه الحارث بن عوف، صحابي مشهور أسلم قبل الفتح، وكان يحمل لواء بني ليث وضمرة وسعد بن بكر يوم الفتح، وخرج إلىٰ مكة فجاور بها سنة ومات سنة ٦٨ هـ، وله ٨٥ سنة.

❁ **قوله: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين»:**

وفي حديث عمرو بن عوف عند الحاكم وغيره: غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح، ونحن ألف ونيف حتىٰ إذا كنا بين حنين والطائف إلخ. وحنين وادٍ بشرقي مكة، بينه وبينها بضعة عشر ميلًا، قاتل فيه رسول الله ﷺ هوازن بعد الفتح، والقصة مشهورة.

❁ **قوله**: «ونحن حدثاء عهد بكفر»:

أي: قريب عهدنا بالكفر؛ لأنه ممن أسلم يوم الفتح، يشير إلىٰ أهل مكة الذين أسلموا قريبًا، فلذلك خفي عليهم هذا الشرك؛ ولهذا اعتذروا مما صدر منهم، **قال المصنف**: «فيه أن غيرهم لا يجهله ذلك، وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة».

❁ **قوله**: «وللمشركين سدرة يعكفون عندها»:

أي: يلبثون ويقيمون عندها ويعظمونها؛ والعكوف هو البقاء واللبث والإقامة علىٰ الشيء في المكان، عبادة وتعظيمًا وتبركًا؛ وإنما عكفوا عندها لما كانوا يأملونه فيها من البركة، كما يعكف عباد القبور اليوم عندها ويجاورون، وتدفع الصدقات والنذور لتلك القبور، وفي حديث عمرو بن عوف قال: كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط، وكانت تعبد من دون الله، فلما رآها رسول الله ﷺ صرف عنها في يوم صائف إلىٰ ظل هو أدنىٰ منها إلخ. فيجمع بينهما بأن عبادتها هي العكوف عندها رجاء لبركتها.

❁ **قوله**: «وينوطون بها أسلحتهم»:

أي: يعقلونها عليها لتنالهم بركتها، فعبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الثلاثة العكوف والتعظيم والتبرك عبدت الأوثان من دون الله، ولفظ ابن إسحاق وغيره: «وكانت لقريش شجرة خضراء عظيمة، يأتونها كل سنة فيعلقون عليها سلاحهم، **ويعكفون عندها** ويذبحون لها».

❁ **قوله**: «يقال: لها ذات أنواط»:

جمع نوط وهو مصدر، سمي به المنوط، وإنما سميت بذلك؛ لكثرة ما يناط بها من السلاح. وفي رواية: «فتنادينا من جانبي الطريق، ونحن نسير إلىٰ حنين يا رسول الله اجعل لنا» إلخ.

❁ **قوله**: «كما لهم ذات أنواط»:

سألوه أن يجعل لهم شجرة مثلها يتبركون بها، ويعلقون عليها أسلحتهم، ويعكفون عندها، ظنًا منهم أن هذا أمر محبوب عند الله، وأنه ﷺ لو جعل لهم مثل ذلك لجاز اتخاذها لحصول البركة، فطلبوه من النبي ﷺ وإلا فهم أجل قدرًا من أن يقصدوا مخالفة النبي ﷺ.

❁ قوله: «الله أكبر إنها السنن»:

أي: الله أجل وأعظم، صيغة تعجب، وإن كان إجلالًا لله وتنزيهًا له عما لا يليق بجلاله وعظمته، ومما لا يليق بجلاله وعظمته أن يتخذ شجرة يطلب منها البركة. «إنها السنن»؛ يعني: سلكتم كما سلك الذين من قبلكم السنن المذمومة، والسنن بضم السين الطرق، والمراد تقليد من تقدمهم من أهل الشرك، وفي رواية: «سبحان الله» والمراد تعظيمه تعالىٰ، وتنزيهه أن يشرك معه أحد في عبادته. وكان النبي ﷺ يستعمل التسبيح والتكبير في حال التعجب، تعظيمًا لله وتنزيهًا له سبحانه إذا سمع من أحد ما لا يليق به سبحانه، مما فيه هضم للربوبية، وتنقص في الألوهية، وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يسبح ويكبر إذا سمع ما لا ينبغي أن يقال في الدين.

❁ قوله «﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ...﴾»:

أي: اجعل لنا مثالًا نعبده كما لهم آلهة، ولم يكن ذلك شكًّا منهم في وحدانية الله تعالىٰ، وإنما معناه اجعل لنا شيئًا نعظمه، ونتقرب به إلىٰ الله. وشبهﷺ مقالتهم هذه بقول بني إسرائيل، بجامع أن كلًّا طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله، وإن اختلف اللفظان فالمعنىٰ واحد. فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة، فدل علىٰ أن التبرك بالأشجار والأحجار شرك أكبر، لتسويتهﷺ بين مقالتهم ومقالة بني إسرائيل، وحلفﷺ علىٰ ذلك وإن لم يستحلف مزيد تحذير، وكمال شفقة، وتأكيدًا لهذا الخبر وتعظيمًا له، فإن التبرك بالأشجار والأحجار يجعلها آلهة وإن لم يسموها آلهة، فما يفعله من يعتقد فيها من التبرك بها، والعكوف عندها، والذبح لها هو الشرك الأكبر وإن سمىٰ عمله ما شاء من الأسماء. فأهل هذه الأزمنة يسمون شركهم توسلًا وتشفعًا وهو من أعظم الشرك.

❁ قوله: «﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾»:

يعني عظمة الله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ [الأعراف:١٣٩]؛ أي: هالك وباطل مضمحل وزائل ما كانوا يعملونه من عبادة الأصنام، ولم يكفروا بطلبهم لأنهم حدثاء عهد بالإسلام؛ ولأنهم لم يفعلوا، وإسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، أبو الأسباط الاثني عشر، كان في القرن التاسع عشر قبل المسيح، وغالب بني إسرائيل هم اليهود، ومعنىٰ إسرائيل عبد الله، وكذا كل اسم فيه إيل.

❁ قوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم»:

بضم السين، أي: لتتبعن أنتم أيها الأمة طرق اليهود والنصارىٰ ومناهجهم وأفعالهم، ويجوز فتح السين علىٰ الإفراد، أي: طريقهم، وقد وقع كما أخبرﷺ فركبوا طرق من كان قبلهم.

وفي «الصحيحين»: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» الحديث، وفي رواية: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع»[٢٩٣]. وهو خبر معناه الذم، وفيه علم من أعلام النبوة. وأن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة، وفيه الخوف منه، وأن الإنسان قد يستحسن شيئًا يظنه يقربه إلىٰ الله وهو أبعد ما يبعده. وفيه النهي عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه، إلا ما دل الدليل علىٰ أنه من شرعنا، وأن ما ذم الله به اليهود والنصارىٰ أنه لنا، فإنما قاله لنا لنحذره، فلا يجوز التبرك بالصالحين؛ لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه مع غير النبيﷺ لا أبي بكر ولا غيره، ولا فعله التابعون مع قاداتهم في العلم والدين، وللنبيﷺ في حال حياته خصائص كثيرة، لا يصلح أن يشاركه فيها غيره، فلا يجوز أن يقاس عليه أحد من الأئمة لعدم المقاربة فضلًا عن المساواة لهﷺ في الفضل والبركة، وعدم تحقق الصلاح فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب، ولو ظننا صلاح شخص فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء؛ ولأنه لا يؤمن أن يفتنه وتعجبه نفسه، ولا يتبرك بالكعبة ولا غيرها، سدًا لذريعة الشرك، بل تنازع الفقهاء في وضع اليد علىٰ منبرهﷺ لما كان موجودًا، فكرهه مالك وغيره لأنه بدعة، وذكر أنه لما رأىٰ عطاء فعله لم يأخذ عنه العلم.

❁ **قوله:** «رواه الترمذي وصححه»:

وقال: وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة، ورواه أحمد وأبو يعلىٰ وابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن إسحاق وابن عيينة وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم بنحوه.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله:** «باب من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما»:

أي: فإن ذلك من الشرك، ومن أعمال المشركين، فإن العلماء اتفقوا علىٰ أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها. فإن هذا التبرك غلو فيها وذلك يتدرج به إلىٰ دعائها وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر، كما تقدم انطباق الحد عليه، وهذا عام في كل شيء، حتىٰ مقام إبراهيم وحجرة النبيﷺ وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة.

---

(٢٩٣) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٤٥٦)، ومسلم، كتاب: العلم باب: اتباع سنن اليهود والنصارىٰ، برقم (٢٦٦٩)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته؛ فهو روح التعبد فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذلك تعظيم للمخلوق وتأله له.

فالفرق بين الأمرين: كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[النجم:١٩-٢٢]»:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾؛ أي: هل نفعت هذه الأصنام أم ضرت، والمعنىٰ أنها لم تنفع ولم تضر، وكانوا يسألونها ويتبركون بها ويستغيثون فأبطل الإسلام ذلك. وكان العزىٰ لأهل مكة ومن سايرهم، مناة لأهل المدينة، اللات لأهل الطائف ومن نهج منهجهم وقد أزيلت هذه الأصنام يوم فتح مكة لكن أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- في الحديث قال: «**لا تذهب الليالي والأيام حتىٰ تعبد اللات والعزىٰ**»[٢٩٤].

قوله: «**عن أبي واقد الليثي قال...**»:

حديث أبي واقد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين ونحن..

قوله: «**نحن حدثاء عهد بكفر**»:

قريبو عهد بكفر، وهذا كالعذر؛ أي: ولهذا جهلنا الأمر.

«**سدرة**»: شجرة النبق.

«**يعكفون**»: يقيمون عندها.

«**ينوطون**»؛ أي: يعلقون بها أسلحتهم للتبرك والبركة التي تحصل لها علىٰ زعمهم أنها تكون أمضىٰ للسيف وأقوىٰ وأشد.

---

(٢٩٤) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتىٰ تعبد دوس ذا الخلصة، برقم (٢٩٠٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

«**اجعل ذات أنواط**»؛ أي: لنتبرك بها نعلق سيوفنا عليها للبركة.

«**الله أكبر**»: وهذا من عادته ﷺ إذا رأىٰ شيئًا ينكر قال الله أكبر أو سبحان الله وهذا من السنة أن يقول الإنسان ذلك عند الإنكار وكذلك عند الإعجاب بشيء، كما في الحديث: «**وأنتم ربع أهل الجنة**» [٢٩٥]. قالوا: فكبرنا.

«**إنها السنن**»؛ أي: عبادة الأشجار والأحجار والتبرك بها هي السنة المعروفة عند الناس السابقين؛ أي: هي طريقة الناس قديمًا ودائمًا.

«**بنو إسرائيل**»: وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وبنوه هم اليهود ومن انتسب إلىٰ إسرائيل.

«**اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة**»: هذا قاله اليهود لموسىٰ فرد عليهم موسىٰ وذكرهم بالتوحيد، وهكذا هؤلاء تأسوا بأولئك جهلًا ولم يكونوا يعرفون حكمه؛ لأنهم حدثاء عهد بكفر.

وهذا يدل علىٰ أن الاعتبار بالحقائق لا بالألفاظ؛ لأنهم طلبوا شيئًا يعظمونه ويتبركون به كما فعل بنو إسرائيل وإن اختلفت ألفاظ الفريقين فالباطل باطل وإن اختلفت الألفاظ.

«**لتركبن سنن من كان قبلكم**»: بضم السين وبفتحها. وهي الطرق.

أي: أن هذه الأمة ستبتلىٰ بما ابتليت به الجاهلية من عبادة القبور والأحجار والتبرك بها وهذا حصل. وقاله -عليه الصلاة والسلام- إخبارًا بأنه سيقع، فحذر منه وأن الواجب هو الثبات علىٰ عبادة الله وحده كما فعل الأنبياء أما التبرك بالقبور وغير الله فهذا فعل اليهود والنصارىٰ وأهل الكفر.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله**: «تبرك»:

تفعل من البركة، والبركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من البركة بالكسر، والبركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرىٰ الماء **بأمرين**:

١- الكثرة.

٢- الثبوت.

---

(٢٩٥) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، برقم (٦٥٢٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون هذه الأمة نصف أهل الجنة، برقم (٢٢١)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

والتبرك: طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

١ - أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم، مثل القرآن، قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص:٢٩]. فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح؛ فأنقذ الله بذلك أممًا كثيرة من الشرك، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفر للإنسان الوقت والجهد... إلىٰ غير ذلك من بركاته الكثيرة.

٢- أن يكون بأمر حسي معلوم، مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه؛ فهذا الرجل يتبرك بعمله ودعوته إلىٰ الخير؛ فيكون هذا بركة؛ لأننا نلنا منه خيرًا كثيرًا.

وقال أسيد بن حضير: «ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر»[(٢٩٦)]؛ فإن الله يجري علىٰ بعض الناس من أمور الخير ما لا يجريه علىٰ يد الآخر.

وهناك بركات موهومة باطلة، مثل ما يزعمه الدجالون: أن فلانًا الميت الذي يزعمون أنه ولي أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك؛ فهذه بركة باطلة، لا أثر لها، وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر، لكنها لا تعدو أن تكون آثارًا حسية، بحيث إن الشيطان يخدم هذا الشيخ؛ فيكون في ذلك فتنة.

أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة أو الصحيحة؛ فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء الله المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة؛ فإن الله قد يجعل علىٰ يديه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره.

ومن ذلك ما جعل الله علىٰ يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التي انتفع بها الناس في حياته وبعد موته.

أما إن كان مخالفًا للكتاب والسنة، أو يدعو إلىٰ باطل؛ فإن بركته موهومة، وقد تضعها الشياطين له مساعدة علىٰ باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أنه يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلىٰ بلده ويضحي مع أهل بلده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات، منها: عدم إتمام الحج، ومنها أنهم يمرون بالميقات ولا يحرمون منه[(٢٩٧)].

---

(٢٩٦) أخرجه البخاري، كتاب: التيمم، برقم (٣٣٤)، ومسلم، كتاب: الحيض، باب: التيمم، برقم (٣٦٧) وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢٩٧) ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٨٣).

قوله: «**شجر**»، اسم جنس، فيشمل أي شجرة تكون، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما رأى الناس ينتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها.

قوله: «**وحجر**»، اسم جنس يشمل أي: حجر كان حتى الصخرة التي في بيت المقدس؛ فلا يتبرك بها، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به، وإنما يتعبد الله بمسحه وتقبيله؛ اتباعًا للرسول ﷺ، وبذلك تحصل بركة الثواب.

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «**إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك، ما قبلتك**»[٢٩٨].

فتقبيله عبادة محضة خلافًا للعامة، يظنون أن به بركة حسية، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبركًا بذلك.

قوله: «**ونحوهما**»؛ أي: من البيوت، والقباب، والحجر؛ حتى حجرة قبر النبي ﷺ؛ فلا يتمسح بها تبركًا، لكن لو مسح الحديد لينظر هل هو أملس أو لا، فلا بأس، إلا إن خشي أن يُقتدى به؛ فلا يمسحه.

قوله: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴾[النجم:١٩]:

لما ذكر الله تعالى المعراج بقوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ...﴾[النجم:١، ٢]، قال: ﴿ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴾ [النجم ١٨] أي: رأى النبي ﷺ من آيات الله الكبرى. وقد اختلف العلماء في قوله: ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾: هل هي مفعول لـ ﴿رَأَىٰ﴾، أو صفة لـ ﴿ءَايَٰتِ﴾؟

وقوله: ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ قيل: أنها مفعول: لـ﴿رَأَىٰ﴾، والتقدير: لقد رأى من آيات الله الكبرى.

فعلى الأول: يكون المعنى: أنه رأى الكبرى من الآيات.

وعلى الثاني: يكون المعنى أنه رأى بعض الآيات الكبرى، وهذا هو الصحيح، أن الكبرى صفة لـ ﴿ءَايَٰتِ﴾، وليست مفعولًا لـ ﴿رَأَىٰ﴾، إذ إن ما رآه ليس أكبر آيات الله.

وبعد أن ذكر الله ما رأى النبي ﷺ من هذه الآيات، قال: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾؛ أي: أخبروني ما شأنها، وما حالها بالنسبة إلى هذه الآيات العظيمة، إنها ليست بشيء. والاستفهام: للاستخفاف والاستهجان بهذه الأصنام.

---

(٢٩٨)سبق تخريجه.

قوله: ﴿ٱللَّٰتَ﴾، تقرأ بتشديد التاء وتخفيفها، والتشديد قراءة ابن عباسٍ، فعلىٰ قراءة التشديد تكون اسم فاعل من ﴿ٱللَّٰتَ﴾، وكان هذا الصنم أصله رجل يَلتّ السويق للحجاج؛ أي: يجعل فيه السمن، ويطعمه الحجاج، فلما مات عكفوا علىٰ قبره وجعلوه صنمًا.

وأما علىٰ قراءة التخفيف؛ فإن اللات مشتقة من الله، أو من الإله؛ فهم اشتقوا من أسماء الله اسمًا لهذا الصنم، وسموه اللات، وهي لأهل الطائف ومن حولهم من العرب.

وقوله: ﴿وَٱلۡعُزَّىٰ﴾، مؤنث أعز، وهو صنم يعبده قريش وبنو كنانة مشتق من اسم الله العزيز كان بنخلة بين مكة والطائف.

قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ﴾، قيل: مشتقة من المنان، وقيل: من منىٰ؛ لكثرة ما يمنىٰ عنده من الدماء بمعنىٰ يراق، ومنه سميت منىٰ؛ لكثرة ما يراق فيها من الدماء.

وكان هذا الصنم بين مكة والمدينة لهذيل وخزاعة، وكان الأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج.

قوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾: إشارة إلىٰ أن التي تعظمونها، وتذبحون عندها، وتكثر إراقة الدماء حولها: أنها أخرىٰ بمعنىٰ متأخرة؛ أي: ذميمة حقيرة، مأخوذة من قولهم: فلان آخر؛ أي: ذميم، حقير، متأخر.

فهذه الأصنام الثلاثة المعبودة عند العرب ما حالها بالنسبة لما رأىٰ النبيﷺ؟ لا شيء، وإنما ذكر هذه الأصنام الثلاثة؛ لأنها اشهر الأصنام وأعظمها عند العرب.

قوله: ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: أكمل الآيات بعدها.

قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾، هذا أيضًا استفهام إنكاري علىٰ المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين، فإذا ولد لهم الذكر فرحوا واستبشروا به، وإذا ولدت الأنثىٰ ظل وجه الإنسان منهم مسودًا، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بنات الله؛ فيجعلون البنات لله -والعياذ بالله- ولهم ما يشتهون.

قوله: ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾، ضيزىٰ: جائرة؛ لأنه علىٰ الأقل إذا أردتم القسمة، فاجعلوا لكم من البنات نصيبًا، واجعلوا لله من البنين نصيبًا، أما أن تجعلوا ما تختارونه لأنفسكم، وهم البنون، وتجعلون ما تكرهون لله، فهذه قسمة جائرة.

قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم:٢٣]، الضمير في ﴿هِيَ﴾ يعود إلى الأصنام؛ أي: هذه الأصنام «اللات والعزى ومناة» التي سميتموها آلهة واتخذتموها آلهة تعبدونها هي مجرد أسماء سميتموها، ولكن ما أنزل الله بها من سلطان؛ أي: من حجة ودليل.

بل أبطلها الله -سبحانه- قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

وأصل السلطان في اللغة العربية: ما به سلطة، فإن كان في مقام العلم، فهو العلم، وإن كان في مقام القدرة؛ فهو القدرة، وإن كان في مقام الأمر والنهي؛ فهو من له الأمر والنهي، فمثلًا قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن:٣٣]؛ أي: بقدرة وقوة، ومثل قوله تعالى: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم:٢٣]؛ أي: من حجة وبرهان.

وفي الحديث: «**السلطان ولي من لا ولي له**»[٢٩٩]؛ أي: من له الأمر والنهي.

قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾: ﴿إِن﴾: هنا بمعنى ما، وعلامة إن التي بمعنى ما أن تأتي بعدها إلا، قال تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]؛ يعني: ما هذا إلا ملك كريم، وقال تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]؛ أي: ما هذا إلا قول البشر، وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [النجم:٢٣]؛ أي: ما يتبعون إلا الظن.

والظن الذي يتبعونه هو أنها آلهة، وأن لله البنات ولهم البنون، والظن لا يغني من الحق شيئًا، كما قال تعالى في آية أخرى.

قوله: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾، كذلك أيضًا يتبعون ما تهوى الأنفس، وهذا أضر شيء على الإنسان أن يتبع ما يهوى؛ فالإنسان الذي يعبد الله بالهوى؛ فإنه لا يعبد الله حقًّا، إنما يعبد عقله وهواه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]، لكن الذي يعبد الله بالهدى لا بالهوى هو الذي على الحق.

---

(٢٩٩) أخرجه أبو داود، كتاب: النكاح، باب: في الولي، برقم (٢٠٨٣)، والترمذي، كتاب: النكاح، باب: لا نكاح إلا بولي، برقم (١١٠٢)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾[النجم:٢٣]؛ أي: على يد النبي ﷺ، فكان الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى.

مناسبة الآية للترجمة:

أنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تنفعهم وتضرهم، ولهذا يأتون إليها؛ يدعونها، ويذبحون لها، ويتقربون إليها، وقد يبتلي الله المرء فيحصل له ما يريد من اندفاع ضر أو جلب نفع بهذا الشرك؛ ابتلاء من الله وامتحانًا، وهذا قد تقدم لنا له نظائر أن الله يبتلي المرء بتيسير أسباب المعصية له حتى يعلم سبحانه من يخافه بالغيب.

قوله: «خرجنا مع النبي ﷺ»:

أي: بعد غزوة الفتح؛ لأن النبي ﷺ لما فتح مكة تجمعت له ثقيف وهوازن بجمع عظيم كثير جدًّا.

فقصدهم ﷺ ومعه اثنا عشر ألفًا: ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف جاء بهم من المدينة، فلما توجهوا بهذه الكثرة العظيمة؛ قالوا: لن نغلب اليوم من قلة. فأُعجبوا بكثرتهم، ولكن بين الله أن النصر من عنده سبحانه وليس بالكثرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ...﴾ [التوبة:٢٥]الآيتين، ثم لما انحدروا من وادي حنين وجدوا أن المشركين قد كمنوا لهم في الوادي؛ فحصل ما حصل، وتفرق المسلمون عن رسول الله ﷺ، ولم يبق معه إلا نحو مائه رجل، وفي آخر الأمر كان النصر للنبي ﷺ والحمد لله.

قوله: «**حدثاء**»: جمع حديث؛ أي: أننا قريبو عهد بكفر، وإنما ذكر ذلك رضي الله عنه للاعتذار لطلبهم وسؤالهم، ولو وقر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال.

قوله: «**يعكفون عندها**»؛ أي: يقيمون عليها، والعكوف: ملازمة الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧]

قوله: «**ينوطون**»؛ أي: يعلقون بها أسلحتهم تبركًا.

قوله: «**يقال: لها ذات أنواط**»؛ أي: أنها تلقب بهذا اللقب؛ لأنه تناط فيها الأسلحة، وتعلق عليها رجاء بركتها؛ فالصحابة رضي الله عنهم قالوا للنبي ﷺ اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»؛ أي: سدرة نعلق أسلحتنا عليها تبركًا بها، فقال النبي ﷺ «**الله أكبر**» كبر تعظيمًا لهذا الطلب؛ أي: استعظامًا له، وتعجبًا لا فرحًا به، كيف يقولون هذا القول وهم آمنوا بأنه لا إله إلا الله؟!

لكن: «إنها السنن»؛ أي: الطرق التي يسلكها العباد.

قوله: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[الأعراف:١٣٨]»؛ أي: إن الرسول ﷺ قاس ما قاله الصحابة رضي الله عنهم علىٰ ما قاله بنو إسرائيل لموسىٰ حين قالوا: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، فأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده» المراد أن نفسه بيد الله، لا من جهة إماتتها وإحيائها فحسب، بل من جهة تدبيرها وتصريفها أيضًا، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها سبحانه وتعالىٰ.

قوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم»؛ أي: لتفعلن مثل فعلهم، ولتقولن مثل قولهم، وهذه الجملة لا يراد بها الإقرار، وإنما يراد بها التحذير؛ لأنه من المعلوم أن سنن من كان قبلنا مما جرىٰ تشبيهه سنن ضالة، حيث طلبوا آلهة مع الله؛ فأراد النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يحذر أمته أن تركب سنن من كان قبلها من الضلال والغي.

والشاهد من هذا الحديث قولهم: «اجعل لنا ذات أنواط كمالهم ذات أنواط»(٣٠٠)، فأنكر عليهم النبي ﷺ.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير آية النجم؛ أي: قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ...﴾[النجم:١٩-٢٣]الآية، وسبق تفسيرها، وأن الله تعالىٰ أنكر علىٰ هؤلاء الذين يعبدون اللات والعزىٰ، وأتىٰ بصيغة الاستفهام الدالة علىٰ التحقير والتصغير لهذه الأصنام.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا: وهو أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما أن للمشركين ذات أنواط، وهم إنما أرادوا أن يتبركوا بهذه الشجرة لا أن يعبدوها؛ فدل ذلك علىٰ أن التبرك بالأشجار ممنوع، وأن هذا من سنن الضالين السابقين من الأمم.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا؛ أي: لم يعلقوا أنواطًا علىٰ الشجرة، ويطلبوا من الرسول ﷺ أن يقرهم علىٰ هذا العمل، بل طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذلك.

---

(٣٠٠)أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، برقم (٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨)، وغيرهما من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٥٤٠٨).

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه: «بذلك»؛ أي: بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التي يعينها الرسول ﷺ ولهذا طلبوا ذلك من الرسول لتكتسب بهذا معنى العبادة.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا، فغيرهم أولى بالجهل؛ لأن الصحابة لا شك أعلم الناس بدين الله، فإذا كان الصحابة يجهلون أن التبرك بهذا نوع من اتخاذها إلهًا، فغيرهم من باب أولى، وقصد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا أن لا نغتر بعمل الناس؛ لأن عمل الناس؛ قد يكون عن جهل، فالعبرة بما دل عليه الشرع لا بعمل الناس.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم: وهذا معلوم من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]؛ فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة وأسباب المغفرة ما ليس لغيرهم، ومع ذلك لم يعذرهم النبي ﷺ بهذا الطلب.

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: «الله أكبر: إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم»؛ فغلظ الأمر بهذه الثلاث، وهي قوله: «الله أكبر»، وقوله: «إنها السنن»، وقوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم»؛ فغلّظ الأمر بهذا؛ لأن التكبير استعظامًا للأمر الذي طلبوه، و«إنها السنن»: تحذير، و«لتركبن سنن من كان قبلكم» كذلك أيضًا تحذير.

الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. فهؤلاء طلبوا سدرة يتبركون بها كما يتبرك المشركون بها، وأولئك طلبوا إلهًا كما لهم آلهة، فيكون في كلا الطلبين منافاة للتوحيد؛ لأن التبرك بالشجر نوع من الشرك، واتخاذه إلهًا شرك واضح.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى: لا إله إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك؛ أي: أن نفي التبرك بالأشجار ونحوها من معنى لا إله إلا الله، فإن لا إله إلا الله تنفي كل إله سوى الله، وتنفي الألوهية عما سوى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فكذلك البركة لا تكون من غير الله سبحانه وتعالى.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة؛ أي: أن النبي ﷺ حلف على الفتيا في قوله: «قلتم، والذي نفسي بيده»، والنبي ﷺ لا يحلف إلا لمصلحة، أو دفع مضرة ومفسدة؛ فليس ممن يحلف على أي: سبب يكون، كما هي عادة بعض الناس.

الحادية عشرة: **أن الشرك فيه أصغر وأكبر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا**، حيث لم يطلبوا جعل ذات الأنواط لعبادتها، بل للتبرك بها، والشرك فيها أصغر وأكبر، وفيه خفي وجلي.

فالشرك الأكبر: ما يخرج الإنسان من الملة.

والشرك الأصغر: ما دون ذلك.

لكن كلمة «ما دون ذلك» ليست ميزانًا واضحًا. ولذلك اختلف العلماء في ضابط الشرك الأصغر على قولين:

القول الأول: أن الشرك الأصغر كل شيء أطلق الشارع عليه أنه شرك ودلت النصوص على أنه ليس من الأكبر، مثل: «**من حلف بغير الله؛ فقد أشرك**»(٣٠١) فالشرك هنا أصغر؛ لأنه دلت النصوص على أن مجرد الحلف بغير الله لا يخرج من الملة.

القول الثاني: أن الشرك الأصغر: ما كان وسيلة للأكبر، وإن لم يطلق الشرع عليه اسم الشرك، مثل: أن يعتمد الإنسان على شيء كاعتماده على الله، لكنه لم يتخذه إلهًا، فهذا شرك أصغر؛ لأن هذا الاعتماد الذي يكون كاعتماده على الله يؤدي به في النهاية إلى الشرك الأكبر، وهذا التعريف أوسع من الأول؛ لأن الأول يمنع أن تطلق على شيء أنه شرك إلا إذا كان لديك دليل، والثاني يجعل كل ما كان وسيلة للشرك فهو شرك، وربما نقول على هذا التعريف: إن المعاصي كلها شرك أصغر؛ لأن الحامل عليها الهوى، وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الجاثية:٢٣]، ولهذا أطلق النبي ﷺ الشرك على تارك الصلاة، مع أنه لم يشرك؛ فقال: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر: ترك الصلاة**»(٣٠٢).

فالحاصل: أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا، وسبق وجه ذلك.

---

(٣٠١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأيمان والنذور، باب: كراهية الحلف بالآباء، برقم (٣٢٥١)، والترمذي، كتاب: النذور والأيمان، باب: كراهية الحلف بغير الله، برقم (١٥٣٥) وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣٠٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، برقم (٨٢)، وغيره من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الجلي والخفي؛ فبعضهم قال: إن الجلي والخفي هو الأكبر والأصغر، وبعضهم قال: الجلي ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر؛ كالحلف بغير الله، والسجود للصنم.

والخفي: ما لا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر؛ كالرياء، واعتقاد أن مع الله إلهًا آخر.

وقد يقال: إن الجلي ما انجلىٰ أمره وظهر كونه شركًا، ولو كان أصغر، والخفي: ما سوىٰ ذلك.

وأيهما الذي لا يغفر؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الشرك لا يغفره الله لو كان أصغر؛ لعموم قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:١١٦] و﴿أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ مؤول بمصدر تقديره: شركًا به، وهو نكرة في سياق النفي؛ فيفيد العموم.

وقال بعض العلماء: إن الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة، وإن المراد بقوله: ﴿أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ الشرك الأكبر، وأما الشرك الأصغر؛ فإنه يغفر؛ لأنه لا يخرج من الملة، وكل ذنب لا يخرج من الملة، فإنه تحت المشيئة، وعلىٰ كل، فصاحب الشرك الأصغر علىٰ خطر، وهو أكبر من كبائر الذنوب، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لأنْ أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا».

الثانية عشرة: قوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر...»؛ معناه: أنه يعتذر عما طلبوا، حيث طلبوا أن يجعل لهم ذات أنواط؛ فهم يعتذرون لجهلهم بكونهم حدثاء عهد بكفر، وأما غيرهم ممن سبق إسلامه؛ فلا يجهل ذلك.

وعلىٰ هذا؛ فنقول: إنه ينبغي للإنسان أن يقدم العذر عن قوله أو فعله حتىٰ لا يعرض نفسه إلىٰ القول أو الظن بما ليس فيه، ويدل لذلك حديث صفية حين شيعها الرسول ﷺ وهو معتكف، فمر رجلان من الأنصار، فقال: «**إنها صفية بنت حيي**»[٣٠٣].

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب... إلخ، تؤخذ من قوله: «**الله أكبر**»؛ أي: الله أكبر وأعظم من أن يشرك به، وفي رواية الترمذي أنه قال: «**سبحان الله**»؛ أي: تنزيهًا لله عما لا يليق به.

---

(٣٠٣) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتكاف، باب: هل يخرج المعتكف لحوائجه إلىٰ باب المسجد، برقم (٢٠٣٥)، من حديث صفية بنت حيي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الرابعة عشرة: سد الذرائع: الذرائع: الطرق الموصلة إلى الشيء، وذرائع الشيء: وسائله وطرقه.

والذرائع نوعان:

أ - ذرائع إلى أمور مطلوبة؛ فهذه لا تسد، بل تفتح وتطلب.

ب - ذرائع إلى أمور مذمومة؛ فهذه تسد، وهو مراد المؤلف رحمه الله تعالى.

وذات الأنواط وسيلة إلى الشرك الأكبر، فإذا وضعوا عليها أسلحتهم وتبركوا بها، يتدرج بهم الشيطان إلى عبادتها وسؤالهم حوائجهم منها مباشرة؛ فلهذا سد النبي ﷺ الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية، تؤخذ من قوله: «**قلتم كما قالت بنو إسرائيل**»؛ فأنكر عليهم، وبهذا نعرف أن الجاهلية لا تختص بمن كان قبل زمن النبي ﷺ، بل كل من جهل الحق وعمل عمل الجاهلين؛ فهو من أهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم، والحديث ليس بصريح في ذلك، وربما يؤخذ من قرائن قوله: «**الله أكبر إنها السنن...**»؛ لأن قوة هذا الكلام تفيد الغضب.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن»؛ أي: الطرق وأن هذه الأمة ستتبع طرق من كان قبلها، وهذا لا يعني الحِلَّ والإباحة، ولكنه للتحذير، كما قال الرسول ﷺ: «**ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة**»[٣٠٤] وقال: «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير...**»[٣٠٥] الحديث، وقال: «**إن الظعينة تذهب من كذا إلى كذا لا تخشى إلا الله**»[٣٠٦] وما أشبه ذلك من الأمور التي أخبر النبي ﷺ عن وقوعها مع تحريمها.

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر؛ يعني: اتباع سنن من كان قبلنا.

---

(٣٠٤) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: شرح السنة، برقم (٤٥٩٦)، والترمذي، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة، برقم (٢٦٤٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣٠٥) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، كتاب: الأشربة، باب: ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، برقم (٥٥٩٠) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٣٠٦) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٥٩٥)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

فإن قال قائل: إن النبي ﷺ قد خطب الناس بعرفة، وقال: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب**»(٣٠٧) فكيف تقع عبادته.

فالجواب: أن إخبار النبي ﷺ بيأسه لا يدل على عدم الوقوع، بل يجوز أن يقع، على خلاف ما توقعه الشيطان؛ لأن الشيطان لما حصلت الفتوحات، وقوي الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، يئس أن يعبد سوى الله في هذه الجزيرة، ولكن حكمة الله تأبى إلا أن يكون ذلك، وهذا نقوله ولا بد؛ لئلا يقال: إن جميع الأفعال التي تقع في الجزيرة العربية لا يمكن أن تكون شركًا، ومعلوم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ جدد التوحيد في الجزيرة العربية، وأن الناس كانوا في ذلك الوقت فيهم المشرك وغير المشرك.

فالحديث أخبر عما وقع في نفس الشيطان ذلك الوقت، ولكنه لا يدل على عدم الوقوع، وهذا الرسول ﷺ يقول: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»، وهو يخاطب الصحابة وهم في جزيرة العرب.

التاسعة عشرة: أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا، هذا ليس على إطلاقه وظاهره، بل يحمل قوله: «لنا»؛ أي: لبعضنا، ويكون المراد به المجموع لا الجميع، كما قال العلماء في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرسل كانوا من الإنس فقط. فإذا وقع تشبه باليهود والنصارى؛ فإن الذم الذي يكون لهم يكون لنا، وما من أحد من الناس غالبًا إلا وفيه شبه باليهود أو النصارى؛ فالذي يعصي الله على بصيرة فيه شبه من اليهود، والذي يعبد الله على ضلالة فيه شبه من النصارى، والذي يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فيه شبه من اليهود، وهلم جرًّا.

وإن كان يقصد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا بد أن يكون في الأمة خصلة؛ فهذا على إطلاقه وظاهره؛ لأنه قل من يسلم.

وإن أراد أن كل ما ذم به اليهود والنصارى؛ فهو لهذه الأمة على سبيل العموم، فلا.

العشرون: «**أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر... إلخ**»، وهذا واضح؛ فالعبادات مبناها على الأمر، فما لم يثبت فيه أمر الشارع؛ فهو بدعة، قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا، فهو رد**»(٣٠٨) وقال: «**إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»(٣٠٩).

---

(٣٠٧) أخرجه مسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان...، برقم (٢٨١٢)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣٠٨) أخرجه البخاري، كتاب: الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة...، برقم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣٠٩) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة، برقم (٤٦٠٧)، والترمذي، كتاب: العلم، باب: الأخذ بالسنة، برقم (٢٦٧٦)، وغيرهما من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فمن تعبد بعبادة طولب بالدليل؛ لأن الأصل في العبادات الحظر والمنع، إلا إذا قام الدليل علىٰ مشروعيتها.

وأما الأكل والمعاملات والآداب واللباس وغيرها؛ فالأصل فيها الإباحة، إلا ما قام الدليل علىٰ تحريمه.

وقوله: «**مسائل القبر التي يسأل فيها الإنسان في قبره: من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟**».

ففي هذه القصة دليل علىٰ مسائل القبر الثلاث، وليس مراده أن فيها دليلًا علىٰ أن الإنسان يُسأل في قبره، بل فيها دليل علىٰ إثبات الربوبية والنبوة والعبادة.

أما «**من ربك**»، فواضح؛ يعني: أنه لا رب إلا الله تعالىٰ.

وأما «**من نبيك**» فمن إخباره بالغيب قالﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**»[٣١٠] فوقع كما أخبر.

أما «**ما دينك**»، فمن قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾؛ أي: مألوهًا معبودًا، والعبادة هي الدين.

والمؤلف محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فهمه دقيق جدًّا لمعاني النصوص؛ فأحيانًا يصعب علىٰ الإنسان بيان وجه استنباط المسألة من الدليل.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين، تؤخذ من قوله: «**كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ**».

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة، وهذا صحيح، فالإنسان المنتقل من شيء، سواء كان باطلًا أو لا، لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية منه، وهذه البقية لا تزول إلا بعد مدة، لقول: «**ونحن حدثاء عهد بكفر**»؛ فكأنه يقول: ما سألناه إلا لأن عندنا بقية من بقايا الجاهلية، ولهذا كان من الحكمة تغريب الزاني بعد جلده عن مكان الجريمة؛ لئلا يعود إليها.

فالإنسان ينبغي أن يبتعد عن مواطن الكفر والشرك والفسوق؛ حتىٰ لا يقع في قلبه شيء منها.

---

(٣١٠) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥)، والطبراني، برقم (٧١٤٠)، والطيالسي في «مسنده»، برقم (١١٢١)، ومسند ابن الجعد، برقم (٣٤٢٤)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه استمرار في ذكر الشركيات المنافية للتوحيد، أو كماله.

«تبرك»: التبرك: طلب البركة ورجاؤها واعتقادها.

«ونحوهما»: ما أشبههما من بقعة أو مغارة أو قبر أو مشهدٍ أو أثرٍ.

❁ **قوله**: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾:

أخبروني عن هذه الأصنام هل نفعت أو ضرَّت.

﴿ٱللَّٰتَ﴾: قرئ بتخفيف التاء وقرئ بتشديدها فعلى القراءة الأولى هي: اسم صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف وعلى القراءة الثانية: هي اسم فاعلٍ من لَتَّ. لرجل كان يلت السويق للحاج[٣١١] فمات فعكفوا على قبره.

﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾: شجرة سمر قد بُنِيَ حولها وجعل له أستار بين مكة والطائف.

﴿وَمَنَوٰةَ﴾: صنم بالمشلل بين مكة والمدينة.

﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾: ذم لها بالتأخر؛ أي: المتأخرة الوضيعة المقدار.

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾: تجعلون لكم ما تحبون وهو الذكر.

﴿وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾: تجعلون له الإناث حيث تقولون: الملائكة بنات الله.

﴿ضِيزَىٰٓ﴾: جور وباطل.

﴿أَسْمَآءٌ﴾: مجرد تسمية.

﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾: من تلقاء أنفسكم.

﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: من حجة وبرهانٍ على ألوهيتها.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾: ما يتبعون؛ أي: ليس لهم مستند.

﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي: حسن ظنهم بآبائهم.

---

(٣١١) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: «سورة النجم»، برقم (٤٨٥٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا.

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾: حظوظ أنفسهم في الرئاسة.

﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾: إرسال الرسل بالحجة الواضحة والحق المنير.

المعنىٰ الإجمالي للآيات:

يحاج تعالىٰ المشركين في عبادتهم ما لا يعقل من هذه الأوثان ماذا أجدتهم ويوبخهم علىٰ جورهم في القسمة حيث نزهوا أنفسهم عن الإناث وجعلوها لله. ثم يطالبهم بالبرهان علىٰ صحة عبادة هذه الأصنام ويبين أن الظن ورغبة النفوس لا يكونان حجة علىٰ هذا المطلب، وإنما الحجة في ذلك ما جاءت به الرسل من البراهين الواضحة والحجج القاطعة علىٰ وجوب عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام.

مناسبة الآيات للباب:

أن فيها تحريم التبرك بالأشجار والأحجار واعتباره شركًا، فإن عُبَّاد هذه الأصنام المذكورة إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها. فالتبرك بالقبور كالتبرك باللات وبالأشجار والأحجار كالتبرك بالعزىٰ ومناة.

ما يستفاد من الآيات:

١- أنَّ التبرك بالأشجار والأحجار شرك.

٢- مشروعية مجادلة المشركين لإبطال الشرك وتقرير التوحيد.

٣- أنَّ الحكم لا يثبت إلاَّ بدليل مما أنزل الله لا مجرد الظنِّ وهوىٰ النفس.

٤- أنَّ الله قد أقام الحجة بما أرسل من الرسل وأنزل من الكتب.

✿ **قوله: «أبو واقدٍ الليثي»:**

هو الحارث بن عوف صحابيٌّ مشهور مات سنة ٦٨هـ وله ٨٥ سنة.

«حنين»: وادٍ يقع شرقي مكة بينه وبينها بضعة عشر ميلًا، قاتل فيه رسول الله ﷺ قبيلة هوازن.

«حدثاء عهد بكفرٍ»: قريب عهدنا بالكفر.

«يعكفون»: يقيمون عندها ويعظمونها ويتبركون بها.

«ينوطون بها أسلحتهم»: يعلقونها عليها للبركة.

«أنواط»: جمع نوط: وهو مصدر سُمي به المنوط، سميت بذلك لكثرة ما يناط بها من السلاح لأجل التبرك.

«اجعل لنا ذات أنواطٍ»: سألوه أن يجعل لهم مثلها.

«الله أكبر»: أجل وأعظم، صيغة تعجب.

«السنن»: بضم السين: الطرق؛ أي: سلكتم كما سلك من قبلكم الطرق المذمومة.

«إسرائيل»: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام.

«سنن من كان قبلكم»: بضم السين طُرقُهُم ويجوز فتح السين بمعنىٰ طريقهم.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر أبو واقدٍ عن واقعة فيها عجب وموعظة وهي أنهم غزوا مع رسول الله ﷺ قبيلة هوازن وكان دخولهم في الإسلام قريبًا فخفي عليهم أمر الشرك، فلما رأوا ما يصنع المشركون من التبرك بالشجرة طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم شجرة مثلها، فكبَّر النبي ﷺ استنكارًا وتعظيمًا لله وتعجبًا من هذه المقالة. وأخبر أن هذه المقالة تشبه مقالة قوم موسىٰ له لَمَّا رأوا من يعبد الأصنام: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وأن هذا جريان علىٰ طريقتهم. ثم أخبر ﷺ أنَّ هذه الأمة ستتبع طريق اليهود والنصارىٰ وتسلك مناهجهم وتفعل أفعالهم وهو خبر معناه الذم والتحذير من هذا الفعل.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه دليلًا علىٰ أنَّ التبرك بالأشجار وغيرها شرك وتأليه مع الله.

ما يستفاد من الحديث:

١- أنَّ التبرك بالأشجار شرك ومثلها الأحجار وغيرها.

٢- أنَّ المنتقل من الباطل الذي اعتاده لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة.

٣- أنَّ سبب عبادة الأصنام هو تعظيمها والعكوف عندها والتبرك بها.

٤- أنَّ الإنسان قد يستحسن شيئًا يظنه يقربه إلىٰ الله وهو يبعده عنه.

٥- أنه ينبغي للمسلم أن يسبح ويكبر إذا سمع ما لا ينبغي أن يقال في الدين وعند التعجب.

٦- الإخبار عن وقوع الشرك في هذه الأمة وقد وقع.

٧- علم من أعلام نبوته ﷺ حيث وقع الشرك في هذه الأمة كما أخبر ﷺ.

٨- النهي عن التشبه بأهل الجاهلية واليهود والنصارىٰ، إلا ما دلَّ الدليل علىٰ أنهَّ من ديننا.

٩- أنَّ الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء؛ لأن النبي ﷺ جعل طلبتهم كطلبة بني إسرائيل ولم يلتفت إلىٰ كونهم سمّوها ذات أنواطٍ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: «**باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما**»:

يعني: ما حكم هذا الفعل؟

الجواب: هو مشرك يعني: باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما فهو مشرك.

وقوله: «**من تبرك**»: التبرك تفعُّل من البركة، وهو طلب البركة.

والبركة مأخوذة من حيث الاشتقاق من مادة (بروك)، أو من كلمة (بركة)، أما اشتقاقها من البروك: فبروك البعير يدل علىٰ ملازمته وثبوته في ذلك المكان، وأما اشتقاقها من البركة: فالبركة هي: مجتمع الماء، وهي تدل علىٰ كثرة الماء في هذا الموضع، وعلىٰ لزومه له، وعلىٰ ثبوته فيه.

فيكون معنىٰ البركة - إذًا -: كثرة الشيء الذي فيه الخير، وثباته، ولزومه، فالتبرك هو: طلب الخير الكثير، وطلب ثباته، وطلب لزومه، فتبرّك، يعني: طلب البركة.

والنصوص في القرآن والسنة دلت علىٰ أن البركة من الله -جل وعلا- وأن الله -جل وعلا- هو الذي يبارك، وأنه لا أحد من الخلق يبارك أحدًا، قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] يعني: عَظُمَ خير من نزّل الفرقان علىٰ عبده، وكثر، ودام، وثبت. وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٣] وقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣١] فالذي يبارك هو الله -جل وعلا-، فلا يجوز للمخلوق أن يقول: باركت علىٰ الشيء، أو أبارك فعلكم؛ لأن البركة وكثرة الخير ولزومه، وثباته، إنما ذلك من الذي بيده الأمر، وهو الله - عز وجل -.

وقد دلت النصوص في الكتاب والسنة علىٰ أن الأشياء التي أحل الله -جل وعلا- البركة فيها قد تكون أمكنة أو أزمنة؛ وقد تكون مخلوقات آدمية، فهذان قسمان :

القسم الأول: أن الله - تعالىٰ - بارك بعض الأماكن كبيت الله الحرام، وحول بيت المقدس، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الإسراء: ١] ومعنىٰ كون الأرض مباركة: أن يكون فيها الخير الكثير اللازم الدائم لها؛ ليكون ذلك أشجع في أن يُلازمها أهلها الذين دُعُوا إليها، وهذا لا يعني - أبدًا - أن يُتَمَسَّح بأرضها، أو أن يُتَمَسَّح بحيطانها؛ لأن بركتها لازمة لا تنتقل بالذات. فبركة الأماكن، أو بركة الأرض، ونحو ذلك، بركة لازمة لاتنتقل بالذات، يعني: أنك إذا لامَسْتَ الأرض، أو دُفنتَ فيها، أو تبركْتَ بها، فإن بركتها لا تنتقل إليك بالذات، وإنما بركتها من جهة المعنىٰ فقط.

كذلك بيت الله الحرام هو مبارك لا من جهة ذاته، يعني: ليس كما يعتقد البعض أن من تمسح به انتقلت إليه البركة وإنما هو مبارك من جهة المعنىٰ، يعني: اجتمعت فيه البركة التي جعلها الله في هذه البنية، من جهة: تعلق القلوب بها، وكثرة الخير الذي يكون لمن أرادها، وأتاها، وطاف بها، وتعبد عندها، وكذلك الحجر الأسود هو حجر مبارك، ولكن بركته لأجل العبادة، يعني أن من استلمه تعبدًا مطيعًا للنبي ﷺ في استلامه له، وفي تقبيله، فإنه يناله به بركة الاتباع. وقد قال عمر رضي الله عنه لما قبّل الحجر: «**إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر**»(٣١٢) فقوله: لا تنفع ولا تضر، يعني لا يجلب لمن قبله شيئًا من النفع، ولا يدفع عن أحد شيئًا من الضر، وإنما الحامل علىٰ التقبيل مجرد الاتِّساء، تعبدًا لله، ولذلك قال: «.. **ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك**» فهذا معنىٰ البركة التي جعلت في الأمكنة.

وأما معنىٰ كون الزمان مباركًا - مثل شهر رمضان، أو بعض أيام الله الفاضلة - فيعني: أن من تعبد فيها، ورام الخير فيها، فإنه ينال من كثرة الثواب ما لا يناله في غيرها من الأزمنة.

---

(٣١٢) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: ما ذكر في الحجر الأسود، برقم (١٥٩٧)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، برقم (٢٥١/ ١٢٧٠) وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه

والقسم الثاني: البركة المنوطة ببني آدم، وهي البركة التي جعلها الله -جل وعلا- في المؤمنين من الناس، وعلىٰ رأسهم: سادة المؤمنين: من الأنبياء والرسل فهؤلاء بركتهم بركة ذاتية، يعني: أن أجسامهم مباركة، فالله -جل وعلا- هو الذي جعل جسد آدم مباركًا وجعل جسد إبراهيم عليه السلام مباركًا، وجعل جسد نوح مباركًا، وهكذا جسد عيسىٰ، وموسىٰ عليهم جميعًا الصلاة والسلام جعل أجسادهم جميعًا مباركة، بمعنىٰ: أنه لو تبرك أحد من أقوامهم بأجسادهم، إما بالتمسح بها، أو بأخذ عرقها، أو التبرك ببعض أشعارهم، فهذا جائز؛ لأن الله جعل أجسادهم مباركة بركة متعدية، وهكذا نبينا محمد بن عبد الله ﷺ جسده أيضًا جسد مبارك؛ ولهذا ورد في السنة أن الصحابة كانوا يتبركون بعرقه، ويتبركون بشعره،[٣١٣] وإذا توضأ اقتتلوا علىٰ وضوئه،[٣١٤] إلىٰ آخر ما ورد في ذلك؛ ذلك أن أجساد الأنبياء فيها بركة ذاتية ينتقل أثرها إلىٰ غيرهم، وهذا مخصوص بالأنبياء والرسل، أما غيرهم فلم يرد دليل علىٰ أن من أصحاب الأنبياء والرسل مَن بركتهم بركة ذاتية، حتىٰ أفضل هذه الأمة أبو بكر وعمر، فقد جاء بالتواتر القطعي: أن الصحابة والتابعين والمخضرمين لم يكونوا يتبركون بأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، كما كانوا يتبركون بشعر النبي ﷺ، أو بوضوئه، أو بنخامته، أو بعرقه أو بملابسه، ونحو ذلك، فعلمنا بهذا التواتر القطعي أن بركة أبي بكر وعمر إنما هي بركة عمل، ليست بركة ذات تنتقل كما هي بركة النبي ﷺ؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه البخاري في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال: «**إن من الشجر لَمَا بركته كبركة المسلم**»[٣١٥] فدل هذا: علىٰ أن في كل مسلم بركة، وفي «البخاري» أيضًا قول أسيد بن حضير: «**ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر**».[٣١٦] فهذه البركة التي أضيفت لكل

---

(٣١٣) أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: الماء الذي يغسل به شعر الإنسان، برقم (١٧١)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: بيان أن السنة يوم النحر...، برقم (١٣٠٥) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣١٤) أخرجه البخاري، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، برقم (٢٧٣١/ ٢٧٣٢)، وغيره من حديث المسور بن مخرمة، ومروان رضي الله عنهما.

(٣١٥) أخرجه البخاري، كتاب: الأطعمة، باب: أكل الجمار، برقم (٥٤٤٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣١٦) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذًا خليلًا»، برقم (٣٦٧٢)، ومسلم، كتاب: الحيض، باب: التيمم، برقم (١٠٨/ ٣٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

مسلم وأضيفت لآل أبي بكر، هي: بركة عمل، هذه البركة راجعة إلىٰ الإيمان، وإلىٰ العلم، والدعوة، والعمل.

فكل مسلم فيه بركة، وهذه البركة ليست بركة ذات، وإنما هي بركة عمل، وبركة ما معه من الإسلام والإيمان، وما في قلبه من الإيقان والتعظيم لله -جل وعلا- والإجلال له، والاتباع لرسوله ﷺ فهذه البركة التي في العلم، أو العمل، أو الصلاح: لا تنتقل من شخص إلىٰ آخر وعليه فيكون معنىٰ التبرك بأهل الصلاح هو الاقتداء بهم في صلاحهم، والتبرك بأهل العلم هو الأخذ من علمهم والاستفادة منه وهكذا، ولا يجوز أن يُتبرك بهم بمعنىٰ أن يُتمسح بهم، أو يُتبرك بريقهم؛ لأن أفضل الخلق من هذه الأمة وهم الصحابة لم يفعلوا ذلك مع خير هذه الأمة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وهذا أمر مقطوع به.

فمعنىٰ تبرك المشركين: أنهم كانوا يرجون كثرة الخير، ودوام الخير، ولزوم الخير وثبات الخير، بالتوجه إلىٰ الآلهة، وهذه الآلهة يكون منها: الصنم الذي من الحجارة، والقبر من التراب، ويكون منها الوثن والشجر، ويكون منها البقاع المختلفة، كالغار أو عين ماء، أو نحو ذلك، فهذه التبركات المختلفة جميعها تبركات شركية؛ ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما**» والشجر: جمع شجرة، والحجر معروف، ذلك أن المشركين كانوا يتبركون بالأشجار والأحجار، حتىٰ في أول الدعوة في هذه البلاد كانت الأشجار والأحجار التي يتبرك بها كثيرة.

قوله: «**ونحوهما**»: يعني: نحو الشجر والحجر، مثل: البقاع المختلفة، أو غار معين، أو قبر، أو عين ماء، أو نحو ذلك من الأشياء التي يعتقد فيها أهل الجهالة.

فما حكم فاعل ذلك ؟ الجواب: أنه مشرك، كما صرح به الشيخ عبد الرحمن بن حسن في شرحه «**فتح المجيد**» لباب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما حيث قال الله: (أي: فهو مشرك).

لم يفصح الشرَّاح في هذا الموضع عن نوع شرك المتبرك بالشجر والحجر هل هو شرك أكبر أو شرك أصغر؟ وإنما أدار الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ المعنىٰ في «**التيسير**» بعد أن ساق تفسير آية النجم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ [النجم: ١٩] علىٰ الاحتمالين، فقال في آخره: مناسبة الآية للترجمة: أنه إن كان التبرك شركًا أكبر فظاهر، وإن كان شركًا أصغر: فالسلف يستدلون بالآيات التي نزلت في الأكبر علىٰ الأصغر.

وتحقيق المقام: أن التبرك بالشجر، أو بالحجر أو بالقبر، أو ببقاع مختلفة، قد يكون شركًا أكبر، وقد يكون شركًا أصغر.

فيكون شركًا أكبر: إذا طلب بركتها، معتقدًا أنه بتمسحه بهذا الشجر، أو الحجر، أو القبر، أو تمرغه عليه، أو التصاقه به: يتوسط له عند الله. فإذا اعتقد فيه أنه وسيلة إلىٰ الله فهذا: اتخاذ إله مع الله -جل وعلا- وشرك أكبر، وهذا هو الذي كان يعتقده أهل الجاهلية في الأشجار والأحجار التي يعبدونها، وفي القبور التي يتبركون بها؛ يعتقدون أنهم إذا عكفوا عندها، وتمسحوا بها، أو نثروا ترابها علىٰ رءوسهم، فإن هذه البقعة، أو صاحب هذه البقعة، أو الروحانية وهي: الروح التي تخدم هذه البقعة: أنه يتوسط له عند الله -جل وعلا- فهذا الفعل - إذًا - راجع إلىٰ اتخاذ أنداد مع الله -جل وعلا-، وقد قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر: ٣].

ويكون التبرك شركًا أصغر: إذا كان يتخذ هذا التبرك بنثر التراب عليه، أو إلصاق الجسم به، أو التبرك بعين ونحوها، أسبابا لحصول البركة بدون اعتقاد أنها توصل وتقرب إلىٰ الله، يعني: أنه جعلها أسبابا فقط، كما يفعل لابس التميمة، أو الحلقة، أو الخيط؛ فكذلك هذا المتبرك، يجعل تلك الأشياء أسبابا فإذا أخذ -من هذه حاله- تراب القبر، ونثره عليه لاعتقاده أن هذا التراب مبارك، وإذا لامس جسمه فإن جسمه يتبارك به أي: من جهة السببية: فهذا شرك أصغر؛ لأنه لا يكون عبادة لغير الله -جل وعلا- وإنما اعتقد ما ليس سببًا مأذونًا به شرعًا: سببًا.

وأما إذا تمسح بها كما هي الحال الأولىٰ وتمرغ والتصق بها، لتوصله إلىٰ الله -جل وعلا-، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة؛ ولهذا قال الشيخ سليمان كما تقدم: إن كان التبرك شركًا أكبر: فظاهر في الاستدلال بالآية وإن كان شركًا أصغر: فالسلف يستدلون بما نزل في الأكبر علىٰ ما يريدون من الاستدلال، في مسائل الشرك الأصغر.

✿ **قوله:** «وقول الله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾[النجم: ١٩ - ٢٠]»:

سبق بيان أن همزة الاستفهام، إذا أتىٰ بعدها فاء: فإنه يكون بينها وبين الفاء جملة دل عليها السياق، فمن أول سورة النجم إلىٰ هذا الموضع يدل علىٰ المحذوف.

قوله: (اللات): هي صخرة بيضاء منقوشة عليها، بيت بالطائف، وما هدمت إلا بعد أن أسلمت ثقيف، أرسل إليها النبي ﷺ المغيرة بن شعبة، فهدمها، وكسرها، وحرقها بالنار، وكان عليها بيت ولها سدنة وخدم، فالمقصود: أن اللات صخرة وصفت بأنها بيضاء.

وفي قراءة ابن عباس وغيره من السلف: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّات) بتشديد التاء. فعلىٰ هذه القراءة: يكون (اللاتّ) هذا رجلًا كان يلت السويق للحاج، وفي رواية: علىٰ صخرة فعظموا تلك الصخرة، وفي رواية أخرىٰ عن السلف: أنه كان يلت لهم السويق فلما مات عكفوا علىٰ قبره،(٣١٧) فتحصل من هذا: أن اللات صخرة، فإذا قرأت: (اللاتّ) بتشديد التاء: فيكون قبرًا، أو صخرة، كان يتعبد عندها، ويتصدق ذاك الذي كان يلت السويق.

والعزىٰ: شجرة كانت بين مكة والطائف، وهي في الأصل شجرة ثم بني بناء علىٰ ثلاث سمرات، وكانت امرأة كاهنة هي التي تخدم ذلك الموضع، فلما فتح النبي ﷺ مكة أرسل إليها خالد بن الوليد، فقطع الشجرات الثلاث -السمرات الثلاث- وقتل من قتل فلما رجع وأخبر النبي ﷺ، قال له: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئًا**»، فرجع فرآه السدنة، ففروا إلىٰ الجبل، ثم رأىٰ امرأة ناشرة شعرها عريانة، وهي الكاهنة التي كانت تخدم ذلك الموضع الشركي، وتحضر الجن لإضلال الناس بذلك الموضع، فعلاها خالد بالسيف حتىٰ قتلها، فرجع للنبي ﷺ فقال: «**تلك العزىٰ**».(٣١٨) المقصود: أن العزىٰ اسم لشجرة كانت في ذلك الموضع، وكان تعلق الناس في الحقيقة بتلك الشجرة، وبالمرأة التي كانت تخدم ذلك الشرك، فلو قطعت الأشجار وبقيت المرأة، فإن المرأة ستغري الناس مرة أخرىٰ بها ستذكره لهم، أو ما تحكيه لهم، أو ما تجيب به مطالبهم عن طريق الجن، فلا يكون الشرك قد انقطع؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**تلك العزىٰ**» يعني: أن حقيقة العزىٰ هي تلك المرأة التي تغري الناس بذلك الشرك، وإلا فهي شجرة.

---

(٣١٧) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: «سورة النجم»، برقم (٤٨٥٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا.

(٣١٨) أخرجه هشام الكلبي في «الأصنام» (ص٢٥،٢٦)، وأبو يعلىٰ، برقم (٩٠٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٧٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٧٦): «أخرجه الطبراني عن أبي الطفيل وفيه يحيىٰ بن المنذر، وهو ضعيف».

وقوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، و﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ يعني: الوضيعة الحقيرة، وكانت مناة هذه أيضًا صخرة، وسميت مناة؛ لكثرة ما يمنىٰ عليها من الدماء تعظيمًا لها.[٣١٩] ووجه مناسبة الآية للترجمة: أن ما كان يفعله المشركون عند هذه الثلاث، هو عين ما يفعله المشركون في الأزمنة المتأخرة عند الأحجار، والأشجار، والغيران، والقبور ومن قرأ شيئًا مما يصنعه المشركون علم غربة الإسلام في هذه البلاد قبل هذه الدعوة، وأن الناس كانوا علىٰ شرك عظيم. وإذا تأملت أحوال ما حولك من البلاد التي ينتشر فيها الشرك وجدت من اتخاذ الأشجار والأحجار آلهة والتبرك بها الشيء الكثير، وأعظم من ذلك اتخاذ القبور آلهة يتوجه إليها، ويتعبد عندها.

قوله: «عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال: لها ذات أنواط...»:

وهذا الحديث حديث صحيح عظيم، وفيه: أن المشركين كانت لهم سدرة لهم فيها اعتقاد.

واعتقادهم فيها كان يشمل ثلاثة أشياء :

الأول: أنهم كانوا يعظمونها.

الثاني: أنهم كانوا يعكفون عندها.

الثالث: أنهم كانوا ينوطون بها الأسلحة رجاء انتقال البركة من الشجرة إلىٰ السلاح، حتىٰ يكون أمضىٰ، وحتىٰ يكون خيره لحامله أكثر.

وفعلهم هذا شرك أكبر؛ لأنهم عظموها وعكفوا عندها، والعكوف عبادة؛ وهو: ملازمة الشيء علىٰ وجه التعظيم والقربة؛ ولأنهم طلبوا منها البركة، فصار شركهم شركًا أكبر لأجل هذه الثلاث مجتمعة.

وبعض الصحابة رضوان الله عليهم ممن كانوا حديثي عهد بكفر وهم الذين قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، ظنوا أن هذا لا يدخل في الشرك، وأن كلمة التوحيد لا تهدم بهذا الفعل؛ لهذا قال العلماء: قد يغيب عن بعض الفضلاء بعض مسائل الشرك؛ لأن الصحابة

---

(٣١٩) انظر: البخاري(٤٨٦١).

وهم أعرف الناس باللغة كهؤلاء الذين كان إسلامهم بعد الفتح: خفيت عليهم بعض أفراد توحيد العبادة.

فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر! إنها السنن، قلتم -والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**»: فشبَّه عليه الصلاة والسلام هذه المقالة بتلك المقالة، ومعلوم أن أولئك - وهم المذكورون في الآية - عبدوا غير الله، أي: عبدوا الأصنام، وأما أولئك فإنما طلبوا بالقول فقط، فشبّه النبي عليه الصلاة والسلام ذلك القول بقول قوم موسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، لكن أولئك الصحابة لم يفعلوا ما طلبوا، ولما نهاهم النبي ﷺ انتهوا، ولو فعلوا ما طلبوا لكان شركًا أكبر، لكن لما قالوا وطلبوا دون فعل: صار قولهم شركًا أصغر؛ لأنه كان فيه نوع تعلق بغير الله -جل وعلا-.

وهم لا يعلمون أن هذا الذي طلبوه غير جائز، وإلا فلا يُظن بهم أنهم يخالفون أمر النبي ﷺويرغبون في معصيته. وأما شركهم فكان في مقالهم، وأما الفعل: فلم يفعلوا شيئًا من الشرك، وهذا الذي قالوه، قال العلماء: هو شرك أصغر، وليس بشرك أكبر؛ ولهذا لم يأمرهم النبي ﷺ بتجديد إسلامهم، ويدل علىٰ ذلك قوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ**» فشبّه المقالة بالمقالة، وقد قرر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أنهم لم يكفروا، وقال في المسائل: (إن الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا).

فالظاهر من هذا الحديث: أن الشرك الأكبر الذي كان وقع فيه المشركون لم يكن راجعًا إلىٰ التبرك بذات الأنواط فقط، بتعظيمها، والعكوف عندها، والتبرك بتعليق الأشياء عليها، وقد قلت لك: إن التبرك بالشجر، والحجر، ونحو ذلك، إذا كان فيه اعتقاد أن هذا الشيء يقرب إلىٰ الله، وأنه يرفع الحاجة إليه، أو أن تكون حاجاتهم أرجىٰ إجابة وأمورهم أحسن، إذا تبركوا بهذا الموضع، فهذا: شرك أكبر، وهذا هو الذي كان يصنعه أهل الجاهلية؛ ولهذا، فإن فعلهم يشمل ثلاثة أشياء -كما سبق- :

١ - التعظيم، أي تعظيم العبادة، وهذا لا يجوز إلا لله، فتعظيمهم بهذه الصورة، واعتقاد أنهم يتوسطون لهم: هو نوع من عبادتهم، وشرك جلي.

٢ - أنهم عكفوا عندها ولازموها، والعكوف والملازمة نوع عبادة، فإذا عكف ولازم تقربًا، ورجاء، ورغبة، ورهبة، ومحبة، فهذا نوع من العبادة.

٣ - التبرك.

وإذًا فيكون الشرك الأكبر: ما ضم هذه الثلاثة. وإذا تأملت ما يصنعه عباد القبور والخرافيون في الأزمنة المتأخرة وفي زماننا هذا: وجدت أنهم يصنعون مثل ما كان المشركون الأولون يصنعون عند اللات، وعند العزىٰ، وعند ذات أنواط، ويعتقدون في القبر، بل يعتقدون في الحديد الذي يُسيَّج به القبر، فترىٰ الناس في البلاد التي يفشو فيها الشرك يعتقدون في الحائط الذي علىٰ القبر، أو في الشباك الحديدي الذي يحيط بالقبر، فإذا تمسحوا به فكأنهم تمسحوا بالمقبور، واتصلت روحهم به، واعتقدوا أنه سيتوسط لهم؛ لأنهم عظموه، فهذا شرك أكبر بالله -جل وعلا-؛ لأن فعلهم هذا: راجع إلىٰ تعلق القلب في جلب النفع، وفي دفع الضر بغير الله -جل وعلا- وجعْله وسيلة إلىٰ الله -جل وعلا- كفعل الأولين الذين قال الله فيهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

وأما الحال الأخرىٰ التي نبهتك في أول المقام عليها، فكمن يجعل بعض التمسحات أسبابًا: مثل ما ترىٰ من بعض الجهلة ممن يأتي إلىٰ الحرم، ويتمسح بأبواب الحرم الخارجية، أو ببعض الجدران، أو ببعض الأعمدة، فهذا إن ظن أن ثَمَّ روحًا في هذا العمود، أو أن هناك أحدًا مدفونًا بالقرب منه، أو ثَمَّ من يخدم هذا العمود من الأرواح الطيبة كما يقولون: فتمسح لأجل أن يصل إلىٰ الله -جل وعلا- بذلك الفعل: فهذا شرك أكبر.

وأما إذا تمسح واعتقد أن هذا مكان مبارك، وأن هذا سبب قد يشفيه فنقول إذًا: إذا كان يتمسح بجعله سببا فهذا يكون شركه شركًا أصغر، وإذا كان تعلق قلبه بهذا المتمسَّح به أو المتبرك به، وعظمه، ولازمه، واعتقد أن ثمة روحًا هنا، أو أنه يتوسل به إلىٰ الله فإن هذا شرك أكبر.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم، أي قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾[النجم:١٩] فاللات: صخرة كان يلت عليها السويق للحاج، والعزى: شجرة يعبدونها.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا، أي: إنهم طلبوا منه أن يجعل لهم شجرة يتبركون بها.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا، أي: لأنه لما نهاهم أطاعوه وتركوا قولهم.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه، أي: لما طلبوا ذلك من النبي ﷺ علم أنهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك إذ لا يظن بهم أنهم يطلبون ما علموا أنه معصية.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل، أي: إنهم لما جهلوا مثل هذا وهو أنهم طلبوا التقرب إلى الله بالشرك لجهلهم مع كونهم مع النبي ﷺ فغيرهم أولى بالجهل خصوصًا مع ما حدث من كثرة الجهل وخفاء العلم.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم، أي: بسبب الصحبة للنبي ﷺ وغير ذلك، ومع هذا أنكر عليهم فالإنكار على غيرهم أولى.

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم الأمر، بل رد عليهم بقوله: «**الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم**» فغلظ الأمر بهذه الثلاث، أي: إنه أنكر عليهم ورد عليهم ما قالوه وغلظ عليهم بهذه الثلاث أي قوله: «**الله أكبر**»، و«**إنها السنن**»، وقوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**».

الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: اجعل لنا إلهًا، أي: لما كان المقصود أن كلًّا طلب أن يُجعل له شيء يألهه طلبتهم كطلبة بني إسرائيل وإن لم يسموه إلهًا، لكن لما كانت الحقيقة واحدة أنكر عليهم ولم ينظر إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك مشرك ولو سمى شركه ما سماه، كما أشار إلى ذلك في الشرح.

التاسعة: أن نفي هذا من معنىٰ لا إله إلا الله مع دقته وخفائه علىٰ أولئك، أي: نفي اعتقاد البركة في الأشجار والأحجار وغيرها من معنىٰ لا إله إلا الله؛ ولذلك أنكر النبي ﷺ عليهم ذلك ولو كان لا ينافي لا إله إلا الله لما أنكره عليهم، ولكن لدقته خفي عليهم.

العاشرة: أنه حلف علىٰ الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة، أي لما قال: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ**».

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر لأنهم لم يرتدوا بهذا، أي: لما شبه مقالتهم بمقالة بني إسرائيل، وجعل ذلك اتخاذ إله مع الله صار هذا شركًا أصغر ولو كان أكبر لأمرهم بتجديد إسلامهم، والذي منعهم من الردة كونهم لم يفعلوا.

الثانية عشرة: قولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك، أي الذين قالوا ذلك كانوا قريب عهد بشرك لم يسلموا إلا من قريب بخلاف السابقين الأولين فإنهم لم يصدر منهم شيء من ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب خلافًا لمن كرهه، أي لقوله الله أكبر إنها السنن.

الرابعة عشرة: سد الذرائع أي أنه لما بادرهم بالإنكار عليهم مجرد القول ولم يصبر عن الإنكار إلىٰ أن يفعلوا صار هذا سدًّا للذريعة.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية، أي لما نهاهم عن اتخاذ ذات أنواط وأخبر أنه من سنن الذين قبلهم دل ذلك علىٰ النهي عن التشبه بهم.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم، أي لقوله الله أكبر إنها السنن... إلخ الحديث.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله إنها السنن، أي أن كل ماكان من سنن الكفار فهو مذموم؛ لأنه جعل هذه الكلمة المذمومة من سننهم فدل ذلك علىٰ أن سننهم مذمومة.

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة؛ لكونه وقع كما أخبر، أي لما أخبرأنهم يتبعون سنن من كان قبلهم ووقع ذلك دل علىٰ نبوته صلىٰ الله عليه وسلم.

التاسعة عشرة: أن ماذم الله به اليهود والنصارىٰ في القرآن أنه لنا، أي لما ذم قولهم اجعل لنا ذات أنواط وجعله كقول بني إسرائيل قاصدًا ذمه دل ذلك علىٰ أن ماذموا به فهو لنا لنحذره لئلا يحصل لنا من الذم مثل ماحصل لهم، ولو كان خاصًا بهم لما حسن التشبيه بهم.

العشرون:أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر فصار فيه التنبيه على مسائل القبر أما من ربك فواضح وأما من نبيك، فمن إخباره بأنباء الغيب،وأما ما دينك فمن قولهم: اجعل لنا إلهًا... إلخ، أي: لما أنهم استحسنوا مثل هذا ولم يقدموا عليه حتى سألوا النبي ﷺ دل ذلك على أن العبادات مبناها على الأمر أي: على التوقيف، ولو لم تكن على التوقيف لما احتاجوا إلى سؤاله، وأما قوله: ففيها التنبيه على مسائل القبر... إلخ، فإن وجه ذلك أنهم لما لم يدعوا في الشجرة أنها تخلق وترزق، وتحيي وتميت دل ذلك على أنهم مقرون بذلك لله وأن الله هو الرب الخالق الرازق، وأما دلالتها على نبوته فإنه أخبر أنهم يفعلون كفعل بني إسرائيل فوقع كما أخبر فدل على نبوته. وأما دلالته على قوله: ما دينك فتؤخذ من إنكاره عليهم قولهم: «**اجعل لنا ذات أنواط**» لأن فيه طلب البركة من غير الله وهذا ينافي دين الإسلام فإنه يقتضي إقبال القلب على الله في كل حال... إلخ ما ذكره في الحديث عن قوم موسى.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين، أي: إنه لما ذم قولهم وجعله كقول بني إسرائيل دل على ذم سنتهم كما دل قوله: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**» على ذم سنة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر، أي إن سبب قولهم هذا وجود بقية من تلك العادة بعد إسلامهم لم تذهب من قلوبهم؛ ففيه التحرز من ذلك لئلا يصدر من الإنسان شيء من ذلك وهو لا يشعر.

* الأسئلة *

س: ما معنى التبرك بالأحجار والأشجار وما حكمه؟

جـ: التبرك بها طلب البركة منها وهو شرك.

قوله: «قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[النجم:١٩، ٢٠].

س: ما المراد بهذه الأسماء المذكورة في الآية ولم سميت بذلك؟ اشرح الآية وبين مناسبتها للباب؟

جـ: اللات والعزىٰ ومناة أسماء لأوثان كان المشركون يعبدونها في الجاهلية يقول الله تعالىٰ أخبروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، هل نفعت أو ضرت حتىٰ تكون شركاء لله تعالىٰ.

أما اللات: علىٰ قراءة الآية بتخفيف التاء فهي صخرة بالطائف عليها بيت وأستار وكانت تعظمها ثقيف فبعث إليها رسول ﷺالمغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار سميت اللات من الإله.

وعلىٰ قراءة الآية بالتشديد فاللات رجل صالح كان يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا علىٰ قبره وغلوا فيه حتىٰ عبدوه. ولا منافاة بين القولين.

والعزىٰ: شجرة في وادي نخلة بين مكة والطائف كانت قريش تعبدها وتعظمها فبعث إليها رسول الله ﷺخالد بن الوليد يوم فتح مكة فقطعها، وسميت العزىٰ من اسم الله العزيز.

ومناة: صخرة بين مكة والمدينة كان الأوس والخزرج يعظمونها، وسميت مناة من اسم الله المنان وقيل: لكثرة ما يمنىٰ؛ أي: يراق عندها من الدماء للتبرك بها فبعث إليها رسول الله ﷺعليَّ ابن أبي طالب فهدمها عام الفتح.

ومناسبة الآية لهذا الباب:

أن التبرك بالشجر والحجر والقبور من جنس عبادة المشركين لهذه الأصنام فمن فعل ذلك فقد شابههم في فعلهم ومن تشبه بقوم فهو منهم.

قوله: «عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلىٰ حنين...».

س: ما المقصود بقوله: خرجنا إلى حنين؟

جـ: أي: إلىٰ غزوة حنين موضع بين مكة والطائف.

س: ما معنى قوله: ونحن حدثاء عهد بكفر؟

جـ: أي: قريب عهدهم بالكفر والخروج منه والدخول في الإسلام فلم يتمكن الإسلام من قلوبهم.

س: ما معنى قوله: ينوطون بها أسلحتهم ولماذا؟

جـ: أي: يعلقون بها أسلحتهم تبركًا بها وتعظيمًا لها.

س: ما معنى قوله: يعكفون عندها وما هو العكوف؟

جـ- أي: يقيمون عندها والعكوف الإقامة على الشيء في المكان.

س: لماذا طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط؟

جـ: ظنوا أن هذاأمر محبوب عند الله وقصدوا التقرب إليه وإلا فهم أجل قدرًا من أن يقصدوا مخالفة النبيﷺ.

س: ما المراد بتكبير النبيﷺ عندما سألوه أن يجعل لهم ذات أنواط؟

جـ: المراد تعظيم الله تعالىٰ وتنزيهه عن الشرك بأي نوع كان مما لا يجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله.

س: ما معنى قوله: إنها السنن؟

جـ: السنن الطرق والمراد بها تقليد من تقدمهم من أهل الشرك.

س: لماذا شبه مقالتهم بقول بني إسرائيل؟

جـ: لكونها مثلها وإن اختلف اللفظان.

س: ما معنى قوله لتركبن سنن من كان قبلكم؟

جـ- أي: لتتبعن طرقهم ومناهجهم.

س: ما مناسبة حديث أبي واقد للباب واذكر ما يستفاد منه؟

جـ: هي أنه أفاد أن التبرك بالأشجار من الشرك ويستفاد منه:

١ - التكبير عند التعجب خلافًا لمن كرهه.

٢ - النهي عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب.

٣ - أن ما ذم الله به اليهود والنصارىٰ في القرآن أنه ذم لنا إذا عملنا مثل عملهم.

٤ - أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس العاشر:

باب ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ الآية [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]

عن علي[بن أبي طالب][٣٢٠] رضي الله عنه، قال: «حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوىٰ محدثًا، لعن الله من غير منار الأرض»[٣٢١] رواه مسلم.

وعن طارق بن شهاب، أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان علىٰ قوم لهم صنم لا يجوزه[٣٢٢] أحد حتىٰ يقرب له شيئًا، قالوا لأحدهما: قرب. فقال: ليس عندي شيء أقربه. قالوا له: قرب ولو ذبابًا. فقرب ذبابًا، فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب. قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عز وجل. فضربوا عنقه، فدخل الجنة»[٣٢٣] رواه أحمد.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

الثانية: تفسير: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعة: لَعْنُ من لَعَنَ والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

---

(٣٢٠) سقط من نسخة ابن قاسم، وابن باز، وابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي، والفوزان.

(٣٢١) أخرجه مسلم، كتاب: الأضاحي، باب: تحريم الذبح لغير الله تعالىٰ...، برقم (١٩٨٧)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٣٢٢) في نسخة ابن قاسم، والفوزان: «يجاوزه».

(٣٢٣) أخرجه أحمد في «الزهد»(ص٢٢)، وأبو نعيم في «الحلية»(١/ ٢٠٣)، وغيرهما عن طارق بن شهاب عن سلمان رضي الله عنه موقوفًا.

الخامسة: لعن من آوىٰ محدِثًا، وهو الرجل يحدث شيئًا يجب فيه حق الله؛ فيلتجئ إلىٰ من يجيره من ذلك.

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك من الأرض، فتغيرها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي علىٰ سبيل العموم.

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصًا من شرهم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك علىٰ القتل ولم يوافقهم علىٰ طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر؟!

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافرًا، لم يقل: «دخل النار في ذباب».

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»(٣٢٤).

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم، حتىٰ عند عبدة الأوثان(٣٢٥).



الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ما جاء في الذبح لغير الله»:

أي: من الوعيد علىٰ ذلك، وبيان أنه شرك أكبر ناقل عن الملة؛ لأنه عبادة من أجل العبادات، وقربة من أفضل القربات المالية، فصرفه لغير الله شرك، كمن يذبح لقبر أو شجرة أو حجر أو ملك أو نبي أو جني أو لطلعة سلطان أو للزيران أو غير ذلك.

---

(٣٢٤) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الجنة أقرب إلىٰ أحدكم...، برقم (٦٤٨٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣٢٥) في نسخة السعدي: «الأصنام».

❁ قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ الآية»:

أي: قل -يا محمد- لهؤلاء المشركين، الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغيره:

﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام:١٦٢] أي: ذبحي، والناسك المخلص لله ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: ما أحيا عليه وما أموت عليه، من الإيمان والعمل الصالح لله رب العالمين خالصًا لوجهه: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في شيء من ذلك، ولا في غيره من أنواع العبادة، فالصلاة أجل العبادات البدنية، والنسك أجل العبادات المالية، فمن صلىٰ لغير الله فقد أشرك، ومن ذبح لغير الله فقد أشرك، ومطابقة الآية للترجمة أن الله تعبد عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك، كما تعبدهم أن يتقربوا إليه بالصلاة، وإذا تقربوا إلىٰ غيره بالذبح فقد جعلوا له شريكًا في عبادته، وهو ظاهر في قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ نفىٰ أن يكون لله شريك في هذه العبادات. وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٣] أي: من هذه الأمة؛ لأن إسلام كل نبي متقدم علىٰ قومه، فدلت هذه الآية أن أقوال العبد وأفعاله الظاهرة والباطنة لا يجوز صرف شيء منها لغير الله، ومن صرف منها شيئًا لغير الله فقد أشرك، والقرآن كله يدل علىٰ ذلك.

❁ قوله: «وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾»:

يعني لا لغيره، قال شيخ الإسلام: أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك، الدالتان علىٰ القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين وطمأنينة القلب إلىٰ الله وإلىٰ ما أعده، عكس حال أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنىٰ عن الله، الذين لا حاجة لهم إلىٰ ربهم، ولا ينحرون له خوفًا من الفقر. ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام:١٦٢] والنسك: الذبيحة لله ابتغاء وجهه، فالصلاة أجل ما يتقرب به إلىٰ الله، وما يجتمع للعبد في الصلاة من الخشوع والذل والإقبال لا يجتمع له في غيرها، كما يعرفه أهل القلوب الحية، وما يجتمع له عند النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين، وحسن الظن أمر عجيب، فإنه إذا سمحت نفسه بالمال لله مع وقعه في النفس، ثم أذاق الحيوان الموت مع محبته له، صار بذلك أفضل من بذل سائر الأموال، فدل علىٰ أنه عبادة من أفضل العبادات، وكان ﷺ كثير الصلاة، كثير النحر، وقد تضمنت الصلاة كثيرًا من أنواع العبادة، وكذا النسك تضمن أمورًا من العبادة التي لا يجوز صرف شيء منها لغير الله، ومن صرف منها شيئًا لغير الله فقد أشرك.

❁ **قوله: «عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات»:**

تطلق الكلمة على الجملة المفيدة كقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾[المؤمنون:٩٩، ١٠٠]، وعلى كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، وكهذه الأربع، وعلى الخطبة، وعلى القصيدة.

❁ **قوله: «لعن الله من ذبح لغير الله»:**

اللعن: الطرد والإبعاد عن مظان الرحمة ومواطنها، واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعي عليه بها، واللعن من الخلق: السب والدعاء. قال شيخ الإسلام: إن الله يلعن من استحق اللعنة بالقول، كما يصلي على من استحق الصلاة من عباده. وقال في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١٧٣]؛ ظاهره أن ما ذبح لغير الله، مثل أن يقول هذه ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود، فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبح للحم وقال فيه باسم المسيح أو نحوه، فإذا حرم ما قيل فيه: باسم المسيح ونحوه فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو قصد به ذلك أولى، فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله، وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقربًا إليه حرم، وإن قال فيه: بسم الله كما يفعله طوائف من منافقي هذه الأمة، الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور، وما يفعل بمكة من الذبح للجن، وذكر المروزي أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقربًا إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه؛ لأنه مما أهل به لغير الله، ووجه مطابقة الحديث للترجمة لعن من ذبح لغير الله، وبدأ بلعنه قبل غيره لغلظ تحريمه.

❁ **قوله: «لعن الله من لعن والديه»:**

فسره رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري أنه قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه، قالوا: يا رسول الله! وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[٣٢٦] فيكون هو السبب في لعن والديه، وجعله النبي ﷺ سابًا لاعنًا لأبويه بتسببه إلى ذلك

---

(٣٢٦) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: لا يسب الرجل والديه، برقم (٥٩٧٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٩٠) وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وتوسله إليه وإن لم يقصده، ويوجد من يباشرهما بالسب، وظاهر الخبر أن يتولىٰ الابن لعنهما بنفسه، فلعن من نطق بسبهما، ولما أخبر أنه إذا سب أبا الرجل سب أباه كان كمن تولىٰ ذلك بنفسه، وفيه دليل علىٰ أن من تسبب في شيء جاز أن ينسب إليه ذلك الشيء، وهذا الحديث أصل في قطع الذرائع.

قوله: «لعن الله من آوىٰ محدثًا»:

بفتح «الهمزة» ممدودة وهو الفار المستحق للحد الشرعي، فيحول بينه وبين أن يقام عليه، وفي الحديث: **«من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره»**(٣٢٧). وفي الحديث: **«إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع»**(٣٢٨).

قال ابن الأثير: «ويروىٰ بكسر «الدال» وفتحها؛ فمعنىٰ الكسر: من نصر جانيًا وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يقتص منه. وبالفتح هو الأمر المبتدع نفسه، ويكون معنىٰ الإيواءِ فيه الرضا به والإقرار عليه، فإنه إذا رضي بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه»

قال ابن القيم: «هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه، فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم».

علامات حدودها؛ أي: قدم أو أخر ليغتصب من أرض جاره، سميت منارًا لإنارتها بين الحقين؛ أي: حجزها وتمييزها بينهما، فيكون من ظلم الأرض الذي قال فيه -عليه الصلاة والسلام-: **«من ظلم شبرًا من الأرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة»**(٣٢٩). متفق عليه. أو لإنارتها علىٰ الطرق، وهي الأعلام التي توضع علىٰ السبل، فإذا غيرها ضل السالك. وقال

---

(٣٢٧)أخرجه أبو داود، كتاب: الأقضية، باب: فيمن يعين علىٰ خصومه...، برقم (٣٥٩٧)، وأحمد (٢/ ٧٠)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»..

(٣٢٨)أخرجه مالك في «الموطأ»، برقم (١٥٢٥)، والطبراني في «المعجم الصغير»، برقم (١٥٨)، وابن أبي شيبة، برقم (٢٨٠٧٥) بنحو منه، وغيرهم من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه.

(٣٢٩)أخرجه البخاري، كتاب: المظالم والغضب، باب: إثم من ظلم شيئًا من الأرض، برقم (٢٤٥٣)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: تحريم الظلم...، برقم (١٦١٢)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

المصنف: «**هي المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك، فتغيرها بتقديم أو تأخير؛ وفيه الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعصية على سبيل العموم**».ا هـ. فالحديث دليل على جواز لعن أنواع الفساق، كقوله: «**لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده**»[٣٣٠]. وأما لعن الفاسق المعين فقيل: يجوز، اختاره ابن الجوزي. وقيل: لا يجوز اختاره أبو بكر عبد العزيز والشيخ، والشيخ عبد المغيث وصنف في ذلك مصنفًا ذكره عنه الشيخ، وأنه المعروف عن أحمد.

قوله: «رواه مسلم»:

من طرق وفيه قصة، ورواه أحمد كذلك عن أبي الطفيل قال: قلنا لعلي: أخبرنا بشيء أسرّه إليك رسول الله ﷺ. فقال: ما أسرّ إليّ شيئًا كتمه الناس، ولكن سمعته يقول. فذكره، وفي آخره: «**ولعن الله من غير تخوم الأرض**»[٣٣١] يعني: المنار.

قوله: «وعن طارق بن شهاب»:

هو ابن عبد شمس بن هلال بن عوف البجلي الأحمسي أبو عبد الله، قال الحافظ: رأى النبي ﷺ وهو رجل. وروى أبو داود والبغوي أنه قال: «رأيت النبي ﷺ وغزوت في خلافة أبي بكر». وقال أبو داود: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه، فروايته عنه مرسل صحابي، وهو مقبول على الراجح، توفي سنة ٨٣هـ.

قوله: «**أن رسول الله ﷺ قال: دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب**»:

أي: بسبب ذباب ومن أجله، ولعل هذين الرجلين من بني إسرائيل، فإن رسول الله ﷺ كثيرًا ما يحدث عنهم.

قوله: «قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟»:

كأنهم تقالّوا هذا العمل، واستغربوه وتعجبوا منه، كيف بلغ الذباب إلى هذه الغاية التي بسببه دخل رجل الجنة ورجل دخل النار؟، أو احتقروه كيف كان تقريب الذباب سببًا لدخول

---

(٣٣٠) أخرجه البخاري، كتاب: الحدود، باب: لعن السارق إذا لم يسم، برقم (٦٧٨٣)، ومسلم، كتاب: الحدود، باب: حد السرقة ونصابها، برقم (١٦٨٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٣١) أخرجه مسلم، كتاب: الأضاحي، باب: تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، برقم (١٩٧٨) وغيره من حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنه.

الجنة أو النار؟، فاستفهموه ليبين لهم ما استغربوه، فبين لهم النبيﷺ ما صير هذا الأمر الحقير عندهم عظيمًا، يستحق هذا عليه الجنة، ويستوجب الآخر عليه النار.

❁ **قوله: «قال مر رجلان علىٰ قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتىٰ يقرب له شيئًا»:**

وإن قلّ تعظيمًا لصنمهم، والصنم ما كان منحوتًا علىٰ صورة وعبد من دون الله، ويطلق عليه الوثن كما مر، وكل ما عبد من دون الله يقال له صنم، بل كل ما يشغل عن الله يسمىٰ صنمًا، ولا يجاوزه أي: لا يمر به ولا يتعداه حتىٰ يقرب له شيئًا.

❁ **قوله: «قالوا لأحدهما: قرب. قال: ليس عندي شيء أقرب»:**

يعني: للصنم، احتج بالعدم فلما عرفوا موافقته بالذبح لغير الله، واعتذر طمعوا فيه، وقنعوا منه بأيسر شيء؛ لأن قصدهم موافقتهم علىٰ ما هم عليه من الشرك.

❁ **قوله: «قالوا: قرب ولو ذبابًا. فقرب ذبابًا»:**

حصل به موافقتهم، وظاهره أنه لو وجد بدنة لقربها.

❁ **قوله: «فخلوا سبيله فدخل النار»:**

بسبب قربانه الذباب للصنم؛ لأنه قصد غير الله بقلبه، وانقاد بعمله فوجبت له النار. ففيه بيان عظمة الشرك ولو في شيء قليل، وأنه يوجب النار لقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾[المائدة:٧٢]. فإذا كان هذا فيمن- قرب ذبابًا، فكيف بمن يستسمن الإبل وغيرها، ليتقرب بنحرها لمن كان يعبده من دون الله، من قبر أو مشهد أو طاغوت وغير ذلك؟ وفيه التحذير من الوقوع في الشرك، وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدري، والحذر من الذنوب وإن كانت صغيرة في الحسبان، كما قال أنس: «إنكم تعملون أعمالًا هي أصدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها علىٰ عهد رسول اللهﷺ من الموبقات». وفيه أنه دخل النار بسبب لم يقصده ابتداء، وإنما فعله تخلصًا من شر أهل الصنم، وفيه أنه كان مسلمًا، وإلا لم يقل دخل النار في ذباب، وفيه أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتىٰ عند عبدة الأوثان.

❁ **قوله: «وقالوا للآخر: قرب. قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عزوجل»:**

أبىٰ عليهم، وبادأهم بالإنكار، وعظم عليه أن يقرب لصنمهم شيئًا، ونفر من الشرك وصرح بإخلاص العبادة لله عز وجل.

قوله: «**فضربوا عنقه فدخل الجنة**»:

لامتناعه عن التقريب لغير الله، إيمانًا واحتسابًا وإجلالًا وتعظيمًا لله، ففيه بيان فضيلة التوحيد والإخلاص وتفاوت الناس في الإيمان. قال المصنف: «**وفيه معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر، ودل الحديث على أن الذبح عبادة، وأن صرفه لغير الله شرك، وأن الذابح لغير الله يكون من أهل النار**».

قوله: «**رواه أحمد**»:

وكذا أورده ابن القيم وغيره. ورواه أحمد في كتاب الزهد، وأبو نعيم في الحلية، موقوفًا على سليمان بن ميسرة. قال الحافظ: سليمان بن ميسرة الأحمسي عن طارق بن شهاب، وعنه الأعمش وغيره، روى عن طارق وله صحبة، ووثقه النسائي وغيره.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «**باب ما جاء في الذبح لغير الله**»:

أي: أنه شرك؛ فإن نصوص الكتاب والسنة صريحة في الأمر بالذبح لله وإخلاص ذلك لوجهه كما هي صريحة بذلك في الصلاة فقد قرن الله الذبح بالصلاة في عدة مواضع من كتابه.

وإذا ثبت أن الذبح لله من أَجَلِّ العبادات وأكبر الطاعات فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام. فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده: أن يصرف العبد نوعًا أو فردًا من أفراد العبادة لغير الله.

فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص وصرفه لغيره شرك وكفر.

فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء، كما أن حد الشرك الأصغر هو: كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر فإنه مما يعينك على فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها والله المستعان.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب ما جاء في الذبح لغير الله»:

أي: ما جاء فيها من الوعيد وأنها من الشرك الأكبر كما دلت الأدلة.

❁ **قوله:** «وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢]»:

قل- يا محمد- نسكي: ذبحي، وقيل: تعبدي ويشمل الذبح.

ومحياي: ومماتي؛ أي: ما أحيا عليه وأموت من العبادات والأعمال هي لله وحده، وتبين الآية أن الذبح عبادة وأنها لله ولا تنبغي أن تكون لغيره.

ومن ذبح لغيره من الجن والأصنام والقبور فهو كمن صلىٰ وعبد غير الله؛ لأن كُلًّا من الصلاة والذبح عبادة حيث قرن الله بينهما. وبذلك أمرت: أمره الله.

❁ **قوله:** «قوله تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾»:

أي: صلِّ لله وانحر له شكرًا علىٰ نعمة نهر الكوثر.

وهذا يدل علىٰ أن النحر والصلاة عبادة لأنه أمر بهما فمن نحر لغير الله فقد أشرك. كما لو صلىٰ لغير الله فمن ذبح للصنم والجن وغيرهم فقد أشرك.

❁ **قوله:** «عن علي ﵁ قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله...»:

«**من ذبح لغير الله**»: وبدأ بها لأن الشرك أعظم الذنوب، واللعن: الطرد وهذا يدل علىٰ أنه من الكبائر الشركية كما في الحديث: «**أكبر الكبائر الشرك بالله**»(٣٣٢).

«**لعن من لعن والديه**»: وهذا من الكبائر أيضًا. ومن هذا أن يلعن غيره فيلعن الآخر والديه فيكون سببًا في لعن والديه كما في حديث عبد الله بن عمرو في الصحيحين: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**» فقيل: **يا رسول الله وهل يسب الرجل والديه؟** قال: «**نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه**»(٣٣٣).

---

(٣٣٢) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور، برقم (٢٦٥٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٧)، وغيرهما من حديث أبي بكرة ﵁.

(٣٣٣) سبق تخريجه.

وسب الناس من الكبائر إن كان بغير حق وفي الحديث «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[٣٣٤].

وروي البخاري من حديث ثابت بن الضحاك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لعن المؤمن كقتله**»[٣٣٥] وأخرج مسلم: «**إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة**»[٣٣٦].

«**آوي محدثًا**»؛ أي: من أوىٰ أهل البدع والمعاصي ونصرهم فإنه ملعون.

وكذلك من يمنع من إقامة الحد عليهم، ومن يقيم البدع وينصرها.

«**غيَّرَ منار الأرض**»: المنار: المراسيم سميت منار؛ لأنها تميز وتبين وتعرف حدود الأراضي وتدل عليها فالذي يغيرها ملعون؛ لأنه قد يؤدي إلىٰ المشاكل والمصائب والمقاتلة. ويلحق به ما يرشد الناس إلىٰ الطرق والبلدان والمياه فمن غيرها فهو داخل في اللعن.

قوله: «**وعن طارق بن شهاب...**»: حديث طارق بن شهاب أن رسول اللهﷺ قال: «**دخل الجنة رجل في ذباب...**».

وطارق من صغار الصحابة وغالب روايته من طريق أبي موسىٰ الأشعري فهي مرسلة صحيحة فمرسل الصحابي صحيح.

قوله: «**في ذباب**»: أي: بسبب ذباب فـ «في» للسببية.

«**الصنم**»: ما نحت علىٰ صورة وما ليس له صورة يقال له: وثن، ويطلق علىٰ الأصنام أوثانًا أيضًا.

«**لا يجوزه**»: لا يتعداه.

«**ليس عندي شيء أقرب**»: فاعتذر بأنه ليس معه شيء يقرب ولم ينكر ذلك فطمعوا فيه فأمروه أن يقرب ولو ذبأبا فدخل النار. وهذا يدل علىٰ أن التقريب للأصنام وغيره ولو كان شيئًا حقيرًا فهو من الشرك؛ لأن الذبح والتقرب لا يجوز إلا لله.

---

(٣٣٤) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر، برقم (٤٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان قول النبيﷺ«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، برقم (٦٤)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣٣٥) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: ما ينهىٰ من السباب واللعان، برقم (٦٠٤٧)، من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

(٣٣٦) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها، برقم (٢٥٩٨)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وقال الآخر: «ما كنت أقرب شيئًا إلا لله»: فهذا أعرض وبين أنه لا يجوز وامتنع فدخل الجنة وهذا يحتمل أمرين:

الأول: إما أن شريعتهم ليس فيها عذر بالإكراه ولهذا لم يأخذ بالرخصة ويتخلص من شرهم.

الثاني: يحتمل أنه ترك الرخصة وأخذ بالعزيمة لقوة إيمانه ويقينه فقتلوه.

وفي شريعتنا: أن من أكره على الشرك ففعل ما أكره عليه بقصد التخلص من شرهم ولم يطمئن قلبه بذلك فلا حرج لقوله تعالى: ﴿مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[النحل:١٠٦] فيأخذ بالرخصة حتى لو قال الكفر بلسانه.

وحديث طارق رواه أحمد في الزهد وذكره ابن القيم بسند جيد.ا هـ.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «في الذبح»؛ أي: ذبح البهائم.

قوله: «لغير الله»، «اللام» للتعليل، والقصد؛ أي: قاصدًا بذبحه غير الله، والذبح لغير الله ينقسم إلى قسمين:

١- أن يذبح لغير الله تقربًا وتعظيمًا، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

٢- أن يذبح لغير الله فرحًا وإكرامًا، فهذا لا يخرج من الملة، بل هو من الأمور العادية التي قد تكون مطلوبة أحيانًا وغير مطلوبة أحيانًا، فالأصل أنها مباحة.

ومراد المؤلف هنا القسم الأول.

فلو قَدِمَ السلطان إلى بلد، فذبحنا له، فإن كان تقربًا وتعظيمًا، فإنه شرك أكبر، وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك: أننا نذبحها في وجهه ثم ندعها، أما لو ذبحنا له إكرامًا وضيافة، وطبخت، وأكلت، فهذا من باب الإكرام، وليس بشرك.

وقوله: **«لغير الله»**: يشمل الأنبياء، والملائكة، والأولياء، وغيرهم، فكل من ذبح لغير الله تقربًا وتعظيمًا، فإنه داخل في هذه الكلمة بأي: شيء كان.

وقوله في الترجمة: **«باب ما جاء في الذبح لغير الله»**: أشار إلى الدليل دون الحكم، ومثل هذه الترجمة يترجم بها العلماء للأمور التي لا يجزمون بحكمها، أو التي فيها تفصيل، وأما الأمور التي يجزمون بها، فإنهم يقولونها بالجزم، مثل باب وجوب الصلاة، وباب تحريم الغيبة، ونحو ذلك.

والمؤلف -رحمه الله تعالىٰ- لا شك أنه يرىٰ تحريم الذبح لغير الله علىٰ سبيل التقرب والتعظيم، وأنه شرك أكبر، لكنه أراد أن يمرن الطالب علىٰ أخذ الحكم من الدليل، وهذا نوع من التربية العلمية، فإن المعلم أو المؤلف يدع الحكم مفتوحًا، ثم يأتي بالأدلة لأجل أن يكل الحكم إلىٰ الطالب، فيحكم به علىٰ حسب ما سيق له من هذه الأدلة، وقد ذكر المؤلف في هذا الباب ثلاث آيات:

الأولىٰ: قوله: ﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل لهؤلاء المشركين معلنًا لهم قيامك بالتوحيد الخالص، لأن هذه السورة مكية.

قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾؛ الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: عبادة لله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

قوله: ﴿وَنُسُكِي﴾: النسك لغة: العبادة، وفي الشرع: ذبح القربان.

فهل تحمل هذه الآية علىٰ المعنىٰ اللغوي أو علىٰ المعنىٰ الشرعي؟

سبق أن ما جاء في لسان الشرع يحمل علىٰ الحقيقة الشرعية، كما أن ما جاء في لسان العرف، فهو محمول علىٰ الحقيقة العرفية وفي لسان العرب علىٰ الحقيقة اللغوية.

فعندما أقول لشخص: عندك شاة؟ يفهم الأنثىٰ من الضأن، لكن في اللغة العربية الشاة تطلق علىٰ الواحدة من الضأن والمعز، ذكرًا كان أو أنثىٰ، وعلىٰ هذا، فيحمل النسك في الآية علىٰ المعنىٰ الشرعي.

وقيل: تحمل علىٰ المعنىٰ اللغوي، لأنه أعم، فالنسك العبادة، كأنه يقول: أنا لا أدعو إلا الله، ولا أعبد إلا الله، وهذا عام للدعاء والتعبد.

وإذا حملت علىٰ المعنىٰ الشرعي، صارت خاصة في نوع من العبادات، وهي: الصلاة، والنسك، ويكون هذا كمثال، فإن الصلاة أعلىٰ العبادات البدنية، والذبح أعلىٰ العبادات المالية، لأنه علىٰ سبيل التعظيم لا يقع إلىٰ قربة، هكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة.

ويحتاج إلىٰ مناقشة في مسألة أن القربان أعلىٰ أنواع العبادات المالية، فإن الزكاة لا شك أنها أعظم، وهي عبادة مالية.

وهناك رأي ثالث يقول: إن الصلاة هي الصلاة المعروفة شرعًا، والنسك: العبادة مطلقًا، ويكون ذلك من عطف العام علىٰ الخاص.

قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾؛ أي: حياتي وموتي؛ أي: التصرف فيَّ وتدبير أمري حيًّا وميتًا لله.

وفي قوله: ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾: إثبات توحيد العبادة.

وفي قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾: إثبات توحيد الربوبية.

قوله: ﴿لِلَّهِ﴾، خبر إن، والله: علم على الذات الإلهية، وأصله: الإله، فحذفت الهمزة، لكثرة الاستعمال تخفيفًا.

وهو بمعنى مألوه، فهو فعال؛ بمعنى: مفعول، مثل غراس؛ بمعنى: مغروس، وفراش؛ بمعنى: مفروش، والمألوه: المحبوب المعظم.

قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، المراد بـ ﴿الْعَالَمِينَ﴾: ما سوى الله، وسمي بذلك، لأنه علم على خالقه.

قال الشاعر:

فواعجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وهي تطلق على العالمين بهذا المعنى، وتطلق على العالمين في وقت معين، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة:٤٧]؛ يعني: عالمي زمانهم.

والرب هنا: المالك المتصرف، وهذه ربوبية مطلقة.

الآية الثانية: قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾، الجملة حالية من قوله: ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: حال كونه لا شريك له، والله -سبحانه- لا شريك له في عبادته ولا في ربوبيته ولا أسمائه وصفاته، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

وقد ضل من زعم أن لله شركاء كمن عبد الأصنام أو عيسى ابن مريم عليه السلام، وكذلك بعض غلاة الشعراء الذين جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق، كقول بعضهم يخاطب ممدوحًا له:

فكن كمن شئت يا من لا شبيه له ... وكيف شئت فما خلق يدانيك

وكقول البوصيري في قصيدته في مدح الرسول ﷺ:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن آخذًا يوم المعاد يدي ... فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا من أعظم الشرك؛ لأنه جعل الدنيا والآخرة من جود الرسول، ومقتضاه أن الله جل ذكره ليس له فيهما شيء.

وقال: إن من علومك علم اللوح والقلم؛ يعني: وليس ذلك كل علومك، فما بقي لله علم ولا تدبير -والعياذ بالله-.

قوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أُمِرْتُ﴾، فيكون دالًّا على الحصر والتخصيص، وإنما خص بذلك، لأنه أعظم المأمورات، وهو الإخلاص لله تعالى ونفي الشرك، فكأنه ما أمر إلا بهذا، ومعلوم أن من أخلص لله تعالى، فسيقوم بعبادة الله -سبحانه وتعالى- في جميع الأمور.

قوله: ﴿أُمِرْتُ﴾: إبهام الفاعل هنا من باب التعظيم والتفخيم، وإلا، فمن المعلوم أن الآمر هو الله تعالى.

قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، يحتمل أن المراد الأولية الزمنية، فيتعين أن تكون أولية إضافية ويكون المراد: أنا أول المسلمين من هذه الأمة، لأنه سبقه في الزمن من أسلموا.

ويحتمل أن المراد: الأولية المعنوية، فإن أعظم الناس إسلامًا وأتمهم انقيادًا هو الرسولﷺ، فتكون الأولية أولية مطلقة.

ومثل هذا التعبير يقع كثيرًا أن تقع الأولية أولية معنوية، مثل أن تقول: أنا أول من يصدق بهذا الشيء، وإن كان غيرك قد صدق قبلك، لكن تريد أنك أسبق الناس تصديقًا بذلك، ولن يكون عندك إنكار أبدًا، ومثل قولهﷺ: «**نحن أولى بالشك من إبراهيم حينما قال:** ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[البقرة:٢٦٠]». فليس معناه أن إبراهيم شاك، لكن إن قدر أن يحصل شك، فنحن أولى بالشك منه وإلا، فلسنا نحن شاكين، وكذلك إبراهيم ليس شاكًّا.

قوله: ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمان، لأن المراد به الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾[البقرة:١١٢]، وهذا إسلام الباطن.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، هذا إسلام الظاهر، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٨٥] يشمل الإسلام الباطن والظاهر، وإذا ذكر الإيمان دخل فيه الإسلام، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[التوبة:٧٢].

ومتىٰ وجد الإيمان حقًّا لزم من وجوده الإسلام.

وأما إذا قرنا جميعًا صار الإسلام في الظاهر والإيمان في الباطن، مثل حديث جبريل،(٣٣٧) وفيه: أخبرني عن الإسلام، فأخبره عن أعمال ظاهرة، وأخبرني عن الإيمان، فأخبره عن أعمال باطنة.

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

والشاهد من الآية التي ذكرها المؤلف: أن الذبح لابد أن يكون خالصًا لله.

الآية الثالثة: قوله: ﴿فَصَلِّ﴾، الفاء للسببية عاطفة علىٰ قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١] أي: بسبب إعطائنا لك ذلك صل لربك وانحر شكرًا لله تعالىٰ علىٰ هذه النعمة.

والمراد بالصلاة هنا: الصلاة المعروفة شرعًا.

وقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، المراد بالنحر: الذبح، أي: اجعل نحرك لله كما أن صلاتك له، فأفادت هذه الآية الكريمة أن النحر من العبادة؛ ولهذا أمر الله به وقرنه بالصلاة.

وقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾: مطلق، فيدخل فيه كل ما ثبت في الشرع مشروعيته، وهي ثلاثة أشياء: الأضاحي، والهدايا، والعقائق، فهذه الثلاثة يطلب من الإنسان أن يفعلها.

أما الهدايا؛ فمنها واجب، ومنها مستحب، فالواجب كما في التمتع: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة:١٩٦] وكما في حلق الرأس: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]، وكما في المحصر: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة:١٩٦]، هذا إن صح أن نقول: إنها هدي، ولكن الأولىٰ أن نسميها فدية كما سماها الله ﷻ لأنها بمنزلة الكفارة.

وأما الأضاحي؛ فاختلف العلماء فيها: فمنهم من قال: إنها واجبة. ومنهم من قال: إنها مستحبة. وأكثر أهل العلم علىٰ أنها مستحبة، وأنه يكره للقادر تركها. ومذهب أبي حنيفة رحمه الله أنها واجبة علىٰ القادر، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية.

---

(٣٣٧) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، برقم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

والأضحية ليست عن الأموات كما يفهمه العوام، بل هي للأحياء، وأما الأموات، فليس من المشروع أن يضحىٰ لهم استقلالًا، إلا إن أوصوا به، فعلىٰ ما أوصوا به لأن ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ

وأما العقيقة: وهي التي تذبح عن المولود في يوم سابعه إن كان ذكرًا فاثنتان، وإن كان أنثىٰ فواحدة، وتجزئ الواحدة مع الإعسار في الذكور.

وهي سنة عند أكثر أهل العلم، وقال بعض أهل العلم: إنها واجبة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**كل غلام مرتهن بعقيقته**».

❁ **قوله: «كلمات»**:

جمع كلمة، والكلمة في اصطلاح النحويين: القول المفرد.

أما في اللغة، فهي كل قول مفيد، قال الرسول ﷺ «**أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**» وقال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، وهي قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

قال شيخ الإسلام: لا تطلق الكلمة في اللغة العربية إلا علىٰ الجملة المفيدة.

قوله: «**لعن الله**»: اللعن من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فإذا قيل: لعنه الله، فالمعنىٰ: طرده وأبعده عن رحمته، وإذا قيل: اللهم العن فلانًا؛ فالمعنىٰ: أبعده عن رحمتك واطرده عنها.

قوله: «**من ذبح لغير الله**»: عام يشمل من ذبح بعيرًا، أو بقرة، أو دجاجة، أو غيرها.

قوله: «**لغير الله**»: يشمل كل من سوىٰ الله حتىٰ لو ذبح لنبي، أو ملك، أو جنيّ، أو غيرهم.

وقوله: «**لعن**»: يحتمل أن تكون الجملة خبرية، وأن الرسول ﷺ يخبر أن الله لعن من ذبح لغير الله، ويحتمل أن تكون إنشائية بلفظ الخبر؛ أي: اللهم العن من ذبح لغير الله، والخبر أبلغ؛ لأن الدعاء قد يستجاب، وقد لا يستجاب.

قوله: «**والديه**»: يشمل الأب والأم، ومن فوقهما؛ لأن الجد أب، كما أن أولاد الابن والبنت أبناء في وجوب الاحترام لأصولهم.

والمسألة هنا ليست مالية، بل هي من الحقوق، ولعن الأدنىٰ أشد من لعن الأعلىٰ؛ لأنه أولىٰ بالبر، ولعنه ينافي البر.

قوله: «**من لعن والديه**»؛ أي: سبهما وشتمهما، فاللعن من الإنسان السب والشتم، فإذا سببت إنسانًا أو شتمته، فهذا لعنه لأن النبي ﷺ قيل له: كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»(٣٣٨).

وأخذ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة، وهي: أن السبب بمنزلة المباشرة في الإثم، وإن كان يخالفه في الضمان على تفصيل في ذلك عند أهل العلم.

قوله: «**من آوى محدثًا**»؛ أي: ضمه إليه وحماه، والإحداث: يشمل الإحداث في الدين، كالبدع التي أحدثها الجهمية والمعتزلة، وغيرهم.

والإحداث في الأمر؛ أي: في شئون الأمة، كالجرائم وشبهها، فمن آوى محدثًا، فهو ملعون، وكذا من ناصرهم؛ لأن الإيواء أن تأويه لكف الأذى عنه، فمن ناصره، فهو أشد وأعظم.

والمحدث أشد منه؛ لأنه إذا كان إيواؤه سببًا للعنة، فإن نفس فعله جرم أعظم.

ففيه التحذير من البدع والإحداث في الدين، قال النبي ﷺ: «**إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»(٣٣٩) وظاهر الحديث: ولو كان أمرًا يسيرًا.

قوله: «**منار الأرض**»؛ أي: علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران، فمن غيرها ظلمًا، فهو ملعون، وما أكثر الذين يغيرون منار الأرض، لاسيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أن الرسول ﷺ يقول: «**من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا، طوقه من سبع أرضين**»(٣٤٠) فالأمر عظيم، مع أن هذا الذي يقتطع من الأرض ويغير المنار، ويأخذ ما لا يستحق لا يدري: قد يستفيد منها في دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يسلط عليه آفة تأخذ ما أخذ.

فالحاصل: أن هذا دليل على أن تغيير منار الأرض من كبائر الذنوب، ولهذا قرنه النبي ﷺ بالشرك وبالعقوق وبالإحداث، مما يدل على أن أمره عظيم، وأنه يجب على المرء أن يحذر منه، وأن يخاف الله -سبحانه وتعالى- حتى لا يقع فيه.

---

(٣٣٨)سبق تخريجه.

(٣٣٩)سبق تخريجه.

(٣٤٠)سبق تخريجه.

قوله: «عن طارق بن شهاب»:

في الحديث علتان:

الأولى: أن طارق بن شهاب اتفقوا على أنه لم يسمع من النبي ﷺ واختلفوا في صحبته، والأكثرون على أنه صحابي.

لكن إذا قلنا: إنه صحابي، فلا يضر عدم سماعه من النبي ﷺ لأن مرسل الصحابي حجة، وإن كان غير صحابي، فإنه مرسل غير صحابي، وهو من أقسام الضعيف.

الثانية: أن الحديث معنعن من قبل الأعمش، وهو من المدلسين، وهذا آفة في الحديث، فالحديث في النفس منه شيء من أجل هاتين العلتين.

ثم للحديث علة ثالثة: وهي أن الإمام أحمد رواه عن طارق عن سلمان موقوفًا من قوله، وكذا أبو نعيم وابن أبي شيبة، فيحتمل أن سلمان أخذه عن بني إسرائيل.

قوله: «في ذباب»: «في»: للسببية، وليست للظرفية؛ أي: بسبب ذباب، ونظيره قول النبي ﷺ «**دخلت النار امرأة في هرة حبستها...**»الحديث؛ أي: بسبب هرة.

قوله: «**فدخل النار**»: مع أنه ذبح شيئًا حقيرًا لا يؤكل، لكن لما نوى التقرب به إلى هذا الصنم، صار مشركًا، فدخل النار.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾: وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: تفسير: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾: وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله: بدأ به؛ لأنه من الشرك، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولًا بالتوحيد؛ لأن حق الله أعظم الحقوق، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء:٣٦] وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وينبغي أن يبدأ في المناهي والعقوبات بالشرك وعقوبته.

الرابعة: لعن من لعن والديه. ولعن الرجل للرجل له معنيان:

الأول: الدعاء عليه باللعن.

الثاني: سبه وشتمه؛ لأن الرسول ﷺفسره بقوله: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**» (٣٤١).

---

(٣٤١)سبق تخريجه

الخامسة: لعن من آوىٰ محدثًا، وقد سبق أنه يشمل الإحداث في الدين والجرائم، فمن آوىٰ محدثًا ببدعة، فهو داخل في ذلك، ومن آوىٰ محدثًا بجريمة، فهو داخل في ذلك.

السادسة: لعن من غير منار الأرض...: وسواء كانت بينك وبين جارك أو بينك وبين السوق مثلًا؛ لأن الحديث عام.

السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي علىٰ سبيل العموم، فالأول: ممنوع، والثاني: جائز، فإذا رأيت من آوىٰ محدثًا، فلا تقل: لعنك الله، بل قل: لعن الله من آوىٰ محدثًا علىٰ سبيل العموم، والدليل علىٰ ذلك أن النبيﷺ لما صار يلعن أناسًا من المشركين من أهل الجاهلية بقوله: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا وفلانًا**» نهي عن ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[آل عمران:١٢٨]، فالمعين ليس لك أن تلعنه، وكم من إنسان صار علىٰ وصف يستحق به اللعنة ثم تاب فتاب الله عليه، إذًا يؤخذ هذا من دليل منفصل، وكأن المؤلفرَحِمَهُ اللَّهُ قال: الأصل عدم جواز إطلاق اللعن، فجاء هذا الحديث لاعنًا للعموم، فيبقىٰ الخصوص علىٰ أصله؛ لأن المسلم ليس بالطعان ولا باللعان، والرسولﷺ ليس طعانًا ولا لعانًا، ولعل هذا وجه أخذ الحكم من الحديث، وإلا، فالحديث لا تفريق فيه.

الثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب: كأن المؤلفرَحِمَهُ اللَّهُ يصحح الحديث، ولهذا بنىٰ عليه حكمًا، والحكم المأخوذ من دليل فرع عن صحته، والقصة معروفة.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصًا من شرهم: هذه المسألة ليست مسلمة، فإن قوله: قرب ولو ذبابًا يقتضي أنه فعله قاصدًا التقرب، أما لو فعله تخلصًا من شرهم، فإنه لا يكفر لعدم قصد التقرب، ولهذا قال الفقهاء: لو أكره علىٰ طلاق امرأته فطلق تبعًا لقول المكره، لم يقع الطلاق، بخلاف ما لو نوىٰ الطلاق، فإن الطلاق يقع، وإن طلق دفعًا للإكراه، لم يقع، وهذا حق لقولهﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**».

وظاهر القصة أن الرجل ذبح بنية التقرب؛ لأن الأصل أن الفعل المبني علىٰ طلب يكون موافقًا لهذا الطلب.

ونحن نرىٰ خلاف ما يرىٰ المؤلفرَحِمَهُ اللَّهُ؛ أي: أنه لو فعله بقصد التخلص ولم ينو التقرب لهذا الصنم لا يكفر، لعموم قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾[النحل:١٠٦]

وهذا الذي فعل ما يوجب الكفر تخلصًا مطمئن قلبه بالإيمان.

والصواب أيضًا: أنه لا فرق بين القول المكره عليه والفعل، وإن كان بعض العلماء يفرق ويقول: إذا أكره علىٰ القول لم يكفر، وإذا أكره علىٰ الفعل كفر، ويستدل بقصة الذباب، وقصة الذباب فيها نظر من حيث صحتها، وفيها نظر من حيث الدلالة، لما سبق أن الفعل المبني علىٰ طلب يكون موافقًا لهذا الطلب.

ولو فرض أن الرجل تقرب بالذباب تخلصًا من شرهم، فإن لدينا نصًّا محكمًا في الموضوع، وهو قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [النحل:١٠٦]، ولم يقل: بالقول، فما دام عندنا نص قرآني صريح، فإنه لو وردت السنة صحيحة علىٰ وجه مشتبه، فإنها تحمل علىٰ النص المحكم.

الخلاصة:

أن من أكره علىٰ الكفر، لم يكن كافرًا ما دام قلبه مطمئنًّا بالإيمان ولم يشرح بالكفر صدرًا.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين.. إلخ، وقد بينها المؤلف رحمه الله تعالىٰ.

مسألة:

هل الأولىٰ للإنسان إذا أكره علىٰ الكفر أن يصبر ولو قتل، أو يوافق ظاهرًا ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولًا: أن يوافق ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا يجوز لأنه ردة.

ثانيًا: أن يوافق ظاهرًا لا باطنًا، ولكن يقصد التخلص من الإكراه، فهذا جائز.

ثالثًا: أن لا يوافق لا ظاهرًا ولا باطنًا ويقتل، وهذا جائز، وهو من الصبر.

لكن أيهما أولىٰ أن يصبر ولو قتل، أو أن يوافق ظاهرًا؟

فيه تفصيل:

إذا كان موافقة الإكراه لا يترتب عليه ضرر في الدين للعامة، فإن الأولىٰ أن يوافق ظاهرًا لا باطنًا، لا سيما إذا كان بقاؤه فيه مصلحة للناس، مثل: صاحب المال الباذل فيما ينفع أو العلم النافع وما أشبه ذلك، حتىٰ وإن لم يكن فيه مصلحة، ففي بقائه علىٰ الإسلام زيادة عمل، وهو خير، وهو قد رخص له أن يكفر ظاهرًا عند الإكراه، فالأولىٰ أن يتأول، ويوافق ظاهرًا لا باطنًا.

أما إذا كان في موافقته وعدم صبره ضرر علىٰ الإسلام، فإنه يصبر، وقد يجب الصبر؛ لأنه من باب الصبر علىٰ الجهاد في سبيل الله، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شكىٰ الصحابة للنبي ﷺ ما يجدونه من مضايقة المشركين، قص عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأن الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده بأمشاط الحديد ويصبر، فكأنه يقول لهم: اصبروا علىٰ الأذىٰ.

ولو حصل من الصحابة رضي الله عنهم في ذلك الوقت موافقة للمشركين وهم قلة، لحصل بذلك ضرر عظيم على الإسلام.

والإمام أحمد رحمه الله في المحنة المشهورة لو وافقهم ظاهرًا، لحصل في ذلك مضرة على الإسلام.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافرًا لم يقل: «دخل النار في ذباب»: وهذا صحيح؛ أي: أنه كان مسلمًا ثم كفر بتقريبه للصنم، فكان تقريبه هو السبب في دخوله النار.

ولو كان كافرًا قبل أن يقرب الذباب، لكان دخوله النار لكفره أولى، لا بتقريبه الذباب.

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»(٣٤٢): والغرض من هذا: الترغيب والترهيب، فإذا علم أن الجنة أقرب إليه من شراك النعل، فإنه ينشط على السعي، فيقول: ليست بعيدة، كقوله ﷺ لما سئل عما يدخل الجنة ويباعد من النار، فقال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه**»(٣٤٣). والنار إذا قيل له: إنها أقرب من شراك النعل يخاف، ويتوقى في مشية لئلا يزل فيهلك، ورب كلمة توصل الإنسان إلى أعلى عليين، وكلمة أخرى توصله إلى أسفل سافلين.

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان، والحقيقة أن هذه المسألة مع التاسعة فيها شبه تناقض؛ لأنه في هذه المسألة أحال الحكم على عمل القلب، وفي التاسعة أحاله على الظاهر، فقال: بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصًا من شرهم، ومقتضى ذلك أن باطنه سليم، وهنا يقول: إن العمل بعمل القلب، ولا شك أن ما قاله المؤلف رحمه الله حق بالنسبة إلى أن المدار على القلب.

والحقيقة أن العمل مركب على القلب، والناس يختلفون في أعمال القلوب أكثر من اختلافهم في أعمال الأبدان، والفرق بينهم قصدًا وذلًا أعظم من الفرق بين أعمالهم البدنية؛ لأن من الناس من يعبد الله لكن عنده من الاستكبار ما لا يذل معه ولا يذعن لكل حق، وبعضهم يكون عنده ذل للحق، لكن عنده نقص في القصد، فتجد عنده نوعًا من الرياء مثلًا.

---

(٣٤٢) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله...، برقم (٦٤٨٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣٤٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٧٣)، وغيرهما من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

فأعمال القلب وأقواله لها أهمية عظيمة، فعلىٰ الإنسان أن يخلصها لله.

وأقوال القلب هي اعتقاداته، كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وأعماله هي تحركاته، كالحب، والخوف، والرجاء، والتوكل، والاستعانة، وما أشبه ذلك.

والدواء لذلك: القرآن والسنة، والرجوع إلىٰ سيرة الرسولﷺ بمعرفة أحواله وأقواله وجهاده ودعوته، هذا مما يعين علىٰ جهاد القلب.

ومن أسباب صلاح القلب أن لا تشغل قلبك بالدنيا.

قال العلامة ابن فوزان:

✿ **قوله:** «باب ما جاء في الذبح لغير الله»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ فيه بيانًا لنوع من أنواع الشرك المضاد للتوحيد.

«ما جاء في الذبح لغير الله»؛ أي: من الوعيد وفي بيان حكمه.

✿ **قوله:** ﴿وَنُسُكِي﴾: ذبحي.

﴿وَمَحْيَايَ﴾: ما آتيه في حياتي.

﴿وَمَمَاتِي﴾: ما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾؛ أي: أمرني ربي بالإخلاص في العبادة.

﴿أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: أول من يمتثل من هذه الأمة.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يأمر الله نبيه أن يقول للمشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغيره: إني أخلص لله صلاتي وذبحي، وما أحيا وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح، أصرف كل ذلك له وحده لا أشرك به أحدًا عكس ما أنتم عليه من الشرك به.

مناسبة الآية للباب:

أنها تدل علىٰ أن الذبح لغير الله شرك.

ما يستفاد من الآية:

١- أنَّ الذبح لغير الله شرك أكبر؛ لأنه قرنه بالصلاة، فكما أن من صلىٰ لغير الله فقد أشرك فكذلك من ذبح لغيره فقد أشرك.

٢- أنَّ الصلاة والذبح من أعظم العبادات.

٣- وجوب الإخلاص لله في جميع العبادات.

٤- أنَّ العبادات توقيفية - أي: متوقفة علىٰ أمر الشارع - لقوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾.

قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾:

أي: لا لغيره.

﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ أي: اذبح

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يأمر الله نبيه ﷺ أن يخلص له في صلاته وذبيحته مخالفًا للمشركين الذين يعبدون غير الله وينحرون للأوثان.

مناسبة الآية للباب:

أن الذبح عبادة يجب إخلاصها لله، وصرفها لغيره شرك أكبر.

ما يستفاد من الآية:

١- أنَّ الذبح لغير الله شرك أكبر؛ لأنه عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك أكبر.

٢- أنَّ الصلاة والذبح من أعظم العبادات.

٣- أنَّ الصلاة والذبح لله من أعظم مظاهر شكر النعم، فإنه أتىٰ بـ«الفاء» الدالة علىٰ السبب؛ لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه من الكوثر.

قوله: «لعن الله»:

اللعنة من الله: الطرد والإبعاد، ومن المخلوقين: السب والدعاء.

«**ذبح لغير الله**»: من الأصنام أو الأولياء والصالحين أو الجنِّ أو غير ذلك.

«**لعن والديه**»؛ المراد بهما: أبوه وأمُّه وإن علوا، سواء باشر لعنهما أو تسبب فيه بأن يعلن والدي شخص فيردَّ عليه بالمثل.

«آوىٰ»؛ أي: ضمَّ وحمىٰ.

«محدثًا»: بكسر «الدال» الجاني، وبفتحها هو الأمر المبتدع في الدين، وإيواؤه الرضا به.

«غير منار الأرض»: منار الأرض هي المراسيم التي تفرق بين ملكك وملك جارك، وتغييرها يكون بتقديمها أو تأخيرها.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يحذر ﷺ أمته من أربع جرائم، فيخبر أن الله تعالىٰ يطرد من رحمته من ارتكب واحدة منها:

الأولىٰ: التقرب بالذبح إلىٰ غير الله، لأنه صرف للعبادة إلىٰ غير مستحقها.

الثانية: من دعا علىٰ والديه باللعنة أو سبهما أو تسبب في ذلك بأن يصدر منه ذلك في حق أبوي شخص فيرد عليه ذلك الشخص بالمثل.

الثالثة: من حمىٰ جانيًا مستحقًّا للحد الشرعي فمنعه من أن يقام عليه الحد، أو رضي ببدعة في الدين وأقرَّها.

الرابعة: من تصرف في مراسيم الأرض التي تفرق الحقوق فقدمها أو أخرها عن مكانها، فينشأ عن ذلك اقتطاع شيء من أرض غيره ظلمًا.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه دليلًا علىٰ غلظ تحريم الذبح لغير الله حيث إنَّ فاعله أول من يستحق لعنة الله.

ما يستفاد من الحديث:

١ - أنَّ الذبح لغير الله محرم شديد التحريم وشرك في مقدمة الكبائر.

٢- أنَّ الذبح عبادة يجب صرفها لله وحده.

٣- تحريم لعن الوالدين وسبهما مباشرة أو تسببًا.

٤- تحريم مناصرة المجرمين وحمايتهم من تطبيق الحدِّ الشرعيِّ عليهم وتحريم الرضا بالبدع.

٥- تحريم التصرف في حدود الأرض بتقديم أو تأخير.

٦ - جواز لعن أنواع الفساق لأجل الزجر عن المعاصي.

✿ **قوله: «طارق بن شهاب»:**

هو طارق بن شهاب البجلي الأحمسي رأىٰ النبيﷺ ولم يسمع منه. فحديثه مرسل، صحابي. مات طارق سنة ٨٣هـ رضي الله عنه.

«في ذباب»؛ أي: بسبب ذبابٍ.

«صنم»: ما كان منحوتًا علىٰ صورة.

«لا يجاوزه»: لا يمر به ولا يتعداه.

«يقرب»: يذبح.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر النبي ﷺ عن خطورة الشرك وشناعته، فيحدث أصحابه ويبدأ حديثه ببداية تجعل النفوس تستغرب وتتطلع إلىٰ سياق هذا الحديث «دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب»، شيء يسيرٌ سبَّبَ أمرًا خطيرًا، وأوجب السؤال عن تفصيله، وهنا يفصل فيقول: إن رجلين - يظهر أنهما من بني إسرائيل - أرادا العبور من مكان يحُلُّ في ساحته صنم يفرض علىٰ من أراد تجاوزه أن يذبح له تقربًا إليه وتعظيمًا له، فطلب عباد ذلك الصنم من الرجلين التمشي علىٰ هذا النظام الشركي، فأما أحدهما فاعتذر بالعدم فقنعوا منه بأيسر شيء؛ لأن مقصودهم حصول الموافقة علىٰ الشرك، فذبح للصنم ذبابا، فتركوه يمر فدخل بسبب فعله هذا نار جهنم؛ لأنه فعل الشرك ووافقهم عليه وطلبوا من الآخر أن يقرب للصنم فاعتذر بأن هذا شرك ولا يمكن أن يفعله فقتلوه فدخل الجنة؛ لامتناعه من الشرك.

مناسبة الحديث للباب:

أنه دل علىٰ أن الذبح عبادة، وأن صرفه لغير الله شرك.

ما يستفاد من الحديث:

١- بيان خطورة الشرك ولو في شيء قليل.

٢- أن الشرك يوجب دخول النار، وأن التوحيد يوجب دخول الجنة.

٣- أن الإنسان قد يقع في الشرك وهو لا يدري أنه الشرك الذي يوجب النار.

٤- التحذير من الذنوب وإن كانت صغيرة في الحسبان.

٥- أن هذا الرجل دخل النار بسبب لم يقصده ابتداء وإنما فعله تخلصًا من شر أهل الصنم.

٦- أن المسلم إذا فعل الشرك أبطل إسلامه ودخل النار؛ لأن هذا الرجل كان مسلمًا وإلا لم يقل: «دخل النار في ذباب».

٧- أن المعتبر عمل القلب وإن صغر عمل الجوارح وقلَّ.

٨- أن الذبح عبادة وصرفه لغير الله شرك أكبر.

٩- فضل التوحيد وعظيم ثمرته.

١٠- فضيلة الصبر على الحق.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب ما جاء في الذبح لغير الله»:**

الذبح معروف، وهو: إراقة الدم.

وقوله: «**لغير الله**» يعني: متقربًا به إلى غير الله، أي: ذبح لأجل غير الله، والذبح فيه شيئان مهمان، وهما نكتة هذا الباب، وعقدته:

الأول: الذبح باسم الله، أو الذبح بالإهلال باسم ما.

الثاني: أن يذبح متقربًا لما يريد أن يتقرب إليه، فإذًا: ثَمَّ التسمية، وثَمَّ القصد، وهما شيئان، أما التسمية، فظاهر: أن ما ذُكر عليه اسم الله فإنه جائز كما قال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾ [الأنعام: ١١٨] وأن ما لم يذكر اسم الله عليه، فهذا الذي أهل لغير، يعني ذكر غير اسم الله عليه، فهذا مما أهل لغير الله به كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

فالتسمية على الذبيحة من جهة المعنى: استعانة، فإذا سمى الله: فإنه استعان في هذا الذبح بالله -جل وعلا-؛ لأن الباء في قولك: باسم الله، يعني أذبح متبركًا، ومستعينًا بكل اسم لله -جل وعلا-، أو بالله -جل وعلا- الذي له الأسماء الحسنى، فجهة التسمية إذًا جهة استعانة.

وأما القصد: فهذه جهة عبودية ومقاصد، فمن ذبح باسم الله لله كانت الاستعانة بالله والقصد من الذبح أنه لوجه الله تقربًا لله -جل وعلا-، فصارت الأحوال عندنا أربعة:

١ - أن يذبح باسم الله لله، فهذا هو التوحيد.

٢ - أن يذبح باسم الله لغير الله، وهذا شرك في العبادة.

٣ - أن يذبح باسم غير الله لغير الله، وهذا شرك في الاستعانة، وشرك في العبادة أيضًا.

٤ - أن يذبح بغير اسم الله ويجعل الذبيحة لله، فهذا شرك في الربوبية.

فإذًا الأحوال عندنا أربعة:

إما أن يكون هناك تسمية بالله مع القصد لله -جل وعلا- وحده، وهذا هو التوحيد، وهو العبادة، فالواجب أن يذبح لله: قصدًا تقربًا، وأن يسمي الله -جل وعلا- علىٰ الذبيحة، فإن لم يسم الله -جل وعلا- وترك التسمية عمدًا فإن الذبيحة لا تحل، وإن لم يقصد بالذبيحة التقرب إلىٰ الله -جل وعلا- ولا التقرب لغيره، وإنما ذبحها لأجل أضياف عنده أو لأجل أن يأكلها، يعني: ذبحها لقصد اللحم، ولم يقصد بها التقرب: فهذا جائز، وهو من المأذون فيه؛ لأن الذبح لا يُشترط فيه أن ينوي الذابح التقرب بالذبيحة إلىٰ الله -جل وعلا-.

فالحاصل من الحالة الأولىٰ: أن ذكر اسم الله علىٰ الذبيحة واجب، وأن يكون قصد الذابح بها: التقرب إلىٰ الله - إن كان قد نوىٰ بها تقربًا - وهذا مثل ما يذبح من الأضاحي، أو يذبح من الهدي ونحو ذلك مما يذبحه المرء تعظيمًا لله -جل وعلا- مما أمر به شرعًا، فهذا الذي تذبحه لله: تقصد التقرب به إليه - سبحانه -، فهذا من العبادات العظيمة التي يحبها الله -جل وعلا- وهي عبادة النحر والذبح.

لكن قد يذبح المرء باسم الله، ولكن يقول: أريدها للأضياف، أو أريدها للحم يعني للأكل، ولم أتقرب بها لغير الله، وأيضا لم أتقرب بها لله، فنقول: هذه الحالة جائزة؛ لأنه سمىٰ وقال باسم الله، ولم يذبح لغير الله، فليس داخلًا في الوعيد، ولا في النهي، بل ذلك من المأذون فيه.

الحالة الثانية: أن يذبح باسم الله، ويقصد بذلك التقرب لغير الله، فيقول مثلًا: باسم الله، وينحر الدم، وهو ينوي بإزهاق النفس، وبإراقة الدم التقرب لهذا العظيم المدفون، أو لهذا النبي، أو لهذا الصالح، فهذا وإن ذكر اسم الله فإن الشرك حاصل من جهة أنه أراق الدم تعظيمًا للمدفون، وتعظيمًا لغير الله، ويدخل في ذلك أيضًا: أن يذكر اسم الله علىٰ الذبيحة، أو علىٰ المنحور، ويكون قصده بالذبح أن يتقرب به للسلطان، أو للملك، أو لأمير ما، كما يحدث عند بعض البادية، وكذلك بعض الحضر إذا أرادوا أن يعظموا ملكًا قادمًا، أو أميرًا، أو سلطانًا، أو شيخ قبيلة، فإنهم يستقبلونه بالجمال، أو بالبقر، أو بالشياه، ويذبحونها في وجهه، فيسيل الدم عند

إقباله، فهذا الذبح وإن سمىٰ الله عليه، فإن الذبيحة قصد بها غير الله -جل وعلا- ولذا أفتىٰ العلماء بتحريمها؛ لأن فيها إراقة دم لغير الله -جل وعلا- فلا يجوز أكلها ومن باب أولىٰ قبل ذلك لا يجوز تعظيم أولئك بمثل هذا التعظيم؛ لأن إراقة الدم إنما يعظم به الله -جل وعلا- وحده؛ لأنه سبحانه هو الذي يستحق العبادة والتعظيم بهذه الأشياء وحده، فهو الذي أجرىٰ الدماء في العروق سبحانه وتعالىٰ.

الحالة الثالثة: أن يذكر غير اسم الله علىٰ الذبيحة، وأن يقصد بها غير الله -جل وعلا- فيقول مثلًا: باسم المسيح، ويحرك يده، ويقصد بها التقرب للمسيح، فهذا الذبح جمع شركًا في الاستعانة، وشركًا في العبادة، ومثله: الذين يذبحون باسم البدوي، أو باسم الحسين، أو باسم السيدة زينب، أو باسم العيدروس، أو باسم الميرغياني، أو غيرهم من الذين توجه إليهم بعض الخلق بالعبادة، فيذبح باسمهم ويقصد بذبحه هذا المخلوق؛ وينوي حين ذبح أن يريق الدم تقربًا لهذا المخلوق. فهذا الشرك جاء من جهتين :

الجهة الأولىٰ: جهة الاستعانة.

والجهة الثانية: جهة العبودية والتعظيم، وإراقة الدم لغير الله -جل وعلا-.

والحالة الرابعة: أن يذبح باسم غير الله ويجعل ذلك لله -جل وعلا- وهذا نادر الوقوع وربما يحصل، كمن يذبحون لمعظميهم: كالبدوي، أو العيدروس، أو الشيخ عبد القادر، أو غيرهم. فينوون بذلك الذبح التقرب إلىٰ الله -جل وعلا-، وهذا في الحقيقة راجع إلىٰ الشرك في الاستعانة، والشرك في العبادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مَعرِض كلام له في هذه المسائل قال: «**ومعلوم أن الشرك في العبودية أعظم من الاستعانة بغير الله**».

فهذه المراتب كلها شرك بالله -جل وعلا- والصورة المتقدمة في الحالة الثانية وهي: أن يذبح لسلطان ونحوه، فبعض العلماء لم يطلق القول عليها: بأنها شرك وإنما قال: تحرم؛ لأجل أنه قد لا يقصد بذلك تعظيم المذبوح له كتعظيم الله -جل وعلا-، فالمقصود: أن قصد غير الله بالذبح شرك في العبودية، وذكر غير اسم الله علىٰ الذبيحة شرك في الاستعانة؛ ولهذا قال -جل وعلا-

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١] يعني: إن أطعتموهم في الشرك فإنكم مشركون، كما أنهم مشركون.

وأنبه هنا على مسألة مهمة: وهي أن الكلام في مسائل التوحيد تقريرًا واستدلالًا، وبيان وجه الاستدلال: من الأمور الدقيقة، والتعبير عنها يحتاج إلى دقة من جهة المعبر، وأيضا من جهة المتلقي، أقول هذا؛ لأن بعض الناس قد استشكلوا بعض العبارات ومدار الاستشكال: أنهم لم يدققوا، ولم يقيدوا ما يقال، فهم إما أن يحذفوا قيدًا، أو يحذفوا كلمة، أو يأخذوا المعنى الذي دل عليه الكلام، ويعبروا عنه بطريقتهم، وهذا غير مناسب، لهذا ينبغي أن يكون المتلقي لهذا العلم دقيقًا فيما يسمع؛ لأن كل مسألة لها ضوابطها، ولها قيودها، وأيضا: فإن بعض المسائل يكون الكلام عليها تارة مجملًا، ويكون المتلقي قد سمع أحد أحوال المسألة، وهي تحتمل تفصيلًا، لكن كان الكلام فيها مجملًا، ومن المعلوم أن الكلام في مقام الإجمال: غير الكلام في مقام التفصيل.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ...﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]»:

هذه الآية تدل على أن عبادة الصلاة، وعبادة النسك - وهو الذبح - هما لله -جل وعلا- وحده. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ﴾ و﴿إِنَّ﴾ من المؤكدات، ومجيء التأكيد في الجمل الخبرية يفيد: أن من خوطب بذلك مُنكِر لهذا الأمر، أو مُنَزَّل مَنزِلَةَ المُنكِر له، ولهذا يكون الاستدلال بهذه الآية على التوحيد من جهة أنها خوطب بها من ينكر أن الصلاة لله وحده استحقاقًا، وأن الذبح لله وحده استحقاقًا - هم المشركون - فدل على أن هذه الآية في التوحيد وأن الذبح يجب أن يكون لله -جل وعلا- وأن الذبح لغيره مخالف لما يستحقه الرب -جل وعلا-.

والنسك في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ هو: الذبح أو النحر، يعني: التقرب بالدم، والتقرب بالدم لله -جل وعلا-: عبادة عظيمة؛ لأن الذبائح، أو المنحورات من الإبل أو البقر، أو الغنم، أو الضأن، مما تعظم في نفوس أهلها، ونحرها تقربًا إلى الله -جل وعلا- والصدقة بها عبادة عظيمة، فيها إراقة الدم لله، وفيها تعلق القلب بحسن الثواب من الله -جل وعلا-، وفيها

حسن الظن بالله تبارك وتعالى، وفيها التخلص من الشح، والرغب فيما عند الله سبحانه، بإزهاق نفس عزيزة عند أهلها؛ ولهذا كان النحر، والذبح عبادة من العبادات العظيمة التي يحبها الله - جل وعلا-.

وقد دلت هذه الآية على أن النحر والصلاة عبادتان؛ لأنه جعل النسيكة لله، والله -جل وعلا- له من أعمال خلقه العبادات فدل قوله ﴿وَنُسُكِي﴾على أن النسك عبادة من العبادات، وأنه مُستحَق لله -جل وعلا-.

واللام -هنا- في قوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ متعلّقة بمحذوف خبر (إن) في قوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ وهي تفيد الاستحقاق، واللام في اللغة تأتي لمعانٍ، واستعمالات؛ فتأتي للملك، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾[الكهف:٧٩] يعني: يملكونها. وتأتي للاختصاص - وهو شبه الملك - وتأتي للاستحقاق، كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾يعني: أن جميع أنواع المحامد مستحقة لله.

فكذلك اللام في قوله سبحانه ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾، والمعنى أنها مستحقة لله -جل وعلا-.

واللام في قوله سبحانه: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾: مع أنها واحدة، لكن يكون معناها برجوعها للأول غير معناها برجوعها للمحيا والممات، فإن الله -جل وعلا- قال في هذه الآية من آخر سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ والمحيا والممات يعني: الإحياء والإماتة، وهذه بيد الله -جل وعلا- وملك له، فهو الذي يملكها سبحانه؛ لأنها من أفراد ربوبيته -جل وعلا- على خلقه، فهذه الآية بما اشتملت عليه من هذه الألفاظ الأربع دلت على توحيد الإلهية، وعلى توحيد الربوبية فقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ يدل على توحيد العبادة، وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ يدل على توحيد الربوبية، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ إذا أرجعتها للأوليين وهما: الصلاة، والنسك، كان معناها: الاستحقاق، وإذا أرجعتها للأخير كان معناها الملك ولهذا يقول أهل التفسير هنا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لله استحقاقًا، ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ لله ملكًا، وتدبيرًا، وتصرفًا.

وقوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فيه وجه استدلال ثالث على التوحيد، حيث قال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ يعني: فيما مر، أي لا شريك له في الصلاة، والنسك؛ فلا يتوجه بالصلاة والنسك إلى أحد مع الله -جل وعلا- أو من دونه، وكذلك لا شريك له في ملكه للمحيا والمات، بل هو المتفرد سبحانه بأنواع الجلال، وأنواع الكمال، وهو المستحق للعبادة، وهو ذو الملكوت الأعظم.

قوله: «وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾[الكوثر: ٢]»:

فأمر بالصلاة، وأمر بالنحر، وإذا أمر به فهو داخل في حد العبادة؛ لأن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. فأمره -جل وعلا- بالصلاة دليل على أنها محبوبة لديه، وأمره سبحانه بالنحر دليل على أنه محبوب له، ومرضي، فتكون الصلاة والنحر إذًا عبادة لله -جل وعلا-.

وعلى التعريف الآخر: إن العبادة: هي كل ما يتقرب به العبد إلى الله -جل وعلا- ممتثلًا به الأمر والنهي. فيكون النحر عبادة أيضًا؛ لأنه يُعمل تقربًا إلى الله -جل وعلا- بامتثال الأمر الوارد فيه.

قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾[الكوثر: ١] و﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ هو: الخير العظيم، ومنه النهر الذي في الجنة. والفاء في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾[الكوثر: ٢] هي فاء السببية، والمعنى: أنه بسبب ذلك: اشكر الله -جل وعلا- بتوحيده، بأن صَلِّ لربك الذي أعطاك الخير الكثير، وتقرب إليه بالنحر، وبِنُسْك النسائك له سبحانه؛ لأن الخير الذي حصل لك إنما أسداه -جل وعلا- وحده.

إذن: فوجه الدلالة من هذه الآية على الباب: أن النحر عبادة، وقد قال -جل وعلا- ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾[الكوثر: ٢] يعني: وانحر لربك، فأصبح النحر والذبح لغير الله خارجًا عما أمر الله فمن نحر أو ذبح لغير الله: فقد صرف العبادة لغيره -جل وعلا-.

❁ **قوله:** «**وعن علي** رضي الله عنه **قال: حدثني رسول الله** ﷺ **بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه...»**»:

الشاهد من هذا قوله: «**لعن الله من ذبح لغير الله**»، وهذا وعيد يدل على أن الذابح لغير الله ملعون، واللعن هو: الطرد والإبعاد من رحمة الله -جل وعلا- فإذا كان الله هو الذي لعن فيكون قد طرد وأبعد هذا الملعون من رحمته الخاصة. وأما رحمته العامة فهي تشمل المسلم والكافر، وجميع أصناف الخلق. وإن كان قوله: «**لعن الله من ذبح لغير الله**» دعاء عليه باللعن؛ فكأن النبي عليه الصلاة والسلام قال ذلك؛ داعيًا على من ذبح لغير الله -جل وعلا- باللعن وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله -جل وعلا-، وهذا يدل على أن الذبح لغير الله من الكبائر. ومن المعلوم أن اقتران ذنب من الذنوب باللعن يدل على أنه من كبائر الذنوب، وهذا ظاهر من جهة: أن الذبح لغير الله شرك بالله -جل وعلا- يستحق صاحبه اللعنة والطرد والإبعاد من رحمة الله -جل وعلا-.

واللام في قوله: «**لعن الله من ذبح لغير الله**» معناها: أن من فعل ذلك من أجل غير الله تقربًا إليه وتعظيمًا، فذبح لغير الله تقربًا إلى ذلك الغير، وتعظيمًا له فهو مستحق للعن، وهذا وجه مناسبة هذا الحديث لـ «**باب ما جاء في الذبح لغير الله**» يعني: من الوعيد وأنه شرك وصاحبه ملعون.

❁ **قوله:** «**وعن طارق بن شهاب أن رسول الله** ﷺ **قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب...»**»:

وجه الدلالة منه: أن التقرب للصنم -بالذبح- كان سببًا لدخول النار، وذلك أن ظاهر المعنى يدل أن من فعله كان مسلمًا، وأنه دخل النار بسبب ما فعل، وهذا يدل على أن الذبح لغير الله شرك أكبر؛ لأن ظاهر قوله: «**دخل النار**» يعني: استوجبها مع من يخلد فيها.

وفيه وجه آخر للدلالة: وهو أنه إذا كان تقريب هذا الذي لا قيمة له -وهو الذباب- سببًا في دخول النار، فإنه يدل على أن من قرب ما هو أبلغ، وأعظم منفعة عند أهله وأغلى، أنه سبب أعظم لدخول النار.

وقولهم هنا: «**قرِّب**»: يعني اذبح تقربًا، والملاحَظ هنا في هذا الحديث، أنه لم يدل على أنهم أكرهوه على هذا الفعل؛ لأنه قال: «**مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا**».. فظاهر

قوله: «**لا يجوزه أحد**» يعني أنهم لا يأذنون لأحد بمجاوزته عن ذلك الطريق حتىٰ يقرب، وهذا ليس إكراهًا؛ إذ يمكن أن يقول: سأرجع من حيث أتيت ولا يجوز ذلك الموضع ويتخلص من أذاهم، فهذا يدل علىٰ أن الإكراه بالفعل لم يحصل من أولئك فلا يدخل هذا في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦] لأنه ليس في الحديث دلالة - كما هو ظاهر - علىٰ حصول الإكراه، وإنما قال: «**مر رجلان علىٰ قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتىٰ يقرب له شيئًا**».. فما صفة عدم السماح بعدم المجاوزة، هل هي أنه لا يجوزه حتىٰ يقتل أو يقرب؟ أو لا يجوزه حتىٰ يقرب أو يرجع؟ استظهر بعض العلماء من قتلهم لأحد الرجلين أن المعنىٰ أنه لا يجوزه حتىٰ يقرب، أو يقتل، وأن هذا عُلم بالسياق فصار ذلك نوع إكراه؛ فلهذا استشكلوا كون هذا الحديث دالًّا علىٰ أن من فعل هذا الفعل يدخل النار مع أنه مكره.

والجواب عن هذا الإشكال: أن هذا الحديث علىٰ هذا القول وما فيه من عدم إعذار المكرَه ولو بالقتل كان في شرع مَن قبلنا. وأما رفع الإكراه، أو جواز قول كلمة الكفر، أو عمل الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان فهذا خاص بهذه الأمة، هذا ما أجاب به بعض أهل العلم.

وعلىٰ القول الأول الذي قدمناه وهو أن السياق ليس فيه ما يُعين أنهم هددوه بالقتل فيكون الحديث مجملًا، فكيف يُحمل الحديث علىٰ شيء مجمل لم يعين.

وقوله: «**فضربوا عنقه**» ليس فيه إشكال، ولا يَرِدُ علىٰ ما قلناه؛ لأنهم ربما قتلوا الذي لم يقرب شيئًا؛ لأنه أهان صنمهم بقوله: «**ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله - عز وجل -**» لهذا استشكل هذا الحديث طائفة من أهل العلم كما سبق وهو بحمد الله ليس بمشكل؛ لأنه إما أن يحمل علىٰ أنه فيمن كان قبلنا فلا وجه إذًا لدخول الإكراه، أو يحمل علىٰ أنهم لم يكرهوه حين أراد المجاوزة ولكن قتلوه لأجل قوله: «**لم أكن لأقرب لأحد شيئًا دون الله -عز وجل-**».

إذن فهذا الباب وهو قوله: «**باب ما جاء في الذبح لغير الله**» ظاهر في الدلالة علىٰ أن التقرب لغير الله -جل وعلا- بالذبح شرك به -سبحانه- في العبادة؛ فمن ذبح لغير الله؛ تقربا وتعظيما؛ فهو مشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير إن صلاتي ونسكي، أي: ذبحي وهو الشاهد من الآية.

الثانية: تفسير: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾[الكوثر:٢] ، أي: أخلص لربك صلاتك ونحرك، والشاهد قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ فلما أمر بإخلاصه لله وقرنه بالصلاة دل على أنه عبادة.

الثالثة: البداءَة بلعنة من ذبح لغير الله، أي: لكونه أعظم الذنوب.

الرابعة: لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك، أي: إما مباشرة أو تتسبب إلى ذلك.

الخامسة: لعن من آوى محدثًا وهو الرجل يحدث شيئًا يجب فيه حق الله، أي مثل حد زنى،أو سرقة فيلتجئ إلى من يجيره من ذلك، أي: يمنعه من أن يقام عليه الحد وهذا على رواية الكسر للدال.

السادسة: لعن من غير منار الأرض وهي المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك فتغيرها بتقديم أو تأخير أي: علامات حدودها،وهذا من ظلم الأرض الذي ورد فيه الوعيد.

السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم أي: إن الثاني جائز كما في هذا الحديث وأمثاله،وأما الأول ففيه خلاف فمن العلماء من أجازه، ومنهم من منع منه وصفته أن يقول لمن يراه يسرق مثلاً: لا تسرق لعنك الله.

الثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب أي لكونها صارت سببًا لدخول أحدهم النار والآخر الجنة.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده،بل فعله تخلصًا من شرهم أي: لم يقصده قبل أن يطلبوا منه،فلما خاف من شرهم تقرب حينئذٍ بذلك الذباب تخلصًا منه وليس معناه أنه لم يقصده مطلقًا إلا إن قيل: أنهم يؤاخذون بما فعلوه ولو كانوا مكرهين.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر ذلك علىٰ القتل ولم يوافقهم علىٰ طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر، أي: كونه صبر علىٰ القتل مع أنه لو وافقهم ظاهرًا لسلم منه دليل علىٰ شدة كراهته للشرك، وهذا كالذي قبله محمول علىٰ كونهم لا يعاقبون علىٰ ما فعلوه مكرهين.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم ؛لأنه لو كان كافرًا لم يقل دخل النار في ذباب، أي هو مسلم قبل أن يقرب الذباب لا بعده وإلا لما دخل النار.

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: « **الجنة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك**»، أي: لكون هذا لما قرب الذباب دخل النار، والآخر لما ضربت عنقه دخل الجنة.

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتىٰ عند عبدة الأوثان، أي: لكونهم قالوا: قرب ولو ذبابًا فقصدوا استمالة قلبه ولو لم يريدوا ذلك لما اكتفوا بالذباب ؛لأنه لا فائدة فيه لأكل ونحوه.



* الأسئلة *

س: اذكر مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن الذبح لله عبادة والذبح لغير الله شرك ينافي التوحيد.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢ ، ١٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[الكوثر:٢].

س: اشرح هاتين الآيتين وبين مناسبتهما للباب؟ وما هو النسك؟

جـ: يقول الله تعالىٰ في الآية الأولىٰ: قل-يا محمد- لهؤلاء المشركين الذي يعبدون غير الله ويذبحون لغيره: إنني أخلصت لله صلاتي وذبحي وما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح لله رب العالمين لا شريك له في شيء من ذلك وبذلك الإخلاص أمرت وأنا أول المسلمين من هذه الأمة. والنسك: هو الذبح وقوله تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾؛ أي: أخلص لله صلاتك وذبحك وخالف المشركين في ذلك.

ومناسبة الآيتين للباب: أنهما أفادتا أن الذبح من أنواع العبادة يجب إخلاصه لله فمن ذبح لغير الله متقربًا إليه فقد أشرك.

قوله: «عن علي رضي الله عنه قال: «حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوىٰ محدثًا، لعن الله من غير منار الأرض» رواه مسلم».

س: ما معنى اللعن؟

جـ: اللعن من الله: هو الطرد والإبعاد عن رحمته، ومن الخلق: السب والدعاء.

س: لماذا لعن الرسول ﷺ من ذبح لغير الله؟

جـ: لعظم الذنب الذي ارتكبه حيث أشرك بالله.

س: ما معنى لعن الرجل والديه؟ وكيف يكون لعنهما؟ وما حكمه؟

جـ: معناه سب أباه أو أمه ويكون لعنهما على وجهين:

١ - اللعن المباشر وهو أن يواجه الوالدين باللعنة.

٢ - لعن بالتسبب كأن يلعن الرجل أبا رجل آخر فيلعن أباه وهو من كبائر الذنوب.

س: ما معنى آوى محدثًا؟ وما المراد بالمحدث؟

جـ: أي: نصر مجرمًا وضمه إليه وحماه ومنعه من أن يؤخذ منه الحق الذي وجب عليه. والمحدث هو من أحدث شيئًا يجب فيه حق لله فيلتجئ إلى من يجيره من ذلك؟

س: ما هي منار الأرض وما معنى تغييرها؟

جـ: التغيير: التبديل والإزالة ومنار الأرض: علامات حدودها ومعالمها، قيل: هي العلامات التي يهتدى بها في السفر، وقيل: هي المراسيم التي تفرق بين حقه وحق جاره فيغيرها بتقديم أو تأخير.

س: لماذا لعن من غير منار الأرض؟

جـ: لارتكابه إثمًا عظيمًا في إضاعة المسافرين أو اختلاسه أرض جاره.

س: ما هو الشاهد من حديث عليٍّ للباب؟

جـ: هو قوله: «**لعن الله من ذبح لغير الله**».

س: ما حكم لعن أهل المعاصي والظلمة؟

جـ: يجوز لعن أهل المعاصي والظلم من غير تعيين وأما لعن الفاسق والعاصي المعين ففيه خلاف فأجازه بعض العلماء ومنعه آخرون.

۞ قوله: «عن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب...»».

س: ما معنى قوله: «في ذباب»؟

جـ: أي: من أجله وبسببه.

س: ما نوع الاستفهام في قولهم: وكيف ذلك يا رسول الله؟

جـ: استفهام تعجب كأنهم تقالوا ذلك وتعجبوا منه.

س: ما المقصود بالصنم؟

جـ: ما كان منحوتًا علىٰ هيئة صورة وعُبد من دون الله.

س: ما معنى قوله: لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا؟

جـ: أي: لا يمر به ولا يتعداه حتىٰ يقرب له شيئًا وإن قلَّ.

س: ما الذي يؤخذ من قوله: «فقرب ذبأبا فخلو سبيله فدخل النار»؟

جـ: بيان عظم الشرك ولو في شيء قليل وأنه يوجب النار.

س: ما الذي يستفاد من قول الآخر: «ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عز وجل».

جـ: فضيلة التوحيد والإخلاص.

س: ما مناسبة حديث طارق للباب؟

جـ: أنه دل علىٰ أن من ذبح لغير الله متقربًا إليه فقد أشرك.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



الدرس الحادي عشر:

باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ الآية [التوبة:١٠٨].

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، قال: «نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة، [فسأل النبي ﷺ؟ فقال][٣٤٤]: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟. قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟. قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»[٣٤٥]. رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة، ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله.

السابعة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم، ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

الشرح

---

(٣٤٤) في نسخة ابن قاسم: «فقال النبي ﷺ».

(٣٤٥) أخرجه أبو داود، كتاب: الإيمان والنذور، باب: ما يؤمر به من الوفاء بالنذر، برقم (٣٣١٣)، من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «**باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله**»:

لا نافية، ويحتمل أنها للنهي، واستظهره الشارح؛ أي: لا يجوز الذبح لله بمكان أعد للذبح لغير الله؛ لأن ذلك فيه مشابهة ومضارعة للمشركين ظاهرة في المكان، وهو منهي عنه، كما في الحديث: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»(٣٤٦). ولو قصد الذابح وجه الله؛ لأنه إحياء للمحل الشركي، وتعظيم له، فيكون وسيلة إلىٰ وجود الشرك ورجوعه، وسد الذرائع من أهم ما جاءت به الشريعة، بل لا يجوز، بعدًا عن الشرك ومواضع الغضب، وكان أهل نجد كغيرهم يذبحون للجن لطلب الشفاء منهم لمرضاهم، ويتخذون للذبح لهم مكانًا مخصوصًا في دورهم، فأزال الله ذلك عنه بدعوة شيخ الإسلام قدس الله روحه.

❁ **قوله:** «**وقول الله تعالىٰ:** ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾»:

أي: لا تصل في مسجد الضرار، وكان بناه جماعة من المنافقين مضارة لمسجد قباء، وكفرًا بالله ورسوله، : ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧] وهو أبو عمرو الفاسق، وكان بناؤه قبل خروج النبي ﷺ إلىٰ تبوك. فسألوه أن يصلي فيه رجاء بركة صلاته، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية. فقال: «**إنا علىٰ سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**»، فلما قفل ولم يبق بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعضه، نزل الوحي بخبر المسجد، فبعث إليه وهدمه وحرقه قبل قدومه. ومطابقة الآية للترجمة أن هذا المسجد لما أسس علىٰ معصية الله والكفر به، صار محل غضب، فنهىٰ الله نبيه ﷺ أن يقوم فيه، لوجود العلة المانعة، وهو ﷺ لا يصلي إلا لله، فكذلك المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله، وهذا قياس صحيح يؤيده الحديث الآتي. وقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:١٠٨] حثه علىٰ الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بني علىٰ التقوىٰ، وهي طاعة الله ورسوله، وجمعا لكلمة المسلمين، ومعقلا للإسلام وأهله. وكان ﷺ يزوره، وفي «الصحيح»: «صلاة في

---

(٣٤٦) أخرجه أبو داود، كتاب: اللباس، باب: في لبس الشهرة، برقم (٤٠٣١)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، والقضاعي في «مسند الشهاب»، برقم (٣٩٠) من حديث طاوس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

مسجد قباء كعمرة»(٣٤٧). وقال بعضهم: هو مسجد رسول الله ﷺ وتمارىٰ فيه رجلان، فقال ﷺ: «هو مسجدي هذا»(٣٤٨) رواه مسلم. ولا منافاة، فإنه إذا كان مسجد قباء بهذا الوصف قد أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ أن يكون بهذه الصفة بطريق الأولىٰ. وقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة:١٠٨] لما أتاهم النبي ﷺ فيه فقال: **«ما هذا الطهور الذي أثنىٰ الله عليكم به؟ قالوا: ما نعلم إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا، فقال: هو ذاك فعليكموه»**(٣٤٩) ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]: الذين يتنزهون من القذرات والنجاسات بعدما يتطهرون من أوضار الشرك وأقذاره.

قوله: «عن ثابت بن الضحاك»:

رضي الله عنه ابن خليفة بن ثعلبة بن عدي بن كعب بن عبد الأشهل الأشهلي الخزرجي الأنصاري، صحابي مشهور، شهد بيعة الرضوان، روىٰ عنه أبو قلابة وغيره، مات أيام ابن الزبير، وقيل سنة ٦٤ هـ.

قوله: «قال: نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة»:

هضبة من وراء ينبع، قريبة من ساحل البحر، والرجل يحتمل أنه كردم بن سفيان والد ميمونة، كما صرح به أبو داود وغيره في الرواية الآتية.

قوله: «فقال النبي ﷺ: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ قالوا: لا»:

الوثن يتناول كل معبود من دون الله من صورة أو قبر، وفي رواية أو نصب، وفي رواية أو طاغية، قال المصنف: **«وفيه المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية يعبد ولو بعد زواله»**، وهو الشاهد من الحديث للترجمة؛ لأن في بعض الروايات بيان أنه سأله في حجة الوداع بعد زوال الأوثان من تلك الجهات، فكل موضع أسس للمعصية لا يجوز الذبح فيه ولا الصلاة.

---

(٣٤٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الصلاة، باب: الصلاة في مسجد قباء، برقم (٣٢٤)، وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنن، باب: ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، برقم (١٤١٢)، وغيرهما من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٣٤٨) أخرجه مسلم، كتاب: الحج، باب: بيان أن المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة، برقم (١٣٩٨)، والترمذي، كتاب: الصلاة عن رسول الله ﷺ، باب: كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر في المسجد، برقم (٣٢٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأحمد (٥/ ٣٣١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه واللفظ له.

(٣٤٩) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٢)، من حديث عويم بن ساعدة الأنصاري رضي الله عنه.

❁ **قوله: «قال: فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟ قالوا: لا»:**

قال شيخ الإسلام: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد إما بعود السنة، أو الشهر، أو الأسبوع، فالعيد يجمع أمورًا: منها يوم عائد كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها اجتماع فيه، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات، وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقا، قال المصنف: «**وفيه استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك، والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد من أعياد الجاهلية ولو بعد زواله**». قال الشارح: وفيه سد الذريعة، وترك مشابهة المشركين، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك، فإن قيل: **لِمَ جعل محل اللات بالطائف مسجدًا؟** قيل: لو ترك هذا المحل بهذه البلدة خشي أن يفتتن به، فيرجع إلى جعله وثنًا، فجعله مسجدًا والحالة هذه ينسي ما كان يفعل فيه، ويذهب به أثر الشرك، فاختص هذا المحل لهذه العلة، وهي قوة المعارض والله أعلم.

❁ **قوله: «فقال رسول الله ﷺ: أوفِ بنذرك»:**

دل على أن الوصف سبب الحكم، فيكون سبب الأمر بالوفاء خلو المكان عن هذين الوصفين، فلو كان في ذلك المكان الذي نذر أن ينحر فيه وثن أو عيد لمنعه ولم يستفصل في نيته، فدل على أنه لا عبرة هنا بالنية، فلما خلا من الموانع أمره أن يوفي بنذره، وذلك في حجة الوداع.

وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: «**إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا، لمكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية، قال: «لصنم»؟ قالت: لا. قال: «لوثن» قالت: لا. قال: «أوفي بنذرك»**»[٣٥٠]. وله عن ميمونة، بنت كردم قالت: «**خرجت مع أبي، فرأيت رسول الله ﷺ فجعلت أبده بصري، فدنا إليه أي: فأخذ بقدمه، فأقر له ووقف، فقال: يا رسول الله إني نذرت إن ولد لي ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة في عقبة من الثنايا عدة من الغنم؟ قال: لا أعلم، إلا أنها قالت خمسين، فقال رسول الله ﷺ: هل بها من الأوثان شيء؟ قال: لا. قال: فأوف بما نذرت لله. قال: «فجمعها فجعل يذبحها فانفلتت منه شاة فطلبها وهو يقول: اللهم أوف بنذري، فذبحها**»[٣٥١]. ويحتمل أن يكون نذر إبلًا وغنمًا. ويحتمل أن يكون ذلك قضيتين.

---

(٣٥٠) أخرجه أبو داود، كتاب: الإيمان والنذور، باب: ما يؤمر به من الوفاء بالنذر، برقم (٣٣١٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣٥١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأيمان والنذور، باب: ما يؤمر به من الوفاء بالنذر، برقم (٣٣١٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قوله: «**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**»:

دل علىٰ أن أماكن الشرك والمعاصي لا يجوز أن تقصد العبادة فيها وأن هذا نذر معصية لو وجد في المكان مانع، وما كان من نذر المعصية لا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء، وهل فيه كفارة يمين؟ علىٰ قولين:

أحدهما: تجب لحديث عائشة: «**لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين**»[٣٥٢]. رواه أحمد وأهل السنن، واحتج به أحمد، لكن قال الترمذي وأبو داود وغيرهما: لا يصح. قال الشيخ: ظاهر مذهب أحمد لزوم الكفارة، وكذلك مذهب أكثر السلف، وهو قول أبي حنيفة وغيره.

والثاني: لا كفارة عليه؛ لحديث الباب، وحديث عائشة الآتي، وهو مذهب مالك والشافعي، وحكىٰ الوزير أنه مذهب الثلاثة، واختاره شيخ الإسلام.

قوله: «**ولا فيما لا يملك ابن آدم**»:

كأن يقول: إن شفىٰ الله مريضي؛ فلله عليَّ أن أعتق عبد فلان، ونحو ذلك، فإن التزم في ذمته شيئًا كعتق رقبة وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها، فإن شفي مريضه صح نذره، وثبت ذلك في ذمته.

قوله: «**رواه أبو داود، وإسناده علىٰ شرطهما**»:

أي: شرط البخاري ومسلم، مخرج لرواته، فيهما، وشرطهما اتصال الإسناد بالعدول الضابطين من غير شذوذ ولا علة. وله شواهد، وقال الحافظ: صحيح الإسناد.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «**باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله**»:

ما أحسن إتْبَاع هذا الباب بالباب الذي قبله فالذي قبله من المقاصد وهذا من الوسائل، ذاك من باب الشرك الأكبر وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقربًا إليها وشركًا بالله قد صار مشعرًا من مشاعر الشرك فإذا ذبح فيه المسلم ذبيحة ولو قصدها لله فقد تشبه بالمشركين وشاركهم في مشعرهم والموافقة الظاهرة تدعو إلىٰ الموافقة الباطنة والميل إليهم.

---

(٣٥٢) أخرجه أبو داود، كتاب: والأيمان والنذور، باب: من رأىٰ عليه كفارة إذا كان في معصية، برقم (٣٢٩٠)، والترمذي، كتاب: النذور والأيمان، باب: ما جاء عن رسول الله ﷺ أن لا نذر في معصية، برقم (١٥٢٤)، والنسائي، كتاب: الأيمان والنذور، باب: كفارة النذر، برقم (٣٨٣٤)، وابن ماجه، كتاب: الكفارات، باب: النذر في المعصية، برقم (٢١٢٥)، وأحمد (٦/ ٢٤٧)، وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

ومن هذا السبب نهىٰ الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم وهيئاتهم ولباسهم وجميع ما يختص بهم؛ إبعادًا للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم حتىٰ إنه نهىٰ عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفًا من التشبه المحذور.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «**باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله**»:

أراد به لا يجوز للمؤمنين التشبه بأهل المعاصي ولا مشاركتهم في أماكن المعصية وفي أماكن تعبدهم ولو بغير الذبح حتىٰ لا ينسب إليهم ويشاركهم. فإذا ذبح في مكان يذبح فيه لغير الله فإنه قد ينسب إلىٰ أهل السوء أو يظن به السوء والمؤمن يبتعد عن ذلك كله.

❁ **قوله:** ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾:

هذا نزل في مسجد الضرار وهو مكان بناه المنافقون لإيواء بعض الكفرة ليكون حصنًا لهم يجتمعون ويتعاونون فيه علىٰ قتال النبي ﷺ ولكنهم أخفوا ذلك وأظهروا أنهم بنوا المسجد لإيواء الضعفاء والمساكين في الليالي الشاتية وطلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يصلي فيه قبل ذهابه إلىٰ تبوك ولكنه أجله إلىٰ عودته ولما رجع وقبل المدينة أنزل الله ما يفضحهم ويبين مقاصدهم الخبيثة، فبعث النبي عليه الصلاة والسلام من يهدمه.

فمعنىٰ ذلك: أن محلات الكفر والضلال يجب التخلص منها وعدم إبقائها حتىٰ لا يستعان بها علىٰ الفساد، واستدل به المؤلف علىٰ أن المكان المعد للذبح لغير الله أو الصلاة لغير الله أو معد للفسق والمعاصي يجب ألا يبقىٰ حتىٰ لا يفسد المسلمين ولا ينسب إليهم وهذا قياس ثابت كما في حديث: «**فلعل ابنك هذا نزعه عرق**» [٣٥٣].

❁ **قوله:** «**عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة فسأل الرسول...**»:

بوانة: موضع بأسفل مكة ويقال: إنها بالقرب من ينبع.

---

(٣٥٣) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: من شبه أصلاً معلومًا بأصل مبين قد بين الله حكمهما ليفهم السائل، برقم (٧٣١٤)، ومسلم، كتاب: اللعان، برقم (٢٠/ ١٥٠٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❁ **قوله:** «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ وهل كان فيها عيدًا من أعيادهم؟»:

خاف الرسول أن يكون خص المكان؛ لأنه كان فيه وثن من أوثان الجاهلية أو عيدًا من أعيادهم وهذا سيتأس بهم فدل علىٰ أن المؤمن ينبغي أن يبتعد عن أماكن الجاهلية ولا يخصها بعبادة حتىٰ لا يتشبه بهم وينسب إليهم، فلما أخبره أنه ليس فيها ذلك أمره أن يوفي بنذره فيدل علىٰ وجوب الوفاء بالنذر إذا لم يكن قصده مشابهة المشركين والكافرين وأشباههم.

فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله: كما إذا نذر أن يشرب الخمر فلا يوفي بنذره واختلف العلماء في الكفارة علىٰ قولين:

الأول: إنه نذر باطل ولا كفارة عليه، واحتجوا بعمومات ولكن جاء عدة أخبار تدل علىٰ وجوب الكفارة وهو الراجح **وهو القول الثاني**.

ولا فيما لا يملك ابن آدم: كأن يقول: لله علي أن أعتق عبد فلان فنذره باطل.

فالشاهد: أن المؤمن لا ينبغي أن يفعل الطاعة في مكان من أماكن الجاهلية والشرك والمعاصي إلا إذا غير هذا المكان وصار مسجدًا مثلًا أو بيتًا وزالت عنه آثار الجاهلية ونسيت فلا بأس كما أمر النبي بهدم اللات وبناء مسجد مكانه فهذا يجوز التعبد فيه.

مسألة:

إذا حصل شرك أو بدع عند القبور فهذا لا يمنع من زيارتها الشرعية كما إذا حصلت المعصية في المسجد فلا يمنع من الصلاة فيه.

مسألة:

أمر عمر بن الخطاب بالصلاة في الكنيسة؛ لأنهم اتخذوها معبدًا لله لكن عبادتهم ليست مستقيمة وفيها شرك وباطلة، فلعل الشبهة أنهم اتخذوها معبدًا لله أو أن المؤمنين مضطرون للصلاة فيها عند مرورهم منها عند أسفارهم فقد يكون للضرورة أو لأن جنس عبادة الله متفق عليها بينهم فيما يتعلق بالصلاة.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله»:

هذا الانتقال من المؤلف من أحسن ما يكون، ففي الباب السابق ذكر الذبح لغير الله، فنفس الفعل لغير الله.

وفي هذا الباب ذكر الذبح لله، ولكنه في مكان يذبح فيه لغيره، كمن يريد أن يضحي لله في

مكان يذبح فيه للأصنام، فلا يجوز أن تذبح فيه، لأنه موافقة للمشركين في ظاهر الحال، وربما أدخل الشيطان في قلبك نية سيئة، فتعتقد أن الذبح في هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر.

قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾:

ضمير الغيبة يعود إلى مسجد الضرار، حيث بني على نية فاسدة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:١٠٧]، والمتخذون هم المنافقون، وغرضهم من ذلك:

١- مضارة مسجد قباء: ولهذا يسمى مسجد الضرار.

٢- الكفر بالله: لأنه يقرر فيه الكفر -والعياذ بالله-؛ لأن الذين اتخذوه هم المنافقون.

٣- التفريق بين المؤمنين: فبدلًا من أن يصلي في مسجد قباء صف أو صفان يصلي فيه نصف صف، والباقون في المسجد الآخر، والشرع له نظر في اجتماع المؤمنين.

٤- الإرصاد لمن حارب الله ورسوله يقال: إن رجلًا ذهب إلى الشام، وهو أبو عامر الفاسق، وكان بينه وبين المنافقين الذين اتخذوا المسجد مراسلات، فاتخذوا هذا المسجد بتوجيهات منه، فيجتمعون فيه لتقرير ما يريدونه من المكر والخديعة للرسول ﷺ وأصحابه، قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ [التوبة:١٠٧]، فهذه سنة المنافقين: الأيمان الكاذبة.

﴿إِنْ﴾: نافية، بدليل وقوع الاستثناء بعدها؛ أي: ما أردنا إلا الحسنى، والجواب عن هذا اليمين الكاذب: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧].

فشهد الله تعالى على كذبهم؛ لأن ما يسرونه في قلوبهم ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، فكأن هذا المضمر في قلوبهم بالنسبة إلى الله أمر مشهود يرى بالعين كما قال الله تعالى في سورة المنافقين: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١].

وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، لا: ناهية وتقم: مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه السكون، وحذفت الواو، لأنه سكن آخره، والواو ساكنة، فحذفت تخلصًا من التقاء الساكنين.

قوله: ﴿أَبَدًا﴾ إشارة إلى أن هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق.

قوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾، «اللام»: للابتداء، «ومسجد»: مبتدأ، وخبره: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، وفي هذا التنكير تعظيم للمسجد، بدليل قوله: ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ [التوبة:١٠٩]: أي: جعلت التقوى أساسًا له، فقام عليه.

وهذه الأحقية ليست على بابها، وهو أن اسم التفضيل يدل على مفضل ومفضل عليه اشتركا في أصل الوصف، لأنه هنا لا حق لمسجد الضرار أن يقام فيه، وهذا- (أعني: كون الطرف المفضل عليه ليس فيه شيء من الأصل الذي وقع فيه التفضيل -موجود في القرآن كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

قوله: ﴿فِيهِ﴾؛ أي: في هذا المسجد المؤسس على التقوى.

قوله: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾: بخلاف من كان في مسجد الضرار، فإنهم رجس، كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة:٩٥].

قوله: ﴿يَتَطَهَّرُوا۟﴾، يشمل طهارة القلب من النفاق والحسد والغل وغير ذلك، وطهارة البدن من الأقذار والنجاسات والأحداث.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، هذه محبة حقيقية ثابته لله ﷻ تليق بجلاله وعظمته، ولا تماثل محبة المخلوقين، وأهل التعطيل يقولون: المراد بالمحبة: الثواب أو إرادته، فيفسرونها إما بالفعل أو إرادته، وهذا خطأ.

وقوله: ﴿ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: أصله المتطهرين، وأدغمت التاء بالطاء لعلة تصريفية معروفة.

وجه المناسبة من الآية: أنه لما كان مسجد الضرار مما اتخذ للمعاصي ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين، نهى الله رسوله أن يقوم فيه، مع أن صلاته فيه لله، فدل على أن كل مكان يُعصى الله فيه أنه لا يقام فيه، فهذا المسجد متخذ للصلاة، لكنه محل معصية، فلا تقام فيه الصلاة. وكذا لو أراد إنسان أن يذبح في مكان يذبح فيه لغير الله كان حرامًا؛ لأنه يشبه الصلاة في مسجد الضرار.

وقريب من ذلك: النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لأنها وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس، فهذا باعتبار الزمن والوقت والحديث الذي ذكره المؤلف باعتبار المكان.

✿ **قوله: «نذر»**:

النذر في اللغة: الإلزام والعهد، **واصطلاحًا**: إلزام المكلف نفسه لله شيئًا غير واجب.

وقال بعضهم: لا نحتاج أن نقيد بغير واجب، وأنه إذا نذر الواجب صح النذر وصار المنذور واجبًا من وجهين: من جهة النذر، ومن جهة الشرع، ويترتب على ذلك وجوب الكفارة إذا لم يحصل الوفاء.

والنذر في الأصل مكروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلىٰ تحريمه، لأن النبيﷺ نهىٰ عنه، وقال: «لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»[٣٥٤] ولأنه إلزام لنفس الإنسان بما جعله الله في حل منه، وفي ذلك زيادة تكليف علىٰ نفسه؛ ولأن الغالب أن الذي ينذر يندم، وتجده يسأل العلماء يمينًا وشمالًا يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشقته عليه، ولا سيما ما يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخر له حاجة يريدها، تجده ينذر كأنه يقول: إن الله لا ينعم عليه بجلب خير أو دفع الضرر إلا بهذا النذر.

قوله: «إبلًا»: اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير.

قوله: «ببوانة»، «الباء»؛ بمعنىٰ: «في»، وهي للظرفية، والمعنىٰ: بمكان يسمىٰ بوانة.

قوله: «هل كان فيها وثن»، الوثن: كل ما عبد من دون الله، من شجر، أو حجر، سواء نحت أو لم ينحت. والصنم يختص بما صنعه الآدمي.

قوله: «الجاهلية»: نسبة إلىٰ ما كان قبل الرسالة، وسميت بذلك؛ لأنهم كانوا علىٰ جهل عظيم.

قوله: «يعبد»: صفة لقوله: «وثن»، وهو بيان للواقع؛ لأن الأوثان هي التي تعبد من دون الله.

قوله: «قالوا: لا»: السائل واحد، لكنه لما كان عنده ناس أجابوا النبيﷺ، ولا مانع أن يكون المجيب غير المسئول.

قوله: «عيد»؛ العيد: اسم لما يعود أو يتكرر، والعود بمعنىٰ: الرجوع؛ أي: هل اعتاد أهل الجاهلية أن يأتوا إلىٰ هذا المكان ويتخذوا هذا اليوم عيدًا وإن لم يكن فيه وثن؟ قالوا: لا. فسأل النبيﷺ عن أمرين: عن الشرك، ووسائله.

فالشرك: «هل كان فيها وثن؟» ووسائله: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟»

قوله: «أوف بنذرك»: فعل أمر مبني علىٰ حذف حرف العلة الياء، والكسرة دليل عليها.

وهل المراد به المعنىٰ الحقيقي أو المراد به الإباحة؟

الجواب: يحتمل أن يراد به الإباحة، ويحتمل أن يراد به المعنىٰ الحقيقي، فبالنسبة لنحر الإبل؛ المراد: به المعنىٰ الحقيقي.

---

(٣٥٤) أخرجه البخاري، كتاب: القدر، باب: إلقاء العبد النذر إلىٰ القدر، برقم (٦٦٠٨)، ومسلم، كتاب: النذر، باب: النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا، برقم (١٦٣٩) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وبالنسبة للمكان؛ المراد به: الإباحة؛ لأنه لا يتعين أن يذبحها في ذلك المكان، إذ إنه لا يتعين أي: مكان في الأرض إلا ما تميز بفضل، والمتميز بفضل المساجد الثلاثة، فالأمر هنا بالنسبة لنحر الإبل من حيث هو نحر واجب.

وبالنسبة للمكان، فالأمر للإباحة، بذليل أنه سأل هذين السؤالين، فلو أجيب بنعم، لقال: لا توف، فإذا كان المقام يحتمل النهي والترخيص، فالأمر للإباحة.

وقوله: «**أوف بنذرك**»: عللﷺ ذلك بانتفاء المانع، فقال: «**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**».

قوله: «**لا وفاء**»: لا: نافية للجنس، وفاء: اسمها، لنذر: خبرها.

قوله: «**في معصية الله**»: صفة لنذر؛ أي: لا يمكن أن توفي بنذر في معصية الله؛ لأنه لا يتقرب إلىٰ الله بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتىٰ يقال افعلها.

أقسام النذر:

الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة؛ لقولهﷺ: «**من نذر أن يطيع الله، فليطعه**».

الثاني: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية؛ لقولهﷺ: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» وقوله: «**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**».

الثالث: ما يجري مجرىٰ اليمين، وهو نذر المباح، فيخير بين فعله وكفارة اليمين، مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب، فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، وسمي بهذا الاسم؛ لأن اللجاج والغضب يحملان عليه غالبًا، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج وغضب، وهو الذي يقصد به معنىٰ اليمين، الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب. مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: إن كان حاصلًا، فعليَّ لله نذر أن أصوم سنة، فالغرض من هذا النذر التكذيب، فإذا تبين أنه حاصل، فالناذر مخير بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفر كفارة يمين؛ لأنه إن صام فقد وفىٰ بنذره، وإن لم يصم حنث، والحانث في اليمين يكفر كفارة يمين.

الخامس: نذر المكروه، فيكره الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

السادس: النذر المطلق، وهو الذي ذكر فيه صيغة النذر، مثل أن يقول: لله علي نذر، فهذا كفارته كفارة يمين كما قال النبيﷺ: «**كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين**»(٣٥٥).

---

(٣٥٥) أخرجه مسلم، كتاب: النذر، باب: من نذر أن يمشي إلىٰ الكعبة، برقم (١٦٤٥)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

مسألة:

هل ينعقد نذر المعصية؟

الجواب: نعم، ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ: «من نذر أن يعصي الله، فلا يعصه»[٣٥٦] ولو قال: من نذر أن يعصي الله فلا نذر له، لكان لا ينعقد، ففي قوله: «فلا يعصه» دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

وإذا انعقد: هل تلزمه كفارة أو لا؟

اخْتلفَ في ذلك أهلُ العلم، وفيها روايتان عن الإمام أحمد:

فقال بعض العلماء: إنه لا تلزمه الكفارة، واستدلوا بقول النبي ﷺ: «لا وفاء لنذر في معصية الله»[٣٥٧].

وبقوله ﷺ: «ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه»، ولم يذكر النبي ﷺ كفارة، ولو كانت واجبة؛ لذكرها.

القول الثاني: تجب الكفارة، وهو المشهور من المذهب؛ لأن الرسول ﷺ ذكر في حديث آخر غير الحديثين أن كفارته كفارة يمين وكون الأمر لا يذكر في حديث لا يقتضي عدمه، فعدم الذكر ليس ذكرًا للعدم، نعم، لو قال الرسول: لا كفارة، صار في الحديثين تعارض، وحينئذ نطلب الترجيح، لكن الرسول لم ينف الكفارة، بل سكت، والسكوت لا ينافي المنطوق، فالسكوت وعدم الذكر يكون اعتمادًا على ما تقدم، فإن كان الرسول قاله قبل أن ينهى هذا الرجل، فاعتمادًا عليه لم يقله؛ لأنه ليس بلازم أن كل مسألة فيها قيد أو تخصيص يذكرها الرسول عند كل عموم، فلو كان يلزم هذا، لكانت تطول السنة، لكن الرسول ﷺ إذا ذكر حديثًا عامًّا وله ما يخصصه في مكان آخر حمل عليه، وإن لم يذكره حين تكلم بالعموم.

وأيضًا من حيث القياس لو أن الإنسان أقسم ليفعلن محرمًا، وقال: والله، لأفعلن هذا الشيء وهو محرم، فلا يفعله، ويكفر كفارة يمين، مع أنه أقسم على فعل محرم، والنذر شبيه بالقسم، وعلى هذا، فكفارته كفارة يمين، وهذا القول أصح.

---

(٣٥٦) أخرجه البخاري، كتاب: الأيمان والنذور، باب: النذر فيما لا يملك وفي معصية، برقم (٦٧٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣٥٧) سبق تخريجه. أخرجه البخاري، كتاب: الأيمان والنذور، باب: النذر فيما لا يملك وفي معصية، برقم (٦٧٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم» الذي لا يملكه ابن آدم يحتمل معنيين:

الأول: ما لا يملك فعله شرعًا، كما لو قال: لله عليَّ أن أعتق عبد فلان، فلا يصح؛ لأنه لا يملك إعتاقه.

الثاني: ما لا يملك فعله قدرًا كما لو قال: لله عليَّ نذر أن أطير بيدي فهذا لا يصح؛ لأنه لا يملكه والفقهاء رحمهم الله يمثلون بمثل هذا للمستحيل

ويستفاد من الحديث:

أنَّه لا يُذبح بمكان يذبح فيه لغير الله، وهو ما ساقه المؤلف من أجله، والحكمة من ذلك ما يلي:

الأول: أنَّه يؤدي إلىٰ التشبه بالكفار

الثاني: أنه يؤدي إلىٰ الاغترار بهذا الفعل؛ لأنَّ من رآك تذبح بمكان يذبح فيه المشركون ظنَّ أن فعل المشركين جائز.

الثالث: أن هؤلاء المشركين سوف يقوون علىٰ فعلهم إذا رأوا من يفعل مثلهم، ولا شك أن تقوية المشركين من الأمور المحظورة، وإغاظتهم من الأعمال الصالحة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾[التوبة: ١٢٠]

❁ **قوله:** «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾، وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة؛ أي: لما كانت هذه الأرض مكان شرك، حرم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمشابهة المشركين.

أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة، فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة، لا يكون الإنسان متشبهًا بهذا العمل، بخلاف الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك؛ لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان.

وكذا الطاعة تؤثر في الأرض؛ ولهذا فإن المساجد أفضل من الأسواق، والقديم منها أفضل من الجديد.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلىٰ المسألة البينة ليزول الإشكال، فالمنع من الذبح في هذا المكان أمر مشكل لكن الرسول ﷺ بين ذلك بالاستفصال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلىٰ ذلك؛ لأن النبي ﷺ استفصل، لكن هل يجب الاستفصال علىٰ كل حال، أو إذا وجد الاحتمال؟

الجواب: لا يجب إلا إذا وجد الاحتمال؛ لأننا لو استفصلنا في كل مسألة، لطال الأمر.

فمثلًا: لو سألنا سائل عن عقد بيع لم يلزم أن نستفصل عن الثمن: هل هو معلوم؟ وعن المثمن: هل هو معلوم؟ وهل وقع البيع معلقًا أو غير معلق؟ وهل كان ملكًا للبائع؟ وكيف ملكه؟ وهل انتفت موانعه أو لا؟.

أما إذا وجد الاحتمال، فيجب الاستفصال، مثل: أن يسأل عن رجل مات عن بنت وأخ وعم شقيق، فيجب الاستفصال عن الأخ: هل هو شقيق أو لأم؟ فإن كان لأم، سقط، وأخذ الباقي العم، وإلا، سقط العم، وأخذ الباقي الأخ.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع، لقوله: «**أوف بنذرك**»، وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة.

فالواقعة: أن يكون فيها وثن أو عيد من أعياد الجاهلية.

والمتوقعة: أن يخشىٰ من الذبح في هذا المكان تعظيمه، فإذا خشي، كان ممنوعًا، مثل: لو أراد أن يذبح عند جبل، فالأصل أنه جائز، لكن لو خشي أن العوام يعتقدون أن في هذا المكان مزية، كان ممنوعًا.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله، لقوله: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟**»؛ لأن «كان» فعل ماض، والمحظور بعد زوال الوثن باقٍ، لأنه ربما يعاد.

السابعة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله، لقوله: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**».

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية، لقوله: «**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**».

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده، وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ أن حصول التشبه لا يشترط فيه القصد، فإنه يمنع منه ولو لم يقصده، لكن مع القصد يكون أشد إثمًا، ولهذا قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية الله، هكذا قال المؤلف، ولفظ الحديث المذكور: «**لا وفاء لنذر**»، وبينهما فرق.

فإذا قيل لا نذر في معصية؛ فالمعنىٰ: أن النذر لا ينعقد، وإذا قيل: لا وفاء؛ فالمعنىٰ: أن النذر ينعقد، لكن لا يوفىٰ، وقد وردت السنة بهذا وبهذا.

لكن: «لا نذر» يحمل علىٰ أن المراد لا وفاء لنذر، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه**»

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، يقال فيه ما قيل في: لا نذر في معصية.

والمعنىٰ: لا وفاء لنذر فيما لا يملك ابن آدم، ويشتمل ما لا يملكه شرعًا، وما لا يملكه قدرًا.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله»:**

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّه تابع للباب الذي قبله؛ لأن الذي قبله فيه بيان حكم الذبح لغير الله، وهذا الباب فيه منع الوسيلة الموصلة إلىٰ ذلك ومنع التشبه بأهله.

«**يذبح فيه لغير الله**»؛ أي: أُعِدَّ لذلك وقصد من أجله.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾: لا تصل في مسجد الضرار.

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾: بُني.

﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾: علىٰ طاعة الله ورسوله.

﴿ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: الذين يتطهرون من الأنجاس الحسية والمعنوية.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

ينهىٰ الله سبحانه رسوله ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار الذي بناه المنافقون مضارة لمسجد قباء وكفرًا بالله ورسوله وطلبوا من الرسول ﷺ أن يصلي فيه؛ ليتخذوا من ذلك حجة يبررون بها عملهم ويسترون بها باطلهم فوعدهم ﷺ أن يفعل ما طلبوا ولم يعلم قصدهم السيء، فنهاه الله عن ذلك وحثه علىٰ الصلاة في مسجد قباء الذي بُني علىٰ طاعة الله ورسوله أو في مسجده ﷺ علىٰ اختلاف بين المفسرين في ذلك، ثم أثنىٰ علىٰ أهل ذلك المسجد بتطهرهم من الشرك والنجاسات، والله يحب من هذه صفته.

مناسبة الآية للباب:

هي قياس الأمكنة المعدة للذبح لغير الله علىٰ المسجد الذي أُعِدَّ لمعصية الله في منع عبادة الله فيه، فكما أَنَّ هذا المسجد لا تجوز الصلاة فيه لله، فكذلك هذا الموضع الذي أُعِدَّ للذبح فيه لغير الله لا يجوز الذبح فيه له سبحانه.

ما يستفاد من الآيات:

١- منع الذبح لله في المواضع المعدة للذبح لغيره، قياسًا علىٰ منع الصلاة في المسجد المؤسس علىٰ معصية الله.

٢- استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين المتنزهين عن ملابسة القاذورات.

٣- إثبات المحبة لله علىٰ الوجه اللائق به سبحانه كسائر صفاته.

٤- الحث علىٰ إسباغ الوضوء والتطهر من النجاسات.

٥- أن النية تؤثر في البقاع.

٦- مشروعية سد الذرائع المفضية إلىٰ الشرك.

❁ **قوله: «ثابت بن الضحاك»:**

هو ثابت بن الضحاك بن خليفة بن ثعلبة بن عدي الأشهلي الخزرجي الأنصاري صحابي مشهور مات سنة ٦٤هـ.

«**نذر**»: النذر لغة الإيجاب، وشرعًا هو أن يلزم الإنسان نفسه بشيء من العبادات لم يكن لازمًا عليه شرعًا.

«**بوانة**»: هضبة من وراء ينبع.

«**وثن**»: الوثن: كل ما عبد من دون الله من قبر وغيره.

«**عيد**»: العيد: اسم لما يعود من الاجتماع علىٰ وجهٍ معتادٍ.

«**علىٰ شرطهما**»؛ أي: ينطبق عليه شرط البخاري ومسلم الذي هو اتصال السند بالعدول الضابطين من غير شذوذٍ ولا علةٍ.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يذكر الراوي أن رجلًا التزم لربه أن ينحر إبلًا في موضع معين علىٰ وجه الطاعة والقربة، وجاء يسأل النبي ﷺ عن التنفيذ، فاستفصل النبي ﷺ عن ذلك المكان هل سبق أن وجد فيه شيء من معبودات المشركين أو سبق أن المشركين يعظمونه ويجتمعون فيه فلمَّا علم ﷺ بخلو هذا المكان

من تلك المحاذير أفتىٰ بتنفيذ النذر، ثم بين ﷺ النذر الذي لا يجوز الوفاء به، وهو ما كان المنذور فيه معصية لله أو لا يدخل تحت ملك الناذر.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه المنع من الذبح لله في المكان الذي كان فيه وثن من أوثان الجاهلية أو فيه عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله.

ما يستفاد من الحديث:

١- المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان الذي عين له وثن ولو بعد زواله.

٢- المنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله.

٣- استفصال المفتي من المستفتي قبل الفتوىٰ.

٤- سدُّ الذريعة المفضية إلىٰ الشرك.

٥- ترك مشابهة المشركين في عبادتهم وأعيادهم وإن كان لا يقصد ذلك.

٦- أن الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون أو يتخذونه محلًّا لعيدهم معصية.

٧- أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

٨- أن النذر الذي لا يملكه الناذر - كأن قال: لله عليَّ أن أعتق عبد فلان. لا وفاء له.

٩- وجوب الوفاء بالنذر الخالي من المعصية الداخل تحت ملك الناذر.

١٠- أن النذر عبادة لا يجوز صرفه لغير الله.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله»:

قوله: «**لا يذبح لله**»: هذا علىٰ جهة النفي المشتمل علىٰ النهي؛ لأن من أساليب اللغة العربية أنه يُعْدَلُ عن التصريح بالنهي إلىٰ التصريح بالنفي؛ ليدل دلالة أبلغ علىٰ أن النفي والنهي معًا مقصودان، فكأنه لا يصح أن يقع أصلًا؛ ولهذا أتىٰ بصيغة النفي، فقال: «**باب لا يذبح لله**».

وقال بعض أهل العلم: يُحتمل أن تكون (لا) للنهي، فيكون الفعل المضارع بعدها مجزومًا، أي: «**باب لا يَذْبَحْ لله بمكان يذبحُ فيه لغير الله**».

وقوله: «**لله**» يعني: أن تكون النسيكة أو أن تكون الذبيحة مرادًا بها وجه الله -جل وعلا-.

«بمكان يذبح فيه لغير الله»: (والباء) هنا لها معنىٰ زائد علىٰ كلمة (في) وهذا المعنىٰ الزائد أنها أفْهَمَت معنىٰ الظرفية ومعنىٰ المجاورة جميعًا؛ لأن (الباء) تكون للمجاورة أيضًا كما تقول: مررت بزيد، يعني: بمكان قريب من مكان زيد، أو بمكان مجاور لمكان زيد، والظرفية بـ(في) تفيد أنه في المكان نفسه، فاستعمال حرف (الباء) يفيد أنه مجاور لذلك المكان. وهذان المعنيان معًا مقصودان، وهو أنه لا يُذبح لله بمجاورة المكان الذي يُذبح فيه لغير الله، ولا في نفس المكان الذي يذبح فيه لغير الله؛ لأنهما -بهذا- يشتركان مع الذين يذبحون لغير الله -جل وعلا-.

وصورة المسألة: أن يوجد مكان يُذبح فيه لغير الله، كمكان عند قبر، أو عند مشهد، أو عند مكان معظم، واعتاد المشركون التقرب بالذبائح لأصنامهم وأوثانهم في هذا المكان، فإذا كانوا يتقربون في هذا المكان للقبر أو نحوه ويذبحون لصاحبه -يعني: من أجله- فإنه لا يحل أن يذبح المسلم الموحد في هذا المكان ولو ذبحه خالصًا لله -عز وجل- لأنه يكون قد شابه أولئك المشركين في تعظيم الأمكنة التي يتعبدون فيها بأنواع العبادات التي يصرفونها لغير الله -جل وعلا- فالذبح لله وحده -وإن كان خالصًا له- إن كان في المكان الذي يُتقرب فيه لغير الله فإنه لا يحل ولا يجوز، بل هو من وسائل الشرك، ومما يغري بتعظيم ذلك المكان، وحكمه أنه محرم، ووسيلة من وسائل الشرك.

✿ قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾»:

هذا النهي هو عن القيام في مسجد الضرار الذي بناه المنافقون، وقد أقاموه إرصادًا، ومحاربة لله ورسوله، وتفريقًا بين المؤمنين، فهو مكان أقيم علىٰ الخيانة وعلىٰ مضادة الإسلام وأهله؛ فلهذا لما كانت هذه هي غاية من أقامه فإن مشاركتهم فيه بالصلاة لا تجوز؛ لأنه إقرار لهم أو تكثير لسوادهم، وإغراء للناس بالصلاة فيه، فنهىٰ الله -جل وعلا- نبيه ﷺ والمؤمنين عن أن يصلوا فيه.

ومناسبة الآية للباب ظاهرة، وهي أن الله -جل وعلا- نهىٰ النبي ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، ومعلوم أن صلاته عليه الصلاة والسلام، وصلاة المؤمنين معه هي خالصة لله -جل وعلا- دون من سواه، ومع هذا فقد نُهوا عن الصلاة فيه، مع أنهم مخلصون ليس عندهم نية الإضرار ولا التفريق ولا الإرصاد، لكن نهاهم عن الصلاة فيه؛ لأجل هذه المشاركة والمشابهة التي قد تغري بإتيان ذلك المكان.

الصورة متحققة وموجودة فيمن ذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله، فإنه وإن كان مخلصًا، لكنه قد يدعو إلىٰ تعظيم ذلك المكان بفعله، وإن لم يقصد التعظيم. لكن هنا إيراد: وهو أنه جاء الإذن عن الصحابة بالصلاة في الكنيسة، وقد صلىٰ عمر رضي الله عنه في كنيسة بيت المقدس[٣٥٨]. ومن الصحابة -رضوان الله عليهم- من صلىٰ في كنائس بعض البلاد، فصلاتهم في الكنائس لله -جل وعلا- أليست مشابهة للصلاة في مسجد الضرار أو للذبح في مكان يُذبح فيه لغير الله؟

الجواب: أن هذا الإيراد ليس بوجيه؛ ذلك لأن نهي النبي ﷺ عن الصلاة في مسجد الضرار، وعن الذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله إنما هو لأن صورة العبادة واحدة، فصورة الذبح من الموحد ومن المشرك واحدة، وهي إمرار السكين -وهي آلة الذبح- علىٰ الموضع من البهيمة المراد ذبحها، وإهراق دمها في ذلك المكان، والصورة الحاصلة من الموحد ومن المشرك واحدة، ولهذا فإنه لا تمييز بين الصورتين -من حيث الظاهر- وإن اختلفت مقاصدها، فكذلك صلاة النبي ﷺ والصحابة في مسجد الضرار فيها مشابهة من حيث الصورة لصلاة المنافقين، فرجع الاختلاف إلىٰ اختلاف ما في القلب؛ والنيات ومقاصد القلوب مما تخفىٰ علىٰ الناس، ولهذا تقع المفسدة من حيث اشتباه الصورة الظاهرية، ولا يحصل بذلك الفعل -ولو مع خلوص النية- مصلحة.

وأما الصلاة في الكنيسة، فإن صورة الفعل مختلفة؛ لأن صلاة النصارىٰ ليست علىٰ هيئة وصورة صلاة المسلمين، فيعلم من رأىٰ المسلم يصلي أنه لا يصلي صلاة النصارىٰ، فليس في فعله إغراء بصلاة النصارىٰ، ومشاركتهم فيها، فهذا هو الفرق بين المسألتين، وهو واضح بأدنىٰ تأمل.

قوله: «عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل أن يذبح إبلًا ببوانة، فسأل النبي ﷺ...»:

هذا الحديث فيه أن رجلًا نذر أن ينحر إبلًا ببوانة، و(بوانة): اسم موضع، فلما نذر أن ينحر في هذا الموضع استفصله النبي ﷺ لأن المقام يقتضي الاستفصال؛ إذ يتبادر إلىٰ الذهن سؤال عن تخصيص هذا الرجل «بوانة» بأن ينحر فيها الإبل، فقد تكون لأن فيها عيدًا من أعيادهم، أو لأن فيها وثنًا من أوثان الجاهلية كان يعبد في ذلك الموضع فهذا هو المتبادر من التخصيص؛ لأنه في الغالب يكون لغرض العبادة؛ ولهذا استفصله النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**» قالوا: لا. فهذا السؤال يدل علىٰ أنه لو وجد هذا الوصف -وهو

---

(٣٥٨) انظر: البخاري، كتاب: الصلاة، باب: الصلاة في البيعة، وفيه أثر عمر وابن عباس رضي الله عنهما.

أنه كان ثَمَّ وثن من أوثان الجاهلية يُعبد- لَم يُجز النحر في ذلك الموضع، وهو المراد من إيراد هذا الحديث في الباب، وهو وجه الاستدلال.

قوله: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**» العيد: هو المكان أو الزمان الذي يعود، أو يُعاد إليه، فالعيد قد يكون مكانيًّا؛ لأنه اسم للمكان الذي يُعتاد المجيء إليه ويُرجع إليه في وقت معتاد، ومثال ما يراد به المكاني قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**»(٣٥٩). يعني: لا تجعلوا هذا المكان مكانًا تعتادون المجيء إليه.

وكذلك الأزمنة تكون أعيادًا؛ لأنها تعود في وقت معين.

فقوله: «**هل كان فيها عيد من أعيادهم؟**» يعني: عيدًا مكانيًّا؛ لأنه قال: «**هل كان فيها عيد من أعيادهم؟**» ويحتمل أيضًا أن يكون عيدًا زمانيًّا.

ومن المعلوم أن أعياد المشركين الزمانية والمكانية مرتبطة بأديانهم الشركية، فيكون المعنىٰ -إذًا- أنهم يتعبدون في تلك الأعياد بعباداتهم الشركية، ومن أعظم ما يفعلونه في هذه الأعياد التقرب إلىٰ معبوداتهم بالذبح وإراقة الدماء.

فدل ذلك علىٰ أن مشاركة المشركين في المكان الذي يتقربون فيه لغير الله بصورة مشابهة لفعلهم ولو ظاهرًا لا تجوز؛ لأنها مشاركة لهم في الفعل الظاهر ولو كان الفاعل مخلصًا لا يذبح إلا لله، أو لا يصلي إلا لله -جل وعلا-.

قال العلماء: قوله ﷺ: «**أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**» فيه ترتيب ما بعد (الفاء) علىٰ ما قبلها بالفاء، وهذا يدل علىٰ أن سبب الإذن بالوفاء بالنذر أن ما قبله ليس بمعصية، ويدل الاستفصال علىٰ أن الذبح لله في مكان فيه وثن يعبد، أو فيه عيد من أعياد المشركين معصية لله -عز وجل- وبهذا يستقيم ما أراده الشيخ رَحِمَهُ اللهُ من الاستدلال والاستشهاد بهذا الحديث تحت ذلك الباب.

---

(٣٥٩) أخرجه أبو داود، كتاب المناسك، باب: زيارة القبور، برقم (٢٠٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[التوبة:١٠٨]، أي مسجد الضرار نهىٰ الله نبيه ﷺ أن يصلي فيه، والشاهد أن هذا المسجد لما أسس علىٰ الكفر نهىٰ الله نبيه ﷺ أن يصلي فيه فكذا المواضع المعدة للذبح لغير الله لا يذبح المسلم فيها لله وهذا من أحسن القياس.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض وكذلك الطاعة، أي: لما قصد المنافقون المعصية في مسجد الضرار أثر ذلك فيه فمنع الله نبيه ﷺ من الصلاة فيه، ومسجد قباء لما كان أهله يحبون أن يتطهروا طاعة لله أمر الله نبيه ﷺ أن يقوم فيه.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلىٰ المسألة البينة ليزول الاحتمال، أي إن هذا الرجل لما نذر أن ينحر ببوانة احتمل أن يكون محذورًا أو لا يكون، فهذه المسألة المشكلة فسأله عن ذلك فلما أجابه ظهر أنه ليس فيه محذور، وهذه المسألة البينة أمره بالوفاء بنذره لعدم المانع من ذلك.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلىٰ ذلك، أي هذا المكان محتملاً لكونه محل وثن من أوثانهم أو عيد من أعيادهم أو لم يكن استفصله النبي ﷺ.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا، أي: لكون النبي ﷺ لم ينكر عليه ذلك وأمره.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله، أي لقوله: فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟ ولو لم يكن ذلك مؤثرًا لما حسن السؤال عنه، ولم يفرق بين كونه موجودًا الآن أو فيما مضىٰ.

السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله، أي لقوله: وهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ وهذه كالتي قبلها، وقوله: ولو بعد زواله؛ لأن «كان» بمعنىٰ وجد، وهو يصدق علىٰ ما كان موجودًا الآن أو قبل، ثم زال والله أعلم.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية، أي: أنه لما عقب الوصف

بالفاء في قوله فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله دل ذلك على أنه نذر معصية، ولو لم يكن ذلك معصية لما حسن التعقيب به،ونذر المعصية لا يجوز الوفاء به كما دل عليه حديث عائشة المذكور في الباب بعده.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده، أي إنه لما جعل نذر الذبح في مكان عيد المشركين نذر معصية، ومنع من الوفاء به مع كون الناذر لم يقصده دل ذلك على الحذر من مشابهتهم.

العاشرة: لا نذر في معصية، أي لقوله: « **لا وفاء لنذر في معصية الله**».

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، أي: كما أشار إليه في الحديث ومعناه: أن يضيف النذر إلى ملك الغير؛ كقوله: إن شفى الله مريضي لأتصدقن بمال فلان، ذكر معناه في الشرح.



* الأسئلة *

س: اذكر مراد المؤلف بهذا الباب وما حكم الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله؟

جـ: أراد سد الوسائل الموصلة إلى الشرك الأكبر، وحكم الذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله محرم لما فيه من مشابهة المشركين.

قوله: «قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ...﴾ [التوبة:١٠٨]».

س: ما سبب نزول هذه الآية؟ وبين مرجع الضمير في قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وما معنى «لا تقم»؟

جـ: نزلت هذه الآية في شأن طائفة من المنافقين بنوا مسجدًا لمضارة المؤمنين -أهل مسجد قباء- والتفريق بينهم وليكون ملجأً للكفرة وزعموا أنهم بنوه للضعفاء والمساكين ليقيهم من المطر والبرد والحر وسألوا النبي ﷺ أن يصلي فيه فنزلت هذه الآيات في خبر المسجد، فبعث إليه الرسول ﷺ جماعة فهدموه.

ومرجع الضمير في قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ إلى مسجد الضرار. ومعنى «لا تقم»: لا تصلي فيه.

س: ما المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى وما المراد بالتقوى هنا؟

جـ: المراد به مسجد قباء وقيل: مسجد الرسول ﷺ والآية عامة لكل منهما. والمراد بالتقوى هنا طاعة الله ورسوله وجمع كلمة المسلمين.

س: ما مناسبة هذه الآية للباب: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾؟

جـ: **مناسبة الآية للباب:** أن المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله. كما أن هذا المسجد لما أعد لمعصية الله صار محل غضب لأجل ذلك فلا تجوز الصلاة فيه لله.

قوله: «عن ثابت بن الضحاك قال: «نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة فسأل النبي ﷺ فقال:...»».

س: ما هي بوانة؟

جـ: موضع في أسفل مكة وقيل: بين مكة والمدينة.

س: ما الذي يدل عليه قوله: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد»؟

جـ: يدل على المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن ولو بعد زواله.

س: ما الذي يدل عليه قوله: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم»؟

جـ: يدل على المنع من الوفاء بالنذر بمكان فيه عيد من أعياد الجاهلية ولو بعد زواله.

س: ما هو العيد وما المراد به هنا؟

جـ- العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية.

س: ما الذي يدل عليه قوله: «أوف بنذرك»؟

جـ: يدل على أن الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغير الله معصية.

س: ما الذي يؤخذ من قوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله»؟

جـ: يؤخذ منه أن هذا نذر معصية لو وجد في المكان بعض الموانع.

س: ما معنى قوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم»؟

جـ: المعنى: إذا علق النذر على شيء لا يملكه كأن يقول: لله عليَّ نذر إن شفى الله مريضي أن أعتق عبد فلان.

س: اذكر ما يستفاد من حديث ثابت؟

جـ: يستفاد منه:

١ - أن تخصيص البقعة بالنذر جائز إذا خلى من الموانع.

٢ - التحذير من مشابهة المشركين في أعيادهم.

٣ - أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

٤ - لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرس الثاني عشر:

باب من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[الإنسان:٧]

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾[البقرة:٢٧٠].

وفي «الصحيح» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله، فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه»(٣٦٠)

فيه مسائل:

الأولىٰ: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله، فصرفه إلىٰ غير الله شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب من الشرك النذر لغير الله»:

لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله، فإذا صرفه لغير الله كان شركًا في هذه العبادة، كالذبح لغير الله. والنذر مصدر نذر ينذر؛ أي: أوجب علىٰ نفسه شيئًا لم يكن واجبًا عليه شرعًا، تعظيمًا للمنذور له، وكل الأبواب التي ذكرها المصنف تدل علىٰ أن من أشرك مع الله غيره في القصد والطلب فقد ناقض كلمة الإخلاص.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾»:

مدح الله الذين يتعبدون له بما أوجبوه علىٰ أنفسهم من الطاعات، وهو سبحانه لا يمدح إلا علىٰ فعل واجب أو مستحب، أو ترك محرم، وذلك هو العبادة، فمن فعل ذلك لغير الله متقربًا إليه فقد أشرك.

---

(٣٦٠) أخرجه البخاري، كتاب: الأيمان والنذور، باب: النذر في الطاعة، برقم (٦٦٩٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

❁ **قوله:** «وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾»:

يخبر تعالىٰ أن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربين به إليه أنه يعلمه، ويجازينا عليه، فدل ذلك علىٰ أنه عبادة، فالنذور من عباد القبور ليشفعوا لهم شرك؛ لأنه عبادة لهم، فإنه معلوم بالضرورة أن من صرف شيئًا من العبادة لغير الله فقد أشرك. وقال صنع الله الحلبي: والنذر لغير الله إشراك مع الله، كالذبح لغير الله. وقال الفقهاء: خمسة لغير الله شرك: الركوع والسجود والنذر والذبح واليمين.

والحاصل: أن النذر لغير الله فجور، فمن أين تحصل لهم الأجور.

وقال شيخ الإسلام: وما نذره لغير الله كالأصنام والشمس والقمر ونحو ذلك، بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، لا وفاء عليه ولا كفارة، وكذلك الناذر للمخلوق ليس عليه وفاء، فإن كلاهما شرك، والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله ويقول ما أمر به النبي ﷺ **«من حلف وقال في حلفه: واللات والعزىٰ فليقل: لا إله إلا الله»**[٣٦١] متفق عليه.

❁ **قوله:** «في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها»:

أي: في «صحيح البخاري» عن أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق أبي بكر رضي الله عنهما، زوج النبي ﷺ وأعلم الناس بحديثه، تزوجها وهي ابنة سبع، ودخل بها وهي ابنة تسع، وأفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة ففيها خلاف، فلا تفضل إحداهما علىٰ الأخرىٰ، فإن لخديجة من الفضائل في بدء الوحي ما ليس لعائشة، من سبقها بالإيمان بالنبي ﷺ وتأييده في تلك الحال. ولعائشة من العلم بالأحاديث والأحكام ما ليس لخديجة؛ لعلمها بأحوال النبي ﷺ ونزول القرآن، وبيان الحلال من الحرام، وكان الصحابة يرجعون إليها بعد وفاته ﷺ فيما أشكل عليهم من أحواله وحديثه، توفيت سنة ٥٧هـ.

❁ **قوله:** «أن رسول الله ﷺ قال: من نذر أن يطيع الله فليطعه»:

أي: يجب عليه الوفاء بذلك النذر الذي نذره خالصًا لله، فصار عبادة، وقد أجمع العلماء علىٰ أن من نذر طاعة لشرط يرجوه كأن يقول: إن شفىٰ الله مريضي فعليَّ أن أتصدق بكذا، وجب عليه

---

(٣٦١) أخرجه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة النجم، ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾، برقم (٤٨٦٠)، ومسلم، كتاب: الأيمان، باب: من حلف باللات والعزىٰ فليقل لا إله إلا الله، برقم (١٦٤٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إن حصل له ما علق نذره علىٰ حصوله، حيًّا كان أو ميتًا، فإن كان حيًّا لزمه الوفاء به، وإن كان ميتًا يفعل عنه، لوجوبه في ذمته، إلا أبا حنيفة فقال: لا يلزمه إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع، والحديث حجة عليه، والأمر بالوفاء به دال علىٰ أنه عبادة، وقد علمنا من الآيتين والحديث أن النذر عبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر، ومنه الذين ينذرون الزيوت والشموع والأطياب للقبور، والمراد نذر الطاعة، لا نذر المجازات الذي قال فيه ﷺ: «**إنه لا يأتي بخير**»(٣٦٢).

قوله: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»:

أي: لا يوفي به؛ لأنه نذر معصية، زاد الطحاوي «**ليكفر عن يمينه**». وقال ابن القطان: «**عندي شك في هذه الزيادة، وأجمع العلماء علىٰ أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية**». وقال الحافظ: «**اتفقوا علىٰ تحريم النذر في المعصية، واختلفوا هل ينعقد موجبًا للكفارة أولا؟**» وتقدم.

ولمسلم عن عقبة مرفوعًا: «**كفارة النذر إن لم يسم كفارة يمين**»(٣٦٣). وقد يستدل بحديث الباب علىٰ صحة النذر في المباح، كما هو مذهب أحمد وغيره، ويؤيده حديث المرأة التي قالت: «**نذرت أن أضرب علىٰ رأسك بالدف. فقال: أوفي بنذرك**»(٣٦٤). رواه أحمد وغيره. وأما نذر اللجاج والغضب وهو تعليقه بشرط يقصد المنع منه، أو الحمل عليه، أو التصديق أو التكذيب، فيخير بين فعله وكفارة يمين. وقال الشيخ: موجب الحلف بنذر اللجاج والغضب عند الحنث، هو التخيير بين التكفير وبين فعل المنذور، وأكثر أهل العلم علىٰ أنه يجزئه كفارة يمين، وهو قول فقهاء الحديث. وإن نذر مكروهًا كالطلاق استحب أن يكفر ولا يفعله.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «**باب من الشرك النذر لغير الله**»:

أي: من الشرك الأكبر وهو شرك الجاهلية وشرك عباد القبور الذين ينذرون لهم ويستغيثون بهم ويطلبون الحوائج منهم، وهو الذي بعث الأنبياء لإنكاره وهذا كان عند الجاهلية، أما الشرك الأصغر فهو كالرياء والحلف بالنبي وقول ما شاء الله وشئت.

---

(٣٦٢)أخرجه مسلم، كتاب: النذر، باب: النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا، برقم (٤/ ١٦٣٩)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣٦٣)سبق تخريجه.

(٣٦٤)سبق تخريجه.

❁ **قوله:** ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

هذا مدح للمؤمنين الذين يوفون بالنذور الطيبة الشرعية وهذا يدل علىٰ أن النذر عبادة يجب صرفها لله واختصاصه بها سبحانه وحده.

❁ **قوله:** ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾:

أي: أن الله يعلم نفقات العباد ونذورهم فيجازيهم عليها إن كانت لوجه الله.

فدل علىٰ أن النذر عبادة حيث قرنه بالنفقات والنفقة عبادة إذا كانت لوجه الله كالصدقات علىٰ الفقراء والمساكين.

فإذا نذر وتصدق بشيء للقبر أو لبنائه أو لآلهة معينة صار شركًا أكبر بالله.

❁ **قوله:** «وفي «الصحيح»»:

«**من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي فلا يعصه**».

وهذا يدل علىٰ أن الطاعات يجب الوفاء بنذورها كأن يقول: لله علي كذا أما المعاصي فلا يجوز الوفاء بنذورها.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «باب من الشرك النذر لغير الله»:

النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان علي نذر، أو لهذا القبر علي نذر، أو لجبريل علي نذر، يريد بذلك التقرب إليهم، وما أشبه ذلك.

والفرق بينه وبين نذر المعصية: أن النذر لغير الله ليس لله أصلًا، ونذر المعصية لله، ولكنه علىٰ معصية من معاصيه، مثل أن يقول: لله عليَّ نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله، فيكون النذر لله والمنذور معصية، ونظير: هذا الحلف بالله علىٰ شيء محرم، والحلف بغير الله، فالحلف بغير الله مثل: والنبي، لأفعلن كذا وكذا، ونظيره: النذر لغير الله، والحلف بالله علىٰ محرم، مثل: والله، لأسرقن، ونظيره: نذر المعصية، وحكم النذر لغير الله شرك، لأنه عبادة للمنذور له، وإذا كان عبادة، فقد صرفها لغير الله، فيكون مشركًا.

وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقًا، ولا تجب فيه كفارة، بل هو شرك تجب التوبة منه، كالحلف بغير الله فلا ينعقد وليس فيه كفارة. وأما نذر المعصية، فينعقد، لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفارة يمين، كالحلف بالله علىٰ المحرم ينعقد، وفيه كفارة.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

❁ **الأولى: قوله:** ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، هذه الآية سيقت لمدح الأبرار، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[الإنسان:٥].

ومدحهم بهذا يقتضي أن يكون عبادة، لأن الإنسان لا يمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عبادة.

ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾[الحج:٢٩]، لكان أوضح؛ لأن قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾أمر، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة؛ لأن العبادة ما أمر به شرعًا.

وجه استدلال المؤلف بالآية على أن النذر لغير الله من الشرك: أن الله تعالى أثنى عليهم بذلك، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة، ولا يكون سببًا يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة، فيقتضي أن صرفه لغير الله شرك.

❁ **الآية الثانية قوله:** ﴿وَمَا أَنفَقْتُم﴾.

﴿وَمَا﴾: شرطية، و﴿أَنفَقْتُم﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾.

قوله: ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾: بيان لـ ﴿وَمَا﴾في قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم﴾، والنفقة: بذل المال، وقد يكون في الخير، وقد يكون في غيره.

قوله: ﴿أَوْ نَذَرْتُم﴾: معطوف على قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم﴾.

قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾، تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء، إذ لا نعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلا لترتب الجزاء عليه، وترتب الجزاء عليه يدل على أنه من العبادة التي يجازى الإنسان عليها، وهذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية.

❁ **قوله:** «وفي الصحيح»:

سبق الكلام على مثل هذا التعبير في باب تفسير التوحيد.

قوله: «من نذر»، جملة شرطية تفيد العموم، وهل تشمل الصغير؟

قال بعض العلماء: تشمله، فينعقد النذر منه.

وقيل: لا تشمله، لأن الصغير ليس أهلًا للإلزام ولا للالتزام، وبناء على هذا يخرج الصغير من هذا العموم، لأنه ليس أهلًا للإلزام ولا للالتزام.

قوله: «**أن يطيع الله**»: الطاعة: هي موافقة الأمر؛ أي: أن توافق الله فيما يريد منك إن أمرك، فالطاعة فعل المأمور به، وإن نهاك، فالطاعة ترك المنهي عنه، هذا معنى الطاعة إذا جاءت مفردة.

أما إذا قيل: طاعة ومعصية، فالطاعة لفعل الأوامر، والمعصية لفعل النواهي.

قوله: «**فليطعه**»، الفاء واقعة في جواب الشرط؛ لأن الجملة إنشائية طلبية، و«اللام» لام الأمر.

وظاهر الحديث: يشمل ما إذا كانت الطاعة المنذورة جنسها واجب، كالصلاة والحج وغيرهما، أو غير واجب، كتعليم العلم وغيره.

وقال بعض أهل العلم: لا يجب الوفاء بالنذر إلا إذا كان جنس الطاعة واجبًا، وعموم الحديث يرد عليهم.

وظاهر الحديث أيضًا يشمل من نذر طاعة نذرًا مطلقًا ليس له سبب، مثل: لله عليَّ أن أصوم ثلاثة أيام.

ومن نذر نذرًا معلقًا، مثل: إن نجحت، فلله عليَّ أن أصوم ثلاثة أيام.

ومن فرق بينهما، فليس بجيد؛ لأن الحديث عام.

واعلم أن النذر لا يأتي بخير ولو كان نذر طاعة، وإنما يستخرج به من البخيل؛ ولهذا نهى عنه النبي ﷺ، وبعض العلماء يحرمه، وإليه يميل شيخ الإسلام ابن تيمية للنهي عنه؛ ولأنك تلزم نفسك بأمر أنت في عافية منه، وكم من إنسان نذر وأخيرًا ندم، وربما لم يفعل.

ويدل لقوة القول بتحريم النذر قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾[النور:٥٣]، فهذا التزام مؤكد بالقسم فيشبه النذر.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾[النور:٥٣]؛ أي: عليكم طاعة معروفة بدون يمين، والإنسان الذي لا يفعل الطاعة إلا بنذر، أو حلف على نفسه؛ يعني: أن الطاعة ثقيلة عليه.

ومما يدل على قوة القول بالتحريم أيضًا خصوصًا النذر المعلق: أن الناذر كأنه غير واثق بالله ﷻ فكأنه يعتقد أن الله لا يعطيه الشفاء إلا إذا أعطاه مقابله، ولهذا إذا أيسوا من البرء ذهبوا ينذرون، وفي هذا سوء ظن بالله ﷻ. والقول بالتحريم قول وجيه.

فإن قيل: كيف تحرمون ما أثنى الله على من وفى به؟

فالجواب: أننا لا نقول: إن الوفاء هو المحرم حتى يقال: إننا هدمنا النص، إنما نقول: المحرم

أو المكروه كراهة شديدة هو عقد النذر، وفرق بين عقده ووفائه، فالعقد ابتدائي، والوفاء في ثاني الحال تنفيذ لما نذر.

قوله: «**ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه**»: «لا»: ناهية، والنهي بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حرامًا، فالوفاء بالنذر حرام، وإن كانت المعصية مكروهة، فالوفاء بالنذر مكروه؛ لأن المعصية الوقوع فيما نهي عنه، والمنهي عنه ينقسم عند أهل العلم إلىٰ قسمين: منهي عنه نهي تحريم، ومنهي عنه نهي تنزيه.

❁ **قوله**: «**فيه مسائل**»:

الأولىٰ: وجوب الوفاء بالنذر؛ يعني: نذر الطاعة فقط؛ لقوله: «**من نذر أن يطيع الله، فليطعه**»؛ ولقول المؤلف في المسألة الثالثة: إن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة، فصرفه إلىٰ غير الله شرك، وهذه قاعدة في توحيد العبادة، فأي فعل كان عبادة، فصرفه لغير الله شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به؛ لقوله ﷺ «من نذر أن يعصي الله، فلا يعصه».

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «**باب من الشرك النذر لغير الله**»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ المصنف رحمه الله بين فيه نوعًا من أنواع الشرك المنافي للتوحيد، وهو النذر لغير الله؛ ليحذر ويجتنب.

«**من الشرك**»؛ أي: الأكبر.

«**النذر لغير الله**»؛ لأنه عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. والنذر: مصدر نذر ينذر: أوجب علىٰ نفسه شيئًا لم يكن واجبًا عليه شرعًا تعظيمًا للمنذور له، وأصله في اللغة الإيجاب.

❁ **قوله**: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾:

يتمّمُون ما أوجبوا علىٰ أنفسهم من الطاعات لله.

❁ قوله: ﴿وَمَآ﴾:

شرطية، ويجوز أن تكون موصولة.

﴿أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾: يشمل كل صدقة مقبولة وغير مقبولة.

﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾: يشمل كل نذر مقبول وغير مقبول.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾: أي: فيجازيكم عليه، ففيه معنىٰ الوعد والوعيد.

المعنىٰ الإجمالي للآيتين:

أنَّ الله يمدح الذين يتعبدون له بما أوجبوه علىٰ أنفسهم من الطاعات، كما أنه يخبر سبحانه أنه يعلم كل صدقة تصدقنا بها وكل عبادة التزمناها له أو لغيره وسيجازي كلًّا علىٰ حسب نيته وقصده.

مناسبة الآيتين للباب:

أنَّهما يدلان علىٰ أن النذر عبادة حيث مدح الموفين به، وهو لا يمدح إلا علىٰ فعل مأمور أو ترك محظور، كما أنه أخبر أنه يعلم ما يصدر منا من نفقات ونذور، وسيجازينا علىٰ ذلك، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ النذر عبادة وما كان عبادة فصرفه لغير الله شرك.

ما يستفاد من الآيتين:

١- أنَّ النذر عبادة فيكون صرفه لغير الله شركًا أكبر.

٢- إثبات علم الله تعالىٰ بكل شيء.

٣- إثبات الجزاء علىٰ الأعمال.

٤- الحث علىٰ الوفاء بالنذر.

❁ قوله: «عائشة»:

هي أم المؤمنين زوج النبي ﷺ وبنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وهي أفقه النساء مطلقًا، وأفضل أزواج النبي ﷺ ما عدا خديجة، ففي تفضيلها عليها خلاف، توفيت سنة ٥٧هـ.

«في الصحيح»؛ أي: «صحيح البخاري».

«فليطعه»؛ أي: ليفعل ما نذره من طاعته.

«فلا يعصه»؛ أي: فلا يفعل ما نذره من المعصية.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أنَّ النبي ﷺ يأمر من صدر منه نذر طاعة أن يوفي بنذره: كمن نذر صلاة أو صدقة أو غير ذلك، وينهىٰ من صدر منه نذر معصية عن تنفيذ نذره: كمن نذر الذبح لغير الله أو الصلاة عند القبور أو السفر لزيارتها أو غير ذلك من المعاصي.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّه دل علىٰ أنَّ النذر يكون طاعة ويكون معصية، فدل علىٰ أنه عبادة؛ فمن نذر لغير الله فقد أشرك به في عبادته.

ما يستفاد من الحديث:

١- أنَّ النذر عبادة، فصرفه لغير الله شرك.

٢- وجوب الوفاء بنذر الطاعة.

٣- تحريم الوفاء بنذر المعصية.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب من الشرك النذر لغير الله تعالىٰ»:**

(من) هاهنا تبعيضية.

قوله: «**من الشرك النذر**»: النذر مبتدأ مؤخر، والخبر قبله، وأصل الجملة: النذر لغير الله كائن من الشرك. والشرك هنا: المقصود به الشرك الأكبر.

ولا شك أنَّ النذر لغير الله شرك أكبر بالله -جل وعلا- ووجه كونه شركًا بالله -جل وعلا- أن النذر هو إلزام المكلف نفسه بعبادةٍ لله -جل وعلا- إما مطلقًا، وإما بقيد، فهذه حقيقة النذر.

ومما يدل -أيضًا- علىٰ أن النذر عبادة أن الله -جل وعلا- مَدَحَ الذين يوفون بالنذر فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ٧]ومدحه لهم يدل علىٰ أن الوفاء بالنذر أمر محبوب لله عز وجل، ولا يكون محبوبًا إلا وهو مشروع، وذلك يقتضي أنه عبادة من العبادات، بل إن الوفاء بالنذر واجب؛ لأنه إلزام بطاعة، وقال ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**».

ومما يدل -أيضا- علىٰ كون النذر عبادة قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]ووجه الدلالة: محبة الله -جل وعلا- لذلك الذي حصل منهم تعظيمًا له -سبحانه وتعالىٰ- بالنذر.

وإذا كان كذلك فإنه عبادة من العبادات، فمن صَرَفَهُ لغير الله -جل وعلا- كان مشركًا بالله -جل وعلا-.

وهاهنا سؤال معروف قد يَرِدُ في هذا المقام، وهو أن النذر مكروه قد كرهه النبي ﷺ وسئل عنه فقال: «**إنه لا يأتي بخير**»(٣٦٥). فكيف يكون عبادة وقد كرهه عليه الصلاة والسلام؟

والجواب: أن النذر قسمان: نذر مطلق، ونذر مقيد، والنذر المطلق هو أن يُلْزِمَ العبدُ نفسه بعبادة لله -جل وعلا- هكذا بلا قيد، كأن يقول مثلًا: لله عليَّ نذر أن أصلي ركعتين، وليس هذا النذر في مقابلة شيء يحدث له في المستقبل، أو شيء حدث له، فيلزم نفسه بعبادة كصلاة، أو صيام، أو نحو ذلك، فهذا هو النذر المطلق، وهو إلزام العبد نفسه بطاعةٍ لله -جل وعلا- أو بعبادة. وليس هذا النذر هو الذي كرهه عليه الصلاة والسلام؛ بل النذر المكروه هو القسم الثاني، وهو النذر المقيد، وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «**إنما يستخرج به من البخيل**».(٣٦٦).

وحقيقته: أن يلزم العبد نفسه بطاعة لله -جل وعلا- مقابل شيءٍ يحدثه الله -جل وعلا- له ويقدره، ويقضيه له، كأن يقول مثلًا: إن شفىٰ الله مريضي فلله علي نذرٌ أن أتصدق بكذا وكذا، أو إنْ نجحت فسأصلي ليلة، أو إنْ عُيِّنت في هذه الوظيفة فسأصوم أسبوعًا، ونحو ذلك، فهذا كأنه يشترط بهذا النذر علىٰ الله -جل وعلا- فيقول: يا رب إن أعطيتني كذا وكذا صمت لك، وإن أنجحتني صليتُ، أو تصدقت، وإن شفيت مريضي فعلتُ كذا وكذا، يعني مقابلة للفعل بالفعل. وهذا الذي وصفه النبي -عليه الصلاة والسلام- بقوله: «**إنما يستخرج به من البخيل**» لأن البخيل هو الذي لا يعمل العبادة حتىٰ يُقاضىٰ عليها فصار بما أعطاه الله من النعمة أو بما دفع عنه من النقمة كأنه -في حِسِّ ذلك الناذر- قد أعطىٰ الأجر، وأعطي ثمن تلك العبادة.

---

(٣٦٥) أخرجه مسلم، كتاب: النذر، باب: النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا، برقم (٤/ ١٦٣٩)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣٦٦) أخرجه البخاري، كتاب: القدر، باب: إلقاء العبد النذر إلىٰ القدر، برقم (٦٦٠٨)، ومسلم، كتاب: النذر، باب: النهي عن النذر وأنه لا يردُّ شيئًا، برقم (٢/ ١٦٣٩)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وهذا المعنىٰ الخاطئ يستحضره كثير من العوام الذين يستعملون النذور، فإنهم يظنون أن حاجاتهم لا تحصل إلا بالنذر، وقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أهل العلم: «**إن من ظن أنه لا تحصل حاجة من حاجاته إلا بالنذر، فإن اعتقاده هذا محرَّمٌ؛ لأنه ظن أن الله لا يعطي إلا بمقابل، وهذا سوء ظن بالله -جل وعلا- وسوء اعتقاد فيه سبحانه وتعالىٰ، بل هو المتفضل المنعم علىٰ خلقه**».

فإذا تبين لك ذلك فاعلم أن النذر المطلق لا يدخل في الكراهة، لكن إذا أطلقنا القول بأن النذر عبادة، فهل يدخل في هذا الإطلاق النذر المقيّد؟

والجواب: أن النذر المقيّد له جهتان:

الأولىٰ: وفاؤه بالنذر الذي ألزم نفسه به فإنه يكون بذلك قد تعبَّد الله عبادةً من هذه الجهة -فيما يظهر-.

الجهة الثانية: جهة الكراهة المتعلِّقة بهذا النذر المقيد، وهي إنما جاءت لصفة الاعتقاد لا لصفة أصل العبادة، فإنه -في النذر المقيد- إذا قال: إن كان كذا وكذا فلله عليّ نذرُ كذا وكذا، كانت الكراهة راجعة إلىٰ ذلك التقييد، لا إلىٰ أصل النذر، دلّ علىٰ ذلك التعليل، حيث قال: «**فإنما يستخرج به من البخيل**».

فلا إشكال إذًا، فالنذر عبادة من العبادات العظيمة.

وهنا قاعدة في أنواع الاستدلال علىٰ أن عملًا ما من الأعمال، صَرْفُه لغير الله -جل وعلا- شرك أكبر، وذلك أن الاستدلال نوعان:

النوع الأول: استدلال عام، يعني: أن كل دليل من الكتاب أو السنة فيه إفراد الله بالعبادة يكون دليلًا علىٰ أن كل عبادة لا تصلح إلا لله، فيكون الاستدلال بهذا النوع من الأدلة علىٰ تحريم النذر لغير الله، وأنه شرك كالآتي: دل الدليل علىٰ وجوب صرف العبادة لله وحده، وعلىٰ أنه لا يجوز صرف العبادة لغير الله -جل وعلا- وأن من صرفها لغير الله -جل وعلا- فقد أشرك، والنذر عبادة من العبادات، فمن نذر لغير الله فقد أشرك.

والنوع الثاني من الاستدلال: هو أن تستدل علىٰ المسائل بأدلة خاصة وردت فيها، كأن تستدل علىٰ تحريم الذبح لغير الله بأدلة خاصة وردت في ذلك، وكأن تستدل علىٰ وجوب الاستغاثة بالله وحده دون ما سواه بأدلة خاصة وردت بذلك، وكذا في الاستعاذة ونحو ذلك.

فالدليل على وجوب إفراد الله بجميع أنواع العبادة تفصيلًا وإجمالًا، وعلى أن صرفها لغير الله شرك أكبر، يستقيم بهذين النوعين من الاستدلال:

استدلال عام بكل آية أو حديث فيهما الأمر بإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الشرك فتدخل هذه الصورة فيها؛ لأنها عبادة، بجامع تعريف العبادة.

والثاني: أن تستدل على المسألة بخصوص ما ورد فيها من الأدلة؛ ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: «**باب من الشرك النذر لغير الله**» واستدل على ذلك بخصوص أدلة وردت في النذر.

وأما الآيات التي قدّمها في أول الكتاب، كقوله جل وعلا: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات: ٥٦]وكقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] وكقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١] فهذه أدلة تصلح لأن يستدل بها على أن صرف النذر لغير الله شرك؛ فتقول: النذر لغير الله عبادة، والله -جل وعلا- نهى أن تصرف العبادة لغيره، وأن من صرف العبادة لغير الله فهو مشرك، فتقول: النذر عبادة؛ لأنه داخل في حد العبادة؛ لأن الله -عز وجل- يرضاه، ومدح الموفين به.

فالدليل الخاص -إذًا- هو أن تستدل بخصوص ما جاء في الكتاب والسنة من الأدلة على النذر؛ ولهذا أورد الشيخ -هنا- الدليل التفصيلي، وفي أول الكتاب أتى بالأدلة العامة على كل مسائل العبادة، وهذا من الفقه الدقيق في التصنيف. ومن الفقه في الأدلة الشرعية: أن المستدل على مسائل التوحيد، ينبغي له أن يراعي التنويع؛ لأن تنويع الاستدلال، وإيراد الأدلة من عدة وجوه، من شأنه أن يضعف حجة الخصوم الذين يدعون الناس إلى عبادة غير الله، وإلى الشرك به -جل وعلا- فإذا أوردت على الخصم مرة دليلًا خاصًّا، وتارة دليلًا عامًّا، ونوعت في ذلك، فإن هذا مما يضيق به المخاصم، ويقطع حجته، أما إذا لم تورد إلا دليلًا واحدًا فربما أوله لك، أو ناقشك فيه، فيحصل عند المستدل ضعف عند المواجهة، أما إذا انتبه لمقاصد أهل العلم، وحفظ الأدلة فإنه يقوى على مجادلة الخصوم، والله -جل وعلا- وعد عباده بالنصر كما في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر:٥١]

وقد قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كشف الشبهات»: «**والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين**».

وهذا صحيح؛ فإن عند العوام الذين علموا مسائل التوحيد، وأخذوها عن أهلها، عندهم من الحجج، ووضوح البينات في ذلك ما ليس عند بعض المتعلمين.

قوله: «**وقول الله تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾**[الإنسان: ٧]»:

وجه الاستدلال به علىٰ كون النذر عبادة ظاهر، وهو أن الله -جل وعلا- مدح الموفين بالنذر، ومدحه للموفين بالنذر يقتضي أن الوفاء بالنذر محبوب له -جل وعلا- وأنه مشروع، وما كان كذلك فهو من أنواع العبادات، فيكون صرفه لغير الله -جل وعلا- شركًا أكبر.

قوله: «**وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾**»:

فإن الله عظّم النذر بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ وعظّم أهله، وهذا يدل علىٰ أن الوفاء به عبادة محبوبة لله -جل وعلا-.

قوله: «**وفي «الصحيح» عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه...»**»:

وجه الدلالة من هذا الحديث: أن النبي ﷺ أوجب الوفاء بالنذر فقال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**» وهذا فيه: إيجاب الوفاء بالنذر المطلق الذي يكون طاعة، كأن يقول: لله عليّ أن أصلي كذا وكذا، فهذا يجب عليه أن يوفي بنذره، وكذا إن كان النذر مقيدًا، كأن يقول: إن شفىٰ الله مريضي فلله عليّ أن أتصدق بمائة ريال، فهذا يجب عليه أن يوفي بنذره لله -جل وعلا- وإيجاب ذلك يدل علىٰ أنه عبادة محبوبة؛ لأن الواجب من أنواع العبادات، وأن ما كان وسيلة إليه فإنه أيضًا عبادة؛ لأن الوسيلة للوفاء بالنذر هي النذر، فلولا النذر لم يأتِ الوفاء، فأُوجب الوفاء؛ لأجل أن المكلف هو الذي ألزم نفسه بهذه العبادة.

وأما المنع من الوفاء بنذر المعصية الذي دل عليه قوله: «... **ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» فلأن إيجاب المكلف علىٰ نفسه معصية الله -جل وعلا- فيه معارضة لنهي الله -جل وعلا- عن العصيان، وإذا نذر العبد العصيان، فإن النذر -كما هو معلوم في الفقه- قد انعقد،

ويجب عليه ألا يفي بفعل تلك المعصية، لكن يجب عليه أن يكفّر عن ذلك كفارة يمين، ومحل ذلك باب النذر في كتب الفقه.

فالمقصود من هذا أن استدلال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالشق الأول، وهو قوله: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**» ظاهر في الدلالة علىٰ أن النذر عبادة، وكذلك في قوله: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» حيث أوجب عليه كفارة يمين، فهذا يدل علىٰ أن أصله منعقد، وإنما انعقد لكونه عبادة، وإذا كان عبادة فصرفها لغير الله شرك أكبر به -جل وعلا-.

فالنذر لله -جل وعلا- عبادة عظيمة -كما ذكرنا- والنذر لغير الله -جل وعلا- أيضًا عبادة، فإذا توجه الناذر لغير الله بالنذر فقد عبده، وإذا توجه الناذر لله -جل وعلا- بالنذر فقد عبد الله -جل وعلا-.

فالنذر -علىٰ أية حال كان- لله، أو لغير الله، هو عبادة، ثم إن كان لله فهو عبادة لله -جل وعلا- وإن كان لغير الله فهو عبادة لذلك الغير، والله أعلم.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر، أي: نذر الطاعة ؛لقوله: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»؛ مثل الصلاة، والصوم، والاعتكاف وغيرها.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة فصرفه إلىٰ غير الله شرك، أي: لما مدحهم الله علىٰ الوفاء بالنذر وأنه يجازيهم عليه دل ذلك علىٰ أنه عبادة كما أشار إليه في الشرح، والعبادة إذا صرفت لغير الله صارت شركًا.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به، أي ؛ لقوله: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» وذلك: كالزنا وشرب الخمر ونحوهما.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن النذر لله من أنواع العبادة فصرفه لغير الله شرك ينافي التوحيد.

س: عرف النذر لغة وشرعًا؟

جـ: النذر لغة: الإيجاب وشرعًا: إيجاب المكلف علىٰ نفسه ما ليس واجبًا عليه.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[الإنسان:٧]».

س: ما الذي تدل عليه الآية وما مناسبتها للباب؟

جـ: دلت علىٰ وجوب الوفاء بالنذر ومدح من فعل ذلك.

ومناسبتها للباب: أن الله مدح الموفين بالنذر فدل ذلك علىٰ أنه عبادة فمن نذر لغير الله متقربًا إليه فقد أشرك.

قوله: قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة:٢٧٠].

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها للباب؟

جـ: يخبر الله تعالىٰ أنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته علىٰ ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه.

ومناسبتها للباب: أن الله أخبر أن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربين إليه أنه يعلمه ويجازينا عليه فدل ذلك علىٰ أنه عبادة فمن صرفها لغير الله فقد أشرك.

قوله: في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ...».

س: اشرح هذا الحديث واذكر ما يستفاد منه وبين مناسبته للباب؟

جـ: يأمر الرسول ﷺ من أوجب علىٰ نفسه طاعة بالنذر أن يوفي بها؛ لأن طاعة الله واجبة

وينهىٰ من نذر معصية عن الوفاء بها؛ لأن معصية الله محرمة. ويستفاد منه:

١ - أنه يجب الوفاء بالنذر إذا كان طاعة.

٢ - أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

ومناسبته للباب: أنه دل علىٰ أن النذر لغير الله معصية يحرم الوفاء به لكونه شرك.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



الدرس الثالث عشر:

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلًا، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتىٰ يرحل من منزله ذلك»[٣٦٧] رواه مسلم

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: الاستدلال علىٰ ذلك بالحديث؛ لأن العلماء يستدلون به علىٰ أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية، من كف شر أو جلب نفع، لا يدل علىٰ أنه ليس من الشرك.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ قوله: «باب من الشرك الاستعاذة بغير الله»:

الاستعاذة: الالتجاء والاعتصام والتحرز، وحقيقتها: الهرب من شيء تخافه إلىٰ من يعصمك منه، فالعياذ لدفع الشر، وأما اللياذ فطلب الخير. قال الشاعر:

---

(٣٦٧) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: في التعوذ من سوء القضاء...، برقم (٢٧٠٨)، والترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء ما يقول إذا نزل منزلا، برقم (٣٤٣٧)، وغيرهما من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به فيما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فالعائذ بالله قد هرب إليه، واعتصم واستجار به، ولجأ إليه، والتزم بجنابه مما يخافه. وهذا تمثيل، وإلا فما يقوم بالقلب من ذلك أمر لا تحيط به العبارة، وقد أمر الله عباده بها في مواضع من كتابه، وتواترت بها السنة عن المعصومﷺ، وهي عبادة من أَجَلِّ العبادات، فصرفها لغير الله شرك أكبر، وإن استعاذ بالمخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه فجائز، وسيأتي جواز: أعوذ بالله ثم بك.

وإن قال: أعوذ بالله وبك ولو فيما يقدر عليه كان مشركًا شركًا أصغر؛ لأن الواو تفيد أن ما بعدها مساو لما قبلها، عكس ثم، فإنها إنما تفيد التعقيب، وإن كان فيما لا يقدر عليه كان مشركًا الشرك الأكبر، ولو قال: أعوذ بالله ثم بك.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الآية»:

أخبر عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته رهقًا وهو الطغيان. وذلك أن الرجل من العرب في الجاهلية كان إذا نزل واديًا أو مكانًا موحشًا وخاف علىٰ نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه. فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم خوفًا منهم، زادوهم رهقًا، أي: خوفًا وإرهابًا وذعرًا. فذمهم الله بهذه الآية وأخبر أنهم يزيدونهم رهقًا نقيض قصدهم، وعلم النبيﷺ المسلمين أن يقول أحدهم إذا نزل منزلًا: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»[٣٦٨]. ووجه الاستدلال بالآية: أن الله حكىٰ عن مؤمني الجن أنهم ذكروا أشياء من الشرك، كانوا يعتقدونها في الجاهلية، من جملتها الاستعاذة بغير الله.

قال المصنف: «فيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل علىٰ أنه ليس من الشرك».

قوله: «وعند خولة بنت حكيم»:

ابن أمية بن حارثة السلمية يقال لها: أم شريك، ويقال: إنها هي الواهبة، وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون. قال عمر بن عبد العزيز: «نعمت المرأة الصالحة».

---

(٣٦٨) سبق تخريجه.

❁ **قوله:** «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»:

أي: أعتصم بكلمات الله الكاملات، التي لا يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر، أو الشافية الكافية، أو الكلمات هنا القرآن. من شر ما خلق، أي: من شر كل مخلوق قام به الشر، لا من شر كل ما خلق الله. فإن الجنة والملائكة والأنبياء لا شر فيهم، و«ما» موصولة وليس المراد بها العموم الإطلاقي، بل التقييدي الوصفي، والشر اسم جامع للسوء والفساد والظلم وجميع الرذائل والخطايا، ويقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه. وقد شرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته بدلًا عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، والأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى.

وهذا الحديث مما استدل به أهل السنة على أن كلام الله غير مخلوق؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك، ونهوا عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها، خشية أن يكون فيها شرك. ومن ذبح لغير الله أو استعاذ به، أو تقرب إليه بما يحب فقد عبده، وإن لم يسم ذلك عبادة.

❁ **قوله:** «رواه مسلم»:

قال القرطبي: «هذا خبر صحيح، علمنا صدقه دليلًا وتجربة منذ سمعته عملت به فلم يضرني شيء، إلى أن تركته فلدغتني عقرب ليلة، فتفكرت فإذا بي نسيته». قال المصنف: «فيه فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره».

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب من الشرك الاستعاذة بغير الله»:

أي: من الشرك الأكبر كبقية العبادات التي صرفها لغير الله شرك أكبر. لأن الاستعاذة عبادة كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أما الاستعاذة بالمخلوق الحي الحاضر القادر فلا بأس بها كما تقول لرجل: أعوذ بك من غلامك أو ابنك وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[القصص:١٥] أما الاستعاذة بالميت أو بالغائب أو الحجر والصنم فهو شرك أكبر.

❁ **قوله:** «قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦]»:

نزلت هذه في أناس كانوا يعوذون بسادات الجن وكانت العرب في الجاهلية إذا نزلوا منزلًا قالوا: نعوذ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه فهو كان من عمل الجاهلية، والواجب صرف كل هذا لله.

﴿فَزَادُوهُمْ﴾: الواو للجن والهاء للإنس أي: زاد الجن الإنس رهقًا وهو الخوف والذعر، فلما خاف الإنس من الجن تكبرت الجن.

وقال بعض السلف: الواو للإنس والهاء للجن أي: زاد الإنس الجن رهقًا ويكون معنىٰ الرهق: الطغيان والاستكبار.

وكلا المعنيين حق فإذا تعوذ الإنسان من الجن فهو تعظيم للجن ويزاد الجن طغيان وتكبر ويقابله خوف الإنس من الجن.

وقد ذكرهم الله في معرض الذم فيجب ترك فعلهم.

قوله: «**وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت الرسولﷺ يقول: من نزل منزلًا فقال...**»:

يستحب قول هذا الدعاء عند نزول منزل، ويدل علىٰ فضل هذه الاستعاذة وأنها من أسباب العافية من شر الجن والإنس، وهكذا إذا ركب الطائرة أو السيارة أو القطار ونحوه أن يقول ذلك وجاء في حديث أنه يستحب تكراره ثلاثًا وكان النبيﷺ إذا دعا دعا ثلاثًا[٣٦٩].

«**كلمات**»: معناها أي: كلمات الله النافذة والكونية التي لا راد لها.

وقال بعض السلف: المراد بالكلمات: الشرعية وكلمات القرآن لأنها كلمات عظيمة شريفة وهي كلام الله. وكل هذا حق وكلها وصف له سبحانه.

فكلامه الكوني نافذ وكلامه الشرعي أفضل الكلام.

وفيه توسل بصفات الله. وبهذا استدل السلف علىٰ أن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله فدل الحديث علىٰ أن الكلام صفة من صفات الله ويجوز التعوذ به وأنه غير مخلوق.

«**لم يضره شيء**»: فنكرة في سياق النفي فتعم كل شيء.

وهذه يدل علىٰ فضلها فينبغي العمل بها.

والتعوذ بغير الله وبغير صفاته لا يجوز بالإجماع وإنه شرك.

---

(٣٦٩)أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: إذا ألقي علي ظهر المصلي قذر...، برقم (٢٤٠)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبيﷺ من أذي المشركين...، برقم (١٧٩٤) واللفظ له، وغيرهما من حديث، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «من الشرك»:

من: للتبعيض، وهذه الترجمة ليست على إطلاقها؛ لأنه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه، فإنه جائز الاستعانة.

قوله: «قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الجن:٦]:

الواو: حرف عطف، و ﴿وَأَنَّهُۥ﴾: فتحت همزتها بسبب عطفها على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:١].

قال ابن مالك:

وهمز إن افتح لسد مصدر مسدها وفي سوى ذاك اكسر

فيؤول بمصدر؛ أي: قل أوحي إلى استماع نفر وكون رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾: صفة لرجال؛ لأن رجال نكرة، وما بعد النكرة صفة لها.

قوله: ﴿يَعُوذُونَ﴾: الجملة خبر كان، ويقال: عاذ به ولاذ به، فالعياذ مما يخاف، واللياذ فيما يؤمل، وعليه قول الشاعر يخاطب ممدوحه، ولا يصلح ما قاله إلا لله:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: يلتجئون إليهم مما يحاذرونه، يظنون أنهم يعيذونهم، ولكن زادوهم رهقًا؛ أي: خوفًا وذعرًا، وكانت العرب في الجاهلية إذا نزلوا في واد نادوا بأعلى أصواتهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

قوله: ﴿رَهَقًا﴾؛ أي: ذعرًا وخوفًا، بل الرهق أشد من مجرد الذعر والخوف، فكأنهم مع ذعرهم وخوفهم أرهقهم وأضعفهم شيء؛ فالذعر والخوف في القلوب والرهق في الأبدان.

وهذه الآية تدل على أن الاستعاذة بالجن حرام؛ لأنها لا تفيد المستعيذ، بل تزيده رهقًا، فعوقب بنقيض قصده، وهذا ظاهر؛ فتكون الواو ضمير الجن والهاء ضمير الإنس.

وقيل: إن الإنس زادوا الجن رهقًا، أي: استكبارًا وعتوًّا، ولكن الصحيح الأول.

قوله: ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: يستفاد منه أن للجن رجالًا، ولهم إناث، وربما يجامع الرجل من الجن الأنثىٰ من بني آدم، وكذلك العكس الرجل من بني آدم قد يجامع الأنثىٰ من الجن، وقد ذكر الفقهاء الخلاف في وجوب الغسل بهذا الجماع.

والفقهاء يقولون في باب الغسل: لو قالت: إن بها جنيًّا يجامعها كالرجل، وجب عليها الغسل، وأما أن الرجل يجامع الأنثىٰ من الجن؛ فقد قيل ذلك، لكن لم أره في كلام أهل العلم، وإنما أساطير تقال، والله أعلم.

لكن علينا أن نصدق بوجودهم، وأنهم مكلفون، وبأن منهم الصالحين ومنهم دون ذلك، وبأن منهم المسلمين والقاسطين، وبأن منهم رجالًا ونساءً.

وجه الاستشهاد بالآية: ذم المستعيذين بغير الله، والمستعيذ بالشيء لا شك أنه قد علق رجاءه به، واعتمد عليه، وهذا نوع من الشرك.

❁ قوله: «من نزل منزلًا»:

يشمل من نزله علىٰ سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

وقوله: «**أعوذ**» بمعنىٰ: ألتجئ وأعتصم.

قوله: «**كلمات**»، من جموع القلة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، وجموع القلة من ثلاثة إلىٰ عشرة، والكثرة ما فوق ذلك.

وقيل: جموع الكثرة من ثلاثة إلىٰ ما لا نهاية له؛ فيكون جمع القلة والكثرة يتفقان في الابتداء، ويختلفان في الانتهاء.

قال ابن مالك:

أفعلة أفعل ثم فعله ... ثمت أفعال جموع قله

وبعض ذي بكثرة وضعًا يفي ... كأرجل والعكس جاء كالصفي

والراجح: أن جموع القلة تدل علىٰ الكثرة بالدليل.

فـ«**كلمات**»: جمع قلة دال علىٰ الكثرة لوجود الدليل، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩].

وأبلغ من هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧].

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية.

قوله: «التامات»: **تمام الكلام بأمرين:**

١- الصدق في الأخبار.

٢- العدل في الأحكام.

قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥].

قوله: «**من شر ما خلق**»: أي: من شر الذي خلق؛ **لأن الله خلق كل شيء**: الخير والشر، ولكن الشر لا ينسب إليه؛ لأنه خلق الشر لحكمة، **فعاد بهذه الحكمة خيرًا، فكان خيرًا**.

وعلىٰ هذا نقول: الشر ليس في فعل الله، بل في مفعولاته؛ أي: مخلوقاته.

وعلىٰ هذا تكون «ما» موصولة لا غير؛ أي: من شر الذي خلق؛ لأنك لو أولتها إلىٰ المصدرية وقلت: من شر خلقك؛ لكان الخلق هنا مصدرًا يجوز أن يراد به الفعل، ويجوز أيضًا المفعول، لكن لو جعلتها اسمًا موصولًا تعين أن يكون المراد بها المفعول، وهو المخلوق.

وليس كل **ما خلق الله** فيه شر، لكن تستعيذ من شره إن كان فيه شر؛ **لأن مخلوقات الله تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام هي:**

١- شر محض؛ كالنار وإبليس باعتبار ذاتهما؛ أما باعتبار الحكمة التي خلقهما الله من أجلها؛ فهي خير.

٢- خير محض؛ كالجنة، والرسل، والملائكة.

٣- فيه شر وخير؛ كالإنس، والجن، والحيوان.

وأنت إنما تستعيذ من شر ما فيه شر.

قوله: «**لم يضره شيء**»: نكرة في سياق النفي؛ فتفيد العموم من شر كل ذي شر من الجن والإنس وغيرهم والظاهر والخفي حتىٰ يرتحل من منزله؛ لأن هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره؛ لأنه كلام الصادق المصدوق، لكن إن تخلف؛ فهو لوجود مانع لا لقصور السبب أو تخلف الخبر.

ونظير ذلك كل ما أخبر به النبي ﷺ من الأسباب الشرعية إذا فعلت ولم يحصل المسبب؛ فليس ذلك لخلل في السبب، ولكن لوجود مانع، مثل: قراءة الفاتحة علىٰ المرضىٰ شفاء، ويقرأها بعض الناس ولا يشفىٰ المريض، وليس ذلك قصورًا في السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره.

ومنه: التسمية عند الجماع؛ فإنها تمنع ضرر الشيطان للولد[٣٧٠]، وقد توجد التسمية ويضر الشيطان الولد؛ لوجود مانع يمنع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هو المانع حتىٰ تزيله فيحصل لك أثر السبب.

قال القرطبي: وقد جربت ذلك، حتىٰ إني نسيت ذات يوم، فدخلت منزلي ولم أقل ذلك؛ فلدغتني عقرب.

والشاهد من الحديث: قوله: «**أعوذ بكلمات الله**».

والمؤلف يقول في الترجمة: الاستعاذة بغير الله، وهنا استعاذة بالكلمات، ولم يستعذ بالله؛ فلماذا؟

أجيب: أن كلمات الله صفة من صفاته، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث علىٰ أن كلام الله من صفاته، غير مخلوق؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز في مثل هذا الأمر، ولو كانت الكلمات مخلوقة ما أرشد النبي ﷺ إلىٰ الاستعاذة بها. ولهذا كان المراد من كلام المؤلف: الاستعاذة بغير الله؛ أي: أو صفة من صفاته.

وفي الحديث: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»[٣٧١]، وهنا استعاذ بعزة الله وقدرته، ولم يستعذ بالله، والعزة والقدرة من صفات الله، وهي ليست مخلوقة.

ولهذا يجوز القسم بالله وبصفاته، لأنها غير مخلوقة.

أما القسم بالآيات، فإن أراد الآيات الشرعية؛ فجائز، وإن أراد الآيات الكونية؛ فغير جائز.

أما الاستعاذة بالمخلوق، ففيها تفصيل، فإن كان المخلوق لا يقدر عليه؛ فهي من الشرك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة»، وهذا ليس علىٰ إطلاقه، بل مرادهم مما لا يقدر عليه إلا الله؛ لأنه لا يعصمك من الشر الذي لا يقدر عليه إلا الله؛ سوىٰ الله.

ومن ذلك أيضًا الاستعاذة بأصحاب القبورِ، فإنهم لا ينفعون ولا يضرون، فالاستعاذة بهم شرك أكبر، سواء كان عند قبورهم أم بعيدًا عنهم.

---

(٣٧٠) أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: ما يقول الرجل إذا أتي أهله، برقم (٥١٦٥)، ومسلم، كتاب: النكاح، باب: ما يستحب أن يقوله عند الجماع، برقم (١٤٣٤)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣٧١) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: استحباب وضع يده علي موضع الألم مع الدعاء، برقم (٢٢٠٢)، وغيره من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه.

أما الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه؛ فهي جائزة، وقد أشار إلىٰ ذلك الشارح الشيخ سليمان في «تيسير العزيز الحميد»، وهو مقتضىٰ الأحاديث الواردة في «صحيح مسلم» لما ذكر النبي ﷺ الفتن، قال: «**فمن وجد من ذلك ملجأ، فليعذ به**»(٣٧٢).

وكذلك قصة المرأة التي عاذت بأم سلمة، (٣٧٣) والغلام الذي عاذ بالنبي ﷺ، (٣٧٤) وكذلك في قصة الذين يستعيذون بالحرم والكعبة، (٣٧٥) وما أشبه ذلك.

وهذا هو مقتضىٰ النظر، فإذا اعترضني قطّاع طريق، فعذت بإنسان يستطيع أن يخلصني منهم، فلا شيء فيه.

لكن تعليق القلب بالمخلوق لا شك أنه من الشرك؛ فإذا علقت قلبك ورجاءك وخوفك وجميع أمورك بشخص معين، وجعلته ملجأ، فهذا شرك؛ لأن هذا لا يكون إلا لله.

وعلىٰ هذا، فكلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: «**إن الأئمة لا يجوزون الاستعاذة بمخلوق**» مقيد بما لا يقدر عليه إلا الله، ولولا أن النصوص وردت بالتفصيل لأخذنا الكلام علىٰ إطلاقه، وقلنا: لا يجوز الاستعاذة بغير الله مطلقًا.

❁ **قوله: «فيه مسائل»:**

الأولىٰ: تفسير آية الجن: وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: كونه من الشرك؛ أي: الاستعاذة بغير الله، وقد سبق التفصيل في ذلك.

الثالثة: الاستدلال علىٰ ذلك بالحديث؛ لأن العلماء يستدلون به علىٰ أن كلمات الله غير مخلوقة؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك: وجه الاستشهاد: أن الاستعاذة بكلمات الله لا تخرج عن كونها استعاذة بالله؛ لأنها صفة من صفاته.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره؛ أي: فائدته، وهي أنه لا يضرك شيء ما دمت في هذا المنزل.

---

(٣٧٢) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٦٠١)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: نزول الفتن كمواقع القطر، برقم (٢٨٨٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣٧٣) أخرجه مسلم، كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره...، برقم (١٦٨٩)، والنسائي، كتاب: قطع السارق، باب: ما يكون حرزًا وما لا يكون، برقم (٤٨٩١) وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣٧٤) لم أقف عليه.

(٣٧٥) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: الخسف بالجيش الذي يؤُمُّ البيت، برقم (٢٨٨٢)، وأحمد (٦/ ٢٩٠) وغيرهما من حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك: ومعنى كلامه: أنه قد يكون الشيء من الشرك، ولو حصل لك فيه منفعة؛ فلا يلزم من حصول النفع أن ينتفي الشرك؛ فالإنسان قد ينتفع بما هو شرك.

مثال ذلك: الجن؛ فقد يعيذونك، وهذا شرك مع أن فيه منفعة.

مثال آخر: قد يسجد إنسان لملك، فيهبه أموالًا وقصورًا، وهذا شرك مع أن فيه منفعة، ومن ذلك ما يحصل لغلاة المداحين لملوكهم؛ لأجل العطاء، فلا يخرجهم ذلك عن كونهم مشركين. قال بعضهم:

فكن كما شئت يا من لا نظير له ... وكيف شئت فما خلق يدانيك

وفي الحديث فائدة، وهي: أن الشرع لا يبطل أمرًا من أمور الجاهلية إلا ذكر ما هو خير منه؛ ففي الجاهلية كانوا يستعيذون بالجن؛ فأبدل بهذه الكلمات، وهي: أن يستعيذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

وهذه الطريقة هي الطريقة السليمة التي ينبغي أن يكون عليها الداعية، أنه إذا سد عن الناس باب الشر، وجب عليه أن يفتح لهم باب الخير، ولا يقول: حرام، ويسكت، بل يقول: هذا حرام، وافعل كذا وكذا من المباح بدلًا عنه، وهذا له أمثلة في القرآن والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [البقرة:١٠٤]، فلما نهاهم عن قول ﴿رَٰعِنَا﴾ ذكر لهم ما يقوم مقامه وهو ﴿ٱنظُرْنَا﴾.

ومن السنة قوله ﷺ لمن نهاه عن بيع الصاع من التمر الطيب بالصاعين، والصاعين بالثلاثة: «**بع الجمع بالدراهم، واشتر بالدراهم جنيبًا**»(٣٧٦).

فلما منعه من المحذور؛ فتح له الباب السليم الذي لا محذور فيه.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: «باب من الشرك الاستعاذة بغير الله»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: أنَّ فيه بيان نوع من أنواع الشرك المنافي للتوحيد، وهو الاستعاذة بغير الله ليحذر ويجتنب.

«الاستعاذة» لغة: الالتجاء والاعتصام والتحرز. وحقيقتها: الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه.

---

(٣٧٦) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، برقم (٢٢٠١، ٢٢٠٢)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: بيع الطعام مثل بمثل، برقم (١٥٩٣) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما.

❁ قوله: ﴿يَعُوذُونَ﴾:

بأن يقول أحدهم إذا أمسىٰ بوادٍ وخاف من الجن: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

﴿رَهَقًا﴾: خوفًا أو إثمًا.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

أن الله سبحانه يخبر أن بعض الإنس يلجئون إلىٰ بعض الجن لتؤمنهم مما يخافون، وأنَّ الملتجأ بهم زادوا الملتجئين خوفًا بدل أن يؤمنوهم، وهذا معاملة لهم بنقيض قصدهم وعقوبة من الله لهم.

مناسبة الآية للباب:

أن الله حكىٰ عن مؤمني الجن أنهم لَّما تبينَ لهم دين الرسولﷺ وآمنوا به ذكروا أشياء من الشرك كانت تجري من الإنس في الجاهلية من جملتها الاستعاذة بغير الله، وذلك من باب الاستنكار لها.

ما يستفاد من الآية:

١ - أنَّ الاستعاذة بغير الله شرك؛ لأن مؤمني الجنِّ قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[الجن:٢]. ثم ذكروا بعد ذلك علىٰ وجه الاستنكار ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[الجن:٦]

٢- عموم رسالة محمدﷺ للثقلين.

٣- أنَّ الاستعاذة بغير الله تورث الخوف والضعف.

٤- يفهم من الآية أن الاستعاذة بالله تورث قوة وأمنًا.

❁ **قوله: «خولة بنت حكيم»:**

هي بنت حكيم بن أمية السلمية كانت زوجة لعثمان بن مظعون رضي الله عنه وكانت صالحة فاضلة.

«بكلمات الله»: المراد بها هنا القرآن.

«التامات»: الكاملات التي لا يلحقها نقصٌ ولا عيبٌ.

«من شر ما خلق»؛ أي: من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يرشد النبي ﷺ أمته إلىٰ الاستعاذة النافعة التي يندفع بها كل محذور يخافه الإنسان عندما ينزل بقعة من الأرض بأن يستعيذ بكلام الله الشافي الكافي الكامل من كل عيبٍ ونقصٍ، ليأمن في منزله ذلك ما دام مقيمًا فيه من كل غائلة سوءٍ.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه إرشادًا إلىٰ الاستعاذة النافعة المشروعة بدلًا من الاستعاذة الشركية التي كان يستعملها المشركون.

ما يستفاد من الحديث:

١- بيان أنَّ الاستعاذة عبادةٌ.

٢- أنَّ الاستعاذة المشروعة هي ما كانت بالله أو بأسماء الله وصفاته.

٣- أنَّ كلام الله غير مخلوق؛ لأن الله شرع الاستعاذة به، والاستعاذة بالمخلوق شرك كما سبق، فدلَّ علىٰ أنَّه غير مخلوقٍ.

٤- فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

٥- أن نواصي المخلوقات بيد الله.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب من الشرك الاستعاذة بغير الله»:

هذا الباب عنونه الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «**باب من الشرك الاستعاذة بغير الله تعالىٰ**» وهذا الباب مع الباب الذي قبله والأبواب التي سلفت أيضًا كلها في بيان المقصد من هذا الكتاب، وبيان الغرض من تأليفه، وأن التوحيد إنما يُعرف بضده، فمن طلب التوحيد فليطلب ضدَّه؛ لأنه -أعني: التوحيد- يجمع بين الإثبات والنفي، فيجمع بين الإيمان بالله، وبين الكفر بالطاغوت، فمن جمع بين هذين الأمرين فإنه يكون قد عرف التوحيد؛ ولهذا فصّل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أفراد توحيد العبادة، وفصّل أفراد الشرك، فبين أصناف الشرك الأصغر: القولي والعملي، وبين أصناف الشرك الأكبر: العملي والاعتقادي، فذكر الذبح لغير الله، وذكر النذر لغير الله، والذبح والنذر عبادتان عظيمتان.

فعبادة الذبح عبادة فعلية عملية، وعبادة النذر عبادة قولية إنشاءً، وعملية وفاءً، فالشرك الأكبر الذي يكون من جهة العمل أنواع، وقد ذكر منها -علىٰ سبيل التمثيل- الذبح لغير الله، كما أنه ذكر النذر لغير الله، مثالًا علىٰ أنواع الشرك الأكبر الحاصل من جهة القول، وكلٌّ من الذبح والنذر يصاحبهما اعتقاد تعظيم المخلوق كتعظيم الله -عز وجل- وهذا شرك، قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ

﴿حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]

ثم عطف علىٰ ذلك «باب من الشرك الاستعاذة بغير الله» لأن الاستعاذة بغير الله تكون بالقول الذي معه اعتقاد؛ ولذلك ناسبتْ أن تكون بعد «باب من الشرك النذر لغير الله».

قوله: «من الشرك»:

(من) هاهنا تبعيضية، كما ذكرنا فيما سبق من الأبواب، والشرك المقصود -هنا- هو الشرك الأكبر، أي من الشرك الأكبر الاستعاذة بغير الله؛ لأن (الألف واللام) أو (اللام وحدها) الداخلة علىٰ قوله: «الشرك» هي للعهد، فتكون عائدة إلىٰ الشرك المعهود، وهو الأكبر، يعني: باب من الشرك الأكبر الاستعاذة بغير الله.

والاستعاذة: طلب العياذ، يقال: استعاذ: إذا طلب العياذ، والعياذ: ما يؤمِّن من الشر، كالفرار من شيء مخوف إلىٰ ما يؤمِّن منه، أو إلىٰ من يؤمِّن منه، ويقابلها اللياذ، وهو الفرار إلىٰ طلب الخير، والتوجه إليه، والاعتصام به، والإقبال عليه لطلب الخير.

والاستعاذة: استفعال، ومادة: (استفعل) موضوعة -في الغالب- للطلب، فغالب مجيء (الألف والسين والتاء) للطلب، فمعنىٰ استعاذ، واستعان، واستغاث، واستسقىٰ: طلب تلك الأمور، وتأتي أحيانًا للدلالة علىٰ كثرة الوصف في الفعل، كما في قوله جل وعلا: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التغابن: ٦]، فـ(استغنىٰ) ليس معناها طلب الغنىٰ، وإنما جاء بالسين والتاء هنا: للدلالة علىٰ عظم الاتصاف بالوصف الذي اشتمل عليه الفعل، وهو الغنىٰ.

فـ(استعاذ) و(استغاث) و(استعان) وأشباه ذلك فيها طلب، والطلب من أنواع التوجه والدعاء؛ لأن الطلب يدل علىٰ أن هناك من يُطلب منه، والمطلوب منه لما كان أرفع درجة من الطالب كان الفعل المتوجه إليه يسمىٰ دعاء؛ ولهذا فإن حقيقة الاستعاذة لغةً ودلالتها شرعًا هي: طلب العوذ، أو طلب العياذ، وهو الدعاء المشتمل علىٰ ذلك، والاستغاثة هي: طلب الغوث، وهو دعاء مشتمل علىٰ ذلك، وهكذا في كل ما فيه طلب، نقول: إنه دعاء، وإذا كان دعاءً فإنه يكون عبادةً، والعبادة حق لله وحده دون من سواه، كما قام الإجماع علىٰ هذا، ودلت النصوص عليه، كقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝﴾ [الجن: ١٨]، وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وكقوله أيضًا: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]

إذًا فكل فعل من الأفعال، أو قول من لأقوال فيه طلب يكون عبادةً؛ لأنه دعاء، وكل طلب فهو دعاء. والطلب يختلف نوعه ومسمّاه باختلاف المطلوب منه، فإذا كان الطلب من مقارن فيسمىٰ التماسًا، وإذا كان ممن هو دونك فيسمىٰ أمرًا، وإذا كان الطلب ممن هو أعلىٰ منك فيسمىٰ دعاءً. والمستعيذ والمستغيث لا شك أنه طالب ممن هو أعلىٰ منه لحاجته إليه؛ فلهذا يصح أن يكون كل دليل فيه ذكر إفراد الله -جل وعلا- بالدعاء أو بالعبادة دليلًا علىٰ خصوص هذه المسألة، وهي أن الاستعاذة عبادة من العبادات العظيمة، وإذ كانت كذلك، فإن إفراد الله بها واجب.

وقوله هنا: «**من الشرك الاستعاذة بغير الله**» هذا الغير شامل لكل من يتوجه إليهم بالعبادة، ويشركونهم مع الله، ويدخل في ذلك -بالأولية- ما كان المشركون الجاهليون يتوجهون إليهم بالعبادة من الجن، والملائكة والرسل، والأنبياء، والصالحين، والأشجار، والأحجار، وغير ذلك من معبوداتهم.

لكن هل مقصوده بقوله: «**باب من الشرك الاستعاذة بغير الله**» شمول هذا الحكم علىٰ فاعله بالشرك لكل أنواع الاستعاذة، ولو كان فيما يقدر عليه المخلوق؟

الجواب: أن هذا فيه تفصيل، فمن العلماء من يقول: «**الاستعاذة لا تصلح إلا بالله، وليس ثَمَّ استعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه؛ لأن الاستعاذة توجه القلب، واعتصامه، والتجاؤه، ورغبه، وهذه المعاني جميعًا لا تصلح إلا لله جل وعلا**».

وقال آخرون: «**قد جاءت أدلة بأنه يستعاذ بالمخلوق فيما يقدر عليه؛ لأن حقيقة الاستعاذة: طلب انكفاف الشر، وطلب العياذ، وهو أن يستعيذ من شرٍّ أحْدَقَ به، وإذا كان كذلك فقد يملك المخلوق شيئًا من ذلك، وعلىٰ هذا فتكون الاستعاذة بغير الله شركًا أكبر، إذا كان ذلك المخلوق لا يقدر علىٰ أن يعيذ، أو طُلبتْ منه الإعاذة فيما لا يقدر عليه إلا الله**».

والذي يظهر أن المقام -كما سبق- فيه تفصيل، وهو أن الاستعاذة فيها عمل ظاهر، وفيها عمل باطن، فالعمل الظاهر أن يطلب العوذ، وأن يطلب العياذ، وهو أن يُعصم من هذا الشر، أو أن ينجو من هذا الشر، وفيها -أيضًا- عمل باطن، وهو توجه القلب وسكينته، واضطراره، وحاجته إلىٰ هذا المستعاذ به، واعتصامه بهذا المستعاذ به، وتفويض أمر نجاته إليه.

فإذا كانت الاستعاذة تجمع هذين النوعين فيصح أن يُقال: إن الاستعاذة لا تصلح إلا بالله؛ لأن منهما ما هو عمل قلبي -كما تقدم- وهو -بالإجماع- لا يصلح التوجه به إلا إلىٰ الله. وإذا قصد بالاستعاذة العمل الظاهر -فقط- وهو طلب العياذ والملجأ، فيجوز أن يتوجه بها إلىٰ المخلوق، وعلىٰ هذا يحمل الدليل الوارد في جوازها.

فحقيقة الاستعاذة -إذًا- تجمع بين الطلب الظاهر، والمعنىٰ الباطن، ولهذا اختلف أهل العلم في جواز طلبها من المخلوق، فالذي ينبغي أن يكون منك دائمًا علىٰ ذكر أنّ توجُّه أهل العبادات الشركية إلىٰ من يشركون به من الأولياء، أو الجن، أو الصالحين، أو الطالحين، أو غيرهم، أنهم جمعوا بين القول باللسان، وأعمال القلوب التي لا تصلح إلا لله -جل وعلا- وبهذا يبطل ما يقوله أولئك الخرافيون من أن الاستعاذة بهم إنما هي فيما يقدرون عليه، وأن الله أقدرهم علىٰ ذلك، فيكون إبطال مقالهم راجعًا إلىٰ جهتين:

الجهة الأولىٰ: أن يُبطَل قولهم بأن يقال: إن هذا المَيّت، أو هذا الجني يقدر علىٰ هذا الأمر الذي طلب منه، فإذا لم يقتطع بذلك، أو حصل عنده اشتباهٌ ما انتقل السُّنيُّ إلىٰ الجهة الثانية من الإبطال، وهو إثبات أن الاستعاذة فيها توجُّهٌ بالقلب إلىٰ المستعاذ به واضطراره إليه، واعتصام به، وافتقارٌ إليه، وهذا الذي توجّه إلىٰ ذلك الميت أو الولي قد قامت هذه المعاني بقلبه، ولا يجوز أن يكون شيء من ذلك إلا لله وحده عز وجل.

فنقول إذًا: الاستعاذة بغير الله شرك أكبر؛ لأنها صَرْفُ عبادةٍ لغير الله -جل وعلا- لكن إن كانت الاستعاذة في الظاهر فقط -مع طمأنينة القلب بالله، وتوجهه إلىٰ الله، وحسن ظنه بالله، وأن هذا العبد إنما هو سبب، وأن القلب مطمئن لما عند الله- فإن هذه تكون استعاذة بالظاهر، وأما القلب فإنه لم تقم به حقيقة الاستعاذة. وإذا كان كذلك كان هذا جائزًا.

❁ **قوله**: «**قال تعالىٰ**: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦]»:

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾: هذه معطوفة علىٰ أول السورة، وهو ما أوحىٰ الله -جل وعلا- إلىٰ نبيه بقوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[الجن: ١]، ثم قال بعد آيات ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ومعنىٰ ﴿رَهَقًا﴾ أي: خوفًا، واضطرابًا في القلب، أوجب لهم الإرهاق، والرهق في

الأبدان وفي الأرواح، فلما كان كذلك تعاظمت الجن، وزاد شرها، وقد كان المشركون يعتقدون أن لكل مكان مخوف جنيًّا أو سيدًا من الجن يخدم ذلك المكان، هو له ويسيطر عليه، فكانوا إذا نزلوا واديًا أو مكانًا قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يعنون الجن، فعاذوا بالجني لأجل أن يكف عنهم الشر مدة مقامهم، لهذا قال جل وعلا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾[الجن: ٦]. يعني: زاد الجن الإنس خوفًا، واضطرابًا، وتعبًا في الأنفس، وفي الأرواح، وإذا كان كذلك كان هذا عقوبة لهم. والعقوبة إنما تكون على ذنب، فدلت الآية على ذم أولئك، وإنما ذموا؛ لأنهم صرفوا تلك العبادة لغير الله -جل وعلا- والله سبحانه أمر أن يستعاذ به دون ما سواه، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾[الفلق: ١]وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾[الناس: ١] وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[المؤمنون:٩٧،٩٨] والآيات في ذلك كثيرة، كقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[الأعراف: ٢٠٠]، فعُلِم من التنصيص على المستعاذ به وهو الله -جل وعلا- أن الاستعاذة حصلت بالله، وبغيره، وأن الله أمر نبيه أن تكون استعاذته به وحده دون ما سواه. وقد ذكرتُ لكم أصل الدليل في ذلك، وأن الاستعاذة عبادة، وإذا كانت عبادة فتدخل فيما دلت عليه الآيات من إفراد العبادة بالله وحده.

وقال قتادة وبعض السلف: «**إن معنى قوله: ﴿رَهَقًا﴾ إثمًا**»[٣٧٧]. أي فزادوهم إثمًا، وهذا أيضًا ظاهر من جهة الاستدلال؛ لأن الاستعاذة إذا كانت موجبة للإثم، فهي -إذًا- عبادة شركية إذا صرفت لغير الله، وعبادة مطلوبة إذا صرفت لله -جل جلاله- وهذا يستقيم مع الترجمة من أن الاستعاذة بغير الله شرك.

قوله: «عن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلًا فقال: ...»:

وجه الدلالة من هذا الحديث: أن النبي ﷺ بيّن فضل الاستعاذة بكلمات الله فقال: «**من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**» وجعل المستعاذ منه المخلوقات الشريرة، والمستعاذَ به هو كلمات الله، وقد استدل أهل العلم لمّا ناظروا المعتزلة، وردُّوا عليهم بهذا

---

(٣٧٧)نظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥٠).

الحديث، علىٰ أن كلمات الله ليست بمخلوقة، قالوا: لأن المخلوق لا يُستعاذ به، والاستعاذة به شرك، كما قال الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة.

فوجه الدلالة من الحديث: إجماع أهل السنة علىٰ الاستدلال به علىٰ أن الاستعاذة بالمخلوق شرك، وأنه ما أمر بالاستعاذة بكلمات الله إلا لأن كلمات الله -جل وعلا- ليست بمخلوقة.

❁ **قوله: «من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»:**

المقصود بـ«**كلمات الله التامة**» هنا الكلمات الكونية التي لا يُجاوزهن برٌّ ولا فاجر، وهي المقصودة بقوله جل وعلا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[الكهف: ١٠٩]، وبقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[لقمان: ٢٧]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام: ١١٥]، وفي القراءة الأخرىٰ: (وَتَمَّتْ كَلِمَـٰتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا)[الأنعام: ١١٥]، فهذه الآية في الكلمات الشرعية، وكذلك في الكلمات الكونية.

إذًا فقوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**» يعني الكلمات الكونية.

❁ **قوله: «من شر ما خلق»:**

يعني: من شر الذي خلقه الله -جل وعلا- وهذا العموم المقصود منه: من شر المخلوقات التي فيها شر، إذ ليست كل المخلوقات فيها شر، بل ثَمَّ مخلوقات طيبة ليس فيها شر، كالجنة، والملائكة، والرسل، والأنبياء، والأولياء، وهناك مخلوقات خُلقت وفيها شر، فاستعيذ بكلمات الله -جل وعلا- من شر الأنفس الشريرة، والمخلوقات التي فيها شر.

❁ ❁ ❁

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن، أي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[الجن:٦] معناه: أن الرجل في الجاهلية كان إذا سافر فبات في مكان قفر استعاذ بكبير الجن من سفهاء قومه، فلما رأت الجن ذلك زادوهم خوفًا وذعرًا، والشاهد من الآية أن هذا مما كانوا يفعلونه في الشرك قبل إسلامهم.

الثانية: كونه من الشرك، أي: لأن الاستعاذة عبادة أمر الله بإخلاصها له فلما صرفوها إلى الجن صار ذلك شركًا.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث؛ لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك، أي أن الإمام أحمد وغيره استدلوا بهذا الحديث على أن القرآن غير مخلوق لأن الرسول ﷺ أرشد إلى الاستعاذة به وذكر فضيلة ذلك، ولو كان مخلوقًا لم يرشد إلى ذلك ولم يأمر به لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره، أي لقوله: لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك، أي: إنهم إذا استعاذوا بكبير الجن سلموا من شرهم فهذه هي المنفعة، ولكن مثل هذا لا يدل على جوازه وأنه ليس من الشرك،بل يؤخذ ذلك من أدلة الشرع، وهي قد دلت على أنه شرك فإن قدر أن فيه منفعة، فهذا لا يبيحه؛ لأن فيه من المفاسد أضعاف ذلك.

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن الاستعاذة بالله من أنواع العبادة وصرفها لغيره شرك ينافي التوحيد.

س: عرف الاستعاذة وما الفرق بين العياذ واللياذ؟

جـ: **الاستعاذة**: هي الالتجاء والاعتصام، **والفرق بين العياذ واللياذ: أن العياذ** يكون لدفع الشر **واللياذ** لطلب الخير.

❁ **قوله**: «قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦]»:

س: اذكر سبب نزول هذه الآية وبين وجه الدلالة منها؟

جـ: **سبب نزولها**: أن الرجل من العرب في الجاهلية كان إذا نزل أو أمسىٰ بوادٍ خالٍ وخاف علىٰ نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه -يريد كبير الجن- فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم زادوهم رهقًا؛ أي: خوفًا وإرهابا وذعرًا.

ووجه الدلالة من الآية: أن الله تعالىٰ حكىٰ عن مؤمني الجن أنهم لما تبين لهم دين محمد ﷺ وآمنوا به ذكروا أشياء من الشرك كانوا يفعلونها في الجاهلية ومن جملتها الاستعاذة بغير الله.

❁ **قوله**: «عن خولة بنت حكيم قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلًا فقال: ...»»:

س: ما الذي يؤخذ من هذا الحديث وما المراد «بكلمات الله» وما معنى «التامات» اذكر مناسبة الحديث للباب؟ وما معنى قوله «من شر ما خلق»؟

جـ:١- في الحديث دليل علىٰ أن الله شرع لأهل الإسلام أن يستعيذوا بكلمات الله بدلًا عما كان يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن.

٢ - وفيه فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

والمراد بـ«**كلمات الله**» القرآن ومعنىٰ «**التامات**» الكاملة التي لا يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر وقيل الكافية الشافية.

ومناسبة الحديث للباب:

أنه دل على أن كلمات الله غير مخلوقة؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك، ومعنى قوله «من شر ما خلق»؛ أي: من شر كل مخلوق فيه شر والله أعلم.



الدرس الرابع عشر:

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ الآيتان [يونس:١٠٦، ١٠٧].

وقوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧].

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥، ٦].

وقوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

وروىٰ الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»[٣٧٨].

فيه مسائل:

الأولىٰ: أن عطف الدعاء علىٰ الاستغاثة من عطف العام علىٰ الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره، صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا.

---

(٣٧٨) أخرجه -بنحوه- أحمد (٥/ ٣١٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٤٦) «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وقد رواه أحمد بغير هذا السياق». ولم أقف عليه في الطبراني ولعله قد فقد ضمن ما فقد منه.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تُطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: [أن هذه](٣٧٩) هي سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد والتأدب مع الله.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره»:

الاستغاثة طلب الغوث، وهو إزالة الشدة، كالاستنصار طلب النصرة، والاستعانة طلب العون، والغياث هو المغيث، وأكثر ما يقال: غياث المستغيثين، أي: مدرك عباده في الشدائد إذا دعوه، ومجيبهم ومخلصهم.

والفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، وأما الدعاء فهو أعم

---

(٣٧٩) سقط من نسخة ابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

منها؛ لأنه يكون من المكروب وغيره، فعطف الدعاء كل الاستغاثة من عطف العام علىٰ الخاص، فبينهما عموم وخصوص مطلق، فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة، والمراد بيان تحريم الاستغاثة بغير الله، أو دعاء غيره من الأموات والغائبين، وأنه من الشرك الأكبر.

❁ **قوله**: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ...﴾»:

نهىٰ الله نبيه ﷺ أن يدعو أحدًا من سائر المخلوقين العاجزين عن إيصال النفع ودفع الضر، وأنه لا يجوز إلا ممن يملكه وهو الله وحده، وهذا النهي خرج مخرج الخصوص، والمراد به العموم، فهو عام لجميع الأمة.: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي: دعوت أحدًا من دون الله: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس:١٠٦] أي: من المشركين.

ولها نظائر، يخاطب تعالىٰ نبيه ﷺ بذلك وهو مبرأ منه، لكنه أبلغ في الزجر والتحذير عن دعاء غير الله عز وجل، وفي الحديث: «**الدعاء مخ العبادة**»(٣٨٠). وفي لفظ: «**هو العبادة**»(٣٨١). صححه الترمذي وغيره، وأتىٰ فيه النبي ﷺ بضمير الفصل، والخبر المعرف بالألف واللام؛ ليدل علىٰ الحصر وأن العبادة ليست غير الدعاء، أو إنما هي الدعاء نفسه، **ثم الدعاء نوعان**:

(دعاء مسألة) وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر، فالمعبود لا بد أن يكون مالكا لذلك، ولذلك أنكر الله علىٰ من عبد من لا يملك ضرًّا ولا نفعًا.

(والنوع الثاني) دعاء عبادة بأي نوع من أنواع العبادة، وهو ما لم يكن فيه صيغة سؤال وطلب، وهما متلازمان.

❁ **قوله**: «وقول الله تعالىٰ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ...﴾»:

أي: إن أصابك بفقر أو مرض أو غير ذلك من أنواع الضر فلا يكشف ذلك إلا الله وحده، فإنه المتفرد بالملك والقهر، والعطاء والمنع، والضر والنفع دون كل ما سواه، فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده لا شريك له، فإن العبادة لا تصلح إلا لمالك الضر والنفع، ولا يملك

---

(٣٨٠)أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء، برقم (٣٣٧١)، والطبراني في «الأوسط»، برقم (٣١٩٦)، وغيرها من حديث أنس رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٣٠٠٣).

(٣٨١)أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، برقم (١٤٧٩)، والترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة البقرة، برقم (٢٩٦٩) وغيرهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٢٢٣٠).

ذلك ولا شيئًا منه إلا هو سبحانه، فهو المستحق للعبادة وحده دون من لا ينفع ولا يضر: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾[الزمر:٣٨] الآية ونحوها. وفي حديث ابن عباس: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك**»[٣٨٢].

❁ **قوله:** «﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ الآية»:

أي: اطلبوا الرزق عند الله وارغبوا إليه فيه عنده وحده لا شريك له دون ما سواه؛ لأنه المالك له، وغيره لا يملك شيئًا من ذلك، وتقديم الظرف يفيد الاختصاص، «**واعبدوه**» أي: أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له.

وهذا من باب عطف العام على الخاص، فإن ابتغاء الرزق عند الله من العبادة التي أمر بها «**واشكروا له**» على ما أنعم به عليكم «**إليه ترجعون**» أي: يوم القيامة فيجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، قال المصنف: «**وفيه أن طلب الرزق لا يبتغى إلا من الله كما أن الجنة لا تطلب إلا منه**».

❁ **قوله:** «﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآيتين»:

حكم سبحانه أنه لا أضل ممن يدعو من دون الله أي مدعو كان، من وثن أو ولي أو غير ذلك، وأن ذلك المدعو لا يستجيب له ما طلب منه إلى يوم القيامة، فصارت دعوته له هي الغاية في الضلال والخسار: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾[الأحقاف:٥]، فالداعي لمن هو غافل عنه لا أضل منه ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾[الأحقاف:٦]. يتبرءون منهم، كما قال الله عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[القصص:٦٣]. ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾[الأحقاف:٦] أي: جاحدين لها، فلا أضل ممن لا يحصل له إلا نقيض قصده، يتبرأ منه معبوده، ويجحد عبادته له، وأثبت تعاليمه أن دعاء غير الله عبادة له وأنه في غاية الضلال، وأكثر ما يستعمل في السؤال والطلب. وذكر المصنف فيها خمسة أمور: أنه لا أضل ممن دعا غير الله، وأنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه، وأن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له، وأن تلك الدعوة عبادة للمدعو، وكفر المدعو بتلك العبادة، وأن هذه الأمور هي سبب كونه أضل الناس.

---

(٣٨٢) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (٥٩)، برقم (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٧٩٥٧).

❁ **قوله:** «وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الآية»:

يحتج تعالىٰ علىٰ المشركين في اتخاذهم الشفعاء من دونه بما قد علموه من إجابة المضطرين، وكشف السوء النازل بهم من عنده، وجعلهم خلفاء أحياء بعد أمواتهم. ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإله سوىٰ الله يفعل هذه الأشياء بكم، وينعم عليكم هذه النعم؟ أي أنتم تعلمون وتعترفون أنه لا يفعل ذلك سوىٰ الله، فإذا كانت آلهتكم لا تجيبكم في حال الاضطرار، فلا يصلح أن تجعلوها شركاء لله الذي يجيب المضطر ويكشف السوء ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وتعتبرون نعم الله وأياديه عندكم، فلذلك أشركتم به غيره. ومن تأمل هذه الآيات ونظائرها تبين له أن الله احتج علىٰ المشركين بما أقروا به علىٰ ما جحدوه من قصر العبادة عليه.

❁ **قوله:** «ورویٰ الطبراني بإسناده»:

إلىٰ عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وقد بيض المصنف لاسم الراوي، والطبراني هو الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطين، أبو القاسم اللخمي المعمر، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها، روىٰ عن جماعة منهم: أبو زرعة والنسائي واسحاق وخلق، وعنه ابن ريدة وأبو نعيم وخلق، وكان واسع الحفظ، بصيرًا بالعلل والرجال، عاش مائة، وسمع وهو ابن ثلاث عشرة، وتوفي سنة ٣٦٠ هـ.

❁ **قوله:** «أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين»:

هو عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين.

❁ **قوله:** «فقال النبي ﷺ إنه لا يستغاث بي...»:

أي: يرفع عنا أذيته فإنه قد آذىٰ الله ورسوله.

وهذا نص منه ﷺ أنه لا يستغاث به، حماية لجناب التوحيد وسدًّا لذرائع الشرك، وتحذيرًا من وسائله، وإذا كان هذا مع سيد الخلق فمن دونه بطريق الأولىٰ. قال شيخ الإسلام: «والاستغاثة بمعنىٰ أن يطلب من رسول الله ﷺ ما هو اللائق بمنصبه، لا ينازع فيها مسلم فإن الصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء، ويستسقون به، كما في الصحيح وغيره، وأما بالمعنىٰ الذي نفاها فهي مما يجب نفيها، قال: وقد يكون في كلام رسول الله ﷺ عبارة لها معنىٰ صحيح، لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله، وهذا يرد عليه فهمه، كما روىٰ الطبراني «أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال أبو بكر رضي الله عنه: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله**»[٣٨٣]. فهذا إنما أراد به ﷺ المعنىٰ الثاني،

---

(٣٨٣) سبق تخريجه.

وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله، وذكر قول أبي يزيد البسطامي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق، وقول أبي عبد الله القرشي كاستغاثة المسجون بالمسجون، ودعاء موسىٰ: وبك المستغاث، قال: ولما كان هذا المعنىٰ هو المفهوم عند الإطلاق، وكان مختصًّا بالله، صح إطلاق نفيه عما سوىٰ الله» اهـ.

وقد تبين بما ذكر من الآيات والأحاديث أن دعاء الميت والغائب والحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله والاستغاثة بغير الله، في كشف الضر، أو تحويله هو الشرك الأكبر، بل هو أكبر أنواعه.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو له»:**

متىٰ فهمت الضابط السابق في حد الشرك الأكبر وهو أن: من صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهو مشرك فهمت هذه الأبواب الثلاثة التي والىٰ المصنف، بيانها، فإن النذر عبادة مدح الله الموفين به: وأمر النبي ﷺ بالوفاء بنذر الطاعة وكل أمر مدحه الشارع أو أثنىٰ علىٰ من قام به أو أمر به فهو عبادة.

فإن العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة والنذر من ذلك.

وكذلك أمر الله بالاستعاذة به وحده من الشرور كلها، وبالاستغاثة به في كل شدة ومشقة فهذه إخلاصها لله إيمان وتوحيد وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

والفرق بين الدعاء والاستغاثة أن الدعاء عام في كل الأحوال والاستغاثة هي الدعاء لله في حالة الشدائد فكل ذلك يتعين إخلاصه لله وحده وهو المجيب لدعاء الداعين المفرج لكربات المكروبين، ومن دعا غيره من نبي أو ملك أو ولي أو غيرهم أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر، وكما أنه خرج من الدين فقد تجرد أيضًا من العقل فإن أحدًا من الخلق ليس عنده من النفع والدفع مثقال ذرة لا عن نفسه ولا عن غيره بل الكل فقراء إلىٰ الله في كل شئونهم.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله: «باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره»:**

هذا من عطف العام علىٰ الخاص؛ لأن الاستغاثة من الدعاء فكل مستغيث داعٍ وليس كل

داع مستغيثًا فالمستغيث هو الذي يدعو عند شدة الكربة كما في الآية ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى...﴾[القصص:١٥]﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾[الأنفال:٩] فالذي يستغيث عند المرض أو خوف الغرق بالرسول أو البدي فهذا من الشرك الأكبر، وكان المشركون في الجاهلية يخلصون الدعاء لله في الشدائد لأنهم يعلمون أنه لا ينجي إلا الله، أما مشركوا زماننا فشركهم في الرخاء والشدة فالاستغاثة عند الشدائد شرك أكبر ويسمى مستغيثًا وإذا دعاهم في الرخاء يسمى داعيًا وكلاهما شرك والأدلة هي:

قوله: «و قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس:١٠٦]:

أي: من المشركين ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤] فبين الله أن من دعا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر وهذا وصف عام لجميع المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر استقلالًا. ونفعها وضرها بالله وحده. وأن من دعا غير الله فهو مشرك ويستثنى من ذلك دعاء الحي القادر الحاضر فهذا ليس بشرك بإجماع المسلمين كأن يدعوه ليحمل معه أو يسلفه أو...

قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[يونس:١٠٧]:

هذا على أن الخلق غير قادرين على جلب النفع أو دفع الضر ولهذا فكيف يعبد غيره وهو عاجز.

قوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾[العنكبوت:١٧].

أمر بالطلب من الله وحده والاستغاثة به وحده وعبادته وحده وألا يطلب من غيره شيئًا ويستثنى ما تقدم.

قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الأحقاف:٥]:

هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله لأنه لم يفلح في الدنيا، وفي الآخرة خاسر إلى النار، **ووصف المدعوون من دون الله بأربعة أوصاف:**

الأولى: عدم استجابتهم لهم إلى يوم القيامة.

الثانية: أنهم غافلون عن دعائهم إما لأنهم أموات أو جماد لا إحساس له أو حي مشغول أو ملك لا علم له بمن دعاه.

الثالثة: أنهم يكونون أعداء لمن عبدوهم يوم القيامة.

الرابعة: أنهم يبرءون من عبادتهم وينكرونها.

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]؛ أي: لا أحد يستطيع فعل ذلك فلا ينبغي طلبه إلا من الله.

قوله: وروي الطبراني بإسناده أنه هناك منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم.. جاء في رواية أخرىٰ أنه عبادة بن الصامت وأن المنافق هو عبد الله بن أبي بن سلول وفي إسناده بعض الضعف.

والصحابة لم يطلبوا الغوث بالرسول ﷺ إلا لأنه يقدر أن يخلصهم منه إما بقتله أو بحبسه وهم يعلمون أن الاستغاثة بالحي القادر جائزة ولهذا ذهبوا إليه.

قوله: لا يستغاث بي: **يحتمل أمرين:**

الأول: أن النبي ﷺ لا يستطيع قتله لأنه كان ممنوعًا من قتله لأجل ألا يتحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه فامتنع من قتله [٣٨٤].

الثاني: يحتمل إن صح الخبر أنه قال سدًّا للذريعة وإن كان قادرًا علىٰ التخلص منه، حتىٰ لا تقع منهم هذه الكلمة في أمور لا يقدر عليها.

والشاهد: أنه لا يستغاث بغير الله إلا فيما يقدر عليه الحي.

قال العلامة ابن عثيمين:

۞ **قوله:** «من الشرك»:

من: للتبعيض؛ فيدل علىٰ أن الشرك ليس مختصًّا بهذا الأمر.

والاستغاثة: طلب الغوث، وهو إزالة الشدة.

وكلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ليس علىٰ إطلاقه، بل يقيد بما لا يقدر عليه المستغاث به، إما لكونه ميتًا، أو غائبًا، أو يكون الشيء مما لا يقدر علىٰ إزالته إلا الله تعالىٰ، فلو استغاث بميت ليدافع عنه أو بغائب أو بحي حاضر لينزل المطر؛ فهذا كله من الشرك، ولو استغاث بحي حاضر فيما يقدر عليه كان جائزًا، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

---

(٣٨٤)أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: ما ينهىٰ من دعوىٰ الجاهلية، برقم (٣٥١٧)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، برقم (٦٣/ ٢٥٨٤)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإذا طلبت من أحد الغوث وهو قادر عليه؛ فإنه يجب عليك تصحيحًا لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرد سبب، وأنه لا تأثير له بذاته في إزالة الشدة؛ لأنك ربما تعتمد عليه وتنسىٰ خالق السبب، وهذا قادح في كمال التوحيد.

قوله: «**أو يدعو غيره**»: معطوف علىٰ قوله: «**أن يستغيث**»؛ فيكون المعنىٰ: من الشرك أن يدعو غير الله؛ وذلك لأن الدعاء من العبادة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠]، ﴿عِبَادَتِي﴾؛ أي: دعائي؛ فسمىٰ الله الدعاء عبادة.

وقال ﷺ: «**إن الدعاء هو العبادة**»[385].

والدعاء ينقسم إلىٰ قسمين:

١- ما يقع عبادة، وهذا صرفه لغير الله شرك، وهو المقرون بالرهبة والرغبة، والحب، والتضرع.

٢- ما لا يقع عبادة؛ فهذا يجوز أن يوجه إلىٰ المخلوق، قال النبي ﷺ: «**من دعاكم فأجيبوه**»[386].

قال: «**إذا دعاك فأجبه**»[387] وعلىٰ هذا؛ فمراد المؤلف بقوله «**أو يدعو غيره**» دعاء العبادة أو دعاء المسألة فيما لا يمكن للمسئول إجابته.

قوله: «**أن يستغيث**»: أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر، وخبرها مقدم، وهو قوله: «**من الشرك**»، والتقدير: من الشرك الاستغاثة بغير الله، والمبتدأ يكون صريحًا ومؤولًا.

فالمبتدأ الصريح مثل: زيد قائم، والمؤول مثل: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ١٨٤]؛ أي: وصومكم خير لكم.

---

(٣٨٥) سبق تخريجه.

(٣٨٦) أخرجه أبو داود، كتاب: الزكاة، باب: عطية من سأل بالله ﷻ، برقم (١٦٧٢)، وأحمد (٢/ ٦٨) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٦٠٢١).

(٣٨٧) أخرجه -بنحوه- البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الأمر باتباع الجنائز، برقم (١٢٤٠)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: من حق المسلم للمسلم رد السلام، برقم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: «أو يدعو» هذا من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الاستغاثة دعاء بإزالة الشدة فقط، والدعاء عام لكونه لجلب منفعة، أو لدفع مضرة.

وقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب عدة آيات:

❁ الآية الأولى قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[يونس:١٠٦]:

ظاهر سياق الآية أن الخطاب للرسول ﷺ، وسواء كان خاصًّا به أو عامًّا له ولغيره، فإن بعض العلماء قال: لا يصح أن يكون للرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ يستحيل أن يقع منه ذلك، والآية على تقدير قل، وهذا ضعيف جدًّا، وإخراج للآيات عن سياقها.

والصواب: أنه إما خاص بالرسول ﷺ والحكم له ولغيره، وإما عام لكل من يصح خطابه ويدخل فيه الرسول ﷺ.

وكونه يوجه إليه مثل هذا الخطاب لا يقتضي أن يكون ممكنًا منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الزمر:٦٥]، فالخطاب له ولجميع الرسل، ولا يمكن أن يقع منه باعتبار حاله لا باعتبار كونه إنسانًا وبشرًا.

إذًا؛ فالحكمة من النهي أن يكون غيره متأسيًا به، فإذا كان النهي موجهًا إلى من لا يمكن منه باعتبار حاله؛ فهو إلى من يمكن منه من باب أولى.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الدعاء: طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضر، **وهو نوعان كما قال أهل العلم:**

الأول: دعاء عبادة، وهو أن يكون قائمًا بأمر الله؛ لأن القائم بأمر الله -كالمصلي، والصائم، والمزكي يريد بذلك الثواب والنجاة من العقاب، ففعله متضمن للدعاء بلسان الحال، وقد يصحب فعله هذا دعاء بلسان المقال.

الثاني: دعاء مسألة، وهو طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضر.

فالأول لا يجوز صرفه لغير الله، والثاني فيه تفصيل سبق.

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: سوى الله.

قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾: أي: ما لا يجلب لك النفع لو عبدته.

﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾: قيل: لا يدفع عنك الضر، وقيل: لو تركت عبادته لا يضرك؛ لأنه لا يستطيع الانتقام، وهو الظاهر من اللفظ.

وقوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾[يونس:١٠٦]؛ أي: لأنه لا ينفعك ولا يضرك، وهذا القيد ليس شرطًا بحيث يكون له مفهوم؛ فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضرك، بل هو لبيان الواقع؛ لأن المدعو من دون الله لا يحصل منه نفع ولا ضرر، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾[الأحقاف:٥، ٦].

ومن القيد الذي ليس بشرط، بل هو لبيان الواقع قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[البقرة:٢١].

فإن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ لبيان الواقع، إذ ليس هناك رب ثان لم يخلقنا والذين من قبلنا.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾[النساء:٢٣]؛ فهذا بيان للواقع الأغلب.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[الأنفال:٢٤]، فهذا بيان للواقع؛ إذ دعاء الرسول ﷺ إيانا كله لما يحيينا.

وكل قيد يراد به بيان الواقع؛ فإنه كالتعليل للحكم، فمثلًا قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾[البقرة:٢١]؛ أي: اعبدوه لأنه خلقكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؛ أي: لأنه لا يدعوكم إلا لما يحيكم.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾؛ أي: لأنه لا ينفعك ولا يضرك، فعلىٰ هذا لا يكون هذا القيد شرطًا، وهذه يسميها بعض الناس صفة كاشفة.

قوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس:١٠٦]؛ أي: إن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، والخطاب للرسول ﷺ.

و«إِنْ»: شرطية، وجواب الشرط جملة: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾.

و﴿إِذًا﴾؛ أي: حال فعلك من الظالمين، وهو قيد؛ لأن ﴿إِذًا﴾ للظرف الحاضر؛ أي: فإنك حال فعله من الظالمين. لكن قد تتوب منه فيزول عنك وصف الظلم؛ فالإنسان قبل الفعل ليس

بظالم، وبعد التوبة ليس بظالم، لكن حين فعل المعصية يكون ظالمًا كما قال ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**[٣٨٨] فنفىٰ الإيمان عنه حال الفعل. ونوع الظلم هنا ظلم شرك، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]، وعبر الله بقوله: ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقل: من المشركين؛ لأجل أن يبين أن الشرك ظلم؛ لأن كون الداعي لغير الله مشركًا أمر بيِّن، لكن كونه ظالمًا قد لا يكون بينًا من الآية.

۞ الآية الثانية قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾:

أي: يصيبك بضر، كالمرض، والفقر، ونحوه.

قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿لَا﴾: نافية للجنس، واسمها: ﴿كَاشِفَ﴾، وخبرها: ﴿لَهُۥٓ﴾، و﴿إِلَّا هُوَ﴾ بدل، وإن قلنا بجواز كون خبرها معرفة صار ﴿هُوَ﴾ الخبر.

أي: ما أحد يكشفه أبدًا إذا مسك الله بضر إلا الله، وهذا كقول النبي ﷺ: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك»**[٣٨٩].

قوله: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾: هنا قال: ﴿يُرِدۡكَ﴾، وفي الضر قال: ﴿يَمۡسَسۡكَ﴾ فهل هذا من باب تنويع العبارة، أو هناك فرق معنوي؟.

الجواب: هناك فرق معنوي، وهو أن الأشياء المكروهة لا تنسب إلىٰ إرادة الله، بل تنسب إلىٰ فعله؛ أي: مفعوله. فالمس من فعل الله، والضر من مفعولاته؛ فالله لا يريد الضر لذاته، بل يريده لغيره؛ لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحكم البالغة، وفي الحديث القدسي: **«إن من عبادي من لو أغنيته أفسده الغنىٰ»**[٣٩٠].

أما الخير، فهو مراد لله لذاته، ومفعول له، ويقرب من هذا ما في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن:١٠].

---

(٣٨٨) أخرجه البخاري، كتاب: المظالم، باب: النهي بغير إذن صاحبه، برقم (٢٤٧٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان نقص الإيمان بالمعاصي...، برقم (٥٧) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٨٩) سبق تخريجه.

(٣٩٠) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخه» (٦/ ١٤)، والمتقي الهندي في «كنز العمال» (١٥/ ١٣١٢)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة»، برقم (١٧٧٤، ١٧٧٥)، وفي «ضعيف الجامع»، برقم (٧٥).

فإذا أصيب الإنسان بمرض؛ فالله لم يرد به الضرر لذاته، بل أراد المرض، وهو يضره، لكن لم يرد ضرره، بل أراد خيرًا من وراء ذلك، وقد تكون الحكمة ظاهرة في نفس المصاب، وقد تكون ظاهرة في غيره؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

فالمهم أنه ليس لنا أن نتحجَّر حكمة الله؛ لأنها أوسع من عقولنا، لكننا نعلم علم اليقين أن الله لا يريد الضرر لأنه ضرر، فالضرر عند الله ليس مرادًا لذاته، بل لغيره، ولا يترتب عليه إلا الخير، أما الخير؛ فهو مراد لذاته، ومفعول له، والله أعلم بما أراد بكلامه، لكن هذا الذي يتبين لي.

قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾؛ أي: لا يستطيع أن يرد فضل الله أبدًا، ولو اجتمعت الأمة علىٰ ذلك، وفي الحديث: «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت**»[٣٩١].

وعليه؛ فنعتمد علىٰ الله في جلب المنافع، ودفع المضار، وبقاء ما أنعم علينا به، ونعلم أن الأمة مهما بلغت من المكر والكيد والحيل لتمنع فضل الله؛ فإنها لا تستطيع.

قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: الضمير إما أن يعود إلىٰ الفضل؛ لأنه أقرب، أو إلىٰ الخير؛ لأنه هو الذي يتحدث عنه، ولا يختلف المعنىٰ بذلك.

قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾: كل فعل مقيد بالمشيئة، فإنه مقيد بالحكمة؛ لأن مشيئة الله ليست مجردة يفعل ما يشاء لمجرد أنه يفعله فقط؛ لأن من صفات الله الحكمة، ومن أسمائه الحكيم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الإنسان:٣٠].

قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: العبودية هنا عامة؛ لأن قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾ يشمل خير الدنيا والآخرة، وخير الدنيا يصيب الكفار.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الأحقاف:٨]؛ أي: ذو المغفرة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر، وهو ما يتقىٰ به السهام، والمغفر فيه ستر ووقاية.

---

(٣٩١) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: الدعاء بعد الصلاة، برقم (٦٣٣٠)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، برقم (٥٩٣)، وغيرهما من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

والرحيم؛ أي: ذو الرحمة، وهي صفة تليق بالله ﷻ تقتضي الإحسان والإنعام.

الشاهد قوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾[يونس:١٠٦] في الآية الأولىٰ، فقد نبه الله نبيه أن من يدعو أحدًا من دون الله (أي من سواه) لا ينفعه ولا يضره.

وقوله في الآية الثاني: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾[يونس:١٠٧].

❁ **الآية الثالثة** قوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾:

لو أتىٰ المؤلف بأول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾[العنكبوت:١٧] لكان أولىٰ؛ فهم يعبدون هذه الأوثان من شجر وحجر وغيرها، وهي لا تملك لهم رزقًا أبدًا، لو دعوها إلىٰ يوم القيامة ما أحضرت لهم ولا حبة بر، ولا دفعت عنهم أدنىٰ مرض أو فقر، فإذا كانت لا تملك الرزق؛ فالذي يملكه هو الله، ولهذا قال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾؛ أي: اطلبوا عند الله الرزق؛ لأنه – سبحانه– هو الذي لا ينقضي ما عنده، ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[النحل:٩٦]، والرزق هو العطاء كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء:٨]

١– ، قال: «**نعم، كنت أعمىٰ فرد الله علي بصري، وكنت فقيرًا فأعطاني الله المال**»[٣٩٢]، فهذا من باب التحدث بنعمة الله. والنبي ﷺ تحدث بنعمة الله عليه بالسيادة المطلقة؛ فقال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»[٣٩٣]

٢– **الجوارح**، وهو أن يستعملها بطاعة المنعم، وعلىٰ حسب ما يختص بهذه النعمة.

فمثلًا: شكر الله علىٰ نعمة العلم: أن تعمل به، وتعلمه الناس.

وشكر الله علىٰ نعمة المال: أن تصرفه بطاعة الله، وتنفع الناس به.

وشكر الله علىٰ نعمة الطعام: أن تستعمله فيما خُلق له، وهو تغذية البدن، فلا تبني من العجين قصرًا مثلًا، فهو لم يخلق لهذا الشيء.

---

(٣٩٢)أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث أبرص وأعمىٰ وأقرع في بني إسرائيل، برقم (٣٤٦٤)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٤) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٩٣)أخرجه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ علي جميع الخلائق، برقم (٢٢٧٨) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:١٧]: الجار والمجرور متعلق بـ ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وتقديمه دل على الحصر؛ أي أن رجوعنا إلى الله -سبحانه-، وهو الذي سيحاسبنا على ما حملنا إياه من الأمر بالعبادة، والأمر بالشكر، وطلب الرزق منه.

والشاهد من هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾[العنكبوت:١٧]؛ فالفقير يستغيث بالله لكي ينجيه من الفقر، والله هو الذي يستحق الشكر، وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك الرزق، فكيف تستغيث بها؟!

۞ الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾:

﴿ وَمَنْ ﴾: اسم استفهام مبتدأ، و﴿أَضَلُّ ﴾: خبره، والاستفهام يراد به هنا النفي؛ أي: لا أحد أضل.

و﴿أَضَلُّ ﴾: اسم تفضيل؛ أي: لا أحد أضل من هذا. والضلال: أن يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح. وإذا كان الاستفهام مرادًا به النفي كان أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يحوله من نفي إلى تحدٍّ؛ أي: بين لي عن أحد أضل ممن يدعو من دون الله؟ فهو متضمن للتحدي، وهو أبلغ من قوله: «لا أضل ممن يدعو»؛ لأن هذا نفي مجرد، وذاك نفي مشرب معنى التحدي.

قوله: ﴿مِمَّن يَدْعُواْ ﴾: متعلق بأضل، ويراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ودعاء العبادة.

قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ ﴾؛ أي: سواه.

قوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ﴿مَن﴾: مفعول يدعو؛ أي: لو بقي كل عمر الدنيا يدعو ما استجاب له، قال الله تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر:١٤]، والخبر هنا عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٤]؛ يعني: نفسه سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ﴾أتى بـ ﴿مَن﴾، وهي للعاقل، مع أنهم يعبدون الأصنام والأحجار والأشجار، وهي غير عاقلة؛ لأنهم لما عبدوها نزلوها منزلة العاقل، فخوطبوا بمقتضى ما يدعون؛ لأنه أبلغ في إقامة الحجة عليهم في أنهم يدعون من يرونهم عقلاء، ومع ذلك لا يستجيبون لهم، وهذا من بلاغة القرآن؛ لأنه خاطبهم بما تقتضيه حالهم ليقيم الحجة عليهم؛ إذ لو قيل: ما لا يستجيب له؛ لقالوا: هناك عذر في عدم الاستجابة لأنهم غير عقلاء.

قوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾: الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعود علىٰ ﴿مَن﴾ باعتبار المعنىٰ، لأنهم جماعة، وضمير يستجيب يعود علىٰ ﴿مَن﴾ باعتبار اللفظ؛ لأنه مفرد، فأفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، وجمعه باعتبار المعنىٰ، لأن ﴿مَن﴾ تعود علىٰ الأصنام، وهي جماعة، و﴿مَن﴾ قد يراعىٰ لفظها ومعناها في كلام واحد.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١]، فهنا راعىٰ اللفظ، ثم المعنىٰ، ثم اللفظ.

قوله: ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾: الضمير في دعائهم يعود إلىٰ المدعوين، وهل المعنىٰ: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: الأصنام، ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾؛ أي: دعاء الداعين إياهم، فيكون من باب إضافة المصدر إلىٰ مفعوله، أو المعنىٰ: و﴿وَهُمْ﴾ عن دعاء العابدين لهم، فيكون «دعاء» مضافًا إلىٰ فاعله، والمفعول محذوف.

الأول أبلغ؛ أي: عن دعاء العابدين إياهم أبلغ من دعاء العابدين علىٰ سبيل الإطلاق، فإذا قلت: ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾؛ أي: عن دعاء العابدين إياهم، وجعلت الضمير هنا يعود علىٰ المدعوين، صار المعنىٰ أن هذه الأصنام غافلة عن دعوة هؤلاء إياهم، ويكون هذا أبلغ في أن هذه الأصنام لا تفيدهم شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾، هل المعنىٰ: كان العابدون للمعبودين أعداء، أو كان المعبودون للعابدين أعداء؟

الجواب: يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن.

الشاهد: قوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، فإذا كان من سوىٰ الله لا يستجيب إلىٰ يوم القيامة؛ فكيف يليق بك أن تستغيث به دون الله؟! فبطل تعلق هؤلاء العابدين بمعبوداتهم.

فالذي يأتي للبدوي أو للدسوقي في مصر، فيقول: المدد! المدد! أو: أغثني؛ لا يغني عنه شيئًا، ولكن قد يبتلىٰ فيأتيه المدد عند حصول هذا الشيء لا بهذا الشيء، وفرق بين ما يأتي بالشيء وما يأتي عند الشيء.

مثال ذلك: امرأة دعت البدوي أن تحمل، فلما جامعها زوجها حملت، وكانت سابقًا لا تحمل، فنقول هنا: إن الحمل لم يحصل بدعاء البدوي، وإنما حصل عنده لقوله تعالى: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. أو يأتي للجيلاني في العراق، أو ابن عربي في سوريا، فيستغيث به، فإنه لا ينتفع، ولو بقي الواحد منهم إلى يوم القيامة يدعو ما أجابه أحد.

والعجب أنهم في العراق يقولون: عندنا الحسين، فيطوفون بقبره ويسألونه، وفي مصر كذلك، وفي سوريا كذلك، وهذا سفه في العقول، وضلال في الدين، والعامة قد لا يُلامون في الواقع، لكن الذي يُلام من عنده علم من العلماء ومن غير العلماء.

۞ الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿أَمَّن﴾:

أم: منقطعة، والفرق بين المنقطعة والمتصلة ما يلي:

١ - المنقطعة بمعنى بل، والمتصلة بمعنى أو.

٢ - المتصلة لا بد فيها من ذكر المُعادِل، والمنقطعة لا يشترط فيها ذكر المعادل.

مثال ذلك: أعندك زيد أم عمرو؟ فهذه متصلة، وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾[الطور:٣٥] متصلة، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[النمل:٦٢] منقطعة؛ لأنه لم يذكر لها معادل؛ فهي بمعنى بل والهمزة.

قوله: ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾: أصلها: المضتر؛ أي: الذي أصابه الضرر، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾[الأنبياء:٨٣، ٨٤]، فلا يجيب المضطر إلا الله، لكن قيده بقوله: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، أما إذا لم يدعه، فقد يكشف الله ضره، وقد لا يكشفه.

قوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء، وهو دون الضرورة؛ لأن الإنسان قد يُساء بما لا يضره، لكن كل ضرورة سوء.

وقوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾هل هي متعلقة بما قبلها في المعنى، وأنه إذا أجابه كشف سوءه، أو هي مستقلة يجيب المضطر إذا دعاه ثم أمر آخر يكشف السوء؟

الجواب: المعنى الأخير أعم؛ لأنها تشمل كشف سوء المضطر وغيره، ومن دعا الله ومن لم يدعه، وعلى التقدير الأول تكون خاصة بكشف سوء المضطر، ومعلوم أنه كلما كان المعنى أعم كان أولى، ويؤيد العموم قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾[النمل:٦٢]، الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[الأنبياء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾[النور:٥٥].

قوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: الاستفهام للإنكار، أو بمعنى النفي، وهما متقاربان؛ أي: هل أحد مع الله يفعل ذلك؟!

الجواب: لا، وإذا كان كذلك، فيجب أن تصرف العبادة لله وحده، وكذلك الدعاء، فالواجب على العبد أن يوجه السؤال إلى الله تعالى، ولا يطلب من أحد أن يزيل ضرورته ويكشف سوءه وهو لا يستطيع.

إشكال وجوابه:

وهو أن الإنسان المضطر يسأل غير الله ويُستجاب له، كمن اضطرَّ إلى طعام وطلب من صاحب الطعام أن يعطيه فأعطاه؛ فهل يجوز أم لا؟

الجواب: أن هذا جائز، لكن يجب أن نعتقد أن هذا مجرد سبب لا أنه مستقل؛ فالله يجعل لكل شيء سببًا، فيمكن أن يصرف الله قلبه فلا يعطيك، ويمكن أن تأكل ولا تشبع فلا تزول ضرورتك، ويمكن أن يسخره الله ويعطيك.

قوله: «بإسناده»:

يشير إلى أن هذا الإسناد ليس على شرط الصحيح، أو المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص، وعليه؛ فيجب أن يُراجع هذا الإسناد فليس كل إسناد محدث قد تمت فيه شروط القبول.

وذكر الهيثمي في «**مجمع الزوائد**»: «إن رجاله رجال الصحيح؛ غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلط في آخر عمره لاحتراق كتبه»، ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قوله: «**في زمن النبي**»، أي: عهده، وكان الكافر أولًا يعلن كفره ولا يُبالي، ولما قوي المسلمون بعد غزوة بدر خاف الكفار، فصاروا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

قوله: «منافق»: المنافق: هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهؤلاء ظهروا بعد غزوة بدر.

ولم يسم المنافق في هذا الحديث؛ فيحتمل أنه عبد الله بن أبي؛ لأنه مشهور بإيذاء المسلمين، ويحتمل غيره.

واعلم أن أذية المنافقين للمسلمين ليست بالضرب أو القتل؛ لأنهم يتظاهرون بمحبة المسلمين، ولكن بالقول والتعريض كما صنعوا في قصة الإفك.

قوله: **«فقال بعضهم»**؛ أي: الصحابة.

قوله: **«نستغيث»**؛ أي: نطلب الغوث وهو إزالة الشدة.

قوله: **«من هذا المنافق»**: إما بزجره، أو تعزيره، أو بما يناسب المقام.

وفي الحديث إيجاز حذف دل عليه السياق؛ أي: فقاموا إلى رسول الله، فقالوا: يا رسول الله! إنّا نستغيث بك من هذا المنافق.

قوله: **«إنه لا يستغاث بي»**: ظاهر هذه الجملة النفي مطلقًا، ويحتمل أن المراد: لا يُستغاث به في هذه القضية المعينة.

فعلى الأول: يكون نفي الاستغاثة من باب سد الذرائع والتأدب في اللفظ، وليس من باب الحكم بالعموم؛ لأن نفي الاستغاثة بالرسول ﷺ ليس على إطلاقه، بل تجوز الاستغاثة به فيما يقدر عليه.

أما إذا قلنا: إن النفي عائد إلى القضية المعينة التي استغاثوا بالنبي ﷺ منها؛ فإنه يكون على الحقيقة؛ أي: على النفي الحقيقي؛ أي: لا يستغاث بي في مثل هذه القضية؛ لأن النبي ﷺ كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين، ولا يمكنه حسب الحكم الظاهر للمنافقين أن ينتقم من هذا المنافق انتقامًا ظاهرًا، إذ إن المنافقين يستترون، وعلى هذا؛ فلا يستغاث للتخلص من المنافق إلا بالله.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص؛ يعني: حيث قال في الترجمة باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره، ووجه ذلك في الاستغاثة طلب إزالة الشدة والدعاء طلب ذلك وغيره، إذًا الاستغاثة نوع من الدعاء، والدعاء أعم، فهو من باب عطف العام على الخاص، وهذا سائغ في اللغة العربية، فهو كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧].

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾[يونس:١٠٦]، الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ خاصة، بدليل الآيات التي قبلها، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس:١٠٥].

فإن قيل: كيف ينهاه الله عن أمر لا يمكن أن يقع منه شرعًا؟

أجيب: إن الغرض هو التنديد بمن فعل ذلك، كأنه يقول: لا تسلك هذا الطريق التي سلكها أهل الضلال، وإن كان الرسول لا يمكن أن يقع منه ذلك شرعًا.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر: يؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦]، مضافًا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاءً لغيره؛ صار من الظالمين، تؤخذ من كون الخطاب للرسول ﷺ وهو أصلح الناس، فلو فعل ذلك إرضاءً لغيره، صار من الظالمين، حتىٰ ولو فعله مجاملة لإنسان مشرك، فدعا صاحب قبر إرضاءً لذلك المشرك، فإنه يكون مشركًا، إذ لا تجوز المحاباة في دين الله.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها: وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ...﴾الآية [الأنعام:١٧]، فإذا كان لا يكشف الضر إلا الله؛ وجب أن تكون العبادة له وحده والاستغاثة به وحده.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا، تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، فلم ينتفع من دعائه هذا؛ فخسر الدنيا بذلك، والآخرة بكفره.

السابعة: تفسير الآية الثالثة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ حال من الرزق، وعليه يكون ابتغاء الرزق عند الله وحده.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه، تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأن العبادة سبب لدخول الجنة، وقد أشار الله إلىٰ ذلك بقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧]

التاسعة: تفسير الآية الرابعة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله، تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف:٥]؛ لأن الاستفهام هنا بمعنىٰ النفي.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه: لقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾. ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المدعوون، ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾؛ أي: دعاء الداعين، أو عن دعاء الداعين إياهم؛ فالاحتمال في الضمير الثاني وهو قوله: ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾، أما الضمير الأول؛ فإنه يعود إلىٰ المدعوين لا ريب، وقد سبق بيانه بالتفصيل.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له: تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦].

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو: تؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة: معنىٰ كفر المدعو: رده وإنكاره، فإذا كان يوم القيامة تبرأ منه وأنكره. تؤخذ من قوله: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس، وذلك لأمور، هي:

١- أنه يدعو من دون الله من لا يستجيب له.

٢- أن المدعوين غافلون عن دعائهم.

٣- أنه إذا حشر الناس كانوا له أعداء.

٤- أنه كافر بعبادتهم.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢]، وقد سبق ذلك.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله... إلخ:

وهو كما قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا موجود الآن؛ فمن الناس من يسجد للأصنام التي صنعوها بأنفسهم تعظيمًا، فإذا وقعوا في الشدة دعو الله مخلصين له الدين، وكان عليهم أن يلجئوا للأصنام لو كانت عبادتها حقًّا، إلا أن من المشركين اليوم من هو أشد شركًا من المشركين السابقين، فإذا وقعوا في الشدة دعوا أولياءهم؛ كعلي والحسين، وإذا كان الأمر سهلًا دعوا الله، وإذا حلفوا حلفًا هم فيه صادقون حلفوا بعلي أو غيره من أوليائهم، وإذا حلفوا حلفًا هم فيه كاذبون حلفوا بالله ولم يبالوا.

الثامنة عشرة: حماية المصطفىٰ حمىٰ التوحيد، والتأدب مع الله: اختار المؤلف أن قوله: «**لا يستغاث بي**» من باب التأدب بالألفاظ، والبعد عن التعلق بغير الله، وأن يكون تعلق الإنسان دائمًا بالله وحده؛ فهو يعلم الأمة أن تلجأ إلىٰ الله وحده إذا وقعت في الشدائد، ولا تستغيث إلا به وحده.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «**باب من الشرك بأن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره**»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّه ذكر فيه نوعًا من أنواع الشرك المنافي للتوحيد وهو أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.

«**أن يستغيث**»: الاستغاثة طلب الغوث وهو إزالة الشدة.

«**أو يدعو**»: الفرق بين الاستغاثة والدعاء: أنَّ الاستغاثة لا تكون إلاَّ من المكروب، وأمَّا الدعاء فيكون من المكروب وغيره.

❁ **قوله**: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾:

إن عبدته.

﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾: إن لم تعبده.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ أي: دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك.

﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: من المشركين، فإنَّ الشرك أعظم الظلم.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

ينهىٰ الله نبيه أن يدعو أحدًا من سائر المخلوقين العاجزين عن إيصال النفع ودفع الضرِّ، ثم يبين له حكمه لو فرض أن دعا غير الله بأنه يكون حينئذٍ من المشركين، وهذا النهي عام لجميع الأمة.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها النهي عن دعاء غير الله وأنه شرك ينافي التوحيد.

ما يستفاد من الآية:

١ - أنَّ دعاء غير الله شرك أكبر.

٢ - أنَّ أصلح الناس لو دعا غير الله صار من الظالمين؛ أي: المشركين فكيف بغيره.

٣- بيانُ عجز آلهة المشركين وبطلان عبادتها.

❁ **قوله:** ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾:

أي: إن يصبك.

﴿بِضُرٍّ﴾: بفقرٍ أو مرضٍ أو غير ذلك من أنواع الضر.

﴿فَلَا كَاشِفَ﴾: لا رافع.

﴿فَلَا رَآدَّ﴾: لا دافع.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبُر تعالىٰ أنَّه المتفرد بالملك والقهر والعطاء والمنع والضرِّ والنفع دون ما سواه، فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده المعبود وحده دون غيره ممن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فضلًا عن أن يملكهما لغيره.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها بيان استحقاق الله للعبادة بالدعاء ونحوه، وأنَّ دعاء غيره شرك، لأنه لا ينفع ولا يضر.

ما يستفاد من الآية:

١- وجوب إفراد الله تعالىٰ بتوحيد الألوهية لتفرده بتوحيد الربوبية.

٢- بطلان دعاء غير الله لعجزه عن نفع من دعاه ودفع الضر عنه.

٣- إثبات المشيئة لله سبحانه.

٤- إثبات صفتي المغفرة والرحمة لله سبحانه علىٰ ما يليق بجلاله.

❁ **قوله:** ﴿فَٱبْتَغُواْ﴾: اطلبوا.

﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾: أخلصوا له العبادة، وهو من عطف العام علىٰ الخاص، فإنَّ ابتغاء الرزق عند الله من العبادة.

﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾: اعترفوا بنعمته، وافعلوا ما يجب من طاعته واتركوا معصيته.

﴿إِلَيْهِ﴾: لا إلىٰ غيره.

﴿تُرْجَعُونَ﴾: يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يأمر الله -سبحانه- بطلب الرزق منه وحده لا من الأصنام والأوثان، وإفراده بالعبادة والاعتراف بنعمه التي أسداها علىٰ عباده وصرفها في طاعته والابتعاد عن معصيته ثم يخبر أنَّ المصير إليه فيجازي كل عامل بعمله فيجب علىٰ العبد أن يحسب لذلك حسابه.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها وجوب إفراد الله بالدعاء والعبادة والردَّ على المشركين الذين يعبدون غيره.

ما يستفاد من الآية:

١ - وجوب دعاء الله وحده وطلب الرزق منه.

٢- وجوب إفراد الله بجميع أنواع العبادة.

٣- وجوب شكر الله على نعمه.

٤- إثبات البعث والجزاء.

٥- أنَّه لا تنافي بين طلب الرزق والاكتساب وعبادة الله وأنَّ الإسلام فيه خير الدين والدنيا.

❁ **قوله**: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾:

أي: لا أحد أشد ضلالًا.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: غير الله.

﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ﴾: لا يقدر على إجابته بإعطائه ما طلب منه.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المدعوون.

﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾؛ أي: دعاء من دعاهم من المشركين.

﴿غَٰفِلُونَ﴾: لا يشعرون بدعاء من دعاهم؛ لأنهم إمَّا أموات أو جماد أو ملائكة مشغولون بما خلقوا له.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾: جمعوا ليوم القيامة.

﴿كَانُوا۟﴾؛ أي: الآلهة التي يدعونها من دون الله.

﴿لَهُمْ أَعْدَآءً﴾؛ أي: يتبرءون ممن دعاهم ويعادونهم.

﴿كَٰفِرِينَ﴾: جاحدين لعبادة من عبدهم.

المعنى الإجمالي للآيتين:

أنَّ الله -تعالى- حكم بأنه لا أضلَّ ممن دعا غير الله من المخلوقين ممن لا يقدر على إجابة دعوته في الدنيا، ولا يشعر بدعاء من دعاه، وإذا قامت القيامة وجمع الناس عادى من دعاه وتبرأ منه، فليس هذا المشرك إلا في نكدٍ في الدارين، لا يحصل على إجابة في الدنيا وتجحد عبادته في الآخرة أحوج ما يكون إليها.

مناسبة الآيتين للباب:

أنَّ فيهما الحكم على من دعا غير الله بأنه أضل الضَّالِّين وأنَّ الدعاء عبادة فمن صرفه لغير الله فهو مشرك.

ما يستفاد من الآيتين:

١- أنَّ الدعاء عبادة، فمن دعا غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر.

٢- بيان شقاوة من يدعو غير الله في الدنيا والآخرة.

٣- أنَّ الشرك هو أعظم الضلال.

٤- إثبات البعث والحشر للجزاء.

٥- أنَّ الأوثان لا تسمع من دعاها ولا تستجيب له عكس ما يتصورَّ المشركون فيها.

٦- أنَّ عبادة الله وحده فيها خير الدنيا والآخرة.

❁ **قوله: ﴿أَمَّن﴾:**

أي: من هو؟

﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾: المكروب الذي مسه الضر.

﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾: الإضافة بمعنى «في»؛ أي: يخلف كل قرنٍ القرن الذي قبله في الأرض.

﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: سواه يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم هذه النعم.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تذكرون تذكرًا قليلًا في عظمة الله ونعمه عليكم، فلذلك أشركتم به غيره في عبادته.

المعنى الإجمالي للآية:

يحتجُّ تعالى على المشركين في اتخاذهم الشفعاء من دونه بما قد علموه وأقرُّوا به من إجابة الله لهم عندما يدعونه في حال الشدة وكشفه السوء النازل بهم وجعلهم خلفاء في الأرض بعد أمواتهم، فإذا كانت آلهتهم لا تفعل شيئًا من هذه الأمور فكيف يعبدونها مع الله، ولكنهم لا يتذكرون نعم الله عليهم إلا تذكرًا قليلًا لا يورث خشية الله ولذلك وقعوا في الشرك.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها بطلان الاستغاثة بغير الله؛ لأنَّه لا يجيب المضطرَّ ويكشف السوء النازل ويحيي ويميت سواه.

ما يستفاد من الآية:

١- بطلان الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

٢- أنَّ المشركين مقرون بتوحيد الربوبية ولم يدخلهم ذلك في الإسلام.

٣- الاستدلال علىٰ توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية.

٤- الاحتجاج علىٰ المشركين بما أقرُّوا به علىٰ ما جحدوه.

قوله: «الطبراني»:

هو الحافظ الإمام: سليمان بن أحمد صاحب المعاجم الثلاثة.

«بإسناده»: إلىٰ عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

«منافق»: هو عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين.

والنفاق هنا: إظهار الإسلام وإخفاء الكفر.

«نستغيث برسول الله»: نطلب منه كف هذا المنافق عن الأذىٰ.

«إنه لا يستغاث بي»: كره ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ في حقه تأدبًا مع الله.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

لما قوي الإسلام كان هناك صنفٌ من الكفار رأوا الدخول في الإسلام ظاهرًا والبقاء علىٰ الكفر باطنًا سمُّوا بالمنافقين، وكان يصدر منهم من الأقوال والأفعال ما يضايق المسلمين، ومن ذلك ما حصل من هذا الرجل حتىٰ طلب بعض الصحابة من النبي ﷺ كفّه وزجره. والنبيُّ يقدر علىٰ ذلك، لكن لما كانت الصيغة التي تقدَّمُوا بها إليه إساءة أدبٍ مع الله تعالىٰ -ما ينبغي أن تقال- استنكرها النبي تعليمًا للصحابة وسدًّا لذريعة الشرك وحماية للتوحيد.

مناسبة الحديث للباب:

إنَّ فيه إنكار النبي ﷺ الاستغاثة بغير الله.

ما يستفاد من الحديث:

١- أنَّه لا يُستغاث بالنبي ﷺ، وغيره من باب أولىٰ.

٢- الإرشاد إلىٰ حسن اللفظ وحماية التوحيد.

٣- سد الطرق المفضية إلىٰ الشرك.

٤- مشروعية الصبر علىٰ الأذىٰ في الله.

٥- ذم النفاق.

٦- تحريم أذية المؤمنين؛ لأنها من فعل المنافقين.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره»:**

الشركُ المراد به -كما ذكرنا فيما سبق- الشرك الأكبر.

قوله: «**أن يستغيث**» يعني: الاستغاثة؛ لأن (أن) مع الفعل تُؤول بمصدر، يعني: باب: «**من الشرك الاستغاثة بغير الله**» أو «**استغاثة بغير الله**» وكذلك قوله: «**يدعو**» يؤول بمصدر، يعني: من الشرك، «**دعوة غيره**» أو «**دعاء غيره**».

والاستغاثة كما ذكرنا: طلب، والطلب نوع من أنواع الدعاء، ولهذا قال العلماء: «**إن في قوله: «أو يدعو غيره»** بعد قوله: «**أن يستغيث بغير الله**» عطفًا للعام على الخاص، ومن المعلوم أن الخاص قد يعطف على العام، وأن العام قد يعطف على الخاص.

وقوله: «**أن يستغيث بغير الله**» هذا أحد أفراد الدعاء -كما ذكرنا- لأن الاستغاثة طلب، والطلب دعاء.

وقوله: «**أو يدعو غيره**» هذا لفظ عام يشمل الاستغاثة، والاستعاذة، ويشمل أصنافًا كثيرة من أنواع الدعاء.

قوله: «**أن يستغيث**» الاستغاثة: هي طلب الغوث، والغوث يحصل لمن وقع في شدة وكرب يخشىٰ معه المضرة الشديدة، أو الهلاك، فيقال: أغاثه: إذا فزع إليه، وأعانه علىٰ كشف ما به، وخلَّصه منه، كما قال -جل وعلا- في قصة موسىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[القصص: ١٥] فقوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ يعني: أن مَنْ كان مِنْ شيعة موسىٰ طلب الغوث من موسىٰ علىٰ من كان عدوًّا لهما جميعًا، فأغاثه موسىٰ عليه السلام.

فالاستغاثة: طلب الغوث، وطلب الغوث لا يصلح إلا من الله فيما لا يقدر عليه إلا الله -جل وعلا- لأن الاستغاثة يمكن أن تُطلب من المخلوق فيما يقدر عليه.

لكن متىٰ تكون الاستغاثة بغير الله شركًا أكبر؟

ضبطه بعض أهل العلم بقولهم: «**تكون شركًا أكبر إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه ذلك المخلوق**»

وقال آخرون: «**تكون شركًا أكبر إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله**».

وهاتان العبارتان مختلفتان، والأصح منهما الأخير؛ لأن المرء إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهو يعلم أن هذا لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر بالله -جل وعلا- لأن حقيقة الأمر أنه لا يقدر عليه إلا الله.

أما قول من قال من أهل العلم: «إن الاستغاثة شرك أكبر إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه، فإن هذا يَرِدُ عليه أن ثَمَّة أشياء قد يكون المخلوق في ظاهر الأمر قادرًا عليها، ولكنه في الحقيقة لا يقدر عليها، لكن هذا الضابط غير منضبط؛ لأن من وقع في شدة كغرقٍ -مثلًا- وتوجّه إلىٰ رجل يراه بأن يغيثه فقال مخاطبًا إياه: أستغيث بك، أستغيث بك، أستغيث بك، وذاك لا يحسن السباحة، ولا يحسن الإنجاء من الغرق، فهذا يكون قد استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق، فهل يكون شركًا أكبر؟! لا يكون منه؛ لأن الإغاثة من الغرق ونحوه يصلح -في الغالب- أن يكون المخلوق قادرًا عليها، فيكون الضابط الثاني هو الصحيح، وهو أن يقال: الاستغاثة بغير الله شرك أكبر إذا كان قد استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، أما إذا استغاث به فيما يقدر عليه غير الله من المخلوقين، لكن هذا المخلوق المعين لم يقدر علىٰ هذا الشيء المعين فإنه لا يكون شركًا أكبر؛ لأنه ما اعتقد في المخلوق شيئًا لا يصلح إلا لله جل جلاله.

فالاستغاثة بغير الله إذا كانت فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهي شرك أكبر، وإذا كانت فيما يقدر عليه المخلوق، فهي جائزة، كما حصل من صاحب موسىٰ؛ إذ استغاث بموسىٰ عليه السلام.

قوله: «أو يدعو غيره»: الدعاء كما ذكرت لك: هو العبادة، والدعاء نوعان:

دعاء مسألة، ودعاء عبادة، ونعني بدعاء المسألة: ما كان فيه طلب وسؤال، كأن يرفع يديه لله -جل وعلا- ويدعوه، فهذا يسمىٰ دعاء مسألة. وهو الذي يغلب عند عامة المسلمين في تسمية الدعاء، فإذا قيل: دعا فلان، يعني: سأل ربه جل وعلا.

والنوع الثاني: دعاء العبادة، كما قال جل وعلا: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾[الجن:١٨] يعني: لا تعبدوا مع الله أحدًا، أو لا تسألوا مع الله أحدًا، وكما قال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**».

ودعاء المسألة غير دعاء العبادة، فدعاء العبادة يتناول كل صنف من أصنف الغبادة، فمن صلىٰ، أو زكّىٰ، أو صام، ونحو ذلك فيقال: إنه دعا، لكن دعاء عبادة.

قال العلماء: «**دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة**».

يعني: أن من سأل الله -جل وعلا- شيئًا فهو داعٍ دعاء مسألة، وهذا متضمن لعبادة الله؛ لأن الدعاء -أعني: دعاء المسألة- أحد أنواع العبادة، فدعاء المسألة متضمن للعبادة؛ لأن الله -جل وعلا- يحب من عباده أن يسألوه.

وقولنا: إن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، يعني: أن من صلىٰ، فيلزم من إنشائه الصلاة أن يسأل الله القبول، ويسأل الله الثواب، فيكون دعاء المسألة متضمنًا لدعاء العبادة، ودعاء العبادة مستلزمًا لدعاء المسألة.

إذا تقرر ذلك فاعلم أن هذا التفصيل -أو هذا التقسيم- مهم جدًّا في فهم حجج القرآن، وفي فهم الحجج التي يوردها أهل العلم؛ لأنه قد حصل من الخرافيين والداعين إلى الشرك أنهم يؤوِّلون الآية التي فيها دعاء العبادة بدعاء المسألة، أو الآية التي في دعاء المسألة بدعاء العبادة، وإذا تبين ذلك عُلم أنه لا انفكاك في الحقيقة بين دعاء المسألة ودعاء العبادة، فهذا هو ذاك، إما بالتضمن أو باللزوم. ومعلوم أن دلالات التضمن واللزوم دلالات لغوية واضحة جاءت في القرآن، وجاءت في السنة.

ثم ساق الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الأدلة علىٰ أن الدعاء والاستغاثة إنما يُتوجه بهما إلى الله وحده فيما لا يقدر عليه إلا الله.

❁ **قوله**: «**وقول الله تعالىٰ**: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس: ١٠٦، ١٠٧]»:

قال في الآية الأولىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.فقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ هذا نهي، والنهي -هنا- قد توجه إلى الفعل (تدع) وإذا كان كذلك فإنه يعمُّ أنواع الدعاء، وسبق القول بأن الدعاء منه دعاء مسألة ومنه دعاء عبادة، والقاعدة: أن النكرة إذا جاءت في سياق

النهي، أو في سياق النفي، أو في سياق الشرط، فإنها تعمُّ، و(تدعُ) نكرة؛ لأنه فعل مشتمل على مصدر، والمصدر حدثٌ نكرة، فهو يعمّ نوعي الدعاء. وهذا مراد الشيخ -أو أحد مراداته- من الاستدلال بهذه الآية فقد نهىٰ الله -جل وعلا- أن يُتَوَجَّه إلىٰ غير الله بدعاء المسألة، أو بدعاء العبادة، أو بأي نوع من أنواع العبادات، فلا يصلح طلب ما لا يقدر عليه إلا الله إلا منه جل وعلا، ويدخل في ذلك الاستعاذة، والاستغاثة التي هي طلب الغوث، وكذلك دعاء العبادة بأنواعه كالصلاة، والزكاة، والتسبيح، والتهليل، والسجود، وتلاوة القرآن، والذبح، والنذر، وكذلك أعمال القلوب كالتوكل، والمحبة التي هي عبادة، والرجاء الذي هو عبادة، وخوف السر. فهذه العبادات كلها لا تصلح إلا لله. وهي من أنواع دعاء العبادة.

فهذه الآية دلت علىٰ النهي عن أن يتوجه أحد إلىٰ غير الله -جل وعلا- بدعاء مسألة، أو بدعاء عبادة، وقد نُهي النبي ﷺ عن ذلك أعظم النهي، ووجِّه إليه الخطاب بذلك مع أنه إمام المتقين، وإمام الموحدين.

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يعني: مع الله، أو من دون الله استقلالًا.

قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾: يعني: الذي لا ينفعك ولا يضرك، و(ما) تشمل العقلاء وغير العقلاء. فالعقلاء: كالملائكة، والأنبياء، والرسل، والصالحين، وغيرُ العقلاء: كالأصنام، والأحجار، والأشجار، وهذا من جهة الدلالة اللغوية لـ(ما).

وقوله تعالىٰ لنبيه: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾: يعني: إن دعوت من دون الله أحدًا، وذلك الأحد موصوف بأنه لا ينفعك، ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾، وهذا إذا كان في حق النبي -عليه الصلاة والسلام- الذي كمّل الله له التوحيد أنه إذا حصل منه الشرك فإنه يصبح ظالمًا، ويصبح مشركًا -وحاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك- فهو تخويف عظيم لمن هو دونه ممن لم يُعصم، ولم يعطَ العصمة من ذلك من باب أولىٰ.

فقوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾: يعني: إن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾ يعني: بسبب تلك الدعوة ﴿مِّنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾. والظالمون جمع تصحيح للظالم، والظالم: اسم فاعل الظلم، والظلم المراد به هنا: الشرك، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

ثم قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ اعلم أن غرض من يلجأ إلىٰ غير الله، أو يستغيث، أو يستعيذ بغيره إنما هو طلب كشف الضر. وقد أبطل الله تعالىٰ هذا التعلّق الشرعي بقاعدة عامة تقطع عروق الشرك من القلب، حيث قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾، يعني: إذا مسَّك الله بضر فمن يكشف الضر؟

الجواب: يكشفه من قدَّره، ومن قضاه عليك، وهكذا كل أنواع التوجه إلىٰ غير الله -جل وعلا- أيًا كانت. ولكن ما دام أنه أذن بالتوجه إلىٰ المخلوق فيما يقدر عليه، كالتوجه إليه بطلب الغوث أو نحو ذلك فإنه يكون مما رُخِّص فيه، والحمد لله.

وقوله في هذه الآية: ﴿بِضُرٍّ﴾: نكرةٌ جاء في سياق الشرط فتعمّ جميع أنواع الضر، سواءٌ أكان ضرًّا في الدين، أم كان ضرًّا في الدنيا، يعني: كان ضرًّا في الدنيا من جهة الأبدان، أو من جهة الأموال، أو من جهة الأولاد، أو من جهة الأعراض، ونحو ذلك، إذًا فمعنىٰ قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: بأي نوع من أنواع الضر ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الذي يكشف الضر في الحقيقة هو الله -جل وعلا- لا يكشف البلوىٰ إلا هو سبحانه وتعالىٰ، وإذا كان المخلوق يقدر علىٰ ذلك الكشف فإنما هو من جهة أنه سبب، فالله هو الذي جعله سببًا يقدر علىٰ أن يكشف بإذن الله -جل وعلا- وإلا فالكاشف حقيقة هو الله -جل وعلا- والمخلوق -ولو كان يقدر- فإنما قدر بإقدار الله له؛ إذ هو سبب من الأسباب، فالحاصل أن الكاشف -علىٰ الحقيقة- هو الله وحده.

وإذا تبين ذلك ظهر لك وجه استدلال المصنف بهذه الآية، ومناسبة الآية للترجمة من عدة جهات كما ذكرنا.

قوله: «﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُۥٓ﴾[العنكبوت: ١٧]»:

ليبين أن الاستغاثة والدعاء هما من أعظم ما يتعلق بهما الخلق لطلب الرزق؛ لأن طلب الرزق أعظم أسباب الحياة، فمن لم يكن عنده رزق، فإنه يوشك علىٰ الهلاك، ولهذا ذكر الإمام هذه الآية التي فيها النصُّ علىٰ توحيد جهة طلب الرزق؛ لأن معظم حال المستغيثين إنما هي لطلب الرزق.

والرزق اسم عام يشمل كل ما يصلح أن يُرزق، يعني: أن يُمنح ويُعطىٰ، فيدخل في ذلك الصحة، والعافية، والمال، والطعام، والمنزل، والدواب، وكل ما يحتاجه المرء.

وقوله في الآية: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾:أصل تركيب الكلام فيها: فابتغوا الرزق عند الله، و(ابتغوا) فعل أمر، و(الرزق) مفعول، و(عند الله) الأصل أن يتأخر علىٰ المفعول، أي فابتغوا الرزق عند الله.

قال علماء المعاني: -من علوم البلاغة- «**إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص**». والأصل فابتغوا عند الله الرزق، وجعلوا ذلك الابتغاء مختصًا بالله -جل وعلا- هكذا يفهم العربي معنىٰ الآية، أي: فليكن ابتغاؤكم الرزق من عند الله وحده، فلا تستغيثوا بغيره في طلب رزق، ولا تستنجدوا بغيره في طلب رزق، وإنما ذلك لله جل وعلا.

ثم قال: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾: ليجمع أصناف السؤال بما يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

❁ **قوله**: «قوله: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيتين[الأحقاف: ٥،٦]»:

دلالة الآية ظاهرة في أنها واردة في سياق الدعاء؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾فهي ظاهرة في أن ثم داعيًا، وثم مدعوًّا، وذاك المدعو غير الله جل وعلا.

ووجه الدلالة من الآية: أن الله تعالىٰ وصف كل من يدعو من دون الله بأنه في غاية الضلال، ومنتهىٰ الغواية، وأنه لا أحد أضل منه، والدليل علىٰ أنه أراد الأموات ولم يرد الأصنام والأحجار والأشجار أنه قال: ﴿مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فجعل غاية المنع من الإجابة إلىٰ يوم القيامة، وهذه في الأموات؛ لأن الميت إذا كان يوم القيامة نشر وصار يسمع، وربما أجاب طلب من طلبه؛ لأنه يكون في ذلك المقام حيًّا وربما كان قادرًا.

وأما الميت -الذي هو في البرزخ- فهو الذي يصدق عليه وصف الله -جل وعلا- بقوله: ﴿مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ والأصل في اللغة أن لفظ (مَنْ) تستعمل للعقلاء -كما يقول النحاة- والأصح أن يقال: لفظ (مَنْ) الأصل فيها لغة: أنها تطلق علىٰ من يعلم، لورود بعض الآيات في القرآن أطلق فيها هذا اللفظ في حق الله -عز وجل- هذا الأحسن من حيث استعمال هذا اللفظ، وإن كان الذي جرىٰ عليه القول عند علماء النحو استعمال (مَنْ) للعاقل، و(ما) لغير العاقل.

فتلخص مما سبق أن الأصح في استعمال (من) أنها لمن يعلم، وهؤلاء المذكورون في الآية كانوا بشرًا يُخاطِبون ويُخاطَبون، ويعلمون، ويُعلم منهم.

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾: هذا الوصف ليس مقصودًا به الأصنام، وإنما هو في الأموات.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾[الأحقاف: ٦] ولذلك قال -جل وعلا- في سورة النحل: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[النحل: ٢١،٢٢].

قوله: «وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل: ٦٢]»:

هذه الآية من سورة (النمل) فيها أن إجابة دعاء المضطر إنما هي لله -جل وعلا- وحده فقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هذا في دعاء المسألة، وكشف السوء في قوله: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ تارة يكون بالاستغاثة، وتارة بغير ذلك، ولهذا يكون هذا القَدْرُ من الآية صالحًا لما ترجم به المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من اللفظين: لفظ (الاستغاثة) ولفظ (الدعاء).

ثم قال بعد ذلك: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: وهذا الاستفهام إنكاري، يُنكر عليهم أن يتخذوا إلهًا مع الله، ويُنكر عليهم أن يدعوا غير الله، أو يتوجهوا في كشف السوء إلى غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا معنى الإنكار في قوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله: «وروى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم:...»: المراد بالبعض هنا: أبو بكر الصديق كما جاء في بعض الروايات، **ثم قال في الحديث: «...قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، إنما يستغاث بالله»**

واستغاثة الصحابة بالنبي ﷺ كانت جائزة؛ لأنهم طلبوا الإغاثة من النبي ﷺ فيما يقدر عليه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان قادرًا -في هذا المقام- على إغاثتهم، إما بالأمر بقتل المنافق، أو الأمر بسجنه، أو بتهديده، أو معاقبته بتعزير، أو بغيره؛ لأنه كان يؤذي المؤمنين.

فاستغاثتهم برسول الله ﷺ في قولهم: «**قوموا بنا نستغيث برسول الله**» استغاثة به فيما يقدر عليه، لكن النبي -عليه الصلاة والسلام- علّمهم الأدب في ذلك، وعلّمهم الأكمل في ذلك، حيث قال: «**إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله**».

وحقيقة الاستغاثة على وجه الكمال إنما هي بالله -جل وعلا- لا بنبيه ﷺ فكأنه حصل منهم نوع التفات إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- فيما يقدر عليه، فبين لهم أن الواجب عليهم أن يستغيثوا بالله -جل وعلا- أولًا فقال: «**إنه لا يستغاث بي**» وهذا نفي فيه معنى النهي، يعني: لا تستغيثوا بي، بل استغيثوا بالله في هذا الأمر، وإذا أغاثهم الله -جل وعلا- كفَّ شر ذلك المنافق عنهم.

وقد أعلَّ بعض العلماء هذا الحديث بأن في إسناده ابن لهيعة، وحاله معروف، لكن إيراد أئمة الحديث للأحاديث التي قد يكون في إسنادها بعض مقال في مثل هذا المقام لا بأس به، بل فعلهم هذا صواب إذا كان ما في الحديث من المعنى قد عضدته الأدلة من القرآن ومن السنة، كما في هذا الحديث، فإن قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله**» قد دلت عليه الآيات التي سلفت، وهذا الذي درج عليه صنيع الراسخين في العلم من أهل الحديث، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرِض كلام له في (الفتاوى)

قال: «**أهل الحديث لا يستدلون بحديث ضعيف في أصل من الأصول، بل إمّا في تأييده -يعني: في تأييد ذلك الأصل- أو في فرع من الفروع**».

وهذا هو صنيع الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا في هذا الكتاب، فإنه يستدل بأحاديث هي من جهة المعنى الذي اشتملت عليه صحيحة -كما سبق إيضاحه- وقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الحديث مستدلًّا به في رده على البكري المعروف بـ(الاستغاثة) أعني: كتاب (الاستغاثة الكبرى) أو (الرد على البكري) وقال: «**إن هذا الحديث هو في معنى ما جاء في النصوص**».

فقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنه لا يستغاث بي**» يعني: لا تستغيثوا بي، وإنما استغيثوا بالله؛ لأن لفظ(يستغاث) تقدَّمه نفي، والمراد منه: النهي.

وهذا الباب ظاهر المناسبة لما قبله ولما بعده أيضًا في أن الاستغاثة بغير الله نوع من أنواع الدعاء، وأن الدعاء عبادة، وأن الاستغاثة عبادة، وصَرْفُ العبادة لغير الله -جل وعلا- كفر وشرك.

ومما يدل على أن الدعاء عبادة قول الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾[البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ يدل على أن إجابة الدعوة تكون برفع المكروه، أو بمنع وقوعه، وتكون أيضًا بالعطاء، والإثابة فيما إذا عُبد، فيجيب الدعوة بإعطاء السائل سؤله، ويجيب أيضًا الدعاء بإثابة الداعي العابد على عبادته، ولهذا يفسِّر السلف الآيات التي فيها إجابة الدعاء ونحو ذلك بأن فيها إعطاء سؤل السائل، وإثابة العابد؛ لأن الصحابة والسلف يعلمون أن الدعاء يشمل هذا وهذا.

وقوله: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ يعني: إذا سألني، أو عبدني، مع أنها في السؤال ظاهرة، وفي الدعاء بينة.

والآيات في مثل ذلك كثيرة كقوله -جل وعلا- في سورة إبراهيم، فيما ذكره عن نبيه عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[مريم: ٤٨] قال الله -جل وعلا- بعدها: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[مريم: ٤٩]، فإبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾، وقال الله: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ فدل على أن الدعاء هو العبادة، والعبادة هي الدعاء. والدعاء يُفسَّر تارة بدعاء المسألة، وتارة بدعاء العبادة، وهذا حاصل من أولئك لأصنامهم وأوثانهم.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: أن عطف الدعاء علىٰ الاستغاثة من عطف العام علىٰ الخاص، أي لأن الدعاء عام. والاستغاثة دعاء المكروب فهو دعاء مخصوص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، أي لاينفعك إن دعوته ولايضرك إن تركت دعاءه.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر، أي لقوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾، أي المشركين والظلم هنا هو الشرك لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين، أي لقوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها، أي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، أي لايقدر علىٰ ذلك إلا الله.

السادسة: كون ذلك لاينفع في الدنيا مع كونه كفرا، أي دعاء غير الله لاينفع وهو كفر كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

السابعة: تفسير الآية الثالثة، أي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾.

الثامنة: أن طلب الرزق لاينبغي إلا من الله كما أن الجنة لاتطلب إلامنه. أي لقوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ فتقديم المعمول يفيد الاختصاص أي اطلبوه من عند الله لامن عند غيره.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة، أي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ...﴾ [الأحقاف:٥،٦] الآيتين.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله أي لقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه، أي لقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف:٥].

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له، أي لقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾[الأحقاف:٦].

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو، أي لقوله: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ﴾[الأحقاف:٦].

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة، أي لقوله: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾، والمعنىٰ: أنهم يتبرءون من ذلك ويجحدونه.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس، أي لقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الأحقاف:٥].

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة، أي قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[النمل:٦٢].

السابعة عشرة: الأمر العجيب: وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين، أي إنهم إذا سئلوا عن ذلك أقروا أنه لا يقدر علىٰ ذلك إلا الله، وقوله: يدعونه في الشدائد، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[العنكبوت:٦٥] الآية، فيلزمهم إفراده بالعبادة دائمًا ؛ لكونه هو القادر علىٰ ذلك لا ما عبدوه معه.

الثامنة عشرة: حماية المصطفىٰ ﷺ حمىٰ التوحيد والتأدب مع الله، أي لقوله إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله مع كونه مما يقدر عليه، ولكنه نهاهم ؛ حماية لجناب التوحيد، فكيف إذا طلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل؟

* الأسئلة *

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن الاستغاثة بالله ودعاءه من أنواع العبادة التي أمر الله بها وكل ما كان عبادة لله فصرفه لغيره شرك ينافي التوحيد.

س: عرف الاستغاثة وما الفرق بينها وبين الدعاء؟

جـ: الاستغاثة: هي طلب الغوث وهو إزالة الشدة، والفرق بينها وبين الدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، والدعاء أعم؛ لأنه يكون من المكروب وغيره.

س: كم أنواع الاستغاثة وما هي؟

جـ: أنواع الاستغاثة ثلاثة:

١ - واجبة وهي التي تطلب من الله.

٢ - محرمة وهي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كالاستغاثة بالأموات والغائبين في جلب نفع أو دفع ضر.

٣ - جائزة وهي الاستغاثة بالحي الحاضر القادر على نصرته.

س: إلى كم ينقسم الدعاء مع التعريف لكل قسم؟

جـ: ينقسم إلى قسمين:

١ - دعاء عبادة وهو التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة التي شرعها الله لعباده وأمرهم بها.

٢ - دعاء مسألة وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر.

قوله: «قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ ...﴾[يونس:١٠٦]».

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها لهذا الباب؟

جـ: يقول الله تعالى: ولا تدع يا محمد غير معبودك وخالقك شيئًا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة

ولا يضرك في دين ولا دنيا؛ يعني: بذلك الآلهة والأصنام يقول: لا تعبدها راجيًا نفعها أو خائفًا ضرها فإنها لا تضر ولا تنفع فإن فعلت ذلك ودعوتها من دون الله فإنك إذًا من الظالمين؛ أي: من المشركين.

ومناسبة الآية للباب: أنها دلت على أنه لا يجلب النفع ولا يدفع الضر إلا الله، فمن طلب ذلك من غيره فقد أشرك.

❁ **قوله:** «قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ...﴾[يونس:١٠٧]».

س: اشرح هذه الآية واذكر مناسبتها للباب؟

جـ- يخبر الله تعالى أنه المنفرد بالعطاء والمنع والضر والنفع دون سواه فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده والمعبود وحده.

ومناسبة هذه الآية للباب: أنها دلت على أن الله هو المالك للضر والنفع وحده، فمن طلب كشف الضر أو جلب النفع من غيره فقد أشرك به.

❁ **قوله:** «قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:١٧].

س: ما معنى قوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾؟

جـ: أي: اطلبوا من عند الله الرزق لا عند غيره؛ لأنه المالك له وحده.

س: ما المقصود بقوله: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾؟

جـ: أي: أخلصوا له العبادة وحده واشكروه على ما أنعم به عليكم.

س: ما معنى قوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟

جـ: أي: إليه تعادون يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله.

س: ما مناسبة هذه الآية للباب: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾؟

جـ: هي أن الله أمر بطلب الرزق من عنده وحده دون سواه؛ لأنه القادر عليه فمن طلبه من غيره ممن لا يقدر عليه فقد أشرك قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٥، ٦]

س: اشرح هذه الآية وبين مناسبتها للباب؟

جـ: نفىٰ الله -سبحانه- في هذه الآية أن يكون أحد أضل ممن يدعو غيره وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلىٰ يوم القيامة وأنه غافل عن داعيه. وأخبر أنه إذا جمع الناس ليوم القيامة في موقف الحساب كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء؛ لأنهم يتبرءون منهم ويجحدون عبادتهم إياهم.

ومناسبة الآية للباب: أن الله أخبر فيها أنه لا أضل ممن دعا غيره؛ وذلك لأنه أشرك في عبادته.

❁ **قوله:** «قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢]».

س: اشرح هذه الآية وبين وجه الدلالة منها؟

جـ: بين تعالىٰ في هذه الآية أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده، وذكر ذلك سبحانه محتجًا عليهم في اتخاذهم الآلهة والشفعاء من دونه، فإذا كانت آلهتهم لا تجيبهم في حال الاضطرار فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذي يجيب المضر إذا دعاه ويكشف السوء وحده. فوجه الدلالة أنه من طلب ذلك من غير الله فقد أشرك به.

❁ **قوله:** «وروي الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبيﷺ منافق يؤذي المؤمنين...».

س: ما المراد بهذا المنافق؟

جـ: هو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين.

س: ما المقصود ببعضهم في قوله: فقال بعضهم؟

جـ: أي: بعض الصحابة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

س: ما معنى قوله قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق؟

جـ: أي: اذهبوا بنا إليه ليصد عنا شر هذا المنافق؛ لأنه يقدر علىٰ كف أذاه إما بضرب أو بتهديد أو قتل.

س: لماذا أنكر الرسولﷺ الاستغاثة به في حياته مع أنه قادر على ذلك؟

جـ: أنكر ذلك حماية للتوحيد وسدًا لوسائل الشرك وأدبًا وتواضعًا لربه وتحذيرًا للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال.

س: اذكر الشاهد من الحديث للباب وما الذي يستفاد منه؟

جـ: الشاهد منه قوله: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله**».

ويستفاد منه: أن من دعىٰ أحدًا من المخلوقين أو استغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك الشرك الأكبر الموجب للخلود في النار عياذًا بالله من ذلك.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



الدرس الخامس عشر:

باب قول الله تعالى[٣٩٤]

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ الآية [الأعراف:١٩١، ١٩٢] .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾[٣٩٥] الآية [فاطر:١٣].

وفي «الصحيح»، عن أنسٍ قال: شُجَّ النبيﷺ يوم أحد، وكسرت رباعيته، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»، فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[٣٩٦] [آل عمران:١٢٨].

وفيه: عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول اللهﷺ يقول -إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر-: «اللهم العن فلانًا وفلانًا» بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد»، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[٣٩٧].

وفي رواية: [يدعو][٣٩٨] على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[٣٩٩].

وفيه: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قام رسول اللهﷺ حين أُنزل[٤٠٠] عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء:٢١٤]، فقال: يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من

---

(٣٩٤) في نسخة ابن باز: «باب في التوحيد وغربة الدين».

(٣٩٥) زاد في نسخة الفوزان: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝﴾[فاطر:١٤].

(٣٩٦) أخرجه البخاري تعليقًا، كتاب: المغازي، باب: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، برقم (٧/ ٣٦٦ فتح)، ووصله مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، برقم (١٧٩١)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣٩٧) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، برقم (٤٠٦٩)، وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣٩٨) ساقطة من نسخة ابن باز.

(٣٩٩) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، برقم (٤٠٧٠)، عن سالم بن عبد الله رضي الله عنهما مرسلًا.

(٤٠٠) زاد في نسخة الفوزان: «الله».

الله شيئًا. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئًا. ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنكِ من الله شيئًا(٤٠١).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

الثانية: قصة أحد.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين، وخلفه سادات الأولياء يؤمّنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار؛ منها: شجُّهم نبيهم، وحرصهم على قتله، ومنها: التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران:١٢٨] فتاب عليهم، فآمنوا.

الثامنة: القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

العاشرة: لعن المُعين في القنوت.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

الثانية عشرة: جده ﷺ في هذا الأمر؛ بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة: قوله ﷺ للأبعد والأقرب: «لا أغني عنك من الله شيئًا»، حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئًا». فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان بأنه لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم؛ تبين له ترك التوحيد وغربة الدين.



الشرح

---

(٤٠١) أخرجه البخاري، كتاب: الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب، برقم (٢٧٥٣)، ومسلم، كتاب: الأيمان، باب: في قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، برقم (٢٠٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ...﴾» الآيتين:

أراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة الرد علىٰ كل مشرك كائنًا من كان، وبيان حال المدعوين من دون الله، أنهم لا ينفعون ولا يضرون، سواء في ذلك الأنبياء والصالحون وغيرهم، وقوله: «**أيشركون**» استفهام إنكار وتوبيخ، وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله من لا يخلق شيئًا، وليس فيه ما يستحق به العبادة؛ فإنه إذا كان معبودهم لا يخلق شيئًا بطلت عبادتهم له، وتقرر أن الخالق سبحانه هو المستحق للعبادة وحده، وقوله: «**وهم يخلقون**» أي ومن أشركوه مع الله في عبادته مخلوق، والمخلوق لا يستحق أن يكون شريكاً للخالق في العبادة التي خلقهم لها، وأخبر أنهم مع ذلك «**لا يستطيعون لهم نصرًا**» أي: لمن سألهم النصرة «**ولا أنفسهم ينصرون**» وهاتان الصفتان أبلغ مما قبلهما، أي فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه، ولا نصر نفسه؟ وذلك برهان ظاهر قاطع ببطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله، فإنه إذا كان المدعو لا يقدر أن ينصر نفسه فلأن لا ينصر غيره من باب الأولىٰ، بل من هذه حاله فهو في غاية العجز، فكيف يكون إلهًا معبودًا؟ فبطل تعلق المشركين بهذه البراهين، وهي كونهم لا يخلقون بل يخلقون، عبيد لمن خلقهم لعبادته، والعبد لا يكون معبودًا، ولا قدرة لهم علىٰ نفع عابدهم، ولا علىٰ نفع أنفسهم، وخاب سعيهم، وظهر أنهم أخسر الناس صفقة.

❁ **قوله:** ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾:

أول الآية قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾[فاطر:١٣]. يخبر سبحانه أن الملك له وحده، والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره، فهو المستحق للعبادة وحده، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣]. وهو القشرة علىٰ النواة نكرة في سياق النفي، ومع دخول «من» عليه من أبلغ النفي، فمن كانت هذه صفته لا يجوز أن يرغب إليه في دفع ضر، أو جلب نفع، وأخبر أنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم، ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم، أي يجحدونه ويتنصلون منه، ويتبرءون ممن فعله معهم، ثم قال: «**ولا ينبئك**» أي: يخبرك بعواقب الأمور، ومآلها وما تصير إليه «**مثل خبير**» بها، يعني نفسه تبارك تعالىٰ، فإنه

سبحانه أخبر بالواقع لا محالة، عن حال المدعوين من الملائكة والأنبياء وغيرهم، بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي الملك وسماع الدعاء، والقدرة على الاستجابة، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته.

قوله: «**وفي الصحيح عن أنس قال: شج النبي ﷺ يوم أحد**»:

جبل معروف شرقي المدينة، كانت عنده الوقعة المشهورة، فأضيفت إليه، والشج الجرح في الرأس والوجه خاصة، وهو أن يضربه بشيء فيشق جلده، والحديث في الصحيحين، علقه البخاري عن حميد عن ثابت عن أنس، ووصله أحمد والترمذي والنسائي عن حميد عن أنس، ووصله مسلم عن ثابت عن أنس، وقد أخرج ابن إسحاق في المغازي عن أنس، قال: «**كسرت رباعية النبي ﷺ وشج وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟**» فنزلت هذه الآية»[٤٠٢] وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد أن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في وجهه، وأن عبد الله ابن قميئة جرحه في وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وأن مالك بن سنان مص الدم من وجه رسول الله ﷺ وازدرده، فقال له النبي ﷺ «**لن تمسك النار**».

قوله: «**وكسرت رباعيته**»:

الرباعية بفتح الراء وتخفيف الباء كل سن بعد ثنية، وللإنسان أربع رباعيات، قال الحافظ: كسرت فذهب منها فلقة، ولم تقلع من أصلها، وذكر ابن هشام أيضًا أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى، وجرح شفته السفلى، وجزم به غيره، وقال عليه السلام: «**اللهم لا يحول عليه الحول حتى يموت كافرًا**» فما حال عليه الحول حتى مات كافرًا إلى النار.

وروى الطبراني من حديث أبي أمامة قال: «رمى عبد الله بن قميئة رسول الله ﷺ يوم أحد، فشج وجهه، وكسر رباعيته، فقال: خذها وأنا ابن قميئة، فقال له: «**ما لك أقماك الله**» فسلط عليه تيس الجبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة». وفي الحديث إثبات وقوع الابتلاء والأسقام

---

(٤٠٢)سبق تخريجه.

بالأنبياء لينالوا جزيل الثواب، ولتعرف الأمم من أصابهم، فيتأسوا بهم، وليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون، فلا يفتتن بهم، ويغلي فيهم، فيعبدون من دون الله.

قوله: فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم»:

أي: كيف يحصل لهم الظفر والفوز والسعادة، مع فعلهم هذا بنبيهم، زاد مسلم: «**كسروا رباعيته، وأدموا وجهه**»(٤٠٣).

قوله: فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾

أي ليس لك من الحكم في عبادي شيء، وإنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم، وليس لك إلا ما أمرتك به فيهم، وليس ذلك بهوان بالنبي ﷺ على الله، فإنه أكرم خلق الله عليه، وأفضلهم على الإطلاق، ولكن ليتبين نزول قدره ﷺ عن مقام الربوبية، فإنما هو عبد الله ورسوله.

قوله: «وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما»:

أي: في «صحيح البخاري»، ورواه النسائي وغيره عن عبد الله بن عمر بن الخطاب الصحابي الجليل، الذي شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح، ففي الصحيح أنه قال لحفصة: «**إن أخاك، أو إن عبد الله رجل صالح**»(٤٠٤). وهو معروف بالورع، ليس في زمانه له نظير في ذلك، أسلم مع أبيه وهو صغير، وكان من أهل العلم، كثير الاتباع، شديد التحري والاحتياط، أجيز يوم الخندق، وأفتى ستين سنة، وبلغ ستًّا وثمانين.

قوله: «اللهم العن فلانًا وفلانًا»:

هذا القنوت على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، كما بينه في الرواية الآتية، وذلك بعد ما شج رأسه، وكسرت رباعيته يوم أحد، وأصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السبّ، وتقدم.

---

(٤٠٣) هذه الزيادة لم أقف عليها في مسلم، وإنما وقفت عليها في مسند عبد بن حميد، برقم (١٢٠٤ - منتخب).

(٤٠٤) أخرجه البخاري، كتاب: التعبير، باب: الإستبرق ودخول الجنة في المنام، برقم (٧٠١٦)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، برقم (٢٤٧٨) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

❁ **قوله:** «بعدما يقول: سمع الله لمن حمده... إلخ»:

أي: يدعو عليهم بعد التسميع، فأخبره الله أنه ليس له من الأمر شيء إلا ما أمر به، ومعنىٰ «سمع الله لمن حمده»: استجاب دعاء الحامدين له وقبله، فاستجب يا ربنا، ولك الحمد علىٰ ذلك، والحمد ضد الذم، ويكون علىٰ محاسن المحمود مع المحبة له، وفرق بينه وبين المدح بأن الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجردًا عن حب وإرادة، وهو المدح، أو يكون مقرونًا بحبه وإرادته فهو الحمد.

❁ **قوله:** «وفي رواية يدعو علىٰ صفوان بن أمية... إلخ»:

إنما دعا عليهم لأنهم رءوس المشركين يوم أحد، هم وأبو سفيان بن حرب، وأشد الناس عداوة له ﷺ وهم السبب في غالب ما جرىٰ عليه، ومع ذلك ما استجيب له ﷺ فيهم.

❁ **قوله:** فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾:

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فتاب عليهم فأسلموا، وحسن إسلامهم، والمقصود أنه ﷺ دعا في الصلاة، وهو أشرف الخلق، وخلفه الصحابة يؤمنون علىٰ دعائه، وهم صفوة الخلق بعد الرسل، ومع ذلك أنزل الله هذه الآية، فلا يبقىٰ في قلب أحد شيء من التعلق بغير الله عز وجل، فإن في هذا كله أكبر دلالة علىٰ أنه ﷺ لا يملك ولا يقدر إلا علىٰ ما أقدره الله عليه، فبطل ما يعتقده فيه المشركون أنه ينفع دعاؤه بعد موته ﷺ أو دعاء أحد من سائر الأنبياء والصالحين بهذه البراهين. قال المصنف: «**وفيه القنوت في النوازل وتسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم، ولعن المعين في القنوت**» ا. هـ.

وفيه إثبات التسميع والتحميد للإمام، ومحل القنوت بعده، وآكديته في الفجر، وإن كان قد ورد في غيره فهذا الحديث أصح.

❁ **قوله:** «وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه»:

أي: في «صحيح البخاري»، وله طرق كثيرة في «الصحيحين» والمسانيد والسنن وغيرها، عن أبي هريرة وغيره، واسم أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر، قال النووي: «علىٰ الأصح من ثلاثين قولًا، كني بهريرة كانت له في صغره، وهو أول من كني بهذا» ا هـ. وكان اسمه في الجاهلية عبد شمس، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن، وهو ابن عامر بن عبد ذي الشرىٰ بن طريف ابن عتاب الدوسي، من حُفَّاظ الصحابة وفضلائهم وأكابرهم، لم يحفظ عن رسول الله ﷺ أحد منهم أكثر منه، مات سنة ٥٧ هـ، وله ٧٨.

❁ **قوله**: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾»:

عشيرة الرجل هم بنو أبيه الأدنون، أو قبيلته؛ لأنهم أحق الناس ببره وإحسانه الديني والدنيوي، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[التحريم:٦]. وهذه نذارة خاصة، وإلا فقد أمره الله أيضًا بالنذارة العامة، كما قال ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾وقد بلغهم ما أمر بهﷺ.

وفي الصحيح من رواية ابن عباس: «صعد النبيﷺ على الصفا، وهو الجبل المعروف أسفل جبل أبي قبيس، فقال: **«يا صباحاه»** حتى اجتمع عليه ما بين أخشبي مكة، ولمسلم: فهتف: **«يا صباحاه»** فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: **«أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟»** قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**[٤٠٥]، وفي رواية: «**إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يربأ أهله، فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف يا صباحاه**»[٤٠٦].

❁ **قوله**: «**فقال: «يا معشر قريش» أو كلمة نحوها**»:

المعشر الجماعة الذين أمرهم واحد، ويتناول الأنبياء والإنس والجن، جمعه معاشر، والكلمة بالنصب عطف على ما قبلها، وهو شك من الراوي، هل قال: يا معشر قريش، أو قال ما يقارب ذلك، خاطب العامة أولا.

❁ **قوله**: «**اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا...إلخ**»:

وفي رواية: «**أنقذوا أنفسكم من النار**»[٤٠٧]. وعند الطبراني عن أبي أمامة: «**اشتروا أنفسكم من النار، واسعوا في فكاكم**»[٤٠٨]؛ أي: خلصوها بتوحيد الله، والإيمان به وبرسوله، واتباعي فيما جئتكم به،

---

(٤٠٥) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، برقم (٤٩٧١)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، برقم (٢٠٨)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤٠٦) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، برقم (٢٠٧)، وأحمد (٣/ ٤٧٦)، وغيرهما من حديث قبيصة بن المخارق رضي الله عنه.

(٤٠٧) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، برقم (٢٠٤)، والترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: تفسير سورة الشعراء، برقم (٣١٨٥)، وأحمد (٢/ ٥١٩) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٠٨) أخرجه الطبراني، برقم (٧٨٩٠) مطولًا، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٧) «رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك».

مما أنزل الله علي من توحيد الله، وإفراده بالعبادة، وترك ما كنتم تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام، فإن ذلك هو الذي ينجيكم من عذاب الله، لا الاعتماد على الأحساب والأنساب، فإن ذلك غير نافع لكم، وفي صحيح البخاري: «**يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا**»[٤٠٩]. وإنما الله -سبحانه- هو المتصرف في خلقه بما شاء، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير

✿ **قوله: «ياعباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا...إلخ»:**

عباس وصفية وفاطمة بالرفع، ويجوز النصب، وقال النووي: النصب أفصح، و«ابن» و«عمة» و«بنت» بالنصب لا غير، أخبرﷺ أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا، فأنذر الأقربين نذارة خاصة، وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا، وبلغهم وأعذر إليهم، فأنذر قريشًا ببطونها، وقبائل العرب في مواسمها، وأنذر عمه وعمته وهم أقرب الناس إليه، وإنما أفردهم لشدة قرابتهم، وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا، وأن مجرد قربهم منه غير نافع لهم، ولا منج من عذاب الله إذا لم يؤمنوا به، ويقبلوا ما جاءهم به من التوحيد وسائر شرائع الإسلام، وترك الشرك، ثم خص بالنذارة مَنْ هي بضعة منه، وقال: «**سليني من مالي ما شئت**»؛ لأن هذا هو الذي يقدر عليهﷺ، وأما ما كان من أمر الله فلا قدرة لأحد عليه، فإذا كان لا ينفع ابنته وعمه وعمته وقرابته فغيرهم بطريق الأولى والأحرى، وبين أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمان والعمل الصالح، وفيه أنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا، وأما النجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يجوز أن يطلب إلا من الله تعالى. قال المصنف: «فإذا صرحﷺ -وهو سيد المرسلين- أنه لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم، من الالتجاء إلى غير الله، وسؤاله ما لا يقدر عليه إلا الله، تبين له التوحيد وغربة الدين».

---

(٤٠٩) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾، برقم (٤٧٧١)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: باب قول الله تعالىٰ:** ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾:

هذا شروع في براهين التوحيد وأدلته، فالتوحيد له من البراهين النقلية والعقلية ما ليس لغيره فتقدم أن التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من أكبر براهينه وأضخمها. فالمتفرد بالخلق والتدبير، والمتوحد في الكمال المطلق من جميع الوجوه، هو الذي لا يستحق العبادة سواه.

وكذلك من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين، ومن عُبِدَ مع الله، فإن جميع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها، كلهم فقراء إلىٰ الله عاجزون، ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة ولا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون ولا يملكون ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، والله تعالىٰ هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وله يقصد ويصمد ويخضع كل شيء، فأي برهان أعظم من هذا البرهان؟ الذي أعاده الله وأبداه في مواضع كثيرة من كتابه وعلىٰ لسان رسوله فهو دليل عقلي فطري، كما أنه دليل سمعي نقلي علىٰ وجوب توحيد الله وأنه الحق ودليل كذلك علىٰ بطلان الشرك.

وإذا كان أشرف الخلق علىٰ الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحمًا فكيف بغيره؟ فتبًّا لمن أشرك بالله، وساوىٰ به أحدًا من المخلوقين، لقد سُلِبَ عقله بعد ما سُلِبَ دينه.

فنعوت الباري تعالىٰ وصفات عظمته وتوحده في الكمال المطلق أكبر برهان علىٰ أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

وكذلك صفات المخلوقات كلها وما هي عليه من النقص والحاجة والفقر إلىٰ ربها في كل شئونها وأنه ليس لها من الكمال، إلا ما أعطاها ربها من أعظم البراهين علىٰ بطلان إلهية شيء منها، فمن عرف الله وعرف الخلق اضطرته هذه المعرفة إلىٰ عبادة الله وحده وإخلاص الدين له والثناء عليه وحمده وشكره بلسانه وقلبه وأركانه وانصرف تعلقه بالمخلوقين خوفًا ورجاءً وطمعًا والله أعلم.

قال العلامة ابن باز:

قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾:

أرد المؤلف من هذه الترجمة بيان ما عليه أهل الشرك في عهد النبي ﷺ عندما دعاهم وقاتلهم فيبين بطلان ما هم عليه من عبادة غير الله ممن هذا وصفه.

وبهذا الوصف فإنهم لا يستحقون العبادة. وهذا استفهام للتوبيخ فهم لا يخلقون حتىٰ النملة، بل هم مخلوقون فكيف ينفعون غيرهم؟! فهم إما جماد لا يعقلون أو أحياء لا يسمعون أو أموات لا يجيبون من دعاهم وفي الآية صفات هؤلاء المعبودون من دون الله وهي أربعة:

١ - أنهم لا يخلقون شيئًا.

٢ - أنهم مخلوقون مربوبون.

٣ - أنهم لا يستطيعون لهم نصرًا.

٤ - أنهم لا ينصرون أنفسهم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣]:

وصف الله آلهتهم بأربع صفات كذلك:

١ - أنهم لا يملكون شيئًا حتىٰ القطمير.

٢ - أنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم.

٣- أنهم لو سمعوا ما استجابوا.

٤ - أنهم يكفرون يوم القيامة بشرك هؤلاء. فهذه حالة المشركين وأنهم خسروا الدنيا والآخرة.

قوله: «وفي الصحيح عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته»:

فقال: فإذا كان هذا أفضل الخلق وأقرب الناس منزلة وأفضل الأنبياء لم يستطع أن يدفع عن نفسه ولا عن أصحابه وهم أفضل القرون وإذا كان كذلك لم يستحق أن يعبد من دون الله ويشرك به معه. وما حصل يوم أحد للنبي وأصحابه بذنوبهم إنما حصل لحكمة بالغة وهو أن محمدًا وأصحابه لا يدفعون الضر عن أنفسهم فكيف يدعون فغيرهم من باب أولىٰ، والذنب هو مخالفة من كانوا علىٰ جبل الرماة أمر الرسول -عليه الصلاة والسلام- وتنازعهم.

❁ **قوله:** «وفيه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ...»:

حديث ابن عمر أنه سمع الرسول ﷺ يقول: «**اللهم العن فلانًا...**».

وقد دعا على الحارث بن هشام وصفوان بن أمية وغيرهم من صناديد قريش ثم أسلموا وهداهم الله ولم تقبل دعوته فيهم ولا لعنه لهم. فإذا كان سيد ولد آدم لم تقبل دعوته فيهم ولم يضرهم فكيف غيره؟ بل الله أعلم بأحوال عباده.

❁ **قوله:** «وفيه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ...»:

حديث أبي هريرة لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤].

«**لا أغني عنكم من الله شيئًا**»: فنفي أن تنفعهم قرابتهم له ﷺ إذا لم يؤمنوا، بل أرشدهم إلى شراء الإيمان واتباع ما جاء به الرسول وأن هذا هو طريق النجاة وهو التوحيد. وهذا هو الذي ينفعهم أما ماله فيستطيع أن ينفعهم به. فعلم أن العبادة تكون لله وحده ولا يجوز طلبها من غيره وإذا كان النبي لا يستطيع نفع أحد دون الله فغيره أولى.

وهذا فيه رد على المشركين الذين يطلبون النفع من غيرهم ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر:٣] فسمى الله فعلهم هذا عبادة وأمر نبيه بمقاتلتهم؛ لأنهم مشركون.

أما دعاء الحي القادر فلا بأس به بل هي أسباب حسية معقولة ليس لها تعلق بالغيب ولا هي متعلقة بالأموات.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا...﴾»:

مناسبة الباب لما قبله:

لما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ الاستعاذة والاستغاثة بغير الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ذكر البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله، ولهذا جعل الترجمة لهذا الباب نفس الدليل، وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ ثلاث آيات:

الآية الأولى والثانية قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ أي: يشركونه مع الله.

❁ **قوله:** ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾:

هنا عبر بـ ﴿مَا﴾ دون «من»، وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾[الأحقاف:٥] عبر بـ ﴿مَنْ﴾.

والمناسبة ظاهرة؛ لأن الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل، أما هنا؛ فالمدعو جماد؛ لأن الذي لا يخلق شيئًا ولا يصنعه جماد لا يفيد.

قوله: ﴿شَيْئًا﴾: نكرة في سياق النفي؛ فتفيد العموم.

قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾:

وصف هذه الأصنام بالعجز والنقص.

والرب المعبود لا يمكن أن يكون مخلوقًا، بل هو الخالق؛ فلا يجوز عليه الحدوث ولا الفناء.

والمخلوق: حادث، والحادث يجوز عليه العدم؛ لأن ما جاز انعدامه أولًا، جاز عقلًا انعدامه آخرًا.

فكيف يُعبَد هؤلاء من دون الله؛ إذ المخلوق هو بنفسه مفتقر إلىٰ خالقه وهو حادث بعد أن لم يكن؛ فهو ناقص في إيجاده وبقائه؟!

إشكال وجوابه:

قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ الضمير بالإفراد، وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الضمير بالجمع؛ فما الجواب؟

أجيب: بأن قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ عاد الضمير علىٰ ﴿مَا﴾ باعتبار اللفظ؛ لأن ﴿مَا﴾ اسم موصول، لفظها مفرد، لكن معناها الجمع؛ فهي صالحة بلفظها للمفرد، وبمعناها للجمع؛ كقوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ [الأحقاف:٥].

وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ عاد الضمير علىٰ ﴿مَا﴾ باعتبار المعنىٰ؛ كقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾؛ أي: لا يقدرون علىٰ نصرهم لو هاجمهم عدو؛ لأن هؤلاء المعبودين قاصرون.

والنصر: الدفع عن المخذول بحيث ينتصر علىٰ عدوه.

قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾:

بنصب أنفسهم علىٰ أنه مفعول مقدم، وليس من باب الاشتغال؛ لأن العامل لم يشتغل بضمير السابق؛ أي: زيادة علىٰ ذلك هم عاجزون عن الانتصار لأنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم؟!

فبين الله عجز هذه الأصنام، وأنها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه، هي:

١- أنها لا تخلق، ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد.

٢- أنهم مخلوقون من العدم؛ فهم مفتقرون إلىٰ غيرهم ابتداءً ودوامًا.

٣- أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أبلغ من قوله: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؛ لأنه لو قال: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾، فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون، لكن لما قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ كان أبلغ لظهور عجزهم.

٤- أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم.

الآية الثالثة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [فاطر:١٣].

يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، و﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: سوىٰ الله.

قوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾: ﴿مَا﴾: نافية، ﴿مِن﴾ حرف جر زائد لفظًا، وقيل: لا ينبغي أن يقال: حرف جر زائد في القرآن، بل يقال: من: حرف صلة، وهذا فيه نظر؛ لأن الحروف الزائدة لها معنىٰ، وهو التوكيد، وإنما يقال: زائد من حيث الإعراب، وجملة ﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿وَالَّذِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾: القطمير: سلب نواة التمرة.

وفي النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في القرآن لبيان حقارة الشيء.

القطمير: وهو اللفافة الرقيقة التي علىٰ النواة.

الفتيل: وهو سلك يكون في الشق الذي في النواة.

النقير: وهي النقرة التي تكون علىٰ ظهر النواة.

فهؤلاء لا يملكون من قطمير، فإن قيل: أليس الإنسان يملك النخل كله كاملًا؟

أُجيب: إنه يملكه، ولكنه ملك ناقص ليس حقيقيًّا؛ فلا يتصرف فيه إلا علىٰ حسب ما جاء به الشرع، فلا يملك مثلًا إحراقه للنهي عن إضاعة المال.

قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾:

جملة شرطية، تدعو: فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، وأصلها: تدعونهم.

قوله: ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل.

قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أي: إن هذه الأصنام لو دعوتموها ما سمعت، ولو فرض أنها سمعت ما استجابت؛ لأنها لا تقدر على ذلك، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾[مريم:٤٢].

فإذا كانت كذلك؛ فأي شيء يدعو إلى أن تدعى من دون الله؟! بل هذا سفه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[البقرة:١٣٠].

قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر:١٤] هو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[الأحقاف:٦].

فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون، فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيرًا والمسيح.

وإن كانوا أحجارًا وأشجارًا ونحوها؛ فيحتمل أن يشملها ظاهر الآية، وهو أن الله يأتي بهذه الأحجار ونحوها، فتكفر بشرك من يشرك بها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء:٩٨]، وما ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ: «**أنه عند بعث الناس يقال لكل أمة: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من دون الله**»[٤١٠] فالحجر يكون أمامهم يوم القيامة، ويكون له كلام ينطق به، ويكفر بشركهم، فإذا كانت المعبودات تُحضر وتُحصب في النار إهانةً لعابديها وتحضر لِتُتْبَع إلى النارِ، فلا غرو أن تكفر بعابديها إذا أحضرت.

قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٤]: هذا مثالٌ يضرب لمن أخبر بخبر ورأى شكًّا عند من خاطبه به، فيقول: ولا ينبئك مثل خبير؛ ومعناه: إنه لا يخبرك بالخبر مثل خبير به، وهو الله؛ لأنه لا يعلم أحد ما يكون في يوم القيامة إلا الله، وخبره خبر صدق؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[النساء:١٢٢]. والخبير: العالم ببواطن الأمور.

---

(٤١٠) أخرجه البخاري، كتاب: صفة الصلاة، باب: فضل السجود، برقم (٨٠٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، برقم (١٨٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مسألة:

هل يسمع الأموات السلام ويردونه علىٰ من سلم عليهم؟

اختلف في ذلك علىٰ قولين:

القول الأول: أن الأموات لا يسمعون السلام، وأن قول النبيﷺ حين زيارة القبور: «**السلام عليكم**» دعاء لا يقصد به المخاطبة، ثم علىٰ فرض أنهم يسمعون كما جاء الحديث الذي صححه ابن عبد البر وأقره ابن القيم: «**بأن الإنسان إذا سلم علىٰ شخص يعرفه في الدنيا رد الله عليه روحه فرد السلام**»[٤١١] وعلىٰ تقدير صحة هذا الحديث إذا كانوا يسمعون السلام ويردونه؛ فلا يلزم أن يسمعوا كل شيء، ثم لو فرض أنهم يسمعون غير السلام؛ فإن الله صرح بأن المدعوين من دون الله لا يسمعون دعاء من يدعونهم؛ فلا يمكن أن نقول: إنهم يسمعون دعاء من يدعونهم؛ لأن هذا كفر بالقرآن، فتبين هذا أنه لا تعارض بين قولهﷺ: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**»[٤١٢] وبين هذه الآية.

وأما قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾، فمعناه: لو سمعوا فرضًا ما استجابوا لكم؛ لأنهم لا يستطيعون.

القول الثاني: أن الأموات يسمعون. واستدلوا علىٰ ذلك بالخطاب الواقع في سلام الزائر لهم بالمقبرة.

وبما ثبت في «الصحيح» من أن المشيعين إذا انصرفوا سمع المشيع قرع نعالهم.[٤١٣]

والجواب عن هذين الدليلين: أما الأول؛ فإنه لا يلزم من السلام عليهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلمون علىٰ النبيﷺ في حياته في التشهد[٤١٤] وهو لا يسمعهم قطعًا.

أما الثاني؛ فهو وارد في وقت خاص، وهو انصراف المشيعين بعد الدفن، وعلىٰ كل، فالقولان متكافئان، والله أعلم بالحال.

---

(٤١١)أخرجه ابن عبد البر في «الاستذكار» (١/ ١٨٥) ط. دار الكتب العلمية — بيروت.

(٤١٢)أخرجه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، برقم (٢٤٩)، وأبو داود، كتاب: الجنائز، باب: ما يقول إذا زار القبور أو مر بها، برقم (٣٢٣٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤١٣)أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، برقم (١٣٧٤)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٧٠)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤١٤)أحاديث التشهد كثيرة يُنظَر مواضعها في كتب السنة.

قوله: «وفي الصحيح»:

سبق الكلام على مثل هذا التعبير في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلاّ الله.

قوله: «أحد»: جبل معروف شمالي المدينة، ولا يقال: المنورة؛ لأن كل بلد دخله الإسلام فهو منور بالإسلام؛ ولأن ذلك لم يكن معروفًا عند السلف، وكذلك جاء اسمها في القرآن بالمدينة فقط، لكن لو قيل: المدينة النبوية لحاجة تمييزها؛ فلا بأس، وهذا الجبل حصلت فيه وقعة في السنة الثالثة من الهجرة في شوال هُزِمَ فيها المسلمون بسبب ما حصل منهم من مخالفة أمر النبيﷺ، كما أشار الله إلىٰ ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران:١٥٢]، وجواب الشرط محذوف تقديره: حصل لكم ما تكرهون.

وقد حصلت هزيمة المسلمين لمعصية واحدة، ونحن الآن نريد الانتصار والمعاصي كثيرة عندنا، ولهذا لا يمكن أن نفرح بنصرٍ ما دمنا علىٰ هذه الحال؛ إلا أن يرفق الله بنا ويصلحنا جميعًا.

قوله: «شج»: الشجة: الجرح في الرأس والوجه خاصة.

قوله: «وكسرت رباعيته»: السنان المتوسطان يسميان ثنايا، وما يليهما يسميان رباعيتين.

قوله: «فقال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»:

الاستفهام يُراد به الاستبعاد؛ أي: بعيد أن يُفلح قوم شجوا نبيهم.

قوله: «يُفلح» من الفلاح وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

قوله: «فنزلت: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]»؛ أي: نزلت هذه الآية، والخطاب فيها للرسولﷺ. و﴿شَيۡءٌ﴾: نكرة في سياق النفي؛ فتعم.

قوله: ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ أي: الشأن، والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلىٰ خالقهم، حتىٰ النبيﷺ ليس له فيهم شيء. ففي الآية خطاب للرسولﷺ وقد شج وجهه، وكسرت رباعيته، ومع ذلك ما عذره الله -سبحانه- في كلمة واحدة: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»، فإذا كان الأمر كذلك؛ فما بالك بمن سواه؟ فليس لهم من الأمر شيء؛ كالأصنام، والأوثان، والأولياء، والأنبياء، فالأمر كله لله وحده، كما أنه الخالق وحده، والحمد لله الذي لم يجعل أمرنا إلىٰ أحد سواه؛ لأن المخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يملك لغيره؟!

ونستفيد من هذا الحديث أنه يجب الحذر من إطلاق اللسان فيما إذا رأىٰ الإنسان مبتلىٰ بالمعاصي؛ فلا نستبعد رحمة الله منه، فإن الله تعالىٰ قد يتوب عليه.

فهؤلاء الذين شجوا نبيهم لما استبعد النبي ﷺ فلاحهم؛ قيل له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

والرجل المطيع الذي يمر بالعاصي من بني إسرائيل ويقول: «**والله؛ لا يغفر الله لفلان. قال الله له: من ذا الذي يتألىٰ عليّ أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك**»؛(٤١٥) فيجب علىٰ الإنسان أن يمسك اللسان؛ لأن زلته عظيمة، ثم إننا نشاهد أو نسمع قومًا كانوا من أكفر عباد الله وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله، فإذا كان كذلك، فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عتاة؟!

وما دام الإنسان لم يمت؛ فكل شيء ممكن، كما أن المسلم -نسأل الله الحماية- قد يزيغ قلبه لما كان فيه من سريرة فاسدة.

فالمهم أن هذا الحديث يجب أن يتخذ عبرة للمعتبر في أنك لا تستبعد رحمة الله من أي إنسان كان عاصيًا.

قوله: «**فنزلت**»: الفاء للسببية، وعليه؛ فيكون سبب نزول هذه الآية هذا الكلام: «**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟**».

قوله: «**وفيه**»؛ أي: الصحيح.

❁ **قوله: «إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر»**:

قيد مكان الدعاء من الصلوات بالفجر، ومكانه من الركعات بالأخيرة، ومكانه من الركعة بما بعد الرفع من الركوع.

قوله: «**يقول: اللهم العن فلانًا وفلانًا**»: اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله؛ أي: أبعدهم عن رحمتك، واطردهم منها.

و«**فلانًا وفلانًا**»: بينه في الرواية الثانية أنهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام.

قوله: «**بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد**»؛ أي: يقول ذلك إذا رفع رأسه وقال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد.

قوله: «**فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾**»: هنا قال: «**فأنزل**»، وفي الحديث السابق قال: «**فنزلت**»، وكلها بالفاء، وعلىٰ هذا يكون سبب نزول الآية دعوة النبي ﷺ علىٰ هؤلاء، وقوله: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**»، ولا مانع أن يكون لنزول الآية سببان.

---

(٤١٥) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله، برقم (٢٦٢١)، وغيره من حديث جندب رضي الله عنه.

وقد أسلم هؤلاء الثلاثة وحسن إسلامهم ﷺ، فتأمل الآن أن العداوة قد تنقلب ولاية؛ لأن القلوب بيد الله سبحانه وتعالىٰ، ولو أن الأمر كان علىٰ ظن النبي ﷺ، لبقي هؤلاء علىٰ الكفر حتىٰ الموت، إذ لو قبلت الدعوة عليهم، وطردوا عن الرحمة؛ لم يبق إلا العذاب.

ولكن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء؛ فالأمر كله لله، ولهذا هدىٰ الله هؤلاء القوم، وصاروا من أولياء الله الذابِّين عن دينه، بعد أن كانوا من أعداء الله القائمين ضده، ولله - سبحانه- يمن علىٰ من يشاء من عباده.وليس بعيدًا من ذلك قصة أصيرم بن عبد الأشهل الأنصاري، حيث كان معروفًا بالعداوة لما جاء به الرسول ﷺ، فلما جاءت وقعة أحد ألقىٰ الله الإسلام في قلبه دون أن يعلم به النبي ﷺ أو أحد من قومه، وخرج للجهاد وقتل شهيدًا، فلما انتهت المعركة جعل الناس يتفقدون قتلاهم؛ فإذا هو في آخر رمق، فقالوا: ما جاء بك يا فلان؟ أحدب علىٰ قومك، أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ فأخبروا عني رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «**هو من أهل الجنة**»؛ فهذا الرجل لم يصل لله ركعة واحدة، ومع هذا جعله الله من أهل الجنة؛ فالله حكيم يهدي من يشاء لحكمة، ويضل من يشاء لحكمة؛ فالمهم أننا لا نستبعد رحمة الله ﷻ من أي إنسان.

❁ **قوله**: «قام»:

أي: خطيبًا.

قوله: «**أنزل عليه**»؛ أي: أنزل عليه بواسطة جبريل: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قوله: ﴿وَأَنذِرۡ﴾؛ أي: حذِّر وخوِّف، والإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

قوله: ﴿عَشِيرَتَكَ﴾؛ العشيرة: قبيلة الرجل من الجد الرابع فما دون.

قوله: ﴿ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾؛ أي: الأقرب فالأقرب، فأول من يدخل في عشيرة الرجل أولاده، ثم آباؤه، ثم إخوانه، ثم أعمامه، وهكذا.

ويؤخذ من هذا أن الأقرب فالأقرب أولىٰ بالإنذار؛ لأن الحكم المعلق علىٰ وصف يقوىٰ بقوة هذا الوصف، وذلك أن الوصف الموجب للحكم كلما كان أظهر وأبين، كان الحكم فيه أظهر وأبين.

وقوله: «**حين أُنزل عليه**» يفيد أنه لم يتأخر ﷺ، بل قام، فقال: «**يا معشر قريش!**»؛ أي: يا جماعة قريش. وقريش: هو فهر بن النضر بن مالك، أحد أجداد الرسول ﷺ.

قوله: «أو كلمة نحوها»:

أي: أو قال كلمة نحوها؛ أي: شبهها، وهذا من احتراز الرواة أنهم إذا شكوا أدنىٰ شك قالوا: أو كما قال، أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك! وعليه فـ«أو»: للشك والتردد.

قوله: «**اشتروا أنفسكم**»؛ أي: أنقذوها؛ لأن المشتري نفسه كأنه أنقذها من هلاك، والمشتري راغب، ولهذا عبر بالاشتراء كأنه يقول: اشتروا أنفسكم راغبين.

وفي قوله: «**اشتروا أنفسكم**» من الحض علىٰ هذا الأمر ما هو ظاهر؛ لأن المشتري يكون راغبًا.

قوله: «لا أغني عنكم من الله شيئًا»:

هذا هو الشاهد، أي: لا أدفع أو لا أنفع؛ أي: لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شيء أراده الله لكم؛ لأن الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك؛ فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

قوله: «**شيئًا**»، نكرة في سياق النفي؛ فتعم أي شيء.

قوله: «يا عباس بن عبد المطلب»:

هو عم النبي ﷺ وعبد المطلب جد النبي ﷺ وعباس؛ بالضم؛ لأن المنادىٰ إذا كان معرفة يبنىٰ علىٰ الضم، ونعته إذا كان مضافًا ينصب، وهنا ابن عبد المطلب مضاف، ولهذا نصب.

فإن قيل: كيف يقول النبي ﷺ: عبد المطلب مع أنه لا يجوز أن يضاف عبد إلا إلىٰ الله ﷻ؟

فالجواب: إن هذا ليس إنشاء، بل هو خبر؛ فاسمه عبد المطلب، ولم يسمه النبي ﷺ، لكن اشتهر بعبد المطلب، ولهذا انتمىٰ إليه الرسول ﷺ فقال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب[٤١٦]

فلو فرض أن لك أبًا يسمىٰ عبد المطلب، أو عبد العزىٰ؛ فإنك تنتسب إليه، ولا يعد هذا إقرارًا، ولكنه خبر عن أمر واقع؛ كما لو قلت: كفر فلان، نافق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجودًا غيرنا اسمه إذا كان لا يجوز.

---

(٤١٦) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: بغلة النبي ﷺ البيضاء، برقم (٢٨٧٤)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين، برقم (١٧٧٦)، وغيرهما من حديث البراء رضي الله عنه.

قوله: «**لا أغني عنك من الله شيئًا**»؛ أي: لا أنفعك بشيء دون الله، ولا أمنعك من شيء أراده الله لك؛ فالنبيﷺ لا يُغني عن أحد شيئًا حتىٰ عن أبيه وأمه.

قوله: «يا صفية عمة رسول الله!»:

يقال في إعرابها كما قيل في عباس بن عبد المطلب.

قوله: «**يا فاطمة بنت محمد! سليني من مالي ما شئت**»؛ أي: اطلبي من مالي ما شئت؛ فلن أمنعك؛ لأنهﷺ مالك لماله، ولكن بالنسبة لحق الله قال: «**لا أغني عنك من الله شيئًا**».

فهذا كلام النبيﷺ لأقاربه الأقربين: عمه، وعمته، وابنته، فما بالك بمن هم أبعد؟! فعدم إغنائه عنهم شيئًا من باب أولىٰ، فهؤلاء الذين يتعلقون بالرسولﷺ ويلوذون به ويستجيرون به الموجودون في هذا الزمن وقبله قد غرهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق؛ لأنهم تعلقوا بما ليس بمتعلق؛ إذ الذي ينفع بالنسبة للرسولﷺ هو الإيمان به واتباعه.

أما دعاؤه والتعلق به ورجاؤه فيما يؤمل، وخشيته فيما يخاف منه؛ فهذا شرك بالله، وهو مما يبعد عن الرسولﷺ، وعن النجاة من عذاب الله.

ففي الحديث امتثال النبيﷺ لأمر ربه في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]، فإنه قام بهذا الأمر أتم القيام؛ فدعا وعم وخصص، وبيَّن أنه لا ينجي أحدًا من عذاب الله بأي وسيلة، بل الذي ينجي هو الإيمان به واتباع ما جاء به.

وإذا كان القرب من النبيﷺ لا يغني عن القريب شيئًا؛ دل ذلك علىٰ منع التوسل بجاه النبيﷺ؛ لأن جاه النبيﷺ لا ينتفع به إلا النبيﷺ، ولهذا كان أصح قولي أهل العلم تحريم التوسل بجاه النبيﷺ.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير الآيتين: وهما آيتا الأعراف، وسبق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيهما للتوبيخ والإنكار، وكذلك سبق تفسير الآية الثالثة آية فاطر.

الثانية: قصة أحد؛ يعني: حيث شج النبيﷺ... الحديث.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين... إلخ، أراد المؤلف بهذه المسألة أن النبيﷺ سيد المرسلين، وأصحابه سادات الأولياء، ومع هذا ما أنقذوا أنفسهم؛ فكيف ينقذون غيرهم؟! وليس مرادهرَحِمَهُ ٱللَّهُ مجرد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيد وسادات؛ فلا أحد من

هذه الأئمة أقرب إلى الله من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجئون إلى الله -سبحانه- في كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله، فكيف يمكن أن يلجأ إليه في كشف الكربات؟ فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فهذا دليل على أنهم الآن ليسوا على حال مرضية، ومن المعلوم أن صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث ابن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفارًا.

وهذه المسألة -أي أن المدعو عليهم كفار- ترمي إلى أن الرسول ﷺ وإن كان يرى أنه دعا عليهم بحق؛ فقد قطع الله -سبحانه وتعالى- أن يكون له من الأمر شيء؛ لأنه قد يقول قائل: إذا كانوا كفارًا، أليس يملك الرسول ﷺ أن يدعو عليهم؟.

نقول: حتى في هذه الحال لا يملك من أمرهم شيئًا، هذا وجه قول المؤلف أن المدعو عليهم كفار، وليس مراده الإعلام بكفرهم؛ لأن هذا معلوم لا يستحق أن يُعَنْونَ له، بل المراد في هذه الحال الذي كان هؤلاء كفارًا لم يملك النبي ﷺ شيئًا بالنسبة إليهم.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، أي: أنهم مع كفرهم كانوا معتدين، ومع ذلك قيل له في حقهم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وإلا؛ فهم شجوا النبي ﷺ، ومثلوا بالقتلى مثل حمزة بن عبد المطلب، وكذلك أيضًا حرصوا على قتل النبي ﷺ، مع أن كل هؤلاء فيهم من بني عمهم، وفيهم من الأنصار.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: مع ما تقدم من الأمور التي تقتضي أن يكون للنبي ﷺ حق بأن يدعو عليهم أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ اللَّهُ شَيْءٌ﴾؛ فالأمر لله وحده، فإذا كان الرسول ﷺ قد قُطع عنه هذا الشيء؛ فغيره من باب أولى.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فتاب عليهم، فآمنوا، وهذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته، فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وآمنوا؛ لأن الأمر كله بيده سبحانه، وهو الذي يذل من يشاء ويعز من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر رضي الله عنه قبل إسلامه من العداوة الظاهرة للإسلام، وما جرى منه بعد إسلامه من الولاية والنصرة لدين الله تعالى، فرسول الله ﷺ ومَنْ دونه لا يستطيعون أن يغيروا شيئًا من أمر الله.

الثامنة: القنوت في النوازل، وهذه هي المسألة الفقهية، فإذا نزل بالمسلمين نازلة؛ فإنه ينبغي أن يدعىٰ لهم حتىٰ تنكشف.

وهذا القنوت مشروع في كل الصلوات؛ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه أحمد وغيره [٤١٧] إلا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لا يقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر رضي الله عنه ولم يقنت؛ ولأنه شهادة؛ فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة.

وظاهر السنة أن القنوت إنما يشرع في النوازل التي تكون من غير الله، مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أما ما كان من فعل الله؛ فإنه يشرع له ما جاءت به السنة، مثل الكسوف؛ فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات، والجدب يشرع له الاستسقاء، وهكذا.

وما علمت لساعتي هذه أن القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يُدعىٰ له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضيق علىٰ المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك؛ فإنه يقنت اتباعًا للسنة في هذا الأمر.

ثم من الذي يقنت: الإمام الأعظم، أو إمام كل مسجد، أو كل مصلٍّ؟

المذهب: أن الذي يقنت هو الإمام الأعظم فقط الذي هو الرئيس الأعلىٰ للدولة.

وقيل: يقنت كل إمام مسجد.

وقيل: يقنت كل مصل، وهو الصحيح؛ لعموم قول النبي ﷺ «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» [٤١٨].

وهذا يتناول قنوته ﷺ عند النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم: وهم: صفوان بن أمية، وسهيل ابن عمرو، والحارث بن هشام؛ فسماهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هل هذا مشروع أو جائز؟

الجواب: هذا جائز، وعليه، فإذا كان في تسمية المدعو عليهم مصلحة؛ كانت التسمية أولىٰ، ولو دعا إنسان لأناس معينين في الصلاة جاز؛ لأنه لا يُعد من كلام الناس، بل هو دعاء، والدعاء

---

(٤١٧) أخرجه أبو داود، كتاب: سجود القرآن، باب: القنوت في الصلاة، برقم (١٤٤٣)، وأحمد (١/ ٣٠١)، وابن خزيمة، برقم (٦١٨)، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «المشكاة»، برقم (١٢٩٠)، «صحيح أبي داود».

(٤١٨) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، برقم (٦٠٠٨)، وغيره من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

مخاطبة الله تعالىٰ، ولا يدخل في عموم قوله ﷺ: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس**»(٤١٩).

مسألة: هل الذي نهي عنه الرسول ﷺ الدعاء أو لعن المعينين؟

الجواب: المنهي عنه هو لعن الكفار في الدعاء علىٰ وجه التعيين، أما لعنهم عمومًا، فلا بأس به، وقد ثبت عن أبي هريرة أنه كان يقنت ويلعن الكفرة عمومًا، ولا بأس بدعائنا علىٰ الكافر بقولنا: اللهم! أرح المسلمين منه، واكفهم شره، واجعل شره في نحره، ونحو ذلك.

أما الدعاء بالهلاك لعموم الكفار؛ فإنه محل نظر، ولهذا لم يدع النبي ﷺ علىٰ قريش بالهلاك، بل قال: «**اللهم عليك بهم، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»(٤٢٠) وهذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلىٰ الله عن ظلمه.

فالمهم أن الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندي تردد فيه. وقد يستدل بدعاء خبيب حيث قال: «**اللهم أحصهم عددًا، ولا تبق منهم أحدًا**»(٤٢١) علىٰ جواز ذلك؛ لأنه وقع في عهد الرسول ﷺ.

ولأن الأمر وقع كما دعا؛ فإنه ما بقي منهم أحد علىٰ رأس الحول، ولم ينكر الله تعالىٰ ذلك، ولا أنكره النبي ﷺ، بل إن إجابة الله دعاءه يدل علىٰ رضاه به وإقراره عليه.

فهذا قد يستدل به علىٰ جواز الدعاء علىٰ الكفار بالهلاك، لكن يحتاج أن يُنظر في القصة، فقد يكون لها أسباب خاصة لا تتأتىٰ في كل شيء.

ثم إن خبيبًا دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار لا لجميع الكفار.

---

(٤١٩) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، برقم (٥٣٧)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: تشميت العاطس في الصلاة، برقم (٩٣٠) وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٤٢٠) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد، برقم (٨٠٤)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة...، برقم (٦٧٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٢١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: هل يستأسر الرجل؟ ومن لم يستأسر ومن ركع ركعتين عند القتل، برقم (٣٠٤٥)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفيه أيضًا إن صح الحديث: دعاؤه علىٰ عتبة بن أبي لهب: «**اللهم! سلط عليه كلبًا من كلابك**»[٤٢٢] فيه دليل علىٰ الدعاء بالهلاك، لكن هذا علىٰ شخص معين لا علىٰ جميع الكفار.

العاشرة: لعن المعين في القنوت، هذا غريب، فإن أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا أمر وقع، ثم نهي عنه؛ فلا إشكال، وإن أراد أنه يستفاد من هذا جواز لعن المعين في القنوت أبدًا، فهذا فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ نهي عن ذلك.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾: وهي أنه لما نزلت عليه الآية نادىٰ قريشًا؛ فعم، ثم خصّ، فامتثل أمر الله في هذه الآية.

الثانية عشرة: جده ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلىٰ الجنون؛ أي: اجتهاده ﷺ في هذا الأمر، بحيث قالوا: إن محمدًا جن، كيف يجمعنا وينادينا هذا النداء؟!

وقوله: «**وكذلك لو يفعله مسلم الآن**»؛ أي: لو أن إنسانًا جمع الناس، ثم قام يحذرهم كتحذير النبي ﷺ؛ لقالوا: مجنون؛ إلا إذا كان معتادًا عند الناس، قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران:١٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[النور:٤٤]، فهذا يختلف باختلاف البلاد والزمان، ثم إنه يجب علىٰ الإنسان أن يبذل جهده واجتهاده في الدعوة إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والنبي ﷺ قام بهذا الأمر ولم يبال بما رُمي به من الجنون.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «لا أغنىٰ عنك من الله شيئًا»، صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما قال؛ فإنه إذا كان هذا القائل سيد المرسلين، وقاله لسيدة نساء العالمين، ثم نحن نؤمن أن الرسول ﷺ لا يقول إلا الحق، وأنه لا يغني عن ابنته شيئًا، تبين لنا الآن أن ما يفعله خواص الناس ترك للتوحيد؛ لأنه يوجد أناس خواص يرون أنفسهم علماء، ويراهم من حولهم علماء وأهلًا للتقليد، يدعون الرسول ﷺ لكشف الضر وجلب النفع دعوة صريحة، ويرددون:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وغير ذلك من الشرك، وإذا أنكر عليهم ذلك ردوا علىٰ المنكر بأنه لا يعرف حق الرسول ﷺ ومقامه عند الله، وأنه سيد الكون، وما خلقت الجن والإنس إلا من أجله، وأنه خلق من نور العرش، ويُلبِّسُون بذلك علىٰ العامة؛ فيصدقهم البعض لجهلهم، ولو جاءهم من يدعوهم إلىٰ

---

(٤٢٢) أخرجه الحاكم، برقم (٣٩٨٤)، والحارث، برقم (٥١١-بغية) من حديث أبي نوفل ابن أبي عقرب عن أبيه.

التوحيد لم يستجيبوا له؛ لأن سيدهم وعالمهم على خلاف التوحيد، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾[البقرة:١٤٥]، ثم إن المؤمن عاطفته وميله للرسول ﷺ أمر لا ينكر، لكن الإنسان لا ينبغي له أن يحكِّم العاطفة، بل يجب عليه أن يتبع ما دل عليه الكتاب والسنة وأيده العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات.

ولهذا نعىٰ الله -سبحانه- علىٰ الكفار الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم بأنهم لا يعقلون، وكلام المؤلف حق؛ فإن من تأمل ما عليه الناس اليوم في كثير من البلدان الإسلامية تبين له ترك التوحيد وغربة الدين.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: باب قوله تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف:١٩١، ١٩٢]:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين فيه الأدلة علىٰ بطلان الشرك وبيان حال المدعون من دون الله، وفي ذلك تقرير للتوحيد بالبراهين القاطعة.

﴿أَيُشْرِكُونَ﴾: استفهام إنكارٍ وتوبيخٍ علىٰ من يشرك في العبادة مع الله.

﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: مخلوقات لا تقدر علىٰ الخلق وليس فيها ما تستحق به العبادة.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: وهؤلاء المعبودون مخلوقون محدثون والمخلوق لا يكون شريكًا للخالق.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾؛ أي: وهؤلاء المعبودون لا يقدرون علىٰ نصر عابديهم.

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾: أي ولا يقدرون علىٰ أن يدفعوا عن أنفسهم من أراد بهم ضرًّا فكيف يدفعونه عن غيرهم.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يوبخُ الله سبحانه وتعالىٰ المشركين بأنهم يعبدون معه معبودات لا تخلق شيئًا وليس فيها ما تستحق العبادة به ولا تدفع الضرَّ عمن دعاها، بل ولا تدفعه عن أنفسها وإذا كانت هذه حالتهم بطلت دعوتهم؛ لأن المخلوق لا يكون شريكًا للخالق، والعاجز لا يكون شريكًا للقادر الذي لا يعجزه شيء.

ما يستفاد من الآية:

١- بطلان الشرك من أساسه؛ لأنه تعلق علىٰ مخلوقٍ عاجزٍ.

٢- أن الخالق هو المستحق للعبادة.

٣- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

٤- مشروعية محاجّة المشركين لنصر الحق وقمع الباطل.

❁ **قوله**: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾:

أي: الذين تدعونهم غير الله: من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها.

﴿قِطْمِيرٍ﴾: القطمير هو اللفافة التي تكون على نواة التمر.

﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾: لأنهم أمواتٌ أو ملائكة مشغولون بما خلقوا له.

﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾: لا يقدرون على ما تطلبون منهم.

﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: ينكرونه ويتبرءون ممن أشرك بهم مع الله.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾: يخبرك بعواقب الأمور ومآلها.

﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: عالم بها وهو الله سبحانه وتعالى.

المعنى الإجمالي للآية:

يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الشروط التي لابد أن تكون في المدعو، وهي: ملك ما طلب منه، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى عدم شرط بطل أن يكون مدعوًّا فكيف إذا عدمت كلها.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها البرهان القاطع على بطلان الشرك والردَّ على المشركين.

ما يستفاد من الآية:

١- بطلان الشرك بالدليل القاطع والبرهان الواضح.

٢- بيان الشروط التي يجب توافرها في المدعو المستغاث به وهي:

أ- ملكه لما طلب منه.

ب- سماعه لدعاء من دعاه.

جـ- القدرة على إجابته.

٣- أنَّ العقيدة مبناها على البرهان واليقين لا على الظنِّ والتخرُّص والتقليد الأعمى.

٤- إثباتُ علمِ الله بعواقب الأمور.

❁ **قوله**: «في الصحيح»:

أي: الصحيحين.

«**شُجَّ**»: الشجة الجرح في الرأس والوجه خاصة.

«**أحد**»: جبل معروف شمالي المدينة كانت عنده الوقعة المشهورة فنسبت إليه.

«**الرباعية**»: هي السن التي بعد الثنية، والإنسان له أربع رباعيات.

«**كيف يفلح قوم... إلخ**»؛ أي: كيف يحصل لهم الفوز والظفر والسعادة مع فعلهم هذا بنبيهم.

«**من الأمر**» من الحكم في العباد.

المعنى الإجمالي للحديث:

يخبر أنس عما حصل للنبي ﷺ في وقعة أحد من الابتلاء والامتحان على أيدي أعدائه من الإصابة في موضعين من جسده الشريف فكأنه ﷺ لحقه يأس من فلاح كفار قريش فقيل له بسبب ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

أي: عواقب الأمور وحكم العباد بيد الله فامض أنت لشأنك ودم على دعوتك.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه دليلًا على بطلان الشرك بالأولياء والصالحين؛ لأنَّه إذا كان الرسولُ ﷺ لم يدفع عن نفسه الضرَّ، وليس له من الأمر شيء، فغيره من باب أولى.

ما يستفاد من الحديث:

١- بطلان الشرك بالأولياء والصالحين؛ لأنَّه إذا كان النبي ﷺ لا يملك من الأمر شيئًا فغيره من باب أولى.

٢- وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٣- وجوب إخلاص العبادة لله؛ لأنه هو الذي له الأمر وحده.

٤- مشروعية الصبر وتحمل الأذى والضرر في سبيل الدعوة إلى الله.

٥- النهي عن اليأس من رحمة الله ولو فعل الإنسان ما فعل من المعاصي التي هي دون الشرك.

❁ **قوله: «ابن عمر»:**

هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما صحابي جليل من عُبّاد الصحابة وعلمائهم مات سنة ٧٣هـ.

«وفيه»؛ أي: في الصحيح والمراد به «صحيح البخاري».

«أنه سمع رسول الله»؛ أي: بعد ما شج وكسرت رباعيته يوم أحدٍ.

«اللهمَّ العن»؛ أي: اطرد وأبعد من رحمتك.

«فلانًا وفلانًا»: منهم صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام.

«سمع الله لمن حمده»: أجاب الله من حمده وتقبَّله؛ لأنه قد عُدِّي باللام.

«الحمد»: ضد الذمِّ، ويكون على محاسن المحمود مع المحبة له.

«يدعو على صفوان... إلخ»: لأنهم رءوس المشركين يوم أحدٍ، وقد تاب الله عليهم فأسلموا وحسن إسلامهم.

المعنى الإجمالي للحديث:

يخبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يدعو في الصلاة على أشخاص معينين من الكفار آذوه يوم أحدٍ فعاتبه الله بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]. وتاب الله عليهم، فآمنوا بالله ورسوله.

مناسبة الحديث للباب:

أن فيه بيان أن النبي ﷺ لم يقدر أن يدفع أذى المشركين عن نفسه ولا عن أصحابه، بل لجأ إلى ربه القادر المالك، مما يدلُّ على بطلان ما يعتقده عباد القبور في الأولياء والصالحين.

ما يستفاد من الحديث:

١- بطلان التعلق بالأولياء والصالحين؛ لطلب قضاء الحاجات وتفريج الكربات.

٢- جواز الدعاء على المشركين في الصلاة.

٣- دليل على أن تسمية الشخص المدعو له أو عليه لا يضرُّ الصلاةَ.

٤- التصريح بأنَّ الإمام يجمع بين التسميع والتحميد.

❁ **قوله: «أبو هريرة»:**

قيل: الصحيح أن اسمه عبد الرحمن بن صخر، دوسي من فضلاء الصحابة وحفَّاظهم وعلمائهم. روى أكثر من خمسة آلاف حديث، توفي سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين للهجرة.

«**وفيه**»؛ أي: في «صحيح البخاري».

«**قام**»؛ أي: صعد علىٰ الصفا.

﴿**عَشِيرَتَكَ**﴾: عشيرة الرجل هم بنو أبيه الأدنون، أو قبيلته.

﴿**ٱلْأَقْرَبِينَ**﴾؛ أي: الأقرب فالأقرب منهم.

«**يا معشر**»: المعشر الجماعة.

«**أو كلمة**»: بنصب «كلمةٍ» عطف علىٰ ما قبله؛ أي: أو قال كلمة نحوها شك من الراوي.

«**اشتروا أنفسكم**»؛ أي: خلِّصوها من العذاب بتوحيد الله وطاعته، ولا تعتمدوا علىٰ شرف النسب.

«**لا أغني عنكم من الله**»: لا أدفع عنكم عذاب الله، رفع لما قد يتوهم أنه يغني عنهم من الله شيئًا بشفاعته.

«**عباس، وصفية، وفاطمة**»: بالرفع علىٰ البناء، ويجوز النصب بالنداء. وابن، وعمة، وبنت: بالنصب لا غير بدلًا من المنادي أو عطف بيانٍ.

«**سليني من مالي**»: لأنَّ هذا هو الذي يقدر عليه وما كان من أمر الله فلا قدرة له عليه.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عما صنع رسول الله ﷺ حينما أمره الله في كتابه الكريم أن ينذر قرابته؛ أنَّه قام ممتثلًا أمر ربِّه، فنادىٰ قريشًا ببطونها ونادىٰ عمه وعمته وبنته، فأنذرهم نذارةً خاصةً وأمرهم أن يخلصوا أنفسهم من عذاب الله بتوحيده وطاعته وبلغهم أنه لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئًا إذا لم يؤمنوا فمجرد قربهم منه غير نافع لهم بدون إيمانٍ.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه أنَّه لا يجوز أن يطلب من الرسول ولا من غيره من باب أولىٰ إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا، وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يجوز أن يطلب إلا من الله، ففيه الرد علىٰ عباد القبور الذين يستغيثون بالأموات لتفريج الكربات وقضاء الحاجات.

ما يستفاد من الحديث:

١- الرد علىٰ عُبَّاد الأنبياء والصالحين الذين يتعلقون بالمخلوقين في قضاء حوائجهم التي لا يقدر عليها إلا الله.

٢- أنَّه لا يجوز أن يطلب من العبد إلاَّ ما يقدر عليه.

٣- مسارعة النبي ﷺ إلىٰ امتثال أمر ربه وتبليغ رسالته.

٤- أنه لا ينجِّي من عذاب الله إلا الإيمان والعمل الصالح لا الاعتماد علىٰ مجرد الانتساب للأشخاص.

٥- أنَّ أولىٰ الناس برسول الله ﷺ أهل طاعته ومتابعته من قرابته وغيرهم.

٦- أنَّ مجرد القرابة من الرسول ﷺ لا ينفع بدون إيمانٍ وعملٍ صالحٍ وعقيدة صحيحةٍ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله**: « باب قول الله تعالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ... ﴾ »:

هذا الباب هو باب قول الله تعالىٰ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

وإيراد هذا الباب بعد الأبواب المتقدمة هو من أحسن الإيراد، ومن أعظمها فقهًا ورسوخًا في العلم، ذلك أن برهان وجوب توحيد الله -جل وعلا- في إلهيته هو ما رُكِز في الفِطَر من أنه -جل وعلا- واحدٌ في ربوبيته، وقد أقرَّ بهذا، وسلّم به المشركون، بل كلُّ أحد علىٰ الإقرار بهذا، والاعتراف به؛ فهي البرهان علىٰ أن المستحق للعبادة هو من توّحد في الربوبية.

فهذا الباب والباب الذي بعده -أيضًا- برهانٌ لاستحقاق الله العبادة وحده دون ما سواه، بدليل فطري، ودليل واقعي، ودليل عقلي.

ومن المعلوم أن الأدلة العقلية عندنا -أهل السنة والجماعة- تؤخذ من الكتاب والسنة؛ لأن في الكتاب والسنة من الأدلة العقلية ما يُغني عن تكلف أدلة عقلية أخرىٰ كما هو ظاهر لمن تأمّل نصوص الوحيين.

فهذا الباب فيه بيان أن الذي يخلق هو الله وحده، والذي يرزق هو الله وحده، والذي يملك هو الله وحده، وأن غير الله -جل وعلا- ليس له نصيب من الخلق، وليس له نصيب من الرّزق، وليس له نصيب من الإحياء، وليس له نصيب من الإماتة، وليس له نصيب من الأمر، وليس له مِلْكٌ حقيقي في أمر من الأمور حتىٰ أعلىٰ الخلق مقامًا، وهو النبي عليه الصلاة والسلام، قال له الله -جل وعلا- ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران:١٢٨] يعني: لست مالكًا لشيء من الأمر،

وليس من الأمر شيء تملكه، فـ(اللام) هنا لام الملك. فمن الذي يملك إذًا؟ الذي يملك هو: الله -جل وعلا-. فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يُنفَىٰ عنه ذلك الأمر فإنه منفيٌّ عمن هو دونه من باب أولىٰ.

والمتوجهون إلىٰ أصحاب القبور أو إلىٰ الصالحين والأولياء والأنبياء يعتقدون بأن هؤلاء المتوجه إليهم يملكون شيئًا من الرِّزق، أو التوسط، أو الشفاعة بدون إذن الله -جل وعلا- ومشيئته.

فهذا الباب -إذًا- هو أحد الأبواب التي فيها البرهان علىٰ استحقاق الله للعبادة وحده دون ما سواه.

والقرآن فيه كثير من الأدلة والبراهين علىٰ أن المستحق للعبادة هو الله -جل وعلا- وحده دون ما سواه، فمن تلك الأدلة والبراهين ما في القرآن من أدلة فيها إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، فكل ذلك النوع من الأدلة فيه دليل علىٰ أن المستحق للعبادة هو من أقررتم له بالربوبية.

ومن الأدلة والبراهين علىٰ ذلك -أيضًا- ما جاء في القرآن من نصرة الله -عز وجل- رسله وأولياءه علىٰ أعدائهم من طوائف الشرك، وكيف أنهم ذلوا وخضعوا وغُلبوا أمام طوائف أهل الإيمان وجند الله -جل وعلا- من الرسل والأنبياء وأتباعهم، فهذا نوع آخر من الأدلة، وهو أنه ما من طائفة موحدة بعث الله -جل وعلا- إمامها ورسولها بقتال المشركين إلا نصرها وأظفرها، حتىٰ صارت العاقبة لهم.

وأدلة هذا في القرآن كثيرة، نقرؤها في قصص الأنبياء، وقصص القرىٰ، وما جاء في بيان عاقبة الأمم والقرىٰ المخالفين لرسلهم، فهذا دليل علىٰ أن التوحيد هو الحق، وأن الشرك باطل.

ومن الأدلة والبراهين علىٰ تقرير استحقاق الله تعالىٰ للعبادة دون مَنْ سواه ما تضمّنه القرآن من بيان ضعف المخلوق، الذي يعلم هذا، ويلمسه بنفسه، وكيف أنه جاء إلىٰ الحياة بغير اختياره، بل الله -جل وعلا- هو الذي أتىٰ به إلىٰ هذه الحياة، وسيُخرِجه منها بغير اختياره أيضًا. مما يدل علىٰ أنه مقهور، وهو يعلم -قطعًا- أن الذي قهره وأذلَّه وجعله علىٰ هذه الحالة ليست هي تلك الآلهة، وإنما هو الله -جل وعلا- وحده هو الذي يحيي ويميت، وهذا إقرار عام، يعلمه كل أحد

من فطرته، ومن الأدلة والبراهين أيضًا: أن الله -جل وعلا- له الأسماء الحسنىٰ، وله الصفات العلىٰ، وأنه ذو النعوت الكاملة، وذو النعوت الجليلة، فنعوتُ الجلال، والجمال، والكمال له سبحانه، وهو سبحانه له الكمال المطلق في كل اسم له، وفي كل نعت ووصف له. فله الكمال المطلق، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

فهذا الباب ذكر فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حد أنواع أدلة الربوبية، أو براهين التوحيد، وأنه -جل وعلا- هو الواحد في ربوبيته، والباب الذي يليه هو باب قوله الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبإ: ٢٣].

وفيه دليل علىٰ عظمة الله -جل وعلا- في صفاته، ففي هذا الكتاب تنويع براهين توحيد العبادة بأدلة متنوعة من القرآن -كما سيأتي- إن شاء الله تعالىٰ.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا ...﴾»:

ذكرنا أن هذا الباب مع الباب الذي يليه من كتاب التوحيد هما برهان للتوحيد، وبرهان لاستحقاق الله -جل وعلا- العبادة وحده، وحجة دامغة علىٰ بطلان عبادة ما سواه، وهذا البرهان هو تقرير أن الله -جل وعلا- واحد في ربوبيته، ودليل ذلك الفطرة، والعقل، والنص من الكتاب والسنة، فلا أحد ينكر أن الله -جل وعلا- هو مالك الملك، وهو الذي بيده تصريف الأمر كما يشاء إلا شرذمة قليلة من الناس -كما قال الشهرستاني وغيره- لا يصح أن تنسب لهم مقالة.

فالناس مفطورون علىٰ الإقرار بالرب، وعلىٰ الإقرار بأنهم مخلوقون، وإذا كان كذلك فإن الحجة عليهم قائمة بوجوب إقرارهم بتوحيد الإلهية؛ لما جعل الله في فطرهم من الإقرار بتوحيد الله في ربوبيته، ولهذا لم يكن المشركون ينكرون توحيد الربوبية. بل كانوا يعترفون أنه تعالىٰ الرزّاق وحده، وأنه الخلاق وحده، وأنه -جل وعلا- هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يجير ولا يُجار عليه، وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو الذي ينبت النبات، وهو الذي ينزل الماء، إلىٰ آخر أفراد تدبيره -جل وعلا- للأمر، وأفراد توحيد الربوبية.

فالبرهان علىٰ أن الله هو المستحق للعبادة وحده أنه -جل وعلا- هو مالك الملك وحده، وهو المتفرّد بتدبير هذا الملكوت، وهو الذي خلق العباد، والعباد صائرون إليه، أما الآلهة التي تَوَجَّه إليها العباد بالعبادة من الأنبياء، أو الأولياء، أو الملائكة، فإنما هم مخلوقون مربوبون، لا يخلقون شيئًا، وهم يخلقون، وأيضًا: لا يستطيعون نصرًا لمن سألهم، وإنما ذلك كُلُّه لله -جل وعلا- فإذا كان أولئك المدعوون ليس لهم من الأمر شيء، وليس لهم من الملك شيء، وليس لهم من الخلق شيء، وليس لهم من تدبير الأمر شيء، وإنما تدبير أمر السماوات، وتدبير أمر الأرض بيد الله وحده دون ما سواه، فإن الذي يستحق العبادة وحده، هو الذي يفعل تلك الأفعال، وهو الذي يتصف بتلك الصفات، وهو الذي وحَّده العباد في ربوبيته، فإذا كان كذلك فيجب أن يُوحِّدوه بأفعالهم، وألا يتوجهوا بالعبادة إلا إليه وحده.

وهذا النوع من الحجاج والاستدلال كثير في القرآن جدًّا؛ فإنك تجد في القرآن أن أعظم الأدلة والبراهين علىٰ المشركين في تقريره إبطال عبادتهم لغير الله، وفي إحقاق عبادة الله وحده دون ما سواه أنهم يقرون بتوحيد الربوبية، والإقرار بتوحيد الربوبية برهان توحيد الإلهية.

فالله -جل وعلا- احتج في القرآن علىٰ المشركين بما أقروا به من توحيد الربوبية، علىٰ ما أنكروه من توحيد الإلهية، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[يونس: ٣١] يعني: أتقرون بذلك، فلا تتقون الشرك؟ وقد ذكرت أن (الفاء) إذا أتت بعد الهمزة فهي تعطف ما بعدها علىٰ جملة محذوفة قبلها دل عليها السياق، فقوله: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يعني: أتقرون بأن الله واحد في ربوبيته، فلا تتقون الشرك به؟! ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ باعترافكم وبإيقانكم ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾[يونس: ٣٢].

فهذا النوع من الاحتجاج وهو الاحتجاج عليهم بما أقروا به -وهو توحيد الربوبية- علىٰ ما أنكروه -وهو توحيد الإلهية- في القرآن كثير، كالآيات العظيمة في سورة النمل في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[النمل: ٥٩، ٦٠].

فقوله تعالىٰ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ هنا: إنكار عليهم بسبب أنهم فيما سبق يقرُّون له بخلق السماوات والأرض، وغيرها من الأمور الوارد ذكرها في الآيات، فإذا كانوا يقرون بأن الذي خلقها هو الله، فكيف -إذًا- يتخذون إلهًا مع الله؟! فهذا هو سبب الإنكار عليهم؛ لأن الذي أنزل لهم من السماء ماء فأنبت لهم به حدائق ذات بهجة هو الله، فكيف يتخذون إلهًا معه، ولهذا قال جل وعلا: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فهذا إنكار عليهم.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يعني: يعدلون بالله غيره، أو يعدلون غير الله -جل وعلا- به، يعني: يساوون هذا بهذا، أو يعدلون، يعني: يُصرَفون عن الحق، وينصرفون عنه إلىٰ غيره، فكيف يعدلون عن الحق إلىٰ غيره؟ أو كيف يعدلون بالله غيرَه من الآلهة؟! وهكذا الآية التي بعدها وهي قوله: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١] وجواب المشركين عن هذا السؤال في قوله: ﴿أَمَّن﴾ هو الله، فقد كانوا مقرِّين بأنه المتفرّد بهذه الأمور، قال جل وعلا: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١] ثم قال جل وعلا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢] وهذا رجوع من الآيات التي في الآفاق، وفيما حولهم إلىٰ الشيء الذي يعلمونه علم اليقين، وهو أن فاعل تلك الأشياء المتقدم ذكرها في الآيات، وما سيأتي -أيضًا- هو الله تعالىٰ.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢] ثم قال جل وعلا: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل:٦٣، ٦٤]

وفي الحقيقة: أنه لا برهان لهم، ولهذا قال -جل وعلا- في سورة المؤمنون: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ومعنىٰ قوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: أن كل إله متخذ من دون الله فإنه لا حجة قائمة علىٰ أنه إله، وإنما اتخذه البشر بالطغيان وبالظلم، ولهذا قال متوعدًا إياهم ومبينًا فداحة خسارتهم: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ

ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المؤمنون: ١١٧]، فهذا الباب قائم على هذه الحجة، ولهذا فإن من أعظم الحجة على المشركين -الذين توجهوا إلى الأموات، والمقبورين بطلب تفريج الكربات، وطلب إغاثة اللهفات، وطلب إنجاح الحاجات، وسؤال ما يحتاجه الناس، إن من أعظم الحجة عليهم- أن تحتج عليهم بتوحيد الربوبية على ما ينكرونه من توحيد الإلهية، وقد زاد شرك المشركين في هذه الأزمنة على شرك مشركي الجاهلية -كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في القواعد الأربعة- بأن اعتقدوا أن لتلك الآلهة، وأولئك الأموات تصرفًا في الكون فنسبوا إليهم شيئًا من الربوبية، فهم لم يجعلوا توحيد الربوبية -أيضًا- خالصًا.

وهذا نوع من البراهين عظيم ينبغي أن تتوسع في دلائله، وأن تعلم حجته من القرآن؛ لأن القرآن كثيرًا ما يحتج بهذا البرهان -وهو توحيد الربوبية- على ما ينكره المشركون من توحيد الإلهية.

ومن ذلك ما ساقه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب، وهو قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: فهذا إنكار وتوبيخ لهم، كيف يشركون الذي لا يخلق شيئًا وهم يخلقون؟ مع أن خالقهم هو الله -عز وجل- بل هو الذي خلق من عُبد، وهو الذي خلق العابد -أيضًا- فالذي يستحق العبادة وحده دون ما سواه إنما هو الله ذو الجلال والإكرام.

ثم بين حقيقة هذه الآلهة وعجزها فقال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾[الأعراف: ١٩٢] لأن النصر في الحقيقة إنما هو من عند الله -جل وعلا- ولو أراد الله أن يمنع نصر الناصر لمنعه.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ...﴾[فاطر: ١٣، ١٤]»:

وموطن الشاهد من هذه الآيات قوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ فحتى هذا القطمير -وهو غِلاف النواة أو الحبل الواصل من أعلى النواة إلى ظاهر الثمرة- لا يملكونه، فغيره -مما هو أعلى منه- من باب أولى وأولى، وإذا كانوا لا يملكون هذا الشيء الحقير، وهو مما لا يحتاجه الناس، ولا يطيقونه فكيف -إذًا- يطلبون منهم أشياء لا يملكونها.

وقوله -جل وعلا- هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ....﴾، (الذين) هذا اسم موصول يعم كل من دعي من دون الله من الملائكة، أو الأنبياء والرسل، أو الصالحين من الأموات، أو الطالحين، أو الجن، أو الأصنام، أو الأشجار، أو الأحجار، فكلُّ من دعي وما دعي فإنه لا يملك ولو قطميرًا، فإذا كانوا لا يملكون هذا الشي مع حقارته، فلم يُسألون؟! فالواجب أن يُتوجه بالسؤال لمن يملك ذلك.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك عدة أحاديث في هذا الباب، وهذه الأحاديث مدارها على بيان قول الله جل وعلا: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ووجه الاستدلال من هذه الأحاديث، وإيراد هذه الآية هنا: أن هذا النفي توجه إلىٰ رسول الله ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام سيد ولد آدم.

فقوله: ﴿لَيۡسَ لَكَ﴾ أي يا محمد ﴿مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾. واللام في قولك: (لك) هي لام الاستحقاق، أو لام الملك، يعني: لا تستحق شيئًا أو لا تملك شيئًا، يعني: لا تستحقه بذاتك، وإنما بما أمر الله -جل وعلا- وبما أذن به فتعظيم النبي ﷺ ومحبته فرع عن محبة الله، وتعظيمه -جل وعلا- فليس له ﷺ وراء ذلك شيء إلا ما أذن به، كما قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ ولو كان له عليه الصلاة والسلام من الأمر شيء لنصر نفسه وأصحابه يوم أحد، ولكن حصل في يوم أحد ما حصل، فأنزل الله قوله: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾.

وكذلك الحديث الآخر: لما لعن النبي ﷺ -في قنوت الفجر- فلانًا وفلانًا من الناس الذين آذوا المؤمنين أنزل الله قوله: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ (٤٢٣). يعني: لست تملك شيئًا من الأمر. وهكذا الحديث الذي بعده.

وهذه الأحاديث تدل على أن النبي ﷺ لا يملك شيئًا من ملكوت الله. وهو عليه الصلاة والسلام قد بلغ ذلك وبينه، فمن هو دونه عليه الصلاة والسلام منفي عنه هذا الأمر من باب

---

(٤٢٣) سبق تخريجه.

أولى، فالملائكة، والأنبياء والصالحون من أتباع الرسل، وأتباعه عليه الصلاة والسلام أولى بأن ينفى عنهم ذلك، فإذا كان كذلك بطَلت كل التوجهات إلى غير الله -جل وعلا- ووجب أن يُتوجه بالعبادات، وأنواع التوجهات من دعاء، واستعانة، واستغاثة، واستعاذة، وذبح، ونذر، وغير ذلك إلى الحق -جل وعلا- وحده دون ما سواه.

ثم ذكر الحديث الأخير في الباب، وهو أنه لمّا نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، قال ﷺ: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا، ياصفية عمة رسول الله ﷺ لاأغني عنكِ من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئتِ لا أغني عنكِ من الله شيئًا**» وهذا ظاهر في أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لا يستطيع أن ينفع أحدًا من أقربائه إلا بما جعله الله من الرسالة، وأداء الأمانة، وأما أنه يغني عنهم من الله شيئًا، ويدفع عنهم العذاب، أو النكال، أو العقوبة فالله -جل وعلا- لم يجعل لأحدٍ من خلقه من ملكوته شيئًا، وإنما هو سبحانه المتفرد بالملكوت والجبروت، والمتفرد بالكمال والجمال والجلال.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: الآيتين، أي قوله تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾، ففيه الإنكار علىٰ من عبد أي معبود كان ؛ لأنه لا يخلق شيئًا، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر:١٣]، فيها إبطال عبادة كل ما سوىٰ الله ؛ لأنه لا يملك القطمير فكيف بما هو أعظم؟

الثانية: قصة أحد، أي: غزوة أحد التي شج فيها وكسرت رباعيته ﷺ، وقتل فيها من قتل من الصحابة، ففيها أنهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، بل الأمر كله لله وحده.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين وخَلْفَه سادات الأولياء يُؤَمِّنون، أي: إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة من صلاة الفجر دعا وأَمَّن الصحابة خلفه.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار، أي: في ذلك الوقت.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار منها شجهم نبيهم وحرصهم علىٰ قتله، ومنها التمثيل بالقتلىٰ مع أنهم بنو عمهم، أي: إنهم فعلوا هذه الخصال التي هي من أسباب الدعاء عليهم، ولكن أمر الله غالب وهو المتصرف في عباده دون خلقه.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]، أي: عواقب الأمور بيدي فامض أنت لشأنك ودم علىٰ عبادة ربك، قاله ابن عطية كما أشار إليه في الشرح.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾[آل عمران:١٢٨]، فتاب عليهم فآمنوا، أي: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وأمثالهم ومنهم من قتل شهيدًا.

الثامنة: القنوت في النوازل، أي: لما دعا عليهم في الصلاة بعد فعلهم ما فعلوه دل علىٰ القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم، أي: لكونه سمىٰ صفوان ابن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام.

العاشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[الشعراء:٢١٤].

أي: إنه جمعهم فأنذرهم، فهم وخص وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا.

الثانية عشرة: جِدُّه ﷺ بحيث فعل ما نسب بسببه إلىٰ الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن، أي أنه لما جمعهم وأنذرهم قال عمه أبو لهب: تبًّا لك ألهذا جمعتنا ؟!ونسبوه إلىٰ الجنون، وكذلك لو أن مسلمًا أخذ يصدع بالحق بين الناس ويحذر من الباطل لنسب إلىٰ الجنون بسبب غربة الدين.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «**لا أغني عنك من الله شيئًا**»، حتىٰ قال: «**يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئًا**»، فإذا صرح وهو سيد المرسلين؛ بأنه لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس، اليوم تبين له التوحيد وغربة الدين، أي: من آمن أنه لا يغني عن أقرب الناس إليه شيئًا لتصريحه بذلك، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس، أي: من أنه يملك وينفع ويضر، ويعلم الغيب تبين له التوحيد أي إنه الإقبال علىٰ الله وحده ؛ لأنه الذي بيده الأمر دون من سواه وتبين له غربة الدين لأجل أن أكثر الخلق قد تركوا التوحيد ووقعوا في الشرك حيث تركوا إخلاص العبادة لله وحده وأقبلوا علىٰ عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا بنص الآيات والأحاديث .

س: ما المقصود بقوله: اشتروا أنفسكم؟

جـ: أمر الرسول ﷺ قرابته أن يشتروا أنفسهم بتوحيد الله وتخليصها من عذاب الله بالطاعة له فيما أمر والانتهاء عما نهىٰ عنه فإن هذا هو الذي ينجي من عذاب الله لا الاعتماد علىٰ الأحساب والأنساب فإنها لا تغني من الله شيئًا.

س: ما معنى قوله: لا أغني عنكم من الله شيئًا؟ وما الذي يؤخذ منه؟

جـ: معناه لا أدفع عنكم من عذاب الله شيئًا. ويؤخذ منه الرد علىٰ من تعلق علىٰ الأنبياء والصالحين ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه أو يدفعوا عنه، فإن ذلك هو الشرك الأكبر الذي حرمه الله تعالىٰ.

س: ما الذي يؤخذ من قوله ﷺ لفاطمة: «سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا»؟

جـ: يؤخذ منه:

١ - أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمان والعمل الصالح.

٢ - أنه لا يجوز أن يسأل الإنسان إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا، وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يجوز أن يطلب إلا منه. فإذا كان قرابة الرسول ﷺ لا ينفعهم إلا العمل الصالح فغيرهم أولىٰ وأحرىٰ.

س: اذكر ما يستفاد من هذا الباب؟

جـ: ١ - الرد علىٰ عباد القبور فيما يعتقدونه في الأولياء والصالحين من أنهم ينفعون من دعاهم ويمنعون من لاذ بحماهم.

٢ - أنه يحدث للأنبياء ما يحدث للبشر من بلايا الدنيا ومصائبها لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب ولتعرف الأمم ما أصابهم فيتأسوا ويقتدوا بهم.

والله أعلم وصلىٰ الله علىٰ محمد.

الدرس السادس عشر:

باب قول الله تعالى

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣].

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، ينفذهم ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾» [سبأ:٢٣]، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان بكفه، فحرفها وبدد بين أصابعه، «فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كِذْبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»(٤٢٤).

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه، [قال](٤٢٥): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السماوات منه رجفة» -أو قال: «رعدة شديدة- خوفًا من الله عز وجل. فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة. كلما مر بسماء، سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ [فيقول](٤٢٦): قال الحق، وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»(٤٢٧).

---

(٤٢٤) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾، برقم (٤٧٠١)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٢٥) ساقطة من نسخة ابن باز.

(٤٢٦) عند الفوزان: «فيقول جبريل»، وفي مسند الشاميين: «قال جبريل عليه السلام».

(٤٢٧) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٥)، والطبراني في «مسند الشاميين»، برقم (٥٩١) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة»، برقم (٥١٥).

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحُجةِ علىٰ إبطال الشرك، خصوصًا من تعلق علىٰ الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: «قال: كذا وكذا».

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل.

السابعة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم؛ لأنهم يسألونه.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلىٰ حيث أمره الله.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا.

الثالثة عشرة: إرسال الشهب (٤٢٨).

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

---

(٤٢٨) في نسخة السعدي: «الشهاب».

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل! كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟!

التاسعة عشرة: كونهم يتلقىٰ بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية المعطلة.

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله عز وجل.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجدًا.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ ...﴾».

أي: أزيل الفزع عن قلوب الملائكة، من الغشية التي تصيبهم عند سماع كلام الله عز وجل بالوحي إلىٰ جبريل، يأمره الله عز وجل فتسمع الملائكة كلامه كجر سلسلة الحديد علىٰ الصفوان، فتنفزع عند ذلك تعظيمًا لله وهيبة له. قال ابن عطية: «في الكلام حذف يدل عليه الظاهر، كأنه قال: ولا هم شفعاء كما تزعمون أنتم، بل هم عبدة مسلمون لله أبدًا منقادون».

قوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾.

أي قالوا: قال الله الحق، وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله صعقوا، ثم إذا أفاقوا أخذوا يسألون، فيقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ [سبأ:٢٣] فيقولون: قال الحق، فهو سبحانه الحق وقوله الحق ودعوته وحده هي الحق: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣] علو القدر وعلو الشرف وعلو القهر وعلو الذات فله العلو الكامل من جميع الوجوه والكبير الذي لا أكبر منه ولا أعظم منه تبارك وتعالىٰ. أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بيان حال الملائكة الذين هم أقوىٰ وأعظم من عبد من دون الله، فإذا كان هذا حالهم مع الله وهذه هيبتهم وخوفهم منه وخشيتهم له، فكيف يدعون من دون الله؟ وإذا كانوا -مع ما هم عليه من جلالة القدر- لا يجوز أن يدعوا من دون الله فغيرهم ممن لا يقدر علىٰ شيء من الأموات والأصنام أولىٰ أن لا يدعىٰ ولا يعبد من دون الله. قال المصنف: «وفيها من الحجة علىٰ إبطال الشرك خصوصًا من تعلق علىٰ الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب» اهـ.

وفيها إثبات صفة القول لله تعالىٰ، وأنه قال ويقول.

قوله: «في الصحيح عن أبي هريرة...إلخ»:

أي: إذا تكلم الله بالأمر الذي شاء كونه، وذلك بوحيه إلىٰ جبريل به، كما صرح به في الحديث الآتي، وكما روىٰ أبو داود وغيره من حديث ابن مسعود: «**إذا تكلم الله بالوحي، سمع أهل السماوات... إلخ**»[٤٢٩].

قوله: «ضربت الملائكة بأجنحتها خضاعًا لقوله»:

أي: لقول الله تعالىٰ، وذلك أن الله إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أرعدوا وخافوا وفزعوا، هيبة وخضعانًا لقوله تبارك وتعالىٰ، مع أنهم عباد مكرمون، أعطاهم الله من القوة والعظمة ما لا يعلمه إلا هو تعالىٰ، ومع ذلك يعتريهم هذا الخوف والاضطراب، فعبادتهم من دون الله باطلة، وإذا كان هذا الحال معهم، فبطلان عبادة غيرهم بطريق الأولىٰ، و(خضعانًا) بفتحتين من الخضوع، وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه بمعنىٰ خاضعين.

قوله: «**كأن سلسلة علىٰ صفوان، ينفذهم ذلك**» بفتح الياء وسكون النون وضم الفاء والذال، أي كأن صوت الرب المسموع سلسلة علىٰ صفوان، وهو الحجر الأملس، ينفذهم ذلك، أي يخلص ذلك القول ويمضي في قلوب الملائكة حتىٰ يفزعوا منه، وعند أبي داود وغيره: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة كجر السلسلة علىٰ الصفا؛ فيصعقون فلا يزالون كذلك، حتىٰ يأتيهم جبريل**»[٤٣٠].

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ...﴾ الآية:

أي: حتىٰ إذا أزيل عنها الخوف والغشي، قالت الملائكة بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: قال الله الحق، علموا أن الله لا يقول إلا الحق، فهو سبحانه الحق، وقوله الحق، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا أعظم منه، ولا أكبر منه تبارك وتعالىٰ.

قوله: «فيسمعها مسترق السمع»:

أي يسمع مسترق السمع الكلمة التي قضاها الله، وسمعتها الملائكة وتحدثوا بها، ومسترق السمع هو من الشياطين، فإنهم يركب بعضهم بعضًا حتىٰ يصلوا إلىٰ حيث يسمعون تحدث الملائكة بالأمر يقضيه الله. وفي صحيح البخاري من حديث عائشة: «**إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلىٰ الكهان،**

---

(٤٢٩) أخرجه أبو داود، كتاب: السنة، باب: في القرآن، برقم (٤٧٣٨)، وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٢٩٣).

(٤٣٠) سبق تخريجه.

فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[٤٣١]. وسماعهم من الذين في العنان لا ينفي سماعهم من الذين في السماء.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ إلى هذه السماء، ويخطف الجن السمع فيرمون، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يزيدون فيه ويقرفون وينقصون»[٤٣٢].

قوله: «فيكذب معها مائة كذبة»:

بفتح فسكون، أي: يكذب الساحر أو الكاهن مع تلك الكلمة التي ألقاها إليه وليه من الشياطين مائة كذبة، ويزيد وينقص، أو يكذب الشيطان مع الكلمة التي استرقها مائة كذبة، ويخبر بالجميع وليه من الإنس فما جاءوا به على وجهه فهو صدق، وما خلط فيه فهو كذب، ومع هذا يفتتن الإنس بذلك، ويقبلون ما جاءوا به مع كثرة الكذب.

فيقال: «أليس قد قال لنا يوم كذا...إلخ»

احتجاج من أهل الباطل لباطله، قال الشارح: «وهكذا في نسخة بخط المصنف، كما في «صحيح البخاري» سواء».

قوله: «فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»:

الباء سببية، أي يصدق الساحر أو الكاهن أولياؤه من الإنس، بسبب تلك الكلمة، ويروج معها مائة كذبة. وفي الصحيح عن عائشة: «**قلت: يا رسول الله إن الكهان كانوا يتحدثون بالشيء فنجده حقًّا، قال: تلك الكلمة الحق يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليه، ويزيد فيها مائة كذبة**»[٤٣٣].

قال المصنف: «وفيه قبول النفوس للباطل، يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة» اهـ.

وفيه أن الشيء إذا كان فيه نوع من الحق، فلا يدل على أنه حق كله، فكثيرًا ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل، ليكون أقبل لباطلهم، وفي هذه الأحاديث وما بعدها وما في معناها إثبات علو الله على خلقه، على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه لم يزل متكلمًا إذا شاء يسمعه الملائكة، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

---

(٤٣١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، برقم (٣٢١٠)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم (٢٢٢٨)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤٣٢) أخرجه مسلم، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم (٢٢٢٩)، والترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة سبأ، برقم (٣٢٢٤)، وأحمد (١/ ٢١٨)، وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤٣٣) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: قول الرجل للشيء ليس بشيء وهو ينوي أنه ليس بحق، برقم (٦٢١٣)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان، برقم (٢٢٢٨)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قوله: «وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه»:

بكسر السين، ابن خالد بن عمرو بن قرط بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب العامري الكلابي، ويقال: الأنصاري، صحابي وأبوه أيضًا صحابي، يقال: وفد أبوه على رسول الله ﷺ فدعا له، وزوجه أخته الكلابية.

قوله: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي»

هذا في جميع الأمور التي يقضيها الرب تبارك وتعالى، كما يدل عليه حديث أبي هريرة، والإرادة صفة من صفات الله ﷻ وهي نوعان: إرادة شرعية دينية، مستلزمة لمحبة الله ورضاه. وإرادة قدرية كونية عامة شاملة، وهو سبحانه يريد الخير ويأمر به، وينهى عن الشر ولا يأمر به، وإن كان مريدًا له، فكل الأشياء كائنة بمشيئته وقدرته وخلقه، وفيه النص على أن الله يتكلم بالوحي متى شاء، قال المصنف: «وفيه إثبات الصفات خلافًا للأشعرية».

قوله: «أخذت السماوات منه رجفة»:

(السماوات) مفعول مقدم، والفاعل رجفة، أي: أصاب السماوات من كلام الله رجفة، وأصل الرجفة الحركة والاضطراب، أي: تحركت واضطربت، وهو صريح في أنها تسمع كلام الله تعالى، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: «إذا قضى الله أمرًا تكلم تبارك وتعالى، رجفت السماوات والأرض والجبال، وخرت الملائكة سجدًا»

قوله: أو قال: «رعدة شديدة»:

شك من الراوي هل قال النبي ﷺ رجفة، أو قال: رعدة شديدة، وهما متقاربان أو متحدان في المعنى، أي رجفة واضطراب خوفًا من الله، وهذا من شدة حرص السلف على ألفاظ الحديث، وإن كانت تجوز روايته بالمعنى بشروطها المعروفة.

قوله: «خوفا من الله ﷻ»:

هذا ظاهر في أن السماوات لها معرفة وإحساس، تخاف من الله بما جعل فيها من الإحساس والمعرفة بمن خلقها، وقد أخبر الله أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه وتقدسه، كقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وثبت سماع تسبيح الطعام وهو يؤكل، والحصىٰ والجذع، وهذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة، ولا يقال بلسان الحال.

قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السماوات...إلخ»:

أي يقع منهم الأمران الصعوق، - وهو هنا الغشي- ويقع منهم السجود، والله أعلم أيهما قبل الآخر، وفيه إثبات عظمة الله تعالىٰ، وعلو ذاته وقدرته وقهره، فإذا كانت السماوات علىٰ عظمتها وسعتها وما فيها من السكان ترجف ويصعق من فيها، هيبة لله وخوفًا منه، فالالتجاء إلىٰ غيره، والتعلق عليه من أبطل الباطل وأمحل المحال؛ إذ هو سبحانه بيده أزمة الأمور، وكل من سواه مخلوق مربوب لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، وفي الحديث: «**أن الأمة لو اجتمعوا أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك**»(٤٣٤).

قوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل»:

بفتح «أول» خبر «يكون»، مقدم علىٰ اسمها، ويجوز العكس، وإنما كان أول من يرفع رأسه جبرائيل؛ لأنه سفير الله بين رسله وأمينه علىٰ وحيه. واسم جبرائيل عبد الله، وميكائيل عبيد الله، وإسرافيل عبد الرحمن، وكل شيء يرجع إلىٰ إيل فهو مُعَبَّد لله، قاله علي بن الحسين وغيره. وفيه فضيلة جبرائيل، وقد وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ﴾ أي تبليغ: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]. ورآه رسول الله ﷺ في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، فإذا كان هذا عظم أحد المخلوقات فخالقها أعظم وأجل وأكبر، بل السماوات والأرض ومن فيهن في كف الرحمن جل وعلا كخردلة في يد أحدنا، فكيف يسوىٰ به غيره في العبادة؟

قوله: «فيكلمه الله من وحيه بما أراد»:

فيه التصريح بأن الله يوحي إلىٰ جبرائيل بما أراده من أمره كما تقدم.

قوله: «ثم يمر جبرائيل علىٰ الملائكة...إلخ»

فيه إثبات علو الله تعالىٰ وتقدس، وأنه قال ويقول، خلافًا للجهمية.

قوله: «فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل»:

أي يقولون: قال الحق، وهو العلي الكبير، تبارك وتعالىٰ.

---

(٤٣٤) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق، والورع، باب: (٥٩)، برقم (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٣٠٣)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٧٩٥٧).

❁ **قوله**: «فينتهي جبرائيل بالوحي إلىٰ حيث أمره الله عز وجل»:

من السماء والأرض، فالآية المذكورة والأحاديث تقرر أن الملك العظيم الذي تصعق الأملاك من كلامه، خوفًا منه ومهابة، ولا يعلمون إلا ما علمهم به، وترجف منه المخلوقات، لا يجوز شرعًا ولا عقلًا أن يجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم، وهم بهذه المثابة من هيبته وخشيته. وقصد المصنف الرد علىٰ المشركين عبدة الأوثان وغيرهم، فإنه إذا كان هذا حال الملائكة عند مجرد سماع كلام الله، مع ما أعطاهم الله من شدة القوة، وعظم الخلقة التي لا يعلمها إلا الله، علم أنه لا يجوز صرف شيء من أنواع العبادة لهم، لعجزهم عن النفع والضر، فكيف بمن هو دونهم بمراتب؟ ولكن أهل الشرك لا يفقهون، ثم هو سبحانه قد أرسل الرسل، وأنزل الكتب، تزجرهم عن ذلك الشرك، وأقام البراهين علىٰ بطلانه.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: باب قول الله تعالى**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾[سبأ:٢٣]:

وهذا أيضًا برهان عظيم آخر علىٰ وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وهو ذكر النصوص الدالة علىٰ كبرياء الرب وعظمته التي تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة وتخضع له الملائكة والعالم العلوي والسفلي، ولا تثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه أو تتبدىٰ لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات بأسرها خاضعة لجلاله، معترفة بعظمته ومجده، خاضعة له، خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذي لا يستحق العبادة أو الحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله إلا هو ومن سواه ليس له من هذا الحق شيء، فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالىٰ الخاص الذي لا يشاركه فيه مشارك بوجه.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]:

﴿فُزِّعَ﴾: أي: زال عنها الفزع والمراد بهم الملائكة كما في الأحاديث. فإذا ردت إليهم عقولهم قالوا: ماذا قال ربكم؟

﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾: أي: قال بعضهم لبعض هو الحق؛ أي: قال ربنا كذا وقال: كذا.

❁ **قوله**: «عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ...»: فإذا سمعت الملائكة قول الرب جَلَّ تضرب بأجنحتها خضعانًا.

خضعانًا: بفتح الخاء وضمها: أي: خاضعين وجلين مشفقين بين يدي الله تعالىٰ؛ كأنه ضرب

سلسلة الحديد علىٰ الصفوان. فيسمع مسترق السمع من الجن هذا الكلام من الملائكة وهم بعضهم فوق بعض فيلقيه بعضهم إلىٰ بعض حتىٰ يلقيها الآخر للكاهن أو الساحر، وتأتيهم الشهب فربما أدركتهم قبل أن يلتقوها للساحر وربما أدركتهم بعد أن يلقوها. وهذا امتحان من الله لعباده وإلا لو شاء استرقوا شيئًا فتجتمع هذا الكلمات عند الساحر فيكذب معها مائة كذبة. ويصدقون في واحدة فيقول الناس فيما بينهم: أليس قد قال لنا يوم كذا كذا؛ فيصدقون الكلمات الكثيرة بسبب واحدة صحيحة، فلا ينبغي الاغترار بهؤلاء وتصديقهم؛ لأن صدقهم إما بمشاهدة شيء في الدنيا وتناقله عن طريق الشياطين بعضهم لبعض. أو عن طريق مسترق السمع. فالواجب عدم الإصغاء إليهم وإن صدقوا أحيانًا.

❁ **قوله**: «**وعن النواس بن سمعان** رضي الله عنه **قال: قال رسول الله** ﷺ: **إذا أراد الله أن يوحي...**»:

«**سمعان**»: بفتح السين وكسرها.

فيكون أول من يرفع جبريل: ويقرأ جبرائيل أيضًا وهو أول من يفيق؛ لأنه أشرف الملائكة وهو الرسول بين الله ورسله، وكلما مر من سماء سأله ملائكتها والمسترقون يسمعون هذا الكلام بين الملائكة وربما حفظوا شيئًا وألقوه إلىٰ السحرة والكهنة وربما أحرقوا ولم يبلغوا شيئًا حسب مشيئة الله.

فالواجب عبادة الله وحده لا حق فيه للملائكة ولا للرسل، ولا غيرهم وهذا فيه دلالة علىٰ خوف الملائكة وفزعهم منه.

ومن صدق بأن الكاهن يعلم الغيب فهو كافر. وفي الحديث ثبوت صفة الكلام لله والإرادة وفيه فضل الملائكة.

وفيه أن الشياطين تسترق السمع، وكان هذا قبل النبوة، فلما بعث النبي ﷺ شدد عليهم في الاستماع، فلما مات صارت تستمع، فتارة تصيبهم الشهب قبل أن يستمعوا وتارة بعد أن يستمعوا.

قال العلامة ابن عثيمين:

مناسبة الترجمة:

أن هذا من البراهين الدالة علىٰ أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكًا مع الله؛ لأن الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله عز وجل ما عدا خواص بني آدم يحصل منهم عند كلام الله -سبحانه- الفزع.

❁ **قوله: «قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾»:**

قال ذلك ولم يقل: «فزعت قلوبهم»؛ إذ «عن» تفيد المجاوزة، والمعنىٰ: جاوز الفزع قلوبهم، أي: أزيل الفزع عن قلوبهم.

والفزع: الخوف المفاجئ؛ لأن الخوف المستمر لا يسمىٰ فزعًا.

وأصله: النهوض من الخوف.

وقوله تعالىٰ: ﴿عَن قُلُوبِهِمۡ﴾؛ أي: قلوب الملائكة؛ لأن الضمير يعود عليهم بدليل ما سيأتي من حديث أبي هريرة، ولا أحد من الخلق أعلم بتفسير القرآن من رسول الله ﷺ.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ جواب الشرط، والمعنىٰ: قال بعضهم لبعض: وإنما قلنا؛ ذلك لأن في الكلام قائلًا ومقولًا له، فلو جعلنا الضمير في قالوا عائدًا علىٰ الجميع، فأين المقول له؟ والمعنىٰ: أي: شيء قال ربكم؟

وإعراب «ماذا» على أوجه:

١- **ما**: اسم استفهام مبتدأ، **وذا**: اسم موصول خبر؛ أي: ما الذي.

٢- **ماذا:** اسم استفهام مركب من **ما** و **ذا**.

٣- **ما**: اسم استفهام، وذا زائدة، قال ابن مالك:

ومثل ماذا بعدما استفهام ... أو من إذا لم تلغ في الكلام

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾؛ أي: قال المسئولون.

والحق: صفة لمصدر محذوف مع عامله، والتقدير قال القول الحق.

والمعنى: أن الله -سبحانه- قال القول الحق؛ لأنه سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق.

والحق في الكلام هو الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾[الأنعام:١١٥].

ولا يفهم من قوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ أنه قد يكون قوله باطلًا، بل هو بيان للواقع، فإن قيل: ما دام بيانًا للواقع ومعروفًا عند الملائكة أنه لا يقول إلا الحق، فلماذا الاستفهام؟!

أجيب: أن هذا من باب الثناء على الله بما قال، وأنه سبحانه لا يقول إلا الحق.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: العلي في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء وهي العظمة التي لا يدانيها شيء؛ أي: العظيم الذي لا أعظم منه.

مناسبة الآية للتوحيد:

أنه إذا كان منفردًا في العظمة والكبرياء، فيجب أن يكون منفردًا في العبادة.

والعلو قسمان:

الأول: علو الصفات، وقد أجمع عليه كل من ينتسب للإسلام حتى الجهمية ونحوهم.

الثانية: علو الذات، وقد أنكره كثير من المنتسبين للإسلام مثل الجهمية وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم؛ فإن المحققين منهم أثبتوا علو الذات.

وعلوه لا ينافي كونه مع الخلق يعلمهم ويسمعهم ويراهم؛ لأنه ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

وفي الآية فوائد:

١-أن الملائكة يخافون الله، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[النحل:٥٠]

٢-إثبات القلوب للملائكة؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

٣-إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحًا مجردة من الجسمية، وهو أمر معلوم بالضرورة، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾[فاطر:١]، وقد رأى النبي ﷺ جبريل له ستمائة جناح قد سد الأفق؛ فالقول بأنهم أرواح فقط إنكار لهم في الواقع، وهو قول باطل.

لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أكلهم وشربهم التسبيح بدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:٢٠]؛ ففي هذا دليل على أن ليلهم ونهارهم مملوآن بذلك، ولهذا جاء: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ﴾، ولم يقل: يسبحون في الليل؛ أي: أن تسبيحهم دائم، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به.

١ – أن لهم عقولًا، إذ إن القلوب هي محل العقول خلافًا لمن قال: إنهم لا يعقلون؛ ولأنهم يسبحون الله، ويطوفون بالبيت المعمور.

٢ – إثبات القول لله -سبحانه وتعالى-، وأنه متعلق بمشيئته؛ لأنه جاء بالشرط: ﴿إِذَا فُزِّعَ﴾، وإذا الشرطية تدل على حدوث الشرط والمشروط، خلافًا للأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا

يتكلم بمشيته، وإنما كلامه هو المعنىٰ القائم بنفسه، فهو قائم بالله أزلي أبدي؛ كقيام العلم والقدرة والسمع والبصر.

ولا ريب أن هذا باطل، وأن حقيقته إنكار كلام الله، ولهذا يقولون: إن الله يتكلم بكلام نفسي أزلي أبدي، كما يقولون: هذا الكلام الذي سمعه موسىٰ، وسمعه النبيﷺ، ونزل به جبريل علىٰ الرسولﷺ شيء مخلوق للتعبير عن كلام الله القائم بنفسه.

وهذا في الحقيقة قول الجهمية، كما قال بعض المحققين من الأشاعرة: ليس بيننا وبين الجهمية فرق، فإننا اتفقنا علىٰ أن هذا الذي بين دفتي المصحف مخلوق، لكن نحن قلنا عبارة عن كلام الله، وهم قالوا: هو كلام الله.

٣- إثبات أن قول الله حق، وهذا جاء في القرآن: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤]، وقال: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾[ص:٨٤]، فالله تعالىٰ لا يقول إلا حقًا؛ لأنه هو الحق، ولا يصدر عن الحق إلا الحق.

قوله: **«وفي الصحيح»**، سبق الكلام عليها.

قوله: **«قضىٰ الله الأمر في السماء»**: المراد بالأمر الشأن، ويكون القضاء بالقول، لقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٤٧].

قوله: **«خضعانًا»**؛ أي: خضوعًا، لقوله: **«كأنه»**؛ أي: صوت القول في وقعه علىٰ قلوبهم.

قوله: **«صفوان»** هو الحجر الأملس الصلب، والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم.

وليس المراد تشبيه صوت الله تعالىٰ بهذا؛ لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورىٰ:١١]، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلامه بفزع من يسمع سلسلة علىٰ صفوان.

قوله: **«ينفذهم ذلك»**: النفوذ: هو الدخول في الشيء، ومنه، نفذ السهم في الرمية؛ أي: دخل فيها، والمعنىٰ: إن هذا الصوت يبلغ منهم كل مبلغ.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: أُزيل عنها الفزع.

قوله: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض.

❁ **قوله:** ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾:

أي: قالوا: قال الحق؛ أي: قال القول الحق، فالحق صفة لمصدر محذوف مع عامله، تقديره: قال القول الحق، وهذا الجواب الذي يقولونه هل هم يقولونه؛ لأنهم سمعوا ما قال وعلموا أنه حق، أو أنهم كانوا يعلمون أنه لا يقول إلا الحق؟

يحتمل أن يكونوا قد علموا ما قال، وقالوا: إنه الحق؛ فيكون هذا عائدًا إلىٰ الوحي الذي تكلم الله به.

ويحتمل أنهم قالوا ذلك لعلمهم أن الله -سبحانه- لا يقول إلا الحق، فلذلك قالوا هذا؛ لأن ذلك صفته سبحانه وتعالىٰ.

وهذا الحديث مطابق للآية تمامًا، وعلىٰ هذا يجب أن يكون هذا تفسير الآية، ولا يقبل لأي قائل أن يفسرها بغيره؛ لأن تفسير القرآن إذا كان بالقرآن أو السنة، فإنه نص لا يمكن لأحد أن يتجاوزه.

وأما تفسير الصحابي؛ فإنه حجة عند أكثر المفسرين، وأما التابعين؛ فإن أكثر العلماء يقول: إنه ليس بحجة إلا من اختص منهم بشيء، كمجاهد، فإنه عرض المصحف علىٰ ابن عباس عشرين مرة أو أكثر، يقف عند كل آية ويسأله عن معناها، وأما من بعد التابعين، فليس تفسيره حجة علىٰ غيره، لكن إن أيده سياق القرآن كان العمدة سياق القرآن.

فلا يقبل أن يقال: إذا فزع عن قلوب الناس يوم القيامة، بل نقول: الرسول ﷺ فسر الآية بتفسير غيبي لا مجال للاجتهاد فيه، وما كان غيبيًّا وجاء به النص، فالواجب علينا قبوله، ولهذا نقول في مسألة ما يعذر فيه بالاجتهاد وما لا يعذر: أنه ليس عائدًا علىٰ أن هذا من الأصول وهذا من الفروع؛ كما قال بعض العلماء: الأصول لا مجال للاجتهاد فيها، ويخطئ المخالف مطلقًا بخلاف الفروع.

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية أنكر تقسيم الدين إلىٰ أصول وفروع، ويدل علىٰ بطلان هذا التقسيم: أن الصلاة عند الذين يقسمون من الفروع مع أنها من أجل الأصول.

والصواب: أن مدار الإنكار علىٰ ما للاجتهاد فيه مجال وما لا مجال فيه، فالأمور الغيبية ينكر علىٰ المخالف فيها ولا يعذر، سواء كانت تتعلق بصفات الله أو اليوم الآخر أو غير ذلك، لأنه لا مجال للاجتهاد فيها.

أما الأمور العملية التي للاجتهاد فيها مجال، فلا ينكر على المخالف فيها إلا إذا خالف نصًّا صريحًا، وإن كان يصح تضليله بهذه المخالفة، كقول ابن مسعود في بنت وبنت ابن وأخت: «للبنت النصف، ولابنة الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقي؛ فللأخت»، وذكر له قسمة أبي موسىٰ: «للابنة النصف، وللأخت النصف»، وقوله: «ائت ابن مسعود؛ فسيتابعني»؛ فأخبر ابن مسعود بذلك، فقال: «قد ضللت إذًا، وما أنا من المهتدين».

❁ **قوله: «فيسمعها مسترق السمع»:**

أي: هذه الكلمة التي تكلمت بها الملائكة.

و«**مسترق**»: مفرد مضاف؛ فيعم جميع المسترقين.

وتأمل كلمة «**مسترق**»؛ ففيها دليل علىٰ أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاسًا بسرعة، ويؤيده قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

قوله: «**ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض**»، يحتمل أن يكون هذا من كلامه ﷺ أو من كلام أبي هريرة، أو من كلام سفيان.

قوله: «**وصفه سفيان بكفه**»، أي: أنها واحد فوق الثاني، أي: الأصابع؛ فالجن يتراكبون واحدًا فوق الآخر، إلىٰ أن يصلوا إلىٰ السماء، فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩].

قوله: «**فيسمع الكلمة، فيلقيها إلىٰ من تحته**» أي: يسمع أعلىٰ المسترقين الكلمة، فيلقيها إلىٰ من تحته؛ أي: يخبره بها، و«**مَنْ**»: اسم موصول، وقوله: «**تحته**» شبه جملة صلة الموصول؛ لأنه ظرف.

❁ **قوله: «ثم يلقيها الآخر إلىٰ من تحته حتىٰ يلقيها»:**

أي: يلقي الكلمة آخرهم الذي في الأرض علىٰ لسان الساحر أو الكاهن.

والسحر: عزائم ورقىٰ وتعوذات تؤثر في بدن المسحور وقلبه وعقله وتفكيره.

والكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقد التبس علىٰ بعض طلبة العلم، فظنوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولو فيما مضىٰ، فهو كاهن، لكن ما مضىٰ مما يقع في الأرض ليس غيبًا مطلقًا، بل هو غيب نسبي، مثل ما يقع في المسجد يعد غيبًا بالنسبة لمن في الشارع، وليس غيبًا بالنسبة لمن في المسجد.

وقد يتصل الإنسان بجني، فيخبره عما حدث في الأرض ولو كان بعيدًا؛ فيستخدم الجن، لكن ليس علىٰ وجه محرم، فلا يسمىٰ كاهنًا، لأن الكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير، وهو نوع من الكهانة في الواقع، إذا لم يستند إلىٰ فراسة ثاقبة، أما إذا كان يخبر عما في الضمير استنادًا إلىٰ فراسة؛ فإنه ليس من الكهانة في شيء؛ لأن بعض الناس قد يفهم ما في الإنسان اعتمادًا علىٰ أسارير وجهه ولمحاته، وإن كان لا يعلمه علىٰ وجه التفصيل، لكن يعلمه علىٰ سبيل الإجمال.

فمن يخبر عما وقع في الأرض ليس من الكهان، ولكن ينظر في حاله، فإذا كان غير موثوق في دينه، فإننا لا نصدقه، لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات:٦].

وإن كان موثوقًا في دينه، ونعلم أنه لا يتوصل إلىٰ ذلك بمحرم من شرك أو غيره؛ فإننا لا ندخله في الكهان الذين يحرم الرجوع إلىٰ قولهم، ومن يخبر بأشياء وقعت في مكان ولم يطلع عليها أحد دون أن يكون موجودًا فيه، فلا يسمىٰ كاهنًا، لأنه لم يخبر عن مغيب مستقبل يمكن أن يكون عنده جني يخبره، والجني قد يخدم بني آدم بغير المحرم؛ إما محبة لله ﷻ أو لعلم يحصله منه، أو لغير ذلك من الأغراض المباحة.

والسحرة قد يكون لهم من الجن من يسترق لهم السمع.

ولا يصل هؤلاء المسترقون إلا إلىٰ السماء الدنيا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[الأنبياء:٣٢]، فلا يمكن نفوذه إلىٰ ما فوق.

قوله: «فربما أدركه الشهاب.... إلخ»:

الشهاب: جزء منفصل من النجوم، ثاقب، قوي، ينفذ فيما يصطدم به.

قال العلماء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾[الملك:٥]، أي: جعلنا شهابها الذي ينطلق منها؛ فهذا من باب عود الضمير إلىٰ الجزء لا إلىٰ الكل.

فالشهب: نيازك تنطلق من النجوم.

وهي كما قال أهل الفلك: تنزل إلىٰ الأرض، وقد تحدث تصدعًا فيها أما النجم، فلو وصل إلىٰ الأرض؛ لأحرقها.

واختلف العلماء: هل المسترقون انقطعوا عن الاستراق بعد بعثة الرسول ﷺ إلىٰ الأبد، أو انقطعوا في وقته فقط؟ والثاني هو الأقرب: أنهم انقطعوا في وقت البعثة فقط، حتىٰ لا يلتبس كلام الكهان بالوحي، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا.

❁ **قوله: «فيكذب معها مائة كذبة»:**

هل هذا علىٰ سبيل التحديد، أو المراد المبالغة، أي أنه يكذب معها كذبات كثيرة؟

الثاني هو الأقرب، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص؛ فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟

والناس في هذه الأمور الغريبة علىٰ حسب ما أخبر به المخبر يأخذون كل ما يقوله صدقًا، فإذا أخبر بشيء فوقع، ثم أخبر بشيء ثان؛ قالوا: إذن لا بد أن يصدق.

فوائد الحديث:

١- إثبات القول لله ﷻ.

٢- عظمة الله سبحانه وتعالىٰ.

٣- إثبات الأجنحة للملائكة.

٤- خوف الملائكة من الله ﷻ وخضوعهم له.

٥- أن الملائكة يتكلمون ويعقلون.

٦- أنه لا يصدر عن الله إلا الحق.

٧- أن الله -سبحانه- يمكِّن هؤلاء الجن من الوصول إلىٰ السماء فتنة للناس، وهي ما يلقونه علىٰ الكهان، فيحصل بذلك فتنة، والله ﷻ حكيم.

وقد يوجد الله أشياء تكون ضلالًا لبعض الناس، لكنها لبعضهم هدىٰ وامتحانًا وابتلاءً.

٨- كثرة الجن؛ لأنهم يترادفون إلىٰ السماء، ومعنىٰ ذلك أنهم كثيرون جدًّا، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيرانًا.

وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير بهم: أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفة، وهذا ممكن الآن في الطائرات، لكن في ذلك الوقت ليس هناك طائرات؛ فتحملهم الشياطين، ويجعلون للناس المكانس التي تكنس بها البيوت، ويقول: أنا أركب المكنسة وأطير بها إلىٰ مكة؛ فيفعلون هذا، وشيخ الإسلام يقول: إن هؤلاء كذبة ومستخدمون للشياطين، ويسيئون حتىٰ من الناحية العملية؛ لأنهم يمرون الميقات ولا يحرمون منه.

٩- أن الكهان من أكذب الناس، ولهذا يضيفون إلىٰ ما سمعوا كذبات كثيرة يضللون بها الناس، ويتوصلون بها إلىٰ باطلهم تارة بالترهيب وتارة بالترغيب، كأن يقولوا: ستقوم القيامة يوم كذا وكذا، وسيجري عليك كذا من موت أو سرقة مال ونحو ذلك.

١٠- أن الساحر يصور للمسحور غير الواقع، وفي هذا تحذير من أهل التمويه والتلبيس، وأنهم إن صدقوا في شيء، فيجب الحذر منهم بكل حال.

قوله: «وعن النواس....»:

هذا الحديث لم يخرجه المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم، وذكر فيه علة، وهي أن في سنده الوليد بن مسلم، وهو مدلس، وقد رواه عن شيخه بالعنعنة، فيكون في الحديث ضعف، إلا أنه قد روىٰ مسلم[٤٣٥] وأحمد من حديث ابن عباس حديثًا قد يكون شاهدًا له، حيث أخبر أن الله إذا تكلم بالوحي سمعه حملة العرش، فسبحوا، ثم سمعه أهل كل سماء، فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة، حتىٰ يصل إلىٰ السماء الدنيا، فتخطفه الجن أو الشياطين.

وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود؛ لكن يدل علىٰ أن له أصلًا.

قوله: «**إذا أراد أن يوحي بالأمر**»، أي: بالشأن.

قوله: «**تكلم بالوحي**»، جملة شرطية تقتضي تأخر المشروط عن الشرط، فالإرادة سابقة، والكلام لاحق؛ فيكون فيه رد علىٰ الأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلم بإرادة، وإن كلامه أزلي، كالسمع والبصر، ففيه إثبات الكلام الحادث، ولا ينقص كمال الله إذا قلنا: إنه يتكلم بما شاء، كيف شاء، متىٰ شاء، بل هذا صفة كمال، لكن النقص أن يقال: إنه لا يتكلم بحرف وصوت، إنما الكلام معنىٰ قائم بنفسه.

قوله: «أخذت السماوات منه رجفة»:

السماوات: مفعول به جمع مؤنث سالم، أو ملحق به، فيكون منصوبًا بالكسرة، ورجفة: فاعل.

قوله: «**أو قال: رعدة شديدة**»: شك من الراوي، وإنما تأخذ السماوات الرجفة أو الرعدة؛ لأنه سبحانه عظيم يخافه كل شيء، حتىٰ السماوات التي ليس فيها روح.

---

(٤٣٥) سبق تخريجه.

قوله: «**فإذا سمع ذلك أهل السماوات؛ صعقوا وخروا لله سجدًا**»:

فإن قيل: كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجدًا؟

فالجواب: أن الصعق هنا -والله أعلم- يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

قوله: «**فيكون أول من يرفع رأسه جبريل**»: أول: بالنصب على أنها خبر مقدم، وجبريل بالرفع على أنها اسم يكون مؤخرًا.

قوله: «**بما أراد**»: أي: بما شاء؛ لأن الله تعالى يتكلم بمشيئة.

قوله: «**ثم يمر جبريل على الملائكة**»: لأنه يريد النزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالوحي.

❁ **قوله**: «**قال الحق وهو العلي الكبير**»:

سبق في تفسير ذلك أنه يحتمل قال الحق في هذه القضية المعينة، أو قال الحق؛ لأن من عادته سبحانه ألا يقول إلا الحق، وأيًا كان، فإن جبريل لا يخبر الملائكة بما أوحى الله إليه، بل يقول: قال الحق مبهمًا، ولهذا سمي عليه السلام بالأمين، والأمين: هو الذي لا يبوح بالسر.

قوله: «**وهو العلي الكبير**»: تقدم الكلام عليه.

قوله: «**فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل**»، أي: قال الحق. وهو العلي الكبير.

قوله: «**فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل**»: أي: يصل بالوحي إلى حيث أمره الله من الأنبياء والرسل.

من فوائد الحديث:

١- إثبات الإرادة لقوله: «**إذا أراد الله**»، وهي قسمان: شرعية، وكونية.

والفرق بينهما أولًا: من حيث المتعلق؛ فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه الله عز وجل، سواء وقع أو لم يقع، وأما الكونية؛ فتتعلق بما يقع، سواء كان مما يحبه الله أو مما لا يحبه.

ثانيًا: الفرق بينهما من حيث الحكم، أي حصول المراد؛ فالشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، أما الكونية؛ فيلزم منها وقوع المراد.

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾[النساء:٢٧] هذه إرادة شرعية؛ لأنها لو كانت كونية لتاب على كل الناس، وأيضًا متعلقها فيما يحبه الله وهو التوبة.

وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[هود:٣٤] هذه كونية؛ لأن الله لا يريد الإغواء شرعًا، أما كونًا وقدرًا فقد يريده.

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[النساء:٢٦] هذه كونية، لكنها في الأصل شرعية؛ لأنه قال: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[النساء:٢٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥] هذه شرعية؛ لأن قوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ لا يمكن أن تكون كونية؛ إذ إن العسر يقع، ولو كان الله لا يريده قدرًا وكونًا؛ لم يقع.

٢- أن المخلوقات وإن كانت جمادًا تحس بعظمة الخالق، قال تعالىٰ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[الإسراء:٤٤].

٣- إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ ويجابون: قال: ﴿ٱلْحَقَّ﴾، خلافًا لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب.

٤- إثبات تعدد السماوات، لقوله: «**كلما مر بسماء**».

٥- أن لكل سماء ملائكة مخصصين؛ لقوله: «**سأله ملائكتها**».

٦- فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهذا قال ورقة بن نوفل: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسىٰ» والناموس بالعبرية بمعنىٰ صاحب السر.

٧- أمانة جبريل عليه السلام، حيث ينتهي بالوحي إلىٰ حيث أمره الله عز وجل فيكون فيه رد علىٰ الرافضة الكفرة الذين يقولون: بأن جبريل أمر أن يوحي إلىٰ علي فأوحىٰ إلىٰ محمد ﷺ، ويقولون: خان الأمين فصدها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلي بن أبي طالب؛ لأنه كان يقول في غزوة خيبر: أنا الذي سمتني أمي حيدرة.

وفي هذا تناقض منهم، لأن وصفه بالأمانة يقتضي عدم الخيانة.

٨- إثبات العزة والجلال لله عز وجل لقوله عز وجل، والعزة بمعنىٰ الغلبة والقوة، وللعزيز ثلاثة معان:

١- عزيز: بمعنىٰ ممتنع أن يناله أحد بسوء.

٢- عزيز: بمعنىٰ ذي قدر لا يشاركه فيه أحد.

٣- عزيز: بمعنىٰ غالب قاهر.

قال ابن القيم في النونية:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنىٰ يُرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان

وأما «جَلَّ»: فالجلال بمعنىٰ العظمة التي ليس فوقها عظمة.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير الآية؛ أي: قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وقد سبق تفسيرها.

الثانية: ما فيها من الحجة علىٰ إبطال الشرك: وذلك أن الملائكة وهم من هم في القوة والعظمة يصعقون ويفزعون من تعظيم الله؛ فكيف بالأصنام التي تعبد من دون الله وهي أقل منهم بكثير؛ فكيف يتعلق الإنسان بها؟!

ولذلك قيل: إن هذه الآية هي التي تقطع عروق الشرك من القلب؛ لأن الإنسان إذا عرف عظمة الرب سبحانه حيث ترتجف السماوات ويصعق أهلها بمجرد تكلمه بالوحي؛ فكيف يمكن للإنسان أن يشرك بالله شيئًا مخلوقًا ربما يصنعه بيده، حتىٰ كان جهال العرب يصنعون آلهةً من التمر إذا جاع أحدهم أكلها؟!

وينزل أحدهم بالوادي فيأخذ أربعة أحجار: ثلاثة يجعلها تحت القدر، والرابع -وهو أحسنها- يجعلها إلهًا له.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾: وسبق تفسيرها.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك: فالسؤال: ماذا قال ربكم؟ وسببه شدة خوفهم منه وفزعهم خوفًا من أن يكون قد قال فيهم ما لا يطيقونه من التعذيب.

الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا؛ أي: يقول: قال الحق.

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل: لحديث النواس بن سمعان، وفيه فضيلة جبريل.

السابعة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم لأنهم يسألونه: وفي هذا دليل علىٰ عظمته بينهم.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم: تؤخذ من قوله: «**فإذا سمع ذلك أهل السماوات؛ صعقوا وخروا لله سجدًا**».

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله: لقوله: «**أخذت السماوات منه رجفة**»؛ أي: لأجله تعظيمًا لله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلىٰ حيث أمره، أي: لا أحد يتولىٰ إيصال الوحي غير جبريل حتىٰ يوصله إلىٰ حيث أمره به؛ لأنه الأمين علىٰ الوحي.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين: أي: الذين يسترقون ما يسمع في السماوات، فيلقونه علىٰ الكهان، فيزيد فيه الكهان وينقصون.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا: وصفها سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ بأن حرفَّ يده وبدَّدَ بين أصابعه.

الثالثة عشرة: إرسال الشهب: يعني: التي تحرق مسترقي السمع، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر:١٨].

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان: لأنه يأتي بما سمع من السماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السماء، صار صادقًا.

اعتراض وجوابه:

كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون بقال الحق فقط؟

والجواب: إن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلىٰ جبريل إلىٰ النبي ﷺ.

أما الأمور القدرية التي يتكلم الله بها؛ فليست خاصة بجبريل. بل ربما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقو السمع.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة: أي: يكذب مع الكلمة التي تلقاها من المسترق.

وقوله: «مائة كذبة»: هذا علىٰ سبيل المبالغة كما سبق وليس علىٰ سبيل التحديد.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء: وأما ما قاله من عنده؛ فهو تخرص؛ فالكلمة التي سمعها تصدق، والذي يضيفه كله كذب يموه به علىٰ الناس.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟! وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسَّفه؛ فهم يتعلقون بالكاهن من أجل صدقه مرة واحدة، وأما مائة كذبة؛ فلا يعتبرون بها، ولا شك أن بعض السفهاء يغترون بالصالح

المغمور بالمفاسد، ولكن لا يغتر به أهل العقل والإيمان، ولهذا لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة:٢١٩]. تركهما كثير من الصحابة اعتبارًا بالموازنة، والعاقل لا يمكن إذا وازن بين الأشياء أن يرجح جانب المفسدة؛ فهو وإن لم يأت الشرع بالتعيين يعرف ويميز بين المضار والمنافع.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقىٰ بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها... إلخ: الكلمة: هي الصدق؛ لأنها هي التي تروج بضاعتهم، ولو كانت بضاعتهم كلها كذبًا ما راجت بين الناس.

العشرون: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية المعطلة: الأشعرية: هم الذين ينتسبون إلىٰ أبي الحسن الأشعري؛ وسموا معطلة لأنهم يعطلون النصوص عن المعنىٰ المراد بها ويعطلون ما وصف الله به نفسه. والمراد تعطيل أكثر ذلك فإنهم يعطلون أكثر الصفات ولا يعطلون جميعها، بخلاف المعتزلة؛ فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون بالأسماء، هؤلاء عامتهم، وإلا؛ فغلاتهم ينكرون حتىٰ الأسماء، وأما الأشاعرة؛ فهم معطلة اعتبارًا بالأكثر؛ لأنهم لا يثبتون من الصفات إلا سبعًا. وصفاته تعالىٰ لا تحصىٰ، وإثباتهم لهذه السبع ليس كإثبات السلف؛ **فمثلًا:** الكلام عند أهل السنة: أن الله يتكلم بمشيئته بصوت وحرف.

والأشاعرة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزومه الحياة والعلم، ولا يتكلم بمشيئته، وهذا الذي يُسمع عبارة عن كلام الله وليس كلام الله، بل هو مخلوق؛ فحقيقة الأمر أنهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم: إنه لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام الله؛ لأننا أجمعنا علىٰ أن ما بين دفتي المصحف مخلوق، وحجتهم في إثبات الصفات السبع: أن العقل دل عليها. وشبهتهم في إنكار البقية: زعموا أن العقل لا يدل عليها.

والرد عليهم بما يلي:

١- أن كون العقل يدل علىٰ الصفات السبع لا يدل علىٰ انتفاء ما سواها؛ فإن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول؛ فهب أن العقل لا يدل علىٰ بقية الصفات، لكن السمع دل عليها؛ فنثبتها بالدليل السمعي.

٢- أنها ثابتة بالدليل العقلي بنظير ما أثبتم هذه السبع؛ **فمثلًا:** الإرادة ثابتة لله عندهم بدليل التخصيص، حيث إن الله جعل الشمس شمسًا والقمر قمرًا والسماء سماءً والأرض أرضًا، وكونه يميز بين ذلك معناه أنه سبحانه وتعالىٰ يريد؛ إذ لولا الإرادة؛ لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها لأن العقل دل عليها.

فنقول لهم: الرحمة لا تمضي لحظة على الخلق إلا وهم في نعمة من الله؛ فهذه النعم العظيمة من الله تدل على رحمته لخلقه أدل من التخصيص على الإرادة.

والانتقام من العُصاة يدل على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم أدل على التخصيص من الإرادة، وعلى هذا فقس؛ فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لما كان الأشعرية لا يثبتون إلا سبع صفات على خلاف في إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطلة على سبيل الإطلاق، وإلا؛ فالحقيقة أنهم ليسوا معطلة على سبيل الإطلاق.

الحادية والعشرون: **التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله عَزَّ وَجَلَّ**: فيدل على عظمة الخالق جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.

الثانية والعشرون: **أنهم يخرون لله سجدًا**: أي: تعظيمًا لله واتقاء لما يخشونه؛ فتفيد تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ كالتي قبلها.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: باب قول الله تعالى:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ فيه بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عبد من دون الله فإذا كان حالهم مع الله ما ذكر من هيبتهم منه وخشيتهم له فكيف يدعون مع الله فغيرهم من باب أولى. ففي ذلك ردٌّ على جميع المشركين الذين يدعون مع الله من لا يُداني الملائكة.

﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أزيل الفزع عن قلوب الملائكة من الغشية التي تصيبهم عند سماع كلام الله بالوحي إلى جبريل.

﴿قَالُواْ﴾: أي قال بعضهم لبعضٍ استبشارًا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ [سبأ:٢٣].

﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾: أي: قال الله الحق.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾: الذي له عُلُوُّ القدر وعُلُوُّ القهر وعُلُوُّ الذات.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: أي الذي لا أكبر ولا أعظم منه تبارك وتعالى.

المعنى الإجمالي للآية:

يخبر الله سبحانه عن الملائكة أنها إذا سمعت الوحي من الله إلى جبريل فزعت عند ذلك تعظيمًا وهيبة وأرعدت حتى يصيبها مثل الغشيِّ، فإذا أزيل الفزع من قلوبهم أخذوا يتساءلون فيقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيقولون؟ قال الحق وهو العالي فوق كل شيء الذي لا أكبر منه ولا أعظم.

ما يستفاد من الآية:

١- الرد علىٰ جميع فرق المشركين الذين يعبدون مع الله من لا يداني الملائكة ولا يساويهم في صفة من صفاتهم.

٢- إثبات الكلام لله سبحانه علىٰ ما يليق بجلاله.

٣- أن كلام الله سبحانه وتعالىٰ غير مخلوق، لأنهم يقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؟ لم يقولوا: ماذا خلق ربكم؟

٤- إثبات العلو لله سبحانه فوق مخلوقاته.

٥- إثبات عظمة الله.

قوله: «سفيان»:

هو ابن عيينة بن ميمون الهلالي ثقة حافظ حجة من كبار الأئمة، مات سنة ١٩٨هـ.

«**في الصحيح**»: أي في صحيح البخاري.

«**إذا قضىٰ الله الأمر**»: أي إذا تكلم به.

«**خضعانًا**»: بفتحتين من الخضوع، وروي بضم أوله وسكون ثانيه أي خاضعين.

«**لقوله**»: أي لقول الله تعالىٰ.

«**كأنه**»: أي الصوت المسموع.

«**صفوان**»: هو الحجر الأملس.

«**ينفذهم ذلك**»: أي يخلص هذا القول ويمضي في الملائكة.

«**فيسمعها**»: أي الكلمة التي قضاها الله.

«**مسترق السمع**»: المختطف لكلام الملائكة من الشياطين.

«**وصفه**»: أي وصف ركوب الشياطين بعضهم فوق بعضٍ حتىٰ يصلوا إلىٰ حيث يسمعون تحدث الملائكة بالأمر يقضيه الله.

«**فحرَّفها**»: أمالها.

«**وبدد بين أصابعه**»: أي فرق بينها.

«**الساحر**»: الذي يتعاطىٰ السحر: وهو عبارةٌ عمَّا خَفِيَ ولطف سببه من عمل العقد والرقي وغيرها.

«**والكاهن**»: هو الذي يخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدَّعِي معرفةَ الأَسرارِ.

«**أدركه الشهاب**»: أي أدرك المسترق الشهاب: وهو الذي يُرمىٰ به قبل إلقائها فيحرقه.

«**فيكذب**»: أي الساحر أو الكاهن.

«**معها**»: أي الكلمة التي ألقاها.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر النبيﷺ عن تعظيم الملائكة لكلام الله وما يعتريهم من الخوف وتساؤلهم عمَّا قال ربهم وإجابة بعضهم لبعضٍ. وما تعمله الشياطين الذين يختطفون كلام الملائكة في ذلك لتلقيه إلىٰ السحرة والكهان من الناس وما تلاقيه الشياطين من الرَّمْي بالشهبِ حينئذٍ، وأنَّه قد يتمكن الشيطان من إيصال الكلمة المسموعة من الملائكة إلىٰ الساحر أو الكاهن -لحكمةٍ يعلمُها الله وإلاَّ فهو سبحانه لا يفوته شيء- فيزداد مع تلك الكلمة من قبل الشيطان أو الآدمي تسع وتسعون كذبة وتذاع كلها في الناس فيصدقونها كلَّها بسبب تلك الكلمة المسموعة.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه الردَّ علىٰ المشركين. فإنه إذا كان هذا حال الملائكة عند سماع كلام الله مع ما أعطاهم الله من القوة عُلم أنه لا يجوز صرف شيء من العبادة لهم فكيف بمن دونهم.

ما يستفاد من الحديث:

١- الردُّ علىٰ المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والصَّالحين.

٢- تعظيم الله سبحانه وأنَّه المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

٣- إثبات علو الله علىٰ خلقه وإثبات تكلمه بكلام يُسمع.

٤- إبطال السحر والكهانة وإن صدق الكاهن والساحر في بعض الأحيان.

٥- أنَّ العبرة بالغالب الكثير لا بالنادر القليل.

❁ **قوله: «النواس»:**

هو النواس بن سمعان -بكسر السين- ابن خالدٍ الكلابي صحابي جليل رضي الله عنه.

«**الوحي**»: أي: كلام الله المنزل علىٰ نبي من أنبيائه.

«**أخذت السماوات**»: أي أصاب السماوات.

«رجفة»: بالرفع فاعل أخذت. أي: ارتجفت واضطربت.

«خوفًا من الله»: لأنها تخاف من الله بما جعل فيها من الإحساس والمعرفة بالله.

«صعقوا»: الصعق الغشي.

«خرّوا»: خرَّ: سقط من أعلىٰ، والمراد هنا انحطوا بالسجود.

«أول»: بالفتح خبر يكون.

«إلىٰ حيث أمره الله»: من السماء والأرض.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبر نبي الله ﷺ عن عظمة ربه ﷻ بأنه سبحانه إذا تكلم بما شاء من وحيه، فإنه يصيب السماوات ارتجافٌ وحركةٌ شديدةٌ من خوف الله ﷻ لمعرفتها بعظمة الله، فإذا سمعت الملائكة كلام الله ﷻ غُشِيَ عليهم وانحطُّوا بالسجود تعظيمًا لله وخوفًا منه، ثُمَّ يكونُ جبريلُ عليه السلامُ أولَ مَنْ يرفعُ رأسَه منهم؛ لأنه السفيرُ بين اللهِ وبينَ رسلِه، فيكلِّمُه الله بما شاء من أمرِهِ، ثُمَّ يمرُّ جبريلُ علىٰ ملائِكةِ السمواتِ فيسألونه عمَّا قال الله؟ فيجيبهم بقوله: «قال الحق وهو العلي الكبير» فيقولون مثل ما قال، ثم يمضي جبريل بالوحي فيبلغه إلىٰ من أمره الله بتبليغه إياه.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه ما في النصوص قبله من بيان عظمة الله وخوف الملائكة والسموات منه، ففيه الرد علىٰ من عبد غير الله.

ما يستفاد من الحديث:

١- الرد علىٰ المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهةً من مخلوقاته.

٢- بيان عظمة الله جل وعلا واستحقاقه للعبادة وحده.

٣- إثبات أنَّ الله يتكلم متىٰ شاء بما يشاء كيف يشاء.

٤- إثبات علو الله علىٰ خلقه.

٥- فضل جبريل عليه السلام.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** « باب قول الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد -كما ذكرنا سابقًا- أن فيه برهانًا علىٰ أن المستحق للعبادة هو الله -جل جلاله- لأنه هو المتصف بصفات الكمال والجلال.

وهذا الباب فيه ذِكرٌ لصفات الجلال لله -جل وعلا- إذ كل من في السماوات والأرض خائف منه، ووجل؛ لأنه -سبحانه- الجليل، ولذلك كان أعرف عُمّار السماء به هم الملائكة الذين قال الله تعالىٰ في وصفهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠] وقال -جل وعلا- في وصفهم أيضا: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨] فصفات الجلال، والكمال، والجمال له سبحانه، وهذه كلها دلائل علىٰ أنه هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه؛ لأنه المتصف بالعظمة الكاملة، وهو الذي ينبغي أن يُهاب وأن يخاف منه علىٰ الحقيقة، فكل ما في السماوات والأرض جار علىٰ وفق أمره سبحانه وتعالىٰ.

فهو -سبحانه وتعالىٰ- ذو الأسماء الحسنىٰ، وذو الصفات العلىٰ، ولهذا قال -جل وعلا- في آية سبإ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ و﴿فُزِّعَ﴾ يعني: أزيل الفزع عن قلوب الملائكة، فالملائكة مع أنهم مقربون إلا أنهم شديدو المعرفة بالله -جل وعلا- وشديدو العلم به، فعلمهم بربهم -سبحانه- عظيم، ومما يعلمونه عن الله -جل وعلا- أنه هو الجبار، وأنه هو الجليل سبحانه، وأنه ذو الملكوت، فلهذا اشتدّ فزعهم منه سبحانه؛ لأنه لا غنىٰ بهم عنه -جل وعلا- طرفة عين.

والصفات التي اشتملت علىٰ هذا النوع من البرهان علىٰ استحقاقه -تعالىٰ- للعبادة هي صفات الجلال لله -جل وعلا- وهي الصفات التي تورث الخوف في القلب؛ لأن الصفات تنقسم إلىٰ أقسام متنوعة باعتبارات، ومن ذلك أنها تنقسم إلىٰ صفات جلال، وصفات جمال.

فالصفات التي تُحدثُ في القلب الخوف، والهلع، والرهبة من الرب -جل وعلا- تسمىٰ صفات الجلال، والذي يتصف بصفات الجلال علىٰ الحقيقة هو الله -جل وعلا- لأنه هو الكامل في صفاته سبحانه.

فإذا كان كذلك فإن الكامل في صفاته هو المستحق للعبادة، وأما البشر المخلوقون فإنهم ناقصون في صفاتهم، ويعلمون أن حياتهم ليست حياة كاملة فحيث عرض لها عرض من موتٍ، أو مرض، أو غيرهما، فإنها تضعف بذلك، وتعجز عن أن تعمل شيئًا، وربما تهلك، فحقيقة الأمر أن البشر ضعافٌ فقراء، محتاجون، ليست لهم صفات الكمال، وهذا دليل عجزهم، ونقصهم، وأنهم مربوبون، مقهورون.

ولهذا يجب على العباد أن يتوجّهوا بالعبادة إلىٰ من له صفات الكمال، ونعوت الجمال، والجلال، وهو الله -جل وعلا- وحده سبحانه وتعالىٰ، فهذا المراد بهذا الباب وهو ظاهر بحمد الله تعالىٰ.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية أي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، أي زال عنها الفزع والمراد به الملائكة.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك خصوصًا ما تعلق على الصالحين وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب، أي: بسبب أمور أربعة:

الأول: أنهم لا يملكون شيئًا.

الثاني: أنهم لا يملكون قسطًا من الملك.

الثالث: أنهم لا يعاونون الله لغناه عن جميع خلقه.

الرابع: أنهم لا يملكون الشفاعة إلا بإذنه لمن ارتضى كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام في الباب الذي بعده.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾، أي: أخبروا أن الله لا يقول إلا حقًّا وهو العلي الذي علا على جميع خلقه: علو الذات وعلو القهر وعلو القدر الكبير الذي لا أكبر منه جل وعلا.

الرابعة: بسبب سؤالهم عن ذلك، أي: لما كانوا يصعقون حين يسمعون كلام الله فلا يفهمونه فإذا زال ذلك عنهم سألوا عنه فأخبروا.

الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا؛ لأنه الملك الموكل بالوحي،وهو أول من يرفع رأسه.

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل، أي: لأنه الملك الموكل بالوحي،ويدل ذلك على فضله.

السابعة: أنه يقول لأهل السموات كلهم ؛لأنهم يسألونه أي لقوله: ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السموات كلهم أي لقوله: فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا.

التاسعة: ارتجاف السموات بكلام الله، أي لقوله: أخذت السموات منه رجفة.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلىٰ حيث أمره الله، أي: كما ذكره في آخر الحديث، وذلك والله أعلم لأنه الملك الموكل بالوحي.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين، أي: إنهم يركب بعضهم بعضًا فيسترقون السمع من السماء أو من السحاب كما في الحديث الآخر.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا، أي كما وصف سفيان بن عيينة أحد رواة الحديث فبدد بين أصابعه وحرف كفه.

الثالثة عشرة: إرسال الشهاب، أي: إن الشيطان إذا أراد استراق السمع أرسل عليه الشهاب.

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها،وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه، أي لقوله في الحديث فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق في بعض الأحيان، أي: لأجل ما أتاه به وليه من الشياطين لا لكون صدقه عن علم.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة، أي: يخلط مع تلك الكلمة الواحدة مائة كذبة ليروج بها علىٰ الناس فيقبلوا كذبه.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء، أي: لاغترار الناس بها وغفلتهم عما قارنها من الكذبات.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة، أي: إن كونهم اغتروا بالواحدة فصدقوه بها في كل ما قال، ولم يعتبروا بمائة فيردوا بها الباطل؛ من قبول نفوسهم للباطل.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها، أي: هذا من أسباب ترويج ما يقوله الكاهن من الباطل، ولو أنهم قالوا: إنه يكذب كثيرًا، ولم يغتروا بهذه الكلمة لسلموا من باطله ولم يرج عليهم.

العشرون: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية المعطلة، أي: مثل صفة الكلام من قوله: تكلم بالوحي،وقوله: سمع صوته أهل السماء أنه بصوت، ومثل صفة العلو من قوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

الحادية والعشرون: أن تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله عز وجل، أي: كما ذكره في الحديث وفيه أن السموات تخاف الله حقيقة بما جعله فيها.

الثانية و العشرون: أنهم يخرون سجدًا، أي كما ذكر في الحديث.



* الأسئلة *

س: ما المراد بالذين فزع عن قلوبهم؟ وما معنى فزع وما سبب ذلك الفزع؟

جـ: الذين فزع عن قلوبهم الملائكة. ومعنى فزع عن قلوبهم: زال الفزع عنها وهو الخوف. وسبب ذلك الفزع سماعهم كلام الله بالوحي الذي كأنه جر سلسلة الحديد على الصفا فيصعقون من ذلك.

س: ما المقصود بقوله قالوا الحق؟

جـ: أي قالوا قال الله الحق، علموا أن الله لا يقول إلا الحق.

س: اذكر مراد المؤلف بهذا الباب؟

جـ: أراد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عُبد من دون الله، فإذا كانت هذه هيبتهم وخوفهم من الله فكيف يدعوهم أحد من دون الله وإذا كانوا لا يدعون فغيرهم أولى ففيه رد على جميع فرق المشركين.

❁ **قوله:** في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء...».

س: بين معاني الكلمات الآتية: إذا قضى الله الأمر، خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة، صفوان، ينفذهم ذلك، مسترقو السمع، فحرفها، بدد بين أصابعه، الشهاب، الساحر، الكاهن؟

جـ- **إذا قضي الله الأمر**: أي إذا تكلم الله بالأمر الذي يوحيه إلى جبريل.

خضعانًا لقوله: أي خاضعين لقول الله.

كأنه سلسلة: كأن الصوت المسموع صوت سلسلة من حديد.

صفوان: الحجر الأملس.

ينفذهم ذلك: يخلص ذلك القول ويمضي في قلوب الملائكة.

مسترقو السمع: الشياطين، يركب بعضهم بعضًا.

فحرفها: أمالها.

بدد بين أصابعه: فرق بينها، المعنىٰ أن ركوب بعضهم فوق بعض من غير مماسة.

الشهاب: هو النجم الذي يرمىٰ به.

الساحر: هو الذي يخرج الباطل في صورة الحق بعمل السحر.

الكاهن: هو الذي يدعي علم الغيب.

وعن النواس بن سمعان ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالىٰ أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة أو قال: رعدة شديدة خوفًا من الله ﷻ فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجدًا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل علىٰ الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل، فيقول جبريل قال الحق وهو العلي الكبير فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلىٰ حيث أمره الله ﷻ»[٤٣٦] **رواه بن أبي حاتم.**

س: ما معنى رجفة، صعقوا، وما معنى «أو» في قوله: «أو قال رعدة»؟

جـ: **رجفة:** ارتجاف وهزة.

صعقوا: من الصعق وهو الغشي ومعه السجود.

ومعنىٰ **(أو)**: شك من الراوي هل قال الرسول ﷺ: رجفة، أو قال: رعدة.

س: اذكر ما يستفاد من الآية والحديثين المذكورين في هذا الباب وبين مناسبتها لكتاب التوحيد؟

جـ: يستفاد منها:

١ - إثبات علو الله علىٰ خلقه بأنواعه الثلاثة: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، فله العلو الكامل من جميع الوجوه سبحانه وتعالىٰ.

٢ - - إثبات صفة الكِبَر لله فهو الكبير الذي لا أكبر ولا أعظم منه.

---

(٤٣٦) سبق تخريجه.

٣ - إثبات صفة الكلام لله وأنه لم يزل متكلمًا إذا شاء بكلام تسمعه الملائكة.

٤ - فضل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث خصه الله بكلامه ووحيه.

ومناسبتها لكتاب التوحيد: أن فيها تقرير التوحيد فإن الملك العظيم الذي تصعق الملائكة من كلامه خوفًا منه ومهابة وترجف منه المخلوقات هو الكامل في ذاته وصفاته وملكه وغناه عن خلقه لا يجوز أن يجعل له شريك في عبادته.

الدرس السابع عشر:

باب الشفاعة

وقول الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٥١]

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيتين [سبأ: ٢٢،٢٣]

قال أبو العباس[٤٣٧]: نفىٰ الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفىٰ أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونًا لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده -لا يبدأ بالشفاعة أولًا- ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل[٤٣٨] تُعط، واشفع تُشفع»[٤٣٩].

وقال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله؛ خالصًا من

---

(٤٣٧) ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٧٧).

(٤٣٨) في نسخة الفوزان: «واسأل»، والمثبت موافق لما في مصدري التخريج.

(٤٣٩) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: قوله الله ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

قلبه»[٤٤٠].

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع؛ ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك؛ ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بين النبيﷺ أنها لا تكون إلا لأهل[الإخلاص والتوحيد][٤٤١]، انتهى كلامه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى وهي المقام المحمود.

الخامسة: صفة ما يفعلهﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له، شفع.

السادسة: من أسعد الناس بها؟

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله: «باب الشفاعة»:**

---

(٤٤٠) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: الحرص على الحديث، برقم (٩٩)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٤١) في نسخة ابن قاسم، والسعدي، الفوزان: «التوحيد والإخلاص»، وفي نسخة ابن باز: «التوحيد الخالص»، والمثبت من نسخة ابن عثيمين.

أي: بيان الشفاعة وإيضاحها، وبيان حكمها وحقيقتها، وبيان ما أثبته القرآن منها وما نفاه، ولما كان المشركون في قديم الدهر وحديثه إنما وقعوا في الشرك لتعلقهم بأذيال الشفاعة، كما أخبر الله عنهم، حتىٰ إنه ﷺ لما ألقىٰ الشيطان في تلاوته «وإن شفاعتهن لترتجىٰ»[٤٤٢] رضي المشركون عنه، وسجدوا معه، ظنوا أنه ﷺ قاله، وأنه وافقهم علىٰ دينهم، من دعاء الملائكة والأصنام للشفاعة. أراد المصنف رحمه الله في هذا الباب إقامة الحجج علىٰ أن ذلك هو عين الشرك، وأن الشفاعة التي يظنها مَنْ دَعَا غَيْرَ الله أنه يشفع كما يشفع الوزير عند الملك، منفية دنيا وأخرىٰ، وإنما الله الذي يأذن للشافع ابتداء، لا يشفع الشافع ابتداء كما يظنه أعداء الله.

والشفاعة: مصدر من الشفع ضد الوتر، وشفع فيه: أعانه. وفي النهاية: «هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم» ا.هـ.

وهي نوعان:

شفاعة منفية: وهي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله. ومثبتة: وهي التي تطلب من الله، ولا تكون إلا لأهل التوحيد، ومقيدة بأمرين: إذن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له.

والناس في الشفاعة ثلاث طوائف: طرفان ووسط، فطائفة أنكروها كاليهود والنصارىٰ والخوارج المكفرين بالذنوب، وطائفة أثبتوها وغلوا في إثباتها، حتىٰ جوزوا طلبها من الأولياء والصالحين، وأهل السنة والجماعة أثبتوا الشفاعة الشرعية، كما ذكر الله في كتابه، ولا تطلب إلا من الله، كأن تسأله تعالىٰ أن يشفع فيك نبيك محمدًا ﷺ فإن الشفاعة محض فضل وإحسان.

❁ **قوله:** «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾»:

الإنذار: الإعلام بأسباب المخافة، والتحذير منها، ﴿وَأَنذِرْ﴾ أي: خوف -يا محمد- بالقرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾: يخشون ﴿أَن يُحْشَرُوٓاْ﴾ أي: يجمعوا ويبعثوا إلىٰ ربهم يوم القيامة، وهم المؤمنون

---

(٤٤٢) هذا الحديث يُعرف بقصة الغرانيق، وللشيخ الألباني رحمه الله بحثٌ نفيس في جمع طرق هذا الحديث سمَّاه: «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق»، وقد أثبت رحمه الله بطلان هذه القصة سندًا ومتنًا، وردَّ فيها علىٰ من صححها. هذا ومن أراد المزيد في ذلك فليرجع الي رسالة الشيخ رحمه الله.

المخلصون، أصحاب القلوب الحية الواعية الذين لم يتخذوا لهم من دون الله وليًا ولا شفيعًا، بل أخلصوا قصدهم وطلبهم وجميع أعمالهم لله وحده، ولم يلتفتوا إلىٰ أحد سواه فيما يرجون نفعه ويخافون ضره.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾:

أي: لا قريب لهم، ولا شفيع يشفع فيهم من عذابه إذا أراده بهم. قال الزجاج: موضع ﴿لَيْسَ﴾ نصب علىٰ الحال، كأنه قال: متخلين من ولي وشفيع، والعامل فيه ﴿يَخَافُونَ﴾. وقال ابن كثير: ليس لهم يومئذ: ﴿مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الأنعام:٥١] فيعملون في هذه الدار عملًا ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة، ويتركون التعلق علىٰ الشفعاء وغيرهم؛ لأنه ينافي الإخلاص الذي لا يقبل الله من أحد عملًا بدونه.

قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]»:

«اللام» للملك، أي: هي ملك لله تعالىٰ، فليس لمن تطلب منه شيء منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون ما سواه؛ لأن ذلك عبادة وتأله لا يصلح إلا له تعالىٰ، وقال قبلها: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[الزمر:٤٣] فأخبر -سبحانه- أن وقوع الشفاعة علىٰ هذا الوجه منتف عقلًا وشرعًا، فقوله: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الزمر:٤٤] تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه؛ لأنه مالك الملك، فيجب اندراج ملك الشفاعة في ذلك، فإذا كان هو مالكها بطل أن تطلب ممن لا يملكها.

قال ابن جرير: نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلا لتقربنا إلىٰ الله زلفىٰ، قال الله: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فتعلمون أن من طلبها من غير الله أنه خاسر السعي، وأنها غير حاصلة له؛ لأنه طلبها من غير مالكها، بل طلبها من غير الله إفك وافتراء، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[الأحقاف:٢٨].

قوله: «وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾»:

قد تبين مما تقدم من الآيات أن الشفاعة التي نفاها القرآن هي التي تطلب من غير الله، وفي هذه الآية رد علىٰ المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله، من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها، وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه، فأنكر عليهم، وبين عظيم ملكوته وكبريائه، وأن

أحدا لا يتمكن أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له، وأن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه، كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩]. فبين -تعالى- أنها لا تقع إلا بشرطين: إذن الرب للشافع أن يشفع، ورضاه عن المأذون فيه. وهو سبحانه لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه، ولقيه العبد به مخلصًا غير مشرك.

قوله: «وقوله: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾»:

﴿وَكَم﴾: تكثيرية ﴿لَا تُغْنِي﴾، أي: لا تجدي ولا تنفع ﴿شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ﴾إذن الرب تبارك وتعالى لمن شاء أن يشفع له، ورضي قوله وعمله، فصار ممن استحق الشفاعة، وذلك لمن سلم من الشرك قليله وكثيره، وهذه الآية كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]. وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ:٢٣]. وإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجى شفاعة هذه الأنداد عند الله؟! سبحان الله ما أعظم شأنه !.

قوله: «**وقوله:** ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾الآيتين»:

أي: ﴿قُلِ﴾يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾أنهم آلهة من دون الله، ليكشفوا الضر الذي نزل بكم، ثم وصفهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[سبأ:٢٢] من خير وشر، ونفع وضر: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾لا يملكون شيئًا استقلالًا، ولا على سبيل الشركة: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ:٢٢] عوين يعينه بشيء: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبأ:٢٣] في الشفاعة، قاله تعالى تكذيبًا لهم حيث قالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[يونس:١٨]. قال ابن القيم وغيره في هذه الآية: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها، فقد قطع الله بها جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون، على أي وجه كان، فإن المشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، **والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من أربع**: إمَّا أن يكون مالكًا لما يريده، أو شريكًا للمالك، أو معينًا وظهيرًا، أو شفيعًا، فنفى -سبحانه- المراتب الأربع نفيًا مرتبًا، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، ولم يجعل -سبحانه- الاستغاثة

بالميت أو غيره سببًا لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، لا ما يمنع الإذن، فالمشرك قد أتىٰ بأعظم حائل بينه وبين حصول الشفاعة، فهو كمن استعان في حاجة بما يمنع حصولها.

قوله: «**قال أبو العباس**»:

هذه كنية شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد ابن الخضر بن علي بن عبد الله ابن تيمية الحراني، العالم الرباني، مفتي الأمة، بحر العلوم، ناصر السنة، قامع البدعة، صاحب المصنفات المشهورة المقبولة، المؤيدة بالكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة، الجديرة بأن تحفظ في أعماق القلوب، من تدبرها علم أنه قد جمع من العلوم النقلية والعقلية، ومن الإحاطة بمذاهب أهل الملل والنحل، وآراء المذاهب، وما قالت الفرق، ما لم يعلم مثله عن أحد من العلماء، وبين هذا الدين وعقائده، ورد سائر البدع بما لم يسبق إليه، ترجم له طوائف من الحفاظ، وأثنوا عليه في أسفار، وشهرته وإمامته في علوم الإسلام، وتفننه تغني عن الإطالة في وصفه، قال ابن دقيق العيد: كأن العلوم بين عينيه، يأخذ ما يشاء، ويدع ما يشاء. ولد سنة ٦٦١ هـ وتوفي -قدس الله روحه، ونور ضريحه- سنة ٧٢٨ هـ.

قوله: «**نفي الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون**»:

أي: نفىٰ في هذه الآية الكريمة عما سواه -تعالىٰ وتقدس- كل ما يتعلق به المشركون من الاعتقاد في غير الله، من الملك والشركة والمعاونة والشفاعة، فإن هذه الأمور الأربعة هي التي يتعلق بها المشركون.

قوله: «**فنفىٰ أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونًا لله**»:

فنفىٰ الملك بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[سبأ:٢٢] ونفىٰ القسط بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: لمن يدعون من الملائكة وغيرهم ﴿فِيهِمَا﴾أي في السماوات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾. ونفىٰ العون بقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ:٢٢]. أي: ما لله ممن يدعونهم عوين، فمن ليس بمالك، ولا شريك للمالك، ولا ظهير له، فكيف يدعىٰ من دونه؟! فهو -سبحانه- الذي يأذن للشافع ابتداء فيشفع، فبنفي هذه الأمور عن كل مدعو غير الله- وهي التي لا بد أن يكون المدعو مالكًا لأحدها حتىٰ يستحق أن يدعىٰ بطلت دعوة غير الله؛ إذ ليس عند غيره من النفع والضر ما يوجب قصده بشيء من العبادة.

قوله: «**ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب**»:

وهو سبحانه لا يأذن إلا لأهل التوحيد.

قوله: «كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[الأنبياء:٢٨]»

أي لمن رضي الله عنه من أهل الإيمان به وحده، وقال ابن عباس: إلا لمن قال: لا إله إلا الله.

قوله: «**فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن**»:

أي التي تطلب من غير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، كقول أحدهم: الشفاعة، أو اشفع لي، منتفية دنيا وأخرىٰ كما أخبر الله به في كتابه، ولو طلبها منه علىٰ سبيل الشفاعة إلىٰ الله، فهو فعل المشركين الذي كفرهم الله به، فإنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر:٣]. قال تعالىٰ مكذبًا لدعواهم ومكفرًا لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر:٣].

قوله: «**وأخبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة...**»:

هذا قطعة من حديث الشفاعة، المخرج في «الصحيحين» وغيرهما من حديث أنس وغيره في أهل الموقف، وهو إخبار منه ﷺ بتحقيق الشفاعة، وأنه لا يشفع إلا من بعد إذن الله تعالىٰ له في الشفاعة، وفي المشفوع فيهم.

قوله: «**وقال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»:

هذا الحديث رواه البخاري وغيره، قال: «**قلت: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك علىٰ الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه**»[٤٤٣]. وفي رواية: «**خالصًا مخلصًا من قلبه**»[٤٤٤]. والمراد مع قوله: محمد رسول الله، لكن قد يكتفىٰ بها لاقتضائها لها، وخالصًا احتراز من المنافق، و(أسعد): أفعل تفضيل، وقيل: أي: سعيد الناس، أو المخلص أكثر سعادة بها، فجعل أسعد الناس بشفاعته أكملهم إخلاصًا.

---

(٤٤٣)سبق تخريجه.

(٤٤٤)السابق.

ورواه أحمدُ وابن حبان وصححه وفيه: «**وشفاعتي لمن قال: لا إله إلا الله مخلصًا، يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه**»[٤٤٥] وفي «صحيح مسلم» عنه قال: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا**»[٤٤٦] . فهذان الحديثان ونحوهما مما يبين أنها لأهل التوحيد والإخلاص بإذن الله، وكذا في أحاديث الشفاعة كلها، إنما يشفع في أهل التوحيد كما في الكتاب العزيز. وقال الحافظ: المراد بهذه الشفاعة المسئول عنها بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول: أمتي أمتي، فيقال: أخرج من في قلبه وزن كذا من الإيمان».

وأما الشفاعة العظمىٰ في الإراحة من كرب الموقف، فأسعد الناس بها من يسبق إلىٰ الجنة»ا.هـ.

ولهﷺ ثلاث شفاعات: الشفاعة الكبرىٰ في أهل الموقف ليقضىٰ بينهم، وشفاعته في أهل الجنة في دخولها، ولقوم من العصاة الذين يدخلون النار بذنوبهم، ويشفع لمن استوجب النار، ولقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم، وبعض الكفار في تخفيف عذابهم.

❁ **قوله: «فتلك الشفاعة في أهل الإخلاص بإذن الله، ولايكون لمن أشرك بالله»:**

فأبطل النبيﷺ زعمهم الكاذب، وأخبر أن أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد لله وحده، لا الالتجاء إلىٰ الأولياء والصالحين وغيرهم، ودعاؤهم وطلبهم الشفاعة، فلا تنال بذلك، بل هو أصل شرك العالم، ولكن كما قال بعض السلف: من جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه وليًّا أو شفيعًا أنه يشفع له، وينفعه عند الله، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع من والاهم، ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنه لا يأذن في الشفاعة إلا من رضي قوله وعمله، وهو لا يرضىٰ من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله.

❁ **قوله: «وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلاص فيغفر لهم ...»:**

---

(٤٤٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٧)، وابن حبان، برقم (٦٤٦٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرةﷺ، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب»، برقم (٢١١٣) وقال «منكر».

(٤٤٦) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: لكل نبي دعوة مستجابة، برقم (٦٣٠٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: اختباء النبيﷺ دعوة الشفاعة لأمته، برقم (١٩٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرةﷺ.

أي: بالشفاعة فيمن أذن له أن يشفع فيه، فهذا هو حقيقة أمر الشفاعة، لا كما يظنه المشركون والجهال أن الشفاعة هي كون الشفيع يشفع ابتداء فيمن شاء، فيدخله الجنة، وينجيه من النار، ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم.

قوله: «وينال المقام المحمود»:

أي: الذي يحمده فيه الخلائق كلهم، بل وخالقهم، وهو الشفاعة.

قوله: «فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك»:

وهي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كيا رسول الله اشفع لي.

قوله: «ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع»

كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾[البقرة:٢٥٥] والآيتين بعدها في الباب، فلما أثبتها في مواضع ونفاها في مواضع علمنا قطعًا أنها شفاعتان.

قوله: «وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص»:

أي: قيدهاﷺ بقوله: «**من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه**»(٤٤٧)؛ لئلا يتوهم المشركون أنها نائلتهم، وإنما تنال الموحدين الذين استحقّوا دخول النار بسبب ذنوبهم، فيشفع لهم في الخروج بعد التطهير، كما تواتر: «**أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة- مثقال ذرة، مثقال خردلة- من إيمان**»(٤٤٨).

قوله: «انتهى كلامه رحمه الله»:

أي: كلام شيخ الإسلام الذي ساقه المصنف هنا، فقام مقام الشرح والتفسير في هذا الباب، وهو كاف واف بتحقيق مع الإيجاز.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «باب الشفاعة»:

---

(٤٤٧) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: الحرص على الحديث، برقم (٩٩)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٤٨) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، برقم (٢٢)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، برقم (١٨٤) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

إنما ذكر المصنف الشفاعة في تضاعيف هذه الأبواب؛ لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم: نحن ندعوهم، مع علمنا أنهم مخلوقون مملوكون، ولكن حيث إن لهم عند الله جاهًا عظيمًا ومقامات عالية ندعوهم؛ ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ، وليشفعوا لنا عنده، كما يتقرب إلىٰ الوجهاء عند الملوك والسلاطين، ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم وإدراك مآربهم.

وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه الله -العظيم ملك الملوك الذي يخافه كل أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها- بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم.

فأبطل الله هذا الزعم، وبين أن الشفاعة كلها له، كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضىٰ إلا توحيده وإخلاص العمل له.

فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة.

وبين أن الشفاعة المثبتة التي تقع بإذنه: إنما هي الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة، وأنها كلها منه، رحمة منه وكرامة للشافع، ورحمة منه وعفوًا عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها في الحقيقة، وهو الذي أذن لمحمد ﷺ فيها، وأناله المقام المحمود، فهذا ما دل عليه الكتاب والسنة في تفصيل القول في الشفاعة.

وقد ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام الشيخ تقي الدين في هذا الموضع، وهو كاف شاف. فالمقصود في هذا الباب ذكر النصوص الدالة علىٰ إبطال كل وسيلة وسبب، يتعلق به المشركون بآلهتهم، وأنه ليس لها من الملك شيء، لا استقلالًا ولا مشاركةً ولا معاونة، ولا مظاهرة، ولا من الشفاعة شيء، وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون المعبود وحده.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله:** «باب الشفاعة»:

قد تكلم الناس في الشفاعة واضطربت أقوالهم فيها وشذ المبتدعة بعقيدة باطلة لذلك احتاج العلماء إلىٰ الكلام فيها، ويخصونها بالكلام حتىٰ يعرف المؤمن الحق ويعتقد الاعتقاد الصحيح فيها. فباب الشفاعة؛ أي: بيان الشفاعة المثبتة والمنفية والحق والباطل فيها.

❁ **قوله:** «وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ...﴾»:

أي: أنذر -يا محمد- بالقرآن الذين يخافون أن يحشروا ويجمعوا إلىٰ ربهم وهم المسلمون؛ لأن الكفار لم يسمعوا ولم يستجيبوا. والإنذار: الإعلام مع التخويف.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: هذه الشفاعة الباطلة فإن العباد ليس لهم ولي ولا شفيع بالكلية إلا من رضي الله قوله وعمله فقط لأن الكفار يظنون أن لهم أولياء وشفعاء ينقذونهم من النار ولا يدخلون النار بسببهم حتىٰ عبدوهم من دون الله، وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس:١٨].

وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣] فبين سبحانه أنه ليس للعباد ولي ولا شفيع دونه وأن شفاعة الكفار هذه باطلة وأن الشفاعة الحق هي التي يأذن الله فيها لأنبيائه وأوليائه وأهل طاعته في أهل التوحيد والإيمان ولا في أهل الكفر والنفاق.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[طه:١١٣]؛ أي: لأجل أن يتقوا الله ويستقيموا علىٰ دينه إذا عرفوا أنه لا شفاعة ولا ولاية من دون فيوحدونه ويحذرون من غضبه.

۞ **قوله:** ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]:

أي: قل للناس: إن الشفاعة لله وحده وقبل هذه الآية أنكر علىٰ من ادعىٰ الشفعاء من دون الله من المشركين الذين يدعون الشفاعة لأصنامهم وأحجارهم وغيرها من المعبودات فنفي الله ذلك كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر:٤٨]﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨] فالشفاعة له وحده سبحانه وإنما يشفع الأنبياء والصالحون بإذنه وهو يعطيها من يشاء فيجب أن تطلب منه ويقول: اللهم شفع فيَّ نبيك وشفع فيَّ عبادك الصالحين....ولا مانع أن تطلب الشفاعة من الحي في حياته كأن يقول: يا رسول الله اشفع لي أن يرزقني الله أو تقول للرجل الصالح اشفع لي أن يغفر الله لي وادع أن يهديني. أما الأصنام والأموات والغائب كالملائكة فلا يطلب منهم ذلك؛ لأنه لا يشعر ولا يدري عنك ولا يطلع علىٰ الغيب كما يعتقده الجهال والكفار.

۞ **قوله:** ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة:٢٥٥]، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ ...﴾[النجم:٢٦]:

فبين سبحانه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه وأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ وأن الملائكة لا تملك إذنًا في الشفاعة بل يملكها الله وحده..فإذا كان هذا حال الملائكة والأنبياء والرسل لا يشفعون إلا بعد الإذن والرضا عن المشفوع فغيرهم من الصالحين والأطفال والأفراد من باب أولىٰ.

ثم إن المتعلقين بهؤلاء الذين يدعونهم من دون الله يتعلقون بهم لأربعة أشياء بينها الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾[سبأ:٢٢، ٢٣]

والأربعة هي:

١- الملك: فيظنون أنهم يملكون شيئًا والله هو المالك وحده.

٢- الشركة: فيظنون أنهم شركاء الله..

٣- المظاهرة: أي المساعدة والمعاونة مع الله تعالىٰ وهو باطل.

٤- الشفاعة: فيظنون أن آلهتهم تشفع لهم.

فبين أنه لا شفاعة إلا بإذنه ولا شفاعة مستقلة كشفاعة الدنيا، ففي الدنيا قد يشفع له من أجل خوفه منه أو من أجل حاجته إليه والله ﷻ منزه عن ذلك.

✿ **قوله: «قال أبو العباس»**:

وهو شيخ الإسلام: «**نفىٰ الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون**».

قوله: «**فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منفية يوم القيامة كما نفاها القرآن**: فمنهم من يظن أن أصنامهم ومن يدعونهم يشفعون لهم شفاعة ملزمة وأنهم لا يحتاجون إلىٰ إذن وأنهم تقبل شفاعتهم فيهم وأنهم يدخلون الجنة بسببها ولا يدخلون النار ولكن هذا في حق من يؤمن بالآخرة. أما من لم يؤمن بالآخرة منهم فهم يعبدونهم ليشفعوا لهم في أمور الدنيا ومصالحها من حصول الرزق وما أشبهه فمقاصدهم بالشفاعة مقاصد عاجلة. وأكثر العرب لا يؤمن بالآخرة.

✿ **قوله: قال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله، فقال: ...»**:

فأسعد الناس بشفاعته هم الموحدون وفي الحديث: «**إن لكل نبي دعوة... وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة وهي نائلة إن شاء الله من ما ت من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**»[٤٤٩] فبين أنها لا تنفع أمته إلا من وحد الله، وأما من مات علىٰ غير الإسلام فلا شفاعة لهم وحقيقته: أنه سبحانه هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلاص فيغفر لهم.

✿ **قوله: «المقام المحمود»**:

هو ثابت للنبي ﷺ وهو الذي يحمده عليه الأولون والآخرون قال تعالىٰ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[الإسراء:٧٩] فهي الشفاعة العظمىٰ علىٰ الصحيح.

---

(٤٤٩) أخرجه البخاري، كتاب: الدعوات، باب: لكل نبي دعوة مستجابة، برقم (٦٣٠٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته، برقم (١٩٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقيل: إن المقام المحمود هو أن الله يجلسه معه على العرش يوم القيامة[٤٥٠] لكن في صحته - الحديث- نظر والمشهور الأول.

والشفاعة تفضل على المشفوع لأنها تفضل من الله بنفع هذا المشفوع فيه حتى دخل الجنة. فهذه هي حقيقة الشفاعة.

وهذا رد على أهل القبور بل هم محرومون من الشفاعة لاتباعهم بما يحرمهم من الشفاعة.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب الشفاعة»:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الشفاعة في كتاب التوحيد؛ لأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنها شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله -سبحانه وتعالى- فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذلك.

وهم بذلك يظنون أنهم معظمون لله، ولكنهم منتقصون له؛ لأنه عليم بكل شيء، وله الحكم التام المطلق والقدرة التامة، فلا يحتاج إلى شفعاء.

ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله، فيقربونا إلى الله، وهم ضالون في ذلك؛ فهو سبحانه عليم وقدير وذو سلطان، ومن كان كذلك؛ فإنه لا يحتاج إلى شفعاء.

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء؛ إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم؛ فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم؛ فيتجرأ عليهم الشفعاء، فيشفعون بدون استئذان، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لا يُراد بها معونة الله -سبحانه- في شيء مما شُفع فيه، فهذا ممتنع كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكن يُقصد بها أمران، هما:

١- إكرام الشافع.

٢- نفع المشفوع له.

---

(٤٥٠) أورده -بمعناه- الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٦٥٦)، والمتقي الهندي في «كنز العمال» (١٤/ ٤٨١) وعزاه لأحمد والطبري والحاكم، والطبري في «تفسيره» (٨/ ١٢٩)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة»، برقم (٢٦٤٠)، وفي «المشكاة»، برقم (٥٥٩٦).

والشفاعة لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾[الفجر:٣].

واصطلاحًا: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها.

مثال دفعة المضرة: شفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها.

وذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب عدة آيات:

الآية الأولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾: الإنذار: هو الإعلام المتضمن للتخويف، أما مجرد الخبر؛ فليس بإنذار، والخطاب للنبي ﷺ.

والضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود للقرآن؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[الشورى:٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٢].

وقوله: ﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟﴾، أي: يخافون مما يقع لهم من سوء العذاب في ذلك الحشر.

والحشر: الجمع، وقد ضمن هنا معنىٰ الضم والانتهاء؛ فمعنىٰ يحشرون؛ أي: يجمعون حتىٰ ينتهوا إلىٰ الله.

قوله ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: ﴿وَلِىٌّ﴾؛ أي: ناصر ينصرهم، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ أي: شافع يتوسط لهم، وهذا محل الشاهد.

ففي هذه الآية نفي الشفاعة من دون الله، أي: من دون إذنه، ومفهومها: أنها ثابتة بإذنه، وهذا هو المقصود؛ الشفاعة من دونه مستحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة.

أما عند الملوك؛ فجائزة بإذنهم وبغير إذنهم، فيمكن لمن كان قريبًا من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن.

ويفيد قوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أن لهم بإذنه وليًا وشفيعًا، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة:٥٥].

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾[الزمر:٤٤]، مبتدأ وخبر، وقدم الخبر للحصر؛ والمعنىٰ: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته؛ فأفادت الآية في

قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أن هناك أنواعًا للشفاعة.

وقد قسم أهل العلم رحمهم الله الشفاعة إلىٰ قسمين رئيسين، هما:

القسم الأول: الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمىٰ، وهي من المقام المحمود الذي وعده الله؛ فإن الناس يلحقهم يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغم والكرب ما لا يطيقونه، فيقول بعضهم لبعض: اطلبوا من يشفع لنا عند الله، فيذهبون إلىٰ آدم أبي البشر، فيذكرون من أوصافه التي ميزه الله بها: أن الله خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، فيقولون: اشفع لنا عند ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟! فيعتذر لأنه عصىٰ الله بأكله من الشجرة، ومعلوم أن الشافع إذا كان عنده شيء يخدش كرامته عند المشفوع إليه؛ فإنه لا يشفع لخجله من ذلك، مع أن آدم عليه السلام قد تاب الله عليه واجتباه وهداه، قال تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١، ١٢٢]، لكن لقوة حيائه من الله اعتذر.

ثم يذهبون إلىٰ نوح، ويذكرون من أوصافه التي امتاز بها بأنه أول رسول أرسله الله إلىٰ الأرض، فيعتذر بأنه سأل الله ما ليس له به علم حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود:٤٥].

ثم يذهبون إلىٰ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من صفاته.

ثم يعتذر بأنه كذب ثلاث كذبات لكنها حق حسب مراده ثم يذهبون إلىٰ موسىٰ ﷺ، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع، لكنه يعتذر بقتل نفس لم يؤمر بقتلها، وهي نفس القبطي حين استغاثه الإسرائيلي فوكز موسىٰ القبطي فقتله فقضىٰ عليه.

ثم يذهبون إلىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع، فلا يعتذر بشيء، لكن يحيل إلىٰ من هو أعلىٰ مقامًا، فيقول: اذهبوا إلىٰ محمد، عبد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيحيلهم إلىٰ محمد ﷺ دون أن يذكر عذرًا يحول بينه وبين الشفاعة، فيأتون محمدًا ﷺ فيشفع إلىٰ الله ليريح أهل الموقف [٤٥١].

---

(٤٥١) حديث الشفاعة سبق تخريجه.

الثاني: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها(٤٥٢)؛ لأنهم إذا عبروا الصراط ووصلوا إليها وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع لهم، فيشفع النبيﷺ إلىٰ الله في فتح أبواب الجنة لأهلها(٤٥٣)، ويشير إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[الزمر:٧٣]، فقال: ﴿وَفُتِحَتْ﴾؛ فهناك شيء محذوف، أي: وحصل ما حصل من الشفاعة، وفتحت الأبواب، أما النار، فقال فيها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا...﴾الآية[الزمر:٧١].

الثالث: شفاعتهﷺ في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب(٤٥٤)، وهذه مستثناة من قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر:٤٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[طه:١٠٩]؛ وذلك لما كان لأبي طالب من نصرة للنبيﷺ ودفاع عنه، وهو لم يخرج من النار، لكن خفف عنه حتىٰ صار -والعياذ بالله- في ضحضاح من نار، وعليه منها يغلي منهما دماغه، وهذه الشفاعة خاصة بالرسولﷺ، لا أحد يشفع في كافر أبدًا إلا النبيﷺ، ومع ذلك لم تقبل الشفاعة كاملة، وإنما هي تخفيف فقط.

القسم الثاني: الشفاعة العامة لهﷺ ولجميع المؤمنين، وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وهذه قد يستدل لها بقول الرسولﷺ: «**ما من مسلم يموت فيقوم علىٰ جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفعهم الله فيه**»؛ (٤٥٥) فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفعهم الله في ذلك.

النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وقد تواترت بها الأحاديث وأجمعت عليها الصحابة، واتفق عليها أهل الملة ما عدا طائفتين، وهما: المعتزلة والخوارج؛ فإنهم ينكرون

---

(٤٥٢) انظر ما أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: في قول النبيﷺ«أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعًا»، برقم (١٩٦) عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللهﷺ«أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعا»، وأبو يعلىٰ في «مسنده»، برقم (٣٩٧٣)، (٣٩٦٨) ولفظه مثل لفظ مسلم، وغيرهما من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٤٥٣) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: في فضل النبيﷺ، برقم (٣٦١٦)، والدارمي، برقم (٤٧)، وغيرهما من حديث ابن عباس ﷺ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٤٠٧٧).

(٤٥٤) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٦٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: شفاعة النبيﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، برقم (٢١٠)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤٥٥) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: من صلىٰ عليه أربعون شفعوا فيه، برقم (٩٤٨)، وأبو داود، كتاب: الجنائز، باب: فضل الصلاة علىٰ الجنائز وتشييعها، برقم (٣١٧٠)، وغيرهما من حديث ابن عباس ﷺ.

الشفاعة في أهل المعاصي مطلقًا؛ لأنهم يرون أن فاعل الكبيرة مخلد في النار، ومن استحق الخلود؛ فلا تنفع فيه الشفاعة، فهم ينكرون أن النبيﷺ أو غيره يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا النار، أو إذا دخلوها أن يخرجوا منها، لكن قولهم هذا باطل بالنص والإجماع.

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قالﷺ في أبي سلمة: «**اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، وأفسح له في قبره، ونور له فيه، واخلفه في عقبه**»، [٤٥٦] والدعاء شفاعة؛ كما قالﷺ: «**ما من مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفعهم الله فيه**»[٤٥٧].

إشكال وجوابه:

فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه؛ فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

والجواب: إن الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت، وأمره بالدعاء إذنٌ وزيادة.

وأما الشفاعة الموهومة التي يظنها عباد الأصنام من معبوديهم، فهي شفاعة باطلة؛ لأن الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم.

إذًا قوله: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ تفيد أن الشفاعة متعددة كما سبق.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾، ﴿مَن﴾: اسم استفهام؛ بمعنى: النفي؛ أي: لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه.

﴿ذَا﴾: هل تجعل ذا اسمًا موصولًا كما قال ابن مالك في «**الألفية**». أو لا تصح أن تكون اسمًا موصولًا هنا لوجود الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾؟

الثاني هو الأقرب، وإن كان بعض المعربين قال: يجوز أن تكون ﴿ٱلَّذِى﴾ توكيدًا لها.

والصحيح أن ﴿ذَا﴾ هنا إما مركبة مع ﴿مَن﴾، أو زائدة للتوكيد، وأيًّا كان الإعراب؛ فالمعنى: إنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذن الله.

---

(٤٥٦) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر، برقم (٩٢٠)، وأبو داود، كتاب: الجنائز، باب: تغميض الميت، برقم (٣١١٨)، وغيرهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤٥٧) سبق تخريجه.

وسبق أن النفي إذا جاء في سياق الاستفهام؛ فإنه يكون مضمنًا معنى التحدي، أي: إذا كان أحد يشفع بغير إذن الله فأت به.

قوله: ﴿عِندَهُۥٓ﴾: ظرف مكان، وهو سبحانه في العلو؛ فلا يشفع أحد عنده ولو كان مقربًا؛ كالملائكة المقربين؛ إلا بإذنه الكوني، والإذن لا يكون إلا بعد الرضا.

وأفادت الآية: أنه يشترط للشفاعة إذن الله فيها لكمال سلطانه جل وعلا، فإنه كلما كمل سلطان الملك؛ فإنه لا أحد يتكلم عنده ولو كان بخير إلا بعد إذنه، ولذلك يعتبر اللغط في مجلس الكبير إهانة له ودليلًا على أنه ليس كبيرًا في نفوس من عنده، كان الصحابة مع الرسول ﷺ كأنما على رءوسهم الطير من الوقار وعدم الكلام إلا إذا فتح الكلام؛ فإنهم يتكلمون.

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ [النجم:٢٦]. ﴿وَكَم﴾: خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين في السماء، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا بعد إذن الله ورضاه.

قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾:

فللشفاعة شرطان، هما:

الإذن من الله؛ لقوله: ﴿أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾.

رضاه عن الشافع والمشفوع له؛ لقوله: ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]؛ فلا بد من إذنه تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له إلا في التخفيف عن أبي طالب، وقد سبق ذلك.

وهذه الآية في سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى، قال تعالى بعد ذكر المعراج وما حصل للنبي ﷺ فيه: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨]، أي: العلامات الدالة عليه ﷻ، فكيف به سبحانه؟! فهو أكبر وأعظم.

ثم قال: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [النجم:١٩، ٢٠]، وهذا استفهام للتحقير، فبعد أن ذكر الله هذه العظمة قال: أخبروني عن هذه اللات والعزى ما عظمتها؟ وهذا غاية في التحقير؛ ثم قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ

أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ ....﴾ الآية [النجم: ٢١-٢٦].

فإذا كانت الملائكة وهي في السماوات في العلو لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالىٰ ورضاه؛ فكيف باللات والعزىٰ وهي في الأرض؟!

ولهذا قال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، مع أن الملائكة تكون في السماوات وفي الأرض، ولكن أراد الملائكة التي في السماوات العلىٰ، وهي عند الله -سبحانه-؛ فحتىٰ الملائكة المقربون حملة العرش لا تغني شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضىٰ.

الآية الخامسة: قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾: الأمر في قوله: ﴿ٱدْعُوا۟﴾ للتحدي والتعجيز، وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟﴾ يحتمل معنيين، هما:

١- أحضروهم.

٢- ادعوهم دعاء مسألة.

فلو دعوهم دعاء مسألة لا يستجيبون لهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

يكفرون: يتبرءون، ومع هذه الآيات العظيمة يذهب بعض الناس يشرك بالله ويستنجد بغير الله، وكذلك لو دعوهم دعاء حضور لم يحضروا، ولو حضروا ما انتفعوا بحضورهم.

قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٢٢]:

واحدة الذر: وهي صغار النمل، ويضرب بها المثل في القلة.

قوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وكذلك ما دون الذرة لا يملكونه، والمقصود بذكر الذرة: المبالغة، وإذا قصد المبالغة بالشيء قلة أو كثرة، فلا مفهوم له؛ فالمراد: الحكم العام؛ فمثلًا قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، أي: مهما بالغت في الاستغفار.

ولا يرد علىٰ هذا أن الله أثبت ملكًا للإنسان؛ لأن ملك الإنسان قاصر وغير شامل ومتجدد وزائل، وليس كملك الله.

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾:

أي: ما لهؤلاء الذين تدعون من دون الله.

﴿فِيهِمَا﴾، أي: في السماوات والأرض.

﴿مِن شِرْكٍ﴾، أي: مشاركة، أي: لا يملكونه انفرادًا ولا مشاركة.

وقوله: ﴿مِن شِرْكٍ﴾: مبتدأ مؤخر دخلت عليه ﴿مِن﴾ الزائدة لفظًا، لكنها للتوكيد معنىٰ.

وكل زيادة لفظية في القرآن؛ فهي زيادة في المعنىٰ.

وأتت ﴿مِن﴾ للمبالغة في النفي، وأنه ليس هناك شرك لا قليل ولا كثير.

قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾:

الضمير في ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ يعود إلىٰ الله تعالىٰ، وفي ﴿مِنْهُم﴾ يعود إلىٰ الأصنام؛ أي: ما لله تعالىٰ من هذه الأصنام ظهير.

و﴿مِّن﴾: حرف جر زائد، و﴿ظَهِيرٍ﴾: مبتدأ مؤخر بمعنىٰ معين؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء:٨٨]، أي: معينًا، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[التحريم:٤]؛ أي: معين. أي: ليس لله معين يعينه في أفعاله، وبذلك ينتفي عن هذه الأصنام كل ما يتعلق به العابدون؛ فهي لا تملك شيئًا علىٰ سبيل الانفراد ولا المشاركة ولا الإعانة؛ لأن من يعينك وإن كان غير شريك لك يكون له منّة عليك؛ فربما تحابيه في إعطائه ما يريد.

فإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة؛ لم يبق إلا الشفاعة، وقد أبطلها الله بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ:٢٣]؛ فلا تنفع عند الله الشفاعة لهؤلاء؛ لأن هذه الأصنام لا يأذن الله لها، فانقطعت كل الوسائل والأسباب للمشركين، وهذا من أكبر الآيات الدالة علىٰ بطلان عبادة الأصنام؛ لأنها لا تنفع عابديها لا استقلالًا ولا مشاركةً ولا مساعدةً ولا شفاعةً؛ فتكون عبادتها باطلة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[الأحقاف:٥]، حتىٰ ولو كان المدعو عاقلًا؛ لقوله: ﴿وَمَن﴾، ولم يقل: «ما»، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾[الأحقاف:٥، ٦]، وكل هذه الآيات تدل علىٰ أنه يجب علىٰ الإنسان قطع جميع تعلقاته إلا بالله عبادةً وخوفًا ورجاءً واستعانةً ومحبة وتعظيمًا، حتىٰ يكون عبدًا لله حقيقة،

يكون هواه وإرادته وحبه وبغضه وولاؤه ومعاداته لله وفي الله؛ لأنه مخلوق للعبادة فقط، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥]، أي: لا نأمركم ولا ننهاكم، إذ لو خلقناكم فقط للأكل والشرب والنكاح؛ لكان ذلك عين العبث، ولكن هناك شيء وراء ذلك، وهو عبادة الله سبحانه في هذه الدنيا.

وقوله: ﴿إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾: أي: وحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون، فنجازيكم إذا كان هذا هو حسبانكم؛ فهو حسبان باطل.

قوله: «قال أبو عباس»:

هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يُكنىٰ بذلك، ولم يتزوج؛ لأنه كان مشغولًا بالعلم والجهاد، وليس زاهدًا في السنة، مات سنة ٧٢٨هـ، وله ٦٧ سنة و ١٠ أشهر.

قوله: «**لغيره ملك**»: أي: لغير الله في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[سبأ:٢٢].

قوله: «**أو قسط منه**»: في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

قوله: «**أو يكون عونًا لله**» في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾بدون استثناء.

قوله: «**ولم يبق إلا الشفاعة**»: فبين أنها لا تنفع إلا من أذن له الرب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾، وقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]، ومعلوم أنه لا يرضىٰ هذه الأصنام لأنها باطلة. وحينئذ فتكون شفاعتها منتفية.

واعلم أن شرك المشركين في السابق كان في عبادة الأصنام، أما الآن، فهو في طاعة المخلوق في المعصية؛ فإن هؤلاء يقدسون زعماءهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به، فيقال لهم: إنهم بشر مثلكم، خرجوا من مخرج البول والحيض، وليس لهم شرك في السماوات ولا في الأرض، ولا يملكون الشفاعة لكم عند الله، إذًا؛ فكيف تتعلقون بهم؟! حتىٰ إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين.

والواجب علينا نحو ولاة الأمور طاعتهم، وطاعتهم من طاعة الله، وليست استقلالًا، أما عبادتهم كعبادة الله؛ فهذه جاهلية وكفر.

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن؛ فالله -سبحانه وتعالىٰ- نفىٰ أن تنفعهم أصنامهم، بل قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩]؛ حتىٰ الأصنام لا تنفع نفسها ولا يشفع لها؛ فكيف تكون شافعة؟! بل هي في النار وعابدوها.

۞ **قوله:** «**وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه**»:

أي: وكما أخبر؛ فالواو عاطفة، ويجوز أن تكون استئنافية، فإذا كان الرسول ﷺ وهو أعظم الناس جاهًا عند الله لا يشفع إلا بعد أن يحمد الله ويُثني عليه؛ فيحمد الله بمحامد عظيمة يفتحها الله عليه لم يكن يعلمها من قبل، ويطول سجوده؛ فكيف بهذه الأصنام؛ هل يمكن أن تشفع لأصحابها؟

قوله: «**ارفع رأسك**»، أي: من السجود.

قوله: «**وقل يسمع**»: السامع هو الله، و«**يسمع**»: جواب الأمر مجزوم.

قوله: «**وسل تعط**»، أي: سل ما بدا لك تعط إياه، وتعط: مجزوم بحذف حرف العلة جوابًا لسل.

قوله: «**واشفع تشفع**»: وحينئذ يشفع النبي ﷺ في الخلائق أن يُقضىٰ بينهم.

۞ **قوله:** «**وقال أبو هريرة له ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟**»:

هذا السؤال من أبي هريرة للنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «**لقد كنت أظن أن لا يسألني أحد غيرك عنه لما أرىٰ من حرصك علىٰ العلم**»، وفي هذا دليل علىٰ أن من وسائل تحصيل العلم السؤال.

قوله: «**من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»: وعليه؛ فالمشركون ليس لهم حظ من الشفاعة؛ لأنهم لا يقولون: لا إله إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالىٰ حكاية عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

والحقيقة أن صنيعهم هو العجاب، قال تعالىٰ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقوله: «**خالصًا من قلبه**» خرج بذلك من قالها نفاقًا، فإنه لا حظ له في الشفاعة، فإن المنافق يقول: لا إله إلا الله، ويقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، لكن الله ﷻ قابل شهادتهم هذه بشهادته

علىٰ كذبهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[المنافقون:١]؛ أي: في شهادتهم، في قولهم: إنك لرسول الله؛ فهم كاذبون في شهادتهم وفي قولهم: لا إله إلا الله؛ لأنهم لو شهدوا بذلك حقًا ما نافقوا ولا أبطنوا الكفر.

قوله: «**خالصًا**»، أي: سالمًا من كل شوب؛ فلا يشوبها رياء ولا سمعة، بل هي شهادة يقين.

قوله: «**من قبله**»: لأن المدار علىٰ القلب، وهو ليس معنىً من المعاني، بل هو مضغة في صدور الناس، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾[الحج:٤٦]، وقال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله**»[٤٥٨].

وبهذا يبطل قول من قال: إن العقل في الدماغ، ولا يُنكر أن للدماغ تأثيرًا في الفهم والعقل، لكن العقل في القلب، ولهذا قال الإمام أحمد: العقل في القلب، وله اتصال في الدماغ.

ومن قال كلمة الإخلاص خالصًا من قلبه؛ فلا بد أن يطلب هذا المعبود بسلوك الطرق الموصلة إليه؛ فيقوم بأمر الله ويدع نهيه.

قوله: «**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص**»؛ لأن من أشرك بالله قال الله فيه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر:٤٨].

❁ **قوله**: «**وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلاص...**»:

وحقيقته؛ أي: حقيقة أمر الشفاعة، أي: الفائدة منها: أن الله ﷻ أراد أن يغفر للمشفوع له، ولكن بواسطة هذه الشفاعة.

والحكمة من هذه الواسطة بينها بقوله: «**ليكرمه وينال المقام المحمود**»، ولو شاء الله لغفر لهم بلا شفاعة، ولكنه أراد بيان فضل هذا الشافع وإكرامه أمام الناس، ومن المعلوم أن من قبل الله شفاعته؛ فهو عنده بمنزلة عالية؛ فيكون في هذا إكرام للشافع من وجهين:

الأول: إكرام الشافع بقبول شفاعته.

الثاني: ظهور جاهه وشرفه عند الله تعالىٰ.

---

(٤٥٨) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، برقم (٥٢)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، برقم (١٥٩٩)، وغيرهما من حديث النعمان بن البشير رضي الله عنه.

قوله: «المقام المحمود»:

أي: المقام الذي يحمد عليه وأعظم الناس في ذلك رسول الله ﷺ، فإن الله وعده أن يبعثه مقامًا محمودًا، ومن المقام المحمود: أن الله يقبل شفاعته بعد أن يتراجع الأنبياء أولو العزم عنها. ومن يشفع من المؤمنين يوم القيامة، فله مقام يحمد عليه على قدر شفاعته..

قوله: **«فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك»**: هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

«ما»: اسم موصول؛ أي: التي كان فيها شرك.

قوله: «وقد أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع»:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

قوله: «وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد»:

أما أهل الشرك؛ فإن الشفاعة لا تكون لهم؛ لأن شفعاءهم هي الأصنام، وهي باطلة.

وجه إدخال باب الشفاعة في كتاب التوحيد: أن الشفاعة الشركية تنافي التوحيد، والبراءة منها هو حقيقة التوحيد.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير الآيات: وهي خمس، وسبق تفسيرها في محالها.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية: وهي ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك؛ فإنها منفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة: وهي شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود: وهي الشفاعة في أهل الموقف أن يُقضى بينهم، وقول الشيخ: **«وهي المقام المحمود»**؛ أي: منه.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له؛ شفع: كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، وهو ظاهر، وهذا يدل على عظمة الرب وكمال أدب النبي ﷺ.

السادسة: من أسعد الناس بها؟: هم أهم التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا الله خالصًا

من قلبه.

ولا إله إلا الله؛ معناها: لا معبود حق إلا الله، وليس المعنىٰ: لا معبود إلا الله؛ لأنه لو كان كذلك؛ لكان الواقع يكذب هذا، إذ إن هناك معبودات من دون الله تعبد وتسمىٰ آلهة، ولكنها باطلة، وحينئذ يتعين أن يكون المراد لا إله حق إلا الله.

ولا إله إلا الله تتضمن نفيًا وإثباتًا، هذا هو التوحيد؛ لأن الإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، والنفي المجرد تعطيل محض، فلو قلت: لا إله؛ معناه: عطلت كل إله، ولو قلت: الله إله ما وحدت؛ لأن مثل هذه الصيغة لا تمنع المشاركة، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[البقرة:١٦٣] لما جاء الإثبات فقط أكده بقوله: واحد.

السابعة: **أنها لا تكون لمن أشرك بالله**: لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر:٤٨]، وغير ذلك مما نفىٰ الله فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: «**خالصًا من قلبه**».

الثامنة: بيان حقيقتها: وحقيقتها: أن الله تعالىٰ يتفضل علىٰ أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب الشفاعة»**:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّه لَمَّا كان المشركون يبررون ما هم عليه من الشرك من دعاء الملائكة والأنبياء والأولياء، ويقولون نحن نعلم أنهم مخلوقون ولكنهم لهم جاهٌ عند الله فنحن نريد منهم أن يشفعوا لنا عند الله، أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الباب إقامة الحجج علىٰ أنَّ ذلك هو عين الشرك الذي نهىٰ الله عنه، وأبطل كل وسيلةٍ تؤدِّي إليه.

«**الشفاعة**»: مصدر شفع؛ بمعنىٰ: ضم الشيء إلىٰ مثله – تقول: شفعت الشيء شفعًا بمعنىٰ ضممته إلىٰ الفرد. وشفع فيه أعانه في تحصيل مطلبه ممن هو عنده.

قوله: ﴿وَأَنذِرْ﴾: الإنذار هو: الإعلام بموضع المخافة والتحذير منها.

﴿بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن.

﴿يَخَافُونَ﴾: يخشون.

﴿أَن يُحْشَرُوٓاْ﴾: يُجمعوا ويُبعثوا.

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: في موضع نصب على الحال؛ أي: متخلين من كل وليٍّ ينصرهم وشفيع يشفع لهم.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يقول تعالىٰ لنبيهﷺ: خوف بالقرآن الذين يخشون ربهم من أصحاب القلوب الواعية الذين يتذكرون الوقوف بين يدي ربهم متخلين عن كل قريب ينصرهم وواسطةٍ تشفع لهم عنده بغير إذنه لعلهم يعدون العدة لذلك فيعملون في هذه الدار عملًا ينجيهم الله به من عذابه يوم القيامة.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها الردَّ علىٰ المشركين الذين يدعون الأنبياء والصالحين يطلبون منهم الشفاعة.

ما يستفاد من الآية:

١- الرد علىٰ المشركين الذين يتقرَّبُون إلىٰ الأنبياء والصالحين يطلبون منهم الشفاعة.

٢- مشروعية الوعظ والتذكير بيوم القيامة.

٣- أنَّ المؤمنين هم الذين ينتفعون بالموعظة.

۞ قوله: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾:

أي: هي ملك لله فليس لمن تطلبونها منهم شيء منها.

﴿جَمِيعًا﴾: حالٌ مؤكدةٌ.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾؛ أي: لا أحد ﴿يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾له فيها، فلا أحد يتكلم بشفاعةٍ ولا غيرها إلا إذا أذن الله تعالىٰ له في الكلام.

المعنىٰ الإجمالي للآيتين:

يأمر الله نبيَّه أن يقول للذين يتعلقون علىٰ الأولياء والصالحين يطلبون منهم الشفاعة: ليس لمن تدعونهم من الشفاعة شيء، إنَّما هي كلها ملك الله لا يستطيع أحد شفاعةً لأحدٍ إلا بإذنه، فلا أحد يملك أن يتكلَّم يوم القيامة إلا إذا أذن الله سبحانه وتعالىٰ له في الكلام.

مناسبة الآيتين للباب:

أنَّ فيهما الردَّ علىٰ المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام المصورة علىٰ صور الصالحين، يظنون أنهم يملكون من الشفاعة شيئًا فيستطيعون أن يشفعوا عند الله سبحانه وتعالىٰ بغير إذنه.

ما يستفاد من الآيتين:

١- الرد علىٰ المشركين الذين يطلبون الشفاعة من المخلوقين.

٢- أن الشفاعة ملك لله وحده فيجب طلبها منه وحده.

٣- بيان عظمة الله وكبريائه وخضوع جميع الخلق لسلطانه.

٤- في الآية الثانية إثبات الشفاعة لمن أذن الله له بها.

قوله: ﴿وَكَم﴾: خبرية في موضع رفع علىٰ الابتداء. ومعناها: كثير من الملائكة.

﴿لَا تُغْنِي﴾: لا تجدي ولا تنفع. في موضع رفع خبر المبتدأ.

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده.

﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾: عنه قوله وعمله.

معنىٰ الآية إجمالًا:

يُخبرُ تعالىٰ أن كثيرًا من الملائكة مع مكانتهم عنده لا تجدي شفاعتهم في أحد شيئًا، ولا تنفعه إلا إذا أذن الله لهم أن يشفعوا فيمن يشاء الشفاعة لهُ من عباده، وكان المشفوع فيه ممن رضي الله قوله وعمله بأن يكون سالمًا من الشرك قليله وكثيره، وإذا كان هذا في حق الملائكة فغيرهم من باب أولىٰ.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها الرد علىٰ المشركين الذين يطلبون الشفاعة من الملائكة وغيرهم من المخلوقين.

ما يستفاد من الآية:

الرد علىٰ المشركين الذين يتقرّبون إلىٰ المخلوقين يطلبون منهم الشفاعة.

أنَّ الشفاعة ملك لله وحده لا تطلب إلا منه.

أنَّ الشفاعة لا تنفع إلا بشرطين:

الشرط الأول: إذن الرب للشافع أن يشفع.

الشرط الثاني: رضاه عن المشفوع فيه بأن يكون من أهل التوحيد والإخلاص.

قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢]، الآيتين.

تمام الآيتين: قوله تعالىٰ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٢، ٢٣].

﴿قُلِ﴾؛ أي: للمشركين.

﴿زَعَمْتُم﴾؛ أي: زعمتموهم آلهةً.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غيره لينفعوكم بزعمكم.

﴿مِثْقَالَ﴾: وزن.

﴿ذَرَّةٍ﴾: من خير أوشر، والمراد بالذرة النملة الصغيرة. ويقال لكل جزءٍ من أجزاء الهباء ذرةٌ.

﴿شِرْكٍ﴾: شركةٍ مع الله.

﴿وَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: لله تعالىٰ.

﴿مِنْهُم﴾: من الآلهة.

﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾: معين يعينه علىٰ تدبير أمر السموات والأرض.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾؛ أي: عند الله تعالىٰ ردٌ لقولهم: إنَّ آلهتهم. تشفع عنده.

﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾: أن يشفع لغيره.

المعنىٰ الإجمالي للآيتين:

يأمر الله -سبحانه- نبيَّه أن يقول للمشركين علىٰ وجه التحدي: اطلبوا من آلهتكم التي زعمتم أنَّها تنفعكم وتكشف الضرَّ عنكم. فإنهم لا يقدرون علىٰ ذلك؛ لأنهم لا يملكون من الكون وزن أصغر نملة ملكًا مستقلًّا، وليس لهم في الكون أدنىٰ شركة مع الله، وليس منهم أحد يعين الله في تصريف الأمور، ولا يقدرون علىٰ التقدم بين يديه في الشفاعة لكم إلا إذا أذن لهم

بذلك وهو، لا يأذن بالشفاعة لمشركٍ، فهم لا يملكون شيئًا استقلالًا ولا يشاركون في الملك ولا يعاونون المالك ولا يملكون الشفاعة عنده بغير إذنه. فبطلت عبادتهم من دون الله.

مناسبة الآيتين للباب:

أنَّ فيهما الرد علىٰ المشركين الذين يتقربون إلىٰ الأولياء، يطلبون منهم الشفاعة ويدعونهم لجلب النفع ودفع الضرِّ.

ما يستفاد من الآيتين:

١- الردُّ علىٰ المشركين الذين يدعون مع الله آلهة من الملائكة وغيرهم، يزعمون أنَّهم يملكون لهم نفعًا أو يدفعون عنهم ضرًّا.

٢- مشروعية محاجة المشركين لإبطال الشرك ومناظرتهم في ذلك.

٣- قطعُ الأسباب التي يتعلق بها المشركون، وذلك أن المشرك إنَّما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع والنفع لا يكون إلاَّ ممن فيه خصلة من أربع:

الأولىٰ: إمَّا أن يكون مالكًا لما يريده منه عابده.

الثانية: وإمَّا أن يكون شريكًا للمالك.

الثالثة: وإمَّا أن يكون ظهيرًا أو معينًا له.

الرابعة: وإمَّا أن يكون شفيعًا له.

وقد نفىٰ سبحانه وتعالىٰ هذه الأسباب الأربعة في آلهة المشركين. فبطلت عبادتها.

٤- إثبات الشفاعة التي تكون بإذن الله.

٥- أنَّ المشركين لا تنفعهم الشفاعة؛ لأن الله تعالىٰ لا يأذن فيها لمشركٍ.

❁ **قوله: «أبو العباس»:**

هو: شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الإمام المشهور صاحب المصنفات المفيدة، كانت وفاته سنة ٧٢٨هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

«قسط»: القسط هو: النصيب.

«الشفاعة التي يظنها المشركون»؛ أي: التي يطلبونها من غير الله من الأنداد.

«وأخبر النبي»؛ أي: في الحديث الثابت في «الصحيحين» وغيرهما من حديث الشفاعة

«وقال أبو هريرة»؛ أي: في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة.

«أسعد الناس»: أكثرهم سعادةً بها.

«خالصًا من قلبه»: احتراز من المنافق الذي يقولها بلسانه فقط.

«وحقيقته»؛ أي: حقيقة الأمر في بيان الشفاعة الصحيحة لا كما يظنه المشركون.

«المقام المحمود»؛ أي: الذي يحمده فيه الخلائق كلهم.

مقصود المؤلف من سياق كلام شيخ الإسلام هنا: أنَّ فيه شرحًا وتفسيرًا لما في هذا الباب من الآيات، ففيه:

١- صفة الشفاعة المنفية، وصفة الشفاعة المثبتة.

٢- ذكر الشفاعة الكبرىٰ وهي المقام المحمود، وماذا يفعل النبي ﷺ حتىٰ يؤذن له فيها.

٣- أنَّ أسعد الناس بالشفاعة أهل الإيمان.

فائدة:

له ﷺ ستة أنواع من الشفاعة.

الأول: الشفاعة الكبرىٰ التي يختص بها نبينا محمد ﷺ وهي الشفاعة لأهل الموقف، ليفصل الله بينهم ويريحهم من مقامهم في الموقف.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة حتىٰ يدخلوها.

الثالث: الشفاعة لقومٍ من العصاة استوجبوا دخول النار أن لا يدخلوها.

الرابع: الشفاعة في قومٍ من العصاة دخلوا النار أَنْ يخرجوا منها.

الخامس: الشفاعة في قومٍ من أهل الجنة لزيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم.

السادس: شفاعته ﷺ في عمِّه أبي طالبٍ أن يخففَ عنه عذاب النَّار.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** « باب الشفاعة »:

هذا الباب هو باب الشفاعة، وإيراد هذا الباب بعد البابين قبله مناسب جدًّا؛ ذلك أن الذين يسألون النبي عليه الصلاة والسلام ويستغيثون به ويطلبون منه، أو يسألون غيره من الأولياء أو الأنبياء إذا أقيمت عليهم الحجة بما ذُكر من توحيد الربوبية، قالوا: نحن نعتقد ذلك، ولكن هؤلاء

الشفعاء مقربون عند الله معظَّمون، وقد رفعهم الله -جل وعلا- عنده، ولهم الجاه عند الرب -جل وعلا- وإذا كانوا كذلك فهم يشفعون عند الله، فمن توجَّه إليهم أرضوه بالشفاعة؛ لأنهم ممن رفعهم الله، ولهذا يقبل شفاعتهم.

فكأن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ رأى حال المشركين والخرافيين واستحضر حججهم. وهو كذلك، إذ هو أخبر أهل هذه العصور المتأخرة بحجج المشركين.

فلما استحضر ذلك عقد باب الشفاعة ليحاججهم، فهذا باب الشفاعة.

والشفاعة في الأصل: مأخوذة من (الشفع) والشفع هو الزوج؛ لأن الشافع طالب، فصار مع صاحب الطلب الأصلي شفعًا، فإذا أراد أحدٌ من آخر شيئًا فجاءه ليشفع له فقد صار -بذلك شفعًا له، فسميت شفاعة؛ لأن صاحب الطلب أصبح شفعًا، بعد أن كان فردًا.

والشفاعة هي: الدعاء. وطلب الشفاعة هو طلب الدعاء، فإذا قال قائل: أستشفع برسول الله، فكأنه قال: أطلب من رسول الله ﷺ أن يدعو لي عند الله.

فالشفاعة طلب، فمن استشفع فقد طلب الشفاعة. والخلاصة: أن الشفاعة دعاء، وهي طلب الدعاء -أيضًا- وقد سبق أن قررنا أن كل دليل ورد في الشرع على إبطال أن يُدعى مع الله -جل وعلا- إله آخر، فإنه يصلح أن يكون دليلًا على إبطال الاستشفاع بالموتى الذين غابوا عن دار التكليف؛ لأن حقيقة الشافع -كما تقدم آنفًا- أنه طالب، ولأن حقيقة المستشفع أنه طالب -أيضًا- فالشافع في ظن المستشفع يدعو، والمستشفع يدعو من أراد منه الشفاعة، يعني: إذا أتى آتٍ إلى قبر نبي، أو قبر ولي، أو نحو ذلك، فقال: أستشفع بك، أو أسال الشفاعة، فمعناه أنه طلب منه، ودعا أن يدعو له؛ فلهذا كان صرفها، أو التوجه بها إلى غير الله -جل وعلا- شركًا أكبر؛ لأنها في الحقيقة دعوةٌ لغير الله، وسؤال من هذا الميت، وتوجه بالطلب والدعاء منه.

فإذا عرفت معنى الشفاعة، وحُكْمَ طلبها من الأموات، وأن ذلك شرك أكبر فاعلم أن الأحياء الذين هم في دار التكليف يجوز طلب الشفاعة منهم، بمعنى: أن يطلب منهم الدعاء، لكن قد يجاب دعاؤهم، وقد لا يجاب، وهذا كما هو حاصلٌ في شفاعة الناس بعضهم لبعضٍ بالشفاعة الحسنة أو بالشفاعة السيئة، كما قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾[النساء: ٨٥]،

وقال: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾[النساء: ٨٥]، فهذا يحصل لكن من الأحياء؛ لأنه في دار تكليف، ويقدرون على الإجابة، وقد أذن الله في طلب الشفاعة منهم، ولهذا كان الصحابة في عهد النبي ﷺ ربما أتى بعضهم النبي -عليه الصلاة والسلام- وطلب أن يشفع له، يعني أن يدعو له.

فمسألة الشفاعة من المسائل التي تخفى على كثيرين بما في ذلك بعض أهل العلم؛ ولذا وقع بعضهم في أغلاط في مسألة طلب الشفاعة من النبي -عليه الصلاة والسلام- فأوردوا قصصًا في كتبهم، فيها استشفاع بالنبي ﷺ دون إنكار، كما فعل النووي وابن قدامة في «المغني» وغيرهما.

وهذا لا يعدُّ خلافًا في المسألة؛ لأن هذا الخلاف راجع إلى عدم فهم حقيقة هذا الأمر، ومسألة الشفاعة مسألة فيها خفاء، ولهذا يقول بعض أهل العلم من أئمة الدعوة رحمهم الله: «**إن إقامة الحجة في مسائل التوحيد تختلف بحسب قوة الشبهة، فأقل الشبهات ورودًا، وأيسر الحجج قدومًا على المخالف هو فيما يتعلق بأصل دعوة غير الله معه، وبالاستغاثة بغير الله، والذبح لغيره، ونحو ذلك**».

ومن أكثرها اشتباهًا -إلا على المحقق من أهل العلم- مسألة الشفاعة، ولهذا فإن الشيخ رحمه الله أتى بهذا الباب، وقال: «**باب الشفاعة**» وبين لك -بما ساق من الأدلة من الكتاب والسنة- أن الشفاعة التي تنفع لا تصح إلا بشروط، وكذلك فإن هناك شفاعة منفية، فليست كل الشفاعة مقبولة، بل منها ما يقبل، ومنها ما لا يُقبل، فالمقبول منها له شروط وضوابط، والمردود منها فلقيام أوصاف توجب ردّها.

فالحاصل: أن الشفاعة الواردة في القرآن والسنة قسمان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

فالشفاعة المنفية: هي التي نفاها الله -جل وعلا- عن أهل الإشراك.

وأول الأدلة التي ساقها الشيخ رحمه الله في بيان هذه المسألة:

❁ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[الأنعام: ٥١]»:

والشفاعة الواردة هنا هي: الشفاعة المنفية، وقد نفاها الله عن جميع الخلق، بما في ذلك الذين يخافون وهم أهل التوحيد، كما نفاها عن غيرهم. أما عن أهل التوحيد فهي منفية عنهم بشروط،

وهي إذن الله للشافع أن يشفع ورضاه -جل وعلا- عن الشافع وعن المشفوع له.

قوله هنا: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يعني: أن الشفيع في الحقيقة هو الله -جل جلاله- دون ما سواه؛ ولهذا أعقبها بالآية الأخرىٰ فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر: ٤٤]، فالشفاعة جميعًا ملك لله، وأهلُ الإيمان وغيرهم -في الحقيقة- ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع، فليس من أحد أن يشفع لهم من دون الله -جل وعلا- بل لابُدَّ أن تكون الشفاعة بالله، يعني: بإذنه وبرضاه.

فإذا تقرر ذلك وأن الشفاعة منفية عن أحد سوىٰ الله -تعالىٰ- لأنه هو الذي يملك الشفاعة وحده بطل تعلق قلوب المشركين -الذين يسألون الموتىٰ الشفاعة- بمسألة الشفاعة؛ لأن الشفاعة ملك لله، وهذا المدعو لا يملكها.

لكن هل تنفع الشفاعة مطلقًا أو لابُدَّ لها أيضًا من قيود؟ نعم. الشفاعة تنفع لكن لابُدَّ لها من شروط، ولهذا أورد الآيتين بعدها وهما قوله جل وعلا: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]: ووجه الاستدلال من الآية الأولىٰ: أنه قيّد الإذن فيها، فليس لأحد أن يشفع إلا بشرط أن يأذن الله له، فلا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، فلا الملائكة، ولا الأنبياء، ولا المقربون يملكون شيئًا من الشفاعات، وإنما الله -جل وعلا- هو الذي يملك الشفاعة.

فإذا كان كذلك وأنه لابُدَّ من إذنه -جل وعلا- فمن الذين يأذن الله -جل وعلا- لهم؟ ليُعْلَمْ أولًا أن لا أحد يبتدئ بالشفاعة دون أن يأذن الله له بها، فإذا كان كذلك رجع الأمر إلىٰ أن الله هو الذي يوفّق للشفاعة، وهو الذي يأذن بها فلا أحد يبتدئ بها.

وكذلك قال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ يعني: من الشافعين ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ أي: يرضىٰ قول الشافع، ويرضىٰ -أيضًا- عن المشفوع له.

ففائدة هذه الشروط -وهي الفائدة المراد تقريرها في هذا الباب- ألّا يتعلّق أحدٌ بمن يظن أو يعتقد أن له عند الله مقامًا وأنه يشفع له عند الله، كما يعتقد ذلك أهل الشرك في آلهتهم، حيث

يزعمون أن من توجهوا إليهم بالشفاعة يملكون ذلك جزمًا، فمتىٰ توجه إليهم الطالب، وتذلل لهم، وتقرّب إليهم بالعبادات ثم طلب منهم الشفاعة عند الله فإنهم يشفعون جزمًا، وأن الله -عز وجل- لا يرد شفاعتهم.

فهذه الآيات فيها إبطال لدعوىٰ أولئك المشركين، واعتقادهم أن أحدًا يملك الشفاعة بدون إذن الله، وبدون رضاه عن المشفوع، وإذا ثبت أنه لا أحد يملكها، وأن من يشفع إنما يشفع بإكرام الله له، وبإذنه -جل وعلا- له فكيف يتعلّق المتعلق بهذا المخلوق، بل الواجب أن يتعلق بالذي يملك الشفاعة، وإذا كان من المتقرّر شرعًا أن شفاعة النبي ﷺ حاصلة يوم القيامة، فهل يصح طلبها منه؟

الجواب: إن طلبها إنما هو من الله -تعالىٰ- فتقول في ذلك: اللهم شفِّع فينا نبيك؛ لأنه -تعالىٰ- هو الذي يفتح، ويُلهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يشفع في فلان وفي فلان، فيمن سألوا الله أن يشفع لهم النبي عليه الصلاة والسلام، ولهذا أعقبها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بآية سبإ، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبإ: ٢٢]، فهذه الآية اشتملت علىٰ أربع حالات:

الحالة الأولىٰ: أن يدعوا الذين زعموهم من دون الله، وأن ينظروا هل يملكون مثقال ذرة في السماوات أو في الأرض؟!

والجواب: كما قال جل وعلا: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فانتفىٰ عنهم الملك الاستقلالي، وهذه هي الحالة الأولىٰ.

والثانية: في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ إذ نفىٰ -هنا- أيضًا: أن يكونوا شركاء لله في الملك، وفي تدبير السماوات والأرض، أو في ملك شيء منهما، فنفىٰ أولًا أن يملكوا استقلالًا، ونفىٰ ثانيًا أن يملكوا شِركة، ثم قال عز وجل بعدها: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ والظهير: هو المعاون والمؤازر، والوزير. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: الله تعالىٰ. و: ﴿مِنْهُم﴾ يعني: من تلك الآلهة، ما له من وزير ولا معاون؛ لأنه قد يتبادر إلىٰ ذهن بعض الناس أن ثمة من يعين الله علىٰ تدبير الأمور، وتصريف الشئون، كالملائكة، أو الأنبياء، فيظن أنه إذا توجّه إلىٰ أولئك بالدعاء

والطلب، كان قد توجه إلىٰ من يعين الله، فيعتقد أنه إذا طلب من الله فإن الله لن يردّه؛ لأنه ممن يعين الله! وقد بنوا هذا الاعتقاد الفاسد علىٰ تشبيه الخالق -تعالىٰ- بما يحصل من المخلوقين بعضهم لبعض، فإن الملك في هذه الدنيا، أو الحاكم، أو الأمير إذا كان له من يعينه، ومن يظاهره، وشَفَعَ هذا المعين لأحد فإنه لا يردُّ شفاعته؛ لأنه يحتاجه، فلأجل هذه الحاجة لا يرد الأمير، أو الملك شفاعة من كان له ظهيرًا، فلما ظنَّ هؤلاء المشركون أن بعض تلك الآلهة معاونة لله -جل وعلا- نفىٰ الله هذا الاعتقاد الجاهلي، وهذه هي الحالة الثالثة.

ثم نفىٰ أخيرًا آخر اعتقاد، وهو أن تلك الآلهة تملك الشفاعة، فقال جل وعلا: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾ [سبإ: ٢٣] فنفىٰ -آخر ما نفىٰ- الشفاعة، وأثبتها بشرط، فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وهذه هي الحالة الرابعة.

إذن فالآيات التي سبقت من أول الباب إلىٰ هنا رتّبها الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترتيبًا موضوعيًّا، ووجه الاستدلال في الآية الأولىٰ والثانية: أن الشفاعة ملك لله، وليس لأحد شيء من الشفاعة. فإذا كان لا يملك فمن يشفع إذًا؟ وكيف يشفع؟

الجواب: يشفع بأن يُعطىٰ الشفاعة، ويؤذن له بها، ويُكرم بها.

وسؤال آخر، وهو هل يشفع الشافع استقلالًا؟ وجوابه: أن الله تعالىٰ نفىٰ شفاعة الاستقلال، وأثبت الشفاعة بشرط، وهو شرط الإذن والرضا.

إذا كان كذلك فمن الذي يُؤذن له؟ ومن الذي يُرضىٰ له أن يشفع؟ ومن الذي يُرضىٰ عنه أن يشفع له؟ ومن الذي يُرضىٰ عنه أن يُشفع فيه؟ هذه ثلاثة أسئلة جوابها في كلام شيخ الإسلام حيث قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

❁ **قوله**: «أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نفىٰ الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفىٰ أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ...»»:

ومعنىٰ **قول أبي العباس**: «**منتفية يوم القيامة**» يعني: عن جميع الخلق إلا لمن أثبت الله -جل وعلا- له الاستحقاق، أو يكون نائلًا تلك الشفاعة، يعني: الأصل أنْ لا شفاعة إلا لمن رضي الله قوله أو أذن له جل وعلا.

ثم قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**...كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد**

لربه ويحمده» قول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن**» يعني: منتفية بدون شروط؛ لأن المشركين يعتقدون أنها تحصل بدون إذن من الله ولا رضاه؛ لأن الشافع عندهم يملك الشفاعة، ولكن حقيقتها: أنها لا تحصل إلا بالشرط المذكور في الكتاب والسنة.

ثم قال أبو العباس رَحِمَهُ اللَّهُ «... **يأتي فيسجد لربه ويحمده -لا يبدأ بالشفاعة أولًا- ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع**»

❁ **قوله: «وقال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»**(٤٥٩):

فالدليل الأول وهو من السنة فيه أن النبي ﷺ وهو سيد ولد آدم- لا يشفع حتىٰ يؤذن له كما في قوله: «**يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط واشفع تشفع**».(٤٦٠). فهذا في دليل الإذن. لكن من الذي يؤذن له؟

الجواب: يؤذن للنبي عليه الصلاة والسلام، ويؤذن للرسل فلا يبتدئون بالشفاعة من أنفسهم وإنما يستأذنون في الشفاعة فيؤذن لهم؛ لأنهم لا يملكونها، وإنما الذي يملكها إنما هو الله سبحانه وتعالىٰ.

فإذا قيل: فمن الذي يؤذن في الشفاعة فيه؟ ومن الذي يرضىٰ عنه في الشفاعة؟

فالجواب جاء في الحديث الآخر، حيث قال أبو هريرة للنبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «**من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**».(٤٦١). فهذا الذي يرضىٰ عنه، فيشفع فيه، بعد إذن الله -جل وعلا-

فالمخصوصون بنيل الشفاعة هم أصحاب الإخلاص من أهل التوحيد، فتبين أن تلك

---

(٤٥٩) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: الحرص علىٰ الحديث، برقم (٩٩)، وأحمد (٢/ ٣٧٣)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤٦٠) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: قول الله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤٦١) سبق تخريجه.

الشفاعة منتفية عن أهل الشرك.

ثم قال أبو العباس ابن تيمية: «**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله تعالىٰ، ولا تكون لمن أشرك بالله**» ومعنىٰ هذا أن من توجه إلىٰ الموتىٰ، أيًا كانوا -رسلًا، أم أنبياء، أو صالحين، أو كالصاحين- لطلب الشفاعة منهم فإنه مشرك؛ لأنه توجه بالدعاء إلىٰ غير الله، وأولئك لا يملكون الشفاعة، وإنما يشفعون بعد الإذن والرضا، والرضا يكون عن أهل التوحيد، وأهل التوحيد هم الذين لا يسألون الشفاعة أحدًا من الموتىٰ.

فكل من سأل ميتًا الشفاعة فقد حرم نفسه الشفاعة؛ لأنه أشرك بالله -جل وعلا- والشفاعة المثبتة إنما هي لأهل الإخلاص، ليس لأهل الشرك فيها نصيب.

«**وحقيقته**» يعني: حقيقة الشفاعة.

ثم قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ موضحًا حقيقة الشفاعة: «**وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود**» فهذا الكلام في مقام بيان حقيقة الشفاعة فإننا قد ذكرنا أن الله نفىٰ أن يملك أحدٌ الشفاعة، وأنها خاصة به -عز وجل- كما قال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر: ٤٤] واللام في قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾ لام الملك، يعني: الذي يملك الشفاعة هو الله -جل وعلا- وقال: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[الأنعام: ٥١]، فإن الشفاعة إنما هي لله تبارك وتعالىٰ، وجاءت الأدلة بنفي الشفاعة عن المشركين، وأن الشفاعة النافعة إنما هي لأهل الإخلاص بشرطين: الإذن والرضا.

إذا تقرر ذلك فما حقيقة الشفاعة؟ يعني: ما حقيقة حصولها، وكيف تحصل؟

الجواب في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله: «**وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل علىٰ أهل الإخلاص**» يعني: أن الذين شُفع لهم، إنما ذلك بتفضل الله -جل وعلا- عليهم، وهم أهل الإخلاص، حيث جاء في حديث أبي هريرة قوله عليه الصلاة والسلام: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**» أو قال: «**خالصًا من قلبه ونفسه**» فأهل الإخلاص هم الذين يكرمهم الله بالشفاعة، فالمتفضل بالشفاعة هو الله -عز وجل- فإذا ثبت ذلك انقطع القلب من التعلق بغير الله في طلب الشفاعة؛ لأن الذين توجهوا إلىٰ المعبودات المختلفة كالأولياء،

والصالحين، والملائكة وغيرهم إنما توجهوا إليهم رجاء الشفاعة، كما قال -جل وعلا- عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨]، فإذا بطل أن تكون لهم الشفاعة وثبت أن المتفضل بالشفاعة هو الله -جل وعلا- فإن الله -جل جلاله- إنما يتفضل بها على أهل الإخلاص، فيغفر لهم أي بواسطة من دعا، بواسطة دعاء الذي أَذِن له أن يشفع.

وهاهنا سؤال: لمَ لم يتفضل الله عليهم بأن يغفر لهم بدون واسطة الشفاعة؟

والجواب عن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية هنا بقوله:

«ليكرمه» أي إظهارًا لفضل الشافع، وإكرام الله -تعالىٰ- له في ذلك المقام، فإن من المعلوم أن الشافع -الذي قبلت شفاعته- ليس في المقام مثل المشفوع له، فالله -جل وعلا- يُظهر إكرامه لمن أذن له أن يشفع، ويظهر رحمته بالشافع، فقد تكون للشافع قرابةٌ، أو أحبابٌ يريد أن يشفع لهم، ولذلك فإن الشفاعة يوم القيامة لأهل الكبائر ليست خاصة بالنبي ﷺ بل يشفع -أيضًا الأنبياء، والملائكة، والصالحون.

فهذه شفاعات مختلفة في أهل الكبائر جعلها الله إكرامًا للشافع، ورحمة به، وأيضًا رحمة بالمشفوع له، وإظهارًا لفضل الله -جل وعلا- علىٰ الشافع، والمشفوع له.

فالحاصل أن حقيقة الشفاعة تكون بتفضل الله -تعالىٰ- علىٰ المأذون له بالشفاعة ليشفع وإكرامه بذلك، ثم تفضله علىٰ المشفوع له ورحمته بقبول الشفاعة فيه. وهذا كله دال -لمن كان له قلب- علىٰ عظم الله -جل وعلا- وتفرده بالملك، وتفرده بتدبير الأمر وأنه -سبحانه- الذي يجير ولا يجار عليه، وهو الذي له الشفاعة كلها، وهو الذي له ملك الأمر كله، ليس لأحد منه شيء، وإنما يُظهر -سبحانه- فضله، وإحسانه ورحمته، وكرمه لتتعلق به القلوب، فبطل -إذًا- أن يكون ثَمَّ تعلق للقلب بغير الله -جل وعلا- لأجل الشفاعة. وبطل -أيضًا- صنيع الذين تعلقوا بالأولياء، أو تعلقوا بالصالحين، أو بالأنبياء، أو بالملائكة لأجل الشفاعة، فإذا تبين حد الشفاعة، وحقيقتها، وأنها محض فضل من الله سبحانه وتعالىٰ وإكرام، أوجب ذلك تعلق القلوب به سبحانه في طلب الشفاعة، ورجائها، فالله تعالىٰ هو المتفضل بها علىٰ الحقيقة، والعباد مكرمون بها، لا يبتدئون بالقول، ولا يسبقون بالقول، وإنما يَوْجَلون، ويخافون، ويثنون علىٰ الله، ويحمدون،

حتىٰ يؤذَن لهم بالشفاعة.

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «**فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك**» أي مثل ما في قوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[الأنعام: ٥١] فهذه شفاعة منفية، وهي الشفاعة التي فيها شرك، وكذلك فإن المشركين لا يشفعون، فالشفاعة في حقهم منفية؛ لأنهم لم يُرض عنهم. فالشفاعة التي فيها شرك من جهة الطلب، أو من جهة من سُئلت له، بأن كان مشركًا فإنها منفية عن هؤلاء، بل لا تنفعهم. فثبت بذلك أن المستحقين للشفاعة هم الذين أنعم الله عليهم بالإخلاص، ووفقهم لتعظيمه، وتعلقت قلوبهم به وحده دون ما سواهم، بخلاف الذين حُرموها من المشركين بالله الشرك الأكبر، فلا نصيب لهم منها؛ لأن الشفاعة فضل من الله لأهل الإخلاص.

وأما الشفاعة المثبتة فهي التي أثبتت بشرط الإذن، والرضا. قال شيخ الإسلام بعد ذلك: «**ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع**» وهذه هي الشفاعة المثبتة «**أثبتها بإذنه في مواضع**» أي بشرط الإذن، والإذن إما إذن كوني، وإما إذن شرعي، فالمأذون له بالشفاعة لا يمكن أن تحصل منه الشفاعة إلا أن يأذن الله كونًا بأن يشفع فإذا منعه الله كونًا أن يشفع لم تحصل منه الشفاعة ولا تحرك بها لسانه.

ومعنىٰ الإذن في باب الشفاعة: أن تكون خالصة وخالية من الشرك، وأن يكون المشفوع له ليس من أهل الشرك. ويَخُصُّ من ذلك أبو طالب، حيث يشفع له النبي عليه الصلاة والسلام في تخفيف العذاب عنه فهي شفاعة ليست في الانتفاع بالإخراج من النار، إنما هي في تخفيف العذاب خاصة بالنبي -عليه الصلاة والسلام- بما أوحىٰ الله -جل وعلا- إليه وأذن له بذلك.

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر كلامه: «**وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص**» وهذه هي الشفاعة المثبتة بشرط الرضا. فتبين بهذا الباب أن الشفاعة التي تعلقت بها قلوب أولئك الخرافيين المشركين باطلة، وأن قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨]، قول باطل؛ إذ الشفاعة التي تنفع إنما هي لأهل الإخلاص، ثم إن طلبها وسؤالها من غير الله تعالىٰ مؤذنٌ بحرمانهم إياها، ما داموا طلبوها من غير الله، ووقعوا في الشرك الصريح.

وخلاصة الباب أن تعلق أولئك بالشفاعة عاد عليهم بعكس ما أرادوا، فإنهم لما تعلقوا بالشفاعة حرموها؛ لأنهم تعلقوا بشيء لم يأذن الله -جل وعلا- به شرعًا؛ حيث استخدموا الشفاعات الشركية، وتوجّهوا إلىٰ غير الله، وتعلقت قلوبهم بهذا الغير.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات أي: آية الأنعام، والزمر، والبقرة، والنجم، وسبإ.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية، أي: هي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة، أي: هي التي تطلب من الله، وتكون بشرطين: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى وهي المقام المحمود، أي: شفاعته ﷺ في أهل الموقف حتى يقضي بينهم؛ فيستريح أهل الجنة من كرب الموقف.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة بل يسجد فإذا أذن له سجد، أي: مع كونه أفضل الخلق،فكيف بغيره؟ وهذا يدل على أن الأمر كله لله.

السادسة: من أسعد الناس بها، أي هم من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه فصارت مختصة بأهل التوحيد.

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله، أي: إنه لما خصها بأهل التوحيد دل ذلك أنها لا تكون لمن أشرك بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها، أي: إن الله يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

* الأسئلة *

س: ما مقصود المؤلف بهذا الباب؟

جـ: أراد بيان ما أثبته القرآن من الشفاعة وما نفاه وحقيقة ما دل القرآن على إثباته.

س: ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: هي أن فيه رد على المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين ويقولون إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى وليشفعوا لنا عنده.

س: عرف الشفاعة واذكر أنواعها مع التعريف لكل نوع؟

جـ: الشفاعة هي طلب التوسط عند الغير في جلب نفع أو دفع ضر وهي نوعان:

١ - شفاعة مثبتة وهي التي تطلب من الله بإذنه لمن يرضى قوله وعمله أو من المخلوق فيما يقدر عليه.

٢ - شفاعة منفية وهي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله والشفاعة بغير إذنه أو لأهل الشرك به.

س: اذكر شروط الشفاعة المثبتة مع ذكر الدليل؟

جـ: شروطها: اثنان:

الأول: الإذن من الله للشافع أن يشفع كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]

الثاني: رضاه عن المشفوع له كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]

س: كم أنواع شفاعة النبي ﷺ في الآخرة؟ وما هي؟

جـ: شفاعة النبي ﷺ ستة أنواع:

١ - الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم من الرسل حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول أنا لها وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من كرب الموقف.

٢ - شفاعته لأهل الجنة في دخولها.

٣ - شفاعته لقوم من العصاة من أمته أن لا يدخلوا النار.

٤ - شفاعته في إخراج العصاة من أهل التوحيد من النار.

٥ - شفاعته في قوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم.

٦ - شفاعته في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب.

س: مَنْ أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ وما حقيقة هذه الشفاعة ولمن تكون؟

جـ: أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه. وحقيقتها أن الله يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له في الشفاعة. وتكون لأهل التوحيد والإخلاص.

س: ما هي الشفاعة التي نفاها القرآن؟

جـ: ما كان فيها شرك كما تقدم.

❁ **قوله**: «قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ...﴾[الأنعام:٥١]».

س: من هو المخاطب بهذه الآية وما هو الإنذار وما المراد بالذين يخافون؟ وما هو المنذر به؟ اذكر مناسبة هذه الآية للباب؟

جـ- المخاطب الرسول محمد ﷺ والإنذار هو الإعلام بأسباب المخافة والتحذير منها والمراد بالذين يخافون هم المؤمنون. والمنذر به هو القرآن.

ومناسبة الآية للباب: أنها دلت على أن المؤمنين الذين أخلصوا نيتهم وعملهم لله تركوا التعلق على الأولياء والشفعاء.

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]؟

جـ: أي: هو مالكها فلا يجوز أن تطلب إلا منه.

❁ **قوله**: «قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة:٢٥٥]».

س: اشرح هذه الآية وبين سبب نزولها؟

جـ: أخبر الله -تعالى- أن الشفاعة إنما تقع في الآخرة بإذنه. وسبب نزولها أن المشركين قالوا: ما نعبد أوثاننا إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[النجم:٢٦]».

س: اذكر وجه الدلالة من هذه الآية؟

جـ: وجه الدلالة أنه إذا نفىٰ الله شفاعة الملائكة المقربين بغير إذنه ورضاه فكيف ترجون - أيها الجاهلون- شفاعة هذه الأنداد عند الله وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها بل قد نهىٰ عنها علىٰ ألسنة جميع رسله وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ:٢٢ - ٢٣]».

س: وضح معاني الكلمات الآتية: من دون الله، مثقال ذرة، شرك، ظهير ثم اشرح الآية وبين الشاهد منها للباب؟

جـ: من دون الله: من غير الله.

مثقال ذرة: وزن نملة صغيرة.

شرك: مشاركة.

ظهير: معين.

شرح الآية: نفىٰ الله من هذه الآية كل ما يتعلق به المشركون من دونه فنفىٰ أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونًا لله ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب. فنفىٰ الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه.

والشاهد من الآية للباب: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس الثامن عشر:

باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية [القصص:٥٦].

وفي «الصحيح» عن ابن المسيب عن أبيه، قال: ««لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهلٍ. فقال له: يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا. فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة:١١٣] وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]» (٤٦٢)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية.

الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...﴾ الآية.

الثالثة: وهي المسألة الكبيرة، تفسير قوله: «قل: لا إله إلا الله»؛ بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

الرابعة: أن أبا جهلٍ ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: قل: «لا إله إلا الله»؛ فقبح الله مَنْ أبو جهلٍ أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جده ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نُهي عن ذلك.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

---

(٤٦٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، برقم (١٣٦٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة، برقم (٢٤)، وغيرهما من حديث المسيب رضي الله عنه.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك؛ لاستدلال أبي جهل بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين؛ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره؛ فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية»:

الخطاب للنبي ﷺ والمنفي هنا هداية التوفيق والإلهام، وهو خلق الهدىٰ في القلب وإيثاره وذلك لله وحده، وهو القادر عليه، كقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران:٢٠]، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٤٦] وأما هداية البيان والإرشاد والدلالة فقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ:٥٣]. فهو المبين عن الله، والدال علىٰ دينه وشرعه.

أراد المصنف رَحِمَهُ اللهُ بهذه الترجمة الرد علىٰ عباد القبور، الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين النفع والضر، فيسألونهم من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية، فإن سبب هذه الآية موت أبي طالب، وإذا كان ﷺ قد حرص علىٰ هدايته عند موته فلم يتيسر له ذلك، ودعا له بعد موته، ونهي عن ذلك، وذكر الله أنه لا يقدر علىٰ هداية من أحب هدايته لقرابته ونصرته، تبين أعظم بيان، ووضح أوضح برهان أنه ﷺ لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا عطاءً ولا منعًا، وأنه ﷺ لا يقدر إلا علىٰ ما أقدره الله عليه، وأن الأمر كله بيد الله، فبطلت عبادته من دون الله، وإذا بطلت عبادته- وهو أشرف الخلق- فعبادة غيره أولىٰ بالبطلان.

قوله: «في الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه»:

أي: في «الصحيحين» عن ابن المسيب بفتح «الياء»، واسمه سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، أحد العلماء، والفقهاء الكبار

السبعة من التابعين، اتفق أهل الحديث أن مراسيله أصح المراسيل. قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه. مات بعد التسعين، وقد ناهز الثمانين. وأبوه المسيب صحابي، بقي إلىٰ خلافة عثمان، وكذلك جده حزن صحابي، استشهد باليمامة.

قوله: «**قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة**»؛ أي: حضرته علاماتها ومقدماتها، وإلا فلو كان قد انتهىٰ إلىٰ المعاينة لم ينفعه الإيمان لو آمن.

قوله: «**جاءه الرسول صلىٰ الله عليه وسلم**»:

حرصًا علىٰ هدايته وشفقة عليه، لما رأىٰ منه النصح والاجتهاد، فيما يصلح أمره، والذب عنه بماله وحاله وولده، وصنع الصنائع التي لم يصنعها أحد من الأقارب والأباعد معهﷺ وفيه جواز- عيادة المشرك إذا رجي إسلامه، وحمل العلم إذا كان فيه مصلحة راجحة.

قوله: «وعنده عبد الله ابن أبي أمية وأبي جهل» ويحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين؛ فإنهم كلهم من بني مخزوم، وكانوا إذ ذاك كفارًا، فقتل أبو جهل علىٰ كفره، وأسلم الآخران، وكانت كنية أبي جهل أبا الحكم فسماه النبيﷺ أبا جهل، وأخبر أنه فرعون هذه الأمة.

قوله: «**فقال له: يا عم، قل: لا إله إلا الله**»:

أمرهﷺ بقولها؛ ليحصل له بذلك الفوز والسعادة والظفر، ولعلمهﷺ بعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفي الشرك بالله، وإخلاص العبادة لله وحده، فإن من قالها عن علم ويقين وقبول فقد برئ من الشرك والمشركين، ودخل في الإسلام؛ لأن العرب يعلمون ما دلت عليه، فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبرئ منه، وكذلك الحاضرون يعلمون ما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه؛ ولهذا عارضوه بما يأتي، و«عم» منادي مضاف، يجوز فيه إثبات الياء وحذفها، وإبقاء الكسرة دليل عليها كما هنا، وفيه ثلاث لغات أخر.

قوله: «**كلمة أحاج لك بها عند الله**»:

«**كلمة**» بالنصب بدل من لا إله إلا الله، ويجوز الرفع خبر مبتدأ محذوف، و «**أحاج**» بتشديد «الجيم» من المحاجة، وهي مفاعلة من الحجة، و«الجيم» مفتوحة علىٰ الجزم في جواب الأمر؛ أي: أشهد لك بها عند الله، وبرهانًا أعتذر بها لك عنده، وفيه دليل علىٰ أن الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها في تلك الحال معتقدا ما دلت عليه من النفي والإثبات لنفعته، ودخل بها في الإسلام.

قوله: «فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب»:

لما علما من شدة تمسكه بملتهم، مع حياطته النبي ﷺ وخشيا أن تترك تلك الآلهة والأوثان التي يتعلقون بها من دون الله، ذكراه الحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على المرسلين، وهي تقليد الآباء والكبراء: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٣]. فإن ملة عبد المطلب الشرك وعبادة الأوثان، كما كانت قريش وغيرهم في جاهليتهم كذلك، وأخرجا الكلام مخرج الاستفهام مبالغة في الإنكار، لعظمة هذه الحجة في قلوب الظالمين، ولذلك اكتفيا بها في المجادلة، مع مبالغته ﷺ وتكريره. قال المصنف: «**فلأجل عظمتها ووضوحها عندهما اقتصرا عليها، وفيه المسألة الكبيرة: تفسير قوله: «قل: لا إله إلا الله» بخلاف ما عليه من يدعي العلم، وفيه أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «قل: لا إله إلا الله، فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام**».

قوله: «فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فأعادا»:

أي: أعاد النبي ﷺ على عمه قوله: «**قل: لا إله إلا الله**» وفي رواية: «**فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدها عليه**»؛ يعني: أنه بالغ ﷺ وكرر، لعله أن يحصل لعمه هذا الفوز العظيم، فأعادا معارضته ﷺ بقولهما: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبرئ من ملة عبد المطلب، وهي الشرك بالله في الإلهية، فصارا سببًا لصدوده عن الحق، وعن هذا الخير العظيم الذي فيه السعادة الأبدية. قال المصنف: «وفيه مضرة أصحاب السوء على الإنسان»، فينبغي الحذر من قربهم، والحذر من الاستماع لهم كما قيل:

إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

«**وفيه مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر**» إذا زاد على المشروع، بحيث أن تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

قوله: «فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب»:

«**آخر**» منصوب على الظرفية؛ أي: آخر تكليمه إياهم، ويجوز فيه الرفع. قال الحافظ: الظاهر أن أبا طالب قال: أنا.. كما في المسند، فغيره الراوي بلفظة «هو» استقباحًا للفظ المذكور، وهو من التصرفات الحسنة.

قوله: «وأبى أن يقول: لا إله إلا الله»:

تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب، وذلك لما لله فيه من الحكمة، وليعلم أن هذا الدين لا ينال بالنسب، وإنما يحصل بالتقوى.

❁ **قوله**: «**فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»:

«**اللام**» للقسم، وفي رواية لهما: «**أما والله لأستغفرن لك**». وفيه جواز الحلف من غير استحلاف وكأنه هنا لتأكيد العزم علىٰ الاستغفار، تطييبًا لنفس أبي طالب، وكانت وفاته بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين، وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعده بثمانية أيام.

❁ **قوله**: «**فأنزل الله عز وجل**: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ...﴾»:

الإتيان «**بالفاء**» المفيدة للترتيب في قوله: «**فأنزل الله**»، تفيد أنها نزلت في أبي طالب، وقد ثبت أنه ﷺ أتىٰ قبر أمه لما اعتمر، فاستأذن ربه أن يستغفر لها، فنزلت هذه الآية، ولا منافاة، فإنه قد تتعدد أسباب النزول، وهذه الآية عامة في حقه ﷺ وحق غيره، وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وتحريم كل موالاتهم ومحبتهم، بل إذا حرم الاستغفار لهم فمحبتهم وموالاتهم أولىٰ.

❁ **قوله**: «**وأنزل الله تعالىٰ في أبي طالب**: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾»:

أي: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص:٧٥]؛ أي: لقرابتك أو أحببت أن يهتدي: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص:٧٥] فله الحكمة البالغة في إضلال من شاء: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٧٥]؛ أي: بمن قدر له الهدىٰ. وأجمع المفسرون علىٰ أنها نزلت في أبي طالب، وهي عامة، ومن حكمة الرب في عدم هدايته ليبين لعباده أن ذلك إليه سبحانه دون من سواه، فلو كان عند النبي ﷺ الذي هو أفضل خلقه من هداية القلوب، وتفريج الكروب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء لكان أحق الناس بذلك، وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه إلىٰ أن بلّغ الوحي، وعادىٰ قومه هو وأولاده، وقام بنصرته بالمال والرجال، وأقر أن ما جاء به هو الحق، إلا أنه لم ينقد إليه، ولم يتبرأ من دين المشركين، فظهر بذلك بطلان التعلق عليه ﷺ- فضلًا عن غيره- بشيء من خصائص الرب جل وعلا. قال المصنف: «**وفيه الرد علىٰ من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه**».

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله**: «**باب قول الله تعالىٰ**: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص:٥٦]»:

وهذا الباب أيضًا نظير الباب الذي قبله وذلك أنه إذا كان ﷺ هو أفضل الخلق علىٰ الإطلاق وأعظمهم عند الله جاهًا وأقربهم إليه وسيلة، لا يقدر علىٰ هداية من أحب هداية التوفيق. وإنما الهداية كلها بيد الله، فهو الذي تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات، فتبين أنه الإله الحق.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورىٰ:٥٢]. فالمراد بالهداية هنا هداية البيان وهو ﷺ المبلغ عن الله وحيه الذي اهتدىٰ به الخلق.

قال العلامة ابن باز:

❁ قوله: «باب قول الله تعالىٰ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ...﴾[القصص:٥٦] »:

هذا الباب ذكره المؤلف ليبين أن الرسل وأفضلهم محمدﷺ لا يملكون شيئًا من أمر الله إلا ما أعطاهم الله وأنهم لا يستطيعون هداية البشر إلا من هداه الله فهم مربوبون مقهورون ليس لهم من التصرف إلا ما جعل الله لهم. لذلك لا يصلح أن يعبدوا من دون الله، فهم كسائر البشر لكن الله فضلهم بالرسالة والنبوة فلهم مزيد شرف ولكن هذا لا يجعلهم شركاء لله في تصريف الكون أو علم الغيب وهداية من شاءوا. فإذا كان الرسول لم يستطع هداية عمه أبي طالب وأبي لهب فهذا يدل علىٰ أن الهداية بيد الله ويجب طلبها منه سبحانه.

فهذا باب بيان أن الهداية التي مضمونها قبول الحق والرضا به لا يملكها أحد غير الله.

❁ قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦]:

أما الهداية التي بمعنىٰ الدلالة والإرشاد والبيان فهي بيد الرسل وأتباعهم من العلماء والدعاة كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورىٰ:٥٢]؛ أي: ترشد وتدل وتدعو إلىٰ صراط مستقيم ولكن لا يستطعوا أن يؤثروا في القلوب حتىٰ تقبل الحق بل هي لله.

❁ قوله: «وفي الصحيح عن ابن المسيب قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول اللهﷺ»:

«لما حضرت»؛ أي: علامات قرب الأجل. المسيب بالكسر وبالفتح وهو أشهر عند المحدثين.

«جاءه رسول الله»: ليدعوه دعوة خاصة عند قرب الأجل وقد دعاه قبل ذلك كثيرًا. ولكنه لم يستجب مع أنه يعلم أنه حق ولكنه لا يريد أن يجلب المسبة لقومه علىٰ زعمه ولذا قال في شعره:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينًا

لولا الملامة وحذار مسبة ... لوجدتني منشرحًا بذاك بينًا

«كلمة أحاج لك بها عند الله»: أي أشهد لك بها وأحرص بها علىٰ نجاتك.

«أترغب عن ملة عبد المطلب»: من عبادة الأوثان والأصنام.

«فكأن آخر ما قال هو علىٰ ملة عبد المطلب»: لأنه قد سبقت له الشقاوة ولم يرد الله له الهداية

لحكمة بالغة فهو مات على دين قومه وهو الحق وجاءت به الأحاديث الصحيحة أنه رآه؛ أي: النبي عليه الصلاة والسلام في غمرات من النار فشفع فيه حتى صار في ضحضاح من النار يغلي منها دماغه(٤٦٣) أما من قال أنه أسلم فلا أصل له. ففيه أن النبي لا يستطيع هداية أحد من الخلق.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: فيه تسلية للنبي وتسلية لمن أسلم بعض قومه ولم يسلم بعضهم.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية»:**

مناسبة هذا الباب لما قبله:

مناسبته أنه نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحدًا بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحدًا؛ فيقوم بما أمر الله به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص:٥٦]. الخطاب للنبي ﷺ، وكان يحب هداية عمه أبي طالب أو من هو أعم.

فأنت يا محمد المخاطب بكاف الخطاب، وله المنزلة الرفيعة عند الله لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، ومعلوم أنه إذا أحب هدايته، فسوف يحرص عليه، ومع ذلك لا يتمكن من هذا الأمر؛ لأن الأمر كله بيد الله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾[آل عمران:١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾[هود:١٢٣]، فأتى بـ «أل» الدالة على الاستغراق؛ لأن «أل» في قوله: «الأمر» للاستغراق؛ فهي نائبة مناب كل؛ أي: وإليه يرجع كل الأمر، ثم جاءت مؤكدة بكل، وذلك توكيدان.

والهداية التي نفاها الله عن رسوله ﷺ هداية التوفيق، والتي أثبتها له هداية الدلالة والإرشاد، ولهذا أتت مطلقة لبيان أن الذي بيده هو هداية الدلالة فقط، لا أن يجعله مهتديًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]. فلم يخصص سبحانه فلانًا وفلانًا ليبين أن المراد؛ أنك تهدي هداية دلالة، فأنت تفتح الطريق أمام الناس فقط وتبين لهم وترشدهم، وأما

---

(٤٦٣) سبق تخريجه.

إدخال الناس في الهداية، فهذا أمر ليس إلىٰ الرسول ﷺ إنما هو مما تفرد الله به سبحانه، فنحن علينا أن نبين وندعو، وأما هداية التوفيق -أي: أن الإنسان يهتد- فهذا إلىٰ الله -سبحانه وتعالىٰ- وهذا هو الجمع بين الآيتين.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ظاهره أن النبي ﷺ يحب أبا طالب؛ فكيف يؤول ذلك؟

والجواب: إما أن يقال: إنه علىٰ تقدير أن المفعول محذوف، والتقدير: من أحببت هدايته لا من أحببته هو. أو يقال: إنه أحب عمه محبة طبيعية كمحبة الابن أباه ولو كان كافرًا.

أو يقال: إن ذلك قبل النهي عن محبة المشركين.

والأول أقرب؛ أي: من أحببت هدايته لا عينه، وهذا عام لأبي طالب وغيره.

ويجوز أن يحبه محبة قرابة، ولا ينافي هذا المحبة الشرعية، وقد أحب أن يهتدي هذا الإنسان، وإن كنت أبغضه شخصيًّا لكفره، ولكن لأني أحب أن الناس يسلكون دين الله.

قوله: «في الصحيح»:

سبق الكلام علىٰ مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «**أبا**»: بالألف: مفعول به منصوب بالألف؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و«**الوفاة**» يعني: الموت، فاعل حضرت.

قوله: «**فقال: يا عم! قل لا إله إلا الله**»: أتىٰ ﷺ بهذه الكنية الدالة علىٰ العطف؛ لأن العم صنو الأب؛ أي: كالغصن معه. والصنو: الغصن الذي أصله واحد؛ فكأنه معه كالغصن.

قوله: «**يا عم**»: فيها وجهان:

يا عمِ؛ بكسر «الميم»: علىٰ تقدير أنها مضافة إلىٰ الياء.

ويا عمُ؛ بضم «الميم»: علىٰ تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله: «**قل: لا إله إلا الله**»: يجوز أنه قاله علىٰ سبيل الأمر والإلزام؛ لأنه يجب أن يأمر كل أحد أن يقول: لا إله إلا الله. ويجوز أنه علىٰ سبيل الإرشاد والتوجيه. ويجوز أنه قاله علىٰ سبيل الترجي والتلطف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها، ولهذا بادر بالإنكار.

قوله: «**كلمة**»: منصوبة؛ لأنها بدل لا إله إلا الله، ويجوز إذا لم تكن الرواية بالنصب أن تكون بالرفع؛ أي: هي كلمة، ولكن النصب أوضح.

قوله: «**أُحاج**»: بضم «الجيم» وفتحها: فعلىٰ ضم الجيم فهي صفة لكلمة، وإذا كانت بالفتح فهي مجزومة جوابًا للأمر: «قل»؛ أي: قل أحاج.

وقال بعض المعربين: إنها جواب لشرط مقدر؛ أي: إن تقل أحاج، والأول أسهل؛ لأن الأصل عدم التقدير؛ والمعنىٰ: أذكرها حجة لك عند الله، وليس أخاصم وأجادل لك بها عند الله، وإن كان بعض أهل العلم قال: إن معناها أجادل الله بها، ولكن الذي يظهر لي أن المعنىٰ: أحاج لك بها عند الله؛ أي: أذكرها حجة لك كما جاء في بعض الروايات: «**أشهد لك بها عند الله**»[٤٦٤].

قوله: «فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟»:

القائلان هما: عبدالله بن أبي أمية، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه؛ لأنهما عرفا أنه إذا قالها؛ أي: كلمة الإخلاص وحَّدَ، وملة عبد المطلب الشرك، وذكرا له ما تهيج به نعرته، وهي ملة عبد المطلب حتىٰ لا يخرج عن ملة آبائه.

وقد مات أبو جهل علىٰ ملة عبد المطلب، أما عبد الله بن أبي أمية والمسيب الذي روىٰ الحديث، فأسلما؛ فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، ﵄.

قوله: «**ملة عبد المطلب**»: أي: دين عبد المطلب.

قوله: «**فأعاد عليه النبي ﷺ**»؛ أي: قوله: قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله.

قوله: «**فأعادا عليه**»؛ أي: قولهما: أترغب عن ملة عبد المطلب.

قوله: «**فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك.... إلخ**» جملة «**لأستغفرنَّ لك**» مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد الثقيلة.

والاستغفار: طلب المغفرة، وكأن النبي ﷺ في نفسه شيء من القلق، حيث قال: «**ما لم أنه عنك**»؛ فوقع الأمر كما توقع ونهي عنه.

---

(٤٦٤) سبق تخريجه.

قوله: «ما لم أنه عنك»:

فعل مضارع مبني للمجهول، والناهي عنه هو الله.

قوله: ﴿مَا كَانَ﴾: «ما»: نافية، و«كان»: فعل ماض وناقص.

قوله: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا۟﴾: أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر.

قوله: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾: خبر مقدم؛ أي: ما كان استغفاره، واعلم أن ما كان أو ما ينبغي أو لا ينبغي ونحوها إذا جاءت في القرآن والحديث؛ فالمراد: أن ذلك ممتنع غاية الامتناع؛ كقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾[مريم:٣٥]، وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[مريم:٩٢]، وقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾[يس:٤٠]، وقولهﷺ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**»[٤٦٥].

وقوله: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا۟﴾؛ أي: يطلبوا المغفرة للمشركين.

قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾:

أي: حتىٰ ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما اعتمر النبيﷺ، ومر بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له؛ فزاره للاعتبار وبكىٰ وأبكىٰ من حوله من الصحابة[٤٦٦].

فالله منعه من طلب المغفرة للمشركين؛ لأن هؤلاء المشركين ليسوا أهلًا للمغفرة؛ لأنك إذا دعوت الله أن يفعل ما لا يليق؛ فهو اعتداء في الدعاء.

قوله: «**وأنزل الله في أبي طالب**»؛ أي: في شأنه.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: الخطاب للرسولﷺ؛ أي: لا توفق من أحببت للهداية.

قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يهدي هداية التوفيق من يشاء واعلم أن كل فعل يضاف إلىٰ مشيئة الله تعالىٰ؛ فهو مقرون بالحكمة؛ أي: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنه يهتدي، ومن اقتضت حكمته أن يضله أضله.

---

(٤٦٥) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام إن الله لا ينام وفي قوله حجابه النور...، برقم (١٧٩)، وابن ماجه، في المقدمة، باب: فيما أنكرت الجهمية، برقم (١٩٥)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

(٤٦٦) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: استئذان النبيﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، برقم (٩٧٦)، وأبو داود، كتاب: الجنائز، باب: في زيارة القبور، برقم (٣٢٣٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره؛ فالذين يلجئون إليه ﷺ ويستنجدون به مشركون؛ فلا ينفعهم ذلك؛ لأنه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنه قد قام معه قيامًا عظيمًا، ناصره وآزره في دعوته؛ فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!

الإشكالات الواردة في الحديث:

الإشكال الأول: الإثبات والنفي في الهداية، وقد سبق بيان ذلك.

الإشكال الثاني: قوله «**لما حضرت أبا طالب الوفاة**» يشكل مع قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾[النساء:١٨]، وظاهر الحديث قبول توبته. والجواب عن ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن يقالك: «**لما حضرت أبا طالب الوفاة**»؛ أي: ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلىٰ هذا؛ فالوصف لا ينافي الآية.

الثاني: أن هذا خاص بأبي طالب مع النبي ﷺ، ويستدل لذلك بوجهين:

أنه قال: «**كلمة أحاج لك بها عند الله**»، ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.

أنه سبحانه أذن للنبي ﷺ بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له، والشفاعة له ليُخفف عنه العذاب.

ويضعف الوجه الأول أن المعنىٰ ظهرت عليه علامات الموت: بأن قوله: «**لما حضرت أبا طالب الوفاة**» مطابقًا تمامًا لقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾، وعلىٰ هذا يكون الأوضح في الجواب أن هذا خاص بالنبي ﷺ مع أبي طالب نفسه.

الإشكال الثالث: أن قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣] في سورة التوبة، وهي متأخرة مدنية، وقصة أبي طالب مكية، وهذا يدل علىٰ تأخر النهي عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن النبي ﷺ للاستغفار لأمه وهو ذاهب للعمرة(٤٦٧).

ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهي، فدل علىٰ تأخر الآية، وأن المراد بيان دخولها في قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة:١١٣]، وليس المعنىٰ أنها نزلت في ذلك الوقت.

وقيل: إن سبب نزول الآية هو استئذانه ربه في الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

---

(٤٦٧) سبق تخريجه.

الإشكال الرابع: أن أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إله إلا الله، لكن بدون قول قل؛ لأنه ربما مع الضجر يقول: لا؛ لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث قال: «قل».

والجواب: أن أبا طالب كان كافرًا، فإذا قيل له: «قل» وأبىٰ، فهو باقٍ علىٰ كفره، لم يضره التلقين بهذا؛ فإما أن يبقىٰ علىٰ كفره ولا ضرر عليه بهذا التلقين وإما أن يهديه الله، بخلاف المسلم، فهو علىٰ خطر؛ لأنه ربما يضره التلقين علىٰ هذا الوجه.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؛ أي: من أحببت هدايته، وسبق تفسيرها، وبيَّنَّا أن الرسول ﷺ إذا كان لا يستطيع أن يهدي أحدًا وهو حي؛ فكيف يستطيع أن يهدي أحدًا وهو ميت؟! وأنه كما قال الله تعالىٰ في حقه: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢١]

الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ **الآية**: وقد سبق تفسيرها وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولي قربىٰ.

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات: المرحوم؛ فإنه حرام؛ لأن هذا مضادة لله -سبحانه وتعالىٰ-، وكذلك يحرم إظهار الجزع والحزن علىٰ موتهم بالإحداد أو غيره؛ لأن المؤمنين يفرحون بموتهم، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلوهم حتىٰ يكون الدين كله لله.

الثالثة: وهي المسألة الكبيرة؛ أي: الكبيرة من هذا الباب، وقوله- أي: قول النبي ﷺ- لعمه: «**قل: لا إله إلا الله**»، وعمه عرف المعنىٰ أنه التبرؤ من كل إله سوىٰ الله؛ ولهذا أبىٰ أن يقولها؛ لأنه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

وقوله: «**بخلاف ما عليه من يدعي العلم**» كأنه يشير إلىٰ تفسير المتكلمين لمعنىٰ لا إله إلا الله، حيث يقولون: إن الإله هو القادر علىٰ الاختراع، وإنه لا قادر علىٰ الاختراع والإيجاد والإبداع إلا الله، وهذا تفسير باطل.

نعم، هو حق لا قادر علىٰ الاختراع إلا الله، لكن ليس هذا معنىٰ لا إله إلا الله، ولكن المعنىٰ: لا معبود حق إلا الله؛ لأننا لو قلنا: إن معنىٰ لا إله إلا الله: لا قادر علىٰ الاختراع إلا الله؛ صار

المشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم مسلمين؛ فالظاهر من كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أراد أهل الكلام الذين يفسرون لا إله إلا الله بتوحيد الربوبية، وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون: نحن نقول: لا إله إلا الله.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ أبو جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ بقول: لا إله إلا الله، ولذا ثاروا وقالوا له: «**أترغب عن ملة عبد المطلب؟**»، وهو أيضًا أبىٰ أن يقولها لأنه يعرف مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٦،٣٥]

فالحاصل: أن الذين يدعون أن معنىٰ لا إله إلا الله؛ أي: لا قادر علىٰ الاختراع إلا هو، أو يقولونها وهم يعبدون غيره كالأولياء هم أجهل من أبي جهل.

واحترز المؤلف في عدم ذكر من مع أبي جهل؛ لأنهم أسلموا، وبذلك صاروا أعلم ممن بعدهم، خاصة من هم في العصور المتأخرة في زمن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

الخامسة: جده ومبالغته في إسلام عمه: حرصه ﷺ وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث؛ لسببين هما:

١- القرابة.

٢- لما أسدىٰ للرسول والإسلام من المعروف؛ فهو علىٰ هذا مشكور، وإن كان علىٰ كفره مأزورًا وفي النار، ومن مناصرة أبي طالب أنه هجر قومه من أجل معاضدة النبي ﷺ ومناصرته، وكان يعلن علىٰ الملأ صدقه ويقول قصائد في ذلك ويمدحه، ويصبر علىٰ الأذىٰ من أجله، وهذا جدير بأن يحرص علىٰ هدايته، لكن الأمر بيد مقلب القلوب كما في الحديث: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء**»، ثم قال ﷺ في نفس الحديث: «**اللهم! مصرف القلوب! صرف قلوبنا علىٰ طاعتك**»[٤٦٨].

السادسة: الرد علىٰ من زعم إسلام عبد المطلب: بدليل قولهما: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟»

(٤٦٨) أخرجه مسلم، كتاب: القدر، باب: تصريف الله تعالىٰ القلوب كيف شاء، برقم (٢٦٥٤)، وأحمد (٢/ ١٦٨)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

حين أمره النبي ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله، فدل على أن ملة عبد المطلب الكفر والشرك.

وفي الحديث رد على من قال بإسلام أبي طالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة، قبحهم الله؛ لأن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له: الرسول ﷺ أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يجيب دعاءه لعمه أبي طالب؛ لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[آل عمران:١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[هود:١٢٣]، ليس لأحد تصرف في هذا الكون إلا رب الكون.

وكذا أمه ﷺ لم يؤذن له في الاستغفار لها؛ فدل على أن أهل الكفر ليسوا أهلًا للمغفرة بأي حال، ولا يُجاب لنا فيهم، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنما يُدعى لهم بالهداية وهم أحياء.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان: المعنى أنه لولا هذان الرجلان؛ لربما وفق أبو طالب إلى قبول ما عرضه النبي ﷺ، لكن هؤلاء -والعياذ بالله- ذكراه نعرة الجاهلية. ومضرة رفقاء السوء، ليس خاصًا بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شبه النبي ﷺ جليس السوء بنافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة[٤٦٩] وقال ﷺ: «**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[٤٧٠]؛ وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روي عن النبي ﷺ بسند لا بأس به: «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**»[٤٧١]؛ فالمهم أنه يجب على الإنسان أن يفكر في أصحابه: هل هم أصحاب سوء؟ فليبعد عنهم؛ لأنهم أشد عداءً من الجرب، أو هم أصحاب خير: يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويفتحون له أبواب الخير فعليه بهم.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر: لأن أبا طالب اختار أن يكون على ملة عبد

---

(٤٦٩) أخرجه البخاري، كتاب: الذبائح والصيد، باب: المسك، برقم (٥٥٣٤)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: استحباب مجالسة الصالحين...، برقم (٢٦٢٨)، وغيرهما من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤٧٠) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟، برقم (١٣٥٨/ م)، ومسلم، كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة...، برقم (٢٦٥٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٧١) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس، برقم (٤٨٣٣)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب: (٤٥)، برقم (٢٣٧٨)، وأحمد (٢/ ٣٠٣)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٣٥٤٥).

المطلب حين ذكروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ، وهذا ليس على إطلاقه؛ فتعظيمهم إن كانوا أهلًا لذلك فلا يضر، بل هو خير؛ فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شك أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه.

وإن كان تعظيم الأكابر لما هم عليه من العلم والسّنن؛ فليس فيه مضرة، وإن كان تعظيمهم لما هم عليه من الباطل؛ فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلًا: من يعظم أبا جهل لأنه سيد أهل الوادي، وكذلك عبد المطلب وغيره؛ فهو ضرر عليه، ولا يجوز أن يرى الإنسان في نفسه لهؤلاء أي قدر؛ لأنهم أعداء الله ﷻ وكذلك لا يُعظم الرؤساء من الكفار في زمانه؛ فإن فيه مضرة؛ لأنه قد يُورث ما يُضاد الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلة من الكتاب والسنة.

العاشرة: **الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك**: شبه المبطلين في تعظيم الأسلاف هي استدلال أبي جهل بذلك في قوله: «**أترغب عن ملة عبد المطلب؟**»، وهذه الشبهة ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

فالمبطلون يقولون في شبهتهم: إن أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم، ويقولون: كيف نسفه أحلامهم، ونضلل ما هم عليه؟

وهذا يوجد في المتعصبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم، حيث لا يقبلون قرآنًا ولا سنة في معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إن بعضهم يجعلهم معصومين؛ كالرافضة، والتيجانية، والقاديانية، وغيرهم؛ فهم يرون أن إمامهم لا يخطئ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا.

والواجب على المرء أن يكون تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ، وأما من خالفه من الكبراء والأئمة؛ فإنهم لا يُحتج بهم على الكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنة إن كانوا أهلًا للاعتذار، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص، فيعتذر لهم بما ذكره أهل العلم، ومن أحسن ما ألف كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة؛ فلا يعتذر له.

الحادية عشرة: **الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم**: وهذا مبنيّ على القول بأن معنى حضرته الوفاة؛ أي: ظهرت عليه علاماتها ولم ينزل به كما سبق.

الثانية عشرة: **التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين...إلخ**، وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾:

تمام الآية: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦]

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ فيه الرد علىٰ عُبّاد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين النفع والضر. وذلك أنه إذا كان النبيﷺ قد حرص علىٰ هداية عمِّه في حياته فلم يتيسر له، ودعا له بعد موته فنهي عن ذلك، وذكر سبحانه أنَّ الرسول لا يقدر علىٰ هداية من أحبَّ، فهذا يدل علىٰ أنهﷺ لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، فبطل التعلق به لجلب النفع ودفع الضر، وغيره من باب أولىٰ.

﴿إِنَّكَ﴾: الخطاب للنبيﷺ.

﴿لَا تَهْدِي﴾: هداية توفيقٍ للدخول في الإسلام. وأما هداية الدعوة والبيان فإن الرسول يملكها ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: هدايته.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾: يوفق للدخول في الإسلام.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يقول تعالىٰ لرسولهﷺ: إنَّك لا تقدرُ علىٰ توفيق من تحب دخوله في الإسلام، ولكنَّ ذلك إنَّما يكون بيد الله، فهو يوفق من شاء له، وهو أعلم بمن يستحقه ممن لا يستحقه.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها دلالة واضحة علىٰ أنَّ الرسولﷺ لا يملك ضرًّا ولا نفعًا ولا عطاءً ولا منعًا، وأنَّ الأمر كلَّه بيد الله، ففيها الرد علىٰ الذين ينادونه لتفريج الكربات وقضاء الحاجات.

ما يستفاد من الآية:

الردُّ علىٰ الذين يعتقدون أنَّ الأولياء ينفعون أو يضرُّون ويتصرَّفون بعد الموت علىٰ سبيل الكرامة.

أنَّ هداية التوفيق بيد الله سبحانه.

إثبات العلم لله سبحانه.

إثباتُ الحكمة لله سبحانه.

إبطالُ التعلق بغير الله.

❁ **قوله: «ابن المسيب»:**

هو سعيد بن المسيب أحد العلماء والفقهاء الكبار من التابعين مات بعد التسعين.

«**في الصحيح**»: أي: «صحيح البخاريِّ».

«**عن أبيه**»: المسيب؛ صحابيٌّ توفي في خلافة عثمان.

«**لما حضرت أبا طالبٍ الوفاة**»؛ أي: علاماتها ومقدماتها.

«**يا عمِّ**»: «عمِّ» منادىٰ مضاف حذفت منه الياء وبقيت الكسرة دليلًا عليها.

«**كلمَةً**»: بالنصب علىٰ البدل من «لا إله إلا الله».

«**أحاجَّ**»: بتشديد الجيم مفتوحة علىٰ الجزم بجواب الأمر -- من المحاجة وهي: بيان الحجة -- أي: أشهد لك بها عند الله.

«**أترغب**»؟ أتترك؟

«**ملة عبد المطلب**»: هي الشرك وعبادة الأصنام، ذكره بحجة المشركين ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[الزخرف:٢٢].

«**فأعاد عليه النبي**»؛ أي: أعاد عليه مقالته وهي قوله: «**يا عم، قل: لا إله إلا الله**».

«**وأعاد عليه**»؛ أي: أعاد عليه أبو جهل وعبد الله مقالتهما وهي: «**أترغب عن ملة عبد المطلب**»؟

«**هو علىٰ ملة عبد المطلب**»: استبدل الراوي بضمير المتكلم ضمير الغائب استقباحًا للفظ المذكور.

«**وأبىٰ أن يقول: لا إله إلا الله**» هذا تأكيد لما قبله.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾؛ أي: ما ينبغي، وهو خبرٌ بمعنىٰ النهي.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

كان أبو طالب يحمي النبيﷺ من أذىٰ قومه، وفعل من حمايته ما لم يفعله غيره من الناس، فكانﷺ حريصًا علىٰ هدايته، ومن ذلك أنه عاده لما مرض فجاءه وهو في سياق الموت وعرض عليه الإسلام؛ ليكون خاتمة حياته ليحصل له بذلك الفوز والسعادة، وطلب منه أن يقول: كلمة التوحيد. وعرض عليه المشركون أن يبقىٰ علىٰ دين آبائه الذي هو الشرك؛ لعلمهم بما تدل عليه

هذه الكلمة من نفي الشرك وإخلاص العبادة لله وحده. وأعاد النبيﷺ طلب التلفظ بالشهادة من عمِّه. وأعاد المشركون المعارضة وصاروا سببًا لصدِّه عن الحقِّ وموتِهِ علىٰ الشرك.

وعند ذلك حلف النبيﷺ ليطلبن له من الله المغفرة ما لم يُمنع من ذلك. فأنزل الله المنع من ذلك وبيَّن له أنَّ الهداية بيد الله يتفضل بها علىٰ من يشاء؛ لأنه يعلم من يصلُحُ لها ممن لا يصلح.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ الرسولﷺ لا يملك نفعًا لمن هو أقرب الناس إليه، مما يدل علىٰ بطلان التعلق عليهﷺ لجلب النفع أو دفع الضرِّ، وغيره من باب أولىٰ.

ما يستفاد من الحديث:

١- جواز عيادة المريض المشرك إذا رُجي إسلامه.

٢- مضرة أصحاب السوء وقرناء الشرِّ علىٰ الإنسان.

٣- أنَّ معنىٰ لا إله إلا الله ترك عبادة الأصنام والأولياء والصالحين وإفراد الله بالعبادة. وأنَّ المشركين يعرفون معناها.

٤- أنَّ من قال لا إله إلا الله عن علمٍ ويقينٍ واعتقادٍ دخل في الإسلام.

٥- أنَّ الأعمال بالخواتيم.

٦- تحريم الاستغفار للمشركين وتحريم موالاتهم، ومحبتِّهم.

٧- بطلان التعلق علىٰ النبيﷺ وغيره لجلب النفع أو دفع الضرر.

٨- الرد علىٰ من زعم إسلام أبي طالب.

٩- مضرة تقليد الآباء والأكابر بحيث يجعل قولهم حجةً يرجع إليها عند التنازع.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أن الهداية من أعز المطالب، وأعظم ما تعلق به المتعلقون بغير الله؛ أن يحصل لهم النفع الدنيوي والأخروي من الذين توجهوا إليهم، واستشفعوا بهم. ولما كان النبي ﷺ وهو أفضل الخلق، وسيد ولد آدم -قد نفىٰ الله عنه أن يملك الهداية- وهي نوع من أنواع المنافع- دل ذلك

علىٰ أنه عليه الصلاة والسلام ليس له من الأمر شيء، كما جاء فيما سبق في باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١] في سبب نزول قول الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام ليس له من الأمر شيء، ولا يستطيع أن ينفع قرابته، كما جاء في قوله: «**يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئتِ لا أغني عنكِ من الله شيئًا**»(٤٧٢).

أقول: إذا كان هذا في حق المصطفىٰ ﷺ وأنه لا يغني من الله -جل وعلا- عن أحبابه شيئًا، وعن أقاربه شيئًا ولا يملك شيئًا من الأمر، وليست بيده هداية التوفيق، فإنه ينتفي ذلك وما دونه عن غير النبي ﷺ من باب أولىٰ.

فبطل -إذًا كل تعلق للمشركين -من هذه الأمة- بغير الله -جل وعلا- لأن كل من تعلقوا به هو دون النبي عليه الصلاة والسلام بالإجماع، فإذا كانت هذا حال النبي عليه الصلاة والسلام، وقد نفىٰ الله عنه ملك هذه الأمور، فإن نَفْي ذلك عن غيره من باب أولىٰ.

قال هنا: «باب قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: ٥٦]»: ﴿لَا﴾ هنا: نافية، وقوله: ﴿تَهْدِي﴾ الهداية المنفية هنا: هي هداية التوفيق، والإلهام الخاص، والإعانة الخاصة، وهي التي يسميها العلماء: هداية التوفيق والإلهام، ومعناها: أن الله -جل وعلا- يجعل في قلب العبد من الإعانة الخاصة علىٰ قبول الهدىٰ، مالا يجعله لغيره. فالتوفيق إعانة خاصة لمن أراد الله توفيقه، بحيث يقبل الهدىٰ ويسعىٰ فيه. فجعل هذا في القلوب ليس إلىٰ النبي ﷺ إذ القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء، حتىٰ إن أحب الناس إليه ﷺ لا يستطيع -عليه الصلاة والسلام أن يجعله مسلمًا مهتديًا، وقد كان أبو طالب من أنفع قرابة النبي ﷺ له، ومع ذلك لم يستطع أن يهديه هداية توفيق. فالمنفي هنا في قوله: (تهدي) هي هداية التوفيق.

والنوع الثاني من الهداية المتعلقة بالمكلف هي: هداية الدلالة والإرشاد، وهذه ثابتة للنبي

---

(٤٧٢) أخرجه البخاري، كتاب: الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب، برقم (٢٧٥٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، برقم (٢٠٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ﷺ بخصوصه، ولكل داعٍ إلىٰ الله، ولكل نبي ورسول، قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد: ٧]، وقال -جل وعلا- في نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾[الشورىٰ: ٥٢،٥٣]، ومعنىٰ ﴿لَتَهْدِيٓ﴾ أي: لتدل وترشد إلىٰ صراط مستقيم بأبلغ أنواع الدلالة، وأبلغ أنواع الإرشاد المؤيَّدَين بالمعجزات والبراهين الدالة علىٰ صدق ذلك الهادي، وصدق ذلك المرشد.

فالهداية المنتفية -إذًا- هي: هداية التوفيق، وهذا يعني: أن النفع، وطلب النفع في هذه المطالب المهمة يجب أن يكون من الله -جل وعلا-، ومحمدٌ -عليه الصلاة والسلام- مع عظم شأنه عند ربه، وعظم مقامه عند ربه، وأنه سيد ولد آدم، وأفضل الخلق عليه الصلاة والسلام، وأشرف الأنبياء والمرسلين -: إلا أنه لا يملك من الأمر شيئًا عليه الصلاة والسلام-.

فبطل -إذًا- تعلق القلوب في المطالب المهمة -كالهداية، والمغفرة، وطلب الرضوان، وطلب دفع الشرور، وفي جلب الخيرات- إلا بالله -جل وعلا- فإنه هو الذي يجب أن تتعلق القلوب به -جل وعلا- خضوعًا، وإنابة، ورغبًا، ورهبًا، وإقبالًا عليه، وإعراضًا عما سواه سبحانه وتعالىٰ.

۞ قوله: «وفي الصحيح عن ابن المسيب قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ...»:

في هذا القدر من الحديث فائدة، وهي أن هذه الكلمة (لا إله إلا الله) ليست كلمة مجردة عن المعنىٰ، تنفع من قالها، ولو لم يُقرّ بمعناها. والعرب كانوا -لصلابتهم، وعزتهم، ورجولتهم، ومعرفتهم بما يقولون- إذا تكلموا، أو خوطبوا بكلام يعون كل حرف، وكل كلمة خوطبوا بها، أو نطقوا بها، ولذلك لما قيل لهم: قولوا: لا إله إلا الله -مع أنها كلمة يسيرة- أبوا؛ لأنهم يعلمون أن هذه الكلمة معناها إبطال إلهية من سوىٰ الله -جل وعلا- ولهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآيات [الصافات: ٣٥-٣٧] وكذلك قول الله -جل وعلا- مخبرًا عن قولهم في أول سورة (ص): ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] استنكروا قول: (لا إله إلا الله) وهذا هو الذي حصل مع أبي طالب لما قال له النبي ﷺ **«قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»**. فلو

كانت مجردة من المعنىٰ عندهم، أو يمكن أن يقولها المرء دون اعتقاد ما فيها، ورضىً بما فيها ويقين وانتفاء الريب لقالها، ولكن ليس هذا هو المقصود من قول (لا إله إلا الله) بل المقصود هو قولها مع تمام اليقين بها، وانتفاء الريب، والعلم، والمحبة، إلىٰ آخر الشروط المعروفة.

وقوله في الحديث: «**فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب**» هذا فيه -والعياذ بالله- ضرر جليس السوء علىٰ المجالس له.

وقوله: «**فكان آخر ما قال: هو علىٰ ملة عبد المطلب، وأبىٰ أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ «لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك**» وهذا موطن الشاهد من هذا الحديث.

ومناسبة هذا الحديث لهذا الباب أن النبي ﷺ قال: «**لأستغفرن لك**» واللام في قوله: «**لأستغفرن** » هي التي تقع في جواب القسم، فثَمَّ قسم مقدر، تقديره: والله لأستغفرن لك. فالاستغفار حصل من النبي ﷺ لعمّه، ولكن هل نفع استغفار النبي ﷺ له؟ لا. لم ينفعه ذلك.

وطلب الشفاعة والاستشفاع هو من جنس طلب المغفرة، فالاستغفار طلب المغفرة، والشفاعة قد يكون منها طلب المغفرة، ولكن لم يقبل الله تعالىٰ من النبي ﷺ شفاعته لعمه؛ لأن المطلوب له كان مشركًا، والاستغفار والشفاعة لا تنفعان أهل الشرك، والنبي ﷺ لا يملك أن ينفع مشركًا بالشفاعة له بمغفرة ذنوبه، أو ينفع أحدًا ممن توجه إليه بدعوةٍ، أو استغاثةٍ، أو استعانةٍ لإزالة ما به من كربات، أو جلب الخيرات له، لهذا قال: «**لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك**» فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [**التوبة: ١١٣**]. وهذا ظاهر في المقام أن الله -جل وعلا- نهىٰ النبي ﷺ أن يستغفر للمشركين.

فائدة: كلمة ﴿ مَا كَانَ ﴾ في الكتاب والسنة تأتي علىٰ استعمالين:

الاستعمال الأول: النهي.

الاستعمال الثاني: النفي.

فالنهي مثل هذه الآية، وهي قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [**التوبة:١٢٢**] فهذا نهي عن الاستغفار لهم، وكذلك قوله: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ

لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾[التوبة:١٢٢]. والنفي كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[القصص: ٥٩] ونحو ذلك من الآيات.

فإذا عرفنا أن كلمة (ما كان) تأتي في القرآن على هذين المعنيين، فالمراد بها -هنا- النهي، أي النهي عن الاستغفار لأحدٍ من المشركين. فإذا كان الله عز وجل نهىٰ الرسل، والأنبياء، والأولياء، وغيرهم من أهل الصلاح -في حال حياتهم- عن الاستغفار لهؤلاء المشركين، فهذا يدل أنه لو فرض أنهم يقدرون علىٰ الاستغفار في حال حياتهم البرزخية فإنهم لن يستغفروا للمشركين، ولن يسألوا الله لمن توجه إليهم -حال موتهم- لطلب الاستشفاع، أو لطلب الإغاثة، أو غيرها من العبادات، وأنواع التوجهات. والله أعلم.

قال: وأنزل الله في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[القصص: ٥٦]



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، أي: إنك يا محمد لا تهدي من أحببت والمراد هداية التوفيق والإلهام والقبول،وإنما القادر على ذلك هو الله عز وجل،وأما هداية الدلالة والإرشاد فيقدر عليها كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾[الشورى:٥٢].

الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١١٣﴾[التوبة:١١٣] ، أي: ما يصلح لهم ولا ينبغي لهم أن يستغفروا للمشركين، ولو كانوا أقرب الناس إليهم ما دام أنهم ماتوا على غير الإسلام.

الثالثة: وهي المسألة الكبرى تفسير: قول لا إله إلا الله بخلاف ما عليه من يدعي العلم، أي: إن تفسيرها إفراد الله بالعبادة،وترك عبادة ما سواه، ولذلك لما فهم هذا كفار قريش لم يقولوها بخلاف من بعدهم ممن يدعي العلم، فإنهم لما خفي عليهم هذا صاروا وهم متلبسون بالشرك لظنهم أنه لا ينافيها.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل قل: لا إله إلا الله فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام، أي: إنهم عرفوا مراده وهو أنه يقتضي ترك ما كانوا يعبدونه من دون الله؛ فلذلك نهوا أبا طالب عن قولها وهذا يدل على أنهم أعلم بأصل الإسلام من كثير من أهل هذه الأزمان.

الخامسة: جده ﷺ ومبالغته في إسلام عمه، أي: إنه لما قال له قل: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله، ثم أعاد ذلك عليه دل على شدة مبالغته ﷺ في ذلك.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه، أي: كونهم عارضوا قول النبي ﷺ لعمه قل لا إله إلا الله بقولهم: أترغب عن ملة عبد المطلب دل ذلك على أنها منافية للإسلام،وأن عبد المطلب غير مسلم.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك، أي لقوله: «**لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك**» حتىٰ نزل قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء علىٰ الإنسان، أي: إن أبا جهل ومن معه نهوه عن قول: لا إله إلا الله وقالوا له ما قالوا فصار جلوسهم في تلك الحال عنده مضرة عليه.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر، أي: لما كانت ملة عبد المطلب معظمة عند أبي طالب امتنع عن الإسلام بسببها، ولو كان لا يعظمها لما شق عليه أن يرغب عنها.

العاشرة: استدلال الجاهلية بذلك، أي: إن أبا جهل ومن معه استدلوا بتعظيم أبي طالب لملة عبد المطلب فجعلوها أعظم حائل بينه وبين قول: لا إله إلا الله.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها لنفعته، أي لقوله في الحديث: «**أحاج لك بها عند الله**» فدل علىٰ أنها تنفعه لو قالها في تلك الحال.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها مع مبالغته ﷺ وتكريره فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها أي قولهم: أترغب عن ملة عبد المطلب.



* الأسئلة *

❁ **قوله:** «قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾».

س: اشرح هذه الآية وبين سبب نزولها؟

جـ: يقول الله تعالىٰ لرسوله ﷺ إنك لا تهدي من أحببت؛ أي: ليس عليك هداهم وإنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء وهو أعلم بمن يستحق الهداية وله الحكمة في ذلك.

وسبب نزول هذه الآية: حرص النبي ﷺ علىٰ إسلام عمه أبي طالب.

س: ما الذي أراده المؤلف بهذا الباب؟

جـ: أراد رَحِمَهُ اللَّهُ الرد علىٰ عُباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون أو يضرون فيسألونهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات.

س: اذكر أنواع الهداية مع التمثيل؟ وما هي الهداية المنفية في هذا الباب؟

جـ: الهداية نوعان:

الأول: هداية التوفيق والقبول وهي خلق الهدىٰ في قلب الضال وهي المنفية في هذا الباب ولا يملكها إلا الله مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؛ أي: لا تخلق التوفيق في قلب من أضله الله.

الثاني: هداية الدلالة والبيان مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ:٥٢] فهو المبين عن الله والدال علىٰ دينه وشرعه.

❁ **قوله:** «في الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة...».

س: ما معنى قوله حضرت أبا طالب الوفاة؟

جـ: أي: حضره علامات الموت ومقدماته.

س: لماذا أمره الرسول ﷺ بقول: لا إله إلا الله عند موته؟

جـ: لعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفي الشرك بالله وإخلاص العبادة له وحده.

س: ما معنى قوله: أحاج لك بها عند الله؟

جـ: أي: أشهد لك بها عند الله؛ لأنه لو قالها في تلك الحال معتقدًا ما دلت عليه من النفي والإثبات لقبلت منه ودخل في الإسلام.

س: ما هي ملة عبد المطلب؟

جـ: هي الشرك بالله في إلهيته.

س: ما معنى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ وما سبب نزولها؟

جـ: المعنىٰ: ما ينبغي لهم ذلك وهو خبر بمعنىٰ النهي نزلت لما أراد النبي ﷺ الاستغفار لعمه أبي طالب، وأراد بعض الصحابة الاستغفار لأبويه المشركين.

س: ما هي الحكمة في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام؟

جـ: ليبين الله لعباده أن ذلك إليه وهو القادر عليه دون سواه فلو كان عند النبي ﷺ من هداية القلوب وتفريج الكروب ومغفرة الذنوب والنجاة من العذاب شيء لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويئويه.

س: اذكر ما يستفاد من حديث ابن المسيب المتقدم؟

جـ: يستفاد منه:

١ - جواز عيادة المشرك إذا رجىٰ إسلامه.

٢ - مضرة أصحاب السوء علىٰ الإنسان.

٣ - مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

٤ - أن الأعمال بالخواتيم.

٥ - الرد علىٰ من زعم إسلام عبد المطلب.

٦ - تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولىٰ.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

الدرس التاسع عشر:

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾[النساء:١٧١]

وفي «الصحيح» عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾[نوح:٢٣]. قال: «هذه أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم: أن انْصِبُوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتىٰ إذا هلك أولئك، ونُسي[٤٧٣] العلم، عُبدت»[٤٧٤].

قال ابن القيم: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا؛ عكفوا علىٰ قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم».

وعن عمر، أن رسول الله ﷺ قال «لا تُطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، إنما أنا عبد[٤٧٥]، فقولوا: عبد الله ورسوله»[٤٧٦] أخرجاه.

وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»[٤٧٧]

ولمسلم عن ابن مسعودٍ، أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون». قالها ثلاثًا[٤٧٨].

---

(٤٧٣) في «صحيح البخاري»: «وتَنَسَّخَ».

(٤٧٤) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾، برقم (٤٩٢٠) وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤٧٥) في «صحيح البخاري»: «عبده».

(٤٧٦) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، برقم (٣٤٤٥) وغيره من حديث عمر رضي الله عنه، ولم أقف عليه في مسلم كما قال المصنف.

(٤٧٧) أخرجه النسائي، كتاب: مناسك الحج، باب: التقاط الحصىٰ، برقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: قدر حصىٰ الرمي، برقم (٣٠٢٩)، وأحمد (١/ ٢١٥)، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٢٨٣).

(٤٧٨) أخرجه مسلم، كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون، برقم (٢٦٧٠)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة، برقم (٤٦٠٨)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فيه مسائل:

الأولىٰ: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده، تبين له غُربة الإسلام، ورأىٰ من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شركٍ حدث في الأرض، [أنه](٤٧٩) كان بشُبهة الصالحين.

الثالثة: معرفة أول شيءٍ غُير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم.

الرابعة: [معرفة سبب](٤٨٠) قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل: فالأول محبة الصالحين، والثاني فعل أناسٍ من أهل العلم والدين شيئًا أرادوا به خيرًا فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تَفسير الآية التي في سورة نوحٍ.

السابعة: معرفة جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد.

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تئول إليه البدعة، ولو حسن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو، ومعرفة ما يئول إليه.

الحادية عشرة: مضرة العكوف علىٰ القبر لأجل عمل صالحٍ.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

الرابعة عشرة: وهي أعجب العجب: قراءتُهم «أي: أهل البدع» إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنىٰ الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتىٰ اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهىٰ الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

---

(٤٧٩) ساقطة من نسخة ابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

(٤٨٠) ساقطة من نسخة ابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم»، فصلوات الله وسلامه علىٰ من بلغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتىٰ نُسيَ العلم؛ ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم...»:

أي: باب ما جاء من الدليل والبرهان علىٰ أن سبب كفر بني آدم أو سبب أول كفر بني آدم، وتركهم دينهم الذي خلقوا له، ولا صلاح ولا فلاح لهم إلا به؛ هو الغلو في الصالحين من الأنبياء والأولياء وغيرهم بالقول والاعتقاد فيهم، وضابط الغلو: تعدي ما أمر الله به، وهو الطغيان الذي نطىٰ الله عنه، ولما ذكر بعض ما يفعله عباد القبور مع الأموات من الشرك، أراد أن يبين السبب في ذلك؛ ليحذروا الغلو مطلقا، لاسيما في الصالحين، فإنه أصل الشرك قديمًا وحديثًا؛ لقرب الشرك بالصالحين من النفوس، فإن الشيطان يظهره في قالب المحبة والتعظيم.

قوله: «وقول الله عزوجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾»:

في موضعين من كتابه؛ أي: لا تتعدوا ما حد الله لكم، ولا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله، وأهل الكتاب هنا هم اليهود والنصارىٰ، والغلو كثير في النصارىٰ؛ فإنهم غلوا في عيسىٰ فنقلوه من حيز النبوة إلىٰ أن اتخذوه إلهًا من دون الله، واليهود تنقصوه؛ فحطوه من منزلته، حتىٰ جعلوه ولد بغي، فالنصارىٰ أفرطوا، واليهود فرطوا، والخطاب وإن كان لأهل الكتاب، فهو تحذير لهذه الأمة أن يفعلوا مع نبيهم ما فعلت النصارىٰ مع المسيح، واليهود مع العزير. قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحديد:١٦] ومن تشبه بهم من هذه الأمة وغلا في

الدين بإفراط أو تفريط فهو منهم، فعل من دعا نبيًا أو وليًا من دون الله فقد اتخذه إلهًا، وضاهىٰ النصارىٰ في شركهم، واليهود في تفريطهم. وقد نهىٰ الله عن الغلو في كتابه في مواضع، كقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[هود:١١٢] الآية وغيرها، والغلو شامل لجميع أمور الدين، فشمل الغلو في محبة الصالحين.

قوله: «﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾»:

كان هؤلاء أهل دين وفضل وخير، وماتوا في زمن متقارب فأسفوا عليهم، وصاروا يترددون علىٰ قبورهم، فأتاهم الشيطان وسول لهم أن يصوروا صورهم؛ ليكون أسهل عليهم من المجيء إلىٰ قبورهم، ولم يكونوا قصدوا عبادتهم، وإنما قصدوا التذكر بهم؛ ليكون أدعىٰ لهم علىٰ فعل الخير والتأسي بهم.

قوله: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح»:

هذا الأثر اختصره المصنف، ولفظ البخاري عنه: «صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعد، فأما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت، لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين في قوم نوح»[٤٨١]. وروىٰ ابن جرير، عن موسىٰ، عن محمد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسرًا كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم: لو صورنا صورهم كان أشوق لنا إلىٰ العبادة، فصوروا صورهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم[٤٨٢].

قوله: «فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم...»:

أي: فإذا هلك أولئك الصالحون، وحزن عليهم قومهم حزنًا شديدًا، وسوس لهم الشيطان، وألقىٰ إليهم أن انصبوا إلىٰ مجالسهم حالة التعليم والتذكير أنصابًا علىٰ صورهم المعلومة عندكم؛ جمع نصب، والأمر منه بالكسر، والمراد بالأنصاب هنا الأصنام المصورة علىٰ صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم؛ ليتذكروا أفعالهم بها، وسموها بأسمائهم حتىٰ لا تنسوهم،

---

(٤٨١) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، برقم (٤٩٢٠) وغيره من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤٨٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٢٥٣) من طريق سفيان عن موسىٰ عن محمد بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكلما ترونها تذكركم إياهم، وقد أخرج الشيطان لهم هذه الحيلة في قالب المحبة؛ لعدم قدرته عليهم إلا بهذه الدرجة، ومقصوده من بعدهم الذين لم يعرفوا ما نصبت له، ليوسوس لهم أنهم كانوا معبودين في أولاكم.

قوله: «فعلوا ولم تعبدن حتىٰ إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت»:

أي: فعل أولئك ما أوحاه الشيطان إليهم من تصوير صالحيهم، ولم تعبد تلك الصور، لقرب عهدهم بمعرفة الهالكين وما صوروا لأجله، حتىٰ إذا هلك الذين صوروا الأصنام، ونسي العلم الذي فيه بيان الشرك والتوحيد، أو نسي العلم الذي نصبوا لأجله الأنصاب، وهو تذكر العلم الذي كانوا يأخذونه عنهم، والعبادة التي كانوا يفعلونها؛ ليتأسوا بهم فيها، عُبدت تلك الصور، وفي رواية: أنهم قالوا: ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فهذا هو السبب في عبادة هؤلاء الصالحين، وهذه هي الشبهة التي ألقاها الشيطان علىٰ المشركين من الأولين والآخرين. وفي رواية: «ونسخ»؛ أي: درست آثاره بذهاب العلماء، حتىٰ صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك، فوقعوا في الشرك ظنًّا منهم أنه ينفعهم. وعبدت تلك الأصنام لما قال لهم إبليس: إن مَنْ كان قبلكم كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر؛ فصارت هذه الأصنام بهذا التصوير سلمًا لعبادتها؛ ففيه مضرة فقد العلم، و مضرة الغلو، فإن كل ما عبد من دون الله- من قبر أو صنم- فالأصل في عبادته الغلو واندراس العلم، والجهل بحقيقة دين المرسلين؛ فالله المستعان.

قال الكلبي: كان لعمرو بن ربيعة رئي من الجن، فأتاه فقال: أجب أبا ثمامة، وادخل بلا ملامة، ثم ائت سيف جدة تجد بها أصنامًا معدة، ثم أوردها تهامة ولا تهب، ثم ادع العرب إلىٰ عبادتها تجب، فأتىٰ جدة فوجد بها ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، وفي الأصنام التي كانت عبدت علىٰ عهد نوح وإدريس، ثم إن الطوفان طرحها هناك، فاستثارها عمرو، وحضر الموسم، ودعا إلىٰ عبادتها فأجيب.ا هـ.

وعمرو بن ربيعة وعمرو بن لحي، أول من غير دين إبراهيم، والمعبود في الحقيقة هو الشيطان الذي زين لهم عبادتها، وأمرهم بها كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

❁ **قوله: «قال ابن القيم...»:**

ابن القيم هو الإمام العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية، الثقة الحجة الورع الزاهد، المتفنن في سائر العلوم، صاحب التصانيف الرائقة السائرة المقبولة، أخذ عن شيخ الإسلام والمزي وغيرهما، وعُدَّ في أكابر السلف، مات -قدس الله روحه- سنة ٧٥١ هـ، وما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ هو بمعنىٰ ما ذكره البخاري وابن جرير وغيرهما، إلا أنه ذكر عكوفهم علىٰ قبورهم قبل تصوير تماثيلهم، وذلك أعظم الوسائل الموصلة إلىٰ الشرك، بل هو الشرك؛ لأن العكوف لله في المساجد عبادة، فإذا كان علىٰ القبور صار عكوفهم- تعظيمًا ومحبةً- عبادة لها، وقد تقدم أن العكوف هو البقاء والإقامة علىٰ الشيء في المكان عبادة وتعظيمًا وتبركًا، كما كان المشركون يفعلون ذلك عند أصنامهم، لما يعتقدون فيها من البركة. والأمد: الزمان؛ أي: طال عليهم الزمان، ونسوا ما قصده الأولون، فتبين أن مبدأ الشرك هو الغلو فيهم، وأن سبب تلك العبادة ما جرىٰ من الأولين من التعظيم بالعكوف علىٰ قبورهم، ونصب صورهم في مجالسهم، فصارت بذلك أوثانًا تعبد من دون الله، وهذا أول شرك حدث في الأرض. قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة؛ فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها اهـ.

أي: فعبدوهم وما زال الشيطان يوحي إلىٰ عباد القبور، إلىٰ أن دعوا الناس إلىٰ عبادتها، واتخاذها أعيادا ومناسك، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم، ثم نقلهم إلىٰ أن من نهىٰ عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب العالية، وعادوا أهل التوحيد، ووالوا أهل الشرك والتنديد، وزعموا أنهم أولياء الله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الأنفال:٣٤].

قال المصنف: وفيه أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام، ورأىٰ من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب، وفيه معرفة أن أول شرك حدث علىٰ وجه الأرض بشبهة محبة الصالحين، ومعرفة أول شيء غير به دين الأنبياء، وقبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها، وأن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل بأمرين الأول: محبة الصالحين. والثاني: فعل أناس من أهل

العلم والدين شيئا أرادوا به خيرا، فظن من بعدهم أنهم أرادوا غيره. ومنها معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه، ومنها مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح، ومعرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها ومعرفة شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها، قال حفيده: ومنها مضرة التقليد، وكيف آل بأهله إلى المروق من الإسلام.

قوله: «وعن عمر رضي الله عنه»:

هو ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي العدوي، أمير المؤمنين، وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنهما، ولي الخلافة بعده عشر سنين ونصفًا، فامتلأت الدنيا عدلًا، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر، استشهد في ذي الحجة سنة ٢٣ هـ، قتله أبو لؤلؤة الخارجي.

قوله: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تطروني...»:

الإطراء: مجاوزة الحد في المدح، والكذب فيه، أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام حتى ادعوا فيه الإلهية، وإنما أنا عبد الله ورسوله، فصفوني بذلك كما وصفني ربي، وقولوا: عبد الله ورسوله، لا تجاوزوا هذا القول، فأبى المشركون إلا مجاوزة أمره، وارتكاب نهيه، وعظموه بما نهاهم عنه، وضاهوا النصارى في غلوهم وشركهم، وناقضوا أمره أعظم مناقضة، وأظهر لهم الشيطان هذا الشرك في قالب التعظيم للنبي ﷺ ومحبته، والتوحيد والإخلاص في قالب التنقص، حتى جوزوا الاستغاثة به في كل ما يستغاث فيه بالله، ومنهم من يقول: نحن نعبد الله ورسوله، وارتكبوا ما نهوا عنه، وشاقوا الله ورسوله. وفيه أن الألفاظ التي يذكرها بعض الناس في الصلاة والسلام عليه ﷺ وغير ذلك مما لا يحبه ﷺ، ولا يحب إلا ما جاء الأمر به حتى في الصلاة عليه ﷺ، وفيما يثني عليه ويمدح به، ومن العجب أن الشيطان أظهر لهم ذلك في صورة محبته، ومحبته إنما يصدقها تجريد التوحيد الذي بعث من أجله، وتجريد المتابعة، وتقديم محبته على النفس والمال والولد والناس أجمعين، والثناء عليه بما أثنى به عليه ربه، أو أثنى به هو على نفسه، من غير غلو ولا تقصير.

قوله: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إياكم والغلو...»:

أي: التشدد في الدين ومجاوزة الحد، بأن يزاد في مدح الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك؛ فهو الداء العضال الذي هلكت به الأمم الماضية، وهذا الحديث ذكره المصنف رحمه الله غير

معزو، وقد رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**قال رسول الله ﷺ غداة جمع: هلم القط لي حصيات من حصىٰ الخذف، فلما وضعتها في يده قال: نعم بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»(٤٨٣). لفظ ابن ماجه، وإسناده صحيح، وشواهده في الكتاب والسنة. وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار. وقال شيخ الإسلام: هذا الحديث عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال.

قوله: «هلك المتنطعون»؛ أي: المتكلفون المتعمقون المتأنقون، الغالون في الكلام، المتكلمون بأقاصىٰ حلوقهم؛ مأخوذ من النطع وهو الغار الأعلىٰ من الفم، ثم استعمل في كل متعمق قولًا وفعلًا، أو الغالون في عباداتهم، بحيث تخرج عن قوانين الشريعة، أو الذي يدخل الباطل في قالب الحق لقوة فصاحته، وأما الفصاحة التي توضح الحق وترد الباطل، وتظهر عظمة العلم والدليل فممدوحة.

❁ **قوله**: «قالها ثلاثًا»:

أي: قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في الإبلاغ والتعليم، وقد بلغ البلاغ المبين ﷺ ومطابقة هذا الحديث للترجمة أن التنطع من الغلو والزيادة؛ لما فيه من الخروج إلىٰ ما يوصل إلىٰ الشرك بالله عز وجل. وهذا الحديث رواه أحمد أيضا وأبي داود وغيرهما.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله**: «باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين»:

والغلو: هو مجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء؛ فإن حق الله الذي لا يشاركه في مشارك، هو الكمال المطلق، والغنىٰ المطلق والتصرف المطلق، من جميع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه؛ فمن غلا بأحد من المخلوقين حتىٰ جعل له نصيبًا من هذه الأشياء فقد ساوىٰ به رب العالمين، وذلك أعظم الشرك، ومن رفع أحدًا من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه وذلك وسيلة إلىٰ الشرك وترك الدين.

والناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام:

– أهل الجفاء الذين يهضمونهم حقوقهم، ولا يقومون بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقير والتبجيل.

---

(٤٨٣) سبق تخريجه.

- وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها.

- وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ولكنهم يبرئون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم، والصالحون أيضًا يتبرءون من أن يدعوا لأنفسهم حقًا من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[المائدة:١١٦]

واعلم أن الحقوق ثلاثة:

- حق خاص لله لا يشاركه فيه مشارك وهو التأله له وعبادته وحده لا شريك له والرغبة والإنابة إليه حبًا وخوفًا ورجاءً.

-وحق خاص للرسل وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة.

-وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسله وطاعة الله ورسله، ومحبة الله ومحبة رسله؛ ولكن هذه لله أصلًا وللرسل تبعًا لحق الله.

فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه على اختلاف منازلهم ومراتبهم، والله أعلم.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «**باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**»:

بين المؤلف سبب كفرهم وأغلبه هو الغلو في الصالحين وهناك أسباب أخرى كالحسد والبغي، والغالب أنهم أحبوا الأنبياء والصالحين حتى غلوا فيهم وكفروا.

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ﴾[النساء:١٧١]. هذا للنصارى وكذلك اليهود ولكن النصارى أكثر غلوًا.

والمقصود من الباب التحذير من الغلو في حب الصالحين والأنبياء وحبهم دين حيث قال: ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ والحب والبغض في الله من الدين كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»(٤٨٤) لكن هذا الحب لا يكون بالغلو بل باتباعهم وعدم عصيانهم وطاعتهم لا بعبادتهم من دون الله ﷻ وهكذا العلماء والصالحون يكون حبهم بالترضي عنهم والسير على منهجهم فيجب أن تكون محبة شرعية.

---

(٤٨٤) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، برقم (١٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم (٤٣)، وغيرهما من حديث أنس ﷺ.

قوله: «في «الصحيح» عن ابن عباس في قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ...﴾»:

وهذا في قوم نوح وقد وسوس لهم الشيطان أن يصورها لتكون ذكرىٰ لهم علىٰ العبادة فلما هلك أولئك أتىٰ الشيطان من بعدهم وقال: إن آباءكم كانوا يعبدونها ويستغيثون بها. فعبدوها.

فهذا سبب الغلو، أضل الناس وأهلكهم في الدنيا والآخرة.

قوله: «**نسي العلم**»؛ أي: ذهب وهي رواية، وفي رواية نسخ، فذهب العلم وجاء من لا يعلم فوقع في الشرك؛ ففيه أهمية العلم ومحاربته للجهل فإذا ذهب وقع الناس في الباطل والجهل ففيه فضيلة العلم الشرعي.

قال ابن القيم: ويحتمل كلامه إن الذين صوروها هم الذين عبدوها لما طال الأمر وتغيرت الأحوال ويحتمل أنهم بعد موتهم جاءت ذريتهم فعبدوها. فالبدع شرها عظيم علىٰ من فعلها وعلىٰ من جاء بعده.

قوله: «وعن عمر مرفوعًا»: لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم أنما أنا عبد، يحذر النبي ﷺ من الإطراء وهي مجاوزة الحد في المدح. والوصف بما لا ينبغي ولا يجوز ولا يحق له كأن يقال: يعلم الغيب أو يتصرف في الكون... بل يمدح بما ينبغي وبالحق كأن يقال: خير الرسل وخير الخلق وخاتم النبيين مبلغ الرسالة....ومن الغلو ما قاله البوصيري في شعره: أنه يمدح بكل شيء لكن لا يقال ابن الله فقط، وهذا جهل وضلال، فلا يمدح بما يخص الله وحده لا هو عليه الصلاة والسلام ولا أحد من الخلق. وعندما ضاع عقد عائشة وجدوه تحت الجمل(٤٨٥) ولم يعلمه الرسول ﷺ ولا أحد من أصحابه فلا يعلم الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه.

قوله: «وقال ﷺ: إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»:

قالها النبي ﷺ في حجة الوداع حين أمر ابن عباس بأن يأخذ سبع حصيات، والحديث رواه أحمد وبعض أهل السنن بإسناد جيد؛ فهو حديث صحيح.

---

(٤٨٥) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ لو كنت متخذًا خليلًا، برقم (٣٦٧٢)، ومسلم، كتاب: الحيض، باب: التيمم، برقم (٣٦٧)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

والغلو: الزيادة. يقال: غلى القدر. وهي الزيادة في الدين بما لم يأذن به الله، بل الواجب الوقوف على النص بدون زيادة ولا نقصان فإذا زادوا وقعوا في الشرك أو البدع.

قوله: «ولمسلم عن ابن مسعود مرفوعًا»: «هلك المتنطعون»:

والمتنطع: هو الغالي المتشدد المتكلف الذي يزيد في الأمور ولا يكتفي بالحد المحدود. وأصله في الكلام بأقصى حلقه والتكلف في الكلام وهكذا كل غال في أي شيء يقال له متنطع؛ فيجب الاقتصاد في الكلام وفي كل شيء وليس لأحد أن يزيد في الدين أو ينقص لا ملك ولا رئيس ولا عالم ولا غيره.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «سبب كفر بني آدم»:

السبب في اللغة: ما يتوصَّل به إلىٰ غيره، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾[الحج:١٥]؛ أي: بشيء يوصله إلىٰ السماء، ومنه أيضًا سمي الحبل سببًا؛ لأنه يتوصل به إلىٰ استسقاء الماء من البئر، وأما في الاصطلاح عند أهل الأصول؛ فهو الذي يلزم من جوده الوجود ومن عدمه العدم؛ أي: إذا وجد السبب وجد المسبَّب، وإذا عُدم عُدِمَ المسبب، إلا أن يكون هناك سبب آخر يثبت به المسبب.

قوله: «**بني آدم**»: يشمل الرجال والنساء؛ لأنه إذا قيل: بنو فلان، وهم قبيلة؛ شمل ذكورهم وإناثهم، أما إذا قيل: بنو فلان؛ أي: رجل معين، فالمراد بهم: الذكور.

قوله: «**وتركهم**»؛ يعني: وسبب تركهم.

قوله: «**دينهم**»، مفعول ترك؛ لأن ترك مصدر مضاف إلىٰ فاعله، و«**دينهم**» يكون مفعولًا به.

قوله: «**هو الغلو**»: هذا الضمير يُسمَّىٰ ضمير الفصل، وهو من أدوات التوكيد، والغلو: خبر لـ«أن» ضمير الفصل علىٰ القول الراجح ليس له محل من الإعراب.

والغلو: هو مجاوزة الحد في الثناء مدحًا أو قدحًا. والقدح: يُسمىٰ ثناء، ومنه الجنازة التي مرت فأثنوا عليها شرًّا.[٤٨٦]

---

(٤٨٦) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ثناء الناس علىٰ الميت، برقم (١٣٦٧)، ومسلم، كتاب: الجنائز، باب: فيمن يثنىٰ عليه خير أو شر من الموتىٰ؛ برقم (٩٤٩)، وغيرهما من حديث أنس ﵁.

والغلو هنا: مجاوزة الحد في الثناء مدحًا.

قوله: «**الصالحين**»؛ الصالح: هو الذي قام بحق الله وحق العباد، وفي هذه الترجمة إضافة الشيء إلىٰ سببه بدون أن يُنسب إلىٰ الله بقوله: «**أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**»، وهذا جائز إذا كان السبب حقيقة وصحيحًا، وذلك إذا كان السبب قد ثبت من قبل الشرع أو الحس أو الواقع.

وقد قال الرسول ﷺ: «**لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار**»[٤٨٧]؛ يعني: عمه أبا طالب.

❁ **قوله**: «**وقول الله ﷻ**»:

يعني: وباب قول الله ﷻ.

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: نداء، وهم اليهود والنصارىٰ. والكتاب: التوراة لليهود، والإنجيل للنصارىٰ.

قوله: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾: أي: لا تتجاوزوا الحد مدحًا أو قدحًا، والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتاب عمومًا؛ فإنهم غلوا في عيسىٰ بن مريم عليه السلام مدحًا وقدحًا، حيث قال النصارىٰ: إنه ابن الله، وجعلوه ثالث ثلاثة.

واليهود غلوا فيه قدحًا، وقالوا: إنه أمه زانية، وإنه ولد زنا، قاتلهم الله؛ فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط وتفريط.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾: وهو ما قاله سبحانه وتعالىٰ عن نفسه بأنه: إله واحد، أحد، صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: هذه صيغة حصر، وطريقه ﴿إِنَّمَا﴾؛ فيكون المعنىٰ: ما المسيح عيسىٰ بن مريم إلا رسول الله، وأضافه إلىٰ أمه ليقطع قول النصارىٰ الذي يضيفونه إلىٰ الله.

وفي قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إبطال لقول اليهود: إنه كذاب، ولقول النصارىٰ: إنه إله.

وفي قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ إبطال لقول اليهود: إنه ابن زنا.

وكلمته التي ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: أن قال له كن فكان.

---

(٤٨٧)سبق تخريجه.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، أي: إنه ﷻ جعل عيسىٰ عليه الصلاة والسلام كغيره من بني آدم من جسد وروح، وأضاف روحه إليه تشريفًا وتكريمًا، كما في قوله تعالىٰ في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢]، فهذا للتشريف والتكريم.

قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: الخطاب لأهل الكتاب، ومن رسله محمد ﷺ الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾؛ أي: إن الله ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾: ﴿خَيْرًا﴾: خبر لـ«يكن» المحذوفة؛ أي: انتهوا يكن خيرًا لكم.

قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: تنزيهًا له أن يكون له ولد؛ لأنه مالك لما في السماوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام؛ فهو من جملة المملوكين المربوبين، فكيف يكون إلهًا مع الله أو ولدًا لله؟

تنبيه: لم يشر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ إكمال الآية، ونرجو أن يكون في إكمالنا لها فائدة.

❁ **قوله:** ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾:

أي: كفىٰ الله تعالىٰ أن يكون حفيظًا علىٰ عباده، مدبرًا لأحوالهم، عالمًا بأعمالهم.

والشاهد من هذه الآية قوله: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، فنهىٰ عن الغلو في الدين؛ لأنه يتضمن مفاسد كثيرة، منها:

١- أنه تنزيل للمغلو فيه فوق منزلته إن كان مدحًا، وتحتها إن كان قدحًا.

٢- أنه يؤدي إلىٰ عبادة هذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

٣- أنه يصد عن تعظيم الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأن النفس إما أن تنشغل بالباطل أو بالحق؛ فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه، تعلقت به ونسيت ما يجب لله تعالىٰ من حقوق.

٤- أن المغلو فيه إن كان موجودًا؛ فإنه يزهو بنفسه، ويتعاظم ويعجب بها، وهذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن كانت مدحًا، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحًا.

قوله: ﴿فِي دِينِكُمْ﴾: الدين يُطلق علىٰ العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل، والمعنىٰ: لا تجعلوا عبادتكم غلوًّا في المخلوقين وغيرهم. وهل يدخل في هذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم، يدخل الغلو في العبادات، مثل أن يرهق الإنسان نفسه بالعبادة ويتعبها، فإن النبي ﷺ نهىٰ عن ذلك[٤٨٨]، ومثل أن يزيد عن المشروع، كأن يرمي بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أدبار الصلوات تكميلًا للوارد أو غير هذا؛ فالنهي عن الغلو في الدين يعم الغلو من كل وجه.

❁ قوله: «وفي الصحيح»:

أي: في «صحيح البخاري»، وهذا الأثر اختصره المصنف، وقد سبق الكلام علىٰ مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾؛ أي: لا تدعن وتتركن، وهذا نهي مؤكد بـ«النون».

قوله: ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾: هل المراد: لا تذروا عبادتها، أو تمكنوا أحدًا من إهانتها؟

الجواب: المعنيان؛ أي: انتصروا لآلهتكم، ولا تمكنوا أحدًا من إهانتها، ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضًا؛ بل احرصوا عليها، وهذا من التواصي بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق.

قوله: ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾، «لا»: زائدة للتوكيد، مثلها في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾**[الفاتحة:٧]**، وفائدتها أنهم جعلوا مدخولها كالمستقل، بخلاف يعوق ونسر، فهما دون مرتبة من سبقهما.

قوله تعالىٰ: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، هذه الخمسة كأن لها مزية علىٰ غيرها؛ لأن قوله: ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾عام يشمل كل ما يعبدون، وكأنها كبار آلهتهم؛ فخصوها بالذكر.

والآلهة: جمع إله، وهو كل ما عُبد، سواء بحق أو بباطل، لكن إذا كان المعبود هو الله؛ فهو حق، وإن كان غير الله؛ فهو باطل. قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح».

---

(٤٨٨)انظر ما أخرجه البخاري، أبواب التهجد، باب: (٢٠)، برقم (١١٥٣)، ومسلم، كتاب: الصيام، باب: النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به...، برقم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه البخاري -أيضًا- كتاب: الصوم، باب: من أقسم علىٰ أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، برقم (١٩٦٨).

وفي هذا التفسير إشكال، حيث قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح»، وظاهر القرآن أنها قبل نوح، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾[نوح:٢١-٢٣]، ظاهر الآية الكريمة: أن قوم نوح كانوا يعبدونها ثم نهاهم نوح عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله وحده، ولكنهم أبوا وقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾، وهذا -أعني: القول بأنهم قبل نوح- قول محمد بن كعب ومحمد بن قيس، وهو الراجح لموافقته ظاهر القرآن.

ويحتمل --وهو بعيد- أن هذا في أول رسالة نوح، وأنه استجاب له هؤلاء الرجال وآمنوا به، ثم بعد ذلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوهم، لكن هذا بعيد حتىٰ من سياق الأثر عن ابن عباس.

فالمهم أن تفسير الآية أن يقال: هذه أصنام في قوم نوح كانوا رجالًا صالحين، فطال علىٰ قومهم الأمد، فعبدوهم.

قوله: «**أوحىٰ الشيطان**»؛ أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

قوله: «**أن انصبوا إلىٰ مجالسهم**»: الأنصاب: جمع نُصُب، وهو كل ما ينصب من عصا أو حجر أو غيره.

قوله: «**وسموهم بأسمائهم**»؛ أي: ضعوا أنصابًا في مجالسهم، وقولوا: هذا ود، وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر؛ لأجل إذا رأيتموهم تتذكروا عبادتهم فتنشطوا عليها، هكذا زين لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه:١٢٠]. وإذا كان العبد لا يتذكر عبادة الله إلا برؤية أشباح هؤلاء، فهذه عبادة قاصرة أو معدومة.

❁ قوله: «ففعلوا ولم تعبد، حتىٰ إذا هلك أولئك ونسي العلم؛ عُبدت من دون الله»:

ذكر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مائة سنة، حتىٰ إذا طال عليهم الأمد حصل النزاع والتفرق، فبعث الله النبيين، كما قال تعالىٰ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ...﴾الآية [البقرة:٢١٣].

هذا هو تفسير ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للآية، وهل تفسيره حُجة؟

الجواب: يرجع في التفسير أولًا إلىٰ القرآن؛ فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾[القارعة:١٠] تفسيرها: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾[القارعة:١٠، ١١]، فإن لم نجد في القرآن، فإلىٰ سنة الرسولﷺ، فإن لم نجد؛ فإلىٰ تفسير الصحابة، وتفسير الصحابي حجة بلا شك؛ لأنهم أدرىٰ بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتىٰ قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابي في حكم المرفوع، وهذا ليس بصحيح، لكنه لا شك أنه حجة علىٰ من بعدهم، فإن اختلف الصحابة في التفسير أخذنا بما يرجحه سياق الآية، والآية تدل علىٰ ما ذكره ابن عباس، إلا أن ظاهر السياق أن هؤلاء القوم الصالحين كانوا قبل نوحﷺ، وقد عرفت القول الراجح.

قوله: «**الأمد**»: الزمن. وهذا كتفسير ابن عباس؛ إلا أن ابن عباس يقول: «إنهم جعلوا الأنصاب في مجالسهم»، وهنا يقول: «عكفوا علىٰ قبورهم»، ولا يبعد أنهم فعلوا هذا وهذا، أو أنهم قبروا في مجالسهم، فتكون هي محل القبور.

والشاهد قوله: «**ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم**»، فسبب العبادة إذًا؛ الغلو في هؤلاء الصالحين حتىٰ عبدوهم.

❁ **قوله: «لا تطروني»:**

الإطراء: المبالغة في المدح.

وهذا النهي يحتمل أنه مُنصب علىٰ هذا التشبيه، وهو قوله: «**كما أطرت النصارىٰ ابن مريم**»، حيث جعلوه إلهًا أو ابنًا لله، وبهذا يوحي قول البوصيري:

دع ما ادعته النصارىٰ في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

أي: دع ما قاله النصارىٰ أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ابن الله أو ثالث ثلاثة، والباقي املأ فمك في مدحه ولو بما لا يرضيه. ويحتمل أن النهي عام؛ فيشمل ما يشابه غلو النصارىٰ في عيسىٰ بن مريم وما دونه، ويكون قوله: «**كما أطرت**» لمطلق التشبيه لا للتشبيه المطلق؛ لأن إطراء النصارىٰ عيسىٰ بن مريم سببه الغلو في هذا الرسول الكريمﷺ، حيث جعلوه ابنًا لله وثالث ثلاثة، والدليل علىٰ أن المراد هذا قوله: «**إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله**».

قوله: «**إنما أنا عبد**»؛ أي: ليس لي حق في الربوبية، ولا مما يختص به الله ﷻ أبدًا.

قوله: «**فقولوا عبدالله ورسوله**»: هذان الوصفان أصدق وصف وأشرفه في الرسول ﷺ، فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٧١]، فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عبادًا لله ﷻ أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به؛ ولهذا يقول الشاعر في محبوبته:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

أي: أنت إذا أردت أن تكلمني قل: يا عبد فلانة؛ لأنه أشرف أسمائي وأبلغ في الذل.

فمحمد ﷺ عبد لا يُعبد، ورسول لا يكذب؛ ولهذا نقول في صلاتنا عندما نسلِّم عليه ونشهد له بالرسالة: «**وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**»؛ فهذا أفضل وصف اختاره النبي عليه الصلاة والسلام لنفسه.

واعلم أن الحقوق ثلاثة أقسام، وهي:

الأول: حق لله لا يشرك فيه غيره: لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثاني: حق خاص للرسل، وهو إعانتهم وتوقيرهم وتبجيلهم بما يستحقون.

الثالث: حق مشترك، وهو الإيمان بالله ورسله، وهذه الحقوق موجودة في الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فهذا حق مشترك، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هذا خاص بالرسول ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٩] هذا خاص بالله سبحانه وتعالى.

والذين يغلون في الرسول ﷺ يجعلون حق الله له؛ فيقولون: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، أي: الرسول، فيسبحون الرسول كما يسبحون الله، ولا شك أنه شرك؛ لأن التسبيح من حقوق الله الخاصة به، بخلاف الإيمان، فهو من الحقوق المشتركة بين الله ورسوله.

ونهى عن الإطراء في قوله عليه الصلاة والسلام: «**كما أطرت النصارى عيسى بن مريم**»، لأن الإطراء والغلو يؤدي إلى عبادته كما هو الواقع الآن؛ فيوجد عند قبره في المدينة من يسأله،

فيقول: يا رسول الله! المدد، المدد، يا رسول الله! أغثنا، يا رسول الله! بلادنا يابسة، وهكذا، ورأيت بعيني رجلًا يدعو الله تحت ميزاب الكعبة موليًا ظهره البيت مستقبلًا المدينة؛ لأن استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله.

ويقول بعض المغالين: الكعبة أفضل من الحجرة، فأما والنبي ﷺ فيها، فلا والله، ولا الكعبة، ولا العرش وحملته، ولا الجنة.

فهو يريد أن يفضل الحجرة على الكعبة وعلى العرش وحملته وعلى الجنة، وهذه مبالغة ولا يرضاها النبي ﷺ لنا ولا لنفسه. وصحيح أن جسده ﷺ أفضل، ولكن كونه يقول: إن الحجرة أفضل من الكعبة والعرش والجنة، لأن الرسول ﷺ فيها هذا خطأ عظيم، نسأل الله السلامة من ذلك.

قوله: «إياكم»:

للتحذير.

قوله: **«والغلو»**: معطوف على «إياكم»، وقد اضطرب فيه المعربون اضطرابًا كثيرًا، وأقرب ما قيل للصواب وأقله تكلفًا: أن «إيا» منصوبة بفعل أمر مقدر تقديره إياك احذر؛ أي: احذر نفسك أن تغرك، والغلو معطوف على إياك؛ أي: واحذر الغلو.

والغلو كما سبق: هو مجاوزة الحد مدحًا أو ذمًّا، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك، أيضًا؛ فيقال: مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمل؛ لأن هذا الحديث ورد في رمي الجمرات، حيث روى ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: **«القط لي حصى. فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»**[٤٨٩]. هذا لفظ ابن ماجه. والغلو: فاعل أهلك.

قوله: «من كان قبلكم»:

مفعول مقدم.

قوله: **«وإنما»**: أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله: **«أهلك»**: يحتمل معنيين:

---

(٤٨٩) سبق تخريجه.

الأول: أن المراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعًا مباشرة من الغلو؛ لأن مجرد الغلو هلاك.

الثاني: أنه هلاك الأجسام، وعليه يكون الغلو سببًا للهلاك؛ أي: إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله.

وهل الحصر في قوله: «**فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**» حقيقي أو إضافي؟

الجواب: إن قيل: إنه حقيقي؛ حصل إشكال، وهو أن هناك أحاديث أضاف النبي ﷺ الهلاك فيها إلىٰ أعمال غير الغلو، مثل قوله ﷺ: «**إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**»(٤٩٠)؛ فهنا حصران متقابلان، فإذا قلنا: إنه حقيقي بمعنىٰ أنه لا هلاك إلا بهذا حقيقة؛ صار بين الحديثين تناقض.

وإن قيل: إن الحصر إضافي؛ أي: باعتبار عمل معين؛ فإنه لا يحصل تناقض بحيث يحمل كل منهما علىٰ جهة لا تعارض الحديث الآخر؛ لئلا يكون في حديثه ﷺ تناقض، وحينئذ يكون الحصر إضافيًّا، فيقال: أهلك من كان قبلكم الغلو هذا الحصر باعتبار الغلو في التعبد في الحديث الأول، وفي الآخر يقال من كان قبلكم باعتبار الحكم، فيهلك الناس إذا أقاموا الحد علىٰ الضعيف دون الشريف.

وفي هذا الحديث يُحذر الرسول ﷺ أمته من الغلو، ويبرهن علىٰ أن الغلو سبب للهلاك؛ لأنه مخالف للشرع ولإهلاكه للأمم السابقة؛ فيستفاد منه تحريم الغلو من وجهين:

الوجه الأول: تحذيره ﷺ والتحذير نهي وزيادة.

الوجه الثاني: أنه سبب لإهلاك الأمم كما أهلك من قبلنا، وما كان سببًا للهلاك كان محرمًا.

أقسام الناس في العبادة: والناس في العبادة طرفان ووسط؛ فمنهم المفْرِط، ومنهم المفَرِّط، ومنهم المتوسط؛ فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكون الإنسان معتدلًا لا يميل إلىٰ هذا ولا إلىٰ هذا، هذا هو الواجب، فلا يجوز التشدد في الدين والمبالغة، ولا التهاون وعدم المبالاة، بل كن وسطًا بين هذا وهذا.

---

(٤٩٠) أخرجه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، برقم (٣٤٧٥)، ومسلم، كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره...، برقم (١٦٨٨)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

والغلو له أقسام كثيرة، منها: الغلو في العقيدة، ومنها: الغلو في العبادة، ومنها: الغلو في المعاملة، ومنها: الغلو في العادات.

والأمثلة عليها كما يلي: أما الغلو في العقيدة، فمثل ما تشدق فيه أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات، فإن أهل الكلام تشدقوا وتعمقوا حتىٰ وصلوا إلىٰ الهلاك قطعًا، حتىٰ أدىٰ بهم هذا التعمق إلىٰ واحد من أمرين: إما التمثيل، أو التعطيل. إما أنهم مثلوا الله بخلقه، فقالوا: هذا معنىٰ إثبات الصفات، فغلوا في الإثبات حتىٰ أثبتوا ما نفىٰ الله عن نفسه، أو عطلوه وقالوا: هذا معنىٰ تنزيهه عن مشابهة المخلوقات، وزعموا أن إثبات الصفات تشبيه؛ فنفوا ما أثبته الله لنفسه.

لكن الأمة الوسط اقتصدت في ذلك؛ فلم تتعمق في الإثبات ولا في النفي والتنزيه؛ فأخذوا بظواهر اللفظ، وقالوا: ليس لنا أن نزيد علىٰ ذلك؛ فلم يهلكوا، بل كانوا علىٰ الصراط المستقيم، ولما دخل هؤلاء الفرس والروم وغيرهم في الدين؛ صاروا يتعمقون في هذه الأمور ويجادلون مجادلات ومناظرات لا تنتهي أبدًا، حتىٰ ضاعوا، نسأل الله السلامة.

وكل الإيرادات التي أوردها المتأخرون من هذه الأمة علىٰ النصوص، لم يوردها الصحابة الذين هم الأمة الوسط.

أما الغلو في العبادات؛ فهو التشدد فيها، بحيث يرىٰ أن الإخلال بشيء منها كفر وخروج عن الإسلام، كغلو الخوارج والمعتزلة، حيث قالوا: إن من فعل كبيرة من الكبائر؛ فهو خارج عن الإسلام وحل دمه وماله، وأباحوا الخروج علىٰ الأئمة وسفك الدماء، وكذا المعتزلة، حيث قالوا: من فعل كبيرة؛ فهو بمنزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر؛ فهذا تشدد أدىٰ إلىٰ الهلاك، وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة، فقالوا: إن القتل والزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من الكبائر، لا تخرج من الإيمان، ولا تنقص من الإيمان شيئًا، وإنه يكفي في الإيمان الإقرار، وإن إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول الله ﷺ؛ لأنه لا يختلف الناس في الإيمان حتىٰ إنهم ليقولون: إن إبليس مؤمن لأنه مقر، وإذا قيل: إن الله كفَّره، قالوا: إذًا؛ إقراره ليس بصادق، بل هو كاذب.

وهؤلاء في الحقيقة يصلحون لكثير من الناس في هذا الزمان، ولا شك أن هذا تطرف بالتساهل، والأول تطرف بالتشدد، ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، وفاعل المعصية ناقص الإيمان بقدر معصيته، ولا يخرج من الإيمان إلا بما برهنت النصوص علىٰ أنه كفر.

وأما الغلو في المعاملات، فهو التشدد في الأمور بتحريم كل شيء حتىٰ ولو كان وسيلة، وأنه لا يجوز للإنسان أن يزيد عن واجبات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفية، حيث قالوا: من اشتغل بالدنيا، فهو غير مريد للآخرة، وقالوا: لا يجوز أن تشتري ما زاد علىٰ حاجتك الضرورية، وما أشبه ذلك.

وقابل هذا التشدد تساهل من قال: بحل كل شيء ينمي المال ويقوي الاقتصاد، حتىٰ الربا والغش وغير ذلك؛ فهؤلاء -والعياذ بالله- متطرفون بالتساهل، فتجده يكذب في ثمنها وفي وصفها وفي كل شيء لأجل أن يكسب فلسًا أو فلسين، وهذا لا شك أنه تطرف.

والتوسط أن يقال: تحل المعاملات وفق ما جاءت به النصوص، ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]؛ فليس كل شيء حرامًا؛ فالنبي ﷺ باع واشترىٰ، والصحابة رضي الله عنهم يبيعون ويشترون، والنبي ﷺ يقرهم.

وأما الغلو في العادات؛ فإذا كانت هذه العادة يُخشىٰ أن الإنسان إذا تحول عنها انتقل من التحول في العادة إلىٰ التحول في العبادة؛ فهذا لا حرج أن الإنسان يتمسك بها، ولا يتحول إلىٰ عادة جديدة، أما إذا كان الغلو في العادة يمنعك من التحول إلىٰ عادة جديدة مفيدة أفيد من الأولىٰ، فهذا من الغلو المنهي عنه، فلو أن أحدًا تمسك بعادته في أمر حدث أحسن من عادته التي هو عليها نقول: هذا في الحقيقة غالٍ ومفرط في هذه العادة.

وأما إن كانت العادات متساوية المصالح، لكنه يُخشىٰ أن ينتقل الناس من هذه العادة إلىٰ التوسع في العادات التي قد تُخل بالشرف أو الدين، فلا يتحول إلىٰ العادة الجديدة.

۞ قوله: «المتنطعون»:

المتنطع: هو المتعمق المتقعر المتشدق، سواء كان في الكلام أو في الأفعال؛ فهو هالك، حتىٰ ولو كان ذلك في الأقوال المعتادة؛ فبعض الناس يكون بهذه الحال، حتىٰ إنه ربما يقترن بتعمقه وتنطعه الإعجاب بالنفس في الغالب، وربما يقترن به، فتجده إذا تكلم يتكلم بأنفه، فتسلم عليه فتسمع الرد من الأنف إلىٰ غير ذلك من الأقوال. والتنطع بالأفعال كذلك أيضًا قد يؤدي إلىٰ الإعجاب أو إلىٰ الكبر؛ ولهذا قال: **«هلك المتنطعون»**.

والتنطع أيضًا في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها، فهو أيضًا من أسباب الهلاك، ومن ذلك ما يفعله بعض الناس من التنطع في صفات الله تعالىٰ والتقعر فيها، حيث يسألون عما لم يسأل عنه الصحابة رضي الله عنهم، وهم يعلمون أن الصحابة خير منهم وأشد حرصًا علىٰ العلم، وفيهم رسول الله الذي عنده من الإجابة علىٰ الأسئلة ما ليس عند غيره من الناس مهما بلغ علمهم.

فهذه الأحاديث الثلاثة كلها تدل علىٰ تحريم الغلو، وأنه سبب للهلاك، وأن الواجب أن يسير العبد إلىٰ الله بين طرفي نقيض بالدين الوسط، فكما أن هذه الأمة هي الوسط ودينها هو الوسط، فينبغي أن يكون سيرها في دينها علىٰ الطريق الوسط.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: أن من فهم هذا الباب -أي: بما مر من تفسير الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾[نوح:٢٣]- **وبابين بعده، تبين له غربة الإسلام.**

وهذا حق؛ فإن الإسلام المبني علىٰ التوحيد الخالص غريب، فكثير من البلدان الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم، فلا تجد بلدًا مسلمًا إلا وفيه غلو في قبور الصالحين، وقد يكون ليس قبر رجل صالح، قد يكون وهمًا، مثل قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما، فأهل العراق يقولون: هو عندنا، وأهل الشام يقولون: عندنا، وأهل مصر يقولون: عندنا، وبعضهم يقول: هو في المغرب، فصار الحسين إما أنه أربعة رجال، أو مُقطع أوصالًا، وهذا كله ليس بصحيح؛ فالمهم أنه كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: تبين لك غربة الإسلام؛ أي: في المسلمين.

وكذلك الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها قبور وقباب تُعبد من دون الله ويُحج إليها وتُقصد، ولكن بتوفيق الله -سبحانه وتعالىٰ- أنه أعان هذا الرجل مع الإمام محمد بن سعود حتىٰ قضىٰ عليها وهدمها، وصارت البلاد ولله الحمد علىٰ التوحيد الخالص.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض: وجه ذلك: أن هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقوامًا صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوا من دون الله؛ ففيه الحذر من الغلو في الصالحين.

الثالثة: معرفة أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم: أول شيء غُير به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين، وقوله: «**مع معرفة أن الله أرسلهم**»، قال

الله تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣]؛ أي: كانوا أمة واحدة علىٰ التوحيد، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ فهذا أول ما حدث من الشرك في بني آدم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

قوله: «**قبول البدع**»؛ أي: إن النفوس تقبلها لا لأنها مشروعة، بل إن الشرائع تردها، وكذلك الفطر السليمة تردها، لأن الفطر السليمة جبلت علىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]؛ فالفطر السليمة لا تقبل تشريعًا إلا ممن يملك ذلك.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل: أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبين أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين؛ ولهذا صوروا تماثيلهم محبة لهم، ورغبة في مشاهدة أشباحهم.

الثاني: أن أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيرًا، وهو أن ينشطوا علىٰ العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا غير الخير الذي أراده أولئك، ويؤخذ منه: أن من أراد تقوية دينه ببدعة؛ فإن ضررها أكثر من نفعها.

مثال ذلك: أولئك الذين يغلون في الرسول ﷺ ويجعلون له الموالد هم يريدون بذلك خيرًا، لكن أرادوا خيرًا بهذه البدعة، فصار ضررها أكثر من نفعها؛ لأنها تعطي الإنسان نشاطًا غير مشروع في وقت معين، ثم يعقبه فتور غير مشروع في بقية العام؛ ولهذا تجد هؤلاء الذين يغالون في هذه البدع فاترين في الأمور المشروعة الواضحة ليسوا كنشاط غيرهم، وهذا مما يدل علىٰ تأثير البدع في القلوب وأنها مهما زينها أصحابها، فلا تزيد الإنسان إلا ضلالًا؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**كل بدعة ضلالة**»[٤٩١].

---

(٤٩١) أخرجه مسلم، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٦٧)، وأحمد (٣/ ٣١٠)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإن قيل: إن للاحتفال بمولده ﷺ أصلًا من السنة، وهو أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الإثنين، فقال: «ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه، أو أنزل علي فيه»[٤٩٢]، وكان ﷺ يصومه مع الخميس ويقول: «إنهما يومان تعرض فيهما الأعمال على الله، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»[٤٩٣]

فالجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصوم ليس احتفالًا بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنما هو صوم وإمساك، أما هؤلاء الذين يجعلون له الموالد؛ فاحتفالهم على العكس من ذلك.

فالمعنى: أن هذا اليوم إذا صامه الإنسان؛ فهو يوم مبارك حصل فيه هذا الشيء، وليس المعنى أننا نحتفل بهذا اليوم.

الثاني: أنه على فرض أن يكون هذا أصلًا، فإنه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأن العبادات توقيفية، ولو كان الاحتفال المعهود عند الناس اليوم مشروعًا لبينه النبي ﷺ، إما بقوله، أو فعله، أو إقراره.

الثالث: أن هؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبي ﷺ لا يقيدونه بيوم الإثنين، بل في اليوم الذي زعموا مولده فيه، وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، مع أن ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، وقد حقق بعض الفلكيين المتأخرين ذلك، فكان في اليوم التاسع لا في اليوم الثاني عشر.

الرابع: أن الاحتفال بمولده على الوجه المعروف بدعة ظاهرة؛ لأنه لم يكن معروفًا على عهد النبي ﷺ وأصحابه، مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه.

---

(٤٩٢) أخرجه مسلم، كتاب: الصيام، باب: استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس، برقم (١١٦٢)، وأبو داود، كتاب: الصيام، باب: في صوم الدهر تطوعًا، برقم (٢٤٢٦)، وغيرهما من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٤٩٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الصوم، باب: صوم يوم الإثنين والخميس، برقم (٧٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وللحديث شاهد، رواه النسائي في كتاب: الصيام، باب: صوم النبي ﷺ -بأبي هو وأمي- وذكر اختلاف الناقلين للخبر في ذلك، برقم (٢٣٥٨)، وأحمد (٥/ ٢٠١) وغيرهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما وكلاهما صححه الألباني. حديث أبي هريرة رضي الله عنه صححه في «صحيح الجامع»، برقم (٢٩٥٩)، وحديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما صححه في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (١٠٤٣).

مسألة حكم الاحتفال بعيد ميلاد الأطفال:

فائدة:

كل شيء يتخذ عيدًا يتكرر كل أسبوع، أو كل عام وليس مشروعًا؛ فهو من البدع، والدليل علىٰ ذلك: أن الشارع جعل للمولود العقيقة، ولم يجعل شيئًا بعد ذلك، واتخاذهم هذه الأعياد تتكرر كل أسبوع أو كل عام معناه أنهم شبهوها بالأعياد الإسلامية، وهذا حرام لا يجوز، وليس في الإسلام شيء من الأعياد إلا الأعياد الشرعية الثلاثة: عيد الفطر، وعيد الأضحىٰ، وعيد الأسبوع، وهو يوم الجمعة.

وليس هذا من باب العادات لأنه يتكرر؛ ولهذا لما قدم النبي ﷺ فوجد للأنصار عيدين يحتفلون بهما، قال: «**إن الله أبدلكما بخير منهما: عيد الأضحىٰ وعيد الفطر**»[٤٩٤] مع أن هذا من الأمور العادية عندهم.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح، وقد سبق ذلك وبيان أنهم يتواصون بالباطل، وهذا خلاف طريق المؤمنين الذين يتواصون بالحق والصبر والمرحمة، ويشبههم أهل الباطل والضلال الذين يتواصون بما هم عليه، سواء كانوا رؤساء سياسيين أو رؤساء دينيين ينتسبون إلىٰ الدين، فتجد الواحد منهم لا يموت إلا وقد وضع له ركيزة من بعده ينمي هذا الأمر الذي هو عليه.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد: هذه العبارة تقيد من حيث كون آدميًا بقطع النظر علىٰ من يمن الله عليه من تزكية النفس، فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠].

قوله: «**جبلة**»: علىٰ وزن فعلة، وهو ما يجبل المرء عليه، أي: يخلق عليه ويُطبع ويبدع، بمعنىٰ الطبيعة التي عليها الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن كونه زكىٰ نفسه أو دساها.

---

(٤٩٤) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: صلاة العيدين، برقم (١١٣٤)، والنسائي، كتاب: صلاة العيدين، برقم (١٥٥٦)، وأحمد (٣/ ١٠٣)، وغيرهم من حديث أنس ﷺ. وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٤٣٨١).

فالإنسان من حيث هو إنسان وصفه الله بوصفين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب:٧٢].

أما من حيث ما يمن الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح؛ فإنه يرتقي عن هذا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[التين:٤-٦]؛ فالإنسان الذي يمن الله عليه بالهدى، فإن الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكلية؛ كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم.

وكذلك أهل العلم؛ كأبي الحسن الأشعري، كان معتزليًّا، ثم كلابيًّا، ثم سنيًّا، وابن القيم كان صوفيًّا، ثم من الله عليه بصحبة شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فهداه الله على يده حتى كان ربانيًّا.

الثامنة: فيه شاهد لما نُقل عن السلف أن البدع سبب الكفر: قال أهل العلم: إن الكفر له أسباب متعددة، ولا مانع أن يكون للشيء الواحد أسباب متعددة، ومن ذلك الكفر، ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إن البدعة لا تزال في القلب، يظلم منها شيئًا فشيئًا، حتى يصل إلى الكفر، واستدلوا بقوله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»(٤٩٥).

وقالوا أيضًا: إن المعاصي بريد الكفر. وبريد الشيء ما يوصل إلى الغاية.

والمعاصي كما أخبر النبي ﷺ تتراكم على القلب؛ فتنكت فيه نكتة سوداء، فإن تاب؛ صقل قلبه أبيض(٤٩٦) وإلا؛ فلا تزال هذه النكتة السوداء تتزايد حتى يصبح مظلمًا.

وكذلك حذر من محقرات الذنوب، وضرب لها مثلًا بقوم نزلوا أرضًا، فأرادوا أن يطبخوا، فذهب كل واحد منهم وأتى بعود، فأتى هذا بعود وهذا بعود، فجمعوها، فأضرموا نارًا كبيرة(٤٩٧)،

---

(٤٩٥) سبق تخريجه.

(٤٩٦) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وإنه يأرز بين المسجدين، برقم (١٤٤)، وأصل الحديث عند البخاري؛ ولكن دون ذكر القلب، برقم (١٤٣٥)، وأخرجه أحمد (٥/ ٣٨٦) وغيرهم من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٤٩٧) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢)، والبيهقي، برقم (٢٠٥٥١)، والطيالسي، برقم (٤٠٠)، والطبراني في «الأوسط»، برقم (٢٥٢٩)، وغيرهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وله شاهد من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه رواه أحمد (٥/ ٣٣١)، والطبراني، برقم (٥٨٧٢)، وفي «الأوسط»، برقم (٧٣٢٣)، وفي «الصغير»، برقم (٩٠٤)، وصحح الألباني حديث

وهكذا المعاصي؛ فالمعاصي لها تأثير قوي على القلب، وأشدها تأثيرًا الشهوة؛ فهي أشد من الشبهة؛ لأن الشبهة أيسر زوالًا على من يسرها الله عليه؛ إذ إن مصدرها الجهل، وهو يزول بالتعلم.

أما الشهوة، وهي إرادة الإنسان الباطل؛ فهي البلاء الذي يُقتل به العالم والجاهل؛ ولذا كانت معصية اليهود أكبر من معصية النصارى؛ لأن معصية اليهود سببها الشهوة وإرادة السوء والباطل، والنصارى سببها الشبهة؛ ولهذا كانت البدع غالبها شبهة، ولكن كثيرًا منها سببه الشهوة؛ ولهذا يبين الحق لأهل الشهود من أهل البدع، فيصرون عليها، وغالبهم يقصد بذلك بقاء جاهه ورئاسته بين الناس دون صلاح الخلق، ويظن في نفسه ويملي عليه الشيطان أنه لو رجع عن بدعته لنقصت منزلته بين الناس، وقالوا: هذا رجل متقلب وليس عنده علم، لكن الأمر ليس كذلك؛ فأبو الحسن الأشعري مَضرب المثل في هذا الباب؛ فإنه لما كان من المعتزلة لم يكن إمامًا؛ ولما رجع إلى مذهب أهل السنة صار إمامًا، فكل من رجع إلى الحق ازدادت منزلته عند الله -سبحانه-، ثم عند خلقه.

والخلاصة:

أن البدعة سبب للكفر، ولا يرد على هذا قول بعض أهل العلم: إن المعاصي بريد الكفر، لأنه لا مانع من تعدد الأسباب.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل: لأن الشيطان هو الذي سول لهؤلاء المشركين أن يصوروا هذه التماثيل والتصاوير؛ لأنه يعرف أن هذه البدعة تئول إلى الشرك.

وقوله: «**ولو حسن قصد الفاعل**»؛ أي: إن البدعة شر ولو حسن قصد فاعلها، ويأثم إن كان عالمًا أنها بدعة ولو حسن قصده؛ لأنه أقدم على المعصية كمن يجيز الكذب والغش ويدعي أنه مصلحة، أما لو كان جاهلًا فإنه لا يأثم؛ لأن جميع المعاصي لا يأثم بها إلا مع العلم، وقد يُثاب على حسن قصده، وقد نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»؛

=

ابن مسعود رضي الله عنه في «صحيح الترغيب»، برقم (٢٤٧٠)، وقال «صحيح لغيره»، وحديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه في «صحيح الجامع»، برقم (٢٦٨٧).

فيثاب على نيته دون عمله، فعمله هذا غير صالح ولا مقبول عند الله ولا مرضي، لكن لحسن نيته مع الجهل يكون له أجر؛ ولهذا قال ﷺ للرجل الذي صلى وأعاد الوضوء بعدما وجد الماء وصلى ثانية: «**لك الأجر مرتين**»[٤٩٨]؛ لحسن قصده؛ ولأن عمله عمل صالح في الأصل، لكن لو أراد أحد أن يعمل العمل مرتين مع علمه أنه غير مشروع، لم يكن له أجر لأن عمله غير مشروع لكونه خلاف السنة؛ فقد قال النبي ﷺ للذي لم يعد، «**أصبت السنة**».

فإن قال: إني أريد بهذه البدعة إحياء الهمم والتنشيط وما أشبه ذلك.

أجيب: بأن هذه الإرادة طعن في رسالة الرسول ﷺ؛ لأنه اتهام له بالتقصير أو القصور؛ أي: مقصر في الإخبار عن ذلك أو قاصر في العلم، وهذا أمر عظيم وخطر جسيم؛ ولأن هذا لم يكن عليه الرسول ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون، أما إذا كان حسن القصد، ولم يعلم أن هذا بدعة؛ فإنه يُثاب على نيته ولا يُثاب على عمله، لأن عمله شر حابط كما قال النبي ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا، فهو رد**»[٤٩٩]

وأما العامة الذين لا يعلمون، وقد لبس عليهم هذه البدعة وغيرها؛ نقول: ما داموا قاصدين للحق ولا علموا به؛ فإثمهم على من أفتاهم ومن أضلهم؛ ولهذا يوجد في مجاهل أفريقيا وغيرها من لا يعرفون عن الإسلام شيئًا، فلو ماتوا لا نقول: إنهم مسلمون ونصلي عليهم ونترحم عليهم مع أنهم لم تقم عليهم الحجة، لكننا نعاملهم في الدنيا بالظاهر، أما في الآخرة، فأمرهم إلى الله.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يئول إليه: هذا ما حذَّر منه النبي ﷺ؛ لأن الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون في العبادات يكون في غيرها، قال تعالى:

---

(٤٩٨) أخرجه أبو داود، كتاب: الطهارة، باب: في المتيمم يجد الماء بعد ما يصلي في الوقت، برقم (٣٣٨)، والحاكم، برقم (٦٣٢) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٥٣٣).

(٤٩٩) أخرجه البخاري بهذا اللفظ معلقًا، كتاب: البيوع، باب: النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع (٤/ ٣٥٦/ فتح)، وأخرجه موصولًا بلفظ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»، كتاب: الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٨)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[الأعراف:٣١]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾[الفرقان:٦٧]، وقد سبق بيان ذلك.

الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح: المضرة الحاصلة: هي أنها توصل إلى عبادتهم. ومثل ذلك: ما لو قُرئ القرآن عند قبر رجل صالح، أو تُصَدِّق عند هذا القبر يعتقد أن لذلك مزية على غيره؛ فإن هذا من البدع، وهذه البدعة قد تؤدي بصاحبها إلى عبادة هذا القبر.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها: التماثيل: هي الصور على مثال رجل، أو حيوان، أو حجر، والغالب أنها تطلق على ما صنع ليعبد من دون الله، والحكمة في إزالتها سد ذرائع الشرك.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة؛ أي: قصة هؤلاء الذين غلوا في الصالحين وغير الصالحين، لكن اعتقدوا فيهم الصلاح، حتى تدرج بهم الأمر إلى عبادتهم من دون الله؛ فتجب معرفة هذه القصة، وأن أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمة؛ فالحاجة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثيرة، والناس لو تدبرت أحوالهم وسبرت قلوبهم وجدت أنهم في غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود في البلاد الإسلامية.

الرابعة عشرة -وهي أعجب العجب-: **قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث.**

قوله: «**وأعجب**»؛ أي: أكثر عجبًا وأشد، والعجب نوعان:

الأول: بمعنى الاستحسان، وهو ما إذا تعلق بمحمود؛ كقول عائشة في الحديث: «**كان النبي ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره، وفي شأنه كله**»[٥٠٠]

الثاني: بمعنى الإنكار، وذلك فيما إذا تعلق بمذموم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[الرعد:٥].

وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار. وكلام المؤلف هنا عما كان في زمنه، حيث غفلوا عن هذه القصة مع قراءتهم لها في كتب التفسير والحديث، واعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل

---

(٥٠٠) أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: التيمن في الوضوء والغسل، برقم (١٦٨)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: التيمن في الطهور وغيره، برقم (٢٦٨)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

العبادات، وهذا من أضر ما يكون على المرء أن يعتقد السيء حسنًا، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٣، ١٠٤].

قوله: «**واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال**»؛ أي: من اعتقد أن الشرك والكفر من أفضل العبادات، وأنه مقرب إلى الله؛ فهذا كفر مبيح لدمه وماله، هذا ما أراد المؤلف، وإن كان لا يسعفه ظاهر كلامه ثم بدا لي ما لعله المراد أن هؤلاء الغالين اعتقدوا أن المنهي عنه هو الكفر المبيح للدم والمال، وأما ما دونه من الغلو؛ فلا نهي فيه، والله أعلم.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة؛ أي: ما أرادوا إلا الشفاعة، ومع ذلك وقعوا في الشرك.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك؛ أي: أرادوا أن تشفع لهم، بل ظنوا أنها تنشطهم على العبادة، وهذا ظن فاسد كما سبق.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: «لا تطروني...» الحديث، معنى الإطراء: الغلو في المدح، والمبالغة فيه. وهذا الذي نهى عنه ﷺ وقع فيه بعض هذه الأمة، بل أشد، حتى جعلوا النبي ﷺ المرجع في كل شيء، وهذا أعظم من قول النصارى: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة. ومعنى: «**بلغ**»؛ أي: أوصل وبيَّن.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين: وذلك بقوله ﷺ: «**هلك المتنطعون**»؛ فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التحذير من التنطع.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تُعبد حتى نسي العلم؛ أي: لم تُعبد هذه التماثيل إلا بعد أن نُسي العلم واضمحل، ففيه دليل على معرفة قدر وجوده؛ أي: العلم، وأن وجوده أمر ضروري للأمة؛ لأنه إذا فقد العلم حل الجهل محله، وإذا حل الجهل، فلا تسأل عن حال الناس؛ فسوف لا يعرفون كيف يعبدون الله، ولا كيف يتقربون إليه.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء: فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء؛ لم يبق إلى جُهال الخلق يفتون بغير علم.

ومن أسباب فقده أيضًا: الغفلة والإغراض عنه، والتشاغل بأمور الدنيا، وعدم المبالاة به، ثم إن العلم قد يكون موجودًا وهو معدوم، وذلك فيما إذا كثر القراء الذين يقرءون العلم ولا يعملون به، وقلَّ الفقهاء الذين يعملون به؛ فبهذا يصبح العلم عديم الفائدة ووجوده كعدمه، بل إن في جوده ضررًا على الأمة؛ لأن العامة إذا رأوا من ينتسب إليه ساكتًا غير عامل بما علم، ظنوا أن ما عليه الناس حق؛ فضرر العلم الذي لا ينفع أشد من ضرر الجهل، وإذا وجد الجهل، فإن الناس قد يطلبون العلم ويتلمسونه.

الخلاصة للباب:

بيان أن الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وليس هو السبب الوحيد للكفر. وأن خطر الغلو عظيم ونتائجه وخيمة؛ فالواجب تنزيل الصالحين منازلهم؛ فلا يستوي الصالح والفاسد، بل يُنَزَّل كلٌ منزلته، ولكن لا نتجاوز به المنزلة فنغلو فيه؛ فدين الله وسط لا يعطي الإنسان أكثر مما يستحق، ولا يسلبه ما يستحق، وهذا هو العدل.

س: **ما الفرق بين التنطع والغلو والاجتهاد؟**

الجواب: الغلو مجاوزة الحد. والتنطع معناه: التشدق بالشيء والتعمق فيه، وهو من أنواع الغلو.

أما الاجتهاد؛ فإنه بذل الجهد لإدراك الحق، وليس فيه غلو إلا إذا كان المقصود بالاجتهاد كثرة الطاعة غير المشروعة؛ فقد تؤدي إلى الغلو، فلو أن الإنسان مثلًا أراد أن يقوم ولا ينام، وأن يصوم النهار ولا يُفطر، وأن يعتزل ملاذ الدنيا كلها؛ فلا يتزوج ولا يأكل اللحم ولا الفاكهة وما أشبه ذلك؛ فإن هذا من الغلو، وإن كان الحامل على ذلك الاجتهاد والبر، ولكن هذا خلاف هدي النبي ﷺ.

س: **ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة؟**

الجواب: هذا من البدع، وسواء قلنا يصل الثواب أو لا يصل؛ فكونك تتخذ القراءة عند القبر خاصة هذا من البدع. وإنما اختلف السلف فيما إذا قرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من القرآن.

والصحيح أيضًا أنها ليس بسنة، والسنة أن تستغفر له وتسأل له التثبيت.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** «باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا بيَّن بعض ما يفعله عبَّادُ القبور مع الأموات من الشرك المضاد للتوحيد أراد في هذا الباب أن يبين في ذلك ليحذر ويجتنب وهو الغلو في الصالحين.

«ما جاء»؛ أي: من الأدلة.

«تركهم»: بالجرِّ عطفًا على المضاف إليه «كُفر».

«الغلو»؛ هو: مجاوزة الحدِّ والإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد وتعدِّي ما أمر الله تعالى به.

«في الصالحين»: من الأنبياء والأولياء وغيرهم.

❁ **قوله:** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

هم اليهود والنصارى.

﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾: لا تتعدُّوا ما حدد الله لكم، فغلا النصارى في المسيح وغلا اليهود في عُزيرٍ.

المعنى الإجمالي للآية:

ينهى الله اليهود والنصارى عن تعدِّي ما حدد الله لهم بأن لا يَرفعُوا المخلوق فوق منزلته التي أنزله الله وينزلوه المنزلة التي لا تنبغي إلا لله.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها النهي عن الغلو مطلقًا، فيشمل الغلو في الصالحين، والخطاب وإن كان لأهل الكتاب فإنه عام يتناول جميع الأمة تحذيرًا لهم أن يفعلوا في نبيِّهم وصالحيهم فعل النصارى في المسيح واليهود في عُزيرٍ.

ما يستفاد من الآية:

١- تحريم الغلو في الأشخاص والأعمال وغير ذلك.

٢- الردُّ على اليهود والنصارى ومن شابههم في غلوهم في الأشخاص والأعمال وغير ذلك.

٣- الحث على لزوم الاعتدال في الدِّين وجميع الأمور بين جانبي الإفراط والتفريط.

٤- التحذير من الشرك وأسبابه ووسائله.

❁ **قوله:** «وقال ابن القيم»:

ترجمة ابن القيم: هو الإمام العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، مات سنة ٧٥١هـ رَحِمَهُ اللَّهُ. وله مؤلفات مفيدة مشهورة.

﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾: لا تتركوا عبادتها.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا ...﴾؛ أي: ولا تتركوا هؤلاء خصوصًا.

فلمَّا هلكوا؛ أي: مات أولئك الصالحون وحزن عليهم قومهم حزنًا شديدًا.

اوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم؛ أي: وسوس وألقىٰ إليهم.

انصبوا: بكسر «الصَّاد».

«أنصابًا»؛ أي: أصنامًا مصورةً علىٰ صورهم.

حتىٰ إذا هلك أولئك؛ أي: الذين نصبوها ليتذكروا برؤيتها أفعال أصحابها فينشطوا علىٰ العبادة.

ونُسي العلم؛ أي: زالت المعرفة وغلب الجهال الذين لا يُميزون بين الشرك والتوحيد.

عُبدت؛ أي: تلك الأصنام لما قال لهم الشيطان: إن آباءكم كانوا يعبدونها.

المعنىٰ الإجمالي للأثر:

يفسر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذه الآية الكريمة بأنَّ هذه الآلهة التي ذكر الله أنَّ قوم نوح تواصوا بالاستمرار علىٰ عبادتها بعدما نهاهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الشرك بالله؛ أنها في الأصل أسماء رجال صالحين منهم، غلو فيهم بتسويل الشيطان لهم حتىٰ نصبوا صورهم، فآل الأمر بهذه الصور إلىٰ أن صارت أصنامًا تعبد من دون الله.

وما ذكره ابن القيم هو بمعنىٰ ما ذكره البخاري إلا أنه ذكر أنَّ عُكُوفهم علىٰ قبورهم كان قبل تصويرهم، فهو يضيف إلىٰ ماسبق أنَّ العكوف علىٰ القبور سبب لعبادتها أيضًا.

مناسبة الأثر للباب:

أنَّه يدلُّ علىٰ أنَّ الغلوَّ في الصَّالحين سببٌ لعبادتهم من دون الله.

ما يستفاد من الأثر:

١ - أنَّ الغلوَّ في الصَّالحين سبب لعبادتهم من دون الله وترك الدين بالكلية.

٢- التحذير من التصوير وتعليق الصور، لا سيَّما صور العظماء.

٣- التحذير من مكر الشيطان وعرضه الباطل في صورة الحق.

٤- التحذير من البدع والمحدثات ولو حسن قصد فاعلها.

٥- أنَّ هذه وسائل إلىٰ الشرك فيجب الحذر منها.

٦- معرفة قدر وجود العلم ومضرة فقده.

٧- أنَّ سبب فقد العلم هو موت العلماء.

٨- التحذير من التقليد، وأنَّه قد يئول بأهله إلىٰ المروق من الإسلام.

قوله: «وعن عمر رضي الله عنه»:

«ترجمة عمر رضي الله عنه»: هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أمير المؤمنين، وأفضل الصحابة بعد الصديق استشهد في ذي الحجة سنة ٢٣هـ.

لا تطروني: الإطراء، مجاوزة الحد في المدح، والكذب فيه.

كما أطرت النصارىٰ ابن مريم؛ أي: كما غلت النصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام حتىٰ ادعوا فيه الألوهية.

فقولوا عبد الله ورسوله؛ أي: صفُوني بذلك كما وصفني به ربي.

معنىٰ الحديث إجمالًا:

يقول ﷺ: «لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام فادعوا فيه الألوهية. إني لا أعدو أن أكون عبدًا لله ورسولًا منه فصفوني بذلك ولا ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله».

مناسبة الحديث للباب:

أن الرسول ﷺ نهىٰ عن الغلو في حقه بإعطائه شيئًا من خصائص الربوبية، مما يدل علىٰ تحريم الغلو، وأنه يفضي إلىٰ الشرك كما أفضىٰ بالنصارىٰ في حق عيسىٰ.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم مجاوزة الحدِّ في مدح النبي ﷺ وإخراجه من دائرة العبودية؛ لأنَّ ذلك هو الشرك بالله.

٢- شدة نصحه ﷺ لأمته.

٣- أنَّ الغلوَّ في الصَّالحين سبب للوقوع في الشرك.

٤- التحذير من التشبه بالكفار.

❁ **قوله: «قال رسول الله ﷺ: إياكم والغلو...»**:

راوي الحديث: هذا الحديث ذكره المصنف رحمه الله دون ذكر راويه. وقد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس.

إياكم: كلمة تحذيرٍ.

والغلوَّ: منصوب علىٰ التحذير بفعلٍ مقدرٍ، وهو مجاوزة الحدِّ.

من كان قبلكم: من الأمم.

معنىٰ الحديث إجمالًا:

يحذر النبي ﷺ أمته من الزيادة في الدين علىٰ الحد المشروع، وهو عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، ومن ذلك الغلو في تعظيم الصالحين ممَّا يكون سببًا في عبادتهم. ثم علل النهي عن الغلو بأنه هو السبب في هلاك الأمم السابقة؛ وذلك يقتضي مجانبة هديهم في هذا إبعادًا عن الوقوع فيما هلكوا به؛ لأنَّ المشاركة لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك مثلهم.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن الغلو مطلقًا، وبيان أنه سبب للهلاك في الدنيا والآخرة، فيدخل فيه النهي عن الغلو في الصَّالحين من باب أولىٰ؛ لأنه سبب للشرك.

ما يستفاد من الحديث:

١- النهي عن الغلو وبيان سوء عاقبته.

٢- الاعتبار بمن سبقنا من الأمم لتجنب ما وقعوا فيه من الأخطاء.

٣- حرصه ﷺ علىٰ نجاة أمته من الشرك ووسائله وبعدهم عنه.

٤- الحث علىٰ الاعتدال في العبادة وغيرها بين جانبي الإفراط والتفريط.

٥- أنَّ الغلوَّ في الصَّالحين سبب للوقوع في الشرك.

٦- شدة خوفه ﷺ من الشرك والتحذير عنه.

قوله: «المتنطعون»: المتعمقون في الشيء من كلام وعبادة وغيرها.

ثلاثًا؛ أي: قال هذه الكلمة ثلاث مراتٍ مبالغةً في الإبلاغ والتعليم.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يوضح النبيﷺ أن التعمق في الأشياء والغلو فيها يكون سببًا للهلاك، ومرادهﷺ النهي عن ذلك.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ التنطع من الغلو المنهي عنه، ويدخل في ذلك التنطع في تعظيم الصالحين إلىٰ الحد الذي يُفضي إلىٰ الشرك.

ما يستفاد من الحديث:

١- الحث علىٰ اجتناب التنطع في كل شيء؛ لا سيما العبادات وتقدير الصالحين.

٢- الحث علىٰ الاعتدال في كل شيء.

٣- شدة حرصه علىٰ نجاة أمته، واجتهاده في الإبلاغﷺ.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله:** «باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين»:

بين الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فيما سبق من الأبواب أصولًا عظيمة، وأقام البراهين علىٰ التوحيد، وبين ما يتعلق به المشركون، وأبطل أصول اعتقادهم بالشريك، أو الظهير، أو الشفيع، ونحو ذلك.

فإذا كان التوحيد ظاهرًا، والأدلة عليه من النصوص بينة، فكيف -إذًا- دخل الشرك؟ وكيف وقع الناس فيه، والأدلة علىٰ انتفائه، وبطلانه، وعدم جوازه ظاهرة؟! مع أن الرسل جميعًا بعثوا ليعبدوا الله وحده دون ما سواه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فما سبب الغواية؟ وما سبب الشرك؟ فإذا كانت قضية التوحيد من أوضح الواضحات، والأبواب السالفة دالة بظهور ووضوح علىٰ وجوب إحقاق عبادة الله وحده، وعلىٰ إبطال عبادة كل من سوىٰ الله -جل جلاله وتقدست أسماؤه- فما سب وقوع الشرك إذًا؟! وكيف وقعت فيه الأمم؟

وللأجوبة عن هذه الأسئلة أورد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب وما بعده ليبين أن سبب الشرك، وسبب الكفر هو الغلو الذي نهىٰ الله -جل وعلا- عنه، ونهىٰ عنه رسوله ﷺ سواء في هذه الأمة أو في الأمم السابقة، فأحد أسباب وقوع الكفر والشرك هو الغلو في الصالحين، بل هو سببهما الأعظَم.

قال هنا: «**باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**» هذا ذكر للأسباب بعد ذكر الأصول والعقائد.

«**هو الغلو في الصالحين**» الغلو: مأخوذ من غلا في الشيء، يغلو غلوًّا: إذا جاوز به حده، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ لما رمىٰ الجمرات بحصيات قال: «**بمثل هذه فارموا وإياكم والغلو**»(٥٠١). يعني: لا تجاوزوا الحد حتىٰ في حجم تلك الحصاة، ومقدارها، ولذلك أرشدهم إلىٰ الحجم الذي ينبغي أن تكون عليه بقوله: «**بمثل هذه فارموا**» فإذا جاوز في المثلية، بأن رمىٰ بكبيرة فإنه قد غلا، يعني: جاوز الحد الذي حُدّ له في ذلك، فالغلو -إذًا- هو مجاوزة الحد.

والمقصود بـ«**الغلو في الصالحين**» الذي هو سبب كفر بني آدم، وتركهم دينهم الذي أمروا به أنهم تجاوزوا الحد الواجب في تعظيمهم حتىٰ آل بهم الأمر إلىٰ الشرك.

وقوله: «**الصالحون**» يشمل كل من قام به هذا الوصف، من الأنبياء، والرسل، والأولياء، من أي أمة كانوا.

وأصل كلمة (الصالحين) أنها جمع (الصالح). والصالح هو اسم من قام به الصلاح، والصلاح في الكتاب والسنة تارة يكون بمعنىٰ نفي الفساد، أي ما يقابل الفساد، وتارة يكون بمعنىٰ ما يقابل السيئات، فيقال: صالح يعنىٰ ليس بذي فساد، ويقال أيضًا: صالح بمعنىٰ: ليس بسيئ.

والصالحون هنا المراد بهم: أهل الصلاح، يعني: أهل الطاعة والإخلاص لله -جل وعلا- الذين اجتنبوا الفساد، واجتنبوا السيئات، وهم الذين اشتركوا في فعل الطاعات وترك المحرمات، أو كانوا من السابقين بالخيرات، فاسم الصالح يقع شرعًا علىٰ المقتصد، وعلىٰ السابق بالخيرات، فالمقتصد صالح، والسابق بالخيرات صالح، وكلٌّ درجات عند الله جل وعلا.

---

(٥٠١) أخرجه النسائي، كتاب: مناسك الحج، باب: التقاط الحصىٰ، برقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: قدر حصىٰ الرمي، برقم (٣٠٢٩)، وأحمد (١/ ٢١٥)، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (١٢٨٣)

«**والغلو في الصالحين**» يعني: مجاوزة الحد فيهم، لكن ما الحد الذي أذن به الشرع في حق الصالحين، حتىٰ نعلم متىٰ يكون تعظيمهم مجاوزة للحد المعلوم؟

الجواب: أنهم إذا كانوا من الرسل فبالأخذ بشرائعهم، واتباعهم، والاقتداء بهم، مع المحبة، والاحترام، والموالاة، والنصرة، وغير ذلك من المعاني الداخلة في الحد المأذون به في حقهم. أما الغلو فيهم فهو مجاوزة ذلك الحد، وهو بحر لا ساحل له، فمما حصل من الغلو فيهم أنهم جُعلت فيهم خصائص الإلهية كما ادّعاه في حق نبينا ﷺ أنه يعلم سر اللوح والقلم، وأنه من جوده الدنيا وضُرتها كما قالها البوصيري في قصيدته المشهورة، المسماة بـ(البُردة):

فــإن مـــن جـــودك الـــدنيا وضرتهـــا ومـــن علومـــك علـــم اللـــوح والقلـــم

ومن المعلوم أن هذا لا يليق إلا بالله، فهذا من الغلو المنهي عنه، وكذلك قوله في النبي -عليه الصلاة والسلام- غاليًا فيه أعظم الغلو:

لـــو ناســـبت قـــدره آياتـــه عظـــمًا أحيـا اسـمه حـين يـدعىٰ دارس الـرمم

يقول: إن النبي عليه الصلاة والسلام لم يُعطَ آية تناسب قدره، قال الشراح: «**حتىٰ القرآن لا يناسب قدر النبي ﷺ**» والعياذ بالله، يقولون: القرآن المتلو بخلاف غير المتلو عند الأشاعرة؛ لأنهم يفرقون بين هذا وهذا.

فهذا البوصيري يغلو، ويقول: لو ناسبت قدره -يعني النبي عليه الصلاة والسلام- آياته عظمًا -يعني: في العظمة- أحيا اسمه حين يدعىٰ دارس الرمم، فالذي يناسب قدره -عند البوصيري- أنه إذا ذكر اسمه علىٰ ميت قد درس، وذهب رميمه في الأرض، وذهبت عظامه أن تتجمع هذه العظام وتحيا، لأجل ذكر اسم النبي ﷺ عليه، وهذا من أنواع الغلو الذي يحصل من الذين يعبدون غير الله -جل وعلا- ويتوجهون إلىٰ الأنبياء والرسل، ويجعلون في حقهم من خصائص الألوهية ما لا إذن لهم به، بل هو من الشرك الأكبر بالله -جل وعلا- ومن سوء الظن بالله، ومن تشبيه المخلوق بالخالق، وهذا كفر -والعياذ بالله.

فالحد المأذون به شرعًا في حقهم مطلوب، وهذه هي الحالة الأولىٰ. والغلو مذموم شرعًا ومنهيٌّ عنه، وهذه الحالة الثانية، ويقابلها الجفاء في حقهم -وهي الحالة الثالثة-وهذا الجفاء له

صور منها:

عدم موالاتهم، وبخسهم حقهم، وترك محبتهم، فالحاصل أن كل تقصير في حقهم يُعدُّ جفاء، وكل زيادة فيه يعدُّ غلوًّا.

❁ **قوله: «قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ...﴾[النساء: ١٧١]»:**

مناسبته للباب ظاهرة، وهي أنه تعالىٰ نهىٰ أهل الكتاب عن الغلو، فقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ ووجه الاستدلال من الآية أنه قال: ﴿ لَا تَغۡلُواْ﴾، و﴿تَغۡلُواْ﴾ فعل جاء في سياق النهي فهو يعمّ جميع أنواع الغلو في الدين، أي لا تغلوا بأي نوع من أنواع الغلو في الدين، فنُهوا عن أي نوع من أنواع الغلو. فيدخل في هذا عموم الغلو في الصالحين وغيرهم.

والمتأمل لحال أهل الكتاب، ولما قصّ الله -جل وعلا- من أخبارهم يجد أنهم قد غلوا في صالحيهم، كغلو النصارىٰ -مثلًا- في عيسىٰ -عليه السلام- وفي أمه وفي حوارييه، وكغلو اليهود -أيضًا- في عزير، وفي أصحاب موسىٰ، وفي أحبارهم، وفي رهبانهم، وهكذا. فحصل الغلو في أهل الكتاب بأن جعلوا للرسل والأنبياء خصائص الألوهية من جهة التوجه إليهم، وقد قال الله جل وعلا: ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾[المائدة: ٧٢-٧٣]، وفي آخر سورة المائدة أيضًا قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾[المائدة: ١١٦] يعني تنزيهًا وتعظيمًا لك أن أقول لهم ذلك؛ لأن ذلك من الشرك، فكيف أقول لهم ذلك؟! ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾[المائدة: ١١٦-١١٧]، وهذا كله في التوحيد.

فالحاصل أن الغلو وقع من أتباع الرسل، وأتباع الأنبياء في الأنبياء والرسل، وغلوا -أيضًا- في الصالحين من أتباعهم، وجعلوا لهم بعض خصائص الإلهية، وجعلوا لهم الشفاعة، وزعموا أن

لهم نصيبًا من الملك، أو أنهم يدبرون الأمور، أو أنهم يصرفون شيئًا من الملكوت، وهذا كما يعتقده بعض الصوفية أن للكون أقطابًا أربعة يدبرون أمر هذا العالم، وربما قالوا: الربع الفلاني، المسئول عنه: القطب الفلاني، والربع الفلاني المسئول عنه: القطب الفلاني، وهكذا. فجعل هؤلاء المتصوفة لأقطابهم المزعومين نصيبًا من الملك والربوبية، وجعلوا لهم -أيضًا نصيبًا من الإلهية، فتقربوا إليهم بأنواع القربات من الذبح، والاستغاثة، والتذلل، والخضوع، والمحبة، والتوكل، والرغب، والرهب، وخوف السر، وغيرها من أنواع العبادات القلبية والعملية.

قوله: «في «الصحيح» عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ...﴾»:

قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم...»

هذه القصة، أو هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما عنهما- محمول علىٰ الرفع؛ لأن هذا خبر غيبي لا يُستقىٰ إلا من مشكاة النبوة. و(ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر) هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح.

ونوح -عليه السلام- هو أول رسول بعثه الله بعبادة الله وحده دون من سواه، وبالدعوة إلىٰ التوحيد، لما وقع الشرك في قومه. لكن كيف دخل الشرك في قوم نوح؟

الجواب: أن القرآن ذكر أصلين في الحالين من أصول الشرك -وذكر غيرهما أيضًا- الأصل الأول: شرك قوم نوح، والأصل الثاني: شرك قوم إبراهيم. أما شرك قوم نوح فكان بالغلو في الصالحين وأرواحهم، فجاءهم الشيطان من جهة روح ذلك العبد الصالح، وأثر تلك الروح، وأن من تعلق به فإنه يشفع له، ثم ساقهم من ذلك التعظيم إلىٰ أن صوروا لهم صورًا، ونصبوا لهم أنصابًا، وأوثانًا وأصنامًا حتىٰ إذا طال عليهم الأمد عبدوهم.

والأصل الثاني: شرك قوم إبراهيم، وذلك شرك في التأثير، يعني: من جهة النظر في الكواكب ومن يؤثر ويحرك، فهذا شرك في الربوبية، وما تبعه من الشرك في الألوهية؛ لأنهم جعلوا لتلك الكواكب أصنامًا، وجعلوا لها صورًا، وجعلوها أوثانًا، فعبدوها من دون الله -جل وعلا- وتوجهوا إليها.

فسبب وقوع الشرك في قوم نوح هو الغلو في الصالحين، كما قال ابن عباس هنا في بيان أصل وقوع هذا الشرك: «**فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتىٰ إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت**».

۞ **قوله**: «**وقال ابن القيم «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا علىٰ قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم**»:

الشاهد من هذا: أن أولئك توجهوا إلىٰ الصور -صور الصالحين- وكانوا أهل علم يعلمون أنهم إذا اتخذوا هذه الصور فإنهم لن يعبدوها. لكن كانت تلك الصور للصالحين والمعظمين وسيلة وطريقًا وسببًا لأن عبدت في المستقبل، لما نسي العلم. ومن حرص الشيطان المريد علىٰ إضلال العبيد أنه ربما أتىٰ إلىٰ الصورة المتعلق بها، فأوهم الناظر إليها، أو المخاطب لها أنها تتحدث وتتكلم، أو يسمع منها كلامًا، أو نحو ذلك من الأشياء، وأصناف التصرفات التي تجعل القلوب تتعلق بتلك الروحانيات -كما يقال، أو تلك الأرواح- فيُغرىٰ أولئك بهم، وهذا هو الحاصل عند عبّاد القبور، والعاكفين عليها، يأتي أحدهم، ويقول: ذهبتُ إلىٰ القبر الفلاني، فكلمني أبي، ويكون ذلك شيطانًا نطق علىٰ لسان أبيه، وربما تصوّر بصورة أبيه فخرج له في ظلامٍ ونحوه، فيحدثه أبوه بصوته الذي يعرفه، أو يحدثه العالم، أو الولي بصوته الذي يعرفه منه، فتقع الفتنة، وهذا من قبيل الشيطان، ولهذا قال ابن عباس هنا كلمة تبين السبب في ذلك، فقال: «**أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم**» والوحي: إلقاء في خفاء، والشيطان لا يتحدث علَنًا، ولكن يوحي، يعني: يلقي في خفاء، فالوحي هو إلقاء الخبر في خفاء، فألقىٰ الشيطان في روعهم وأنفسهم ذلك الأمر، فكان سببًا للشرك بالله -جل وعلا- ولم يكونوا في أول الأمر يعبدونها، ولكنهم لما صوّروا صور أولئك الصالحين، ونصبوا لهم الأنصاب كان ذلك سببًا ووسيلة إلىٰ عبادتهم، لكن أولئك الذين جعلوها وسائل، كان عندهم من العلم ما حجزهم عن عبادة الصالحين، لكن لما نُسي العلم عُبدت.

وهذا الفعل الذي فعلوه بإيحاء الشيطان هو من الغلو في أولئك الصالحين. وهذا وجه الشاهد، وهو أنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم، أو صوروا صورهم، أو نصبوا الأنصاب في أماكنهم ليتذكروهم، وليكون ذلك أنشط لهم في العبادة أو العلم، ولكن هذه الأفعال التي فعلوها كانت سببًا من أسباب عبادة أولئك الصالحين، الذي غَلَوا في حبهم. وهذا هو مراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من إيراد هذا الأثر.

❁ **قوله: عن «عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم...»** (٥٠٢):

هذا الحديث فيه النهي عن إطرائه -عليه الصلاة والسلام- والإطراء هو مجاوزة الحد -أيضًا- في المدح، أما الغلو فهو يعمّ أمورًا كثيرة، فقد يكون في المدح، وقد يكون في الذم، وقد يكون في الفهم، وقد يكون في العلم، وقد يكون في العمل، أما الإطراء فهو الغلو في المدح، والثناء والوصف. والنبي عليه الصلاة والسلام نهىٰ عن إطرائه كإطراء النصارىٰ ابن مريم، فقال: «**إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

وقد ظن بعض الناس أن (الكاف) في قوله: «**كما أطرت النصارىٰ ابن مريم**» أنها كاف المثلية، يعني: لا تطروني بمثل ما أطرت النصارىٰ ابن مريم، ويقول هذا الظانُّ: إن النصارىٰ أطرت ابن مريم في شيء واحد، وهو أن قالوا: هو ابن الله -جل وعلا- فيكون النهي عن أن تجعل له ﷺ رتبة البنوة فقط، فإذا كان كذلك فما عداه جائز. وهذا هو فهم الخرافيين لهذا النهي، كما قال قائلهم البوصيري في هذا المقام:

دع مـا ادعتـه النـصارىٰ في نبـيهم   واحكـم بـما شـئت فيـه واحـتكم

أو كما قال، يعني: لا تقل: إنه ولد لله، أو إنه ابن الله، فهذا هو القدْر المنهيُّ عنه فقط، ولك أن تقول فيه بعد ذلك ما شئت غير ملوم وغير مُثرَّب عليك.

الوجه الثاني -وهو الفَهْم الصحيح، وهو الذي يدل عليه السياق- أن (الكاف) هنا هي كاف القياس، والمعنىٰ: لا تطروني إطراء، كما أطرت النصارىٰ ابن مريم.

---

(٥٠٢) أخرجه البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾، برقم (٣٤٤٥)، وأحمد (١/ ٢٣، ٢٤) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكاف القياس هي كاف التمثيل الناقص، وحقيقتها: أن يكون هناك شبه بين ما بعدها وما قبلها في أصل الفعل، فنهىٰ ﷺ في قوله: «**لا تطروني كما أطرت**» عن أن يُطرىٰ عليه الصلاة والسلام كما حصل أن النصارىٰ أطرت ابن مريم فهو تمثيل للحدث بالحدث، لا تمثيل أو نهي عن نوع الإطراء، فمعنىٰ قوله: «**لا تطروني كما أطرت**» هو نهي عن إطرائه عليه الصلاة والسلام؛ لأجل أن النصارىٰ أطرت ابن مريم، فقادهم ذلك إلىٰ الكفر، والشرك بالله، وادعاء أنه ولد لله - جل وعلا- ولهذا قال: «**إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

فالكاف هنا ليست كاف التمثيل الكامل؛ بأن يكون ما بعدها مماثلًا لما قبلها من كل وجه، وإنما هي كاف التمثيل التي يكون ما بعده مشتركًا مع ما قبله في المعنىٰ، وهي القياسية التي تجمعها العلة، ولهذا يقول الفقهاء -كما هو معلوم- هذا كهذا، فيقولون مثلًا: نبيذ غير التمر والعنب كنبيذ التمر والعنب مساواة بين هذا وهذا، لوجود أصل المعنىٰ بينهما، وهنا نهىٰ عن الإطراء، لأجل وجود أصل الإطراء في الاشتراك بين إطراء النصارىٰ وما سبّبه من الشرك، وإطراء ما لو أطري النبي ﷺ وما سيسببه من الشرك.

وكثير من طوائف هذه الأمة خالفوا أمر النبي ﷺ في النهي عن إطرائه حتىٰ جاوزوا الحد في ذلك، فزعم زاعمهم أن له من الملك نصيبًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، مع أنه ﷺ أرشدهم إلىٰ ما ينبغي أن يكون عليه الأمر بقوله: «**إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**» وهذا هو الكمال في حقه عليه الصلاة والسلام أن يكون عبدًا رسولًا، فهذا أشرف مقاماته عليه الصلاة والسلام.

❁ **قوله**: «**وقال ﷺ: إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**»:

هذا نهي عن الغلو بأنواعه، وأن من قبلنا إنما أهلكهم الغلو، أهلكهم من جهة الدين، وأهلكهم -أيضًا- من جهة الدنيا، فالغلو سبب لكل شر، والاقتصاد سبب في كل فلاح وخير، والغلو منهي عنه بجميع صوره في الأقوال والأعمال، يعني: في جميع أقوال القلب، وأعماله، وكذلك أقوال اللسان وأعمال الجوارح، فالغلو سبب لهلاك العبد في دينه ودنياه.

❁ **قوله**: **ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون»**:

يعني: هلك الذين تنطعوا فيما يأتون به في أفعالهم، أو أقوالهم، وهم الذين جاوزوا الحد في ذلك، وابتغوا علم شيء أو تكلفوا شيئًا لم يأذن به الله، فزادوا عما أذن لهم، فأتوا بأشياء لم يؤذن لهم فيها.

والتنطع والإطراء والغلو متقاربة المعنىٰ يجمعها مجاوزة الحد المشروع، والغلو يشمل الإطراء، ويشمل التنطع، فكل تنطع وكل إطراء غلو، والغلو اسم جامع لهذه جميعًا، فالشيخ رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب بين أن سبب كفر بني آدم، وسبب تركهم دينهم هو الغلو في الصالحين، بأن جاوزوا الحد فيهم، كما جاوز قوم نوح الحد في صالحيهم، فعكفوا علىٰ قبورهم، وألّهوها، فصارت آلهة، والنصارىٰ غَلت في رسولهم عيسىٰ عليه السلام، وفي الحواريين، وفي البطارقة، حتىٰ جعلوهم آلهة مع الله -جل وعلا- يستغيثون بهم، ويؤلهونهم، ويسألونهم، ويعبدونهم، وكذلك وقع الغلو في هذه الأمة من الذين جعلوا للنبي عليه الصلاة والسلام نصيبًا من خصائص الألوهية، وهذا هو عين ما نَهَىٰ عنه عليه الصلاة والسلام بقوله: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب، أي: من فهم باب سبب الكفر هو الغلو في الصالحين والتغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، وأن الغلو في قبور الصالحين يجعلها أوثانًا تعبد تبين له غربة الإسلام لكون أكثر الخلق جعلوا مثل هذا هو أفضل الأعمال وكفروا من نهى، وهذا من قدرة الله وتقليبه للقلوب لما أعرضت عن الشرع ولم تؤمن به كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام:١١٠].

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض أنه بشبهة الصالحين أي: لما غلا هؤلاء في الصالحين حدث الشرك فيمن بعدهم بسببه.

الثالثة: أول شيء غير به دين الأنبياء وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم، أي: هو بعبادة الصالحين وسبب ذلك الغلو الذي فعله هؤلاء فلما ماتوا وأتى من بعدهم فعبدوهم لظنهم أن الأولين أرادوا ذلك.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها، أي لما أوحى إليهم الشيطان ذلك قبلوه،ولو أنهم رجعوا إلى الشرع وعملوا به لما قبلوا ما أوحاه إليهم الشيطان، ولكنهم استحسنوا ما قاله فحصل ما حصل.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل فالأول محبة الصالحين، والثاني: فعل أناس من أهل العلم شيئًا أرادوا به خيراً فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره، أي: إن سبب هذا الكفر خلط الحق بالباطل، فالأول الذي هو الحق محبة الصالحين،والثاني الذي هو الباطل ما فعله الأولون من نصب الأنصاب مجالسهم، وهذا فعلوه من باب المحبة لهم فصار هذا العمل المركب من الحق والباطل سببًا لعبادة من أتى بعدهم لهم من دون الله؛ لكونهم ظنوا أنهم ما صوروا

صورهم إلا ليعبدوهم، ولو أن الأولين فهموا أن المحبة تحصل بدون تصوير صورهم والغلو فيهم لما حصل ذلك؛ ولكنهم التبس عليهم الأمر وهذا من مكائد الشيطان التي كاد بها بني آدم قديمًا وحديثًا ولم يسلم منها إلا القليل.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح، أي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح:٢٣] الآية.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد، أي: إن هؤلاء نقص في قلوبهم الحق فلم يكتفوا بمحبة الصالحين والاقتداء بهم، بل زادوا عليه الباطل وهو أنهم نصبوا إلىٰ مجالسهم أنصابًا وعكفوا علىٰ قبورهم وهذا من جبلة الآدمي ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب:٧٢].

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف: أن البدع سبب الكفر، أي إن الكفر الذي حصل في الأرض بسبب ما ابتدعه هؤلاء من تصوير صورهم والغلو فيهم.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تئول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل، أي: لما عرف الشيطان أن ما تؤل إليه البدعة هو الكفر حسنها لهم، ولم ينظر إلىٰ حسن مقصدهم فيفسده عليهم، بل زادهم رغبة فيه حتىٰ يحصل ما يريد من الكفر.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يئول إليه، أي: القاعدة الجامعة تقتضي النهي عن الغلو مطلقًا؛ لأنه يئول إلىٰ الكفر.

الحادية عشرة: مضرة العكوف علىٰ القبر لأجل عمل صالح، أي ؛ لأنه صار سببًا لعبادة هؤلاء من دون الله.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها، أي: معرفة النهي عن الصور والحكمة في إزالتها؛ لأن بقاءها سبب لعبادتها من دون الله ولو بعد حين.

الثالثة عشرة: معرفة شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها، أي: قصة الصالحين مع قوم نوح ومعرفة شدة الحاجة إليها لئلا يجهلها الإنسان فيفعل كما فعلوا ومع هذا غفل عنها أكثر الناس فوقعوا فيما وقع فيه قوم نوح.

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنىٰ الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتىٰ اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات فاعتقدوا أن ما نهىٰ الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال، أي: أعجب شيء قراءة من يدعي العلم في هذه الأوقات قصة قوم نوح مع معرفتهم بمعنىٰ الكلام، ولكن حيل بينهم وبين معرفة التوحيد حتىٰ اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات فصوروا صور الصالحين، وعظموا قبورهم، وعبدوهم، وجعلوا هذا الذي نهىٰ الله ورسوله عنه هو أفضل الأعمال، وإذا نهاهم أحد عن هذا حكموا عليه بالكفر والخروج عن الإسلام، وقالوا: تنقصت الصالحين وهذا معنىٰ قول المؤلف فاعتقدوا أن ما نهىٰ الله عنه ورسوله... إلخ، فما في كلامه مصدرية، أي: اعتقدوا أن نهي الله ورسوله كما في بعض النسخ فهم في الحقيقة قد عكسوا القضية فجعلوا الكفر إسلامًا، والإسلام كفرًا.

الخامسة عشرة: تصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة، أي: إن الذين عبدوا هؤلاء الصالحين لم يريدوا إلا الشفاعة وإلا فكانوا مقرين أن الله هو الخالق الرازق النافع الضار.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك، أي: ظن الذين عبدوهم أن الذين قبلهم أرادوا الشفاعة وهم لم يريدوها وإنما فعلوا ذلك ليتذكروا أفعالهم.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: « **لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم**» فصلوات الله وسلامه علىٰ من بلغ البلاغ المبين، أي: لا تمدحوني بالباطل، ولا تتجاوزوا الحد في مدحي فتعبدوني كما عبدت النصارىٰ المسيح لما غلوا فيه، وهذا من كمال نصحه ﷺ.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين، أي: المتكلفين المتشددين في غير موضع التشديد، ومن التنطع: رفع المخلوق فوق منزلته.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتىٰ نسي العلم ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده، أي: إن صور هؤلاء الصالحين وأنصابهم لم تعبد حتىٰ فقد العلم فيؤخذ منه معرفة قدر وجود العلم ومضرة ذهابه؛ لأن بوجوده حصل التوحيد وبفقده وجد الشرك.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء، أي: إذا ذهب أهله فُقِد، كما في الحديث الصحيح «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا فينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء**». الحديث.

* الأسئلة *

س: اذكر مقصود المؤلف بهذا الباب؟

جـ: مقصوده بيان ما يئول إليه الغلو في الصالحين من الشرك بالله في إلهيته المنافي للتوحيد.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾[النساء:١٧١]».

س: اشرح الآية، ومن هم أهل الكتاب، وما هو الغلو، وما مناسبة الآية للباب؟

جـ: يقول الله تعالىٰ مخاطبًا لأهل الكتاب؛ وهم اليهود والنصارىٰ لا تجاوزوا ما حد الله لكم في الدين، ولا ترفعوا المخلوق فوق منزلته التي أنزله الله فتنزلوه المنزلة التي لا تنبغي إلا لله؛ والغلو مجاوزة الحد والإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد.

ومناسبة الآية للباب: أن من دعا نبيًّا أو وليًّا من دون الله فقد اتخذه إلهًا وشابه النصارىٰ في شركهم واليهود في تفريطهم.

قوله: «في «الصحيح» عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ...﴾».

س: ما المقصود بالأنصاب هنا، وما سبب عبادة هذه الأصنام، وما المراد بنسيان العلم؟

جـ: المقصود بالأنصاب هنا: الأصنام المصورة علىٰ صور أولئك الصالحين.

وسبب عبادتها: ما جرىٰ من الأولين من تعظيمهم بالعكوف علىٰ قبورهم، ونصب صورهم في مجالسهم، وإغواء الشيطان بقوله لهم: إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر. والمراد بنسيان العلم: ذهابه بموت أهله.

قوله: «وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا علىٰ قبورهم ...».

س: ما معنى عكوفهم على قبورهم، وما هي التماثيل هي الصور التي تشبه الأصنام، وما المراد بالأمد؟

ج: معنىٰ عكوفهم علىٰ قبورهم: ملازمتهم لها، والتماثيل: هي الصور التي تشبه الأصنام، والأمد: هو الزمن.

❁ قوله: عن «عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم...».

س: ما هو الإطراء، وما معنى قوله ﷺ: «لا تطروني»، وقوله «إنما أنا عبد»، ولماذا وصف نفسه بالعبودية؟

جـ: الإطراء: هو المبالغة في المدح والكذب فيه؛ والمعنى: لا تجاوزوا الحد في مدحي بغير الواقع فيجركم إلى الكفر كما جر النصارى إليه لما تجاوزوا الحد في عيسى فاتخذوه إلهًا. وإنما أن عبد الله ورسوله فصفوني بذلك ما وصفني ربي.

ومعنى قوله إنما أنا عبد؛ أي: ملك الله يتصرف في بما يشاء كسائر العباد فلا تقولوا في حقي شيئًا ينافي العبودية.

وإنما وصف نفسه بالعبودية؛ لأن أشرف مقدمات الأنبياء العبودية والرسالة.

س: اشرح قوله ﷺ: «أياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

جـ: يحذر ﷺ أمته أن تقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من تعظيم الأنبياء والصالحين ورفعهم فوق منزلتهم فتهلك كما هلكوا.

س: من هم المتنطعون، وما فائدة تكرير «هلك» ثلاث مرات؟ ما هو التنطع، وما مثاله، اذكر مناسبة الحديث للباب؟

جـ: المتنطعون المتعمقون المتكلفون المجاوزون للحد في أقوالهم وأفعالهم والتنطع هو التعمق في الشيء والتكلف فيه.

ومثاله تكلف الفصاحة، والتقعر في الكلام، والامتناع من المباح.

وقال هذه الكلمة ثلاث مرات مبالغة في التعليم والإبلاغ.

ومناسبة الحديث للباب: أن التنطع من الغلو والزيادة لما فيه من الخروج إلى ما يوصل إلى الشرك بالله المنافي للتوحيد.

س: اذكر ما يستفاد من هذا الباب؟

جـ: ١ - التحذير من الغلو في الصالحين وأنه سبب للكفر وترك الدين.

٢ - النهي عن التصاوير ونصبها في المجالس وغيرها وأنها من أسباب الشرك.

٣ - تحريم العكوف على القبور وأنه من وسائل الشرك.

٤ - التحذير من التنطع والإطراء والمبالغة في المدح.

٥ - أن أول شرك حدث في العالم سببه الغلو في الصالحين.

٦ - كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة.

والله سبحانه وتعالى أعلم.



الدرس العشرون:

باب ما جاء في[٥٠٣] التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!

في «الصحيح» عن عائشة، أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسةً رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[٥٠٤].

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين[٥٠٥]: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصةً له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها، كشفها، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٥٠٦]. يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أُبرز قبره، غير أنه خَشي أن يُتخذ مسجدًا. أخرجاه.

ولمسلم عن جُندب بن عبد الله، قال: «سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ، وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أُمتي خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[٥٠٧].

---

(٥٠٣) في نسخة ابن قاسم، والفوزان، والسعدي: «من».

(٥٠٤) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: الصلاة في البيعة، برقم (٤٣٤)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٨)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥٠٥) في نسخة الفوزان: «فتنتين».

(٥٠٦) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: (٥٥)، برقم (٤٣٥)، ومسلم، كتاب: المساجد، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور، برقم (٥٣١)، وغيرهما من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم.

(٥٠٧) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، برقم (٥٣٢) وغيره من حديث جندب رضي الله عنه.

فقد نهىٰ عنه[وهو][٥٠٨] في آخر حياته، ثم إنه لعن -وهو في السياق- من فعله، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد. وهو معنىٰ قولها[٥٠٩]: «خُشي أن يُتخذ مسجدًا»، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا. وكل موضع[قُصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا، بل كل موضع][٥١٠] يصلىٰ فيه يُسمىٰ مسجدًا، كما قالﷺ: «جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»[٥١١].

ولأحمد بسند جيدٍ عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه مرفوعًا: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»[٥١٢]. ورواه أبو حاتمٍ في «صحيحه».

فيه مسائل:

الأولىٰ: ما ذكر الرسول فيمن بنىٰ مسجدًا يعبُد الله فيه عند قبر رجلٍ صالحٍ، ولو صحت نية الفاعل.

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغتهﷺ في ذلك؛ كيف بيّن لهم هذا أولًا، ثم قبل موته بخمسٍ قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارىٰ في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم علىٰ ذلك.

السابعة: أن مرادهﷺ تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

---

(٥٠٨) ساقطة من نسخة ابن قاسم، والفوزان، وابن باز، وابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

(٥٠٩) في نسخة ابن باز: «قوله».

(٥١٠) سقط من نسخة الفوزان.

(٥١١) أخرجه البخاري، كتاب: المساجد، باب: قول النبيﷺ«جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، برقم (٤٣٨)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥١٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥)، وابن خزيمة، برقم (٧٨٩)، وأخرج البخاري الجزء الأول معلقًا، كتاب: الفتن، باب: ظهور الفتن، برقم (٧٠٦٧)، وعند مسلم مرفوعًا، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة، برقم (٢٩٤٩)، جميعًا من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

التاسعة: في معنىٰ اتخاذها مسجدًا.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجدًا وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلىٰ الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خُطبته قبل موته بخمسٍ: الرد علىٰ الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقةً، وهم الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنىٰ عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بُلي به ﷺ من شدة النَّزع.

الثالثة عشرة: ما أُكرم به من الخلة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلىٰ من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلىٰ خلافته.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله**: «باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر...»:

أي: باب ذكر ما ورد في النصوص من التغليظ والتهديد، والوعيد الشديد علىٰ من يعبد الله عند قبر رجل صالح؛ مع أنه لا يقصد إلا الله، ومع كونه معصية فهو وسيلة وذريعة من أعظم الوسائل والذرائع إلىٰ الشرك، وقد أبدىٰ ﷺ وأعاد، وكرر وغلظ في ذلك، فكيف إذا عبد الرجل الصالح؛ فإنه أحق وأولىٰ بما هو أعظم من هذا التغليظ، والمقصود أنه إذا كانت عبادة الله عند القبور منهيًّا عنها، ومغلظًا فيها، فكيف بعبادة صاحب القبر، فإن ذلك شرك أكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلىٰ عبادته، وكلما أدىٰ إلىٰ محرم فهو محرم، فإن الوسائل لها حكم الغايات، فوسائل الشرك محرمة؛ لأنها تؤدي إليه، ولما رأىٰ المصنف -قدس الله روحه- تهافت الناس علىٰ عبادة القبور، نوع التحذير من الافتتان بالقبور، وأخرجه في أبواب مختلفة؛ ليكون أوقع في القلوب، وأحسن في التعليم، وأعظم في الترهيب، وأبلغ في التحذير.

❁ **قوله: «أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم...»:**

أم سلمة هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، القرشية المخزومية، تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلىٰ الحبشة، وتوفيت سنة ٦٢ هـ والكنيسة- بفتح «الكاف» وكسر «النون» - متَعَبد النصارىٰ، وفي رواية: «يقال لها: مارية»، وفيه أن أم سلمة ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ في مرض موته، وهو في «الصحيحين»، وفيهما أيضًا أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأتاها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ.

❁ **قوله: «وما فيها من الصور»:**

أي: وذكرت له ما فيها من تلك الصور، وفي رواية: «وذكرتا له من حسنها وتصاوير فيها».

❁ **قوله: «بنوا علىٰ قبره مسجدًا»:**

أي: موضعًا للعبادة، وإن لم يسم مسجدًا كالكنائس والمشاهد، و «أولئك» بكسر «الكاف»، خطاب للمرأة؛ والرجل الصالح هو القائم بحقوق الله، وحقوق عباده، وفيه التحري في الرواية، وجواز الرواية بالمعنىٰ لمن يحسن ذلك.

❁ **قوله: «وصوروا تلك الصور»:**

بكسر «الكاف» أيضًا، وتفتح كالماضية، والإشارة إلىٰ ما ذكرت له أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في تلك الكنيسة، كما في بعض ألفاظ الحديث، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، ذكرهم علىٰ وجه العيب والذم والإشانة.

❁ **قوله: «أولئك شرار الخلق عند الله»:**

بكسر «الشين» جمع شر؛ كالخيار جمع خير؛ وإنما سموا بذلك لضلالهم، وسنهم لمن بعدهم الغلو في قبور صالحيهم حتىٰ أفضىٰ بهم ذلك الغلو إلىٰ عبادتها، وهو عام فيمن فعلهم من هذه الأمة، وأي زجر وأي تغليظ وتقريع وتعيير أبلغ من هذا؟ وهم إنما صوروا صورهم ليتأسوا بهم، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك وأنذر، وأبدىٰ وأعاد، أولًا بالبناء علىٰ القبور، ثم بالتصوير، ثم بكونهم شرار الخلق؛ سدًّا للذريعة المؤدية إلىٰ الشرك.

وفيه ونحوه دلالة ظاهرة علىٰ تحريم بناء المساجد علىٰ القبور، وزخرفتها وإسراجها، وعبادة الله عندها، أو تعليق شيء من الصور عليها، لا سيما وقد لعن ﷺ من فعل ذلك كما سيأتي.

❁ **قوله: «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين؛ فتنة القبور وفتنة التماثيل»:**

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ الحديث، أدرجه المصنف -رحمهما الله تعالىٰ- غير منسوب؛ لأنه معلوم عند غالب من يقرأ هذا الكتاب، وعني رَحِمَهُ اللَّهُ أن الذين بنوا هذه الكنيسة جمعوا فيها بين فتنتين، ضل بهما كثير من الخلق، فأما فتنة القبور فلأنهم افتتنوا بقبور الصالحين، وعظموها تعظيما مبتدعا، فآل بهم إلىٰ الشرك. وأما فتنة التماثيل- أي: الصور- فإنهم لما افتتنوا بقبور الصالحين، وعظموها وبنوا عليها المساجد، وصوروا فيها تلك الصور، آل بهم الأمر إلىٰ أن عبدوها، وهاتان الفتنتان هما سبب عبادة الصالحين، كاللات والعزىٰ وود وغيرها، وهذه العلة هي التي لأجلها نهىٰ النبي ﷺ عن اتخاذ المساجد علىٰ القبور، وهي التي أوقعت الكثير من الأمم في ذلك، والفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام وأشد؛ فإن الشرك بقبر رجل يعتقد صلاحه أقرب إلىٰ النفوس من الشرك بخشبة أو حجر؛ ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدون عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ويلهجون بذكرهم أكثر مما يذكرون الله، وينفقون نفائس الأموال في ذلك، ولأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها، حتىٰ نهىٰ عن الصلاة في المقبرة.

قال شيخ الإسلام: وإذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركًا بها؛ فهذا عين المحادة، فإن المسلمين قد أجمعوا علىٰ ما قد علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك، والتغليظ فيه، وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها، متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة، وصرحوا بتحريم ذلك، ومن أطلق الكراهة منهم فينبغي أن تحمل كراهته علىٰ التحريم، إحسانًا للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ النهي عنه، ولعن فاعله.

❁ **قوله: «لما نزل برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم...»:**

نزل بضم «النون» وكسر «الزاي»؛ أي: لما نزل به ملك الموت لقبض روحه الشريفة، والملائكة الكرام، وروىٰ «بالفتح»؛ أي: لما نزل به الموت. وفي رواية: نزلت؛ أي: لما حضرت المنية والوفاة. و«طفق» بفتح «الطاء» وكسر «الفاء» وتفتح؛ أي: جعل، «والخميصة» كساء له أعلام.

❁ **قوله: «فإذا اغتمَّ بها كشفها»:**

أي: إذا غمته فاحتبس نفسه عن الخروج كشفها عن وجهه؛ لشدة ما يعالج ﷺ من كرب الموت.

❁ **قوله: «فقال: وهو كذلك...»:**

أي: قال ﷺ في هذه الحالة الحرجة، وهي شدة النزع؛ لشدة اهتمامه، واعتنائه بمقام التوحيد، وخوفه أن يعظم قبره، كما فعل من مضىٰ: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ**»، وفي لفظ: «**قاتل الله اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(٥١٣)] أي: كنائس وبيعًا؛ أي: يتعبدون ويسجدون فيها لله، وإن لم يسموها مساجد، فإن الاعتبار بالمعنىٰ لا بالاسم، وفي لفظ لمسلم: «**كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**»[(٥١٤)]. ومثل ذلك القباب والمشاهد المبنية علىٰ قبور الأنبياء والصالحين؛ فإنما هي المساجد الملعون من بناها علىٰ قبورهم، فأفاد أن هذا من أخوف ما خافه ﷺ علىٰ أمته، ولولا أن ضرره عظيم لما ذكره في هذا المقام، وخص قبور الأنبياء؛ لأن عكوف الناس علىٰ قبور أنبيائهم أعظم، واتخاذها مساجد أشد، ولم يكن هذا اللعن في سياق الموت لهذه الطائفتين إلا علىٰ سبيل التحذير الشديد؛ لئلا تقع أمته في شيء من فعلهم عند قبره، فلعنهم علىٰ تحري الصلاة عندها، وإن كان المصلي لا يصلي إلا لله؛ لأنه ذريعة إلىٰ عبادتها، فكيف إذا عبدها، وهذا هو الغاية التي يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة إليها، واللعنة ليست مختصة باليهود والنصارىٰ، بل تعم من فعل فعلهم.

❁ **قوله: «يحذر ما صنعوا»:**

هذا من كلام عائشة رضي الله عنها؛ أي: أن رسول الله ﷺ لعن اليهود والنصارىٰ تحذيرا لأمته أن يفعلوا ما فعلت اليهود والنصارىٰ، فيقع بهم من اللعنة ما وقع بهم، فإنه من الغلو في الأنبياء، وأعظم وسائل الشرك، قال القرطبي: وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلىٰ عبادة من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام.

❁ **قوله: «ولولا ذلك لأبرز قبره»:**

وفي لفظ: لأبرزوا قبره؛ أي: ولولا تحذير النبي ﷺ ما صنعوا، ولعنه من فعل ذلك لأبرز قبره؛ أي: لدفن خارج بيته، أو مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقيع.

---

(٥١٣) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: الصلاة في البيعة، برقم (٤٣٧)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، برقم (٥٣٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥١٤) سبق تخريجه.

قوله: «أخرجاه»؛ أي: البخاري ومسلم، ويغنىٰ عنه قوله في أوله: «ولهما»؛ فلعله سبقة قلم، و«خشي» روي بفتح «الخاء» وضمها، فعلىٰ الفتح يكون هو الذي خشي ذلكﷺ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه، وعلىٰ رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة، فلم يبرزوا قبره خشية أن يقع ذلك غلوا وتعظيما، لما تقرر عندهم من مناقضة ذلك لدين الإسلام، بما أبدىٰ وأعادﷺ من النهي والتحذير منه ولعن فاعله. قال القرطبي: ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبيﷺ فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره، خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة، إذا كان مستقبل المصلي، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين، وحرفوهما حتىٰ التقيا علىٰ زاوية مثلثة من ناحية الشمال، حتىٰ لا يتمكن أحد من استقبال قبره. قال المصنف: وفيه ما ذكرﷺ فيمن بنىٰ مسجدا يعبد الله فيه علىٰ قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل، والنهي عن التماثيل، وتغليظ الأمر في ذلك، ونهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر، وأنه من سنن اليهود والنصارىٰ في قبور أنبيائهم، ولعنه إياهم علىٰ ذلك، وأن مراده بذلك تحذيرنا عن قبره، ومنها العلة في عدم إبراز قبره.

❁ **قوله:** «**ولمسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه**»:

هو أبو عبد الله البجلي العلقي، والعلق بطن من بجيلة من كهلان، ويقال: جندب الخير، وينسب إلىٰ جده سفيان، صحابي مشهور، مات بعد الستين.

❁ **قوله:** «**سمعت النبي صلىٰ الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس**»:

أي: خمس ليال، وقيل خمس سنين، والأول أظهر؛ لكونه لعن أيضًا وهو في سياق الموت من فعله.

❁ **قوله:** «**وهو يقول: إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل**»:

نفىٰ أن تكون حاجته وانقطاعه إلىٰ غير الله عز وجل والخليل المنقطع إليه، المحبوب غاية الحب، مشتق من الخلة بفتح «الخاء» وهي تخلل المودة في القلب، كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني … وبذا سمي الخليل خليلا

والخلة فوق المحبة، فإن المحبة عامة والخلة خاصة، وهي نهاية المحبة، وبرئ من الشيء سلم وخلص. قال القرطبي: وإنما كان ذلك؛ لأن قلبهﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته، فلا يسع لمخالة غيره.

❁ **قوله: «فإن الله اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا»:**

أي: فلا أريد مع خلة ربي أحدا، بل حسبي ذلك؛ لئلا تزاحم خلة غيره خلته، وفيه إثبات أنه خليل الله، ولا ينافي عبوديته لله.

❁ **قوله: «ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا»:**

فيه إثبات فضيلة الصدِّيق ﵁؛ إذ لو كان النبي ﷺ على سبيل الفرض والتقدير متخذًا خليلًا لاتخذ أبا بكر، وفي «صحيح مسلم»: «**ولكن أخي وحبيبي**»[٥١٥]. قال المصنف: فيه الرد على الرافضة والجهمية اللتين هما شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة. وفيه التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة، وفيه إشارة إلى خلافته؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد، كان أولى بالنيابة عنه من غيره، وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب لما قيل له: يصلي بهم عمر، وذلك في مرضه الذي توفي فيه ﷺ. واسم أبي بكر: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ، وأفضل الصحابة بالإجماع، ومناقبه مشهورة، مات ١٣ هـ وله ٦٣.

❁ **قوله: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذو قبور أنبيائهم مساجد»:**

«ألا» حرف استفتاح، واتخاذها إما أن يكون سجودًا لها تعظيمًا وعبادة، أو توجهًا منهم إليها حالة الصلاة، جمعًا بين العبادة وتعظيم الأنبياء، وعلى كل تقدير فإنهم يستحقون اللعن بذلك، والحديث أعم من ذلك، فيشمله ويشمل بناء المساجد والقباب عليها.

❁ **قوله: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك»:**

يحذر الأمة أن تتخذ القبور مساجد كالذين من قبلهم، وأكد النهي فقال: «**فإني أنهاكم عن ذلك**»؛ أي: عن اتخاذها مساجد؛ سدًّا لذريعة الشرك؛ ففيه النهي عن اتخاذ القبور مساجد من ثلاثة أوجه:

---

(٥١٥) أخرجه -بنحوه- مسلم، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: من فضائل أبي بكر الصديق ﵁، برقم (٢٣٨٣) من حديث عبدالله بن مسعود ﵁، وأخرجه البخاري بنحوه أيضًا، كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذًا خليلًا»، برقم (٣٦٥٦)، من حديث ابن عباس ﵄.

الأول: ذم من كان قبلهم علىٰ ذلك.

والثاني: تحذيرهم أن لا يتخذوها.

والثالث: قوله: «**فإني أنهاكم عن ذلك**» فبالغ في النهي، نصيحة لأمته عن أعظم ما يحل بهم.

قوله: «فقد نهىٰ عنه في آخر حياته»؛ أي: كما في حديث جندب، وهذا وما بعده من كلام شيخ الإسلام.

❁ **قوله: «ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله»**:

كما في حديث عائشة رضي الله عنها؛ لأن التردد علىٰ القبور يوجب التأله لأربابها، ويورث عبادتهم، و «سياق» أصله سواق، قلبت «الواو» «ياء» لكسر «السين»، وسياق وسواق مصدران من ساق يسوق، والمراد سياق الموت، سمي بذلك كأن روحه الشريفة تساق لتخرج من البدن.

❁ **قوله: «والصلاة عندها من ذلك»**:

أي: من اتخاذها مساجد، فمن صلىٰ عند القبور فقد اتخذها مساجد؛ **فهو داخل في لعن** الرسول ﷺ ومرتكب نهيه شاء أم أبىٰ، وفائدة التنصيص علىٰ زمن النهي، يقضي بأنه من الأمر المحكم الذي لم ينسخ؛ لكونه صدر في آخر حياته ﷺ.

❁ **قوله: «وإن لم يبن مساجد»**:

أي: إن الصلاة عند القبور وإليها من اتخاذها مساجد الملعون من فعله، ولو بدون بناء مساجد.

❁ **قوله: «وهو معنىٰ قولها: خشي أن يتخذ مسجدًا»**:

أي: معنىٰ قول عائشة رضي الله عنها: يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا، كما اتخذت اليهود والنصارىٰ قبور أنبيائهم مساجد، وعن أبي سعيد مرفوعًا: «**الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام**»[٥١٦]، أخرجه الخمسة. وفي «الصحيح» أن عمر رأىٰ أنس بن مالك يصلي عند قبر، فقال: القبر القبر؛ فإنه مستقر عندهم ما نهاهم عنه النبي ﷺ من الصلاة عند القبور، وفي هذا وأمثاله إبطال زعم من زعم أن النهي لأجل النجاسة، وهو أبعد شيء عن مقاصد الشارع، بل العلة الخوف علىٰ الأمة من نجاسة الشرك، كما هو معلوم من النصوص المستفيضة عن الرسول ﷺ.

---

(٥١٦) أخرجه الترمذي، كتاب: الصلاة، باب: أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام، برقم (٣١٧)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: في المواضع التي لا تجوز فيها الصلاة، برقم (٤٩٢)، وابن ماجه، كتاب: المساجد والجماعات، باب: المواضع التي تكره فيها الصلاة، برقم (٧٤٥)، وغيرهم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٧٣٧).

❁ **قوله: «فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا»:**

لما علموا من تشديده ﷺ في ذلك وتغليظه، ولعن من فعله.

قوله: «وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا»؛ لكونه أعد لها، وإن لم يبن فيه مسجد، و«قصد إلىٰ الشيء» توجه إليه.

قوله: «بل كل موضع يصلىٰ فيه يسمىٰ مسجدًا»:

وإن لم يقصد بذلك، كما إذا عرض لمن أراد أن يصلي، فأوقع الصلاة في ذلك الموضع الذي حانت الصلاة عنده، من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه؛ فإنه يصير بفعل الصلاة فيه مسجدًا، فالأول في الأمكنة المعدة للصلاة، وهذا في أي موضع صلىٰ فيه وإن لم يعد لها.

❁ **قوله: «كما قال صلىٰ الله عليه وسلم...»:**

أخرجه البخاري ومسلم من حديث جابر: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**»، وفيه: «**وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»[٥١٧]، فسمىٰ الأرض مسجدًا؛ بمعنىٰ: أنه تجوز الصلاة في كل بقعة منها، إلا ما أُستثني من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها، كالمقبرة والمكان النجس، قال البغوي: أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفًا عليهم وتيسيرًا، وهذا من خصائصه ﷺ. وقوله: «**طهورًا**» أراد به التيمم، وفيه المبالغة في النهي عن بناء المساجد عند القبور كيف بين لهم أولًا، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في النزع لم يكتف بما تقدم، بل لعن حالة النزع من فعل ذلك.

❁ **قوله: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء»:**

أي: ينفخ في الصور نفخة الفزع وهم أحياء أو مقدماتها؛ كخروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها، وهذا أيضًا من أبلغ التغليظ؛ فإنه أخبر عمن تقوم عليهم الساعة أنهم هم شرار الخلق، كقوله: «**ويبقىٰ شرار الناس**»[٥١٨]، وقوله: «**حتىٰ لا يقال في الأرض الله الله**»[٥١٩]. وشرار الناس بكسر «الشين»: جمع شر، ضد خيارهم.

---

(٥١٧) أخرجه البخاري، كتاب: التيمم، برقم (٣٣٥)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢١)، وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥١٨) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم»، برقم (١٩٢٤)، وقد تقدم تخريجه مفصلًا.

(٥١٩) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: ذهاب الإيمان آخر الزمان، برقم (١٤٨)، وأحمد (٣/ ١٠٧)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

❁ **قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد»:**

أي: وإن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها، وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارىٰ، وأن النبي ﷺ لعنهم علىٰ ذلك؛ تحذيرًا للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم فعلهم، وهذا المعنىٰ متواتر عن النبي ﷺ معلوم بالاضطرار من دينه، وكل ذلك شفقة منه ﷺ علىٰ الأمة، وخوف من أن يقودهم ذلك إلىٰ الشرك بها وأصحابها، وتقدم الإجماع علىٰ النهي عن البناء علىٰ القبور، والقطع بتحريمه، وفي «صحيح مسلم»: «نهىٰ أن يجصص القبر، وأن يبنىٰ عليه»[(٥٢٠)].

قال شيخ الإسلام: لا فرق بين الجديدة والعتيقة، انقلبت تربتها أو لم تنقلب، ولا فرق أن يكون بينه وبين الأرض حائل أولا؛ لعموم الاسم وعموم العلة، وإن كان موضع قبر أو قبرين؛ لأنه لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ومعلوم أن قبورهم لا تنجس، فمن علق النهي بنجاسة التربة خاصة، فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ ولا تجوز في مسجد بني في مقبرة سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور، أو كان مكشوفًا، وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي مرثد: «**لا تصلوا إلىٰ القبور**»[(٥٢١)]. وقال ابن القيم: وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن الرسول مقاصده، جزم جزما لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغة: «**لا تفعلوا**»«**إني أنهاكم**» ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحق بمن عصاه؛ فإن هذا وأمثاله صيانة منه لحمىٰ التوحيد أن يلحقه الشرك، وغضب لربه أن يعدل به سواه» اهـ.

وقد وقع بسبب البناء علىٰ القبور من المفاسد التي لا يحيط بها علىٰ التفصيل إلا الله، ما يغضب لله من أجله من في قلبه رائحة إيمان، ولقد أبدىٰ ﷺ وأعاد، وحذَّر من ذلك، حتىٰ في النزع سدًّا لذريعة الشرك قبل وقوعه، وتحذيرًا للناس منه، وقد طبق العالم اليوم، وعادت الجاهلية الأولىٰ، بل زادوا عليهم دعاءهم في الشدائد، واعتقاد النفع والضر فيهم من دون الله عز وجل؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

❁ **قوله: «ورواه أبو حاتم في صحيحه»:**

أبو حاتم هو محمد بن حبان، تقدمت ترجمته، وأن أصح ما صنف في الصحيح بعد «الصحيحين» «صحيح ابن خزيمة» «فابن حبان» «الحاكم».

---

(٥٢٠) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه، برقم (٩٧٠)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥٢١) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه، برقم (٩٧٢)، والنسائي، كتاب: القبلة، باب: النهي عن الصلاة إلىٰ القبر، برقم (٧٦٠)، وغيرهما من حديث أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه.

قال العلامة ابن سعدي:

قوله: «باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح؛ فكيف إذا عبده؟!»(٥٢٢):

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله.

ما ذكر المصنف في البابين يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شدِّ رحل، يزورها المسلم متبعًا للسنة فيدعو لأهلها عمومًا ولأقاربه ومعارفه خصوصًا؛ فيكون محسنًا إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسنًا إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان:

أحدهما: محرم ووسيلة للشرك؛ كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها والصلاة عندها، وكإسراجها والبناء عليها، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنوع الثاني: شرك أكبر: كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر، وهو عين ما يفعله عُبَّاد الأصنام مع أصنامهم.

ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه، أو متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزُّمَر:٣]﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس:١٨]. فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم لم يكفر. من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة: من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر، في الحالين المذكورين، سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين. وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام.

---

(٥٢٢) دمج الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بين شرحه لهذا الباب والباب الذي بعده.. فتنبه.

فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به الفرقان في هذا الباب المهم الذي حصل به من الاضطراب والفتنة ما حصل، ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده»:

هذا باب عظيم كالذي قبله ما جاء من الأدلة في التغليظ فإن كانت الأدلة جاءت بإنكار عبادة الله عند قبور الصالحين فكيف إذا عبده واتخذه إلهًا من دون الله؟! فالتغليظ يكون أشد لأن الأول وسيلة والثاني شرك أكبر.

قوله: **«وفي «الصحيح» عن عائشة أن أم سلمة ذكرت كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور لرسول الله ﷺ فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح....»**.

«**رأت كنيسة**»: لما هاجروا إلى الحبشة رأوا كنيسة معظمة ولها شأن يقال لها مارية فيها صور وتحسينات.

قوله: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح»:

هذا بيان حال النصارى وغلوهم في أمواتهم.

«**صوروا فيها الصور**»؛ أي: صور الرجل الصالح أو له ولأتباعه كما جرى لقوم نوح.

«**أولئك شرار الخلق**»؛ أي: الذين فعلوا هذا الفعل؛ لأنهم فعلوا أسباب الشرك والغالب أنهم يفعلون ذلك؛ لأنهم يعتقدون الشرك. فتعظيمهم القبور والبناية عليها لتُعبد ويُستغاث بها فصاروا بهذا شرار الخلق.

فمن فعل هذا الفعل فقد تشبه بالنصارى وعمل عملهم ومن تشبه بقوم فهو منهم والمقصود من الكلام التحذير من فعلهم وقد وقع في الأمة ذلك، وأعظم من فعله هم الرافضة الذين غلوا في آل البيت وهم أول من بني على القبور وبنوا عليها المساجد وعبدوها من دون الله ثم قلدهم أناس من أهل السنة من كثير من بلاد المسلمين وقد وقع اتباعها للكفار حذو مسافة القذة بالقذة.

قوله: «**فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين**»: فعظموا القبور، وصوروا الصور وكذا من شابههم من هذه الأمة شابهوا النصارى وشابهوا قوم نوح.

❁ **قوله: «لما عنها قالت لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه....»:**

طفق: جعل.

خميصة: كساء.

وهذا من سكرات الموت لسيد الخلق ليرفع به الدرجات وليكون أسوة لأمته.

لعن الله اليهود والنصارى: قالها في مثل هذه الحالة العصيبة ليحذر أمته من فعل ذلك.

«**ولولا ذلك لأبرز قبره**»؛ أي: في البقيع مع أصحابه.

«**غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا**»: لئلا يأتي أناس بعد الصحابة ويبنون عليها مسجدًا، أما الصحابة فلا يفعلونه. وهذا الآن يقع من بعض الجهلة الذين يزورون المسجد يدعون النبي ﷺ لكن من وراء الجدار وهو شرك أكبر.

وهذا يدل على غيرة الصحابة وحرصهم على الأمة؛ فلذلك نقلوا هذه الأحاديث للأمة.

❁ **قوله: «ولمسلم عن جندب مرفوعًا: لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا»:**

الخلة: أعلى من المحبة، وفيه فضل الصديق رضي الله عنه وأنه أفضل الصحابة بالإجماع.

«**ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا**»: فلم يتخذه لئلا تزاحم محبته محبة الله عز وجل.

«**كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد**»: وفي مسلم «أنبيائهم وصالحيهم مساجد» وسقطت اللفظة؛ لأنه نقلها من كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم» وقد سقطت من هناك.

ومنع من هذا بثلاث طرق:

١- ذم ما فعلوه.

٢- قوله: «**لا تتخذوا**».

٣- قوله: «**فإني أنهاكم عن ذلك**».

وهذا مبالغة منه في النهي عن ذلك؛ لأنه وسيلة إلى الشرك كما حصل الآن.

خشى أن يتخذ مسجدًا: لأن الصلاة عند القبور اتخاذ لها مساجد؛ فكل موضع يصلي فيه فهو مسجد كما في الحديث «**وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»[٥٢٣] فإذا صلى عند القبر فقد اتخذ مسجدًا وإن لم يبن، فكيف إذا بني، وهذا من وسائل الشرك؟!

---

(٥٢٣) سابق تخريجه.

❁ **قوله:** «ولأحمد بسند جيد...»:

وقد ورد عن ابن مسعود مرفوعًا: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد**»[٥٢٤]؛ لأن الساعة لا تقوم إلا علىٰ شرار الخلق أما المؤمنون فتقبض أرواحهم قبل ذلك بالريح الطيبة.

والذين يتخذون القبور مساجد: أيضًا من شرار الناس؛ لأنهم يتسببون في وقوع الناس في الشرك والبدع والباطل؛ لأن الناس إذا رأوا هذا قالوا ما دام أنه قد بني علىٰ هذا القبر فهذا القبر يدعي به ويستغاث به.

لا يضر قرب المسجد من المقبرة، وإن فصل بينهم بطريق فهو أولىٰ.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله:** «**التغليظ**»:

التشديد.

قوله: «**من عبد الله عند قبر رجل صالح**»؛ أي: عمل عملًا تعبد لله به من قراءة أو صلاة أو صدقة أو غير ذلك.

قوله: «**فكيف إذا عبده؟**»؛ أي: يكون أشد وأعظم؛ وذلك لأن المقابر والقبور للصالحين أو مَنْ دونهم مِن المسلمين أهلها بحاجة إلىٰ الدعاء؛ فهم يُزارون لينفِعوا لا لينتَفَع بهم إلا باتباع السنة في زيارة المقابر، والثواب الحاصل بذلك، لكن هذا ليس انتفاعًا بأشخاصهم، بل انتفاع بعمل الإنسان نفسه بما أتىٰ به من السنة.

فالزيارة التي يقصد منها الانتفاع بالأموات زيارة بدعية. والزيارة التي يقصد بها نفع الأموات والاعتبار بحالهم زيارة شرعية.

❁ **قوله:** «**في الصحيح**»:

أي: «الصحيحين»، وقد سبق الكلام علىٰ مثل هذه العبارة في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

---

(٥٢٤) سبق تخريجه.

قوله: «أم سلمة»: كانت ممن هاجر مع زوجها إلىٰ أرض الحبشة، ولما توفي زوجها أبو سلمة تزوجها النبي ﷺ، وأخبرته وهو في مرض موته بما رأت، كما في «الصحيح».

قولها: «من الصور»: الظاهر أن هذه الصور صور مجسمة وتماثيل منصوبة.

قوله: «أولئك»: المشار إليهم نصارىٰ الحبشة، ويحتمل أن يراد من فعلوا هذه الأفعال أيًّا كانوا.

وقوله: «أولئك»: يجوز في الكاف الكسر إذا كان الخطاب لأم سلمة، والفتح إذا كان الخطاب باعتبار الجنس. وقد ذكر العلماء أن في كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون مطابقًا للمخاطب المفرد للمفرد والمثنىٰ للمثنىٰ والجمع للجمع، مذكرًا كان أم مؤنثًا.

الوجه الثاني: الفتح مطلقًا.

الوجه الثالث: الكسر للمؤنث مطلقًا، والفتح للمذكر مطلقًا.

وأشهرها: أن يكون مطابقًا للمخاطب، ثم الفتح مطلقًا، ثم الفتح للمذكر، والكسر للمؤنث.

قوله: «**الرجل الصالح أو العبد الصالح**»: «**أو**»: شكٌّ من الراوي.

✿ **قوله**: «بنوا علىٰ قبره»:

أي: قبر ذلك الرجل الصالح.

قوله: «**صوروا فيه تلك الصور**»؛ أي: التي رأت، والأقرب أنها صورة ذلك الرجل الصالح، وربما أنهم يضيفون إلىٰ صورته صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور علىٰ أحجام مختلفة، فتجتمع منها صور كثيرة.

قوله: «**أولئك شرار الخلق عند الله**»؛ لأن عملهم هذا وسيلة إلىٰ الكفر والشرك، وهذا أعظم الظلم وأشده، فما كان وسيلة إليه؛ فإن صاحبه جدير بأن يكون من شرار الخلق عند الله سبحانه وتعالىٰ.

✿ **قوله**: «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل»:

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: «**فتنة القبور**»؛ لأنهم بنوا المساجد عليها.

قوله: «**فتنة التماثيل**»؛ لأنهم صوروا فجمعوا بين فتنتين، وإنما سمي ذلك فتنة؛ لأنها سبب لصد الناس عن دينهم، وكل ما كان كذلك، فإنه من الفتنة، قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[العنكبوت:١، ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[البروج:١٠]؛ أي: صدوهم، أو فعلوا ما يصدونهم به عن دين الله.

قوله: «**ولهما عنها**»:

الضمير يعود علىٰ البخاري ومسلم، وإن لم يسبق لهما ذكر، لكنه لما كان ذلك مصطلحًا معروفًا؛ صح أن يعود الضمير عليهما، وهما لم يذكرا اعتمادًا علىٰ المعروف المعهود.

وقوله: «**عنها**»؛ أي: عن عائشة.

قالت: «**لما نزل برسول الله**»؛ أي: نزل به ملك الموت لقبض روحه.

قوله: «**طفق**»: من أفعال المشروع، واسمها مستتر، وجملة «**يطرح**» خبرها.

قوله: «**خميصة**»: هي كساء مربع له أعلام كان يطرحه النبي ﷺ علىٰ وجهه.

قوله: «**فإذا اغتم بها**»؛ أي: أصابه الغم بسببها، وقد احتضر ﷺ.

قوله: «**وهو كذلك**»؛ أي: وهو في هذه الحال عند الاحتضار.

قوله: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»: يقول هذا في سياق الموت، و«**لعنة الله**»؛ أي: طرده وإبعاده، وهذه الجملة يُحتمل أنه يُراد بها ظاهر اللفظ؛ أي: أن النبي ﷺ يخبر بأن الله لعنهم. ويُحتمل أن يراد بها الدعاء؛ فتكون خبرية لفظًا إنشائية معنًىٰ، والمعنىٰ علىٰ هذا الاحتمال أن النبي ﷺ دعا عليهم وهو في سياق الموت بسبب هذا الفعل.

قوله: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»: الجملة هذه تعليل لقوله: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ**»، كأن قائلًا يقول: لماذا لعنهم النبي ﷺ فكان الجواب: أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ أي: أمكنة للسجود، سواء بنوا مساجد أم لا، يصلون ويعبدون الله تعالىٰ فيها مع أنها مبينة علىٰ القبور.

قوله: «**يُحذر ما صنعوا**»؛ أي: إنه ﷺ قال ذلك في سياق الموت تحذيرًا لأمته مما صنع هؤلاء؛ لأنه علم أنه سيموت وأنه ربما يحصل هذا ولو في المستقبل البعيد.

قوله: «ولولا ذلك أبرز قبره»:

أبرز؛ أي: أخرج من بيته؛ لأن البروز معناه الظهور، أي لولّا التحذير وخوف أن يُتخذ قبره مسجدًا؛ لأخرج ودفن في البقيع مثلًا، لكنه في بيته أصون له، وأبعد عن اتخاذه مسجدًا؛ فلهذا لم يبرز قبره، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت أن لا يبرز مكان قبره ﷺ.

ومن أسباب ذلك: إخباره ﷺ أنه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض[٥٢٥] ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أن السبب الواحد قد يترتب عليه حكمان أو أكثر؛ كغروب الشمس يترتب عليه جواز إفطار الصائم، وصلاة المغرب.

قوله: «غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا»: خشي فيها روايتان: خُشي، وخَشي.

فعلىٰ رواية «خُشي» يكون الذي وقعت منهم الخشية الصحابة رضي الله عنهم.

وعلىٰ رواية «خَشي» يكون الذي وقعت منه الخشية النبي ﷺ.

والحقيقة أن الأمر كله حاصل؛ فالرسول ﷺ أخبر بأنه ما قُبض نبي إلا دفن حيث قُبض، ولعن اليهود والنصارىٰ؛ لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفًا من اتخاذ قبره مسجدًا، والصحابة رضي الله عنهم اتفقوا علىٰ أن يُدفن ﷺ في بيته بعد تشاورهم؛ لأنهم خشوْا ذلك.

ويجوز أن يكون بعضهم أشار بأن يدفن في بيته، وليس في ذهنه إلا هذه الخشية، وبعضهم أشار أن يدفن في بيته وعنده علم بأنه ﷺ قال: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض»، وخوفًا من اتخاذه مسجدًا.

في هذا الحديث والحديث السابق: التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وهم أفضل الصالحين؛ لأن مرتبة النبيين هي المرتبة الأولىٰ من المراتب الأربع التي قال الله تعالىٰ عنها: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]

---

(٥٢٥) أخرجه أبو يعلىٰ، برقم (٢٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة»، برقم (٣٢٣٥)، وغيرهما من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

اعتراض وجوابه:

إذا قال قائل: نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول ﷺ الآن، فإنه في وسط المسجد، فما هو الجواب؟ **قلنا:** الجواب علىٰ ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن المسجد لم يبن علىٰ القبر، بل بني المسجد في حياة النبي ﷺ.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد حتىٰ يُقال: إن هذا من دفن الصالحين في المسجد، بل دفن في بيته.

الوجه الثالث: أن إدخال بيوت الرسول ﷺ ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل، وذلك عام ٩٤هـ تقريبًا، فليس مما أجازه الصحابة أو أجمعوا عليه، مع أن بعضهم خالف في ذلك، وممن خالف أيضًا سعيد بن المسيب من التابعين؛ فلم يرض بهذا العمل.

الوجه الرابع: أن القبر ليس في المسجد، حتىٰ بعد إدخاله؛ لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد؛ فليس المسجد مبنيًّا عليه؛ ولهذا جعل هذا المكان محفوظًا ومحوطًا بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة؛ أي: مثلث، والركن في الزاوية الشمالية، بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلىٰ لأنه منحرف.

فبهذا كله يزول الإشكال الذي يحتج به أهل القبور، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلىٰ اليوم، والمسلمون قد أقروه ولم ينكروه؛ فنقول: إن الإنكار قد وجد حتىٰ في زمن التابعين، وليس محل إجماع، وعلىٰ فرض أنه إجماع؛ فقد تبين الفرق من الوجوه الأربعة التي ذكرناها.

۞ **قوله:** «**بخمس**»:

أي: خمس ليال، لكن العرب تطلقها علىٰ الأيام والليالي.

قوله: «**أبرأ**»: البراءة: هي التخلي؛ أي: أتخلىٰ أن يكون لي منكم خليل.

قوله: «**خليل**»: هو الذي يبلغ في الحب غايته؛ لأن حبه يكون قد تخلل الجسم كله، قال الشاعر يخاطب محبوبته:

قد تخللت مسلك الروح مني وبهذا سمي الخليل خليلًا

والخُلة أعظم أنواع المحبة وأعلاها، ولم يثبتها الله ﷻ فيما نعلم إلا لاثنين من خلقه، وهما: إبراهيم في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، ومحمد لقوله ﷺ: «إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا».

وبهذا تعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة: إن إبراهيم خليل الله، ومحمدًا حبيب الله، وهذا تنقص في حق الرسول ﷺ؛ لأنهم بهذه المقالة جعلوا مرتبة النبي ﷺ دون مرتبة إبراهيم، ولأنهم إذا جعلوه حبيب الله لم يفرقوا بينه وبين غيره من الناس؛ فإن الله يحب المحسنين والصابرين، وغيرهم ممن علق الله بفعلهم المحبة؛ فعلىٰ رأيهم لا فرق بين الرسول ﷺ وغيره، لكن الخلة ما ذكرها الله إلا لإبراهيم، والنبي ﷺ أخبر أن الله اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا.

فالمهم: أن العامة مشكل أمرهم، دائمًا يصفون الرسول ﷺ بأنه حبيب الله، فنقول: أخطأتم وتنقصتم نبيكم؛ فالرسول خليل الله؛ لأنكم إذا وصفتموه بالمحبة أنزلتموه عن بلوغ غايتها.

قوله: «**فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا**»، هذا تعليل لقوله: «**إني أبرأ إلىٰ الله أن يكون لي منكم خليل**»؛ فالنبي ﷺ ليس في قلبه خلة لأحد إلا لله ﷻ.

❁ **قوله: «ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا»:**

وهذا نص صريح علىٰ أن أبا بكر أفضل من علي رضي الله عنهما، وفي هذا ردٌّ علىٰ الرافضة الذين يزعمون أن عليًّا أفضل من أبي بكر.

وقوله: «**لو**»، حرف امتناع لامتناع، فيمتنع الجواب لامتناع الشرط، وعلىٰ هذا امتنع ﷺ من اتخاذ أبي بكر خليلًا؛ لأنه يمتنع أن يتخذ من أمته خليلًا.

قوله: «**ألا وإن من كان قبلكم**» «**ألا**»: للتنبيه، وهذه الجملة في أثناء الحديث لكنه ابتدأها بالتنبيه لأهمية المقام.

قوله: «**ألا فلا تتخذوا**»، هذا تنبيه آخر للنهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره.

❁ **قوله: «فإني أنهاكم عن ذلك»:**

هذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيدًا لهذا النهي لأهمية المقام.

من فوائد الحديث:

١- أن النبي ﷺ تبرأ من أن يتخذ أحدًا خليلًا؛ لأن قلبه مملوء بمحبة الله تعالىٰ.

٢- أن الله تعالىٰ اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا؛ ففيه فضيلة لرسول الله ﷺ.

٣- فضيلة إبراهيم ﷺ باتخاذه خليلًا.

٤- فضيلة أبي بكر، وأنه أفضل الصحابة؛ لأن الحديث يدل علىٰ أنه أحب الصحابة إلىٰ الرسول ﷺ

٥- التحذير من اتخاذ القبور مساجد في قوله: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**»، وقوله: «**فإني أنهاكم عن ذلك**».

٦- أن من دفن شخصًا في مسجد وجب عليه نبشه وإخراجه من المسجد.

٧- حرص النبي ﷺ علىٰ أمته في إبعادهم عن الشرك وأسبابه؛ لأن اتخاذ القبور مساجد من وسائل الشرك وذرائعه؛ ولهذا حرص النبي ﷺ علىٰ تحذير أمته منه، وهذا من كمال رأفته ورحمته بالأمة.

٨- أن من بنىٰ مسجدًا علىٰ قبرٍ وجب عليه هدمه.

❁ **قوله: «فقد نهي عنه في آخر حياته...»:**

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقوله: «**فقد نهي عنه في آخر حياته**»: الضمير يعود إلىٰ النبي ﷺ، والمنهي عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

قوله: «**ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله**»؛ فالنبي ﷺ وهو عند فراق الدنيا لعن من اتخذ القبور مساجد.

قوله: «**والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد**»: «**عندها**»؛ أي: القبور، وقوله: «**من ذلك**»؛ أي: من اتخاذها مساجد، وعلىٰ هذا؛ فلا تجوز الصلاة عند القبور؛ ولهذا نهىٰ النبي ﷺ، كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي مرثد الغنوي أن يُصلىٰ إلىٰ القبور؛ فقال: «**لا تصلوا إلىٰ القبور**».

❁ **قوله: «وهو معنىٰ قولها: خشي أن يتخذ مسجدًا»:**

الضمير في «قولها» يرجع إلىٰ عائشة رضي الله عنها.

قوله: «**فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا**»: هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ.

قد يقال: «خَشي أن يُتخذ مسجدًا» معناه: خَشي أن يُبنىٰ عليه مسجد، لكن يبعده أن الصحابة لا يمكن أن يبنوا حول قبره مسجدًا؛ لأن مسجده مجاور لبيته؛ فكيف يبنون مسجدًا آخر؟! هذا شيء مستحيل بحسب العادة؛ فبكون معنىٰ قولها: «خشي أن يتخذ مسجدًا»؛ أي: مكانًا يُصلىٰ فيه، وإن لم يُبن المسجد.

ولا ريب أن أصل تحريم بناء المساجد علىٰ القبور أن المساجد مكان الصلاة، والناس يأتون إليها للصلاة فيها، فإذا صلىٰ الناس في مسجد بني علىٰ قبر؛ فكأنهم صلوا عند القبر، والمحذور الذي يوجد في بناء المساجد علىٰ القبور يوجد فيما إذا اتخذ هذا المكان للصلاة؛ وإن لم يبن مسجد.

فتبين بهذا أن اتخاذ القبور مساجد له معنيان:

الأول: أن تبنىٰ عليها مساجد.

الثاني: أن تتخذ مكانًا للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد، فإذا كان هؤلاء القوم مثلًا يذهبون إلىٰ هذا القبر ويصلون عنده ويتخذونه مصلىٰ؛ فإن هذا بمعنىٰ بناء المساجد عليها، وهو أيضًا من اتخاذها مساجد.

❁ **قوله**: «بل كل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا»

وهذا يشهد له العرف؛ فإن الناس الذين لهم مساجد في مكان أعمالهم؛ كالوزارات والإدارات لو سألت واحدًا منهم أين المسجد؟ لأشار إلىٰ المكان الذي اتخذوه مصلىٰ يصلون فيه، مع أنه لم يبن، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه؛ صار يسمَّىٰ مسجدًا.

❁ **قوله**: «بل كل موضع يصلىٰ...»

فقوله: «مسجدًا»؛ أي: مكانًا للسجود، وهذا معنىٰ ثالث زائد علىٰ المعنيين الأولين، وهو أن يقال: كل شيء تصلي فيه؛ فإنه مسجد ما دمت تصلي فيه؛ كما يُقال للسجادة التي تُصلي عليها مسجد أو مُصلًّىٰ وإن كان الغالب عليها اسم مُصلًّىٰ.

الخلاصة:

إنه لا يجوز بناء المساجد علىٰ القبور؛ لأنها وسيلة إلىٰ الشرك، وهو عبادة صاحب القبر، ولا يجوز أيضًا أن تُقصد القبور للصلاة عندها، وهذا من اتخاذها مساجد؛ لأن العلة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها، فلو فُرِض أن رجلًا يذهب إلىٰ المقبرة ويصلي عند قبر ولي من

١- أن النبي ﷺ تبرأ من أن يتخذ أحدًا خليلًا؛ لأن قلبه مملوء بمحبة الله تعالىٰ.

٢- أن الله تعالىٰ اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا؛ ففيه فضيلة لرسول الله ﷺ.

٣- فضيلة إبراهيم ﷺ باتخاذه خليلًا.

٤- فضيلة أبي بكر، وأنه أفضل الصحابة؛ لأن الحديث يدل علىٰ أنه أحب الصحابة إلىٰ الرسول ﷺ

٥- التحذير من اتخاذ القبور مساجد في قوله: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**»، وقوله: «**فإني أنهاكم عن ذلك**».

٦- أن من دفن شخصًا في مسجد وجب عليه نبشه وإخراجه من المسجد.

٧- حرص النبي ﷺ علىٰ أمته في إبعادهم عن الشرك وأسبابه؛ لأن اتخاذ القبور مساجد من وسائل الشرك وذرائعه؛ ولهذا حرص النبي ﷺ علىٰ تحذير أمته منه، وهذا من كمال رأفته ورحمته بالأمة.

٨- أن من بنىٰ مسجدًا علىٰ قبرٍ وجب عليه هدمه.

❁ **قوله: «فقد نهي عنه في آخر حياته...»:**

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقوله: «فقد نهي عنه في آخر حياته»: الضمير يعود إلىٰ النبي ﷺ، والمنهي عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

قوله: «**ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله**»؛ فالنبي ﷺ وهو عند فراق الدنيا لعن من اتخذ القبور مساجد.

قوله: «والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد»: «**عندها**»؛ أي: القبور، وقوله: «**من ذلك**»؛ أي: من اتخاذها مساجد، وعلىٰ هذا؛ فلا تجوز الصلاة عند القبور؛ ولهذا نهىٰ النبي ﷺ، كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي مرثد الغنوي أن يُصلىٰ إلىٰ القبور؛ فقال: «**لا تصلوا إلىٰ القبور**».

❁ **قوله: «وهو معنىٰ قولها: خشي أن يتخذ مسجدًا»:**

الضمير في «قولها» يرجع إلىٰ عائشة رضي الله عنها.

قوله: «**فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا**»: هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ.

قد يقال: «**خَشي أن يُتخذ مسجدًا**» معناه: خَشي أن يُبنىٰ عليه مسجد، لكن يبعده أن الصحابة لا يمكن أن يبنوا حول قبره مسجدًا؛ لأن مسجده مجاور لبيته؛ فكيف يبنون مسجدًا آخر؟! هذا شيء مستحيل بحسب العادة؛ فيكون معنىٰ قولها: «**خشي أن يتخذ مسجدًا**»؛ أي: مكانًا يُصلىٰ فيه، وإن لم يُبن المسجد.

ولا ريب أن أصل تحريم بناء المساجد علىٰ القبور أن المساجد مكان الصلاة، والناس يأتون إليها للصلاة فيها، فإذا صلىٰ الناس في مسجد بني علىٰ قبر؛ فكأنهم صلوا عند القبر، والمحذور الذي يوجد في بناء المساجد علىٰ القبور يوجد فيها إذا اتخذ هذا المكان للصلاة؛ وإن لم يبن مسجد.

فتبين بهذا أن اتخاذ القبور مساجد له معنيان:

الأول: أن تبنىٰ عليها مساجد.

الثاني: أن تتخذ مكانًا للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد، فإذا كان هؤلاء القوم مثلًا يذهبون إلىٰ هذا القبر ويصلون عنده ويتخذونه مصلىٰ؛ فإن هذا بمعنىٰ بناء المساجد عليها، وهو أيضًا من اتخاذها مساجد.

❁ **قوله**: «بل كل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا».

وهذا يشهد له العرف؛ فإن الناس الذين لهم مساجد في مكان أعمالهم؛ كالوزارات والإدارات لو سألت واحدًا منهم أين المسجد؟ لأشار إلىٰ المكان الذي اتخذوه مصلىٰ يصلون فيه، مع أنه لم يبن، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه؛ صار يسمَّىٰ مسجدًا.

❁ **قوله**: «بل كل موضع يصلىٰ...».

فقوله: «**مسجدًا**»؛ أي: مكانًا للسجود، وهذا معنىٰ ثالث زائد علىٰ المعنيين الأولين، وهو أن يقال: كل شيء تصلي فيه؛ فإنه مسجد ما دمت تصلي فيه؛ كما يُقال للسجادة التي تُصلي عليها مسجد أو مُصلًّىٰ وإن كان الغالب عليها اسم مُصلًّىٰ.

الخلاصة:

إنه لا يجوز بناء المساجد علىٰ القبور؛ لأنها وسيلة إلىٰ الشرك، وهو عبادة صاحب القبر، ولا يجوز أيضًا أن تُقصد القبور للصلاة عندها، وهذا من اتخاذها مساجد؛ لأن العلة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها، فلو فُرِض أن رجلًا يذهب إلىٰ المقبرة ويصلي عند قبر ولي من

الأولياء على زعمه؛ قلنا: إنك اتخذت هذا القبر مسجدًا، وإنك مستحق لما استحقه اليهود والنصارى من اللعنة، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيمية دليل على صحة تسمية كل شيء يصلَّى فيه مسجدًا بالمعنى العام.

قوله: «مرفوعًا»:

المرفوع: ما أسند إلى النبي ﷺ.

قوله: «**إن من شرار الناس**»: «مَن»: للتبعيض، وشرار: جمع شر، مثل صحاب جمع صحب، والمعنى: أصحاب الشر، وفي هذا دليل على أن الناس يتفاوتون في الشر، وأن بعضهم أشد من بعض.

قوله: «**من تدركهم الساعة**»: «من»: اسم موصول اسم «إن»، والساعة؛ أي: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها داهية، وكل شيء داهية عظيمة يُسمَّى ساعة، كما يقال: هذه ساعتك في الأمور الداهية التي تصيب الإنسان.

قوله: «**وهم أحياء**»: الجملة حال من «الهاء» في «**تدركهم**».

وفي قوله: «**تدركهم الساعة وهم أحياء**» إشكال، وهو أنه ثبت عن النبي ﷺ قوله: «**لا تزل طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله**»[٥٢٦] وفي رواية: «**حتى تقوم الساعة**»[٥٢٧]؛ فكيف نوفق بين الحديثين؛ لأن ظاهر الحديث الذي ساقه المؤلف أن كل من تدركهم الساعة وهم أحياء؛ فهم من شرار الخلق؟!

والجمع بينهما أن يقال: إن المراد بقوله: «**حتى تقوم الساعة**»؛ أي: إلى قُرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل؛ لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق؛ فالله يرسل ريحًا تقبض نفس كل مؤمن ولا يبقى إلى شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة.

---

(٥٢٦) أخرجه -بمعناه- البخاري، كتاب: المناقب، باب: سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، برقم (٣٦٤١) من حديث معاوية رضي الله عنه، ورواه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، برقم (١٩٢٠)، وغيره من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٥٢٧) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، وغيره، برقم (١٩٢٢)، وغيره من حديث جابر رضي الله عنه.

قوله: «الذين يتخذون القبور مساجد»:

فهم من شرار الخلق، وإن لم يشركوا؛ لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك، والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها، لكنها تعطىٰ حكمها بالمعنىٰ العام، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة، وإن كانت وسيلة لمحرم؛ فهي محرمة.

فشر الناس في هذا الحديث ينقسمون إلىٰ صنفين:

الأول: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد.

وفي قوله ﷺ: «**إن من شرار الناس**» دليل علىٰ أن الناس يتفاوتون في الشر؛ لأن بعضهم أشد من بعض فيه، كما أنهم يتفاوتون في الخير أيضًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[آل عمران:١٦٣]، وذلك من حيث الكمية؛ فمن صلىٰ ركعتين، فليس كمن صلىٰ أربعًا، ومن حيث الكيفية؛ فمن صلىٰ وهو قانت خاشع حاضر القلب؛ ليس كمن صلىٰ وهو غافل، ومن حيث النوعية؛ فالفرض أفضل من النفل، وجنس الصلاة أفضل من جنس الصدقة؛ لأن الصلاة أفضل الأعمال البدنية.

وهذا الذي تدل عليه الأدلة هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو التفاضل في الأعمال، حتىٰ في الإيمان الذي هو في القلب يتفاضل الناس فيه، بل إن الإنسان يحس في نفسه أنه في بعض الأحيان يجد في قلبه من الإيمان ما لا يجده في بعض الأحيان، فكيف بين شخص وشخص؟ فهو يتفاضل أكثر.

وخلاصة الباب:

أنه يجب البعد عن الشرك ووسائله، ويغلظ علىٰ من عبد الله عند قبر رجل صالح، وكلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: «**فيمن عبد الله**» يشمل الصلاة وغيرها، والأحاديث التي ساقها في الصلاة، لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأنه قاس غيرها عليها، فمن زعم أن الصدقة عند هذا القبر أفضل من غيره؛ فهو شبيه بمن اتخذه مسجدًا؛ لأنه يرىٰ أن لهذه البقعة أو لمن فيها شأنًا يفضل به علىٰ غيره، فالشيخ عمم، والدليل خاص.

فإن قيل: لا يستدل بالدليل الخاص علىٰ العام؟

أجيب: إن الشيخ أراد بذلك أن العلة هي تعظيم هذا المكان؛ لكونه قبرًا، وهذا كما يوجد في الصلاة يوجد في غيرها من العبادات؛ فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شمول النص له لفظًا.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولىٰ: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنىٰ مسجدًا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل: تؤخذ من لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قوله: «**ولو صحت نية الفاعل**»؛ لأن الحكم عُلق علىٰ مجرد صورته؛ فهذا العمل لا يحتاج إلىٰ نية لأنه مُعلق بمجرد الفعل؛ فالنية تؤثر في الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثر في الأعمال التي لا يقدر عليها فيعطىٰ أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما علق علىٰ فعل مجرد، فلا حاجة فيه إلىٰ النية؛ أي: ولو كان يعبد الله، ولو كان يريد التقرب إلىٰ الله ببناء هذا المسجد اعتبارًا بما يئول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التي تترتب علىٰ ذلك، وهذه النقطة نتدرج منها إلىٰ نقطة أخرىٰ، وهي التحذير من مشابهة المشركين وإن لم يقصد الإنسان المشابهة، وهذه قد تخفىٰ علىٰ بعض الناس، حيث يظن أن التشبه إنما يحرم إذا قصدت المشابهة، والشرع إنما علق الحكم بالتشبه؛ أي: بأن يفعل ما يشبه فعلهم، سواء قصد أو لم يقصد؛ ولهذا قال العلماء في مسألة التشبه: وإن لم ينو ذلك، فإن التشبه يحصل بمطلق الصورة.

فإن قيل: قاعدة «**إنما الأعمال بالنيات**» هل تعارض ما ذكرنا؟

الجواب: لا تعارضه؛ لأن ما عُلق بالعمل ثبت له حكمه وإن لم ينو الفعل، كالأشياء المحرمة، كالظهار، والزنا، وما أشبهها.

الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك: تؤخذ من قوله: «**وصوروا فيه تلك الصور**»، ولا سيما إذا كانت هذه الصور معظمة عادةً، كالرؤساء، والزعماء، والأب، والأخ، والعم. أو شرعًا، مثل: الأولياء، والصالحين، والأنبياء، وما أشبه ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك، كيف بيّن لهم هذا أولًا، ثم قبل موته بخمس قال ما قال؟! ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم:

وهذا مما يدل علىٰ حرص النبي ﷺ علىٰ حماية جانب التوحيد؛ لأنه خلاصة دعوة الرسل، ولأن التوحيد أعظم الطاعات؛ فالمعاصي ولو كبرت أهون من الشرك، حتىٰ قال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا(٥٢٨)؛ لأن الحلف بغيره نوع من الشرك، والحلف بالله كاذبًا معصية، وهي أهون من الشرك.

---

(٥٢٨) أخرجه الطبراني، برقم (٨٩٠٢)، وعبد الرزاق، برقم (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة، برقم (١٢٢٨١)، عن ابن مسعود موقوفًا، وعند عبد الرزاق شك من وبرة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود أو عن ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، برقم (٢٩٥٣).

فالشرك أمره عظيم جدًّا، ونحن نحذر إخواننا المسلمين مما هم عليه الآن من الانكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خلقوا له، واشتغلوا بما خُلق لهم؛ فعامة الناس الآن تجدهم مشتغلين بالدنيا، ليس في أفكارهم إلا الدنيا قائمين وقاعدين ونائمين ومستيقظين، وهذا في الحقيقة نوع من الشرك؛ لأنه يوجب الغفلة عن الله ﷻ؛ ولهذا سمى النبي ﷺ من فعل ذلك عبدًا لما تعبد له، فقال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة**»[٥٢٩] ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قُدر له من الدنيا؛ فالدنيا وسيلة وليست غاية، وتعس من جعلها غايةً، كيف تجعلها غاية وأنت لا تدري مقامك فيها؟! وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان؛ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساءُ ويوم نُسر

فالحاصل: أن النبي ﷺ بعث لتحقيق عبادة الله؛ ولهذا كان حريصًا على سد كل الأبواب التي تؤدي إلى الشرك؛ فالرسول ﷺ حذر من اتخاذ القبور مساجد ثلاث مرات:

الأولى: في سائر حياته.

والثانية: قبل موته بخمس.

والثالثة: وهو في السياق.

الرابعة: **نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر**: تؤخذ من قوله: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**»؛ فإن قبره داخل في ذلك بلا شك، بل أول ما يدخل فيه.

الخامسة: **أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم**: تؤخذ من قوله ﷺ «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وبئس رجلًا جعل إمامه اليهود والنصارى وتشبه بهم في قبيح أعمالهم.

السادسة: **لعنه إياهم على ذلك**، تؤخذ من قوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**».

السابعة: **أن مراده تحذيره إيَّانا عن قبره**. تؤخذ من قول عائشة: «**يُحذر ما صنعوا**»؛ أي: ما صنعه اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

---

(٥٢٩) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله، برقم (٢٨٨٧)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره: تؤخذ من قول عائشة: «**ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا**».

هناك علة أخرى، وهي: إخباره بأنه ما من نبي يموت، إلا دفن حيث يموت ولا يمتنع أن يكون للحكم علتان، كما لا يمتنع أن يكون للعلة حكمان.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجدًا: سبق أن ذكرنا أن لها معنيين:

١- بناء المساجد عليها.

٢- اتخاذها مكانًا للصلاة تقصد فيصلى عندها، بل إن من صلى عندها ولم يتخذها للصلاة، فقد اتخذها مسجدًا بالمعنى العام.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجدًا وبين من تقوم عليه الساعة؛ فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته: ومعنى هذا أن الرسول ﷺ ذكر التحذير من الشرك قبل أن يموت.

وقوله: «**مع خاتمته**»، وهي: أن من تقوم عليهم شرار الخلق والذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء، هؤلاء الكفار، والذين يتخذون القبور مساجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس الرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع.

قوله: «**قبل أن يموت بخمس**»؛ أي: خمس ليالٍ، والعرب يعبرون عن الأيام بالليالي وبالعكس.

قوله: «**أشر أهل البدع**»: يقال: أشر، ويقال: شر، بحذف «الهمزة»، وهو الأكثر استعمالًا. وإنما تكلم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حال **الرافضة** والجهمية وحكمهما قبل ذكر اسمهما من أجل تهييج النفس على معرفتهما والاطلاع عليهما؛ لأن الإنسان إذا ذكر له الحكم والوصف قبل ذكر الموصوف والمحكوم عليه؛ صارت نفسه تتطلع وتتشوق إلى هذا، فلو قال من أول الكلام: الرد على الرافضة والجهمية؛ فلا يكون للإنسان التشوق مثل ما لو تكلم عن حالهما وحكمهما أولًا.

وحالهما: أنهما أشر أهل البدع.

وحكمهم: أن بعض أهل العلم أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة.

والرافضة: اسم فاعل من رفض الشيء إذا استبعده، وسموا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما، وقال: هما وزيرا جدي. فرفضوه وتركوه، وكانوا في السابق معه، لكن لما قال الحق المخالف لأهوائهم؛ نفروا منه والعياذ بالله، فسموا رافضة.

وأصل مذهبهم من عبدالله بن سبأ، وهو يهودي تلبَّس بالإسلام، فأظهر التشيع لآل البيت والغلو فيهم ليشغل الناس عن دين الإسلام ويفسده كما أفسد بولص دين النصارىٰ عندما تلبس بالنصرانية. وأول ما أظهر ابن سبأ بدعته في عهد علي بن أبي طالب، حتىٰ إنه جاءه وقال: أنت الله حقًّا -والعياذ بالله- فأمر علي بالأخدود فحفرت، وأمر بالحطب فجُمع، وبالنار فأوقدت، ثم أحرقهم بها؛ إلا أنه يُقال: إن عبدالله بن سبأ هرب وذهب إلىٰ مصر ونشر بدعته؛ فالله أعلم.

فالمهم أن عليًّا ﵁ رأىٰ أمرًا لم يحتمله، حيث ادعوا فيه الألوهية فأحرقهم بالنار إحراقًا، ثم بدأت هذه الفرقة الخبيثة تتكاثر؛ لأن شعارها في الحقيقة النفاق الذي يسمونه التقية؛ ولهذا كانت هذه الفرقة أخطر ما يكون علىٰ الإسلام؛ لأنها تتظاهر بالإسلام والدعوة إليه، وتقيم شعائره الظاهرة؛ كتحريم الخمور وما أشبه ذلك، لكنها تناقضه في الباطن؛ فهم يرون أئمتهم آلهة تدير الكون، وأنهم أفضل من الأنبياء والملائكة والأولياء، وأنهم في مرتبة لا ينالها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهؤلاء كيف يصح أن تقبل منهم دعوىٰ الإسلام؛ ولذلك يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية ؒ في كثير من كتبه قولًا إذا اطلع عليه الإنسان عرف حالهم: إنهم أشد الناس ضررًا علىٰ الإسلام، وأنهم هجروا المساجد وعمروا المشاهد. فهم يقولون: لا نُصلي جماعةً إلا خلف إمام معصوم ولا معصوم الآن، وهم أول من بنىٰ المشاهد علىٰ القبور كما قال الشيخ هنا، ورموا أفضل أتباع الرسول علىٰ الإطلاق -وهما أبو بكر وعمر- بالنفاق، وإنهما ماتا علىٰ ذلك، كعبد الله بن أُبي بن سلول وأشباهه والعياذ بالله، فانظر بماذا تحكم علىٰ هؤلاء بعد معرفة معتقدهم ومنهجهم؟!

وأما الجهمية: فهم أتباع الجهم بن صفوان، وأول بدعته أنه أنكر صفات الله، وقال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسىٰ تكليمًا؛ فأنكر المحبة والكلام، ثم بدأت هذه البدعة تنتشر وتتسع، فاعتنقها طوائف غير الجهمية؛ كالمعتزلة ومتأخري الرافضة؛ لأن الرافضة كانوا بالأول مشبهة؛ ولهذا قال أهل العلم: أول من عُرف بالتشبيه هشام بن الحكم الرافضي، ثم تحولوا من التشبيه إلىٰ التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت الذي أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، فتكون بدعة التعطيل أصلها من اليهود، ثم إن الجهم بن صفوان نشأ في بلاد خراسان، وفيها كثير من الصابئة وعُباد الكواكب والفلاسفة، فأخذ منهم أيضًا ما أخذ، فصارت هذه البدعة مركبة من اليهودية والصابئة والمشركين.

وانتشرت هذه البدعة في الأمة الإسلامية، وهؤلاء الجهمية معطلة في الصفات ينكرون الصفات، ومنهم من أنكر الأسماء مع الصفات، وهذه الأسماء التي يضيفها الله -سبحانه- إلىٰ نفسه جعلوها إضافات وليست حقيقة، أو أنها أسماء لبعض مخلوقاته؛ فالسميع عندهم بمعنىٰ من خلق السمع في غيره والبصير كذلك، وهكذا.

ومنهم من أنكر أن يكون الله متصفًا بالإثبات أو العدم؛ فقالوا: لا يجوز أن نثبت لله صفة أو نفي عنه صفة؛ حتىٰ قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنه موجود ولا إنه معدوم؛ لأننا إن قلنا موجود شبهناه بالموجودات، وإن قلنا بأنه معدوم شبهناه بالمعدومات؛ فنقول: لا موجود ولا معدوم؛ فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، وهذا لا يمكن؛ لأن تقابل الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن ارتفاعهما ولا اجتماعهما، بل لابد أن يوجد أحدهما، فوصف الله بذلك تشبيه له بالممتنعات علىٰ قاعدتهم.

ومذهبهم في القضاء والقدر: الجبر؛ فيقولون: إن الإنسان مجبر علىٰ عمله يعمل بدون اختياره، إن صلىٰ؛ فهو مجبر، وإن قتل؛ فهو مجبر، وهكذا، فعطلوا بذلك حكمة الله لأنه إذا كان كل عامل مجبرًا علىٰ عمله لم يكن هناك حكمة في الثواب والعقاب بل بمجرد المشيئة يعاقب هذا ويثيب هذا، وبذلك عطلوا عن الفاعلين أوصاف المدح والذم، فلا يمكن أن تمدح إنسانًا أو تذمه؛ لأن العاصي مجبر والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنكم إذا قلتم ذلك أثبتم أن الله أظلم الظالمين؛ لأنه كيف يعاقب العاصي وهو مجبر علىٰ المعصية؟ ويثيب الطائع وهو مجبر علىٰ طاعته؟ فيكون أعطىٰ من لا يستحق، وعاقب من لا يستحق، وهذا ظلم.

فقالوا: هذا ليس بظلم؛ لأن الظلم تصرف المالك في غير ملكه، وهذا تصرف من المالك في ملكه يفعل به ما يشاء.

وأجيب: بأنه باطل؛ لأن المالك إذا كان متصفًا بصفات الكمال لن يخلف وعده، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[طه:١١٢]، فلو أخلف هذا الوعد؛ لكان نقصًا في حقه وظلمًا لخلقه، حيث وعدهم فأخلفهم.

ومذهبهم في أسماء الإيمان والدين الإرجاء، فيقولون: إن الإيمان مجرد اعتراف الإنسان بالخالق على الوصف المعطل عن الصفات حسب طريقتهم، وأن الأقوال والأعمال لا مدخل لها في الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص. ومن هذه الأمور الثلاثة قالوا: إن أفسق وأعدل عباد الله في الإيمان سواء، بل قالوا إن فرعون مؤمن كامل الإيمان، وجبريل مؤمن كامل الإيمان، لكن فرعون كفر؛ لأنه ادعى الربوبية لنفسه فقط، فصار ذلك كافرًا.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد ... كالمشط عند تماثل الأسنان

فمذهبهم من أخبث المذاهب إن لم نقل أخبثها، لكن أخبث منه مذهب الرافضة، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إن جميع البدع أصلها من الرافضة. فهم أصل البلية في الإسلام؛ ولهذا قال المؤلف: «**أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة**»، ولعل الصواب من الثلاث والسبعين فرقة، أو أن الصواب أخرجهم إلى الثنتين والسبعين؛ أي: أخرجهم من الثالثة التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه؛ لأن المعروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي من كانت على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله عن هاتين الطائفتين الرافضة والجهمية: «**شر أهل البدع**». وقد قتل الجهم بن صفوان سلمة بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيَّار؛ لأنه أظهر هذا المذهب ونشره.

وقول المؤلف: «**وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد**»؛ ولهذا يجب الحذر من بدعتهم وبدعة الجهمية وغيرها، ولا شك أن البدع دركات بعضها أسفل من بعض؛ فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعًا لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره.

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شده النزع: تؤخذ من قولها: «**طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها**»، وفي هذا دليل على شدة نزعه، وهكذا كاد الرسول ﷺ يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان[٥٣٠] من الناس، وهذا من حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فهو ﷺ شُدِّدَ عليه البلاء في مقابلة دعوته

---

(٥٣٠) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى، باب: أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأول فالأول، برقم (٥٦٤٨)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمنين فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، برقم (٢٥٧١)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأوذي إيذاءً عظيمًا، وكذلك أيضًا فيما يصيبه من الأمراض يضاعف عليه، والحكمة من ذلك لأجل أن ينال أعلىٰ درجات الصبر؛ لأن الإنسان إذا ابتلي بالشر وصبر كان ذلك أرفع لدرجته.

والصبر درجة عالية لا تُنال إلا بوجود أسبابها، ومنها الابتلاء؛ فيصبر ويحتسب حتىٰ ينال درجة الصابرين.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلة: ويدل عليها قولهﷺ: «**إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا**»، ولا شك أن هذه الكرامة عظيمة؛ لأننا لا نعلم أحدًا نال هذه المرتبة إلا رسول اللهﷺ وإبراهيمﷺ.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها علىٰ من المحبة: ودليل ذلك أنهﷺ كان يحب أبا بكر، وكان أحب الناس إليه؛ فأثبت له المحبة، ونفىٰ عنه الخلة، فدل هذا علىٰ أنها أعلىٰ من المحبة، والتصريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضمه إلىٰ غيره؛ فقد ورد من حديث آخر أنه صرح: «**بأن أبا بكر أحب الرجال إليه**»[٥٣١] ثم قال هنا «**لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا**» فدل علىٰ أن الخلة أعلىٰ من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة: تؤخذ من قولهﷺ: «**ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا**»، فلو كان غيره أفضل منه عند النبيﷺ؛ لكان أحق بذلك.

ومن المسائل الهامة أيضًا:

أن الأفضلية في الإيمان والعمل الصالح فوق الأفضلية بالنسب؛ لأننا لو راعينا الأفضلية بالنسب؛ لكان حمزة بن عبد المطلب والعباس رضي الله عنهما أحق من أبي بكر في ذلك، ومن ثم قُدم أبو بكر رضي الله عنه علىٰ علي بن أبي طالب وغيره من آل النبيﷺ.

السادسة عشرة: الإشارة إلىٰ خلافته: لم يقل التصريح، وإنما قال: الإشارة؛ لأن النبيﷺ لم يقل: إن أبا بكر هو الخليفة من بعده، لكن لما قال: «**لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا، لاتخذت أبابكر خليلًا**» علم أنه رضي الله عنه أولىٰ الناس برسول اللهﷺ؛ فيكون أحق الناس بخلافته.

---

(٥٣١) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: قول النبيﷺ لو كنت متخذًا خليلًا، برقم (٣٦٦٢)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، برقم (٢٣٨٤)، وغيرهما من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!»:**

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: هي بيان أنَّ عبادة الله عند القبر وسيلة إلىٰ الشرك المنافي للتوحيد.

❁ **قوله: «في الصحيح عن عائشة أن أم سلمة»:**

ترجمة أمِّ سلمة: هي أمُّ المؤمنين هند بنت أبي أمية المخزومية القرشية ماتت سنة ٦٢ هـ ﵄.

«ذكرت للنبي ﷺ»؛ أي: في مرض موته.

«كنيسة»: بفتح «الكاف» وكسر «النون»: معبد النصارىٰ.

«أولئك»: بفتح «الكاف» وكسرها.

«الرجل الصالح أو العبد الصالح»: هذا -والله أعلم- شكٌّ من الراوي.

«تلك الصور»؛ أي: التي ذكرت أم سلمة.

«فهؤلاء... إلخ»: هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، ذكره المصنف كالتوضيح لمعنىٰ الحديث.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أنَّ أمَّ سلمة وصفت عند النبي ﷺوهو في مرض الموت -ما شاهدته في معبد النصارىٰ من صور الآدميين. فبيَّنَ ﷺالسبب الذي من أجله اتخذوا هذه الصور؛ هو الغلو في تعظيم الصالحين؛ مما أدَّىٰ بهم إلىٰ بناء المساجد علىٰ قبورهم، ونصب صورهم فيها، ثم بيَّن حكم من فعل ذلك بأنَّهم شرار الناس؛ لأنهم جمعوا بن محذورين في هذا الصنيع هما: فتنة القبور باتخاذها مساجد، وفتنة تعظيم التماثيل مما يؤدي إلىٰ الشرك.

مناسبة الحديث للباب: أن فيه الدلالة الواضحة علىٰ المنع من عبادة الله عند قبور الصالحين واتخاذها مساجد؛ لأن ذلك من فعل النصارىٰ ومن فعله فهو شرار الخلق..

ما يستفاد من الحديث:

١ - المنع من عبادة الله عند قبور الصالحين؛ لأنه وسيلة إلىٰ الشرك وهو من فعل النصارىٰ.

٢- التحدث عمَّا يفعله الكفار؛ ليحذره المسلمون.

٣- التحذير من التصوير ونصب الصور؛ لأنَّ ذلك وسيلة إلىٰ الشرك.

٤ - أنَّ من بنىٰ مسجدًا عند قبر رجلٍ صالحٍ فهو من شرار الخلق؛ وإن حسنت نيته.

❁ **قوله**: «**ولهما**»:

أي: البخاري ومسلم، وهو يُغني عن قوله في آخره: أخرجاه، فلعله سبق قلمٍ.

«**عنها**»؛ أي: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

«**لما نزل**»: بضم «النون» وكسر «الزاي»؛ أي: نزل به ملك الموت.

«**طفق**»: بكسر «الفاء» وفتحها؛ أي: جعل.

خميصةً: كساء له أعلام؛ أي: خطوط.

«**اغتمَّ بها**»؛ أي: غمته فاحتبس نفسه عن الخروج.

«**كشفها**»؛ أي: أزالها عن وجهه الشريف.

«**فقال وهو كذلك**»؛ أي: في هذه الحالة الحرجة يُقاسي شدة النزع.

«**يحذر ما صنعوا**»؛ أي: لعنهم تحذيرًا لأمته أن تصنع ما صنعوا.

«**ولولا ذلك**»؛ أي: لولا تحذير النبي ﷺ ممَّا صنعوا ولعنُهُ من فعله.

«**لأبرز قبره**»؛ أي: لدفن خارج البيت.

«**خشي**»: يُروىٰ بفتح «الخاء» بالبناء للفاعل فيكون المعنىٰ: أنَّ الرسول ﷺ هو الذي أمرهم بعدم إبراز قبره. ويروىٰ بضم «الخاء» بالبناء للمفعول فيكون المعنىٰ: أنَّ الصحابة هم الذين خشوا فلم يبرزوا قبره.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أنَّ النبي ﷺ حرصًا منه علىٰ حماية التوحيد وتجنيب الأمة ما وقعت فيه الأمم الضالة من الغلو في قبور أنبيائهم حتىٰ آل ذلك بهم إلىٰ الشرك جعل ﷺ وهو في سياق الموت ومقاساة شدة النزع يحذر أمته أن لا يغلو في قبره فيتخذوه مسجدًا يصلون عنده؛ كما فعلت اليهود والنصارىٰ ذلك مع قبور أنبيائهم، فصلىٰ الله وسلم عليه لقد بلَّغ البلاغ المبين.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه المنع من عباد الله عند قبور الأنبياء واتخاذها مساجد؛ لأنَّه يفضي إلىٰ الشرك بالله.

ما يُستفادُ من الحديث:

١- المنع من اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يُصلىٰ فيها الله؛ لأن ذلك وسيلة إلىٰ الشرك.

٢- شدة اهتمام الرسول ﷺ واعتنائه بالتوحيد وخوفه أن يُعظم قبره؛ لأنَّ ذلك يُفضي إلىٰ الشرك.

٣- جواز لعن اليهود والنصارىٰ ومن فعل مثل فعلهم من البناء علىٰ القبور واتخاذها مساجد.

٤- بيان الحكمة من دفن النبيﷺ في بيته، وأنَّ ذلك لمنع الافتتان به.

٥- أنَّ النبيﷺ بشر يجري عليه ما يجري علىٰ البشر من الموت وشدة النزع.

❁ **قوله**: «ولمسلم عن جندب بن عبد الله...»:

التراجم:

١- جندب هو: جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي صحابي مشهور، مات بعد الستين رضي الله عنه.

٢- أبا بكر هو: أبو بكر الصديق: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب التيمي خليفة رسول الله ﷺ وأفضل الصحابة بالإجماع، مات سنة ١٣ وله ٦٣ سنة رضي الله عنه.

بخمس: أي: خمس ليالٍ. وقيل: خمس سنين.

إني أبْرأُ: أي: أمتنع وأنكر.

خليلًا: الخليل هو: المحبوب غاية المحبة.

ألا: حرف استفتاح وتنبيه.

من كن قبلكم: يعني: اليهود والنصارىٰ.

يتخذون قبور أنبيائهم مساجد: بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد والقباب عليها.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يتحدثﷺ قُبيل وفاته إلىٰ أمته بحديثٍ مهم، فيخبر عن مكانته عند الله، وأنها بلغت أعلىٰ درجات المحبة؛ كما نالها أبوه إبراهيم عليه السلام؛ ولذلك نفىٰ أن يكون له خليل غير الله؛ لأن قلبه امتلأ من محبته وتعظيمه ومعرفته؛ فلا يتسع لأحد. ولو كان له خليل من الخلق لكان أبا بكر الصديق، وهو إشارة إلىٰ فضل أبي بكر واستخلافه من بعده. ثم أخبر عن غلو اليهود والنصارىٰ في قبور أنبيائهم حتَّىٰ صيَّروها متعبداتٍ شركيةٍ، ونهىٰ أمته أن يفعلوا مثل فعلهم.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن اتخاذ القبور أمكنةً للعبادة؛ لأنه وسيلة إلىٰ الشرك. كما تفعل اليهود والنصارىٰ وغيرهم من أهل البدع.

• يستفاد من الحديث:

١- النهي عن اتخاذ القبور أمكنةً للعبادة يُصلَّىٰ عندها أو إليها ويُبنىٰ عليها مساجد أو قباب، حذرًا من الوقوع في الشرك بسبب ذلك.

٢- سد الذرائع المفضية إلىٰ الشرك.

٣- إثبات المحبة لله سبحانه علىٰ ما يليق بجلاله.

٤- فضل الخليلين: محمد وإبراهيم عليهما السلام.

٥- فضل أبي بكر الصديق، وأنه أفضل الأمة علىٰ الإطلاق.

٦- أنَّه دليلٌ علىٰ خلافة أبي بكر الصديق.

❁ قوله: «فقد نهىٰ عنه وهو في آخر حياته...»:

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، يوضِّحُ بِهِ ما تَدُلُّ عليه الأحاديث السابقة في الباب.

توضيح كلام ابن تيمية:

فقوله: «**فقد نهىٰ عنه في آخر حياته**»: كما في حديث جندبٍ.

وقوله: «**ثم إنَّه لعن وهو في السياق من فعله**»: كما في حديث عائشة.

وقوله: «**والصلاة عندها من ذلك**»؛ أي: من اتخاذها مساجد.

وقوله: «**وإن لم يبن مسجد**»؛ أي: الصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد الملعون من فعله ولو بدون بناء مساجد.

وقوله: «**وهو معنىٰ قولها: خشي أن يتخذ مسجدًا**»؛ أي: معنىٰ قول عائشة في تعليل دفن النبي ﷺ في بيته وعدم إبراز قبره.

وقوله: «**فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا**»؛ أي: لما علموا من تشديده ﷺ في ذلك وتغليظه ولعن من فعله فيكون المقصود النهي عن الصلاة عندها.

وقوله: «**وكل موضعٍ قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا**»؛ لكونه أُعِدَّ للصلاة وإن لم يبن.

وقوله: «**بل كل موضع يصلىٰ فيه يسمَّىٰ مسجدًا**»؛ أي: وإن لم يقصد بذلك بخصوصه، بل أوقعت فيه الصلاة عرضًا لما حان وقتها فيه.

وقوله: كما قال النبيﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» أراد به الاستدلال للجملة التي قبله، حيث سمَّىﷺ في هذا الحديث الأرض مسجدًا، تجوز الصلاة في كل بقعة منها إلاَّ ما استثناه الدليل.

قوله: «**شرار الناس**»: بكسر «الشين» جمع شرّ، أفعل تفضيلٍ.

من تدركهم الساعة؛ أي: مقدماتها: كخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها.

يتخذون القبور مساجد: يخبرﷺ عمن تقوم الساعة عليهم وهم أحياء أنَّهم شرار الناس، ومنهم الذين يصلُّون عند القبور وإليها يبنون عليها القباب، وهذا تحذير لأمته أن تفعل مع قبور نبيهم وصالحيهم مثل فعل هؤلاء الأشرار.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه التحذير من اتخاذ القبور مساجد، يصلَّىٰ في ساحتها ويُتبرك بها؛ لأنه ذريعة إلىٰ الشرك.

ما يستفاد من الحديث:

١- التحذير عن الصلاة عند القبور؛ لأنَّه وسيلة إلىٰ الشرك.

٢- أنَّ من اتخذ قبور الصالحين مساجد للصلاة فيها فهو من شرار الخلق، وإن كان قصده التقرب إلىٰ الله.

٣- أنَّ الساعة تقوم علىٰ شرار الناس.

٤- التحذير عن الشرك ووسائله وما يقربُ إليه، مهما كان قصد صاحب تلك الوسائل.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح؛ فكيف إذا عبده؟!»:**

في هذا الباب مع الأبواب بعده بيان أن النبي ﷺ كان حريصًا علىٰ هذه الأمة، وأنه كان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، ومن تمام حرصه علىٰ الأمة أن حذّرهم من كل وسيلة تصل بهم إلىٰ الشرك، وسدّ جميع الذرائع الموصلة إلىٰ ذلك، وغلّظ في ذلك، وشدّد فيه، وأبدىٰ وأعاد، حتىٰ إنه بين ذلك خشية أن يفوت تأكيده، وهو يعاني سكرات الموت عليه الصلاة والسلام.

فهذه الأبواب في بيان وسائل الشرك الأكبر، وما ينبغي سده ومنعه من الذرائع الموصلة

إليه، رعاية وحماية للتوحيد؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام غلّظ علىٰ من يفعلون شيئًا من تلك الوسائل، أو الذرائع الموصلة إلىٰ الشرك.

وهذا الباب في بيان إحدىٰ الوسائل الموصلة إلىٰ الشرك، والذرائع التي يجب منعها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح**». صورة ذلك: أن يأتي آتٍ إلىٰ قبر رجل صالح، يعلم صلاحه -كأن يكون من الأنبياء والمرسلين، أو أن يكون من صالحي هذه الأمة، أو صالحي أمة من غير هذه الأمة- فتحرىٰ ذلك المكان كي يعبد الله وحده دون ما سواه، رجاء بركة هذه البقعة.

وقد راج هذا الأمر عند الكثيرين من الناس، والدهماء، حيث اعتقدوا أن ما حول قبور الأنبياء والصالحين من الأمكنة والبقاع مبارك، وأن العبادة عندها ليست كالعبادة عند غيرها. والنبي عليه الصلاة والسلام غلّظ في ذلك ونهىٰ عنه، مع أن المغلّظ عليه لم يعبد إلا الله -جل وعلا- ولم يعبد صاحب القبر، لكنه اتخذ ذلك المكان رجاء بركته، ورجاء تنزل الرحمات -كما يقولون- ورجاء تنزل النسمات، والفضل من الله عليه، فاختاره لأجل بركته، ولكنه لم يعبد إلا الله -جل وعلا- ومع ذلك لعن النبي ﷺ ذلك الصنف الذين يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد.

قوله: «**فيمن عبد الله**»: يعني: أنه لم يشرك بالله، بل عبد الله وحده، بأن صلىٰ مخلصًا، أو دعا لله مخلصًا، أو تضرع واستغاث واستعاذ بالله -جل وعلا- مخلصًا.

لكنه تحرّىٰ إيقاع هذه العبادات عند قبر رجل صالح لأجل البركة. والرجل الصالح -كما سبق أن ذكرنا- هو المقتصد الذي أتىٰ بالواجبات، وابتعد عن المحرمات، أو السابق بالخيرات، وهو أعلىٰ درجة، فالصالحون من الرجال والنساء مقامات ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٦٣] وبعض أهل العلم يعبّر في تعريف الرجل الصالح بقوله: الصالح من عباد الله هو القائم بحقوق الله، القائم بحقوق عباده، وهذا تعبير صحيح؛ ولأن المقتصد قائم بحقوق الله، قائم بحقوق عباده أتىٰ بالواجبات، وانتهىٰ عن المحرمات. وأعظم منه درجة السابق بالخيرات. فأهل السبق بالخيرات من العباد لا يجوز أن تعظم قبورهم، وأن يغلىٰ فيها بظن أن البقعة التي حول قبورهم بقعة مباركة، فإن هذا الفعل قد جاء فيه الوعيد الذي سيأتي في هذا الباب، وغلظ -عليه الصلاة والسلام- فيه علىٰ فاعله.

وقوله: «**فكيف إذا عبده**» يعني: إذا كان هذا التغليظ واللعن قد جاء في حق من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، ومن أسرج على القبور أو عظّمها، وعظّم من فيها، وعبد الله وحده عندها إذا كان هذا قد جاءت النصوص بلعن فاعله، وأنه من شرار الخلق عند الله، فكيف إذا توجه ذلك العابد إلى صاحب القبر يدعوه، ويرجوه، أو يخافه، أو يأمل منه، أو يستغيث به، أو يصلي له، أو يذبح له، أو يستشفع به؟! لا شك أن هذا أعظم وأعظم في التغليظ من عبادة الله وحده عند قبر رجل صالح، كما قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «**فكيف إذا عبده؟**» يعني: أن التغليظ يكون أشد وأشد، إذا عبد صاحب ذلك القبر، وهذا مقتضى كلام الشيخ في هذا التبويب. وهذا واضح؛ لأن تحرّي العبادة والدعاء، أو تعظيم ذلك المكان وسيلة وذريعة إلى الشرك، وعبادة المقبورين، فإذا كان مَنْ فَعَل وسائل الشرك الأكبر ملعونًا وموصوفًا بأنه من شرار الخلق عند الله، فكيف بمن فعل الشرك الأكبر بعينه وتوجه إلى قبور الصالحين، واتخذها أوثانًا مع الله جل وعلا؟!

لا شك أن هذا أبلغ وأبلغ في التغليظ، وذلك لأنه من الشرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام، إذا فعله مسلم.

ومعنى قوله: «**فكيف إذا عبده؟**» أي عبد القبر، أو عبد الرجل الصالح -صاحب القبر- لأن عبادة القبوريين تارة تكون بالتوجه إلى القبر، وتارة بالتوجه إلى صاحب القبر، بل تارة بالتوجه إلى ما حول القبر كالأبنية المحاطة بالقبور، وصارت مشاهد، فمنها ما يكون مستورًا بالحديد، فترى من هؤلاء من يعمد إلى تلك الستور والجدران والأبنية، فيتمسح بها رجاء بركتها، ويتخذها وسيلة إلى الله، فتراهم -أيضًا يعكفون عند قبور معظميهم، ويتخذون مشاهدهم أوثانًا يعبدونها، ويرجونها، ويخافونها، وإذا ضم أحدهم إلى صدره تلك المشاهد، أو الحديد، أو الستور، ونحو ذلك، فكأنه صار مقرَّبًا عند الله، وقبلت وسيلته تلك. ولا شك أن هذا نوع من أنواع اتخاذ المشاهد أوثانًا، ومن اتخاذ القبور أوثانًا، أو اتخاذ الرجل الصالح -الذي هو متبرئ من أولئك ومن عبادتهم له- إلهًا مع الله، وقد علمنا أن العبادة معناها واسع، وأنها قد تكون بالصلاة له أو بدعوته، أو بسؤاله كشف المدلهمات، أو جلب الخيرات، أو الذبح لصاحب القبر، أو وضع النذور له، ونحو ذلك من أنواع العبادات، كما هو الواقع من أولئك الذين يعبدون الأوثان، وقبور الصالحين.

❁ **قوله**: «في «الصحيح» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة ...»:

في هذا الحديث أن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما كانت في الحبشة رأت كنيسة، ورأت في تلك الكنيسة صور الصالحين، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح**» فقد يكون الرجل الصالح نبيًّا من أنبيائهم، أو عبدًا من عباد الله الصالحين فيهم فماذا كانوا يفعلون معه؟ جاء في قوله -عليه الصلاة والسلام- «**بنوا علىٰ قبره مسجدًا**» أي يجعلون قبره مسجدًا، والمسجد في اللغة هو مكان العبادة، فيدخل في هذا المعنىٰ: الكنائس. والمسجد -أيضًا- مكان السجود، والسجود هو الخضوع والتذلل لله -جل وعلا- فالمسجد يطلق علىٰ كل مكان يتخذ لعبادة الله -جل وعلا- كما قال النبي ﷺ: «**وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**» فمكان العبادة يقال له: مسجد، ولهذا قال النبي -عليه الصلاة والسلام- في شأن الكنيسة: «**بنوا علىٰ قبره مسجدًا**» يعني: مكانًا للعبادة. فالكنائس -إذًا- بنيت علىٰ قبور أولئك الصالحين، وصوروا فيها الصور، أي جعلوا صور الصالحين علىٰ قبورهم، أو علىٰ حوائط القبور، لكي يدلوا الناس علىٰ عبادة الله بتعظيم ذلك الرجل الصالح، وتعظيم قبره، فاتخذوا البناء علىٰ القبور، الذي هو وسيلة من وسائل الشرك الأكبر، ومن البدع التي يحدثها الخلوف بعد الأنبياء اتخاذ الصور فوق القبور، والتعبد بها، ولذلك قال النبي ﷺ عنهم: «**أولئك شرار الخلق عند الله جل وعلا**».

وقوله: «**أولئك**» الخطاب فيه لأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا والخطاب إذا توجه إلىٰ مؤنث تكسر فيه كاف الخطاب.

وقوله: «**أولئك شرار الخلق عند الله**» أي المعظمون الصالحين ببناء المساجد علىٰ قبورهم. وليس في هذا الحديث أنهم توجهوا إليهم بالعبادة، بل عظّموا قبورهم، وجعلوا لهم صورًا فجمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة الصور وسيلة من وسائل حدوث الشرك الأكبر، وكذلك فتنة القبور بالبناء عليها، وتعظيمها، وبإرشاد الناس إليها، وسيلة إلىٰ أن يُعتقد في صاحب القبر أن له شيئًا من خصائص الإلهية، وأنه يتوسط عند الله -جل وعلا- في قضاء الحاجات، كما حصل ذلك منهم فعلًا.

والمفهوم من وصفه ﷺ لأولئك الأقوام بأنهم شرار الخلق عند الله تحذير هذه الأمة أن يبنوا على قبر أحد مسجدًا؛ لأن من فعل ذلك ودل الخلق على تعظيم ذلك القبر، فهو من شرار الخلق عند الله، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لتتبعن سَنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع**» فوجه الدلالة من هذا الحديث قوله: «**أولئكِ شرار الخلق عند الله**» وما فيه من التغليظ فيمن عبد الله في الكنيسة التي فيها القبور والصور؛ لأن القبور والصور من وسائل الشرك بالله جل وعلا.

❁ **قوله: «عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نُزل برسول الله ﷺ -يعني نزل به الموت- طفق يطرح خميصة له على وجهه...»**:

هذا الحديث من أعظم الأحاديث التي فيها التغليظ والنهي عن وسائل الشرك، وبناء المساجد على القبور، واتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

ووجه ذلك: أنه عليه الصلاة والسلام مع أنه في ذلك الغم، وتلك الشدة، ونزول سكرات الموت به لم يُغفل -وهو في تلك الحال- تحذير الأمة من وسيلة من وسائل الشرك، وتوجيه اللعن والدعاء على اليهود والنصارى بلعنة الله؛ لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

وسبب ذلك: أنه عليه الصلاة والسلام وهو في تلك الحال خشي أن يتخذ قبره مسجدًا، كما اتخذ شرار الخلق عند الله من اليهود والنصارى قبور أنبيائهم مساجد، فلعنهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**» واللعنة هي الطرد والإبعاد من رحمة الله، وذلك يدل على أنهم فعلوا كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن البناء على القبور، واتخاذ قبور الأنبياء مساجد، هو من وسائل الشرك، وكبيرة من الكبائر.

وقوله: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» فيه بيان السبب الذي لأجله استحقوا اللعن، وهو أنهم اتخذوا قبور الأنبياء مساجد. وفي تحذير النبيّ ﷺ من اتخاذ القبور مساجد، ولعن فاعله -وهو في السياق- ما يقوم مقام آخر وصية أوصى بها، ومع ذلك خالف كثير من هذه الأمة وصيته عليه الصلاة والسلام.

واتخاذ القبور مساجد يكون على إحدى صور ثلاث:

الصورة الأولى: أن يسجد على القبر، يعني: أن يجعل القبر مكان سجوده، فقوله: «**اتخذوا**

قبور أنبيائهم مساجد» يعني: جعلوا القبر مكان السجود. وهذه الصورة في الواقع لم تحصل بانتشار؛ لأن قبور الأنبياء لم تكن مباشرة للناس، بحيث يمكنهم الصلاة عليها، أو السجود عليها بل كانوا يعظمون قبور أنبيائهم فلا يصلون عليها مباشرة. لكن أبلغ صور الاتخاذ المفهوم من قوله: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» هو أن يتخذ القبر نفسه مسجدًا، يعني: يصلىٰ عليه مباشرة، وهذا أفظع تلك الأنواع وأشدها، وأعظمها وسيلة إلىٰ الشرك والغلو بالقبر.

الصورة الثانية: أن يصلي إلىٰ القبر، ومعنىٰ اتخاذه مسجدًا في هذه الحالة أن يكون أمامه القبر، يصلي إليه بحيث يجعله قبلة، فإنه يكون بذلك قد اتخذ القبر -وما حوله له حكمه- مكانًا للتذلل والخضوع. والمسجد لا يعني به مكان السجود الذي هو وضع الجبهة علىٰ الأرض فقط، وإنما يعنىٰ به مكان التذلل والخضوع، فاتخاذ قبورهم مساجد، يعني: جعلوها قبلة لهم؛ ولهذا نهىٰ النبي ﷺ أن يُصلىٰ إلىٰ القبر؛ لأجل أن الصلاة إليه وسيلة من وسائل التعظيم، وهذا يوافق قول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب «**باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح**» فالمفهوم من قوله: «**عند قبر رجل صالح**» هذه الصورة المتقدمة، وهي أن يكون القبر أمامه، فيجعل القبر بينه وبين القبلة تعظيمًا للقبر.

الصورة الثالثة: أن يتخذ القبر مسجدًا، بأن يجعل القبر في داخل بناء، وذلك البناء هو المسجد، فإذ دُفن النبي قام أولئك بالبناء عليه، فجعلوا حول قبره مسجدًا، واتخذوا ذلك المكان للتعبد وللصلاة فيه، هذه هي الصورة الثالثة، وهي أيضًا موافقة لقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ «**عند قبر رجل صالح**» وهذا يبين لك بعض المناسبة في إيراد هذا الحديث في هذا الباب.

وقول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**يحذر ما صنعوا**» فيه إشارة إلىٰ السبب الذي لأجله لعن النبي -عليه الصلاة والسلام- اليهود والنصارىٰ وهو يعالج ويعاني سكرات الموت، وهو أنه أراد تحذير الصحابة من أن يحذوا في ذلك الأمر حذو أهل الكتاب. وقد قبل الصحابة رضوان الله عليهم تحذيره، وعملوا بوصيته. ومعنىٰ قولها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**ولولا ذلك أُبرز قبره**» يعني: لأُظهر، وجعل قبره مع سائر القبور في البقيع أو غير ذلك، ولكن كان من العلل التي جعلتهم لا ينقلونه عليه الصلاة والسلام من مكانه الذي توفي فيه إلىٰ المقبرة قوله عليه الصلاة والسلام: «**لعنة الله علىٰ اليهود**

والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت: يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، فهذه إحدىٰ العلتين.

والعلة الثانية: قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن الأنبياء يقبرون حيث يقبضون**».(٥٣٢).

وقولها: «غير أنه خشي» بفتح الخاء، أو «خشي» بضمها، وهما وجهان جائزان.

فإذا كان بفتح الخاء فالمقصود به النبي ﷺ، وإذا كان بضم الخاء فالمقصود الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عنهم وهذا تنبيه علىٰ إحدىٰ العلتين.

وقد قبل الصحابة -رضوان الله عليهم- وصية رسول الله ﷺ وعملوا بها، فدفنوه في مكانه الذي قُبض فيه، في حجرة عائشة، وكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد أقامت جدارًا بينها وبين القبور، فكانت غرفة عائشة فيها قسمان: قسم فيه القبر، وقسم هي فيه.

وكذلك لما توفي أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ودفن بعد رسول الله ﷺ - من جهة الشمال، كانت أيضًا في ذلك الجزء من الحجرة، ولما دفن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تركت الحجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ثم أغلقت الحجرة، فلم يكن ثَمَّ باب فيها يدخل منه إليها، وإنما كانت فيها نافذة صغيرة، ولم تكن الغرفة -كما هو معلوم- مبنية من حجر، ولا من بناء مجصص، وإنما كانت من البناء الذي كان في عهده عليه الصلاة والسلام من خشب ونحو ذلك.

ولما زيد في بناء المسجد النبوي في عهد الوليد بن عبد الملك، وكان أمير المدينة يوم ذاك عمر ابن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ وأخذوا بعضًا من حُجر زوجات النبي عليه الصلاة والسلام بقيت حجرة النبي عليه الصلاة والسلام كذلك، فأخذوا من الروضة جزءًا، وبنوا عليه جدارًا آخر غير الجدار الأول، بنوه من ثلاث جهات، وجعلوا جهة الشمال مسنمة، أي مثلّثة، فصار عندنا -الآن- جداران، الجدار الأول: مغلق تمامًا، وهو جدار حجرة عائشة، والجدار الثاني: الذي عُمل في إمرة

---

(٥٣٢) أخرجه عبد الرزاق (٦٥٣٤)، وأحمد (١/٧)، بنحو من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»(٥٢٠١).

عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ زمن الوليد بن عبد الملك، وقد جعلوا من جهة الشمال -وهي عكس القبلة- مسنمًا؛ لأنه في تلك الجهة جاءت التوسعة، فخشوا أن يكون ذلك الجدار مربعًا، يعني مسامتًا للمستقبل، فيكون إذا استقبله أحد فقد استقبل القبر، فجعلوه مثلثًا، يبعد كثيرًا عن الجدار الأول، وهو جدار حجرة عائشة؛ لأجل ألَّا يمكن لأحدٍ أن يستقبل القبر، لبعد المسافة، ولأجل أن الجدار صار مثلثًا.

ثم بعد ذلك بأزمان جاء جدار ثالث أيضًا وبُني حول ذينك الجدارين، وهو الذي قال فيه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في النونية في وصف دعاء النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد**» . قال:

فأجـــاب رب العـــالمين دعـــاءه وأحاطـــه بثلاثـــة الجـــدران

حتـــىٰ غـــدت أرجـــاءه بدعائـــه في عـــزة وحمايـــة وصـــيان

فأصبح قبر النبي عليه الصلاة والسلام محاطًا بثلاثة جدران، وكل جدار ليس فيه باب، فلا يمكن لأحد أن يدخل ويقف علىٰ القبر بنفسه؛ لأنه صار ثَمَّ جداران، وكل جدار ليس له باب، ثم بعد ذلك وضع الجدار الثالث، وهذا الجدار أيضًا ليس له باب، وهو كبير مرتفع، وهو الذي وضُعت عليه القبة فيما بعد، فلا يستطيع أحد الآن أن يدخل إلىٰ القبر، وأن يتمسح به أو أن يرىٰ مجرد القبر، ثم بعد ذلك وضع السور الحديدي بينه وبين الجدار الثالث نحو متر ونصف في بعض المناطق، ونحو متر في بعضها، وفي بعضها نحو متر وثمانين إلىٰ مترين، يضيق ويزداد، لكن من مشىٰ فإنه يمشي بين ذلك الجدار الحديدي والجدار الثالث. فالحاصل أن المسلمين عملوا بوصيته عليه الصلاة والسلام، وأبعد قبره، بحيث لا يمكن لأحد أن يصل إليه، ولهذا لما جاء الخرافيون في عهد الدولة العثمانية فتحوا في التوسعة التي هي من جهة الشرق ممرًّا؛ لكي يمكن من يريد أن يطوف بالقبر، أو أن يصلي في تلك الجهة، أو يطوف، أو يصلي! وذلك الممر الشرقي -الذي هو قدر مترين أو يزيد قليلًا- قد منعت الصلاة فيه في عهد الدولة السعودية الأولىٰ وما بعدها، فكأنه

---

(٦٦٣) سبق تخريجه.

أخرج من كونه مسجدًا؛ لأنه إذا كان من مسجد النبي عليه الصلاة والسلام فلا يجوز أن يمنعوا أحدًا من الصلاة فيه، فلما منعوا الصلاة فيه جعلوا له حكم المقبرة، ولم يجعلوا له حكم المسجد، فلا يمكن لأحد أن يصلي فيه، بل يغلقونه وقت الصلاة، أما وقت السلام أو وقت الزيارة فإنهم يفتحونه للمرور.

فتبين بذلك أن قبر النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يتخذ مسجدًا، وإنما أدخلت الغرف -بالتوسعة- في عهد التابعين في المسجد، ولكن جهته الشرقية خارجة عن المسجد، فصارت كالشيء الذي دخل في المسجد، ولكن الحيطان المتعددة -وهي الجدران الأربعة التي تفصل بين القبر والمسجد- تمنع أن يكون القبر في داخل المسجد -يعني: مكان الدفن- ومما يدل على أخذ الصحابة والتابعين ومن بعدهم بوصية النبي عليه الصلاة والسلام هذه، وسد الطرق الموصلة إلى الشرك به عليه الصلاة والسلام، وعدم اتخاذ قبره مسجدًا أنهم أخذوا من الروضة الشريفة التي هي روضة من رياض الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»[٥٣٤]. قدر ثلاثة أمتار، لكي يبنوا الجدار الثاني، ثم الجدار الثالث، وأخذوا أكثر من ثلاثة أمتار لإقامة السور الحديدي، فهذا من أعظم التطبيق والعمل بوصيته عليه الصلاة والسلام، حيث إنهم أخذوا من الروضة، وأجازوا أن يأخذوا من المسجد لأجل أن يُحمىٰ قبر النبي عليه الصلاة والسلام من أن يُتخذ مسجدًا وهذا -ولا شك- يدل علىٰ عظيم فقه من قاموا بذلك العمل، ففَصْل القبر عن المسجد بهذه الكيفية التي وصفت هو من رحمة الله -جل وعلا- بهذه الأمة، ومن إجابة دعوة النبي عليه الصلاة والسلام لما دعا بقوله فيما سيأتي بعد هذا الباب: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**».

إذن فقوله عليه الصلاة والسلام: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا**» فإنه عليه الصلاة والسلام لم يتخذ قبره مسجدًا.

---

(٥٣٤) أخرجه البخاري، كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب: فضل ما بين القبر والمنبر، برقم (١١٩٥)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة، برقم (١٣٩٠)، من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

والموجود اليوم في المسجد النبوي قد تكون صورته -عند من لم يحسن التأمل، وعند غير الفقيه- صورة قبر في داخل مسجد، وليست الحقيقة كذلك، لوجود الجدران المختلفة التي تفصل بين المسجد وبين القبر، ولأن الجهة الشرقية منه ليست من المسجد، ولهذا لما جاءت التوسعة الأخيرة كان مبتدؤها من جهة الشمال بعد نهاية الحجرة بكثير، حتىٰ لا تكون الحجرة في وسط المسجد، فيكون ذلك من اتخاذ قبره مسجدًا عليه الصلاة والسلام.

فالمقصود من هذا البيان أن قبر النبي عليه الصلاة والسلام ما اتخذ مسجدًا، وأن وصيته عليه الصلاة والسلام في التحذير قد أخذ بها في مسجده وفي قبره، ولكن خالفتها بعض الأمة في قبور بعض الصالحين من هذه الأمة فاتخذوا قبور بعض آل البيت مساجد وعظّموها، كما تعظّم الأوثان.

❁ **قوله: «ولمسلم عن جندب مرفوعًا: لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا»:**

سبب ذلك: أن الخلّة هي أعظم درجات المحبة، وهي التي تتخلل الروح، وتتخلل القلب، وشغاف الصدر، بحيث لا يكون ثَمّ مكان لغير ذلك الخليل، ولهذا فإن النبي -عليه الصلاة والسلام- ليس له من أصحابه خليل، وهذا قال: «**ولو كنت متخذًا** من أمتي **خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا**».

ووجه الشاهد من هذا الحديث قوله بعد ذلك: «**ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**».

وجاء في رواية أخرىٰ أيضًا: «**كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**» وهذا هو الذي وقع في هذه الأمة، ولا شك أنه وسيلة من وسائل الشرك.

ومناسبة الحديث للباب ظاهرة، وهي أنه حرّم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد مع أنه قد يكون العابد لا يعبد إلا الله؛ لأنها وسيلة من وسائل الشرك الأكبر، والوسائل تفضي إلىٰ ما بعدها، وقد تقرر في القواعد الشرعية، وأجمع عليه المحققون أن سد الذرائع الموصلة إلىٰ الشرك، وإلىٰ المحرمات أمر واجب؛ لأن الشريعة جاءت بسد أصول المحرمات، وسد الذرائع إليها،

فيجب أن يُغلق كل باب من أبواب الشرك بالله، ومن ذلك اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد؛ ولهذا لا تصح الصلاة في مسجد بُني على قبر؛ لأن ذلك مناف لنهي النبي ﷺ، فالنبي عليه الصلاة والسلام نهى، وهؤلاء فعلوا، والنهي توجه إلى بقعة الصلاة فبطلت الصلاة، فالذي يصلي في مسجد أقيم على قبر فصلاته باطلة لا تصح، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**» يعني بالبناء عليها وبالصلاة حولها، «**فإني أنهاكم عن ذلك**».

قوله: «... نهى عنه في آخر حياته...»:

يعني: أن الصلاة عند القبور لا تجوز سواء صلى إليها أو صلى عندها رجاء بركة ذلك المكان، أو لم يرجُ بركة ذلك المكان، وإنما صلى صلاة نافلة -غير صلاة الجنازة عندها- كل هذا لا يجوز، سواء كان ثَمَّ بناء على القبر كمسجد أو قبر، أو قبران في غير بناء عليهما، فإن الصلاة لا تجوز، ولهذا جاء في الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تجعلوها قبورًا**»(٥٣٥). وفي البخاري -أيضًا- معلقًا من كلام عمر رضي الله عنه أنه رأى أنسًا عند، فقال له: «**القبر، القبر**»(٥٣٦). يعني: احذر القبر، احذر القبر، وهذا يدل على أن الصلاة عند القبور لا تجوز؛ لأنها وسيلة من وسائل الشرك، وأعظم من ذلك أن يكون ثم بنيان، واتخاذ لما حول القبر من الأبنية مسجدًا للصلاة، والدعاء، والقراءة، ونحو ذلك.

وهو معنى قولها: «**خشي أن يتخذ مسجدًا**» فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا، بل كل موضع يصلي فيه يسمى مسجدًا كما قال ﷺ «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**» وهذا ظاهر.

---

(٥٣٥) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: كراهية الصلاة في المقابر، برقم (٤٣٢)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، برقم (٧٧٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥٣٦) أخرجه البخاري معلقًا، كتاب: أبواب المساجد، باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، (١/ ٥٢٤/ فتح).

❁ **قوله**: «**ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: إن من شرار الناس ...**»[٥٣٧]:

ووجه الشاهد من هذا الحديث: أنه قال: «**والذين يتخذون القبور مساجد**» يعني أنهم من شرار الناس، فالذين يتخذون القبور مساجد هم من شرار الناس، وذلك لأن اتخاذ القبور مساجد -كما ذكرنا- وسيلة من وسائل الشرك بالله جل وعلا.

وقوله: «**والذين يتخذون القبور مساجد**» هذا يعم كل اتخاذ للقبر مسجدًا، سواء اتخذه بالصلاة عليه، أو بالصلاة إليه، أو بالصلاة عنده، فذلك القصد للصلاة عند القبر يجعل القاصد من شرار الناس كما وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام بذلك.

ومناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة فإنه ذكر أن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد، والقصد من اتخاذ القبر مسجدًا أن يُعبد الله عند قبر ذلك الرجل الصالح، فكيف حال الذي توجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام بالعبادة؟! والحال أن القبر لا يُخلص إليه، ولكن الاستغاثة بالنبي عليه الصلاة والسلام، وتأليهه قد يقعان بحسب الاعتقادات، وبحسب المناداة، كما حصل من الجاهلين مناداة الملائكة، واتخاذ الملائكة آلهة مع الله جل جلاله.

وكذلك المتخذون الأولياء معبودين هم من أشر الناس الذين وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**» فإن الذي اتخذ القبر مسجدًا ملعون بلعنة النبي عليه الصلاة والسلام، وإن كان لم يعبد إلا الله -جل وعلا- فكيف حال الذي عَبد صاحب ذلك القبر؟! نسأل الله العافية والسلامة من كل وسائل الشرك.

وتأمل هذا مع ما فشا في بلاد المسلمين من بناء القباب والمشاهد على القبور، وتعظيم هذا الفعل المنكر، وتحسينه، وتوجيه الناس إليه، وإلى التعلق بالمقبورين، وذكر الحكايات الطويلة في مناقب أولئك الأولياء، وفي إجابتهم للدعوات، وإغاثتهم للهفات، ونحو ذلك يتبين لك غربة الإسلام أشد غربة في هذه الأزمنة وما قبلها، فكيف إذا قالوا: إن ذلك جائز، وذلك توحيد؟! بل كيف إذا اتهموا من نهاهم عن ذلك بعدم المعرفة، وعدم الفهم، وهو يدعوهم إلى الله -جل وعلا- وهم يدعونه إلى النار؟ نسأل الله السلامة والعافية.

---

(٥٣٧) سبق تخريجه.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنىٰ مسجدًا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل، أي: ذكر أنهم شرار الخلق عند الله ولعنهم علىٰ ذلك.

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك، أي: الصور لقوله: وصوروا فيها تلك الصور،وغلظ الأمر بقوله: « **أولئك شرار الخلق عند الله**».

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك، فكيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال،ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم، أي: إنه بالغ في النهي عن العبادة عند القبور فذم الذين يبنون المساجد علىٰ قبور أنبيائهم ويصورون صورهم،ثم قبل موته بخمس ليال نهىٰ عن اتخاذ القبور مساجد كما في حديث جندب، ثم لما كان في السياق نهىٰ عنه كما في حديث عائشة لما نزل برسول الله ﷺ... إلخ.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر أي لقولها: يحذر ما صنعوا... إلخ.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارىٰ في قبور أنبيائهم أي لقوله: «**قاتل الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» .

السادسة: لعنه إياهم علىٰ ذلك، أي لقوله: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ**».

السابعة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره، أي: إنه لعنهم تحذيرًا لنا أن نفعل عند قبره مثل ما فعلوا فيصيبنا من اللعنة ما أصابهم.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره، أي هي ما ذكره من الوعيد علىٰ اليهود والنصارىٰ حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فصار هذا سببًا في عدم إبراز قبره لئلا يتخذ مسجدًا.

التاسعة: في معنىٰ اتخاذها مسجدًا، أي: بإيقاع الصلاة عندها تكون قد اتخذت مساجد.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مساجد وبين من تقوم عليه الساعة فذكر الذريعة إلىٰ

الشرك قبل وقوعه مع خاتمته، أي كما في حديث ابن مسعود: «**إن من شرار الناس... إلخ**» وقوله، فذكر الذريعة إلىٰ الشرك، يعني قوله: والذين يتخذون القبور مساجد لأنه ذريعة ووسيلة إلىٰ الشرك،وقوله: مع خاتمته يريد قوله من تقوم عليهم الساعة لأنها لا تقوم إلا علىٰ شرار الخلق، كما ثبت في الحديث وخاتمة ذلك هي الشرك وأهله شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس الرد علىٰ الطائفتين اللتين هما أشر شرار أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة وهم الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنىٰ عليها المساجد، أي: ذكر ذلك كما في حديث جندب وقوله: بل أخرجهم بعض أهل العلم... إلخ أي بسبب كفرهم وقوله: وهم الرافضة يعني: غلاة الشيعة سموا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين، ووجه الرد عليهم أنه نهىٰ عن اتخاذ القبور مساجد وهم يتخذونها مساجد،وقوله: «**ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**» ففيه فضيلة أبي بكر وهم يبغضونه ويسبونه وقوله وبسبب الرافضة...إلخ أي إنهم لما غلو في أهل البيت حتىٰ عبدوهم مع الله وبنوا علىٰ قبورهم المساجد واتخذوها مشاهد حدث الشرك، وأما الجهمية فهم نفاة الأسماء والصفات أهل التعطيل نسبة لإمامهم جهم بن صفوان ووجه الرد عليهم قوله في الحديث: «**فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**» وهم ينفون ذلك.

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شدة النزع، أي: كما في حديث عائشة فإذا اغتم بها كشفها.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخُلَّة، أي لقوله: « **فإن الله قد اتخذني خليلاً**».

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلىٰ من المحبة، أي: لكونه نفىٰ أن يتخذ أحدًا من أهل الأرض خليلاً مع إخباره بحبه لعائشة وأبيها وغير واحد من الصحابة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة، أي لقوله: « **لاتخذت أبا بكر خليلاً**».

السادسة عشرة: الإشارة إلىٰ خلافته، أي لما خصه بهذه المنقبة العظيمة دل ذلك علىٰ الإشارة إلىٰ أنه أحق بالخلافة من غيره مع غيرها من الفضائل التي اختص بها.

* الأسئلة *

س: اذكر مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؟

جـ: **مناسبته لكتاب التوحيد**: أن عبادة الأولياء والصالحين شرك أكبر ينافي التوحيد وعبادة الله عند قبورهم وسيلة إلى الشرك.

قوله: «في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة ...».

س: ما هي الكنيسة؟ ومن هو المخاطب في قوله: «أولئك» وما مرجع اسم الإشارة هنا؟

جـ: الكنيسة: معبد النصارى، والمخاطب: أم سلمة زوج النبي ﷺ والإشارة إلى الذين يبنون المساجد على القبور ويصورون فيها الصور.

س: من هم شرار الخلق عند الله، ولماذا صاروا شرار الخلق؟

جـ: هم الذين يبنون المساجد على القبور ويصورون فيها الصور.

· وإنما كانوا شرار الخلق لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم وسنُّوا لمن بعدهم الغلو في قبور الصالحين حتى أفضى إلى عبادتها.

س: ما حكم بناء المساجد على القبور مع ذكر الدليل؟

جـ: محرم والدليل قوله ﷺ **«أولئك شرار الخلق عند الله»**(٥٣٨) وقد نهى عنه الرسول ﷺ ولعن فاعله كما سيأتي.

س: ما مناسبة حديث عائشة السابق للباب؟

جـ: هي أن فيه التغليظ والوعيد الشديد لمن اتخذ القبور مساجد.

قوله: «عن عائشة رضي الله عنها قالت لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه...».

س: بين معاني الكلمات الآتية: لما نُزل برسول الله ﷺ، طفق، يطرح، خميصة، اغتم بها، كشفها؟

جـ: لما نزل برسول الله؛ أي: نزل به الموت وظهرت علاماته ومقدماته؛ طفق: جعل، يطرح: يضع، خميصة: كساء له أعلام؛ اغتمَّ بها: احتبس نفسه عن الخروج إذا غطى بها وجهه؛ كشفها: أزالها عن وجهه.

---

(٥٣٨) سبق تخريجه.

س: لماذا حذر ﷺ من صنيع اليهود والنصارى؟

ج: لأن لا يفعل عند قبره أو قبور الصالحين من أمته مثله.

قوله: «ولمسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول ...»

س: ما معنى أبرأ، ومن هو الخليل، وما معنى قوله: «ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا»، اذكر الشاهد من الحديث للباب، وما هو السياق؟

ج: أبرأ: أتبرأ وأمتنع من ذلك وأنكره؛ والخليل: هو الذي تخللت محبته القلب ونفذت إليه، مأخوذ من الخلة وهي خالص المحبة؛ ومعنىٰ قوله ﷺ: **«لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا»**؛ أي: لو قدر أني أحببت أحدًا مع الله لكان أبا بكر صاحبه في الغار.

والشاهد في الحديث للباب: قوله ﷺ: **«ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»**؛ والسياق: الموت.

س: هل الصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد المنهي عنه واذكر الدليل؟

ج- نعم الصلاة عندها من ذلك وإن لم يبين مسجد وكل موضع يصلي فيه يسمىٰ مسجدًا كما قال ﷺ: **«جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»**(٥٣٩) متفق عليه.

قوله: «ولأحمد بسند جيد عن بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: إن من شرار الناس ...»

س: ما معنى تدركهم الساعة، وما معنى اتخاذهم القبور مساجد؟

ج: معنىٰ تدركهم الساعة: علاماتها ومقدماتها كخروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها؛ ومعنىٰ اتخاذ القبور مساجد: الصلاة عندها وإليها وبناء المساجد عليها كما تقدم.

س: ما حكم الصلاة عند القبور مع التعليل؟

ج: الصلاة عند القبور محرمة؛ لأنها وسيلة إلىٰ الشرك بالأموات ودعائهم وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات مما لا يقدر عليه إلا الله.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



(٥٣٩) سبق تخريجه.

الدرس الحادي والعشرون:

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يُصيرها أوثانا تعبد من دون الله

روىٰ مالك في «الموطأ»، أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٥٤٠).

ولابن جرير بسنده عن سفيان، عن منصورٍ، عن مجاهد: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾[النجم:١٩] قال: «كان يلت لهم السويق، فمات، فعكفوا علىٰ قبره»(٥٤١).

وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباسٍ: «كان يلت السويق للحاج»(٥٤٢)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»(٥٤٣). رواه أهل السنن.

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الأوثان.

الثانية: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

---

(٥٤٠) أخرجه مالك، برقم (٤١٤)، من حديث عطاء بن يسار رضي الله عنه مرسلًا. وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٧٥٠).

(٥٤١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥١٩) عن مجاهد رحمه الله موقوفًا.

(٥٤٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٩).

(٥٤٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الجنائز، باب: في زيارة النساء القبور، برقم (٣٢٣٦)، والترمذي، كتاب: الصلاة، باب: كراهة أن يتخذ علىٰ القبر مسجدًا، برقم (٣٢٠)، والنسائي، كتاب: الجنائز، باب: التغليظ في اتخاذ السرج علىٰ القبور، برقم (٢٠٤٣)، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٤٦٩١).

السادسة: وهي من أهمها: معرفة صفة[٥٤٤] عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنىٰ التسمية.

التاسعة: لعنه زوارات القبور.

العاشرة: لعنه من أسرجها.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ماجاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله»:

أي: ذكر ما ورد من الدليل والبرهان أن الغلو وهو مجاوزة الحد في قبور الأنبياء والصالحين بالبناء عليها، واتخاذ المساجد عليها، والصلاة عندها، والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع الغلو يجعلها أوثانًا؛ لأنه يورث التأله والعبادة شيئًا فشيئًا، والوثن يعم الأصنام وغيرها مما يعبد من دون الله، كما عبدت اللات والعزىٰ ومناة وغيرها.

قوله: «روىٰ مالك في الموطأ»:

أي: روىٰ مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، إمام دار الهجرة، أحد الأئمة الأربعة، وأحد الحفاظ. قال أحمد: مالك أثبت في كل شيء. وقال البخاري: أصح الأسانيد كلها: مالك عن نافع عن ابن عمر. وروىٰ عن جماعة من التابعين، نافع وغيره، وعنه الشافعي والأوزاعي وخلق، ولد سنة ٩٣ هـ، ومات سنة ١٧٩ هـ.

روىٰ هذا الحديث عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلًا، ومرسله ثقة. ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد مرفوعًا، وسنده من تقبل زيادته، وله شاهد عند أحمد من حديث أبي هريرة.

و«الموطأ» اشتهر في عصره حتىٰ قال الشافعي: ما تحت أديم السماء كتاب أكثر صوابًا بعد كتاب الله من «موطأ مالك». وهو كما قال؛ فإن حديثه أصح من حديث نظرائه.

---

(٥٤٤) في نسخة السعدي: «صفة معرفة».

قوله: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد»:

خاف ﷺ أن يقع في أمته ذلك، كما وقع من اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم، فرغب إلى ربه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد، وقد استجاب الله دعاءه فصان قبره، وأحاطه بثلاثة جدران، مثلثة لا يستطيع أحد الوصول إليه ولا استقباله

قال ابن القيم:

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

فدل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عبد لكان وثنًا، لكن حماه الله بما حال بينه وبين الناس، فلا يوصل إليه، ودل على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها، وقد عظمت الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها، حتى اتخذت دينًا يضلل من أنكر عبادتها.

قوله: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»:

أتى ﷺ بهذه الجملة بعد دعائه ربه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد، تنبيهًا على سبب لحوق شدة الغضب عليهم ولعنهم، وهو توصلهم بذلك إلى أن تصير أوثانًا تعبد، وفيه إشارة إلى ما ترجم له المصنف، وفيه تحريم البناء على القبور والصلاة عندها، وأنه من الكبائر. وكره مالك أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ؛ وعلل الكراهة بقوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٥٤٥].

قال المصنف: «**وفيه أنه لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه**».

قوله: «وابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد»:

ابن جرير هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، وقيل: يزيد بن كثير بن غالب الطبري من أهل آمد طبرستان، صاحب «التفسير» و«التاريخ» و«الأحكام» وغيرها.

قال ابن خزيمة: لا أعلم على وجه الأرض أعلم من محمد بن جرير. وكان من المجتهدين، وله أصحاب يتفقهون على مذهبه، ولد سنة ٢٢٤ هـ، ومات سنة ٣١٠ هـ.

---

(٥٤٥) سبق تخريجه.

وسفيان هو ابن سعيد بن مسروق الثوري من ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة، أبو عبد الله الكوفي، ثقة حافظ فقيه مجتهد، وله أيضًا أتباع يتفقهون علىٰ مذهبه، مات سنة ١٦١ هـ، وله ٦٤.

ومنصور هو ابن المعتمر بن عبد الله بن ربيعة أبو عتاب السلمي الكوفي، ثقة ثبت فقيه، روىٰ عن أبي وائل والنخعي والحسن وغيرهم، وعنه أيوب والأعمش وغيرهما، مات سنة ١٣٢هـ.

ومجاهد هو ابن جبر بفتح «الجيم» وسكون «الباء الموحدة» أبو الحجاج المخزومي المقري، مولىٰ السائب المكي، ثقة إمام في العلم والتفسير، أخذه عن ابن عباس وغيره، وروىٰ عن علي والعبادلة وغيرهم، وعنه عطاء وعكرمة وغيرهما، ولد سنة ٢١ هـ، ومات وهو ساجد سنة ١٠٤هـ.

قوله: «﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾، **قال: كان يلت لهم السويق**»؛ أي للحاج، والسويق دقيق الحنطة أو الشعير، ولته خلطه وبله بالسمن أو الماء.

قوله: «فمات فعكفوا علىٰ قبره»:

وفي رواية: كان اللات رجلًا في الجاهلية، وكان له غنم، فكان يسلو من رسلها، ويأخذ من زبيب الطائف والأقط، فيجعل منه حيسًا، فيطعم من يمر من الناس، فلما مات عبدوه وقالوا: هو اللات، رواه سعيد بن منصور والفاكهي؛ والمعنىٰ: أن اللات كان رجلًا صالحًا يطعم الحجاج السويق، فلما مات غلوا فيه وعظموه لأجل عمله الصالح الذي كان يعمله؛ فعكفوا علىٰ قبره حتىٰ عبدوه، وصار قبره وثنًا من أوثان المشركين، فقد تقرر أن سبب عبادة اللات هو الغلو في قبره حتىٰ صار وثنًا يعبد، كما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين ود وسواع وغيرهما، وكما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين اليوم من الأموات وغيرهم، فإنهم غلوا فيهم، وبنوا علىٰ قبورهم القباب والمشاهد، وجعلوها ملاذًا لقضاء المآرب، وهو الشاهد للترجمة. والعكوف علىٰ الشيء: الإقبال عليه مواظبًا والاحتباس فيه، والاستدارة حوله، ومنه الاعتكاف في المساجد.

قوله: «وكذا قال أبو الجوزاء عن عباس: كان يلت السويق للحاج»:

رواه البخاري عن مسلم بن إبراهيم عن أبي الأشعث عن أبي الجوزاء، وهو أوس بن عبد الله الربعي بفتحتين من ربيعة الأزد، روىٰ عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهما، وعنه بديل وقتادة والأشعث وغيرهم، ثقة مشهور مات سنه ٨٣ هـ.

❁ **قوله: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم زائرات القبور»:**

اللعن: الطرد والإبعاد ويقع بالقول، «**وزائرات**»: جمع زائرة، وفي رواية «**زوارات القبور**»[٥٤٦]، وفيه دلالة صريحة علىٰ تحريم زيارة النساء القبور وهو قول أكثر أهل العلم، وقد نهىٰ النبيﷺ عن زيارة القبور نهيًا عامًّا، ثم أذن فيه بقوله: «**فزوروها**» وحديث الإذن مخصص بهذا الحديث، فهو من العام المخصوص، ولم تدخل النساء في الإذن؛ لأوجه: «**منها**»: أن قوله: «**فزوروها**»: صيغة تذكير، ولو كان للعموم لكان النساء علىٰ عهدهﷺ وعهد خلفائه يزرنها. ومنها: أنه علل الإذن للرجال بأن ذلك يذكر الموت، ويرقق القلب، وتدمع العين، والمرأة يخرجها إلىٰ الجزع والندب والنياحة لما فيها من الضعف؛ والعلة في المنع أنهم كانوا حديثي عهد بكفر، فلما طال مكثهم في الإسلام نسخ لزوال العلة، والعلة في النساء باقية بحالها، وليس في زيارتهن من المصلحة ما يعارض تلك المفسدة؛ لأنه ليس في زيارتهن إلا دعاؤهن للميت، أو اعتبارهن به، وذلك ممكن في بيوتهن، وفي الحديث: «ارجعن مأزورات غير مأجورات، فإنكن تفتن الحي وتؤذين الميت». وفي «الصحيح» نهيه النساء عن اتباع الجنائز.

قوله: «والمتخذين عليها المساجد والسرج»؛ أي: ولعن رسول اللهﷺ المتخذين علىٰ القبور المساجد المبنية، والموقدين عليها السرج وكذا الصلاة عندها، والدعاء ونحو ذلك، وهذا حرام باتفاق العلماء. وفي «صحيح مسلم»: «**لا تجلسوا علىٰ القبور، ولا تصلوا إليها**»[٥٤٧]. وإذا كانت المساجد بنيت لذكر الله، وقراءة القرآن والصلاة، كانت القبور بذلك مساجد. قال ابن القيم: اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر. ووجه إيراد المصنف هذا الحديث في هذا الباب دون الذي قبله؛ هو أنه لعن المتخذين عليها المساجد والسرج، وقرن بينهما، فهما قرينان فدل علىٰ أنه لأجل نجاسة الشرك؛ إذ ليس لعن المسرجين من أجل نجاسة البقعة، فكذا البناء.

قوله: «رواه أهل السنن»:

أبو داود والترمذي وابن ماجه، ولم يخرجه النسائي، وجاء عن النبيﷺ نحوه من طريقين: عن أبي هريرة عند أحمد والترمذي وصححه، وعن حسان عند ابن ماجه. قال شيخ الإسلام: هذا الحديث تعددت طرقه، فهو في الأصل معروف، ومثله حجة بلا ريب.

---

(٥٤٦) سبق تخريجه.

(٥٤٧) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه، برقم (٩٧٢)، وأبو داود، كتاب: الجنائز، باب: في كراهية القعود علىٰ القبر، برقم (٣٢٢٩)، والترمذي، كتاب: الجنائز، باب: كراهية المشي علىٰ القبور والجلوس عليها والصلاة إليها، برقم (١٠٥٠)، وغيرهم من حديث أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب ما جاء في أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله»:

هذا صحيح كما سبق فالغلو يجعل المغلو فيه معبودًا من دون الله ولهذا لما غلا أناس في بعض الصالحين جعلوها تعبد من دون الله كقبر الصالحين من الحسن والحسين وفاطمة وغير ذلك، وهكذا هذه الأمة غلوا في الرسول فعبدوه واستغاثوا به ودعوه من دون الله.

وفي سابق الزمان لما غلا قوم نوح في الصالحين أدىٰ إلىٰ عبادتهم، وتقدم ذلك.

قوله: «روىٰ مالك في «الموطأ» أن رسول الله ﷺ قال: اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد...»[٥٤٨]:

روي مرسلًا عن عطاء بن يسار وزيد بن أسلم وروي متصلًا عن أبي سعيد الخدري عن النبي...

«**اشتد غضب الله.**»؛ لأنهم جعلوها أوثانًا تعبد من دون الله حيث بنوا عليها المساجد فعظموها فطافوا بها واستغاثوا بها ونذروا لها، فاللات لما غلا فيه أهل الطائف صار معبودًا من دون الله فهذه سنة الأولين والآخرين، فالبناء علىٰ القبور وتعظيمها يصيرها أوثانًا تعبدوإن لم يعبدوها الآن فالوسائل تجر إلىٰ الغايات.

قوله: «**وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس....**»، حديث ابن عباس «**لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها السرج والمساجد**».

فيه حرمة زيارة القبور علىٰ النساء علىٰ الصحيح للأدلة وكما في حديث حسان بن ثابت وأبي هريرة بمعناه، فزيارة القبور مختصة بالرجال.

المسألة الثانية:

اتخاذ المساجد علىٰ القبور لما سبق من التشبه بأهل الكتاب؛ ولأنه وسيلة إلىٰ الشرك.

مسألة:

لا يجوز زيارة النساء حتىٰ إلىٰ قبر النبي ﷺ علىٰ الصحيح؛ لأن الحديث عام.

وورد لفظ «**زوارات**»[٥٤٩] لكن ورد أيضًا زائرات.

الحلف بالقرآن جائز؛ لأنه كلام الله.

---

(٥٤٨) سبق تخريجه.

(٥٤٩) سبق تخريجه.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله: «باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله»:**

هذا الباب له صلة بما قبله، وهو أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله؛ أي: يئول الأمر بالغالين إلىٰ أن يعبدوا هذه القبور أو أصحابها. والغلو: مجاوزة الحد مدحًا أو ذمًّا، والمراد هنا: مدحًا.

والقبور لها حق علينا من وجهين:

١- أن لا نفرط فيما يجب لها من الاحترام، فلا تجوز إهانتها ولا الجلوس عليها، وما أشبه ذلك.

٢- أن لا نغلو فيها فنتجاوز الحد.

وفي «صحيح مسلم» قال علي بن أبي طالب لأبي الهياج الأسدي: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[٥٥٠] وفي رواية: «ولا صورة إلا طمستها»[٥٥١].

والقبر المشرف: هو الذي يتميز عن سائر القبور، فلا بد أن يسوىٰ ليساويها لئلا يظن أن لصاحب هذا القبر خصوصية ولو بعد زمن، إذ هو وسيلة إلىٰ الغلو فيه.

قوله: «**الصالحين**»: يشمل الأنبياء والأولياء، بل ومن دونهم.

قوله: «**أوثانًا**»: جمع وثن، وهو كل ما نصب للعبادة، وقد يقال له: صنم، والصنم: تمثال ممثل؛ فيكون الوثن أعم.

ولكن ظاهر كلام المؤلف أن كل ما يعبد من دون الله يسمىٰ وثنًا، وإن لم يكن علىٰ تمثال نصب؛ لأن القبور قد لا يكون لها تمثال ينصب علىٰ القبر فيعبد.

---

(٥٥٠)أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: الأمر بتسوية القبر، برقم (٩٦٩)، وأبو داود، كتاب: الجنائز، باب: في تسوية القبر، برقم (٣٢١٨)، والترمذي، كتاب: الجنائز، باب: تسوية القبر، برقم (١٠٤٩)، وغيرهم من حديث علي رضي الله عنه.

(٥٥١)أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: الأمر بتسوية القبر، برقم (٩٦٩/ م).

قوله: «**تعبد من دون الله**»؛ أي: من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها أو عبدت مع الله؛ لأن الواجب في عبادة الله إفراده فيها، فإن قرن بها غيره صارت عبادة لغير الله، وقد ثبت في الحديث القدسي أن الله تعالىٰ يقول: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٥٥٢]

قوله: «في الموطأ»:

كتاب مشهور، من أصح الكتب؛ لأنه رَحِمَهُ اللَّهُ تحرىٰ فيه صحة السند، وسنده أعلىٰ من سند البخاري؛ لقربه من الرسول ﷺ، وكلما كان السند أعلىٰ كان إلىٰ الصحة أقرب، وفيه مع الأحاديث آثار عن الصحابة، وفيه أيضًا كلام وبحث للإمام مالك نفسه.

وقد شرحه كثير من أهل العلم، ومن أوسع شروحه وأحسنها في الرواية والدراية: «التمهيد» لابن عبد البر، وهذا -أعني: «التمهيد»- فيه علم كثير.

قوله: «**اللهم**»: أصلها: يا الله! فحذفت «يا» النداء؛ لأجل البداءة باسم الله، وعوض عنها الميم الدالة علىٰ الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه علىٰ الله، وكانت الميم في الآخر؛ لأجل البداءة باسم الله.

قوله: «لا تجعل قبري وثنًا يعبد»:

لا: للدعاء؛ لأنها طلب من الله، وتجعل: تصير، والمفعول الأول لها: «**قبري**»، والثاني: «**وثنًا**».

وقوله: «**يعبد**»، صفة لوثن، وهي صفة كاشفة؛ لأن الوثن هو الذي يعبد من دون الله. وإنما سأل النبي ﷺ ذلك؛ لأن من كان قبلنا جعلوا قبور أنبيائهم مساجد وعبدوا صالحيهم، فسأل النبي ﷺ ربه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد؛ لأن دعوته كلها بالتوحيد ومحاربة الشرك.

قوله: «**اشتد**»؛ أي: عظم.

قوله: «**غضب الله**»، صفة حقيقية ثابتة لله عَزَّ وَجَلَّ لا تماثل غضب المخلوقين لا في الحقيقة ولا في الأثر، وقال أهل التأويل: غضب الله: هو الانتقام ممن عصاه، وبعضهم يقول: إرادة الانتقام ممن عصاه.

وهذا تحريف للكلام عن مواضعه؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: انتقم الله، وإنما قال: اشتد غضب الله، وهو ﷺ يعرف كيف يعبر، ويعرف الفرق بين غضب الله وبين الانتقام، وهو أنصح الخلق

---

(٥٥٢) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله تعالىٰ، برقم (٢٩٨٥)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: الرياء والسمعة، برقم (٤٢٠٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأعلم الخلق بربه، فلا يمكن أن يأتي بكلام وهو يريد خلافه؛ لأنه لو أتى بذلك لكان ملبسًا، وحاشاه أن يكون كذلك، فالغضب غير الانتقام وغير إرادة الانتقام، فالغضب صفة حقيقية ثابتة لله تليق بجلاله لا تماثل غضب المخلوق، لا في الحقيقة ولا في الأثر.

وهناك فروق بين غضب المخلوق وغضب الخالق، منها:

١- غضب المخلوق حقيقته هو: غليان دم القلب، جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى يفور، أما غضب الخالق، فإنه صفة لا تماثل هذا، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

٢- أن غضب الآدمي يؤثر آثارًا غير محمودة؛ فالآدمي إذا غضب قد يحصل منه ما لا يحمد، فيقتل المغضوب عليه، وربما يطلق زوجته، أو يكسر الإناء، ونحو ذلك، أما غضب الله؛ فلا يترتب عليه إلا آثار حميدة؛ لأنه حكيم؛ فلا يمكن أن يترتب على غضبه إلا تمام الفعل المناسب الواقع في محله.

فغضب الله ليس كغضب المخلوقين، لا في الحقيقة ولا في الآثار، وإذا قلنا ذلك؛ فلا نكون وصفنا الله بما يماثل صفات المخلوقين، بل وصفناه بصفة تدل على القوة وتمام السلطان؛ لأن الغضب يدل على قدرة الغاضب على الانتقام وتمام سلطانه؛ فهو بالنسبة للخالق صفة كمال، وبالنسبة للمخلوق صفة نقص.

ويدل على بطلان تأويل الغضب بالانتقام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ **[الزخرف:٥٥]**.

فإن معنى ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا؛ فجعل الانتقام غير الغضب، بل أثرًا مترتبًا عليه، فدل هذا على بطلان تفسير الغضب بالانتقام.

واعلم أن كُلَّ مَنْ حَرَّفَ نصوص الصفات عن حقيقتها وعما أراد الله بها ورسوله؛ فلا بد أن يقع في زلة ومهلكة، فالواجب علينا أن نسلم لما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله تعالى على ما ورد إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل.

❁ **قوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»:**

أي: جعلوها مساجد؛ إما بالبناء عليها، أو بالصلاة عندها، فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد.

وهنا نسأل: هل استجاب الله دعوة نبيه ﷺ بأن لا يجعل قبره وثنًا يعبد، أم اقتضت حكمته غير ذلك؟

الجواب: يقول ابن القيم: إن الله استجاب له، فلم يذكر أن قبره ﷺ جعل وثنًا، بل إنه حمي بثلاثة جدران، فلا أحد يصل إليه حتىٰ يجعله وثنًا يعبد من دون الله، ولم يسمع في التاريخ أنه جعل وثنًا.

قال ابن القيم في «النونية»:

فأجـــاب رب العـــالمين دعـــاءه وأحاطـــه بثلاثـــة الجـــدران

صحيح أنه يوجد أناس يغلون فيه، ولكن لم يصلوا إلىٰ جعل قبره وثنًا، ولكن قد يعبدون الرسول ﷺ ولو في مكان بعيد، فإن وجد من يتوجه له ﷺ بدعائه عند قبره، فيكون قد اتخذه وثنًا، لكن القبر نفسه لم يجعل وثنًا.

❁ **قوله: «ولابن جرير»:**

هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، الإمام المشهور في التفسير، توفي سنة ٣١٠هـ.

«وتفسيره»: هو أصل التفسير بالأثر، ومرجع لجميع المفسرين بالأثر، ولا يخلو من بعض الآثار الضعيفة، وكأنه يريد أن يجمع ما روي عن السلف من الآثار في تفسير القرآن، ويدع للقارئ الحكم عليها بالصحة أو الضعف بحسب تتبع رجال السند، وهي طريقة جيدة من وجه، وليست جيدة من وجه آخر.

فجيدة من جهة أنها تجمع الآثار الواردة حتىٰ لا تضيع، وربما تكون طرقها ضعيفة ويشهد بعضها لبعض.

وليس جيدة من جهة أن القاصر بالعلم ربما يخلط الغث بالسمين، ويأخذ بهذا وهذا، لكن من عرف طريقة السند، وراجع رجال السند، ونظر إلىٰ أحوالهم وكلام العلماء فيهم، علم ذلك.

وقد أضاف إلىٰ تفسيره بالأثر: التفسير بالنظر، ولا سيما ما يعود إلىٰ اللغة العربية، ولهذا دائمًا يرجح الرأي ويستدل له بالشواهد الواردة في القرآن وعن العرب.

ومن الناحية الفقهية؛ فالطبري مجتهد، لكنه سلك طريقة خالف غيره فيها بالنسبة للإجماع؛ فلا يعتبر خلاف الرجل والرجلين، وينقل الإجماع ولو خالف في ذلك رجل أو رجلان، وهذه الطريقة تؤخذ عليه؛ لأن الإجماع لا بد أن يكون من جميع أهل العلم المعتبرين في الإجماع، وقد يكون الحق مع هذا الواحد المخالف.

والعجيب أني رأيت بعض المتأخرين يحذرون الطلبة من تفسيره؛ لأنه مملوء علىٰ زعمهم بالإسرائيليات، ويقولون: عليكم بـ«تفسير الكشاف» للزمخشري وما أشبه ذلك، وهؤلاء مخطئون؛ لأنهم لجهلهم بفضل التفسير بالآثار عن السلف واعتزازهم بأنفسهم وإعجابهم بآرائهم صاروا يقولون هذا.

قوله: «عن سفيان»:

إما سفيان الثوري، أو ابن عيينة، وهذا مبهم، والمبهم يمكن معرفته بمعرفة شيوخه وتلاميذه، وفي الشرح -أعني «تيسير العزيز الحميد» يقول: الظاهر أنه الثوري.

قوله: «عن مجاهد»:

هو مجاهد بن جبر المكي، إمام المفسرين من التابعين، ذكر عنه أنه قال: «عرضت المصحف علىٰ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما من فاتحته إلىٰ خاتمته، فما تجاوزت آية إلا وقفت عندها أسأله عن تفسيرها».

قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾: «الهمزة»: للاستفهام، والمراد به التحقير، والخطاب لعابدي هذه الأصنام اللات والعزىٰ... إلخ.

لما ذكر الله تعالىٰ قصة المعراج وما حصل فيه من الآيات العظيمة التي قال عنها: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨] قال: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾؛ أي: ما نسبة هذه الأصنام للآيات الكبيرة التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج.

قوله: ﴿ٱللَّٰتَ﴾: «**كان يلت لهم... إلخ**»: علىٰ قراءة التشديد: من لت يلت، فهو لات.

أما علىٰ قراءة التخفيف، فوجهها أنها خففت لتسهيل الكلام؛ أي: حذف منها التضعيف تخفيفًا.

وقد سبق أنهم قالوا: إن اللات من الإله.

وأصله: رجل كان يلت السويق للحجاج، فلما مات عظموه، وعكفوا على قبره، ثم جعلوه إلهًا. وجعلوا التسمية الأولى مقترنة بالتسمية الأخيرة؛ فيكون أصله من لت السويق، ثم جعلوه من الإله، وهذا على قراءة التخفيف أظهر من التشديد؛ فالتخفيف يرجح أنه من الإله، والتشديد يرجح أن أصله رجل يلت السويق. وغلوا في قبره، وقالوا: هذا الرجل المحسن الذي يلت السويق للحجاج ويطعمهم إياه، ثم بعد ذلك عبدوه؛ فصار الغلو في القبور يصيّرها أوثانًا تُعبد من دون الله.

وفي هذا التحذير من الغلو في القبور، ولهذا نُهي عن تجصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفًا من هذا المحظور العظيم الذي يجعلها تعبد من دون الله، وكان الرسول ﷺ يأمر إذا بعث بعثًا: بأن لا يدعوا قبرًا مشرفًا إلا سووه[٥٥٣]؛ لعلمه أنه مع طول الزمان سيقال: لولا أن له مزية ما اختلف عن القبور؛ فالذي ينبغي أن تكون القبور متساوية لا ميزة لواحد منها عن البقية.

قوله: «**السويق**»: هو عبارة عن الشعير يحمص، ثم يطحن، ثم يخلط بتمر أو شبهه، ثم يؤكل.

وقوله: «**كان يلت لهم السويق، فمات، فعكفوا على قبره**»؛ يعني: ثم عبدوه وجعلوه إلهًا مع الله.

❁ **قوله: «وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج»**:

والغريب أن الناس في جاهليتهم يكرمون حجاج بيت الله، ويلتون لهم السويق، وكان العباس أيضًا يسقي لهم من زمزم، وربما يجعل في زمزم نبيذًا يحليه زبيبًا أو نحوه، وفي الوقت الحاضر صار الناس بالعكس يستغلون الحجاج غاية الاستغلال -والعياذ بالله-؛ حتى يبيعوا عليهم ما يساوي ريالًا بريالين وأكثر حسب ما يتيسر لهم، وهذا في الحقيقة خطأ عظيم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الحج:٢٥]، فكيف بمن يفعل الإلحاد؟!

❁ **قوله: «لعن»**:

اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله؛ ومعنى: «**لعن رسول الله ﷺ**»؛ أي: دعا عليهم باللعنة.

قوله: «**زائرت القبور**»، «**زائرات**»: جمع زائرة، والزيارة هنا معناها: الخروج إلى المقابر، وهي أنواع:

منها: ما هو سنة؛ وهي زيارة الرجال للاتعاظ والدعاء للموتى.

ومنها: ما هو بدعة؛ وهي زيارتهم للدعاء عندهم وقراءة القرآن ونحو ذلك.

ومنها: ما هو شرك؛ وهي زيارتهم لدعاء الأموات والاستنجاد بهم والاستغاثة ونحو ذلك.

---

(٥٥٣) سبق تخريجه.

وزائر: اسم فاعل يصدق بالمرة الواحدة، وفي حديث أبي هريرة: «**لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور**»[٥٥٤]؛ بتشديد الواو، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة؛ أي: كثرة الزيارة.

❁ **قوله: «والمتخذين عليها المساجد»**:

هذا الشاهد من الحديث؛ أي: الذين يضعون عليها المساجد، وقد سبق أن اتخاذ القبور مساجد له صورتان:

١- أن يتخذها مصلىٰ يصلىٰ عندها.

٢- بناء المساجد عليها.

قوله: «**والسرج**»: جمع سراج، توقد عليها السرج ليلًا ونهارًا تعظيمًا وغلوًّا فيها.

وهذا الحديث يدل علىٰ تحريم زيارة النساء للقبور، بل علىٰ أنه من كبائر الذنوب؛ لأن اللعن لا يكون إلا علىٰ كبيرة، ويدل علىٰ تحريم اتخاذ المساجد والسرج عليها، وهو كبيرة من كبائر الذنوب؛ للعن فاعله.

المناسبة للباب: إن اتخاذ المساجد عليها وإسراجها غلو فيها؛ فيؤدي بعد ذلك إلىٰ عبادتها.

مسألة: ما هي الصلة بين الجملة الأولىٰ: «**زائرات القبور**»، والجملة الثانية «**المتخذين عليها المساجد والسرج**»؟

الصلة بينهما ظاهرة: هي أن المرأة لرقة عاطفتها وقلة تمييزها وضعف صبرها ربما تعبد أصحاب القبور تعطفًا علىٰ صاحب القبر، فلهذا قرنها بالمتخذين عليها المساجد والسرج.

وهل يدخل في اتخاذ السرج علىٰ المقابر ما لو وضع فيها مصابيح كهرباء لإنارتها؟.

الجواب: أما في المواطن التي لا يحتاج الناس إليها، كما لو كانت المقبرة واسعة وفيها موضع قد انتهىٰ الناس من الدفن فيه؛ فلا حاجة إلىٰ إسراجه، فلا يسرج، أما الموضع الذي يقبر فيه فيسرج ما حوله؛ فقد يقال بجوازه؛ لأنها لا تسرج إلا بالليل؛ فليس في ذلك ما يدل علىٰ تعظيم القبر، بل اتخذ الإسراج للحاجة.

ولكن الذي نرىٰ أنه ينبغي المنع مطلقًا للأسباب الآتية:

---

(٥٥٤) سبق تخريجه.

١- أنه ليس هناك ضرورة.

٢- أن الناس إذا وجدوا ضرورة لذلك، فعندهم سيارات يمكن أن يوقدوا الأنوار التي فيها ويتبين لهم الأمر، ويمكنهم أن يحملوا سراجًا معهم.

٣- أنه إذا فتح هذا الباب؛ فإن الشر سيتسع في قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد، فلو فرضنا أنهم جعلوا الإضاءة بعد صلاة الفجر ودفنوا الميت؛ فمن الذي يتولى قفل هذه الإضاءة؟

الجواب: قد تترك، ثم يبقى كأنه متخذ عليها السرج؛ فالذي نرى أنه يمنع نهائيًّا.

أما إذا كان في المقبرة حجرة يوضع فيها اللبن ونحوه؛ فلا بأس بإضاءتها؛ لأنها بعيدة عن القبور، والإضاءة داخلة لا تشاهد، فهذا نرجو أن لا يكون به بأس.

والمهم أن وسائل الشرك يجب على الإنسان أن يبتعد عنها ابتعادًا عظيمًا، ولا يقدر للزمن الذين هو فيه الآن، بل يقدر للأزمان البعيدة؛ فالمسألة ليست هينة.

وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب؛ لهذا الحديث.

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه، لحديث أم عطية: «**نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا**»(٥٥٥)

القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور؛ لحديث المرأة: التي مر النبي ﷺ بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: «**اتقي الله واصبري**»، فقالت له: إليك عني، فإنك لم تصب بمثل مصيبتي. فانصرف الرسول ﷺ عنها، فقيل لها: هذا رسول الله ﷺ فجاءت إليه تعتذر، فلم يقبل عذرها، وقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(٥٥٦) فالنبي ﷺ شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر.

---

(٥٥٥) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: اتباع النساء للجنائز، برقم (١٢٧٨)، ومسلم، كتاب: الجنائز، باب: نهي النساء عن اتباع الجنائز، برقم (٩٣٨)، وغيرهما من حديث أم عطية رضي الله عنها.

(٥٥٦) أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: زيارة القبور، برقم (١٢٨٣)، ومسلم، كتاب: الجنائز، باب: في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، برقم (١٥/ ٩٢٦)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

ولما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي ﷺ خرج إلىٰ أهل البقيع في الليل، واستغفر لها ودعا لهم، وأن جبريل أتاه في الليل وأمره، فخرج ﷺ مختفيًا عن عائشة، وزار ودعا ورجع، ثم أخبرها الخبر، فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «**قولي: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين...**»[٥٥٧] إلخ.

قالوا: فعلمها النبي ﷺ دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل علىٰ الجواز.

ورأيت قولًا رابعًا: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال، لقوله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة**»[٥٥٨] وهذا عام للرجال والنساء؛ ولأن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زارت قبر أخيها، فقال لها عبدالله بن أبي مليكة: أليس النبي ﷺ قد نهىٰ عن زيارة القبور؟ قالت: إنه أمر بها بعد ذلك[٥٥٩]. وهذا دليل علىٰ أنه منسوخ.

والصحيح القول الأول، ويجاب عن أدلة الأقوال الأخرىٰ: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح؛ فمن ذلك:

أولًا: دعوىٰ النسخ غير صحيحة؛ لأنها لا تقبل إلا بشرطين:

١- تعذر الجمع بين النصين، والجمع هنا سهل وليس بمتعذر؛ لأنه يمكن أن يقال: إن الخطاب في قوله: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها**» للرجال، والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم: هل يدخل النساء أو لا؟ وإذا قلنا بالدخول -وهو الصحيح-؛ فإن دخولهن في هذا الخطاب من باب دخول أفراد العام في العموم، وعلىٰ هذا يجوز أن يخصص بعض أفراد العام بحكم يخالف العام، وهنا نقول قد خص النبي ﷺ النساء من هذا الحكم، فأمره بالزيارة للرجال فقط؛ لأن النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم بلعن الزائرات، وأيضًا مما يبطل

---

(٥٥٧) أخرجه مسلم، كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، برقم (٩٧٤)، وغيره من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٥٥٨) أخرجه الترمذي، كتاب: الجنائز، باب: الرخصة في زيارة القبور، برقم (١٠٥٤)، وأحمد (٥/ ٣٥٦)، وغيرهما من حديث بريدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٤٣٧٩).

(٥٥٩) أخرجه الحاكم، برقم (١٣٩٢)، وأبو يعلىٰ، برقم (٤٨٧١)، والبيهقي، برقم (٦٩٩٩)، واللفظ لهم، وابن ماجه، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في زيارة القبور، برقم (١٥٧٠) بنحوه، من حديث عبد الله بن أبي مليكة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٣/ ٢٣٤).

النسخ قوله: «**لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**»[٥٦٠] ومن المعلوم أن قوله: «**والمتخذين عليها المساجد والسرج**»؛ لا أحد يدعي أنه منسوخ؛ والحديث واحد، فادعاء النسخ في جانب منه دون آخر غير مستقيم، وعلىٰ هذا يكون الحديث محكمًا غير منسوخ.

٢- العلم بالتأريخ، وهنا لم نعلم التأريخ؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: كنت لعنت من زار القبور: بل قال: «**كنت نهيتكم**»، والنهي دون اللعن.

وأيضًا؛ فإن قوله: «**كنت نهيتكم**» خطاب للرجال، ولعن زائرات القبور خطاب للنساء، فلا يمكن حمل خطاب الرجال علىٰ خطاب النساء، إذًا؛ فالحديث لا يصح فيه دعوىٰ النسخ.

وثانيًا: الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشة؛ أن المرأة لم تخرج للزيارة قطعًا، لكنها أصيبت، ومن عظم المصيبة عليها لم تتمالك نفسها لتبقىٰ في بيتها، ولذلك خرجت وجعلت تبكي عند القبر مما يدل علىٰ أن في قلبها شيئًا عظيمًا لم تتحمله حتىٰ ذهبت إلىٰ ابنها وجعلت تبكي عند قبره، ولهذا أمرها ﷺ أن تصبر؛ لأنه علم أنها لم تخرج للزيارة، بل خرجت لما في قلبها من عدم تحمل هذه الصدمة الكبيرة؛ فالحديث ليس صريحًا بأنها خرجت للزيارة، وإذا لم يكن صريحًا، فلا يمكن أن يعارض الشيء الصريح بشيء غير صريح.

وأما حديث عائشة؛ فإنها قالت للرسول ﷺ ماذا أقول؟ فقال: «**قولي: السلام عليكم**»، فهل المراد أنها تقول ذلك إذا مرت، أو إذا خرجت زائرة؟ فهو محتمل، فليس فيه تصريح بأنها إذا خرجت زائرة؛ إذا من الممكن أن يراد به إذا مرت بها من غير خروج للزيارة، وإذا كان ليس صريحًا، فلا يعارض الصريح.

وأما فعلها مع أخيها رضي الله عنهما، فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبدالله بن أبي مليكة بلعن زائرات القبور، وإنما استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور مطلقًا؛ لأنه لو استدل عليها بالنهي عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور، لكنا ننظر بماذا ستجيبه.

فهو استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان عامًّا، ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إنه قد أمر بذلك، ونحن وإن كنا نقول: إن عائشة رضي الله عنها استدلت بلفظ العموم فهي كغيرها من العلماء لا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ علىٰ أنه روي

---

(٥٦٠) سبق تخريجه.

عنها؛ أنها قالت: «لو شهدتك ما زرتك»، وهذا دليل على أنها رضي الله عنها خرجت لتدعو له؛ لأنها لم تشهد جنازته، لكن هذه الرواية طعن فيها بعض العلماء، وقال: إنها لا تصح عن عائشة رضي الله عنها، لكننا نبقى على الرواية الأولى الصحيحة، إذا ليس فيها دليل على أن الرسول ﷺ نسخه، وإذا فهمت هي، فلا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ.

إشكال وجوابه:

في قوله: «**زوارات القبور**» ألا يمكن أن يحمل النهي عن تكرار الزيارة؛ لأن «**زوارات**» صيغة مبالغة.

الجواب: هذا ممكن، لكننا إذا حملناه على ذلك؛ فإننا أضعنا دلالة المطلق «**زائرات**».

والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل؛ فـ «**زوارات**» يعني: النساء إذا كن مائة كان فعلهن كثيرًا، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود في اللغة العربية، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾[ص:٥٠]، فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف؛ إذ الباب لا يفتح إلا مرة واحدة، وأيضًا قراءة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِّحَتۡ﴾[الزمر:٧٣]؛ فهي مثلها.

فالراجح تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنها من كبائر الذنوب.وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣٤٣/ ٢٤).

✿ **قوله: «فيه مسائل»:**

الأولى: تفسير الأوثان، وهي: كل ما عبد من دون الله، سواء كان صنمًا أو قبرًا أو غيره.

الثانية: تفسير العبادة، وهي: التذلل والخضوع للمعبود خوفًا ورجاء ومحبة وتعظيمًا؛ لقوله: «**لا تجعل قبري وثنًا يعبد**».

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف من وقوعه، وذلك في قوله: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد».

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وذلك في قوله: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٥٦١].

---

(٥٦١) أخرجه عبد الرزاق، برقم (١٥٨٧)، ومالك في «الموطأ»، برقم (٤١٤)، وابن أبي شيبة، برقم (٧٥٤٤)، عن زيد بن أسلم مرسلا، إلا أن مالكًا رواه عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مرسلًا أيضًا، وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٧٥٠)، وقال الكتاني في «نظم المتناثر» «وأسنده البزار عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا بلفظ الموطأ سواء وله، شاهد عند العقيلي من حديث أبي هريرة مرفوعًا بلفظ «اللهم لا تجعل قبري وثنا لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله، تؤخذ من قوله: «**اشتد غضب الله**».

وفيه: إثبات الغضب من الله حقيقةً، لكنه كغيره من صفات الأفعال التي نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها.

وفيه أنه يتفاوت كما ثبت في الحديث الصحيح حديث الشفاعة: «**إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله قبله ولا بعده**».

السادسة- وهي من أهمها -: معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان: وذلك في قوله: «**فمات، فعكفوا على قبره**».

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح، تؤخذ من قوله: «**كان يلت لهم السويق**»؛ أي: للحجاج؛ لأنه معظم عندهم؛ والغالب لا يكون معظمًا إلا صاحب دين.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية، وهو أنه كان يلت السويق.

التاسعة: لعنه زوارات القبور؛ أي: النبي ﷺ، وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ لفظ: «**زوارات القبور**» مراعاة للفظ الآخر.

العاشرة: لعنه من أسرجها، وذلك في قوله: «**والمتخذين عليها المساجد والسرج**».

وهنا مسألة مهمة لم تذكر، وهي: أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا كما في قبر اللات، وهذه من أهم الوسائل، ولم يذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، ولعله اكتفى بالترجمة عن هذه المسألة بما حصل للات؛ فإذا قيل بذلك، فله وجه.

مسألة: المرأة إذا ذهبت للروضة في المسجد النبوي لتصلي فيها، فالقبر قريب منها، فتقف وتسلم، ولا مانع فيه.

والأحسن البعد عن الزحام ومخالطة الرجال، ولئلا يظن من يشاهدها أن المرأة يجوز لها قصد الزيارة؛ فيقع الإنسان في محذور، وتسليم المرء على النبي ﷺ يبلغه حيث كان.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله: «باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله»:**

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لما حذر في الباب الذي قبله من الغلو في الصالحين أراد أن يبين في هذا الباب أنَّ الغلو في القبور وسيلة إلى الشرك المضاد للتوحيد وذلك بعبادة الأموات. كما أراد أيضًا التحذير من الغلو في القبور.

❁ **قوله: «روىٰ مالك»:**

«**ترجمة الإمام مالك**»: هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي - إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة- توفي سنة ١٧٩هـ رحمه الله تعالىٰ.

«**اللهم**»: منادىٰ مبني علىٰ الضم في محل نصب، والميم المشددة زائدة.

«**وثنًا**»: هو المعبود الذي لا صورة له: كالقبور والأشجار والعمد والحيطان والأحجار ونحوها.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

خاف ﷺ أن يقع في أمته مع قبره ما وقع من اليهود والنصارىٰ مع قبور أنبيائهم من الغلو فيها حتىٰ صارت أوثانًا، فرغب إلىٰ ربه أن لا يجعل قبره كذلك. ثم نبَّه ﷺ علىٰ سبب لحوق شدة الغضب واللعنة باليهود والنصارىٰ. أنَّه ما فعلوا في حقِّ قبور الأنبياء حتىٰ صيروها أوثانًا تعبد، فوقعوا في الشرك العظيم المضاد للتوحيد.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ الغلوَّ في القبور يجعلها أوثانًا تعبد؛ لأن النبي ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**» وبين ذلك بقوله: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

ما يستفاد من الحديث:

١- أنَّ الغلوَّ في قبور الأنبياء يجعلها أوثانًا تعبد.

٢- أنَّ من الغلو في القبور اتخاذها مساجد، وهذا يؤدي إلىٰ الشرك.

٣- إثبات اتصاف الله سبحانه بالغضب علىٰ ما يليق بجلاله.

❁ **قوله: «ولابن جرير بسنده...»:**

التراجم:

١- ابن جرير هو: الإمام الحافظ محمد بن جرير الطبري، صاحب «التفسير» مات سنة ٣١٠هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- سفيان: الأظهر أنه سفيان بن سعيد الثوري إمام حجة عابد، مات سنة ١٦١هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣- منصور هو: ابن المعتمر ثقة فقيه مات سنة ١٣٢هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤- مجاهد هو: ابن جبر ثقة إمام في التفسير، أخذ عن ابن عباس وغيره مات سنة ١٠٤هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥- أبو الجوزاء هو: أوس بن عبد الله الربعي ثقة مشهور مات سنة ٨٣هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

«**يلت السويق**»؛ أي: يخلطه بسمن ونحوه.

«**عكفوا على قبره**»: أقبلوا وواظبوا واحتبسوا عليه.

مناسبة الأثر للباب:

أنَّ سبب عبادة اللات هو الغلو في قبره حتى صار وثنًا يعبد.

قوله: «أهل السنن»:

أي: أبو داود والترمذي وابن ماجه، ولم يروه النسائي.

«**زائرات القبور**»؛ أي: من النساء.

«**والسرج**»؛ أي: الذين يوقدون السرج على المقابر ويضيئُونها.

معنى الحديث إجمالًا:

يدعو ﷺ باللعنة وهي الطرد والإبعاد عن رحمة الله للنساء اللاتي يزرن القبور؛ لأن زيارتهن يترتب عليها مفاسد من النياحة، والجزع وافتتان الرجال بهن، ولعن الذين يتخذون المقابر مواطن عبادةٍ أو يضيئُونها بالسرج والقناديل؛ لأن هذا غلو فيها ومدعاة للشرك بأصحابها.

مناسبة الحديث للباب:

أنه يدل على تحريم الغلو في القبور؛ لأن ذلك يصيرها أوثانًا تعبد.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم الغلو في القبور باتخاذها مواطن عبادةٍ؛ لأنه يُفضي إلى الشرك.

٢- تحريم تنوير المقابر؛ لأنَّ ذلك وسيلة لعبادتها.

٣- أنَّ الغلوَّ في القبور من الكبائر.

٤- أنَّ علة النهي عن الصلاة عند القبور هي: خوف الشرك، لا لأجل النجاسة؛ لأنّ الرسول ﷺ قرن بين اتخاذها مساجد وإسراجها ولعن على الأمرين، وليس اللعن على إسراجها من أجل النجاسة، فكذا الصلاة عندها.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب ماجاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله»:**

الغلو في قبور الصالحين وسيلة من وسائل الشرك بل قد يصل الغلو إلى أن يكون شركًا بالله -جل وعلا- وأن يُصيِّر ذلك القبر وثنًا يعبد، فالغلو درجات، وقد تقدم في الأبواب قبله ذكر بعض صور هذا الغلو في القبور، وهنا بين أن الغلو يصل إلى أن تصير تلك القبور أوثانًا تُعبد من دون الله.

وإذا قلنا: إن الغلو هو مجاوزة الحد فمعناه هنا في هذا الباب: هو مجاوزة الحد في الصفة التي ينبغي أن يكون عليها القبر؛ إذ صفتها في الشرع واحدة، ولم يأت عن الشارع دليل في تمييز قبور الصالحين عن غيرهم، بل الوارد وجوب أن تتساوى من حيث الصفة، فلا يفرق بين قبر صالح أو طالح، فالقبر إما أن يكون في ظاهر مسنَّما، وإما أن يكون مربعًا، وهذه الصورة من حيث الظاهر واحدة.

فنهي النبي عليه الصلاة والسلام عن الكتابة على القبر، أو تجصيصه، أو رفعه في أنواع من السنن التي جاءت في أحكام القبور؛ إنما لأجل سد الطرق التي توصل إلى الغلو في قبور الصالحين.

فمجاوزة الحد في قبور الصالحين هي مجاوزة لما أمر الشارع أن تكون عليه القبور؛ لأن قبور الصالحين لا تختلف عن قبور غير الصالحين. فالغلو فيها يكون بالكتابة عليها أو برفعها بالبناء عليها، أو باتخاذها مساجد، وكل هذا من الوسائل المؤدية إلى الشرك الأكبر.

ومن صور الغلو في قبور الصالحين أن تُجعل وسيلة من الوسائل التي تقرب إلى الله -جل وعلا- أو أن يتخذ القبر أو من في القبر شفيعًا لهم عند الله -جل وعلا- أو ينذر للقبر، أو يذبح له، أو يستشفع بترابه اعتقادًا أنه وسيلة عند الله -جل وعلا- ونحو ذلك من أنواع الشرك الأكبر بالله تبارك وتعالى.

فالغلو في قبور الصالحين يكون بمجاوزة ما أذن فيها، ومن المجاوزة ما هو من وسائل الشرك، ومنها ما هو شرك صريح، كاتخاذ القبور أوثانًا تُعبد من دون الله -جل وعلا- ولهذا قال

رَحِمَهُ اللَّهُ: «**باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا**» وقوله: «**يصيرها**» يعني: يجعلها، فقد يكون جعل الوسائل للغايات، يعني: أن الغلو صار وسيلة لاتخاذها أوثانًا، وقد يكون الغلو جعلها وثنا يعبد من دون الله جل وعلا.

وهذا هو الواقع والمشاهد في كثير من بلاد الإسلام في أن القبور صارت أوثانًا تُعبد من دون الله، لما أقيمت عليها المشاهد والقباب، ودعي الناس إليها، وذبح لها، وقبلت النذور لها، وصار يطاف حولها، ويعكف عندها، ونحو ذلك من أنواع الشرك الأكبر بالله.

❁ **قوله**: «**روىٰ مالك في «الموطأ» أن رسول الله ﷺ قال: اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد...**»:

قوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»: هذا دعاء، ورغب منه ﷺ إلىٰ الله تعالىٰ ألا يقع ذلك بقبره، ولو كان ذلك لا يقع أصلًا، ولا يمكن أن يقع لما دعا النبي عليه الصلاة والسلام بذلك الدعاء العظيم، وهو ألَّا يجعل قبره وثنا يعبد، كما جعلت قبور غيره من الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام- فإن عددًا من قبور الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام اتُّخذت أوثانًا تعبد من دون الله، وفي قوله: «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد**» دليل علىٰ أن القبر يمكن أن يكون وثنًا يعبد، فالغاية أن يكون القبر وثنًا يعبد، وقول النبي ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد**» دعاء منه بألَّا تتحقق هذه الغاية التي من وسائلها ما جاء في قوله بعد ذلك: «**اشتد غضب الله علىٰ قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» وهذا هو غلو الوسائل، فاتخاذ قبور الأنبياء مساجد غلو من غلو الوسائل يصير تلك القبور أوثانًا. فالنبي عليه الصلاة والسلام جمع في هذا الحديث بين ذكر الوسيلة والتنفير منها، وبيان اشتداد غضب الله علىٰ من فعلها، وذكر نهاية ما تصل إليه تلك الوسيلة بأصحابها، وهي أن تكون القبور أوثانًا تعبد من دون الله جل وعلا.

فهذا الحديث صريح في أن القبر يمكن أن يكون وثنًا، والخرافيون يقولون: إن القبور لا يمكن أن تكون أوثانًا، والأوثان هي أوثان الجاهلية وأصنام الجاهلية فقط. فنقول في الرد عليهم: إن الجاهليين إذا كانوا قد تعلّقوا بأصنام، وبأحجار، وبأشجار، وبغير ذلك من الأشياء، واعتقدوا فيها ووصل بهم ذلك الاعتقاد إلىٰ حد الشرك الأكبر مع أن المسوغ العقلي والنفسي لعبادتها غير قوي، ولا ظاهر فيها فإن اتخاذ قبور الصالحين والأنبياء والمرسلين أوثانًا، أو أن يتوجه إلىٰ أصحابها بالعبادة وارد من باب أولىٰ؛ لأن تعلق القلوب بالصالحين أولىٰ من تعلقها بالأحجار، وتعلقها بالأنبياء والمرسلين أولىٰ من تعلقها بالجن، أو بالأشجار، أو بالأحجار، أو نحو ذلك.

فوسائل الشرك بالقبور أظهر منها في الأصنام ونحوها وأوضح، وهما يشتركان في أن كلًّا منهما يعتقد تأثير الصنم أو الوثن في حصول ما يرجوه من الشفاعة عند الله، فأولئك المشركون يقولون في آلهتهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣] ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨]. وأهل العصور التي فشا فيها الشرك إذا سألتهم يقولون: هذا توسل، وهذا استشفاع، والحال واحدة، والسبيل الذي جعل تلك القبور أوثانًا هو اتخاذها مساجد، والبناء عليها، والحث علىٰ مجيئها، والتبرك بها، وذكر الكرامات التي تحصل عندها من إجابة الدعوات، وتفريج الكربات! إلىٰ غير ذلك مما يفعله المشركون بقبور معظميهم.

❁ **قوله: «ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد قال في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾[النجم: ١٩] قال: كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا علىٰ قبره...»**:

الشاهد قول مجاهد: «**مات فعكفوا علىٰ قبره**»، فهذا العكوف؛ لأجل أنه رجل كان ينفعهم، يلتُّ السويق لهم، وهذا علىٰ قراءة (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَّ وَالعُزَّىٰ).

ووجه المناسبة ظاهر من أن صلاح ذلك الرجل جعلهم يغلون في قبره كما قال: «**فعكفوا علىٰ قبره**» والعكوف علىٰ قبره يصيرها أوثانًا، والعكوف معناه: لزوم القبر بتعظيمه، واعتقاد البركة، والثواب، والنفع، ودفع الضر في لزومه، فهذا معنىٰ العكوف.

❁ **قوله: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم زائرات القبور»**:

وجه الدلالة من الحديث ظاهر، وهي أن النبي ﷺ لعن المتخذين علىٰ القبور المساجد والسّرج. أما اتخاذ المساجد علىٰ القبور فقد سبق الكلام عليه، وأما لعن المتخذين السرج علىٰ القبور، فلأنها وسيلة لتعظيم تلك القبور، ونوع من أنواع الغلو فيها، وقد كانت القبور المعظّمة تسرج قديمًا، وتجعل عليها القناديل، أما في هذه الأعصار، فيجعلون عليها الأنوار العظيمة التي تبين أن هذا المكان مقصود، وأنه مطلوب الراغبين، ويجعلون لها من وسائل الإضاءة العصرية الحديثة ما يسطع الأبصار، ويغري الناس بتعظيمها وعبادتها. ولا شك أن هؤلاء ملعونون بلعنة رسول الله، فلا يجوز أن تتخذ السرج علىٰ القبور؛ **لأن اتخاذ السرج علىٰ القبور من أنواع الغلو فيها، ولأنه يدعو إلىٰ تعظيمها، وقد يئول الأمر بعد ذلك إلىٰ أن تتخذ آلهة وأوثانًا تعبد مع الله جل وعلا.**

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير الأوثان، أي: إنها ما بوشر بالعبادة سواء كان منحوتًا علىٰ صورة أم لا.

الثانية: تفسير العبادة، أي: إنها الإقبال عليه بالدعاء والصلاة وغيرهما بسبب اتخاذ قبره مسجدًا كما جرىٰ من اليهود والنصارىٰ.

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه، أي: لما وقع من اليهود والنصارىٰ ما وقع خاف أن يقع من أمته عند قبره مثل ذلك فدعا الله ألاّ يجعل قبره وثنًا يعبد.

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، أي: لأن اتخاذها مساجد سبب لجعلها أوثانًا ففيه تحذير أمته من مباشرة قبره واتخاذه مسجدًا فيجرهم ذلك إلىٰ جعله وثنًا يعبد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله، أي: لأن هذا من أعظم الذرائع إلىٰ الشرك الذي هو أعظم الذنوب وأقبح القبيح.

السادسة: وهي من أهمها صفة معرفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان، أي: إن صفة عبادته هي العكوف عند قبره.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح أي: لكونه يلت السويق للحاج.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر وذكر معنىٰ التسمية، أي: إن اللات اسم صاحب القبر، وأما معنىٰ التسمية فهي أنه كان يلت السويق فلما مات عبدت ثقيف قبره وقالوا: هو اللات.

التاسعة: لعنه زوارات القبور، أي: النساء اللاتي يزرن القبور.

العاشرة: لعنه من أسرجها، أي اتخذ عليها السرج لأنه من الغلو فيها الذي هو سبب لعبادتها من دون الله.

* الأسئلة *

❁ قوله: «روى مالك في الموطأ: أن رسول الله ﷺ قال: اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد...».

س: ما الذي يدل عليه هذا الحديث؟ وهل استجاب الله دعاء نبيه أم لا وما هي الأوثان؟

جـ: يدل علىٰ:

١ - أن النبي ﷺ خاف أن يقع من أمته ما وقع لغيرهم من الأمم السابقة فتجعل قبره وثنًا يعبد من دون الله.

٢ - تحريم البناء علىٰ القبور والصلاة عندها وأن ذلك من الكبائر.

٣ - إثبات صفة الغضب لله علىٰ ما يليق بجلاله.

وقد استجاب الله دعاء نبيه فحمىٰ قبره بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه.

والأوثان: جمع وثن وهو ما قصد بنوع من أنواع العبادة لغير الله.

❁ قوله: «قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ الآيتين [النجم ١٩]».

س: ما المقصود باللات والعزى؟ واذكر مناسبة الآية للباب؟

جـ: اللات: رجل صالح كان يلت السويق للحاج فمات فعكفوا علىٰ قبره

والسويق: دقيق الحنطة أو الشعير ولته: بله بالسمن أو الماء. والمعنىٰ: أن هذا الرجل يطعم الحجاج السويق فلما مات غلو فيه لصلاحه فعكفوا علىٰ قبره حتىٰ عبدوه وصار قبره وثنًا من أوثان المشركين، وقيل اللات صخرة بالطائف كانت تعبد من دون الله كما تقدم.

والعزىٰ: شجرة بوادي نخلة بين مكة والطائف كانت العرب في جاهليتها يعظمونها ويفتخرون بها فلما ظهر الإسلام قطعت تلك الشجرة وأزيلت هي وغيرها مما كان يعبد من دون الله.

ومناسبة الآية للباب: أن تعظيم الرجال الصالحين والغلو في قبورهم والعكوف عليها يؤدي إلىٰ الشرك المنافي للتوحيد.

قوله: «عن بن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»(٥٦٢) رواه أهل السنن وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية والسيوطي».

س: اذكر حكم زيارة القبور وما يفعل عندها؟

جـ: زيارة القبور حرام على النساء؛ لأنه ﷺ لعن زائرات القبور وأما في حق الرجال فهي على نوعين مشروع وممنوع.

١ - أما المشروع فهو زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير سفر بأن يزورها المسلم فيدعو لأهلها ويتذكر الآخرة.

٢ - وأما الممنوع فهو نوعان:

الأول: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج منهم.

الثاني: وسيلة إلى الشرك كالتمسح بالقبور والصلاة عندها وإسراجها والبناء عليها والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة وهذا النوع محرم.

س: ما معنى اتخاذ السرج على القبور وما حكمه؟

جـ: معناه إضاءتها بالمصابيح وهو محرم؛ لأن فيه إضاعة للمال في غير فائدة وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام وهو من الكبائر الملعون فاعله.

والله سبحانه وتعالى أعلم.



---

(٥٦٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الجنائز، باب: في زيارة النساء القبور، برقم (٣٢٣٦)، والترمذي، كتاب: الصلاة، باب: كراهية أن يتخذ على القبر مسجدًا، برقم (٣٢٠) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في «الإرواء» (٣/ ٢١٢).

الدرس الثاني والعشرون:

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية [التوبة:١٢٨]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[٥٦٣]. رواه أبو داود بإسناد حسنٍ ورواته ثقات.

وعن علي بن الحسين رضي الله عنه، أنه رأى رجلًا يجيء إلى فُرجةٍ كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها، فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم[٥٦٤] حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ، قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا علي، فإن تسليمكم يبلغني أينما[٥٦٥] كنتم». رواه في «المختارة»[٥٦٦].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية ﴿بَرَاءَةٌ﴾.

الثانية: إبعاده ﷺ أمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه ﷺ علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه ﷺ عن زيارة قبره على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه ﷺ عن الإكثار من الزيارة.

---

(٥٦٣) أخرجه أبو داود، كتاب: المناسك، باب: زيارة القبور، برقم (٢٠٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، والطبراني في «الأوسط»، برقم (٨٠٣٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٧٢٢٦).

(٥٦٤) في نسخة السعدي، وابن باز، وفي مصنف ابن أبي شيبة «أحدثك»، والمثبت موافق لما في مسند أبي يعلى.

(٥٦٥) عند السعدي، والفوزان «أينما- أو حيث»، وعند ابن باز «حيث»، وفي نسخة ابن عثيمين «أين»، وفي مصنف ابن أبي شيبة «حيث ما»، والمثبت موافق لما في مسند أبي يعلى، ونسخة ابن قاسم.

(٥٦٦) أخرجه الضياء في «المختارة»، برقم (٤٢٨)، أبو يعلى، برقم (٤٦٩)، وابن أبي شيبة، برقم (٧٥٤٢).

السادسة: حثه ﷺ على النافلة في البيت.

السابعة: أنه مقرر [٥٦٧] عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

الثامنة: تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بَعُدَ، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله: «باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك»:**

«المصطفى»: المختار، و«الجناب» هو الجانب، والمراد حمايته ﷺ التوحيد عما يقرب منه، أو يخالفه من الشرك وأسبابه؛ إذ هو أعظم الفرائض، بل لا تصح إلا به، وهو الذي جاءت الرسل بالقيام به، والنهي عما ينافيه، ومع حمايته لجنابه اجتهد في سد كل طريق يوصل أمته إلى الشرك، وحذر وأنذر، وأبدى وأعاد، وخص وعم، وقطع الوسائل والذرائع المفضية إليه، فصلى الله عليه وسلم كما بلغ البلاغ المبين، وفي الأبواب المتقدمة شيء من حماية المصطفى ﷺ لجناب التوحيد، ولكن أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا حمايته الخاصة.

❁ **قوله: «وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾»:**

يخبر تعالى عباده على سبيل الامتنان أنه بعث فيهم رسولًا عظيمًا، أرسله إليهم من أنفسهم؛ أي: من جنسهم، يرجعون معه إلى نفس واحدة، وبلغتهم ولسانهم، يعرفونه ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته ونصيحته وشفقته، وذلك أقرب وأسرع إلى فهم الحجة، وأبعد من اللجاجة، ويقتضي مدحًا لنبيه ﷺ وأنه من صميم العرب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران:١٦٤]. وقال جعفر للنجاشي: إن الله بعث فينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته.

❁ **قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية:**

أي: شديد عليه جدًّا الذي يعنت أمته، وهو لحاق الأذى الذي يضيق به الصدر، ولا يهتدي

---

(٥٦٧) في نسخة السعدي: «متقرر».

للمخرج عنه، والذي يشق عليها من كفر وضلال وامتحان، وفي الحديث: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[٥٦٨]. وفي «الصحيح»: «**إن هذا الدين يسر**»[٥٦٩]، فشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله عليه. وقوله: «**حريص عليكم**»؛ أي: راغب ومجتهد على هدايتكم، وحصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، والحرص شدة طلب الشيء على الاجتهاد فيه، حتى قال: «**ما بقي شيء يقرب من الجنة، ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم**»[٥٧٠]. وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]؛ أي: بليغ الرأفة والشفقة بهم لا بغيرهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥]. وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ما بعث الله من نبي إلا كان عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويحذرهم من شر ما يعلمه لهم**»[٥٧١]. فاقتضت هذه الأوصاف أن أنذر أمته وحذرهم عن الشرك الذي هو أعظم الذنوب، ولا ريب أن الإنذار عنه زبدة رسالته، وقد بين ﷺ لأمته ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها، وهذا وجه الدلالة من الآية.

❁ **قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»:**

أي: لا تعطلوها من الصلاة فيها، والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور؛ لأن النهي عن الصلاة عند القبور قد تقرر عندهم، فنهاهم أن يجعلوا بيوتهم كذلك، وأمر بتحري العبادة فيها، ونهاهم عن تحريها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى، ومن تشبه بهم من هذه الأمة. وفي الصحيحين: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبورًا**»[٥٧٢]. ولمسلم: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه**»[٥٧٣]. وفي هذا ونحوه إبعاد لأمته عن الشرك.

---

(٥٦٨) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني، برقم (٧٨٦٨)، مطولًا من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٢٩٢٤).

(٥٦٩) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر، برقم (٣٩)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥٧٠) أخرجه الطبراني، برقم (١٦٤٧)، وأحمد (٥/ ١٥٣) بمعناه، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٤٧٢)، وقال «ورجال الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة وفي إسناد أحمد من لم يسمَّ».

(٥٧١) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول، برقم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥٧٢) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: كراهية الصلاة في المقابر، برقم (٤٣٢)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، برقم (٧٧٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥٧٣) أخرجه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، برقم (٧٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ **قوله: «ولا تجعلوا قبري عيدًا»:**

نهىٰ ﷺ عن زيارة قبره علىٰ وجه مخصوص، واجتماع معهود كالعيد الذي يكون علىٰ وجه مخصوص في زمان مخصوص، وذلك يدل علىٰ المنع في جميع القبور؛ لأن قبره أفضل قبر علىٰ وجه الأرض، وقد نهىٰ عن اتخاذه عيدًا، فقبر غيره أولىٰ بالنهي كائنًا من كان، والعيد اسم لما يعود من الاجتماع العام ويتكرر علىٰ وجه معتاد، أو يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان، من المعاودة والاعتياد، والمكان الذي يقصد فيه الاجتماع، وانتيابه للعبادة وغيرها، وهو الشاهد للترجمة، نهىٰ أن يتخذ قبره عيدًا للصلاة والدعاء وغير ذلك من وسائل الشرك، كما اتخذ المشركون أعيادًا زمانية ومكانية، وقد أبطلها الشرع، وعوض عنها عيد الفطر وعيد الأضحىٰ والكعبة والمشاعر.

❁ **قوله: «وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»:**

يشير بذلك إلىٰ أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبُعْدِكُم عنه، فلا حاجة لكم إلىٰ اتخاذه عيدا تنتابونه وترددون إليه؛ لأجل ذلك، ومن اتخاذه عيدًا أن تتكرر زيارته علىٰ وجه مخصوص، وتبليغهﷺ حيث صلي عليه من خصائصه. وقال الحسن بن الحسن: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء. وأنكر مالك: زرت قبر النبيﷺ؛ لئلا يتخذ ذريعة إلىٰ جعله عيدًا.

❁ **قوله: «رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات»:**

وقال الحافظ ابن عبد الهادي: هو حديث حسن، جيد الإسناد. وله شواهد يرتقي بها إلىٰ درجة الصحة. وقال شيخ الإسلام: ومثل هذا إذا كان له شواهد علم أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة.

❁ **قوله: «وعن علي بن الحسين»:**

يعني: ابن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم. قال الزهري: ما رأيت قرشيًا أفضل منه. مات سنة ٩٣ هـ، وأبوه الحسين، سبط رسول الله ﷺ وريحانته، حفظ عن رسول الله ﷺ، واستشهد يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ، وله ٥٦.

❁ **قوله: «أنه رأىٰ رجلًا يجيء إلىٰ فرجة كانت عند قبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم»:**

الفرجة بضم «الفاء» وسكون «الراء»، وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما، والرجل المبهم صرح باسمه سعيد بن منصور في «سننه»؛ أنه سهيل بن أبي صالح، قال: رآني الحسن بن الحسن بن علي عند القبر، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشىٰ، فقال: هلم إلىٰ العشاء، فقلت: لا

أريده، فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ فقال: إذا دخلت المسجد فسلم. وذكر الحديث. وفيه حرص السلف على قطع الوسائل والذرائع، وسد أبوابها المفضية إلى الشرك.

❁ **قوله: «وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ، قال: ...»:**

فيه دليل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها؛ لأن ذلك نوع من اتخاذها عيدًا، ويدل أيضًا على أن قصد الرجل القبر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المسجد من اتخاذه عيدًا المنهي عنه، قال شيخ الإسلام: ما علمت أحدًا رخص فيه؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيدًا، ويدل أيضًا على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه؛ لأن ذلك من اتخاذه عيدًا وأنه لم يشرع، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، وإنما كانوا يأتون إلى مسجده فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه ﷺ في الصلاة أفضل وأكمل، وكانت الحجرة في زمانهم يؤتى إليها من الباب، ومع التمكن لا يدخلون عليه، لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، فلم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره؛ لنهيهم بقوله: «**لا تتخذوا قبري عيدًا**»[(٥٧٤)] وغير ذلك، وإنما كان يأتي أحدهم من خارج، إذا قدم من سفر، كما كان ابن عمر يفعله، فيقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه، ثم ينصرف ولا يقف للدعاء. قال شيخ الإسلام: لأنه لم ينقل عن أحد من الصحابة، فصار بدعة، واتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وفي هذا الحديث أيضًا دليل على منع شد الرحل إلى قبره ﷺ أو غيره من القبور والمشاهد؛ لأن ذلك من اتخاذها أعيادًا، ومن أعظم أسباب الإشراك بها كما هو الواقع، واتفق الأئمة على المنع من ذلك؛ لما في «الصحيحين»: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**»[(٥٧٥)]. فدخل في النهي شدها لزيارة القبور والمشاهد، بل هي أولى بالنهي، وإذا نوى بشد الرحل زيارة القبر فقط حرم، وإن نواه والمسجد جاز.

---

(٥٧٤) سبق تخريجه.

(٥٧٥) أخرجه البخاري، كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، برقم (١١٨٩)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، برقم (١٣٩٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

❁ **قوله: «ولا بيوتكم قبورًا، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم»:**

وفيما رواه منصور عن أبي صالح: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء. فإن قيل: إذا سمع سلام المسلم عند قبره حصلت المزية بسلامه. قيل: هذا لو حصل الوصول إلى قبره كسائر قبور المسلمين، أما وقد منع الناس من الوصول إليه بثلاثة الجدران فلا تحصل المزية، فسواء سلم عليه عند قبره، أو في مسجده إذا دخله، أو في أقصى المشرق أو المغرب، فالكل يبلغه كما وردت به الأحاديث، وليس في شيء منها أنه يسمع صوت المسلم بنفسه، إنما فيها أن ذلك يعرض عليه، ويبلغه ﷺ.

❁ **قوله: «رواه في المختارة»:**

هو كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على «الصحيحين». ومؤلفه: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ، ضياء الدين الحنبلي، أحد الأعلام. قال الذهبي: أفنى عمره في هذا الشأن، مع الدين المتين، والورع والفضيلة التامة والإتقان.

قال شيخ الإسلام: تصحيحه في «مختارته» خير من تصحيح الحاكم بلا ريب. مات سنة ٦٤٣ هـ. وروى هذا الحديث أبو يعلى، والقاضي إسماعيل، ورواه سعيد بن منصور في «سننه» من طريقين عن أبي صالح وأبي سعيد مولى المهدي. قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان يدلان على ثبوت الحديث. اهـ.

وقد روي من وجوه مسندة. وقال الشارح حافظ عصره: هذا والذي قبله جيدان، حسنا الإسنادين. قال شيخ الإسلام: فانظر هذه السنة، كيف مخرجها من أهل المدينة، وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أشد.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك»:**

من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب رأى نصوصًا كثيرة تحث على القيام بكل ما يقوي التوحيد: وينميه ويغذيه من الحث على الإنابة إلى الله وانحصاره في تعلق القلب بالله رغبة ورهبة، وقوة الطمع في فضله وإحسانه، والسعي لتحصيل ذلك وإلى التحرر من رق المخلوقين، وعدم التعلق بهم بوجه من الوجوه، أو الغلو في أحد منهم، والقيام التام بالأعمال الظاهرة والباطنة، وتكميلها وخصوصًا حث النصوص على روح العبودية، وهو الإخلاص التام لله وحده.

ثم في مقابلة ذلك نهىٰ عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين، ونهىٰ عن التشبه بالمشركين؛ لأنه يدعو إلىٰ الميل إليهم، ونهىٰ عن أقوال وأفعال يُخشىٰ أن يتوصل بها إلىٰ الشرك كل ذلك حماية للتوحيد، ونهىٰ عن كل سبب يوصل إلىٰ الشرك وذلك رحمة بالمؤمنين، ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة والباطنة، وتكميلها؛ لتكمل لهم السعادة والفلاح وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب ما جاء في حماية المصطفىٰ جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك»:

بين المؤلف بهذه الترجمة ما جاء به النبي ﷺ وحمايته التوحيد من الأقوال والأفعال الشركية.

«**وجناب الشيء**»: الجزء منه، وحمىٰ التوحيد: زائد علىٰ الجناب فالثانية أبلغ من الأولىٰ؛ لأن الأولىٰ في الجانب والثانية في الحمىٰ، وهنا ذكر الوسائل الفعلية لحماية التوحيد من الشرك، وفي باب حماية التوحيد وسد طرق الشرك -وسيأتي ذكره- فيه الحماية القولية؛ أي: حمىٰ التوحيد بالتحذير من الشرك وما يوصل إليه من أقوال وأفعال.

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]وهذا وصف له والخطاب لقريش، وللأمة كلها، ولهم خاصة؛ لأنهم يعرفونه ويعرفون نسبه وأنه منهم وفي قراءة شاذة (من أَنْفَسِكُم) [٥٧٦]من أشرفكم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:١٢٨] أي: شاق عليه الشيء الذي يضركم يتعبكم لرحمته بكم وحبه لكم، وحريص علىٰ هدايتكم، وتحذيركم من النار بأعماله وأقواله، وهو رءوف بالمؤمنين عطوف عليهم، ولكنه شديد علىٰ أعداء الله لكفرهم وضلالهم

فهذه أوصافه فإن كانت هذه حاله فالواجب اتباعه ومحبته، ولكن حصل العكس فعادوه حتىٰ أرادوا قتله، ثم من كانت هذه صفاته فإنه لا يترك أمته بدون نُصح، لذلك أمر بالتوحيد وحث الناس علىٰ الاستقامة وحذر من الشرك وأسبابه بأقواله الكثيرة كحديث: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ.... إياكم والغلو... هلك المتنطعون**» [٥٧٧].

---

(٥٧٦)هي قراءة عبد الله بن قسيط المكي. انظر في ذلك «تفسير الثعالبي» (٢/ ١٦٧)، و «تفسير القرطبي» (٨/ ٢٧٣) وفيه كلام نفيس فَلْيُراجَع.

وهي قراءة ابن عباس والزهري وابن محيصن كما في «تفسير البغوي» تفسير سورة التوبة، آية: رقم (١٨٢).

(٥٧٧)سبق تخريجه.

❁ **قوله**: «**عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ولا تجعلوا...**»:

«**عيدًا**»: بتكرار المجيء إليه والدعاء عنده أو الصلاة عنده أو الاستغاثة به ونحو ذلك، والعيد هو ما يتكرر ويعود كل مرة؛ ولا يدخل في هذا زيارته عليه الصلاة والسلام بدون شد الرحل وبدون غلو فيها وعبادة عندها.

«**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**»؛ أي: مثل القبور لا يصلىٰ فيها ولا يقرأ عندها بل صلوا فيها واقرءوا وفي الحديث «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا**»[٥٧٨] فدل علىٰ أن القبور لا يصلى فيها ولا يقرأ عندها. والذي يُصلىٰ في البيوت: النوافل.

«**صلوا علي**»: حث علىٰ الصلاة عليه ﷺ.

❁ **قوله**: «**عن علي بن الحسين أنه رأىٰ رجلًا يجيء إلىٰ فُرجة...**»:

«**علي بن الحسين**»: هو زين العابدين.

فيصلىٰ علىٰ النبي ﷺ في مكان في البيت والسوق والطريق ولا يخصوا السلام والصلاة عليه عند القبر. ولهذا أنكر علي بن الحسين علىٰ الرجل وبين له أن هذا ليس بمشروع وأنك تسلم عليه وتمضي، لا تجلس عند القبر تدعو.

هذه سنة جاءت عن أهل البيت وكلهم بينوا أن اتخاذ القبر عيدًا وسيلة إلىٰ الشرك إذا عكفوا عليه عنده وصَلُّوا عنده ودعوا عنده جرهم هذا إلىٰ الشرك والغلو فحسم النبي المادة، ومن اتخاذ القبور مساجد، والبناء عليها وتجصيصها وفرشها يؤدي إلىٰ اعتقاد العامة أنها معظمة وأنها تنفع وكل هذا قد وقع مع أن النبي ﷺ قد حمىٰ جانب التوحيد وحذر من الشرك.

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله**: «المصطفىٰ»:

أصلها: المصتفىٰ، من الصفوة، وهو خيار الشيء، فالنبي ﷺ أفضل المصطفين؛ لأنه أفضل أولي العزم من الرسل، والرسل هم المصطفون، والمراد به: محمد ﷺ، والاصطفاء علىٰ درجات أعلاها اصطفاء أولي العزم من الرسل، ثم اصطفاء الرسل، ثم اصطفاء الأنبياء، ثم اصطفاء الصديقين، ثم اصطفاء الشهداء، ثم اصطفاء الصالحين.

---

(٥٧٨) سبق تخريجه.

قوله: «حماية»: من حمى الشيء، إذا جعل له مانعًا يمنع من يقرب حوله، ومنه حماية الأرض عن الرعي فيها، ونحو ذلك.

قوله: «جناب»؛ بمعنى: جانب، والتوحيد: تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قوله: «وسده كل طريق»؛ أي: مع الحماية لم يدع الأبواب مفتوحة يلج إليها من شاء، ولكنه سد كل طريق يوصل إلى الشرك؛ لأن الشرك أعظم الذنوب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الشرك الأصغر لا يغفره الله؛ لعموم قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، وعلى هذا؛ فجميع الذنوب دونه؛ لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فيشمل كبائر الذنوب وصغائرها، فالشرك ليس بالأمر الهين الذي يتهاون به، فالشرك يفسد القلب والقصد، وإذا فسد القصد فسد العمل، إذ العمل مبناه على القصد، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥، ١٦]، وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»[٥٧٩].

إذًا؛ فالرسول ﷺ حمى جانب التوحيد حماية محكمة، وسد كل طريق يوصل إلى الشرك ولو من بعيد؛ لأن من سار على الدرب وصل، والشيطان يزين للإنسان أعمال السوء شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الغاية.

❁ قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[التوبة:١٢٨]:

الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، وقد، وهي مؤكدة لجميع مدخولها بأنه رسول، وأنه من أنفسهم، وأنه عزيز عليه ما يشق علينا، وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، فالقسم منصب على كل هذه الأوصاف الأربعة.

---

(٥٧٩) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: بدء الوحي، برقم (١)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات» وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، برقم (١٩٠٧)، وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه.

والخطاب في قوله: ﴿جَآءَكُمْ﴾ قيل: للعرب؛ لقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ فالرسول ﷺ من العرب، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[الجمعة:٢].

ويحتمل أن يكون عامًّا للأمة كلها، ويكون المراد بالنفس هنا: الجنس؛ أي: ليس من الجن ولا الملائكة، بل هو من جنسكم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[الأعراف:١٨٩].

وعلىٰ الاحتمال الأول فيه إشكال؛ لأن النبي ﷺ بعث إلىٰ جميع الناس من العرب والعجم.

ولكن يقال في الجواب: إنه خوطب العرب بهذا؛ لأن منة الله عليهم به أعظم من غيرهم، حيث كان منهم، وفي هذا تشريف لهم بلا ريب.

والاحتمال الثاني أولىٰ؛ للعموم، ولقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[آل عمران:١٦٤]، ولما كان المراد العرب، قال: ﴿مِّنْهُمْ﴾ لا «من أنفسهم»، قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وقال تعالىٰ عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة:١٢٩]، وعلىٰ هذا، فإذا جاءت «من أنفسهم»؛ فالمراد: عموم الأمة، وإذا جاءت «منهم»، فالمراد: العرب؛ فعلىٰ الاحتمال الثاني لا إشكال في الآية.

قوله: ﴿رَسُولًا﴾؛ أي: من الله، كما قال تعالىٰ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾[البينة:٢]، وفعول هنا؛ بمعنىٰ: مُفْعَل؛ أي: مرسل.

و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، سبق الكلام فيها.

قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: صعب؛ لأن هذه المادة «العين» و«الزاي» في اللغة العربية تدل علىٰ الصلابة، ومنه: «أرض عزاز»؛ أي: صلبة قوية؛ والمعنىٰ: أنه يصعب عليه ما يشق عليكم؛ ولهذا بُعِثَ بالحنيفية السمحة، وما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا[٥٨٠]، وهذا من التيسير الذي بعث به الرسول ﷺ.

قوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾، ﴿مَا﴾: مصدرية، وليس موصولة؛ أي: عنتكم؛ أي: مشقتكم؛ لأن العنت بمعنىٰ المشقة، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾[النساء:٢٥]؛ أي: المشقة. والفعل بعد ﴿مَا﴾ يؤول إلىٰ مصدر مرفوع، لكن بماذا هو مرفوع؟

---

(٥٨٠) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، برقم (٣٥٦٠)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، برقم (٢٣٢٧)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

يختلف باختلاف ﴿عَزِيزٌ﴾ إذا قلنا: بأن ﴿عَزِيزٌ﴾ صفة لرسول؛ صار المصدر المؤول فاعلًا به؛ أي: عزيز عليه عنتكم، وإن قلنا: عزيز: خبر مقدم؛ صار عنتكم: مبتدأ، والجملة حينئذ تكون كلها صفة لرسول، أو يقال: عزيز: مبتدأ، وعنتكم: فاعل سد مسد الخبر على رأي الكوفيين الذي أشار إليه ابن مالك في قوله:

.... وقد يجوز نحو فائز أولو الرشد

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾:

الحرص: بذل الجهد لإدراك أمر مقصود؛ والمعنى: باذل غاية جهده في مصلحتكم؛ فهو جامع بين أمرين: دفع المكروه الذي أفاده قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، وحصول المحبوب الذي أفاده قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، فكان النبي ﷺ جامعًا بين هذين الوصفين، وهذا من نعمة الله علينا وعلى الرسول ﷺ أن يكون على هذا الخلق العظيم الممثل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، و﴿رَءُوفٌ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿رَّحِيمٌ﴾: مبتدأ ثان، وتقديم الخبر يفيد الحصر. والرأفة: أشد الرحمة وأرقها. والرحمة: رقة بالقلب تتضمن الحنو على المرحوم والعطف عليه بجلب الخير له ودفع الضرر عنه.

وقولنا: رقة في القلب هذا باعتبار المخلوق، أما بالنسبة لله تعالى؛ فلا نفسرها بهذا التفسير؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق لا تدانيها رحمة المخلوق ولا تماثلها؛ فقد ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إن لله مائة رحمة وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلق منذ خلقوا إلى يوم القيامة، حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[٥٨١]

فمن يحصي هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقوا إلى يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقدرها كيفية؟ لا أحد يستطيع إلا الله ﷻ الذي خلقها.

---

(٥٨١) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: جعل الله الرحمة في مئة جزء، برقم (٦٠٠٠)، ومسلم، كتاب: التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٧٥٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهذه رحمة واحدة، فإذا كان يوم القيامة رحم الخلق بتسع وتسعين رحمة بالإضافة إلى الرحمة الأولى، وهل هذه الرحمة تدانيها رحمة المخلوق؟

الجواب: أبدًا، لا تدانيها، والقدر المشترك بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق أنها صفة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، ورحمة الخالق غير مخلوقة؛ لأنها من صفاته، ورحمة المخلوق مخلوقة؛ لأنها من صفاته، فصفات الخالق لا يمكن أن تنفصل عنه إلى مخلوق؛ لأننا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق، وهذا أمر لا يمكن؛ لأن صفات الخالق يتصف بها وحده، وصفات المخلوق يتصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثار تظهر في المخلوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نتراحم بها.

قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: إن النبي ﷺ في غير المؤمنين ليس رءوفًا ولا رحيمًا، بل هو شديد عليهم كما وصفه الله هو وأصحابه بذلك في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح:٢٩].

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: أعرضوا مع هذا البيان الواضح بوصف الرسول ﷺ.

وهذا التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لأن التولي مع هذا البيان مكروه، ولهذا لم يخاطبوا به؛ فلم يقل: فإن توليتم.

والبلاغيون يسمونه التفاتًا، ولو قيل: إنه انتقال، لكان أحسن.

قوله: ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل ذلك معتمدًا على الله، متوكلًا عليه، معتصمًا به: حسبي الله، وارتباط الجواب بالشرط واضح؛ أي: فإن أعرضوا؛ فلا يهمنك إعراضهم، بل قل بلسانك وقلبك: حسبي الله، و﴿حَسْبِىَ﴾خبر مقدم، ولفظ الجلالة مبتدأ مؤخر، ويجوز العكس بأن نجعل: ﴿حَسْبِىَ﴾مبتدأ ولفظ الجلالة: خبر، لكن لما كانت حسب نكرة لا تتعرف بالإضافة؛ كان الأولى أن نجعلها هي الخبر.

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود حق حقيق بالعبادة سوى الله ﷻ.

قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، عليه: جار ومجرور متعلق بتوكلت، وقدم للحصر. والتوكل: هو الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به، وفعل الأسباب النافعة.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾مع قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: فيها جمع بين توحيدي الربوبية والعبودية، والله تعالى يجمع بين هذه الأمرين كثيرًا، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]

❁ **قوله:** ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

الضمير يعود على الله سبحانه.

و﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: خالقه، وإضافة الربوبية إلى العرش -وإن كانت ربوبية الله- عامة تشريفًا للعرش وتعظيمًا له.

ومناسبة التوكل لقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ لأن من كان فوق كل شيء ولا شيء فوقه، فإنه لا أحد يغلبه، فهو جدير بأن يُتوكَّل عليه وحده.

وقوله: ﴿ٱلْعَرْشِ﴾: فسره بعض الناس بالكرسي، ثم فسروا الكرسي بالعلم، وحينئذٍ لا يكون هناك كرسي ولا عرش، وهذا التفسير باطل، والصحيح: أن العرش غير الكرسي، وأن الكرسي غير العلم، ولا يصح تفسيره بالعلم، بل الكرسي من مخلوقات الله العظيمة الذي وسع السماوات والأرض، والعرش أعظم وأعظم؛ ولهذا وصفه بأنه عظيم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[التوبة ١٢٩]، وبأنه مجيد بقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾[البروج:١٥] على قراءة كسر الدال، وبأنه كريم في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[المؤمنون:١١٦]؛ لأنه أعظم المخلوقات التي بلغنا علمها وأعلاها؛ لأن الله استوى عليه.

وفيه دليل على أن كلمة العظيم يوصف بها المخلوق؛ لأن العرش مخلوق، وكذلك الرحيم، والرءوف، والحكيم.

ولا يلزم من اتفاق الاسمين اتفاق المسميين، فإذا كان الإنسان رءوفًا، فلا يلزم أن يكون مثل الخالق، فلا تقل: إذا كان الإنسان سميعًا بصيرًا عليمًا لزم أن يكون مثل الخالق؛ لأن الله سميع بصير عليم، كما أن وجود الباري سبحانه لا يستلزم أن تكون ذاته كذوات الخلق؛ فإن أسماءه كذلك لا يستلزم أن تكون كأسماء الخلق، وهناك فرق عظيم بين هذا وهذا.

وقوله: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيني، وهكذا يجب أن يعلن المؤمن اعتماده على ربه، ولاسيما في مثل هذا المقام الذي يتخلى الناس عنه؛ لأنه قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾.

وهذه الكلمة كلمة الحسب تقال في الشدائد، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، والنبيﷺ وأصحابه حين قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران:١٧٣].

تنبيه:

في سياقنا للآية الثانية فوائد نسأل الله أن ينفع بها.

قوله: «لا تجعلوا»:

الجملة هنا نهي «فلا» ناهية، والفعل مجزوم وعلامة جزمه حذف «النون»، و«الواو» فاعل.

قوله: «**بيوتكم**»: جمع بيت، وهو مقر الإنسان وسكنه، سواء كان من طين أو حجارة أو خيمة أو غير ذلك، وغالب ما يراد به الطين والحجارة.

قوله: «**قبورًا**»: مفعول ثان لتجعلوا، وهذه الجملة اختلف في معناها، فمنهم من قال: لا تجعلوها قبورًا؛ أي: لا تدفنوا فيها، وهذا لا شك أنه ظاهر اللفظ، ولكن أورد علىٰ ذلك دفن النبي ﷺ في بيته.

وأجيب عنه بأنه من خصائصه ﷺ، فالنبي ﷺ دفن في بيته لسببين:

ما وري عن أبي بكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**ما من نبي يموت إلا دفن حيث قبض**»(٥٨٢).

وهذا ضعفه بعض العلماء.

ما روته عائشة رضي الله عنها «**أنه خشي أن يتخذ مسجدًا**»(٥٨٣).

وقال بعض العلماء: المراد بـ «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**»؛ أي: لا تجعلوها مثل القبور؛ أي: المقبرة لا تصلون فيها؛ وذلك لأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلىٰ فيها، وأيدوا هذا التفسير بأنه سبقها جملة في بعض الطرق: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبورًا**»، وهذا يدل علىٰ أن المراد: لا تَدَعُوا الصلاة فيها.

وكلا المعنيين صحيح؛ فلا يجوز أن يدفن الإنسان في بيته، بل يدفن مع المسلمين؛ لأن هذه هي العادة المتبعة منذ عهد النبي ﷺ إلىٰ اليوم؛ ولأنه إذا دفن في بيته؛ فإنه ربما يكون وسيلة إلىٰ

---

(٥٨٢)سبق تخريجه.

(٥٨٣)أخرجه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنهما، برقم (١٣٩٠)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور واتخاذ القبور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، برقم (٥٢٩)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

الشرك، فربما يعظم هذا المكان؛ ولأنه يحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر، ولأنه يضيق على الورثة من بعده فيسأمون منه، وربما يستوحشون منه، وإذا باعوه لا يساوي إلا شيئًا قليلًا، ولأنه قد يحدث عنده من الصخب واللعب واللغو والأفعال المحرمة ما يتنافى مع مقصود الشارع؛ فإن الرسول ﷺ يقول: «**زوروا القبور؛ فإنها تذكركم الآخرة**»(٥٨٤).

وأما أن المعنى: «**لا تجعلوها قبورًا**»؛ أي: مثل القبور في عدم الصلاة فيها؛ فهو دليل على أنه ينبغي إن لم نقل: يجب أن يجعل الإنسان من صلاته في بيته ولا يخليه من الصلاة.

وفيه أيضًا: أنه من المتقرر عندهم أن المقبرة لا يصلى فيها.

إذًا؛ فيكون هذا النهي عن ترك الصلاة في البيوت لئلا تشبه المقابر؛ فيكون فيه دليل واضح على أن المقابر ليست محلًّا للصلاة، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب؛ لأن اتخاذ المقابر مساجد سبب قريب جدًّا للشرك. واتخاذها مساجد سبق أن له مرتبتين:

الأولى: أن يبني عليها مسجدًا.

الثانية: أن يتخذها مصلى يقصدها ليصلي عندها.

والحديث يدل على أن الأفضل: أن المرء يجعل من صلاته في بيته وذلك جميع النوافل؛ لقوله ﷺ «**أفضل صلاة المرء في بيته؛ إلا المكتوبة**»(٥٨٥). إلا ما ورد الشرع أن يفعل في المسجد، مثل: صلاة الكسوف، وقيام الليل في رمضان، حتى ولو كنت في المدينة النبوية؛ لأن النبي ﷺ قال ذلك وهو في المدينة، وتكون المضاعفة بالنسبة للفرائض أو النوافل التي تسن لها الجماعة.

قوله: «**عيدًا**»: العيد: اسم لما يعتاد فعله، أو التردد إليه، فإذا اعتاد الإنسان أن يعمل عملًا كما لو كان كلما حال عليه الحول صنع طعامًا ودعا الناس، فهذا يسمى عيدًا؛ لأنه جعله يعود ويتكرر.

---

(٥٨٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في زيارة القبور، برقم (١٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٥٨٥) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: صلاة الليل، برقم (٧٣١)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته، برقم (٧٨١)، وغيرهما من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وكذلك من العيد: أن تعتاد شيئًا فتتردد إليه، مثل: ما يفعل بعض الجهلة في شهر رجب وهو ما يسمىٰ بالزيارة الرجبية، حيث يذهبون من مكة إلىٰ المدينة، ويزورون كما زعموا قبر النبيﷺ، وإذا أقبلوا علىٰ المدينة تسمع لهم صياحًا، وكانوا سابقًا يذهبون من مكة إلىٰ المدينة علىٰ الحمير خاصة، ولما جاءت السيارات صاروا يذهبون علىٰ السيارات.

وأيهما المراد من كلام النبيﷺ: الأول؛ أي: العمل الذي يتكرر بتكرر العام، أو التردد إلىٰ المكان؟

الظاهر: الثاني؛ أي: لا ترددوا علىٰ قبري وتعتادوا ذلك، سواء قيدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع؛ فإنهﷺ نهىٰ عن ذلك، وإنما يزار لسبب، كما لو قدم الإنسان من سفر، فذهب إلىٰ قبره فزاره، أو زاره ليتذكر الآخرة كغيره من القبور.

وما يفعله بعض الناس في المدينة كلما صلىٰ الفجر ذهب إلىٰ قبر النبيﷺ من أجل السلام عليه، فيعتاد هذا كل فجر، يظنون أن هذا مثل زيارته في حياته؛ فهذا من الجهل، وما علموا أنهم إذا سلموا عليه في أي مكان، فإن تسليمهم يبلغه.

قوله: «وصلوا علي»: هذا أمر؛ أي: قولوا: اللهم صل علىٰ محمد، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

وفضل الصلاة علىٰ النبيﷺ معروف، ومنه أن من صلىٰ عليه مرة واحدة صلىٰ الله عليه بها عشرًا(٥٨٦).

والصلاة من الله علىٰ رسوله ليس معناها كما قال بعض أهل العلم: إن الصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن الآدميين: الدعاء.

فهذا ليس بصحيح، بل إن صلاة الله علىٰ المرء ثناؤه عليه في الملأ الأعلىٰ، كما قال أبو العالية وتبعه علىٰ ذلك المحققون من أهل العلم.

ويدل علىٰ بطلان القول الأول قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾[البقرة:١٥٧]، فعطف الرحمة علىٰ الصلوات، والأصل في العطف: المغايرة؛ ولأن الرحمة تكون لكل أحد، ولهذا أجمع العلماء علىٰ أنه يجوز أن تقول: فلان رحمه الله، واختلفوا: هل يجوز أن تقول: فلان صلىٰ الله عليه؟

---

(٥٨٦) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي علىٰ النبيﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة، برقم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

فمن صلى على محمدﷺ مرة أثنى الله عليه في الملأ الأعلى عشر مرات، وهذه نعمة كبيرة.

قوله: «**فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»: حيث: ظرف مبني على الضم في محل نصب، ويقال فيها: حيث، وحوث، وحاث، لكنها قليلة.

كيف تبلغه الصلاة عليه؟

الجواب: نقول: إذا جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب؛ فالواجب أن يقال: الكيف مجهول لا نعلم بأي وسيلة تبلغه، لكن ورد عن النبيﷺ«**أن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام**»[٥٨٧] فإن صح، فهذه هي الكيفية.

قوله: «**رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات**»: هذا التعبير من الناحية الاصطلاحية، ظاهره أن بينهما اختلافًا، ولكننا نعرف أن الحسن: هو أن يكون الراوي خفيف الضبط؛ فمعناه أن فيه نوعًا من الثقة، فيجمع بين كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وبين ما ذكره عن رواية أبي داود بإسناد حسن: أن المراد بالثقة ليس غاية الثقة؛ لأنه لو بلغ إلى حد الثقة الغاية لكان صحيحًا؛ لأن ثقة الراوي تعود على تحقق الوصفين فيه، وهما: **العدالة والضبط**، فإذا خف الضبط خفت الثقة، كما إذا خفت العدالة أيضًا تخف الثقة فيه.

فيجمع بينهما على أن المراد: مطلق الثقة، ولكنه لا شك فيما أرى أنه إذا أعقب قوله: «**حسن**» بقوله: «**رواته ثقات**» أنه أعلى مما لو اقتصر على لفظ: «**حسن**».

ومثل هذا ما يعبر به ابن حجر في «تقريب التهذيب» بقوله: صدوق يهم، وأحيانًا يقول: صدوق، وصدوق أقوى؛ فيكون توثيق الرجل الموصوف بصدوق أشد من توثيق الرجل الذي يوصف بأنه يهم.

لا يقول قائل: إن كلمة يهم لا تزيده ضعفًا؛ لأنه ما من إنسان إلا ويهم.

---

(٥٨٧) أخرجه النسائي، كتاب: صفة الصلاة، باب: السلام على النبي ﷺ، برقم (١٢٨٢) واللفظ له من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والترمذي، كتاب: الدعوات، باب: ما جاء أن لله ملائكة سياحين في الأرض، برقم (٣٦٠٠) بنحوه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

قلت وللحديث شاهد في البخاري ولكن بلفظ «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق...»، كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل، برقم (٦٤٠٨)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل مجالس الذكر، برقم (٢٦٨٩).

فنقول: هذا لا يصح؛ لأن قولهم: «يهم» لا يعنون به الوهم الذي لا يخلو منه أحد ولولا أن هناك غلبة في أوهامه ما وصفوه بها.

قوله: «**وعن علي بن الحسين**»: هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يسمىٰ بزين العابدين، من أفضل أهل البيت علمًا وزهدًا وفقهًا. والحسين معروف: ابن فاطمة رضي الله عنهما، وأبوه: علي رضي الله عنه.

قوله: «**يجيء إلىٰ فرجة**»: هذا الرجل لا شك أنه لم يتكرر مجيئه إلىٰ هذه الفرجة إلا لاعتقاده أن فيها فضلًا ومزية، وكونه يظن أن الدعاء عند القبر، له مزية فَتَحَ باب ووسيلة إلىٰ الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر فلا يجوز أن يعتقد أن لها مزية، سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة، ولهذا نقول: تكره القراءة عند القبر إذا كان الإنسان يعتقد أن القراءة عند القبر أفضل.

قوله: «**فنهاه**»؛ أي: طلب منه الكف.

قوله: «**ألا أحدثكم حديثًا**»: قال: أحدثكم والرجل واحد؛ لأن الظاهر أنه كان عند أصحابه يحدثهم، فجاء هذا الرجل إلىٰ الفرجة.

و«**ألا**»: أداة عرض؛ أي: أعرض عليكم أن أحدثكم. وفائدتها: تنبيه المخاطب إلىٰ ما يريد أن يحدثه به.

قوله: «**عن أبي عن جدي**»، أبوه: الحسين، وجده: علي بن أبي طالب.

قوله: «**عن رسول الله ﷺ**»، السند متصل، وفيه عنعنة لكنها لا تضر؛ لأنها من غير مدلس، فتحمل علىٰ السماع.

❁ **قوله: «لا تتخذوا قبري عيدًا»**:

يقال فيه كما في الحديث السابق: أنه نهىٰ أن يتخذ قبره عيدًا يُعتاد ويتكرر إليه؛ لأنه وسيلة إلىٰ الشرك.

قوله: «**ولا بيوتكم قبورًا**»: سبق معناه.

قوله: «**وصلوا علي؛ فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم**»: اللفظ هكذا، وأشك في صحته؛ لأن قوله: «**صلوا عليَّ**» يقتضي أن يقال: فإن صلاتكم تبلغني؛ إلا أن يقال هذا من باب الطي والنشر.

والمعنىٰ: صلوا علي وسلموا؛ فإن تسليمكم وصلاتكم تبلغني، وكأنه ذكر الفعلين والعلتين، لكن حذف من الأولىٰ ما دلت عليه الثانية، ومن الثانية ما دلت عليه الأولىٰ.

وقوله: «وصلوا عليَّ»: سبق معناها، والمراد: صلوا علي في أي مكان كنتم، ولا حاجة إلى أن تأتوا إلى القبر وتسلموا علي وتصلوا علي عنده.

قوله: «يبلغني»: تقدم كيف يبلغهﷺ.

قوله: «رواه في المختارة»:

الفاعل مؤلف«المختارة»، و«المختارة»: اسم الكتاب؛ أي: الأحاديث المختارة. والمؤلف هو عبد الغني المقدسي، من الحنابلة.

وما أقل الحديث في الحنابلة؛ يعني: المحدثين، وهذا من أغرب ما يكون؛ يعني: أصحاب الإمام أحمد أقل الناس تحديثًا بالنسبة للشافعية.

فالحنابلة غلب عليهم -رحمهم الله- الفقه مع الحديث؛ فصاروا محدثين وفقهاء، ولكنهم -رحمهم الله- بشر، فإذا أخذ من هذا العلم صار ذلك زحامًا للعلم الآخر، أما الأحناف؛ فإنهم أخذوا بالفقه، لكن قلت بضاعتهم في الحديث، ولهذا يسمون أصحاب الرأي؛ يعني: العقل والقياس؛ لقلة الحديث عندهم، والشافعية أكثر الناس عناية بالحديث والتفسير، والمالكية كذلك، ثم الحنابلة وسط، وأقلهم في ذلك الأحناف مع أن لهم كتبًا في الحديث.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير آية «براءة»، وسبق ذلك في أول الباب.

الثانية: إبعادهﷺ أمته عن هذا الحمى غاية البعد: تؤخذ من قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا**».

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته: وهذا مذكور في آية براءة.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، تؤخذ من قوله: «**ولا تجعلوا قبري عيدًا**»، فقوله: «**عيدًا**» هذا هو الوجه المخصوص.

وزيارة قبر النبيﷺمن أفضل الأعمال من جنسها؛ فزيارته فيها سلام عليه، وحقهﷺأعظم من غيره.

وأما من حيث التذكير بالآخرة، فلا فرق بين قبره وقبر غيره.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة، تؤخذ من قوله: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**»، لكنه لا يلزم منه الإكثار؛ لأنه قد لا يأتي إلا بعد سنة، ويكون قد اتخذه عيدًا، فإن فيه نوعًا من الإكثار.

السادسة: حثه علىٰ النافلة في البيت، تؤخذ من قوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبورًا»، وسبق أن فيها معنيين:

المعنىٰ الأول: أن لا يقبر في البيت، وهذا ظاهر الجملة.

والثاني: الذي هو من لازم المعنىٰ أن لا تترك الصلاة فيها.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلىٰ في المقبرة، تؤخذ من قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»، لأن المعنىٰ: لا تجعلوها قبورًا؛ أي: لا تتركوا الصلاة فيها علىٰ أحد الوجهين، فكأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلىٰ فيها.

الثامنة: تعليل ذلك بإن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإنْ بَعُدَ؛ فلا حاجة إلىٰ ما يتوهمه من أراد القرب؛ أي: كونه نهىٰ ﷺ أن يجعل قبره عيدًا، العلة في ذلك: أن الصلاة تبلغه حيث كان الإنسان؛ فلا حاجة إلىٰ أن يأتي إلىٰ قبره، ولهذا نسلم ونصلي عليه في أي مكان؛ فيبلغه السلام والصلاة؛ ولهذا قال علي بن الحسين: ما أنت ومن في الأندلس إلا سواء.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه؛ أي: فقط فكل من صلىٰ عليه أو سلم عرضت عليه صلاته وتسليمه، ويؤخذ من قوله: **«فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم»**.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾:

تمام الآية: قوله تعالىٰ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية [التوبة:١٢٨].

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا بيّن في الأبواب السابقة شيئًا من حمايته ﷺ لجناب التوحيد، أراد أن يبين في هذا الباب حمايته الخاصة.

«**المصطفىٰ**»: هو المختار.

«**جناب**»؛ أي: جانب.

﴿جَآءَكُمْ﴾: يا معشر العرب.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: من جنسكم وبلغتكم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾؛ أي: شديد عليه جدًّا -- وهو خبر مقدم.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: ما يشق عليكم ويلحق الأذىٰ بكم من كفرٍ وضلالٍ وقتلٍ وأسرٍ و «ما» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: شديد الحرص والرغبة في هدايتكم وحصول النفع العاجل والآجل لكم.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لا بغيرهم.

﴿رَءُوفٌ﴾: بليغ الشفقة.

﴿رَّحِيمٌ﴾: بليغ الرحمة.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر تعالىٰ عباده علىٰ سبيل الامتنان أنه بعث فيهم رسولًا عظيمًا من جنسهم وبلغتهم، يشقُّ عليه جدًّا ما يشق عليهم، ويؤذيه ما يؤذيهم، شديد الحرص علىٰ هدايتهم وحصول النفع لهم، شديد الشفقة والرحمة بالمؤمنين خاصة منهم.

مناسبة الآية للباب: أن هذه الأوصاف المذكورة فيها في حق النبيﷺ تقتضي أنَّه أنذر أمته وحذرهم عن الشرك الذي هو أعظم الذنوب؛ لأنَّ هذا هو المقصود الأعظم في رسالته.

ما يستفاد من الآية:

١ - أنَّ الرسول ﷺقد حذر أمته من الشرك وباعدها منه وسد كل طريق يُفضي بها إليه.

٢ - التنبيه علىٰ نعمة الله علىٰ عباده بإرسال هذا الرسول الكريم إليهم وكونه منهم.

٣- مدح نسب الرسول ﷺفهو من صميم العرب وأشرفهم بيتًا ونسبًا.

٤- بيان رأفته ورحمته بالمؤمنين.

٥ - فيها دليل علىٰ غلظته وشدته علىٰ الكفار والمنافقين.

قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»:

لا تعطلوها من صلاة النافلة والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور.

قوله: «ولا تجعلوا قبري عيدًا»:

العيد: ما يعتاده مجيئة وقصده من زمان ومكان؛ أي: لا تتخذوا قبري محل اجتماع تترددون إليه وتعتادونه لصلاة والدعاء وغير ذلك.

«فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»؛ أي: ما ينالني منكم من الصلاة يحصل مع قربكم وبعدكم من قبري فلا حاجة بكم إلىٰ المجيء إليه والتردد عليه.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

نهىٰ ﷺ عن تعطيل البيوت من صلاة النافلة فيها والدعاء وقراءة القرآن فتكون بمنزلة القبور؛ لأنَّ النهي عن الصلاة عند القبور قد تقرَّر عندهم فنهاهم أن يجعلوا بيوتهم كذلك، ونهىٰ عن تكرار زيارة قبره والاجتماع عنده علىٰ وجهٍ معتادٍ لأجل الدعاء والتقرب؛ لأنَّ ذلك وسيلة إلىٰ الشرك، وأمر بالاكتفاء عن ذلك بكثرة الصلاة والسلام عليه في أيِّ مكان من الأرض؛ لأن ذلك يبلغه من القريب والبعيد علىٰ حد سواءٍ، فلا حاجة إلىٰ انتياب قبره.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه حسمًا لمادة الشرك، وسدًّا للطرق الموصلة إليه؛ حيث أفاد أنَّ القبور لا يصلىٰ عندها، ونهىٰ عن الاجتماع عند قبره واعتياد المجيء إليه؛ لأنَّ ذلك مما يوصل إلىٰ الشرك.

ما يستفاد من الحديث:

١- سد الطرق المفضية إلىٰ الشرك من الصلاة عند القبور والغلو في قبره ﷺ بأن يُجعل محل اجتماع وارتيادٍ ترتب له زيارات مخصوصة.

٢- مشروعية الصلاة والسلام عليه في جميع أنحاء الأرض.

٣- أنَّه لا مزية للقرب من قبره ﷺ.

٤- المنع من السفر لزيارة قبره ﷺ.

٥- حمايته ﷺ جناب التوحيد.

❁ **قوله: «وعن علي بن الحسين....»:**

ترجمة علي بن الحسين: هو: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين أفضل التابعين مات سنة ٩٣هـ.

«فرجة»؛ أي: فتحة في الجدار.

«المختارة»: اسم كتاب يشتمل علىٰ الأحاديث الجياد الزائدة علىٰ «الصحيحين» لمؤلفه ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي رحمه الله.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه النهي عن قصد قبر النبي ﷺ لأجل الدعاء عنده، فغيره من القبور من باب أولىٰ؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيدًا، وهو وسيلة إلىٰ الشرك.

ما يستفاد من الحديث:

١- النهي عن الدعاء عند قبر النبي ﷺ؛ حماية لحمىٰ التوحيد.

٢- مشروعية إنكار المنكر وتعليم الجاهل.

٣- المنع من السفر لزيارة قبر الرسول ﷺ؛ حماية للتوحيد.

٤- أنَّ الغرض الشرعي من زيارة قبره ﷺ هو السلام عليه فقط؛ وذلك يبلغه من القريب والبعيد.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب ما جاء في حماية المصطفىٰ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك»:**

هذا الباب من جنس الأبواب قبله الواردة في حماية النبي عليه الصلاة والسلام جناب التوحيد، وفي سده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك.

❁ **قوله:** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾:

أتىٰ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا بآية براءة، وهي قول الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

فقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: عزيز عليه عنتكم، يعني: أن تكونوا في عنت ومشقة، فهذا عزيز عليه، ولا يرغب فيه عليه الصلاة والسلام.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ لأنه عليه الصلاة والسلام عزيز عليه عنت أمته، فهو لهذا يأمرهم بكل خير، وينهاهم عن كل شر، ويحمي حمىٰ ما أمرهم به، وما نهاهم عنه؛ لأن الناس إذا أقدموا علىٰ ما نُهوا عنه فإنهم أقدموا علىٰ مهلكتهم، وأقدموا علىٰ ما فيه عنتهم في الدنيا وفي الآخرة، والنبي -عليه الصلاة والسلام- عزيز عليه عنت أمته، أي: أن يقعوا فيما يعود عليهم بالوبال وبالمشقة، لهذا قال بعدها: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ لأن عزة مشقتهم عليه، وحرصه عليهم متلازمان، فمن حرصه علينا عليه الصلاة والسلام ومن كونه يعزُّ عليه عنتنا، أن حَمَىٰ حِمَىٰ التوحيد، وحمىٰ جناب التوحيد، وسد كل طريق قد نصل بها إلىٰ الشرك، عليه الصلاة والسلام، وهذا وجه الاستدلال من الآية علىٰ الباب.

❁ **قوله: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ...»:**

وأما حديث أبي هريرة فوجه الشاهد منه قوله: «**ولا تجعلوا قبري عيدًا**» والعيد يكون عيدًا مكانيًا كما جاء هنا، ويكون عيدًا زمانيًا، فقوله: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**» يعني: لا تصيروا قبري مكانًا تعودون إليه، أو تعتادون المجيء إليه في أوقات معلومة؛ فإن هذا قد يوصل إلىٰ أن يُعظّم النبي عليه الصلاة والسلام كتعظيم الله -جل وعلا- فاتخاذ القبور عيدًا من وسائل الشرك، ولهذا قال: «**وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**».

❁ **قوله: «عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه رأىٰ رجلًا يجيء إلىٰ فرجة...»**

وكذلك حديث علي بن الحسين هو بمعنىٰ الحديث السابق. ولفظ حديث علي بن الحسين أنه قال: ألا أحدثك حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا**» قاله للرجل الذي كان يعتاد المجيء إلىٰ فرجة كانت عند القبر؛ لأن اعتياده الدعاء عند القبر نوع من الغلو، ووسيلة إلىٰ تعظيم القبر، واتخاذه عيدًا. وهذا من وسائل الشرك.

فحمىٰ النبي عليه الصلاة والسلام حمىٰ التوحيد وحرس جنابه، وسدّ كل طريق توصل إلىٰ الشرك، حتىٰ في قبره عليه الصلاة والسلام، فإذا كان قد نهىٰ عن اتخاذ قبره مسجدًا، أو عيدًا فمن باب أولىٰ قبور غيره من الأنبياء والمرسلين، والصالحين، فإنهم أولىٰ بذلك؛ لأنه أفضل خلق الله عليه الصلاة والسلام. فالحاصل أن بعض هذه الأمة خالف ما دعا إليه النبي ﷺ وأمر به من حماية جناب التوحيد، فاتخذوا القبور مساجد وأعيادًا، وبنوا عليها المشاهد، وأسرجوها، وقدموا لها الذبائح والنذور، وطافوا حولها، وجعلوها كالكعبة، وجعلوا الأمكنة حولها مقدسة أعظم من تقديس بقاع الله المباركة، بل إن عبّاد القبور تجد عندهم من الذل، والخضوع، والإنابة، والرغب، والرهب -حين يأتون إلىٰ قبر النبي أو قبر الرجل الصالح أو قبر الولي- ما ليس في قلوبهم إذا كانوا في خلوة مع الله -جل جلاله- وهذا عين المحادة لله -جل وعلا- ولرسوله ﷺ.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة أي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[التوبة:١٢٨]، الآية، والشاهد منها أنه لما وصفه الله بهذه الصفات دل ذلك على أنه قد بين لهم التوحيد والشرك وسد الذرائع الموصلة إليه.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد، أي: من حرصه على هداية أمته ورأفته بها أبعدهم عن الشرك، وسد جميع الوسائل الموصلة إليه.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته، أي لقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾[التوبة:١٢٨]، أي حريص على هدايتنا ووصول النفع الدنيوي والأخروي إلينا.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضل الأعمال أي إنه نهى عن زيارة قبره إذا كان على خلاف المشروع، كمن يشد الرحل لزيارته أو يتخذه عيدًا، وقوله مع أن زيارته من أفضل الأعمال أي إن زيارة القبور على الوجه المشروع سنة كما في الحديث: «**زوروا القبور**» وإذا كان كذلك فهو عمل فاضل وقبره ﷺ منها وليس معناه أنه أفضل الأعمال مطلقًا.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة، أي لقوله: « **لا تجعلوا قبري عيدًا**» أي لا تكثروا التردد إليه كالعيد الذي يتكرر ويعتاد مجيئه.

السادسة: حثه على النافلة في البيت، أي لقوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**»، أي لا تعطلوها من صلاة النافلة فتكون بمنزلة القبور.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة، أي: لكونه جعل البيت الذي لا يصلى فيه مقبرة فلولا أن ذلك متقرر عندهم لما حسن التشبيه.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد فلا حاجة إلى ما يتوهمه

من أراد القرب، أي إنه لما نهىٰ عن التردد إلىٰ قبره قد يقول قائل: إنما أتردد للصلاة عليه عنده أجاب بأن الصلاة والسلام يبلغه مع البعد فلا حاجة إلىٰ ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض عليه أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه، أي لقوله: «**وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**».

* الأسئلة *

س: ما هو الجناب وما المراد بحمايته؟

جـ: الجناب هو الجانب والمراد بحمايته صيانته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

قوله: «قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ...﴾[التوبة:١٢٨]».

س: اشرح هذه الآية وما الذي تقتضي هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق أمته.

جـ: يقول الله تعالى ممتنا على المؤمنين حيث أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم؛ أي: من جنسهم وعلى لغتهم يعرفونه ويعلمون صدقه وأمانته، ثم وصفه بأوصاف حميدة وهي حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم وكراهته ما يعنتهم ويشق عليهم أو يضرهم في دنياهم وأخراهم ورأفته ورحمته بمؤمنيهم.

وتقتضي هذه الأوصاف: التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق أمته أن أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب وبين لهم وسائله الموصلة إليه وبالغ في نهيهم عنها ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها والصلاة عندها وإليها ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها.

قوله: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ...».

س: ما معنى قوله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»؟

جـ: أي: لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، نهاهم ﷺ أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها والعبادة كما تهجر القبور عن الصلاة إليها مخافة الفتنة بها وما يفضي إلى عبادتها.

س: ما معنى قوله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيدًا» وما هو العيد؟

جـ: المعنى: لا تعينوا لزيارة قبري وقتًا من الأوقات تجتمعون فيه كما تفعلون في الأعياد والجمع، والعيد: ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان مأخوذ من العادة والاعتياد.

س: اشرح قوله ﷺ «وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»؟

جـ: يرشدنا ﷺ أن نكثر من الصلاة عليه في كل زمان ومكان ويقول إنما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيدًا تترددون إليه لأجل ذلك.

قوله: «عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه رأى رجلًا يجيء إلى فرجة...».

س: ما هي الفرجة وما الذي يستفاد من هذا الباب؟

جـ: الفرجة هي الكوة في الجدار ويستفاد من هذا الباب ما يلي:

١ - النهي عن زيارة قبر النبي ﷺ على وجه مخصوص.

٢ - الحث على صلاة النافلة في البيت.

٣ - أن صلاتنا وسلامنا على النبي ﷺ تبلغه وإن بعدنا عن قبره.

٤ - النهي عن قصد القبور لأجل الصلاة والدعاء عندها؛ لأن ذلك من اتخاذها عيدًا ومن وسائل الشرك.

٥ - أن قصد الرجل القبر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المسجد من اتخاذه عيدًا المنهي عنه.

٦ - أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه؛ لأن ذلك من اتخاذه عيدًا.

س: لماذا نوع المؤلف التحذير من الافتتان بالقبور وأخرجه في أبواب مختلفة؟

جـ: ليكون أوقع في القلب وأحسن في التعليم وأعظم في الترهيب. والله سبحانه وتعالى أعلم.



الدرس الثالث والعشرون:

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[المائدة:٦٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف:٢١].

عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب، لدخلتموه»(٥٨٨). قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»(٥٨٩). أخرجاه

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يُهلكها بسنةٍ بعامةٍ(٥٩٠)، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً، فإنه لا يُرَد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أُهلكهم(٥٩١) بسنةٍ بعامةٍ، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»(٥٩٢).

---

(٥٨٨) في نسخة ابن قاسم: «لدخلتوه».

(٥٨٩) أخرجه -بنحوه- البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، برقم (٧٣٢٠)، ومسلم، كتاب: العلم، باب: اتباع سنن اليهود والنصارى، برقم (٢٦٦٩)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٥٩٠) في نسخة ابن باز، صحيح مسلم، وسنن الترمذي: «عامة»، والمثبت موافق لما في سنن أبي داود.

(٥٩١) في نسخة ابن قاسم: «أهلكها»، والمثبت موافق لما في سنن الترمذي وأبي داود.

(٥٩٢) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، برقم (٢٨٨٩)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

ورواه البرقاني في «صحيحه»، وزاد: «وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلىٰ يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله تبارك وتعالىٰ»[٥٩٣].

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية النساء.

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: وهي أهمها: ما معنىٰ الإيمان بالجبت والطاغوت[في هذا الموضع][٥٩٤]؟ هل هو اعتقاد قلب؟ أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدىٰ سبيلًا من المؤمنين.

السادسة: وهي المقصود بالترجمة: أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: تصريحه بوقوعها -أعني: عبادة الأوثان-[في هذه الأمة في جموع كثيرة][٥٩٥].

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله، مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

---

(٥٩٣) أخرجه بهذه الزيادة أبو داود، كتاب: الفتن والملاحم، باب: ذكر الفتن ودلائلها، برقم (٤٢٥٢)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: ما يكون من الفتن ، برقم (٣٩٥٢)، وغيرهم من حديث ثوبان ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم(١٧٧٣).

(٥٩٤) سقط من نسخة ابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

(٥٩٥) سقط من نسخة ابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضىٰ، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمىٰ: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلىٰ قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة؛ منها: إخباره ﷺ بأن الله زوىٰ له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنىٰ ذلك فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال. وإخباره بأنه أعطي الكنزين. وإخباره ﷺ بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين. وإخباره ﷺ بأنه منع الثالثة. وإخباره ﷺ بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع. وإخباره ﷺ بإهلاك بعضهم بعضًا، وسَبْيِ بعضهم بعضًا. وخوفه ﷺ علىٰ أمته من الأئمة المضلين. وإخباره ﷺ بظهور المتنبئين في هذه الأمة. وإخباره ﷺ ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدةٍ منها أبعد ما يكون في العقول.

الثالثة عشرة: حصر الخوف علىٰ أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه علىٰ معنىٰ عبادة الأوثان.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

❁ **قوله**: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»:

لما ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التوحيد وما ينافيه من الشرك، أو ينافي كماله، أو ما يكون وسيلة إلىٰ ما ينافيه، ذكر أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة بعبادة الأوثان، والوثن يطلق علىٰ كل من قصد بأي نوع من أنواع العبادة، من صنم أو قبر أو مشهد أو غير ذلك، لقول الخليل: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾[العنكبوت:١٧]، مع قوله: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾. وقال -عليه الصلاة والسلام- لعدي وفي عنقه صليب: «ألق عنك هذا الوثن»(٥٩٦).

(٥٩٦) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: سورة التوبة، برقم (٣٠٩٥)، والطبراني، (١٧/ ٩٢-برقم ٢١٨)، وغيرهما من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

❁ **قوله**: «وقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ...﴾ إلخ»:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾ أعطوا ﴿نَصِيبًا﴾: حظًا ﴿مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ اليهود والنصارىٰ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾ الشيء الفشل، الذي لا خير فيه من أمور الدين، وقال الجوهري: كلمة تقع علىٰ الصنم والكاهن والساحر. ﴿وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ الشيطان، وسيأتي تمام الكلام فيهما. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١] أي: يفضلون الكفار علىٰ المسلمين، بجهلهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم، وأخرج أحمد وغيره من غير وجه عن ابن عباس وغيره: «أنه جاء حيي بن الأخطب، وكعب بن الأشرف إلىٰ أهل مكة، فقالوا: أنتم أهل الكتاب، وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوما، ونسقي الماء علىٰ اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدىٰ سبيلًا، فأنزل الله هذه الآية». قال المصنف: وفيه معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع، هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟ أي فالإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع هو موافقة أصحابها مع بغضها، ومعرفة بطلانها، كفعل علماء السوء مع أهل الحق، حرفة يهودية، ووراثة غضبية. ومطابقة الآية للترجمة أنه إذا كان الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، فهذه الأمة التي أوتيت القرآن لا يُستنكر ولا يُستبعد أن تعبد الجبت والطاغوت؛ فإن الرسول ﷺ قد أخبر أن هذه الأمة ستفعل مثل ما فعلت الأمم قبلها.

❁ **قوله**: «﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ...﴾ إلخ»:

يقول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب الطاعنين في دينكم الذي هو توحيد الله، وإفراده بالعبادة دون ما سواه ﴿هَلْ﴾ أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة، مما تظنونه بنا في قولكم: لم نر أهل دين أقل حظًا في الدنيا والآخرة منكم، ولا شرًّا من دينكم، وديننا هو توحيد الله وإفراده بالعبادة، وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المذمومة المفسرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ وأبعده من رحمته وطرده، ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ غضبًا لا يرضىٰ بعده أبدًا ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾ أصحاب السبت ﴿وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ كفار مائدة عيسىٰ. وعن ابن

عباس: كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة، وشيوخهم مسخوا خنازير، وقد «سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله؟ فقال: «**إن الله لم يهلك قومًا فجعل لهم نسلًا ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك**»[٥٩٧] رواه مسلم.

قوله: «﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾»:

أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سول له، قال شيخ الإسلام: الصواب أنه معطوف على قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ فهو فعل ماض، معطوف على ما قبله أي: ومن عبد الطاغوت، ولم يعد لفظ (من)؛ لأنه جعل هذه الأفعال كلها صفة لصنف واحد، وهم اليهود. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي: مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ومطابقة الآية للترجمة أنه إذا كان اليهود ممن عبد الطاغوت، فكذلك يكون في هذه الأمة.

قوله: **وقوله**: «﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾»:

أي: قال ذلك أصحاب الكلمة والنفوذ، في زمن أصحاب الكهف ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ ليعرفوا فيقصدهم الناس ويتبركون بهم، ذمهم الله بذلك، تحذيرًا لنا أن نتخذ القبور أوثانًا، وتقدم لعن النبي ﷺ اليهود والنصارى لاتخاذهم المساجد على قبور أنبيائهم، وأن مراده تحذيرنا أن نفعل فعلهم، فيجرنا ذلك إلى الشرك، ويأتي إخباره بذلك، وهو وجه الاستدلال بالآية.

قوله: «**وعن أبي سعيد** رضي الله عنه **أن رسول الله** ﷺ **قال: لتتبعن... إلخ**»:

«**تتبعن**» بضم العين وتشديد النون، أي: لتسلكن طرق من كان قبلكم من الأمم، في عبادة الأوثان وغيرها مما ذمهم الله به، وهو الشاهد للترجمة، وبه أيضًا تظهر مناسبة الآيات للترجمة.

قوله: «**حذو القذة بالقذة**»:

بنصب «**حذو**» على المصدر، أي تحذون حذوهم، و«**القذة**» بضم القاف واحدة القذذ، وهي ريش السهم، مبالغة منه ﷺ في الوصف، أي لتفعلن أفعالهم، ولتتبعن طرائقهم، حتى تشبهوهم وتحاذوهم في كل ما فعلوه، كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى وتساويها، لا تزيد واحدة على الأخرى.

---

(٥٩٧) أخرجه مسلم، كتاب: القدر، باب: بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، برقم (٢٦٦٣)، وأحمد (١/ ٤١٣)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

❁ **قوله: «حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»:**

أي: لو تصور دخولهم جحر ضب مع ضيقه لدخلتموه، لشدة سلوككم طريق من قبلكم، و «الجحر» بضم فسكون غار الضب. وفي حديث آخر: «**حتىٰ لو كان فيهم من يأتي أمه علانية لكان فيكم من يفعل ذلك**»[٥٩٨]. وهذا كله شدة مبالغة منهﷺ وبيان أن أمته لا تدع شيئًا مما كان يفعله اليهود والنصارىٰ إلا فعلته كله، لا تترك منه شيئًا، وقد أكد هذا الخبر بأنواع من التأكيدات، من ذلك اللام في قوة: «**والله لتتبعن**»، ثم بنون التوكيد، ثم بقوله: «**حذو القذة بالقذة**»، ثم بالغ أشد مبالغة في التشبه بهم، حتىٰ إن اليهود والنصارىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلته هذه الأمة، ولهذا قال سفيان بن عيينة وغيره من السلف: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارىٰ».

❁ **قوله: «أخرجاه»:**

أي: البخاري ومسلم واللفظ له، و «**اليهود**» بالرفع خبر مبتدأ محذوف، أي أهم اليهود والنصارىٰ الذين نتبع سننهم؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره: تعني، و«من» استفهام تقرير، أي فمن القوم إلا هم، فبينﷺ في هذا الحديث ونحوه أن كل ما وقع من أهل الكتاب، مما ذمهم الله به في هذه الآيات وغيرها لا بد أن يقع جميعه في هذه الأمة، وهذا اللفظ وإن كان خبرًا، فمعناه النهي عن متابعتهم، وهذا من علامة نبوتهﷺ ومن معجزاته، فقد سلك كثير من أمته مسلك اليهود والنصارىٰ في إقامة سائر شعائرهم في الأديان، وفي عاداتهم من تعظيم القبور، واتخاذها مساجد حتىٰ عبدوها، وإقامة الحدود والتعزيرات علىٰ الضعفاء دون الأقوياء، وملابسهم ومراكبهم، والتسليم بالإشارة، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسولهﷺ والإقبال علىٰ كتب البدع والضلال، وغير ذلك مما نهىٰ الله عنه.

---

(٥٩٨) أخرجه الترمذي، كتاب: الإيمان، باب: افتراق الأمة، برقم (٢٦٤١)، وغيره من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وحسن الألباني حديثَ الترمذي دون هذا الطرف المذكور هنا فقد حكم عليه بالضعف في «صحيح الجامع»، برقم (٥٣٤٣) وذلك بعد ما ذكر حديث الترمذي كاملًا، فهذا المذكور أعلاه ضعيف، وانظر تضعيفه في «المشكاة» أيضًا، برقم (١٧١) فنرجو الانتباه إلىٰ ذلك.

❁ **قوله: «ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه»:**

ثوبان يقال: إنه من العرب، من بني حكمي بن سعد، وقيل من السراة، مولىٰ لرسول الله ﷺ اشتراه فأعتقه، وخدمه ولازمه إلىٰ أن مات ﷺ، ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة ٥٤ هـ.

❁ **قوله: «إن الله زوىٰ لي الأرض»:**

أي: زواها جميعها، يقال: زويت الشيء، جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها، حتىٰ اطلع عليه ﷺ اطلاعه علىٰ القريب، بأن طويت له، وجعلت مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره، فأبصر ما تملكه أمته من أقصىٰ مشارق الأرض ومغاربها، وفي رواية أبي داود: «**فأريت مشارق الأرض ومغاربها**». قال القرطبي: «ظاهر اللفظ يقتضي أن الله قوىٰ إدراك بصره، ورفع عنه الموانع المعتادة، فأدرك البعيد من موضعه، كما أدرك بيت المقدس من مكة، وأخذ يخبرهم عنه وهو ينظر إليه».

❁ **قوله: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوىٰ لي منها»:**

«زوي» يحتمل أن يكون مبنيًّا للفاعل، وأن يكون مبنيًّا للمفعول. ولأحمد وغيره: «**إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها**»[٥٩٩] وقد وقع ما أخبر به ﷺ وقال القرطبي: «هذا الخبر وجد مخبره كما قال ﷺ، وكان ذلك من دلائل نبوته ﷺ، وذلك أن ملك أمته اتسع إلىٰ أن بلغ أقصىٰ طنجة، الذي هو منتهىٰ عمارة المغرب، إلىٰ أقصىٰ المشرق مما وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد السند والهند والصغد، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال، ولذلك لم يذكر أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه».

❁ **قوله: «وأعطيت الكنزين الأحمر و الأبيض»:**

بالنصب علىٰ البدلية، قال القرطبي، يعني: به كنز كسرىٰ وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم، وقصورهما وبلادهما، وقد قال: «**والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[٦٠٠] وعبر بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالب عندهم الذهب، وبالأبيض عن كسرىٰ؛ لأن

---

(٥٩٩) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٦) من حديث قبيصة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة»، برقم (٢١٥٣).

(٦٠٠) أخرجه البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب: قول النبي ﷺ «أحلت لكم الغنائم»، برقم (٣١٢١) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتىٰ يمر الرجل بقبر الرجل، برقم (٢٩١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الغالب عندهم الجوهر والفضة، وقد وجد ذلك في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه سيق إليه تاج كسرىٰ وحليته، وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته علىٰ سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر لما فتح بلاده.

❁ **قوله: «وإني سألت ربي لأمتي ألَّا يهلكها بسنة بعامة»:**

هكذا ثبت بأصل المصنف بالباء، وهي رواية في «صحيح مسلم» وغيره، وفي بعضها بحذفها، قال القرطبي: وكأنها زائدة؛ لأن عامة صفة السنة، والسنة الجدب الذي يكون به الهلاك العام، ويسمىٰ الجدب والقحط سنة، ويجمع علىٰ سنين كقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي الجدب المتوالي.

❁ **قوله: «وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم»:**

أي: لا يسلط عليهم عدوًّا من غيرهم من الكفار، فيستأصل معظمهم وجماعتهم، وبيضة كل شيء حوزته، وقال الجوهري وغيره: بيضة القوم ساحتهم، سأل الله أن لا يسلط العدو علىٰ معظم المسلمين وجماعتهم وإمامهم ما داموا بهذه الأوصاف المذكورة، ولو اجتمع عليهم كل من بين أقطار الأرض حتىٰ يقع منهم ما ذكر فقد يسلطون عليهم.

❁ **قوله: «وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد»:**

أي: إذا حكمت حكمًا مبرمًا نافذًا أو معلقًا فإنه لا يرد بشيء، ولا يقدر أحد علىٰ رده، كما قال ﷺ «ولا راد لما قضيت»، وفي بعض الروايات قال: «**دعوت ربي ثلاثًا، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة، وأجابني، وسألته أن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوىٰ أنفسهم، وأجابني، وسألته الثالثة أن لا يجعل بأسهم بينهم شديدًا ومنعني هذا، وقال: حتىٰ يهلك بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا**». وحتىٰ هنا للغاية، يعني: إذا فعل بعضهم ببعض هكذا سلط عليهم العدو حينئذ، وما داموا مجتمعين علىٰ الحق فلا يسلط عليهم، ولكن عند فرقتهم يسلط عليهم عقوبة لهم.

❁ **قوله: «وإني أعطيت لأمتك أن لا أهلكها بسنة عامة»:**

ولفظ أبي داود: «**ولا أهلكهم بسنة عامة**»، أي: أعطاه الله سؤاله لأمته أن لا يهلكها بسنة عامة، وهي الجدب الذي يهلك أخضرهم ويابسهم، فأجاب الله دعاءه، وكان في الأمم السابقة عذاب الاستئصال بخلاف هذه الأمة، فإن الله -وله الحمد والمنة- قد دفع عنها ذلك، ببركة دعاء نبيها ﷺ.

قوله: «وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوىٰ أنفسهم... إلخ»:

أي: وإني أعطيتك لأمتك أن لا أسلط عليهم عدوًّا من سواهم فيتولاهم جميعًا، ويهلكهم ويذلهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض. ولفظ أبي داود: «من بين أقطارها»- جوانبها، أي: لم يسلطهم الله عليهم، كما فعل بالأمم الماضية المكذبة، وهذا أيضًا من خصائص هذه الأمة ببركة نبيناﷺ.

قوله: «حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا»:

(حتىٰ) لانتهاء الغاية، أي: أن أمرها ينتهي حتىٰ يوجد ذلك منهم، فإن الله لا يسلط الكفار علىٰ معظم المسلمين وجماعتهم وإمامهم، ما داموا بضد هذه الأوصاف المذكورة في قوله: «حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»[٦٠١]. فأما إذا وجدت هذه الأوصاف فقد يسلط الكفار علىٰ جماعتهم ومعظمهم كما وقع، فقد سلط بعضهم علىٰ بعض، لكثرة اختلافهم وتفرقهم، ولكن بحمد الله لا تزال طائفة منهم باقية علىٰ الحق، تقوم بها الحجة علىٰ الخلق، منصورة كما سيأتي.

قوله: «ورواه البرقاني في صحيحه»:

البرقاني بفتح الباء، الموحدة وسكون الراء، نسبة إلىٰ قرية كانت بنواحي خوارزم، خربت وكانت مزرعة. هو الإمام الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي الشافعي، روىٰ عن الدارقطني وغيره، وعنه الخطيب وغيره. قال الخطيب: كان ثبتًا ورعًا، لم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفًا بالفقه، كثير التصانيف. صنف مسندًا ضمنه ما اشتمل عليه الصحيحان، وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة، وهذا المسند هو صحيحه الذي عزا إليه المصنف هذا الحديث. ولد سنة ٣٣٦ هـ، ومات سنة ٤٢٥ هـ. وروىٰ هذا الحديث أيضًا بتمامه أبو داود وغيره عن ثوبان.

قوله: «وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين»:

أي الأمراء والعلماء والعباد الذين يقتدي بهم الناس، وهم يحكمون في الناس بغير علم فيضلونهم ويضلون هم، فهم ضالون عن الحق، مضلون لغيرهم. قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١١٩].

---

(٦٠١) سبق تخريجه.

وقال عمر لزياد بن حدير: «يا زياد هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: لا. قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين». وقال معاذ: «احذروا زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم».

وقال عبد الله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وأتى ﷺ بإنما التي هي للحصر، بيانًا لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال، فيوقعوهم في الإثم، لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع، ولم يخف من جدب السنين ولا تسليط العدو.

وروى الدارمي: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»(٦٠٢). وحذر ﷺ أمته وأنذرهم عن الإحداث في الدين، وابتداع دين لم يشرعه الله ولعن من فعل ذلك، وأخبر الله تبارك وتعالى: أنه أكمل الدين، وأن القول عليه بغير علم رتبة فوق رتبة الشرك، فقال: ﴿**وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:٣٣]. فكل من أحدث حدثًا ليس في كتاب الله، ولا في سنة نبيه ﷺ فهو ملعون، وحدثه مردود، كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(٦٠٣). وقال: «**من أحدث حدثًا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا**»(٦٠٤). وقال: «**كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»(٦٠٥).

قوله: «**وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة**»:

وفي رواية أبي داود: «**وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع إلى يوم القيامة**»(٦٠٦). وقد وقع كما أخبر، فإنه لما وقع بقتل عثمان رضي الله عنه لم يرفع، وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة دون أخرى.

---

(٦٠٢) سبق تخريجه.

(٦٠٣) سبق تخريجه.

(٦٠٤) أخرجه البخاري، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع، برقم (٧٣٠٠)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، برقم (١٣٧٠) وغيرهما من حديث علي رضي الله عنه.

(٦٠٥) سبق تخريجه.

(٦٠٦) سبق تخريجه.

❁ **قوله:** «ولا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين»:

الحي واحد الأحياء، وهي القبائل، وفي رواية أبي داود: «**حتىٰ يلحق قبائل من أمتي بالمشركين**»[٦٠٧]. والمعنىٰ أنهم يكونون معهم، ويرتدون برغبتهم عن الإسلام وأهله، ولحوقهم بأهل الشرك.

❁ **قوله:** «وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان»:

الفئام مهموز: الجماعات الكثيرة. ولفظ أبي داود: «**حتىٰ تعبد قبائل من أمتي الأوثان**»[٦٠٨] وهو الشاهد للترجمة، وفيه الرد علىٰ من أنكر وقوع الشرك وعبادة الأوثان في هذه الأمة مما هو مشاهد، وفي «الصحيحين»: «**لا تقوم الساعة حتىٰ تضطرب أليات دوس علىٰ ذي الخلصة**»[٦٠٩] طاغية دوس التي كانوا يعبدونها في الجاهلية. وفي «صحيح مسلم»: «**لا يذهب الليل والنهار حتىٰ تعبد اللات والعزىٰ**»[٦١٠]. وقيل: إن القبر المنسوب إلىٰ ابن عباس في الطائف قبر اللات، فإن قيل: ورد«**أن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب**»[٦١١]. قيل: قد أجيب عنه بأجوبة منها: أن يأسه غير معصوم، ومنها أنه يئس أن تطبق علىٰ عبادة الأصنام.

❁ **قوله:** «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي»:

وفي رواية «**دجالون**»، والدجل التمويه، والمراد ممن تقوم لهم شوكة وتبدو لهم شبهة، وأما مطلقا فلا يحصون، قال القاضي عياض: «عد من تنبأ ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة علىٰ ضلاله، فوجد هذا العدد فيهم». اهـ.

---

(٦٠٧) أخرجه أبو داود، كتاب: الفتن والملاحم، باب: ذكر الفتن ودلائلها، برقم (٤٢٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وغيرهما من حديث ثوبان رضي الله عنه، وصححه الألباني في «المشكاة»، برقم (٥٤٠٦).

(٦٠٨) الحديث السابق.

(٦٠٩) أخرجه البخاري، كتاب: الفتن، باب: تغيير الزمان حتىٰ تعبد الأوثان، برقم (٧١١٦)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتىٰ تعبد دوس ذا الخلصة، برقم (٢٩٠٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦١٠) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتىٰ تعبد دوس ذا الخلصة، برقم (٢٩٠٧)، وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦١١) أخرجه مسلم، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتن الناس وأن مع كل إنسان قرينا، برقم (٢٨١٢)، وغيره من حديث جابر رضي الله عنه.

وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله ﷺ وبعده، ممن كان لهم أصحاب يصدقونهم ويأخذون بطريقهم، كمسيلمة باليمامة، والأسود باليمن، وطليحة في بني أسد، وسجاح في تميم، والمختار بن أبي عبيد في عصر ابن الزبير، والحارث في عصر عبد الملك بن مروان، وفي عصر بني العباس جماعة، وصار لكل منهم شوكة. وأما من ادعاها مطلقة فكثيرون، وغالبهم ينشأ فيهم عن جنون وسوداء، وقد أهلك الله من وقع منهم ذلك، واتضح كذبهم، وآخرهم الدجال الأكبر أعاذنا الله من فتنته.

❁ **قوله**: «**وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**»:

الخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع، وبكسرها بمعنى فاعل الطبع والختم، أي: هو صلوات الله وسلامه عليه آخر النبيين، لا نبي يوحي الله إليه بعده إلى قيام الساعة، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] قال الحسن: الخاتم الذي ختم به، وعيسى إنما ينزل في آخر الزمان حاكمًا بشريعة محمد ﷺ مصليًا إلى قبلته، فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة. قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لينزلن فيكم عيسى ابن مريم حكمًا مقسطًا، فليكسر الصليب، وليقتل الخنزير، وليضع الجزية**»[٦١٢].

❁ **قوله**: «**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة**»:

قائمة بالعلم والجهاد والذب عن الدين، قال بعض السلف: هم أهل الحديث. ويحتمل أن تكون هذه الطائفة جماعة متعددة من أنواع المسلمين، منهم محدثون وفقهاء ومجاهدون وآمرون وناهون، والمراد العاملون بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولا يلزم منه أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، ولا في قطر واحد، بل يجوز اجتماعهم في بلد وقطر وجهة، وافتراقهم في بلدان وأقطار وجهات من الأرض. وفي رواية: «**لا تزال هذه الأمة قائمة**»[٦١٣] أي على أمر الله، ففيه حماية إجماع هذه الأمة عن أن تزل عن أمر الله، ولا تسمى أمته إلا الذين يعتد بإجماعهم، وفيه أن الإجماع حجة.

---

(٦١٢) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: قتل الخنزير، برقم (٢٢٢٢)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب:: نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ، برقم (١٥٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦١٣) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، برقم (٧١)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم»، برقم (١٧٤ / ١٠٣٧) وغيرهما من حديث معاوية رضي الله عنه.

❁ **قوله**: «**لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم**»:

كما أخبر الله بذلك في كتابه بنصره لهم، كما في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٣]. وكقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ أي: يعليه وينصره: ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: علىٰ سائر الأديان. وغيرهما من الآيات. قال المصنف: «وفيه الآية العظيمة أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضىٰ، بل لا تزال عليه طائفة».

❁ **قوله**: «**حتىٰ يأتي أمر الله تبارك تعالىٰ**»:

ونص شيخ الإسلام وغيره علىٰ تواتر «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق حتىٰ يأتي أمر الله**»[(٦١٤)] أي إلىٰ قيام الساعة، كما روىٰ الحاكم من حديث عقبة بن عامر: «**لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون علىٰ أمر الله ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم حتىٰ تأتيهم الساعة وهم علىٰ ذلك**»[(٦١٥)]. ولعل المراد به ما صح عن النبي ﷺ من قبض ما بقي من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام، ثم لا يبقىٰ إلا شرار الناس، وعليهم تقوم الساعة، وكل جملة من هذا الحديث علم من أعلام النبوة؛ فإن كل ما أخبر به ﷺ مما يقع فيه وقع كما أخبر. و«**تبارك**» كمل وتعاظم وتقدس، جاء بناؤه علىٰ السعة والمبالغة من باب مجد، والمجد كثرة صفات الجلال والكمال، والسعة والفضل، فدل علىٰ كمال بركته وعظمها وسعتها، ولا يقال إلا لله سبحانه وتعالىٰ كما أطلقه علىٰ نفسه في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وغيرها، فهو سبحانه المتبارك، وما بارك فيه فهو المبارك. وقوله: «**تعالىٰ**» أي: تعاظم، جاء أيضًا علىٰ بناء السعة والمبالغة، فهو دال علىٰ كمال العلو ونهايته.

---

(٦١٤) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم»، برقم (١٩٢٠)، وغيره من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٦١٥) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم»، برقم (١٧٥ / ١٠٣٧)، وأحمد (٤/ ٩٣)، وغيرهما من حديث معاوية رضي الله عنه.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ قوله: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»:

مقصود هذه الترجمة: الحذر من الشرك والخوف منه، وأنه أمر واقع في هذه الأمة لا محالة، والرد على من زعم أن من قال: لا إله إلا الله، وتسمى بالإسلام أنه يبقى على إسلامه، ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم، وسمى ذلك توسلًا لا عبادة فإن هذا باطل.

فإن الوثن اسم جامع لكل ما عُبد من دون الله، لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية، ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين في هذا الموضع، وهو العبادة فإنها حق الله وحده فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذه وثنًا وخرج بذلك عن الدين، ولم ينفعه انتسابه إلى الإسلام فكم انتسب إلى الإسلام من مشرك وملحد وكافر ومنافق. والعبرة بروح الدين وحقيقته، لا بمجرد الأسامي والألفاظ، التي لا حقيقة لها.

قال العلامة ابن باز:

❁ قوله: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»:

أي باب ما جاء من أحاديث وآيات تدل على ذلك وأنها غير معصومة من الوقوع في الشرك، وكما دخل الناس في دين الله أفواجًا صاروا يخرجون منه، وقد وقع في عهد الصديق من الردة ما وقع.

❁ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ...﴾[النساء:٥١]»:

أخبر الله أن أناسًا من أهل الكتاب يؤمنون بالجبت: وهو السحر، والطاغوت والشيطان ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ وهذه قالة اليهود ككعب بن الأشرف وحيي بن أخطب قالوا: إن قريشًا أهدى من محمد وأصحابه وهم يعلمون أنه على الحق فقالوا عنادًا وحسدًا وبغضًا وخلافًا لما معهم، فهم أوتوا نصيبًا -أي حظًّا- من الكتاب لكن لم يعلموا به بل خالفوه، وآمنوا بالجبت والطاغوت وقالوا هؤلاء أهدى سبيلًا.

فإن كان هذا قد وقع من اليهود فسيقع من هذه الأمة لحديث: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» فدل على أن هذا سيكون في أمة محمد ﷺ من يكفر ويقول: إن الكفرة أهدى من أتباع النبي ﷺ وهو وقع قديمًا ويقع الآن ممن يفضلون اليهود والنصارى على هذه الأمة.

قوله: «قال تعالىٰ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[المائدة:٦٠]».

فإذا كان من قبلنا عبد الطاغوت: وهو الشيطان، وكل ما يعبد من دون الله فهكذا يوجد في هذه الأمة من يعبد الطاغوت والأوثان لحديث «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**».

قوله: «**وقوله تعالىٰ**: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف:٢١]»:
فإذا كان في الأمم الماضية من اتخذوا المساجد علىٰ القبور وعظموها فكذلك في هذه الأمة، وقد وقع هذا آخر القرن الأول من الرافضة الذين بنوا المساجد وعظموا القبور ثم تبعهم من يدعي الإسلام كما هو حال المسلمين كما في الحديث الآتي:

قوله: «**عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال**: «**لتتبعن سنن من كان...**» (٦١٦):

والقذة: هي ريشة السهم وتكون متساوية حتىٰ يستعين بها الرامي علىٰ إصابة الهدف فكما أن هذه تشبه هذه فكذلك من وقع من كفار هذه الأمة أشبه بمن قبلهم في الشرك بالله وعبادة الأوثان والأصنام، وكما أنه وقع في الأولين من سب أتباع الأنبياء فكذلك وقع في هذه الأمة من الرافضة الخوارج الذين سبوا الصحابة، وهكذا كل معصية وكفر وقع في السابقين سيقع في هذه الأمة، ومن ذلك الحديث الذي رواه البخاري مرفوعًا: «**لا تقوم الساعة حتىٰ تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة**» (٦١٧) ودوس: قبيلة في الجنوب في بلاد غامد وزهران فقد وقع في عهد قريب قبل هذه الدولة من عبد هذا الصنم وطاف حوله وسيقع مرة أخرىٰ. وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان**» (٦١٨). وقد وقع.

وعن عائشة مرفوعًا: «**لا تذهب الليالي والأيام حتىٰ تعبد اللات والعزىٰ**» (٦١٩) وسيقع هذا كله.

---

(٦١٦) سبق تخريجه وهو لفظ آخر غير هذا- ولم أقف عليه بهذا اللفظ عن أبي سعيد.

(٦١٧) سبق تخريجه.

(٦١٨) سبق تخريجه.

(٦١٩) سبق تخريجه.

مسألة: حديث: «**يئس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب**»[٦٢٠] هذا يحتج به الجهال ولكن هل يئس معصوم؟ فهو ليس معصوم، قد يئس من الشيء ويحصل فلما ظهر الدين يئس، ولكن الشرك وقع كما هو مشاهد وقد يرجو مسافة الشيء ولا يحصل، وقيل: إنه يئس أن يعودوا كحالهم الأولى تمامًا؛ لأنه سيبقى طائفة من الأمة على الحق، وقيل: إن المراد: الصحابة لرواية (المصلين) وأل: للعهد، أي المصلين الصحابة لأن الله وفقهم ورزقهم العلم. «وكل الإجابات الثلاثة صحيحة».

❁ **قوله**: «**ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: إن الله زوى لي الأرض**»:

زوى: أي جمعها. فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى ليمنها، وهذا معلم من معالم النبوة فقد وصل ملك هذه الأمة إلى أقصى المشرق وإلى الصين وإلى أقصى المغرب: المغرب وطنجة. وليس كذلك شمالًا وجنوبًا.

أني أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض: هي كنوز كسرى وقيصر وكانا أعظم دولتين، دولة النصارى والوثنين، وهذا ما حصل لهذه الأمة، وقد أنفقت كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك النبي عليه الصلاة والسلام في عهد عمر وعثمان وهذا علم من أعلام النبوة.

وإني سألت ربي لأمتي... يستبيح بيضتهم: البيضة: المجتمع والحوزة والخلاصة.

بسنة عامة: أي هلاكًا عامًّا كما جرى لقوم نوح وصالح وغيرهم؛ لأن هذه الأمة آخر الأمم ولما جعل الله في نبيها من الخير والبركة وستبقى هذه الأمة إلى قيام الساعة.

وألا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم: فاستجاب له لكن قال الله: «**حتى يهلك بعضهم بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا**» أي: إذا تسلطوا فيما بينهم وتقاتلوا سلط عليهم أعدائهم وهذا ما حصل لما تفرقوا واختلفوا طمع فيهم أعداؤهم وأخذوا ما في أيدهم من أزمان طويلة.

قضيت قضاء لا يرد: أي أن الله إذا أمر بشيء وقضاه وقدره لا يرده أحد، وقد سبق في علم الله أن هذه الأمة سيقع فيه الخلاف والنزاع وأن دعوته ﷺ لهم في أنهم لا يتقاتلون ولا يتنازعون فيما بينهم لم تستجب بل منع هذه الدعوة ولهذا وقع النزاع في العهد الأول وما بعده كما حصل من التتار وما حصل بعد ذلك من تسلط العدو عليهم بسبب عدم تمسكهم بالحق على الوجه

---

(٦٢٠) سبق تخريجه.

الصحيح، وإن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم، وبه يعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ الحق واستقامت وتعاونت فإنها تغلب عدوها ويجمع الله لها الخير ومتىٰ تفرقوا وتنازعوا طمع فيهم الأعداء وسهل عليهم أخذها والنيل منها.

❁ **قوله**: «وما رواه البرقاني وزاد: وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين»:

البرقاني: بتثليث الباء وقال بعضهم: وبدون ضم.

وهذا يفيد خطورة الأئمة المضلين وهم ولاة السوء فإنهم يتبعون ويتأثر بهم ويستعان بهم علىٰ الباطل فلذلك خاف علىٰ أمته منهم. وهذا يشمل الأمراء والقضاة الضالين.

وإذا وقع السيف لم يرفع إلىٰ يوم القيامة: وهذا قد وقع، وهذا من علامات النبوة فإن باب الفتنة فُتح بقتل عمر ثم ازداد بقتل عثمان وزاد الشر.

«لا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتىٰ تبعد فئام من أمتي الأوثان»: يدل علىٰ أن الشرك سيقع في هذه الأمة وقد حصل، وهذه هي الوثنية حصلت في الجزيرة وغيرها.

«سيكون في أمتي كذابون ثلاثون...»: وهو من علامات النبوة وقد وقع كما تنبأ مسيلمة فقتله الصحابة، والأسود العنسي وقد قتل في حياة النبيﷺ، وسجاح التميمية وتابت وطليحة الأسدي، وقد تاب، وغيرهم وآخرهم الدجال الذي يدعي النبوة ثم يدعي أنه رب العالمين قاتله الله، وهؤلاء المدعون هم الذين يكون لهم شوكة وصولة وشبهة وإلا فالمدعون كثير، بعضهم يقولها بجنون وهذيان وغيره.

ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق(٦٢١): هذا من علامات النبوة أيضًا ومن البشرىٰ، وهذه الطائفة لا تزال إلىٰ الآن.

حتىٰ يأتي أمر الله: وهي الريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين فتقوم الساعة علىٰ شرار الناس.

وقد جاء في روايات: أنها تكون بالشام(٦٢٢)، لكن إن صح هذا فالمراد أحيانًا وليس دائمًا ولكن غالبها روايات ضعيفة وليس لها مكان معين قد تجتمع وقد تفترق وليس في حديث صحيح ما يدل علىٰ أنها تكون في مكان معين.

---

(٦٢١) سبق تخريجه.

(٦٢٢) انظر: ما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٠٧).

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»:**

سبب مجيء المؤلف بهذا الباب لدحض حجة من يقول: إن الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة، وأنكروا أن تكون عبادة القبور والأولياء من الشرك؛ لأن هذه الأمة معصومة منه؛ لقوله ﷺ: «**إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»(٦٢٣).

والجواب عن هذا سبق عند الكلام على المسألة الثامنة عشرة من مسائل باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما.

قوله: «**أن بعض هذه الأمة**»: أي: لا كلها؛ لأن في هذه الأمة طائفة لا تزال منصورة على الحق إلى قيام الساعة، لكنه سيأتي في آخر الزمان ريح تقبض روح كل مسلم؛ فلا يبقى إلا شرار الناس.

وقوله: «**تعبد**»؛ بفتح التاء، وفي بعض النسخ: «**يعبد**»؛ بفتح الياء المثناة من تحت:

فعلى قراءة «**يعبد**»، لا إشكال فيها؛ لأن «**بعض**» مذكر.

وعلى قراءة «**تعبد**»؛ فإنه داخل في قول ابن مالك:

وربما أكسب ثان أولا تأنيثًا أنْ كان لحذف مُوهلا

ومثلوا لذلك بقولهم: قطعت بعض أصابعه؛ فالتأنيث هنا من أجل أصابعه لا من أجل بعض.

فإذا صحت النسخة «**تعبد**»؛ فهذا التأنيث اكتسبه المضاف من المضاف إليه.

قوله: «**الأوثان**»: جمع وثن، وهو: كل ما عُبِدَ من دون الله.

ذكر المؤلف في هذا الباب عدة آيات:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام هنا للتقرير والتعجيب، والرؤية بصرية بدليل أنها عديت بإلى، وإذا عديت بإلى صارت بمعنى النظر.

والخطاب إما للنبي ﷺ، أو لكل من يصح توجيه الخطاب إليه؛ أي: ألم تر أيها المخاطب؟

---

(٦٢٣) أخرجه مسلم، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتن الناس وأن مع كل إنسان قرينًا، برقم (٢٨١٢)، والترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: التباغض، برقم (١٩٣٧)، وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه.

قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾:

أي: أُعطوا، ولم يعطوا كل الكتاب؛ لأنهم حرموا بسبب معصيتهم، فليس عندهم العلم الكامل بما في الكتاب.

قوله: ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنزل.

والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل.

وقد ذكروا لذلك مثلًا، وهو كعب بن الأشرف حين جاء إلى مكة، فاجتمع إليه المشركون، وقالوا: ما تقول في هذا الرجل (أي: النبي ﷺ) الذي سفه أحلامنا ورأى أنه خير منا؟ فقال لهم: أنتم خير من محمد، ولهذا جاء في آخر الآية: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١].

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، أي: يصدقون بهما، ويقرونهما لا ينكرونهما، فإذا أقر الإنسان هذه الأوثان؛ فقد آمن بها.

والجبت؛ قيل: السحر، وقيل: هو الصنم، والأصح: أنه عام لكل صنم أو سحر أو كهانة أو ما أشبه ذلك.

والطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

فالمعبود كالأصنام، والمتبوع كعلماء الضلال، والمطاع كالأمراء؛ فطاعتهم في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله تعد من عبادتهم.

والمراد من كان راضيًا بعبادتهم إياه، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابديه؛ لأنهم تجاوزوا به حده، حيث نزلوه فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادتهم لهذا المعبود طغيانًا، لمجاوزتهم الحد بذلك.

والطاغوت: مأخوذ من الطغيان؛ فكل شيء يتعدى به الإنسان حده يعتبر طاغوتًا.

وجه المناسبة في الآية للباب لا يتبين إلا بالحديث، وهو: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»، فإذا كان الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأن من هذه الأمة من يرتكب سنن من كان قبله يلزم من هذا أن في هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت؛ فتكون الآية مطابقة للترجمة تمامًا.

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾، الخطاب للنبيﷺ ردًّا علىٰ هؤلاء اليهود الذي اتخذوا دين الإسلام هزوًا ولعبًا.

وقوله: ﴿أُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق؛ أي: سأقرر عليكم هذا الخبر.

قوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾: شر: هنا اسم تفضيل، وأصلها أشر لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، ومثلها كلمة خير مخففة من أخير، والناس مخففة من الأناس، وكذا كلمة «الله» مخففة من الإله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾المشار إليه ما كان عليه الرسولﷺ وأصحابه؛ فإن اليهود يزعمون أنهم هم الذي علىٰ الحق، وأنهم خير من الرسول صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم وأصحابه، وأن الرسولﷺ وأصحابه ليسوا علىٰ الحق؛ فقال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾.

قوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾: مثوبة: تمييز لشر؛ لأن شر اسم تفضيل، وما جاء بعد أفعل التفضيل مبينًا له يكون منصوبًا علىٰ التمييز.

قال ابن مالك:

اسم بمعنىٰ من مبين نكرة ... ينصب تمييزًا بما قد فسره

إلىٰ أن قال:

والفاعل المعنىٰ انصبن بأفعلا ... مفضلًا كأنت أعلىٰ منزلا

والمثوبة: من ثاب يثوب إذا رجع، ويطلق علىٰ الجزاء؛ أي: بشر من ذلك جزاء عند الله.

قوله: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: في علمه وجزائه عقوبةً أو ثوابًا.

قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾: من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله؛ لأن الاستفهام انتهىٰ عند قوله ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾، وجواب الاستفهام: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾، ولعنه؛ أي: طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أحل عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصح تحريفه إلىٰ معنىٰ الانتقام، وقد سبق الكلام عليه[٦٢٤].

---

(٦٢٤) ارجع لذلك في باب ما جاء أن الغلوّ في قبور الصالحين يُصَيِّرُها أوثانًا، تحت قول «غضب الله».

والقاعدة العامة عند أهل السنة: أن آيات الصفات وأحاديثها تجرئ على ظاهرها اللائق بالله ﷻ؛ فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولا تحرف فتنفىٰ عن الله؛ فلا نغلو في الإثبات ولا في النفي.

❁ **قوله:** ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾:

القردة: جمع قرد، وهو حيوان معروف أقرب ما يكون شبهًا بالإنسان، والخنازير: جمع خنزير، وهو ذلك الحيوان الخبيث المعروف الذي وصفه الله بأنه رجس.

والإشارة هنا إلى اليهود؛ فإنهم لعنوا كما قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ...﴾ الآية [المائدة:٧٨].

وجعلوا قردة بقوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[البقرة:٦٥]، وغضب الله عليهم بقوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾[البقرة:٩٠].

قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فيها قراءتان في ﴿وَعَبَدَ﴾ وفي ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾:

الأولى: بضم الباء «وعَبُدَ»، وعليها تكسر التاء في «الطاغوتِ»؛ لأنه مجرور بالإضافة.

الثانية: بفتح الباء ﴿وَعَبَدَ﴾ على أنه فعل ماض معطوف على قوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول؛ أي: ومن عبد الطاغوت، ولم يعد ﴿مَنْ﴾ مع طول الفصل؛ لأن هذا ينطبق على موصوف واحد، فلو أعيدت ﴿مَنْ﴾ لأوهم أنهم جماعة آخرون وهم جماعة واحدة؛ فعلى هذه القراءة يكون ﴿وَعَبَدَ﴾ فعلًا ماضيًا، والفاعل ضمير مستتر جوازًا تقديره هو يعود على «من» في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، و ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ بفتح التاء مفعولًا به.

وبهذا نعرف اختلاف الفاعل في صلة الموصول وما عطف عليه؛ لأن الفاعل في صلة الموصول هو ﴿ٱللَّهُ﴾، والفاعل في «عبد» يعود على «من».

وعلى كل حال؛ فالمراد بها عابد الطاغوت.

فالفرق بين القراءتين بالباء فقط؛ فعلى قراءة الفعل مفتوحة، وعلى قراءة الاسم مضمومة.

والطاغوت على قراءة الفعل في ﴿وَعَبَدَ﴾ تكون مفتوحة ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وعلى قراءة الاسم تكون مكسورة بالإضافة «عَبُدَ الطَّاغُوتِ».

وذكر في تركيب ﴿وَعَبَدَ﴾مع ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾أربع وعشرون قراءة، ولكنها قراءات شاذة غير القراءتين السبعيتين ﴿وَعَبَدَ﴾«وعَبُدَ».

الآية الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف:٢١]، هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾[الكهف:٩]، وهم فتية آمنوا بالله وكانوا في بلاد شرك، فخرجوا منها إلىٰ الله ﷻ فيسر الله لهم غارًا، فدخلوا فيه، وناموا نومة طويلة بلغت ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾[الكهف:٢٥] وهم نائمون لا يحتاجون إلىٰ أكل وشرب، ومن حكمة الله أن الله يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال حتىٰ لا يترسب الدم في أحد الجانبين، ولما خرجوا بعثوا بأحدهم إلىٰ المدينة ليشتري لهم طعامًا، وآخر الأمر أن أهل المدينة اطلعوا علىٰ أمرهم، وقالوا: لابد أن نبني علىٰ قبورهم مسجدًا.

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾: المراد بهم: الحكام في ذلك الوقت قالوا مقسمين مؤكدين: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وبناء المساجد علىٰ القبور من وسائل الشرك كما سبق.

فوائد الآيات السابقة:

من فوائد الآية الأولىٰ ما يلي:

١- أن من العجب أن يعطىٰ الإنسان نصيبًا من الكتاب ثم يؤمن بالجبت والطاغوت.

٢- أن العلم قد لا يعصم صاحبه من المعصية؛ لأن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالكفر، والذي يؤمن بالكفر يؤمن بما دونه من المعاصي.

٣- وجوب إنكار الجبت والطاغوت؛ لأن الله تعالىٰ ساق الإيمان بهما مساق العجب والذم؛ فلا يجوز إقرار الجبت والطاغوت.

٤- ما ساقها المؤلف من أجله أن من هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لقوله ﷺ: «لتركبن سنن من كان من قبلكم»[٦٢٥] فإذا وجد في بني إسرائيل من يؤمن بالجبت والطاغوت؛ فإنه سيوجد في هذه الأمة أيضًا من يؤمن بالجبت والطاغوت.

---

(٦٢٥) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: لتركبن سنن من كان قبلكم، برقم (٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨)، وابن حبان، برقم (٦٧٠٢)، وغيرهم من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٣٦٠١).

ومن فوائد الآية الثانية ما يلي:

١- تقرير الخصم والاحتجاج عليه بما لا يستطيع إنكاره، بمعنىٰ أنك تحتج علىٰ خصمك بأمر لا يستطيع إنكاره؛ فإن اليهود يعرفون بأن فيهم قومًا غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، فإذا كانوا يقرون بذلك وهم يستهزءون بالمسلمين؛ فنقول لهم: أين محل الاستهزاء الذين حلت عليهم هذه العقوبات أم الذين سلموا منها؟

والجواب: الذين حلت بهم العقوبة أحق بالاستهزاء.

٢- اختلاف الناس بالمنزلة عند الله؛ لقوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولا شك أن الناس يختلفون بزيادة الإيمان ونقصه وما يترتب عليه من الجزاء.

٣- سوء حال اليهود الذي حلت بهم هذه العقوبات من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

٤- إثبات أفعال الله الاختيارية، وأنه سبحانه يفعل ما يشاء؛ لقوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، فإن اللعن من صفات الأفعال.

٥- إثبات الغضب لله؛ لقوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

٦- إثبات القدرة لله؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾.

وهل المراد بالقردة والخنازير هذه الموجودة؟

والجواب: لا، لما ثبت في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ **«أن كل أمة مسخت لا يبقىٰ لها نسل»**[(٦٢٦)] ولأن القردة والخنازير كانت قبل ذلك، وعلىٰ هذا؛ فليس هذا الموجود من القردة والخنازير هو بقيَة أولئك الممسوخين.

أن العقوبات من جنس العمل؛ لأن هؤلاء الذين مسخوا قردة، والقرد أشبه ما يكون شبهًا بالإنسان، فعلوا فعلًا ظاهره الإباحة والحل وهو محرم، وذلك أنه حرم عليهم الصيد يوم السبت ابتلاء من الله، فإذا جاء يوم السبت امتلأ البحر بالحيتان، وظهرت علىٰ سطح الماء، وفي غيره من الأيام تختفي ولا يأتي منها شيء، فلما طال عليهم الأمد صنعوا شباكًا؛ فصاروا ينصبونها في يوم الجمعة ويدعون الحيتان تدخل فيها يوم السبت، فإذا أتىٰ يوم الأحد أخذوها، وهذه حيلة

(٦٢٦)سبق تخريجه.

ظاهرها الحل، ولكن حقيقتها ومعناها الوقوع في الإثم تمامًا، ولهذا مُسخوا إلىٰ حيوان يشبه الإنسان وليس بإنسان، وهو القرد، قال تعالىٰ: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[البقرة:٦٥]، وهو يفيد أن الجزاء من جنس العمل، ويدل عليه صراحة قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾[العنكبوت:٤٠].

أن هؤلاء اليهود صاروا يعبدون الطاغوت؛ لقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، ولا شك أنهم حتىٰ الآن يعبدونه؛ لأنه عبدوا الشيطان وأطاعوه وعصوا الله ورسوله.

وفي الآية نكتة نحوية في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾و ﴿مِنْهُمُ﴾في قوله تعالىٰ: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾، فالضمير في ﴿لَّعَنَهُ﴾الهاء، و﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾مفرد، و﴿مِنْهُمُ﴾جمع، مع أن المرجع واحد، وهو ﴿مَن﴾.

والجواب: أنه روعي في الإفراد اللفظ، وفي الجمع المعنىٰ، وذلك أن ﴿مَن﴾اسم موصول صالحة للمفرد وغيره، قال ابن مالك:

ومن وما وأل تساوي ما ذكر

لما ذكر الأسماء الموصولة من المفرد والمثنىٰ والجمع من مذكر ومؤنث قال: **ومن وما... إلخ.**

وقال: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾، ولم يقل: وجعلهم قردة؛ لأن اللعن والغضب عام لهم جميعًا، والعقوبة بمسخهم إلىٰ قردة وخنازير خاص ببعضهم، وليس شاملًا لبني إسرائيل.

ومن فوائد الآية الثالثة ما يلي:

١- ما تضمن سياق هذه الآية من القصة العجيبة في أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدالة علىٰ كمال قدرة الله وحكمته.

٢- أن من أسباب بناء المساجد علىٰ القبور الغلو في أصحاب القبور؛ لأن الذين غلبوا علىٰ أمرهم بنوا عليهم المساجد؛ لأنهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام فغلوا فيهم.

٣- أن الغلو في القبور وإن قلَّ قد يؤدي إلىٰ ما هو أكبر منه، ولهذا قال النبي ﷺ لعلي حين بعثه: **«ألا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته»**[٦٢٧].

---

(٦٢٧)سبق تخريجه.

قوله: في الحديث: «لتتبعن»:

اللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد؛ فالكلام مؤكد بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لتتبعن.

قوله: «**سنن من كان قبلكم**»، فيها روايتان: «**سُنَن**» و «**سَنَن**».

أما «**سُنن**» بضم السين: جمع سُنة، وهي الطريقة.

وأما «**سَنن**»؛ بالفتح: فهي مفرد بمعنىٰ الطريق.

وفَعَل تأتي مفردة مثل: فَنَنَ جمعها: أفنان، وسَبَب جمعها: أسباب.

وقوله: «**من كان قبلكم**»؛ أي: من الأمم.

وقوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» ليس علىٰ ظاهره، بل هو عام مخصوص؛ لأننا لو أخذنا بظاهره كانت جميع هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها، لكننا نقول: إنه عام مخصوص؛ لأن في هذه الأمة من لا يتبع «تلك السنن» كما أخبر النبيﷺ أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة علىٰ الحق، وقد يقال: إن الحديث علىٰ عمومه وأنه لا يلزم أن تتبع هذه الأمةُ الأمم السابقة في جميع سننها، بل بعض الأمة يتبعها في شيء وبعض الأمة يتبعها في شيء آخر، وحينئذ لا يقتضي خروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أولىٰ لبقاء الحديث علىٰ عمومه، ومن المعلوم أن من طُرق من كان قبلنا ما لا يخرج من الملة، مثل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب.

ومنه ما يخرج من الملة: كعبادة الأوثان.

السنن: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء علىٰ حق الخالق، ومنها ما هو اعتداء علىٰ حق المخلوق، ولنستعرض شيئًا من هذه السنن.

فمن هذه السنن: عبادة القبور والصالحين؛ فإنها موجودة في الأمم السابقة وقد وجدت في هذه الأمة، قال تعالىٰ عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣].

ومن ذلك: الغلو في الصالحين كما وجد في الأمم السابقة وجد في هذه الأمة.

ومنها: دعاء غير الله، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: بناء المساجد علىٰ القبور موجود في السابقين، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: وصف الله بالنقائص والعيوب؛ فقد قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[المائدة:٦٤]، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[آل عمران:١٨١]، وقالوا: إن الله تعب من خلق السماوات والأرض، وقد وجد في هذه الأمة من قال بذلك أو أشد منه؛ فقد وجد من قال: ليس له يد، ومنهم من قال: لا يستطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا ولا يتكلم، بل وجد في هذه الأمة من يقول: بأنه ليس داخلًا في العالم، وليس خارجًا عنه ولا متصلًا به ولا منفصلًا عنه، فوصفوه بما لا يمكن وجوده، ومنهم من قال: لا تجوز الإشارة الحسية إليه، ولا يفعل، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يحب، وهذا مذهب الأشاعرة.

ومنها: أكل السحت؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: أكل الربا، فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: التحيل على محارم الله؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: تحريف كلام الله عن مواضعه لفظًا ومعنى؛ كاليهود حين قيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾[البقرة:٥٨]، فدخلوا على قفاهم، وقالوا: حنطة ولم يقولوا حطة، ووجد في هذه الأمة من فعل كذلك؛ فحرف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه:٥]، وقالوا هم: الرحمن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إن اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود في (حطة) فقالوا: (حنطة).

نون اليهود ولام جهمي هما ... في وحي رب العرش زائدتان

أمر اليهود بأن يقولوا حطة ... فأبوا وقالوا حنطة لهوان

وكذلك الجهمي قيل له استوى ... فأبى وزاد الحرف للنقصان

ووجد في الأمم السابقة من اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، ووجد في هذه الأمة من يعارض قول النبي ﷺ بقول شيخه.

فإذا تأملت كلام النبي ﷺ وجدته مطابقًا للواقع: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، ولكن يبقى النظر: هل هذا الحديث للتحذير أو للإقرار؟

الجواب: لا شك أنه للتحذير وليس للإقرار؛ فلا يقول أحد: سأحسد، وسآكل الربا، وسأعتدي على الخلق؛ لأن الرسولﷺ قال ذلك، فمن قال ذلك؛ فإننا نقول له: أخطأت، لأن قول النبيﷺ لا شك أنه للتحذير، ولهذا قال الصحابة: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟

ثم نقول لهم أيضًا: إن الرسولﷺ أخبر بأشياء ستقع، ومع ذلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن.

فمن ذلك أنه أخبر أن الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخبر أن الإنسان يعصي أباه ويدني صديقه وهذا ليس بجائز بنص القرآن، لكن قصد التحذير من هذا العمل.

ووجد في الأمم السابقة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لضالون، ووجد في هذه الأمة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لرجعيون.

فالمعاصي لها أصل في الأمم على حسب ما سبق، ولكن من وفقه الله للهداية اهتدى.

والحاصل: أنك لا تكاد تجد معصية في هذه الأمة إلا وجدت لها أصلًا في الأمم السابقة.

ولا تجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثًا في هذه الأمة.

أما مناسبة الحديث للباب:

فلأنه لما عبدت الأمم السابقة الأصنام والأوثان؟ فسيكون في هذه الأمة من يعبد الأصنام والأوثان.

قوله: «**حذو القذة بالقذة**»: حذو بمعني: محاذيًا، وهي منصوبة على الحال من فاعل «تتبعن»؛ أي: حال كونكم محاذين لهم حذو القذة بالقذة.

والقذة: هي ريشة السهم، والسهم له ريش لابد أن تكون متساوية تمامًا، وإلا صار الرمي به مختلًا.

قوله: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»:

هذه الجملة تأكيد منهﷺ للمتابعة.

وجحر الضب من اصغر الجحور، ولو دخلوا جحر أسد من باب أولى أن ندخله؛ فالنبيﷺ قال ذلك على سبيل المبالغة؛ كقولهﷺ: «**من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين**»[٦٢٨] ومن اقتطع ذراعًا، فمن باب أولى.

---

(٦٢٨) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في سبع أرضين، برقم (٣١٩٨)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرهما، برقم (١٦١٠).

قوله: «قالوا اليهود والنصارىٰ» يجوز فيها وجهان:

الأول: نصب اليهود والنصارىٰ علىٰ أنه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعني اليهود والنصارىٰ؟

الثاني: الرفع علىٰ أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارىٰ؟

وعلىٰ كل تقدير فالجملة إنشائية؛ لأنهم يسألون النبيﷺ، فهي استفهامية، والاستفهام من باب الإنشاء.

واليهود: أتباع موسىٰ عليه الصلاة والسلام، وسموا يهودًا نسبة إلىٰ يهوذا من أحفاد إسحاق، أو لأنهم هادوا إلىٰ الله؛ أي: رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل.

والنصارىٰ: هم أتباع عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وسموا بذلك نسبة إلىٰ بلدة تسمىٰ الناصر، وقيل: من النصرة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الصف:١٤].

قوله: «**قال: فمن**»: من هنا: اسم استفهام، والمراد به التقرير؛ أي: فمن أعني غير هؤلاء، أو فمن هم غير هؤلاء؟ فالصحابة رضي الله عنهم لما حدثهمﷺ بهذا الحديث كأنه حصل في نفوسهم بعض الغرابة، فلما سألوا قرر النبيﷺ أنهم اليهود والنصارىٰ.

من فوائد الحديث:

١ - ما أراده المؤلف بسياقه، وهو أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان؛ لأنه من سنن من قبلنا، وقد أخبرﷺ أننا سنتبعهم.

٢ - ويستفاد أيضًا من فحوىٰ الكلام التحذير من متابعة من قبلنا في معصية الله.

٣- أنه ينبغي معرفة ما كان عليه من كان قبلنا مما يجب الحذر منه لنحذره، وغالب ذلك -ولله الحمد- موجود في القرآن والسنة.

٤ استعظام هذا الأمر عند الصحابة، لقولهم: اليهود والنصارىٰ؟ فإن الاستفهام للاستعظام؛ أي: استعظام الأمر أن نتبع سنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدىٰ من النبيﷺ.

٥- أنه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة؛ فإنه يكون أبعد من الحق؛ لأنه أخبر عن مستقبل ولم يخبر عن الحاضر، ولأن من سنن من قبلنا أنه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

فإذا كان طول الأمد سببًا لقسوة القلب فيمن قبلنا؛ فسيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء في «البخاري» من حديث أنس رضي الله عنه، أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يأتي علىٰ الناس زمان إلا وما بعده أشر منه، حتىٰ تلقوا ربكم**»[٦٢٩] ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك، لكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد؛ فحديث أنس رضي الله عنه حديث صحيح سندًا ومتنًا؛ فالمتن ليس فيه شذوذ، والسند في «البخاري»، والمراد به من حيث الجملة، ولذلك يوجد في أتباع التابعين من هو خير من كثير من التابعين، فلا تيأسوا، فتقولوا: إذًا لا يمكن أن يوجد في زماننا هذا مثل من سبق؛ لأننا نقول: إن مثل هذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شئتم أن يتضح الأمر، فانظرو إلىٰ جنس الرجال وجنس النساء؛ أيهما خير؟

والجواب: جنس الرجال خير، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[البقرة:٢٢٨]، لكن يوجد في النساء من هي خير من كثير من الرجال؛ فيجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

فإذا نظرنا إلىٰ مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولا باعتبار مكان دون مكان؛ فقد تكون أمة في بعض الجهات يرتفع الناس فيها من حسن إلىٰ أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم؛ فإنهم يكونون أحسن ممن سبقهم.

أما الصحابة؛ فلا أحد يساويهم في فضل الصحبة، حتىٰ أفرادهم لا يمكن لأحد من التابعين أن يساويهم فيها مهما بلغ من الفضل؛ لأنه لم يدرك الصحبة.

مسألة: ما هي الحكمة من ابتلاء الأمة بهذا الأمر: «**لتتبعن سنن...**» إلخ، وأن يكون فيها من كل مساوئ من سبقها؟

الجواب: الحكمة ليتبين بذلك كمال الدين؛ فإن الدين يعارض كل هذه الأخلاق، فإذا كان يعارضها دل هذا علىٰ أن كل نقص في الأمم السابقة، فإن هذه الشريعة جاءت بتكميله؛ لأن الأشياء لا تتبين إلا بضدها؛ كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

تنبيه:

قوله: «**حذو القذة بالقذة**»[٦٣٠] لم أجده في مظانه في «الصحيحين»؛ فليحرر.

---

(٦٢٩) أخرجه البخاري، كتاب: الفتن، باب: لا يأتي علىٰ الناس زمان إلا الذي بعده شر منه، برقم (٧٠٦٨)، وغيره من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦٣٠) هذا اللفظ ليس في «الصحيحين» ولكنه حديث آخر أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥)، والطبراني، برقم (٧١٤٠)، وابن الجعد، برقم (٣٤٢٤)، والطيالسي، برقم (١١٢١)، وغيرهما من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٣٣١٢).

❁ **قوله:**: «زوىٰ لي»:

بمعنىٰ جمع وضم؛ أي: جمع له الأرض وضمها.

قوله: «**فرأيت**»؛ أي: بعيني؛ فهي رؤية عينية، ويحتمل أن تكون رؤية منامية.

قوله: «**مشارقها ومغاربها**»، وهذا ليس علىٰ الله بعزيز؛ لأنه علىٰ كل شيء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتىٰ يشاهد النبي ﷺ ما سيبلغ ملك أمته منها.

وهل المراد بالزوي هنا أن الأرض جمعت، أو أن الرسول ﷺ قوي نظره حتىٰ رأىٰ البعيد؟

الأقرب إلىٰ ظاهر اللفظ: أن الأرض جمعت، لا أن بصره قوي حتىٰ رأىٰ البعيد.

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبي ﷺ: أي أن الله أعطاه قوة بصر حتىٰ أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول، ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها؛ فالله علىٰ كل شيء قدير؛ فهو قادر علىٰ أن يجمع له ﷺ الأرض حتىٰ تكون صغيرة فيدركها من مشارقها إلىٰ مغاربها.

اعتراض وجوابه:

فإن قيل: هذا إن حمل علىٰ الواقع؛ فليس بموافق للواقع؛ لأنه لو حصرت الأرض بحيث يدركها بصر النبي ﷺ المجرد، فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارىٰ؟

والجواب: بأن هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز أن تورد عليها كيف ولِمَ، بل نقول: إن الله علىٰ كل شيء قدير؛ إذ قوة الله -سبحانه- أعظم من قوتنا وأعظم من أن نحيط بها، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم[٦٣١]؛ فلا يجوز أن نقول: كيف يجري مجرىٰ الدم؟ فالله أعلم بذلك.

وهذه المسائل التي لا ندركها يجب التسليم المحض لها، ولهذا نقول في باب الأسماء والصفات: تجرىٰ علىٰ ظاهرها مع التنزيه عن التكييف والتمثيل وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة.

وقوله: «**فرأيت مشارقها ومغاربها**»، أي أماكن الشرق والغرب منها.

---

(٦٣١)أخرجه البخاري، كتاب: الأحكام، باب: الشهادة تكون عند الحاكم في ولايته القضاء أو قبل ذلك، برقم (٧١٧١)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة وكانت زوجته أو محرمًا له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، برقم (٢١٧٥)، وغيرها من حديث صفية رضي الله عنها.

قوله: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»:

والمراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول ﷺ سيبلغ ملكها ما زوي للرسول ﷺ منها، وهذا هو الواقع، فإن ملك هذه الأمة اتسع من المشرق ومن المغرب اتساعًا بالغًا، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلىٰ السند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلىٰ ما وراء المحيط، وهذا يحقق ما رآه النبي ﷺ.

قوله: «**وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض**»، الذي أعطاه هو الله.

والكنزان: هما الذهب والفضة كنوز كسرىٰ وقيصر؛ فالذهب عند قيصر، والفضة عند كسرىٰ، وكل منهما عنده ذهب وفضة، لكن الأغلب علىٰ كنوز قيصر الذهب، وعلىٰ كنوز كسرىٰ الفضة.

وقوله: «**أعطيت**» هل النبي ﷺ أعطيها في حياته، أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذلك، لكن ما أعطيت أمته؛ فهو كالمعطىٰ له؛ لأن امتداد ملك الأمة لا لأنها أمة عربية كما يقوله الجهال؛ بل لأنها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ.

قوله: «**وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة**»، هكذا في الأصل: «**بعامة**»، والمعنىٰ بمهلكة عامة، وفي رواية في بعض النسخ: «**بسنة عامة**».

السنة: الجدب والقحط، وهو يهلك ويدمر، قال ﷺ: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»(٦٣٢) وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾[الأعراف:١٣٠]، ويحتمل أن يكون المعنىٰ بعام واحد؛ فتكون الباء للظرفية.

وعامة؛ أي: عمومًا تعمهم، هذه دعوة.

قوله: «وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم»:

أي: لا يسلط عليهم عدوًا. والعدو: ضد الولي، وهو: المعادي المبغض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهذا قال: «**من سوىٰ أنفسهم**».

ومعنىٰ: «**يستبيح**»: يستحل، والبيضة: ما يجعل علىٰ الرأس وقاية من السهام.

والمراد: يظهر عليهم ويغلبهم.

---

(٦٣٢)أخرجه البخاري، كتاب: صفة الصلاة، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد، برقم (٨٠٤)، ومسلم، كتاب: المساجد، ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلاة، برقم (٦٧٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «**إذا قضيت قضاء، فإنه لا يرد**»،

اعلم أن قضاء الله نوعان:

١ - قضاء شرعي قد يرد؛ فقد يريده الله ولا يقبلونه.

٢ - قضاء كوني لا يرد، ولابد أن ينفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر:٢٠].

ومثال القضاء الشرعي: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]؛ لأنه لو كان كونيًّا، لكان كل الناس لا يعبدون إلا الله.

ومثال القضاء الكوني: قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]؛ لأن الله تعالىٰ لا يقضي شرعًا بالفساد، لكنه يقضي به كونًا وإن كان يكرهه سبحانه، فإن الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغة، كما قسم خلقه إلىٰ مؤمنين وكافرين، لما يترتب علىٰ ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء في هذا الحديث: القضاء الكوني؛ فلا أحد يستطيع رده مهما كان من الكفر والفسوق؛ فقضاء الله نافذ علىٰ أكبر الناس عتوًّا واستكبارًا، فقد نفذ علىٰ فرعون وأغرق بالماء الذي كان يفتخر به، وعلىٰ طواغيت بني آدم فأهلكهم الله ودمرهم.

وفي قوله: «**إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد**» من كمال سلطان الله وقدرته وربوبيته ما هو ظاهر، لأنه ما من ملك سوىٰ الله إلا يمكن أن يرد ما قضىٰ به، وأما قضاء الله فلا يمكن رده.

واعلم أن قضاء الله الكوني كمشيئته لا يكون إلا لحكمة كقضائه الشرعي، فهو لا يقضي قضاءً إلا والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئًا إلا والحكمة تقتضيه، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]؛ فيتبين أنه لا يشاء شيئًا إلا عن علم وحكمة، وليس لمجرد المشيئة.

خلافًا لمن أنكر حكمة الله من الجهمية وغيرهم، فقالوا: إنه لا يفعل الأشياء إلا لمجرد المشيئة، فجعلوا علىٰ زعمهم المخلوقين أكمل تصرفًا من الله؛ لأن كل عاقل من المخلوقين لا يتصرف إلا لحكمة، ولهذا كان الذي يتصرف بسفه يحجر عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء:٥]

فنحن نقول: إن الله -جل وعلا- لا يفعل شيئًا ولا يحكم بشيء إلا لحكمة، ولكن هل يلزم من الحكمة أن نحيط بها علمًا؟

الجواب: لا يلزم، لأننا أقصر من أن نحيط علمًا بحكم الله كلها، صحيح أن بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من قوله: «**إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد**» بيان أن من الأشياء التي سألها النبي ﷺ ما لم يعطها؛ لأنه الله قضىٰ بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يرد ما قضاه الله ﷻ.

والقضاء قد يتوقف علىٰ الدعاء، بل إن كل القضاء أو أكثر القضاء له أسباب إما معلومة أو مجهولة؛ فدخول الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح.

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله ﷻ منعه حتىٰ نسأل لكن من الأشياء ما لا تقتضي الحكمة وجوده وحينئذ يجازىٰ الداعي بما هو أكمل أو يؤخر له ويدخر له عند الله ﷻ، أو يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، والدعاء إذا تمت فيه شروط القبول ولم يجب، فإننا نجزم بأنه ادخر له.

وقوله: «**وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة**» هذه واحدة.

والثانية: قوله: «**أن لا أسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا**».

وهذه الإجابة قيدت بقوله: «**حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا**» إذا وقع ذلك منهم؛ فقد يسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم، فيستبيح بيضتهم؛ فكأن إجابة الله لرسوله ﷺ في الجملة الأولىٰ بدون استثناء، وفي الجملة الثانية باستثناء «**حتىٰ يكون بعضهم...**».

وهذه هي الحكمة من تقديم قوله: «**إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد**»، فصارت إجابة الله لرسوله ﷺ مقيدة.

ومن نعمة الله أن هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبدًا، فكل من يدين بدين الرسول ﷺ؛ فإنه لن يهلك، وإن هلك قوم في جهة بسنة؛ فإنه لا يهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا؛ فإنه يسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم، وهذا هو الواقع؛ فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عونًا في الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة، ولما تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا؛ سلط الله عليهم

عدوًّا من سوىٰ أنفسهم، وأعظم من سلط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا علىٰ المسلمين تسليطًا لا نظير له؛ فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسرًا علىٰ نهر دجلة يطئونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلىٰ الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم، وهي حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن الأثير في «الكامل»: «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها فأنا أقدم رجلًا وأؤخر أخرىٰ، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني! ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًّا إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء علىٰ تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذلك لا يجدي...»، وذكر كلامًا طويلًا ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيدًا من ذلك؛ فليرجع إلىٰ حوادث سنة ٦١٧ من الكتاب المذكور.

وفي الحديث دليل علىٰ تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتىٰ تبقىٰ هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم.

❁ **قوله:** «إنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين»:

بين الرسول ﷺ أنه لا يخاف علىٰ الأمة إلا الأئمة المضلين.

والأئمة: جمع إمام، والإمام قد يكون إمامًا في الخير أو الشر، قال تعالىٰ في أئمة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال تعالىٰ عن آل فرعون أئمة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

والذي في حديث الباب: «الأئمة المضلين»، أئمة الشر، وصدق النبي ﷺ، إن أعظم ما يخاف علىٰ الأمة الأئمة المضلون، كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرقت الأمة بسببهم.

والمراد بقوله: «الأئمة المضلين»: الذين يقودون الناس باسم الشرع، والذين يأخذون الناس بالقهر والسلطان؛ فيشمل الحكام الفاسدين، والعلماء المضلين، الذين يدعون أن ما هم عليه شرع الله، وهم أشد الناس عداوةً له.

قال الإمام أحمد رحمه الله: لو كان لي دعوة مستجابة؛ لصرفتها للسلطان؛ فإن بصلاحه صلاح الأمة.

❁ **قوله: «إذا وقع عليهم السيف...» إلخ:**

هذا من آيات النبي ﷺ، وهذا حق واقع، فإنه لما وقع السيف في هذه الأمة لم يرفع، فما زال بينهم القتال منذ قتل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، وصارت الأمة يقتل بعضهم بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا.

❁ **قوله: «ولا تقوم الساعة حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين»:**

الحي: بمعنىٰ القبيلة.

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني، بمعنىٰ أنه يذهب هذا الحي إلىٰ المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي، بمعنىٰ أن يعملوا بعمل المشركين، أو الأمران معًا؟

الظاهر أن المراد جميع ذلك.

وأما الحي؛ فالظاهر أن المراد به الجنس، وليس واحد الأحياء، وإن قيل: إن المراد واحد الأحياء؛ فلا بد أن يكون لهذا الحي أثره وقيمته في الأمة الإسلامية، بحيث يتبين ويظهر، وربما يكون لهذا الحي إمام يزيغ - والعياذ بالله - ويفسد؛ فيتبعه كل الحي، ويتبين ويظهر أمره.

قوله: «**وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان**»: الفئام؛ أي: الجماعات، وهذا وقع، ففي كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم، وفئام؛ أي: ليسوا أحياءً، فقد يكون بعضهم من قبيلة، والبعض الآخر من قبيلة، فيجتمعون.

قوله: «**وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون**»، حصرهم النبي ﷺ بعدد، وكلهم يزعم أنه نبي أُوحي إليه، وهم كذابون؛ لأن النبي ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده، فمن زعم أنه نبي بعد الرسول ﷺ، فهو كاذب كافر حلال الدم والمال، ومن صدَّقه في ذلك؛ فهو كافر حلال الدم والمال، وليس من المسلمين ولا من أمة محمد ﷺ. ومن زعم أنه أفضل من محمد، وأنه يتلقىٰ من الله مباشرة ومحمد ﷺ يتلقىٰ منه بواسطة الملك؛ فهو كاذب كافر حلال الدم والمال.

وقوله: «**كذابون ثلاثون**» هل ظهروا أم لا؟

الجواب: ظهر بعضهم، وبعضهم ينتظر؛ لأن النبي ﷺ لم يحصرهم في زمن معين، وما دامت الساعة لم تقم، فهم يُنتظرون.

قوله: «**كلهم يزعم**»؛ أي: يدعي.

قوله: «**وأنا خاتم النبيين**»؛ أي: آخرهم، وأكد ذلك بقوله: «**لا نبي بعدي**»، فإن قيل: ما الجواب عما ثبت في نزول عيسىٰ بن مريم في آخر الزمان، مع أنه نبي ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام، فالجواب: إن نبوته سابقة لنبوة محمد ﷺ وأما كونه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ فليس تشريعًا جديدًا ينسخ قبول الجزية، بل هو تشريع من محمد ﷺ لأنه أخبر به مقررًا له.

❁ **قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة»:**

المعنىٰ: أنهم يبقون إلىٰ آخر وجودهم منصورين.

هذا من نعمة الله، فلما ذكر أن حيًّا من الأحياء يلتحقون بالمشركين، وأن فئامًا يعبدون الأصنام، وأن أناسًا يدعون النبوة؛ فيكون هنا الإخلال بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله بالشرك، وأن محمدًا رسول الله بادعاء النبوة، وذلك أصل التوحيد، بل أصل الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

فلما بين ذلك لم يجعل الناس ييأسون، فقال: «**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة**». والطائفة: الجماعة.

وقوله: «**علىٰ الحق**»: جار ومجرور خبر تزال.

قوله: «**منصورة**»، خبر ثانٍ، ويجوز أن يكون حالًا، والمعنىٰ: لا تزال علىٰ الحق، وهي كذلك أيضًا منصورة.

❁ **قوله: «لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»:**

خذلهم؛ أي: لم ينصرهم ويوافقهم علىٰ ما ذهبوا إليه، وفي هذا دليل علىٰ أنه سيوجد من يخذلهم، لكنه لا يضرهم؛ لأن الأمور بيد الله، وقد قال ﷺ «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**» [٦٣٣] وكذلك لا يضرهم من خالفهم؛ لأنهم منصورون بنصر الله؛ فالله ﷻ إذا نصر أحدًا فلن يستطيع أحد أن يذله.

---

(٦٣٣) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: (٥٩)، برقم (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٧٩٥٧).

قوله: «**حتىٰ يأتي أمر الله**»؛ أي: الكوني، وذلك عند قيام الساعة عندما يأتي أمره سبحانه وتعالىٰ بأن تقبض نفس كل مؤمن، حتىٰ لا يبقىٰ إلا شرار الخلق؛ فعليهم تقوم الساعة.

الشاهد من هذا الحديث: قوله في رواية البرقاني: «**حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين ويعبد فئام من أمتي الأوثان**».

وقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة**»، هذه لم يحدد مكانها؛ فتشمل جميع بقاع الأرض في الحرمين والعراق وغيرهما.

فالمهم أن هذه الطائفة مهما نَأَتْ بهم الديار؛ فهي طائفة واحدة منصورة علىٰ الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله.

مسألة: قال بعض السلف: إن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث؛ فما مدىٰ صحة هذا القول؟

الجواب: هذا ليس بصحيح علىٰ إطلاقه، بل لا بد من التفصيل، فإن أريد بذلك أهل الحديث المصطلح عليه، الذين يأخذون الحديث رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير وما أشبه ذلك، فهذا ليس بصحيح؛ لأن علماء التفسير والفقهاء الذين يتحرون البناء علىٰ الدليل هم في الحقيقة من أهل الحديث، ولا يختص بأهل الحديث صناعة؛ لأن العلوم الشرعية: تفسير، وحديث، وفقه... إلخ.

فالمقصود: أن كل من تحاكم إلىٰ الكتاب والسنة؛ فهو من أهل الحديث بالمعنىٰ العام.

وأهل الحديث هم: كل من يتحرىٰ العمل بسنة رسول الله ﷺ، فيشمل الفقهاء الذين يتحرون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحًا.

فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلًا لا يعتبر اصطلاحًا من المحدّثين، ومع ذلك؛ فهو رافع لراية الحديث.

والإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تنازعه طائفتان: أهل الفقه قالوا: إنه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنه محدِّث. وهو إمام في الفقه والحديث والتفسير، ولا شك أن أقرب الناس تمسكًا بالحديث هم الذين يعتنون به.

ويُخشىٰ من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث أن يظن أنهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحًا، فيخرج غيرهم.

فإذا قيل: أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث، سواء انتسبوا إليه اصطلاحًا واعتنوا به أو لم يعتنوا، لكنهم أخذوا به، فيحنئذ يكون صحيحًا.

قوله: «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير آية النساء: وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[النساء:٥١]، وقد سبق ذلك.

الثانية: تفسير آية المائدة: وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[المائدة:٦٠]، وقد سبق تفسيرها، والشاهد منها هنا قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

الثالثة: تفسير آية الكهف: يعني: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وقد سبق بيان معناها.

الرابعة: - وهي أهمها -: **ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد القلب أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟**

أما إيمان القلب واعتقاده؛ فهذا لا شك في دخوله في الآية.

وأما موافقة أصحابها في العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها؛ فهذا يحتاج إلى تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناءً على أنها صحيحة؛ فهذا كفر وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنها صحيحة؛ فإنه لا يكفر، لكنه لا شك على خطر عظيم يخشى أن يؤدي به الحال إلى الكفر والعياذ بالله.

الخامسة: **قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلًا من المؤمنين**؛ يعني: إن هذا القول كفر وردَّة؛ لأن من زعم أن الكفار الذين يعرف كفرهم أهدى سبيلًا من المؤمنين؛ فإنه كافر لتقديمه الكفر على الإيمان.

السادسة - وهي المقصودة بالترجمة -: **أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.**

السابعة: **تصريحه بوقوعها؛ أعني: عبادة الأوثان**: والترجمة التي أشار إليها رَحِمَهُ اللَّهُ هي قوله: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»، وحديث أبي سعيد هو قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله اليهود

والنصارىٰ؟ قال: فمن؟». أخرجاه. وهذا يتضمن التحذير من أن تقع هذه الأمة في مثل ما وقع فيه من سبقها.

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله، مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة:

والمختار هو ابن أبي عبيد الثقفي، خرج وغلب علىٰ الكوفة في أول خلافة ابن الزبير رضي الله عنهما، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلىٰ الثأر من قتلة الحسين؛ فتتبعهم، وقتل كثيرًا ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعىٰ النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولا شك أن هذه المسألة من العجب العجاب أن يدعي النبوة وهو يؤمن أن القرآن حق، وفي القرآن أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين؛ فكيف يكون صادقًا، وكيف يُصدَّق مع هذا التناقض؟! ولكن من يجعل الله له نورًا فما له من نور.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضىٰ، بل لا تزال عليه طائفة؛ يعني: من هذه الأمة منصورة إلىٰ يوم القيامة. يؤخذ هذا من آخر الحديث: «**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله تبارك وتعالىٰ**».

العاشرة: الآية العظمىٰ: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم: وهذه آية عظمىٰ: أن الكثرة الكاثرة من بني آدم علىٰ خلاف ذلك، ومع ذلك لا يضرونهم، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلىٰ قيام الساعة: وقد سبق.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة؛ أي: ما في هذا الحديث من الآيات العظيمة، والآيات: جمع آية، وهي العلامة، والآيات التي يؤيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام هي العلامات الدالة علىٰ صدقهم.

فمما في هذا الحديث: إخباره بأن الله -سبحانه وتعالىٰ- زوىٰ له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنىٰ ذلك؛ فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبي ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهذا من علم الغيب الذي أَطْلَع الله رسوله ﷺ عليه.

ومنها: إخباره أنه ﷺ أُعْطي الكنزين، وهما كنزا كسرىٰ وقيصر.

ومنها: إخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وهما ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا... إلخ، ومنع الثالثة، وهي ألا يجعل بأس هذه الأمة بينها؛ فإن هذا سوف يكون كما صرح به حديث عامر بن سعد عن أبيه: «**إن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتىٰ إذا مر بمسجد بني معاوية، دخل، فركع فيه ركعتين وصلينا معه، ودعا دعاء طويلًا، وانصرف إلينا، فقال: سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة؛ فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق؛ فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها**»(٦٣٤)؛ أي: منعني إياها.

ومن **الآيات التي تضمنها هذا الحديث**: إخباره بوقوع السيف في أمته، وأنه إذا وقع؛ فإنه لا يرفع حتىٰ تقوم الساعة، وقد كان الأمر كذلك؛ فإنه منذ سُلّت السيوف علىٰ المسلمين من بعضهم علىٰ بعض بقي هذا إلىٰ يومنا هذا.

ومنها: إخباره بإهلاك بعضهم بعضًا وسبي بعضهم بعضًا، هذا أيضًا واقع.

ومنها: خوفه علىٰ أمته من الأئمة المضلين، والأئمة: جمع إمام، والإمام: هو من يقتدىٰ به؛ إما لعلمه، وإما لسلطته، وإما لعبادته.

ومنها: إخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وأنهم ثلاثون، قال ابن حجر: «هذا الحصر بالثلاثين لا يعني انحصار المتنبئين بذلك؛ لأنهم أكثر من ذلك».

قلت: فيكون ذكر الثلاثين لبيان الحد الأدنىٰ؛ أي: أنهم لا ينقصون عن ذلك العدد، وإنما عدلنا عن ظاهر اللفظ للأمر الواقع، وهذا -والله أعلم- هو السر في ترك المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ العدد في مسائل الباب مع أنه صريح في الحديث.

ومنها: إخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وهذا كله وقع كما أخبر.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول**».

---

(٦٣٤) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، برقم (٢٨٩٠).

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين: ووجه هذا الحصر أن الأئمة ثلاثة أقسام: أمراء وعلماء وعباد؛ فهم الذين يخشى من إضلالهم؛ لأنهم متبوعون، فالأمراء لهم السلطة والتنفيذ، والعلماء لهم التوجيه والإرشاد، والعباد لهم تغرير الناس وخداعهم بأحوالهم؛ فهؤلاء يطاعون ويقتدى بهم، فيخاف على الأمة منهم؛ لأنهم إذا كانوا مضلين ضل بهم كثير من الناس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان؛ يعني: أن عبادة الأوثان لا تختص بالركوع والسجود لها، بل تشمل اتباع المضلين الذين يُحلون ما حرم الله فيُحله الناس، ويُحرمون ما أحله الله فيحرمه الناس.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله:** «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ المصنف لمَّا ذكر التوحيد وما ينافيه أو ينقصه من الشرك، ذكر في هذا الباب أنَّ هذا الشرك لابد أن يقع في هذه الأمة، وقصد بذلك الرد على عباد القبور الذين يفعلون الشرك ويقولون: لا يقع في هذه الأمة المحمدية شرك، وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

«**الأوثان**»: جمع وثنٍ، وهو ما قصد بنوعٍ من أنواع العبادة من القبور والمشاهد وغيرها.

❁ **قوله:** «وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾»:

ألم تنظر.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟﴾: أعطوا وهم اليهود والنصارى.

﴿نَصِيبًا﴾: حظًّا.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدقون.

﴿بِٱلْجِبْتِ﴾: وهو كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر.

﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: من الطغيان وهو مجاوزة الحدِّ، فكل من تجاوز المقدار والحدَّ فهو طاغوت، والمراد به هنا الشيطان.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يقول الله سبحانه لنبيه ﷺ علىٰ وجه التعجب والاستنكار! ألم تنظر إلىٰ هؤلاء اليهود والنصارىٰ الذين أُعطوا حظًّا من كتاب الله الذي فيه بيان الحق من الباطل، ومع هذا يصدقون بالباطل من عبادة الأصنام والكهانة والسحر، ويطيعون الشيطان في ذلك.

مناسبة الآية للباب:

أنَّه إذا كان الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت؛ فهذه الأمة التي أوتيت القرآن لا ينكر ولا يستبعد أن تعبد الجبت والطاغوت؛ لأنَّ الرسول ﷺ أخبر أنه سيكون في هذه الأمة من يفعل مثل فعل اليهود والنصارىٰ موافقة لهم ولو كان يبغضها ويعرف بطلانها.

ما يستفاد من الآية:

١ - أنه سيكون في هذه الأمة من يعبد الأوثان كما حدث لليهود والنصارىٰ.

٢ - أنَّ الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع معناه موافقة أصحابها ولو كان يبغضها ويعرف بطلانها.

٣- أن الكفرَ بالجبت والطاغوت واجبٌ في جميع الكتب السماوية.

٤ - وجوب العمل بالعلم، وأنَّ من لم يعمل بعلمه ففيه شبه من اليهود والنصارىٰ.

قوله: ﴿قُلْ﴾:

الخطاب لمحمد ﷺ.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾: أخبركم.

﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾: الذي ذكرتم في حقنا من الذم زورًا وبهتانًا من قولكم في حقنا: «ما رأينا شرًّا منكم».

﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: جزاءً عنده يوم القيامة نُصب علىٰ التمييز وهذا يصدق عليكم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات لا نحن.

﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾: طرده وأبعده من رحمته.

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾: غضبًا لا يرضىٰ بعده.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾: وهم أصحاب السبت من اليهود.

﴿وَالْخَنَازِيرَ﴾: وهم كفار مائدة عيسىٰ من النصارىٰ، وقيل: كلا الـمَسْخَيْنِ في أصحاب السبت من اليهود. فالشباب مسخوا قردة والشيوخ مسخوا خنازير.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾؛ أي: وجعل منهم من عَبَدَ الشيطان؛ أي: أطاعه فيما سوَّل له.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يقول تعالىٰ لنبيه: قل لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبًا من أهل الكتاب: هل أخبركم بمن ينال شر الجزاء يوم القيامة عند الله؛ إنَّه من اتصف بهذه الصفات التي هي الإبعاد عن رحمة الله، ونيل غضبه الدائم، ومن مُسِخت صورته ظاهرًا بتحويله إلىٰ قردٍ أو خنزيرٍ، وباطنًا بطاعة الشيطان وإعراضه عن وحي الرحمن. وهذه الصفات إنما تنطبق عليكم يا أهل الكتاب ومن تشبه بكم لا علينا.

مناسبة الآية للباب:

أنَّه إذا كان في أهل الكتاب مَنْ عَبَدَ الطاغوت من دون الله، فكذلك يكون في هذه الأمة من يفعل ذلك.

ما يستفاد من الآية:

١- وقوع الشرك في هذه الأمة؛ كما كان في اليهود والنصارىٰ من عبد الطاغوت.

٢- محاجة أهل الباطل وبيان ما فيهم من العيوب إذا نبزوا أهل الحقِّ بما ليس فيهم.

٣- أنَّ الجزاء إنَّما يكون علىٰ الأعمال، ويكون من جنس العمل.

٤- وصف الله بأنَّه يغضب ويلعن العصاة.

٥- أنَّ طاعة الشيطان هي منشأ الشرك بالله.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾:

أي: علىٰ أمر أصحاب الكهف وهم أصحاب الكلمة والنفوذ.

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾: حولهم.

﴿مَّسْجِدًا﴾: يصلىٰ فيه ويقصدهم الناس ويتبركون بهم.

المعنىٰ الإجمالي للآية:

يخبر تعالىٰ عن الذين غلبوا علىٰ أمر أصحاب الكهف علىٰ وجه الذم أنهم قالوا لنتخذن حولهم مصلىٰ يقصده الناس ويتبركون بهم.

مناسبة الآية للباب:

أنَّ فيها دليلًا علىٰ أنه سيكون في هذه الأمة من يتخذ المساجد علىٰ القبور، كما كان يفعله من كان قبلهم.

ما يستفاد من الآية:

١- تحريم اتخاذ المساجد علىٰ القبور والتحذير من ذلك؛ لأنه يؤدي إلىٰ الشرك.

٢- أنَّه سيكون في هذه الأمة من يتخذ المساجد علىٰ القبور كما فعله من كان قبلهم.

٣- التحذير من الغلو في الصالحين.

٤- أنَّ اتخاذ المساجد علىٰ القبور من الغلو في الصالحين.

قوله: «سنن»:

بفتح السين؛ أي: طريق.

«**من كان قبلكم**»؛ أي: الذين قبلكم من الأمم.

«**حذو**»: منصوب علىٰ المصدر؛ أي: تحذون حذوهم.

«**القذة**»: بضم القاف: واحدة القذذ وهي ريش السهم. وله قذتان متساويتان.

«**حتىٰ لو دخلوا جحر ضب**»؛ أي: لو تصور دخولهم فيه مع ضيقه.

«**لدخلتموه**»: لشدة سلوككم طريق من قبلكم.

«**قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ**»؛ أي: أهم اليهود والنصارىٰ الذي نتبع سننهم؟، أو تعني اليهود والنصارىٰ.

«**قال: فمن؟**»: استفهام إنكاري؛ أي: فمن هم غير أولئك.

«**أخرجاه**»؛ أي: البخاريّ ومسلم. وهذا لفظ مسلم.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يخبرﷺ خبرًا معناه النهي عمَّا يتضمَّنه هذا الخبرُ: أنَّ أُمته لا تدع شيئًا ممَّا كان يفعله اليهود والنصارىٰ إلا فعلته كله، لا تترك منه شيئًا ولو كان شيئًا تافهًا، ويؤكد هذا الخبر بأنواع من

التأكيدات، وهي اللام الموطئة للقسم، ونون التوكيد ووصف مشابهتهم بأنَّها كمشابهة قذة السهم للقذة الأخرىٰ، ثم وصفها بما هو أدق في التشبه بهم؛ بحيث لو فعلوا شيئًا تافهًا غريبًا لكان في هذه الأمة من يفعله تشبهًا بهم.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه دليلًا علىٰ وقوع الشرك في هذه الامة؛ لأنَّه وجد في الأمم قبلنا، ويكون في هذه الأمة من يفعله اتباعًا لهم.

ما يستفاد من الحديث:

١- وقوع الشرك في هذه الأمة تقليدًا لمن سبقها من الأمم.

٢- عَلَمٌ من أعلام نبوّته حيث أخبر بذلك قبل وقوعه فوقع كما أخبر.

٣- التحذير من مشابهة الكفار.

٤- التحذير مما وقع فيه الكفار من الشرك بالله وغيره مما حرَّم الله تعالىٰ.

❁ **قوله: «ولمسلم عن ثوبان...»:**

«**ترجمة ثوبان**»: هو: مولىٰ رسول الله ﷺصحبه ولازمه وسكن بعده الشام، ومات بحمص سنة ٥٤هـ.

«**زوىٰ لي الأرض**»: طواها وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره، فأبصر ما تملكه أمته من أقصىٰ مشارق الأرض ومغاربها.

«**ما زوي لي منها**»: يحتمل أن يكون مبنيًّا للفاعل، وأن يكون مبنيًّا للمفعول.

«**الكنزين**»: كنز كسرىٰ وهو ملك الفرس وكنز قيصر وهو ملك الروم.

«**الأحمر**»: عبارة عن كنز قيصر؛ لأنَّ الغالب عندهم كان الذهب.

«**والأبيض**»: عبارة عن كنز كسرىٰ؛ لأنَّ الغالب عندهم كان الجوهر والفضة. و الأحمر والأبيض منصوبان علىٰ البدل.

«**بسنةٍ**»: السنة: الجدب.

«**بعامّة**»: صفة لسنةٍ روي بالباء وبحذفها - أي: جدب عام يكون به الهلاك العام.

«**من سوىٰ أنفسهم**»؛ أي: من غيرهم من الكفار.

«بيضتهم»: قيل ساحتهم وما حازوه من البلاد، وقيل معظمهم وجماعتهم.

«حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضًا»؛ أي: حتىٰ يوجد ذلك منهم، فعند ذلك يسلط عليهم عدوهم من الكفار.

«الأئمة المضلين»؛ أي: الأمراء والعلماء والعباد الذين يقتدي بهم الناس.

«وإذا وقع عليهم السيف»؛ أي: وقعت الفتنة والقتال بينهم.

«لم يرفع إلىٰ يوم القيامة»؛ أي: تبقىٰ الفتنة والقتال بينهم.

«يلحق حي من أمتي»: الحي واحد من الأحياء وهي القبائل.

«بالمشركين»؛ أي: ينزلون معهم في ديارهم.

«فئام»؛ أي: جماعات.

«خاتم النبيين»؛ أي: آخر النبيين.

«حتىٰ يأتي أمر الله»: الظاهر أن المراد به: الريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين.

«تبارك»: كمل وتعاظم وتقدس، ولا يقال إلا الله.

«وتعالىٰ»: تعاظم وكمل علوه.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

هذا حديث جليل يشتمل علىٰ أمورٍ مهمة وأخبار صادقة، يخبر فيها الصادق المصدوق ﷺ أن الله سبحانه جمع له الأرض حتىٰ أبصر ما تملكه أمته من أقصىٰ المشارق والمغارب، وهذا خبر وجد مخبره، فقد اتسع ملك أمته حتىٰ بلغ من أقصىٰ المغرب إلىٰ أقصىٰ المشرق، وأخبر أنه أعطي الكنزين فوقع كما أخبر، فقد حازت أمته ملكي كسرىٰ وقيصر بما فيهما من الذهب والفضة والجوهر، وأخبر أنه سأل ربه لأمته أن لا يهلكهم بجدب عام ولا يسلط عليهم عدوًّا من الكفار يستولي علىٰ بلادهم ويستأصل جماعتهم. وأن الله أعطاه المسألة الأولىٰ، وأعطاه المسألة الثانية ما دامت الأمة متجنبة للاختلاف والتفرق والتناحر فيما بينها؛ فإذا وجد ذلك سلط عليه عدوهم من الكفار، وقد وقع كما أخبر حينما تفرقت الأمة. وتخوف ﷺ علىٰ أمته خطر الأمراء والعلماء الضالين المضلين؛ لأن الناس يقتدون بهم في ضلالهم. وأخبر أنَّها إذا وقعت الفتنة والقتال في الأمة فإنَّ ذلك يستمر فيها إلىٰ يوم القيامة وقد وقع كما أخبر، فمنذ حدثت الفتنة بمقتل عثمان رضي الله عنه وهي

مستمرة إلىٰ اليوم. وأخبر أن بعض أمته يلحقون بأهل الشرك في الدار والديانة. وأن جماعات من الأمة ينتقلون إلىٰ الشرك وقد وقع كما أخبر، فعبدت القبور والأشجار والأحجار. وأخبر عن ظهور المدعين للنبوة وأن كل من ادعاها فهو كاذبٌ؛ لأنها انتهت ببعثته ﷺ. وبشر ﷺ ببقاء طائفة من أمته علىٰ الإسلام رغم وقوع هذه الكوارث والويلات، وأن هذه الطائفة مع قلتها لا تتضرر بكيد أعدائها ومخالفيها.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ النبي ﷺ أخبر فيه أن جماعات من أمته ستعبد الأوثان؛ ففيه الرد علىٰ من أنكر وقوع الشرك في الأمة.

ما يستفاد من الحديث:

١- وقوع الشرك في هذه الأمة والرد علىٰ من نفىٰ ذلك.

٢- علم من أعلام نبوته ﷺ حيث أخبر بأخبار وقع مضمونها كما أخبر.

٣- كمال شفقته ﷺ بأمته حيث سأل ربه لها ما فيه خيرها وأعظمه التوحيد، وتخوف عليها ما يضرها وأعظمه الشرك.

٤- تحذير الأمة من الاختلاف ودعاة الضلال.

٥- ختم النبوة به ﷺ.

٦- البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية وببقاء طائفةٍ عليه لا يضرها من خذلها ولا من خالفها.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»:**

هذا **«باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»** وكتاب التوحيد من أوله إلىٰ هذا الموضع ذكر فيه الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسائل كثيرة من التوحيد، كبيان وجوب معرفة التوحيد، والعلم به والخوف من الشرك، وبيان بعض أفراد التوحيد، وبعض أفراد الشرك: الأكبر والأصغر، ثم بين شيئًا مما يتعلق بوسائل ذلك، وما يتعلق بالصور المختلفة التي وقعت من هذا الشرك في الأمم قبلنا وعند الجاهليين، يعني: في الأميين وفي أهل الكتاب، وكذلك مما وقع في هذه الأمة. ثم ذكر الوسائل والطرق الموصلة إلىٰ الشرك، يعني: وسائل الشرك التي توصل إليه، وطرق الشرك الموصلة إليه.

وقد يحتج بعض المشركين والخرافيين بأن هذه الأمة حماها الله -جل وعلا- من أن تعود إلىٰ عبادة الأوثان، وعصمت من الوقوع في الشرك الأكبر بدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم**».(٦٣٥). فلما قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب**».(٦٣٦). علمنا أن عبادة الشيطان لا تكون في هذه الأمة، وأن الشرك الأكبر لا يكون، هكذا يدعي القبوريون.

والجواب: أن هذا الاحتجاج في غير موضعه، وفهم ذلك الدليل، وذلك الحديث ليس علىٰ ذلك النحو، وجواب ما قالوا من أن قوله عليه الصلاة والسلام: «**إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب**» هو أن نقول: إن الشيطان لا يعلم الغيب، وهو حريص علىٰ إغواء بني آدم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٦٢]، هو أيس ولكن لم يأيسه الله -جل وعلا- فالشيطان أيس بنفسه لما رأىٰ عز الإسلام، ولما رأىٰ ظهور التوحيد علىٰ الكفر في جزيرة العرب، فأيس لما رأىٰ ذلك، ولكنه لم يأيسه الله -جل وعلا- من أن يعبد في جزيرة العرب.

ثم إن في قوله: «**أيس أن يعبده المصلون**» إشارة إلىٰ أن أهل الصلاة هم الذين لا تتأتىٰ منهم عبادة الشيطان؛ لأن المصلين لا شك أنهم آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر؛ لأن المصلي هو الذي أقام الصلاة، ومن أقام الصلاة فإن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وأعظم المنكر الذي سينكره المصلي هو الشرك بالله -جل وعلا- فيكون الشيطان بذلك قد يئس أن يعبده من أقام الصلاة علىٰ حقيقتها كما أراد الله جل وعلا.

فليس في هذا الحديث -إذًا- أن عبادة الشيطان لا تكون في هذه الأمة، بل فيه أن الشيطان أيس لما رأىٰ عز الإسلام، ولكنه لم يُأيّس؛ ولهذا فإن طائفة من العرب ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ بقليل، ولا شك أن ذلك الارتداد كان من عبادة الشيطان؛ لأن عبادة الشيطان

---

(٦٣٥) سبق تخريجه.

(٦٣٦) سبق تخريجه.

تكون -أيضًا- بطاعته، كما قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾[يس: ٦٠]، وعبادة الشيطان -كما في تفسير الآية- بطاعته في الأمر والنهي، وطاعته في الشرك، وطاعته في ترك الإيمان وترك لوازمه.

وقد كان إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مستحضرًا لهذا الدليل الذي يحتج به المشركون -من هذه الأمة، من أهل عصره وغيرهم- على نفي عبادة هذه الأمة للأوثان، وعدم وقوع الشرك منهم، فأراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه على بطلان الاستدلال بذلك الدليل على ما ادعوه، بل هو لا يدل على قولهم، إذ قد عرفنا معناه وتفسيره فيما تقدم. والأدلة جاءت مُصرحة أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان، وهذا مما يُصحح معنى ما أشرنا إليه من كون الشيطان قد يئس من أن يعبده المصلون في جزيرة العرب.

❁ **قوله:** «**باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان**»:

معناه أن عبادة الأوثان واقعة في هذه الأمة بنص قول النبي ﷺ كما وقعت في الأمم السالفة، فهذه الأمة ستقع فيها عبادة غير الله سبحانه وتعالى أيضًا.

وقوله: «**باب ما جاء**» يعني: من النصوص في الكتاب وفي السنة.

وقوله: «**أن بعض هذه الأمة**» نص على وقوع ذلك من بعضهم، لا من كلهم؛ لأن عبادة الأوثان لم تكن من الأمة كلها، وإنما كانت من بعض هذه الأمة، وإلا فلا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرة على الحق كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم إلى قيام الساعة**».

والمقصود بـ«**بعض هذه الأمة**» ذلك البعض المرذول، فنفهم من هذا أن هناك من الأمة من يقوم بالاستمساك بالأمر الأول الذي كان عليه الرسول ﷺ وكان عليه صحابته في أمر التوحيد وأمر العبادة والسنن.

لكن هل المقصود بقوله: «**هذه الأمة**» أمة الدعوة أو أمة الإجابة؟

إذا قلنا: أمة الدعوة فلا شك أن هناك من أمة الدعوة -وهم جميع الجن والإنس- من عبد الأوثان، واستمر على عبادتها، بعد بَعْثة النبي ﷺ، ولم يرض ببعثته، ولم يقبل ذلك.

وإذا قلنا: إن المراد بالأمة أمة الإجابة، يعني، أن من أجاب الرسول ﷺ في دعوته تتقادم

بهم العهود، حتىٰ يرتدوا علىٰ أدبارهم، ويتركوا دينهم، كما جاء في بابٍ سلف في أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم الغلو في الصالحين، لكن الظاهر هنا قوله: «**بعض هذه الأمة يعبد الأوثان**» يعني: به أمة الإجابة في أنهم يتركون دينهم، ويتوجهون إلىٰ الأوثان ويعبدونها.

و«**الأوثان**» جمع وثن، والوثن هو كل شيء توجه إليه الناس بالعبادة، إما بأن يدعوه مع الله -جل وعلا- أو أن يستغيثوا به، أو أن يعتقدوا فيه أنه ينفع ويضر بدون إذن الله -جل وعلا- أو أنه يُرجىٰ رجاء العبادة، ويخاف منه كخوف الله -جل وعلا- أي خوف السر، ونحو ذلك من التوجهات، والعبادات، فمن اُعْتُقِد فيه شيءٌ من ذلك فهو وثن من الأوثان، وقد يكون راضيًا بتلك العبادة، وقد لا يكون راضيًا.

والوثن ليس هو المصَوَّر علىٰ شكل صورة، بل الصنم هو ما كان علىٰ شكل صورة- كما سبق أن ذكرنا- فالفرق بين الأوثان والأصنام: أن الأصنام هي الآلهة التي صورت علىٰ شكل صورة، كأن يجعل لنبي من الأنبياء صورة يعبدها، أو يجعل لرجل من الرجال -كبوذا ونحوه- صورة ويسجد لها، ويعبدها، فهذه تسمىٰ أصنامًا، وأما الأوثان فهي الأشياء المعبودة أيًا كانت، فقد تكون جدارًا، أو قبرًا، أو رجلًا ميتًا، أو صفة من الصفات يتخذها معبودة من دون الله. فكل ما توجّه إليه العباد بنوع من أنواع العبادة فهو وثن من الأوثان.

❁ **قوله**: «**وقول الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ...﴾**»:

الجبت: اسم عام لكل ما فيه مخالفة لأمر الله -جل وعلا- وأمر رسوله ﷺ في الاعتقاد، فقد يكون الجبت سحرًا، وهذا هو الذي فسر به كثير من السلف الجبت، وقد يكون الجبت: الكاهن، وقد يكون الجبت الشيء المرذول الذي يضر صاحبه.

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ يعني: يؤمنون بالسحر، ويؤمنون بالباطل، وبعبادة غير الله جل وعلا.

ويؤمنون بـ (الطاغوت) والطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فالطاغية هو الذي تجاوز الحد في أمر الدين، بأن جعل ما لله له، ولهذا يُعرِّف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطاغوت بأنه: «**كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع**».

ومعنىٰ مجاوزة العبد به حده: أنه تعدىٰ حد ذلك الشيء الذي توجه إليه، وهو الحد الذي لم يأذن به الشرع مجاوزته له، فتوجهه إليه بالعبادة، أو اعتقاده فيه بعض خصائص الإلهية من أنه يغيثه كيفما شاء، ومن أنه يملك غوثه، ويملك الشفاعة له، أو أن يغفر له، وأن يعطيه، ويملك أن يقربه إلىٰ الله -جل وعلا- ونحو ذلك مما لا يملكه المعبودون، فإن كل ذلك مجاوزته بذلك المتخذ عن الحد الذي جُعل له في الشرع. فهذا معنىٰ مجاوزة الحد في المعبودين، والمقصود بقوله: «أو متبوع» مثل العلماء، والقادة في أمر الدين، ومعنىٰ مجاوزة الحد فيهم: أنهم صاروا يتبعون في كل ما قالوا، وإن أحلّوا لهم الحرام، وحرموا الحلال، أو جعلوا لهم السنة بدعة، والبدعة سنة، وهم يعلمون أصل الدين، ولكنهم خالفوا لأجل ما قال فلان، فإن هذا قد تُجُوِّز به حده، فإن حد المتبوع في الدين أن يكون آمرًا بما أمر به الشرع، ناهيًا عما نهىٰ عنه الشرع. فإذا أحل الحرام، أو حرم الحلال فإنه يعتبر طاغوتًا، ومن اتبعه فإنه يكون قد تجاوز به حده، وقد أقرّ بأنه طاغوت، واتخذه كذلك.

وقوله: «أو مطاع» يشمل الأمراء والملوك، والحكام، والرؤساء، الذين يأمرون بالحرام فيطاعون، ويأمرون بتحريم الحلال فيطاعون في ذلك مع علم المطيع بما أمر الله -جل وعلا- به فهؤلاء اتخذوهم طواغيت؛ لأنهم جاوزوا بهم حدهم. فهذا شرح لمعنىٰ ما ذكره الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تعريف الطاغوت.

وقوله في الآية المتقدمة: (الطاغوت) يدخل فيه كل هذه الأنواع، أي الذين عبدوا، والذين اتبعوا، والذين أطيعوا.

ووجه مناسبة هذه الآية للباب: أن الإيمان بالجبت والطاغوت حصل ووقع من الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب من اليهود والنصارىٰ، وإذا كان قد وقع منهم فسيقع في هذه الأمة؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام أخبر أن ما وقع في الأمم قبلنا سيقع في هذه الأمة، كما قال في حديث أبي سعيد الآتي: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» فمثل بشيء صغير، وهو دخول جحر الضب -الذي لا يمكن أن يفعل- تنبيها علىٰ أن ما هو أعلىٰ من ذلك سيقع من هذه الأمة، كما وقع من الأمم قبلنا.

وقد حصل -كما أخبر النبي ﷺ- فإن من هذه الأمة من آمن بالسحر، ومنهم من آمن بعبادة غير الله، ومنهم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، فكانوا بذلك متبعين سنن من كان قبلهم، وحصل منهم إيمان بالجبت والطاغوت كما حصل من الأمم قبلهم.

❁ **قوله: «قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ...﴾[المائدة:٦٠]»:**

علىٰ هذه القراءة ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، يكون الطاغوت مفعول (عبد) و(عبد) فعلًا معطوفًا علىٰ قوله: (لعن) كأنه قال: بتقديم وتأخير: من لعنه الله ومن عبد الطاغوت.

ووجه الاستشهاد من الآية: أن عبادة الطاغوت وقعت في أولئك الملعونين، وبما أن ما وقع في الأمم السالفة بخبر النبي ﷺ سيقع في هذه الأمة، فإننا نعلم أن في هذه الأمة من سيعبد الطاغوت كما عبدها أولئك، وعبادة الطاغوت عامة -كما ذكرنا- يدخل فيها عبادة الأوثان من عبادة القبور، وتأليه أصحابها، والتوسل بهم إلىٰ الله -جل وعلا- والاستشفاع بهم إلىٰ الله -جل وعلا- أو طلب الشفاعة منهم، ونحو ذلك من الوسائل الشركية، أو ما هو من الشرك الأكبر، فحصلت عبادة الأوثان من القبور، ومن المشاهد، ومن الأشجار ومن الأحجار، ونحو ذلك مما اعتقد فيه الجهلة الذين تركوا دين محمد عليه الصلاة والسلام.

❁ **قوله: «قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف:٢١]»:**

قصة أصحاب الكهف معروفة، وهذه الجملة بعض آية من قصة أصحاب الكهف، جعلهم الله -جل وعلا- آية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ۝٢٥﴾[الكهف: ٢٥]، واطلع الناس علىٰ أنهم مكثوا أحياء هذه المدة الطويلة، فاعتقدوا فيهم، ولمّا ماتوا تنازعوا في أمرهم: فمنهم من قال: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾[الكهف: ٢١].

ومنهم من قال: اجعلوا لهم فناء ودارًا، وعظّموا مكانهم، واختلف الناس فيهم في ذلك الزمان، قال الله جل وعلا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾[الكهف: ٢١]. فَمَن الذين غلبوا علىٰ الأمر؟ اختلف المفسرون في ذلك:

فقال قائلون: هم المسلمون -مسلمو ذلك الزمان- حصل منهم تعظيم لأصحاب الكهف،

فقالوا: ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗا﴾[الكهف: ٢١] وقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ تعظيمًا لهم ودلالة للناس عليهم، فإذا كان هذا القول راجحًا فإنه من وسائل الشرك بالله يؤدي إلى عبادة تلك القبور والاعتقاد في أصحاب الكهف، وهذا القدر حصل في هذه الأمة.

والقول الثاني: أن الذين غلبوا على أمرهم هم المشركون، يعني أتباع ذلك الدين لاعتقادهم الجاهلي، ولما في قلوبهم من الشرك والبدع التي خالفوا بها أنبياءهم، قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾.

والقول الثالث: -وهو الذي رجحه ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورجحه عدد أيضًا من أهل العلم- أن الذين غلبوا على أمرهم هم الكبراء، والأمراء، وأصحاب النفوذ فيهم؛ لأن الذي له الغلبة في الأمر هو من يملك الأمر والنهي في الناس وهم الكبراء، وأصحاب النفوذ، وملوك ذلك الزمان، وأمراؤه، عظّموا هؤلاء الصالحين، وقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ وقد حصل هذا في تلك الأمة، وما دام أنه حصل فإنه سيحصل في هذه الأمة؛ لأنه ما من خَصلة من الشرك حصلت في الأمم قبلنا إلا وحصلت في هذه الأمة، حتى ادعى بعض هذه الأمة أنه الله -جل وعلا- وأن الله يحل فيه، ونحو ذلك، بل قد ادعوا أن روح الإله تتناسخ في أناس معينين كما هو اعتقاد طوائف من الباطنيين ونحو ذلك، وهذا كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**»

قوله: «**سنن**»:

يروى بضم السين وفتح النون، وهو جمع سُنة، وهي الطريقة، يعني كأنه قال: لتتبعن طرائق من كان قبلكم يعني في الدين. ويروى بفتح السين والنون معًا، وهو على هذه الرواية مفرد، ومعناه: السبيل والطريق، يعني: لتتبعن سبيل من كان قبلكم.

واللام في قوله: «**لتتبعن**» هي الواقعة في جواب القسم، فيفهم من ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام أقسم على ذلك، فقال مؤكدًا: والله لتتبعن سنن من كان قبلكم.

وإنما أقسم عليه الصلاة والسلام ليؤكد هذا الأمر تأكيدًا عظيمًا، وأن هذه الأمة ستتبع -لا محالة- طريق وسبيل من كان قبلها من الأمم، وهذا تحذير؛ لأن الأمم السالفة إما أن يكونوا من

أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ، وهؤلاء قد وصفهم الله -جل وعلا- بأنهم مغضوب عليهم وضالون، فإذا اتبعت هذه الأمة سبيلهم، فمعنىٰ ذلك أنها تعرضت للغضب واللعنة، وقد وجد في هذه الأمة من سلك سبيل اليهود، ومن سلك سبيل النصارىٰ؛ ولهذا قال بعض السلف: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبادنا ففيه شبه من النصارىٰ» لأن اليهود خالفوا علىٰ علم، والنصارىٰ خالفت علىٰ ضلالة، وقد قال جل وعلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، والمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارىٰ، كما فسرها النبي ﷺ.

قوله: « حذو القذة بالقذة »:

أي مثلًا بمثل، وهو مثل للشيئين يستويان، ولا يتفاوتان. مأخوذ من قذة السهم، وهي أذنه؛ لأن كل قذة تقر علىٰ صاحبتها، ثم تقطع علىٰ قياسها، فلا يكون بينهما تفاوت. وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ فحصل في هذه الأمة مثل ما حصل في الأمم قبلنا في أبواب الربوبية، وفي أبواب الإلهية، وفي الأسماء والصفات، وكذلك في العمل، وفي السلوك، وكذلك القول في أفعال الله -جل وعلا- فكل شيء كان فيمن قبلنا جاء ووقع في هذه الأمة، نسأل الله -جل وعلا- السلامة والعافية.

قوله: «حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه...»:

وجه الدلالة من هذا الحديث ظاهر، بل عماد هذا الباب علىٰ هذا الحديث من أن كل كفر وشرك وقع في الأمم السالفة فسيقع في هذه الأمة، فإن الأمم السالفة عبدت الأوثان وكفرت بالله -جل وعلا- وسيقع في هذه الأمة من يعبد الأوثان ومن يكفر بالله -جل وعلا- في الربوبية وفي الإلهية وفي الأسماء والصفات وفي أفعال الله -جل وعلا- وفي الحكم والتحاكم، وهكذا في أنواع كثيرة مما حصل فيمن قبلنا حتىٰ في أمور السلوك والبدع، بل حتىٰ في أمور الأخلاق والعادات التي تتصل بالدين فإنه سلكت هذه الأمة مسلك الأمم قبلها مخالفة نهي النبي ﷺ.

ووجه الاستدلال من حديث ثوبان -وهو حديث طويل- قوله عليه الصلاة والسلام: «**وإنما أخاف علىٰ أمتي الأئمة المضلين**» والأئمة المضلون هم الذين اتخذهم الناس أئمة، إما من جهة الدين، وإما من جهة ولاية الحكم.

والأئمة المضلون يملكون زمام الناس، فيضلون الناس بالبدع وبالشركيات، ويحسنونها لهم حتىٰ تغدو في أعينهم حقًّا، وكذلك أصحاب النفوذ وأصحاب الحكم فإنهم إذا كانوا مضلين فإن بيدهم الأمر الذي يجعلهم يفرضون علىٰ الناس أمورًا ويلزمونهم بأشياء مضادة لشرع محمد ﷺ من أمور العقيدة والتوحيد، ومن أمور السلوك والعمل، ومن أمور الحكم والتحاكم، وهكذا وقع في هذه الأمة ما خاف منه عليه الصلاة والسلام، فكثر الأئمة المضلون في الأمة، الأئمة المضلون من جهة الاتباع، والأئمة المضلون من جهة الطاعة.

❁ **قوله:** «**إذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلىٰ يوم القيامة...**»:

هذا نص صحيح من رواية البرقاني في «صحيحه». فهل المراد من قوله: «**حتىٰ يلحق حي من أمتي بالمشركين**» أن هذا الحي يترك بلاد المسلمين، ويذهب إلىٰ أرض المشركين؟ أو أنه يلحق بالمشركين في الصفات والخصال؟ يحتمل هذا وهذا.

قوله: «**وحتىٰ تعبد فئام من أمتي الأوثان**» الفئام: هي الجماعات الكبيرة، وهذا ظاهر المناسبة لقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب «**باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان**».

❁ **قوله:** «**ولا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة...**»:

هذه الطائفة المنصورة هي التي قال فيها عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: «**ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق**» وهي التي قال فيها عليه الصلاة والسلام: «**ستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**» فالطائفة المنصورة هي الفرقة الناجية، وهي الجماعة بجمع أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام. وسميت منصورة؛ لأن الله -جل وعلا- نصرها علىٰ من ناوأها بالحجة والبيان، ونصرها الذي وعدت به ليس نصرًا بالسنان، ولكنه نصر بالحجة والبيان، فهم وإن هُزموا في بعض المعارك أو أديلت دولتهم في بعض الأحيان فهم الظاهرون علىٰ من سواهم بالحجة والبيان، وهم المنصورون بما أعطاهم الله --جل وعلا- من الحجة والنصوص والصواب والحق علىٰ من سواهم، فهم علىٰ الحق وسواهم علىٰ الباطل.

وهذان اللفظان -فرقة ناجية، وطائفة منصورة- اسمان لشيء واحد، وإنما هو من باب تنوع الصفات فقال عنها الطائفة المنصورة هنا: «**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة**» لأنها

موعودة بالنصر كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾[غافر: ٥١]، وكما قال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[الصافات: ١٧١-١٧٣]، فقولهم هو المنصور وهو الظاهر وحجتهم هي الظاهرة، وقد يكون أيضًا لهم من النصر والتمكين في أرض الله ما أعطاهم الله -جل وعلا- من ذلك.

وهم أيضًا الفرقة الناجية التي جاءت في حديث الافتراق؛ لأنها موعودة بالنجاة من النار، فهم موصوفون بالنصر، وموصوفون بالنجاة من النار، وموصوفون بالنصر على عدوهم بالحجة والبيان، وقد يكون مع ذلك نصر بالسيف والسنان ونحو ذلك.



شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء، أي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:٥١] والشاهد منها أنهم لما فعلوا ذلك فلابد أن تفعله هذه الأمة.

الثانية: تفسير آية المائدة أي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[المائدة:٦٠] والشاهد منها مثل الآية التي قبلها، وكذا الآية التي بعدها.

الثالثة: تفسير آية الكهف، أي قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾[الكهف:٢١].

الرابعة: وهي أهمها ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت، وهل هو اعتقاد قلب أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟ أي إنه ليس اعتقاد قلب؛ لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنما هو موافقة أصحابها، فلما وافقوهم عليه جعله الله إيمانًا بالجبت والطاغوت.

الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين، أي: إن هذا جرى منهم، وأن الله لعنهم، وإذا كان وقع منهم فلا بد أن يقع في هذه الأمة مثله، وهذا هو الشاهد للترجمة.

السادسة: وهي المقصود بالترجمة أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد، أي: الإيمان بالجبت والطاغوت، وتفضيل دين المشركين على دين المسلمين، وعبادة الطاغوت، وبناء المساجد على القبور.

السابعة: التصريح بوقوعها، أعني: عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة، أي كما دل عليه حديث ثوبان: حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان.

الثامنة: العجب العجاب خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين

وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة وتبعه فئام كثرة، أي إن هذا شيء عجيب كيف يؤمن المختار بن أبي عبيد بأن محمدًا خاتم النبيين ليس بعده نبي؟ ثم يدعي أنه نبي ويتبع على ذلك مع هذا التناقض البين، ولكن هذا مصداق الحديث المذكور في الباب.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة، أي: لا يذهب حتى لا يبقى عليه إلا الواحد بعد الواحد كما حصل فيمن قبلنا، بل لا تزال عليه طائفة منصورة كما في حديث ثوبان.

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، أي كما دل عليه الحديث.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة، أي: ساعتهم وهو وقت موتهم إذا أرسل الله الريح التي تقبضهم في آخر الزمان، ثم لا يبقى إلا شرار الخلق فعليهم تقوم الساعة.

الثانية عشرة: ما فيهن من الآيات العظيمة، أي: التي دل عليها حديث ثوبان منها إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب وأخبر بمعنى ذلك فوقع، كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، أي: إن الفتوحات امتدت في المشرق والمغرب فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال فلم تمتد فيه.

وإخباره بأنه أعطي الكنزين، أي: كنز قيصر وكسرى فوقع كما أخبر فأخذهما المسلمون في زمن الخلفاء الراشدين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، أي: ألاّ يهلكوا بسنة عامة، و ألاّ يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم.

وإخباره بأنه منع الثالثة، أي: ألاّ يسلط بعضهم على بعض، ويهلك بعضهم بعضًا فمنع ذلك فسلط بعضهم على بعض.

وإخباره بوقوع السيف وأنه لا يرفع إذا وقع، أي: وهكذا وقع، فإنه لما قتل عثمان بن عفان وقع السيف ولم يرفع ولكنه يقل تارة ويكثر أخرى.

وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، أي: فوقع ذلك مثل خروج الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، والمختار بن أبي عبيد وأمثالهم.

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة، أي: القائمين بالحق الذين هم على الحق، وكل هذا وقع كما أخبر مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول، أي: لكونه غيبًا لا يعلمه إلا الله ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن:٢٧] الآية ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣،٤].

الثالثة عشرة: حصره الخوف على أمته من الأئمة المضلين، أي لقوله: «**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»، وهم العلماء والأمراء والعباد إذا خالفوا الصراط المستقيم.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان، أي لقوله: «**حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين**»، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، أي: يلحقون بالمشركين ويرتدون عن الإسلام برغبتهم.

* الأسئلة *

س: اذكر مقصود المؤلف بهذا الباب؟

جـ: مقصوده التحذير من الشرك والتخويف منه وأنه أمر واقع في هذه الأمة لا محالة والرد علىٰ من زعم أن من قال: لا إله إلا الله وتسمىٰ بالإسلام أنه يبقىٰ علىٰ إسلامه ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم ونحو ذلك.

س: ما هي الأوثان؟

جـ: جمع وثن وهو كل ما قُصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية والقبور وغيرها فمن دعا غير الله وَعَبده فقد اتخذه وثنًا وخرج بذلك عن دين الإسلام.

قوله: «قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا...﴾[النساء:٥١]».

س: اذكر سبب نزول هذه الآية. ومن هو المخاطب فيها، وما المراد بالذين أوتوا نصيبًا من الكتاب؟ وما هو الجبت والطاغوت، اذكر مناسبة الآية للباب؟

جـ: **سبب نزول هذه الآية**: ما روىٰ ابن أبي حاتم عن عكرمة قال جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف (اليهوديين) إلىٰ أهل مكة فقالوا لهما: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد فقالا: أنتم خير وأهدىٰ سبيلًا.

والمعنىٰ: أنهم يفضلون الكفار علىٰ المؤمنين لجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم. والمخاطب في هذه الآية الرسول محمد ﷺ.

والمراد بالذين أوتوا نصيبًا من الكتاب في هذه الآية هم اليهود. **والجبت**: كلمة تقع علىٰ الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك. **والطاغوت**: ما عُبِد من دون الله ورضي بذلك.

ومناسبة الآية للباب: أنه إذا كان في أهل الكتاب من يؤمن بالجبت والطاغوت فالرسول ﷺ قد أخبر أن أمته ستفعل مثل ذلك.

❁ **قوله**: «**قال تعالىٰ**: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ...﴾[المائدة:٦٠]».

س: اشرح هذه الآية وبين وجه الدلالة منها؟

جـ: يقول الله تعالىٰ لنبيه محمدﷺ: قل لهؤلاء اليهود: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: غضبًا لا يرضىٰ بعده أبدًا وجعل منهم القردة والخنازير ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي: جعل منهم من عبد الطاغوت أي أطاع الشيطان فيما سول له.

ووجه الدلالة من الآية: أنه إذا كان اليهود من عبد الطاغوت فكذلك يكون في هذه الأمة؛ لأنهﷺ أخبر أن هذه الأمة ستتبع طريق من قبلهم.

❁ **قوله**: «**قال تعالىٰ**: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف:٢١]».

س: اشرح هذه الآية وبين وجه الدلالة منها؟

جـ: أي: قال أصحاب الكلمة والنفوذ في زمن أصحاب الكهف قالوا: نتخذ علىٰ أصحاب الكهف مسجدًا؛ ليعرفوا فيقصدهم الناس ويتبركون بهم وهذا علىٰ جهة الذم لهم بدليل قولهﷺ: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(٦٣٧)] يحذر ما فعلوا.

ووجه الدلالة من الآية: أنه إذا كان أهل الكتاب يتخذون المساجد علىٰ القبور فكذلك يكون في هذه الأمة بدليل قولهﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»[(٦٣٨)] متفق عليه.

❁ **قوله**: «**عن أبي سعيد**رضي الله عنه **أن رسول الله**ﷺ **قال**: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم...**»».

س: اشرح هذا الحديث وما معنى سنن، وما هي القذة، وما معنى قوله فمن؟

جـ: يخبر الرسولﷺ في هذا الحديث أن هذه الأمة ستسلك طريق من قبلهم في كل ما فعلوه كما تشبه ريشة السهم الأخرىٰ، والسنن: بفتح السين الطرق، والقذة: ريشة السهم.

أراد النبيﷺ أن هذه الأمة لا تترك شيئًا مما فعله اليهود والنصارىٰ إلا فعلته وقد وقع كما أخبر وهو علم من أعلام النبوة. ومعنىٰ قوله: «**فمن**»؛ أي: فمن هم غير أولئك.

---

(٦٣٧) سبق تخريجه.

(٦٣٨) سبق تخريجه.

قوله: «ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله زوىٰ لي الأرض ...»[٦٣٩] الحديث.

س: ما معنى قوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها... إلخ»؟

جـ: المعنىٰ جمع لي الأرض حتىٰ أبصرت ما تملكه أمتي من أقصىٰ المشارق والمغارب منها.

س: هل وقع ما أخبر به الرسول ﷺ من انتشار ملك أمته في المشارق والمغارب؟

جـ: نعم وذلك أن ملك أمته اتسع إلىٰ أن بلغ طنجة وأسبانيا غربًا كما اتسع شرقًا حتىٰ وصل إلىٰ الهند والصين.

س: ما المقصود بالكنزين في قوله ﷺ: «وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض»[٦٤٠] ومتى وجد ذلك؟

جـ: المقصود بهما: كنز كسرىٰ ملك الفرس وهو الأبيض؛ لأن الغالب عندهم الفضة والجوهر، وكنز قيصر ملك الروم وهو الأحمر؛ لأن الغالب عندهم الذهب.

وقد وجد ذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنها سيقت إليه هذه الكنوز بعدما فتح المسلمون بلادهما.

س: ما المراد بالسنة: بفتح السين في قوله ﷺ: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة»[٦٤١]؟

جـ: المراد بالسنة هنا الجدب والقحط الذي يكون به الهلاك العام.

س: ما معنى قوله: «وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم»[٦٤٢]؟

جـ: المعنىٰ: وإني سألت ربي لأمتي أن لا يسلط عليهم عدوًّا من غيرهم من الكفار فيستولي عليهم.

---

(٦٣٩)سبق تخريجه.

(٦٤٠)سبق تخريجه.

(٦٤١)سبق تخريجه.

(٦٤٢)السابق.

س: وهل أعطاه الله ذلك؟ وما معنى بيضتهم، وما هي أقطار الأرض في قوله: «ولو اجتمع عليهم من بأقطارها»[٦٤٣]؟

جـ: نعم أخبر ﷺ أن الله لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستولي على جميع ما حازوه من البلاد والأرض وهو معنى بيضتهم وقيل: بيضتهم معظمهم وجماعتهم وإن قلوا، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها.

س: ما معنى قوله: حتى يكون يهلك بعضهم بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا وهل حصل هذا؟

جـ: المعنى أن الله لا يسلط الكفار على معظم المؤمنين وجماعتهم ما داموا متمسكين بدينهم ومجتمعين عليه. أما إذا حصل التفرق والاختلاف فيما بينهم والقتل والسبي من بعضهم لبعض فقد يسلط الكفار عليهم.

وقد حصل هذا فسلط بعضهم على بعض كما هو الواقع بسبب اختلافهم وتفرقهم في الدين فانشغلوا بذلك عن جهاد العدو؛ فسلط عليهم.

س: ما معنى قوله ﷺ عن ربه: «إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد»[٦٤٤]؟

جـ: يعني: إذا حكمت حكمًا مبرمًا نافذًا وقدرت قدرًا؛ فإنه لا يرد بشيء ولا يقدر أحد على رده كما قال ﷺ: «ولا راد لما قضيت».

س: ما المقصود بالأئمة المضلين الذي خافهم الرسول على أمته؟

جـ: المقصود بهم والله أعلم الأمراء والعلماء الظلمة والعباد الجهلة الذين يقتدي بهم الناس فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[الأحزاب:٦٧].

س: ما معنى قوله ﷺ: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة» وهل وقع ومتى؟

جـ: المعنى إذا تقاتلت هذه الأمة فإنه سيستمر القتال فيها إلى يوم القيامة وقد يكون بحق كقتال المسلمين الكفار وقد يكون بباطل كقتال المسلمين بعضهم لبعض.

---

(٦٤٣) السابق.

(٦٤٤) السابق.

وقد حصل هذا من مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه واستمر على ذلك، وكذلك يكون إلى يوم القيامة ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى ويكون في وجهة دون أخرى.

س: ما معنى قوله ﷺ: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين»(٦٤٥)؟

جـ: الحي واحد الأحياء وهي القبائل كما في الرواية الأخرى: «**حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين**» والمعنى أنهم يكونون معهم ويرتدون عن الإسلام ويلحقون بأهل الشرك.

س: اذكر الشاهد من حديث ثوبان للباب؟ وما معنى فئام؟

جـ: الشاهد منه قوله: «**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**»، والفئام الجماعات الكثيرة، وفي الرواية الأخرى: «**وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان**».

س: ما معنى خاتم النبيين في قوله ﷺ: «وأنا خاتم النبيين»؟

جـ: أي: آخرهم الذي ختموا به فلا نبي بعده.

س: ما الذي يؤخذ من قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»(٦٤٦) وما هي الطائفة وما المقصود بأمر الله؟

جـ: يؤخذ منه بشارة عظيمة أن الحق لا يزول بالكلية بلا تزال عليه طائفة متمسكة به وهم العاملون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والطائفة: الجماعة من الناس.

والمقصود بأمر الله ما روي من قبض المؤمنين بريح طيبة ووقوع علامات الساعة العظام ثم لا يبقى إلا شرار الناس فعليهم تقوم الساعة والله أعلم.



---

(٦٤٥) سبق تخريجه.

(٦٤٦) سبق تخريجه.

الدرس الرابع والعشرون:

باب ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة:١٠٢] .[وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾](٦٤٧) [النساء:٥١].

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان(٦٤٨).

وقال جابر: الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد(٦٤٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: [يا رسول الله! وما هن؟](٦٥٠) قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.(٦٥١).

وعن جندب مرفوعًا: «حد الساحر ضربة(٦٥٢) بالسيف»(٦٥٣). رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

وفي «صحيح البخاري» عن بجالة بن عبدة، قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر.(٦٥٤).

---

(٦٤٧) سقط من نسخة ابن باز.

(٦٤٨) أخرجه البخاري تعليقًا، كتاب: التفسير، باب: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ ...﴾ (٨/ ٢٥١/ فتح).

(٦٤٩) السابق.

(٦٥٠) في نسخة ابن قاسم: «وما هن يا رسول الله؟».

(٦٥١) أخرجه البخاري، كتاب: الوصايا، باب: قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، برقم (٢٧٦٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦٥٢) في نسخة ابن قاسم: «ضربه»، وكذا في نسخة الفوزان، والمثبت موافق لما في مصادر التخريج.

(٦٥٣) أخرجه الترمذي، كتاب: الحدود، باب: حد الساحر، برقم (١٤٦٠)، والبيهقي، (٨/ ١٣٦)، والحاكم، (٤/ ٣٦٠)، وغيرهم من حديث جندب رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٢٦٩٩).

(٦٥٤) أخرجه بهذا السياق الشافعي في «مسنده»، برقم (١٧٦١)، وابن أبي شيبة، برقم (٢٨٩٨٢)، (٣٢٦٥٢)، والبيهقي، برقم (١٦٢٧٥)، (١٦٨٩٩)، وغيرهم من حديث بجالة عن عمر موقوفا وهو بسياق آخر عند أبي داود، كتاب:

وصح عن حفصة رضي الله عنها، «أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت»[٦٥٥]. وكذلك صح عن جندب، قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف فيما بعده؟!

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب ما جاء في السحر»:

أي: من الوعيد وبيان منافاته للتوحيد، وتكفير فاعله. **والسحر في اللغة**: الصرف، وهو عبارة عما خفي ولطف سببه، سمي سحرًا؛ لأنه بأمور خفية لا تدرك بالأبصار، أو لأنه يصرف الشيء عن جهته، وسحره: عمل له السحر، وعن الأمر صرفه. وفي الحديث: «**إن من البيان لسحرًا**»[٦٥٦] شبهه به لكون البيان يحصل منه ما يحصل من السحر، وسمي السحر سحرًا؛ لأنه

=

الخراج، باب: في أخذ الجزية من المجوس، برقم (٣٠٤٣)، وأحمد (١/ ١٩٠)، وغيرهما من حديث بجالة رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، برقم (٢٦٢٤)، ولم أقف عليه بهذا اللفظ في البخاري كما قال المصنف.

(٦٥٥) أخرجه مالك بلاغًا، برقم (١٥٦٢)، والشافعي في «مسنده»، برقم (١١٠٨)، والطبراني، برقم (٢٢/ ١٨٧ -برقم٣٠٣)، وغيرهم عن حفصة رضي الله عنها.

(٦٥٦) أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: الخطبة، برقم (٥١٤٦) وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يقع خفيًّا آخر الليل، وقوله: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[الأعراف:١١٦] أخفوا عنهم عملهم، ولا يتوصل إليه إلا بالتقرب إلىٰ الأرواح الخبيثة بشيء مما تحب، والاستعانة بالتحيل علىٰ استخدامها بالإشراك بها والاتصاف بهيئاتها الخبيثة؛ ولهذا لا يعمل السحر إلا مع الأنفس الخبيثة المناسبة لتلك الأرواح، وتأثيره بإذن الله الكوني القدري، ولا الشرعي الديني، فإن الله لم يأذن فيه. ولما كان من أنواع الشرك ذكره المصنف تحذيرًا منه كغيره من أنواع الشرك، وهو عزائم ورقىٰ وكلام يتكلم به، وأدوية وتدخينات وغير ذلك، ومنه ما يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

قال تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦ﴾[البقرة:١٠٢]. وقال: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾[الفلق:٤]؛ يعني: السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن، وقد سحر لبيد بن الأعصم رسول الله ﷺ في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر في بئر ذروان، حتىٰ إنه ليخيل إليه ﷺ أنه يفعل الشيء وما يفعله[٦٥٧]، وإنما هو في جسده الشريف، وظاهر جوارحه الكريمة، لا في عقله وقلبه، فلا يقدح في مقام النبوة.

❁ **قوله: «وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾»:**

أي: ولقد علم أهل الكتاب الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ والإيمان به، ﴿لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ﴾؛ أي: السحر ورضي به، عوضًا عن شرع الله ودينه، لا نصيب له ولا حظ له في الآخرة، وأنه لا دين له، وهذا من أبلغ الوعيد، فدلت الآية علىٰ تحريمه، وهو كذلك محرم في جميع أديان الرسل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾[طه:٦٩]. وذهب أكثر السلف إلىٰ أنه يكفر لقوله: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾[البقرة:١٠٢]. وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ﴾[البقرة:١٠٢]. وما تلته هو السحر: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾[البقرة:١٠٢]. وقوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾.

---

(٦٥٧) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: السحر، برقم (٥٧٦٣)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: السحر، برقم (٢١٨٩) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأجمع الأئمة علىٰ كفر من تعلمه واستعمله، إلا الشافعي فقال: إذا تعلمه قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلىٰ الكواكب، وأنها تفعل ما يُلْتَمَس منها، فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر. وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله؟ المشهور في المذهب يقتل، وفاقًا لمالك وقول بعض الصحابة، فإن قتل بسحره قتل إجماعًا إلا أبا حنيفة فقال: حتىٰ يتكرر، أو يقر بذلك في حق معين.

قوله: «وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾»:

قال الجوهري وغيره: الجبت: كلمة تقع علىٰ الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، و الطاغوت: مجاوزة الحد، وكل شيء جاوز المقدار والحد في العصيان فهو طاغوت.

قوله: «**قال عمر: الجبت: السحر**»:

تفسير عمر هذا من تفسير الشيء ببعض أفراده، ومراده أن السحر داخل في الجبت، وفي الكليات: الجبت: الشيطان أو الساحر. اهـ. والجبت هو الباطل، والسحر منه؛ لأنه باطل خلاف الحق.

قوله: «**والطاغوت: الشيطان**»:

رواه ابن أبي حاتم وغيره، وكذا قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم، وهو أيضًا تفسير له ببعض أفراده. وقال الحافظ: قوله: «**الطاغوت: الشيطان**» قوي جدًّا، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها. اهـ. والطاغوت مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد، فمعناه ما قاله ابن القيم: الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

قوله: «**وقال جابر: الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد**»:

جابر هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنهما، وأراد أن الكهان من الطواغيت، فهو من أفراد المعنىٰ، وليس المراد الحصر، والشيطان أراد به الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم، ويخبرونهم بما يسترقون من السمع، فيصدقون مرة ويكذبون مائة كذبة، ويزيدون وينقصون، والحي واحد الأحياء وهم القبائل؛ أي: في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن المغيبات، ويخبرهم من إخبار الشيطان له، فلطاعته لها تنزل عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[الشعراء:٢٢٢]. وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي ﷺ فأبطل الله ذلك بالإسلام، وحرست السماء بكثرة الشهب. وهذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه عن وهب، قال: سألت جابر بن

عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها قال: إن في جهينة واحدًا، وفي أسلم واحدًا، وفي هلال واحدًا، وفي كل حي واحدًا، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين. ومطابقة هذا الأثر للترجمة: أن الساحر طاغوت، إذ كان يطلق على الكاهن فالساحر أولى.

قوله: «عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ...»:

اجتنبوا: ابعدوا، وهو أبلغ من قول: لا تفعلوا ودعوا واتركوا؛ لأن النهي عن القربان أبلغ من النهي عن المباشرة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ [الأنعام:١٥١] والموبقات: المهلكات، جمع موبقة، سميت موبقات: لأنها تهلك فاعلها في الدنيا، لما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب. وقال ابن عباس: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع. وفي رواية: إلى السبعمائة.

قوله: «قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله»:

أي: إحدى السبع الموبقات الشرك بالله وهو أن يجعل لله ندًّا يدعوه ويرجوه ويخافه كما يخاف الله، بدأ به؛ لأنه أعظم ذنب عُصِي الله به؛ ولأن فاعله مخلد في النار، قال تعالى: ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]. ولما «**سئل** عليه السلام **أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»(٦٥٨).

قوله: «والسحر»:

أصله في اللغة: صرف الشيء عن وجهه كما تقدم، وقال البيضاوي: هو ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان، مما لا يستقل به الإنسان، وهو الشاهد من الحديث للترجمة.

قوله: «وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق»؛ أي: قتل النفس المسلمة المعصومة التي حرم الله قتلها إلا بالحق؛ أي: بأن تفعل ما يوجب قتلها كالشرك، والنفس بالنفس، والزاني بعد الإحصان، واختلفوا في توبته، فقال ابن عباس وغيره: لا تقبل لقوله: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء:٩٣] وقال جمهور السلف والخلف: تقبل توبته لقوله تعالى بعد ذكر الشرك وقتل النفس: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ

---

(٦٥٨) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: قتل الولد خشية أن يأكل معه، برقم (٦٠٠١)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، برقم (٨٦) وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان:٧٠]. وعن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور، وكذا قتل المعاهد، لقوله عليه السلام: «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة»(٦٥٩).

❁ **قوله: «وأكل الربا»:**

وهو فضل مال بلا عوض، وأكله: تناوله بأي وجه كان. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[البقرة:٢٧٥]، إلى قوله: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾قال ابن دقيق العيد: وهو مجرب لسوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك.

قوله: «**وأكل مال اليتيم**»؛ المراد: التعدي فيه، وعبر بالأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠]. واليتيم في الأصل: المنفرد، وهو من مات أبوه ولم يبلغ.

❁ **قوله: «والتولي يوم الزحف»:**

أي: الفرار والإدبار عن الكفار وقت التحام القتال، وإنما يكون كبيرة إذا فر إلى غير فئة المسلمين، أو غير متحرف لقتال كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾[الأنفال:١٦].

❁ **قوله: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»:**

القذف في الأصل الرمي البعيد، وشرعًا: الشتم والعيب والبهتان. و ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾جمع محصنة بفتح «الصاد»؛ أي: التي أحصنها الله تعالى وحفظها من الزنا، وبالكسر التي حفظت فرجها من الزنا، والمراد بهن: الحرائر العفيفات، ولا يختص بالمتزوجات، بل حكم البكر كذلك إجماعًا، إلا من دون تسع سنين، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور:٢٢]. وقذفهن رميهن بزنا أو لواط، والغافلات وصف أغلبي؛ أي: عن الفواحش وما رمين به، فهو كناية عن البريئات؛ لأن الغافل بريءٌ عما بهت به، والمؤمنات بالله؛ احترازًا من قذف الكافرات، فإنه ليس من الكبائر، وإن كانت ذمية فمن الصغائر، لا يوجب الحد، وفي الأمة المسلمة التعزير دون الحد، وأورد المصنف رحمه الله هذا الحديث غير معزو، وهو متفق عليه.

---

(٦٥٩) أخرجه البخاري، كتاب: الجزية والموادعة، باب: إثم من قتل معاهدًا بغير جرم، برقم (٣١٦٦)، وغيره من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قوله: «وعن جندب مرفوعًا»:

هو جندب بن كعب بن عبد الله بن جزء بن عامر بن مالك بن عامر بن دهمان، الأزدي الغامدي، أبو عبد الله وربما نسب إلىٰ جده، وهو جندب الخير، وفد مع قومه علىٰ النبي ﷺ قاله الكلبي، وقال ابن حبان: صحابي، وروىٰ ابن السكن عن بريدة مرفوعًا قال: «**جندب وما جندب؟ يضرب ضربة فيكون أمة وحده**»(٦٦٠)، وأخرج البخاري في «تاريخه»: أنه كان عند الوليد رجل يلعب، فذبح إنسانًا فأبان رأسه، فعجبنا فأعاده، فجاء جندب الأزدي فقتله(٦٦١). زاد البيهقي: إن كان صادقًا فليحيي نفسه(٦٦٢)، قُتِلَ جندب رضي الله عنه بصفين.

قوله: «حدالساحر ضربة بالسيف»:

روي بالهاء وبالتاء وكلاهما صحيح، وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة فقالوا: يقتل الساحر. ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ به الكفر كما تقدم، وهو رواية عن أحمد. قال الشارح: والأول أولىٰ؛ ولأثر عمر الذي ذكره المصنف، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير فكان إجماعًا.

قوله: «رواه الترمذي وقال: الصحيح أنه موقوف»:

ورواه الطبراني عن جندب البجلي. وقال الحافظ: الصواب أنه غيره. وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جندب الأزدي أنه جاء إلىٰ ساحر فضربه بالسيف حتىٰ مات؛ وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول. فذكره.

قوله: «وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة»:

بجالة بفتحتين وعبدة بفتحتين، العنبري التميمي بصري ثقة، أدرك النبي ﷺ ولم يره، وكان كاتبًا لجزء بن معاوية في خلافة عمر.

قوله: «قال: كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»:

ظاهره أنه يقتل من غير استتابة، وهو المشهور عن أحمد، وبه قال مالك وأبو حنيفة؛ لأن الصحابة لم يستتيبوهم؛ ولأن علم السحر لا يزول بالتوبة. وعنه يستتاب وفاقًا للشافعي، واختاره

---

(٦٦٠) ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة (١/ ٥١٢)، ط. دار الجيل -بيروت.

(٦٦١) أخرجه البخاري في تاريخه (٢/ ٢٢٢)، ط. دار الفكر.

(٦٦٢) أخرجه البيهقي، برقم (١٦٢٧٩).

الشيخ وغيره؛ لأن ذنبه لا يزيد على الشرك، وصحح الشارح الأول لظاهر عمل الصحابة، فلو كانت الاستتابة واجبة لفعلوها أو بينوها، وقياسه على المشرك لا يصح؛ لأنه أكثر فسادًا وتشبيهًا من المشرك وقال الشيخ وغيره: إن رأى الإمام قتله كالزنديق فله ذلك للمصلحة.

قوله: «فقال: قتلنا ثلاث سواحر»:

أي: قال ذلك بجالة، ولم يذكر البخاري قتل السواحر، ولعل المصنف رَحِمَهُ اللهُ أراد أصله لا لفظه، ورواه أحمد وأبو داود والترمذي والبيهقي والقطيعي وغيرهم.

قوله: «وصح عن حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت»:

أي: الجارية، وهذا الأثر يؤيد قتل الساحر. وقد رواه عبد الرزاق ومالك في «الموطأ» في «باب ما جاء في الغيلة والسحر» وقال بعد ذلك: الساحر الذي يعمل السحر ولم يعمل ذلك له غيره، هو مثل الذي قال الله فيه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة:١٠٢]. وحفصة هي أم المؤمنين ابنة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة سنة ٢ أو ٣ هـ بعد عائشة، ولدت قبل البعثة بخمس، وماتت سنة ١ أو ٤٥ هـ.

قوله: «وكذلك صح عن جندب»:

أشار المصنف رَحِمَهُ اللهُ إلى جندب بن كعب بن عبد الله الأزدي قاتل الساحر المتقدم ذكره، وتعددت الطرق عنه به.

قوله: «قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ»:

أي: قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: صح قتل الساحر أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يعني: عمر وحفصة وجندب. وروي عن عثمان وابن عمر وقيس بن سعد وعمر بن عبد العزيز، وهو المشهور عند أكثر أهل العلم، وعمل به في خلافة عمر من غير نكير.

قال العلامة ابن باز:

قوله: «باب ما جاء في السحر»:

السحر: بكسر السين هو ما يتعاطاه السحرة من عقد، وأدوية، ونفث في العقد وغيرها وأشباه يتلقونها من الجن والشياطين. والسحر: هو ما يسحر الناس، وسمي سحرًا؛ لأنهم يتعاطونها بطرق خفية.

وهو منكر وشرك؛ لأنه لا يتوصل له إلا بالشياطين والتقرب إليهم وعبادتهم من دون الله كما في الآية ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة:١٠٢]؛ فدل على أن تعلمه يوجب الكفر ثم قال تعالىٰ:

❁ **قوله**: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾:

اشتراه؛ أي: اعتاضه وفعله فما له عند الله من حظ ولا نصيب. وهذا يدل على تحريمه وإنكاره ثم قال ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:١٠٣]؛ فدل على أنها ضد الإيمان والتقوىٰ؛ ولهذا قال أهل العلم أن السحر من الكفر والضلال؛ لأنه لا يتوصل إليه إلا بعبادة الجن والشياطين، وقيل يستفصل فما كان مما يتعلق بعبادة الجن والشياطين فهذا من الكفر بالله وشرك أكبر، وما كان من أدوية ليس فيها تعلق بالشياطين، وعبادة لهم فهو من المحرمات والكبائر والمنكرات التي فيها ظلم العباد والتعدي عليهم؛ لأنهم يفسدون بها العقول ويغيرونها به.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:٥١].

هذه نزلت في اليهود، أخبر الله أنهم يؤمنون بالجبت وهو السحر، والطاغوت وهو الشيطان. وقال أهل اللغة: الجبت: هو الشيء لا خير فيه كالسحر والصنم وغيره، والطاغوت من الطغيان وهو تجاوز الحد ويطلق على الشياطين من الجن والإنس طواغيت؛ أي: تجاوزوا الحد بكفرهم وضلالهم.

❁ **قوله**: «**قال جابر: الطواغيت: كهان كان ينزل عليهم الشياطين في كل حي واحد**»:

أي: أن الكهان من الطواغيت، قال ابن القيم: الطاغوت: ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع. متبوع في الباطل ومطاع في غير الشرع، **ورءوسهم خمسة**: إبليس، ومن دعا إلى عبادة نفسه كفرعون، ومن عُبِدَ وهو راضٍ، من ادعىٰ علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله متعمدًا. والسحرة والكهان طواغيت؛ لأنهم خرجوا عن الطريق وآذوا الناس بما يتعاطونه.

❁ **قوله**: «**وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: اجتنبوا السبع الموبقات...**»:

سميت موبقات: لأنها مهلكات وأعظمها الشرك به ثم السحر؛ لأن الغالب أنه منه؛ لأنه عبادة للجن واستعانة بهم وتقرب إليهم، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف يوم اجتماع الصفين للقتال؛ فيخذل قومه ويتولى، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات: قذفهن بالفاحشة.

غافلات: لأنهن في الغالب لا يشعرن بمن رماهن ويدخل فيه قذف المحصنين من الرجال وأنه من الكبائر ويستحق القاذف إقامة حد القذف ولكنه في النساء أغلب فمن قذفهن حد.

مسألة: لا يجوز الذهاب للسحرة للعلاج وهو الصحيح عند أهل العلم، ولو كان من باب التداوي، ولو لم يكن يرضىٰ بذلك؛ لأن الذهاب إليهم دعوة لهم إلىٰ الشرك وأن يفعلوا ما حرم الله، بل يتعاطىٰ الأدوية الشرعية.

❁ **قوله**: «**وعن جندب مرفوعًا: حد الساحر ضربه بالسيف، رواه الترمذي ...**»:

والصواب ما قاله الترمذي من أنه موقوف.

وقال هذا حينما كان ساحر في مجلس الوليد بن يزيد الفاسق وكان هذا الساحر يقطع رأسه ويعيده بزعمه فأتاه الوليد من حيث لا يشعر وضربه بالسيف وقال: إن كان صادقًا فليعد رأسه، فقال جندب ذلك، فهو من كلامه، وقد استنبطه من الأدلة الشرعية.

ومراده: أن الساحر يقتل ولا يستتاب؛ لأن توبته لا تمنع ضربه فربما يكذب ويظهر التوبة ويبقىٰ ضرره علىٰ الناس فمتىٰ ثبت سحره وجب قتله لئلا يضر الناس.

❁ **قوله**: «**وفي «صحيح البخاري» عن بجالة قال: كتب عمر إلىٰ أمراء الأجناد في الشام...**»:

لما سبق من ضرهم الذي لا يُزال إلا بقتلهم ولربما يظهرون التوبة وهو كاذب كالمنافقين، والساحر يقتل كفرًا لا يستتاب علىٰ الصحيح.

❁ **قوله**: «**وصح عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت**»:

لأنها علمت أنها تتعاطىٰ السحر فقتلتها.

قوله: «**قال أحمد: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ**»؛ أي: صح قتل الساحر، والثلاثة هم جندب وعمر وحفصة، وهذا هو الصواب.

فائدة:

قال بعض أهل العلم ومنهم الشافعي: إن كان سحر الساحر بأشياء معروفة تؤذي ولا تغير العقول، بل تؤذي وتمرض ولا يكون فيه ادعاء لعلم الغيب، ولم يكن ممن يستخدم الشياطين ويستعين بهم، ولم يكن يتعاطىٰ ما حرمه الله من الشرك وغيره فهذا لا يقتل؛ لأن هذا ليس من السحر بل هو من الأذىٰ والظلم فيضرب ويؤدب؛ لأن المراد من قتل السحرة عند الصحابة هم الذين يستخدمون الجن ويعبدونهم ويدعون الغيب وهذا هو الغالب في السحرة فهذا يقتل وهو الصواب.

فائدة:

ثبت أن النبيﷺ قد سحر لكنه لم يؤثر عليه شيئًا في أمور الرسالة وإنما كان فيما يتعلق بينه وبين أهله كما هو في «الصحيحين»[٦٦٣].

قال العلامة ابن عثيمين:

❁ **قوله: «باب ما جاء في السحر»:**

السحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السَّحَر لآخر الليل؛ لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سمي السحور، لما يؤكل في آخر الليل؛ لأنه يكون خفيًّا؛ فكل شيء خفي سببه يسمىٰ سحرًا.

وأما في الشرع؛ فإنه ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: عقد ورقىٰ؛ أي: قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلىٰ استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، لكن قد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١٠٢].

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر علىٰ بدن المسحور وعقله وإرادته وميله؛ فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمىٰ عندهم بالصرف والعطف، فيجعلون الإنسان ينعطف علىٰ زوجته أو امرأة أخرىٰ، حتىٰ يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك، فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئًا فشيئًا حتىٰ يهلك، وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء علىٰ خلاف ما هي عليه. وفي عقله؛ فربما يصل إلىٰ الجنون والعياذ بالله.

فالسحر قسمان:

أ- شرك: وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين؛ يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم علىٰ المسحور.

ب- عدوان وفسق: وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها.

وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلىٰ مسألة مهمة، وهي: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟

---

(٦٦٣) سبق تخريجه.

اختلف في هذا أهل العلم: فمنهم من قال: إنه يكفر. ومنهم من قال: إنه لا يكفر.

ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشيطان فإنه يكفر؛ لأنه لا يتأتىٰ ذلك إلا بالشرك غالبًا، لقوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ﴾ [البقرة:١٠٢]، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها؛ فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصيًا معتديًا.

وأما قتل الساحر، فإن كان سحره كفرًا، قتل قتل ردة، إلا أن يتوب على القول بقبول توبته، وهو الصحيح، وإن كان سحره دون الكفر؛ قتل قتل الصائل؛ أي: قتل لدفع أذاه وفساده في الأرض، وعلىٰ هذا يرجع في قتله إلىٰ اجتهاد الإمام وظاهر النصوص التي ذكرها المؤلف أنه يقتل بكل حال؛ فالمهم أن السحر يؤثر بلا شك، لكنه لا يؤثر بقلب الأعيان إلىٰ أعيان أخرىٰ؛ لأنه لا يقدر علىٰ ذلك إلا الله ﷻ، وإنما يخيل إلىٰ المسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشىٰ وما أشبه ذلك، كما جرىٰ لموسىٰ -عليه الصلاة والسلام- أمام سحرة آل فرعون، حيث كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعىٰ.

إذا قال قائل: ما وجه إدخال باب السحر في كتاب التوحيد؟

نقول: **مناسبة الباب لكتاب التوحيد:** لأن من أقسام السحر ما لا يتأتىٰ غالبًا إلا بالشرك؛ فالشياطين لا تخدم الإنسان غالبًا إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوي بني آدم فيدخلهم في الشرك والمعاصي.

وقد ذكر المؤلف في الباب آيتين:

الآية الأولىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾: ضمير الفاعل يعود علىٰ متعلمي السحر، والجملة مؤكدة بالقسم المقدر واللام وقد. ومعنىٰ ﴿اشْتَرَاهُ﴾؛ أي: تعلمه.

قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾؛ أي: ما له من نصيب، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق، فمقتضاه أن عمله حابط باطل، لكن إما أن ينتفي النصيب انتفاء كليًّا فيكون العمل كفرًا، أو ينتفي كمال النصيب فيكون فسقًا.

الآية الثانية قوله تعالىٰ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: اليهود. ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾؛ أي: السحر كما فسرها عمر بن الخطاب.

واليهود كانوا من أكثر الناس تعلمًا للسحر وممارسة له، ويدعون أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ علمهم إياه وقد اعتدوا؛ فسحروا النبي ﷺ.

قوله: ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حده، من معبود، أو متبوع، أو مطاع. ومعنىٰ «من معبود»؛ أي: بعلمه ورضاه، هكذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد سبق في أول الكتاب التعليق علىٰ هذا القول عند قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

الشاهد: قوله: ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾، حيث فسرها أمير المؤمنين عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بأنها السحر. وأما تفسيره الطاغوت بالشيطان، فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف -رحمهم الله- يفسرون الآية أحيانًا بمثال يحتذىٰ عليه، مثل قوله تعالىٰ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]

قال بعض المفسرين: الظالم لنفسه: الذي لا يصلي إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في آخر الوقت، والسابق بالخيرات: الذي يصلي في أول الوقت.

وهذا مثال من الأمثلة، وليس ما تدل عليه الآية علىٰ وجه الشمول، ولهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذي لا يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

فتفسير عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال؛ لأن الطاغوت أعم من الشيطان، فالأصنام تعتبر من الطواغيت، كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، والعلماء والأمراء الذين يضلون الناس يعتبرون طواغيت؛ لأنهم طغوا وزادوا ما ليس لهم به حق.

❁ **قوله: «الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد»:**

هذا أيضًا من باب التفسير بالمثال، حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان.

والكاهن؛ قيل: هو الذي يخبر عما في الضمير. وقيل: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وكان هؤلاء الكهان تنزل عليهم الشياطين بما استرقوا من السمع من السماء، وكان كل حي من أحياء العرب لهم كاهن يستخدم الشياطين، فتسترق له السمع، فتأتي بخبر السماء إليه. وكانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية.

والطواغيت ليسوا محصورين في هؤلاء؛ فتفسير جابر رضي الله عنه تفسير بالمثال كتفسير عمر رضي الله عنه.

❁ **قوله: «اجتنبوا السبع الموبقات»:**

النبي ﷺ أنصح الخلق للخلق؛ فكل شيء يضر الناس في دينهم ودنياهم يحذرهم منه؛ ولهذا قال: «**اجتنبوا**»، وهي أبلغ من قوله: اتركوا؛ لأن الاجتناب معناه: أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها.

و«**اجتنبوا**»؛ أي: اتركوا، بل أشد من مجرد الترك؛ لأن الإنسان قد يترك الشيء وهو قريب منه، فإذا قيل: اجتنبه؛ يعني: اتركه مع البعد.

وقوله: «**السبع الموبقات**»: هذا لا يقتضي الحصر؛ فإن هناك موبقات أخرىٰ، ولكن النبي ﷺ يحصر أحيانًا بعض الأنواع والأجناس، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها.

ومن ذلك حديث: «**السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»(٦٦٤) فهناك غيرهم، ومثله: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة**»(٦٦٥) وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حديث أبي هريرة في الباب علىٰ الحصر لكونه وقع بـ«أل» المعرفة؛ فإنه حصرها؛ لأن هذه أعظم الكبائر.

قوله: «**قالوا: يا رسول الله! وما هن؟**»: كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس علىٰ العلم، والنبي ﷺ إذا ألقىٰ إليهم الشيء مبهمًا طلبوا تفسيره وتبيينه، فلما حذرهم النبي ﷺ من السبع الموبقات قالوا ذلك؛ لأجل أن يجتنبوهن، فأخبرهم، وعلىٰ هذه القاعدة أن الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس علىٰ العلم، لكن ما كانت الحكمة في إخفائه؛ فإن النبي ﷺ لا يخبرهم؛ كقوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة**»(٦٦٦) ولم يرد تبيينها عن النبي ﷺ في حديث صحيح.

---

(٦٦٤) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، برقم (٦٦٠)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦٦٥) الأحاديث في ذلك كثيرة منها؛ ما أخرجه البخاري، كتاب: المساقاة، باب: من رأىٰ أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه، برقم (٢٣٦٩)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة...، برقم (١٠٨) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦٦٦) أخرجه البخاري، كتاب: الشروط، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس

وقد حاول بعض الناس أن يصحح حديث سرد الأسماء التسعة والتسعين[٦٦٧] ولم يصب، بل نقل شيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفة في الحديث على أن عدها وسردها لا يصح عن النبي ﷺ وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حاول تصحيح هذا الحديث، قال: إن الثواب عظيم، «**من أحصاها دخل الجنة**»، فلا يمكن للصحابة أن يُفوِّتوه، فلا يسألوا عن تعيينها فدل هذا على أنها قد عُيِّنت من قبل النبي ﷺ.

لكن يجاب عن ذلك بأنه ليس بلازم، ولو عينها النبي ﷺ لكانت هذه الأسماء التسع والتسعين معلومة للعالم أشد من علم الشمس، ولنقلت في «الصحيحين» وغيرهما؛ لأن هذا مما تدعو الحاجة إليه، وتلح بحفظه والعناية به؛ فكيف لا يأتي إلا عن طرق واهية وعلى صور مختلفة؟!

فالنبي ﷺ لم يبينها لحكمة بالغة، وهي أن يطلبها الناس ويتحروها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى يعلم الحريص من غير الحريص.

كما لم يبين النبي ﷺ ساعة الإجابة يوم الجمعة، والعلماء اختلفوا في حديث أبي موسى الذي في «مسلم»؛ حيث قال فيه: «**هي ما بين أن يخرج الإمام إلى أن تقضى الصلاة**»[٦٦٨]؛ فإن بعضهم صححه وبعضهم ضعفه، لكن هو عندي صحيح؛ لأن علة التضعيف فيه واهية، والحال تؤيد صحته؛ لأن الناس مجتمعون أكبر اجتماع في البلد على صلاة مفروضة؛ فيكون هذا الوقت في هذه الحال حريًّا بإجابة الدعاء، وكذلك ليلة القدر لم يبينها النبي ﷺ مع أنها من أهم ما يكون.

وقوله: «**الموبقات**»؛ أي: المهلكات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾[الكهف:٥٢]؛ أي: مكان هلاك.

=

بينهم...، برقم (٢٧٣٦)، ومسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، برقم (٢٦٧٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦٦٧) أخرجه الترمذي، كتاب: الدعوات، باب: (٨٣)، برقم (٣٥٠٧)، ابن حبان، برقم (٨٠٨)، والبيهقي في «الشعب»، برقم (١٠٢)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (١٩٤٥).

(٦٦٨) أخرجه مسلم، كتاب: الجمعة، باب: في الساعة التي في يوم الجمعة، برقم (٨٥٣)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: الإجابة أية ساعة حتى في يوم الجمعة، برقم (١٠٤٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: «قالوا: يا رسول الله! وما هن؟»:

سألوا عن تبيينها، وبه تتبين الفائدة من الإجمال، وهي أن يتطلع المخاطب لبيان هذا المجمل؛ لأنه إذا جاء مبينًا من أول وهلة؛ لم يكن له التلقي والقبول كما إذا أجمل ثم بُيّن.

قوله: «**وما هن**»: «**ما**»: اسم استفهام مبتدأ، و«**هن**»: خبر المبتدأ.

وقيل بالعكس، «**ما**»: خبر مقدم وجوبًا؛ لأن الاستفهام له الصدارة، و«**هن**»: مبتدأ مؤخر؛ لأن «هن» ضمير معرفة، و«ما» نكرة، والقاعدة المتبعة أنه يخبر بالنكرة عن المعرفة ولا عكس.

قوله: «قال: الشرك بالله»:

قدمه؛ لأنه أعظم الموبقات؛ فإن أعظم الذنوب أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك. والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته.

فمن اعتقد أن مع الله خالقًا أو معينًا؛ فهو مشرك، أو أن أحدًا سوى الله يستحق أن يعبد؛ فهو مشرك وإن لم يعبده، فإن عبده؛ فهو أعظم، أو أن لله مثيلًا في أسمائه؛ فهو مشرك، أو أن الله استوى على العرش كاستواء الملك على عرش مملكته؛ فهو مشرك، أو أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى؛ فهو مشرك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

وبين ﷺ أن الشرك أعظم ما يكون من الجناية والجُرم بقوله حين سئل: أي الذنب أعظم؟ «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»[٦٦٩]

فالذي خلقك وأوجدك وأمدك وأعدك ورزقك كيف تجعل له ندًّا؟ فلو أن أحدًا من الناس أحسن إليك بما دون ذلك، فجلعت له نظيرًا؛ لكان هذا الأمر بالنسبة إليه كفرًا وجحودًا.

قوله: «والسحر»:

أي: من الموبقات، وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير؛ لأنه إن كان بواسطة الشياطين؛ فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم؛ فهو داخل في الشرك بالله.

---

(٦٦٩) سبق تخريجه.

وإن كان دون ذلك؛ فهو أيضًا جرم عظيم؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم؛ فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، ويُقْلِقُه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمي؛ فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله ﷻ.

❁ **قوله: «وقتل النفس التي حرم الله إلّا بالحق»:**

القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس: البدن الذي فيه الروح، والمراد بالنفس هنا: نفس الآدمي وليس نفس البعير والحمار وما أشبهها.

وقوله: «**التي حرم الله**»: مفعول «**حرم**» محذوف تقديره: حرم قتلها؛ فالعائد على الموصول محذوف.

وقوله: «**إلا بالحق**»؛ أي: بالعدل؛ لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام، فالمراد به العدل، وإذا ذكر بإزاء الأخبار؛ فالمراد به: الصدق، والعدل: هو ما أمر الله به ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: ٩٠].

والنفس المحرمة أربعة أنفس، هي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمِن، بكسر «الميم»: طالب الأمان. فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة ـ الذمي، والمعاهد، والمستأمن: أن الذمي: هو الذي بيننا وبينه ذمة؛ أي: عهد على أن يقيم في بلادنا معصومًا مع بذل الجزية.

وأما المعاهد: فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه.

وأما المستأمن: فهو الذي ليس بيننا وبينه ذمة ولا عهد، لكننا أمَّناه في وقت محدد؛ كرجل حربي دخل إلينا بأمان للتجارة ونحوها، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ [التوبة: ٦]، وهناك فرق آخر، وهو أن العهد يجوز من جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هو المشهور من المذهب، والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار.

فهذه الأنفس الأربع قتلها حرام، لكنها ليست على حد سواء في التحريم؛ فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى؟

أشك في ذلك؛ لأن المستأمن من له عهد خاص، بخلاف المعاهدين؛ فالمعاهدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم، فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأيًا كان؛ فالحديث عام، وكل منهم معصوم الدم والمال.

وقوله: «**إلا بالحق**»؛ أي: مما يوجب القتل، مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

قوله: «وأكل الربا»:

الربا في اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج:٥]؛ يعني: زادت.

وفي الشرع: تفاضل في عقد بين أشياء يجب فيها التساوي، ونسأ في عقد بين أشياء يجب فيها التقابض.

والربا: ربا فضل؛ أي: زيادة، وربا نسيئة؛ أي: تأخير، وهو يجري في ستة أموال بينها الرسول ﷺ في قوله: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح**»[٦٧٠]؛ فهذه هي الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إن بعت منها جنسًا بمثله جرى فيه ربا الفضل وربا النسيئة، فلو زدت واحدًا على آخر؛ فهو ربا فضل، أو سويته لكن أخرت القبض؛ فهو ربا نسيئة، وربما يجتمع النوعان كما لو بعت ذهبًا بذهب متفاضلًا والقبض متأخر، فقد اجتمع في هذا العقد ربا الفضل وربا النسيئة، وعلى هذا، فإذا بعت جنسًا بجنسه؛ فلا بد من أمرين: التساوي، والتقابض في مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة؛ أي: اتفق المقصود في العوضين، فإنه يجري ربا النسيئة دون ربا الفضل؛ فذهب بفضة متفاضلًا مع القبض جائز، وذهب بفضة متساويًا مع التأخير ربا لتأخر القبض.

---

(٦٧٠) أخرجه مسلم، كتاب: المساقاة، باب: الصرف وبيع الذهب بالورق نقدًا، برقم (٨١/ ١٥٨٧)، وأبو داود، كتاب: البيوع، باب: في الصرف، برقم (٣٣٤٩)، والترمذي، كتاب: البيوع، باب: أن الحنطة بالحنطة مثلًا بمثل كراهية التفاضل فيه، برقم (١٢٤٠)، وغيرهم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قال ﷺ: «فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد»[(٦٧١)].

وقولنا: اتفقا في الغرض والمقصود احترازًا مما إذا اختلف الغرض منها.

فالذهب مثلًا ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت.

وعلىٰ هذا يجوز بيع صاع من البر بدينار من الذهب مع التفرق وعدم التساوي لاختلاف القصد؛ لأن هذا يقصد به النقد والثَّمَنِيَّة، وهذا يقصد به القوت.

فإن قيل: الحديث يدل علىٰ أنه لا يصح إلا بالقبض، فما هو الجواب؟

نقول: حقيقة إن هذا مقتضىٰ الحديث أنك إذا بعت ذهبًا ببر وجب التقابض؛ لقوله ﷺ: **«فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد»**[(٦٧٢)].

والجواب عن هذا أن نقول: قد دلت السنة من وجه آخر علىٰ أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمنًا، قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يُسلفون في الثمار السنة والسنتين، فقال: «**من أسلف في شيء؛ فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلىٰ أجل معلوم**»[(٦٧٣)].

وعلىٰ هذا؛ فحديث: «**فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**» لا عموم لمفهومه؛ فلا يشترط القبض في كل صورة من صور المخالفة، وإنما يشترط القبض فيما إذا اتفقا في الغرض؛ كذهب بفضة، أو بر بشعير، وأما ذهب أو فضة بشعير ونحوه؛ فلا يشترط القبض.

واختلف العلماء فيما عدا هذه الأصناف الستة؛ فالظاهرية قالوا: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة؛ لأنهم لا يرون القياس، فيقتصر علىٰ ما جاء به النص، فيجوز عندهم مبادلة أرز بذرة متفاضلًا مع تأخر القبض؛ لأنهما لا يدخلان في المنصوص عليه.

وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة؛ فإنهم عدّوا الحكم إلىٰ غيرها؛ إلا أن بعضًا منهم لم يُعد الحكم إلىٰ غيرها، وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيل رحمه الله، فإنه قال: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة، لا لأنه لا قياس؛ ولكن لأن العلماء اختلفوا واضطربوا في العلة التي من

---

(٦٧١) سبق تخريجه.

(٦٧٢) السابق.

(٦٧٣) أخرجه البخاري، كتاب: السلم، باب: السلم في كيل معلوم، برقم (٢٢٣٩)، مسلم، كتاب: المساقاة، باب: السلم، برقم (١٦٠٤)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أجلها كان الربا، فلما اضطربوا في العلة ألغينا جميع هذه العلل، وأبقينا النص على ما هو عليه من الحصر في المنصوص عليه.

والصحيح أن الربا يجري في غير الأصناف الستة، وأن العلة هي الكيل والادخار مع الطعم، وهو أن يكون قوتًا مدخرًا، وهذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة: العلة هي الجنس والثمنية، فقولنا: «الجنس» لأجل أن يشمل الحلي إذا بيع بعضه ببعض، فيجري فيه الربا، مع أنه ليس بثمن، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة؛ فإنها بمنزلة الذهب والفضة، أو يقال: العلة الثمنية فقط والحلي خارج عن الثمنية خروجًا طارئًا؛ لأن التحلي طارئ، والأصل في الذهب والفضة الثمنية؛ لأنهما ثمن الأشياء.

وأما الملح؛ فقال شيخ الإسلام: إنه يصلح به القوت؛ أي: فهو تابع له؛ فالعلة ليس أنه قوت، لكنه من ضرورياته، ولهذا لو طحنت برًّا ولم يكن فيه ملح، لم يبق إلا أيامًا يسيرة، فيفسد، فإذا كان فيه الملح منعه من الفساد؛ فيقول: لما كان يصلح به القوت جعل له حكمه.

وقوله: «**وأكل الربا**»: ذكر النبي ﷺ الأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ [النساء:١٦١]، ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل؛ فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

❁ قوله: «وأكل مال اليتيم»:

اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكرًا أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه؛ فليس يتيمًا لا شرعًا ولا لغة؛ لأن اليتيم مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد؛ أي: انفرد عن الكاسب له؛ لأن أباه هو الذي يكسب له.

وخص اليتيم؛ لأنه لا أحد يدافع عنه؛ ولأنه أولى أن يرحم، ولهذا جعل الله له حقًّا في الفيء، وإذا كان أحق أن يرحم، فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله؟!

ويقال في أكل مال اليتيم ما قيل في أكل الربا؛ فليس خاصًّا بالأكل، بل حتى لو استعمله في السكن أو الفرش أو الكتب أو غيرها؛ فهو داخل في ذلك.

وأكل مال غير اليتيم ليس من الكبائر؛ لأن اليتيم له شأن خاص، ولهذا توعد الله من يأكل أموال اليتامى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

❁ قوله: «والتولي يوم الزحف»:

التولي: بمعنىٰ الإدبار والإعراض، ويوم الزحف؛ أي: يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار، وسمي يوم الزحف؛ لأن الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلىٰ بعض، كالذي يمشي زحفًا كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشي رويدًا رويدًا.

والتولي يوم الزحف من كبائر الذنوب؛ لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل الله، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء الله، وهذا يؤدي إلىٰ هزيمة المسلمين. لكن هذا الحديث خصصته الآية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[الأنفال:١٦].

فالله سبحانه استثنىٰ حالين:

الأولىٰ: أن يكون متحرفًا لقتال؛ أي: متهيئًا له، كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيئ الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلىٰ مكان آخر يأتي العدو من جهته، فهذا لا يعد متوليًا، إنما يعد متهيئًا.

الثانية: المتحيز إلىٰ فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها؛ فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه، بشرط ألا يكون علىٰ الجيش ضرر، فإن كان علىٰ الجيش ضرر وذهبت طائفة كبيرة إلىٰ هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش وتكسره أمام العدو؛ فإنه لا يجوز؛ لأن الضرر هنا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق، فلا يجوز؛ لأن المقصود إظهار دين الله، وفي هذا إذلال لدين الله، إلا إذا كان الكفار أكثر من مثلي المسلمين، فيجوز الفرار حينئذ، لقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ ﴾[الأنفال:٦٦]، أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها، كالطائرات إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء علىٰ المسلمين، فلا يجوز لهم أن يبقوا؛ لأن مقتضىٰ ذلك أنهم يغررون بأنفسهم.

وفي هاتين الآيتين تخصيص السنة بالكتاب، وهو قليل، ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التي بين النبي ﷺ والمشركين في الحديبية أن من جاء من المشركين مسلمًا يرد إليهم[٦٧٤] وهذا الشرط عام يشمل الذكر والأنثىٰ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ

---

(٦٧٤) أخرجه البخاري، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وغيره من حديث المسور بن مخرمة، ومروان رضي الله عنهما.

مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾[الممتحنة: ١٠].

❁ **قوله: «وقذف المحصنات»:**

القذف: بمعنىٰ الرمي، والمراد به هنا الرمي بالزنا، والمحصنات هنا: الحرائر، وهو الصحيح، وقيل: العفيفات عن الزنا.

«**والغافلات**»: وهن: العفيفات عن الزنا البعيدات عنه، اللاتي لا يخطر علىٰ بالهن هذا الأمر.

«**والمؤمنات**» احترازًا من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها، فإن ذلك من الموبقات، ومع ذلك يقام عليه الحد - ثمانون جلدة -، ولا تقبل شهادته ويكون فاسقًا؛ فجعل الله عليه ثلاثة أمور، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[النور:٤]، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾[النور:٥].

وهذا الاستثناء لا يشمل أول الجمل بالاتفاق، ويشمل آخر الجمل بالاتفاق، واختلف العلماء في الجملة الثانية، وهي قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾؛ فقيل: إنه يعود إليها، وقيل: لا يعود.

وبناءً علىٰ ذلك إذا تاب القاذف: هل تقبل شهادته أم لا؟

الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم. فمنهم من قال: لا تقبل شهادته أبدًا ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله أَبَّدَ ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾[النور:٤]، وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لا يرتفع عنهم مطلقًا.

وقال آخرون: بل تقبل؛ لأن مبنىٰ قبول الشهادة وردها علىٰ الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة، زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلىٰ نظر الحاكم، فإذا رأىٰ من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين؛ فليفعل، وإلا، فالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة، وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟

الجواب: الذي عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة، وإنما خص بذلك المرأة؛ لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر؛ إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقذف المرأة أشد؛ لأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها، فيلحق بهن القذف ضررًا أكثر؛ فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلبي لا مفهوم له؛ لأنه لبيان الواقع.

والشاهد من هذا الحديث قوله: «**السحر**».

قوله: «وعن جندب»:

ليس هو جندب بن عبدالله البجلي، بل جندب الخير المعروف بقاتل الساحر.

قوله: «مرفوعًا»:

أي: إلىٰ النبيﷺ؛ فيكون من قول النبي -عليه الصلاة والسلام- لكن نقل المؤلف عن الترمذي قوله: والصحيح أنه موقوف؛ أي: من قول جندب.

قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف»:

حده؛ يعني: عقوبته المحددة شرعًا. وظاهره أنه لا يكفر؛ لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم. والكافر إذا قتل علىٰ ردته؛ فالقتل لا يطهره.

وهذا محمول علىٰ ما سبق: أن من أقسام السحر ما لا يخرج الإنسان عن الإسلام، وهو ما كان بالأدوية والعقاقير التي توجب الصرف والعطف وما أشبه ذلك.

قوله: «ضربة بالسيف»:

روي بالتاء بعد الباء، وروي بالهاء، وكلاهما صحيح، لكن الأولىٰ أبلغ؛ لأن التنكير وصيغة الوحدة يدلان علىٰ أنها ضربة قوية قاضية.

هذا كناية عن القتل، وليس معناه أن يضرب بالسيف مع ظهره مصفحًا.

قوله: «وفي صحيح البخاري»:

ذكر في الشرح - أعني «تفسير العزيز الحميد» - أن هذا اللفظ ليس في «البخاري»، والذي في «البخاري» أنه: «أمر بأن يفرق بين كل ذي محرم من المجوس»[٦٧٥]؛ لأنهم يجوزون نكاح المحارم - والعياذ بالله؛ فأمر عمر أن يفرق بين ذوي الرحم ورحمه، لكن ذكر الشارح صاحب «تيسير العزيز الحميد»: أن القطيعي رواه في الجزء الثاني من «فوائده»، وفيه: «ثم اقتلوا كل كاهن وساحر»، وقال - أي: الشارح: إسناده حسن. قال: وعلىٰ هذا فعزو المصنف إلىٰ البخاري يحتمل أنه أراد أصله لا لفظه. ا هـ.

وهذا القتل هل هو حد أم قتله لكفره؟

يحتمل هذا وهذا بناءً علىٰ التفصيل السابق في كفر الساحر، ولكن بناءً علىٰ ما سبق من

---

(٦٧٥) أخرجه البخاري، كتاب: الجزية والموادعة، باب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، برقم (٣١٥٦)، وغيره من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا.

التفصيل نقول: من خرج به السحر إلىٰ الكفر فقتله قتل ردة، ومن لم يخرج به السحر إلىٰ الكفر فقتله من باب دفع الصائل يجب تنفيذه حيث رآه الإمام.

والحاصل: أنه يجب أن نقتل السحرة، سواء قلنا بكفرهم أم لم نقل؛ لأنهم يمرضون ويقتلون، ويفرقون بين المرء وزوجه، وكذلك بالعكس؛ فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء، ويتوصلون إلىٰ أغراضهم؛ فإن بعضهم قد يسحر أحدًا ليعطفه إليه وينال مأربه منه، كما لو سحر امرأة ليبغي بها؛ ولأنهم كانوا يسعون في الأرض فسادًا، فكان واجبًا علىٰ ولي الأمر قتلهم بدون استتابة مادام أنه لدفع ضررهم وفظاعة أمرهم؛ فإن الحد لا يستتاب صاحبه، متىٰ قبض عليه وجب أن ينفذ فيه الحد.

❁ **قوله: «قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ»:**

وهم: عمر، وحفصة، وجندب الخير[٦٧٦]؛ أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون في الأرض فسادًا، وفسادهم من أعظم الفساد؛ فقتلهم واجب علىٰ الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم، وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

---

(٦٧٦) حديث عمر رضي الله عنه أخرجه أحمد (١/ ١٩٠)، وأبو داود، كتاب: الخراج، باب: في أخذ الجزية من المجوس، برقم (٣٠٤٣).

أما حديث حفصة رضي الله عنها أخرجه مالك، برقم (١٥٦٢)، والشافعي في «مسنده»، برقم (١١٠٨)، والطبراني، برقم (٢٢/ ١٨٧ - برقم ٣٠٣) ولم أقف عليه في مسند أحمد كما قال الشارح.

أما حديث جندب رضي الله عنه أخرجه الترمذي، كتاب: الحدود، باب: ما جاء في حد الساحر، برقم (١٤٦٠)، والدارقطني (٣/ ١١٤)، برقم (١١٢)، وقال «أبو عيسىٰ هذا حديث لا نعرفه إلا مرفوعًا من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري، قال وكيع هو ثقة ويروي عن الحسن أيضا والصحيح عن جندب موقوفًا، والعمل علىٰ هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، وهو قول مالك بن أنس، وقال الشافعي إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر فإذا عمل عملًا دون الكفر فلم نر عليه قتلًا»، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي»، ولم أقف عليه في مسند أحمد كما قال الشارح أيضًا.

❁ **قوله**: «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير آية البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة:١٠٢]؛ أي: نصيب، ومن لا خلاق له في الآخرة، فإنه كافر؛ إذ كل من له نصيب في الآخرة فإن مآله إلى الجنة.

الثانية: تفسير آية النساء: وهي قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:٥١]، وفسر عمر الجبت بالسحر، والطاغوت: بالشيطان، وفسر بأن الجبت: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره.

وأما الطاغوت؛ فهو: كل ما تجاوز به الإنسان حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما: وهذا بناءً على تفسير عمر رضي الله عنه.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس: تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان، فإن الطاغوت إذا أطلق؛ فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي: وقد سبق بيانها.

السادسة: أن الساحر يكفر: تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ...﴾الآية

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب: يؤخذ من قوله «حد الساحر ضربة بالسيف»(٦٧٧) والحد إذا بلغ الإمام لا يستتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر، فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين عقوبة الكفر، وبهذا نعرف خطأ من أدخل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة. فقتل المرتد ليس من الحدودِ؛ لأنه يستتاب، فإذا تاب ارتفع عنه القتل، وأما الحدود؛ فلا ترتفع بالتوبة إلا أن يتوب قبل القدرة عليه، ثم إن الحدود كفارة لصاحبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس كفارة وصاحبها كافر؛ لا يصلى عليه، ولا يُغسل، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

---

(٦٧٧) سبق تخريجه.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين في عهد عمر؛ فكيف فيما بعده؟! تؤخذ من قوله: «كتب عمر: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»؛ فهذا إذا كان في زمن الخليفة الثاني في القرون المفضلة، بل أفضلها؛ فكيف بعده من العصور التي بعدت عن وقت النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه؟! فهو أكثر انتشارًا بين المسلمين، وكلما بعد الناس عن زمن الرسالة استولت عليهم الضلالة والجهالة؛ فالضلالة: ارتكاب الخطأ عن جهل، والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمد، ولهذا نقول: من عمل سوءًا بجهالة؛ فهو آثم، ومن عمل سوءًا بجهل، فليس بآثم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ الآية [النساء:١٧] والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد، وهي السفه.

قال العلامة ابن فوزان:

قوله: «باب ما جاء في السحر»:

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنَّه لما كان السحر من أنواع الشرك، إذ لا يأتي السحر بدون الشرك، عقد له المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد؛ ليبين ذلك تحذيرًا منه.

«ما جاء»؛ أي: من الوعيد وبيان منافاته للتوحيد وتكفير فاعله.

«في السحر»: السحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطف سببه. **وشرعًا**: عزائم ورقًى وكلام يتكلم به وأدوية وتدخينات وعقد، يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾:

أي: علم اليهود الذين استبدلوا السحر عن متابعة الرسل.

﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: رضي بالسحر عوضًا عن شرع الله ودينه.

﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾: من نصيب.

«الجبت»: كلمة تقع على الصنم والساحر والكاهن. وتفسير عمر له بالسحر من تفسير الشيء ببعض أفراده.

«الطاغوت»: من الطغيان وهو: مجاوزة الحدِّ، فكل من تجاوز المقدار والحدَّ في العصيان فهو طاغوت.

«الطواغيت كهان»: المراد به أنَّ الكهان من الطواغيت فهو من أفراد المعنى وليس المراد الحصر.

«ينزل عليهم الشيطان»؛ أي: الشياطين لا إبليس خاصةً فهو اسم جنس.

«في كل حي»: في كل قبيلة.

المعنىٰ الإجمالي للآيتين:

يقول تعالىٰ: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا السحر عن متابعة الرسل والإيمان بالله لمن استبدل السحر بكتاب الله ومتابعة رسله ما له نصيب في الآخرة، وفي الآية الثانية: يخبر تعالىٰ عن اليهود أنهم يصدقون بالجبت الذي منه السحر.

مناسبة الآيتين للباب:

أنهما يدلان علىٰ تحريم السحر وأنه من الجبت.

ما يستفاد من الآيتين:

١- تحريم السحر.

٢- كفر الساحر.

٣- الوعيد الشديد لمن أعرض عن كتاب الله، واستبدل به غيره.

٤- أنَّ السحر من الشرك المنافي للتوحيد؛ لأنه استخدام للشياطين وتعلق بهم.

قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: اجتنبوا السبع الموبقات...»:

هذا الحديث رواه البخاري ومسلم.

«**اجتنبوا**»: ابتعدوا.

«**الموبقات**»: المهلكات، سميت موبقات: لأنها تهلك فاعلها في الدنيا والآخرة.

«**الشرك بالله**»: بأن يجعل لله ندًّا يدعوه ويرجوه ويخافه.

«**التي حرم الله**»؛ أي: حرَّم قتلها.

«**إلا بالحق**»؛ أي: بفعل موجب للقتل.

«**وأكل الربا**»؛ أي: تناوله بأيّ وجهٍ.

«**وأكل مال اليتيم**»؛ يعني: التعدي فيه واليتيم: من مات أبوه وهو دون البلوغ.

«**التولي يوم الزحف**»؛ أي: الإدبار من وجوه الكفار وقت القتال.

«**وقذف المحصنات**»: رميهن بالزِّنا والمحصنات: المحفوظات من الزنا. والمراد: الحرائر العفيفات.

«**الغافلات**»: عن الفواحش وما رمين به؛ أي: البريئات.

«**المؤمنات**»: بالله.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يأمر ﷺ أمته بالابتعاد عن سبع جرائم مهلكات، ولما سُئل عنها ماهي؟ بيَّنها بأنها الشرك بالله، باتخاذ الأنداد له من أي شكلٍ كانت، وبدأ بالشرك؛ لأنه أعظم الذنوب، وقتل النفس التي منع الله من قتلها إلا بمسوغ شرعي، وتناول الربا بأكلٍ أو بغيره من وجوه الانتفاع، والتعدِّي علىٰ مال الطفل الذي مات أبوه، والفرار من المعركة مع الكفار، ورمي الحرائر العفيفات بالزنا.

وجه سياق الحديث في باب السحر:

أنَّ فيه دليلًا علىٰ تحريم السحر واعتباره من الكبائر المهلكة.

ما يستفاد من الحديث:

١ - تحريم الشرك، وأنه هو أكبر الكبائر وأعظم الذنوب.

٢ - تحريم السحر، وأنَّه من الكبائر المهلكة ومن نواقض الإسلام.

٣ - تحريم قتل النفس بغير حق.

٤ - جواز قتل النفس إذا كان بحق كالقصاص والردة والزنا بعد إحصان.

٥ - تحريم الربا وعظيم خطره.

٦ - تحريم الاعتداء علىٰ مال الأيتام.

٧ - تحريم الفرار من الزحف.

٨ - تحريم القذف بالزنا واللواط.

٩ - أنَّ قذف الكافرِ ليس من الكبائر.

❁ **قوله: «حد الساحر»:**

أي: عقوبته.

«**ضربه بالسيف**»؛ أي: قتله، روي «ضربه» بالهاء والتاء.

«**موقوف**»؛ أي: من كلام الصحابي لا من كلام النبي ﷺ

«**عن ثلاثة من أصحاب رسول الله**»: هم: عمر، وحفصه، وجندب.

مناسبة الآثار للباب:

أنَّ فيه بيان حدِّ الساحر بأنه القتل؛ مما يدل علىٰ عظم جريمة السحر وأنَّه من الكبائر.

ما يستفاد من الآثار:

١- بيان حد الساحر وأنه يقتل ولا يستتاب.

٢- وجود تعاطي السحر في المسلمين علىٰ عهد عمر فكيف بمن بعده.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

قوله: «باب ما جاء في السحر»:

هذا «**باب ما جاء في السحر**» ومناسبة ذكر السحر لكتاب التوحيد: أن السحر نوع من الشرك، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من سحر فقد أشرك**» فالسحر أحد أنواع الشرك الأكبر بالله -جل وعلا- فمناسبته ظاهرة؛ لأنه مضاد لأصل التوحيد.

والسحر في اللغة: هو عبارة عما خفي ولطف سببه، ومعنىٰ خفي: صار سبب ذلك الشيء خفيًّا لا يقع بظهور، وإنما يقع علىٰ وجه الخفاء، ولهذا سمي آخر الليل سحرًا لذلك، وكذلك قيل في أكلة آخر الليل سحور، وذلك لأنها تقع علىٰ وجه الخفاء وعدم الاشتهار والظهور من الناس.

فهذه اللفظة (سِحْرٌ) وما اشتقت منه تدل علىٰ خفاء في الشيء، ولهذا فإنه في اللغة يطلق السحر علىٰ أشياء كثيرة، منها ما يكون من جهة المقال، ومنها ما يكون من جهة الفعل، ومنها ما يكون من جهة الاعتقاد، وسيأتي في هذا الباب وفي الباب الذي بعده «**بيان شيء من أنواع السحر**» ما يتصل بذلك.

وأما السحر الذي هو كفر وشرك أكبر بالله -جل وعلا- فهو استخدام الشياطين والاستعانة بها لحصول أمر بواسطة التقرب لذلك الشيطان بشيء من أنواع العبادة.

والسحر عرفه الفقهاء بقولهم: رُقىٰ وعزائم وعُقد يُنفث فيها فيكون سحرًا يضُرُّ حقيقة، ويُمرض حقيقة، ويقتل حقيقة. فحقيقة السحر إذًا أنه استخدام للشياطين في التأثير، ولا يمكن للساحر أن يصل إلىٰ إنفاذ سحره حتىٰ يكون متقربًا إلىٰ الشياطين، فإذا تقرب إليها خدمته شياطين الجن، بأن أثّرت في بدن المسحور، فلكل ساحر خادم من الشياطين يخدمه، ولكل ساحر مستعان به من الشياطين، فلا يمكن للساحر أن يكون ساحرًا علىٰ الحقيقة إلا إذا تقرب إلىٰ الشياطين، ولهذا فإن السحر شرك بالله جل وعلا.

وهناك شيء قد يكون في الظاهر أنه سحر، ولكنه في الباطن ليس بسحر، وهذا ليس الكلام فيه، وإنما الكلام فيما كان من السحر بالاستعانة بالشياطين، وباستخدام الرقىٰ والتعويذات والعُقد والنفث فيها، وقد قال جل وعلا: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾[الفلق: ٤]، و﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ هن السواحر اللاتي يعقدن العقد وينفثن فيها، خصّت الإناث بالاستعاذة منهن؛ لأن الغالب في السحر أن الذي يستخدمه النساء، فجرىٰ ذلك مجرىٰ الغالب، و﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ جمع نفّاثة، صيغة مبالغة من النفث؛ لأنها تكثر النفث في العقدة برقىٰ وتعازيم وتعويذات، تستخدم فيه الجن لتخدم هذه العقدة التي فيها شيء من بدن المسحور، أو فيها شيء يتعلق بالمسحور حتىٰ يكون ذلك مؤثرًا فيه.

وقد سحر يهودي النبي ﷺ في مُشطٍ ومشاطة، يعني في أشياء من شعره عليه الصلاة والسلام حتىٰ يخيل للنبي ﷺ أنه يفعل الشيء ولا يفعله من جهة نسائه عليه الصلاة والسلام، فقد كان سحر ذلك اليهودي مؤثرًا في بدنه عليه الصلاة والسلام، لكنه لم يكن مؤثرًا في علمه، ولا في عقله، ولا في روحه عليه الصلاة والسلام، وإنما في بدنه يخيل إليه أنه قد واقع نساءه، وهو لم يواقع ونحو ذلك.

وهذا السحر الذي فيه استخدام الشياطين شرك وكفر بالله -جل وعلا- كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾[البقرة: ١٠٢]، والذي تلته الشياطين علىٰ ملك سليمان هو ما قرءوه في كتب السحر وما يتصل بذلك من عمل السحر، قال جل وعلا: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[البقرة: ١٠٢]، فعلل كفر الشياطين بقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[البقرة: ١٠٢]، قال سبحانه: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وتعلم السحر وهم كيف يكون، وكيف يعمل السحر، كل هذا لا يمكن أن يكون إلا بالكفر والشرك، لكن هناك مراتب:

إحداها: أن يتعلم ذلك نظريًا ولا يعمله. الثانية: أن يتعلمه ويعمله ولو مرة.

وهناك مرتبة الساحر الذي يتعلم ويعمل به دائمًا. فما حكم هذه المراتب؟

قال جل وعلا: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة: ١٠٢]، فدل على أن تعلمه بمجرده كفر، ولهذا نقول: الصحيح أن تعلم السحر -ولو بدون عمل- شرك وكفر بالله -جل وعلا- بنص الآية؛ لأنه لا يمكن أن يتعلم السحر إلا بتعلم الشرك بالله -جل وعلا- وكيف يشرك، وإذا تعلم الشرك فهو مشرك بالله جل وعلا.

وبعض العلماء يقول: السحر قسمان: كقول الشافعي وغيره: منه ما يكون بالاستعانة بالشياطين فهذا كفر وشرك أكبر، ومنه ما يكون بالأدوية والتدخينات فهذا فسق ومحرم، ولا يكفر فاعله إلا إذا استحله.

وهذا التقسيم من الشافعي ومن تبعه هو من جهة الواقع، يعني نظروا في الذين يمارسون ذلك، فمنهم من يقول: إنه ساحر وليس كذلك من حيث النظر الشرعي، يعني: أنه ليس السحر الذي وصف في الشرع، فيقول: هو ساحر، وهو يستخدم أدوية وتعويذات، وفي الحقيقة هو مشعوذ، ولا يصدق عليه اسم الساحر، وهذا فيما يفعل يؤثر عن طريق الأدوية.

وأما الصرف والعطف، يعني: جلب محبة امرأة لزوجها، أو صرف محبة المرأة لزوجها أو العكس، فهذا من القسم الأول؛ لأنه من نواقض الإسلام، فالسحر من نواقض الإسلام؛ لأنه شرك بالله، ومنه الصرف والعطف؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يصل إلىٰ روح وقلب من يُراد صرفه أو العطف إليه إلا بالشرك؛ لأن الشيطان هو الذي يُؤثر في النفس ولن يخدم الشيطان الإنسي الساحر إلا بعد أن يشرك بالله جل وعلا.

فتحصل أن السحر بجميع أنواعه فيه استخدام للشياطين واستعانة بها، والشياطين لا تخدم إلا من تقرّب إليها بالذبح، أو بالاستغاثة، أو بالاستعاذة، ونحو ذلك. يعني: أن يصرف إليها شيئًا من أنواع العبادة، بل قد نظرت في بعض كتب السحر، فوجدت أن الساحر -بحسب ما وَصَف ذلك الكاتب- لا يصل إلىٰ حقيقة السحر، وتخدمه الجن كما ينبغي، حتىٰ يُهين القرآن، ويُهين المصحف، وحتىٰ يكفر بالله، ويسب الله -جل وعلا- ونبيه- ﷺ- وهذا قد ذكره بعض من اطلع علىٰ حقيقة الحال.

فالسحر إذًا شرك بالله تعالىٰ، وكل ساحر مشرك، وقتل الساحر -فيما سيأتي- علىٰ الصحيح أنه قتل ردة، لا قتل تعزير، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقد هذا الباب **«باب ما جاء في السحر»** لبيان تلك المسألة.

❁ **قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة: ١٠٢]»:**

وجه الاستدلال بهذه الآية قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ يعني: ما له في الآخرة من نصيب، والخلاق: هو النصيب. وقوله: ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعني: اشترى السحر، والاشتراء: أن يأخذ شيئًا ويدفع عوضه، فحقيقة الشراء أن تشتري سلعة مثلًا وتدفع ثمنها، فتأخذ مثمنًا وتدفع ثمنه. والساحر ومن تعلم السحر اشترى السحر. أي أخذ السحر، وبذل توحيده عوضًا، فالثمن هو التوحيد، والإيمان بالله وحده، والمثمن هو السحر، ولهذا قال -جل وعلا- هنا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعني: من دفع دينه عوضًا عن ذلك الشي الذي أخذه وهو السحر، ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ يعني: من نصيب، وهكذا المشرك ليس له في الآخرة من نصيب، فوجه الاستدلال ظاهر في أن الساحر قد جعل دينه عوضًا عن ذلك الذي اشتراه وتعلمه وعمل به.

❁ **قوله: «وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، قال عمر: الجبت: السحر»:**

وهذا في ذم أهل الكتاب فإن أهل الكتاب لما آمنوا بالسحر ذمهم الله -جل وعلا- ولعنهم وغضب عليهم؛ لأنه يكثر السحر واستعماله فيهم، فذمهم الله -جل وعلا- بسبب ذلك، وإذا كان الله ذمهم ولعنهم وغضب عليهم لأجل ذلك، فهذا يفيد أنه من المحرمات ومن الكبائر، وإذا كان فيه إشراك بالله - جل وعلا- فظاهر أنه شرك بالله جل وعلا.

❁ **قوله: «والطاغوت: الشيطان»:**

يعني: أن الجبت اسم عام يشمل أشياء كثيرة -كما تقدم- ومن أبرزها وأظهرها عند اليهود السحر، فيؤمنون بالجبت يعني السحر؛ لأنه هو أظهر الأشياء عندهم، ويؤمنون بالطاغوت، يعني: بالشيطان، وهو كل ما توجهوا إليه بالطاعة، وبُعْد عن الحق، وعن الصواب.

❁ **قوله: «وقال جابر: الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد»:**

وهذا يأتي بيانه في «**باب ما جاء في الكهان**».

❁ **قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر...»»:**

وجه الاستدلال من ذلك: أن السحر من الموبقات، والموبقات: هي التي تُوبق صاحبها، وتجعله في هلاك وخسارة في الدنيا وفي الآخرة، وهذه السبع أكبر الكبائر، وعطف السحر على

الشرك بالله ليس عطفًا بين متغايرين في الحقيقة، وإنما هو عطف بين خاص وعام، فالشرك بالله يكون بالسحر ويكون بغيره، فعطف السحر على الشرك للتنصيص عليه، والسحر -كما ذكرنا- أحد أفراد الشرك بالله -جل وعلا- وعطف الخاص على العام أمثلته كثيرة، منها قوله جل وعلا: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٩٨]، فعطف جبريل وميكال على الملائكة، وهما منهم، من باب عطف الخاص على العام.

قوله: «وعن جندب مرفوعًا: «حد الساحر ضربه بالسيف»، رواه الترمذي وقال: الصحيح أنه موقوف»:

روي هكذا «ضَربُه» وهو الأصح، وروي «ضَربةٌ» فحد الساحر قتله بالسيف، وعلى رواية «ضربة» لا يكون لها مفهوم، يعني: إن مات بضربة أو يضرب ضربتين أو ثلاثًا حتى يموت؛ لأن العدد لا مفهوم له.

قوله: «**حد الساحر**» هنا لم يفرق بين ساحر وساحر، ولم يأت في أدلة الكتاب والسنة التفصيل في اسم الساحر الذي يُحد، أو الذي وصف بالكفر بين نوع ونوع من التأثير، فالأنواع التي يستخدمها السحرة مما يصدق عليها أنها سحر في التأثير، وفي الأمراض، وفي التفريق، وفي التأثير في العقول وفي القلوب، ونحو ذلك من أنواع التأثير الخفي الذي يكون باستخدام الشياطين أو بأمور خفية، فهذا كله لا يفرق فيه بين فاعل وفاعل، والأدلة ما فرّقت؛ فلهذا قال العلماء: الصحيح أن الساحر من أي نوع حدّه أن يقتل، وهل حدُّه حد كفر وردة، أو حد لأجل أنه قتل، فيكون حدًّا لأجل القتل، أو حد تعزير؟

اختلف العلماء في ذلك، والصحيح من هذه أنه في الجميع حد ردة؛ لأن حقيقة السحر أنه لابُدَّ أن يكون فيه إشراك بالله -جل وعلا- ومن أشرك بالله -جل وعلا- فقد ارتد وحل دمه وماله.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية تفصيل يقول فيه ما مقتضاه: إن الساحر قد لا تُدرك حقيقة سحره فيُترك أمره في قتله إلى الإمام، إذا رأى المصلحة في قتله قتله، وإن لم ير المصلحة في قتله لم يقتله، ويعني بالمصلحة المصلحة الشرعية، فتحصّل من ذلك أن الأقوال في حد الساحر هي:

الأول: أنه يقتل مطلقًا ردة؛ لأنه لا يكون السحر إلا بشرك.

والقول الثاني: أنه يقتل ردة إذا كان سحره بشرك، ويقتل حدًّا إذا كان سحره أدىٰ إلىٰ قتل غيره بغير ما فيه إشراك، من مثل الأدوية، والتعويذات ونحو ذلك مما ذكرنا.

والقول الثالث: القول الذي عُزي إلىٰ شيخ الإسلام: من أنه كالزنديق يُترك أمره إلىٰ الإمام بحسب ما يراه، إن رأىٰ المصلحة الشرعية في قتله قتله، وإلا عاقبه بها دون القتل.

۞ **قوله: «وفي «صحيح البخاري» عن بجالة بن عبدة قال: «كتب عمر بن الخطاب ﷺ أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر»:**

هذا ظاهر في الأمر بقتل الساحر والساحرة بدون تفصيل، ولأن حقيقة السحر لا تكون إلا بشرك بالله -جل وعلا- وذلك ردة.

۞ **قوله: «وصح عن حفصة ﷺ أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت، وكذلك صح عن جندب، قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ»:**

يعني أن الساحر يجب أن يقتل وهذا حده سواء قلنا: إنه يقتل لحد الردة، أو يقتل لحد القتل، أو يقتل تعزيرًا، فالصحابة رضوان الله عليهم أفتوا بقتله، وأمروا بقتله، وذلك بدون تفريق، وهذا هو الواجب ألا يُفرق بين نوع ونوع، والواجب علىٰ المسلمين أن يحذروا السحر بأنواعه، وأن يتعاونوا في الإبلاغ عن كل من يعلمون عنده شعوذة، أو استخدامًا لشيء من الخرافات، أو السحر، ونحو ذلك إبراء للذمة، وإنكارًا للمنكر؛ لأنه كما قال الأئمة: ما دخل السحرة إلىٰ بلد إلا فشا فيها الفساد، والظلم، والاعتداء، والطغيان، ذلك لأنهم يستخدمون الشياطين، فتطيع الشياطين السحرة، أعاذنا الله منهم، ومن أقوالهم، وأعمالهم وتأثيراتهم.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولىٰ: تفسير آية البقرة، أي قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾[البقرة:١٠٢] أي: استبدل الكفر الذي منه السحر بالإيمان ما له في الآخرة عند الله من خلاق أي: حظ ولا نصيب.

الثانية: تفسير آية النساء، أي قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:٥١] فذمهم علىٰ إيمانهم بالجبت الذي هو السحر كما قاله عمر.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت. والفرقُ بينهما أن الجبت السحر والطاغوت الشيطان وقيل غير ذلك،وأما الفرق بينهما فهو -والله أعلم- أن الجبت يتعلق بالعمل المذموم كالسحر والطاغوت بالعامل أي: الشيطان او الكاهن أو الساحر وهذا علىٰ بعض التفاسير، وأما علىٰ بعضها فيتداخلان.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس، أي: إذا قيل: إنه الشيطان فهو من الجن وإذا قيل: إنه الكاهن فهو من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي أي: المهلكات المخصوصات بالنهي لقوله: اجتنبوا السبع إلخ.

السادسة: أن الساحر يكفر، أي لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة:١٠٢].

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب أي: لأن الصحابة الذين روي عنهم قتله لم ينقل أنهم استتابوه.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين علىٰ عهد عمر فكيف بعده؟ أي وجود السحر في عهده فكيف بعده؟ أي إنه أعظم لقوله ﷺ: **« لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتىٰ تلقوا ربكم»** رواه البخاري.

* الأسئلة *

س: ما وجه إدخال باب السحر في كتاب التوحيد؟

جـ: لأن كثيرًا من أقسامه لا يتأتىٰ إلا بالشرك المنافي للتوحيد.

س: كيف دخل السحر في الشرك؟

جـ: دخل فيه من جهتين:

١ - من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلق بهم.

٢ - ومن جهة ما فيه من ادعاء علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه.

س: عرف السحر لغة وشرعًا؟

جـ: السحر لغة عبارة عما خفيٰ ولطف سببه.

وشرعًا: عزائم ورقىٰ وعقد وأعمال تؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

س: اذكر حكم السحر وحد الساحر مع ذكر الدليل؟

جـ: السحر محرم؛ لأنه كفر بالله مناف للإيمان والتوحيد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

وحد الساحر: القتل والدليل علىٰ ذلك:

١ - ما روي عن جندب مرفوعًا «**حد الساحر ضربه بالسيف**». رواه الترمذي موقوفًا.

٢- ما روي عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلىٰ عماله أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. رواه البخاري في صحيحه. (٦٧٨)

٣- ما صح عن حفصة أم المؤمنين أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت

فصح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ وهم عمر وابنته حفصة وجندب.

(٦٧٨) سبق تخريجه.

✿ **قوله: «قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة:١٠٢]».**

س: بين مرجع الضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ و ﴿اشْتَرَاهُ﴾ وما هو الخلاق. اشرح هذه الآية واذكر ما يستفاد منها؟

جـ: مرجع الضمير في﴿عَلِمُوا﴾إلىٰ اليهود وفي ﴿اشْتَرَاهُ﴾إلىٰ السحر؛ أي: اختاره واستبدله بكتاب الله. والخلاق: النصيب.

يقول تعالىٰ: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺأن الساحر لا نصيب له في الآخرة. وتفيد الآية تحريم السحر ووعيد الساحر.

✿ **قوله: «قال تعالىٰ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[النساء:٥١]».**

س: ما المراد بالجبت والطاغوت؟

جـ: تقدم معناهما في الباب الذي قبل هذا وقال عمر بن الخطاب: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

✿ **قوله: «وقال جابر: الطواغيت: كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد».**

س: ما معنى قول جابر هذا وما هو الحي؟

جـ: أراد أن الكهان من الطواغيت تنزل عليهم الشياطين فيخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقون من السمع.

وقوله: «**في كل حي واحد**» الحي: واحد الأحياء وهي القبائل؛ أي: في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه.

✿ **قوله: «عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات...».**

س: ما معنى اجتنبوا وما هي الموبقات ولماذا سميت بهذا الاسم؟

جـ: اجتنبوا: ابتعدوا، والموبقات: المهلكات، وسيمت: موبقات؛ لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات وفي الآخرة من العذاب.

س: عرف الشرك بالله ولماذا بدأ به واذكر الشاهد من الحديث للباب؟

جـ: الشرك بالله نوعان:

١ - شرك أكبر وهو صرف؛ أي: نوع من أنواع العبادة لغير الله كالدعاء والخوف والذبح والنذر.

٢ - وشرك أصغر وهو كل وسيلة تؤدي إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة كالرياء والحلف بغير الله. وبدأ بالشرك؛ لأنه أعظم الذنوب.

والشاهد من الحديث للباب قوله «**والسحر**» وتقدم تعريفه وحكمه.

س: ما المقصود بقتل النفس التي حرم الله. وما هو الحق الذي يبيح قتل النفس؟

جـ: المقصود بالنفس التي حرم الله قتلها: هي نفس المسلم المعصوم والمعاهد. والحق الذي يبيح قتل النفس هو أن تعمل ما يوجب قتلها مثل الشرك والردة بعد الإسلام والنفس بالنفس - القصاص - والزنا بعد الإحصان، الزواج.

س: عرف الربا وما المقصود بأكله؟

جـ: الربا لغة: الزيادة، وشرعًا: زيادة في أشياء مخصوصة

والمقصود بأكله: تناوله على أي وجه كان.

س: ما المراد بأكل مال اليتيم ولماذا عبر بالأكل؟

جـ: المراد بأكل مال اليتيم التعدي فيه ظلمًا، وعبر بالأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع واليتيم الذي مات أبوه وهو صغير لم يبلغ.

س: ما معنى التولي يوم الزحف، ومتى يكون كبيرة؟

جـ: معنى التولي يوم الزحف الإدبار والفرار عن الكفار وقت التحام القتال وإنما يكون كبيرة إذا فر إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال كما في الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٦]

س: ما المقصود بالمحصنات الغافلات المؤمنات، وما معنى قذفهن وعن أي شيء احترز بقوله: المؤمنات؟

جـ: المحصنات بفتح الصاد النساء المحفوظات من الزنا وبكسرها الحافظات فروجهن منه

وهن الحرائر العفيفات. ومعنىٰ قذفهن: رميهن بزنا أو لواط، وهن الغافلات عن الفواحش، وعما رمين به البريئات من ذلك المؤمنات بالله تعالىٰ.

واحترز بالمؤمنات عن الكافرات؛ فإن قذفهن ليس من الكبائر.

س: اذكر ما يستفاد من هذا الباب؟

جـ: يستفاد منه:

١ - تحريم السحر والوعيد الشديد عليه وأنه من الكبائر.

٢ - وعيد الساحر وأنه يكفر ويقتل.

٣ - الوعيد الشديد علىٰ الشرك بأنواعه فإنه أكبر الكبائر.

٤ - تحريم قتل النفس وأنه من الكبائر وبيان الحق الذي يبيح قتلها.

٥ - تحريم أكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي عن الكفار وقت القتال وقذف المحصنات وأنها من الكبائر.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



الدرس الخامس والعشرون:

باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه، أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت»(٦٧٩).

قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض، والجبت: قال الحسن: رنة(٦٨٠) الشيطان(٦٨١). إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه» [لهم](٦٨٢) المسند منه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»(٦٨٣). رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

وللنسائي من حديث أبي هريرة: «من عقد عقدة، ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا، وكل إليه»(٦٨٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه(٦٨٥)؟ هي: النميمة، القالة بين الناس»(٦٨٦)[رواه مسلم](٦٨٧).

---

(٦٧٩) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٧)، وأبو داود، كتاب: الطب، باب: في الخط وزجر الطير، برقم (٣٩٠٧)، وابن حبان، برقم (٦١٣١)، وغيرهم من حديث قبيصة رضي الله عنه وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٣٩٠٠).

(٦٨٠) كذا بالأصل، وله شاهد عن ابن عباس. انظر: معجم الطبراني، رقم (١٢٣١٨)، وفي مصدري التخريج: «إنه»، بدلا من «رنة».

(٦٨١) أخرجه أحمد (٥/ ٦٠)، والبيهقي، برقم (١٦٢٩٣) بلفظ «إنه الشيطان».

(٦٨٢) ساقطة من نسخة ابن قاسم، وابن باز، والفوزان، والسعدي، والمثبت من نسخة ابن عثيمين.

(٦٨٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في النجوم، برقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه، كتاب: الأدب، باب: تعلم النجوم، برقم (٣٧٢٦)، وأحمد (١/ ٣١١)، والبيهقي، برقم (٨/ ١٣٨)، وابن أبي شيبة، برقم (٢٥٦٤٦)، وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٦٠٧٤).

(٦٨٤) أخرجه النسائي، كتاب: تحريم الدم، باب: الحكم في السحرة، برقم (٤٠٧٩)، وفي «الكبرى»، برقم (٣٥٤٢)، والطبراني في «الأوسط»، برقم (١٤٦٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (٥٧٠٢).

(٦٨٥) في نسخة ابن باز: «العضة».

(٦٨٦) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم النميمة، برقم (٢٦٠٦)، وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحرًا»(٦٨٨).

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق[والطيرة](٦٨٩).

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر.

الرابعة: [أن](٦٩٠) العقد مع النفث من ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

الشرح

قال العلامة ابن قاسم:

قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر»:

لما ذكر المصنف رحمه الله ما جاء في السحر ذكر شيئًا من أنواعه لكثرة وقوعها، وخفائها على الناس، حتى اعتقد كثير أن من صدر عنه خارق فهو ولي لله، وحتى آل الأمر إلى أن عبد أربابها، وهذا العمل بعينه من الناس أحوال شيطانية، واستدراج من الشيطان لبني آدم إلى الشرك، ولابد للمسلم أن يفرق بين ولي الله وبين عدو الله، من ساحر وكاهن ونحوهم، ممن قد يجري على يديه شيء من الخوارق، وأولياء الله هم أحبابه المتقربون إليه بالطاعات وترك المحرمات، وإن لم تجر على أيديهم خوارق، وإن جرت فكرامة من الله، وليست وحدها دليلًا على الولاية.

قوله: «قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر»:

=

(٦٨٧) سقط من نسخة ابن عثيمين.

(٦٨٨) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: إن من البيان سحرًا، برقم (٥٧٦٧)، وغيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦٨٩) ساقطة من نسخة ابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

(٦٩٠) ساقطة من نسخة ابن عثيمين، والمثبت من نسخة السعدي.

هو أبو عبد الله المعروف بغندر الهذلي مولاهم البصري، ثقة روىٰ عن شعبة وخلق، ولازمه عشرين سنة، وعنه الإمام أحمد وغيره مات سنة ٢٠٦ هـ.

❁ **قوله: «حدثنا عوف عن حيان بن العلاء»:**

عوف هو ابن أبي جميلة، أبو سهل العبدي البصري، المعروف بعوف الأعرابي، روىٰ عن أبي العالية والحسن وجماعة، وعنه شعبة والثوري وغيرهم، مات سنة ١٤٦ هـ، وله ٨٦ سنة. وحيان بن العلاء، ويقال: أبو العلاء البصري مقبول.

❁ **قوله: «حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه»:**

قطن بفتحتين أبو سهل البصري صدوق، وأبوه قبيصة بفتح أوله ابن مخارق بن شداد بن معاوية بن ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر البصري، وفد علىٰ النبي ﷺ ونزل البصرة.

❁ **قوله: «أنه سمع النبي ﷺ قال: إن العافية والطرق والطيرة من الجبت»:**

أي: السحر، قال القاضي: والجبت في الأصل الشيء الفشل الذي لا خير فيه، ثم استعير لما يعبد من دون الله، وللساحر والسحر.

❁ **قوله: «قال عوف: العيافة زجر الطير»:**

والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادات العرب، ولذلك صار كثيرًا في أشعارهم، يقال: عاف يعيف عيفًا إذا زجر وحدس وظن، والاعتبار في ذلك غالبًا بأسمائها كما يتفاءل بالعقاب علىٰ العقاب، وبالغراب علىٰ الغربة، بالهدهد علىٰ الهدىٰ، والفرق بينها وبين الطيرة أن الطيرة هي: التشاؤم بها، وقد تستعمل في التشاؤم بغير الطير من حيوان وغيره، وكانت بنو أسد يذكرون بالعيافة ويوصفون بها، حتىٰ قيل: إن قومًا من الجن تذاكروا عيافتهم، فأتوهم فقالوا: ضلت لنا ناقة فلو أرسلتم معنا من يعيف، فقالوا لغليم منهم: انطلق معهم، فاستردفه أحدهم فلقيهم عقاب كاسرة أحد جناحيها، فاقشعر الغلام وبكىٰ، فقالوا: مالك؟ فقال: كسرت جناحا، ورفعت جناحًا، وحلفت بالله صراحًا، ما أنت بإنسي وما تبغي لقاحًا.

❁ **قوله: «والطرق: الخط يخط بالأرض»:**

يخطه الرمالون وغيرهم ويدعون به علم المغيبات. وقال ابن عباس: هو الذي يخطه الحازر، يأتي صاحب الحاجة فيعطيه حلوانًا، فيقول له: اقعد حتىٰ أخط لك، وبين يدي الحازر غلام له

معه ميل، ثم يأتي إلىٰ أرض رخوة فيخط فيها خطوطًا كثيرة بالعجلة؛ لئلا يلحقها العدد، ثم يرجع فيمحو منها علىٰ مهل خطين خطين، وغلامه يقول للتفاؤل: ابن عيان أسرع البيان، فإن بقي خطان فهو علامة النجاح، وإن بقي خط واحد فهو علامة الخيبة، وأما ما رواه مسلم وغيره عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ «**ومنا رجال يخطون. فقال: كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك**»[٦٩١]. فقال النووي وغيره: من وافق خطه فهو مباح له، لكن لا طريق لنا إلىٰ العلم باليقين بالموافقة، فلا يباح بل يصير من أنواع الكهانة، لمشاركته لها في المعنىٰ ا. هـ.

قال المصنف: «**وخط ذلك النبي عدم لا يوجد من يعرفه**». وفي النهاية وغيرها: الطرق: الضرب بالحصىٰ والودع والخرز: الذي يفعله النساء. قال الشارح: وأيًا ما فهو من الجبت.

✿ قوله: «والجبت، قال الحسن: رنة الشيطان. إسناده جيد»:

الحسن هو ابن أبي الحسن البصري المشهور، واسم أبيه يسار الأنصاري مولاهم، ثقة فقيه فاضل مات سنة ١١٠ هـ، وقد جاوز ٩٠ سنة، فسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجبت ببعض أفراده. قال المصنف: «**عادة السلف يفسرون اللفظ العام ببعض أفراده، وقد يكون السامع يعتقد أن ذلك ليس من أفراده، وهذا كثير في كلامهم جدًا، ينبغي التفطن له**» ا. هـ.

والرنين هو الصوت، ورن يرن رنينًا: صوت وصاح ورفع صوته بالبكاء، والرنة الواحدة والصوت، وله رنة؛ أي: صيحة؛ فالمعنىٰ: صوت توجعًا وتغيظًا، ويدخل فيه كل أصوات الملاهي وغيرها.

وأضافه إلىٰ الشيطان؛ لأنه الذي يدعو إلىٰ ذلك، وذكر بقي بن مخلد في تفسيره وغيره أن إبليس رن أربع رنات: رنة حين لعن، ورنة حين أهبط، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ ورنة- حين نزلت فاتحة الكتاب. وعن سعيد بن جبير أنه لما لعن تغيرت صورته، ورن رنة فكل رنة منها إلىٰ يوم القيامة. وعن ابن عباس: لما فتح رسول الله ﷺ مكة رن إبليس واجتمعت إليه جنوده.

✿ قوله: «ولأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه» المسند منه»:

---

(٦٩١) أخرجه مسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، برقم (٥٣٧)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: تشميت العاطس في الصلاة برقم (٩٣٠)، وأحمد (٥/ ٤٤٧)، وغيرهم من حديث معاوية بن الحكم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أي: رووا من هذا الحديث كل ما أسند عن النبيﷺ، ولم يذكروا التفسير الذي فسره به عوف، وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون قول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: «وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول اللهﷺ: من اقتبس شعبة من النجوم ...»:

اقتبس: أخذ وحصل وعلم، وقبست العلم واقتبسته إذا علمته، والقبس: الشعلة من النار، واقتباسها: أخذها منها، والشعبة الطائفة والقطعة، ومنه: «**الحياء شعبة من الإيمان**»(٦٩٢)؛ أي: جزء منه ولفظ أبي داود: «**من اقتبس علمًا من النجوم**»، وإنما شبهﷺ علم النجوم بعلم السحر؛ لأن حرمته منصوصة في القرآن العزيز؛ أي: من علم طائفة من علم النجوم المحرم فقد اقتبس شعبة من السحر المحرم تعلمه، ولفظ رزين: «**من اقتبس بابًا من علم النجوم بغير ما ذكر الله، فقد اقتبس شعبة من السحر**»(٦٩٣). فصرحﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه:٦٩].

قوله: «زاد ما زاد، رواه ابو داود بإسناد صحيح»:

وصححه الذهبي والنووي، رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما، ولفظ أحمد: «ما زاد زاد»؛ أي: كلما زاد المقتبس مِنْ تَعَلُّم النجوم زاد اقتباسه من شعب السحر، وفي الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه، وزيادة البعد من الله، فإنما يعتقدونه في النجوم من معرفة الحوادث التي لم تقع، وربما تقع في مستقبل الزمان، مثل إخبارهم بوقت هبوب الرياح، ومجيء المطر ووقوع الثلج، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار ونحوها، ويزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب، واجتماعها وافتراقها باطل، كما أن تأثير السحر باطل، بل هو مما استأثر الله به. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]. وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله**»(٦٩٤). وغير ذلك مما استأثر الله بعلمه.

---

(٦٩٢) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: أمور الإيمان، برقم (٩)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأرناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، برقم (٣٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٦٩٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الطب، باب: في النجوم، برقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه، كتاب: الأدب، باب: تعلم النجوم، برقم (٣٧٢٦)، وابن أبي شيبة، برقم (٢٥٦٤٦)، والبيهقي، برقم (١٦٢٩٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٦٩٤) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، برقم (٧٣٧٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وأما ما يدرك بطريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعرف به الزوال وجهة القبلة ونحو ذلك، فغير داخل فيما نهىٰ عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل:١٦].

قوله: «وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه»؛ يعني: مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ. والنسائي هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن، صاحب «السنن الكبرىٰ» و«المجتبىٰ» وغيرهما، روىٰ عن محمد بن المثنىٰ وابن بشار وقتيبة وخلق لا يحصون، وكان إليه المنتهىٰ في العلم بعلل الحديث، مات بفلسطين سنة ٣٠٣ هـ وله ٨٨ سنة.

قوله: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر»:

العقدة جمعها: عقد، وهي: ما تعقده السحرة، ويقال لها: عزيمة أيضًا، وذلك أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط، ونفثوا علىٰ كل عقدة، حتىٰ ينعقد ما يريدونه من السحر بإذن الله تعالىٰ، ولهذا أمر الله بالاستعاذة من شرهم في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾[الفلق:٤]؛ يعني: السواحر اللاتي يفعلن ذلك، والنفث هو: النفخ من الريق، وهو دون التفل، والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقد نفخًا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس مما زج للشر والأذىٰ، مقترن بالريق الممازج لذلك، وقد يتساعد هو والروح الشيطانية علىٰ أذىٰ المسحور فيصيبه السحر بإذن الله القدري الكوني لا الشرعي.

قوله: «ومن سحر فقد أشرك»:

هذا نص في أن الساحر مشرك، وقد حكىٰ الحافظ عن بعضهم أنه لا يتأتىٰ إلا مع الشرك.

قوله: «ومن تعلق شيئًا وكل إليه»:

أي: ومن تعلق قلبه شيئا بحيث يعتمد عليه ويرجوه، وكله الله إلىٰ ذلك الشيء وخذله، وخلىٰ بينه وبينه؛ فإن تعلق قلبه بربه كفاه وتولاه، كما قال تعالىٰ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر:٣٦]. ومن تعلق علىٰ السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلىٰ من تعلق به، ومن وكل إلىٰ غير الله هلك وخسر خسرانًا مبينًا، وضل ضلالًا بعيدًا، بل من تعلق قلبه بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر فقد أشرك.

«**ألا**» أداة تنبيه «**أنبئكم**» أخبركم و «**العضه**» بفتح فسكون هو أكثر ما يروىٰ في كتب الحديث، وفي كتب الغريب بكسر ففتح، العضاهة: الكذب والبهتان والسحر، وعلىٰ الأول من عضه الرجل يعضه

عَضْهًا وعضيهة وعضهة: كذب وسحر ونم. قال الزمخشري: أصلها: العضهة، فعلة من العضه، وهي من البهت، فحذفت لامه كما حذفت من السنة والشفة، وتجمع على عضين. قال النووي: تقديره ألا أنبئكم بالعضه الفاحش الغليظ التحريم، وإيراد المصنف له هنا يدل على أن معناه عنده هو السحر.

قوله: «هي النميمة القالة بين الناس». رواه مسلم:

النميمة: فعيلة؛ بمعنى: مفعولة، ونم الحديث ينمه نمًا: قتَّه ورفعه إشاعة له وإفسادا، وسعى به ليوقع فتنة أو وحشة، والنمام: الذي يتحدث مع القوم فينم عليهم، فيكشف ما يكره كشفه، سواء كره المنقول عنه أو إليه أو غيرهما، وسواء كان الكشف بالعبارة أو بالإشارة أو بغيرهما، فحقيقتها إفشاء السر، وهتك الستر عما يكره كشفه. والقالة: كثرة القول، وإيقاع الخصومة بما يحكي بعضهم لبعض. وفي الحديث: «**ففشت القالة بين الناس**». قال يحيى بن أبي كثير: يفسد النمام والكذاب في ساعة، ما لا يفسد الساحر في سنة. وقال أبو الخطاب: ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس.

قال في «الفروع»: ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله الساحر أو أكثر، فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين، لكن يقال: الساحر إنما يكفر لوصف السحر، وهو أمر خاص، ودليله خاص وهذا ليس بساحر، وإنما يؤثر عمله ما يؤثره السحر، فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة؛ وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة؛ إذ هو من أنواع السحر لما فيه من القطيعة؛ بل قد يكون تارة أعظم لما ينشأ من فساده. وعلى كل من حملت إليه أن لا يصدقه؛ لأنه فاسق وأن ينهاه ويبغضه، ولا يظن بأخيه السوء، ولا يحمله ما نقل فيه على التجسس والبحث، ولا يرضى لنفسه ما نهي النمام عنه، فيقول: حكى فلان كذا إلا لمصلحة. واتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة، وفيه دليل على أنها من الكبائر.

قوله: «ولهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إن من البيان لسحرًا»:

وأورد البخاري وغيره سبب قول النبي ﷺ ذلك؛ أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان لسحرًا**»[٦٩٥]. أو «**إن بعض البيان لسحر**»[٦٩٦]؛ يعني: إن بعض

---

(٦٩٥) سبق تخريجه.

(٦٩٦) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: إن من البيان سحرًا، برقم (٥٧٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

البيان يعمل عمل السحر، ومعنىٰ السحر: إظهار الباطل في صورة الحق، والبيان البلاغة والفصاحة، وإنما شبهه بالسحر لحدة عمله في سامعه، وسرعة قبول القلب، وتقدم أن هذا من التشبيه البليغ؛ لكون ذلك يعمل عمل السحر، فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق، فيستميل به قلوب الجهال، حتىٰ يقبلوا الباطل وينكروا الحق. قال صعصعة بن صوحان: صدق نبي الله ﷺ إن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه، فيذهب بالحق. والمراد: البيان الذي فيه تمويه علىٰ السامع وتلبيس، شبهه بالسحر لفساده.

وأخرج أحمد وأبو داود عن ابن عمر مرفوعًا: «**إن الله يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه كما تخلل البقرة بلسانها**»[٦٩٧]. وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره، ويبطل الباطل ويبينه فهذا ممدوح، كحالة الرسل وأتباعهم.

وسأل رجل عمر بن عبد العزيز عن حاجة فأحسن المسألة، فقال: هذا والله السحر الحلال.

قال العلامة ابن سعدي:

❁ **قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر»:**

وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد: أن كثيرًا من أقسامه لا يتأتىٰ إلا بالشرك والتوسل بالأرواح الشيطانية إلىٰ مقاصد الساحر؛ فلا يتم للعبد توحيد حتىٰ يدع السحر كله قليله وكثيره. ولهذا قرنه الشارع بالشرك، فالسحر يدخل في الشرك من جهتين:

من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلق بهم وربما تقرب إليهم بما يحبون، ليقوموا بخدمته ومطلوبه.

ومن جهة ما فيه من دعوىٰ علم الغيب، ودعوىٰ مشاركة الله في علمه، وسلوك الطرق المفضية إلىٰ ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر.

وفيه أيضًا من التصرفات المحرمة، والأفعال القبيحة كالقتل، والتفريق بين المتحابين، والصرف، والعطف، والسعي في تغيير العقول وهذا من أفظع المحرمات وذلك من الشرك ووسائله، ولذلك تعين قتل الساحر لشدة مضرته وإفساده.

---

(٦٩٧) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: ما جاء في المتشدق في الكلام، برقم (٥٠٠٥)، والترمذي، كتاب: الأدب، باب: الفصاحة والبيان، برقم (٢٨٥٣)، وأحمد (٢/ ١٦٥)، وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، برقم (٨٨٠).

ومن أنواعه الواقعة في كثير من الناس النميمة؛ لمشاركتهم للسحر في التفريق بين الناس وتغيير قلوب المتحابين وتلقيح الشرور. فالسحر أنواع ودركات، بعضها أقبح وأسفل من بعض.

قال العلامة ابن باز:

❁ **قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر»:**

أراد المؤلف أن يبين شيئًا مما يسمىٰ سحرًا؛ لينتبه المؤمن ويجتنبها ويبتعد عنها وقد تسمىٰ سحرًا من جهة أنها تضر وتؤذي وإن لم تكن سحرًا من جهة المعنىٰ والحقيقة الذي هو استخدم الشياطين وعبادتهم فهذا سحر محض أما الثانية فهو يعمل عمل السحر ويؤذي وإن لم يكن سحرًا في الحقيقة.

❁ **قوله: «قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر... أنه سمع الرسولﷺ قال: ...»:**[٦٩٨].

«**الجبت**»: السحر كما قال عمر رضي الله عنه؛ والمعنىٰ أن هذه يطلق عليها أنها من السحر من جهة ما فيها من الشرك والفساد ومن جهة ما قد يدعيه أصحابها من علم الغيب.

«**والعيافة**»: زجر الطير كما قال عوف فيزجرون الطير ويزعمون أنها تدلهم علىٰ شيء فيتشاءمون بها تارة ويتيمنون بها تارة أخرىٰ وهذا من عمل الجاهلية، والطيور ليس عندها خير ولا شر ولكن هذا من جهلهم وضلالهم كما يتشاءمون بالغراب والبومة أو حيوان سيء الخلقة، ويتيمنون بالحيوان الحسن الخلقة ويقولون هذا مخرج طيب والعكس كذلك.

«**والطرق**»: الخط يخط في الأرض، ويقولون: هذا يدل علىٰ كذا وأنه يحصل كذا، وهذا قد يكون من العبث أحيانًا وقد يكون تخيلًا وهو في الحقيقة خدمة للشياطين وأخذ بأقوالهم وطاعتهم ودعوىٰ علم الغيب وكله كذب وهي لا تفيد شيئًا.

و«**الجبت**»: قال الحسن: رنة الشيطان.

«**الطيرة**»: هي التشاؤم بالمرئي أو المسموع وهي محرمة ومن الشرك الأصغر، وقد تكون أكبر إذا اعتقد بأن الطائر يتصرف في الكون أو يدبر شيئًا، ولكن الغالب أنهم يتشاءمون بها فقط.

فكل هذا من عمل الجاهلية، ومن الجبت وهو السحر، وقيل: الصنم أو الشيء الذي لا خير فيه، والمقصود الزجر عنها والنهي؛ لأن فيها تشبه بالجاهلية والجاهلين.

---

(٦٩٨)سبق تخريجه.

قوله: «لأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه» المسند منه»؛ أي: قوله: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت» أما ما بعده فهو عند أحمد فقط.

قوله: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من اقتبس شعبة من النجوم ...»:

يدل على أن تعلم أمر النجوم في التأثير في الكون هو من أقوال المنجمين والمشعوذين وهو باطل ومنه التعلق بالنجوم في موت أحد وحياته أو زوال ملك فلان وغيره.

«زاد ما زاد»؛ أي: كلما زاد اقتباسه من النجوم زاد اقتباسه من السحر والشر، والمراد: علم أن للنجوم تأثير فهذا هو المنكر وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، أما الاستفادة من النجم وسيرها في معرفة القبلة والحر والبرد فلا بأس به؛ لأنه من علم التسيير لا من علم التأثير وهو من نعمة الله. ومن التشاؤم بالزمان ألا يذبح ولا يشتري، ولا يعقد عقدًا في صفر فهو عمل جاهلي.

قوله: «وللنسائي من حديث أبي هريرة: من عقد عقدة، ثم نفث فيها فقد سحر...»:

أراد المؤلف بيان ما تقدم من أنواع السحر وإن من هذه الأنواع العقد والنفث فالسحرة يعقدون عقدًا ثم ينفثون فيها بأنفسهم الخبيثة وأرواحهم مع تعاونهم مع الشياطين وخدمتهم لهم وبهذا يقع بعض ما أرادوا بإذن الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[البقرة:١٠٢]؛ أي: بإذنه الكوني وقد ذكر الله السحر في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾[الفلق:٤]، وهم السواحر.

والسحر قسمان:

١ - قسم يكون بالعقد والنفث والأدوية الضارة، وهذا موجود.

٢ - وقسم يكون بالتخييل والتلبيس والتزوير، كما قال تعالى عن سحرة فرعون ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾[طه:٦٦] وقال ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف:١١٦] فسماه عظيمًا؛ لما فيه من التلبيس والتخييل على الناس.

ومن سحر فقد أشرك: من تعاطيه السحر؛ لأنه يكون بعبادة الشياطين ودعائهم.. ولهذا قال الله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾وقال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾[البقرة:١٠٢] فدل على أن تعلمه يوجب الكفر.

وإسناد هذا الحديث فيه ضعف؛ لأنه من رواية الحسن عن أبي هريرة. وقد ذكر جمع من العلماء أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة فيكون منقطعًا وهو من رواية عباد بن مسيرة وفيه ضعف

لكن له شواهد من حيث المعنىٰ.

«من تعلق بشيء وكل إليه»: فمن تعلق بالله وكل إلىٰ الله، وكفاه الله ما أهمه.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[الزمر:٣٧] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق:٣] ومن تعلق بالسحر والتمائم والشياطين وكله الله إليهم، ومن توكل علىٰ غير الله فقد خسر وهلك.

قوله: «وعن ابن مسعود...»:

مسلم عن ابن مسعود مرفوعًا: **«ألا أنبئكم ما العضه هي النميمة والقالة بين الناس»**:

العَضْه: بفتح العين وتسكين الضاد قال في «القاموس»: هي بمعنىٰ السحر والكذب والنميمة وذكره هنا؛ لأن السحر يحصل به بهتان وكذب وتلبيس وغش علىٰ الناس وخيانة.

«**النميمة والقالة بين الناس**»: سميت عضه؛ لأنها تضر الناس ويترتب عليها من الكذب والفرية وشحذ القلوب والإفساد بين الناس.

ولهذا قال يحيىٰ بن أبي كثير كما روىٰ عنه ابن عبد البر: «**قد يفسد النمام والكذاب في الساعة أكثر مما يفسده الساحر في السنة**»(٦٩٩) فشرهم كبير ولهذا قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «**لا يدخل الجنة نمام**»(٧٠٠).

قوله: «**ولهما: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إن من البيان لسحرًا**»:

«**البيان**»: الفصاحة والبلاغة؛ لأن صاحب البيان قد يسحر الناس بأسلوبه وفصاحته فربما لبس عليهم الأمر وربما خدعهم وخفيت عليهم الحقائق. وأصل الحديث قال الجمهور: إن فيه مدح البيان إذا كان في الحق، وقيل: إنه يراد به الذم حكاه ابن عبد البر عن جماعة من العلماء.

ولكن يقال: إن البيان إذا كان في الحق والدعوة إلىٰ الكتاب والسنة فهذا ممدوح. أما إذا أريد به الخداع واللبس فهذا ذم وعيب والحديث يحتمل الاثنين.

---

(٦٩٩) عزاه إليه ابن مفلح في الفروع (٦/ ١٨٠).

(٧٠٠) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: ما يكره من النميمة، برقم (٦٠٥٦) بلفظ «قتات»، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان غلظ تحريم النميمة، برقم (١٠٥)، وغيرهما من حديث حذيفة رضي الله عنه.

والكتاب والسنة قد جاءا بأوضح البيان وأفصحه في بيان الحق ودعوة الناس.

وخطب رجل عند عمر بن عبد العزيز فأحسن فقال: هذا والله السحر الحلال.

قال العلامة ابن عثيمين:

قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر»:

أي: بيان حقائق هذه الأشياء مع حكمها.

وقد سبق أن السحر ينقسم إلى قسمين: كفر، وفسق، فإن كان باستخدام الشياطين وما أشبه ذلك؛ فهو كفر. وكذلك ما ذكره هنا من أنواع السحر: منها ما هو كفر، ومنها ما هو فسق حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية.

والأنواع: جمع نوع، والنوع أخص من الجنس؛ لأن الجنس اسم يدخل تحته أنواع، والنوع يدخل تحته أفراد، وقد يكون الجنس نوعًا باعتبار ما فوقه، والنوع جنسًا باعتبار ما تحته.

فالإنسان نوع باعتبار الحيوان، والحيوان باعتبار الإنسان جنس؛ لأنه يدخل فيه الإنسان والإبل والبقر والغنم، والحيوان باعتبار الجسم نوع؛ لأن الجسم يشمل الحيوان والجماد.

و«**أنواع**» هنا باعتبار الجنس العام. وسبق أن السحر في اللغة: كل ما كان خَفِيَّ السبب دقيقًا في إدراكه حتى عد الفخر الرازي من جملة أنواع السحر الساعات، وهي في القديم عبارة عن آلات مركبة؛ فكيف بالساعات الإلكترونية اليوم؟!

قوله: «العيافة»:

مصدر عاف يعيف عيافة، وهي: زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فعند العرب قواعد في هذا الأمر؛ لأن زجر الطير له أقسام: فتارة يزجرها للصيد، كما قال أهل العلم في باب الصيد: إن تعليم الطير بأن ينزجر إذا زجر، فهذا ليس من هذا الباب. وتارة يزجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فإذا زجر الطائر وذهب شمالًا تشاءم، وإذا ذهب يمينًا تفاءل، وإن ذهب أمامًا، فلا أدري أيتوقفون أم يعيدون الزجر؟ فهذا من الجبت.

قوله: «الطرق»:

فسره عوف: بأنه الخط يخط في الأرض، وكأنه من الطريق، من طرق الأرض يطرقها إذا سار عليها، وتخطيطها مثل المشي عليها يكون له أثر في الأرض كأثر السير عليها.

ومعنى الخط بالأرض معروف عندهم، يضربون به على الرمل على سبيل السحر والكهانة، ويفعله النساء غالبًا، ولا أدري كيف يتوصلون إلى مقصودهم وما يزعمونه من علم الغيب، وأنه

سيحصل كذا على ما هو معروف عندهم؟! وهذا نوع من السحر. أما خط الأرض ليكون سترة في الصلاة، أو لبيان حدودها ونحو ذلك، فليس داخلًا في الحديث.

فإن قيل: قد صح عن الرسول ﷺ أن نبيًا من الأنبياء يخط، وقال: «**من وافق خطه، فذاك**»[٧٠١].

قلنا: يجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يتحقق الوصول إليه؛ لأنه قال: «**فمن وافق خطه فذاك**»، وما يدرينا هل وافق خطه أم لا؟

الثاني: أنه إذا كان الخط بالوحي من الله تعالى كما في حال هذا النبي، فلا بأس به؛ لأن الله يجعل له علامة ينزل الوحي بها بخطوط يعلمه إياها. أما هذه الخطوط السحرية؛ فهي من الوحي الشيطاني، فإن قيل: طريقة الرسول ﷺ أنه يسد الأبواب جميعًا خاصة في موضوع الشرك، فلماذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟

فالجواب: كأن هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبيًّا من الأنبياء يخط، فلا بد أن يجيب عنه الرسول ﷺ.

❁ **قوله: «الطيرة»:**

أي: من الجبت، على وزن فعلة، وهي: اسم مصدر تطير، والمصدر منه تطير، وهي: التشاؤم بمرئي أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم مرئيًا كان أو مسموعًا، زمانًا كان أو مكانًا، وهذا أشمل، فيشمل ما لا يرى ولا يسمع، كالتطير بالزمان.

وأصل التطير: التشاؤم، لكن أضيفت إلى الطير؛ لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير، فعلقت به، وإلا، فإن تعريفها العام: التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبي ﷺ.

والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم؛ ضاقت عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتى إنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال: اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشتر -والعياذ بالله-، وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما في النكاح، وقد نقضت عائشة رضي الله عنها هذا التشاؤم، بأنه ﷺ عقد عليها في شوال، وبنى بها في شوال، فكانت تقول: «أيكن كان أحظى عنده

---

(٧٠١) سبق تخريجه.

مني؟»(٧٠٢) والجواب: لا أحد.

فالمهم أن التشاؤم ينبغي للإنسان أن لا يطرأ له علىٰ بال؛ لأنه ينكد عليه عيشه؛ فالواجب الاقتداء بالنبي ﷺ حيث كان يعجبه الفأل؛ فينبغي للإنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض الناس إذا حاول الأمر مرة بعد أخرىٰ تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتركه، وهذا خطأ؛ فكل شيء ترىٰ فيه المصلحة، فلا تتقاعس عنه في أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرىٰ حتىٰ يفتح الله عليك.

قوله: «من الجبت»:

سبق في الباب قبله عَنْ عمر رضي الله عنه أن الجبت: السحر وعلىٰ هذا تكون «من» للتبعيض علىٰ الصحيح وليست للبيان؛ فالمعنىٰ أن هذه الثلاثة العيافة والطرق و الطيرة من الجبت.

وأما قول الحسن: «الجبت: رنة الشيطان»، فقال صاحب «تيسير العزيز الحميد»: لم أجد فيه كلامًا.

والظاهر أن رنة الشيطان؛ أي: وحي الشيطان؛ فهذه من وحي الشيطان وإملائه، ولا شك أن الذي يتلقىٰ أمره من وحي الشيطان أنه أتىٰ نوعًا من الكفر، وقول الحسن جاء في «تفسير ابن كثير» باللفظ الذي ذكره المؤلف، وجاء في «المسند» (٥/ ٦٠) بلفظ: إنه الشيطان.

ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلىٰ أمر لا حقيقة له؛ فماذا يعني كون الطائر يذهب يمينًا أو شمالًا، أو أمامًا أو خلفًا؟ فهذا لا أصل له، وليس بسبب شرعي ولا حسي، فإذا اعتمد الإنسان علىٰ ذلك؛ فقد اعتمد علىٰ أمر خفي لا حقيقة له، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة. وكذلك الطرق من السحر؛ لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه. والطيرة كذلك؛ لأنها مثل العيافة تمامًا تستند إلىٰ أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنىٰ منه.

قوله: «إسناده جيد...»:

قال الشيخ: إسناده جيد، وعندي أنه أقل من الجيد في الواقع؛ إلا أن يكون هناك متابعات، وكان بعض العلماء يذهب إلىٰ أن الحديث إذا صح متنه، وكان موافقًا للأصول؛ فإنه يتساهل في سنده،

---

(٧٠٢) أخرجه مسلم، كتاب: النكاح، باب: استحباب التزوج والتزويج في شوال واستحباب الدخول فيه، برقم (١٤٢٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والعكس بالعكس، إذا كان مخالفًا للأصول؛ فإنه لا يبالي بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة؛ فهذا مشكل؛ لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخر حكمنا بأنه جيد؛ فالأولى أن يقال: إن السند فيه ضعف، ولكن المتن صحيح، فأنا أرى أن مثل هذا لا يحكم له بالجودة؛ إذ جيد أرقى من حسن، ثم الحكم بالحسن في مثل هذا السند في نفسي من شيء؛ لأنه ينبغي لنا أن نتحرى في الحديث عن الرسول ﷺ، إلا أن الذي يخفف الأمر هو صحة المتن، وأيهما أهم: السند أم المتن؟

الجواب: كلاهما مهمان، لكن المتن إذا كان صحيحًا تشهد له الأصول قد تستغني عنه بما تشهد به الأصول، أما السند؛ فلا بد منه، يقول ابن المبارك: لولا السند، لقال كل من شاء ما شاء.

قوله: «**من**»: شرطية، وفعل الشرط: «**اقتبس**»، وجوابه: «**فقد اقتبس**».

قوله: «**اقتبس**»؛ أي: تعلم؛ لأن التعلم وهو أخذ الطالب من العالم شيئًا من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

قوله: «**شعبة**»؛ أي: طائفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾[الحجرات:١٣]؛ أي: طوائف وقبائل.

قوله: «**من النجوم**»:

المراد: علم النجوم، وليس المراد النجوم أنفسها؛ لأن النجوم لا يمكن أن تُقتبس وتُتعلم، والمراد به هنا علم النجوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية؛ فيستدل مثلًا باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سيكون سعيدًا، وفي النجم الآخر على أنه سيكون شقيًّا؛ فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من عند الله، قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، لكن ليس للنجوم بها علاقة، ولهذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني في غزوة الحديبية؛ قال: صلى بنا رسول الله ذات ليلة على إثر سماء من الليل؛ فقال: «**قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال: مطِرنا بنوء كذا وكذا** -بنوء؛ يعني: بنجم، والباء للسببية؛ يعني: هذا المطر من النجم-، **فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب**».

فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا تأتي بالرياح أيضًا، ومنه نأخذ خطأ العوام الذين يقولون: إذا هبت الريح طلع النجم الفلاني؛ لأن النجوم لا تأثير لها بالرياح، صحيح أن بعض الأوقات والفصول يكون فيها ريح ومطر؛ فهي ظرف لهما، وليست سببًا للريح أو المطر.

وعلم النجوم ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: علم التأثير، وهو أن يستدل بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الأرضية؛ فهذا محرم باطل لقول النبي ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر**» وقوله في حديث زيد بن خالد: «**من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»، ولقول النبي ﷺ في الشمس والقمر: «**إنهما آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**»؛ [٧٠٣] فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به علىٰ الجهات والأوقات؛ فهذا جائز، وقد يكون واجبًا أحيانًا، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب علىٰ الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥]، فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلىٰ العلامات السماوية؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]؛ فالاستدلال بهذه النجوم علىٰ الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك علىٰ الأماكن؛ كالقبلة، والشمال، والجنوب.

❁ قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»:

المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف؛ لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له؛ ولا يقلب الأشياء، لكنه يموه، فهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

قوله: «**زاد ما زاد**»؛ أي: كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر. ووجه ذلك: أن الشيء إذا كان من الشيء؛ فإنه يزداد بزيادته.

---

(٧٠٣) أخرجه البخاري، كتاب: الكسوف، باب: الصلاة في كسوف الشمس، برقم (١٠٤٣)، ومسلم، كتاب: الكسوف، باب: ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة الجامعة، برقم (٩١٥)، وغيرهما من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف:

أن من أنواع السحر: تعلم النجوم؛ ليستدل بها على الحوادث الأرضية، وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند، لكن من حيث المعنى صحيح تشهد له النصوص الأخرى.

قوله: «من عقد عقدة»:

«من» شرطية، والعقد معروف.

قوله: «**ثم نفث فيها**»: النفث: النفخ بريق خفيف، والمراد هنا النفث من أجل السحر.

أما لو عقد عقدة، ثم نفث فيها من أجل أن تحتكم بالرطوبة؛ فليس بداخل في الحديث، والنفث من أجل السحر يفعلونه بعض الأحيان للصرف؛ فيصرفون به الرجل عن زوجته، ولاسيما عند عقد النكاح؛ فيبعد الرجل عن زوجته، فلا يقوى على جماعها، فمن عقد هذه العقدة؛ فقد وقع في السحر كما قال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾[الفلق:٤].

قوله: «ومن سحر فقد أشرك»:

«مَنْ» هذه شرطية، وفعل الشرط: «**سحر**»، وجوابه: «**فقد أشرك**».

قوله: «فقد أشرك»:

هذا لا يتناول جميع السحر، إنما المراد من سحر بالطرق الشيطانية.

أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها؛ فقد سبق أنه لا يكون مشركًا، لكن الذي يسحر بواسطة طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد؛ فهذا لا شك أنه مشرك.

قوله: «ومن تعلق شيئًا وكل إليه»:

«**تعلق شيئًا**»؛ أي: استمسك به، واعتمد عليه.

«**وكل إليه**»؛ أي: جعل هذا الشيء الذي تعلق به عمادًا له، ووكله الله إليه، وتخلى عنه.

ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها: أن النافخ في العقد يريد أن يتوصل بهذا الشيء إلى حاجته ومآربه، فيوكل إلى هذا الشيء المحرم، ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سحر عن طريق النفخ بالعقد ذهب إلى السحرة وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراء والأدوية المباحة والأدعية المشروعة. ومن توكل على الله كفاه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾[الطلاق:٣]، وإذا كان الله حسبك؛ فلا بد أن تصل إلى ما تريد.

لكن من تعلق شيئًا من المخلوقين وكل إليه، ومن وكل إلىٰ شيء من المخلوقين وكل إلىٰ ضعف وعجز وعورة، وقد يشمل الحديث من اعتمد علىٰ نفسه وصار معجبًا بما يقول ويفعل؛ فإنه يوكل إلىٰ نفسه، ويوكل إلىٰ ضعف وعجز وعورة، ولهذا ينبغي أن تكون دائمًا متعلقًا بالله في كل أفعالك وأحوالك حتىٰ في أهون الأمور.

ونقول للإنسان: اعتمد علىٰ نفسك بالنسبة للناس، فلا تسألهم ولا تستذل أمامهم، واستغن عنهم ما استطعت، أما بالنسبة لله؛ فلا تستغن عنه، بل كن دائمًا معتمدًا علىٰ ربك حتىٰ تتيسر لك الأمور، ومن هذا النوع من يتعلقون ببعض الأحراز يعلقونها؛ فإنهم يوكلون إلىٰ هذا، ولا يحصل لهم مقصودهم، لكنهم لو اعتمدوا علىٰ الله، وسلكوا السبل الشرعية؛ حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النوع أيضًا من تعلق شيئًا من القبور، وجعلها مَلْجَأَه ومُغِيثه عند طلب الأمور؛ فإنه يوكل إليه، والإنسان قد يفتن ويحصل له المطلوب بدعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذي حصل حصل عند دعائهم لا بدعائهم، والآية صريحة في ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ... ﴾[الأحقاف:٥]، لكن الله تعالىٰ قد يفتن من شاء من عباده.

مناسبة الحديث:

أن هؤلاء الذين يتعلقون بالسحر، ويجعلونه صناعة يصلون بها إلىٰ مآربهم يوكلون إلىٰ ذلك، وآخر أمرهم الخسارة والندم.

قوله: «ألا»:

أداة استفتاح، والغرض تنبيه المخاطب والاعتناء بما يلقىٰ إليه لأهميته.

قوله: «**هل أنبئكم ما العضه**»: الاستفهام للتشويق؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الصف:١٠]؛ لأن الإنسان مشتاق إلىٰ العلوم يحب أن يعلم، وقد يكون المراد به التنبيه؛ لأن الموجه إليه الخطاب ينبغي أن ينتبه ليعلم، وهي تصلح للجميع.

ومعنىٰ أنبئكم: أخبركم، وهي مرادفة للخبر في اصطلاح المحدثين، وقال بعض العلماء من ناحية اللغة لا الاصطلاح: إن الإنباء لغة يكون في الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون في الهامة وغير الهامة.

قوله: «العضه» علىٰ وزن الحبل والصمت والوعد، بمعنىٰ: القطع، وأما رواية العضة علىٰ وزن عدة؛ فإنه بمعنىٰ التفريق، وأيًّا كان؛ فإنها تتضمن قطعًا وتفريقًا.

قوله: «هي النميمة»:

فعيلة بمعنىٰ: مفعولة، وهي من نم الحديث إلىٰ غيره؛ أي: نقله، والنميمة فسرها بقوله: «**القالة بين الناس**»؛ أي: نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلىٰ هذا، فيأتي لفلان ويقول: فلان يسبك؛ فهو نم إليه الحديث ونقله، وسواء كان صادقًا أو كاذبًا، فإن كان كاذبًا فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقًا؛ فهو نميمة.

والنميمة كما أخبر الرسول ﷺ تقطع الصلة، وتفرق بين الناس فتجد هذين الرجلين صديقين؛ فيأتي هذا النمام، فيقول لأحدهما: صاحبك يسبك، فتنقلب هذه المودة إلىٰ عداوة، فيحصل التفرق، وهذا يشبه السحر بالتفريق، لأن السحر فيه تفريق، قال تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢].

والنميمة من كبائر الذنوب، وهي سبب لعذاب القبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة، قال ﷺ «**لا يدخل الجنة قتات**»[٧٠٤]؛ أي: نمام، وفي حديث ابن عباس المتفق عليه: أنه ﷺ «**مر بقبرين يعذبان، أحدهما كان يمشي بالنميمة**»[٧٠٥].

والنميمة كما هي من كبائر الذنوب؛ فهي في الحقيقة خلق ذميم، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع النمام مهما كانت حاله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١٠، ١١]، واعلم أن من نمَّ إليك نم فيك أو منك؛ فاحذره.

وهي أيضًا من أسباب فساد المجتمع؛ لأن هذا النمام إذا أراد أن يعتدي علىٰ كل صديقين متحابين، ويفرق بينهما بنميمته فسد المجتمع؛ لأن المجتمع مكون من أفراد، فإذا تفرقت صار كما

---

(٧٠٤) سبق تخريجه.

(٧٠٥) أخرجه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: ما جاء في غسل البول، برقم (٢١٨)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: الدليل علىٰ نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، برقم (٢٩٢)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال:٤٦]، وإذا لم يكن المجتمع كإنسان واحد، فإنه لا يمكن أن يكون مجتمعًا، فهو أفراد متناثرة، والأفراد المتناثرة ليس لها قوة، ولهذا قال الشاعر:

لا تخاصم بواحدٍ أهل بيت فضعيفان يغلبان قويًّا

وقال الآخر:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا فإذا افترقن تكسرت أفرادًا

ونحن لو تأملنا النصوص الشرعية، لوجدناها تحرم كل ما يكون سببًا للتفرق والقطيعة، قال ﷺ: «**ولا يبيع بعضكم على بيع أخيه**»(٧٠٦) وقال: «**لا يخطب الرجل على خطبة أخيه**»(٧٠٧) وكل هذا لدفع ما يوجب العداوة والبغضاء بين الناس.

قوله: «إن من البيان»:

«**إن**»: حرف توكيد، ينصب الاسم ويرفع الخبر، و«**من**»: يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ فعلى الأول يكون المعنى: إن بعض البيان سحر وبعضه ليس بسحر، وعلى الثاني يكون المعنى: إن جنس البيان كله سحر.

قوله: «لسحرًا»:

اللام للتوكيد، و«**سحرًا**»: اسم إن.

و«**البيان**»: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله على الإنسان، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمن:٣،٤].

والبيان نوعان:

الأول: بيان لابد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس، فكل إنسان إذا جاع قال: إني جعت، وإذا عطش قال: إني عطشت، وهكذا.

---

(٧٠٦) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: لا يبيع على بيع أخيه ولا يسوم على سوم أخيه حتى يأذن له أو يترك، برقم (٢١٤٠)، ومسلم، كتاب: البيوع، باب: تحريم بيع حبل الحبلة، برقم (١٥١٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧٠٧) السابق.

الثاني: بيان بمعنىٰ الفصاحة التامة التي تَسْبِي العقول وتغير الأفكار، وهي التي قال فيها الرسول ﷺ: «إن من البيان لسحرًا».

وعلىٰ هذا التقسيم تكون «من» للتبعيض؛ أي: بعض البيان ـ وهو البيان الكامل الذي هو الفصاحة ـ سحر. أما إذا جعلنا البيان بمعنىٰ الفصاحة فقط، صارت «من» لبيان الجنس.

ووجه كون البيان سحرًا: أنه يأخذ بلب السامع؛ فيصرفه أو يعطفه؛ فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تأثير المتكلم؛ فينصرف إليه، ولهذا إذا أتىٰ إنسان يتكلم بكلام معناه باطل، لكن لقوة فصاحته وبيانه يسحر السامع حقًّا؛ فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسان بليغ يحذِّر من حق، ولفصاحته وبيانه يظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من جنس السحر الذي يسمونه العطف والصرف، والبيان يحصل به عطف وصرف؛ فالبيان في الحقيقة؛ بمعنىٰ: الفصاحة، ولا شك أنها تفعل فعل السحر، وابن القيم يقول عن الحور: حديثها السحر الحلال.

وقوله: «إن من البيان لسحرًا»، هل هذا علىٰ سبيل الذم، أو علىٰ سبيل المدح، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلىٰ أثره؟

الجواب: الأخير هو المراد؛ فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلىٰ أثره. والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبات الباطل؛ فهو مذموم؛ لأنه استعمال لنعمة الله في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل؛ فهو ممدوح، وإذا كان البيان يستعمل في طاعة الله وفي الدعوة إلىٰ الله؛ فهو خير من العي، لكن إذا ابتلي الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين الله؛ فهذا لا خير فيه، والعي خير منه، والبيان من حيث هو لا شك أنه نعمة، ولهذا امتن الله به علىٰ الإنسان؛ فقال تعالىٰ: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤].

وجه مناسبة الحديث للباب:

المؤلف كان حكيمًا في تعبيره بالترجمة، حيث قال: باب بيان شيء من أنواع السحر، ولم يحكم عليها بشيء؛ لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو من كبائر الذنوب، ومنها دون ذلك، ومنها ما هو جائز علىٰ حسب ما يقصد به وعلىٰ حسب تأثيره وآثاره.

❁ **قوله: «فيه مسائل»:**

المسألة الأولىٰ: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت: وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبت.

الثانية: **تفسير العيافة والطرق**. وقد بينت في الباب أيضًا وشرحت.

الثالثة: **أن علم النجوم نوع من السحر**: لقوله: «**من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر**»، وسبق الكلام عليها أيضًا.

الرابعة: **العقد مع النفث من ذلك**: لحديث أبي هريرة: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها، فقد سحر**»، وقد تقدم الكلام علىٰ ذلك.

الخامسة: **أن النميمة من ذلك**: لحديث ابن مسعود: «**ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة**»، وهي من السحر؛ لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك.

السادسة: **أن من ذلك بعض الفصاحة**؛ أي: من السحر بعض الفصاحة؛ لقول النبيﷺ: «**إن من البيان لسحرًا**»، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: بعض الفصاحة استدلالًا بقولهﷺ: «**إن من البيان**»؛ لأن «من» هنا عند المؤلف للتبعيض، ووجه كون ذلك من السحر أن لسان البليغ ذي البيان قد يصرف الهمم وقد يلهب الهمم بما عنده من الفصاحة.

قال العلامة ابن فوزان:

❁ **قوله**: «**بيان شيء من أنواع السحر**»:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنَّ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر في الباب الذي قبل هذا السحر، ذكر في هذا الباب شيئًا من أنواعه؛ لكثرة وقوعها، وخفائها علىٰ الناس، حتَّىٰ ظنوها من كرامات الأولياء، وآل بهم الأمر إلىٰ أن عبدوا أصحابها فوقعوا في الشرك العظيم.

«**التراجم**»:

١- أحمد هو: الإمام أحمد بن حنبل.

٢- محمد بن جعفر هو: المشهور بغندر الهذلي بالصري ثقة مشهور.

٣- عوف هو: ابن أبي جميلة المروف بعوف الأعرابي ثقة.

٤- عن أبيه هو: قبيصة بن المخارق الهلالي صحابي مشهور.

٥- الحسن هو: الحسن البصري.

«**زجر الطير**»: التفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرِّها.

«**من الجبت**»؛ أي: من أعمال السحر.

«**يخط بالأرض**»: يخطه الرمالون ويدعون به علم الغيب.

«**الجبت رنة الشيطان**»: هذا تفسير للجبت ببعض أفراده: والرنة. الصوت، ويدخل فيه كل أصوات الملاهي وأضافه إلى الشيطان؛ لأنه يدعو إليه.

«**ولأبي داود... إلخ**»؛ أي: أنَّ هؤلاء رووا الحديث واقتصروا على المرفوع منه ولم يذكروا تفسير عوف.

مناسبة الحديث للباب:

بيان أنَّ العيافة والطرق والطيرة من الجبت الذي هو السحر المنافي للتوحيد.

ما يستفاد من الحديث:

١- تحريم ادعاء علم الغيب؛ لأنه ينافي التوحيد.

٢- تحريم الطيرة؛ لأنَّها تنافي التوحيد أو كماله.

٣- تحريم الملاهي بأنواعها؛ لأنها تنافي طاعة الله وكمال توحيده.

٤- أنَّ الملاهي بأنواعها - من الأغاني والمزامير وسائر آلات اللهو - من رنة الشيطان الذي شأنه كله الصد عن سبيل الله.

❁ **قوله**: «**من اقتبس**»:

من تعلم.

«**شعبة**»: طائفة وقطعة.

«**شعبة من السحر**»: المعلوم تحريمه.

«**زاد ما زاد**»؛ بمعنى: كلما زاد من علم النجوم زاد له من الإثم مثل إثم الساحر أو زاد من اقتباس شعب السحر مثل ما زاد من اقتباس علم النجوم.

المعنى الإجمالي للحديث:

يخبر ﷺ في هذا الحديث خبرًا؛ معناه: النهي والتحذير أنَّ من تعلَّم شيئًا من التنجيم فقد تعلَّم شيئًا من السحر المحرم، وكلَّما زاد تعلُّمه التنجيم زاد تعلمه السحر؛ وذلك لأنَّ التنجيم تحكم على الغيب، بحيث أنّ المنجم يحاول اكتشاف الحوادث المستقبلة التي هي من علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ النبيﷺ أخبر فيه أنَّ التنجيم نوع من أنواع السحر.

ما يستفاد من الحديث:

١ - تحريم التنجيم الذي هو الإخبار عن المستقبل اعتمادًا علىٰ أحوال النجوم؛ لأنه من ادعاء علم الغيب.

٢ - أنَّ التنجيم من أنواع السحر المنافي للتوحيد.

٣ - أنَّه كلَّما زاد تعلُّمه للتنجيم زاد تعلُّمه للسحر.

✿ **قوله: «من عقد عقدة»:**

علىٰ شكل ما يفعله السحرة من عقد الخيوط ونحوها.

«**ونفث فيها**»: النفث هو: النفخ مع ريق وهو دون التفل.

«**فقد سحر**»؛ أي: فعل السحر المحرم.

«**ومن سحر فقد أشرك**»؛ لأنَّ السحر لا يتأتَّىٰ بدون الشرك؛ لأنه استعانة بالشياطين.

«**ومن تعلق شيئًا وكل إليه**»؛ أي: من تعلَّق قلبه بشيء واعتمد عليه وكله الله إلىٰ ذلك الشيء وخذله.

معنىٰ الحديث إجمالًا:

يبين ﷺ نوعًا من أنواع السحر وحكمه، محذرًا أمته من تعاطيه، فيقول: إنَّ من أنواع السحر أن يعقد العقد في الخيوط ونحوها، وينفخ في تلك العقد نفخًا مصحوبًا بالريق؛ وذلك أنَّ السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط، ونفثوا علىٰ كل عقدة حتَّىٰ ينعقد ما يريدون من السحر، فتتكيف نفسه الخبيثة بالشرِّ، ويستعين بالشياطين، وينفخ في تلك العقد، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس مقترن بالريق الممازج للشر، ويستعين بالشياطين فيصيب المسحور بإذن الله الكوني القدري.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه بيان نوع من أنواع السحر، وهو سحرُ العقد المسمىٰ بالعزيمة.

ما يستفاد من الحديث:

١ - بيان نوع من أنواع السحر وهو ما كان بواسطة العقد والنفث.

٢ - أنَّ السحر شرك؛ لأنه استعانة بالشياطين.

٣ - أنَّ من اعتمد علىٰ غير الله خذله الله وأذلَّه.

✿ **قوله: «ألا»:**

أداة تنبيه.

«أنبئكم»: أخبركم.

«العَضْه»: بفتح «العين» وسكون «الضاد» مصدر عَضَهَ يَعْضَه عَضْهًا؛ بمعنىٰ: كذب وسحر ونمَّ والمراد به هنا: السحر.

«النميمة»: نقل الحديث علىٰ وجه الإفساد.

«القالة»: كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكىٰ للبعض عن البعض.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

أراد ﷺ أن يحذر أمته عن السعاية بين الناس بنقل حديث بعضهم في بعض علىٰ وجه الإفساد، فافتتح حديثة بصيغة الاستفهام، ليكون أوقع في النفوس وأدعىٰ للانتباه، فسألهم ما العضه أي ما السحر ثم أجاب عن هذا السؤال بأن العضه هو نقل الحديث بين الناس علىٰ وجه الإفساد وكثرة القول وإيقاع الخصومة بينهم؛ لأنَّ ذلك يفعل ما يفعله السحر من الفساد وتفريق القلوب.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ النبي ﷺ بيَّن فيه أنَّ النميمة نوع من أنواع السحر.

ما يستفاد من الحديث:

١ - أنَّ النميمة نوع من أنواع السحر؛ لأنها تفعل ما يفعله السحر من التفريق بين القلوب والإفساد بين الناس، لا أنَّ النمام يأخذ حكم الساحر من حيث الكفر وغيره.

٢ - تحريم النميمة، وأنَّها من الكبائر.

٣ - التعليم علىٰ طريقة السؤال والجواب؛ لأن ذلك أثبت في الذهن وأدعىٰ للانتباه.

❁ **قوله: «البيان»:**

البلاغة والفصاحة.

«لسحرًا»؛ أي: يعمل عمل السحر؛ فيجعل الحق في قالب الباطل والباطل في قالب الحق، فيستميل قلوب الجهال.

المعنىٰ الإجمالي للحديث:

يبين ﷺ نوعًا آخر من أنواع السحر وهو: البيان المتمثل في الفصاحة والبلاغة؛ لما يحدثه هذا النوع من أثر في القلوب والأسماع؛ حتَّىٰ ربما يصور الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق؛ كما

يفعل السحر. والمراد: ذم هذا النوع من البيان الذي يلبس الحق بالباطل ويموّه على السامع.

مناسبة الحديث للباب:

أنَّ فيه بيان نوع من أنواع السحر وهو بعض البيان.

ما يستفاد من الحديث:

بيان نوع من أنواع السحر وهو البيان الذي فيه تمويه وتلبيس.

ذمُّ هذا النوع من البيان -وأمَّا البيان الذي يوضح الحق ويقرره ويبطل الباطل ويدحضه فهو ممدوح.

قال العلامة صالح آل الشيخ:

❁ **قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر»:**

هذا «**باب بيان شيء من أنواع السحر**» لما ذكر الإمام -رحمه الله تعالى- ما جاء في السحر، وما اتصل بذلك من حكمه وتفصيل الكلام فيه، ذكر أن السحر قد يأتي في النصوص، ولا يراد منه السحر الذي يكون بالشرك بالله -جل وعلا- فإن اسم السحر عام في اللغة، يدخل فيه ذلك الاسم الخاص الذي فيه استعانة بالشياطين والتقرب إليها وعبادتها لتخدم الساحر، ويدخل فيها أمور أخرى يطلق عليها الشارع أنها سحر، وليست كالسحر الأول في الحقيقة ولا في الحكم، وهو درجات.

فمما يسمى سحرًا: البيان، كما جاء في آخر الباب «**إن من البيان لسحرًا**» والبيان ليس سحرًا فيه استعانة بالشياطين، ولكنه داخل في حقيقة السحر اللغوية؛ لأن له تأثيرًا خفيًّا في القلوب، فإن الرجل البليغ ذا البيان، وذا الإيضاح وذا اللسان الفصيح يؤثر في القلوب حتى يسبيها، وربما قلب الحق باطلًا والباطل حقًّا ببيانه، فسمّي سحرًا لخفاء وصوله إلى القلوب وقلب الرأي وفهم المخاطب من شيء إلى آخر.

وكذلك ما ذكر من أن الطيرة من السحر، فالطيرة نوع اعتقاد، وكذلك العيافة وهي شبيهة بها أو بعض أنواعها، كذلك الخط في الرمل، ونحو ذلك من الأشياء التي ربما أطلق عليها أنها سحر، وهي ليست كالسحر الأول في الحد والحقيقة ولا في الحكم.

ولهذا عقد الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب لبيان شيء من أنواع السحر؛ لأن من أنواع السحر ما هو شرك أكبر بالله -جل وعلا- وهو المراد إذا أطلق السحر، وهذه هي الحقيقة العرفية، ومنه ما ليس شركًا أكبر.

وفي ألفاظ الشرع أمور يكون المرجع فيها إلىٰ الحقيقة اللُّغوية وأمور يكون المرجع فيها إلىٰ الحقيقة العرفية، وأمور يكون المرجع فيها إلىٰ الحقيقة الشرعية. ومن ذلك هذا الباب، فإن فيه ما يطلق عليه -لغة- أنه سحر، وفيه ما يطلق عليه -عرفًا- أنه سحر، وما يطلق عليه -شرعًا- أنه سحر.

والتفريق بين هذه الأنواع مهم؛ ولهذا ذكر الإمام هذا الباب حتىٰ تفرق بين نوع وآخر، فالحد الذي فيه «**حد الساحر ضربه بالسيف**» لا ينطبق علىٰ كل هذه الأنواع التي ستذكر؛ لأنها سحر لغة وليست بسحر شرعًا.

۞ قوله: «أنه سمع النبي ﷺ قال: إن العافية والطرق والطيرة من الجبت»:

العيافة: مأخوذ من عِيَاف الشيء، وهو تركه، عاف الشيء يعافه، إذا تركه، فلم تبغِه نفسه، وهي كما فسرها عوف: زجر الطير -وهذا أحد تفسيرات **العيافة**- وزجر الطير: أن يحرّك طيرًا حتىٰ ينظر إلىٰ أين تتحرك، ثم يفهم من ذلك الزجر أن هذا الأمر الذي سيُقدم عليه أمر محمود أو أمر مذموم، أو يطلّع بحقيقة زجر الطير علىٰ مستقبل الحال، فهذا نوع من الجبت، وهو السحر؛ لأن من معاني (الجبت) -كما تقدم- الشيء المرذول المطّرح الذي يصرف الواحد عن الحق.

والسحر: شيء خفي يؤثر في النفوس، والعيافة من التأثر بالطير وبزجرها وبانتقالها من هنا إلىٰ هنا أو بحركتها شيء خفي دخل في النفس فأثر فيها من جهة الإقدام أو الكف، فكانت نوعًا من السحر لأجل ذلك، وهي -أيضًا- جبت؛ لأنها شيء مرذول أدىٰ إلىٰ الإقبال أو الامتناع. والطيرة أعم من العيافة؛ لأن العيافة -علىٰ تفسير عوف وهو أحد تفسيراتها- متعلقة بالطير وحده، وأما الطيرة فهي: اسم عام لما فيه تشاؤم أو تفاؤل بشيء من الأشياء، وسيأتي باب مستقل لذكر أحكام الطيرة، وصورتها، وما بقي منها إن شاء الله تعالىٰ.

وحقيقة **الطيرة**: أنه يرىٰ شيئًا من الطير، تحرك يمينًا أو يسارًا، فإن رآه تحرك يمينًا تفاءل به، واعتقد أنه سينجح في هذا العمل أو في هذا السفر، وإن رآه تحرك شمالًا قال: هذا معناه أني سأتضرر في هذا السفر، أو سيصيبني مكروه فرجع. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**».(٧٠٨)

---

(٧٠٨) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وابن أبي شيبة، برقم (٢٦٤١١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»،

وقد يتشاءم بحركة شيء، أو بكلمة يسمعها، أو بشيء في الجو، أو بتصادم سيارة أمامه، أو بسواد في الجو حصل في ذلك اليوم الذي سينتقل فيه، أو يتشاءم بشيء حصل له في أول زواجه، ونحو ذلك من أنواع التشاؤم، كالتشاؤم بالأشهر، أو بالأيام، هذا كله من أنواع الطيرة.

ولا يكون طيرة إلا إذا رده عن حاجته، أو جعله يقبل إلىٰ حاجته، فإذا تشاءم، وحمله ذلك التشاؤم علىٰ أن يُقدم أو يُحجم فإنه يكون متطيرًا.

وكذلك في باب التفاؤل إذا رأىٰ شيئًا، فجعله ذلك الشيء يُقدم، ولولا ذلك الشيء الذي رآه ما أقدم، فإن ذلك أيضًا من الطيرة وهي نوع من أنواع التأثيرات الخفية في القلوب، وذلك ضرب من السحر.

أما الطرق: فهو مأخوذ من وضع طرق في الأرض، وهي الخطوط، فيأتي بخطوط متنوعة يخطها في الأرض، ليس لها عدد، ثم يبدأ الكاهن الذي يستخدم الخطوط فيمسح خطًّا خطًّا أو يمسح خطين خطين بسرعة، ثم ينظر ما بقي، فيقول: هذا الذي بقي يدل علىٰ كذا وكذا، وأنك ستغتني، أو يدل علىٰ أنه سيصيبك كذا وكذا، ونحو ذلك، وهو نوع من أنواع الكهانة، والكهانة ضرب من السحر.

❁ **قوله: «والطرق: الخط يخط بالأرض، والجبت: قال الحسن: رنّة الشيطان»:**

وهو من أنواع السحر؛ لأن الشيطان يدعو إلىٰ ذلك بصوته وبعويله.

❁ **قوله: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من اقتبس شعبة من النجوم ...»:**

في هذا الحديث بيان أن تعلم النجوم تعلمٌ للسحر، ويأتي في باب خاص «**باب ما جاء في التنجيم**» أنواع تعلم النجوم وما جعل الله -جل وعلا- النجوم له.

قوله: «**من اقتبس شعبة**» يعني: من تعلم بعضًا من علم النجوم؛ لأن الشعبة هي الطائفة من الشيء، أو جزء من أجزائه، فكل جزء من أجزاء علم النجوم الذي هو علم التأثير نوع من أنواع السحر، قال: «**فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**» يعني كلما زاد في تعلم علم النجوم زاد في

=

برقم (١٠٦٥).

تعلم السحر، حتىٰ يصل إلىٰ آخر حقيقة علم التأثير كما يسمونه، فيصبح سحرًا وكهانة علىٰ الحقيقة، ويأتي أن التنجيم منه علم التأثير وهو جعل الكواكب والنجوم في حركتها والتقائها وافتراقها وطلوعها وغروبها مؤثرة في الحوادث الأرضية، أو دالة علىٰ ما سيحدث في الأرض، فيجعلونها دالة علىٰ علم الغيب، ومنبئة علىٰ المغيبات، وهذا القدر من السحر؛ لأنه يشترك معه في حقيقته وهو أنه تأثير بأمر خفي.

❁ **قوله: «وللنسائي من حديث أبي هريرة: من عقد عقدة، ثم نفث فيها فقد سحر...»:**

قوله: «من عقد عقدة، ثم نفث فيها فقد سحر» يعني: أن عقد العقد والنفث فيها من أنواع السحر. والنفث المقصود هنا: النفث الذي فيه استعاذة واستعانة بالشياطين، فليس كل نفث في عقدة يعقد السحر، بل لابُدَّ أن يكون النفث بأدعية معينة ورقىٰ شركية وتعويذات وكلام تحضر الجن عند تلاوته وتخدم هذه العقدة السحرية، وهو ما كان يتعاطاه الناس المردة في زمان النبي عليه الصلاة والسلام من النفث في العقد، كما قال جل وعلا: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ وهن السواحر.

قوله: «**فقد سحر**» أي يخدم هذا السحر بالنفث في العقدة، وفائدة العقدة عند السحرة أنه لا ينحل السحر ما دامت معقودة، فينعقد الأمر الذي أراده الساحر بشيئين: بالعقدة، وبالنفث بالعقدة، أي عقدة حبل أو خيط أو نحو ذلك، وبالنفث فيها بالأدعية الشركية والاستعانة بالشياطين، ومن الأمور المهمة التي ينبغي أن تُعلم في هذا الباب: أن العقد تارة تكون مرئية واضحة، وتارة تكون صغيرة جدًّا.

قوله: «**ومن سحر فقد أشرك**» هذا عام؛ لأنه جعل الإشراك جزاء السحر بأسلوب الشرط والجزاء، فكأنه قال: كل من سحر فقد أشرك، يعني: سحر بذلك النحو الذي ذُكر، وهو أن يعقد عقدة ثم ينفث فيها، و«**من سحر فقد أشرك**» وهذا دليل لما ذكرناه في الباب قبله، من أن كل سحر يعد من أنواع الشرك؛ لأنه لا يمكن أن يحدث السحر إلا بالنفث في العقد، أو باستحضار الجني، وبعبادة الجن، ونحو ذلك، وهذا شرك بالله.

قوله: «**ومن تعلق شيئًا وكل إليه**» تقدم نظير هذا، ومعنىٰ هذا الحديث: أن القلب إذا تعلق بشيء -بمعنىٰ أحبه- ورضيه وتعلق به، فإنه يوكل إليه، ويجعل هو السبب الذي من أجله يجيء نفعه أو يجيء ضره.

ومعلوم أن كل الأسباب الشركية تعود على فاعلها أو على الراضي بها بالضرر لا بالنفع، والعبد إذا تخلى عن الله -جل وعلا- ووكل إلى نفسه أو وكل إلى غير الله -جل وعلا- فقد خاب وخسر وضُر أعظم الضرر، فسعادة العبد وعِظم صلاح قلبه وعظم صلاح روحه، بأن يكون تعلقه بالله -جل وعلا- وحده.

قوله هنا: «**ومن تعلق شيئًا وكل إليه**»: **دليل على أن من تعلق بالله فإن الله كافيه**، ومن تعلق قلبه بالله إنزالًا لحوائجه بالله، ورغبًا فيما عند الله، ورهبًا مما يخافه ويؤذيه -يعني: يؤذي العبد- فإن الله -جل وعلا- كافيه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ**﴾[الطلاق: ٣]، وإذا تعلق العبد بغير الله فإنه يوكل إلى ذلك الغير، والعباد فقراء إلى الله، والله -جل وعلا- هو ولي النعمة وولي الفضل، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥]، فمن أنزل حاجته بالله أفلح، ومن تعلق قلبه بالله أفلح، وأما من تعلق بالخرفات، أو تعلق بالأمور الشركية كالسحر، وكالذهاب إلى الأولياء، وطلب المدد منهم، أو طلب الإغاثة منهم، فإنه يوكل إلى المخلوق، ومن يوكل إلى المخلوق فإنه يضره ذلك أعظم الضرر، كما قال جل وعلا: ﴿**يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ**﴾[الحج: ١٣]

❁ **قوله: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة القالة بين الناس»**[٧٠٩] رواه مسلم.»:

قوله: «**العَضْه**» هكذا تروى في كتب الحديث (العضه) وفي كتب غريب الحديث واللغة تنطق هكذا (العِضَه) لأشباهها في وزنها، وهي كما فسرها النبي عليه الصلاة والسلام: «**النميمة القالة بين الناس**».

وأصل العضه في اللغة يطلق على أشياء، منها السحر، والنميمة والقالة بين الناس نوع من أنواع السحر، وهي كبيرة من الكبائر، ومحرم من المحرمات.

ووجه الشِّبه بين النميمة وبين السحر: أن تأثير السحر في التفريق بين المتحابِّين، أو في جمع المتفرقين، تأثيره في القلوب خفي، وهكذا عمل النمام، فإنه يفرق بين الأحباب لأجل كلام يسوقه إلى

---

(٧٠٩) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم النميمة، برقم (٢٦٠٦)، وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

هذا وكلام يسوقه إلىٰ ذاك، فيفرق بين القلوب، ويجعل العداوة والبغضاء بين قلب هذا وهذا، كما قال -جل وعلا- عن السحر: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة: ١٠٢]، والنميمة هي القالة بين الناس، وهي من أنواع السحر، وكبيرة من الكبائر، والكبائر من أعظم الذنوب العملية.

❁ **قوله: «ولهما: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إن من البيان لسحرًا»**(٧١٠):

المقصود بالبيان هنا: التبيين عما في النفس بالألفاظ الفصيحة البينة التي تأخذ المسامع والقلوب، فتسحر القلوب، فربما قلبت الحق باطلًا، والباطل حقًّا، حتىٰ يغدو قول ذلك الذي يعد من أهل البيان والفصاحة هو الحق، وأن ما لم يقله أو رده هو الباطل -في الظاهر، وفي ظن سامعيه- وهذا ضرب من السحر؛ لأنه تأثير في النفوس بالألفاظ، وقلب الحق باطلًا، والباطل حقًّا، فتأثيره خفي كتأثير السحر في الخفاء، ولهذا قال: «**إن من البيان لسحرًا**».

والصحيح من أقوال أهل العلم: أن هذا ذم للبيان وليس مدحًا له، قال: «**إن من البيان لسحرًا**» علىٰ جهة الذم، وبعض أهل العلم يقول: إن ذاك علىٰ جهة المدح؛ لأنه يصل في التأثير إلىٰ أن يؤثّر تأثيرًا بالغًا كتأثير السحر في النفوس، والتأثير البالغ إذا كان من جهة البيان فإنه جائز، وهذا من جهة المدح له، وبيان عِظم تأثيره.

وهذا فيه نظر؛ لأنه لما جعل البيان سحرًا علمنا أنه أراد ذمه، ولهذا أورده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب الذي اشتمل علىٰ أنواع من المحرمات.

فالذي يستغل ما آتاه الله -جل وعلا- من اللسان والبيان والفصاحة في قلب الباطل حقًّا، والحق باطلًا، هذا لا شك أنه من أهل الوعيد ومذموم علىٰ فعله؛ لأن البيان إنما يُقصد به نصرة الحق لا أن يجعل ما أبطله الله -جل وعلا- حقًّا في نفوس الناس وفي قلوبهم.



(٧١٠) سبق تخريجه.

شرح مسائل الباب

قال العلامة الدويش:

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت، أي: هذه من السحر كما تقدم عن عمر أنه قال الجبت: السحر.

الثانية: تفسير العيافة والطرق، أي: العيافة زجر الطير، والطرق الخط يخط بالأرض كما يفعله الكهان وغيرهم للاستدلال على المغيبات.

الثالثة: أن علم النجوم من نوع السحر، أي لقوله: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**».

الرابعة: العقد مع النفث من ذلك، أي: من السحر لقوله: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر**».

الخامسة: أن النميمة من ذلك، أي: من السحر لكون النمام يفرق بين الناس كالساحر الذي يفرق بينهم لا أنها مثله في الكفر والقتل.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة، أي لقوله: «**إن من البيان لسحرًا**»، أي: إذا كان الرجل فصيحًا فجعل الحق في قالب الباطل،والباطل في قالب الحق، وموّه على الناس حتى قبلوا كلامه بسبب فصاحته، صار ذلك نوعًا من السحر، أما إذا كان البيان في توضيح الحق ورد الباطل فهو ممدوح.



* الأسئلة *

س: ما صلة هذا الباب بالذي قبله؟

جـ: هي أنه لما ذكر المؤلف حكم السحر ذكر شيئًا من أنواعه.

قوله: «روى أحمد أن النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت»[711].

س: اشرح الكلمات المذكورة في الحديث؟

جـ: العيافة: زجر الطير وتنفيرها وإرسالها، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها.

والطرق: الخط يخط في الأرض، وقيل: هو الضرب بالحصى.

والطيرة: هي التشاؤم بمرئي أو مسموع.

والجبت: تقدم تعريفه وهو السحر، وقيل: رنة الشيطان؛ أي: صوته كما قال الحسن.

قوله: «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم...».

س: ما معنى: اقتبس، وما هي الشعبة، وما معنى قوله: زاد ما زاد؟

جـ: معنى اقتبس: أخذ وحصل وتعلم، شعبة من النجوم: طائفة وجزء من علم النجوم، ومعنى قوله: زاد ما زاد؛ أي: كل ما زاد من تعلم علم النجوم زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه.

س: ما حكم تعلم علم النجوم؟

جـ: هو على قسمين: جائز ومحرم، فالجائز: ما يدرك بطريق المشاهدة، كالاستدلال بالشمس والقمر والنجوم على أوقات الصلاة وجهة القبلة ونحو ذلك.

والمحرم: ما يدعيه أهل التنجيم من معرفة الحوادث التي لم تقع كمجيء الأمطار، ووقت هبوب الرياح، وتغير الأسعار وغير ذلك مما استأثر الله بعلمه ولا يعلمه أحد غيره.

---

(711) سبق تخريجه.

❁ **قوله: «وللنسائي من حديث أبي هريرة: من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ...»** [٧١٢].

س: ما المقصود بالعقدة وما هو النفث وما الذي يؤخذ من قوله: ومن سحر فقد أشرك، وما معنى قوله: من تعلق شيئًا وكل إليه؟

جـ: العقدة: جمعها عقد وهي ما يعقده الساحر، وبيان ذلك أن السحرة إذا أرادوا السحر عقدوا الخيوط ونفثوا فيها على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدون من السحر، والنفث: هو النفخ مع ريق وهو دون التفل.

ويؤخذ من قوله: «**ومن سحر فقد أشرك**» أن الساحر مشرك ومعنى قوله: «**من تعلق شيئًا وكل إليه**»؛ أي: من تعلق قلبه بشيء بحيث يعتمد عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشيء.

❁ **قوله: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ألا هل أنبئكم ما العضه ...»**.

س: ما معنى: ألا هل أنبئكم، وما المقصود بالعضه، وما النميمة، وبين حكمها وما وجه ذكرها في أنواع السحر، وما معنى: القالة بين الناس؟

جـ: «ألا» أداة تنبيه و«هل» أداة استفهام و«أنبئكم»: أخبركم، و«العضه» في الأصل: البهت والمراد بها هنا النميمة وهي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد بينهم وهي من الكبائر.

ووجه ذكرها في أنواع السحر: أن النمام يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة فأشبهت السحر لمشاركتها له في التفريق بين الناس. و«القالة بين الناس» هي كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكي لبعضهم عن بعض.

❁ **قوله: «عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن من البيان لسحرًا** [٧١٣] **.متفق عليه»**.

س: ما هو البيان واذكر أنواعه، ولماذا شبه بالسحر؟

جـ: البيان اجتماع الفصاحة وذكاء القلب مع اللسان وإنما شبه بالسحر لشدة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له.

---

(٧١٢) سبق تخريجه.

(٧١٣) سبق تخريجه.

والبيان علىٰ نوعين: مذموم، وممدوح. فالمذموم هو الذي يجعل الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق يستميل صاحبه قلوب الجهال حتىٰ يقبلوا الباطل وينكروا الحق وهذا هو المقصود في الحديث. والممدوح هو الذي يوضح الحق ويقرره ويبطل الباطل ويبينه.

س: اذكر ما يستفاد من هذا الباب؟

جـ: يستفاد منه:

١ - تحريم تعلم علم النجوم لمن يدعي به معرفة علم الغيب وأن ذلك من السحر.

٢ - أن الساحر مشرك؛ لأنه لا يأتي السحر إلا بالشرك.

٣ - أن عقد الخيوط والنفث فيها من السحر.

٤ - أن النميمة من السحر.

٥ - أن بعض الفصاحة من السحر، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.



تم الجزء الأول ولله الحمد

ويليه الجزء الثاني وأوله باب ما جاء في الكهان ونحوهم



الفهرس



فهرس الجزء الأول

مقدمة الناشر ٥
تراجم العلماء ٨
مقدمات أصحاب الفضيلة العلماء ١١
مقدمة العلامة ابن قاسم ١٣
مقدمة العلامة السعدي ١٤
مقدمة العلامة ابن عثيمين ١٨
مقدمة العلامة الفوزان ١٩
مقدمة العلامة صالح آل الشيخ ٢٠
مقدمة العلامة عبد الله الدويش ٢١
مقدمة العلامة ابن جار الله ٢٢
الدرس الأول:
كتاب التوحيد [باب حق الله على العباد وحق العباد على الله] ٢٧
شرح العلامة ابن قاسم: ٢٩
شرح العلامة ابن سعدي: ٤١
شرح العلامة ابن باز: ٤٣
شرح العلامة ابن عثيمين: ٤٥
شرح العلامة ابن فوزان: ٧٤
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٨٢
شرح مسائل الباب ٩٣
شرح العلامة الدويش: ٩٣
الأسئلة ٩٨
الدرس الثاني:
باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ١٠٢
شرح العلامة ابن قاسم: ١٠٤
شرح العلامة ابن سعدي: ١١٦
شرح العلامة ابن باز: ١١٧

شرح العلامة ابن عثيمين: ١٢١
شرح العلامة ابن فوزان: ١٤١
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ١٤٥
شرح مسائل الباب ١٥١
شرح العلامة الدويش: ١٥١
الأسئلة ١٥٤

الدرس الثالث:

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ١٥٩
شرح العلامة ابن قاسم: ١٦١
شرح العلامة ابن سعدي: ١٧٠
شرح العلامة ابن باز: ١٧١
شرح العلامة ابن عثيمين: ١٧٦
شرح العلامة ابن فوزان: ١٩٠
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ١٩٥
شرح مسائل الباب ٢٠٢
شرح العلامة الدويش: ٢٠٢
الأسئلة ٢٠٥

الدرس الرابع:

باب الخوف من الشرك ٢٠٨
شرح العلامة ابن قاسم: ٢٠٩
شرح العلامة ابن سعدي: ٢١٤
شرح العلامة ابن باز: ٢١٤
شرح العلامة ابن عثيمين: ٢١٦
شرح العلامة ابن فوزان: ٢٢٦
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٢٣٠
شرح مسائل الباب ٢٤٢
شرح العلامة الدويش: ٢٤٢
الأسئلة ٢٤٣

الدرس الخامس:

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ٢٤٦
شرح العلامة ابن قاسم: ٢٤٨
شرح العلامة ابن سعدي: ٢٥٧
شرح العلامة ابن باز: ٢٥٨
شرح العلامة ابن عثيمين: ٢٦٠
شرح العلامة ابن فوزان: ٢٧٠
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٢٧٥
شرح مسائل الباب ٢٨٢
شرح العلامة الدويش: ٢٨٢
الأسئلة ٢٨٥

الدرس السادس:

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ٢٨٨
شرح العلامة ابن قاسم: ٢٨٩
شرح العلامة ابن سعدي: ٢٩٥
شرح العلامة ابن باز: ٢٩٧
شرح العلامة ابن عثيمين: ٢٩٩
شرح العلامة ابن فوزان: ٣٠٩
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٣١٤
شرح مسائل الباب ٣٢٤
شرح العلامة الدويش: ٣٢٤
الأسئلة ٣٢٦

الدرس السابع:

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ٣٢٩
شرح العلامة ابن قاسم: ٣٣٠
شرح العلامة ابن سعدي: ٣٣٦
شرح العلامة ابن عثيمين: ٣٣٧
شرح العلامة ابن فوزان: ٣٤٥
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٣٤٩

شرح مسائل الباب ٣٦٠
شرح العلامة الدويش: ٣٦٠
الأسئلة ٣٦٢

الدرس الثامن:

باب ما جاء في الرقى والتمائم ٣٦٥
شرح العلامة ابن قاسم: ٣٦٦
شرح العلامة ابن سعدي: ٣٧٣
شرح العلامة ابن باز: ٣٧٤
شرح العلامة ابن عثيمين: ٣٧٨
شرح العلامة ابن فوزان: ٣٨٧
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٣٩١
شرح مسائل الباب ٤٠١
شرح العلامة الدويش: ٤٠١
الأسئلة ٤٠٣

الدرس التاسع:

باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما ٤٠٦
شرح العلامة ابن قاسم: ٤٠٨
شرح العلامة ابن سعدي: ٤١٢
شرح العلامة ابن باز: ٤١٣
شرح العلامة ابن عثيمين: ٤١٤
شرح العلامة ابن فوزان: ٤٢٧
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٤٣٠
شرح مسائل الباب ٤٣٩
شرح العلامة الدويش: ٤٣٩
الأسئلة ٤٤٢

الدرس العاشر:

باب ما جاء في الذبح لغير الله ٤٤٥
شرح العلامة ابن قاسم: ٤٤٦
شرح العلامة ابن سعدي: ٤٥٢

شرح العلامة ابن باز: ٤٥٣
شرح العلامة ابن عثيمين: ٤٥٥
شرح العلامة ابن فوزان: ٤٦٦
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٤٧٠
شرح مسائل الباب ٤٧٨
شرح العلامة الدويش: ٤٧٨
الأسئلة ٤٨٠

الدرس الحادي عشر:

باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله ٤٨٣
شرح العلامة ابن قاسم: ٤٨٤
شرح العلامة ابن سعدي: ٤٨٧
شرح العلامة ابن باز: ٤٨٨
شرح العلامة ابن عثيمين: ٤٨٩
شرح العلامة ابن فوزان: ٤٩٧
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٤٩٩
شرح مسائل الباب ٥٠٣
شرح العلامة الدويش: ٥٠٣
الأسئلة ٥٠٥

الدرس الثاني عشر:

باب من الشرك النذر لغير الله ٥٠٧
شرح العلامة ابن قاسم: ٥٠٧
شرح العلامة ابن باز: ٥٠٩
شرح العلامة ابن عثيمين: ٥١٠
شرح العلامة ابن فوزان: ٥١٣
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٥١٥
شرح مسائل الباب ٥٢١
شرح العلامة الدويش: ٥٢١
الأسئلة ٥٢٢

الدرس الثالث عشر:

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله ٥٢٤
شرح العلامة ابن قاسم: ٥٢٤
شرح العلامة ابن باز: ٥٢٦
شرح العلامة ابن عثيمين: ٥٢٨
شرح العلامة ابن فوزان: ٥٣٣
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٥٣٥
شرح مسائل الباب ٥٤١
شرح العلامة الدويش: ٥٤١
الأسئلة ٥٤٢

الدرس الرابع عشر:

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره ٥٤٤
شرح العلامة ابن قاسم: ٥٤٥
شرح العلامة ابن سعدي: ٥٤٩
شرح العلامة ابن باز: ٥٤٩
شرح العلامة ابن عثيمين: ٥٥١
شرح العلامة ابن فوزان: ٥٦٥
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٥٧٠
شرح مسائل الباب ٥٧٩
شرح العلامة الدويش: ٥٧٩
الأسئلة ٥٨١

الدرس الخامس عشر:

باب قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ الآية ٥٨٥
شرح العلامة ابن قاسم: ٥٨٧
شرح العلامة ابن سعدي: ٥٩٣
شرح العلامة ابن باز: ٥٩٤
شرح العلامة ابن عثيمين: ٥٩٥
شرح العلامة ابن فوزان: ٦٠٩

شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٦١٤
شرح مسائل الباب........ ٦٢٢
شرح العلامة الدويش: ٦٢٢
الأسئلة........ ٦٢٤

الدرس السادس عشر:

باب قول الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ...﴾ الآية ٦٢٧
شرح العلامة ابن قاسم: ٦٢٩
شرح العلامة ابن سعدي: ٦٣٤
شرح العلامة ابن باز: ٦٣٤
شرح العلامة ابن عثيمين: ٦٣٥
شرح العلامة ابن فوزان: ٦٤٩
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٦٥٣
شرح مسائل الباب........ ٦٥٥
شرح العلامة الدويش: ٦٥٥
الأسئلة........ ٦٥٨

الدرس السابع عشر:

باب الشفاعة ٦٦١
شرح العلامة ابن قاسم: ٦٦٢
شرح العلامة ابن سعدي: ٦٦٩
شرح العلامة ابن باز: ٦٧٠
شرح العلامة ابن عثيمين: ٦٧٣
شرح العلامة ابن فوزان: ٦٨٥
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٦٩٠
شرح مسائل الباب........ ٧٠١
شرح العلامة الدويش: ٧٠١
الأسئلة........ ٧٠٢

الدرس الثامن عشر:

باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية... .... ٧٠٥
شرح العلامة ابن قاسم: ٧٠٦
شرح العلامة ابن سعدي: ٧٠٩

شرح العلامة ابن باز: ٧١٠
شرح العلامة ابن عثيمين: ٧١١
شرح العلامة ابن فوزان: ٧٢٠
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٧٢٢
شرح مسائل الباب ٧٢٧
شرح العلامة الدويش: ٧٢٧
الأسئلة ٧٢٩

الدرس التاسع عشر:

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين ٧٣١
شرح العلامة ابن قاسم: ٧٣٣
شرح العلامة ابن سعدي: ٧٣٨
شرح العلامة ابن باز: ٧٣٩
شرح العلامة ابن عثيمين: ٧٤١
شرح العلامة ابن فوزان: ٧٦٢
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٧٦٦
شرح مسائل الباب ٧٧٥
شرح العلامة الدويش: ٧٧٥
الأسئلة ٧٧٨

الدرس العشرون:

باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟! ٧٨١
شرح العلامة ابن قاسم: ٧٨٣
شرح العلامة ابن سعدي: ٧٩٢
شرح العلامة ابن باز: ٧٩٣
شرح العلامة ابن عثيمين: ٧٩٥
شرح العلامة ابن فوزان: ٨١٢
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٨١٦
شرح مسائل الباب ٨٢٨
شرح العلامة الدويش: ٨٢٨
الأسئلة ٨٣٠

الدرس الحادي والعشرون:

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يُصيرها أوثانا تعبد من دون الله ٨٣٢
شرح العلامة ابن قاسم: ٨٣٣
شرح العلامة ابن باز: ٨٣٧
شرح العلامة ابن عثيمين: ٨٣٨
شرح العلامة ابن فوزان: ٨٤٩
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٨٥٢
شرح مسائل الباب ٨٥٥
شرح العلامة الدويش: ٨٥٥
الأسئلة ٨٥٦

الدرس الثاني والعشرون:

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك ... ٨٥٨
شرح العلامة ابن قاسم: ٨٥٩
شرح العلامة ابن سعدي: ٨٦٣
شرح العلامة ابن باز: ٨٦٤
شرح العلامة ابن عثيمين: ٨٦٥
شرح العلامة ابن فوزان: ٨٧٧
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٨٨٠
شرح مسائل الباب ٨٨٢
شرح العلامة الدويش: ٨٨٢
الأسئلة ٨٨٤

الدرس الثالث والعشرون:

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ٨٨٦
شرح العلامة ابن قاسم: ٨٨٨
شرح العلامة ابن سعدي: ٨٩٩
شرح العلامة ابن باز: ٨٩٩
شرح العلامة ابن عثيمين: ٩٠٣
شرح العلامة ابن فوزان: ٩٢٦
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٩٣٢

شرح مسائل الباب ٩٤٢
شرح العلامة الدويش: ٩٤٢
الأسئلة ٩٤٥

الدرس الرابع والعشرون:

باب ما جاء في السحر ٩٥٠
شرح العلامة ابن قاسم: ٩٥١
شرح العلامة ابن باز: ٩٥٧
شرح العلامة ابن عثيمين: ٩٦٠
شرح العلامة ابن فوزان: ٩٧٥
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ٩٧٨
شرح مسائل الباب ٩٨٤
شرح العلامة الدويش: ٩٨٤
الأسئلة ٩٨٥

الدرس الخامس والعشرون:

باب بيان شيء من أنواع السحر ٩٨٩
شرح العلامة ابن قاسم: ٩٩٠
شرح العلامة ابن سعدي: ٩٩٦
شرح العلامة ابن باز: ٩٩٧
شرح العلامة ابن عثيمين: ١٠٠٠
شرح العلامة ابن فوزان: ١٠١٠
شرح العلامة صالح آل الشيخ: ١٠١٤
شرح مسائل الباب ١٠٢٠
شرح العلامة الدويش: ١٠٢٠
الأسئلة ١٠٢١
فهرس الجزء الأول ١٠٢٨



ت: ٠١٠٥٤٤٧٩٤٤





موسوعة شاملة في فقه المواريث تشمل جميع أحوال الميراث
من خلال رسائل وشروح وأسئلة وفتاوى نخبة من العلماء

لأصحاب الفضيلة

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

محمد بن صالح العثيمين

صالح بن فوزان الفوزان

فيصل بن عبد العزيز آل مبارك

رشيد بن محمد القيسي

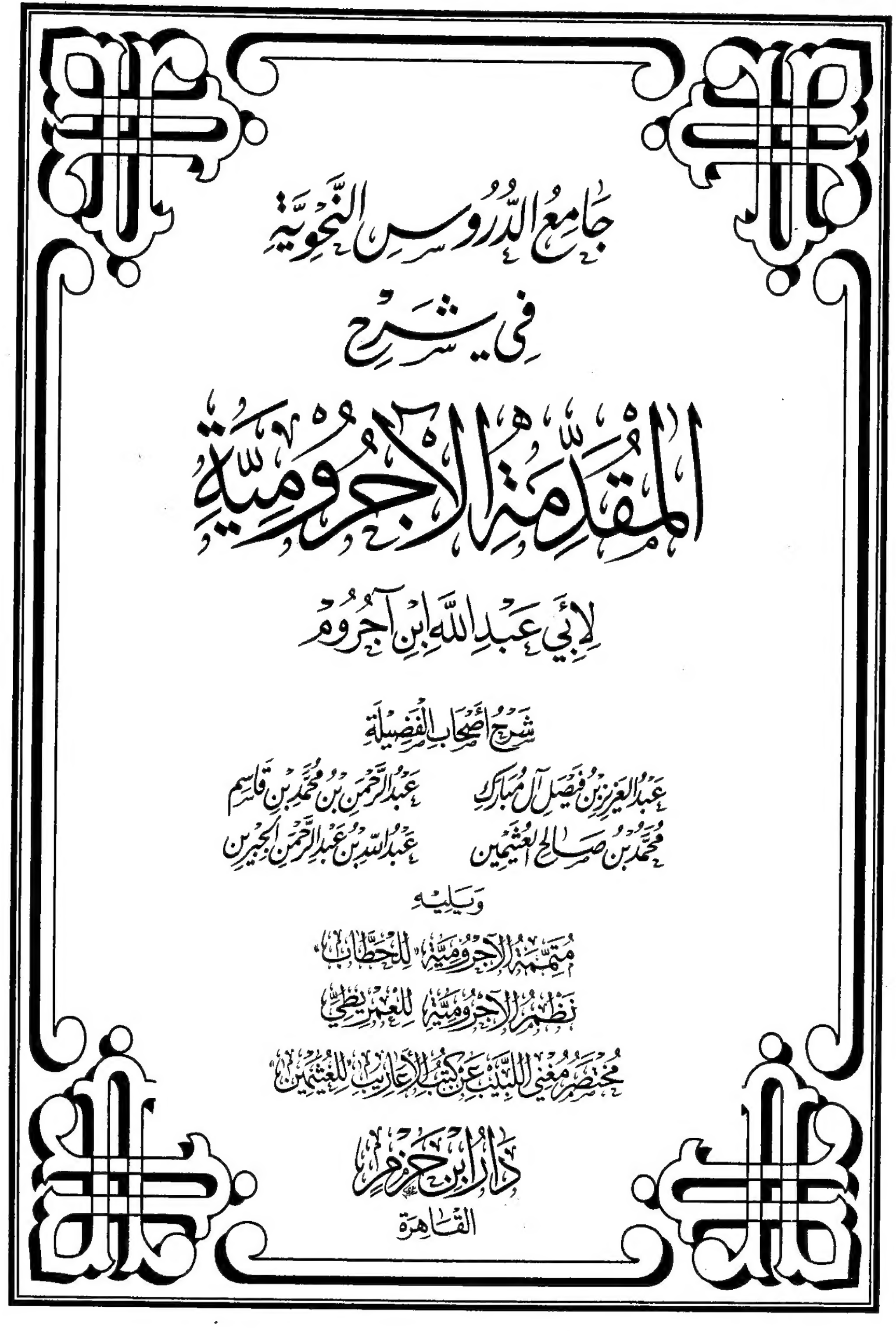
عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

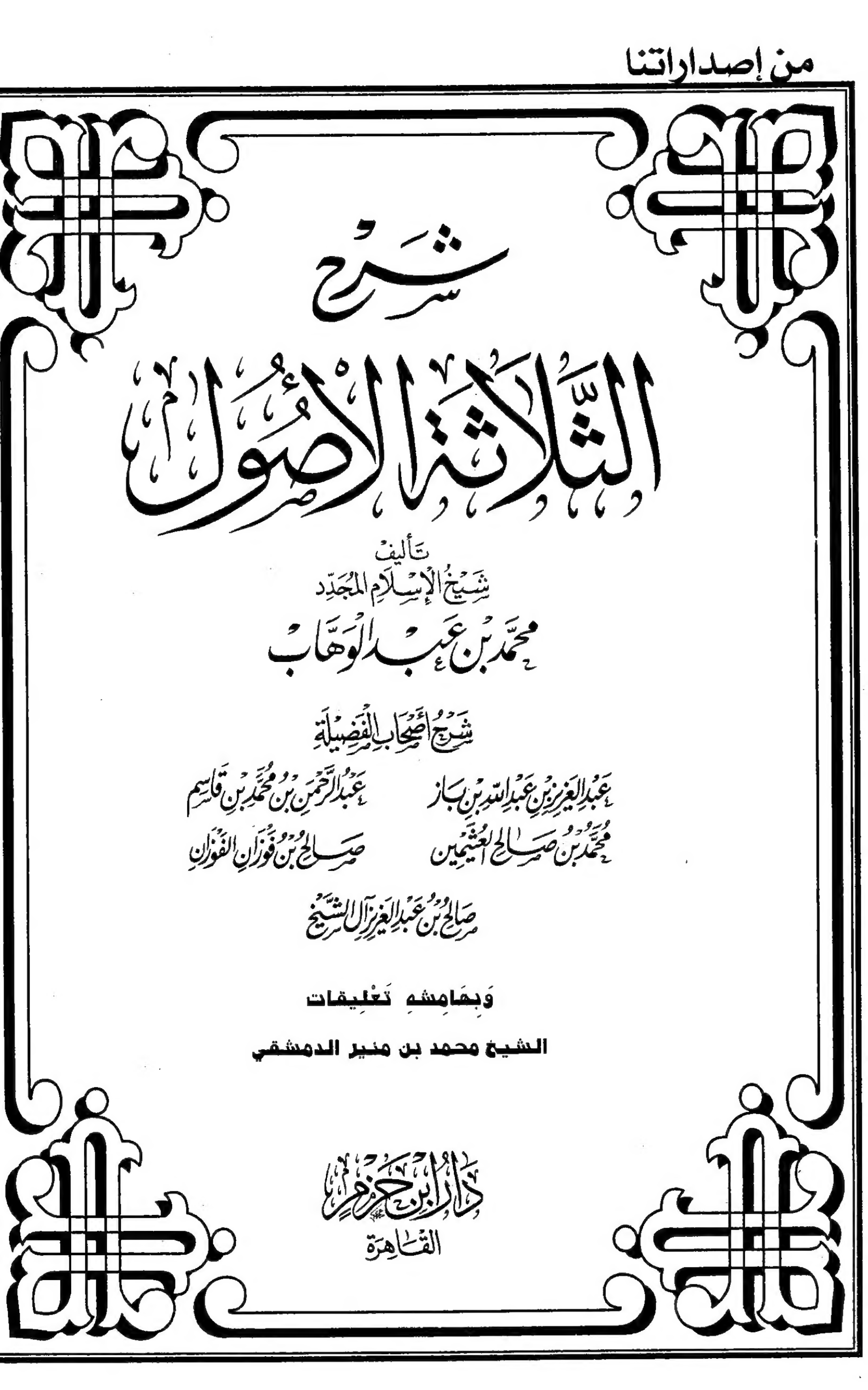
عبد المجيد المغربي

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء



من إصداراتنا





من إصداراتنا
شرح
الثلاثة الأصول
تأليف
شيخ الإسلام المجدد
محمد بن عبد الوهاب
شرح أصحاب الفضيلة
عبد العزيز بن عبد الله بن باز
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم
محمد بن صالح العثيمين
صالح بن فوزان الفوزان
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
وبهامشه تعليقات
الشيخ محمد بن منير الدمشقي
دار ابن حزم
القاهرة